د. فاروق عثمان أباظة

عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر

١٨٣٩ - ١٩١٨



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

تصـــدير

يتناول هذا البحث دراسة أثر وجود البريطانيين فى عدن على سياستهم فى منطقة البحر الأحمر ، فى الفترةالممتدة بين عامى ١٨٣٩ و ١٩١٨ أى منذ احتلالهم لعدن حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

وترجع أهمية هذه الدراسة الى ما تلقيه من ضوء على التوسع الاستعمارى البريطانى فى منطقة البحر الأحمر انطلاقا من عـــدن ، وعلى الدور الذى لعبته شركة الهند الشرقية البريطانية وذلك بالتعاون مع وزارة الخارجية البريطانية فى هذا المجال .

وتعتبر هذه الدراســة حلقة من حلقات التاريخ اليمنى والعربى الحديث والمعاصر ، كمــا انها تمثل حلقة من حلقات تاريخ منطقة البحر الأحمـــر بجانبيها الآسيوى والأفريقى ، فضلا عن كونها حلقة من حلقات دراسة النشاط الاستعمارى الأوربى بوجه عام ، والبريطانى بوجه خاص ، فى المنطقة المذكورة .

ورغم ان موضوع البحث يعتبر من الموضوعات التى تتصفبأنها موضوعات سياسية ، غير انه فى نفس الوقت من الموضوعات التى لا يمكن معالجتها دون اللجوء الى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والاستراتيجية ، التى

تساعد على تفسير هـــذه الأحداث السياسية ، أو بالأحرى التى ترتبط ارتباطا وثيقا بها ، وتكون معها وحدة متكاملة ٠

ونظرا لطول الفترة التى يتناولها موضوع البحث من الناحية الزمنية ، فضلا عن تشعبه واتصاله بجميع شعوب وأقطارحوض البحر الأحمر العربية والافريقية ، وبالقوى الأجنبية المختلفة التى دخلت مع هذه الشـــعوب وتلك الأقطار فى علاقات متشابكة ومتنوعة ، فقد اقتضى الأمر منى ان افكر فى اختيار أفضل منهج يتفق ومعالجة مثل هذا الموضوع ، معالجة علمية صحيحة ٠

وقد رأيت أن أقسمه الى مراحل زمنية قصيرة نسبيا ، تتضمن كل منها فترة محدودة ، وموضوعا فرعيا قائما بذاته ٠ ولهذا لم تكن هذه المراحل متساوية من الناحية الزمنية ، كما لم تكن متساوية أيضا من الناحية الموضوعية ٠ اذ أن هذه المراحل الزمنية ، وتلك الموضـوعات الفرعية ، التى يتشكل منهـا قوام البحث وهيكله والاطار العام له ، ترتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة التطورات ، وبمدى الفترات التى استغرقتها ، للانتقال من مرحلة الى أخرى ٠

وترجع أهمية هذا التقسيم الى انه أتاح الفرصة لتعميق دراسة كل مرحلة على حدة ، مع توضيح جميع نواحيها المختلفة ، وان كان هذا لم يتعارض مع ربط جميع هـذه المراحل بعضـها ببعـض ، بحيث يكون البحث بتقسيماته الزمنية والموضوعية وحدة متكاملة ٠

ولم يكن هـذا بالأمر الذى يخلو من كل صـعوبة ، اذ اننى بذلت جهـدى للتخلص من سطوة المادة التاريخية التى جمعتها ، كما بذلت جهدى أيضا لأحكام السيطرة عليها قدر طاقتى ، حفاظا على وحدة الموضوع وتماسكه ٠

وقد قسمت هذا البحث الى مقدمة وسبعة فصول ، تناولت فى المقدمة دراسة « الملامح العامة المميزة لمنطقة البحر الأحمر ولميناء عدن العربى العام » ٠ دعت الحاجة الى تلك المقدمة لابراز أهمية البحر الأحمر كطريق ملاحى دولى هام بين أوربا وبلاد الشرق من جهة ، وأهمية عدن باعتبارها ميناء بحريا ممتازا يتحكم فى هذا الطريق من جهة أخرى ٠ وهو أمر يساعد كثيرا فى تفسير نقاط البحث ، والتعميق فى تحليل احداثه ٠

وكان طبيعيا أن أتناول فى الفصل الأول دراسة الأوضاع القائمـة فى منطقة البحر الأحمر قبيل احتلال بريطانيا لعدن فى سنة ١٨٣٩ ٠ وتبرز

أهمية هذا الفصل فى التعرف على الجذور التاريخية لنشاط البريطانيين فى منطقة البحر الأحمر ، وتحديد طبيعة هذا النشاط وأساليبه المختلفة عن طريق مقارنته بطبيعة وأساليب نشاط القوى الاستعمارية الأخرى ، التى سبقته وعاصرته فى تلك المنطقة ، مع توضيح موقف القوى الوطنية والقوى الاسلامية المعاصرة ازاءها ٠

وقد تناولت فى الفصل الثانى دراسة موضوع « سيطرة بريطانيا على عدن لرعاية مصالحها فى البحر الأحمر فى سنة ١٨٣٩ » مبتدئا بدراسة دوافع البريطانيين المختلفة لتحقيق ذلك ٠ وكانت بريطانيا قد وجدت لزاما عليها تحقيقا لأهدافها الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ضرورة السيطرة على عدن ، بعد ان أكدت تقارير خبرائها من رجال البحرية الهندية البريطانية ، وتقارير ممثليها فى بلاد الشرق ، والرغبة الملحة لدى حكومة الهند البريطانية ، ضرورة السيطرة على هذا الميناء الحيوى الهام ٠ وكانت دوافعها تتلخص فى استخدام عدن محطة لتموين البواخر البريطانية بالفحم والمياه والمؤن اللازمة ، الى جانب اتخاذها مركزا لوقف توسع محمد على وتصفية نفوذه فى الجزيرة العربية ، حتى لا يهدد طريقى مواصلاتها الى الشرق عبر الخليج العربى والبحر الأحمر ٠ كما كانت بريطانيا تهدف عن طريق سيطرتها على هذا الميناء الى تحطيم احتكار الأمريكيين لتجارة البن اليمنى ، والاستحواذ عليها بوجه خاص ، وعلى التجارة اليمنية بوجه عام ـ هذا فضلا عن اتخاذ عدن قاعدة دفاعية أمامية لمواجهة المنافسة الضارية من قبل روسيا القيصرية التى كانت تسعى للوثوب على المصالح البريطانية عبر ايران من جهة ، ومن قبل فرنسا التى كانت تتسلل لتحقيق غايتها بضرب بريطانيا فى الشرق عبر مصر من جهة أخرى ، هذا فضلا عن مواجهة الدور الذى كانت تلعبه النمسا لكسب بعض مناطق النفوذ فى البحر الأحمر وخليج عدن فى ذلك الحين ٠

ثم تتبعت أساليب الضغط السياسى والحربى التى اتبعها البريطانيون ليمهدوا السبيل لسيطرتهم على عدن ، وعند ما فشلت هذه الأساليب فى تحقيق غايتهم ٠ انتهى بهم الأمر الى السيطرة عليها بالقوة ، فى اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٨٣٩ ، على الرغم من المقاومة الباسلة التى قام بها اليمنيون دفاعا عن مدينتهم ٠

وقد تناولت فى الفصل الثالث دراسة معالم « سياسة البريطانيين فى عدن والمنطقة المحيطة بها عقب الاحتلال فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٦٩ وهو تاريخ فتح قناة السويس » ، موضحا حرص البريطانيين على تدعيم سيطرتهم على مدينة عدن ذاتها ، وتصديهم لكل المشكلات التى واجهتهم ، بكل ما تتميز به السياسة البريطانية من مرونة ودهاء ٠ كما أوضحت كيف اتجهوا بعد ذلك الى الاستفادة من وجودهم فى عدن ، بجعلها مركزا للتوسع ، وقاعدة للانطلاق ،

لبسط النفوذ البريطاني في جنوب الجزيرة العربية من جهة ، وفي حوض البحر الأحمر بجانبيه الآسيوي والافريقي من جهة أخرى • وقد أظهرت كيف فرض عليهم هذا الاتجاه الوقوف في وجه كل المحاولات العربية المحلية التي قاومت وجودهم في المنطقة في بداية الأمر • كما فرض عليهم ذلك أيضا التصدي لأية محاولة تقوم بها أية قوى أجنبية لمنافستهم هناك • وقد حرصت بريطانيا منذ البداية على تصفية النفوذ المصري المجاور لها في تهامة اليمن ، حتى أجبروا المصريين عن طريق السياسة الدولية ، على الخروج من هناك في سنة ١٨٤٠ • كما حرصت بريطانيا على فرض نفوذها على القبائل المجاورة لعدن بجنوبي اليمن ، بكافة الوسائل والأساليب ، مما حقق للبريطانيين حرية الحركة لتحقيق تطلعاتهم الاستعمارية في منطقة البحر الأحمر ، متخذين من عدن نقطة تجمع ، وبرج مراقبة ، ومركز انطلاق •

وقد تناولت في الفصل الرابع دراسة « معالم السياسة البريطانية في البحر الأحمر بعد احتلال عدن في سنة ١٨٣٩ وحتى فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ » موضحا كيف أصبح السبيل ممهدا أمام بريطانيا لتحقيق تطلعاتها الاستعمارية في منطقة البحر الأحمر ، انطلاقا من عدن ، بعد أن دعمت وجودها هناك • وقد أظهرت كيف اصطدم البريطانيون في بداية الأمر بحقوق السيادة العثمانية في المنطقة المذكورة ، وكيف وقفوا موقف الرقيب المنافس لنشاط المصريين على ساحل بلاد العرب من جهة . وعلى طول الساحل الغربي للبحر الأحمر وخليج عدن والساحل الشرقي لأفريقيا من جهة أخرى •

وعلى الرغم من أن البريطانيين في عدن كانوا يرقبون بكل يقظة وحذر التحركات الفرنسية الاستعمارية المنافسة لهم في منطقة البحر الأحمر وخاصة في الحبشة والصومال ، فانهم قد أحسوا بأن التهديد الحقيقي للمصالح البريطانية في المنطقة المذكورة حينذاك كان صادرا عن مصر ، التي اتجهت الى توحيد كل البلاد الواقعة في شمال شرق أفريقيا في كتلة واحدة ، وعمدت الى التوغل في أعالي النيل وهضبة البحيرات الاستوائية ، الى جانب ما كانت تبذل من جهد للامتداد على السواحل الغربية للبحر الأحمر وخليج عدن ، ومواصلة السير جنوبا على الساحل الشرقي لأفريقيا ، هادفة اعطاء هضبة البحيرات مخرجها الطبيعي الى الجنوب من بلاد الصومال ، توطئة للنهوض بتلك المنطقة • بينما كانت المصالح الفرنسية في منطقة البحر الأحمر في معظمها قبيل فتح قناة السويس ، غير رسمية في مظهرها ، فضلا عن انها لم تكن تستند الى قوة كبيرة في ذلك الحين • ومن هنا اتخذ البريطانيون في عدن موقفا معاديا ازاء النشاط المصري هناك ، ولهذا أجبرت بريطانيا مصر — فيما بعد — على قبول المعاهدة البريطانية المصرية بشأن سواحل الصومال في سنة ١٨٧٧ ، ثم عملت على تصفية النفوذ المصري والتخلص منه تدريجيا عقب سيطرتها على مصر في سنة ١٨٨٢ •

وكان على البريطانيين فى عدن فى نفس الوقت ، أن يخوضوا تجارب عديدة مع أهالى البلاد الأصليين فى منطقة البحر الأحمر ، كان أبرزها مع الأحباش فى عامى ١٨٦٧ و ١٨٦٨ ، الذين حرصوا على ان يكون لتجارتهم منفذ طبيعى على البحر الأحمر ، يربطها بحركة التجارة العالمية • وقد استفاد البريطانيون من وجودهم فى عدن عند ما وجهوا حملتهم على الحبشة فى العامين المذكورين ، مما أكد لهم أهمية عدن الاستراتيجية البالغة فى تحقيق تطلعاتهم الاستعمارية فى القارة الافريقية ، فضلا عن أهميتها فى أحكام سيطرتهم على الطريق الملاحى البحرى عبر البحر الأحمر فى ذلك الحين •

أما الفصل الخامس فقد خصصته لدراسة « تطور السياسة البريطانية فى عدن والبحر الأحمر بعد فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ وحتى احتلال بريطانيا لمصر فى سنة ١٨٨٢ » • وقد أوضحت فى بداية هذا الفصل تطور موقف البريطانيين من معارضة مشروع القناة باعتباره مشروعا فرنسيا ، وحتى يتجنبوا اثارة مشاكل بوسفور جديد ، الى الترحيب بهذا المشروع ومحاولة السيطرة عليه بعد انجازه ، وذلك بعد أن تبينوا مدى فائدته للمصالح البريطانية • اذ ان فتح القناة كان له أعمق الأثر على مجريات الاحداث التاريخية فى منطقة البحر الأحمر ، وفى ميناء عدن الهام ، بشكل يبعد عن تصور أى شخص يعاصر تلك الفترة • فقد أدت حملة البريطانيين على الحبشة فى عامى ١٨٦٧ و ١٨٦٨ ، وما أعقبها من فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ، الى تحول نظرة البريطانيين بالنسبة لعدن من اعتبارها مجرد محطة لتزويد السفن البريطانية بكميات الفحم اللازمة لها ، الى الاقتناع الكامل ، لدى جميع الأطراف والمستويات المسئولة ، فى بريطانيا والهند وعدن ، بأهميتها كقاعدة استراتيجية بحرية وعسكرية للبريطانيين فى منطقة البحر الأحمر • وقد عمدت السياسة البريطانية الى السيطرة على مصر والقناة ، باعتبارها المفتاح الشمالى للبحر الأحمر ، فى الوقت الذى احتفظت فيه بسيطرتها المتزايدة على عدن والمنطقة المحيطة بها ، باعتبارها المفتاح الجنوبى لهذا البحر •

وهنا ظهرت الرغبة جامحة لدى الفرنسيين لأن تكون لهم محطة بحرية فى منتصف هذا الطريق ، الذى أصبح أقصر وأسهل طرق للملاحة البحرية ، يصل غرب أوربا بالشرق الأقصى بعد فتح القناة • وكانت فرنسا ترغب فى ان تكون هذه المحطة قاعدة بحرية قائمة بذاتها ، ومستقلة عن القاعدة البريطانية فى عدن ، حتى لا تقع تحت سيطرة بريطانيا ، أو تتعرض لتحكمها اذا ما تأزمت الأمور بين الدولتين • ومن هنا كان شراء فرنسا لميناء أوبوك فى سنة ١٨٦٢ — البداية الأولى لمستعمرة الصومال الفرنسى — من أجل تحقيق تلك الغاية • غير ان الفرنسيين لم يستفيدوا من أوبوك ، الا عند تأزم المسألة المصرية ، بعد احتلال بريطانيا لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، وتدخل السياسة البريطانية فى الشئون المصرية ، واجبارها لحكومة القاهرة على اتخاذ قرار بشأن « ملحقاتها » فى سواحل البحر الأحمر

وخليج عدن حينذاك . ولم يسبق ذلك سوى محاولة الفرنسيين للسيطرة على منطقة « الشيخ سعيد » الواقعة غربى عدن ، والمطلة على مضيق باب المندب من ناحية الشرق سنة ١٨٦٩ . غير ان البريطانيين فى عدن أحبطوا محاولتهم هذه ، حتى لا يتعرض الوجود البريطانى فى جنوب البحر الأحمر لأى خطر .

وفى نفس الوقت انتهز الأتراك العثمانيون فرصة فتح قناة السويس ، التى قربت المسافة بين عاصمتهم وسواحل البحر الأحمر ، مما ساعدهم على احكام قبضتهم على الحجاز . كما وجهوا حملتهم على اليمن ، التى أقامت الحكم العثمانى فى صنعاء من جديد فى سنة ١٨٧٢ ، أى بعد فتح قناة السويس بثلاث سنوات ، ثم زحفت قواتهم جنوبا على مقربة من عدن . وهنا سارع البريطانيون هناك الى عقد معاهدات « الحماية » مع سلاطين وأمراء المنطقة المحيطة بهم فى جنوب اليمن ، ولم يكتفوا بمعاهدات « الصداقة والولاء » التى سبق أن عقدوها معهم عقب احتلال عدن ، بعد أن استنفدت كل أغراضها .

وكان على البريطانيين فى عدن أن يواجهوا أيضا تطلعات الايطاليين التى كانت أنظارهم مسلطة حينذاك على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، منذ أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر . وبعد أن دأبت بريطانيا حتى نهاية السبعينات من القرن المذكور على معارضة اعتداءات الطليان على حقوق مصر فى البحر الأحمر ، فان هذا الموقف لم يلبث أن تبدل فى أوائل الثمانينات من نفس القرن ، وصارت حكومة لندن لا تجد غضاضة فى العمل على تشجيع الطليان ليمدوا نفوذهم الى هناك . ويرجع سبب هذا التغير الى اشتداد المنافسة بين بريطانيا وفرنسا على الاستعمار فى منطقة البحر الأحمر ، وفى القارة الافريقية بوجه عام ، الأمر الذى جعل البريطانيين يصانعون ايطاليا ليحصروا نشاط الفرنسيين المنافس على مقربة من قاعدتهم البريطانية فى عدن فى ذلك الحين .

وقد تناولت فى الفصل السادس دراسة « موقف البريطانيين فى عدن ازاء التنافس الدولى فى منطقة البحر الأحمر فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٨٢ و ١٩١٤ » فاوضحت مدى حرص السلطات البريطانية فى عدن على الاستفادة من الوضع الناتج عن احتلال القوات البريطانية لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، وما أعقب ذلك من تدخل فى شئون السودان والممتلكات المصرية الأخرى فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن . وقد أظهرت أن البريطانيين بعد أن عقدوا معاهدة عدوه مع الأحباش والمصريين فى سنة ١٨٨٤ ، فانهم قد سيطروا على مينائى زيلع وبربرة بعد أن أجلوا المصريين عنهما فى نفس السنة، وعن هررفى السنة التالية . وقد ضمنوا بذلك استمرار تزويد عدن بالمواد الغذائية من الساحل الصومالى المواجه ، والحيلولة دون توغل النفوذ الفرنسى جنوبا على الساحل الشرقى لأفريقيا . هذا فى الوقت الذى وطدوا فيه أيضا

نفوذهم فى السودان بعقد اتفاقية الحكم الثنائى مع مصر فى سنة ١٨٩٩ ، كما تعاطفوا مع أصدقائهم الطليان ، حتى سيطروا على الساحل الغربى للبحر الأحمر الممتد من عصب الى مصوع ، والذى كان تابعا لمصر وعرف فيما بعد بمستعمرة أريتريا فى سنة ١٨٩١ . وكانت بريطانيا تهدف من وراء ذلك — كما سبق أن أوضحت — الى الحيلولة دون امتداد النفوذ الفرنسى المنافس لها والمتمركز فى أوبوك وتاجورة ليسيطر على هذا الساحل ، بينما لم يكن الطليان حينذاك يشكلون خطرا على المصالح البريطانية هناك ، بالقدر الذى كان يشكله الفرنسيون فى ذلك الحين .

أما على الساحل الشرقى للبحر الأحمر فقد حرصت السلطات البريطانية فى عدن على تدعيم علاقاتها مع السلاطين والأمراء فى جنوب اليمن . حتى لا ينحازوا الى جانب الأتراك والعثمانيين فى ولاية اليمن العثمانية ، بل ان هذه السلطات بذلت جهودها لوضع خط للحدود بين منطقتى النفوذ البريطانى والعثمانى هناك ، حتى تؤمن وجودها فى عدن . ونجحت فى تحقيق ذلك فى سنة ١٩١٤ .

وبعد أن توترت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا ووصلت الى ذروتها فى حادثة فاشودة فى سنة ١٨٩٨ ، ثم تحسنت فيما بعد بعقد الاتفاق الودى بين الجانبين فى سنة ١٩٠٤ ، فقد بدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل العلاقات البريطانية الفرنسية انعكست بطبيعة الحال على منطقة البحر الأحمر ، وعلى موقف البريطانيين فى عدن حينذاك . وكان من عوامل توثيق تلك العلاقات بين الجانبين وتدعيمها ظهور المنافسة الألمانية ، وخاصة بعد أن تحالف العثمانيون مع الألمان فى سنة ١٩١٤ . وظهرت خطورة هذا التحالف على المصالح البريطانية فى البحر الأحمر نظرا لوجود القوات العثمانية فى الحجاز واليمن ، على مقربة من القاعدة الحيوية البريطانية الهامة فى عدن فى ذلك الحين .

وقد خصصت الفصل السابع والأخير من هذا البحث لدراسة معالم « السياسة البريطانية فى عدن والبحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى » ، وقد أوضحت فى هذا الفصل كيف ان قيام تلك الحرب فى سنة ١٩١٤ واستمرارها حتى سنة ١٩١٨ قد أحدث تأثيرات عميقة على الأوضاع القائمة فى منطقة البحر الأحمر ، وعلى السياسة التى اتبعتها بريطانيا هناك ، وخاصة فى قاعدتها الهامة فى عدن ، وذلك ازاء الدول الأوربية الصديقة أو المعادية من جهة ، وازاء الدولة العثمانية التى تحالفت مع الألمان من جهة أخرى . وأيضا ازاء القوى المحلية التى كانت تتطلع لنيل استقلالها من جهة ثالثة .

وقد أظهرت كيف أن منطقة البحر الأحمر أصبحت ساحة للصراع بين الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) من جهة ، ودول وسط أوربا (ألمانيا والنمسا والمجر) المتحالفة مع الدولة العثمانية من جهة أخرى ، وان انحصر

الصراع فى المنطقة بالدرجة الأولى بين البريطانيين والعثمانيين على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، فى اليمن والحجاز على السواء · وقد أوضحت كيف لعبت بريطانيا دورا خطيرا للسيطرة على منطقة البحر الأحمر مستفيدة غاية الاستفادة من وجودها فى عدن ، مما ساعدها كثيرا على تنفيذ استراتيجية أدت الى ترجيح كفتها فى هذا الميدان ، بعد أن استقطبت بعض زعماء المنطقة وجذبتهم للوقوف الى جانبها ، أمثال سلطان العبادلة فى لحج ، ومحمد الادريسى فى عسير ، والشريف حسين فى الحجاز على وجه الخصوص · هذا فضلا عن الدور الذى لعبه الأسطول البريطانى فى عدن ، والذى كان يقوم بمهام استراتيجية عديدة ومتنوعة فى البحر الأحمر وخليج عدن فضلا عن بحر العرب والخليج العربى والمحيط الهندى ، طوال سنى الحرب ، مستفيدا من امكانات عدن وموقعها الاستراتيجى الهام ، لتحقيق المصالح البريطانية ، وهو ماتبينته من خلال تقارير المقيمين السياسيين البريطانيين ، وضباط البحرية والمخابرات البريطانية فى عدن ، أثناء فترة الحرب ·

وأخيرا فقد أوضحت كيف تمكنت بريطانيا من تقويض دعائم سلطة الأتراك العثمانيين وسيادتهم ، فى منطقة البحر الأحمر نهائيا ، فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، واستسلمت قواتهم فى سنة ١٩١٨ للمقيم السياسى البريطانى فى عدن ، بعد أن ظلت سلطتهم وسيادتهم قائمتين فى تلك المنطقة ، قرابة أربعة قرون من الزمان ، ما بين فترات قوه فى بعض الأحيان ، وفترات ضعف فى الأحيان الأخرى ، وبذلك تمكنت بريطانيا من تأمين قاعدتها الحيوية فى عدن ، التى كان الأتراك العثمانيون قد هددوها بعد سيطرتهم على منطقة لحج الواقعة فى شمالها مباشرة فى سنة ١٩١٥ · كما أعادت بريطانيا سلطان لحج الى عرشه ، حتى تحفظ ماء وجهها أمام زعماء المنطقة الذين تعهدت لهم بالحماية بما يحفظ ولاءهم لها ، ويؤمن وجودها فى عدن ، وفى منطقة البحر الأحمر على السواء · بل ان بريطانيا انتهزت أيضا فرصة تردد الأتراك فى شمال اليمن ، فى تسليم قواتهم فى نهاية الحرب ، فسارعت بالسيطرة على ميناء الحديدة ، لكى يكون ورقة رابحة فى يدها ، تساوم بها الامام يحيى ، الذى أصبح وريثا شرعيا لحكم العثمانيين فى اليمن ، حتى لا يشكل هو الآخر خطرا جديدا على المصالح البريطانية فى المنطقة المحيطة بعدن ، والتى كان يعتبرها الامام ضمن ممتلكاته ولهذا فقد سلم البريطانيون ميناء الحديدة لقمة سائغة لمنافسة الادريسى ، الذى تعاون معهم فى طرد الأتراك العثمانيين من اليمن ، والذى استمر على ولائه لبريطانيا حتى نهاية عهده ·

وهكذا تمكن البريطانيون من تحقيق أهدافهم فى منطقة البحر الأحمر انطلاقا من وجودهم فى عدن ، التى كانت برج مراقبة ، ومركز تجمع ، وقاعدة انطلاق لتحقيق المصالح البريطانية ، على أهم طريق للمواصلات بين بريطانيا وبلاد الشرق · كما ان المميزات الخطيرة التى انتفعوا بها نتيجة لوجودهم فى

ذلك الميناء الحيوى الهام ، قد زادت من تأكيد أهميته البالغة للمصالح البريطانية ، فى شتى المجالات ، الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ، وبلغ ذلك أقصى مداه — فى فترة البحث — أثناء الحرب العالمية الأولى ٠

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال ، الى زيادة تشبث البريطانيين بوجودهم فى عدن ، وبالبقاء فيها والحفاظ عليها أطول مدة ممكنة ، حتى كانت بالفعل هى آخر نقطة اضطروا للتخلى عنها فى المنطقة المذكورة — على نحو ما حدث فيما بعد فى سنة ١٩٦٧ ، وذلك بعد أن أصبحت ، نتيجة لأهميتها ، — كما ورد على لسان هارولد واتكنسون وزير الدفاع البريطانى فى تصريح له فى شهر مارس سنة ١٩٦٢ — احدى القواعد الثلاث الرئيسية التى اعتمدت عليها الاستراتيجية الحربية لبريطانيا فى العالم ، بينما كانت القاعدتان الأخريان حينذاك فى بريطانيا وسنغافورة ٠

ولا أدل على أهمية عدن العربية فى تاريخنا العربى المعاصر ، من ذلك الدور الذى قامت وتقوم به ، فى استقبال وصيانة وتموين ، القطع البحرية لأسطول مصر العربية ، التى أغلقت مضيق باب المندب فى وجه أية سفن تتجه لأعدائنا الصهاينة فى فلسطين المحتلة ، عبر البحر الأحمر ، أثناء حرب رمضان المجيدة ٠ مما يؤكد أهمية الدور ، الذى يمكن لهذا الميناء العربى الهام ، ان يقدمه ، فى خدمة الاستراتيجية العربية المعاصرة ، وتحقيق أهدافها ٠

* * *

وأجد من واجبى أن أشير بايجاز تام الى مصادر البحث ومستنداته ٠ تلك المصادر التى تميزت بتعدد نوعياتها ، وتباين اهتماماتها ، كما انها ضمت القديم والمعاصر والمستحدث بالنسبة للفترة الزمنية الخاصة بموضوع البحث، ولهذا فقد احتاج كل منها معالجة خاصة عند الرجوع اليه والأخذ عنه ، كما احتاج أيضا كل منها يقظة وحرصا شديدين ، نظرا لاختلاف أجناس كتابها ، وتباين ثقافاتهم وأهدافهم ، وتقديراتهم للأمور ، فضلا عن تنوع لغاتهم ، وأساليب تعبيرهم ، وأوضاع بيئتهم ٠ ورغم ان معالجة هذه المجموعة من المصادر لا تخلو بطبيعة الحال من الصعوبات والمشاق ، الا أننى كنت أستلهم من وراء ذلك قوة لموضوع البحث ، وأصالة لمادته ، وموضوعية لمنهجه ٠ وسوف أشير فيما يلى الى نوعيات المصادر التى اعتمدت عليها فى تقصى الحقائق حول موضوع البحث ٠

فقد اعتمدت على مجموعة من المخطوطات اليمنية ، التى أفادتنى كثيرا فى التعرف على طبيعة الأوضاع القائمة فى عدن ومنطقة البحر الأحمر ، عند وصول أول تيارات المد الاستعمارى الأوربى بصفة عامة ، والبريطانى بصفة خاصة ، فى مطلع العصر الحديث ، وموقف القوى العربية والاسلامية فى مواجهة هذه

التيارات ، عند السواحل الجنوبية للبحر الاحمر وجزيرة العرب ، حيث خط المواجهة الأول مع الغزاة المستعمرين من ناحية الجنوب ٠

كما اننى اعتمدت أيضا على مجموعات من الوثائق القومية بالقاهرة (محفوظات عابدين التى نقلت الى القلعة ، وتنتظر نقلها الى المبنى الجديد بكورنيش النيل) ٠ وقد وجدت الاجابة فيها على التساؤلات المتعلقة بسياسة مصر فى البحر الأحمر ، وموقفها ازاء القوى المحلية والأجنبية ، وخاصة ازاء النشاط البريطانى المنطلق من عدن ، أثناء القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ٠

على أن قوام هذا البحث يرتكز أساسا على الوثائق البريطانية الرسمية ، غير المنشورة والمنشورة ، والمحفوظة أصولها بدار المحفوظات البريطانية العامة ٠ « Public Record Office » وبمكتبة وزارة الهند البريطانية بلندن « India Office Library and Recorder » وهى الوثائق المتعلقة بكل من وزارة الخارجية البريطانية من جهة ، وشركة الهند الشرقية التى تحولت فى سنة ١٨٥٨ الى وزارة الهند البريطانية من جهة أخرى ٠

كما استعنت بمجموعات من وثائق البرلمان البريطانى والبحرية البريطانية ، هذا بالاضافة الى مجموعات من الوثائق الفرنسية ، فضلا عن الوثائق الايطالية والالمانية والاسبانية والتركية المترجمة والتى أتيح لها النشر ، وتتصل اتصالا وثيقا بموضوع البحث ٠

كما أفادتنى كثيرا تلك المجموعة من المصادر المنشورة العربية والأجنبية المتعلقة بموضوع البحث ، وفى مقدمتها الرسائل والبحوث العلمية التى تلقى ضوءا على بعض جوانب الموضوع ، والتى تعالج كثيرا من القضايا بمنهج علمى موضوعى الى حد كبير ٠ كما ضمت الكثير من المؤلفات المعاصرة التى كتبت بأقلام شخصيات عربية وأجنبية ، اشتركت فى صنع الأحداث ، أو اتصلت بها اتصالا وثيقا ، ومن بينها تلك المؤلفات التى كتبها بعض المقيمين السياسيين البريطانيين فى عدن ٠ والتى يغلب عليهم فيها بوضوح ، تحيزهم لأهدافهم الاستعمارية ، مما يستلزم فى معالجتها كل يقظة وحذر ٠ هذا فضلا عن مؤلفات أساتذة التاريخ العرب والأجانب ، وخاصة البريطانيين ، ومنها ما صدر بعد جلاء البريطانيين عن عدن فى سنة ١٩٦٧ ، والأخيرة لا تخلو من تحيز واضح للمصالح البريطانية ٠

ثم كانت كتب الرحالة على اختلاف جنسياتهم ومشاربهم ذات قيمة كبيرة فى توضيح بعض المواقف والمواقع والأحداث ٠ كما كانت الدوريات العربية والأجنبية عاملا مساعدا فى ربط الاحداث بعضها ببعض ، والقاء مزيد من الضوء عليها ، وتوضيح وجهة نظر الرأى العام عنها ، وذلك بعد تخليصها

من نزعات التحيز الى جانب دون آخر ، وتصفيتها من شوائب الاثارة والتهويل • والتهـــويل •

أما بالنسبة لملاحق البحث ، فقد الحقت به ثلاثة ملاحق ، يوضح أولها الهيكل التنظيمى لشركة الهند الشرقية البريطانية ، ويوضــح ثانيها الهيكل التنظيمى لوزارة الهند البريطانية ، بما يظهر صلتهما بعدن وبمنطقة البحـر الأحمر على السواء • أما الملحق الثالث فيوضـح أسـماء وسنى حـكم المقيمين السياسيين البريطانيين الذين توالوا على حكم عدن أثناء فترة البحث •

كما أرفقت بالبحث أيضا أربع خرائط توضيحية لميناء عــدن الحيوى الهـام ، ولابراز موقعـة بين السـويس وبومباى ، ولتوضـيح التقسيمات السياسية الناتجة عن نشاط البريطانيين المنطلق من عـــدن فى منطقة البحر الأحمر أثناء فترة البحث •

وبهذا العرض أكون قد أشرت الى أهمية موضوع البحث ، والمنهج الذى اتبعته فى اعداده ، وفحوى مقدمته وفصوله ، والملامح العامة لمصادره المخطوطة والوثائقية ، والبحوث والمؤلفات المنشورة وكتب الرحالة والدوريات ، فضلا عن توضيح أهميـة الملاحق والخرائط التى رأيت الحاقها بالبحث اسـتكمالا للفـائدة • وقد قدمت هــذا البحث لقســم التاريخ بكلية الآداب بجامعـة الاسكندرية ونلت به درجة الدكتوراه فى الآداب بمـرتبة الشرف فى نهـاية عام ١٩٧٤ •

★ ★ ★

وانه ليشرفنى أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لأستاذى الدكتور محمد محمـود السروجى ، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب بجامعـة الاســكندرية الذى أشرف على أثناء اعدادى لهـذا البحث ، مقدرا توجيهاته السديدة ، وتشجيعه المثمر ، ومتابعته الدقيقة والمستمرة لكل ما توصلت اليه من نتائج ، سواء أثناء وجودى فى مصر أو فى عدن ، حتى أنجزت مهمتى • كما يشرفنى أيضا أن أتوجه بخالص الشكر لأستاذى الدكتور صـلاح الدين العقاد والدكتور السيد رجب حراز أستاذى التاريخ الحـديث والمعاصر بجامعتى عـين شمس والقاهرة اللذين اشتركا مع الأستاذ المشرف فى مناقشـــة هـذا البحث ، مقدرا توجيهاتهما السديدة •

ويهمنى كثيرا أن أنوه بالمسـاعدات العلمية التى تلقيتهـا من أسـاتذة التاريخ بجامعاتنا المصرية ، الذين تفضـــلوا وســمحوا لى بحضور جلساتهم العلمية ، وقدموا لى كل عون لانجـــاز هذا البحث ، وأخـص بالذكر أستاذى الفاضل الدكتور عبد العزيز نوار ، الذى تفضل وساعدنى فى الحصول على مجموعة من مجموعات الوثائق البريطانية المصـورة ، التى اعتمدت عليهـا فى دراستى ، فلسيادته ولأساتذتى الأفاضل خالص شكرى وعميق تقديرى •

كما أتقدم بخالص شكرى وتقديرى لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الشقيقة ، على تفضلها بدعوتى لزيارة عدن شهرى ابريل ومايو سنة ١٩٧٠ ، ضمن بعثة من المتخصصين فى تاريخ اليمن بالجامعات المصرية ، للمشاركة فى وضع خطة لتجميع التراث اليمنى ، وتأسيس مركز للمخطوطات والوثائق فى عدن ، مما ساعدنى على ربط الجانب العلمى النظرى ، بالجانب العلمى الميدانى٠ كما طلبت جمهورية اليمن الديمقراطية من جمهورية مصر العربية ايفادى للعمل محاضرا للتاريخ اليمنى بكلية التربية العليا بجامعة عدن خلال الأعوام الأربعة السابقة ٠ فكان لى شرف الاشتراك مع الاخوة اليمنيين فى وضع أول منهج للتاريخ الوطنى وتدريسه فى اليمن الديمقراطية ، بعد أن كانت مناهج التاريخ هناك مركزة حول تاريخ الامبراطورية البريطانية قبل الاستقلال ٠ بل كان لى أيضا شرف الاشتراك مع الأخوة اليمنيين أثناء تلك الفترة فى أعمال المركز اليمنى للأبحاث الثقافية بعدن الذى يعنى باحياء التراث اليمنى ٠ وقد ساعدنى هذا العمل ، فضلا عن وجودى على مسرح الأحداث التى كتبت عنها — بكل ما يزخر به هذا المسرح من مواقع أثرية ، ومصادر مخطوطة ووثائقية ، وعلاقات انسانية — على التعرف على أشياء ومعلومات ما كنت أحظى بمعرفتها بمثل ما توفر لى ، لو لم تتح لى هذه الفرصة ٠

ولا يفوتنى أن أشكر الاخوة العاملين فى المكتبات الجامعية والعامة بالقاهرة والاسكندرية وبخاصة بدار الكتب المصرية ، وبدار الوثائق القومية ، وبمكتبة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، وبمكتبتى معهد المخطوطات ومعهد الدراسات العربية التابعين لها بالقاهرة ٠ كما أشكر أيضا الأخوة العاملين بالمكتبة العامة بالمكلا ، ومكتبة مسواط بعدن ، وبمكتبة وزارة الثقافة والسياحة باليمن الديمقراطية ٠ فلسيادتهم جميعا ، ولزملائى المهتمين بالدراسات اليمنية ، وللاخوة الأعزاء من أبناء اليمن الشقيق الذين ساعدونى وشجعونى لانجاز بحثى هذا ، ولغيرهم كثيرين ، خالص الشكر والتقدير ٠

وأرجو أن أكون بهذا البحث قد أسهمت ببعض الواجب فى خدمة التاريخ الحديث والمعاصر لمنطقة البحر الأحمر ٠ بجانبيها الآسيوى والأفريقى ، ولليمن الشقيق على وجه الخصوص ٠

والله ولى التوفيق ٬

د ٠ فاروق عثمان أباظة

ABBREVIATIONS بيان المختصرات

— P.R.O.	: Public Record Office.
— F.O.	: Foreign Office Records.
— I.O.L.	: India Office Library and Records.
— E.I.C.	: The East India Company.
— I.B.	: India Board (Ruling body of the East India Company).
— I.O., B.P.S.C.	: India Office, Bombay Political and Secret Consultations.
— I.O., B.S.L. and E.	: India Office, Bombay Secret Letters and Enclosures.
— I.O., L.A.M.	: India Office, Letters from Aden and Muscat.
— I.P., C.R.A.	Indian Papers, Correspondence Relating to Aden.
— C.R.T.P.N.A.	: Correspondence Respecting Turkish Proceedings in the Neighbourhood of Aden.
— F.O., C.R., Ab.	: Foreign Office, Correspondence Respecting Abyssinia.
— P.P.	: Parliamentary Papers.
— H.P.D.	: Hansard's Parliamentary Debates, (Houses of Commons and Lords).
— J.I.H.	: Journal of Indian History
— J.R.G.S.	: Journal of the Royal Geographical Society.
— J.H.C.	: Journal of the House of Commons.
— P.M.G.	: Pall Mall Gazette.
— J.R.C.A.S.	: Journal of the Royal Central Asian Society.
— A.E.	: Ministère des Affaires Etrangères.
— D.D.F.	: Documents Diplomatiques Français.
— F.O.M.	: France Outre-Mer.

المقدمة

الملامح العامة المميزة لمنطقة البحر الأحمر ولميناء عدن الهام

يجدر بي قبل الخوض في موضوع البحث أن أحدد مفهومي لمنطقة البحر الأحمر وصلتها المباشرة بميناء عدن الهام ، وذلك أثناء الفترة الممتدة بين عامي ١٨٣٩ و ١٩١٨ على وجه الخصوص . فهذه المنطقة تشمل الساحل الشرقي الآسيوي لهذا البحر والذي يضم فلسطين والحجاز واليمن ــ بشطريه الشمالي والجنوبي ــ من جهة والساحل الغربي الافريقي الذي يضم مصر والسودان والحبشة والصومال من جهة أخرى . ويحد البحر الأحمر خليجا العقبة والسويس في أقصى الشمال كما يحده مضيق باب المندب المنفتح على خليج عدن ثم على البحر العربي فالمحيط الهندي في أقصى الجنوب .

ويلاحظ أن المنطقة الممتدة من مسقط شرقا الى زنجبار غربا ــ والتي تشكل قاعدة لمثلث تتمثل قمته في برزخ السويس في أقصى الشمال ، فيضم في داخله جزءا من البحر العربي وخليج عدن والبحر الأحمر بساحليه الآسيوي والافريقي ــ تمثل هذه المنطقة الكبرى في مجموعها وحدة حضارية متكاملة في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بوجه عام . ومنذ احتلال البريطانيين لعدن في سنة ١٨٣٩ على وجه الخصوص أصبحت تلك المنطقة ــ أكثر من ذي قبل ــ محل تنافس القوى الكبرى في العالم وموضع اهتمامها ، ذلك الاهتمام الذي بلغ ذروته بعد فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ . (١)

(١) Marston, T.E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area 1800 — 1878, pp. 3-4.

وتبدو أهمية عدن بوضوح بوقوعها فى قلب هذه المنطقة الكبرى مما يجعلها قادرة على التأثير فيها والتأثر بها الى أبعد مدى ممكن • ويفيدنا كثيرا فى هذا البحث التعرف على الامكانات الذاتية للبحر الأحمر كطريق ملاحى دولى هام ، وعلى طبيعة عدن كميناء بحرى ممتاز يتحكم فى هذا الطريق •

أولا – طبيعة البحر الأحمر كطريق ملاحى دولى هام :

يتميز البحر الأحمر بين بحار العالم بموقعه الفريد ، فهو يقع عند التقاء قارات العالم الثلاث افريقيا وآسيا وأوربا ، كما انه يشكل حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية ، ويعتبر الشريان الحيوى الهام للمواصلات بين أوربا وبلاد الشرق بوجه عام • وقد ظل هذا البحر على مدى العصور التاريخية المتعاقبة ، عاملا فعالا لربط البلاد المحيطة به بعضها ببعض ، فهو يشكل طريقا للملاحة البحرية بينها ، ووسيلة تسهل التبادل التجارى والحضارى بين شعوبها • فكان بذلك سببا فى ازدهارها ، كما أنه ظل مطمحا للقوى الكبرى تتطلع دائما للسيطرة عليه لتتحكم فى تجارة الشرق ، وليكون لها السيادة على غيرها •

وقد عرف البحر الأحمر منذ القدم « ببحر القلزم » ويبلغ طوله من رأس محمد شمالا الى باب المندب جنوبا ١٢٠٠ ميل ، ويتراوح عرضه بين ٢٥٠ ميلا فى أوسع أجزائه و ١٣٠ ميلا فى أضيقها • ويعتبر بوغاز باب المندب أضيق جزء فيه ، وهو المضيق الاستراتيجى الهام الذى يتراوح اتساعه بين اثنى عشر ميلا الى أربعة عشر ميلا • (١) أما عن عمق البحر الأحمر فيصل متوسطه الى ١٦٠٠ قدم ، وتناهز أطوال سواحله ثلاثة آلاف ميل ، وتزيد المساحة الاجمالية للبحر الأحمر على ١٦٠ ألف ميل مربع ، وتبلغ جزره حوالى مائة جزيرة بين الصغيرة ومتوسطة الحجم • (٢)

ولم تكن أهمية البحر الأحمر فى العصور القديمة والوسطى بأقل من أهميته العظمى بالنسبة للعالم فى العصر الحديث ، فقد كان البحر الأحمر يمثل طريقا من أهم طرق التجارة العالمية فى تلك العصور • ولم يكن يضعف من أهميته هذه وجود تلك الطرق البرية المحيطة به والتى كانت تصل بين الشرق والغرب • وانما كانت تبرز هذه الأهمية تماما حينما تتدهور تلك الطرق ، بينما يظل البحر الأحمر يعج بالحركة والنشاط على مر السنين •

على أن دور البحر الأحمر لم يقتصر على توصيل تجارة ومنتجات الهند والصين وبقية بلاد الشرق الاقصى الى بلاد الشرق الأدنى فحسب ، بل لقد أصبح الممر التجارى الرئيسى لتموين العالم الأوربى بكل ما يلزمه من هذه

(١) Crichton, A. : History of Arabia, Ancient and Modern, Vol. I, p. 74.

(٢) Marston, T. E. : Op. cit., pp. 4, 10.

التجـــارة وتلك المنتجات • وأثر ذلك بالتالى على بلاد الشرق الادنى وأهـــالى هذه المنطقة الذين جنوا ثروات طائلة من العمل فى هذه التجارة ، ومن فرضهم للضرائب عليها عند مرورها فى أراضيهم • فظهر الازدهار فى هذه المنطقـــــة وانتعشت حضاريا حتى أصبحت أكثر مناطق العالم ازدهارا ورفاهية فى تلك العصور •

وكانت التجارة الشرقية تتميز بمكانتها الخاصة لدى العـــــالم الأوربى الذى كان ينتظرها بشغف شديد • (١) ويرجع ذلك فى الحقيقة لطبيعة التجارة الشرقية ذاتها التى ظلت حتى القرن التاسع عشر تفى بحاجات الطبقة الراقية فى أوربا مما جعلها تحتفظ بقيمتها العالية • ورغم الخســـائر الجسيمة التى كانت تتعرض لها هذه التجارة أثناء نقلها عبر الطريق البرى الطويل نتيجـــــة لغرق السفن أو تعرضها لعدوان القراصنة ، الى جانب الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليها فى الموانى العديدة التى تمر بهـــا ، فان القليل الذى كان يتبقى من تلك التجارة بعد اجتيازه لكل هذه المخاطر والاعباء كان يحقق ربحـا لا بأس به للتجار فى أوربا ، مما جعلهم يحرصون على دوام الاتصال مع بلدان الشرق مصدر هذه التجارة الرائجة والمربحة فى نفس الوقت •

حدث ذلك على الرغم من أن الملاحة فى البحر الأحمر لم تكن هينة سهلة نظرا لكثرة الشعاب المرجانية فيه • ويزداد خطر الملاحة فى هـــذا البحر مع انتشار هذه الشعاب خصوصا اذا كانت تحت سطح الماء وقريبة منه • فمنـــذ القدم تسربت أحياء المحيطين الهندى والهادى الى البحر الأحمر عن طريق بوغاز باب المندب الضيق والضحل نسبيا • وقد صادفت تلك الاحياء فى مياه البحر الأحمر الدافئة مرتعا خصبا وبيئة صالحة لنموها ، فانتشرت فيها شـمالا ، وتجاوزت فى ذلك حدا لم تبلغه فى البحار الأخرى ، وكان من أهم هذه الأحياء جيوان مرجان الشعب • ويعد البحر الأحمر من أكبر المناطق التى تتميز بنمو المرجانيات فى العالم ، ففيه تمتد الشعاب الشـــاطئية والحواجز المرجانيـــة لمسافة تبلغ نحو ١٣٦٠ كيلو مترا على كل ما جانبيه الشرقى والغربى • (٢)

وتمتد الشعاب المرجانية فى البحر الأحمر على شكل أشرطة طويلةموازية للساحل ، وقد تتصل به فى كثير من جهاته فتبدو كافريز مستو يلازم الشاطىء لعدة أميال ، وينقطع استمراره عند مصبات الأودية فقط • وقد تظهـــــر الشعاب أحيانا فى وقت الجـــزر فوق سطح الماء ويستمر ظهورها كذلك حتى طرفها المواجه للبحر ، والذى يتميز بشدة انحداره • ولكن غالبا ما توجـــــد

(١) Journal of Indian History, II, The Growth of British Interest in the route to India, an essay by H.L. Hoskins, Tufts Coll., Mass., U.S.A., pj. 165.
(٢) Grossland, C. : Some Coral Formations, P.M.B.S., Gharadaga, No. 1, p. 21.

هذه الشعاب مختفية تحت سطح الماء ، وتكون أحيانا على عمق متر ونصف. ويطلق بعض العلماء على مثل هذه الشعاب اسم « الهضبة المرجانيه » (١) . غير أن هذه الشعاب لا تكون هضبة مستمرة ، أو كتلة مندمجة من الحجر الجيرى، وانما هى تيه ملىء بالتجاويف والحفر والكهوف والاحواض العميقة ، وتبدو كلها كمتحف يحفل بالأحياء المختلفة ذات الألوان البراقة الجميلة .

ومن الشعاب المرجانية الموجودة بالبحر الأحمر تلك الشعاب التى تمتد على مقربة من الساحل وتفصل بينها قنوات عميقة نسبيا تصلح لملاحة السفن الصغيرة بشرط معرفة الظروف المحلية لمثل هذه المناطق . وقد يوجد كثير من الشعاب المنعزلة التى تقع على مسافة كبيرة من خط الساحل أو فى عرض البحر ، وتكون جزرا مرجانية كما هو الحال فى بعض جهات خليج السويس وقرب مدخله ، وفى شرق منطقة الغردقة . وفى كل هذه الجهات تظهر كثير من الجزر الصغيرة والبقاع الضحلة ، وهى فى جملتها تشكل خطرا واضحا على الملاحة ، ومع ذلك فيمكن رؤيتها بسهولة تبعا لصفاء المياه وسطوع الشمس على البحر الأحمر معظم أيام السنة . (٢)

ومما يجنب السفن أخطار هذه الشعاب القائمة فى طرق الملاحة ، أن المياه خارج هذه الشعاب تكون غالبا ذات لون أبيض . وذلك بسبب تقلب الرمال المرجانية البيضاء اللون بفضل تيارات المد أو الرياح القوية ، وغالبا ما تشير هذه المياه البيضاء اللون الى وجود شعاب بجوارها (٣) وبذلك يمكن تفاديها اذا راعى الملاحون ذلك .

ولم تكن الشعاب المرجانية وحدها هى التى تشكل صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر ، بل ان ارتفاع درجة الحرارة فيه ، وزيادة نسبة الرطوبة وتأثير ذلك على سواحله ، من الأسباب التى لم تجعل الملاحة فيه سهلة هينة . فالبحر الأحمر يخترق مناطق تختلف فيها تيارات الهواء ، ومعظم هذه المناطق صحراوى يتميز بالجفاف وخصوصا فى الشمال . ولهذا البحر بعض الخصائص التى تميزه عن غيره من البحار ، فليس هناك أنهار تصب فيه ، وحتى المياه التى تنصرف اليه ليست ذات قيمة تذكر ، كما أن كميات البخر من سطحه تزيد كثيرا على ما يتساقط فيه من أمطار . وهو بصفة عامة حار جدا فى كل فصول السنة ، اذ تبلغ درجة حرارة سطحه فى الشتاء (خلال شهر يناير)

---

(١) Barron, T : and Hume, W.F. : Topography and geology of the Eastern Desert of Egypt, pp. 135, 137.

(٢) محمد محمد احمد سطيحة (دكتور) : المراكز العمرانية على ساحل البحر الاحمر فى اقليم مصر والعوامل الجغرافية التى اثرت فيها ، رسالة ماجستير قدمت لكلية الاداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦١ ، ص ١٠ .

(٣) The Hydrographic Department, Admiralty, «Red Sea and Gulf of Aden Pilot», London 1955, p. 10.

٥ر٢٢° م فى الشمال و ٦ر٢٥° م فى الجنوب ، أما فى الصيف (خلال شهر يوليو) فتبلغ ٧ر٢٦° م ، و ٧ر٣١° م بنفس الترتيب (١) ٠

على أن تأثير البحر الأحمر على مناخ سواحله يكون أكثر وضوحا فى فصل الشتاء عنه فى فصل الصيف ، ومع ذلك فان لمياهه فى هذا الفصل الأخير تأثيرا ملطفا على سواحله الصحراوية التى تكون شديدة الحرارة ٠ونظرا لطبيعة اتساعه الضيق ، وما يحده من مرتفعات على كلا جانبيه ، فان تأثيره محليا ومحدودا للغاية ، ولهذا فان البحر الأحمر يكون وسواحله منطقة مناخية متميزة ٠ ويلاحظ أن الشتاء على طول سواحله أدفا دائما من الجهات الداخلية ، كما يلاحظ أن متوسط درجة الحرارة فى السهول الساحلية يرتفع فى كل شهور السنة كما هو الحال فى منطقة تهامة على الساحل اليمنى ٠ على أنه تستثنى من ذلك الجهات الساحلية التى تقع الى الشمال من خط عرض ٢٦° م شمالا (شمال القصير) التى تتمتع بجو معتدل نسبيا فى فصل الشتاء ٠ (٢) أما الى الجنوب من هذا الخط فتزداد درجات الحرارة بسترعة ٠(٣) ويمتاز فصل الصيف برطوبته الدائمة فى الجهات الساحلية على طول البحر الأحمر ٠ ولرطوبة سواحل هذا البحر تأثير واضح على درجات الحرارة ، فهى تحول دون انخفاضها كثيرا فى فصل الشتاء ٠ وتبلغ الرطوبة النسبيةأقصاها فى شهور الصيف والخريف ، وأدناها فى أواخر الشتاء ٠ أما فوق الأرض اليابسة فتقل الرطوبة النسبية ٠ (٤) ٠

واذا كانت الشعاب المرجانية ، وارتفاع درجة الحرارة ، وزيادة نسبة الرطوبة فى البحر الأحمر هى الأمور التى تجعل الملاحة فيه غير هينة ، فانه يضاف اليها أيضا الفقر الشديد فى موارد المياه العذبة على طول الشريط الساحلى لهذا البحر ٠ فالموارد الطبيعية الممكنة تبدو فىمسارى مياه الوديان الكبيرة المنحدرة من الجبال الداخلية ٠ ومع وجود هذه المياه الا أن مقدارها ضئيل جدا تبعا لندرة سقوط الامطار كما عرفت مياه البحر الأحمر بأنها أكثر ملوحة من مياه المحيط الهندى (٥) ولهذا كانت سواحل البحر الأحمر عبارة

---

(١) Kindrew, W.G. : The Climates of the Continents, p. 15.

(٢) سعد كامل (دكتور) وسليم انطون مرقص (دكتور) : الكشف العلمى للمحيط الهندى فى سنة ١٩٦٢ ، ص ٣٤ ٠

(٣) The Hydrographic Department, Admiralty, «Red Sea and Gulf of Aden Pilot», London 1955, p. 36.

(٤) محمد محمد احمد سطيحة (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٦ — ٣٠ ٠

(٥) سعد كامل الوكيل (دكتور) وسليم انطون مرقص (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٣٣ ٠

عن مناطق صحراوية مقفرة لا تجذب الاستقرار البشرى مما يؤثر كثيرا على حركة الملاحة فيه ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد شهدت سواحل البحر الاحمر قيام موانىء عديدة خلال العصور التاريخية المختلفة ، ازدهر بعضها لفتـــرة طويلة من الزمن ، واستمر بعضها الآخر قائما حتى الوقت الحاضر ، رغم وجودها فى منـــاطق صحراوية ليس فيها من الامكانيات المحلية ما تكفل لمثل هذه الموانىء أن تنشـأ أو تستمر ، ولكنها قامت كهمزة وصل على طريق تجارى عالمى هام ٠ ولم تكن هذه المراكز تأتى مصادفة أو عرضا ، وانما كانت تتحكم فى مواقعها ومواضعها العوامل الجغرافية الطبيعية فى المقام الأول ثم العوامل البشرية بعد ذلك ٠ وقد كانت أهمية هذه العوامل الجغرافية تتغير تبعا للظروف الاقتصادية والسياسية والتاريخية ولتطور الحياة نفسها على مدار الزمن بوجه عام ٠ (١)

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الملاحة فى البحر الأحمر كانت مغـــامرة خطرة محفوفة بالكثير من الصعاب منذ أقدم العصور نظرا لكثرة شعابـــه المرجانية ، وشدة رياحه الشمالية ، وارتفاع درجة حرارته ، وزيادة نســـبة الرطوبة فيه ، وارتفاع نسبة ملوحة مياهه ، ثم جدب سواحله ، وندرة موانيه ٠ وعلى الرغم من ذلك فقد ظل البحر الاحمر يؤدى مهمته كممر ملاحى بحـــرى دولى هام يربط البحار الشرقية بالبحار الغربية ، ويقوم بدوره كطريق من أهم طرق التجارة العالمية ، وشريـــان رئيسى لتموين العالم الأوربى بالتجـــارة الشرقية ٠

وتجدر الاشـــارة الى أن طريق البحر الأحمر كان يفضـــل طريق الخليج العربى من حيث قصر المسافة ، اذ كانت الصعوبة فى طـريق الخليج العـــربى تتمثل فى الرحلة البرية القاسية التى كانت تقطعها قوافل التجارة من أعالى دجلة والفرات الى حلب ومنها الى موانى البحر المتوسط ٠ والى جانب ذلك فان الملاحة فى الخليج العربى كانت تتعرض لأخطار القرصنة التى اشـــتهرت بهـا القبائل العربية والفارسية التى تسكن سواحله ، فضلا عن شدة الحرارة وسوء الأحوال الصحية فى أجزاء كثيرة منه ٠ ومع ذلك فقد أصبح الخليج العربى منافسا خطيرا لطريق البحر الأحمر حتى بلغت تجارته مع الهند فى العصـــور الحديثة ثلاثة أضعاف تجارة البحر الأحمر فى بعض الأحيان (٢) ٠ وكان يستخدم طريق الخليج العربى فى الأوقات التى كانت تحول الصعوبات السياسية أثنـاءها دون استخدام الطريق الآخر ٠ ولهذا استخدم الخليج عندما كانت الدولة العثمانيـــة لا تسمح للسفن التجارية الأجنبية بالملاحة الى الشمال من جدة ، وحينما أغلق

---

(١) محمد محمد أحمد سطيحة (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٩ ٠

(٢) Andrew, W.P. : The Euphrates Valley Railway, Letters Addressed to Her Majesty's Secretaries of State for Foreign Affairs and for India. pp. 20, 21.

طريق البحر الأحمر فى سنوات الحملة الفرنسية على مصر ، وفى بعض سنوات من فترة حكم محمد على (١) • واذا كان استخدام طريق راس الرجاء الصـــالح فى مطلع العصور الحديثة قد قلل من أهمية طريق البحر الاحمر والخليج العربى، فان حفر قناة السويس بالنسبة للبحر الأحمر ، واكتشاف البترول بالنســـبة للخليج العربى (٢) قد أعاد لهذين الطريقين أهميتهما البالغة بصـــورة أكثـر فعالية عما كانت عليه من قبل ، وان كان طريق البحر الاحمر قد تفوق على طريق الخليج العربى لما توفره القناة من اتصال بحرى مباشر بين أوربا وبلاد الشرق•

على أن الدور الذى لعبته عدن فى تاريخ البحرالأحمر يستلزم بالضرورة التعرف على طبيعتها كميناء بحرى ممتاز على طريق هذا البحر ، مما جعل القوى الكبرى ذات المصالح الاقتصادية فى تجارة الشرق تحرص على الاســـتفادة من عدن أبلغ فائدة ، وعلى رأس هذه القوى الامبراطورية البريطانية ، الأمر الذى سنتبينه على مدار البحث •

ثانيا ــ طبيعة عدن كميناء بحرى ممتاز على طريق البحر الأحمر :

ارتبط تاريخ عدن بتاريخ البحر الاحمر ، الشريان الهام للمواصـــلات الدولية بين الشرق والغرب ، فهى بحكم موقعها الممتاز تسيطر على مدخله الجنوبى وتتحكم فيـــه ، ولذلك عرفت لدى الـكثيرين بأنهـــا جبـــل طارق الشرق « The Gibraltar of the East » (٣) ، كما ارتبط تاريخ عـــدن أيضـــا بتاريخ الركن الجنوبى الغربى للجزيرة العربية ، وبتاريخ اليمن التى تغطى هـذا الركن وتمتد من جنوب نجد والحجاز فى الشمال الى البحر العربى فى الجنوب ، ومن حدود عمان والربع الخالى شرقا الى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا (٤) • وهى الحدود الأصلية لليمن الطبيعية •

---

(١) عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ ــ ١٨٤٠ ، ص ٥٣
وقد أشار الدكتور البطريق الى حرص انجلترا على طريقى البحر الاحمر والخليج العربى بقوله :

« لعل التقرير الذى رفعه الماريشال دى كاسترى De Castrie وزير البحرية الفرنسية الى الملك لويس السادس عشر هو الذى جعل انجلترا تحرص على هذين الطريقين ، فقد قال دى كاسترى : ان البحر الاحمر والخليج الفارسى يشبهان ذراعين مدتهما الطبيعة لوصل الهند باوربا

(٢) جمال زكريا قاسم (دكتور) : الخليج العربى ــ دراســة لتاريخ الامارات العربيــة (١٨٤٠ ــ ١٩١٤) ، ص ٤ ــ ٥ •

(٣) عرف « اللورد فالنتيا » عدن بأنها «جبل طارق الشرق» فى أكثر من موضع فى كتابه :
Lord Valentia : Voyages and travels to India, Ceylon, the Red Sea, Abyssinia and Egypt 1802 — 1806, 3 vols, London 1809.

وقد أشار الى ذلك « جوردون وترفيلد » فى كتابه « سلاطين عدن »
Waterfield, Gordon : Sultans of Aden, p. 25.

(٤) الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ، ص ٥١ •

وقد استمر هذا الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية عرضة لتغييرات متتابعة نتيجة لما كان يحدث فيه من اضطرابات داخلية ، وما طرأ عليه من مؤثرات خارجية • وكانت عدن مركزا للسيطرة على هذا الجزء كله ، مما جعلها أول نقطة يحرص الفاتحون الجدد على الاستيلاء عليها والتحصن فيها • كما كانت آخر نقطة يحرص المغلوب على التشبث بها والدفاع عنها حتى يضطر لتسليمها اذا فرضت عليه المقادير ذلك (١) • وقد عرفت عدن أيضا بأنها عين اليمن The Eye of Yemen ، لأنها تعتبر أهم منفذ طبيعي لها على بحر العرب والمحيط الهندي (٢) ، فضلا عن تحكمها في طريق البحر الأحمر •

على أن مابلغته عدن من الأهمية عائد أصلا الى ميزاتها الطبيعية اذ تقع شبه جزيرة عدن (٣) على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية على خط العرض ٤٧/١٢° شمالا ، وخط الطول ١٠/٤٥° شرقا (٤) • وتبلغ المسافة بينها وبين بوغاز باب المندب مائة وعشرة أميال شرقي البوغاز (٥) ، وهي بذلك تتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر •

ورأس عدن الداخلة في بحر العرب عبارة عن بركان قديم يبلغ ارتفاعه حوالى ٣٣٥ مترا فوق مستوى سطح البحر (٦) • ويمتد هذا الرأس الى داخل البحر مبتعدا عن الساحل بنحو خمسة أميال ، ويوصل بينهما برزخ « خور مكسر » الذي يشكل منخفضا رمليا والذي يبلغ عرضه في المتوسط نحو ٣٥٠ قدما • ورأس عدن في دخولها تجاه البحر تصنع خليجين عميقين يشكلان بدورهما ميناءين صالحين لرسو السفن ويقع احدهما في الشرق والآخر في الغرب (٧) • وتبلغ مساحة منطقة عدن ٢٠٧ كيلومتر مربع (٨) •

أما مدينة عدن القديمة فانها تطل على الميناء الشرقية مباشرة وتحتل الجزء الشرقي من شبه جزيرة عدن التي تعرف برأس عدن (٩) • وقد بنيت

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن عام ١٥٣٨ ، رسالة ماجستير ؛ قدمت لكلية الاداب بجامعة القاهرة في سنة ١٩٥٤ ، ص ١٠ •

(٢) Graham, G.S. : Great Britain in the India Ocean, A study of Maritime Enterprise, 1810-1850, p. 282.

(٣) احمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ١٦ – ٢١ •

(٤) حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص ٢٥٣ •
— Hunter, F.M. : An account of the British settlement at Aden, p. 1.

(٥) The Encyclopaedia Britanica, 1960, p. 158.
The Encyclopaedia Americana, 1962, p. 135.

(٦) Crichton, A. : op. cit., Vol 1. p. 38.

(٧) Graham, G.S. : Op. cit., p. 285.

(٨) الموسوعة العربية الميسرة ، باشراف الاستاذ محمد شفيق غربال ، ص ١٩١ •

(٩) Ingrams, H. : Arabia and the Isles, pp. 84, 88.

المدينة على حافة فوهة بركانية عرفت فيما بعد باسمها باللغة الانجليزية « كريتر Crater » (١) وبهذا الاسم يعرف أحد أحياء مدينة عدن الحالية (٢) · ويتميز موقع المدينة بارتفاعه وبحصانته الطبيعية ، اذ تحيط به وتحميه مجموعة جبال شاهقة شديدة الانحدار ناحية البحر وتكون حاجزا طبيعيا عجيبا · ولهذا تبدو المدينة بين آكام آخذة بعضها برقاب بعض من جميع الجهات ، ثم تنحدر فجأة تجاه البحر (٣) · وقد وصفت هذه الجبال بأنها تشبه أسنان سمك القرش وهى بارزة من مياه البحر ، وتتميز بلونها البنى القاتم الممتزج باللونين الأسود والأحمر القانى (٤) ·

وقد استحدثت بمدينة عدن الحالية منذ حوالى قرن من الزمان عدة أحياء جديدة منها حى « المعلا » الواقع غربى مدينة عدن القديمة · وهو فى منتصف الطريق بينها وبين حى جديد آخر هو « التواهى » · ويقع حى « التواهى » غربى عدن أيضا عند السفح الغربى لجبل شمسان الذى يبلغ ارتفاعه ٥٦٥ مترا تقريبا فوق مستوى سطح البحر (٥) · أما الجزء الساحلى الذى يواجه خليج « التواهى » فيسمى « الهلال » لأن شكله يشبه الهلال · ويوجد حاليا على الشريط الساحلى لحى « المعلا » مرفأ كبير تنقل اليه البضائع من البواخر المختلفة حيث تتوفر هناك مخازن كبيرة ومستودعات ضخمة (٦) ·

ويصل برزخ « خور مكسر » بين شبه جزيرة عدن ومدينة « الشيخ عثمان » التى تقع على بعد عشرة أميال شمالى عدن (٧) · أما « الحسوة » فهى قرية صغيرة تقع على مقربة من ساحل خليج عدن الغربى ، بينما تقع قريتا « العماد » و « بئر جابر » على حدود مدينة عدن من الناحية الداخلية ، كما تجاورهما قرية « بئر ناصر » الواقعة بين مدينة « الشيخ عثمان » ومنطقة لحج والتى تعد مصدرا لما تحتاجه عدن من مياه الشرب (٨) ·

---

(١) The Encyclopaedia Britannica, p. 158.

(٢) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : المصدر السابق ؛ ص ٢١ ·

(٣) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، العدد الاول، مارس ١٩٦٩ ، مقال بقلم الاستاذ محمد رفعت بعنوان : سباق بين مصر وبريطانيا على عدن عام ١٨٣٨ ، ص ٢١٠ ·

(٤) قرأت هذا الوصف على احدى الصور المحفوظة بمكتبة وزارة الثقافة والسياحة بعدن، وقد كتبه Mr. W.H. Russell احد رجال حكومة الهند البريطانية ، والصورة منقولة عن مجلة The Illustrated London News فى مقال نشرته عن The British Station of Aden ولم يذكر تاريخ صدور هذا العدد من المجلة أو رقم العدد ، غير ان هذا الوصف مطابق للحقيقة من واقع مشاهدتى الفعلية للمنطقة .

(٥) Waterfield, G. : op. cit., p. 25.

(٦) أنور الرفاعى وبسام كرد على : جزيرة العرب جغرافيا ، ص ٦٧ .

(٧) Hunter, F.M., op. cit., pp. 1, 2.
The Encyclopaedia Britanica, p. 159.

(٨) George, H.B. : A Historical Geography of the British Empire, Seventh Edition, pp. 123, 124.

وتقع غربى عدن شبه جزيرة تعرف باسم « عدن الصغرى » (١) ويطلق عليها اسم « البريقة » ويربطها بعدن الأصلية ساحل رملى منخفض مقفر (٢) ، وتصنع رأس عدن فى الشرق مع شبه جزيرة عدن الصغرى فى الغرب ميناء واسعة وعميقة هى الميناء الغربية ، التى تحميها جوانبها فى الشرق والشمال والغرب من الرياح التى تهب على المنطقة فى جميع فصول السنة ، ومن أمواج البحر الهائلة التى تفور فى الميناء الشرقية أثناء هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية بصفة خاصة ٠ ولهذا فضلت الميناء الغربية على الميناء الشرقية فى الفترة الممتدة من أواخر شهر سبتمبر حتى أواخر شهر مايو على وجه الخصوص ٠ بل ان الميناء الغربية صالحة للملاحة طوال العام وخاصة للسفن التى لا يزيد عمق غاطسها عن عشرين قدما تحت مستوى سطح البحر (٣) ٠ وتنفتح تلك الميناء الغربية لعدن من الجنوب عن طريق قناة طبيعية عميقة على مياه المحيط الهندى (٤) بحيث تجد السفن التى تمخر عباب هذا المحيط الملجأ الطبيعى الممتاز فى تلك الميناء الذى حصنته الطبيعة ووهبته أفضل المميزات (٥) ٠

وتجدر الاشارة الى أهمية جزيرة « صيره » ذات الموقع الاستراتيجى الهام المواجه لرأس عدن من ناحية الشرق مما كان يجعلها قادرة على حراسة الميناء الشرقية ٠ ويبلغ ارتفاع هذه الجزيرة ٤٣٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وخاصة فى نهايتها الجنوبية ، الأمر الذى يتيح لها أن تتحكم فى مدينة عدن نفسها وفى الخليج الشرقى على السواء (٦) ٠ وقد ترتب على ذلك أن أصبحت الجزيرة هدفا استراتيجيا حتم على القوى التى أرادت أن تغزو عدن عن طريق البحر أن تسيطر عليها على نحو ما حدث عند غزو البريطانيين لعدن فى سنة ١٨٣٩ ٠

ويمكننا التعرف على حالة ميناء عدن فيما قبل العصور الحديثة من خلال ما ذكره العبدلى فى كتابه الذى جاء فيه أن بعض المؤرخين الأجانب أكدوا أن مدينة عدن قد زهت بتجارتها فى عهد الرومان ، وكانت مركزا تجاريا هاما تلتقى فيه تجارة الشرق والغرب ، مما جعلهم يطلقون عليها حينذاك أنها « مخزن الرومان » Romanium Emporium (٧) ٠ كما أشار العبدلى الى أن عدن سميت باسمها هذا نتيجة للعدون اليها ، أى لأنها كانت دار اقامة واستقرار

---

(١) The Encyclopaedia Britanica, p. 158.

(٢) لجنة الجغرافية لمعارف عدن : جغرافية عدن وبلاد العرب ، ص ٣٧ ٠

(٣) وقد بنيت على ساحل الخليج الغربى لعدن قبل الاستقلال مدينة أطلق عليها اسم « مدينة الاتحاد » وتعرف حاليا « بمدينة الشعب » ، كما أنشىء أيضا طريق مرصوف يبلغ طوله عشرين ميلا ليربط « عدن الصغرى » بمدينة « عدن الأصلية » ٠

(٤) Graham, G.S. op. cit., p. 285.

(٥) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 64.

(٦) Waterfield, G. : op. cit., p. 25.

(٧) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٧ ٠

تبعا لما تتمتع به من مميزات كثيرة ، وان كان قد أورد قول الطبرى بان عـــدن وأبين هما ابنا عدنان ، وان ذلك هو الأصل الذى أخذت عنه تلك التسمية (١) .

بل ان الدول الاسلامية التى استقلت بحكم اليمن فى العصورالوسطى قد أدركت تماما أهمية عدن ومميزاتها . ولهذا فقد قام « ابن زياد » مؤسس أول دولة مستقلة فى اليمن الاسلامية ، وهى الدولة الزيادية (٨١٨ ــ ١٠١٢ م) بنشر الأمن حول عدن ، فاتجهت السفن التجارية اليها لقربها من موانى المحيط الهندى بعد أن كانت تفضل الاتجاه الى الموانى اليمنية الأخـرى والحجـازية على البحر الأحمر نظرا لتوفر الأمن فى ذلك الميناء (٢) . كما اهتم أيضـــا خلفاء « ابن زياد » بتنشيط الحياة التجارية بين الموانى اليمنية وداخل البـلاد بالعمل على تمهيد الطرق بينها ، وتبدأ هذه الطرق من ميناء « الشحر » الواقع عــلى الساحل الجنوبى لليمن شرقى عدن ، وكانت السفن تتمكن من الوصول اليهـــا طوال فصول السنة ، وذلك على عكس الموانى اليمنية الأخرى بما فى ذلك عدن نفسها ، فقد كانت السفن الشراعية لا تتوجه اليها الا فى مواسم الرياح فقـط قبل استخدام السفن البخارية .

وكانت تلك الطريق تمتد من ميناء « الشحر » الى مينـــاء عدن حيث تتفرع فرعين : طريق جبلى يخترق الهضبة اليمنية مارا بتعز ، واب ، وذمار ، وصنعاء ، وصعده ، ومنها الى مكة . وطريق سهلى ، وهو ينقسم الى فرعين أيضا : أولهما يسير بمحاذاة الساحل ويربط بين الموانى اليمنية التى تمتد عـلى طول ساحل البحر الاحمر حتى جيزان شمالا ، وثانيهما الى داخل تهامة ويمر بالمدن التهامية الهامة مثل موزع ، وحيس ، وزبيد ، ومور . ثم يلتقى بالطريق الساحلى عند جيزان . ومن هناك يواصل الطريق امتداده على الساحل الى جدة أو يتجه الى الداخل حتى مكة (٣) .

على أن الاهتمام بميناء عدن كان يزداد باستمرار وعلى مر الزمن ، وكان يقصدها التجار من كل مكان ويستقرون بها ، حتى قيل أن أغلب سكانها الى جانب اليمنيين كانوا من المصريين والمغـــاربة والأحبـــاش والفرس ومن أهالى الساحل الشرقى فى القارة الافريقية . (٤) واجتذبت أهميـــة عدن التجارية انتباه حكام اليمن بصفة مستمرة فازداد اهتمامهم بها وباصلاح مينائها ، حتى أن « بنو زريع » (١٠٧٥ ــ ١١٧٤م) قد أقاموا حولها أول سور لحمايتها غير أنه تهدم بعد ذلك بقليل .وقد أقام الأيوبيون (١١٧٤ ــ ١٢٢٩م) ســـورا

---

(١) احمد فضل بن على محسن العبدلى : نفس المصدر ، ص ١٩ .

(٢) با مخرمة ، ابو محمد عبد الله الطيب بن احمد : تاريخ ثغر عدن ، ج ١ ، ص٩ .

(٣) عمارة اليمنى ، نجم الدين عمارة الحكمى اليمنى : تاريخ اليمن ، تحقيق الدكتـور حسن سليمان محمود ، ص ٤٠ ــ ٤٢ .

(٤) با مخرمة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

ضخما آخر حول عدن وجعـــلوا له ستة أبواب ، كما أنهم شـــيدوا « دار الفرضة » (١) وهى أشبه بالجمرك حاليا لتحصيل الرســوم التى تفرض على البضائع الواردة أو الصادرة · بل أنهم أقاموا أيضا العديد من المنازل والمخازن والأسواق ، مما جعل عدن تنتعش انتعاشا كبيرا فى عهد دولة بنى أيوب (٢) ·

وقد قدم لنا الرحالة العربى « ياقوت الحموى » الذى زار عدن فى القرن الثالث عشر الميلادى وصفا لتلك المدينة فى « معجم البلدان » فقال : « ان عدن مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند ، لا ماء بها ولا مرعى ، وأن الماء يحضرونه من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم ، وهو مع ذلك ردىء · الا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون اليه لأجل ذلك · كما قال يا قوت الحموى أيضا : « ان عدن أقدم أسواق العرب ، وهو ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق ، فقطع بالجبل باب بزبر الحديد فصار لهـــا طريق الى البر · » (٣) وقد أجمع الكثيرون من المؤرخين والرحالة على أن عدن كانت فى العصور القـــديمة والوسطى محطا مشـــهورا للتجارة بين آســـيا وبلدان الغرب (٤) ·

ولقد زار عدن أيضا فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى الرحالة العربى المعروف « ابن بطوطة » ووصفها على عهد الغسانيين بنى رســـول (١٢٢٩ — ١٤٥٤ م) · فقال عنها : « وهى مرسى بلاد اليمن على ســـاحل البحر الأعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد · وهى مدينـــــة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء ، وبها صهاريج تجتمع فيها الماء أيام المطر ، والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب · وهى شديدة الحر ، وهى مرسى أهل الهند ، تأتى اليها المراكب العظيمة ·· وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا · وأهل عدن ما بين تجار وما بين حمالين وصيادين للسمك ، وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة » (٥) ·

وبعد أن ثبت رسم العالم لدى الجغرافيين فى العصور الحديثة وزال ما كان فى أذهان الأوربيين من غموض عن المحيط الهندى والبحر الأحمر ، فقد بدت

(١) با مخرمة : نفس المصدر : ج ٢ ، ص ١٣ — ١٥ ·

(٢) محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن (٥٦٩ — ٦٢٦ هـ و ١١٧٣ — ١٢٢٩ م) رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٨ ، وتناولت دراسة تفاصيل هذا الموضوع ·

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الرابع ، ص ٨٩ ·

(٤) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، العدد الاول، مارس ١٩٦٩ ، مقال بقلم الاستاذ محمد رفعت بعنوان « سباق بين مصر وبريطانيا على عدن عام ١٨٣٨ » ، ص ٢١٠ — ٢١١ ·

(٥) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢ ·

عدن شيئا بارزا ملموسا وميناء رئيسيا معروفا تتطلع اليه أنظار القوى الطامعة فى بسط سلطانها فى ربوع هذا المحيط والسيطرة على التجارة الشرقيـــة . اد برزت عــــدن فى رســـوم الجغرافيين الأوربيين فى مطلع القرن السادس عشر (١) ، وأهم ما يذكر منها الخريطة البرتغالية العائدة لســنة ١٥٠١ والتى تعرف باسم La Charta Navigatoria Auctoris Incerti وضعها هامى E. T. Hamy وهى محفوظة حاليا بالجمعية الجغرافية البريطانية فى لندن . كما ظهرت عدن بعد ذلك فى خريطة أخرى يرجع تاريخها لسنة ١٥٢٠ ، ثم تكرر ظهورها فى خرائط عديدة أخرى بعد ذلك (٢) .

وقد قام بزيارة عدن « جيرو لومو ادورنو Girolomo Adorno » فى سنة ١٤٩٤ ولاحظ أن فيها على حد تعبيره « حركة كبيرة جــدا » كما وصف عــدن أحد الرحالة البرتغاليين الذين عاصروا بداية الكشوف الجغرافية البرتغالية فى أواخر عهد الطاهريين (١٤٥٤ — ١٥٣٨) وقال عنها أنها كانت من أكثر بلدان العالم تجارة ، وبأن بها أكثر التجار ثراء . وذكر أنها كانت تستقبل السفن العديدة المختلفة الأنواع والأحجام من جميع البقاع ، فكانت هذه السفن تفد اليها من جدة محملة بالبضائع الأوربية والمصرية والسورية كما كانت السفن تفد اليها من موانى ساحل افريقيا الشرقى مثل زيلع وبربرة وســـوفالا وكيلوه وموزمبيق وممبسة محملة بالمواد الغذائية وبالوفير من سبائك الذهب والفضة ، ومن موانى ساحل الهند الغربى مثل « ديو » و « قاليقوط » ، وموانى جزر الهند الشرقية حتى « ملقا » . وقد استطرد هـــذا الرحالة فى وصف كثرة البضائع التى ترد الى عدن والتى يتم تبادلها فيها حتى قال أخيرا انه كان من الصعب معرفة أنواع هذه البضائع أو تقدير أثمانها (٣) .

وكان الطاهريون يدركون جيدا أهمية الحركة التجارية فى عدن أثنـاء تبعيتها لحكمهم ولذلك أبدوا اهتماما كبيرا بالمدينة فأقاموا بها المنشآت العديدة المختلفة (٤) . ولم يقف أمر اهتمامهم بعدن عنـد هذا الحد بل كان الســلطان عامر بن عبد الوهاب يتوجه أحيانا الى عدن فى موسم الرياح ليشرف بنفسه على خروج القافلة البحرية الى الهند (٥) .

ولعل ما يوضح علاقة عدن باليمن هو ذلك التشبيه الذى ساقه المؤرخ

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٢) Kammerer, A. : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité, tome I, p. II.

(٣) Duarto Barbosa, : A discription of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteen century, translated by Henry E.J. Stanley, pp. 27-28.

(٤) با مخرمة : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢ .

(٥) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ — ١٦٣٥ ص ٤٢

اليمنى حسين بن أحمد العرشى حين ذكر أن عدن تعتبر بالنسبة لليمن « أشبه بالسن القلقة فى ثغر الانسان » (١) • كما شبه الضابط البريطانى « صامويل جاكوب » من يحتل عدن ولا يحتل اليمن بشخص يركب حصانا خلف شخص آخر فهو لا يدرى عن مستقبله شــيئا ولا يســتطيع ان يتحكم فيه (٢) • أما بالنسبة لموقع عدن الممتاز وأهميتها الاستراتيجية نظرا لأنها تتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، فقد ذكر الأديب الصــحفى الرحالة العربى الأصل الأمريكى الجنسية أمين الريحانى الذى زار اليمن فى مطلع العشرينات من القرن الحالى أنه قد قيل عن البريطانيين بعد احتلالهم لعدن فى سنة ١٨٣٩ أنهم أصبحوا بوجودهم فيها « يرصدون الأبواب » (٣) أى يرصدون منافذ اليمن ومدخل البحر الأحمر من الجنوب •

وقد وصف أمين الريحانى مدينة عدن كما رآها أثنــاء زيارته موضحا تضاعف أهميتها بمضى الزمن فقال : « وعدن اليوم مدينة الشرك لا التوحيد ، مدينة عمومية لا أوربية ولا شرقية ولا غربية ، مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية • فهى من الوجهة الحربية جبــل طارق ، ومن الوجهــة البحرية العمومية هى مستودع فحم لبواخر العالم التى تجرى بين الشرق والغرب ، وهى للبواخر الانكليزية المستودع الثالث فى الطريق بين الجزائر البريطانية والهند • أما المستودعان الأول والثانى ففى جبل طارق والسويس » (٤) •

من هذا العرض نتبين مدى الأهمية التى تميزت بها عدن مما جعلها هدفا رئيسيا تتنافس للسيطرة عليه كل القوى التى أرادت أن تتحكم فى طريق التجارة الدولية عبر البحر الأحمر وبدأت تنتزع من العرب سيادتهم على البحار الشرقية بوجه عام منذ مطلع العصور الحديثة • فمنذ ذلك الحين بدأت مرحــلة جديدة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب شهد البحر الأحمر أدوارها وكان مسرحا لها ، ولعب البريطانيون فيها دورا رئيسيا حتى تمكنوا من التحكم فى هذا الطريق الملاحى البحرى الهام بعد سيطرتهم على عدن فى سنة ١٨٣٩ على النحو الذى سنتبينه على مدار البحث •

---

(١) حسين بن احمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، مخطوطة حققها الأب انستاسى الكرملى ، ص ١٨٠ •

(٢) Jacob, S. : History of the Ottoman Empire, p. 206.

(٣) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٧١ •

(٤) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٣ •

الفصل الأول

الأوضاع القائمة في منطقة البحر الاحمر
قبيل احتلال بريطانيا لعدن في عام ١٨٣٩

ظل العرب حتى مطلع العصور الحديثة سادة المحيط الهندى والمسيطرين على الخليج العربى والبحر الأحمر وبحر العرب بلا منازع • واعتمدت العلاقات التجارية بين أوربا من جهة وآسيا وافريقيا من جهة أخرى ، اعتمادا يكون كليا على نشاطهم • فكانوا يجلبون البضائع الشرقية فى سفنهم الى الخليج العربى والبحر الأحمر ثم تنقل برا حتى البحر المتوسط وتصل الى أسواق أوربا (١) • وقد ربطت رحلات العرب التجـــارية الساحل الشرقى للبحر الأحمر بساحله الغربى ، كما أوصلت سواحل الجزيرة العربية من الشرق والغرب والجنـــوب بالساحل الشرقى لافريقيا منذ أقدم العصور •

على أن ذلك الاتصال الذى صاحبه الانتشار العربى فى هذه الجهات يعـــد ظاهرة طبيعية مبعثها فى المقام الأول سهولة الاتصال البحرى بين الســـواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر وسواحل الخليج العربى والساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية من جهة ، والسواحل الافريقية فى الصـــومال وحتى زنجبار من جهة أخرى • وقد ســـاعد على تحقيق ذلك عامل مناخى جغرافى هام يتصـــل بحركة الرياح التجارية التى تهب من الشمال والشمال الشرقى فى الشتاء ابتداء من شهر ديسمبر ، ويستمر هبوبها بانتظام حتى نهاية شهر فبراير ، كما تعكس هذه الرياح اتجاهها مع أوائل الربيع وأثناء الصيف ابتداء من شهر ابريل حتى أواخر شهر سبتمبر • ويتفق ذلك أيضا مع اتجاه الساحل الغربى للمحيط الهندى ، الذى يتبع خطا مستقيما تقريبا متجها من الجنـــوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من زنجبار الى مدخل خليج عـــدن ثم الى خليج عمان فى أقصى الشمال •

(1) Coupland, Reginald : East Africa and its Invaders, pp. 18, 19.

وقد استفاد البحارة والتجار العرب من هذه الظاهرة منذ أقدم العصور ، وساعدتهم على ذلك معرفتهم بعلم الفلك وتحديد الاتجاهات الجغرافية بالشمس والكواكب (١) وترتب على ذلك استقرار جاليات عربيـــة كثيرة على سواحل البحار الشرقية بوجه عام وعلى سواحل افريقيا الشرقية بصفة خاصة لخـــدمة الأغراض التجارية • بل ان ذلك قد أدى الى تكوين امارات عربيـــة فى تلك الجهات ، والى انتشار حضـــارة العرب ولغتهم وديانتهم عن طريق هــذه الجاليات والامارات • وقد اندمج العرب مع أهالى هذه البلاد ونتج عن ذلك أجناس ولغات وعادات جمعت كثيرا من الصفات المشـــتركة بين العرب وأهالى البـــلاد الاصليين (٢) • وقد حدث ذلك الاندماج بطريقة طبيعية سلمية دون اللجوء الى أساليب القوة والعنف والاضطهاد (٣) •

وقد أحدثت حركة الكشـــوف البحرية البرتغالية فى مطلع العصـــور الحديثة تغييرات جذرية فى الأوضاع القائمة فى البحار الشرقية بوجه عام ، وفى منطقة البحر الأحمر بوجه خاص • اذ نجح البرتغاليون فى الوصول بحرا الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، كما نجحوا فى احتكار التجارة الشرقية بعد وصولهم الى الهند بزمن قليل • وقد أدى تحول طريق التجارة العالمية الى الطريق البحرى المباشر الجديد الى حرمان العرب من مصدر هام من مصادر ثروتهم ، مما أحدث هزة عنيفة فى بنائهم الاقتصادى ، وأدى بالتالى الى احداث انهيار فى نظمهم السياسية القائمة حينذاك •

وقد حاول العرب من جانبهم منذ البداية مقـــاومة هذا الغزو الأوربى الجديد ، واسترداد سيطرتهم على نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب • ووقع عبء المقاومة فى بداية الأمر على القوى الموجودة بحـــكم موقع بلادها الاستراتيجى فى مواجهة هذا الخطر الجديد ، مثل القوى العربية اليمنية فى جنوب البحر الأحمر • غير أن جهود هذه القوى باءت بالفشل فى مواجهة هذا التحدى البرتغالى • ويرجع السبب فى ذلك الى انشـــغال اليمنيين بحروبهم الداخلية فضلا عن عدم معرفتهم بالأسلحة الحديثـــة الفتاكة التى يستخدمها عدوهم • ولهذا رحبت بعض القوى اليمنية باشتراك القوى الاسلامية الموجودة حينذاك فى النضال معهم ضد البرتغاليين خاصة وأن هذه القوى كانت قد تأثرت هى الأخرى تأثرا بالغا بتحول طريق التجارة العالمية عن بلادها ، وهى

---

(١) Hollingsworth, L.W. : Zanzibar under the Foreign Office, pp. 1, 10.

وقد عرب هذا الكتاب وعلق عليه الدكتور حسن حبشى ونشرته دار المعارف بمصر تحت عنوان « زنجبار ١٨٩٠ ـ ١٩١٣ » •

(٢) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, p. 21.

(٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى الفترة من ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ ، رسالة دكتوراه قدمت لكلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٩ ، ص ١٦ •

الدولة المملوكية فى مصر ، ثم الدولة العثمانية وخاصة بعـــد أن ورثت حكم المماليك فى سنة ١٥١٧ ٠

وقد تغيرت الأوضاع القائمة فى منطقة البحر الأحمر تبعا لنتائج هـذا الصراع الذى نشب بين هذه القوى العربية والاســلامية وبين البرتغاليين ٠ ولا شك أن الجهود البرتغالية فى ذلك الحين تمثل البداية الفعليـــة للمحاولات الاستعمارية الأوربية لمنافسة السيطرة العربية على البحار الشرقية ٠ وقد استمر هذا التيار الاستعمارى الأوربى الحـــديث فى التدفق بلا انقطـــاع على أيدى البرتغاليين والهولنديين والانجليز والفرنسيين وغيرهم للسيطرة على مقدرات شعوب الشرق واستغلالها والتحكم فيها حتى وقتنا الحاضر بشتى الصـــور والأساليب ٠

وســـوف أستعرض فيما يلى بايجاز أدوار الصراع بين القـــوى العربية والاسلامية وبين الغزاة البرتغاليين فى منطقة البحر الأحمر وحول ميناء عدن الهام ، لأشير بعد ذلك الى بداية ظهور الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين كخلفاء للبرتغاليين فى غزو تلك المنطقة ، وذلك قبيل احتلال بريطانيا لعدن فى سنة ١٨٣٩ ٠

اولا ـ الغزو البرتغالى الاستعمارى لمنطقة البحر الأحمر :

اندفع البرتغاليون فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى نحو عمليـات الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار نتيجة للنمو المتصاعد للشعب البرتغالى ذاته ، وظهور تطلعاته القومية ، ورغبته فى السيطرة والثراء ، كما أدى احتدام الصراع الدينى بين المسيحيين والمسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا فى العصـــور الوسطى الى اتجاه البرتغاليين الى مطاردة المسلمين على ساحل افريقيا الغربى ، والى مهاجمة السفن الاسلامية المسالمة فى البحار الشرقية بطريقة انتقامية (١) ٠ بل ان البرتغاليين قد أصروا على انتزاع التجـــارة الشرقية من أيدى العـــرب المسلمين ، وكانوا فى ذلك قد تأثروا بتحريض أهالى جنوه الذين سعوا الى القضاء على ثروة أعدائهم ومنافسيهم البنادقة بعد أن جنـــوا أرباحا طائلة من التجارة الشرقية التى كان العرب ينقلونها الى أوربا عبر بلادهم (٢) ٠

واستطاع البرتغاليون أن يحققوا غايتهم مستندين الى قوتهم وجهودهم البحرية من جهة ، والى جهود استطلاعية أخرى اتسمت بالسرية وتركزت حول جمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق ، وطرق هذه التجارة ، وأنواع البضائع

(١) Marston, T. E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, 1800—1878, pp 18, 19.

(٢) Serjeant, R.B. : The Portuguese off the South Arabian Coast ; Hadrami Chronicles with Yemeni and European Accounts of Dutch Pirates off Mocha in 17th Century, p. 2.

الشرقية ، وامكانات القوى التى سيحاربونها من جهة أخرى (١) · وقد بدأ هذه الجهود البحرية البرتغالية الأمير « هنرى الملاح » الذى خالط الدم الانجليزى فى عروقه الدم البرتغـــالى ، والذى وضع اللبنـــة الأولى فى تاريخ البحرية والاستكشافات البرتغالية المتسمة بالطابع الحربى العدوانى (٢) · وقد وصل « هنرى الملاح » الى الساحل الغربى لافريقيا واستولى على « سبتة » من أيدى المسلمين فى سنة ١٤١٥ · ثم بلغت هذه الجهود ذروتها فى سنة ١٤٨٧ بوصول « بارتلميو دياز Bartolomeu Diaz » الى الطرف الجنـــوبى لافريقيا الذى عرفه « برأس العواصف » وأطلق عليه ملك البرتغال « يوحنا الثانى » (١٤٨١ ـ ١٤٩٥) « رأس الرجاء الصالح » تيمنا بالكشف الجديد ·

وفى منتصـــف ســـــنة ١٤٨٧ تمكن الرحالة البرتغالى « بيرو دى كوفلهام Pero de Kovilham » من الوصول الى البحر الأحمر عبر مصر ، ومر بمينـــاء سواكن ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى عدن ووصفها بأنها مدينة عظيمة وأن بها تجارا من جميع الأجناس ، وبعد ذلك واصل رحلته الى الهند (٣) · وعند عودته قام بزيارة معظم المناطق العربية الواقعة على الساحل الشرقى لافريقيا كما مر بمدينة زيلع ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى « سوفالا » (٤) · وقد عاد هذا الرحالة الى القاهرة حيث تمكن من جمع معلومات عن الحبشة دفعتـــه للتوجه اليها · وكانت زيارته للحبشة بداية لسلسلة من رحلات المستكشفين والبعثات الأوربية التى وفدت اليها حتى القرن السابع عشر والتى تهدف الى تطويق البلاد العربية بقوات مسيحية وانتزاع التجارة الشرقية التى تشـــكل مصدر قوة هذه البلاد (٥) ·

ولا شك أن جهـــــود هذا الرحالة قد مهدت الســـــبيل أمام الرحالة « فاسكودا جاما Vasco da Gama » عندما قام برحلته حول رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٧ ومر بالساحل الشرقى لافريقيا ، ثم اتجه شرقا حتى وصل الى الهند · وقد استغرقت رحلته ثلاث سنوات عاد بعدها الى لشبونة فى سبتمبر سنة ١٤٩٩ · وقد أعقبه رحالة برتغـــــالى آخر يدعى « لودفيكودى بارتيما Ludvico de Barthema » قام برحلة بحرية اتجهت الى الهند ، وتمكن أثناءها من

---

(١) Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the years 1520—1527, Translated and Edited by Lord Stanley of Alderly, pp. 265—270.

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الاوربى الحديث ، ص ٥٥ .

(٣) Playfair, R.L. : A History of Arabia Felix or Yemen, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series, XLIX, p. 96.

(٤) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, p. 42.

(٥) Johnston, H. : History of the colonization of Africa by alien races, p. 32.

زيارة عدن فى سنة ١٥٠٣ ٠ وكانت رحلته هذه الى جانب رحلة « كوفلهام » أول ظهور للبرتغاليين فى البحر الأحمر وخليج عدن (١) ٠

على أن الرحلة التى قام بها « فاسكوداجاما » الى الهند تعتبر بداية للمرحلة الأولى فى تاريخ البرتغاليين فى بلاد الشرق اذ تطورت أغراضهم من وراء الكشوف البحرية فى خلال فترة لا تتجاوز عشر سنوات تمتد بين عامى ١٤٩٩ و ١٥٠٩ من مجرد الرغبة فى كشف الطريق البحرى الى الهند لتحقيق بعض المكاسب الاقتصادية ، الى الرغبة فى احتكار التجارة الشرقية والسيطرة على مصادرها الأصلية ، بل والى اقامة أول حكومة استعمارية أوربية فى بلاد الشرق ٠ ولا شك أن تفوق البرتغاليين الحربى كان عاملا أساسيا فى تطور موقفهم السريع أثناء تلك الفترة بحيث كانوا يمتلكون سفنا حربية مزودة بالمدافع ، وهى أسلحة لم تكن معروفة فى الهند فى ذلك الحين ٠ (٢) وقد تركز نشاط البرتغاليين فى تلك الفترة فى تثبيت أقدامهم على شواطىء المحيط الهندى ، وفى مهاجمة السفن والمراكز التجارية العربية والاسلامية فى ميـــاه الخليج العربى والبحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندى بوجه عام ٠

اذ قام « فاسكوداجاما » أثناء رحلته الأولى الى الهند بمهاجمة احـــدى السفن التجارية العربية واستولى على ما بها من بضائع ، ثم أمر باغراقها بمن تحملهم من الركاب ٠ (٣) كما قام أثناء رحلته الثانية الى الهند فى سنة ١٥٠٢ بتكليف أحد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن العربية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة أثنـاء ابحارها فى مياه المحيط الا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين ٠ وقد اشتط هذا القائد البرتغالى فى مهمته عندما قام فى شهر يناير سنة ١٥٠٣ بمهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها ، بل انه قام بقتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر (٤) ٠

ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل انهم هددوا جدة فى سنة ١٥٠٥ (٥) ، وتمكنوا من التسلل الى مكة نفسها (٦) وكان ملكهم قد أقسم أن يستولى عليها وأن يقوم بنبش قبر الرسول فى المدينة (٧) ٠ وقد اهتز المســـلمون جميعا

---

(١) Hunter. F.M. : An account of the British settlement at Aden, p. 162.

(٢) السيد مصطفى سـالم (دكتـور) : الفتح العثمـانى الاول لليمن ١٥٣٨ — ١٦٣٥ ، ص ٥٠ — ٥١ ٠

(٣) Panikkar. K.M. : Asia and Western Dominance, p. 43.

(٤) Serjeant, R.R. op. cit., p. 41.

(٥) Stripling, G.W.F. : The Ottoman Turks and the Arabs, p. 28.

(٦) ابن اياس ، محمد بن احمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٤ ، ص ١٩١ ٠

(٧) Kammerer, A. : Op. Cit., Tome 2, p. 144.

والعرب ومن بينهم أهالى اليمن على وجه الخصوص ازاء هذا الخطر البرتغالى (١) ، وذلك باعتبار اليمن تقع فى خط المواجهة الأول مع العدو من الجنوب ·

وقد أدى تحول التجارة العالمية الى الطريق البحرى المباشر حول رأس الرجاء الصالح الى حرمان العرب من مصدر هام من مصادر ثروتهم ، مما أدى الى انهيار اقتصادياتهم التقليدية ، وبالتالى انهيار النظم السياسية التى كانت قائمة فى بلادهم · وقد تعرض اليمن لمثل ما تعرضت له البلاد العربية الواقعة على الطريق القديم من كساد نتيجة لتحول طريق التجارة الدولية عنها · وقد أحدث ذلك تصدعا هائلا فى البنـاء الاقتصادى الذى عرفه اليمن منــذ فجر تاريخه ، والذى كان يعتمد على اشتغال اليمنيين بالتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، الى جانب اشتغالهم بالانتاج الزراعى الذى كانت تدره عليهم أرضهم الخصبة ، واشتغالهم بالرعى فى المناطق الداخلية ، وبصيد الأسماك فى المناطق الساحلية · كما أدى ذلك الى انهيار النظام السياسى الذى كان قائما فى اليمن فى ذلك الحين ·

ثانيا — تصدى الطاهريين والمماليك لمواجهة الغزو البرتغالى لمنطقة البحر الأحمر :

كان النظام السياسى القائم فى اليمن فى مطلع العصور الحديثة يقوم على دعامتين · أولاهمـــا تتمثل فى دولة الامامة الزيدية بزعامة الامام شرف الدين ابن يحيى (١٥٠٦ — ١٥٥٨) الذى تمركزت قوته فى المنطقة الجبلية الشمالية فيما حول « حجة » و « ثلاء » و « صنعاء » و « صعدة » · بينما تتمثل الدعامة الثانية فى دولة الطاهريين المتمركزة فى تهامة وجنوبى اليمن والتى بلغت أوج قوتها فى عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب (١٤٨٨ — ١٥١٧) ، وتعتبر آخر الدول السنية التى توالت على حكم اليمن وعاصرت دولة الامامة الزيدية طوال عهدها أثناء العصور الوسطى · وقد سقطت دولة آل طاهر وانتقلت السيادة فى اليمن من أيديهم — بعد أن وحدوا ما يقرب من ثلثى البلاد تحت حكمهم — الى أيدى الزيديين الذين بدءوا يمدون نفوذهم الى الجهات اليمنية المختلفة منذ ذلك الحين · وكان الأئمة قد انتهزوا فرصة ضــعف الامكانات الاقتصادية لتهامة وجنوبى اليمن بعد تحول طريق التجارة عنه على أيدى البرتغاليين الى طريق رأس الرجاء الصالح مما أضعف من قوة الطاهريين ·

على أن الطاهريين قد قاموا قبل أن تنهار دولتهم بالوقوف فى وجه الغزو البرتغالى الاستعمارى والتصدى له بقيادة السلطان عامر بن عبــــد الوهاب الطاهرى ، مما يؤكد الموقف الايجابى للشعب اليمنى فى مواجهته وتصديه للخطر

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسـعة من الفتن والفتوح ، مخطوطة ، ص ٩ ·

البرتغالى وذلك فى حدود ما كانت تسمح به امكاناته الذاتية فى ذلك الحين . فعلى الرغم من اضطراب أحوال هذا السلطان نتيجة للجهود التى بذلها من أجل توحيد اليمن ، الى جانب ضعف ايراداته المالية نتيجة للحصار البرتغالى الذى حول طريق التجارة عن بلاده وأفقده الأموال الطائلة التى كانت تصل اليه من جمارك عدن قبل وصول البرتغاليين الى الهند (١) ، فقد أمر هذا السلطان بتجهيز حملة بحرية فى سنة ١٥٠٧ لمحاربة البرتغاليين فى الهند . غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة تعبر عن حقيقة ظروف السلطان عامر وامكاناته ، كما تعبر أيضا عن عدم ادراكه لقوة الغازى الجديد الذى جاء يغزو الشرق كله بأسلحة حديثة فتاكة . اذ كان قوام الحملة أربع عشرة سفينة من سفن النقل العادية ، تحمل ستمائة مقاتل يمنى بالاضافة الى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين (٢) . وأبحرت هذه الحملة من ميناء عدن فى ١١ مارس سنة ١٥٠٧ ، ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين على نحو ما نرجحه نظرا لأن المصادر اليمنية صمتت حينذاك عن ذكر أنباء تلك الحملة التى كانت أضعف كثيرا عن القيام بمهمتها الصعبة (٣) . ولهذا فان « السلطان عامر » عجز عن ارسال حملة أخرى الى الهند فضلا عن حماية سواحله أمام هجمات البرتغاليين بين آونة وأخرى .

وفى ذلك الوقت كانت دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز من أولى الدول التى تأثرت اقتصاديا بتحول طريق التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح . اذ أدى هذا التحول الى ضياع العوائد والرسوم الضخمة التى كانت تجنيها الخزانة المملوكية من موانى مصر والشام والحجاز . وقد أبدى المماليك اهتماما بالغا بمحاربة البرتغاليين ووقف تحول التجارة اليهم . غير أنهم كانوا أضعف من مواجهة قوة دولة البرتغال البحرية الناشئة وأعجز عن القضاء عليها . ولهذا فقد استعان المماليك بالعثمانيين المسلمين الذين شاركوهم غيرتهم الدينية (٤) وبالبندقية التى حرمت مثلهم من التجارة الشرقية التى كانت تقوم بتوزيعها فى أسواق أوربا ، وذلك للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة .

وكان بعض أمراء الهنود أمثال سلطان « كجرات » والسامرى حاكم « قاليقوط » (٥) قد استنجدوا بالسلطان الغورى ليساعدهم فى مواجهة الخطر البرتغالى باعتبار دولته أقوى الممالك الاسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة

---

(١) ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٣١ ب .

(٢) ابن الديبع : نفس المصدر ، ص ٤٢ ب .

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٤) الموزعى ، شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد : كتاب الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، مخطوطة ، ص ٦ .

(٥) المليبارى ، زين الدين المعبرى : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ؛ ص ٤٠ .

فى الهند فضلا عن امتلاكها للأسلحة النارية الحديثة المماثلة للأسلحة البرتغالية (١) . وقد أدى ذلك أيضا الى تشجيع السلطان الغورى على ارسال حملة بحرية الى الهند لتعقب البرتغاليين وانزال الهزيمة بهم لطردهم من البحار الشرقية واعادة التجارة الدولية الى طريق الشرق الأوسط . هذا فضلا عن قيام هذه الحملة بتدعيم السيادة والسلطة المملوكية فى سواحل البحر الأحمر ومنافذه فى ذلك الحين .

وقد وجه السلطان الغورى حملة بحرية يقودها الأمير حسين الكردى نائب جدة تحركت من القاهرة فى ٤ نوفمبر سنة ١٥٠٥ واتجهت الى السويس حيث أبحرت منها متجهة الى المحيط الهندى . وقد مرت الحملة بسواكن حيث استولت عليها وأقامت بها بعض الاستحكامات ضمن برنامجها لتحصين سواحل البحر الأحمر قبل أن تتجه الى الهند . ثم أبحرت الحملة تجاه الموانى اليمنية فمرت بجيزان ثم بجزيرة كمران ، واتجهت منها الى مخا ثم وصلت الى عدن حيث مكثت هناك لتتزود بالمؤن اللازمة لها للقيام بمهمتها .

وقام حسين الكردى بابلاغ والى عدن من قبل الطاهريين أن هدف الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين . كما طلب منه أن يمد الحملة بالطعام والمؤن اللازمة ، فسمح له الوالى بأن يأخذ من عدن كل ما يحتاج اليه (٢) . وهذا يؤكد مرة ثانية أن اليمنيين وقفوا موقفا ايجابيا فى مواجهة البرتغاليين على نحو ما بدا فى تعاونهم الكامل مع القوات المملوكية المتجهة لمحاربتهم .

وكانت الانتصارات الحربية والتجارية المتواصلة للبرتغاليين حينذاك قد دفعتهم الى اتخاذ خطوة أكثر ايجابية وهى اقامة حكومة استعمارية برتغالية فى الهند . فقد عين ملكهم فى سنة ١٥٠٥ « فرانسيسكودا الميدا Francisco d'Almeida حاكما عاما للبرتغاليين فى الهند كنائب لملك البرتغال . وعمل « دا الميدا » طوال أربع سنوات حتى سنة ١٥٠٩ على اقامة دعائم الحكم الاستعمارى البرتغالى فى ساحل ملبار ، وتوجيه الحملات الحربية الى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة أمام البرتغاليين فى البحار الشرقية (٣) .

وعندما وصلت الحملة المملوكية الى مياه الهند ، تمكنت من احراز نصر جزئى أمام الأسطول البرتغالى بعد وقت قليل من وصوله الى « ديو Diu » التى كانت أهم موانى سلطنة « كجرات » . كما انتصر الأسطول المملوكى على أسطول برتغالى مكون من ثمانى سفن وذلك فى خريف ١٥٠٨ ، وكان سلطان « كجرات »

---

(١) قطب الدين ، محمد بن احمد الحنفى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، مخطوطة ص ٤ أ .

(٢) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٣) Stephens, H. M. : Portugal, p. 195.
Kammerer, A. : Op. cit., tome 1, p. 155.

يتعاون حينذاك مع المماليك . غير أن البرتغاليين سارعوا بقيادة « دا الميدا » نائب ملك البرتغال فى الهند وهاجموا السفن المملوكية ، وأحرزوا نصرا حاسما على المماليك فى موقعة « ديو » فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٥٠٩ . وقد تمكن البرتغاليون عقب هذا الانتصار من التسلط على البحار الشرقية لمدة قرن من الزمان على وجه التقريب رغم الجهود التى بذلها أهالى البلاد الأصليين من جهة والمماليك والعثمانيون من جهة أخرى لطردهم من هذه البحار .

وتجدر الاشارة الى السياسة التى اتبعها البرتغاليون لبسط نفوذهم فى البحار الشرقية من جهة ، واحتكار التجارة الشرقية من جهة أخرى . فقد كان « دا الميدا » يتبع سياسة الاكتفاء بسيطرة البرتغاليين على البحار دون التوسع فى الاستيلاء على المواقع البرية التى يمكن أن تكلفهم مالا يطيقونه ، مما جعله يتجه الى تقوية الأسطول البرتغالى (١) لاحكام سيطرتهم على البحار . وعندما عين « الفونسودا البوكيرك Albuquerque » نائبا لملك البرتغال فى الهند بدلا من « دا الميدا » عمل على احتلال المراكز البحرية الهامة واقامة الحصون القوية فى جميع جهات المحيط الهندى لاحكام سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة وتدعيم مركزهم فى تلك المناطق النائية عن البرتغال حتى يأمنوا أية ضربات من قبل الحكام الوطنيين ويضعوا حدا لها (٢) .

وقد تمكن « البوكيرك » من السيطرة على البوابات البحرية الثلاث الموصلة للمحيط الهندى وهى مضايق هرمز ، وباب المندب ، وملقا ، الواقع عند طرف شبه جزيرة الملايو (٣) . وكان يحرص حينذاك على أن يثبت للهنود عدم وجود أية قوة يمكنهم أن ينتظروا مجيئها الى الهند لانقاذهم . كما كان البرتغاليون قد وجهوا أسطولا مكونا من أربعين سفينة بقيادة « البوكيرك » وزميله « ترستودى كانها Tresto de Canha » لبسط نفوذهم على الساحل الشرقى لافريقيا فى سنة ١٥٠٦ . وقد استولى هذا الأسطول على « لامو » و « براوا » ولم تأت سنة ١٥٠٩ الا وكانت جميع المراكز الاسلامية على هذا الساحل من « سوفالا » جنوبا الى « براوا » شمالا قد خضعت للبرتغاليين (٤) . كما تمكن « البوكيرك » فى سنة ١٥٠٧ من السيطرة على جزيرة « سقطرى » المواجهة للساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية وتتوسط المسافة تقريبا بين مدخل البحر الأحمر والخليج العربى (٥) . وكان موقع الجزيرة نموذجيا بالنسبة لتحقيق أهداف البرتغاليين مما جعل « البوكيرك » يقرر ابقاء حامية فيها مع تشييد حصن برتغالى ، فضلا عن اقامة دير لطائفة الفرنسسكان لنشر الديانة

(١) Kammerer, A. : Ibid., tome I, p. 156.
(٢) Wilson, A. : The Persian Gulf, p. 112.
(٣) Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, pp. 53, 60.
(٤) Serjeant, R.B. : Op. Cit., p. 14.
(٥) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٤ .

المسيحية (١) ٠ غير أن البرتغاليين غادروا الجزيرة فى سنة ١٥١١ نظرا لعـدم توفر مقومات الاستقرار فيهـا ، مما أدى الى ضعف استفادتهم منهـا حربيـا وتجاريا ٠

وفى عهد « البوكيرك » تم أول اتصال مباشر بين الحبشة والبرتغال فى سنة ١٥٠٩ ٠ وقد أبدت الحبشة حينذاك رغبتها فى التعاون مع البرتغاليين لاعلان الحرب العامة على المسلمين وعلى الدولة المملوكية التى كانت تتزعمهم بوجه خاص ٠ وقد رحب البرتغاليون بعقد تحالف مع الحبشة المسيحية لتطويق العالم الاسلامى من الجنوب ، وتوفير مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الأحمر لمهاجمة الحجاز ومصر واليمن فى ذلك الحين ٠ (٢) وكان يهدف « البوكيرك » الى السيطرة على عدن التى كانت تعتبر أكبر مستودع تجارى فى جنوبى البحر الأحمر ، وذلك لكى يتمكن من الاستفادة من موقعها الممتاز المتحكم فى مضـيق باب المندب لاغلاق البحر الأحمر ، وتأمين طريق البرتغال الجديد حول رأس الرجاء الصالح ٠ ولهذا قام « البوكيرك » بمهاجمة عدن فى ٢٤ مارس سنة ١٥١٣ ثم نقل معاركه البحرية بعد ذلك الى داخل البحر الأحمر (٣) ٠

وكان يحكم عدن من قبل الطاهريين الأمير مرجان الذى اضطرب لظهور البرتغاليين وسارع بطلب النجدة من السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الطاهرية بجنوبى اليمن ٠ ونظرا لانشغال هذا السلطان بحروبه مع الامام الزيدى للسيطرة على صنعاء ، فقد تأخر فى ارسال النجدة لحاكم عدن ٠ وقد اعتمد أهالى عدن على أنفسهم وعلى حصانة مدينتهم الطبيعية فى صد العدوان البرتغالى واستبسلوا فى دفاعهم ، حتى اضطر البرتغاليون الى الانسحاب الى سفنهم بعد أن تركوا خلفهم بعض قتلاهم ٠ وقد انتقم البرتغاليون لأنفسهم بالقيام بأعمال تخريبية فأحرقوا حوالى أربعين سفينة كانت راسية بميـناء عدن بعـد أن استولوا على ما تحمله من بضائع (٤) ٠ بل انهم اتجهوا بعد ذلك الى مضيق باب المندب حيث نفذوا الى داخل البحر الأحمر ٠ وقد مروا بالموانى اليمنية المطلة على البحر حتى وصلوا الى جزيرة كمران الواقعة أمام ميـناء الصليف شمالى الحديدة ٠ وقد استولوا على الجزيرة فى مطلع شـهر أبريل سنة ١٥١٣ وقاموا بأعمال تخريبية مثل ردم الآبار حتى لا تنتفع بالجزيرة أية قوة معـادية ، خاصة وأنهـا كانت محطة بحرية هامة بين موانى اليمن والحجاز (٥) ٠

---

(١) Serjeant, R.B. : Op. Cit., p. 43.

(٢) Alvarez, F. : Op. Cit., pp. 390, 392.

(٣) Wilson, A. : Op. Cit., pp. 118, 120.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٥٠ ب ، ٥١ أ ٠

(٥) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٢ ، ٧٣ ٠

وقد اتجه « البوكيرك » بعد ذلك نحـــو تنفيـــذ مشروعه الحربى الكبير بمهاجمة جدة ، غير أن الرياح بددت أحلامه واضطرته للعودة الى كمران حيث بقى فيها مدة شهرين واصل أثناءها أعماله التخريبية فى موانى البحر الأحمر ٠ فضرب ميناء زيلع بالمدافع وأحرق السفن الراسية هناك ٠ ثم عاد ثانية الى عدن وواصل ضربها بالمدافع مدة خمسة عشر يوما حتى غادرها الى الهند فى اليوم الرابع من أغسطس سنة ١٥١٣ ٠ وبذلك فشل « البوكيرك » فى الوصول الى جدة أو السيطرة على عدن ، وان كان قد نجح فى أن يرسم لخلفائه خطة غزو هذا البحر الى اقصى شماله عن طريق المعلومات التى جمعها عن طبيعـــة البحر الأحمر ومراكزه المختلفة وحركة التجارة فيه ٠ هذا فضلا عن معرفة البرتغاليين بامكانات القوى المسيطرة على هذا البحر حتى يمكنهم التغلب عليها أو استقطاب بعضها الى جانبهم ، كما هو الحال مع امبراطورية الحبشة فى ذلك الحين (١) ٠

على أن اهم هذه القوى التى يخشاها البرتغاليون كانت تتمثل فى الدولة المملوكية التى زاد اهتمامها بمواجهة هذا الخطر بعد توغل البرتغاليين فى داخل البحر الأحمر ٠ وكان السلطان الغورى يوجه كل عنايته لاعداد اسطول بحرى ثان فى ميناء السويس لخوض معركة المصير التى سيترتب على نجاحها حل أزمته الاقتصادية ، وبالتالى مواجهة الاضطرابات الداخلية ٠ هذا فضلا عن اعداد الأساطيل القوية للدفاع عن سواحله الشمالية التى كانت تهددها هجمات « فرسان القديس يوحنا » المقيمين فى جزيرة « رودس » من جهة ، الى جانب تآمر البنادقة الذين حالفوه بالأمس لمواجهة الخطر البرتغالى الذى حرمهم من التجارة الشرقية التى كانوا يقومون بتوزيعها فى أوربا من جهة أخرى ٠ وكان عجز الغورى عن توجيه ضربة قاضية للبرتغاليين قد شجع البنادقة على التحالف مع عدوه الشاه اسماعيل الصفوى لاحياء طريق التجـــارة الشرقية عبر ايران والعراق الى موانى الشام على البحر المتوسط بعد أن يهاجم الصفوى المماليك من جهة العراق ، وتهاجمهم البنادقة من جهة البحر (٢) ٠

وعلى النقيض من ذلك فقد ظل الأمراء الهنود المسلمون يشجعون السلطان الغورى على ارسال حملة بحرية الى الهند للقضاء على النفوذ البرتغـــالى الذى اشتدت وطأته هناك بعد انتصار البرتغاليين فى موقعة « ديو » فى سنة ١٥٠٩ ٠ وقد أرسل الغورى مندوبا من قبله اليهم ليعدهم بارسال الحملة ويطلب اليهم الاستمرار فى التعاون معه حتى يتحقق النصر (٣) ٠ وقد تم أخيرا اعداد الحملة البحرية فى شهر أغسطس سنة ١٥١٥ التى عرفت حينذاك بحملة الهند ، وعين

---

(١) Wilson, A. : Op. Cit., pp. 119, 120.

(٢) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٦ ، ٢٠٥ ٠

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ٠

الريس سلمان العثمانى قائدا للأسطول على أن يتولى قيادة الحملة الأمير حسين الكردى نائب جدة بمجرد وصولها الى هناك (١) .

غير أنه لم يقدر لهذه الحملة أن تصل الى هدفها النهائى فى الهند وأجبرتها الظروف التى واجهتها أمام السواحل اليمنية بالاضافة الى الظروف الأخرى على التوقف عند عدن . وكان توغل البرتغاليين الى داخل البحر الأحمر فى سنة ١٥١٣ قد فرض على المماليك أن يتخذوا سياسة دفاعية قوية فى البحر الأحمر قبل التوجه الى الهند . فقد اهتم المماليك بتحصين ميناء جدة تحت اشراف حسين الكردى ، كما قام هذا الأمير باحتلال زيلع ، هذا بالاضافة الى أن المماليك كان لهم نوع من السيادة فى ميناء سواكن بالسودان . وبذلك لم يبق أمام المماليك الا اقامة القواعد البحرية على السواحل اليمنية وخاصة فى عدن وذلك لتحقيق غرضين ، الأول اغلاق البحر الأحمر أمام الغزو البرتغالى ، أما الثانى فهو اتخاذ هذا الميناء الهام قاعدة لنشاط المماليك البحرى فى المحيط الهندى .

وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الطاهرية فى جنوب اليمن قد استنجد بالمماليك بعد هجوم « البوكيرك » على عدن فى سنة ١٥١٣ ، كما وافق على أن يقيم السلطان الغورى قواعد بحرية على السواحل اليمنية لمواجهة أى عدوان جديد من قبل البرتغاليين ولتعقبهم فى المحيط الهندى . وعندما فشل هجوم البرتغاليين على عدن دون أية مساعدات خارجية ، وتأخر وصول الأسطول المملوكى الى اليمن ، تراجع السلطان عامر عن الوفاء بوعده باقامة قواعد بحرية مملوكية على سواحله بعد أن ظن أن الخطر قد زال ، وحرصا منه على استقلال بلاده ، وتفاديا لاحتمال تعرض شعبه لسيطرة قوى دخيلة حتى ولو كانت تربطه بهم رابطة العقيدة والنضال المشترك .

على أن هذا التراجع من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب الذى حدث بناء على دوافع وطنية ، لم يقابل من الأمير حسين الكردى ـ الذى كان يرى بوضوح استفحال خطر البرتغاليين ـ الا بمهاجمة السواحل اليمنية بالقوة (٢) . ومن هنا توالت الأحداث سريعا متوترة ، فقد نزل المماليك الى جزيرة « كمران » وشرعوا فى بناء سور حول الجزيرة لتحصينها وذلك طبقا لمخططهم العام فى البحر الأحمر باقامة قواعد بحرية فى جنوبه لاغلاقه فى وجه البحرية البرتغالية . وهنا أمر السلطان عامر ولاته فى الموانى اليمنية بمنع وصول الطعام الى المماليك فى جزيرة « كمران » لزحزحتهم من هناك ، فقام المماليك بضرب ميناء « الحديدة » بالمدافع عندما أمر حاكمه بحجز ثلاث سفن كانت قادمة من « زيلع » من مواصلة رحلتها الى « كمران » ، ونقل شحنتها من الأطعمة الى

---

(١) ابن أياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٦٧ .

(٢) Ross, E.D. : The Portuguese in India and Arabia between 1507-1517. Journal of the Royal Asiatic Society, London, Part IV October, 1921, p. 560.

الساحل . وقد نزل المماليك الى الساحل بعد قرار حاكم الحديدة وأخذوا ما يلزمهم من طعام ، كما حملوا معهم بعض الأخشاب والأدوات اللازمة لبناء سور حول « كمران » لتحصينها ضد أى هجوم (١) .

وقد قامت بعض العناصر اليمنية المنافسة للسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى بالاتصال بالمماليك وتشجيعهم على النزول الى الساحل والقضاء على حكم هذا السلطان . وكان الامام شرف الدين يحيى الذى تولى الامامة الزيدية فى سنة ١٥٠٦ على رأس هذه العناصر . كما كان أشراف « جيزان » على اتصال سابق بالمماليك ليستعينوا بهم فى التخلص من السلطان عامر لتحقيق أطماعهم فى بلاد اليمن . هذا بالاضافة الى بعض الساخطين من أهالى تهامة وجنوبى اليمن الذين أرادوا أن يضعوا حدا لحكم هذا السلطان حتى يتخلصوا من دفع الخراج اليه (٢) .

وعلى أية حال فقد تمكن المماليك من الاستفادة من هذه العناصر ونجحوا فى الاستيلاء على بعض المدن التهامية ومن بينها زبيد فى ٢١ يونيو سنة ١٥١٦ وعينوا الأمير « برسباى » حاكما عليها وقائدا للمماليك فى منطقة تهامة . ثم أبحر أسطولهم بعد ذلك بقيادة « حسين الكردى » حيث توجه الى « زيلع » واستولى عليها . وأخيرا اتجه الى عدن فوصل اليها فى ١٢ أغسطس سنة ١٥١٦ حيث تمكن المماليك من الدخول الى الميناء وانزال بعض جنودهم ومعداتهم الى الساحل . وقد استبسلت عدن فى الدفاع عن نفسها معتمدة على حصانتها الطبيعية واحاطة الجبال بها من كل جانب حتى تمكنت من رد القوات المملوكية عنها . غير أن المماليك عاودوا الكرة من جديد عندما انضم اليهم سلمان الرومى الذى كان يطارد بعض السفن اليمنية المتجهة الى الهند ولكن هجومه باء بالفشل . وفى ذلك الوقت وصلت نجدة طاهرية الى عدن مما اضطر المماليك الى مغادرتها فى ١٩ اغسطس سنة ١٥١٦ دون أن يحققوا أهدافهم (٣) . وبذلك ظلت عدن فى أيدى الطاهريين حتى استولى عليها الأتراك العثمانيون فى سنة ١٥٣٨ .

وازاء فشل المماليك فى السيطرة على عدن قرروا تأجيل ذهابهم الى الهند حتى يضمنوا حماية البحر الأحمر وتأمين خط رجعتهم . كما قرروا أيضا أن يتخذوا سواحل تهامة اليمنية خط دفاع أول عن البحر الأحمر ، على أن تكون جده خط الدفاع الثانى . ولهذا اتجه حسين الكردى وسلمان الرومى الى جدة لتركيز الدفاع بها بدلا من عدن حتى يتحينوا الفرصة للهجوم عليها من جديد . غير أن سقوط الدولة المملوكية فى يد السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) الذى دخل مصر فى سنة ١٥١٧ أدى الى مسارعة اشراف مكة بالدخول فى طاعة

---

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ؛ ص ٥٣ ب .

(٢) ابن الديبع . قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، مخطوطة ، ص ١٥٢ أ ـ ١٥٣ أ .

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، ص ٥٤ ب .

العثمانيين ، كما قتلوا حسين الكردى غرقا أمام ميناء جده بعد أن أوهموه باستدعاء السلطان سليم له ، (١) وذلك انتقاما منه لأعماله القاسية أثناء ولايته لجدة ٠

على أن حسين الكردى يرجع له الفضل فى اقامة التحصينات التى صدت الهجوم البرتغالى الكبير على مكة فى سنة ١٥١٧ باعتراف البرتغاليين أنفسهم ٠ كما قام سلمان الرومى بعد أن صد هذا الهجوم بتعقب البرتغاليين أثناء تقهقرهم من البحر الأحمر واستولى على احدى سفنهم وأسر بحارتها عندما اتجهت الى ميناء اللحية اليمنى للحصول على المؤن اللازمة (٢) ٠ ولا شك أن خطة المماليك واستراتيجيتهم فى البحر الأحمر التى كانت ترتكز على تدعيم سيطرتهم فى جهات هذا البحر واتخاذ عدن قاعدة لهم فى جنوبه ، هى نفس الخطة والاستراتيجية التى اتبعها العثمانيون فيما بعد قبل أن يرسلوا حملتهم الكبيرة الى الهند فى سنة ١٥٣٨ ٠ (٣) وتؤكد الخطتان المملوكية والعثمانية اهمية عدن البارزة وموقعها الاستراتيجى الهام كقاعدة للدفاع عن منطقة البحر الأحمر باكملها ضد أى خطر تتعرض له المنطقة وخاصة من ناحية الجنوب ٠

أما عن موقف المماليك الموجودين داخل اليمن والذين استقروا فى زبيد تحت قيادة الأمير « برسباى » فقد كان من الطبيعى أن ينشأ صدام بينهم وبين الطاهريين بزعامة السلطان عامر بن عبد الوهاب ٠ وقد ظل السلطان عامر لا يعترف بنفوذ المماليك فى تهامة حتى قدر له ان يقتل وهو يقاتلهم على مقربة من صنعاء فى اليوم الخامس عشر من مايو سنة ١٥١٧ واستولى المماليك على صنعاء(٤) ٠ وهكذا انتهى حكم آخر سلاطين آل طاهر الذى تمكن من توحيد معظم أجزاء اليمن حتى امتد حكمه من صعده وجيزان فى الشمال الى عدن وحضرموت فى الجنوب ٠ وقد انقلب ميزان القوى فى اليمن بعد ذلك الى أيدى الأئمة الزيديين الذين عاصروا ـ فيما بعد ـ وصول الأتراك العثمانيين الى اليمن بعد ان ورثوا الحكم المملوكى بكل مشكلاته ، وفى مقدمتها مواجهة المنافسة البرتغالية فى البحار الشرقية فى ذلك الحين والحيلولة دون سيطرة البرتغاليين على منطقة البحر الأحمر على وجه الخصوص ٠

وقد اصطدم المماليك بعد سيطرتهم على صنعاء بالامام الزيدى شرف الدين ، الذى رفض التوجه الى صنعاء لمقابلة قائدهم ، كما رفض عقد أى اتفاق معهم ٠ وكان اصطدام الامام ـ حليف الأمس ـ بالمماليك أمرا متوقعا ، اذ أنه لم يطلب منهم امداده ببعض الجند والسلاح الا لتحقيق أغراضه الخاصة ومصالحه فى اليمن وليس لكى يستأثروا بالتسلط على البلاد لأنفسهم ، خاصة بعد أن سيطروا على

---

(١) قطب الدين : الاعلام باعلام بلد الله الحرام ، ص ١٢٨ ٠

(٢) Serjeant, R.E. : Op. Cit., p. 170.

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٨٩ ٠

(٤) يحيى بن الحسين : انباء ابناء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوطة ، ص ١٦ أ ٠

صنعاء ، الأمر الذى تعارض تماما مع تطلعاته وآماله . وقد تقدم المماليك لمحاصرة الامام شرف الدين فى « ثلاء » بعد أن فشلت محاولاتهم للاتفاق معه . وقد ظلوا يحاصرون مدينة « ثلاء » حتى وصلهم نبأ سقوط دولتهم المملوكية فى مصر على أيدى العثمانيين .

وهنا رفع المماليك حصارهم عن « ثلاء » وعادوا الى صنعاء فى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٥١٧ ، حيث أعلن قائدهم الأمير « اسكندر » خضوع المماليك فى اليمن للسيادة العثمانية (١) . كما فضل هذا الأمير ترك صنعاء والعودة الى زبيد لقربها من الساحل فوصل اليها فى ١٩ يولية سنة ١٥١٧ بعد أن واجهت الحملة فى طريقها اعتداءات كثيرة من قبل القبائل اليمنية ، (٢) مما يوضح مدى الضعف الذى حل بالمماليك فى اليمن بعد أن هزمت دولتهم على يد العثمانيين .

أما بالنسبة للبرتغاليين فقد ازداد خطرهم بعد وفاة « البوكيرك » فى شهر ديسمبر سنة ١٥١٥ وعين « لوبو سوريز » نائبا لملك البرتغال فى الهند (٣) . وقد تحددت خطة البرتغاليين فى القضاء على القوة المملوكية فى البحر الأحمر واغلاقه فى وجه السفن العربية ، كما أنهم تحالفوا مع الحبشة لاعلان الحرب المشتركة على القوى الاسلامية فى ذلك الحين (٤) . وقد ركز البرتغاليون هجومهم على جده التى أصبحت قاعدة المماليك للدفاع عن البحر الأحمر بعد فشلهم فى الاستيلاء على عدن فى سنة ١٥١٦ (٥) . ولهذا فان « لوبو سوريز » لم يهاجم عدن عند وصوله اليها على رأس حملة برتغالية ، بل انه طلب من واليها أن يمده بالمؤن اللازمة للحملة وببعض المرشدين البحريين لتوصيلها الى جده وذلك فى سنة ١٥١٧ .

وأمام هذه القوة البرتغالية اضطر الأمير مرجان حاكم عدن أن يلبى مطالب البرتغاليين حتى لا يحتلوا عدن . وهذا ما دفعه الى عدم اظهار عداوته للبرتغاليين حتى يتقى شرهم ، ولم يكن هذا الموقف تخاذلا تاما من قبله بدليل أنه قام أثناء وجود الحملة فى داخل البحر الأحمر بعمل كافة الاستعدادات الممكنة للدفاع عن عدن حتى لا يفاجأ بهجوم البرتغاليين عليها وهم فى طريق عودتهم الى الهند . كما انه جدد استعداداته للمرة الثانية عندما علم بوجود حملة برتغالية جديدة على مقربة من عدن فى سنة ١٥٢٠ (٦) . على أن الحملة البرتغالية الأولى فشلت

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوطة ، ج ١ ، ص ٦٣ أ .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٥٥ ب .

(٣) Wilson, A. : Op. Cit., p. 121.

(٤) Kammerer, A. : Op. Cit., Tom II., pp. 205, 266.

(٥) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 20.

(٦) Hunter, F.M. : Op. Cit., p. 163.

أمام جده بفضل التحصينات التى أقامها المماليك هنـاك ، ونتيجة للجهـود التى بذلها سلمان الرومى الذى طارد السفن البرتغالية بعد وصولها الى جزيرة كمران وتتبعها فى جنـــوبى البحر الأحمر حتى توصلت الى عدن ثم سارعت بمغادرتها الى مياه الهند ·

على أن البرتغاليين قد واصلوا جهودهم لتنفيذ خططهم فى البحر الأحمر على نحو ما بدا فى الحملة البرتغالية التى وصلت الى مدخـل هذا البحر فى سنة ١٥٢٠ والتى ركزت اهتمامها على مهاجمة جده على وجه الخصوص ، هذا فضلا عن انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية · وقد عاد البرتغاليون الى الاهتمام بعدن بعد أن فشلوا فى الوصـــول الى جده نظرا لمعاكسة الرياح لهم من جهة ووجود حشود كثيرة فيها من جهة أخرى ، مما جعلهم يخشون مهاجمتها · ولهذا رأوا من الأفضل لهم أن يسيطروا على عدن حتى لا تقع فى قبضة العثمانيين · وكان الأمير مرجان حاكم عدن قد أراد أن يقوى جانبه حينذاك بالاتصال بالأتراك العثمانيين · فقام باعداد خطاب طويل على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى كان قد قتل أثناء صراعه مع المماليك ، موقع عليه من قبل بعض الفقهاء والتجار فى عدن يؤكدون ما جاء به ، ووجهه الى السلطان العثمانى سليم الأول ، واشتكى فيه من أعمال حسين الكردى وسلمان الرومى أمام عدن ، ومن تصرفات المماليك فى اليمن ، كما أوضح الأسباب التى دفعته لمهادنة البرتغاليين حتى لا يعرض عدن للخطر (١) ·

وقد والى البرتغاليون ارسال حملاتهـم البحرية سنويا الى البحر الأحمر لمهاجمة ميناء جده دون جدوى ، كما هاجموا ميناء « الشحر » اليمنى ونهبوه فى سنة ١٥٢٣ اثنـاء توجههم الى مينـاء مصـــوع لتنسـيق التعاون بينهم وبين الأحباش (٢) · بل ان البرتغاليين وجهوا اسطولا بقيادة « دى سلفيرا » الى عدن من جديد وأجبروا حاكمها ــ الذى خلف الأمير مرجان بعد وفاته فى سنة ١٥٢١ ــ على عقد معاهدة معهم نصت على أن تدفع عن جزية سنوية للبرتغاليين ، وعلى أن تفتح ميناءها للسفن البرتغالية (٣) · غير أن نائب ملك البرتغال فى الهند وهو القائد البحرى الشهير « فاسكودا جاما » رفض ابرام هذه المعاهدة لأنه كان يؤمن بضرورة بسط ســيطرة البرتغاليين الكاملة على المراكز التجارية الهامة · وقد أدى ذلك الى قيام حملة برتغالية فى سنة ١٥٢٥ بضرب عدن بالمدافع وهى فى طريقها الى مصوع ولكنها لم تحقق أى هدف للبرتغاليين فى ذلك الحين ·

ولهذا فقد فضل البرتغاليون أخيرا عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن وقام « دى سلفيرا » بفرض هذه المعاهدة فى شهر فبراير سنة ١٥٣٠ · ونصت هذه

(١) بامخرمة أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن على : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر، مخطوطة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ١٢٠٥ ــ ١٢٠٦ ·

(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 23.

(٣) Kammerer, A. : Op. Cit., Tome II., pp. 283, 286.

المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية اليهم ، وذلك نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن ولكن بشرط عدم توجههم الى جده ، (١) ولكى يضمن البرتغاليون تنفيذ هذه المعاهدة تركوا فى ميناء عدن احـدى سفنهم وقوة قوامها أربعين برتغاليا ليشرفوا على الميناء وعلى ايراداته المالية (٢) ٠

على أن موقف حاكم عدن ازاء البرتغاليين فى ذلك الحين – الذى بدا فى اضطراره الى قبول عقد معاهدة معهم – قد أثار غضب اليمنيين مما جعله يتعرض لهجوم الفقهاء والعلماء عليه ٠ غير أن حجـة هذا الحاكم تركزت دائما فى حرصه على عدم تعرض عدن للاحتـلال الكامل من قبـل البرتغاليين المتفوقين حربيا من جهة ، وفى خشيته من هجوم المماليك عليها من داخل اليمن أو من ناحية البحر من جهة أخـرى ٠ وقد أضطره هذا الموقف الى مهـادنة البرتغاليين وعقد المعاهدة المذكورة معهم دون أن يقصد من وراء ذلك أن يتحول ليصبح عميلا لهم ٠ ومما يؤكد اخلاص هذا الحاكم لبلاده أنه قام بعـد مضى وقت قليل على رحيـل الحملة البرتغالية عن عدن بالقبض على البرتغاليين الموجودين فيها حينذاك وأودعهم السجن فى مؤخرة المدينة بالقرب من الجبال المحيطة بها ٠ بل انه سخرهم بعد ذلك فى صناعة الأسلحة والآلات الحربية التى يتقنون صنعها ٠ وفى نفس الوقت فقد قام هـذا الحاكم اليمنى بالكتابة الى السلطان سليمان القـانونى (١٥٢٠ – ١٥٦٦) يبلغه بالدخول فى طاعته (٣) ٠ وكان يهدف من وراء هذا التصرف أن يقوى من جانبـه بالاستعانة بهذه القوة الاسـلامية الفتية المتمثلة فى السلطنة العثمانية ليتمكن من مواجهة البرتغاليين اذا حاولوا مهاجمة عدن من جديد ٠

وهكذا ظلت عدن تحافظ على استقلالها وحريتها على الرغم من فقدها لمقوماتها الاقتصادية نتيجة للحصـار البحرى البرتغالى المفروض عليها من جهة ، وافتقارها لمسـاندة الجبهة الداخلية المنهارة بعد سقوط الدولة الطاهرية من جهة أخرى ٠ ولهذا اضطرت عدن الى الاعتماد على ذاتها حتى تمكنت من المقاومة حينا ، ومن مهادنة البرتغاليين حينا آخر ، ثم تقربت الى العثمانيين بعد ذلك حتى سقطت فى أيديهم فى سنة ١٥٣٨ ٠ وقد اتخـذها العثمانيون قاعدة للوثوب على البحـرية البرتغالية فى الهند من جهـة ، ثم للدفاع عن الحدود الجنوبيـة للامبراطورية العثمانية من جهة أخرى عند ما عجزوا عن تحقيق غايتهم الأولى ٠

ثالثا – تصدى العثمانيين لمواجهة الغزو البرتغالى لمنطقة البحر الاحمر :

بعد أن ورث العثمانيون حكم الدولة المملوكية فى سنة ١٥١٧ بدأوا يحملون لواء الحرب بأنفسهم ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية بوجه عام وفى البحر

(١) Kammerer, A. : Ibid., Tome II., pp. 287, 288.

(٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١١١ ٠

(٣) Serjeant, R.B. : Op. Cit., pp. 55, 59.

الأحمر بوجه خاص . اذ كان على العثمانيين أن يعالجوا أهم المشاكل السياسية والاقتصادية التى واجهوها فى مصر بعد أن حول البرتغاليون طريق التجارة عنها وعن منطقة الشرق الأوسط الى رأس الرجاء الصالح (١) ، مما جعل الحرب مع البرتغاليين ضرورة حتمية . وقد زاد من خطورة البرتغاليين فى نظر العثمانيين تحالفهم مع الشيعة الصفويين فى ايران الذين كانوا على عداء مذهبى مع الدولة العثمانية . كما حرص العثمانيون على الدفاع عن الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ضد الخطر البرتغالى لينالوا بذلك شرف حماية « الحرمين الشريفين » حتى تكون لهم الزعامة فى العالم العربى والاسلامى .

على أن خطوات العثمانيين لتدعيم نفوذهم فى البحر الأحمر اتصفت فى بداية الأمر بالضعف فى الفترة التى أعقبت احتلالهم لمصر حتى سيطروا على اليمن فى سنة ١٥٣٨ ، ويرجع السبب فى ذلك الى انشغالهم فى جبهات متعددة مما جعل سيادتهم فى هذا البحر سيادة اسمية رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلى هناك . وقد ظل المماليك يمثلون السيادة الاسمية للعثمانيين فى جنوبى البحر الأحمر وخاصة فى بلاد اليمن غير أنهم انصرفوا الى أعمال السلب والنهب ، كما انهم حاولوا الاحتفاظ بكيانهم الخاص هناك رغم اعترافهم بالسيادة للعثمانيين (٢) . ولكن نجاح بعض العمليات الحربية للبرتغاليين فى جنوب البحر الأحمر حتم على العثمانيين ضرورة اتخاذ خطوة ايجابية لحماية حدود امبراطوريتهم من الجنوب ودرء خطر الغزو البرتغالى الصليبى عن الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز .

وقد رأى العثمانيون أن سيطرتهم الفعلية على اليمن ستحقق أهدافهم فى حربهم ضد البرتغاليين . فهى بحكم موقعها الممتاز فى جنوب غرب الجزيرة العربية (٣) وبحكم اشرافها على مضيق باب المندب ، تعتبر منطقة دفاع هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية من ناحية الجنوب ، بحيث يمكنهم بالسيطرة عليها أن يضمنوا سلامة الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، وأن يتحكموا فى البحرين الأحمر والعربى ، فضلا عن امتلاك موطىء صالح للوثوب على البحرية البرتغالية فى البحار الشرقية ، وتطويق اعدائهم الشيعة الصفويين فى ايران من الجنوب ، وتحقيق أحلامهم بمد سيطرتهم شرقا الى أقاصى العالم الاسلامى (٤) .

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ - ١٨٦٦ ، ص ٩٣ .

(٢) I.O.B., Memorandum, «Three questions of considerable importance depend upon the right of sovereignty claimed by the Porte over the Yemen», p. 16.

(٣) الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ؛ ص ٥١ .
الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ص ٨ .

(٤) Scott, H. : In the High Yemen, p. 227.

وكانت الأوضـــاع الموجودة داخل اليمن نفسها قد عجلت بسقوطها فى يد الأتراك العثمانيين فى ذلك الحين ٠ اذ تعرضت خريطة اليمن السياسية فى الفترة الممتدة بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٨ لتغيرات كثيرة نتيجة الصراع الدائر بين الامامة الزيدية المتمركزة حول مدينة صعده فى الشـــمال ، وبين دولة الطاهريين التى تمثل آخر الدول السنية التى توالت على حـكم جنوبى اليمن وتهامة فى العصور الوسطى ٠ وكان لعدن الطاهرية السـيادة والسيطرة فى أواخـر تلك العصور حتى فقدت أسباب قوتها السياسية والاقتصادية عند بداية القرن السادس عشر الميلادى نتيجة لتحول طريق التجـارة العالمية الى رأس الرجـاء الصالح ٠ وهنا استطاعت صعده الزيدية ان تمد نفوذها الى باقى أجزاء اليمن لتملأ الفراغ الذى خلفته عدن التى انهارت بانهيار الدولة الطاهرية ٠ ولهذا كان على العثمانيين أن يسارعوا الى ملء الفراغ الموجود جنوبى البحر الأحمر حتى يمكن التصدى للغزو البرتغالى بعد أن ضعفت القوى المحلية عن مواجهتـه كمـا عجز المماليك ــ رغم مســاندة العثمانيين لهم فى كفاحهم المرير ضد البرتغاليين عن طردهم من البحار الشرقية ٠ وقد أعاد العثمانيون لعدن وجنوبى اليمن بعض الأهميـة والسـيادة وذلك بفضـل قوتهم وامكاناتهم الحربية الضخمة ٠ غير أن ذلك الوضع لم يستمر طويلا نظرا لأن الامامة الزيدية فى صعدة قادت نضالا مريرا ضد العثمانيين وضد جهودهم للسيطرة على مقدرات اليمن ، حتى نجحت أخيرا فى تأكيد حقها الشرعى فى السيادة على بلادها واجـلاء العثمانيين عنها بعد قرن كامـل من الزمان ، لم يستطع العثمانيون أن يعيدوا فيه لتلك البلاد رخاءها الاقتصادى وأسباب قوتها المادية ، وبالتالى عجزوا عن تحقيق معظم الغايات التى جاءوا الى اليمن من أجل تحقيقها ٠

وعلى أية حال فيمكننــا أن نتتبع خطوات العثمانيين فى البحـــر الأحمـر وجهودهم لتدعيم نفوذهم الفعلى فى بلاد اليمن بعد أن ضعفت الحامية المملوكية هناك ــ رغم اعترافها بسيادة العثمانيين ــ عن تحقيق أهدافهم فى الفترة الممتدة بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٨ (١) ٠ كما لم تؤد الحملة البحرية الأولى التى أرسلها العثمانيون الى جنوب البحر الأحمر والى الهند فى سنة ١٥٢٦ وتكونت من عشرين سفينة الا الى زيادة المنازعات بين الأمراء المماليك داخل اليمن ــ وان كانت قد نجحت نسبيا فى القضـاء على بعض العناصر القوية هناك مما مهد السبيل أمام العثمانيين فيما بعد للسيطرة على البـلاد (٢) ٠ غير أن هذه الحملة لم تتمكن من القيـام بعمل يذكر فى الهند ضد البرتغاليين الذين ازداد خطرهم بتحالفهم مع الصفويين فى ايران ، وقد تأكد العثمانيون من ذلك الخطر بعد دخول امراء البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة الدولة العثمانية فى أعقاب فتح بغداد فى سنة ١٥٣٤

---

(١) ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية ، مخطوطة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٧ ب ٠

(٢) ابن داعر : نفس المصدر ، مخطوطة ، ج ١ ، ق ١ ص ١٨٨ أ ٠

بحيث أصبح العثمانيون يواجهون البرتغاليين مباشرة فى الخليج العربى (١) ٠

ولهذا قرر العثمانيون توجيه حملة ثانية الى الهند لتحقيق غاياتهم وأهمها طرد البرتغاليين من البحار الشرقية ٠ وبناء على أوامر السلطان سليمان القانونى تم تجهيز حملة قوية أبحرت من ميناء السويس فى ٢٧ يونية سنة ١٥٣٨ بقيادة سليمان باشا الخادم الذى كان واحدا من مماليك السلطان سليم الأول المقربين اليه (٢) ٠ وقد اتخذ قائد الحملة كافة الخطوات اللازمة لتنفيذ خطة العثمانيين العامة فى البحر الأحمر والتى تستهدف سيطرتهم عليه قبل ارسال الاسطول العثمانى الى الهند ٠ وقد اتصل سليمان الخادم بالأمراء الحاكمين فى جهات البحر الأحمر وخاصة أمراء الساحل اليمنى مثل أميرى عدن والشحر طالبا اليهم الدخول فى طاعة العثمانيين ٠ وقد قبل سلطان الشحر بدر الطويرق اعلان ولائه للعثمانيين ، بينما راوغهم عامر بن داود الطاهرى حاكم عدن ولم يرد على رسالة سليمان باشا اليه ، فكان ذلك من أسباب قتله غدرا عقب وصول الحملة الى عدن ٠

وقد وصلت الحملة العثمانية الى عدن (٣) فى اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٨ ، (٤) وما أن شاهدها عامر بن داود حتى اضطر الى أن يغير من سياسته ازاء قوة العثمانيين الهائلة ٠ ولهذا فقد أحسن استقبال الحملة وفتح أمامها أبواب المدينة حتى يحصل الجنود على ما يشاءون من طعام ومؤن بناء على مطلب سليمان باشا الخادم ٠ غير أن الأخير كان قد كلف جنوده سرا بقيادة الصوباشى فرحات بالاستيلاء على عدن عقب دخولها مباشرة٠وقام الجنود العثمانيون بتنفيذ الخطة على الفور ، بل انهم قاموا أيضا بسلب المدينة ونهبها حتى استدعاهم بعض القادة حرصا منهم على عدم اشاعة الفوضى فى المدينة ٠ وفى نفس الوقت الذى دخل فيه الجنود العثمانيون مدينة عدن كان عامر بن داود قد توجه الى سفينة القيادة ومعه ستة من كبار اتباعه لمقابلة سليمان باشا الخادم بناء على دعوته ٠ وقد أحسن الأخير استقبالهم فى بداية الأمر وخلع عليهم (٥) ٠ حتى وصله نبأ احتلال جنوده لمدينة عدن ، فتنكر لعامر بن داود ورفاقه (٦) وأمر بشنقهم على صارى سفينته وتركهم معلقين به لمدة ثلاثة أيام (٧) ٠

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ٠

(٢) Hammer, J. : Histoier de l'Empire Ottoman, Tome, 5, p. 302.

(٣) Playfair, R.L. : Op. Cit., p. 101.

(٤) I.O., Memorandum, Turkist Claim of Sovereignty in Yemen, Sovereignty Over Mocha, Sovereignty over Aden, pp. 15, 22.

(٥) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوطة ، ج ١ ، ص ١٨ أ ٠

(٦) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، مخطوطة ، ص أ ٠

(٧) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٨٨ ٠

وهكذا تم استيلاء العثمانيين على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم اليها أى فى اليوم الثامن من اغسطس سنة ١٥٣٨ (١٢ ربيع الأول سنة ٩٤٥ هـ)٠ وقد أمر سليمان باشا الخادم بقتل من بقى من آل طاهر ، وكانت عدن آخر معاقلهم ، كما أمر بمصادرة ممتلكاتهم ، وذلك بحجة أنهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين ٠ وقد أنكر كثير من المؤرخين هذه التهمة (١) التى تتعارض تماما مع ما سبق أن أوضحناه عنهم من قبل ٠ وقد أناب سليمان باشا الخادم على حكم عدن أحد سناجق الحملة وهو الأمير « بهرام » تسانده قوة قوامها خمسمائة مقاتل عثمانى ، كما حصن مدينة عدن بالمدافع (٢) ٠ وقد أخفى سليمان باشا الخادم اسلوبه الغادر فى عدن عن المسئولين العثمانيين فى استانبول ، وذكر فى رسالة بعث بها الى السلطان العثمانى « انه أخذ عدن قهرا » (٣)٠غير أن أسلوب سليمان الخادم الذى اتصف بالغدر أفقد العثمانيين ثقة أهالى هذه المناطق ، كما انه ضيع عليهم فرصة تكوين جبهة اسلامية فى البحار العربية والمحيط الهندى لمواجهة خطر البرتغاليين المتزايد (٤) ٠

وبعد أن سيطر العثمانيون على عدن أبحرت حملتهم متجهة الى « ديو » لتحقيق المرحلة الثانية من خطتهم الرامية الى محاربة البرتغاليين فى البحار الشرقية ٠ وقد وصلت الحملة الى « ديو » فى اليوم الرابع من سبتمبر سنة ١٥٣٨ غير انها فشلت فى تحقيق غايتها نتيجة لضعف شخصية قائدها سليمان الخادم من جهة ، وضعف جبهة حلفائها الهنود فى سلطنة « كجرات » وباقى سلطنات ساحل الهند الغربى من جهة أخرى ٠ وكل ما فعلته هذه الحملة هى أنها حاصرت القلعة البرتغالية فى « ديو » من ناحية البحر فى اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٥٣٨ ٠ بل ان هذا الحصار لم يستمر طويلا بعد أن أدخل على العثمانيين نبأ وصول نجدة برتغالية الى « ديو » ٠ اذ قرر سليمان الخادم رفع الحصار والعودة الى الشواطىء العربية وذلك فى اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٥٣٨ (٥) ٠ وبذلك اكتفى العثمانيون بأن يكون هدف حملتهم قاصرا على اتمام فتح السواحل اليمنية التى يمكن عن طريقها تأمين امبراطوريتهم من الجنوب وحتى يعوضوا أنفسهم عن الفشل (٦) الذى منوا به فى محاربة البرتغاليين على السواحل الهندية ٠

---

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٢ ٠

(٢) Serjeant, R.B. : Op. Cit., p. 95.

(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ؛ ص ١٨ ب ٠

(٤) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ؛ ص ١٤٦ ٠

(٥) Ross E. Denison : The Portuguese in India and Arabia, J.R.A.S.. Part 1, January 1922, p. 17.

(٦) العقيل ، محمد بن أحمد عيسى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، ج ١ ، م ٢ ، ص ٣٠٧ ٠

واذا كان العثمانيــون قد نجحوا فى السيطرة بعض الوقت على الثغــور البحرية الواقعة على طوال الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية بما فيها ميناء عدن وثغور حضرموت ، كما نفذوا الى داخــل الخليج العـــربى حتى وصلوا الى البصرة واتصلوا بالامارات العربية فى الخليج كعمان والاحساء والبحرين والكويت، فان سلطانهم لم يستقر هناك نظرا لأن سكان الداخلية لم يعترفوا بالولاء للسلاطين العثمانيين مما أدى الى زوال نفوذهم عن تلك المناطق فى وقت قصير (١) ٠

وعقب وصول سليمان الخادم الى ميناء الشحر اليمنى بدأ فى اتخاذ الخطوات التنفيذية لاخضـــاع السواحـــل اليمنية للسيطرة العثمانية ٠ وقد أصدر أمره بتولية السلطان بدر الطويرق على حكم حضرموت تحت سيادة العثمانيين على أن يدفع لهم جزية سنوية (٢) ٠ ثم اتجه بعد ذلك الى عدن التى أبحر منها الى ميناء مخا حيث أنزل قواته الى الساحل اســتعدادا لاخضاع المماليك فى زبيد لسيطرة العثمانيين ٠ وقد أغرى الناخودة أحمد بتعيينه حاكما لليمن نيـــابة عن الدولة العثمانية (٣) ٠ غير أنه غدر به كما غدر بعامر بن داود وأمر بقتله فى ٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩ ، وقام بتعيين أحـــد أمراء الحملة وهو مصطفى بك نائب « غزة » الســـابق حاكما لزبيد والمناطق التهاميـــة فى اليمن التى كانت خاضـــعة للحكم المملوكى ٠ وقد اســـتعان سليمان الخادم بكثير من المماليك فى بعض المنـــاصب الادارية والحربية مستفيدا من خبرتهم فى شئون اليمن ٠

واذا كان العثمانيون قد قضوا على الطاهرين بعد استيلائهم على عدن من جهة ، واخضعوا المماليك بعد اســتيلائهم على زبيد من جهة أخرى ، فان ذلك كان يعنى بداية المواجهة المباشرة بينهم وبين القوة الثالثة فى اليمن وهى الامامة الزيدية من جهة ثالثة،وهى التى كان يتزعمها حينذاك الامام الزيدى شرف الدين بن يحيى ورغم محاولة سليمان الخادم اســتدراج الامام شرف الدين عن طريق الرســـل والرسائل على نحو ما فعل مع عامر بن داود والناخودة أحمد ، غير أن الامام كان متيقظا حذرا ، ولهذا ظل الطرفان يتبادلان الرسائل حتى غادر سليمان الخادم بلاد اليمن (٤) دون ان ينجح فى القضاء على شرف الدين (٥) ٠

وقد حرص سليمان الخادم على احكام ســـيطرة العثمانيين على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر حتى يمنع تسرب أية ســـفينة برتغالية عبر مضيق باب المندب ٠ ولهذا اهتم بتحصين جزيرة كمران وذلك بانزال بعض مدافع الاسطول الكبيرة اليها ٠ كما قام باخضاع ميناء « جيزان » للسيطرة العثمانية أثناء عودته

(١) Sanger, R. : The Arabian Peninsula, p. 220.
(٢) Serjeant, R.B. : op. Cit., p. 106.
(٣) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، مخطوطة ، ص ١٩ أ ٠
(٤) ابن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهـات اليمانيـة ، مخطوطة ، ج ١ ، ق ١ ص ١٨٨ ب ٠
(٥) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوطة ، ص ١٢٢ ٠

الى جدة ووضعه تحت الاشراف المباشر لوالى زبيد العثمانى (١) • وأخيرا وصل سليمان الخادم الى جدة فى ١٣ مارس سنة ١٥٣٩ ومكث فيهـــا بعض الوقت ثم عاد بعد ذلك الى الآستانة (٢) ، بينما عادت الحملة العثمانية الى مصر بعـــد أن انتهت من عملياتها على الساحل اليمنى •

على أن الامور لم تستقر فى يد العثمانيـــين فى عدن على الرغم من أن سليمان باشا كان قد ترك حامية قوية هناك لتدعيم السيطرة العثمانيـة عـــلى المدينة • غير أن سكان عدن قاموا بثورة ضد الأتراك مما اضطر العثمانيين الى توجيه أسطول قوى يقوده « برى باشا » لاقرار الامور فى عدن فى سـنة ١٥٥١ وليحفظ للدولة العثمانية هيبتها فى هذه الجهـات • وقد قام « برى » بقصف تحصينات عدن واستولى عليها بهجوم خاطف وطرد البرتغاليين الذين كانوا قـد انتهزوا الفرصة ونفذوا الى هناك ، ثم ترك فيها حامية قوية وأبحـــر عائدا الى مصر (٣) • وعلى أية حال فقد ارتبطت العمليات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين عند المدخل الجنوبى للبحر الاحمر وفى خليج عدن والمحيط الهندى بفكرة أن عدن هى القاعدة الأساسية من الناحية الاستراتيجية لهذه العمليات ، مما أوجب على العثمانيين ضرورة المحافظة على بقائها فى أيديهم (٤) •

ولم ينقض النصف الأول من القرن السادس عشر الا وكان العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الأحمر واستولوا على الموانى الهامة على شاطئيه الافريقى والآسيوى وهى سواكن وعقيق ومصوع ودوهونو على الساحل الافريقى• كما استولوا على عدن وحصنوا جدة على الساحل الآسيوى ، وجعلوا من البحر الاحمر بحيرة عثمانية أغلقوها فى وجه السفن المسيحية • وفى منتصف هـــذا القرن أيضا عين العثمانيون حاكما تركيا على مصوع وآخر على سواكن ، ووضعوا هذين الحاكمين تحت اشراف والى جدة وهو حاكم الحجاز ، كما استعانوا بأحـــد الزعماء الوطنيين وهو نائب « أركيكو Arikiko » للمعاونة فى أعمال الحكومة بمصوع ، واستعانوا أيضا بآخر مثله فى سواكن ، وكلفوهما بجباية الضرائب من القبائل المنتشرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر (٥) •

وتجدر الاشارة الى أن نضال العثمانيين ضد البرتغاليين قد امتد كذلك الى الساحل الشرقى لأفريقيا • فقد أرسل السلطان العثمـــانى مراد الثـــالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٥) القائد البحرى « ميرال بك Mirale Bey » فى سـنة

(١) قطب الدين : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص ٩٩ ب •

(٢) Playfair, R.L. : Op. Cit., pp. 102, 103.

(٣) Hunter, F.M. : Op. Cit., p. 163.

(٤) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن عام ١٥٣٨ ؛ رســالة ماجستير قدمت لكلية الاداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٤ ، ص ١ •

(٥) Plowden, W. : Travels in Abyssinia and the Galla Country, pp. 2-3.

١٥٨٨ بقوة لتخليص البلاد الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقى لافريقيا من السيطرة البرتغالية • وقد قوبل القائد العثمانى بالترحاب من قبل سكان الامارات الاسلامية فى « مدغشقر » و « براوا » و « قسيمايو » اذ نظروا اليه نظرة المخلص من يد الاجنبى وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين عن الولاء للبرتغاليين (١) • غير أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يحتفظوا فى هذه البلاد بقوات تثبت سلطانهم وتحمى السكان من اغارات البرتغاليين الذين ما لبثوا أن استعادوا سلطانهم وانتقموا من السكان الذين أظهروا ولاءهم للعثمانيين •

وقد اتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السواحل الافريقية الشرقية بما فيها السواحل الافريقية للبحر الأحمر صورا متعددة ، منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون الممالك الاسلامية المحيطة بهضبة الحبشة والتى سميت بممالك الطراز • بينما كانت البرتغال تؤيد الحبشة وتعينها على مهاجمة هذه الممالك الاسلامية المحيطة بها • وظل ذلك الصراع حتى القرن السابع عشر عندما فترت الحمية فى الدولتين وضعفت قوتيهما فتركت الدولة العثمانية اليمن فى سنة ١٦٣٥ ولم يبق تحت سيادتها الا بعض الثغور الافريقية كمصوع، بينما اضطر البرتغاليون للتنازل عن مكانتهم فى البحار الشرقية لمنافسيهم الهولنديين على النحو الذى سنوضحه فيما بعد •

على أن البرتغاليين عندما وضعوا أيديهم على طرق التجارة بين الشرق والغرب فى القرن السادس عشر أخذوا يروجون لبضائع الشرق المربحة فى أسواق أوربا • ولا شك أن تجارة الرقيق كانت من أهم السلع التى ساهم البرتغاليون فى ترويجها حتى أصبحت تجارة رابحة لها أسواقها وعملاؤها • وهناك عدد من الكتاب الأجانب أمثال « كوبلاند » و « جونستون » يلصقون بالتجار العرب فى جنوب الجزيرة العربية وفى الامارات العربية بشرق أفريقيا فتح باب تجارة الرقيق الافريقى (٢) • على أن هؤلاء الكتاب لا ينكرون أن هذه التجارة التى كانت معروفة بين الافريقيين انفسهم أصبحت تمارس على نطاق واسع بفضل جهود البرتغاليين وغيرهم من التجار الأوربيين (٣) الذين تدفقوا على هذه المناطق واستطاعوا بامكاناتهم المادية والحربية أن يساهموا فى هذا الميدان ويروجوا تجارة الرقيق ، كما انهم لم يغفلوا الدور الحضارى الذى قام به العرب للارتقاء بأهالى المناطق التى وصلوا اليها (٤) • وقد ظلت تجارة الرقيق مزدهرة فى الممتلكات البرتغالية فى افريقية بصفة خاصة حتى سنة ١٨٧٨ ،

(١) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, p. 59.

(٢) Coupland, R. : The British Anti-Slavery Movement, pp. 13, 15

(٣) Coupland, R. : Op. cit., pp. 32, 35.

(٤) Johnston, H. : History of the Colonization of Africa, p. 151.

وكانت « داهومى » و « أنجولا » مركزين هامين لهـذه التجارة البشرية (١) . اذ كان البرتغاليون يصدرون الرقيق منهما لاستخدامه فى الأمريكتين (٢) .

وقد ادعت بريطانيا فى القرن التاسع عشر أنها مكلفة ، قبـل غيرها ، بالقضاء على تجارة الرقيق فى العالم ، مستندة فى ذلك الى قوة أساطيلها وبعد مدى مدفعيتها للتحكم فى البحار الشرقية وفى اقتصـاديات العالم باسـم الانسانية . وستجبر الدول الاخرى كذلك على الاشتراك معها فى هذه الحـركة التى حاولت تشكيل الاقتصاد العالمى بأشـكال جديدة فى صـالح الدول الاستعمارية ، وقد ظهر هذا واضحا فى الاتهامات التى وجهتها الدول الاستعمارية نفسها ضد بعضها البعض فيما بعد حينما نشب الخلاف بين صفوفها . غير أن هذه الدول الاستعمارية اشتركت جميعها فى العمل على وقف حـركة الملاحة العربية فى المحيط الهندى بدعوى أن سفن العرب لا تعمل الا فى نقل السـلع البشرية فى مياه هذا المحيط ، واستتروا بذلك وراء نزعاتهم الـكاذبة لتحرير الجنس البشرى .

وتجدر الاشارة الى أن العرب فى البحار الشرقية بوجه عام وفى البحر الأحمر بوجه خاص ، قد رحبوا فى بداية الأمر بمساعدة العثمانيـين المسلمين لهم فى كفاحهم المرير ضـد البرتغاليين وغيرهم من الأوربيـين الذين جاءوا لاستعمار بلادهم والسيطرة على مقدراتهم . كما قبلوا أن ينزلوا للعثمانيـين عن قيادة المعركة ، بل وأيضا عن السيادة فى دارهم مما مهد السـبيل أمام العثمانيين للسيطرة على معظم البلاد العربية وخاصـة فى حوض البحر الاحمر فى فترة قصيرة . وكان ذلك بمثابة الثمن الذى تقاضاه العثمانيون لقاء الحملات التى وجهوها من قاعدة السويس الى البحار الشرقية ، والتى انتهت جميعهـا الى الخليج العربى ، وان كان بعضها قد وصل الى سواحل الهند .

واذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغـالى ، وتامين البلدان العربية وخاصة فى حوض البحر الأحمر من عدوان البرتغاليين ، فانهـم عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم السيطرة البرتغاليـة فى البحار الشرقية ، وشق طرق واسعة للتجارة والملاحين العرب . ويرجع سبب اخفاق العثمانيين فى تحقيق تلك الغاية الى عجزهم عن تاليف العرب والمسلمين فى البحار الشرقية ليوحدوا قواهم جميعا لمكافحة السيطرة البرتغالية . ومن النتائج التى أسفر عنها اخفاق العثمانيين فى هذا السبيل أنهم أهملوا قواعدهم فى الخليج العربى ، مما أتاح الفرصة للعرب هناك للاحتفاظ باستقلالهم (٣) .

---

(١) Coupland, R. : Op. Cit., p. 34.

(٢) جلال يحيى (دكتور) : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٧ .

(٣) صلاح العقاد (دكتور) : الاستعمار فى الخليج « الفارسى » من تقديم كتبه الدكتـور أحمد عزت عبد الكريم ، ص ٦ .

ولما كانت البلاد العربية فى حوض البحر الاحمر - ومن بينها اليمن بمينائهـــا الهام عدن - أقرب للعثمانيين من بلدان الخليج العربى فقد شجعهم ذلك عــلى التمسك بها ، ومحاولة الابقاء على تبعيتها لدولتهم أطول فترة ممكنة ٠

على أن العرب فى حوض البحر الأحمر وخاصة فى بلاد اليمن ، ثاروا على العثمانيين عندما أحســوا برغبتهم فى انتزاع حريتهـــم والســـيطرة على مقدراتهم (١) ٠ وقد بدأ ذلك عندما بالغ العثمانيون فى اتباع سياسة الغـــدر والتسلط والعنف ازاء العناصر العربية التى كانت تحرص على التمتع بحريتهـا واستقلالها فى أراضيها ٠ ولهذا فان التاريخ الحديث لمنطقة البحر الأحمر وخاصة لبلاد اليمن ملىء بالثورات العنيفة والمقاومة الضارية ضد العثمانيين حتى أنهـــم لم يتمكنوا من البقاء فى اليمن بعد ان فتحوها فى سنة ١٥٣٨ أكثر من قرابة قرن واحد من الزمان ، ثم تركوها فى سنة ١٦٣٥ ولم يعودوا اليها الا فى منتصف القرن التاسع عشر ليقيموا حكمهم فيها قرابة نصف قرن آخر تحولت فيه اليمن الى « مقبرة » لأبناء الأناضول (٢) ٠ حتى تم جلاؤهم عنها بعد هزيمة دولتهم فى نهاية الحرب العالمية الأولى (٣) ٠

وعلى أية حال فقد قام العثمانيون بعد الطاهريين والمماليك بدورهـــم فى مواجهة غزو البرتغاليين الاستعمارى للبحار الشرقية بوجه عام وبالتصــــدى لمحاولاتهم العدوانية فى منطقة البحر الأحمر بوجه خاص ، حتى خبـــا نجم البرتغاليين هناك فى نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى أن البرتغال فقدت استقلالها وضمت الى اســـبانيا فى سنة ١٥٨٠ ، مما أدى الى تدهور قوة البرتغاليـــين على الرغم من أن ملوك اسبانيا ظلوا يرعون مصالح الامبراطورية البرتغالية لفترة غير قصـــيرة (٤) ٠ كذلك اتصف البرتغاليون بالتعصب والقسوة فى معاملة شعوب المناطق التى سيطروا عليها ، كما أنهم لم يكترثوا بتنظيم التجارة مع تلك الشـــعوب (٥) ٠ بل ان سياسة البرتغاليين كانت ترمى الى القهر العسكرى ثم استغلال الشعوب المقهورة فى الحصول على المواد الخام ٠ كمـا أنهم اعتمدوا اعتمادا كليا على الرقيق والمرتزقة من الهنود وهو أمر لم يكن فى صالحهم نظرا لارتباط هؤلاء بأهالى البلاد الأصليين بطبيعة الحال مما جعلهم لا يتفانون فى الحفاظ على المصالح البرتغالية ٠

---

(١) I.O.L., Memorandum, Turkish Claim of Sovereignty in Yemen, p. 17.

(٢) Jacob, H.F. : Kings of Arabia, p. 75.

(٣) فاروق عثمان اباظة : الحكم العثمانى فى اليمن (١٨٧٢ - ١٩١٨) رسالة ماجستير قدمت لكلية الاداب بجامعة الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٦٦ وتناولت بالتفصيل تاريخ العثمانيين فى اليمن فى الفترة المذكورة ٠

(٤) Fisher, H.A.L. : History of Europe, Vol. I, p. 605.

(٥) Wilson, A.T. : Op. Cit., p. 122.

بل ان من أهم الأسباب التى أضعفت النظام الاستعمارى البرتغالى فى بلدان الشرق بوجه عام ، هو أن الملك كان يحتكر تجارة السلع المربحة ، فلم يترك مجالا للبرجوازية التى كانت أكثر نشاطا فى النظامين الهولندى والبريطانى على النحو الذى سنوضحه فيما بعد • اذ أن تأسيس البرجوازية للشركات الاحتكارية كان يربط مصالح كثير من الافراد بحركة الاستعمار • هذا فضلا عن عدم وجود نظام دقيق فى البحرية ، وتكرر حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط • وسوف يعقب انهيار القوة البرتغالية ظهور قوى بحرية أجنبية فى المحيط الهندى ومنطقة البحر الاحمر فى أوائل القرن السابع عشر ، وتمثلت هذه القوى فى الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ، وقد تميزت هذه القوى المنافسة بأنها كانت أكثر ادراكا للمصالح التجارية (١) • ولهذا فانها قد استطاعت أن تحظى بمنافع أفضل من ثروات المنطقة ، وخاصة تلك المنافع الهائلة التى حصلت عليها بريطانيا على مدى فترة طويلة من الزمن استمرت حتى النصف الثانى من القرن العشرين •

ولهذا فقد دخلت هولندا حلبة الصراع فى البحار الشرقية بوجه عام وعند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر بوجه خاص ، لتحقيق أهدافها الاستعمارية ، ثم اعقبتها كل من بريطانيا وفرنسا فى هذا المضمار مما أدى فى النهاية الى تحطيم الاحتكار البرتغالى لتجارة الشرق (٢) ، الذى استمر قرابة قرن من الزمان منذ أن وصلت السفن البرتغالية الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر • ثم كان لبريطانيا وفرنسا على وجه الخصوص تأثيرات بالغة على تاريخ العالم لعدة قرون ، وقد انعكست هذه التأثيرات على البحار الشرقية بوجه عام ، وعلى منطقة البحر الاحمر بوجه خاص على النحو الذى سنوضحه على مدار هذا البحث •

رابعا ـ النشاط الاستعمارى الهولندى فى منطقة البحر الأحمر :

تبينا فيما سبق أن البرتغاليين كانوا يهدفون من وراء توسعهم الاستعمارى فى البحار الشرقية الى القهر العسكرى الصليبى واستغلال قوتهم الحربية فى الحصول على موارد اقتصادية ، وعندما أفل نجم البرتغاليين ظهر الهولنديون والانجليز والفرنسيون فى المحيط الهندى فى أوائل القرن السابع عشر واتبعوا سياسة جديدة ، كان محورها العناية بالتجارة فى المقام الأول ثم تأتى القوة الحربية لحماية تلك التجارة فى المقام الثانى • وقد تكفلت شركات تجارية مساهمة بحركة الاستعمار الهولندى والبريطانى والفرنسى فى القارة الآسيوية وتأسست الشركتان الهولندية والانجليزية فى عامى ١٥٩٤ و ١٦٠٠

---

(١) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ٢١ •

(٢) بانيكار ، ك • م : آسيا والسيطرة الغربية (تعريب عبد العزيز توفيق جاويد ، ومراجعة أحمد خاكى ، ص ٦٦ •

على التوالى . وبمضى الزمن حصلت هاتان الشركتان على « حقـــوق الملكية » ، فكانت الحكومات تتنازل لها عن حق اعلان الحرب ، وعقد المعـــاهدات مع الدول الآسيوية أو الافريقية التى تقع فى مناطق احتكارها . وبينما تركزت جهـــود شركة الهند الشرقية الهولندية فى جزر الهند الشرقية ، انصرفت شركة الهند الشرقية البريطانية الى شبه جزيرة الهند ذاتها . ولكن ذلك لم يمنع الشركتين من أن توسعا أعمالهما فى جميع السواحل الواقعة على طول الطريق الى مناطـق امتيازاتهما (١) ، ومن بينها سواحل البحـــر الأحمر والســـاحل الجنـــوبى للجزيرة العربية .

على أن نشاط هولندا فى البحار الشرقية قد ظهر ـ شـأنها فى ذلك شأن الدول المطلة على المحيط الاطلسى ـ بعد أن ضعفت الدول المطلة على البحر المتوسط نتيجة لتحول التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح . كمـا حدث ذلك أيضا بعد أن استولى « فيليب الثانى » ملك اسبانيا على عرش البرتغال فى سنة ١٥٨٠ بعد وفاة ملكها « هنرى » وانقراض الذكور من البيت المـالك البرتغـالى (٢) . اذ أن « فيليب الثانى » فى سنة ١٥٩٤ قد حرم البرتغاليين الذين صاروا من رعاياه الاتجار مع الهولنديين ، مما جعل هؤلاء يتطلعون الى السيطرة على امبراطورية البرتغال التى آلت للاســـبان ليحرموهم من مصدر ثروتهم .

ولهذا بدأ الهولنديون نشاطهم الاستعمارى فى أواخر القـرن السادس عشر ، فأسسوا شركة الهند الشرقية الهولندية The Dutch East India Company التى كان يقوم بادارتها مجلس مقره فى « أمستردام » وتشرف عليـه الحـكومة الهولندية (٣) . وقد وجهت هذه الشركة فى سنة ١٦١٤ أسطولا الى البحـــر الاحمر يقوده « بيتر نان دين بروك Pieter Van den Broecke » للحصول على المعلومات اللازمة لتنشيط حركة التبادل التجارى فى سواحل البحر الأحمر (٤) .

وقد استقبل قائد الأسطول الهولندى استقبالا طيبا عندما وصـل الى عدن وقام بابلاغ حاكمها العثمانى بانه يحمل تصريحا من الصدر الأعظم يسمح له بحرية التجارة فى جميع أجزاء السلطنة العثمانية . غير أن الحاكم العثمانى أجابه بانه مع احتفاظه بالعلاقات الودية بينهما فان عليه أن يعـرض الامر على الوالى العثمانى فى اليمن لاستطلاع رأيه . كما أن حاكم عدن العثمانى أشـار على قائد الأسطول الهولندى بأنه من الافضل مغادرة الميناء حفاظا على مشـــاعر التجـار

(١) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ٢٧ .

(٢) Fisher, H.A.L. : Op. Cit., p. 605.

(٣) Fisher, H.A.L. : Ibid., p. 599.

(٤) Hunter, F.M. : Op. Cit., p. 164.

المقيمين فى عدن الذين اعتبروا مجيء الهولنديين يشكل خطرا على مصالحهم • وقد استجاب قائد الأسطول الهولندى لمطلب حاكم عدن وأبحر شرقا تجاه الشحر حيث استقبل فيها وتمكن من اقامة وكالة هولندية هناك • ثم أبحر بعد ذلك الى البحر الاحمر ووصل الى ميناء مخا اليمنى فى سنة ١٦٢٠ ، فاستقبله حاكمها استقبالا وديا ، وأوضح أنه يوافق على اقامة وكالة هولندية فيها فى حالة ما اذا وافق والى اليمن العثمانى على ذلك • كما تم الاتفاق بينهما على أن تكون ضرائب الجمارك بنسبة ٣٪ ، وحصل « بيتر فان دين بروك » أيضا على تصريح من حاكم مخا لزيارة مدن اليمن المختلفة وعلى توصية لحكام مناطق اليمن ليحسنوا معاملته •

وقد توجه « بيتر فان دين بروك » بعد ذلك الى صنعاء حيث قابل الوالى العثمانى الذى أوضح له أنه لا يملك سلطة الموافقة على اقامة وكالة هولندية فى مخا لأن مثل هذا التصريح يصدر من السلطان العثمانى نفسه • كما أشار الوالى الى خشية رعاياه المسلمين من التدخل الأجنبى فى شئونهم • وكان الوالى العثمانى يهدف من وراء ذلك الى المحافظة على سلامة الأماكن الاسلامية المقدسة التى يعرضها للخطر اقتحام أية قوة أجنبية مسيحية للبحر الأحمر (١) • وازاء اصرار الوالى العثمانى اضطر « بيتر فان دين بروك » الى مغادرة صنعاء ولم يستطع أن يحصل على تصريح من الوالى يسمح بالتبادل التجارى مع الموانى اليمنية وبتخفيض الضرائب الجمركية لتصبح نسبتها ٣٪ ، لأن مثل هذا التصريح كان من شأنه ان يثير حفيظة التجار الآخرين من فرس وهنود الذين كانوا يدفعون ضرائب جمركية وصلت نسبتها الى ١٦٪ وكانت تشكل بذلك جزءا هاما من حصيلة الولاية (٢) •

وأخيرا بعد أن فقد « بيتر فان دين بروك » كل أمل فى اقامة وكالة تجارية فى مخا ، فقد قرر نقل بعثته التجارية لتدعيم مركز الهولنديين فى « الشحر » ، وعاد الى الهند بعد ذلك دون أن يحقق لهولندا ما كانت تطمح اليه فى منطقة البحر الاحمر • ولهذا أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية فى سنة ١٦٥٢ محطة عند رأس الرجاء الصالح لتزويد سفنها بما يلزمها خلال رحلاتها الطويلة الى جزر الهند الشرقية والى الشرق الأقصى • كمابذل الهولنديون جهودهم لتشجيع هجرة بنى جنسهم الى هذه الجهات (٣) •

وتجدر الاشارة الى أنه مما خفف من حدة الضربة الاقتصادية الشديدة التى أصيبت بها اليمن نتيجة لتحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، انتشار زراعة البن فى اليمن واستمرار تصديره لبلدان الشرق الأوسط وأوربا

(١) Marston, T.E. : Op. Cit., pp. 25 — 26.

(٢) Playfair, R.L. : Op. Cit., pp. 108 — 110

(٣) بانيكار ؛ ك٠م : المصدر السابق ، ص ٦٦ ، ٦٧ •

عن طريق البحر الاحمر وطريق رأس الرجاء الصالح فيوقت واحد · وقد وصلت سفارة عثمانية الى اليمن فى سنة ١٧١٢ للتفاهم مع الامام على أســاس قصر تصدير البن اليمنى عن طريق البحر الأحمر بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذى أضر كثيرا بدخل السلطان العثمانى · وكانت أساليب السفارة العثمانية قائمة على أسس دينية لحث الامام على تحقيق تلك الغـاية · غير أن الامام رفض الاستجابة لمطلب العثمانيين (١) حفاظا على دخله الخاص ·

وقد استمرت التجارة الهولندية اليمنية فترة غير قصيرة وكانت تعتمد على محصول البن اليمنى حتى نقل الهولنديون زراعة هذا المحصول الى جزرالهند الشرقية وجزر الهند الغربية فى سنة ١٧١٢ على وجه التقريب · كمـا انتقلت زراعة البن بعد ذلك الى أمريكا الجنوبية ، مما ادى فى النهاية الى القضـاء على احتكار اليمن لانتاج ذلك المحصول الهام (٢) · وقد نتج عن ذلك قلة دخـل اليمن وتدهوره اقتصاديا مما زاد من حدة الاضطرابات الداخلية ، الأمر الذى يجعلنا نقول ان استقرار اليمن كان مرتبطا ـ الى حد كبير ـ بقدراته التجـارية وخاصة فيما يتعلق بتصدير البن ، حتى أن عدن وقعطبـة وتعـز وأبو عريش أصبحت دويلات منفصلة عن بعضها ، وعانى الأئمـة من حركات التمرد التى كانت شائعة حينذاك · وقد أكد هذه الصورة « كارستن نيبور Karsten Niebuher » الرحـالة الدنماركى الذى زار بلاد اليمن فى ســنة ١٧٦٢ فى مؤلفه المشهور (٣) الذى ترجم الى عدة لغات والذى ضمنه تفاصيل أول رحلة علمية جدية قامت بدراسة جغرافية ونباتية واجتماعية لليمن فى القرن الثـامن عشر ، مما وجه أذهان الاوربيين الى أهمية اليمن التى لم تكن معروفة لديهـم بالقدر الكافى حينذاك ·

وبعد ان غادر الهولنديون اليمن فى ســنة ١٧٦٢ وفقدوا كل أمل فى استمرار وكالاتهم التجارية فيها ، انفسح المجال أمام البريطانيين للاشتغال بتصدير البن والتجـارة اليمنية الى بلدان أوربا ، بينمـا كان التجار الهنود يحتكرون التجارة فى داخل اليمن ذاتها (٤) ·

على أن نجم الهولنديين بدأ يأفل فى البحار الشرقية ، فى الوقت الذى حرص فيه البريطانيون وخاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، على بسط سيادتهم البحرية هناك ليدعموا مصالحهم الاقتصادية وليقضوا على كل نفوذ

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 26, 28.

(٢) عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ ـ ١٨٤٠ ، ص٤٦
« قدر نيبور تجارة البن المصدرة من موانى اليمن حينذاك بما يوازى خمســة آلاف جنيه انجليزى شهريا » ·

(٣) Karsten Niebuhr : Beschreibbung Von Arabien, Copenhagen 1772.

(٤) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 29.

ينافسهم فيها · وكان الفرنسيون أيضا قد بدأوا منذ مطلع القرن السابع عشر يقومون بدورهم فى هذا المجال ، حتى أصبح السباق والتنافس بين بريطانيا وفرنسا ظاهرة واضحة خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص(١) · وقد سعت كل دولة منهما لتحقق أكبر قدر ممكن من مصالحها التى تتعارض مع مصالح الأخرى مما سيثير تنافسا هائلا بين هاتين القوتين على النحو الذى سنوضحه فيما بعد ·

خامسا ـ بداية ظهور النشاط الاستعمارى البريطانى فى منطقة البحر الأحمر :

اتجهت بريطانيا منذ مطلع العصور الحديثة الى تحقيق تطلعاتها البعيده المدى فى مجالات الاستكشاف والتجارة فيما وراء البحار · ويرجع ذلك الى التطورات المتعاقبة التى تعرضت لها فى مطلع تاريخها الحديث · فتاريخ بريطانيا الواضح يبدأ بالفتح النورمندى فى سنة ١٠٦٦ ميلادية · وقد اتسمت الفترة الممتدة بين عامى ١٠٦٦ و ١٤٥٠ بالصراع الدامى الذى نشب بين الملكية والأمراء · وخلال هذه الفترة من تاريخ بريطانيا قدر للروح البرلمانية فيها أن تنمو ، وطالب الشعب البريطانى بحقوقه فى الاشتراك بالحكم ، حتى تمكن فى عهد الملك « يوحنا » من الحصول على « العهد الأعظم » فى سنة ١٢١٥ ميلادية · وكان من الطبيعى أن تنمو القوى الاجتماعية بالتدريج على حساب سلطة الملكية البريطانية حينذاك ، الامر الذى جعل بريطانيا تتجه فيما بعد الى التوسع فى التجارة والصناعة والى تأسيس مستعمرات لها فيماوراء البحار(٢) ·

وقد استفادت بريطانيا من المحن التى مرت بها بعد انتهاء حرب المائة عام التى بدأت فى سنة ١٣٣٨ مع فرنسا وفقدت بريطانيا أثناءها ممتلكاتها فى القارة الأوربية (٣) · اذ نشبت الحرب الأهلية فى انجلترا بعد أن طرد الانجليز نهائيا من فرنسا فى سنة ١٤٥٣ ، وهذه الحرب الاهلية عرفت باسم « حروب الوردتين » بين أسرتى « لانكستر Lancaster » التى اتخذت شعارها وردة حمراء ، و « يورك York » وشعارها وردة بيضاء ، وهما فرعان من أسرة واحدة « Plantagenet » · واستمرت تلك الحروب فى الفترة الممتدة بين عامى ١٤٥٥ و ١٤٨٥ حتى تولت العرش البريطانى أسرة « تيودور » وهى احدى فروع أسرة « لانكستر » · وكانت هذه الحرب الاهلية بمثابة ثورة ـ مثل كثير من الثورات فى العالم ـ التى تجىء نتيجة لدخول البلاد فى حرب فاشلة ، الأمر الذى يعلل به « آل يورك » قيامهم بالثورة حينذاك ، فضلا عما كانت تعانيه البلاد من حكم سىء فى الداخل · وكان الطرفان المتنازعان

(١) بانيكار ، ك · م : المصدر السابق ، ص ٦٦

(٢) Fisher, H.A.L. : Op. cit., Vol. I, p. 474.

(٣) Journal of Indian History, II, The Growth of British Interest in the route to India, An Essay by H.L. Hoskins, Tufts Coll. Mass., U.S.A., p. 166.

يقبلان مبدأ حكم البلاد بواسطة الملك والمجلس والبرلمان ، وان كان « آل يورك » يريدون مكانا لهم فى مجلس الملك وحكم البلاد عن طريق سيطرتهم على المجلس ، مما جعلهم يلجأون الى القوة لتحقيق مآربهم ·

ورغم أن هذه الحرب كانت حربا أهلية ، الا انها لم تؤثر على الحالة الاجتماعية والاقتصادية فى انجلترا سوى تأثير محدود ، اذ أن الشعب الانجليزى لم يشترك فى هذه الحرب ولم يعرها اهتماما ، بل انه التفت الى ماهو أكثر أهمية بالنسبة له كأمور الطعام والتدفئة والملبس (١) · كما أن الجيوش التى اشتركت فى الحرب كانت جيوشا صغيرة مكونة من طبقة النبلاء واتباعهم ، ولم يكن عمادها أهل المدن أو الفلاحون · وكانت أعدادها لا تتعدى أربعة أو خمسة آلاف مقاتل ، فى الوقت الذى كان فيه تعداد انجلترا وويلز فى نهاية القرن الخامس عشر لا يعدو الثلاثة ملايين (٢) ، هذا فضلا عن أن خسائر هذه الحرب كانت طفيفة رغم مبالغة بعض المؤرخين · ولهذا فانها لم تعرقل كثيرا من التقدم الاجتماعى فى انجلترا ، وسارت التجارة فى طريقها المعتاد ، وتقدم الفلاح الانجليزى ، وأخذت الفوارق تذوب بين الاقطاعى وعبيد أرضه ومستأجريها ·

وعندما تولت العرش البريطانى أسرة « تيودور » فانها قد استطاعت أن تخلص البلاد من الفوضى والحرب الاهلية ، وأن تسيطر سيطرة تامة على مقاليد الأمور فيها ، وأن تحكمها حكما مركزيا (٣) ، واستمرت تقوم بمهمتها فى الفترة الممتدة بين عامى ١٤٨٥ و ١٦٠٣ · وفى عهد هذه الاسرة قويت سلطة الملكية الانجليزية ونجح ملوكها فى ادارة شئون البلاد ادارة حازمة · وبدأت انجلترا تمهد السبيل لبسط نفوذها على الجزر البريطانية وتعقد صلات وثيقة مع أوربا ، وتتطلع الى آفاق جديدة واسعة فى مجالى الاستكشاف والتجارة فيما وراء البحار (٤) ، معتمدة فى ذلك على أسطول بحرى تجارى كبير (٥) ·

وتجدر الاشارة الى أن موقع بريطانيا الجغرافى فى الشمال الغربى للقارة الأوربية قد أثر تأثيرا كبيرا على شئونها الداخلية · بينما مكنها هذا الموقع فى نفس الوقت من أن تتدخل فى شئون القارة الأوربية فى أى وقت تشاء ، وتبعا لما تتطلبه مصلحتها الخاصة · أما تأثير موقع بريطانيا الجغرافى على سياستها الخارجية فيبدو واضحا فى تمسكها بمبدأين هامين طوال تاريخها الحديث أولهما محافظتها على سيادتها البحرية وتفوق أسطولها فى بحار العالم فترة طويلة من

---

(١) Bindoff, S.T. : Tudor England, p. 8.

(٢) Woodword, E.L. : History of England, p. 70.

(٣) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث ، ص ١٨٩ – ١٩٠
Journal of Indian History, II, op. cit., p. 166.

(٤) حسن صبحى (دكتور) : احداث مميزة لتاريخ أوربا ، ص ٣١ ·

(٥) Journal of Indian History, II, op. cit., pp. 166, 167.

الزمن . وثانيهما محافظتها على التـــوازن الدولى بما يحفظ لهـا مصالحهـــا الحيوية (١) . وكان تمسك بريطانيا بهذين المبدأين سببا واضـــحا للحروب التى خاضتها وأساسا لعلاقاتها مع الدول الاوربية الاخرى ، كما كان اعتمادها على قوة أسطولها البحرى أساسا لسياستها التوسعية فى البحار الشرقية بوجه عام وفى منطقة البحر الأحمر بوجه خاص .

ومنذ مطلع القرن السادس عشر بدأت السفن البريطانية تشـــارك الاسبان والفرنسيين وتجار البندقية فى التجارة التى تصل الى موانى البحـــر المتوسط (٢) . ولم يكد هذا القرن يوشك على الانتهاء حتى أصـــبحت التجارة التى تصل الى موانى ذلك البحر لا تفى بحاجة السوق البريطانية من البضـــائع والمنتجات الشرقية (٣) . ولهذا اتجه البريطانيون الى كسر احتكار البرتغاليين والهولنديين للتجارة الشرقية فى بحار الشرق (٤) . فتحولت السفن البريطانية الى طريق رأس الرجاء الصالح ونفذت الى البحار الشرقية (٥) . وتم اتصـــالها المباشر بالهند بواسطة هذا الطريق البحرى الجديد .

ويمكن اعتبار نمو المصالح الاستعمارية البريطانية فى الهند فى الفترة الممتدة بين عامى ١٦٠٠ و ١٨٥٧ هو تاريخ شركة الهند الشرقية البريطانيـــة المعـــروفة باسـم : The Honourable East India Company (٦) وقد وقعت الملكة « اليزابيث الأولى Elizabeth I » وثيقة انشـــاء هذه الشركة فى اليوم الأخير من القرن الســـادس عشر الذى يوافق ٣١ ديسمبر ســـنة ١٦٠٠ (٧) . وكان الهدف من انشائها بسط سيطرة البريطانيين على تجـــارة شبه القارة الهندية (٨) واستغلالها ، وتحقيق أهداف بريطانيا الاســـتعمارية فى بلاد الشرق بوجه عام (٩) . ورغم أن السياسة الأصلية للشركة كانت تقوم على أساس تجنب الامتلاك الكامل للارض الذى يمكن أن يخضـــع للضرائب ، كما يستلزم توفير امكانات الدفاع عنها ، غير أن ذلك كان ضروريا وحتميـــا لضمان امتداد المصالح التجارية للشركة التى تأكد نجاحها تجاريا بالعائد الضخم الذى حققته الرحلات القليلة الأولى . بل ان عقد المعاهدات والتدخل فى شـــئون الولايات الهندية كان أمرا يتعذر اجتنابه بالنسبة لوكلاء الشركة الذين كانوا

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) Epstein, M. : Early History of the Levant Company, pp. 6, 52.

(٣) Hoskins, H.L. : Britsh Routes to India, pp. 1, 3.

(٤) Fisher, H.A.L. : Op. Cit., p. 602.

(٥) Journal of Indian History, II, op. cit., p. 167.

(٦) أوضحت الهيكل التنظيمى لأجهزة الشركة فى الملحق رقم (١)

(٧) Hoskins, H.L. : Op. Cit., pp. 4, 5.

(٨) Philips, C.H. : The East India Company 1784 — 1834, p. 1,5.

(٩) Johnson, H. Britain across the seas, p. 372.
George, H.B. : A Historical Geography of the British Empire, pp. 217, 228.

يواجهون فى نفس الوقت نشاطا معاديا من قبل المنافسين الأوربيين فى ذلك الميدان ·

وقد ركز البريطانيون نشاطهم فى الهند بصفة خاصة بعد أن اصطدموا مع الهولنديين فى جزر الهند الشرقية فى سنة ١٦٢٣ (١) · وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد استطاعت فى القرن السابع عشر تثبيت النفوذ الهولندى فى تلك الجزر وشكلت بذلك منافسا خطيرا للبريطانيين هناك · بل ان البريطانيين اصطدموا أيضا بالفرنسيين الذين أسسوا بدورهم شركة الهند الشرقية الفرنسية فى سنة ١٦٦٤ ، وبلغ التنافس الاستعمارى البريطانى الفرنسى ذروته فى الهند فى منتصف القرن الثامن عشر (٢) ·

على أن شركة الهند الشرقية البريطانية أصبحت بعد حرب السنوات السبع بين عامى ١٧٥٦ و ١٧٦٣ ذات المصالح الأكثر والنفوذ الاكبر فى الهند (٣) · وقد حدث ذلك بعد أن تنازلت فرنسا لبريطانيا بمقتضى معاهدة باريس فى شهر فبراير سنة ١٧٦٣ عن كل ممتلكاتها فى شبه جزيرة الهند (٤) ، واحتفظت فقط لنفسها ببعض المراكز مثل « بندشيرى Fondicherri » و « سندر ناجور » مع تعهدها بألا تقيم فيها مواقع حربية · كما كان للبرتغال أيضا حينذاك الهند البرتغالية ، وهى مناطق صغيرة على ساحل الهند الغربى تشتمل على « ديو » و « دامان Daman » شمال بومباى و « جوا » · وقد زادت حركة السفن البريطانية بعد ذلك فى المحيط الهندى ، وبدأت تظهر أيضا على الساحل الشرقى لأفريقيا · غير أن البريطانيين لم يكونوا قد شعروا بعد فى ذلك الحين بحاجتهم الى تأسيس محطات ثابتة لهم على طول الطريق المؤدية الى الهند وفى المناطق المطلة عليها مثل الساحل الجنوبى للجزيرة العربية والساحل الشرقى لأفريقيا على النحو الذى سيحققونه فى القرن التاسع عشر عندما يسيطرون على عدن والصومال وكينيا (٥) ·

وقد تركزت سياسة شركة الهند الشرقية البريطانية فى بداية الأمر على حماية الطرق الموصلة بين أوربا والهند وحماية التجارة البريطانية فى منطقة المحيط الهندى · وقد اهتم البريطانيون بمحاربة أعمال القرصنة فى الخليج العربى حتى لا تشكل تهديدا لمواصلاتهم وتجارتهم مع ايران والعراق · وكانت

---

(١) Rawlinson, H.G. : British Beginnings in Western India, 1579 — 1657, p. 17.

(٢) Journal of Indian History, II., op. cit., p. 168.

(٣) Philips, C.H. : Op. Cit., p. 299.

(٤) Fisher, H.A.L. : Op. Cit., p. 748.

(٥) سعد زغلول عبد ربه (دكتور) : الاستعمار البريطانى فى كينيا (١٨٥٦ — ١٩٢٣) رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٥ وتناولت تفاصيل هذا الموضوع ·

أكبر قوة عربية فى هذه المنطقة حينذاك هى سلطنة مسقط التى امتد نفـوذها الى زنجبار على الساحل الشرقى لأفريقيا · على أن تجارة ومنتجات المنطقة الواقعة غربى المحيط الهندى أصبحت فائدتها ضئيلة بالنسبة للبريطانيين اذا قورنت بتجارة ومنتجات الهند نفسها · وعلى أية حال فقد اتجهت شركة الهند الشرقية البريطانية الى اتباع سياسة تقوم على أساسين : أولهما محاربة القرصـنة وتأمين المواصلات فى المنطقة الواقعة غربى المحيط الهندى حماية للمصالح البريطانية · وثانيهما الحيلولة دون خضوع هذه المنطقة لأية قوة أوربية أخرى تشـكل تهديدا لتلك المصالح (١) ·

وعندما منحت الملكة « اليزابيث الاولى » امتيازا لشركة الهنـد الشرقية البريطانية يسمح لها باقامة مشروعات تجارية مع بلدان الجزيرة العربية ومنطقة البحر الاحمر فى مطلع القرن السابع عشر (٢) ، كان العثمانيون يحرصـون حينذاك على وقف أية محاولات للتدخل الاوربى فى المناطق التى يسيطرون عليها· وقد قامت الشركة بعدة محاولات مبكرة للوصول الى هذه المنـاطق فأرسلت سفينة تجارية تابعة لها الى جزيرة سقطرى الواقعة جنوبى السـاحل الجنوبى للجزيرة العربية ، وعلى مقربة من رأس جورد فوى على الساحل الشرقى لأفريقيا· وكان يقود هذه السفينة الضابط البحرى البريطانى « وليـم كيلنج William Keeling »الذى حاول الوصول الى عدن ليقيم وكالة تجـارية فيهـا ، غير أن البريطانيين لم يتمكنوا من تحقيق أغراضهم لوجـود العثمانيين فى اليمـن فى ذلك الحين ·

على أن البريطانيين أرسلوا بعد ذلك الى مينـاء عدن السفينة البريطانيـة « اسينشون Ascension » (٣) يقودها الضابط البحرى البريطانى « الكابتن الكسندر شاربى Alexander Sharpy » وذلك لاقامة علاقات تجـارية مع بلاد اليمن (٤) · وقد وصل « شاربى » الى عدن فى ٨ أبريل ١٦٠٩ ، واستقبله حاكمها فى بداية الأمر استقبالا طيبا(٥) · غير أن العثمانيين لم يلبثوا أن أعتقلوه وصادروا حمولة سفينته ، ثم أطلقوا سراحه ورحلوه الى ميناء مخا وهى الميناء الحيوى لليمن حينذاك · وبذلك فشلت محاولة البريطانيين المبكرة للتدخل فى شئون عدن والوصول الى البحر الأحمر (٦) ·

وقد عاودت شركة الهند الشرقيـة البريطانيـة محاولتها فى العام التالى

---

(١) Marston, T.H. : Op. Cit., p. 3.

(٢) سيد نوفل (دكتور) : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية ، ص ٤٩ ·

(٣) Marston, T.H. : Op. Cit., p. 25.

(٤) Ingrams, H. : The Yemen, Imams, Rulers, and Revolutions, p. 46.

(٥) Playfair, R.L. : Op. Cit., 105.

(٦) Jacob, H.F. : Op. Cit., p. 25.

مباشرة فى سنة ١٦١٠ فارسلت ثلاث سفن بريطانية الى عدن يقودها « سير هنرى ميدلتون (١) Henry Middc'c:on » فوصلت اليها فى اليوم العاشر من نوفمبر ، وكان يتولى زمام الامور فيها الحاكم العثمانى جعفر باشا (٢) . وقد تـــرك « ميدلتون » السفينة البريطانية « ببركون Peppercorn » فى عدن وتوجـه بالسفينة « دارلينج Darling » الى مخا حيث استقبله حاكمها العثمانى « رجب أغا » بكل مظاهر الترحيب . غير أن هذا الترحيب لم يدم طويلا ، فسرعان ما هاجم بعض الجنود العثمانيين « سير ميدلتون » وقتلوا ثمانية من رجاله ، وساقوه أسيرا الى صنعاء (٣) ومعه عدد من رفاقه . كما أن العثمانيين هاجموا سفنه بقوة قوامها ثلاثمائة وخمسين مقاتلا عثمانيا وحاولوا الاستيلاء على السفينة « دارلنج » ، غير أن بحارتها استبسلوا فى الدفاع عنها ولم يمكنوا العثمانيين من الاستيلاء عليها رغم ما دار من قتال عنيف . وفى صنعاء أبدى الوالى العثمانى تعجبه من جرأة « الصليبيين » الذين يحـاولون الاقتراب من الجزيرة العربيـة والأماكن المقدسة الاسلامية . وبعد أن استطلع العثمانيون رأى الاستانة أطلقوا سراح « هنرى » ومرافقيه ، غير أنهم انذروهم بألا يعودوا على الاطلاق الى الجزيرة العربية (٤) ، فرجعوا الى سفينتهم ورحلوا عن المنطقة بخفى حنين (٥) .

وقد أعقب هذه المحاولات الثلاث محاولة رابعة فى سنة ١٦١٢ (٦) عندما توجهت بعثة بريطانية يقودها القبطان « جون ساريز John Saris » (٧) قوامها ثلاث سفن لزيارة ميناء مخا اليمنى . وكان يتولى زمام الأمور فيها حينذاك حاكم عثمانى يدعى « أدهر » وهو يونانى المولد بعد عزل حاكمها السابق « رجب أغا ». وقد رحب « أدهر » بالبعثة البريطانية وطلب من « ساريز » أن ينسى المعاملة السيئة التى لقيها « سير هنرى ميدلتون » على يد سلفه «رجب أغا» . وقد أصدر الوالى العثمانى فى اليمن فى ذلك الوقت تعليمات تسمح للأجانب بحرية التجارة على السواحل اليمنية مع السفن الهندية ، كما سمح أيضا بشراء كل ما يلزمهم من ميناء مخا (٨) .

وهكذا حقق البريطانيون بعض النجاح فى جولتهم الرابعة نتيجة لتساهل العثمانيين معهم ، ذلك التساهل الذى كان مبعثه اطمئنان العثمانيين للفتور الذى اعترى المنافسة البرتغالية من جهة ، ورغبة العثمانيين فى تبادل المنفعة الاقتصادية

---

(١) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 25.

(٢) Hunter, F.M. : Op Cit., p. 164.

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٧ .

(٤) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٥) Playfair, R.L. : Op. cit., pp. 105-108.

(٦) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 25.

(٧) Hunter, F.M. : Op. Cit., p. 164.

(٨) Playfair, R.L. : Op. Cit,. p. 108.

مع الأجانب ورواج الحركة التجارية فى ممتلكاتهم من جهة أخرى . على أن «ساريز» وجد حينذاك أن الظروف المحيطة لا تشجع على استمرار اشتغاله بالتجارة مما دفعه الى الرحيل عن مخا بعد أن حقق هذا القدر المعقول من النجاح .

على أن هذا التساهل العثمانى مع الأجانب قد ظهر أيضا عندما عاود البريطانيون نشاطهم للمرة الخامسة فى سنة ١٦١٨ حين وصل الى مخا القبطان « شلنج Captain Shilling » على ظهر السفينة البريطانية « آن رويال Anne Royal » لاقامة وكالة تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية . وفى ذلك الوقت كان يحكم مخا « رجب أغا » الذى سبق أن وقع فى أسره « سير هنرى ميدلتون » . غير أنه فى هذه المرة قدم اعتذاره الشديد « للكابتن شلنج » عن مسلكه السابق ، موضحا أنه فعل ذلك تنفيذا للتعليمات التى صدرت اليه من الوالى العثمانى فى صنعاء . على أن السياسة العثمانية حينذاك سمحت للبريطانيين بمزاولة نشاطهم التجارى بحرية تامة فى ميناء مخا ، وبتشييد وكالة تشرف على مصالحهم هناك ، وبتحديد ضرائب الاستيراد والتصدير بنسبة ٣٪ فقط تدفع نقدا أو عينا (١) . وبذلك ظل موقف العثمانيين متأرجحا ازاء محاولات التدخل البريطانى بين الرفض والقبول حتى استقر موقفهم نسبيا فى سنة ١٦١٨ باتاحة الفرصة للبريطانيين لمزاولة نشاطهم التجارى فى الموانى اليمنية (٢) .

أما بالنسبة لسياسة البريطانيين ازاء الأئمة الزيديين فى اليمن حينذاك فقد تركزت على مساندتهم لحكم الأئمة حتى يجدوا لهم نصيرا داخل اليمن يمكن أن يسهم فى تسهيل عمليات التبادل التجارى وخاصة ما كان يتعلق منها بتجارة البن اليمنى فى ميناء مخا . وقد استمرت هذه العلاقات الودية لمدة قرنين من الزمان على النحو الذى يؤكده « هارولد انجرامز » ، موضحا أن البريطانيين فى عدن مدينون بالكثير لأسلافهم الذين سعوا لايجاد علاقات طيبة مع الأئمة (٣) .

وتجدر الاشارة الى أن اليمن تمتعت باستقلالها الذاتى لمدة قرنين من الزمان تحت حكم الأئمة الزيديين وذلك بعد جلاء العثمانيين عنها فى سنة ١٦٣٥ . وقد امتد نفوذ الأئمة فى عهد الامام اسماعيل بن القاسم فى سنة ١٦٤٤ فشمل لحج وعدن وبلاد البيضا ويافع وحضرموت وتهامة والمخلاف السليمانى فى شمال اليمن (٤) .

غير أن حكم أئمة صنعاء اعتراه الضعف والانهيار فى أوائل القرن الثامن عشر نتيجة للتنافس على الامامة الزيدية ، وعدم الاستقرار الكامن فى نظام الحكم

---

(١) Playfair, R.L. : Op. Cit., p. 110.

(٢) Crichton, A. : History of Arabia, Ancient and Modern, Vol. II, pp. 153, 154.

(٣) Ingrams, H. : Op. Cit., pp. 51, 52.

(٤) محمد بن أحمد العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ق ٢ ، ص ٣٨٣ .

ذاته ، مما كان يشجع الحكام المحليين فى أرجاء اليمن على الانفصال والاستقلال • فانفصلت حضرموت (١) وأعلن شيخ قبيلة العبادل نفسه مستقلا فى لحج فى سنة ١٧٢٨ ، كما سيطر على عدن بعد أن تحالف مع جاره القوى سلطان يافع فى سنة ١٧٣٥ واتفقا على أن يتبادلا معا خراج عدن بالمناوبة (٢) • وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ نقض شيخ العبادل تحالفه مع سلطان يافع وأعلن نفسه سلطانا مستقلا على لحج وعدن (٣) •

وهكذا ظلت عدن فى يد العبادلة سلاطين لحج ، ولم يحاول امام صنعاء استعادتها مما أضعف ايراداته المالية كثيرا عن ذى قبل (٤) • بل ان الامام تحالف مع العبادلة فى سنة ١٧٥٣ لمواجهة ألد أعداء الامامة وأقواهم شكيمة وهو عبد الرب بن أحمد الذى أعلن نفسه حاكما مستقلا فى « الحجرية » واستولى على مدينة « جبلة » وجمع الضرائب من سكانها ، وكان العبدلى يخشاه أيضا • وقد قام عبد الرب بن أحمد بمهاجمة السلطان عبد الكريم العبدلى فى لحج وضرب عدن بكل قسوة حتى اضطر العبدلى الى ارضــائه بمبلغ كبير من المال ليترك بلاده، لأن الامام المهدى عباس بن المنصور تقاعس عن مناصرته رغم تحالفهما(٥)• وبذلك ظلت عدن فى يد العبادلة حتى احتلها البريطانيون فى سنة ١٨٣٩ •

على أن بلاد اليمن شاهدت نشاطا تجاريا ملحوظا فى منتصف القرن الثامن عشر ، ساعد على تهيئته انسحاب الاسطول العثمانى من البحار الشرقية • فلم يعد فى امكان العثمانيين أن يطبقوا سياسة اغلاق البحر الأحمر فى وجه التجارة الأوربية ، فأخذت هذه التجارة تتدفق الى ميناء مخا اليمنى حتى أطلق اسم هذا الميناء على البن الذى كان يصـدر منه الى أسـواق العالم حينذاك ويعرف باسم « Mocha » • وقد أوضح الرحالة الدنمركى « كارستن نيبور Karsten Niebuhr الذى قام بزيارة اليمن — كما سبق أن أشرت — فى نهاية سنة ١٧٦٢ (٦) ان اليمنيين كانوا يتبعون سياسة التسامح مع العناصر غير الاسلامية التى كانت تصـل الى بلادهم حينـذاك مما أدى الى تنشيط الحـركة التجـارية بين العرب والأجانب (٧) •

---

(١) أحمد فخرى (دكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٥٤ — ١٥٥ •

(٢) حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، مخطوطة حققها الأب انستاس الكرملى ، ص ٦٧ •

(٣) عبد الله الجرافى : المصدر السابق ، ص ٩٤ •

(٤) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٢٤ — ١٢٧ •
Hunter, F.A. : Op. Cit., p. 164

(٥) Playfair, R.L. : Op. Cit., pp. 120, 121.

(٦) Playfair, R.L. : Ibid., pp. 116, 117.
Marston, T.E. : Op. Cit., p. 30.

(٧) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ١٥١٤ — ١٩١٤ ، ص ٢٢٤

وعندما ضعفت الامامة الزيدية فى اليمن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حدث هجوم من قبل بعض اليمنيين على الوكالة التجارية البريطانية فى ميناء مخا وذلك فى سنة ١٧٧٠ ٠ وقد أدى ذلك الى قيام بعض القطع البحرية التابعة لاسطول شركة الهند الشرقية البريطانية بقصف ميناء مخا بالمدافع فى سنة ١٧٧١ (١) ٠

وجدير بالذكر أن العثمانيين ظلوا متمسكين من الناحيــة النظرية حتى بعد جلائهم عن اليمن فى سنة ١٦٣٥ بأنهم أصحاب الحق الشرعى فى تلك البلاد ، وكانوا يكررون دعواهم كلما استدعى الأمر ذلك (٢) ٠ وكانت هذه حجتهم عندما عاودوا الكرة للسيطرة على اليمن فى منتصف القرن التاسع عشر ونجحوا فى ذلك عندما أقاموا حكمهم فى صنعاء فى سنة ١٨٧٢ (٣) ٠ غير أنهم فى المرة الأخيرة لم يتمكنوا من فرض سيادتهم على عدن التى كان البريطانيون قد سيطروا عليها فى سنة ١٨٣٩ (٤) على النحو الذى سنوضحه فيما بعد ٠

وعلى الرغم من أن بريطانيا أصبحت لها مصالح حيوية فى الشرق أكثر من غيرها منذ أن دعمت نفوذها فى الهند فى مطلع القرن السابع عشر الميلادى(٥)، غير أنها ظلت حتى مطلع القرن الثامن عشر قانعة بالحقوق التى حصلت عليها من السلطان العثمانى ، ومن بينها حق الاتجار والرسو فى الموانى التابعة له فى بلاد الشرق بوجه عام ٠ وحتى ذلك الوقت لم يكن للبريطانيين ارتباطات مباشرة بمصر وسوريا والعراق لأن طريق رأس الرجاء الصالح كان يفى بتحقيق مصالحهم التجارية ٠ ونظرا لتزايد قوة بريطانيا البحرية عبر طريق المحيط الأطلسى التى بدت واضحة منذ نهاية القرن السابع عشر فقد كاد أن يكون هذا الطريق مغلقا بعد ذلك فى وجه باقى الدول الأوربية ، وأصبح شبه قاصر على النشاط البحرى البريطانى (٦) على وجه الخصوص ٠

سادسا ــ بداية ظهور النشاط الاستعمارى الفرنسى فى منطقة البحر الأحمر :

فى الوقت الذى أخذ فيه النشاط البحرى البريطانى يتزايد تدريجيا فى البحار الشرقية بوجه عام وعبر طريق البحر الأحمر بوجه خاص ، كانت فرنسا تقوم بدورها أيضا فى هذا المجال ٠ وقد بدأت فرنسا محاولاتها للسيطرة على بعض المراكز الهامة فى البحار الشرقية منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادى ٠

---

(١) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 30.

(٢) احمد فخرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ ٠

(٣) فاروق عثمان أباظة (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٨٢ ٠

(٤) George, H. B. : Op. cit., p. 123.

(٥) George, H. B. : Ibid., pp. 224, 226.

(٦) Hoskins, H. L. : Op. cit., p. 4.

وقد أسست « شركة الهند الشرقية الفرنسية » فى سنة ١٦٦٤ (١) ، ونجحت مع غيرها من الشركات الفرنسية الأخرى التى أسست منذ أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر فى توطيد علاقاتهـا مع الهند وغيرها من بـلاد الشرق (٢) . هذا فضـلا عما حققته من نجاح فى بعض موانى جنوبى البحر الأحمر وعلى الساحل الشرقى لافريقيا نتيجة لنشاط التجار الفرنسيين الذين ارتادوا هذه المناطق (٣) ، وأقاموا علاقات مع سكانها الأصليين .

على أن اتصـال الفرنسيين بسواحل البحر الأحمر قد بدأ فعلا فى سنة ١٧٠٩ عندما تقدمت بعثة فرنسية يرأسها ، « دى ميرفيل De Marveil'e » فى ٦ فبراير سنة ١٧٠٨ على ظهر السفينتين « كيريز Curieuse » و « ديلجينت Diligent » التابعتين لشركة « سانت مالو St. Malo » الفرنسية اللتين أبحرتا من ميناء « برست » . وعندما وصلت البعثة الى عدن قام « دى ميرفيل » بمقابلة حاكمها فى قصره حيث استقبل اسـتقبالا طيبا . ثم غادرت السفينتان الفرنسيتان ميناء عدن فى ١٧ ديسمبر سنة ١٧٠٨ وتوجهتا بعد ذلك الى مخا فى اليوم الثالث من يناير سنة ١٧٠٩ . وقد تمكن «دى ميرفيل » من عقد معاهدة مع حاكم مخا من قبل الامام المهدى . وأهم بنود هذه المعاهدة يعطى للفرنسيين الحق فى القيام بالأعمال التجارية فى الميناء اليمنى أثناء النهار ، الا أنه يشترط عليهم العودة الى سفنهم ليلا ، كما سمح للفرنسيين برفع علمهم فوق وكالتهم . بل ان هذه المعاهدة حددت الضرائب الجمركية على البضائع المباعة بنسبة ٣٪ ، هذا فضلا عن أنها سمحت للفرنسيين بمزاولة طقوسهم الدينية اثناء وجودهم فى الأراضى اليمنية .

وترتب على النجاح الذى حققته هذه البعثة الفرنسية الأولى أن قامت الشركة الفرنسية بتوجيه بعثة أخرى فى سنة ١٧١١ برئاسة « دى لالاند De La Lande » و « بريكولين Bricolaine » الى سواحل البحر الأحمر . وبعد وصول هذه البعثة الى مخا استدعى الامام المهدى طبيبا من احدى السفن الفرنسية لمعالجته ، وقد سر الفرنسيون لذلك وحاولوا أن يستفيدوا من وراء هذه الحادثة أكبر فائدة ممكنة . فوجهوا بعثة مكونة من عشرين شخصا الى داخل الأراضى اليمنية فى ١٤ أكتوبر سنة ١٧١٢ لمقابلة الامام(٤) .وقد مرت هذه البعثة بكثير من المدن اليمنية أهمها « جبـلة » و « يريم » و « ذمار » حتى وصـلت الى « مواهب » حيث يقيم الامام . وانتظرت البعثة فى تلك المدينة ثلاثة أسابيع حتى شفى الامام . غير أنه أثناء وجود هذه البعثة فى « مواهب » جاء مبعوث من الاستانة الى الامام يوضح له أنه نتيجة لزيادة حجم التجارة المباشرة بين العرب والأوربيين

---

(١) Journal of Indian History, II, Op cit., p. 169.
(٢) British and Foreign State Papers, Vol. IV, p. 732.
(٣) Coupland, R. : East Africa and its invaders, p. 120.
(٤) Marston, T. E. : Op. cit., p. 28.

فان التجارة والدخول السلطانية تأثرت تأثرا خطيرا • ولهذا طالب المبعوث العثمانى بوقف هذه التجارة المباشرة بين العرب والأوربيين ، كما طالب بعدم تصدير البن الى مصر وحدها ، ولكن الامام الزيدى تجاهل مطالب السلطان العثمانى (١) ، نظرا لتعارضها مع حركة تنشيط التجارة فى الموانى اليمنية •

على أن هذه العلاقات الطيبة بين الشركة الفرنسية وحكومة امام اليمن لم تستمر على حالها ، اذ حدث خلاف خطير بينهما • فقد كان حاكم ميناء مخا يزيد من قيمة الضرائب الجمركية عند تقريره المبدئى ، ولم يكن يدفع الفرق المستحق على الفور ، بل كان يؤجله لحين دفع الضرائب الجمركية فى السنة التالية • وقد ترتب على ذلك أنه بعد عدة سنوات أصبح مدينا للشركة الفرنسية بمبلغ ٨٢٠٠٠ ريال (٢) • وعندما تاخر فى دفع المبلغ أرسلت الشركة سفينة حربية فرنسية للضغط على حاكم مخا الذى رفض التفاهم فى هذا الموضوع ، وأعد نفسه للدفاع عن المدينة وقام بتحصينها • غير أن القصف المؤثر من مدفعية السفينة الحربية أرغم حاكم المدينة على دفع الدين ، كما اضطره الى توقيع معاهدة أنقصت الضرائب الجمركية بمقتضاها من ٣٪ الى ٢½٪ • وقد أثار هذا الحادث حفيظة الامام ضد حاكم مخا ، فأصدر أمرا بعزله ومصادرة قصره فى صنعاء (٣) • ولاشك أن ذلك يؤكد أن الامام كان يرغب فى الابقاء على العلاقات الطيبة مع الشركة الفرنسية بما ينشط الحركة التجارية فى الموانى اليمنية حينذاك •

وقد غادر الفرنسيون والهولنديون وكالاتهم فى اليمن فى سنة ١٧٦٢ وانفرد بالتالى الانجليز بتجارة التصدير هناك (٤) • وكان التجار الهنود يحتكرون التجارة حينذاك مع داخل اليمن ، كما كانوا أكثر المتاجرين مع ميناء مخا اليمنى، وكان لهم أثر كبير فى تنشيط الحركة التجارية فى هذا الميناء • وقد عرف هؤلاء باسم « البانيان » وهم أصلا هنود من مملكة « كامبايا Cambaya القريبة من « سورات » فى الهند ، وكانوا يشتغلون بالتجارة فى الموانى اليمنية وبعض الموانى الأخرى فى الجزيرة العربية (٥) •

وبعد أن عقدت معاهدة باريس فى سنة ١٧٦٣ فرضت المصالح الاستعمارية الفرنسية ضرورة وضع العديد من الخطط لاستعادة الامبراطورية الفرنسية فى الهند • وقد اتجهت هذه الخطط الى اتخاذ الطريق الملاحى عبر البحر الأحمر ، أو الطريق البرى الموصل للخليج العربى كوسيلة لتطويق سيطرة البريطانيين البحرية على المحيط الهندى • وكان البريطانيون حينذاك يقدرون أهمية طريق الملاحة عبر البحر الأحمر ، بل انهم استفادوا منه كثيرا من قبل • غير أن عاملين

---

(١) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 116.
(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 29.
(٣) Playfair, R.L. : Op. Cit., p. 116.
(٤) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 29.
(٥) Marston, T.E. : Ibid., pp. 25, 26.

هامين قد حالا دون استمرار اســـتفادة البريطانيين من هذا الطريق ، أولهما معارضة الدولة العثمانية التى خشيت من ظهور المصالح المسيحية الأوربية على مقربة من المدن الاسلامية المقدسة فى الجزيرة العربية ، وثانيهما معارضة شركة الحوض الشرقى للبحر المتوسط المعروفة « بشركة اللفانت Levant Company » البريطانية التى تأسست فى سنة ١٥٨١ (١) • وهى التى اتهمت شركة الهند الشرقية البريطانية بانتهاك سيطرتهـا على التجـارة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط (٢) • وكانت فرنسا تسعى الى استخدام أحد طريقى الشرق الأدنى عبر الخليج العربى أو البحر الأحمر (٣) حتى تتجنب الاصـــطدام بالاسطول البريطانى المسيطر على المحيط الهندى (٤) ، وخاصـــة عندما بدأت المنافسة تشتد بين البريطانيين والفرنسيين فى البحار الشرقية بوجه عام وفى منطقة البحر الأحمر بوجه خاص على النحو الذى سنتبينه فى هذا البحث •

سابعا ـ التنافس البريطانى الفرنسى فى منطقة البحر الأحمر :

ظهر التنافس واضـحا بين بريطانيا وفرنسا منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وبدأ النضال يشتد بينهما عندما أخذت كل من الدولتين تهدد مصالح الأخرى عبر الطرق المؤدية الى الهند (٥) ومن بينها طريق البحر الأحمر • وازداد نشاط الفرنسيين حينما اهتم الملك « لويس الخامس عشر » فى سنة ١٧٤١ بتجديد المعاهدة التى سبق أن عقدت بين السلطان العثمانى سليمان القانونى و «فرانسوا الأول » ملك فرنسا فى سنة ١٥٣٦ • وقد أصبحت فرنسا بمقتضى هذه المعاهدة تدعى حق حماية المسيحيين الكاثوليك فى سائر أرجاء الدولة العثمانية • ومنذ ذلك الحين أخذ الخوف يراود الساسة البريطانيين لأن نفوذ الفرنسيين الثقافى والدينى والسياسى أخذ يتغلغل فعلا فى بلاد الشرق التابعة للسلطنة العثمانية • وكانت بريطانيا تخشى أن تفكر فرنسا فى استغلال الطريق الملاحى عبر البحر الأحمر لتهدد المصالح البريطانية فى الهند •

وقد بذلت انجلترا عدة محاولات متكررة لاحياء طريق البحر الأحمر ومصر واعادته الى مكانتـه التى كان قد فقدها بعد الانقلاب التجـارى • وكانت هذه المحاولات البريطانية تهدف فى المقام الأول الى اســتخدام طريق البحـر الأحمر للمراسلات بين جنوب شرق آسيا وأوربا ، ولنقل التجارة بينهما • ويلاحظ أن التنافس بين انجلترا وفرنسـا حول هذه المشروعات اتخـذ ميدانه بالذات فى مصر (٦) التى تمثل حلقة الاتصال بين البحرين الأحمر والمتوسط •

---

(١) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ٢٨ •
(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., pp. 31, 32.
(٣) Journal of Indian History, 11, op. cit., p. 169.
(٤) بانيكار ، ك •م : المصدر السابق ، ص ٦٧ •
(٥) بانيكار ، ك • م : نفس المصدر ، ص ٦٦ •
(٦) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٨٧ •

على أن تطور الأحداث فى مصر منذ منتصف القرن الثامن عشر قد أدى الى التأثير فى سياسة الدول المتنافســة فى ذلك الوقت تجـاه البحر الأحمر والدول المسيطرة على هذا الطريق البحرى الهام٠ففى سنة ١٧٦٩ استطاع « على بك » أحد كبار المماليك فى مصر أن يعلن استقلاله عن الباب العالى ، وأخذ يتجه بانظاره الى آفاق التوسع . ففتح الحجاز فى سنة ١٧٧٠ وكان لفتحه هذا أثر فى اهتمامه الزائد بما يجرى فى البحر الأحمر ٠ كان « على بك » واقعا تحت تأثير تاجر من البندقية يدعى « كارلو روسيتى » وهو الذى أقنعه بضرورة فتح البحر الأحمر للمراكب الأوربية وتشجيع تجارتها (١) ٠ ورغم أن « على بك » لم يستطع البقاء فى الحكم طويلا ، فانه كان مثلا حذا حذوه من جاء بعده ، وبذلك ظلت مصر بعد انقضاء عهده خارجة فعلا عن السلطة الحقيقية للدولة العثمانية ٠

وقد نتج عن هذا التغير المفاجىء فى موقف مصر تجاه الدولة العثمانية أن بدأت الدولتان المتنافستان بريطانيا وفرنسا تتحركان ٠ وقد اتخذت كل منهما طريقا مخالفـا للأخرى لتحقيق أغراضـها ولتقوية نفوذها فى مصر التى تتحكم بحكم موقعها فى جزء هام من الطريق البحرى المؤدى للشرق٠فبينما استصوبت فرنسا من جهة الوصول لغرضها عن طريق التفاهم مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية فى مصر ، نجد أن انجلترا من جهة أخرى استصوبت الاتفاق مع السلطات غير الشرعية صاحبة النفوذ الفعلى فى البلاد ٠ وكانت بريطانيا شديدة الاهتمام بطريق البحر الأحمر بعد أن انشأت لها امبراطورية واسـعة فى الهند وانسحبت من أمريكا بمقتضى معاهدة فرساى فى سنة ١٧٧٣ بعد حرب التحرير الأمريكية ٠ وكان على انجلترا أن تبحث عن طريق سـهل وقريب للمواصلات بين لندن والهند ، خاصة وأن النزاع الفرنسى البريطانى فى شبه القارة الهندية كان قد بدأ يدخل فى مراحله الأخيرة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ٠ كما أن تدهور الحياة الاقتصـادية فى البنغال كان يحتم على السلطات البريطانية فى الهند ضرورة تنشيط فروع التجارة الجانبية بين الهند وغيرها من البلدان المحيطة بهـا ، وفى مقدمتهـا فرع التجارة البريطانية فى البحر الأحمر (٢) ٠

وقد وصل الى الاسكندرية فى شهر يونيو سنة ١٧٦٨ « جيمس بروس James Bruce » القنصل البريطانى فى الجزائر ، وتباحث مع « على بك الكبير » فى مسألة احياء طريق التجارة القديم عبر البحر الأحمر وتأمين سـير السفن البريطانية فيه (٣) ٠ كما قام « جيمس بروس » بزيارة صعيد مصر والموانى الواقعة على البحر الأحمر ، ثم سافر بعد ذلك الى جده حيث قابل بعض ضباط السفن البريطانية الآتية من بومباى وتفاهم معهم فى هذا الموضوع ٠ وقد حاولت

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ٠

(٢) محمد أنيس (دكتور) : نفس المصدر ، ص ١٨٨ ٠

(٣) Brockelmann, C. : History of the Islamic people, p. 347.

انجلترا الانتفاع بحسن نوايا « على بك الكبير » فى التحالف معها ، وعقدت معه اتفاقية فى سنة ١٧٧٣ فتح بموجبها مرفأ السويس لمراكبهم ، حتى أصبح العلم البريطانى أول الأعلام الأجنبية التى رفرفت فى البحر الأحمر ، بعد أن كان بحيرة إسلامية مغلقة فى وجه السفن الأوربية . بل ان « على بك الكبير » أرسل لحاكم البنغال يرحب بفتح الطريق التجارى عبر البحر الأحمر للسفن البريطانية الآتية من الهند . غير أنه لم يقدر « لعلى بك » أن يتمم مشروع البحر الأحمر ، فقد ثار عليه « محمد أبو الذهب » وتخلص منه ، وبذلك قدر « لمحمد بك » أن يقوم بتنفيذ المشروع .

واستطاع « جيمس بروس » فى سنة ١٧٧٥ أن يتفق مع «محمد أبو الذهب» على أن تصل البضائع الهندية الى السويس وتدفع ضرائب تبلغ ٨٪ فقط من قيمتها بدلا من دفع ١٤٪ لحاكم جده . ثم عقد « وارن هاستنجس » الحاكم البريطانى للبنغال اتفاقية أخرى مع « أبى الذهب » نصت على تخفيض الضرائب على بعض الواردات الى ٦ر٥٪ فقط ، وعلى امكانية دفعها عينا . وعزمت كل من السلطات البريطانيـة فى الهند والمماليك فى مصر على تنفيذ هذه الاتفاقيـة . وأخـذ البريطانيون يرقبون أمر حضور سفينة أخرى الى الاسكندرية لكى تستقبل التجارة والمسافرين بعد وصـولهم من السويس . ولـكن سرعان ما ظهر غضب الدولة العثمانية من عقد مثل هذه الاتفاقيات دون موافقتها ، وتوفى « أبو الذهب » بعد ذلك فى سنة ١٧٧٦ .

وعنـدما جاء خلفـاء « محمد أبو الذهب » وهمـا « مراد بك » و « ابراهيم بك » فانهما لم يحترما هذه الاتفاقية . وبذلك فشل المشروع البريطانى فى سـنة ١٧٧٦ . وقد أصرت الدولة العثمانية على ضرورة الاحتفاظ بالملاحة فى البحر الأحمر شمالى مخا وجده فى أيدى رعاياها ، ورفضت الطلب الانجليزى الخاص بتوصيل البريد على سفنهم الى السـويس . وقد أثر هـذا الموقف على المشروع فتوقف دون أن تمضى على تنفيذه مدة طويلة ، بل ان البلاط الانجليزى وعد السلطان العثمانى بالامتثال لرغباته .

على أن الفرنسـيين سرعان ما دخلوا فى منافسـة مع البريطانيين فى هذا المجال ، وأخذوا يفكرون فى الاسـتفادة من التجـارة عبر مصر وطريق البحـر الأحمر . وقد حذوا حذو انجلترا عنـدما عقدوا اتفاقية مع « مراد بك » فى أوائل سنة ١٧٨٥ حصـل الفرنسيون بمقتضاها على شروط أفضـل بكثير مما حصل عليه الانجليز ، واتفقت فرنسا كذلك مع كبير ملتزمى الجمارك ومع

بعض مشايخ العربان لنقل هذه المتاجر بين السويس والقاهرة · وقد تطلب ذلك مجهودا من جانب الفرنسيين للسيطرة على طريق البحر ومصر ، (١) وكان هذا هو الدافع لفرنسا لعقد مثل هذه الاتفاقيات · وجدير بالذكر أن التاجر الفرنسى « ما جلون Magai'on » الذى كان يشتغل بالتجارة فى مصر منذ عام ١٧٧٧ وأختير بعد ذلك قنصلا لفرنسا بالقاهرة فى سنة ١٧٩٣ ، استطاع هذا التاجر أن يلعب دورا كبيرا فى الوصول الى عقد هذه الاتفاقيات التى كان تنفيذها يتطلب تصديق الباب العالى عليها وهو الأمر الذى فشلت فرنسا حينذاك فى الحصول عليه (٢) ·

وتجدر الاشارة الى أنه فى سنة ١٧٨٥ ظهر منافس جديد للبريطانيين فى البحر الأحمر وخاصة عند الساحل اليمنى تمثل فى التجار الأمريكيين الذين وصلوا الى هناك · ولم يقتصر نشاط هؤلاء التجار المتفوق فى سنة ١٨٠٠ على مجال تجارة البن اليمنى ، بل انهم قاموا أيضا بنقل التجارة الشرقية الى الأمريكتين ، كما شاركوا أيضا فى نقل هذه التجارة من بلاد العرب مباشرة الى أوربا منافسين بذلك شركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت تنقل التجارة من الهند الى أوربا · ولذلك كانت أسعار التجارة لدى الأمريكيين أرخص منها لدى البريطانيين · وعلى أية حال فقد افتتح هؤلاء التجار الأمريكيون لأول مرة خطا تجاريا مباشرا بين البحر الأحمر وشرق افريقية ويمتد هذا الخط حتى يصل الى أمريكا · وقد شكل ذلك منافسة خطير للبريطانيين ، خاصة بعد أن سيطر الأمريكيون على تجارة البن اليمنى بوجه خاص فى مطلع القرن التاسع عشر(٣) ·

على أنه قد أعقب الاتفاقية الفرنسية التى عقدت مع المماليك فى سنة ١٧٨٥ تجدد النشاط البريطانى فى مصر بهدف السيطرة على طريق البحر الأحمر · وقد حدث ذلك عندما تولى « جورج بولدوين » أمر القنصلية البريطانية فى القاهرة ، وبذل مساعيه لدى « القبودان حسن باشا » ــ الذى أرسله الباب العالى الى مصر لكسر شوكة زعماء المماليك المتمردين فيها وعلى رأسهم « ابراهيم » و « مراد » ومحاولة اخضاعهما ــ وذلك لكى يسمح « حسن باشا » للتجارة البريطانية بالمرور عبر البحر الأحمر · غير أن مساعى « بولدوين » لدى « حسن باشا » لم تؤد الى نتيجة ايجابية · وحتى بعد عودة « القبودان حسن باشا » الى عاصمة الدولة العثمانية ورجوع « ابراهيم » و « مراد » للحكم ، فقد حاول « بولدوين » الاتصال بهما ، واتفق معهما فى سنة ١٧٩٤ حتى أبديا استعدادهما لتنفيذ المشروع · غير أن الدولة العثمانية لم توافق على التنفيذ ، ولم تقبل بريطانيا حينذاك اغضاب الباب العالى حتى لا يتقرب من فرنسا التى كانت فى ذلك الوقت قد قامت بثورتها ، وكانت الدلائل كلها تشير الى أنها ستصطدم مع بريطانيا ان عاجلا

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ١٨٨ ·

(٢) Rabbath. E. : Op. Cit., pp. 22, 23.

(٣) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 31

أو آجلا · ولهذا فقد ظل مشروع مرور التجـارة البريطانيـة عبر مصر والبحر الأحمر مثل سابقيه حبرا على ورق ·

على أن النشاط التجارى فى البحر الاحمر حينذاك كانت تواجهه عـدة عقبات جغرافية ومناخية الى جانب بعض المشكلات السياسية · فسواحل البحر الأحمر لم تكن قد درست دراسة جغرافية علمية ، مما يجنب السفن العـابرة مخاطر الطريق البحرى · كما كانت الرياح الفصلية المعاكسـة فى المحيـط الهندى من أكبر المعوقات للملاحة بالنسبة للسفن الشراعية قبل اسـتعمال البخار · هذا الى جانب مخاطر الطريق الصحراوى بين السـويس والقاهـرة رغم المحاولات التى كانت تبذل أحيانا لرعايته · وزاد من هذه العقبات أيضـا أعتراض السلطان العثمانى على هذا الاتصال التجارى الذى كان يعتبـره غزوا صليبيا للبحر الأحمر حيث تقع على جانبه الشرقى الأماكن الاسـلامية المقدسة فى الحجاز (١) ، فى الوقت الذى كان يحرص فيه السلطان العثمانى على لقبـه كحامى حمى الحرمين الشريفين بما يعزز مكانته لدى العالم الاسلامى · وكان ذلك من الأسباب التى حدت بالدولة العثمانية لأن تسـعى الى جعل البحر الأحمر بحيرة راكدة وتعارض فى فتحه كطريق ملاحى خاصة بالنسبة للدول الأوربية ·

وتجدر الاشارة أيضا الى عدة أسباب أخرى جعلت الدولة العثمانيـة تتخذ هذا الموقف ازاء النشاط البحرى عبر البحر الأحمر ومحاولة جعـله قاصرا على السفن العربية والعثمانية المحدودة لتمخر عبابه (٢) · فقـد كان البـاب العالى يخشى أن يؤدى انتعاش مصر الاقتصادى الى زيادة قـوة المماليك الخارجين عليه وهو صاحب الحق الشرعى فى البلاد · كما كان السلطان العثمـانى يرى أن الفوائد الجمركية التى تعود على مصر من هذا الطريق لا تفيد منهـا الدولة العثمانية شيئا ، بينما تزيد الطريق من قوة أعدائه المماليك الخارجين على الدولة· بل ان الباب العالى كان يخشى أن يؤدى فتح هذا الطريق الملاحى الهـام للسفن الأجنبية الى زيادة النفوذ الأجنبى فى مصر بما يقطع الأمل فى عودتها الى حظيرة السلطنة العثمانية ·

على أن السلطان العثمانى فيما بعد ، لم يجد غضاضـة فى السماح للسفن الاجنبية بنقل التجارة عبر البحر الأحمر حتى ميناء جدة فقط ليشـكل بذلك حصيلة للحجاز من العوائد الجمركية التى كانت تكفى لسد نفقات رعاية الحرمين ولا تحمل الدولة مثل هذه النفقات فى وقت كانت تنوء فيـه ميزانيتها بأعبائها الثقيلة · هذا بالاضافة الى أن الباب العالى كان يرى أن النشاط التجارى فى البحر الاحمر سيؤثر ــ دن شك ــ على التجارة فى الخليج العربى والعـراق وهو الطريق الآخر الذى كانت تصل البضائع عبره الى موانى البحر المتوسـط

(١) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ٣٨ ·
(٢) Rabbath, E : Op. Cit., pp. 20, 21.

والى عاصمة الدولة العثمانية نفسها ، وكان السلطان العثمانى يخشى أن تخسر الدولة العثمانية فى الوقت الذى يكسب فيه أعداؤها الخارجون عليها فى مصر ويتحكمون فى موارد الشرق التى تحتاج اليها الدولة ، هذا فضلا عن خسارتها المادية التى ستتكبدها اذا تركزت التجارة فى طريق البحر الاحمر ٠

ولهذه الأسباب مجتمعة فقد وجهت الدولة العثمانية خطابا شديد اللهجة لبريطانيا تحتج فيه على وصول بعض السفن البريطانية للسويس ، وكررت الدولة فى احتجاجها بأن البحر الأحمر شمالى جدة يؤدى الى الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز وأن هذه الاماكن يجب ألا تتعرض للخطر نتيجة للنشاط التجارى (١) ٠

على أن فرنسا فى ذلك الوقت كانت تبذل قصارى جهدها ممهدة السبيل للسيطرة على الطريق الملاحى للهند عبر البحر الاحمر منافسة بذلك كل المحاولات البريطانية فى هذا السبيل ٠ هذا بينما نجد السياسة البريطانية حتى منتصف القرن الثامن عشر لا تصل فى اتهامها لفرنسا الا بأنها تعمل لكى توجد لنفسها مركزا ممتازا فى الملاحة عبر البحر الاحمر وخاصة فى الموانى المصرية ٠ ولم تكن بريطانيا قد تبينت بعد ، النوايا الحقيقية لفرنسا التى كانت تطمع فعلا فى غزو مصر كوسيلة لتهديد المصالح البريطانية فى الهند والشرق بوجه عام ٠

ويستدل على عدم فهم الدبلوماسيين البريطانيين لحقيقة النوايا الفرنسية حينذاك من الخطاب الذى بعث به سفير بريطانيا فى عاصمة الدولة العثمانية الى حكومته فى شهر سبتمبر سنة ١٧٧٧ يشير فيه الى أن بعثة تجارية فرنسية برئاسة المفتش العام الفرنسى للموانى التجارية فى الشرق ، وكان يدعى « البارون دى توت El Baron de Tott » قامت بزيارة القاهرة على أمل عقد معاهدة تجارية مع بكوات المماليك ٠ بينما كانت هذه البعثة على النحو الذى أثبتته الحوادث التالية تعمل لغرض أبعد من ذلك ، فلم تكن نواياها أقل من دراسة الوسائل التى يمكن أن تحقق غزو الفرنسيين لمصر وتحكمهم فى الطريق التجارى عبر البحر الاحمر باعادة الاتصال القديم بين البحرين الأحمر والمتوسط الذى كان يتم عن طريق غير مباشر بفتح قناة تصل النيل بالبحر الأحمر (٢) ٠

بل انه قد ظهر فيما بعد الدليل الذى يؤكد أن الفرنسيين كانوا ينظرون لمصر لتحقيق أغراض تفوق كثيرا مجرد التفكير فى فتح طريق للتجارة والمواصلات عبر مصر والبحر الاحمر ٠ وينحصر هذا الدليل فى أن جميع حركات البريطانيين فى مصر حينذاك كانت تصل عنها تقارير وافية للسفارة الفرنسية فى عاصمة

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٨٩ ٠

(٢) Charles — Roux : L'Angleterre, L'Isthme de Suez et l'Egypte au 18 Siecle, p. 94.

الدولة العثمانية ولوزارة الخارجية الفرنسية (١) . كما ان سيل الفرنسيين وعملائهم لم ينقطع عن التدفق الى مصر لدراسة شئونها ومعرفة مدى أهميتها وصلاحيتها كمستعمرة فرنسية ، بل ان موقف فرنسا وتحالفها مع الولايات الامريكية ضد بريطانيا فى سنة ١٧٧٨ ليوضح بجلاء كيف كانت سياسة فرنسا الخارجية فى ذلك الوقت مرتبطة كل الارتباط بموقفها العدائى ازاء بريطانيا(٢) .

وتبدو نوايا فرنسا ازاء طريق البحر الاحمر واضحة بجلاء من خلال التصريحات التى أدلى بها قنصلها فى مصر « ماجلون Magailon » الذى عبر عن أهمية البحر الأحمر بالنسبة لفرنسا بقوله فى ٥ يونيه سنة ١٧٩٥ أنه اذا أصبح الفرنسيون سادة للبحر الأحمر فانهم يستطيعون أن يهددوا مصالح البريطانيين وأن يطردوهم من الهند . فعن طريق السويس خلال الفترة المناسبة من العام يمكن ارسال عدد من القوات الفرنسية الى الهند بواسطة عدد قليل من البواخر ، ولا يحتاج الجنود الفرنسيون فى هذا الطريق أن يبقوا فى البحر أكثر من ستين يوما بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذى يستغرق حوالى ستة شهور . وعن طريق السويس لن يكون الفرنسيون معرضين لخسارة أكثر من ١٪ من رجالهم ، بينما خسائرهم فى الطريق الآخر لن تقل عن ١٠٪ بأى حال من الأحوال (٣) .

بل ان «ماجلون» أوضح فى تقرير آخر كتبه فى اليوم العاشر من أكتوبر سنة ١٧٩٥ بيان الفترات الزمنية التى يمكن للقوات الفرنسية فيها التحرك من فرنسا الى الهند عبر مصر والبحر الأحمر قبل أن تتمكن القوات البريطانية من الحيلولة دون وصولها الى برزخ السويس . فقد ذكر فى هذا التقرير أنه اذا غادرت القوات الفرنسية « طولون » فى ٢٠ يونية ، فانها يمكن أن تصل الى الاسكندرية فى ١٠ يولية ، والى القاهرة فى ٢٠ يولية تقريبا ، ثم الى السويس فى ٢٥ يولية . وأضاف التقرير موضحا أنه يمكن للقوات الفرنسية أن تصل الى الهند بعد ذلك بنحو ٤٥ يوما قبل أن يكون لدى بريطانيا فسحة من الوقت لتتخذ أى اجراء مضاد . كما أشار « ماجلون » فى تقريره هذا الى أن الفرنسيين لن يحتاجوا الا الى عشرة آلاف جندى ليمكنهم طرد البريطانيين من الهند (٤) .

وهكذا وضحت نوايا فرنسا للسيطرة على طريق البحر الأحمر وخرجت من حيز التفكير الى حيز التصريح . وكان المقصود من وراء غزو مصر تحقيق الهدف الأبعد مدى باستغلال هذا الطريق القصير الموصل للهند عبر البحر الأحمر وحرمان بريطانيا من استخدامه ، وبذلك يمكن ضربها فى مستعمراتها

---

(١) Hoskins, H.L. : Op. Cit., p. 21.

(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٣) Charles-Roux : Op. cit., p. 342.

(٤) Charles-Roux : Ibid., p. 343.

فى الشرق قبل أن تتمكن من اتخاذ أى اجراء مضاد لدرء هذا العدوان وصده وقد وجدت فرنسا أن امتلاك مصر صار من الأهمية بمكان اذا كان لها أن تجعل لمراكزها فى المحيط الهندى قيمة يعتد بها (١) ٠

وعندما شرعت فرنسا فى اعداد خطتها مبتدئة بغزو مصر تمهيدا للسيطرة على الطريق الى الهند عبر البحر الأحمر فانها استدعت قنصلها « ماجلون » من مصر ليشترك بنفسه فى وضع هذه الخطة نظرا لخبرته الواسعة فى شئون الشرق ٠ ومن هنا تبدو صحة الرأى القائل بأن الحملة الفرنسية على مصر فى شهر مايو سنة ١٧٩٨ لم تكن وليدة عبقرية « بونابرت » وأطماعه أو وليدة الثورة الفرنسية نفسها ، بل أنها كانت النتيجة الطبيعية والمنطقية لنمو وتطور جيل من الساسة ورجال الاقتصاد الفرنسيين فى الشرق ، وكانت تحقيقا لأطماع جالت فى نفوسهم فترة طويلة من الزمن حتى وجدت الظروف سواء فى أوربا أو فى الشرق سانحة لتخرج الى حيز التنفيذ (٢) ٠

وقد يكون التغير الجديد الذى طرأ فى الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر على السياسة الفرنسية هو وجود عامل جديد زاد فى أهمية مصر والبحر الأحمر فى نظر الفرنسيين ٠ ذلك العامل يتركز فى أن مصر تتيح فرصة ذهبية لتوجيه ضربة قوية لبريطانيا عدوة فرنسا اللدود حينذاك ، مما حدا « ببونابرت » أن يصرح بقوله أن فرنسا لكى تحطم بريطانيا يجب أن تسيطر على مصر (٣) ٠ ولهذا كانت فكرة استيلاء الفرنسيين على مصر ووضع أيديهم على الطريق البحرى الى الهند عبر البحر الأحمر هى فكرة قديمة فعلا ، غير أن اخراجها الى حيز التنفيذ فى ذلك الوقت بالذات انما يرجع لظروف فرنسا الداخلية وعلاقاتها بالدول الأوربية الأخرى وبريطانيا على وجه الخصوص ٠ فالتفكير فى الانتقام من انجلترا كان يسير جنبا الى جنب مع التفكير فى احياء الامبراطورية الفرنسية (٤) ٠

على أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بالغة الأثر خطيرة النتائج ، اذ قصد بها « برنابرت » توجيه ضربة حيوية للاقتصاد البريطانى ، وكان « بونابرت » فى جميع حروبه يستعمل أسلوب توجيه الضربات الى القلب ، وقد أراد أن يفعل ذلك مع بريطانيا ٠ ولهذا فقد أثارت هذه الحملة انتباه بريطانيا وكانت بمثابة الناقوس الذى نبهها الى ما يحيق بمصالحها الحيوية فى الشرق من خطر (٥) وقد لمست بريطانيا عمليا مدى التهديد الذى يمكن أن

---

(١) Johnston, H. : Op. Cit., p. 195.

(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٩٠ — ٩١ ٠

(٣) Hoskins, H.L. : European Imperialism in Africa, p. 22.

(٤) حسن صبحى (دكتور) : العالم العربى من الغفوة والجمود الى اليقظة والوحدة ؛ ص ٣٦ ٠

(٥) Journal of Indian History, 11., op. cit., p. 169.

يوجه لمصالحها هذه اذا وقعت مصر وطريق البحر الأحمر بصفة خاصة فى يد قوة معادية (١) • ولهذا تغير موقف الحكومة البريطانية من اهمال تام لشئون مصر والبحر الأحمر الى اهتمام زائد وتمسك شديد حفاظا على أهم طريق حيوى فى مواصلاتها الامبراطورية • بل ان محور السياسة البريطانية طوال القرن التاسع عشر كان يدور حول السيطرة على المراكز الاستراتيجية الهامة فى طرق المواصلات الى الهند وخاصة طريق البحر الأحمر الذى يعد أقصر هــذه الطرق وأسهلها •

وجدير بالذكر فى هذا المقام أنه اذا كانت حملة « بونابرت » على مصر تعتبر فاتحة الصراع العلنى بين انجلترا وفرنسا حــول طريق البحر الأحمر وقطع طريق بريطانيا الى البنغال عبر الشرق الأوسط بوجه عام ، فان هذه الحملة كانت فاتحة التطلع الصهيونى أيضا نحو استعمار فلسطين اذا صدقنا الرواية الشائعة بأن « بونابرت » قد أصدر فى سنة ١٧٩٩ بيانا رسميا (٢) يدعو فيه يهود آسيا وافريقيا أن يهرعوا تحت رايته الى دخول أورشليم واعادة بناء الهيكل • (٣) وقد رأى البعض أن « بونابرت » كان يهدف من وراء ذلك الى تجنيد فرق من يهود حلب لمساعدته فى فتح فلسطين والوقوف الى جانبه ضد بريطانيا • غير أن نداءه هذا لم يلق استجابة من اليهود الذين ظلوا على ولائهم للدولة العثمانية وكانوا يتمتعون بحماية بريطانيا لهم فى أراضيها • غير أنه تجدر الاشارة الى أن هذا النداء الذى وجهه « بونابرت » لليهود رغم انعدام أثره من الناحية الفعلية ، الا أن الدعاية الصهيونية تشــير اليه على أنه بمثابة الاعتراف الأوربى بحقوق اليهود فى فلسطين ، وبداية للتعاون بين الحــكومات الأوربية واليهود على حساب العرب فى ذلك الوقت المبكر (٤) •

وعلى أية حال فقد اتجه الفرنسيون بعد وصولهم لمصر الى تجميع أسطولهم فى السويس لتوجيه الضربة القاصمة لبريطانيا فى الهند • كما قام عدد من المهندسين الفرنسيين بدراسة مشروع وصل البحرين المتوســط والأحمر • ونظرا لأنهم كانوا معروفين بكفاءتهم ودقتهم المتناهية فان أحدا لم يجرؤ على اعلان خطئهم الحسابى الخاص بمستوى المياه فى البحرين الا بعد أن أصــبح هذا الخطأ واضحا وضوحا لا لبس فيه • وفى نفس الوقت بذلت فرنسا محاولاتها للاتصــال بالأمراء العرب فى الحجاز والســودان والخليج العربى • وكان « بونابرت » قد أمر « المسيو لسكاريس » بالسفر الى بلاد العرب ليتفاوض

(1) Graham, G.S. : Great Britain in the Indian Ocean 1810 — 1850. p. 286.

(٢) عباس محمود العقاد : الصهيونية العالمية ، ص ٦٩ •

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون وقضية فلسطين ؛ ص ١٢ •

(٤) Baron, S.W. : A social and religious history of the Jews, Vol. II., p. 329.

مع القبائل هناك لتسهيل تقدم الجيوش الفرنسية الى الهند (١) · ولا شك أن هذه التحركات الفرنسية قد أقلقت بريطانيا على مصالحها الحيوية فى المنطقة (٢) ·

على أن خطة الفرنسيين فى استخدامهم لمصر للسيطرة على طريق البحر الأحمر وتوجيه ضربة حاسمة لبريطانيا فى الهند قد قضى عليها نتيجة للهزيمة البحرية التى منى بها الأسطول الفرنسى فى أبى قير (٣) على أثر انزال القوات الفرنسية بعد أن ظهر ان ميناء الاسكندرية ليس من العميق بحيث يسمح للسفن الحربية بالبقاء فيه بأمان · وتمكنت بريطانيا من تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير على يد قائدها « نلسون » فى شهر أغسطس سنة ١٧٩٨ · ولما كانت الدولة العثمانية قد اعتبرت الحملة الفرنسية على مصر بمثابة اعلان حرب على الباب العالى ، فقد أبرمت اتفاقا مع بريطانيا والروسيا فى شهر يناير سنة ١٧٩٩ لاجلاء الفرنسيين عن مصر ، ووصلت « لبونابرت » أخبار عن تجمع جيش عثمانى فى سوريا للزحف على مصر ، فاتجه فورا لملاقاته ببلاد الشام ·

وكان يهدف « بونابرت » الى جعل بلاد الشام خطوطا أمامية للدفاع عن مصر وتحقيق فكرة الامبراطورية الفرنسية العظمى فى بلاد الشرق · غير أن آمال الفرنسيين تحطمت عند أسوار عكا التى أصر حاكمها « الجزار » على مقاومة العدوان الفرنسى وساعده على ذلك الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط · ولم يتحقق حلم « بونابرت » فى أن يصبح سيدا للفرات كما أصبح سيدا للنيل ، وعاد الى مصر يندب سوء طالعه ويقول بعد ذلك أنه لولا « الجزار » حاكم عكا لصار امبراطورا للشرق (٤) ·

على أن فشل خطة الفرنسيين بعد هزيمتهم فى أبى قير وعودتهم من الشام بخفى حنين لم يقلل من الأهمية التى أصبحت للبحر الأحمر فى نظر بريطانيا التى أضحت تنظر للمسألة على أنها أكثر من أن تنتهى بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر · والدليل على ذلك أن بريطانيا رفضت الموافقة على اتفاقية العريش التى قضت بجلاء الفرنسيين عن مصر رغم أن مندوبها « سير سدنى سميت Sir Sidney Smith » أقر هذه الاتفاقية بعد أن اشترك فى المفاوضات فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٩ (٥) اذ رأت بريطانيا ازاء الأهمية التى تبينتها لمصر

---

(١) سيديو ، ل . ا : خلاصة تاريخ العرب (تعريب محمد احمد عبد الرازق) ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 31.

(٣) حسن صبحى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١ .

(٤) Brenton, E.P. : Naval History of Great Britain, vol. I, pp. 558, 559.
London Gazette, March 29th, 1800.

(٥) Graham, G.S. : Op. cit., p. 286.

باعتبارها منطقة حاكمة فى طريقها الى الهند عبر البحر الأحمر ضرورة اشتراك القوات البريطانية فى المعركة لاخراج الفرنسيين من مصر حتى تسجل بذلك مصالحها الحيوية فى هذا الطريق · بل ان الحكومة البريطانية أرسلت فى نفس السنة قوة بحرية بقيادة « الأدميرال بلانكت Rear Admira Blankett » للطواف فى البحر الأحمـــر (١) فى مظاهرة بحرية تمحو من الأذهان فكرة الفرنسيين للسيطرة على هذا الطريق واتخاذه معبرا لغزو الهند وتهديد المصالح البريطانية هناك (٢) ·

كما أن حكومة بومباى البريطانية قامت بنشاط واسع النطاق مستعينة بقواتها الهندية للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وللوقوف فى وجه أية محاولة فرنسية للوثوب الى الهند · كما أنهـــا أبدت استعدادها للقيام بأية أعمال حربية تكلف بها ضد الفرنسيين أثنـــاء وجودهم فى مصر · ففى شهر أبريل سنة ١٧٩٩ تقدمت قوة بحرية قوامهـــا ثلاثمائة أوربى وهنـــدى يقودها « اللفتنانت كولونيل جون موراى Lieutenant Colonel John Murray » تجاه المدخل الجنـــوبى للبحر الأحمر (٣) ، وقامت باحتـــلال جزيرة « ميون أو بريم Perim » الواقعة فى أضيق نقطة ببوغاز باب المندب (٤) الذى يصل البحر الأحمر بخليج عدن ، وذلك فى اليوم الثالث من شهر مايو ، وظلت تحتلها حتى أوائل شهر سبتمبر من السنة المذكورة ·

غير أن البريطانيين تبينوا أن المضايق فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر لا يمكن السيطرة عليها من جزيرة بريم بواسطة المدفعية الساحلية (٥) كما أن مناخ الجزيرة ردىء للغاية (٦) ، وليست بها مياه صالحة للشرب (٧) · ولهذا سحب « موراى » قواته من جزيرة بريم خاصة بعد أن اطمأن لحســـن نوايا سلطان لحج وعدن الذى أبدى موافقته المبدئية على بقاء البريطانيين مؤقتا فى عدن خلال الفترة التى يحتاجونها · وقد اتجه « موراى » بقواته الى عدن حيث استقبله سلطانها استقبالا طيبا (٨) · وبذل « موراى » محاولاته للتحالف مع السلطان لضمان اتخاذ عدن محطة دائمة للسفن البريطانية ، غير أن هذا

---

(١) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 31.

(٢) Graham, G.S. Op. Cit., pp. 286, 287.

(٣) Graham, G.S. : Ibid., p. 287.

(٤) George, H.B. : Op. Cit., p. 124.

(٥) Playfair, R.L. : Op. Cit., pp. 122 — 123.

(٦) صلاح الدين البكرى اليافعى : فى جنوب الجزيرة العربية ، ص ١٥ .

(٧) The Middle East, A Political and Economic Survey, 1958, p. 103.

(٨) Ingrams, H. : Op. Cit., p. 50.

الموضوع تأجل الاتفاق عليه (١) · واضطرت هذه القوة البحرية البريطانية أن تنتظر فى عدن حتى شهر مارس سنة ١٨٠٠ لتستعين بالرياح الموسمية للتوجه عائدة الى الهند ·

على أن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت تبذل جهودها بصفة دائمة لتنشيط التجارة المتبادلة بين سواحل البحر الأحمر وممتلكاتها فى الهند· غير أن هذا النشاط التجارى بدأ يتدهور نتيجة للسياسة التى انتهجتها الدولة العثمانية حينذاك وسايرها فيها سلطان لحج وعدن · فالبن اليمنى الذى كان يرسل الى أوربا والهند أخذ طريقه الى مصر أو حملته القوافل من جدة الى مكة ليتجمع أخيرا فى عاصمة الدولة العثمانية · بل انه بين عامى ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ اشترت السفن الأمريكية كميات كبيرة من البن اليمنى وبدأت تتعـــامل مباشرة مع المنتجين الأصليين · ولهذا سارعت ادارة الشركة الى ارســـال « الكومودور سير هوم بوفهام Commodore Sir Home Popham » قائد السفينة « رودنى H.M.S. Rodney » على رأس بعثة الى البحر الأحمر للعمل على احياء التجارة بين هذه المنـــاطق وممتلكات الشركة ·

بل ان حكومة الهند البريطانية كلفت « السير هوم » أيضا بمهمة نقل القوات التى كانت ستنضم لجيش « الجنرال بيرد General Baird » من بومباى الى مصر ، ولهذا التقى « السير هوم » بعد أن عبرت هذه القوات صحراء مصر الشرقية من القصير الى النيل · وكانت قوات « الجنرال بيرد » ستتعاون مع القوات البريطانية الأخرى الآتية عبر البحر المتوسط لطرد الفرنسيين من مصر ومنع أية قوى أجنبية من السيطرة على الطريق الموصل بين الشرق والغرب عبر مصر والبحر الأحمر · وسيكون هذا التعاون بين القوات البريطانية من الشمال والجنوب ظاهرة واضحة فى استراتيجية الدفاع البريطانى عن المصالح الامبراطورية منذ ذلك الحين · كما كانت هذه الحادثة دلالة على أول استخدام للبحر الأحمر فى الأغراض العسكرية الحديثة (٢) ·

وكانت جهود شركة الهند الشرقية البريطانية لتنشيط التجـــارة مع الموانى اليمنية تبدو واضحة فى المحاولات التى بذلها فى هذا السبيل « الدكتور برنجل Dr. Prigle » الطبيب البريطانى الذى عمل فى بومباى ثم صـــاحب « موراى » فى رحلته السابقة الى الموانى اليمنيـــة وأقام فى مخا فى ســـنة ١٨٠٠ (٣) · فقد أوصل فى شهر مايو من نفس السنة عدة خطابات وهدايا

---

(١) Aitchison, C.U. : A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads relating to India and the Neighbouring Countries, Vol. XI, p. 123.

(٢) Marston, T. E. : Op. cit., pp. 31, 32.

(٣) Playfair, R. L. : Op. cit., p. 123

من الحاكم العام للهند الى على منصور امام صنعاء (١) لحثه على اصدار تعليماته لحكام الموانى اليمنية بعدم مضايقة السفن البريطانية عند قيامها بعمليات التبادل التجارى مع سواحل البحر الأحمر وتزويدها بما تحتاج اليه لمواصلة رحلاتها . وقد استقبل امام صنعاء « الدكتور برنجل » بحفاوة وتكريم ، وأصدر تعليماته لحكام الموانى اليمنية فى مخا والحديدة واللحية لتقـــديم كافة التســـهيلات والاحتياجات اللازمة للسفن البريطانية بالأسعار العادية . كما تم الاتفاق على حماية البحارة على الشاطىء والمحافظة على شحنات السفن بقدر الامكان اذا جنحت أو تحطمت . وفضلا عن ذلك فقد وافق الامام على منصور أيضا على بناء مستشفى بحرى فى مخا لاستقبال المرضى من الأسطول التجارى البريطانى . وقد غادر « الدكتور برنجل » صنعاء متجها الى مخا بعد نجاحه فى الحصول على كل هذه التسهيلات .

وكان اهتمام بريطانيا بالتجارة مع اليمن قد ازداد بعد أن نجحت المنافسة الأمريكية فى أخذ معظم كميات البن المصدرة من اليمن الى خارج البلاد . ويرجع السبب فى ذلك الى الأسعار التى كانت تتعامل بها شركة الهند الشرقيـــــة البريطانية والتى كانت فى مركز لا يمكنها من منافســـة عروض الأمريكيين حينذاك . كما أن الضعف المتزايد للأئمة اليمنيين والصراع المستمر بين القبائل قد انعكس على انتاج البن فى اليمن مما أدى الى اضعافه (٢) .

وعلى أية حال فقد استمرت جهود بريطانيا لتدعيم تجارتها مع اليمن ورعاية مصالحها فى منطقة البحر الأحمر وخاصة عندما عينت « السير هوم » مندوبا لها فى الجزيرة العربية فى سنة ١٨٠٢ (٣) ومنحته صلاحيات كاملة تمكنه من عقد المعاهدات التجارية تبعا لما تتطلبه المصالح البريطانية . وطلبت اليه التوصل الى عقد معاهدات تجارية مع امام صنعاء وسلطان لحج وعدن على وجه الخصوص ولهذا فقد أبحر « السير هوم » من « كلكتا » متجها الى مخا ، حيث وجه بعثة الى امام صنعاء شكلها من « المستر اليوت » و « الملازم لامب » و « الدكتور برنجل » لتعرض عليه اقتراح التوصل الى عقد معاهدة تجارية . غير أن الامام رفض مواد المعاهدة المقترحة ، ولم يشأ أن يزيد تعاونه عن هذا الحد حتى لا يؤدى ذلك الى التدخل الأجنبى فى شـــئون بلاده . وقد مات « مستر اليوت » بالحمى فى صنعاء ، بينما غادرها « الملازم لامب » و « الدكتور برنجل » فى اليوم الرابع من سبتمبر من السنة المذكورة وهما يحملان رفض الامام الى الحاكم العام للهند وممثله « السير هوم بوفهام » (٤) .

---

(١) Marston, T E. : Op. cit., pp. 32, 33.

(٢) Aitchison, C. U. : Op. cit., Vol. XI, p. 111.

(٣) Aitchison, C.U. : Op. Cit., Vol. XI., p. 111.

(٤) Playfair, R.L. : Op. Cit., pp. 124 — 126.

غير أن « السير هوم » لم يفقد الأمل فى تحقيق بعض النجـــاح لشركة الهند الشرقية البريطانية ، فتوجه الى عدن وبذل جهوده لاقناع الســـلطان أحمد بن عبد الكريم العبدلى سلطان لحج وعدن بعقد معاهدة للصداقة والتجارة . وتم ابرام المعاهدة فى اليوم السادس من سبتمبر ١٨٠٢ وصدق عليهـــا « السير هوم » نيابة عن « اللورد ولسلى Lord Wellesiy » الحاكم العام للهند حينذاك وبناء على رغبته ، كما اعتمدها الأمير أحمد باصهى أمير عدن نيابة عن السلطان العبدلى (١) . وقد نصت هذه المعاهدة على ايجاد اتصال تجارى بين شركة الهند الشرقية أو أية رعية بريطانية تحت حكم الحاكم العام للهند ورعية السلطان أحمد بن عبد الكريم العبدلى (٢) . ووافق الجانبان على اعتبار ميناء عدن مفتوحا لاستقبال البضائع التى تحملها السفن البريطانية على أن تدفع نسبة ٢٪ ضرائب جمركية لمدة عشر سنوات ترفع بعدها هذه النسبة الى ٣٪ فقط . ونصت المعاهدة كذلك على حرية الرعايا البريطانيين فى العمـــل فى أراضى السلطان ونقل ثرواتهم لمن يشاءون ، كما تعهد السلطان ببذل جهوده لاستعادة ديون الرعايا البريطانيين من رعاياه . وفى حالة حدوث أى نزاع بين الرعايا البريطانيين فيجب أن يرفعوا دعواهم للوكيل البريطانى فى عدن ليجرى أحكامه فى قضاياهم بموجب القوانين المتبعة فى بلادهم . وأخيرا تعهد السلطان فى هذه المعاهدة بأن يبيع لبريطانيا قطعة من الأرض عربى عدن لتقيم عليها شركة الهند الشرقية البريطانية مبانيها بالشكل الذى ترتضيه (٣) .

ومن الواضح أن هذه المعاهدة تعد بداية التدخل البريطانى فى شئون عدن وعند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . كما أنها تنتقص من السلطة الشرعية لحكام هذه المنطقة فى بلادهم فتحديد الرسوم الجمركية بنسبة تقل كثيرا عما يتقاضاه السلطان من قبل ، فضلا عن الاعتراف للوكيل البريطانى ــ الذى كان لايعدو أن يكون قنصلا لبلاده ــ بالتدخل فى نظر المنازعات للرعايا البريطانيين فى عدن ورفع نتائجها الى حكومة الهند البريطانية لتقرير ما تراه ، فان ذلك كله لا يتفق مع سيادة سلطان لحج وعدن ، كما يعطى الفرصة للبريطانيين للتدخل فى شئون سلطنته . ولهذا فقد وصف « هارولد جاكوب » هذه المعاهدة بأنها رائعة بالنسبة للبريطانيين خاصة اذا ما أدخلنا فى اعتبارنا الأطراف التى عقدتها

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) Hurewits, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I., p. 126.

(٣) Aitchison, G.U. : Op. Cit., Vol. XI., pp. 119, 122.

والزمن الذى وقعت فيه (١) . بينما اعتبرها « توم ليتل » أول تورط لبريطانيا فى جنوب الجزيرة العربيه (٢) .

والى جانب ما حققته بريطانيا من هذه المعاهدة فقد كانت تهدف أيضا الى جس نبض حكومة الامام الزيدى فى صنعاء التى صمتت حينذاك عن ابداء أى تعليق على هذا الحادث الهام مما أكد لبريطانيا انها اذا ما فكرت فى غزو عدن فلن يقاومها سوى العرب العدنيين أنفسهم وقبائل المنطقة القريبة المحيطة بهم مثل قبائل العبدلى والفضلى والعقربى على اكثر تقدير . أما الامامة الزيدية فقد كانت منشغلة بمشاكلها الخاصة التى أضعفتها عن حماية البلاد التى كانت تابعة لها فى عهد الأئمة الأقوياء والتى كانت تضم لحج وعدن وبلاد البيضا ويافع وحضرموت وتهامة والمخلاف السليمانى وعسير .

ويبدو تزايد اهتمام حكومة الهند البريطانية بالطريق الملاحى عبر البحر الأحمر من خلال التصريح الذى أدلى به « اللورد فالنتيا Lord Valentia » الذى وصل الى الهند على رأس بعثة بريطانية فى سنة ١٨٠٥ موضحا أهمية طريق البحر الأحمر بالنسبة للتجارة الهندية ، ومؤكدا ضرورة العمل على ايجاد أفضل وسيلة لتدعيم القوى البريطانية فى البحر الأحمر حتى يمكنها مواجهة أى تقدم عدائى من ناحية الغرب ، هذا بالاضافة الى العمل على زيادة حجم التجارة الهندية فى المنطقة . وتبعا لذلك فقد قام « فالنتيا » بزيارة معظم الموانى الهامة فى البحر الأحمر مبتدئا بعدن وجمع معلومات قيمة عن حالة التجارة . وأخيرا أشار « فالنتيا » الى أهمية احتلال عدن التى اعتبرها « جبل طارق الشرق » وأوصى بانشاء وكالة تجارية فى عدن وبتعيين مقيم دائم بها ليتمكن البريطانيون من احتكار التجارة مع بربرة على الساحل الافريقى المواجه . بل انه قد أوصى أيضا بالتحالف مع الوهابيين من ناحية الشرق والأحباش من ناحية الغرب لضمان حماية المصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر بأكملها .

ولكن « فالنتيا » أوضح فى نفس الوقت أن الحبشة لن تحقق الكسب السريع والفائدة المباشرة للبريطانيين على النحو الذى يمكن أن تحققه عدن للمصالح البريطانية . بل انه أشار أيضا الى أن سيطرة البريطانيين على جزيرة كمران ستتيح لبريطانيا سيطرة مباشرة على تجارة الحبشة ، وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية ترغب فى تحقيق ذلك . وقد أورد « فالنتيا » كل هذه الآراء والتوصيات فى تقريره المطول الذى أرسله الى « جورج كاننج » وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية . ويعتبر هذا التقرير على جانب كبير من

---

(١) Jacob, H. : Op. Cit., p. 65.

(٢) Little, Tom : South Arena of Conflict, London, Pall Mall, 1968, p. 10.

الأهمية لأنه يوضح الأوضاع القائمة فى منطقة البحر الأحمر ووجهة النظر البريطانية ازاءها فى ذلك الحين (١) ٠

على أن « اللورد فالنتيا » قد أنهى تقريره هذا بجملة أعاد كتابتها بعد ذلك بخمسة وستين عاما « اللورد روبرت نابيير Lord Robert Napier »الذىقاد حملة البريطانيين على الحبشة فى سنة ١٨٦٨ اذ قال : « انه فيما يتعلق بالحبشة فانها بلد مسيحى يجب أن يتحرر من الحكم المستبد الذى يتحكم فى مقدراته ، كما يجب تطويقه بعيدا عن سيطرة المسلمين ، واننا بتحقيق ذلك سنفتح سوقا رائجة لمنتجاتنا » ٠ وبذلك ولدت أسس السياسة البريطانية ازاء الحبشة ، تلك السياسة التى استمرت حتى وصلت الى هناك الحملة البريطانية فى سنة ١٨٦٨ ، حيث ظهرت للبريطانيين الطبيعة الحقيقية للحبشة والصعوبات التى تكتنفها ٠ وقد لقى هذا التقرير الذى قدمه «فالنتيا» اهتماما كبيرا لدى المسئولين بوزارة الخارجية البريطانية (٢) ٠

وعلى أية حال فان « فالنتيا » أرسل أخيرا سكرتيره « هنرى سولت Henry Salt » فى بعثة الى الحبشة عاد بعدها يوصى بضرورة بذل الجهود لكى يحصل الأحباش على منفذ بحرى لبلادهم على البحر الأحمر يتيح لهم الاتصال بالمستعمرات البريطانية فى بلاد الشرق ٠ غير أن اقتراحات « فالنتيا » هذه لم يحفل بها أحد الى أن اهتم بتنفيذها « هنرى سولت » نفسه الذى أصبح بعد ذلك القنصل العام لبريطانيا فى مصر (٣) ٠

أما بالنسبة لتحركات « سولت » فيمكن تتبعها من خلال التقرير الذى قدمه لوزارة الخارجية البريطانية وأوضح فيه أنه وصل الى مصوع ثم انتقل الى « تيجرى Tigré » فى الحبشة حيث قدم ما معه من هدايا الى « بحر نيجوس Bahr Negos » حاكم هذه المنطقة ٠ غير أن « سولت » لم يجد ما يشجعه على اقامة علاقات تجارية مستقرة نتيجة لرفض الأحباش لهذا الاتجاه ، ولضعفهم عن السيطرة على المنطقة الساحلية ، مما جعله يشك فى نجاح أى تدخل بريطانى فى الحبشة حينذاك (٤) ٠ وقد أرفق « سولت » بتقريره هذا صورا من المراسلات التى دارت بينه وبين حكومة بومباى وتضم استفسارات من تلك الحكومة عن هذه الرحلة وأهدافها ، مما كان يظهر وجود نوع من السباق بين شركة الهند الشرقية البريطانية ووزارة الخارجية البريطانية فى ذلك الحين ٠

وجدير بالذكر أن الرسائل المرسلة من مجلس ادارة شركة الهند الشرقية البريطانية ومقره فى لندن كانت تصل الى الحاكم البريطانى العام فى كلكتا فى

(١) Marston, T. E. : Op. cit., pp. 34, 35.
(٢) F.O. 1/1. Valent to Conning, 9/13/08.
(٣) Marston, T. E. : Op. cit., p. 34.
(٤) F. O. 1/1, Salt to F. O. 3/4/11, Report on his expedition.

فترة تتراوح ما بين خمسة الى ثمانية شهور ، أما المراسلات التى تتطلب ردودا حول الأمور الرسمية فقد كانت تستغرق فترة تصل الى عامين كاملين .

على أن « سولت » قد أرسل أيضا تقريرا سياسيا الى حكومة الهند عن الأوضاع السياسية فى البحر الأحمر موضحا أن البريطانيين يمكنهم الحصول على ما يريدونه فى اليمن اذا ما تحالفوا مع شريف أبى عريش أو امام صنعاء . وكان شريف أبو عريش أو « شريف اللحية » كما يسميه « سولت » يحكم منطقة تهامة ، وهى الأراضى الساحلية المنخفضة الممتدة من ميناء اللحية شمالا الى ميناء مخا جنوبا ، وأيضا منطقة زيلع على الساحل الافريقى للبحر الأحمر . وذكر « سولت » أنه شاهد سفينة فرنسية فى « خليج أنسلى Annesey Bay » وأوضح أنها جاءت الى هناك بغرض شراء قطعة من الأرض المطلة على هذا الخليج . وقد أوصى « سولت » فى تقريره بضرورة التحالف مع الوهابيين لمنع الفرنسيين من التسلل الى ايران من جهة ، ولفتح طريق البحر الأحمر أمام البريطانيين من جهة أخرى عن طريق ميناء عدن وجزيرة كمران واستبداله بالطريق البرى الذى كان مهددا حينذاك والمار بالبصرة والخليج العربى .

وجدير بالذكر أن الرأى قد استقر فى انجلترا على ارسال « هنرى سولت » مرة ثانية الى منطقة البحر الأحمر فى سنة ١٨٠٩ . وقد وصل الى ميناء مخا اليمنى فعلا فى شهر نوفمبر من السنة المذكورة ، حيث وجد أسعار البن قد ارتفعت بفضل وجود التجار المنافسين من الأمريكيين حتى بلغ سعر البالة ٧٥ دولارا الأمر الذى سبب متاعب كثيرة لشركة الهند الشرقية البريطانية نتيجة لارتفاع الأسعار . وعلى أية حال فقد أوضح « سولت » أنه لم تكن توجد فى البحر الأحمر حينذاك سفن معادية للبريطانيين ، كما لم تكن توجد لمحمد على أية سفن هناك فى ذلك الحين مما كان يجعله يرى أنه من السهل على البريطانيين السيطرة على أى موقع يريدونه فى منطقة البحر الأحمر .

وهكذا كانت تحركات البريطانيين فى البحر الأحمر وعلى مقربة من عدن فى مطلع القرن التاسع عشر . وقد تمت هذه التحركات بتوجيه من قبل شركة الهند الشرقية البريطانية فى بعض الأحيان ، كما كانت بتوجيه من قبل وزارة الخارجية البريطانية فى أحيان أخرى ، حتى رجع « سولت » الى انجلترا ، ولم يعد الى المنطقة ثانية الا عندما عين قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر لدى حكومة محمد على . ولا يعنى هذا أن محاولات البريطانيين للحصول على امتيازات لتجارتهم فى منطقة البحر الأحمر قد توقفت ، بل انهم انتهزوا كل فرصة ممكنة

لتحقيق أغراضـــهم . وقد حـــدث فى شـــهر يوليو ســـنة ١٨١٧ أن تلكأ أحد الأعراب فى الوكالة البريطانية فى ميناء مخا اليمنى . غير أن الحرس الهنود أبعدوه بالقوة مما أثار بعض العرب الذين تجمعوا وأهانوا عددا من الضباط البريطانيين الموجودين بالوكالة . بل ان الوكيل البريطانى فى مخا وهو « الملازم دومنكيتى Lieutenant Domincetti » قد تعرض لاهانة من قبل « الدولة » حاكم مخا الذى استدعاه بالقوة فى وقت غير مناسب ، كما هوجمت الوكالة وتعرضت للنهب والسلب . وقد أطلق حاكم مخـــا سراح الوكيل البريطانى وأمر بترحيله الى الهند ، وأغلقت بطبيعة الحال الوكالة البريطانية فى المدينة .

وقد انتهزت حكومة بومباى هذا الحادث واستغلته لمصلحتها بعد مرور عامين من حدوثه خاصة وأنها كانت تنقب عن سبب مناسب يبرر تدخلها . وقد طلبت من امام صنعاء أن ينزل العقاب بالحاكم السابق لمخا لمسئوليته عن تلك الحادثة . بل ان الحاكم العام للهند أمر بتوجيه قوة كافية الى مخا لتدعيم مطالب حكومة الهند البريطانية مستقبلا فى الميناء اليمنى . كما كانت تهدف حكومة « بومباى » الى فرض معاهدة على امام صنعاء يوافق فيها على أن يكون للوكيل البريطانى فى مخا حرس خاص مثلما لنظيره فى البصرة وبغداد ويكون هذا الحرس من القوة بحيث يكفل للمقيم الحماية والاحترام . كما أن كل العاملين فى الوكالة البريطانية يجب أن يكونوا تحت الحماية البريطانية وتابعين من الناحية القضائية للوكيل البريطانى . أما من الناحية التجارية فيجب انقاص نسبة الضرائب الجمركية على التجارة البريطانية من ٣٪ الى ٢٪ . وهذه المطالب دون شك كان من الصعب على الامام أن يتقبلها وهى تنتقص من سيادته وتضعف من ايراداته .

وقد أصدرت حكومة الهند البريطانية تعليماتها الى « الكابتن وليام بروس Captain William Bruce » المقيم البريطانى فى « بوشـــير » ليمثلها فى هـــذه المفاوضات ، ولهذا أبحر « بروس » الى مخا فى ٢٣ اغسطس ١٨١٩ يرافقـــه أسطول قوى يقوده « الكابتن لمى Captain Lumley » . وقد تسلم « بروس » فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨١٩ أجابة امام صنعاء التى أبدى فيها مشاعره الودية ، وأنه أرسل مبعوثه الفقيه حسين للتفاهم معه . وقد طلب الفقيه حسين من المبعوث البريطانى مرافقته الى صنعاء حيث يمكن احضار حاكم مخا الســـابق للتحقيق فى الواقعة . غير أن « بروس » أوضح أنه لحين تقديم الاعتذار المطلوب فانه لا يمكنه التوجه الى صنعاء (١) .

ولقد تطورت الحوادث بسرعة وظهر أثناءها اتجاه الامام ومبعوثه للمماطلة فى تحقيق المطالب البريطانية مما أدى بالمبعوث البريطانى الى توجيـــه تحذير

---

(٢) Playfair, R. L. : Op. cit., pp. 134, 136.

للسفن الراسية فى مخا بأن الميناء محاصر بقطع الاسطول البريطانى فى اليوم الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٨١٩ ٠ وقد بدأ قصف الميناء بمدفعية الاسطول فى اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور حتى تم اسقاط البرجين الرئيسيين المدافعين عن المدينة فى اليوم الثلاثين من نفس الشهر(١) ٠ واضطر حاكم مخا فى اليوم التالى الى اصدار قرار بمنع أى شخص من اهانة الرعايا البريطانيين والا تعرض لعقوبات قاسية ٠ كما لم يجد امام صنعاء بدا من الموافقة على تخفيض نسبة الضرائب على التجارة البريطانية من ٣٪ الى ٢¼٪ ٠ واضطر الامام الى توقيع المعاهدة التى اقترحتها بريطانيا فى ١٥ يناير سنة ١٨٢١ وأرسل صورة معتمدة منها الى المبعوث البريطانى فى ميناء مخا (٢) ٠

وهكذا تمكنت بريطانيا من تدعيم نفوذها فى الموانى اليمنية فى الجزء الجنوبى من البحر الاحمر ، ونالت شركة الهند الشرقية البريطانية مكانة ممتازة فى المنطقة ٠ وبهذا استحوذ البريطانيون فى وقت مبكر على مزايا تجارية هامة ضمنت فى معاهدة رسمية اضطر امام اليمن للتوقيع عليها تحت تهديد مدفعية قطع الاسطول البريطانى التى نفذت الى البحر الاحمر (٣) ٠ كما أن معاهدة الصداقة والتجارة التى عقدتها بريطانيا مع سلطان لحج وعدن فى سنة ١٨٠٢ كانت بداية لسلسلة من المعاهدات المماثلة مع أهالى المنطقة لضمان المصالح البريطانية فى الطريق البحرى الى الشرق عبر البحر الأحمر (٤) ٠

واذا كانت بريطانيا قد حققت هذا القدر من النجاح فى الجزء الجنوبى من البحر الاحمر ، فانها لم تتمكن رغم الجهود التى بذلتها لاخراج الفرنسيين من مصر أن تحل محلهم ، أو تبقى على قواتها محبوسة هناك بعد جلاء الفرنسيين، فاضطرت أخيرا الى سحب قواتها من مصر بعد صلح اميان فى سنة ١٨٠٧ ٠ بل ان البريطانيين فشلوا فى تنفيذ خطتهم المبنية على تكوين حزب قوى موال لهم من المماليك ومساندته حتى يمسك بمقاليد الامور فى مصر لتحقق بريطانيا أغراضها عن طريقه ٠ وكان البريطانيون قد أخذوا معهم عند انسحابهم «محمد الألفى» وهو أحد زعماء المماليك ليجعلوا منه نواة هذه القوة الموالية لهم ٠ وقد عاد الالفى الى مصر بعد أن نسق خططه مع الانجليز الذين زاد خوفهم من عودة نابليون اليها ثانية بعد أن أبرم معاهدة مع السلطان العثمانى فى سنة ١٨٠٦ ٠

وفى ذلك الوقت ظهر محمد على على مسرح الحوادث فى مصر تسانده قوة شعبية بلغت من القوة أنها تمكنت من هزيمة البريطانيين فى رشيد عندما أرسلوا حملتهم التى كان يقودها « الجنرال فريزر Frazer » فى سنة ١٨٠٧ ٠

---

(١) .I. O., Egypt, V. 7, Bruce to Salt, 1/20/21.

(٢) Graham, G. : Op. cit., pp. 287-288.

(٣) Playfair, R. L. : Op. cit., pp. 137-139.

(٤) Ghorbal, S. : The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Aly, p. 156.

وكانت العلاقات قد ساءت بين بريطانيا والدولة العثمانية مما أوحى للبريطانيين بأن الفرصة قد سنحت أمامهم لتحقيق أطماعهم بالسيطرة على مصر · وقد شكل فشل هذه الحملة ضربة قوية للنفوذ البريطاني في المنطقة ، كما خسرت بريطانيا عددا كبيرا من جنودها ·(١) وترتب على فشل هذه الحملة أن تأخر احتلال بريطانيا لمصر لمدة خمسة وسبعين عاما عندما عاودوا نفس الكرة في سنة ١٨٨٢ وكانت الظروف أكثر ملاءمة لتحقيق مطامعهم الاستعمارية بشمالي البحر الاحمر ·

على أن بريطانيا وان كانت قد خسرت جولتها هذه في مصر في سنة ١٨٠٧ فقد كان لها في نفس الوقت السيادة البحرية الكاملة في البحر المتوسط ، خاصة وأن البريطانيين كانوا قد احتلوا جبل طارق في سنة ١٧٠٤(٢) فسيطروا بذلك على مدخله الشمالي ، كما انهم كانوا قد احتلوا أيضا جزيرة مالطة في سنة ١٨٠٧ وهي نقطة استراتيجية هامة في وسطه(٣) ثم انهم ضموها الى مستعمراتهم بعد انعقاد مؤتمر فيينا في سنة ١٨١٥ · (٤) بل ان بريطانيا اطمأنت بعض الشيء باتفاقها مع محمد علي بشأن جلائها عن مصر ، عندما تعهد بمقاومة أي محاولة أوربية تستهدف احتلال الاراضي المصرية أو المرور بها للوصول الى الهند عبر البحر الاحمر · (٥) ·

ومن خلال الاحداث السابقة ازداد يقين الفريقين البريطاني والفرنسي بالأهمية البالغة للبحر الاحمر كأقصر طريق للشرق ، ولمصر كمنطقة حاكمة فيه · ولهذا أوفد « بونابرت » الكولونيل سباستياني Sebastiani » الى مصر للتعرف على نيات البريطانيين ولدراسة الأوضاع الجديدة هناك في سنة١٨٠٢ وقد حاول « سباستياني » أن يقوم بواجبه على خير وجه ونجح في ذلك حتى اختير سفيرا لفرنسا لدى الدولة العثمانية في سنة ١٨٠٦ · (٦) وقد ظل « نابليون » حتى نهاية حياته السياسية مهتما بمصر وبالطريق الموصل للشرق عبر البحر الاحمر · وكان يرسل مبعوثيه لجمع البيانات والمعلومات الهامة ولعرقلة مصالح ومساعي أعدائه البريطانيين في هذه المناطق ·

وعندما فرغت فرنسا من تصفية مشاكلها الداخلية الناتجة عن الاوضاع غير المستقرة فيها ، فضلا عن مشاكلها الخارجية مع الدول الاوربية التي نجمت

---

(١) Fortescue, J. W. : A History of the British Army, Vol. V, p. 17.

(٢) A Red Book on Gibraltar, Issued by the Spanish Government, Madred, 1965, pp. 13, 16.

(٣) George, H.B. : Op. cit., pp. 13, 19.

(٤) حسن صبحي (دكتور) : التنافس الاستعماري الاوربي في المغرب ، ١٨٨٤ — ١٩٠٤ ص ١٥ ·

(٥) Kirk, G.E. : A Short History of the Middle East, p. 75.

(٦) Hoskins, H.L. : British Routes to India, p. 61.

عن الحروب النابليونية ، فانهـا أخذت تبحث عما يعوضـها عن مستعمراتهـا المفقودة ٠ (١) ولا شك أن أنظار الفرنسيين قد اتجهت الى المناطق الساحلية الهامة الممتدة من البحر الاحمر الى الخليج العربى وكانت كلها لا تزال فى يد أصحابها العرب ٠ وكانت فرنسا تدرك أن العقبات التى تواجه تحقيق أطماعها فى هذه الجهات تكمن بالدرجة الاولى فى الاطماع البريطانية المنافسة من ناحية بالاضافة الى العرب أصحاب البلاد الاصليين من ناحية أخرى ٠

وقد حاولت فرنسا أن تعيد العلاقات التجارية مع السيد سعيد سلطان زنجبار فى سنة ١٨١٧ بعد عودة « البوربون » الى العرش ، ورحب السلطان باعادة علاقاته القديمة مع فرنسا (٢) غير أن الفرنسيين أرسلوا بعض سفنهم الحربية الى زنجبار فى سنة ١٨٤٠ وطلبوا من ابن السـلطان أن يصرح لهم باقامة بعض المبانى والحصون فى « موجاديشو » و « برزوا » لخدمة أغراضهم التجارية ٠ ولما اعتذر ابن السلطان وممثله « هلال » عن تلبية مطلبهم فقـد أبحروا الى مدينة « نوسى بى Nossi-Be » الواقعة على مقربة من سـاحل مدغشقر الغربى حيث أنزلوا قواتهم ونفذوا أغراضهم بالقوة ٠

وقد احتج السيد سعيد سلطان زنجبار مستنكرا العدوان الفرنسى ، وأبرق الى « بالمرستون » ينبئه بما حدث وطلب مساندة بريطانيا له فى مقاومته لهذا العدوان ، والا سيضطر لمفاوضة الفرنسيين اذا لم تتحرك الحكومة البريطانية لمساعدته ٠ غير أن بريطانيا لم تحرك ساكنا لنجدة السلطان لأنها لم تكن تهتم بالسلطان ذاته بل كان يهمها بالدرجة الاولى حينذاك مواصلاتها فى البحر الاحمر والمحيط الهندى ٠ وقد رأى البريطانيون فى هذه المحاولات الفرنسية فى تلك المناطق البعيدة ما يشـغل الفرنسيين عمـا هو أجـدى وأهم ، اذ طالما كانت التحركات الفرنسية بعيدة عن « ممبسا » جنوبا فهى لا تهدد المصالح البريطانية عبر طريق البحر الاحمر وهو مايهم بريطانيا فى المقام الاول بطبيعة الحال ٠

وهكذا استمر التنافس البريطانى الفرنسى يتزايد تدريجيا فى منطقـة البحر الاحمر حتى ضاعفت بريطانيا جهودها وتمكنت من السيطرة على عدن فى سنة ١٨٣٩ ، واتخذتها قاعدة لرعاية مصالحها الحيوية وتأمين مركزها ضـد المنافسة الفرنسية فى تلك المنطقة ، على النحو الذى سنوضحه فى هذا البحث ٠

ثامنا ـ تصدى بريطانيا لتحركات محمد على فى منطقة البحر الأحمر :

لاشك أن موقع مصر الممتاز الذى جعلها تتحكم فى أقصر طريق بين بريطانيا والهند هو طريق البحر الاحمر كان من أهم العوامل التى أدت الى تزايد اهتمام البريطانيين ببسط نفوذهم فيهـا والعمل على السيطرة عليهـا ٠ وقـد نجح

(١) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, p. 436.

(٢) Coupland, R. : Op. cit., p. 424.

البريطانيون فى اجلاء القوات الفرنسيه عن مصر فى سنة ١٨٠٢ . كما أنهم وجهوا اليها حملتهم التى منيت بالفشل فى سنة ١٨٠٧ . بل ان اهتمامهم بمصر قد تضاعف بعد استيلاء منافسيهم الفرنسيين على الجزائر فى سنة ١٨٣٠ . وقد بدا هذا الاهتمام واضحا فى كتابات عدد كبير من الكتاب البريطانيين ، اذ أوضح أحدهم فى صحيفة « أورينتال هيرالد Oriental Herald » بأنه اذا كانت هناك أية قوة أوربية ستضع يدها على مصر فان الدولة الاولى التى يجب أن تثبت أقدامها على ضفاف النيل هى بريطانيا . ذلك لأن مصر ليست فقط المفتاح الطبيعى للهند . ومركز الاتصال السريع بينها وبين بريطانيا ، بل أيضا من الناحية الاقتصادية لا يوجد مكان آخر فى العالم يضاهى مصر فى قيمته للاقتصاد البريطانى فى ذلك الحين . (١)

وقد بدا اهتمام بريطانيا المتزايد أيضا بالبحر الاحمر فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر وذلك من خلال العديد من الرحلات العلمية التى بدأت تفد الى سواحل هذا البحر لدراستها ولمعرفة مدى صلاحيتها لتحقيق الأغراض البريطانية . وقد عبر عن ذلك « اللورد ولسلى Lord Wellesley » الحاكم العام للهند حينذاك ، عندما أشار الى أنه من المؤسف أن ساحلا توفرت فيه تجارة مربحة واسعة فى الذهب والعاج واللؤلؤ لحكام مصر تكون معلومات البريطانيين عنه قليلة . (٢) وتحقيقا لهذا الغرض العلمى والاستعمارى فى نفس الوقت أرسلت بعثتان علميتان من الهند فى سنة ١٨٣٧ احداهما برئاسة « الكابتن مورسبى Captain Morsby » تختص ببحث المنطقة من السويس الى جدة . والبعثة الاخرى برئاسة « الكابتن الون Captain Elwon » تختص بالعمل فى الساحل الممتد جنوبى جدة .

وقد أعقب هذه الدراسة لسواحل البحر الاحمر دراسة أخرى للساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ولبعض الجزر القريبة المنتشرة فى البحر العربى والمحيط الهندى . ومن بين هذه الجزر التى اهتم البريطانيون بدراستها جزيرة « سقطرى Socotra » (٣) التى تواجه « رأس جوردفوى Cape Guardaf على الساحل الافريقى الشرقى وتبعد عنها بمسافة قدرها ١٥٠ ميلا ، بينما تبعد عن عدن بمسافة ٥٠٠ ميل من ناحية الجنوب الشرقى . وتبلغ مساحة هذه الجزيرة ١٤٠٠ ميل مربع ، وكانت تابعة حينذاك لسلطان قشن . (٤) وتتميز الجزيرة بأنها كثيفة السكان . غير أن أهميتها التجارية قليلة . على أن أهمية سقطرى لبريطانيا تعتبر أهمية سلبية ، فهى اذا وقعت فى يد أية دولة منافسة فانها تشكل تهديدا خطيرا لعدن وللمصالح البريطانية فى الشرق بوجه عام .

(١) Hoskins, H. L. : British Routes to India, p. 142.
(٢) Hoskins, H. L. : Ibid., p. 185.
(٣) Graham, G. S. : Op. cit., pp. 290, 291.
(٤) Waterfield, G : Op. cit., pp. 20, 21.

ومما لاشك فيه أن الاهمية التى أصبحت بريطانيا تعلقها على مصر وعلى طريق البحر الاحمر هى التى وجهت موقف السياسة البريطانية من والى مصر محمد على فى النصف الاول من القرن التاسع عشر · كما أن العداء بين الانجليز والفرنسيين قد انعكس على موقف بريطانيا من محمد على بعد أن استقر حكمه فى مصر · فقد اعتقد البريطانيون أن محمد على ماهو الا منفذ للسياسة الفرنسية المنافسة للنفوذ البريطانى فى الشرق · وقد بنوا اعتقادهم الخاطىء هذا على أساس أن عددا من الضباط ورجال البحرية الذين استخدمهم فى جيوشه كانوا فرنسيين · وقد بلغ هذا الاعتقاد مبلغه عند بعض الكتاب الانجليز حتى أنهم أشاروا الى أن انتصارات محمد على فى البلاد العربية التى استطاع بها أن يسيطر على طريق البحر الاحمر والخليج العربى ماهى الا تنفيذ للاطماع التى كان يحلم بها « بونابرت » لتكوين امبراطورية فرنسية فى الشرق · والحقيقة أن محمد على كان يلقى عطفا وتأييدا من قبل الفرنسيين ، كما كان يعتمد فى تنفيذ بعض مشروعاته الاقتصادية عليهم ، واستخدم بعضهم فى جيشه ،فضلا عن مساندة فرنسا له فى موقفه العدائى ازاء الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر حينذاك · غير أنه لم يكن منفذا للسيادة الفرنسية فى عدائها للبريطانيين ، بل كانت له طموحاته وآماله العريضة الخاصة ·

على أن قيام محمد على بتحركاته العسكرية التى انتهت بتكوين الامبراطورية فى البلاد العربية قد أحدث صداما مروعا بينه وبين المصالح البريطانية فى الشرق ، خاصة وأن « محمد على » أصبح مسيطرا على البحر الأحمر من ناحية الغرب والخليج العربى من ناحية الشرق ، فصار بذلك متحكما فى أهم طريقين للمواصلات البريطانية الى الهند وبلاد الشرق بوجه عام · (١)

ولكى نتعرف على الابعاد الحقيقية لهذا الموضوع يجدر بنا أن نستعرض بايجاز المراحل المتتالية التى انتهت بتكوين هذه الامبراطورية ، والتى أصبح العمل على تصفيتها هو الشغل الشاغل لسياسة البريطانيين منذ ذلك الحين ، كما وقفوا فى وجه أية محاولات لاحيائها ، حفاظا على مصالحهم الحيوية فى الشرق بأكمله ·

دور محمد على فى اخماد الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية وموقف بريطانيا ازاءه :

نزلت قوات محمد على الى الجزيرة العربية فى سنة ١٨١١ بناء على تكليف من قبل الباب العالى لوالى مصر للقضاء على الوهابيين الذين هددوا أمن الدولة العثمانية فى ذلك الحين · وكان محمد بن عبد الوهاب قد قام بدعوته فى نجد

(١) George, H. B. : Op. cit., p. 124.

واستعان بقوة أمير الدرعية محمد بن سعود لنشر مبادئه بين قبائل الجزيرة العربية حتى رأى بشائر نجاحه قبل موته فى سنة ١٨٩٢ ، (١) بينما تمكن أتباعه الوهابيون من الاستيلاء على الحجاز فى فترة قصيرة · وكان العثمانيون منذ سيطرتهم على الحجاز فى أوائل القرن السادس عشر قد اتخذوا من جدة قاعدة للحكم هناك ، وقد أطلقوا على الحجاز اسم « ولاية الحبش » ، كما أقاموا واليا عثمانيا فى جدة ، كان يخضع لسلطته شريف مكة · واستمر الحجاز خاضعا لحكم العثمانيين حتى استولى عليه الوهابيون فى أوائل القرن التاسع عشر ·

وقد رأى السلطان العثمانى سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) أن حركة الوهابيين حركة انفصالية خطيرة ينبغى القضاء عليها ، اذ انهم أخذوايصارحون الدولة العثمانية بالعداء والتحدى · (٢) واستطاع سعود الثانى أن يفتح مكة فى سنة ١٨٠٣ وأن يدخل « المدينة » بعدها بعامين · (٣) وكتب سعود الى السلطان العثمانى ينبئه بهذا الفتح ويخبره أنه هدم القباب التى تعلو القبور، ويطلب اليه منع مجىء المحمل من دمشق أو القاهرة « فان ذلك ليس من الدين فى شىء » · (٤) كما أعد سعود حملات لم تلبث أن أغارت على العراق ، وعلى حدود الشام ، (٥) تقدمت تجاه اليمن فاستولت على عسير فى شمالها ، (٦) وجعلتها قاعدة لنشر الدعوة الوهابية فى بقية أرجاء البلاد · وقد ذكر المؤرخ اليمنى الزيدى عبد الواسع الواسعى فى حولياته أن « من نجد قامت الفتنة وعظمت المحنة بقيام عبد العزيز وولده سعود ، واستولى على الحرمين والعراق، فخرجوا على تهامه · وغلبوا الاشراف وخرجت القبائل عن الطاعة للامام المنصور وكثر منهم النهب والقتل وقطع الطرق ، وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة · وكاد أن يهلك أهل صنعاء ، وبلغ الطعام من الغلاء مبلغا عظيما » · (٧) وقد استنجد امام اليمن فى ذلك الوقت المتوكل على الله احمد بالسلطان العثمانى من جهة ، وبوالى مصر القوى محمد على من جهة أخرى لصد الزحف الوهابى عن بلاده ، وقد أرسل اليه كل منهما هدايا قيمة ووعداه بالمساعدة · (٨)

ولا شك أن الدولة العثمانية فزعت من هذا التوسع الوهابى وخشيت

---

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ص ٣٣٨ ·

(٢) Sanger, R.H. : Op. cit., p. 27.

(٣) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 127.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج ٣ عصر محمد على ، ص ١٢١ ·

(٥) Longrig, S.H. : Four Centuries of Modern Iraq, p. 25.

(٦) Marston, T.E. : Op. cit., p. 37.

(٧) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ص ٨ ·

(٨) احمد فخرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥٩ ·

ان يعيد تاريخ الفتح العربى نفسه (١) . وأحست الدولة بحاجتها الماسة الى تغيير سياستها السلبية ازاء الولايات التابعة لهـا اذا كانت تريد البقاء لامبراطوريتها . ورأى السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) أن يعيد الأمن والاستقرار فى الحجاز واليمن ويقضى على الحركة الوهابية التى كادت تودى بتمامية الدولة . وعلى الرغم من أن بلاد العرب لم تكن من المناطق الغنية التى تحرص الدولة العثمانية على المحافظة عليها ، فان بقاءها فى يد الخليفة العثمانى كان أمرا لابد منه حتى تتم المظاهر الشكلية لخلافته ، وحتى لا يقع الشك فى مقدرته على حماية « الحرمين الشريفين » ، الأمر الذى كان يجعل لدولته المقام الممتاز بين الممالك الاسلامية (٢) .

غير أن الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كانت تقاسى الأمرين من اختلال نظام الانكشارية الذى كان مصدر قوة الدولة ودعامتها فى أعقاب توسعها ، ولكن هذا النظام فقد تدريجيا كل مزاياه ، وتحول فى نهاية الأمر الى معول هدم فى شئون الحرب والادارة على السواء ، وصارت الحروب التى تخوض غمارها الدولة كثيرا ماتنتهى بهزائم شنيعة (٣) . وقد أدى ذلك - بطبيعة الحال - الى اختلال نظام الحكم من جميع الوجوه وخاصة فى الأقطار العثمانية البعيدة عن عاصمة الدولة . ولم يجد السلطان تحت يده القوة اللازمة للقضاء على الوهابيين مما اضطره أن يلجأ الى والى مصر محمد على ، وكلفه بالقيام بهذه المهمة فى سنة ١٨٠٧ ، ثم جدد طلبه فى العامين التاليين (٤) . وكان محمد على يتعلل باشتغاله بمحاربة المماليك حتى انتهى من حملته عليهم بالوجه القبلى وعاد الى القاهرة فى شهر سبتمبر سنة ١٨١٠ ، حيث ألفى رسولا من الآستانة يحمل أوامر السلطان بتجريد حملة لمحاربة الوهابيين ، فلم يجد محمد على لديه من الأعذار ما يبرر التأجيل فبادر الى الاستجابة (٥) .

وقد رأى محمد على حينذاك أنه اذا نجح حيث أخفقت الدولة فى القضاء على الوهابيين واستخلاص الاراضى المقدسة منهم ، والاسراع الى نجدة امام اليمن ومحاربة فلول الوهابيين فى بلاده ، فضلا عن اعادة فتح طريق الحجاج عبر مصر الى الحجاز ، ذلك الطريق الذى أغلقه الوهابيون وكبدوا مصر بسبب ذلك خسائر مادية جسيمة نتيجة لتوقف تجارة الترانزيت (٦) ، فان ذلك سيؤدى حتما الى توطيد مركزه أمام السلطان ويسمو بمكانته فى مصر ولدى الشعوب الاسلامية . وكانت فكرة استقلاله عن الدولة العثمانية قد بدأت تملك عليه مشاعره منذ ذلك

---

(١) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 103.

(٢) حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ص ١٩٢ .

(٣) ساطع الحصرى : الدولة العثمانية والبلاد العربية ، ص ٤٨ .

(٤) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 13.

(٥) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

(٦) Marston, T.E. : Op. cit., p. 37.

الحين • ولاشك أن نجاحه فى تلك المهمة كان من شأنه أن يكسبه عطف الشرق والعالم الاسلامى ويمهد له السبيل لتحقيق طموحه وآماله ، مما شجعه أخيرا على تلبية مطلب الباب العالى •

بل ان « محمد على » كان يبذل جهوده فى ذلك الحين لزيادة الايرادات المصرية وخاصة عن طريق التجارة • ولما كانت انجلترا حينذاك هى الدولة البحرية الكبرى التى تمر أساطيلها وتجارتها عبر البحار المعروفة ، فقد حرص على التقرب منها ، وقام بامداد المراكز البريطانية فى البحر المتوسط بالقمح والمؤن اللازمة لها أثناء الحروب النابليونية • وكان محمد على قد لاحظ التقدم الذى حققته شركة الهند الشرقية البريطانية فى الشرق ، ولهذا فانه حرص من جانبه على انعاش الحركة التجارية فى مصر والقيام بكثير من الاصلاحات فى هذا المجال • ولا شك أن محمد على كان يتمنى أن يعمل متعاونا مع البريطانيين فى اطار نوع من التحالف ، لدرجة أن التجار البريطانيين فى المراكز التجارية الموجودة حينذاك فى الاسكندرية وبغداد وبومباى لم يكونوا يعتبرون أن شكوك « بالمرستون » ومخاوفه من محمد على لها ما يبررها لأنهم اعتقدوا أن ما يفعله محمد على حينذاك سيشيع الطمأنينة والأمن ويساعد على رواج التجارة وازدهارها (١) • وعلى النقيض من ذلك بلغ الامر بالكثيرين الى الاعتقاد بأنه كان فى امكان محمد على اذا تلقى المساعدات البريطانية أن يبنى فى ظل الخلافة العثمانية قوة تماثل قوة شركة الهند الشرقية التى بناها البريطانيون فى ظل امبراطورية دلهى (٢) •

ومن ناحية أخرى فقد وصل محمد على الى أبعد من ذلك عندما قدم اقتراحات لعقد اتفاق تجارى مع حكومة الهند البريطانية للعمل على تشجيع التجارة معها • وتبدو أهمية هذه الاقتراحات عندما شرعت حكومة الهند بارسال مبعوثها البريطانى « بلزونى » الى القاهرة للاتفاق على عقد معاهدة بين الجانبين فى سنة ١٨١٠ • وقد جاء فى نصوص هذه المعاهدة المقترحة أهمية ووجوب الاتفاق على أسس معينة للتعامل بين محمد على وحكومة الهند البريطانية • كما أنه فى حالة نشوب الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية فقد نصت المعاهدة على عدم قيام محمد على باهانة الرعايا البريطانيين أو الاستيلاء على أية ثروات بريطانية • هذا الى جانب تعهده باعادة الهاربين من السفن البريطانية حتى ولو كانوا ممن يعتنقون الاسلام • وفيما يتصل برعاية المصالح البريطانية داخل الأراضى المصرية فقد نصت المعاهدة على حرية المسافرين فى المرور عبر الاراضى المصرية ومعهم أمتعتهم الشخصية دون دفع أية ضرائب ، مع ضمان سلامة مرور القوافل التجارية تحت حراسة حكومة محمد على من السويس واليها •

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 32—33.
Dodwell, H. : Op. cit., pp. 102—106.

(٢) Waterfield, G. : Op. cit., p. 32.

أما بالنسبة للضرائب الجمركية فقد نصت المعاهدة على جعل نسبتها ٣٪ فقط • وعلى الرغم من أهمية هذه المعاهدة للمصالح البريطانية من ناحية ، ولمصالح محمد على فى تنشيط الحركة التجارية فى مصر من ناحية أخرى ، فانه لم يتم التصديق عليها من قبل الجانبين وذلك تجنبا منهما لأن يؤدى عقدها الى تدهور العلاقات البريطانية العثمانية من جهة ، وعلاقات محمد على أيضا مع الباب العالى من جهة أخرى فى ذلك الحين (١) •

وهكذا اتجه محمد على الى اعداد حملته لمحاربة الوهابيين وأصبحت السويس معسكرا حربيا ضخما (٢) • وجهز الوالى أسطولا بحريا مكونا من خمس عشرة سفينة صنعت فى القاهرة ونقلت على ظهور الابل الى السويس • وشقت الحملة طريقها الى الجزيرة العربية برا وبحرا حتى وصلت الى ينبع فى شهر أكتوبر سنة ١٨١١ (٣) وبذلك كانت جزيرة العرب هى أول ميدان لحروب مصر الخارجية فى عهد محمد على • وكان جنوده يحملون الراية العثمانية وبدءوا يحاربون الوهابيين فى الحجاز ويتتبعون فلولهم فى اليمن بصفتهم عثمانيين يدافعون عن دولة الخلافة الاسلامية • ولا شك أن تلك الحروب كانت من أشق الحروب التى خاضها جنود محمد على وأطولها مدى ، وأكثرها ضحايا فى الأرواح والاموال (٤) • فمن الصعاب التى واجهوها قطع المراحل البعيدة المترامية بين الفيافى والقفار ، الى جانب وعورة الطرق ، وشدة القيظ ، وقلة المؤونة ، وندرة المياه وفقدانها فى معظم الجهات • هذا فضلا عن المقاومة الضارية التى واجهوها من قبل الوهابيين وأعوانهم الذين بذلوا النفس والنفيس لنصرة دعوتهم •

استولى جنود محمد على على ينبع فى شهر أكتوبر سنة ١٨١١ (٥) دون أن يبذلوا جهودا كبيرة ، ثم زحفوا نحو الداخل حتى واجهوا أول مقاومة لهم فى بدر • وبدأوا يعانون من الاقامة فى منطقة قاحلة • ولهذا تقدموا فى الوادى وكان البدو قد تجمعوا فى واحة لمقاومتهم • ونظرا لضيق الوادى فقد سيطر البدو على الموقف مما اضطر طوسون وجيشه أن ينسحبوا الى ينبع حيث لم يكن أمامهم سوى الانتظار حتى تصل اليهم من مصر امدادات جديدة من الجنود والعتاد •

وتجدر الاشارة الى أن أنباء وصول قوات محمد على الى الجزيرة العربية قد نقلت الى سعود الذى كان فى طريقه لمهاجمة بغداد • وازاء هذه الأحداث فقد

(١) Dodwell, H. : Op. cit., p. 57.

(٢) Philby, J.B. : Arabia, p. 93.

(٣) Dodwell, H. : Op. cit., p. 43.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٥) Marston, T.E. : Op. cit., p. 37.

اتجه سعود الى الغرب لمواجهة القوات المغيرة · وقد رأى فى ذلك الحين أن يستعين ببريطانيا ، فسارع الى ارسال مبعوثه الى « بوشـــير » للتبـــاحث مع المقيـــم البريطانى هناك · غير أن حكومة الهند البريطانية على الرغم من تمسكها بالعلاقات الودية مع الدولة السعودية فانها تراخت فى ربط نفسـها بمعاهدة حاســـمة معها · بل ان السلطات البريطانية فضلت أن تلتزم بموقف المتفرج ازاء الصراع الدائر بين السعوديين من جهة ، وبين الدولة ومحمد على من جهة أخرى · وكانت بريطانيا تأمل أن يؤدى هذا الصراع الى اضعاف الوهابيين دون أى تدخل من قبلها · بل ان بريطانيا كانت ــ فى نفس الوقت ــ تمنح التأييد الأدبى للسيد سعيد فى مسقط مساندة لجهوده فى القضاء على القواسم فى رأس الخيمة حفاظا على مصالحها الخاصة فى المنطقة من ناحية أخرى ·

وقد سارع محمد على بارسال امدادات جديدة الى قواته فى جـــزيرة العرب ، وتحمل المصريون نتيجة لذلك تضحيات جسيمة · وبوصول الامدادات الى طوسون تقدم الى « المدينة » وحاصرها مدة شهرين حتى سلمت فى شـــهر نوفمبر سنة ١٨١٢ (١) · كما انسحب عبد الله قائد الجيش السعودى من مكة التى سقطت فى شهر يناير سنة ١٨١٣ فى أيدى قوات محمـــد على (٢) وكان يقودها صهره مصطفى بك ، بينما اتجه طوسون الى جدة فى نفس الوقت · وبدا من الصعب حينذاك على امبراطورية السعوديين أن تحافظ على تماسكها بينما كان زعيمها مريضا ، كما كانت الظروف ملائمة لأعدائه لكى يبذلوا جهودا مضـــاعفة ضده ، فخرجت مدن الحدود السورية عن سلطنة السعوديين ، وتشجعت القبائل فى الجزيرة العربية للثورة والتمرد وانتشرت الاضطرابات فى تخوم نجد ذاتها ·

وعندما بدا أن نهاية الوهابيين قد اقتـــربت قرر محمـــد على أن يدير العمليات الحربية بنفسه فى الحجاز ، فوصل الى جدة فى شهر أغسطس ســـنة ١٨١٣ على رأس حملة لمساندة قواته · اذ أن قوات محمد على لم تكن آمنة تماما فى الجزيرة العربية رغم استيلائها على المدن الساحلية فى الحجاز وعسير ، ذلك لأن المناطق الداخلية كانت ولا تزال فى أيدى السعوديين · غير أنه بوفاة سعود فجأة فى الدرعية فى أول مايو سنة ١٨١٤ انتهى الأمل الاخير فى بقاء الامبراطورية السعودية التى أقامها والتى استطاع بشخصيته أن يسيطر عليها (٣) · واختلف أبناؤه الثلاثة على كيفية حكم دولتهم ، ورأى ابنه عبد الله الذى آل اليـــه الأمر بعد أن رأى الاخطار محيطة به من كل جانب ، أن يتفاوض مع عدوه · وقـــد تم توقيع معاهدة وافق فيها عبد الله بن سعود على الاعتراف بسلطة الســـلطان العثمانى وتعهد بزيارته زيارة ودية · وكان على طوسون فى مقابل ذلك ، أن

(١) Philby, J. B. : Op. cit., pp. 93, 94.

(٢) Marston, T. E. : Op. cit., p. 37.

(٣) Playfair, R. L. : Op. cit., p. 130.

ينسحب من أراضى الوهابيين وأن يكون لنجد اتصال حر مع الحجاز · ولكن محمد على رفض هذه المعاهدة وهدد فى نفس الوقت بمهاجمة الدرعية (١) ·

على أن محمد على لم يلبث أن اضطر للعودة الى مصر بعد أن غاب عنها عاما كاملا ، وكان يعلم أن الباب العالى يتحين أية فرصة لاقصائه عنها · كما أن عودة نابليون من « البا » جددت القلق فى أوربا ، مما أظهر أهمية ضمان الموقف السياسى فى مصر ذاتها (٢) · ولما كانت مفاوضات الصلح قد انتهت بين محمد على والوهابيين بالفشل نتيجة لتمسك كلا الجانبين بمطالبه ، فقد أرسل محمد على ابنه ابراهيم باشا ، على رأس حملة أخرى الى الحجاز فى سنة ١٨١٦ ، وذلك بعد عودته الى مصر (٣) · وقد تمكنت تلك الحملة رغم الصعوبات التى واجهتها من التغلب على الوهابيين حتى اقتحمت عاصمتهم الدرعية بعد حصار دام ستة أشهر وانتهى فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨١٨ · وقد توجه عبد الله بن سعود نفسه الى ابراهيم باشا طالبا انهاء القتال حتى يحمى أتباعه · وقد استقبله ابراهيم باحترام كبير كبطل منافس فى ساعة الهزيمة ، وأرسله الى مصر حيث رحل منها الى الآستانة ، وهناك أمر السلطان العثمانى باعدامه (٤) فى « سانت صوفيا » ، وانتهت بذلك امبراطورية السعوديين حينذاك (٥) ·

وتجدر الاشارة الى أن قوات محمد على توغلت تجاه الخليج العربى بعد السيطرة على الدرعية (٦) · واحتلت القطيف ، مما أغضب السلطات البريطانية التى كان قد سرها القضاء على الدولة السعودية من ناحية ، غير أنها لم تكن مستعدة لأن يكون نتيجة ذلك امتداد النفوذ المصرى الى مناطق تتحكم فى مصالحها الحيوية من ناحية أخرى · ولهذا سارعت بريطانيا بارسال « الكابتن سادلير Captain Sadlier » لمقابلة ابراهيم باشا فى الدرعية لمعرفة نوايا الحكام الجدد للجزيرة العربية بغرض القضاء على أى اتجاه قد يكون لديهم نحو وضع أى قدم لهم على سواحل الخليج العربى (٧) الذى تحرص بريطانيا على جعله بحيرة بريطانية لا ينافسها فيه منافس ·

غير أن « الكابتن سادلير » لم يلتق بابراهيم باشا فى الدرعية التى وصلها فى شهر أغسطس سنة ١٨١٩ ، فقد كان ابراهيم قد قرر العودة الى مصر

(١) Philby, J. B. : Op. cit., p. 98.

(٢) Dodwell, A. : Op. cit., p. 46.

(٣) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 133.

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٢ — ١٥٥ .

(٥) Philby, J.B. : Op. cit., pp. 98, 102.

(٦) Sanger, R.H. : Op. cit., p. 28.

(٧) Waterfield, G. : Op. cit., p. 32.

لينعم بالاستقبال العظيم الذى كان ينتظره بعد انتصاره ، الا أن « سادلير » اقتفى أثر ابراهيم حتى قابله بجوار « المدينة » • وقد أجابه ابراهيم بأنه لا يعترف بأية حقوق للحكومة البريطانية فى بلد قد أخضعه للسيادة العثمانية • ولهذا غادر « سادلير » البلاد قانعا بانه أول أوربى عبر شبه الجزيرة العربية من البحر الى البحر • ولا شك أن تقريره كان كافيا لاثارة حماس البريطانيين لتدعيم نفوذهم فى خليج القواسم بالتعاون مع السيد سعيد فى مسقط • وقد تحقق هذا بالفعل عندما تجمعت قوات كبيرة فى ميناء « قشن » فى شهر نوفمبر سنة ١٨١٩ للانضمام الى أسطول مسقط • وقد أعقب ذلك الاستيلاء فى ٩ ديسمبر من السنة المذكورة على « رأس الخيمة » بعد حصار دام ستة أيام • ثم تلى هذا الانتصار القيام بمسح شامل للخليج بين رأس الخيمة والبحرين ، واحتفظت بريطانيا لنفسها بحق السيطرة والتفتيش ، وظل هذا الحق المدعى يزداد بمضى الزمن (١) •

امتداد نفوذ محمد على الى اليمن لتتبع الفلول الوهابية وموقف بريطانيا ازاءه :

واذا كان امتداد نفوذ محمد على الى أجزاء من ساحل الخليج العربى فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر قد جعل السياسة البريطانية تتجه مسرعة لتفرض سيطرتها الكاملة على سواحل الخليج العربى ، فان امتداد هذا النفوذ من ناحية أخرى الى بلاد اليمن حينذاك قد وجه بريطانيا لبذل كل جهودها للسيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ولاحتلال عدن بعد ذلك باعتبارها أهم نقطة حاكمة فيه ، بعد أن أكدت هذه الحقيقة تلك الكشوف العلمية التى قامت بها البحرية البريطانية فى الهند • اذ ان قوات محمد على تمكنت فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨١٤ و ١٨١٩ من القضاء على فلول الوهابيين بشمالى اليمن وأعادت المناطق التى استولوا عليها الى امام صنعاء فى سنة ١٨٢٠ •

وكان محمد على قد رأى أن أهالى عسير ومنطقة الساحل الشمالى اليمنى يناصرون الوهابيين ويناوشون وحدات جيشه فى الحجاز • لهذا وجه حملة الى شمال اليمن تمكنت من الاستيلاء على ميناء قنفدة فى سنة ١٨١٤ (٢) • وقد أمر محمد على بتحصين هذا الميناء توطئة للزحف الى داخل اليمن ، كما أبقى حامية هناك تتألف من مائتين وألف جندى • غير أن قائد الحامية فاته أن يحتل عين الماء التى تحصل منها المدينة على المياه اللازمة ، فاحتلها العربان وساندهم الوهابيون بقيادة طارق بن شعيب أمير عسير ، فلم تنجح محاولات جنود محمد على لاستعادتها • ولم يجد قائدهم وسيلة لانقاذ جنوده من الظمأ سوى اخلاء قنفدة والعودة الى جده • فنجا من الحامية من استطاع ركوب السفن ، بينما قتل الوهابيون عددا كبيرا ممن أدركوهم (٣) •

---

(١) Philby, J.B. : Op. cit., pp. 103, 105.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 38.

(٣) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٢ •

على أن عزيمة محمد على لم تنثن أمام مقاومة الوهابيين فأرسل امدادات جديدة الى قواته فى جزيرة العرب قوامها سبعة آلاف من الجنود ومبالغ طائلة من الأموال • وقد تقدمت من الحجاز احدى قوات محمد على بقيادة عابدين بك لاحتلال وادى زهران الذى يفصل اليمن عن الحجاز • غير أن الوهابيين هاجموها واضطروها الى الانسحاب ، كما تعقبوها الى داخل الحجاز وحاصروها فى الطائف• ولكن «محمد على» نجح فى أن يخدع الوهابيين بذكائه فأوهمهم بقدومه الى الطائف على رأس قوة كبيرة ، مما اضطرهم الى الانسحاب ورفع الحصار عن المدينة خوفا من مواجهته •

وفى ذلك الوقت قدم الى حسن باشا نائب محمد على فى الحجاز أميران يمنيان هما على بن حيدر ومنصور بن ناصر يشكوان عمهما حمود وريث حكم آل خيرات فى المخلاف السليمانى (١) بشمالى اليمن ، وهذه الأسرة كانت تدين بالولاء لأئمة صنعاء • وكان حمود قد سجن ابن أخيه يحيى بن حيدر ظلما ، كما كان يمالىء الوهابيين أحيانا أو يتقرب الى محمد على أحيانا أخرى تبعا لتطورات الموقف الحربى ، فهو دائما يميل الى الكفة الراجحة • ولهذا انضم حمود الى السعوديين بعد أن هددوا نفوذه فى المنطقة • وقد طلب الأميران اليمنيان من حسن باشا أن يمدهما بقوة تمكنهما من الاستيلاء على اليمن باسم الدولة العثمانية والتخلص من استبداد حمود • وهكذا صاحب الأميران قوة من رجال محمد على توجهت الى عسير بقيادة سنان باشا ، كما رافق أحدهما وهو على بن حيدر القوة الأخرى التى توجهت الى تهامة بقيادة خليل باشا (٢) • وكانت هاتان الحملتان تمثلان البداية الفعلية لوصول قوات محمد على الى اليمن لتدعيم السيادة العثمانية هناك •

ومنذ أن انتصرت قوات محمد على على الوهابيين فى موقعة « بسل » بين الطائف وتربة فى سنة ١٨١٥ انسحب الوهابيون الى شمال اليمن • وحاول القائد الوهابى طامى بن شعيب أن يلجأ الى الشريف حمود حاكم المخلاف السليمانى • غير أن أنباء الهزيمة شجعت حمود على التنكر للوهابيين فطردهم من قلعة « صبيا » وأسر قائدهم طامى بن شعيب (٣) • كما رأى حمود من مصلحته أن يقيم علاقات ودية مع محمد على (٤) خاصة بعد أن علم بانتصاراته على الوهابيين ، ولهذا سلم القائد الوهابى الأسير لديه الى رجال محمد على دون أدنى مساومة ، فأرسل طامى الى مصر ورحل منها الى الآستانة حيث طوف به فى شوارعها ، ثم أمر السلطان العثمانى باعدامه • كما أهدى حمود الى محمد على أربعة رؤوس من كرائم الخيل مصحوبة برسالة تظهر له المودة والصداقة •

---

(١) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٢ •

(٢) محمد بن أحمد العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٨ •

(٣) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 106.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 39.

وقد استحسن محمد على الهدية وبعث برسالة الى حمود حثـــه فيها على رعاية شعبه فى المخلاف السليمانى حتى يعزز مطالبه لدى الباب العالى « مالك الزمام ومرجع الأمور » بابقاء حمود على امارته على أن يعاد اليه كل ما انتزعه الوهابيون من أملاكه · غير أن حمود تنكر لمحمد على كما فعل من قبل مع الوهابيين واستجاب لنداء أشراف عسير الذين اتخذوا موقفا معاديا من قوات محمد على المعســكرة هناك · ولهذا قام حمود بمهاجمتهم فى عسير وألحق الهزيمة بقائدهم جمعـــة باشا · على أن قوات محمد على عاودت هجومها على عسير بقيادة سنان باشـــا ، ولكن النصر كان حليف حمود فى تلك المرة أيضا ، فتراجع جنود محمـــد على عن عسير وقتل قائدهم سنان باشا أثناء الانسحاب (١) ·

وبعد سقوط الدرعية فى أيدى قوات محمد على فى شهر سبتمبر ١٨١٨ حـــول جيش « محمد على » عملياته الحربية من الميدان النجدى الى اليمن · فتحركت قواته بقيادة خليل باشا لتقضى على بقية فلول الوهابيين فى شمال اليمن (٢) فى شهر ديسمبر من نفس السنة · (٣) وكان أحمد بن حمود قد خلف أباه فى حكم عسير والمخلاف السليمانى وتهامة فاستعد وزيره لمواجهـة قوات محمد على من ناحية عسير · غير أنهم عدلوا عن طريق عسير وتقدموا فى حركة خاطفة تجاه مدينة « ابى عريش » (٤) عاصمة المخلاف السليمانى ، مما اضطر أحمد بن حمود أن يسرع فى التحرك الى هناك · وكان يدور فى خلد ابن حمود أن مقصد خليل باشا هو فرض السيادة العثمانية على اليمن مع الابقاء عليه أميرا فى بلاده ، لهذا تهاون فى أمر المقاومة والدفاع ، واطمأن الى أنه سوف يستطيع بقواته من رجال قبائل همدان وغيرهم من المرتزقة أن يقاوم جنود محمد على . للحصول على صلح يحقق اغراضه · ولكن جيش محمد على بعد أن سيطر على صبيا واستولى على قلعتها ، طلب قائده من ابن حمود أن يحضر الى معسكره للتفاهم معه · وقد قدم ابن حمود الى معسكر خليل باشا معلنا طاعته وولاءه ، فأمره خليل باشا بالعودة الى « أبى عريش » رفق مأمور يتولى ادارتها من قبله ، كما طلب من ابن حمود أن يكتب الى كافة عماله وحامياته فى أرجاء البلاد بالتسليم ، فصارت البلاد الواقعة من أبى عريش شمالا الى زبيد فى الجنوب تحت أمرة خليل باشا (٥) ·

وبعد أن استقر الموقف فى يد خليل باشـــا فى اليمن فى سنة ١٨٢٠

---

(١) محمد بن أحمد العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ – ٥٢٤ .

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 38.

(٣) عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ – ١٨٤٠ ، ص ٥٠

(٤) تقع مدينة « أبوعريش » على مسافة ٢٥ كيلومتر من ميناء جيزان بشمالى اليمن ، وتسقط عليها أمطار غزيرة وتكثر بها المزارع ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠ قدما .

(٥) محمد بن أحمد العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٣ .

يعث رسولا من قبله الى المهدى عبد الله امام صنعاء (١) ومعه رسالة من محمد على تشير الى أن قواته جاءت الى اليمن لتخليص البلاد من ورثه الشريف حمود باعتبارهم من أتباع الوهابيين ، واعادتها الى الامام • وطلب خليل باشا من امام صنعاء أن يوفد مندوبين من قبله للتفاوض معهم فى أمر اعادة البلاد • (٢) وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يدفع الامام الزيدى مبلغا من الخراج سنويا الى الباب العالى من محصول البن اليمنى •

وقد قام امام صنعاء بارسال عماله لاستلام البلاد اليمنية التى سيطر عليها جيش محمد على وذلك باستثناء مدينة « أبى عريش » التى اتفق الامام مع قائد هذا الجيش على أن يكون تسليمها لعلى بن حيدر ، المنافس الأول للشريف حمود ولابنه أحمد من بعده • وكان أحمد هذا قد وقع أسيرا فى قبضة قائد قوات محمد على الذى أرسله الى مصر حيث توفى فيها ، بينما عاد خليل باشا الى الحجاز بعد أن سلم ما فتحه من البلاد اليمنية للامام الزيدى (٣) وانتهت بذلك مهمته فى بلاد اليمن •

وقد طلب امام صنعاء من محمد على تخفيض المقدار السنوى المطلوب من البن اليمنى ، غير أن « محمد على » رفض تخفيض الكمية المفروضة على الامام للباب العالى مبررا ذلك بقوله : « لقد أعطيته بدل البن بلادا واسعة فى نظير المقدار من البن المتفق عليه » (٤) •

وهكذا أعادت قوات محمد على فى سنة ١٨٢٠ تبعية أمام صنعاء للسيادة العثمانية ، اذ كان الائمة قد خرجوا عن طاعة الدولة العثمانية منذ جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٦٣٥ ، ولم يكن للباب العالى سلطان عليهم • فكان تعهد الامام لقائد قوات محمد على فى اليمن بأن يدفع للباب العالى جزءا من الخراج اعترافا من أئمة صنعاء بعودتهم الى حظيرة الدولة العثمانية من جديد • (٥)

وتجدر الاشارة الى أن الباب العالى أراد أن يكافىء ابراهيم بن محمد على لانتصاره على الوهابيين ، فعينه السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) على باشوية جده فى شهر يوليو سنة ١٨٢٠ (شوال سنة ١٢٣٥ هـ) مكافأة له على خدماته • ولما كانت هذه الباشوية تشمل أيضا أقاليم سواكن ومصوع والحبشة ، (٦) فقد صار ابراهيم يلقب بمتصرف جدة والحبش ، أو « والى

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 38.

(٢) Playfair, R.L. : Op. cit., pp. 133, 134.

(٣) Playfair, R.L. : Ibid., pp. 133, 134.

(٤) ار الوثائق القومية بالقاهرة : من محمد على الى أحمد يكن وثيقة رقم ٣٠٠ دفتر ١٤ معيه تركى ، ص ٧٦ ، (١٤ جمادى الثانيه سنه ١٢٣٩ هـ) •

(٥) حسين مؤنس (دكتور) : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٥ •

(٦) Dowin, G. : Histoire du Sudan Egyptien, p. 59.

ايالة الحبش ومتصرف سنجق جدة » ، (١) وعلى ذلك فقد أصبح منـــذ ذلك الوقت للباشوية المصرية نوع من السيادة — فى ظل التبعية العثمانية — على الساحل الغربى للبحر الاحمر ·

وقد وجه محمد على اهتمامه بعد ذلك الى تنفيذ عدة مشروعات هامةأخرى كان من بينها فتح السودان بهدف حماية منابع النيل وضمان تنفيذالمشروعات الزراعية فى مصر حينذاك · وخلال عامى ١٨٢٠ و ١٨٢٢ تمكن محمد على من السيطرة على سنار وكردفان ، وامتدت الامبراطورية حتى حدود الحبشـــة ، بل انها تاخمت حدود ولايتى « تيجرى » و « غوندار » الحبشيتين · وهكذا تمكن محمد على فى سنة ١٨٢٣ من السيطرة على جزء كبير من جانبى حوض البحر الاحمر · (٢)

وجدير بالذكر أن حادثة الاعتداء على الوكالة التجارية البريطانية فى مخا فى سنة ١٨١٧ — والتى سبق أن أشرت اليها من قبل عندما ذكرت أن بريطانيا استغلت تلك الحادثة بعد ذلك بعامين لتبرير تدخلها لحماية مصالحهـا فى الموانى اليمنية — كانت تلك الحادثة ذات دلالة خاصة بالنسبة للعلاقاتالمصرية البريطانية فى نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر · (٣) اذ أن « الكابتن وليم بروس » الذى أرسلته حكومة الهند البريطانية للتفاوض مع امام اليمن بشأن الوكالة البريطانية فى مخا قد طلب من «هنرى سولت» قنصل بريطانيا فى مصر حينذاك تأكيد تبعية مخا لمحمد على وكان هذا المطلب هو أول علامة مميزة للوجود المصرى فى المنطقة ، وأول استخدام للاساليب الدبلوماسية تقوم به شركة الهند الشرقية البريطانية فى تعاملها وعلاقتها مع الحكومة المصرية (٤) · ويرجح أن بريطانيا فضلت حينذاك تأكيد الوجود المصرى فى اليمن نكاية بامام صنعاء الذى رفض أن يصل الى حل مرض يتفق مع المصالح البريطانية حينذاك·

بل ان حاكم بومباى « الفنستون Elphinstone » طلب من « سولت » القنصل البريطانى فى مصر حينذاك تأكيد تبعية اليمن لمحمد على ، واستئذانه — فى حالة الضرورة — فى قيام حكومة بومباى بمحاصرة الموانى اليمنية ، وبأن حدوث ذلك لا يعنى وجود أية نية لدى البريطانيين لغزو اليمن · (٥)

وقد أجاب « سولت » على « بروس » موضحا أن محمد على قد منح الامام الولايات التى سيطر عليها ابنه ابراهيم من « الدولة » حاكم الحديدة ، مقابل

---

(١) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسيادة على السودان ، الوضع التاريخى للمسألة ، ص ٢٣ — ٢٤ ·

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 38.

(٣) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt, p. 60.

(٤) I. O., Egypt, V. 7, Bruce (Mocha) to Salt, 10/6/20.

(٥) I. O., Egypt, V. 7, Elphinstone to Salt, 6/8/20.

كمية معينة من محصول البن اليمنى ترسل كخراج سنـــوى للبـــاب العالى ·
وفضلا عن ذلك كان محمد على على علم تام بأهداف حكومة بومباى، وكان يأمل أن
تقدم ترضية مناسبة من قبـــل الامام عن الاهانة التى ألحقت بوكيـــل الشركة
البريطانية فى مخا ، وأبدى استعداده للتوسط لحل هذه المشكلة فى الوقت
الذى تحدده شركة الهند الشرقية البريطانية ·

وبعد أن حاصرت السفن البريطانية ميناء مخا فى اليوم الثالث من شهر
ديسمبر سنة ١٨١٩ وتم قصف المدينة فى اليوم السادس والعشرين من نفس
الشهر حتى سقط البرجان الرئيسيان المدافعان عن المدينة فى اليوم الثلاثين
من الشهر المذكور ، فان الامام لم يجد بدا من عقد المعاهدة — التى سبق أن
أشرت الى بنودها — مع شركة الهند الشرقية البريطانية فى اليوم الخامس عشر
من شهر يناير ١٨٢١ ·

وجدير بالذكر أنه عند تجديد امتياز « Charter » شركة الهند الشرقية
البريطانية فى سنة ١٨١٣ تغيرت السياسة العامة لحكومة بومباى بالنســـبة
لعلاقاتها المتصلة بالبلاد العربية ، بحيث أصبحت تقوم على الأسس التجارية
الخالصـــة ، تاركة القرارات السياسية فى يد « اللجنة السرية للشركة فى لندن
Secret Committee in London » وقد بدا ذلك واضحا عندما أبدى سلطان لحج
وعدن فى سنة ١٨٢٢ استعداده للسماح باقامة وكالة تجارية بريطانية فى عدن
نظير تلقى بعض المساعدات من البريطانيين لمواجهة ثورة بعض القبائل اليمنية
المجاورة وتمردها عليه · فقد اضطر « هتشنسون Hutchinson » الوكيل
البريطانى فى مخا حينذاك ، والذى تلقى هذا العرض أثناء زيارته لعدن ، الى
رفض هذا العرض ، موضحا للسلطان أن التعليمات التى كانت لديه يستنبط
منها أن حكومة بومباى ترغب فى تجنب المسائل الســـياسية فى علاقاتها مع
البلاد العربية ، وأنه يمكنه فقط أن يقوم بتنظيم العلاقات التجارية دون غيرها
مع اليمنيين ·

وجدير بالذكر أن الآستانة فزعت ازاء الانباء الخاصة بقصف الاســـطول
البريطانى لميناء مخا اليمنى ، وقد طلب « ستراتفورد كاننج » من « ســـولت »
أن يوضح له حقيقة الوضع القائم فى منطقة اليمن · وقد أجاب « ســـولت »
مؤكدا أن الامتيازات الاجنبية غير مطبقة هناك ، وأن ضريبة الرسوم والرشوة
المتفشيتين هناك تجعلان الربح التجارى غير ميسر ، وأن الســـلطة المركزية
ضعيفة للغاية حتى أن اتصالات المسئولين البريطانيين أصبحت مجدية الى حد

ما مع القوى المحلية وليس مع الحكومة المركزية · واقترح « سولت » أنه من الأفضل للبريطانيين أن يكون ميناء مخا اليمنى تحت النفوذ العثمانى بما يسمح للبريطانيين بتطبيق المعاهدات والاتفاقيات مثلما هو معمول به فى سائر البلاد التابعة للدولة العثمانية · (١)

وقد أصبح الاتفاق واضحا بين وجهتى نظر الباب العالى ومحمد على حول ضرورة مواجهة تحركات البريطانيين أمام الساحل اليمنى وخاصة أمام ميناء مخا بعد ابرام معاهدة ١٥ يناير عام ١٨٢١ التى تم بموجبها تحديد الرسوم الجمركية على التجارة البريطانية وتامين حماية البريطانيين فى الموانى اليمنية (٢) واعتقد الباب العالى ومحمد على أن هذه العمليات ماهى الا مقدمة لفتح الطريق أمام البريطانيين للوصول الى صنعاء والسيطرة على اليمن · وقد أكد هذا الاعتقاد وصول سفينة تجارية بريطانية فى صيف عام ١٨٢٢ الى ميناء مخا محملة بالمهمات الحربية والخيام نقلت كلها الى دار القنصل ، ثم تلتها سفينة أخرى تحمل مهمات وسلاسل ضخمة من الحديد أشيع أن الغرض منها سد مضيق باب المندب ، وانشاء قلاع على جانبى المضيق تعسكر فيها حاميات بريطانية (٣) ·

وقد نتج عن ذلك اجراء اتصالات بين مصر والاستانة ، طلب محمد على خلالها من حكومة الباب العالى العمل على وقف تلك التحركات البريطانية بالطرق الدبلوماسية · وبناء على ذلك فقد تلقى السفير البريطانى بالاستانة مذكرة رسمية من الباب العالى فى ٢٥ يوليه سنة ١٨٢٢ يوجه فيها نظر الحكومة البريطانية الى خطورة تلك التصرفات من جانب ممثليها فى الهند ازاء الموانى اليمنية فضلا عن تصرفات القنصل البريطانى فى مخا · وأكدت المذكرة « أن جهات مخا ، باعتبارها ملكا للدولة العلية ومن أراضيها ، لا يسعها الا حمايتها وحراسة سكانها وصيانة حقوق أهلها لقربها من الكعبة الشريفة التى تعظمها الذات الشاهانية ، لذلك فان الدفاع عنها واجب شرعا وعقلا حتى لا يحدث ما يخل بالدين الاسلامى فى أرض اسلامية » (٤) ·

وقد أجاب السفير البريطانى على المذكرة العثمانية موضحا بأن الخيام التى وردت الى مخا فى السفينة الانجليزية كانت كلها هدية من حكومة الهند البريطانية الى امام صنعاء المهدى عبد الله ووزيره ، وأنه قبلها شاكرا ممتنا ·

---

(١) Marston, T. E. : Op. cit., p. 40.

(٢) I. O., B. 209, Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, pp. 2, 3.

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من الصدر الاعظم محمد صالح الى محمد على ، دفتر رقم ٧ وثيقة رقم ٧١ بحر برا ، ى ٢٢ ربيع الاول سنة ١٢٣٦ هـ ·

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : ترجمة التقرير الرسمى المعطى من طرف الدولة العلية الى سفير انجلترا بالآستانة ، محفظة رقم ٨ وثيقة رقم ١٧ فى ٦ ذى القعدة ١٢٣٧ هـ ·

وأما الصناديق التى ظن رستم أغا ــ وهو الذى أبلغ محمد على هذه الأنباء ــ أن بها ذخائر ومدافع ، فلم يكن بها سوى مأكولات ومشروبات وأدوات منزلية خاصة بالقنصل البريطانى هناك . وأما مسألة السلاسل الضخمة التى حملتها سفينة انجليزية الى مخا وقيل انها لسد باب المندب فذلك تأويل باطل وواه ومخالف للحقيقة ، ذلك لأن طول المسافة بين البوغاز وجزيرة بريم الواقعة فى تلك الجهة يبلغ ثلاثة أميال من احدى تلك الجهات ، واثنى عشر ميلا من الجهة الأخرى تقريبا ، مما يؤكد تعذر أغلاقه بتلك السلاسل . أما فيمـــا يختص بالامتيازات التى حصلت عليها حكومة الهند البريطانية بموجب معاهدة ١٥ يناير سنة ١٨٢١ فانها لا تتعدى أن تكون من طراز المعاهدات التى عقدتها الحكومة البريطانية مع الدولة العلية ، وقد عقدتها مع امام صنعاء رغبة منها فى حماية شركة الهند والرعايا البريطانيين من الظلم الواقع عليهم واتخـــاذ الاجراءات الشديدة ضدهم (١) .

بل ان حاكم الهند البريطانى أرسل الى « سولت » قنصل بريطانيا فى مصر يطلب اليه أن يذكر محمد على بأن « تصور أى خلل طرأ على رابطة المودة بينه وبين الانجليز أمر يدعو الى أشد الأسف فحكومة الهند البريطانية لم تقصد بضرب الحصار على موانى صنعاء (اليمن) سوى الحصول على الترضية الكافية من الامام نظير ما حدث لرعاياها فى مخا » (٢) .

ورغم انتهاء مسألة مخا عند هذا الحد الا أن الاعتقاد ظل سائدا لدى الباب العالى ومحمد على بأن انجلترا تنوى أن تتصيد الفرص للســيطرة على اليمن للانتفاع بموانيه وتجارته . واعتقدت الحكومة العثمانية حينذاك بأن باستطاعة محمد على المسيطر على معظم أنحاء الجزيرة العربية أن يقوم باحتلال اليمن وموانيه حتى عدن باسم الباب العالى كما فعل فى الحجاز ونجد ، غير أن محمد على كان منشغلا بحملته على السودان وبتنظيم الجيش المصرى الجديد مما حال دون قيامه بهذا المشروع . ولكنه فى نفس الوقت كان متيقظا للدور الذى تلعبه السياسة البريطانية للسيطرة على اليمن مما جعله يرسل الى حاكم الحجاز أحمد باشـا يكن فى شهر نوفمبر سنة ١٨٢١ أمرا يطلب منه فيه أن يتخذ من الاجراءات ما يكفل ضمان الدفاع عن ســواحل البحر الأحمر ، وأن يرتب الاحتياطات السريعة ضد السفن الانجليزية التى قد ترد الى مخا والحديدة بقصد السيطرة

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من قنصل انجلترا فى مصر «سولت» الى «ستراتفورد» سفير انجلترا بالاستانة فى ١٦ اغسطس سنة ١٨٢٢ ، افادة رقم ٤٨٢ ، محفوظات المعية ٧/ محفظة ١٦ ، وثيقة رقم ٨٢ .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من حاكم الهند العام الى « سولت » ، ملحق بالوثيقة رقم ١٤٠ محفظة رقم ٧ ، فى ٢١ مايو سنة ١٨٢١ .

عليها ، خاصة وأن الحكومة البريطانية كانت ترى أن السيادة التى يدعيهـــا الباب العالى على اليمن والتى استعادها محمد على غير شرعية (١) .

وقد سارع حاكم الحجاز الى اتخاذ عدة اجراءات أهمهـــا ارسال قوة الى « أبى عريش » تتألف من خمسة وعشرين ألف جندى استعدادا لما عسى أن يجد من الحوادث . كما أرسل فى نفس الوقت الى امام اليمن خطابا يحذره فيه من « حيلة الانجليز وعدم الاذعان لمطالبهم ، اذ أن هدفهم هو الاستيلاء على اليمن » وقد دفعه الى ذلك علمه بأنباء تفيد بأن البريطانيين يحاولون استرضاء الامام والتظاهر بصداقته بعد المعاهدة التى عقدوها معه فى ١٥ يناير ســـنة ١٨٢١ وذلك باهدائه بعض الهـــدايا الفـــاخرة من ملابس وخنـــاجر وخيام ، فضلا عن محاولاتهم للاتصال بشيوخ القبائل واســـتمالتهم بالأموال والهدايا المختلفة (٢) .

على أن هذه التصرفات من قبل محمد على كانت تظهر مدى الدور الذى كان يقوم به لابعاد النفوذ البريطانى عن اليمن مستخدما فى ســـبيل ذلك كافة الوسائل الدبلوماسية من جهة والاستعداد الحربى من جهة أخرى . الأمر الذى جعل بريطانيا ترقب هى الأخرى تحركاته بعين الحذر حتى لا يشكل عقبة فى سبيل تحقيق مصالحها فى طريقها الحيوى الموصل الى الهند عبر البحر الأحمر .

وعلى الرغم من أن بريطانيا اشتدت مخاوفها من سيطرة محمد على على ميناء مخا اليمنى بعد ذلك بوقت قصير (٣) ، فانها كانت تستعين به فى بعض الأحيان للعمل على حل بعض المشكلات التى تواجه رعاياها هناك . فقد حدث أن وقع خلاف بين « الدولة » حاكم مخا وبين التجار الهنود المقيمين فى المدينة ، حول دين قدره عشرين ألف ريال يستحقونه لدى هذا الحاكم الذى رفض أن يدفعه لهم . وقد طلب « سولت » من محمد على التوسط للحصول على المبلغ من الامام . غير أن محمد على أكد هذه المرة « لسولت » ، « أن الامام غارق فى مضغ القات ، وأن اليمن فى حقيقة الأمر يعيش بدون حـــكومه ، وأن الفوضى ضاربة أطنابها هناك ، وأن خزينة الامام لا يوجد بها ريال واحد » . كما أكد محمد على فى نفس الوقت أن العديد من رجالات اليمن قد طلبوا منه أن يضع يده على تلك البلاد حتى ينقذها من الانهيار (٤) .

أما فى عدن فقد عرض السلطان أحمد عبد الكريم العبدلى أن يمنح شركة الهند الشرقية البريطانية ترخيصا لاقامة وكالة تجارية لها فى الميناء مقـــابل

---

(١) I. O., Memorandum, Turkish Claim of Sovereignty in Yemen, p. 18.

(٢) عبد الحميد البطريق (دكتـــور) : المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٣) Marston, T. E. : Op. cit., pp. 40, 41.

(٤) I. O., Memorandum, Turkish Claim of Sovereignty in Yemen, Sovereignty over Mocha, p. 19.

ان تتكفل له الحكومة البريطانية بحمايته من أى اعتداء يقع عليه من قبل القبائل العربية المجاورة • غير أن حكومة الهند البريطانية لم تقبل حينذاك ذلك العرض السخى نظرا لأن الأوضاع الدولية كانت فى صالحها ، ولم تكن فى حاجة الى عقد اتفاقيات سياسة لأنها كانت مهتمة فى ذلك الحين بتعزيز علاقاتها التجارية فى منطقة البحر الأحمر دون اقحام نفسها فى علاقات سياسية تحملهـــا أية تكاليف (١) • اذ لم يكن هدف البريطانيين قد تبلور بعد نحو جعل عدن أو مخا مركزا لبسط نفوذهم السياسى أو نشاطهم البحرى فى منطقة البحر الأحمر على نحو ما سيبدو الموقف فى نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر •

موقف بريطانيا ازاء المصرى فى اليمن
فى اعقاب تمرد « تركجه بيلمز » :

أثناء الفترة التى بقيت فيها قوات محمد على فى الحجاز فى أعقاب عودتها من اليمن منذ سنة ١٨٢٠ نشبت عدة حركات وفتن احتملت مصر فى ســـبيل اخمادها متاعب هائلة ونفقات باهظة • وكان من بينها تلك الفتنة التى نشبت فى جدة وكان قوامها بعض الضباط من العناصر غير النظامية فى جيش محمد على معظمهم من الأرناءود والأتراك • اذ أن جيش محمد على فى مكة فى ذلك الوقت كان يتكون من مجموعتين يقود أحدها « زنار اغا » الذى كان فى تنافس ونزاع مع « خورشيد بك » والى الحجاز من قبل محمد على • وقد حرض « زنار أغا » بعض الضباط لكى ينضموا اليه فى نزاعه مع « خورشيد بك » ليعلنوا تمردهم مطالبين برواتبهم المتأخرة (٢) • وكان أكثر هؤلاء الضباط تشيعا « لزنار أغا » ضابط تركى يدعى « محمد أغا » (٣) الذى اشتهر باسم « تركجه بيلمز » ، وهو من مماليك « مصطفى بك » صــهر محمـــد على ، وكان من خيـــاله الجيش فى الحجاز (٤) •

وقد وسط محمد على شريف مكة محمد بن عون بين والى الحجاز « خورشيد بك » وبين المتمردين (٥) • غير أنهم أسروا الوالى فى جده ، ونصبوا « تركجه بيلمز » واليا على الحجاز • كما انضم أهالى مكة وخاصة الموالين للوهابيين الى صفوف المتمردين نكاية بجنود محمد على (٦) وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه الحرب السورية الأولى مستمرة بين محمد على والدولة العثمانية (٧) ،

(١) Marston, T. E. : Ibid., pp. 39, 40.

(٢) Playfa'r, R L. : Op. Cit., p. 140.

(٣) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٤) I.O., B 209, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, Confidential, January 1838, p. 1.

(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من محمد على الى محمد بن عون شريف مكة ، دفتر رقم ٤٠ معية تركى ، وثيقة رقم ٨٢٨ ، ص ١٣٠ ، فى شهر صفر سنة ١٢٤٨ هـ.

(٦) Bury, G.W. : Op. cit., p. 13.

(٧) Marston, T.E. : Op. cit., p. 43.

ولهذا أرسل الباب العالى فرمانا الى « تركجه بيلمز » يقره واليا على الحجاز نكاية لمحمد على الذى خرج عن طاعته فى سنة ١٨٣٢ (١) ٠

وتجدر الاشارة الى أن البريطانيين كانوا يتتبعون أنباء حركة التمرد على الحكم المصرى فى الجزيرة العربية وأسباب قيامهـا ، وقد أرسل القنصل البريطانى « كامبل » الى « بالمرستون » وزير الخارجية البريطانية يقول أن اعتقاد « تركجة بيلمز » فى قرب نهاية حكم محمد على جعله يطمع فى القضاء على حكمه فى الجزيرة العربية ٠

على أن محمد على لم يرض بطبيعة الحال عن قيام تلك الفتنة ، ولم يعترف بفرمان السلطان ، بل انه أراد أن يوطد نفوذ حكومته فى الحجاز واليمن ، نظرا لما للحرمين الشريفين من الأهمية الدينية والسياسية ، ولأن ثغور الحجاز واليمن بمثابة العقد الوثيقة فى خيط الاتصال التجارى بين مصر والهند ٠ لهـذا أرسل محمد على حملة مصرية بقيادة « أحمد يكن باشا » (٢) الى ينبع قوامها سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل ٠ (٣) وقد تقدمت هذه الحملة الى جده فاحتلتها بعد أن انسحب منها « تركجه بيلمز » جنوبا الى قنفذة حيث كانت تعسكر حامية مصرية ٠ فلما استعصى على « تركجه بيلمز » فتح قنفدة ، استمر فى انسحابه متجها ناحية الجنوب حتى وصل الى الحديدة ، فدخلها فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٣٢ ٠ ثم استقر بعد ذلك فى مخا التى حاصرها حتى سقطت فى يده فى شهر ديسمبر من نفس السنة ، ولم يقو امام صنعاء على مقاومته فى ذلك الحين (٤) ٠

وأثنـاء وجود « تركجة بيلمز » على رأس قواته المتمردة فى مخا قام بالاستيلاء على السفن الآتية من الهند والتى اعتادت المرور بمخا الميناء الحيوى لليمن حينذاك لأخذ ما تحتاجه من تموين لمواصلة رحلتها عبر البحر الأحمر ٠ وقد استولى « تركجه بيلمز » على شحنات هذه السفن ثم أعادها ثانية الى الهند دون أن تواصل رحلتها الى موانى البحر الأحمر (٥) ٠ وكان يقصد من وراء ذلك حرمان « أحمد يكن باشا » من استخدام هذه السفن فى نقل قواته حتى يمنعه من مهاجمته فى الموانى اليمنية (٦) ٠ وقد حاول « تركجه بيلمز » الاتصال بثوار عسير ليكونوا عونا له ضد الحملة المصرية القادمة فى الطريق ، غير أن

---

(١) Sabry, M. : L'Empire Egyptien sous Muhammad Ali, p. 288.

(٢) F.O. 78, Campbell to Palmerston, 78/227, 16 April 1832.

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من امام صنعاء عبد الله الناصر الى أحمد باشا يكن، وثيقة رقم ١٧٩ محفظة ٢٦٣ ، جمادى الاولى ١٢٤٥ هـ ٠

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 34, 44.

(٥) F.O., 78/228, Campbell to F.O., 10/27.

(٦) عبد الحميد البطريق (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧١ ٠

زعيم الثوار « على بن مجتل » لم يكن راضيا عن الوجود المصرى أو العثمانى على السواء . أما بالنسبة لامام اليمن فقد كان عاجزا عن رد ذلك العدوان مما جعله يضطر الى ترك تلك المنطقة من بلاده نهبا للحوادث بين قوات « تركجه بيلمز » المتمردة وزعيم الثوار فى عسير ، والقوات المصرية الزاحفة نحو الجنوب للقضاء على المتمردين (١) .

بل أن « تركجه بيلمز » من ناحية أخرى أرسل خطابا الى السلطان محسن فضل العبدلى سلطان لحج وعدن يطالبه فيه بتسليمه ميناء عدن (٢) . وقد أجابه السلطان محسن متظاهرا بالموافقة ، ومن ثم قام « تركجه بيلمز » بارسال قوة من أربعين رجلا لتنظيم عملية الاستيلاء على هذا الميناء . ونزلت هذه القوة بالفعل الى شاطىء عدن فى ١٧ فبراير سنة ١٨٣٣ فاستقبلها السلطان محسن استقبالا طيبا فى بداية الأمر . غير أنه أمر رجاله بمهاجمة أفراد هذه القوة ليلة وصولهم (٣) ، فقتل منهم سبعة وعشرين رجلا وفر الباقون عائدين الى مخا (٤) ، مما اضطر « تركجه بيلمز » الى صرف النظر مؤقتا عن الاستيلاء على عدن .

ولم يكتف « تركجه بيلمز » بهزيمته فى عدن ، بل أنه قام فى شهر مارس سنة ١٨٣٣ بوضع خطة لمهاجمة ميناء جدة (٥) عن طريق البحر . فى نفس الوقت الذى يهاجمها فيه حاكم عسير عن طريق البر . غير أن أمير عسير تقاعس فى اللحظة الأخيرة عن مناصرته فتراجع « تركجة بيلمز » عن مهاجمة جدة ، وعاد الى مخا بخفى حنين .

على أن محمد على عندما بدأ يفكر فى ارسال حملة للقضاء على هذا التمرد بعد انسحاب « تركجه بيلمز » الى تهامة اليمن ، فانه كان يخشى أن تعارضه الحكومة البريطانية وتحيك الدسائس ضده هناك . ولهذا فقد قام باستدعاء « كامبل » ممثل الحكومة البريطانية فى مصر فى ٣ يونيو سنة ١٨٣٣ وأبلغه أن تفاقم أمر المتمردين بقيادة « تركجه بيلمز » فى تهامة اليمن سوف يؤدى الى اثارة القلاقل فى البحر الأحمر مما يعرض أمن السفن التجارية وسلامتها للخطر . وأوضح محمد على أن من شأن الوجود المصرى فى منطقة البحر الأحمر أن يؤمن التجارة الانجليزية التى تتخذ ميناء مخا مركزا لها . وهنا أيد «كامبل» لدى حكومته ارسال هذه الحملة مؤكدا لوزير الخارجية البريطانية أن من مصلحة بريطانيا حينذاك أن يسود الأمن فى بلاد اليمن ، خاصة وأن محمد على قد

---

(١) Playfair, R.L. : Op. cit., pp. 141, 142.

(٢) عبد الحميد البطريق (دكتور) المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٣) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٤) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 143.

(٥) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

عرض صداقته البريطانيين وأبدى حرصه على مصالحهم . غير أن « بالمرستون » كان شديد الحقد حينذاك على نمو القوة المصرية فى منطقة البحر الأحمر مما جعله يترقب تطور الأحداث بكل يقظة واهتمام (١) .

وعلى أية حال فقد عهد محمد على أخيرا الى « أحمد يكن باشا » والى الحجاز بمطاردة « تركجه بيلمز » فى بلاد اليمن ، فتوجه اليه على رأس قوة قوامهـــا خمسة عشر ألف مقاتل وكان ذلك فى نهايه سنة ١٨٣٣ . وقد اشترك حاكم عســير الأمير « على بن مجتل » مع قوات محمد على فى محاصرة مخـــا (٢) حتى يحظى بأى كسب فى تهامة على حساب تقدم القوات المصرية هناك . وقد ضرب أسطول « أحمد يكن باشا » ميناء مخا من جميع الاتجاهات المتاحة من ناحية البحر ، كما أن قوات الأمير « على بن مجتل » العسيرى كانت تزحف اليها بالطريق البرى . ولم تجد قوات « تركجه بيلمز » فرصة للهرب ، وأصر « على ابن مجتل » أن يستسلم « تركجه بيلمز » دون قيد أو شرط . وعندما رفض الأخير هذا الانذار هوجمت مدينة مخا ، وتمكنت قوات أحمد يكن باشا وقوات الجيش العسيرى من الاستيلاء عليها فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٣ (٣) .

وقد حاولت جموع كثيرة من قوات « تركجه بيلمز » الهروب عن طريق البحر على ظهر قوارب غير مجهزة حاولوا بها الوصول الى السفن البريطانية الراسية فى الخليج المواجه لمخا حينذاك ، وهى السفن التابعة لشركة الهنـــد الشرقية البريطانية ، وكان من بينها الســـفينة البريطانية « يتجريز Tigris » وقد التقطت هذه السفن « تركجه بيلمز » نفسه ومعه مائة وخمسون من رجاله وحملتهم الى بومباى ، بينما غرق الكثيرون من قواته نظرا لشدة الرياح وصعوبة الموقف الذى نتج عن مهاجمة مخا من البر والبحر فى وقت واحد (٤) . وقد سقطت مدينة مخا لمدة ثلاثة أيام ضحية للنهب والسلب الذى قام به البدو اليمنيون ، غير أنهم لم يمسوا ثروات الوكيل البريطانى فى مخا حينذاك ، وكان يدعى الشيخ « طيب ابراهيم ابرانجى » ، كما أنهم لم يسلبوا ولم يتعرضوا لكل من لجأوا اليه (٥) وهذا يشير الى المكانة التى كان يحظى بها البريطانيون ووكلاؤهم فى مخا فى ذلك الحين . وهكذا انتهت الفتنة التى أشعلها « تركجه بيلمز » فى الحجاز وامتدت الى اليمن . وقد ترتب عليها عودة النفوذ المصرى وامتداده الى الأراضى اليمنية مما شكل تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية فى

(١) F. O., 87, Doc. 228, Campbell to Palmerston, 27th October, 1833.

(٢) Playfair, R. L. : Op. cit., p. 143.

(٣) I. O., B. 209, Confidential, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, p. 3.

(٤) Marston, T. E. : Op. cit., pp. 45, 46.

(٥) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 144.

الجزء الجنوبي من البحر الأحمر ، وكان سببا رئيسيا في تصميم البريطانيين على السيطرة على عدن على نحو ما حدث فيما بعد ٠

وتجدر الاشارة الى هذا التعاطف الملحوظ بين البريطانيين من جهة ، وبين المتمردين على قوات محمد على من جهة أخرى ٠ وهذا يعبر عن رغبة بريطانيا حينذاك في تعويق تقدم محمد على ووقف توسعه المستمر في أرجاء الجزيرة العربية ٠ ذلك لأن بريطانيا كانت ترى أن سيطرة محمد على على الجزيرة العربية تشكل تهديدا خطيرا لمواصلاتها الى الهند عبر البحر الأحمر (١) والخليج العربي على السواء ٠

وعلى الرغم من نجاح قوات محمد على في اخماد الفتنة التي أثارها « تركجة بيلمز » في الحجاز واليمن ، فان محمد على رأى أن يجتث جذور المتمردين في الجزيرة العربية ، حتى ولو أدى ذلك الى أن يستولى على ما يمكنه الاستيلاء عليه من الأراضي اليمنية ٠ على أن الأمراض كانت قد اجتاحت حينذاك صفوف جيشه في بلاد العرب فأضعفتها ، كما كانت الحاميات العسكرية موزعة بين قنفدة والحديدة وبعض المدن اليمنية الأخرى مما أضعف قوة الوحدات المتحركة في الجيش ، لهذا أرسل محمد على قوة جديدة الى اليمن كانت تضم ثلاثة آلايات من المشاة ، وألفين من الفرسان ، يقودهم « ابراهيم يكن باشا » الذى عينه محمد على « سر عسكر اليمن » عندما توجه اليها في أوائل عام ١٨٣٥ ، وكان يسانده في تحركه الشريف عون شريف مكة (٢) ٠ وبدأت بذلك عملية فتح مصرى لليمن على أيدى قوات محمد على الذى سيطر على منطقة تهامة وتطلع للسيطرة على صنعاء ثم على عدن في ذلك الحين (٣) ٠

وقد احتمل جنود محمد على أثناء زحفهم الى عسير والمنطقة الممتدة على طول الساحل اليمنى حتى الحديدة ، مشقات هائلة نتيجة لوعورة الطرق وسوء المناخ وقلة الماء وفداحة المتاعب ٠ وقد وقعت بينهم وبين رجال القبائل اليمنية ، وخاصة تلك التى اندس بينها بعض البقية الباقية من دعاة الوهابية ، كثير من المناوشات والمصادمات التى ألحقت بقوات محمد على خسائر فادحة ، اضطرتهم الى التقهقر الى الحجاز بعض الوقت ٠ وقد عانى رجال محمد على من البدو الذين كان بعضهم يتحالفون معهم تارة ، ثم ينقلبون عليهم تارة أخرى وخاصة في وقت الأزمات (٤) ٠ غير أنهم في نهاية الأمر استجمعوا قواهم واستأنفوا زحفهم من جديد فاحتلوا الثغور اليمنية ، وبعض المواقع الداخلية في تهامة ٠ وقد اتخذ القائد المصرى ابراهيم يكن باشا ميناء الحديدة مركزا لادارته ، وأصبح واليا لليمن من قبل محمد على (٥) ٠ وقد تفاوض ابراهيم يكن باشا في ٧ يونيو سنة

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 32.

(٢) محمد بن أحمد العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٨ .

(٣) عبد الحميد البطريق (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧١ ، ٧٦ .

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 47, 49.

(٥) محمد بن أحمد العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٦ .

١٨٣٧ مع حاكم مدينة تعز ووجهائها فى أمر تسليمها اليه ، وتم الاتفاق على التنازل عنها فى مقابل الرواتب الشهريه التى يدفعها لزعمائها (١) · ثم دخلت قوات محمد على مدينة تعز وسيطرت عليها دون أدنى مقاومة فى الشهر المذكور (٢) ، واستتب بذلك الحكم المصرى فى بلاد اليمن لمدة أربع سنوات على وجه التقريب (٣) ·

ومن ناحية أخرى فان محمد على قد عهد بقيادة قواته فى الحجاز الى « خورشيد باشا » الوالى السابق لمساندة القوات المحاربة فى اليمن ، خاصة عندما وصلته أنباء الصعوبات التى واجهتهم فى بداية زحفهم جنوبا (٤) والتى أدت الى تشجيع السعوديين فى نجد على التمرد من جديد · وعقب تحسن الموقف فى صالح قوات محمد على فى اليمن اتجه « خورشيد باشا » بجيشه شمالا حتى وصل الى الدرعية · بل انه تخطى فتوحات « ابراهيم باشا » وزحف على الاحساء حتى وصل الى ساحل الخليج العربى وجمع عدة سفن واحتل جزائر البحرين فى الخليج · وقد أذعنت القبائل العربية وأعلنت طاعتها لمحمد على عندما رأت قوة جيشه وسرعة تقدمه (٥) · وهكذا أصبح محمد على مسيطرا على البحر الأحمر والخليج العربى فى سنة ١٨٣٧ وأصبح متحكما فى أهم طريقين للمواصلات البريطانية الى الهند الأمر الذى أثار ثائرة بريطانيا ضده فى ذلك الحين ·

وقد رأت بريطانيا أن نفوذ محمد على فى الجزيرة العربية كان يدعم وجوده ويأخذ طابع الاستقرار مما زاد من قلقها وأثار حنقها · على أنه يمكن القول بأنه لا يوجد دليل يثبت بأن محمد على عندما فتح جزيرة العرب وهزم الوهابيين فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر كان يفكر فى اقامة امبراطورية فى البلاد العربية · بل ان التفكير فى اقامة الامبراطورية قد راوده بعد ذلك فى مطلع العقد الرابع من القرن المذكور · كما لا يتوفر أى دليل يشير الى أنه استغل الشعور الدينى فى تحريك القبائل فى الجزيرة العربية ضد البريطانيين حتى عندما أصبح وجوده هناك يشكل تهديدا خطيرا لهم قبيل وبعد احتلالهم لعدن فى سنة ١٨٣٩ · بل انه من الصعب أيضا التثبت من وجود أهداف

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من ابراهيم يكن الى محمد على باشا ، وثيقة رقم ٢٥٩ ، محفظة رقم ٢٦٢ ·

(٢) عبد الحميد البطريق (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٩ ·

(٣) Playfair, R.L. : Op. cit., pp. 144, 145.

أكد بلايفير ـ مستندا الى وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية ـ بأن المال الذى نفحه ابراهيم يكن باشا للسيد قاسم حاكم تعز افترضه من تجار مخا نظرا لعدم توفر المبالغ المطلوبة لديه حينذاك ·

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 47.

(٥) عبد الرحمن الرافعى : المصدر السابق ؛ ج ٣ ، ص ٣٥٩ — ٣٦٠ ·

اقتصادية مباشرة لمحمد على من وراء استكمال فتحه لبقية أرجاء الجزيرة العربية خاصة وأنه كان مسيطرا فعلا على التجارة الغنية التى كانت ترد من مكة ومن اليمن عن طريق جدة ، وذلك بحكم احتلاله الفعلى لساحل الجزيرة العربية المطل على البحر الأحمر (١) ٠

وعلى أية حال فقد أقام المصريون ادارة منظمة فى اليمن أثناء وجودهم فيها فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ أتاحت استقرارا نسبيا للبلاد لم تنعم به من قبل فى تاريخها الحديث (٢) ٠ وقد عنوا كثيرا بمحصول البن اليمنى على نحو ما ورد فى رسالة بعث بها ابراهيم يكن والى اليمن الى محمد على وجاء فيها : « يجب سلوك طريقة فى اقناع كبراء البـــلاد التى تحت حكمنا وترغيبهم فى غرس أشجار البن وتكثيرها وأن ترفع حقيقة الأمر الى أعتابكم السامية » (٣) ٠

وتجدر الاشارة الى أن امام صنعاء أثناء وجود المصريين فى اليمن فى أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر قد حاول أن يقوى العلاقه بينه وبين محمد على ، فأوفد رسولا من قبله هو السيد عبد الرب الى حاكم الحجاز أحمد يكن باشا ليسهل له السفر الى مصر لمقابلة محمد على والتفاهم معه باعتباره « ســـيف الاسلام وحامى حمى سلالة النبى محمد بن على باشا » (٤) ٠

كما اكتسب المصريون أصدقاء كثيرين من بين اليمنيين على نحو ما تظهره الرسائل التى وردت الى محمد على من منطقة حضرموت وغيرها يطالب أصحابها بالانضمام للادارة المصرية التى أقامها ابراهيم باشا فى اليمن ٠ ومن أهم هذه الوسائل رسالة حضرموت المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة يطلب أصحابها من محمد على ارسال موظفين وجنود لتنظيم أحوال حضرموت واعادة الأمن اليها ، وكان على رأس موقعى هذه العريضة على بن عمر بن سقاف ، وسالم بن حماد باعبيد ، ومحسن بن علوى (٥) ٠

بل أن اليمنيين ظلوا على وفائهم للمصريين حتى بعد جلائهم عن اليمن ٠

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 54.

(٢) Marston, T.E. : Ibid., p. 53.

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من ابراهيم يكن الى محمد على وثيقة رقم ٣١٥ ، محفظة رقم ٢٦٢ ، فى ٥ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ .
كما توجد مضبطة مجلس جدة بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٥٤ هـ بشأن تجارة البن فى اليمن وتنظيم الجمارك ، وثيقة رقم ٣٣ ، محفظة رقم ٢٦٤ .

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من امام صنعاء عبد الله الناصر لدين الله الى أحمد باشا يكن وثيقة رقم ١٧٩ محفظة رقم ٢٦٣ ، فى شهر جمادى الاولى سنة ١٢٤٥ هـ .

(٥) صلاح البكرى : المصدر السابق ، ص ١٦ .

ولا أدل على ذلك من مطالبة أهالى الحديدة فى أوائل العقـــد الثالث من القرن العشرين بانضمامهم الى « الحكومة العربية المصرية » بعد زوال الحكم العثمانى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١) ٠

وتجدر الاشارة الى أن المصريين قد ألقوا كثيرا من الضـــوء على الجزيرة العربية بوجه عام وعلى بلاد اليمن بوجه خاص عندما أتاحوا الفرصة لعدد من الأوربيين من بينهم بعض الضباط والأطباء الفرنسيين والايطاليين بمرافقـــة القوات المصرية التى عملت هناك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (٢) ٠ وقد كتب هؤلاء وصفا للبلاد والمناطق التى زاروها وعادات أهلهـــا وطباعهم ونشروها بعد عودتهم فى بلدان أوربا (٣) مما وضع حدا للقول بأن تلك البلاد ظلت من المناطق المجهولة ٠ غير أن ذلك فى نفس الوقت قد لفت أنظار كثير من الدول الأوربية لهذه الجهات فى وقت كانت متعطشة فيه للتوسع والاستعمار ، مما أثار قلق بريطانيا التى لم تكن ترحب بنزول أى منافسين جدد فى هـــذا الميدان ٠

وقد استمر الهدوء النسبى والاستقرار يعم تهامة اليمن فى ظل الادارة المصرية خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠ ولم يتخللها ســـوى محاولة قبائل يام اليمنية غزو المنطقـة ونهبها ٠ وقد وجه اليهم الوالى المصرى ابراهيم يكن باشا قوة مصرية يقودها شاب يمنى هو الحسين بن على بن حيدر الذى كان والده حاكما للمخلاف السليمانى بشمالى اليمن ، وقد تمكن الحسين من التغلب على قبائل يام ووضع حدا لتمردهم ٠ وقد رأى الوالى المصرى أن يكافىء الحسين على لجهوده فعينه خليفة لوالده فى حكم مدينة أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى ٠ غير أن الحسين أبدى نشاطا ملحوظا فى تدعيم مركزه فى المخلاف مما أقلق الوالى المصرى ، فتوترت العلاقات بينهما ثم آلت الى العداء السافر ٠

وقد تضامن الحسين مع عائض حاكم عسير الذى كان يطمع فى السيطرة على تهامة ، ثم تقدمت قوات الحليفين لمحاربة المصريين فى الحديدة ٠ وقد شجعهما على ذلك انشغال محمد على حينذاك فى محاربة القوات العثمانية فى سوريا ٠ كما انتهزا فرصة نزاع نشب فى نفس الوقت بين والى الحجاز المصرى وشريف مكة محمد بن عون الذى ساند والده المصريين أثناء زحفهم لليمن ٠ على أنه قبل أن تصل قوات الحسين وعائض للحديدة ، كانت أوامر محمد على قد وصلت من مصر الى ابراهيم يكن باشا بتسليم ما تحت يده من الأراضى اليمنية الى الحسين بن على بن حيدر ليتولى حكمها باسم الدولة العثمانية ٠ وقد حدث ذلك عندما فرضت الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا على محمد على الانسحاب

---

(١) امين الريحانى : المصدر السابق ، ص ١٦ ٠

(٢) Hogarth, D. G. : Op. cit., p. 108.

(٣) Marston, T. E. : Op. cit., pp. 51, 53

من الجزيرة العربية فى معاهدة لندن فى سنة ١٨٤٠ ، فدخل الحسين الحديدة بعد جلاء المصريين عنها وأعلن اعترافه وتبعيته للسيادة العثمانية (١) .

وهنا تجدر الاشارة الى الدور الخطير الذى لعبته السياسة البريطانية لتصفية النفوذ المصرى فى الجزيرة العربية وابعاده عن طرق المواصلات الحيوية الى الهند عبر البحر الأحمر والخليج العربى . فقد هال البريطانيين وأزعجهم تقدم المصريين فى جزيرة العرب من ناحية وفى السودان من ناحية أخرى ، ومساهمة محمد على فى تجارة الهند ، ومنعه للسفن الأوربية الآتية من بومباى من أن تصعد فى البحر شمالى جدة . وكان اعتماد البريطانيين فى البحر الأحمر على موانى السودان واليمن ، فلما أصبح السودان فى يد محمد على زاد اعتمادهم على اليمن ، فلما دخل اليمن فى طاعته أيضا أحس البريطانيون أن البحر الأحمر قد خرج من أيديهم وأصبح فى قبضة مصر (٢) . بل أن البريطانيين قد راعهم أيضا امتداد النفوذ المصرى أيضا الى الخليج العربى الأمر الذى هدد أهم طريقين لمواصلاتهم الحيوية الى الهند حينذاك (٣) .

ومما زاد من حنق بريطانيا على محمد على أنه رغم تصريحه باحترام تعهدات امام اليمن للبريطانيين بوجه عام ، فانه بعد أن سيطرت قواته على ميناء مخا فى سنة ١٨٣٣ شرعت السلطات الحاكمة التابعة له فى تطبيق سياسة الاحتكار بالنسبة لمحصول البن اليمنى الأمر الذى أضر الى حد كبير بالتجارة البريطانية . فقد تحدد سعر البن بواسطة السلطات المصرية وأصبح يصدر معظم المحصول الى مصر التى كان عليها أن تدفع ما يطلب منها للباب العالى ، بينما اشترى باقى المحصول التجار الأمريكيون الذين كانوا يدفعون ضريبة جمركية قدرها ٣٪ فقط فى الوقت الذى كان البريطانيون يدفعون فيه ضريبة تصل الى ٧½٪ . وقد دارت اتصالات دبلوماسية بين بريطانيا ومحمد على انتهت الى اصدار الأخير قرارات تقضى بمراعاة ما نصت عليه المعاهدة المعقودة بين البريطانيين وامام اليمن (٤) .

وقد ذكر « هنرى دودويل » أن هدف محمد على من فتوحه فى جزيرة العرب بعد سنة ١٨٣٥ كان الوصول الى البصرة وبغداد ، وان « بالمرستون » قد علم بذلك وانزعج غاية الانزعاج (٥) . بل ان « الكابتن جيمس ماكنزى » وهو أحد الضباط البريطانيين الذين عملوا فى حكومة الهند البريطانية أوضح فى تقرير قدمه فيما بعد لوزارة الخارجية البريطانية فى اليوم السادس من

---

(١) Jacob, H. F. : Op. cit., p. 23.

(٢) حسين مؤنس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(٣) Hoskins, H.L. : Op. cit., (B.R.I.), p. 269.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 50, 51.

(٥) Dodwell, H. : Op. cit., pp. 143, 145.

ينـــاير ســنة ١٨٣٧ (١) أنه أثنــاء مروره بجـــدة لمس من خلال أحاديثه مع كبار ضباط الجيش المصرى أن « محمد على » بعد أن يتمكن من فتح عسير بالقوة أو الرشوة فانه سيوجه قواته الى عدن ومن بعدها الى حضرموت ومنها الى عمان ومسقط ، وبعد ذلك يصبح فتح العراق سهلا • وقال انه لا يعتقد أن الحكومة البريطانية سوف تسمح له بالاستيلاء على مسقط بأى حال من الأحوال (٢) •

على أن « محمد على » حينذاك لم يشأ أن يصطدم بالبريطانيين لمعرفته بقوتهم وعظمة أسطولهم ، وكان يبذل أقصى ما فى وسعه لاقناع السلطات البريطانية فى الهند وفى انجلترا بأنه راغب فى المحافظة على المصالح البريطانية فى الجزيرة العربية كلها وفى البحر الأحمر • وكان محمد على يعتقد أنه نجح فى ذلك بدليل أن الممثل البريطانى فى القاهرة سلم اليه فى شهر فبراير سنة ١٨٣٧ خطابا من الحاكم البريطانى فى بومباى جاء فيه : « ان الحكومة البريطانية فى الهند ترغب فى تدعيم الصداقة والشعور الطيب بينها وبين الحكومة المصرية وأن يزداد التبادل التجارى بين البلدين بما يعود بالفائدة على رعايا الحكومتين » (٣) • كما أشارت تلك الرسالة الى أن الحاكم يطلب من محمد على السماح للانجليز أن يقيموا فى جزيرة كمران ــ الواقعة تحت حكمه حينذاك ــ محطة للفحم لتزويد البواخر البريطانية وهى فى طريقها بالوقود •

وهنا قبل محمد على على الفور التماس الانجليز ، وأرسل الى حاكم اليمن ابراهيم باشا يكن تعليماته بالسماح باقامة هذه المحطة وطلب اليه أن يبذل ما فى وسعه لتسهيل مهمة السفن الانجليزية فى مياه اليمن • وازداد اطمئنان محمد على الى صداقة الانجليز عندما أبلغه الممثل البريطانى فى القاهرة شكر وزير الخارجية الانجليزية على سماحه لحكومة بومباى باقامة محطة للفحم فى كمران لخدمة السفن البريطانية فى البحر الأحمر • بل أن محمد على اعتبر تلك الرسالة اعترافا من الحكومة البريطانية بسيادته على تلك الجزيرة وبالتالى على اليمن ، وأن تلك الحكومة تجاهلت حق السلطان العثمانى فى تلك الجهات وهو أمر له أهميته الدولية بطبيعة الحال •

ولهذا أعلن محمد على أنه لم يبغ من فتوحه فى الجزيرة العربية ووصول قواته الى سواحل اليمن وسواحل الخليج العربى أكثر من اخضاع الوهابيين وحماية الحرمين الشريفين • كما أعلن محمد على عن استعداده لتقـــديم كافة الضمانات المرضية لتيسير الاتصال البحرى بين مصر والهند • غير أنه لم يكن

---

(١) F.O. 78/3185, Report of Captain Mackenzie 6/1/37.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 52.

(٣) F.O. 78/3185, Government of Bombay to Moh. Ali, Enclosure in Campbell's of 23 February 1837.

من السهل أن تسلم بريطانيا بذلك وانما سارعت الى توطيد علاقاتها مع أمراء الخليج العربى . كما أنها كانت قد كلفت بعثة « كسنى » بالقيام بمسح لنهرى دجلة والفرات واختبار صلاحيتهما للملاحة البخارية فى سنة ١٨٣٤ لكى تفتح طريقا آخر للتجارة (١) .

ولم تكتف بريطانيا بذلك بل أنها أرسلت بعض قواتها الى البصرة واحتلت جزيرة « الخرج » التى تقع فى مدخل الخليج العربى من جهته الشمالية فى سنة ١٨٣٨ . وقد بعث « بالمرستون » بتعليماته الى حكومة الهند لمعارضة أى تقدم يقوم به « خورشيد باشا » فى الخليج العربى (٢) ، وطلب التدخل ولو بالقوة العسكرية اذا ما اقتضت الضرورة ذلك (٣) . وكان اهتمام « بالمرستون » بالبحرين يفوق اهتمامه بأى منطقة أخرى فى الخليج ، ولهذا صرح بأنه يجب منع قوات محمد على من الاستيلاء على البحرين نظرا لأهميتها حتى ولو أدى ذلك الى قيام شركة الهند الشرقية البريطانية باحتلالها (٤) .

بل أن الحكومة البريطانية قد أبدت معارضتها الشديدة لاحتلال « خورشيد باشا » للاحساء والقطيف ، وهددت محمد على بأن « حكومة جلالة الملكة لا تستطيع أن تتجاوز عن أية خطوة يتخذها (محمد على) لمد سلطانه نحو الخليج الفارسى أو بغداد ، وأنها لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدى اذا أقدم على هذه الخطوة » (٥) . كما أسرعت بريطانيا الى ارسال «الأميرال فردريك متلند Fredrick Maitland » الى الخليج العربى لتقديم كافة المساعدات الى شيوخ الامارات للوقوف فى وجه قوات محمد على المهاجمة (٦) . غير أن « متلند » وصل فى الوقت الذى كان فيه « خورشيد باشا » قد أتم احتلاله القطيف والعقير ووجد أن شيوخ البحرين على استعداد للاعتراف بالسيادة المصرية . ولهذا رأى « متلند » من الحكمة عدم القيام بعمل عسكرى وطلب من الكولونيل « هنل Hannel » المقيم البريطانى فى الخليج العربى أن يبذل جهوده لوقف الضغط المصرى بالطرق الدبلوماسية .

وقد أورد « هنل » فى تقريره لحكومة الهند البريطانية أنه وجد من الأمراء الذين زارهم أنهم أكثر تقديرا لعظمة القوات المصرية . غير أن بعض الوثائق البريطانية تؤكد أن شيوخ البحرين لم يرحبوا بوجود المصريين نتيجة

---

(١) جمال زكريا قاسم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٢) Hoskins, H.L. : Background of the British Position in Arabia, The Middle East Journal, Vol. I, No. 2, April 1947, pp. 138, 143.

(٣) F.O. 78/3185, Palmerston to Campbell, 4 August 1837.

(٤) Dodwell, H. : Op. cit., pp. 142, 143.

(٥) F.O. 78/318, Palmeston to Campbell, 8 December 1837, No. 25.

(٦) Rihani, A. : Ibn Seoud of Arabia, p. 140.

لما كان قد أشيع فى ذلك الوقت من تحالف يتجه محمد على الى عقده مع شاه فارس ولذلك أسرع هؤلاء الشيوخ بطلب الحماية البريطانية (١) • هذا فى الوقت الذى نجد فيه الوثائق المصرية تنفى ذلك تماما وتؤكد أن شيوخ البحرين رحبوا كثيرا بالمصريين أمـــلا فى التخلص ممـــا كان يحيق بهم من خطر البريطانيين والفرس وسلطان مسقط جميعا ، خاصة أن «محمد على» لم يتجه الى طلب جزية كبيرة كما كان يفعل الفرس أو السعوديون (٢) • بل ان الوثائق المصرية تقرر كذلك أن البحرين خضعت طواعية لمحمد على وأن حاكمها تقبل أن يسلم فى كل سنة ثلاثة آلاف « فراسنة » على سبيل الزكاة (٣) •

وعلى أية حال فقد اسرع « الكولونيل هنل » بمقابلة عبد الله بن أحمـد شيخ البحرين وعرض عليه الحماية البريطانية مع ضمان توارث الحـكم فى أسرته • وقد رفض شيخ البحرين قبول هذه العروض مما جعل « هنل » يهدد بانزال العقاب الصارم • كما بعث « هنل » الى « خورشيد باشا » محتجا بأن البحرين تتبع فارس ولا يجوز الاستيلاء عليها ، ومذكرا بما كان قد سبق أن صرح به محمد على للسلطات البريطانية فى مصر بأن « قواته لن تتعدى على بلاد العرب المتصلة بخليج فارس » (٤) وقد أجاب « خورشيد باشا » على هـــذا الاحتجاج البريطانى بأن ما قام به لا يستوجب أى اعتراض ، وبرر ذلك بأن المناطق التى يعمل على الاستيلاء عليها كانت فيما مضى خاضعة للســعوديين فلا موجب اذن للاعتراض (٥) •

بل أن « خورشيد باشا » حاول أيضا الاستيلاء على سلطنة مســقط منتهزا فرصة التفكك الاقليمى الذى عانته هذه السلطنة بانتقال عاهلها الى زنجبار ، والى الثورة الداخلية التى حدثت فى ذلك الحين • على أن ما تقرره المصادر البريطانية فى هذا الصدد هو أن القوات المصرية سببت فزعا كبيرا

---

(١) دار الوثائق القومية القاهرة : الوثائق المنقوله عن وزارة الخارجية البريطانية ، محفظة رقم ١٢ •
F.O. 78/386, No. 140, Political Department, Hennel to Willoughby 11th February 1839. Enclosure No. 3. Letter from Abdullah Ben Khalifa to the Resident in the Persian Gulf, 26th January 1839.

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محافظ الحجاز (١٢٥٤ هـ) — محفظة رقم ٢٦٧ من خورشيد باشا الى عبد الله آل خليفة فى ٧ مارس ســـنة ١٨٣٩ ، مرفق حـربى للوثيقة رقم ١٣٧ حمراء •

(٣) جمال زكريا قاسم (دكتور) : المصدر السابق ، ص. ٦٧ •

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محافظ الحجاز (١٢٥٥ هـ) . محفظة رقم ٢٦٧ — اعتراض « هنل » على اتفاقية خورشيد باشا مع شيخ البحرين — صورة المرفق العربى للوثيقة رقم ١٤٧ حمراء بتاريخ ٢٧ يونيو ١٨٣٩ •

(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محافظ الحجاز (١٢٥٥ هـ) — صورة المرفق العربى للوثيقة رقم ١٣٧ حمراء — رد خورشيد باشا على اعتراض « هنل » فى ٣١ يوليو ١٨٣٩ •

لحكام مسقط وأنه لو لم تبادر بريطانيا بمساعدتهم لسقطت السلطنة وملحقاتها في قبضة « خورشيد باشا » ويبدو أن اخضاع مسقط كان من أهم الأهداف التي كان يسعى محمد على لتحقيقهـــا من وراء ارســـال قواته الى سواحل الخليج (١) ٠

وقد تعرضت امارات الساحل العمانى بدورها للتوسع المصرى مما جعل الشيخ سلطان بن صقر يبعث الى المقيم البريطانى فى الخليج يطلب منه أن يعرف موقف الحكومة البريطانية اذا ما هاجمته القوات المصرية (٢) ٠ وقـد بعث « هنل » الى حكومة الهند موضحا أنه كان يريد أن يجيب على الشيخ سلطان بأن الحكومة البريطانية تمتنع عن التدخل في الجزيرة العربية والخليج العربى كما كانت تفعل ذلك فى الماضى ، ولكن الظروف أصبحت مختلفة تماما عما كانت عليه من قبل بظهور هذا العنصر الجديد (٣) ، ويقصد به التوسع المصرى فى المنطقة ٠

وقد أخذ « هنل » يعمل على الحصول على تعهدات من رؤساء الساحل العمانى بأن تعاونهم مع القوات المصرية يعد خرقا صريحا لروابط الاتحاد والصلح بين حكومة الهند البريطانية ومشايخ هذه الجهات ، كما تعهد « هنل » من جانبه بامداد من يلتزم من شيوخ المنطقة بعد التوسع المصرى بآلات الحرب ومعـدات القتال (٤) ٠ ولهذا فان أقصى ما وصلت اليه القوات المصرية لم يتعـد امارة البحرين شمالا ، أما فيما يلى ذلك فلم يظهر نشاط المصريين واضحا فيه على الاطلاق (٥) ٠

وقد أبدى البريطانيون قلقهم عندما تواترت اليهم أنباء مخططات محمد على التوسعية بعد أن تحققت له كل هذه الانتصارات فى الجزيرة العربية ٠ فقد تلقت وزارة الخارجية البريطانية تقارير قناصلها فى الشرق التى تنبأت بأن محمد على سيوجه فرقة من قواته المعسكرة فى مخا للاستيلاء على عدن وميناءها الحيوى الهام الذى يتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ٠ وأن محمد على

---

(١) Jackson : European Powers and South East Africa, Chap. VIII. Zanzibar, Muscat and the Powers, p. 17.

(٢) جمال زكريا قاسم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٦٨ ٠

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : الوثائق المنقولة عن وزارة الخارجية البريطانية محفظة رقم ١٢ ٠

F.O., 98/386. Campbell to Fackrouse, Secret, No. 6, 29th January 1839. See also Hennel to Willoughby, Secretary to the Government at Bombay. Enclos. in India Board 16th May 1839.

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : ماحفظ الحجاز ١٢٥٥ هـ ٠ محفظة رقم ٢٦٧ ، صورة المرفق العربى المؤرخ فى ١٧ جمادى الآخر سنة ١٢٥٥ هـ ٠ من « هنل » باليوز خليج العرب الى خورشيد باشا سر عسكر نجد ٠

(٥) جمال زكريا قاسم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٠ ٠

اذا قدر له أن ينجح فى تحقيق ذلك فانه سوف يقطع الطريق الحيوى الهـــام للاتصال بالهند عبر البحر الأحمر(١) ٠ بل ان بريطانيا كانت تتوقع ان يوجه محمد على قواته بعد ذلك الى حضرموت المقسمة بين العديد من الأمراء والشيوخ الضعاف ، وبذلك يمكن أن تطوق قواته جنوب الجزيرة العربية ثم يتجه الى عمان ومسقط ومنها الى بغداد ليسيطر عليها بعد ذلك(٢) ٠ وقـــد عزز توقعات بريطانيا هذه تلك التقارير التى تلقتها من بعض رجالها العاملين بحكومة الهند البريطانية أمثال « الكابتن جيمس ماكنزى » الذى سبق أن أشرت اليه ٠ وكان يعنى ذلك أن يصبح محمد على سيدا للجزيرة العربية كلها ويتحكم فى طريقى المواصلات البريطانية الى الهند عبر البحر الأحمر والخليج العربى على السواء فيهدد بذلك مصالح بريطانيا الحيوية فى بلاد الشرق ٠

وعلى الرغم من أن بلدان الجزيرة العربية كانت حينـــذاك تتمتع بمزايا اقتصادية محدودة ، غير أن أهميتها الاســـتراتيجية كانت تفـــوق أهميتها الاقتصادية بكثير ٠ فالبحرين امتازت اقتصاديا بما يستخرج من اللؤلؤ من سواحلها بينما كانت القبائل البدوية فيها لا ترغب فى وجود حكومة منظمة تصاحبها عادة النظم الضرائبية غير أن أهميتها الاستراتيجية كانت تجعل من يسيطر عليها يتحكم فى الخليج العربى ٠ أما بالنسبة للعراق فقد كانت خير معبر الى فارس ومنها الى وسط آسيا(٣) وفيما يتعلق بجنوبى الجزيرة العربية فان أية قوة تسيطر عليه يمكنها التحكم فى الطرق البحرية الموصلة بين الشرق والغرب والتأثير فى الحركة الملاحية فى البحر الأحمر غربا والخليج العربى شرقا والمحيط الهندى جنوبا ٠

لهذا سارع اللورد « بالمرستون » بالكتابة الى القنصل البريطانى فى مصر « الكولونيل كامبل » فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٣٧ ليقابل محمد على ويخبره بأن مثل هذه الخطوة لا ينظر اليها بعين الرضا فى بريطانيا أو فى الهند(٤) ٠ وأن الموقف يقتضى اجراء مباحثات مباشرة معه لمعرفة حقيقة نواياه(٥) ٠ وقـــد أكد محمد على للقنصل البريطانى فى مصر بأنه لا يفكر فى التوسع خارج البحر الأحمر(٦) ولا يبغى امتداد أملاكه شرقى مخا أو شرقى صنعاء (٧) ٠ كما أنه

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 55.

(٢) I.O., B. 8. Confidential, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern Shores of the Red Sea and the whole of Arabia, and the Egyptian claim to the whole of the Western Shores of the same sea, including the African Coast from Suez to Cape Guardafui, 10 March 1874. pp. 4-5.

(٣) Dodwell, H. : Op. cit., p. 125.

(٤) F.O., 78/318, Palmerston to Campbell, August 12, 1837.

(٥) Waterfield, G. : Op. cit., p. 32.

(٦) Marston, T.E. : Op. cit., p. 60.

(٧) صلاح البكرى : المصدر السابق ، ص ١٨ ٠

لا يتطلع الى امتلاك ميناء عدن على الرغم من أن الباب العالى قد طلب منه مرارا الاستيلاء على ذلك الميناء ، غير أنه لم يشأ أن يتخذ أية خطوة من جانبه من شأنها أن تسىء الى علاقاته الطيبة مع حكومة الهند البريطانية • وقد نصت مذكرة بوغوص يوسف بك الى « كامبل » على « أن ينقل الى صاحب السعادة اللورد بالمرستون التأكيد الكامل بأن صاحب السمو الوالى يضع فى حسبانه مصالح بريطانيا العظمى ، وأنه لن يقوم باجراءات توسعية تتعارض مع تلك المصالح بأية صورة من الصور » • ولهذا كتب « كامبل » الى وزارة الخارجية البريطانية يقول أنه لا يعتقد أن محمد على لديه نيات عدوانية بالنسبة للمنطقة المجاورة لعدن خارج نطاق البحر الأحمر أو فى شرقى مخا وصنعاء(١) •

وعلى الرغم من تأكيدات محمد على للقنصل البريطانى بعـــدم قيامه باجراءات توسعية تتعارض مع المصالح البريطانية فقد امتد نفوذه ــ كما سبق أن أشرت ــ الى جزيرة كمران المواجهة لميناء اللحية الواقع شمالى الساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر ، مما اضطر حاكم بومباى الى أن يطلب موافقة والى مصر على أن يقيم فى تلك الجزيرة محطة للفحم لخدمة الســفن البريطانية المارة عبر البحر الأحمر بتزويدها بالوقود ، مع اعترافه الكامل بالحقوق المصرية فى الجزيرة • كما أن « جيمس ماكنزى » قد أوضح فى التقرير الذى قدمه لوزارة الخارجية البريطانية فى اليوم السادس من يناير سنة ١٨٣٧ والذى سبق أن أشرت اليه ، الانتصارات التى أحرزها محمد على فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى الحجاز واليمن بحيث أصبح المصريون مسيطرين على مكة والمدينة وينبع وجدة وقنفدة وجيزان واللحية والحديدة ومخا وجزيرة كمران هذا فضلا عن انتصاراته على الساحل الغربى للبحر الأحمر(٢) • وأكد هذا التقرير أن امتلاك محمد على لهذه الأماكن قد أتاح له فرض ســـيطرته الكاملة على البحر وعلى التجارة العابرة فيه • وكان « ماكنزى » موضوعيا فى تقريره عندما امتدح النظام الجمركى المصرى الذى أدخل فى جدة ومخا ، كما أشاد بالمعاملة الطيبة التى لقيها البريطانيون فى الموانى التابعة للادارة المصرية(٣) •

ولا شك أن محمد على وهو يحقق انتصاراته هذه فى منطقة البحر الأحمر كان يحرص على عدم اثارة بريطانيا ضده ، بل أنه كان يؤكد محافظته على المصالح البريطانية حتى أن « مورسبى » Moresby « قائد السفينة البريطانية

(١) FO., 78/3185, Campbell to F.O., 9/23/37.

(٢) I.O., B. 8. Confidential Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern Shores of the Red Sea, etc., 10th March 1874, pp. 5, 7.
Waterfield, G. : Op. cit., p. 34.
Marston, T.E. : Op. cit., pp. 52, 53.

(٣) F.O., 78/3185, Report of Captain Mackenzie, 6/1/37.
ذكر « ماكنزى » فى تقريره المفصل الذى ارسله لوزارة الخارجية البريطانية انه لم يرقط جمركا اكثر تنظيما من ذلك الذى اقامه محمد على فى جده ، وكذلك فى مخا •

« باليبورس Palinurus » التى كانت تتجول فى البحر الأحمر من السويس الى جدة حينذاك ، قد أبلغ القنصل البريطانى فى مصر بأن استيلاء محمد على على ميناء مخا سيؤدى الى رواج التجارة وأن ذلك الأمر قد تبت فعلا بعد استيلاء محمد على على الساحل الغربى للبحر الأحمر(١) • ومع أن محمد على قـد أكد للبريطانيين أن حملتــه على مخـا لن تلحق أى ضرر بالمصالح البريطانيـة أو بالاتفاقات المعقودة بينهم وبين امام اليمن ، لدرجة أنه كان يبدى استعداده دائما لتقديم كافة التسهيلات اللازمة بما يتفق تماما مع ما تتطلبه المصـالح البريطانية(٢) ، فان بريطانيا كانت تؤكد لمحمد على أنها فى غير حاجة الى أن يستولى على عدن بحجة المحافظة على مصالحها ذلك لأنها ترعى أمورها بنفسها وهى كفيلة بذلك(٣) • بل أنه يلاحظ أن بريطانيا كانت تطلب من محمد على الانسحاب من المناطق التى استولى عليها كلما أمكنها ذلك بوسيلة أو بأخرى ، لتستولى هى عليها أو تنفرد — على الأقل — بالنفوذ فيها •

ولهذا حذرت الحكومة البريطانية محمد على من البقاء فى اليمن أو الاستمرار فى التوسع عندما أرسل « بالمرستون » الى « كامبل » فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨٣٨ رسالة(٤) يطالبه فيها بابلاغ والى مصر أن الحكومة البريطانية يسرها أن ترى القوات المصرية تغادر اليمن ، ليتفرغ محمد على لانشاء نظام ادارى ممتاز فى المنطقة التى يحكمها فعلا بدلا من تكريس جهــوده وثروات الممالك التى يحكمها فى الحملات التوسعية فى المناطق المجاورة(٥) •

وفى نفس الوقت كان الساســة البريطانيون على علم تام بأن روسيا القيصرية كانت تريد فى ذلك الوقت أن تتقدم لتصل الى البحر المتوسط والى الخليج العربى ، كما كانت تتجه أيضا الى محاولة غزو الهند • وقد رأى بعض هؤلاء الساسة البريطانيين ومن بينهم « اللورد بونسونبى Lord Ponsonby » سفير بريطانيا فى الاستانة والقصل « كامبل » فى مصر بأن قوات محمد على يمكن الاعتماد عليها فى صد محاولات التوسع الروسى ، وهى أقدر على ذلك من قوات الباب العالى التركية(٦) • غير أن اللورد « بالمرستون » لم يتقبل وجهات النظر هذه لأنه كان يخشى أن يؤدى الضعف المتزايد للدولة العثمانية الى خطر وقوع الحرب بين القوى الأوربية التى ستتنافس بطبيعة الحال للسيطرة على المناطق التابعة للعثمانيين فى أوربا وآسيا • كما أن « بالمرستون » لم يرد

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 45.

(٢) I.O., B. 209. Confidential, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, p. 2.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 61.

(٤) F.O., 78/342, Palmerston to Campbell, May 24th, 1838.

(٥) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 32, 33.

(٦) F.O., 78/227, Ponsonby to Campbell, May 24, 1833.
F.O., 78/246, Campbell to Ponsonby, August 21, 1834.

للطريقين الرئيسيين للمواصلات بين بريطانيا والهند ، وهما طريقى الخليج العربى والبحر الأحمر ، أن يخضعا لسيطرة حاكم واحد وهو محمد على ٠ وقد اعتقد « بالمرستون » بأن طموح محمد على كان يتركز فى تكوين امبراطورية تضم كل الممالك التى تتكلم اللغة العربية ٠ ولم يكن « بالمرستون » يرى فى ذلك ضررا فى حد ذاته ، ولكن ذلك سيؤدى الى عزل « تركيا » عن المنطقة وهو الأمر الذى لا يمكنه الموافقة عليه(١) ٠

على أن « اللورد بالمرستون » وحكومة الهند البريطانية لم يعترضا على وصول قوات محمد على الى اليمن اذا كان ذلك سيؤدى الى حفظ النظام والى ازدهار التجارة ، ولكنهم اعترضوا بشدة على محمد على عندما أحسوا بأنه يتجه ليحقق طموحه بالسيطرة على عـــدن غربا وعلى البحرين شرقا ٠ وقد رحبوا بحرص محمد على على الابقاء على علاقته الطيبة معهم خاصة عندما طلب من القنصل البريطانى « كامبل » فى يونيو سنة ١٨٣٣ أفادته عما اذا كانت لدى الحكومة البريطانية معارضة (٢) لسيطرته على اليمن (٣) ٠ غير أن ما ضايق « بالمرستون » فعلا هو أن « محمد على » أرسل قواته الى هناك دون أن ينتظر أية اجابة من حكومة بريطانيا ، وهو ماتؤكده الوثائق البريطانية(٤) ٠

وقد وجهت حـــكومة الهند البريطانيـــة الضابط البحرى البريطانى « ستافورد بيتزويرث هينز Commander Stafford Bettesworth Haines » لاجراء عمليات مسح للساحل الجنوبى للجزيرة العربية في مساحة يبلغ طولها خمسمائة ميل بين باب المندب فى الغرب ورأس مصيغة فى الشرق ٠ وقد قاد القبطان « هينز » سفينة المسح « بالينورس Palinurus » ورافقه فى المهمة فريق ممتاز من الضـــباط البريطانيين كان من بينهم « ولستد » و « كروتندن » اللذان يعتبران بحق من أوائل الرواد الانجليز لجنوب الجزيرة العربية ٠ والى«ويلستد» بالذات يعود فضل اكتشاف نقش « حصن الغراب » فى « بير على » وهو النقش الذى أثار رغبة العلماء الأوربيين فى العمل على حل رموزه وبالتالى حل الخط المسند الحميرى ٠ وقد استغرقت عمليات المسح السنوات الأولى من العقد الرابع من القرن التاسع عشر بعد أن بدأت فى عام ١٨٣٠ ٠ وقد طلبت حكومة الهند البريطانية من القبطان « هينز » استطلاع حقيقة الموقف على السواحل اليمنية بعد وصول قوات محمد على الى مخا فى سنة ١٨٣٦ ٠ وقد وصل « هينز » الى مخا حيث علم بأن المصريين يقيمون فى كل الموانى اليمنية الهـامة المطلة على

---

(١) Dodwell. H. : Op. cit., p. 123.

(٢) عبد الحميد البطريق (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٤ ٠

(٣) F.O., 78/227, Campbell to F.O., June 11, 1833.

I.O., B. 209, Confidential, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, p. 1.

(٤) I.O., B. 209. Confidential, Ibid., p. 2.

البحر الأحمر فى ذلك الحين (١) . ولما علم « هينز » بأن محمد على كان يستند فى وجوده باليمن الى الفرمان الذى سبق أن أصدره السلطان العثمانى والمتعلق بتكليفه بالقضاء على الوهابيين ، فقد أوضح هذا الضابط فى مذكرة تاريخية طويلة أن الباب العالى ليس له حق شرعى فى المناطق التابعة لأئمة صنعاء الزيديين الذين آلت اليهم البلاد ثانية بعد جلاء العثمانيين عن بلادهم فى سنة ١٦٣٥ باعتبارهم أصحابها الشرعيين ، مما يفقد محمد على أى شرعية لوجوده فى اليمن حينذاك(٢) .

وعلى أية حال فبينما كانت السفينة « بالينورس » راسية بميناء مخا قام « الدكتور هولتون Dr. Hulton » الضابط الطبيب بالسفينة « كروتندن Cruttenden » الذى سبق أن أشرت اليه ، بعد أن تزيوا بزى عربى ومعهم ستة بغال بالاتجاه الى صنعاء فى يوليو سنة ١٨٣٦ . وقد استغرقت رحلتهم ستة أسابيع صعدوا أثناءها حوالى سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر وتحملوا شدة الحرارة وقسوتها فى هذا الشهر حتى وصلوا الى صنعاء . وقد اخترقوا السهل الساحلى فى تهامة حيث شاهدوا الفلاحين اليمنيين يزرعون أراضيهم ولاحظوا اختلافهم عن قرنائهم فى الجبال الذين كانوا «يحتقرون العمل بالزراعة». وكان سكان تهامة قد ارتضوا حكم المصريين الذى يتفق ومصالحهم فى المحافظة على الاستقرار فلم يتمردوا عليهم أو يقاوموا حكمهم (٣) .

وقد أوضح « الكابتن جيمس ماكنزى » فى تقريره الذى قدمه لوزارة الخارجية البريطانية فى اليوم السادس من يناير سنة ١٨٣٧ والذى سبق أن أشرت اليه ، أنه لا يتوقع أن المصريين سيمكثون فى اليمن مدة طويلة مدعيا أنهم كانوا مكروهين هناك الى حد بعيد ، وأن العرب أصحاب البلاد الأصليين كانوا يرغبون فى نيل حريتهم(٤) . على أن هذا الرأى مجانب للصواب بالنسبة لسكان تهامة اليمن على وجه الخصوص نظرا لأن نظام الادارة الذى وضع المصريون أساسه فى تلك المنطقة التى استقروا فيها لم تنعم بمثله من قبل وخاصة فى ظل حكم أئمة صنعاء الضعاف الذين لم يكونوا قادرين على المحافظة على الأمن والاستقرار هناك مع وجود الاختلافات المذهبية والمنازعات القبلية المستمرة . ومما يؤكد تقدير اليمنيين لنظام الادارة المصرية ما سبق أن أشرت

---

(١) Marston, T E. : Op. cit., p. 44.

(٢) I. O., B. 209, Confidential, Abstract of correspondence and memorandum respecting the Yemen, January 1873, pp. 1, 2.

(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 34.
Journal of an Excursion to Sanaa the Capital of Yemen, by C. R. Cruttenden, Transactions of the Bombay Geographical Society, August 1838 to May 1839. Vol. II, Article I, V.

(٤) F. O., 78/3185, Report of Captain Mackenzie, January 6, 1937.

اليه من رغبة اليمنيين فى الانضمام الى « الحكومة العربية المصرية » بعد جلاء الترك عن بلادهم فى نهاية الحرب العالمية الأولى (١) ٠

وعلى أية حال فبعد أن وصل النفوذ المصرى فى الجزيرة العربية الى أقصى مداه فى عهد محمد على وأصبح يهـــدد المصالح البريطانية فى البحر والخليج العربى ، كان على بريطانيا أن تبذل قصارى جهدها لتصفية هذا النفوذ حفاظا على أهم طريقين لمواصلاتها الامبراطورية الى الهند ٠ كما كان عليها أيضا أن تؤمن هذين الطريقين من أية أخطار أجنبية تهدد مصالحها خاصة بعد أن لمست المحاولات المعادية التى قامت بها فرنسا فى هذا المجال ، فضلا عن الدور الذى كانت تقوم به أيضا روسيا القيصرية فى نفس الوقت لمنافسة بريطانيا ، بل وبعد أن ظهرت بالاضافة الى ذلك بوادر التطلع الأمريكى لاحتكار جزء من تجارة الشرق ، وهو ما بدا واضحا بالنسبة لتجـــارة البن اليمنى (٢) ، على وجه الخصوص ٠

على أن احتلال البريطانيين لعدن فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ بكل الظروف التى سبقته والحوادث التى صاحبته ــ وهو ما سوف نتناوله بالدراسة والتحليل فى الفصل التالى ــ ســيمثل الانطلاقة الفعلية لتنفيذ سياســة البريطانيين الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر بأكملها ٠ ذلك لأن بريطانيا أصـبحت تهدف الى تثبيت النفوذ البريطانى فى النقط الهامة عند المدخل الجنوبى لهذا البحر من جهة ، والى تقوية نفوذها فى مصر التى تتحكم فى المدخل الشمالى للبحر الأحمر من جهة أخرى ، هذا فضلا عن مناهضتها المستمرة لأى نفوذ محلى أو أجنبى يشكل خطرا على مصالحها الحيوية فى هذا الممر الملاحى البحرى الهام ٠

---

(١) صلاح الدين البكرى اليافعى : المصدر السابق ، ص ١٦ ٠

(٢) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 30, 31.

الفصل
الثاني

سيطرة بريطانيا على عدن لحماية مصالحها في البحر الاحمر في عام ١٨٣٩

استعرضنا فى الفصل السابق الأوضاع القائمة فى منطقة البحر الأحمر منذ مطلع العصور الحديثة وحتى قبيل احتلال البريطانيين لعدن فى سنة ١٨٣٩ • وقد رأينا كيف تعرضت هذه المنطقة لمحاولات الغزو الأوربى بواسطة البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والبريطانيين ، وكيف واجه أهالى البلاد الأصليون هذه الموجات المتتالية مستعينين بالمماليك تارة وبالعثمانيين تارة أخرى • كما أنهم وجدوا أخيرا قوات مصر فى عهد محمد على تحاول أن تقيم نظاما متقدما للادارة فى بعض الأماكن التى استقرت فيها فى نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر كمنطقة تهامة فى اليمن على مقربة من عدن ، مما جعلهم يستحسنون الارتباط بمصر ويفضلون تبعيتهم لحكومتها ، واستمر موقفهم هذا من المصريين حتى أوائل القرن العشرين على نحو ما أبداه بعض اليمنيين عندما استقلت بلادهم عن الدولة العثمانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى (١) •

على أن بريطانيا التى أصبحت لها مصالح بالغة الأهمية فى الهند كانت تخشى من سيطرة محمد على على طريقى مواصلاتها عبر الخليج العربى والبحر الأحمر على السواء بما يهدد مصالحها الحيوية • ولهذا فقد تصدت بريطانيا لمواجهته وعملت على وقف تطلعاته التى تهدد كيانها الاستعمارى فى المنطقة • وفى نفس الوقت أيضا حدث تطور خطير فى صناعة السفن باستخدام السفن البخارية ، مما استلزم توافر محطات لتزويدها بالفحم فى مواقع متوسطة على الطرق الملاحية • هذا فضلا عن ظهور المنافسة التجارية الأمريكية من جهة ، ومنافسة الدول الكبرى من جهة أخرى وخاصة فرنسا وروسيا القيصرية والنمسا التى شكلت فى مجموعها تهديدا للمصالح البريطانية فى منطقة البحر

(١) صلاح الدين البكرى اليافعى : فى جنوب الجزيرة العربية ، ص ١٦ •

الأحمر • وقد فرض ذلك التهديد على بريطانيا ضرورة التصدى للمواجهة من موقع يمكنها من التحرك وتتوفر فيه كافه المقومات الاقتصادية والاستراتيجيه التى تحقق لها مصالحها فى المنطقة • وقد رأت بريطانيا أن ذلك الموقع هو ميناء عدن الهام ، بعد أن أكدت تقارير خبرائها صلاحيته وأهميته ، مما جعلها تصمم على السيطرة عليه مهما كلفهما الأمر • وســـــوف نستعرض فيما يلى دوافع البريطانيين المختلفة للسيطرة على عدن مما جعلهم يتبعون كافة أساليب الضغط السياسى والحربى حتى استنفدت أغراضها دون جدوى ، ولم يجدوا أمامهم أخيرا سوى الهجوم على عدن والسيطرة عليها بالقوة على نحو ما حدث فعلا •

اولا ــ دوافع البريطانيين المختلفة للسيطرة على عدن :

كان للبريطانيين دوافع متعددة للسيطرة على عدن فى سنة ١٨٣٩ ، وهى دوافع متشابكة ترتبط بالمصالح الاقتصادية والاستراتيجية والقومية لبريطانيا فى ذلك الحين • واذا كنت قد أوضحت فى الفصل الأول قلق بريطانيـــا من سيطرة محمد على على طريقى مواصلاتها الى الهند عبر الخليج العربى والبحر الأحمر ، الأمر الذى تطلب منها البحث عن مركز يمكنها من التصدى له ووضع حد لتطلعاته ، وأنها اهتدت الى أن عدن هى أنسب موقع لتحقيق هدفها (١) ، فقد كان هناك دافع آخر يجذب بريطانيا الى ذلك الميناء الهام وهو استخدامه محطة للفحم لتموين السفن البخارية البريطانية بعد التطور الصناعى الذى نتج عنه استبدال السفن الشراعية بهذا الاختراع الجديد فى الملاحة البحرية مما يوفر الكثير من الوقت والجهد والمال •

★ ★ ★

فمنذ أدرك البريطانيون أن حياتهم كأمة متقدمة تعتمد أساسا على كفاءتهم البحرية ، فانهم لم يدخروا وسعا فى جعل بحريتهم أولى البحريات الكبرى فى العالم ، وقد نجحوا فعلا فى أن يصبحوا أقوى دولة بحرية منذ أواخر القرن الثامن عشر • واذا كان أخطر تطور فى تاريخ السفن البحرية وفنون بنائها قد حدث فى القرن الثامن عشر عندما استخدم الحديد لأول مرة فى بنائها فقـد أعقب ذلك استخدام البخار فى تحريكها بغير اعتماد على الرياح ، الأمر الذى أحدث تغيرا شاملا فى نظام المواصلات البحرية فى العالم • اذ بعد أن قام العالم الاسكتلندى « جيمس وات James Watt » باستخدام قوة بخار الماء كقوة دافعة فى أواخر القرن الثامن عشر ، واخترعت الآلة البخارية واستخدمت مدة ليست بالقصيرة على البر ، فان المخترعين قد فكروا فى استخدام طاقة البخار لتشغيل آلات السفن التى تحركهـــا فى البحر (٢) • ومع نهـــاية الحروب

---

(١) F.O., 78/321, Campbell to F.O., 11/1/37.

(٢) Graham, G.S. : Great Britain in the Indian Ocean, 1810—1850, pp. 291 292.

النابليونية كانت القوارب البخارية تبحر فى الأنهار والقنوات البريطانية (١) وبعد مضى سنوات قليلة انتظمت هذه القوارب والسفن البخارية فى رحلات مستمرة عبر القنوات والأنهار البريطانية والايرلندية (٢) · بل انها استخدمت فى المياه القريبة من سواحل البحار فى بداية الأمر (٣) · ثم استخدمت أخيرا فى عرض المحيطات مع تطور صناعتها وتقدمها وتنوعها ما بين سلمية وحربية (٤) ·

وقد رأى رجال التجارة والاقتصاد والحرب وكثير من الساسة البريطانيين فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر أن استخدام البخار فى تسيير السفن التى تقوم برحلاتها من الهند الى السويس عبر البحر الأحمر (٥) وتلك التى تبحر من الاسكندرية عبر البحر المتوسط لتصل الى بلدان أوربا والموانى البريطانية ، سيوفر الكثير من الوقت والجهد والنفقات ، وبدأوا يميلون لتحقيق هذا المشروع ·

على أن الكثير من العقبات كانت تقف فى سبيل استخدام البواخر فى الرحلات الطويلة بصفة عامة ، أهمها ما كانت تستلزمه من تكاليف باهظة ، الى جانب الشك الذى كان يخامر الكثيرين فى مقدرة السفن البخارية على مواصلة الرحلات الطويلة الى نهايتها · كما أنه فى بداية استخدام البخار كانت الغلايات والأنابيب تنفجر من الماء المالح عند غليانه وتحطم عجلات القيادة فى وقت لم يتوفر فيه العدد اللازم من الفنيين والاخصائيين · ونظرا لأن السفن كانت تستنفد كميات كبيرة من الفحم فى الرحلات القصيرة ، فلا شك أنها كانت تحتاج فى الرحلات الطويلة الى كميات أكبر من الفحم قد تملأ فراغ السفينة كله ، والا كان يلزم أن تتبعها سفن شراعية تحمل حاجتها من الفحم · هذا فضلا عن وقوفها أثناء الرحلات الطويلة عدة مرات لضبط الماكينات واجراء الاصلاحات المستمرة اللازمة (٦) ·

ولكن استخدام السفن البخارية قد أثبتت التجارب رجاحة كفته ، خاصة بعد أن بدأ المهندسون يطورون آلات السفينة البخارية بحيث تحقق أكبر قدر

---

(١) Ashton, T.S. : The Industrial Revolution, pp. 3 4

ـ اشتن ، ت · س · : الانقلاب الصناعى فى انجلترا (١٧٦٠ ــ ١٨٣٠) ترجمة احمد محمد عبد الخالق وراجعه دكتور خيرى عيسى ص ٤ ·

(٢) Journal of Indian History, II, « The Growth of British Interest in the Route to India », by H.L. Hoskins, Tufts Coll Mass., U.S.A., p. 173.

(٣) Marston, T.E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, 1800—1878. p. 41.

(٤) محمد عمرى عقيل (دكتور) : تطور تصميم السفن واشكالها عبر التاريخ ، محاضرة عامة نشرتها جامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٥٦ ، ص ١٢ ــ ٢٠ ·

(٥) Waterfield, G. : Sultans of Aden, p. 17.

(٦) Hoskins, H.L. : British Routes to India, p. 125.

من السرعة وأقل قدر من التكاليف • وحتى يمكن استخدام السفن البخارية فى رحلات طويلة ، فان الأمر كان يستلزم توفير الموانى المختلفة للتموين بالفحم والمياه فى أماكن عديدة متقاربة على طول الطرق البحرية المعروفة حينذاك (١) •

وكان طريق رأس الرجاء الصالح فى مطلع القرن التاسع عشر طريقا عقيما لا يساير الثورة الاقتصادية فى ظروف زادت فيها العلاقات التجارية والسياسية بين أوربا والشرق ، وهى تستلزم بالضرورة الاتصال السريع • فقد كانت الرحلة عبر هذا الطريق تستغرق من لندن الى بومباى نحو أربعة أشهر أو أكثر يلاقى فيها الملاحون أهوالا من قسوة الجو والبحر • وحتى اذا كان الابحار طوال هذا الطريق باستخدام السفن البخارية الجديدة فان الرحلة كانت تستغرق قرابة شهرين بدلا من أربعة • (٢) على أن ثمة ميزة وحيدة للطريق الطويل حول رأس الرجاء الصالح تتركز فى أنه كان طريقا آمنا من الناحية السياسية •

غير أن حملة بونابرت على مصر فى سنة ١٧٩٨ جعلت بريطانيا تقدر قيمة اتصالها بالهند بالطريق القصير عبر البحر الأحمر (٣) • ولكى تحقق بريطانيا هدفها فقد قررت منحا مالية كبيرة لتشجيع المحاولات التى تقوم بها الشركات الملاحية لمحاولة تسيير السفن البخارية عبر البحرين المتوسط والأحمر بين الموانى البريطانية والهند • وكانت حركة الملاحة والتجارة فى هذا الطريق قد ضؤل شأنها وكسدت سوقها حتى كادت تنعدم اثر كشف أمريكا واستخدام الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح • وقد قررت حكومة الهند أن تغتنم الفرصة فتحيى هذا الطريق على أن تستخدم فى عبوره السفن البخارية (٤) فيبدأ الطريق من غرب أوربا الى الاسكندرية ومن رشيد قرب الاسكندرية بطريق النيل الى القاهرة ثم من القاهرة عبر الصحراء الشرقية بالقوافل الى السويس ومنها بالبواخر عبر البحر الأحمر وبحر العرب الى الهند • ولم يكن اتخاذ هذا الخط ليستغرق فى ذلك الوقت أكثر من أربعة أسابيع لتتم الرحلة بين غرب أوربا والهند (٥) •

وقد لعبت الصحافة البريطانية والهندية دورا هاما فى تزكية الاهتمام

---

(١) Journal of Indian History, II, Op. cit., p. 174.

(٢) P.P., 1834, No. 478, pp. 1, 75, 115.

كان يمكن الوصول من انجلترا الى الهند بواسطة السفن الشراعية بعد ١١٣ يوما ، بينما كان يمكن تحقيق ذلك بواسطة السفن البخارية بعد ٦٤ يوما فقط ، وذلك عبر طريق راس الرجاء الصالح •

(٣) Graham, G.S. : Op. cit., p. 286.

(٤) Journal of Indian History, II, Op. cit., pp. 174, 175.

(٥) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد الاول ، الصادر فى القاهرة فى ٦ مارس ١٩٦٩ مقال بقلم الاستاذ محمد رفعت بعنوان « سباق بين مصر وبريطانيا على عدن فى عام ١٨٣٨ » ص ٢٠٦

بالطريق الملاحى عبر البحر الأحمر الذى يشكل قناة طبيعية واسعة تمتـــد للشمال حتى تكاد تلتقى بالبحر المتوسط فيسهل بذلك الاتصال بين القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقيا (١) ٠ وقد وجدت هذه الدعوة استجابة لدى كثير من الشركات والأفراد الذين بذلوا محاولات عديدة لازالة العقبات التى تعترض وجود خط ملاحى بخـــارى منتظم بين الهند وبريطانيـــا عبر البحر الأحمر والمتوسط ٠ غير أن نجاح هذا المشروع كان يتطلب انتظاما فى مراحله المختلفة التى تبدأ بالوصول من الهند الى السويس عبر البحر الأحمر ، ثم من السويس الى الاسكندرية برا ، ثم من الاسكندرية عبر البحر المتوسط الى جزيرة مالطة ومنها الى جبل طارق ، ومن جبل طارق حتى الموانى البريطانية ٠

بل ان مناقشات كثيرة قد أثيرت فى مجلس العموم البريطانى حول هذا الموضوع فى سنة ١٨٣٤ (٢) على وجه الخصوص وكانت الحركة الداعية من أجل تسيير خط ملاحى بخارى آخذة فى النمو حتى تشكلت لجنة فى مجلس العموم البريطانى فى تلك السنة لرعاية هذا المشروع ٠ وقد أكدت هذه اللجنة الأهمية البالغة التى تعلقها بريطانيا والهند على هذا المشروع خاصة وأنه قد تحقق فعلا فى نهرى دجلة والفرات وتم استخدام الزوارق البخارية للعبور فيهما لربط البحر المتوسط بالخليج العربى (٣) ٠ وانتهى البحث الى اتفاق على الرأى القائل بأنه وان كان انشاء خط ملاحى بخارى عبر البحر الأحمر وبريطانيا سيحمل دافعى الضرائب من البريطانيين عبئا أكبر الا أن مثل هذه المواصلات السريعة مع الشرق ستحل كثيرا من مشكلات الادارة وستخدم المصالح البريطانية فى الهند ٠ ولهذا قرر المجلس بأنه يجب البدء على وجه السرعة فى بحث موضوع انشاء اتصال بحرى منتظم بواسطة السفن البخارية بين بريطانيا والهند عبر البحر الأحمر (٤) ٠

وهكذا اتجهت الحكومة البريطانية الى عمل الترتيبات اللازمة لايجـــاد خط ملاحى منتظم عبر البحر الأحمر بواسطة السفن البخارية بعد أن لقى هذا الاتجاه تأييدا كافيا لدى عدد كبير من الشركات والأفراد وأقره مجلس العموم البريطانى ٠ (٥) بل ان عددا غير قليل من الشركات الفرنسية أصبحت هى الأخرى لها بواخر بين ميناءى مرسيليا والاسكندرية مما يؤكد أن الفرنسيين أيضا كانوا يهتمون بتنشيط الخط المـــلاحى الى الشرق عبر البحر الأحمر ويعملون على انتظامه ٠ ولا شك الدول المهتمة بالطريق البحرى عبر البحر الأحمر قد ارتبطت

(١) Hoskins, H.L. : Op. cit., (B.R.I.), p. 41.
(٢) H.P.D., Subjects of Debates in the House of Commons, 1834.
(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 23.
(٤) Hoskins, H. L. : Op. cit., (B.R.I.), p. 125.
(٥) Journal of the House of Commons, Vol. 89, p. 487.
Journal of Indian History, II, Op. cit., p. 175.

منذ ذلك الحين بسياستها فى البحر المتوسط وذلك نظرا للرابطة الطبيعية التى تربط بين هذين الطريقين الملاحيين ٠

وهذا يدعونا الى التساؤل عن مركز بريطانيا فى البحر المتوسط الذى أصبح أكثر قوة خاصة بعد الحروب النابليونية ٠ على أننا نجد أن بريطانيا تمكنت من وضع يدها على عدة مواقع استراتيجية هامة فى هذا البحر مثل جبل طارق ومالطة مما جعلها تحرص كل الحرص على الاحتفاظ لنفسها بالسيادة البحرية فيه (١) ٠ واذا كانت بريطانيا قد نجحت فى مواجهة المنافسة البحرية الفرنسية فى البحر المتوسط أثناء الحروب النابليونية فانها كانت تحرص كل الحرص أيضا على ألا تنفذ روسيا هى الأخرى الى البحر الأسود ومنه الى البحر المتوسط ٠ ولذا فقد لقى موقف بريطانيا من الثورة فى اليونان نقدا عنيفا من الساسة البريطانيين بعد أن تحطم الأسطول العثمانى المصرى فى موقعة « نفارين Navarin » فى سنة ١٨٢٧ ، اذ أنهم اعتبروا أن ما حدث ليس هزيمة للأسطول العثمانى المصرى فحسب ، بل هزيمة غير مباشرة للأسطول البريطانى ذاته ٠ بل ان أحد الكتاب البريطانيين علق على هذه الموقعة بقوله : ان بريطانيا ساعدت الروس والفرنسيين على تحطيم قوة العثمانيين البحرية فى هذه الموقعة ، وهذا بلا شك ليس فى مصلحتها لأن روسيا وفرنسا كانتا مصممتين على تخليص اليونانيين من قبضة العثمانيين ٠ وأضاف الى ذلك أنه من المعروف أن كلا الجانبين الروسى والفرنسى يبغيان تحطيم قوة العثمانيين لكى ينفتح أمامهما الطريق البحرى الى الهند (٢) ٠

ولا شك أن بريطانيا كانت تخشى أن يمتد النفوذ الروسى الى القسطنطينية أو العراق وايران ، مما يهدد المواصلات البريطانية مع الشرق من طريق آخر (٣) ٠ ومن هنا زاد اهتمام البريطانيين أيضا بالخليج العربى وبالمنطقة المحيطة به ٠ (٤) أما بالنسبة لفرنسا فقد حاولت أن تجد لها منفذا جديدا بعد المواجهة القوية التى واجهتها من اصرار بريطانيا على الاحتفاظ لنفسها بالسيادة البحرية فى البحر المتوسط ٠ ولهذا فان فرنسا دخلت الميدان من باب آخر عندما احتلت الجزائر فى سنة ١٨٣٠ (٥) ٠

ولقد حدث ذلك عندما ادعت فرنسا فى سنة ١٨٢٧ أن عدة اهانات قد

---

(١) A Red Book on Gibraltar, issued by the Spanish Government, Madrid, 1965, pp. 14, 15.

(٢) Hoskins, H. L. : Op. cit., (B.R.I.), p. 133.

(٣) I.O., Home Miscellaneous, 841, Robert Grant's Letter to the President of the Board of Control of the East India Company on 27 February 1838. pp. 155, 156.

(٤) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, p. 460.

(٥) **حسن صبحى** (دكتور) : التنافس الاستعمارى الاوربى فى المغرب ، ١٨٨٤ — ١٩٠٤ ص ١٦ ٠

أصابت العلم الفرنسى بالجزائر ، مما جعلها تقطع علاقاتها الدبلوماسية معها واتخذت خطوة حاسمة فى سنة ١٨٣٠ باعدادها اسطولا حربيا لتحطيم الحصون الساحلية فى الجزائر تمهيدا لاحتلالها • ولا شك أن هذه الاستعدادات الفرنسية قد أحدثت قلقا شديدا فى بريطانيا وأصبحت حساسية البريطانيين شديدة بكل شىء يتعلق بالملاحة فى البحرين المتوسط والأحمر • والدليل على ذلك أن وزارة الخارجية البريطانية أرسلت الى سفيرها فى باريس تعبر عن قلقها من أن القوة الضخمة التى كانت على وشك الاقلاع ، والتصريحات التى بدت فى حديث الملك « شارل » العاشر كان يبدو أنها تدل على أن النية متجهة الى تحطيم قوة الجزائر نهائيا بدلا من تاديبها فحسب • وأشارت وزارة الخارجية البريطانية الى أن هذا الاتجاه المحتمل فى بقعة ذات أهمية جغرافية كالجزائر لا يمكن للحكومة البريطانية أن تتجاهله ويحتاج الى تفسير أكثر عن نيات الحكومة الفرنسية الحقيقية • وقد أعربت وزارة الخارجية البريطانية لسفيرها فى باريس عن أملها فى أن الاتحاد والتضامن بين الحكومتين البريطانية والفرنسية يجعل البريطانيين يأملون فى الحصول على توضيح موثوق به من الحكومة الفرنسية فى مسألة حيوية تمس مصالح الطرفين وقد يتمخض عنها أهم النتائج فيما يختص بالعلاقات التجارية والسياسية بين بلدان البحر المتوسط (١) •

واذا كان يبدو أن مسألة الجزائر لاتؤثر فى المصالح البريطانية المتصلة بالبحر الأحمر والهند تأثيرا مباشرا ، فالحقيقة أن هذه المسألة أدت الى أن تركز بريطانيا اهتمامها بمصالحها فى طريق البحر الأحمر ، خاصة وأن فرنسا قد حاولت من قبل أن تطعن المصالح البريطانية ، بالاستيلاء على مصر التى تتحكم فى هذا الطريق من الشمال • وقد استطاعت فرنسا أن تضرب ضربة واحدة اقتطعت بها جزءا هاما من الامبراطورية العثمانية ، وأصبحت تحتل مساحة واسعة على جانبى البحر المتوسط تمهيدا لتحويله الى بحيرة فرنسية ، بل انه من جهة أخرى ازداد النشاط الروسى لجعل البحر الأسود بحيرة روسية • الأمر الذى جعل من المحتم على بريطانيا ازاء هذا النشاط الفرنسى والروسى أن تخطو خطوات حاسمة تعيد بها التوازن الدولى الى نصابه •

ولهذا اتجهت بريطانيا الى احياء طريق البحر الأحمر حفاظا على مصالحها مما اضطرها الى أن توثق علاقاتها بالضرورة مع محمد على الذى يسيطر على الطريق البرى من السويس الى الاسكندرية • وقد بعثت بريطانيا اليه فى سنة ١٨٢٩ مندوبا من قبلها ليتفق معه على الشروط التى يرتضيها لاستخدام هذا الطريق فى نقل السياح والبريد • واهتم محمد على باحياء هذا الطريق وسلامة اجتيازه لأنه كان ببصيرته التجارية النافذة يقدر مدى نفعه لمصر وللدول الأوربية وخاصة بريطانيا • فضرب بيد من حديد على العابثين بالأمن من قطاع

(١) Hoskins, H.L. : Op. cit. (B.R.I.), p. 138.

الطرق فى المنطقة وشيد النزل على طول الطريق وأقام أبراجا للرقابة وتلقى الرسائل العاجلة • بل ان «محمد على» حفر ترعة المحمودية لتصل بين الاسكندرية والنيل رأسا بدلا من الابحار من رشيد ، كما أنشأ فى سنة ١٨٣٧ مصلحة خاصة تعنى بشئون الطريق البرى وبالبريد •

وقد وقفت الحكومة البريطانية حينذاك حائرة تريد أن تبرم اتفاقا مع محمد على تضمن به استمرار سريان هذه الخدمة لأهم طريق فى مواصلاتها الى الهند ، وحتى تضمن أيضا انتظامه فى أدائها • وكانت بريطانيا تخشى فى نفس الوقت ان هى أقدمت على ابرام معاهدة مع محمد على أن تغضب الدولة العثمانية نظرا لما ينطوى عليه ابرام المعاهدة من اعتراف باستقلاله • والدليل على ذلك أن وزير خارجية بريطانيا حينذاك « لورد أبردين Lord Aberdeen » كتب الى القنصل البريطانى فى مصر يقول : «لقد كان من أعز أمانى حكومة جلالة الملكة طوال السنين الاخيرة ان تنظم ادارة خاصة ومأمونة لنقل البريد الخاص بالهند. ومع ان الحكومة راضية تمام الرضا عن الطريقة التى تتبع فى ادارة هذه المصلحة من حيث توافر عنصر الأمان ومراعاة الدقة فى مواعيدها ، فاننا لانستطيع ان نفاوض محمد على رأسا ونبرم معه معاهدة رسمية حتى لا يعد هذا نوعا من الاعتراف باستقلال محمد على عن تركيا » (١) •

على أن الحكومة البريطانية رأت تفاديا للحرج وحرصا على علاقتها بالباب العالى أن يتم الاتفاق ليس بينها وبين حكومة محمد على ، وانما بين مدير البريد البريطانى ورئيس مصلحة الطريق البرى المصرى وهو اذ ذاك موظف يدعى عبد الباقى بك • وقد أبرم الاتفاق فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٤٤ على أن تتقاضى المصلحة المصرية أربعين قرشا عن كل رطل انجليزى من البريد ، واثنى عشر جنيها عن رحلة الفرد من الاسكندرية الى السويس ، وتسعة جنيهات عن الرحلة من القاهرة الى السويس (٢) •

كما أن حكومة الهند البريطانية ــ أو بالأحرى حكومة بومباى التى كان يهمها انجاز الخط الملاحى التجارى المعتمد على السفن البخارية بين الهند وبريطانيا ــ قد أبدت اهتماما كبيرا بالبحث عن مراكز ومحطات لتكون مخازن للفحم تمون منها السفن البريطانية العابرة لطريق البحر الأحمر (٣) • وكان حاكم بومباى حينذاك « مونت ستيوارت الفنستون Mountstuart Eliphinstone » قد شجع القيام بهذا العمل اقتناعا منه بما سيعود على البريطانيين من فوائد

(١) F.O., Turkey (Egypt) Aberdeen to Barnett, 13 August 1844.

(٢) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد الاول ، القاهرة مارس سنة ١٩٦٩ المقال السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣) F.O., 78/194, Bombay, Main Department, London 2/13/29.
Marston, T.E. : Op. cit., p. 41.
Journal of Indian History, II, Op. cit., p. 175.

وتوفير للجهد والوقت والمال · وقد سانده فى ذلك التجار البريطانيون والهنود الذين كونوا « لجنة بومباى للملاحة البخارية Bombay Steam Committee (١) ، كما أيدته أيضا الأعداد المتزايدة من الموظفين والجنود البريطانيين فى بومباى وغيرهم ممن طالبوا بتحسين الخدمات من ناحية توصيل البريد والصحف التى كانت تتأخر نتيجة لوصولها عن طريق رأس الرجاء الصالح وبواسطة السفن الشراعية ·

غير أنه نظرا لصعوبة الحصول على الأيدى العاملة فى عدن حينذاك نتيجة لقلة عدد السكان فضلا عن تراخيهم فى القيام بعمليات نقل الفحم (٢) لدرجة استغرقت معها عملية شحن احدى السفن بمائة وثمانين طنا من الفحم ستة أيام كاملة ، على الرغم من تعهد سلطان لحج وعدن بتقديم المساعدات الممكنة فى هذا السبيل ، فقد أدى ذلك الى اتجاه البريطانيين لاستخدام ميناءى مخا والمكلا اللذين يشكلان المنفذين الطبيعيين البحريين لمنطقتى تهـــامة وحضرموت على التوالى ، وذلك لتكونا محطتين ومخزنين لتموين السفن البريطانية البخـــارية العابرة بكميات الفحم والميـــاه اللازمة لها (٣) · وكانت وفرة الأيدى العاملة نسبيا فى ميناء المكلا اليمنى ، فضلا عن بعد المسافة نسبيا أيضا بين بومباى وعدن عن المسافة بين بومباى والمكلا فى وقت كانت فيه السفن البخارية فى بداية تطورها الصناعى ، فان ذلك كله كان من العوامل التى أخرت بصفة مؤقتة التركيز على استخدام عــدن كمركز ومحطة ومخزن لتموين البواخر البريطانية بكميات الفحم اللازمة لها · وهكذا اعتبرت ميناء المكلا فى حضرموت هى الميناء الأفضل حينذاك لتحقيق الأهداف البريطانية فى هذا السبيل (٤) · خاصة وأن مجلس المديرين المسئول عن شركة الهند الشرقية فى لندن The Court of Directors of the E. I. C. يشجع حتى ذلك الوقت استخدام طريق رأس الرجاء الصالح لتفادى التعرض لخطر القبائل العربية عند المرور فى مياهها أو أراضيها ، أو التعرض للأمراض التى كانت منتشرة فى بلاد الشرق حينـــــذاك كمرض الكوليرا (٥) ·

على أن اهتمام بريطانيا قد تزايد منذ ذلك الحين بالساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية من ناحية امكانية اتخاذ أحد المراكز الواقعة عليه لتكون محطة أو مخزنا للفحم لتزود السفن البريطانية · ولم يفضل البريطانيون اتخاذ موقع على ساحل البحر الأحمر ذاته نظرا للقيود التى كانت تفرضها الدولة العثمانية على وصول السفن البريطانية والأجنبية بوجه عام الى الموانى القريبة من الأماكن

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 17.

(٢) Marston, T. E. : Op. cit., p. 64.

(٣) Graham, G. S. : Op. cit., p. 290.

(٤) Jacob, H. F. : Kings of Arabia, p. 28.

(٥) Waterfield, G. : Op. cit., p. 17.

الاسلامية المقدسة • كما لم يفضل البريطانيون أيضا اتخاذ موقع آخر على الخليج العربى نظرا لأعمال القرصنه التى كانت تقوم بها بعض القبائل العربية مما كان يعرض السفن البريطانية فى الخليج لكثير من المخاطر (١) •

وقد بدا موقع عدن الممتاز فى منتصف المسافة بين بومباى والسويس (٢) الى جانب وقوعها على خليجها المتميز بهدوئه والذى يتيح لها امكانية استقبال السفن وتامينها تامينا كاملا أثناء القيام بعمليات التفريغ والشحن خلال جميع فصول السنة • وقد أكدت رحلة السفينة البخارية البريطانية « هيولندساى Hugh Lindsay » صلاحية الطريق الملاحى البحرى بين بومباى والسويس لرحلات السفن البخارية من ناحية توفير الوقت والجهد والنفقات بشكل ملحوظ (٣) • وكانت هذه السفينة قد أبحرت من بومباى فى ٢٠ مارس سنة ١٨٣٠ وهى محملة بالفحم ويقودها الضابط البحرى « جون ويلسون Commander John Wilson » فوصلت الى عدن فى ٣١ مارس ، ثم وصلت الى السويس فى ٢٢ أبريل من نفس السنة • أى أن رحلتها استغرقت ٣٢ يوما و ١٦ ساعة بما فيها فترات الرسو بالموانى المذكورة ، مما اعتبر نجاحا كافيا لفكرة استخدام السفن البخارية عبر طريق البحر الأحمر ، الذى بدت فيه عدن بكل مميزاتها الطبيعية كميناء ممتاز يقع فى منتصف المسافة بين بومباى والسويس (٤) •

ولهذا قامت حكومة الهند البريطانية ــ كما سبق أن أشرت الى ذلك فى نهاية الفصل الأول ــ بتكليف الضابط البحرى البريطانى « ستافورد بيتزويرث هينز » (١٨٠٢ ــ ١٨٦٠) للقيام بعملية مسح جغرافى للساحل الجنوبى للجزيرة العربية • وقد وقع الاختيار على « هينز » نظرا لما عرف عنه من نبوغ ولباقة وحزم أثناء خدمته الطويلة فى البحرية الهندية تحت اشراف « سير تشارلز مالكولم Sir Charles Malcolm » الذى كان مسئولا عن الأسطول الهندى فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٢٧ ــ ١٨٣٨ ، وقام أثناءها هذا الأسطول بعمليات المسح الجغرافى للمحيط الهندى وبحار الصين والخليج العربى والبحر الأحمر وسواحل افريقيا وجنوب الجزيرة العربية (٥) •

---

(١) Hoskins, H. L. : Op. cit., (B.R.I.), pp. 108, 112.

(٢) Graham, G. S. : Op. cit., p. 290.

(٣) F. O., 78/202, Barber to F. O. 1/17/34.
Marston, T. E. : Op. cit., p. 42.
Journal of Indian History, II, Op. cit., p. 176.

(٤) Waterfield, G. : Op. cit., p. 18.
Low, C. R. : History of the Indian Navy, Vol. II, pp. 68, 94.

(٥) Waterfield, G. : Op. cit., p. 19.
التحق « ستافورد بيتز ويرث هينز » بشركة الهند الشرقية ليتدرب فيها فى مطلع شبابه حيث كان يقيم بانجلترا • وقدرشحه « جون انجلز John Inglis » وهو احدى مديرى هذه الشركة ليلتحق بالعمل بها • وقد عين « هينز » بالشركة فى شهر ديسمبر سنة ١٨١٧ وابحر =

وقد أبحر « هينز » على ظهر السفينة « بالينورس Palinurus » فى مطلع سنة ١٨٣٤ بناء على هذا التكليف من قبيل حكومة بومباى ، وقام بعملية مسح جغرافى للساحل الجنوبى للجزيرة العربية ، حيث اعتبر جميع المراكز الواقعة على هذا الســـاحل (١) ، كما قاس أعماق البحر كافة أجزائه بتلك المنطقة ، ورسم عدة خرائط هامة أوضح عليها أسماء المواقع المختلفة باللغتين العربية والانجليزية (٢) وشمل هذا المسح مسافة خمسمائة ميل تقريبا (٣) وقد مهد هذا العمل العلمى بطبيعة الحال لسيطرة البريطانيين على عدن والمنطقة المحيطة بها خاصة وأن هذا المسح الجغرافى قد لفت انظار البريطانيين الى مميزات وأهميتها لتحقيق المصالح البريطانية ٠

على أن مينائى مخا والمكلا قد اســتعملتا كمحطتين لتمـــوين البواخر البريطانية بالفحم عندما كانت هذه البواخر لا يمكنها قطع مسافات طويلة ، وكانت عمليات تزويدها بالفحم اللازم تقتضى وجـــود محطات متتالية وعلى مسافات متقاربة ٠ ومن هنا فان عدن لم تكن موضع اعتبار الكثيرين كمخزن ومحطة لتزويد السفن بالفحم حتى سنة ١٣٨٠ (٤) ٠ بل ان المكلا فى ذلك الحين كانت تعد الميناء التجارى الرئيسى على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية ، وكانت أقرب الى بومباى من عدن بمسافة ٢٥٠ ميلا تقريبا (٥) ٠ غير أن بعد

= فى نفس السنة الى الهند على ظهر الســـفينة البريطانيـــة « ذوق يـورك Duke of York » وبالتحاقه بالأسطول البحرى فى بومباى أصبح أحد صف ضباط Midshipman تلك السفينة فى شهر مايو سنة ١٨١٨ ٠ وخلال الفترة الأولى من حياة « هينز » فى البحرية الهندية عمل على ظهر السفينة « انتيلوب Antilope » التابعة لشركة الهند الشرقية بين عامى ١٨١٨ و ١٨٢١ وشهد الصراع ضد اعمال القرصنة فى الخليج العربى فى شهر ديسمبر سنة ١٨١٨ ٠ ثم اشترك فى اعمال الكشوف والمسح البحرى فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٢١ و ١٨٢٢ حتى عمل على ظهر السفينة « بنارس Benares » فيما بين عامى ١٨٢٢ و ١٨٢٤ ، وعلى ظهر السفينة « الفنستون Elphinstone » فى سنة ١٨٢٥ ثم أصبح مساعدا لماسح بحرى Assistant Surveyor فى الخليج العربى فى ســـنة ١٨٢٦ ٠ وقد رقى الى مرتبة ملازم ثان Second Lieutenant فى شهر ابريل ١٨٢٤ ، فملازم أول Lieutenant فى شهر مارس سنة ١٨٢٧ ٠ فنقيب بحرى Commander فى شهر ابريل سنة ١٨٣٥ ، ثم رائد بحرى Copain فى شهر أكتوبر سنة ١٨٤١ بعد ان نجح فى عملية احتلال عدن بالقوة والسيطرة عليها ٠

(١) Graham, G.S. : Op. cit., p. 283.

(٢) Simonin, M.L. : La presqu'île d'Aden et la politique anglaise dans les Mers Arabiques, p. 18.

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 29, 30.
Graham, G.S. : Op. cit., p. 291.

(٤) Wilson, J.H. : Facts connected with the Origin and Progress of Steam Communication between India and England, pp. 98, 99.

(٥) Graham, G.S. : Op. cit., p. 290.
وصف « هينز» مدينة المكلاموضـــحا ان عدد ســكانها كان يبلغ فى ســنة ١٨٣٤ حوالى =

المكلا نسبيا عن الطريق البحرى المباشر لم يجعلها أنسب مكان كمحطة لتزويد البواخر بالفحم • وكان ذلك سببا فى اتجاه حكومة بومباى لاكتشاف ميزات جزيرة سقطرى التى تبعد عن عدن بمسافة ٥٠٠ ميل تقريبا تجاه الشرق ، كما تبعد عن راس جورد فوى على الساحل الافريقى الشرقى بمسافة ١٥٠ ميلا تقريبا ، ويبلغ طولها ٨٠ ميلا ، أما عرضها فعشرون ميلا فى المتوسط ، وبها بعض الموانى الصالحة لرسو السفن •

وقد أبحر « هينز » الى ميناء « قشن » الواقع على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية شمالى سقطرى ، وحاول الاتصال بزعماء قبائل المهرة الذين يحكمون هذه الجزيرة حتى يسمحوا له بالقيام بمسح جغرافى لسواحلها • وقد شمل هذا المسح مسافة مائة ميل تقريبا وقام « هينز » بزيارة ميناء « تاما ريدا » وهو الميناء الرئيسى فى جزيرة سقطرى ، وعاد بعد ذلك الى بومباى ليعرض نتائج عمله • وقد كلف « هينز » من قبل حكومة بومباى بالعودة الى جزيرة سقطرى على ظهر السفينة « بالينورس » للتفاوض مع زعماء المهرة من أجل شراء الجزيرة • وقد عرضت حكومة بومباى مبلغ مائة ألف ريال (ماريا تريزا) نظير شراء سقطرى ، غير أن هذا العرض لقى رفضا قاطعا من جانب سلطان المهرة الذى أجاب على « هينز » بقوله : « اسمع يا قبطان هينز • بحق رب العرش لن أفرط فى ذرة من أرض الجزيرة • لقد حباها الله المهريين فقط وسنبقى نتوارثها صغارنا عن كبارنا الى ما شاء الله » • ولهذا فقد اضطر البريطانيون الى أن يحتلوا الجزيرة بالقوة • غير أنهم لاقوا صعوبات كثيرة كما تعرضوا للحمى ولوباء الكوليرا المنتشر هناك حتى مات الكثيرون منهم • أما من بقوا على قيد الحياة فلم يكونوا قادرين على دفن جثث زملائهم نتيجة الهزال والضعف الذى ترتب على اصابتها بالوباء (١) • وقد اضطر البريطانيون ازاء الصعوبات التى واجهوها فى سقطرى الى الجلاء عن الجزيرة فى شهر أبريل سنة ١٨٣٥ (٢) وبذلك انصرف البريطانيون عن هذه الجزيرة وشرعوا فى البحث عن أنسب مكان ليجعلوه مخزنا ومحطة لتموين السفن البخارية بالفحم ، فى وقت زاد الاهتمام فيه بالطريق الملاحى عبر البحر الأحمر وبمحاولة استخدام السفن البخارية للملاحة فيه •

حدث ذلك فى الوقت الذى أكد فيه « سير روبرت جرانت Sir Robert Grant » حاكم الهند العام فى أبريل سنة ١٨٣٧ على وجه التحديد أهمية

= ٤٥٠٠ نسمة من مختلف الجنسيات ؛ وذكر انها مدينة تجارية ممتازة وميناؤها صالح لرسو السفن وقد شاهد به قوارب وسفنا كثيرة • كما لاحظ « هينز » وجود تجـارة الرقيق فى المكلا على نطاق واسع حينذاك ، وقال انها تعتبر المنفذ الطبيعى لمنطقة حضرموت ، وملتقى التجار من مختلف أرجاء العالم .

(١) Low, C.R. : Op. cit., pp. 75, 76

(٢) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 20, 22.

استخدام السفن البخـــارية فى كل من طريقى الخليج العربى والبحر الأحمر الموصلين بين بريطانيا والهند ، وذلك لمواجهة أية ظروف أو معوقات تعترض » أحد هذين الطريقين فى وقت من الأوقات • (١) وكان طريق البحر الأحمر الذى يبدأ من السويس بعد عبـــور الأراضى المصرية هو أسرع الطرق لتوصـــيل البريد (٢) كما أنه الطريق الذى كان محببا للمسافرين وان كانت تكاليفه أكثر من تكاليف غيره • اذ كانت قيمة طن الفحم فى السويس عشرين جنيها فى ذلك الوقت ، ولكنها انخفضت بعد ذلك الى أربعة جنيهات فقط للطن الواحد ، خاصة بعد أن تمكن « توماس واجهورن Thomas Waghorn » من الاتفاق مع محمد على على نقل الفحم على ظهر الجمال من النيل الى السويس (٣) •

وقد ترتب على ارتفاع أســـعار الفحم فى بداية الأمر عبر طريق البحر الأحمر أن قام مجلس مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية بتسيير ســـفن الشركة عبر طريق رأس الرجاء الصالح مدة خمسة عشر شهرا كاملة • وقد تبين أعضاء المجلس أن استخدام السفن البخارية فى طريق رأس الرجاء الصالح يحقق نتائج طيبة للغاية • اذ وجدوا أن وسائلهم التى ترسل فى أول ديسمبر من لندن تصل فى ٥ فبراير الى بومباى اذا أرسلت بالسفن البخارية • أما اذا أرسلت بالسفن الشراعية فانها كانت تصل الى بومباى فى ٢٩ مارس (٤) ومن هنا يبدو الفارق الكبير بين ٦٦ يوما بالسفن البخـــارية وأكثر من مائة يوم بالسفن الشراعية يمكن أن يستغرقها نقل البريد من لندن الى بومبـــاى (٥) ولا شك أن هذه المدة ستقصر كثيرا اذا استخدمت السفن البخارية عن طريق عن طريق البحر الأحمر وهو يعتبر أقصر طريق بين لندن وبومباى • ومن هنـــا أيضا برزت أهمية طريق البحر الأحمر بعد استخدام الســـفن البخارية وبدت مميزاته الاقتصادية بوضوح أمام رجال الأعمال والساسة البريطانيين حينذاك •

ومما أثار اهتمام بريطانيا ودفعها الى سرعة العمل على تسيير الخط الملاحى البخارى بين الموانى البريطانية والهند عبر البحر الأحمر أن المنافسة الروسية بدت واضحة فى ذلك الحين عندما استخدم الروس السفن البخارية فى نهر الفولجا وبحر قزوين ، كما بدءوا يضـــغطون على الدولة العثمانية مما أدى الى فزع الدوائر البريطانية • ولهذا أبدت الحكومة البريطانية استعدادها لتحمل نصف نفقات الخط الملاحى البخارى اذا دفعت حكومة الهند البريطانية النصف

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 23.

(٢) Graham, G.S. : Op. cit., p. 291.

(٣) P.P., 1837, No. 539, p. 47.
Journal of Indian History, II, p 175.

(٤) Waterfield, G. : Op. cit., p. 23.

(٥) I.O., Secret Letters from Bombay, 1st Series, Bombay Government to Secret Committee, April 26, 1837, Vol. 6.

الثانى • كما شجع مجلس المديرين بشركة الهند الشرقيه البريطانية تدعيم هذا الخط الملاحى • وقد بنيت عدة سفن بخارية فى بومباى وفى بريطانيـــا لخدمة حكومة الهند البريطانية ومن بينها الباخرة « أتلانتا At anta » التى بنيت فى لندن فى سنه ١٨٢٧ ، والباخرة « بيرنيس Berenice » التى تم بناؤها فى سنة ١٨٢٧ • وفى صيف نفس السنة تم تنظيم الخدمة البريدية بواسطة السفن البخارية شهريا بين بومباى والسويس بهاتين الســـفينتين بالاضافة الى سفينة ثالثة (١) هى السفينه « هيولند ســـاى Hugh Linosay وقد كان الضابط البحرى البريطانى « هينز » مسئولا عن قيادة الســـفينة باليغورس Balinurus » (٢) التى قامت برحلاتهـــا على طـول الســـاحل الجنوبى للجزيرة العربية ، واستخدمت فى عمليات المســـح الجغرافى لتلك المنطقة (٣) •

وتجدر الاشارة الى أن « هينز » قام بزيارة عدن على ظهر السفينة المذكورة ضمن برنامج الرحلات الاستكشافية التى نظمتها حكومة بومباى البريطانية للساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية • وقد ذكر « هينز » أنه على الرغم من ضعف الحركة التجارية فيها أثناء زيارته لها فى شهر مارس سنة ١٨٣٥ فضلا عن قلة عدد سكانها ، فانه قد أعجب كثيرا بمميزاتها الطبيعية ، وخاصة رأس عدن البركانية الممتدة تجاه البحر بمينائيها الممتازين الصالحين لرسو الســـفن فى مأمن تام من العواصف والأمواج • وقال « هينز » عن ميناء عدن فى تقرير بعث به لحكومته : « ان هذا المرفأ العظيم يمتلك من القدرات والامكانات مالا يملكه ميناء آخر فى الجزيرة العربية • وان ازدهار ذلك المرفأ دون شك سيكون من شأنه أن يقضى على ميناء مخا وعلى بقية موانى البحر الأحمر فهو يحتـــل مركزا تجاريا ممتازا ، ومن المؤكد أنه أنسب الموانى الموجودة فى المنطقة بالنسبة للمواصلات الامبراطورية عبر البحر الأحمر • وهو فى وضعه الحالى صالح لاستقبال البواخر وتموينها فى كل فصول السنة » (٤) •

وقد سبق أن أعجب بهذه المميزات « لورد فالنتيا » الذى زار عدن فى مطلع القرن التاسع عشر واعتبرها « جبل طارق الشرق » (٥) • على أن «هينز» حاول أن يعطى لحكومته أيضا صورة واضحة عن مدينة عدن كما رآها أثنـــاء

---

(١) Waterfield, G. : Op. c t., p. 24.

(٢) Low, C.R. : Op. cit., pp. 137, 138.

ويستعرض فى كتابه هذا قوة الاسطول الهندى البريطانى فى النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادى .

(٣) Graham, G. S. : Op. cit., p. 291.

(٤) A Brief Sketch containing Historical and Pol'tical Information of Aden, Aden Records, Vol. III, p. 41.

(٥) Lord Valentia : Voyages and Travels to India, Ceylon, the Red Sea, Abyssinia and Egypt,1802—1806, 3 Vols., London, 1809.

تردده عليها وهو يقوم بعمليات مسح الساحل الجنوبى للجزيرة العربية فى منتصف العقد الرابع من القرن المذكور • فقد قدر « هينز » تعداد سكان مدينة عدن حينذاك بحوالى ستمائة نسمة كان من بينهم مائتين وخمسين يهوديا يمنيا ، وخمسين آخرين من التجار الهنود ، بينما بقية هذا العدد من العرب المسلمين (١) • وقد شاهد « هينز » فى مدينة عدن ما يقرب من تسعين منزلا بنيت من الحجارة ، بينما كان معظم سكان المدينة يقيمون فى أكواخ بسيطة بنيت من الخشب والطين•

كما أوضح « هينز » أن السلطان محسن بن فضل بن عبد الكريم العبدلى سلطان لحج وعدن كان يفرض ضرائب باهظة على كل أنواع المتاجر المختلفة مما جعل التجار يهربون من عدن التى تحولت الى قرية بائسة وضعفت فيها حركة التجارة ، ولم يعد يرى هناك من الأجانب سوى ركاب السفن التى كانت تأوى لمينائها الممتاز لتحتمى فيه من أعاصير الرياح الموسمية • وكان يحكم عدن حاكم من قبل السلطان محسن يقوم بجمع الضرائب ، وله مساعدان وحامية من البدو ويبلغ عدد أفرادها بين العشرة والخمسين بدويا تبعا لتطورات الأحوال • وكانت ترسو بالميناء بعض السفن الهندية المتجهة الى ميناء مخا اليمنى لتنقل الملابس القطنية والأرز وكميات قليلة من الحديد والرصاص ، بينما كانت بعض السفن الأخرى — الآتية من بربرة وزيلع على الساحل الافريقى المواجه — تنقل الأغنام • وفى نفس الوقت كانت هذه السفن تنقل من عدن الرقيق والنحاس والبن ، غير أن الحركة التجارية لم تكن رائجة مزدهرة فى عدن فى ذلك الحين (٢) •

ويبدو أن أحوال عدن منذ مطلع القرن التاسع عشر لم تتغير كثيرا عما أصبحت عليه عندما زارها « هينز » ، فمن خلال الوصف الذى سجله « هنرى سولت Henry Salt » الذى زار عدن أثناء رحلته الى الحبشة فى عامى ١٨٠٩ ، ١٨١٠ يمكن معرفة أنها كانت المركز الرئيسى لتجارة الصمغ الذى كان يجمعه التجار الصوماليون من الساحل الافريقى (٣) • وقد ذكر « هنرى سولت » أن السلطان أحمد العبدلى الذى كان يحكم لحج وعدن فى ذلك الحين كان يحرص على توفير الأمن والاستقرار فى المنطقة التى يحكمها مما شجع التجار الهنود والصوماليين وغيرهم على ممارسة التجارة فى بلاده • وقد وافق هذا السلطان على اقامة وكالة بريطانية فى عدن تابعة لشركة الهند الشرقية

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 25, 26.

(٢) Waterfield, G. : Ibid., pp. 26, 27.
Bombay Secret Proceedings, Vol. 95, Haines to Rear Admiral Sir Charles Malcolm, March 7, 1838.

(٣) Waterfield, G : Op. cit., pp. 27, 28.
Salt, H. : A voyage to Abyssinia, in the years 1809—1810, p. 22.

البريطانية ، وعقد مع البريطانيين معاهدة للصداقة والتجارة (١) فى اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٨٠٢ (٢) • وقد توفى السلطان أحمد العبدلى فى سنة ١٨٢٧ بعد أن ظل يحكم لحج وعدن قرابة خمسة وثلاثين عاما • وتولى زمام الحكم من بعده السلطان محسن بن فضل العبدلى الذى ورث عنه ثروة طائلة اكتسبها من عوائد التجارة نظرا لأن سلطنة لحج كانت تقع على الطريق التجارى بين مدن اليمن الغنية وبين ميناء عدن المنفذ الطبيعى لها على بحر العرب والمحيط الهندى ، كما أن منطقة لحج كانت تتميز بأنها منطقة زراعية ممتازة فى جنوب اليمن ، وكانت عاصمتها « الحوطة » تقع على بعد ثلاثين ميلا تقريبا فى الاتجاه الشمالى الغربى من عدن فى وسط المنطقة الزراعية الخصبة حيث تصل اليها مجارى ينابيع المياه العذبة التى تنحدر اليها من الجبال المجاورة •

وأثناء زيارة « هينز » لعدن أرسل الى السلطان محسن فى لحج مجموعة من رجال البحرية الهندية البريطانية على رأسهم الملازم « ولستد Lieutenant Wellsted » فاستقبلهم السلطان فى قصره • وقد ذكر « ولستد » أن السلطان بدا له رجلا مسنا ذكيا • غير أن « هينز » الذى رآه بعد ذلك لم يعجب بشخصيته (٣) ، ولكنه على النقيض من ذلك انجذب الى سلطان قبيلة الفضلى ويدعى أحمد بن عبد الله الذى استقبل « هينز » وبعض ضباط البحرية الهندية البريطانية فى مينائه « شقرة » الواقعة على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية شرقى عدن • وقد ذكر « هينز » عن هذا السلطان أنه بدا نحيلا يستخف بمنظره ولكنه كان حازما كما أن جيرانه كانوا يحترمونه ويهابونه الى حد كبير • وكان عدد قبيلة الفضلى يبلغ حوالى خمسة عشر الف نسمة منهم أربعة آلاف رجل يحملون السلاح (٤) • ولا شك أن الأوصاف التى أطلقها « هينز » على حكام منطقة عدن انما تعبر عن وجهة نظره الخاصة وهى متأثرة الى حد كبير بنزعته الاستعمارية •

أما بالنسبة لمميزات عدن التى بدت « لهينز » عند زيارته لها حينذاك ، فقد جعلته يؤكد لحكومته أنها أفضل مكان بين كل الأماكن التى زارها وأنسب موقع يمكن الاستفادة منه بجعله مخزنا ومحطة لتموين السفن البخارية البريطانية بكميات الفحم والمياه والمؤن اللازمة لها (٥) • وقد اعتبر أن النقص

---

(١) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص١٣٦

(٢) Aitchison, C.M. : Collection of Treaties, Engagements and Sannads, Relating to India and Neighbouring Countries, Vol. XI, pp. 119, 120.
Hurewitz, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I, p. 126.

(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 28.

(٤) Waterfield, G. : Ibid., p. 29.

(٥) Graham, G.S. : Op. cit., p. 291.

الملحوظ فى الأيدى العاملة بعدن هو أمر يمكن ايجاد الحلول اللازمة له فى أسرع وقت ممكن . وقد لعب التقرير المتحمس الذى أرسله هنز » الى حكومة بومباى دورا خطيرا فى توجيه تلك الحكومة الى التفكير عمليا فى السيطرة على عدن . وقد أوضح « هينز » لحكومته أن عدن تشغل موقعا تجاريا فى غاية الأهمية وأنها ستكون من المدن العظيمة فى الجزيرة العربية (١) . كما أشار « هينز » الى أن موقع عدن الجغرافى فى منتصف الطريق بين بومباى والسويس مفيد للغاية ، فضلا عن أن ميناءها يتميز بأنه آمن وصالح لرسو السفن التى يسهل دخولها اليه ليلا ونهارا ، كما أنه ميناء رحب فسيح بدرجة كافية تمكن السفن الضخمة من الرسو فيه بأمان تام .

بل ان مدينة صنعاء كانت ترتبط بعدن برحلة تستغرق من سبعة الى ثمانية أيام على ظهور الجمال ، على النحو الذى نوه عنه « هينز » فى تقريره لحكومته ، الأمر الذى يجعل الطريق والاتصال التجارى بينهما سهلا . بل ان المناطق التى كان يزرع فيها البن فى ذلك الوقت كانت أقرب لعدن منها الى مخا ، هذا بالاضافة الى أن المدن الغنية فى منطقة حضرموت كانت مفتوحة على مصراعيها لكافة أنواع التجارة التى ترد اليها من عدن . وقد أكد « هينز » أيضا أن عدن هى أفضل وأصلح ميناء يتحكم حتى فى الطريق البرى الملازم لطريق البحر الأحمر الملاحى الذى تتحكم فيه أصلا بحكم موقعها المشرف على مدخله الجنوبى . وأخيرا ذكر « هينز » أنه لو أمكن بناء رصيف لرسو السفن فى ميناء عدن الممتاز فان ذلك سيساعد السفن البريطانية بجميع احجامها وفى مختلف فصول السنة أن ترسو الى جواره فى أمان تام ، حيث يتوفر لها كل ما تحتاجه من فحم ومياه ومؤن مختلفة .

ولا شك أن تقرير « هينز » قد أحدث فعله فى الدوائر البريطانية مما أدى الى اجتماع لجنة أخرى منبثقة عن مجلس العموم البريطانى فى سنة ١٨٣٧ للنظر فى انشاء وتاسيس خط ملاحى بخارى بين بريطانيا والهند عبر البحر الأحمر . وقد اشار بعض الخبراء باقامة محطات ومخازن للفحم فى جزر سوقطرة وبريم وكمران وفى موانى مخا والمكلا وغيرها . غير أن « الكولونيل كامبل » القنصل البريطانى العام فى مصر كتب الى وزارة الخارجية البريطانية فى شهر نوفمبر سنة ١٨٣٧ يؤيد فكرة السيطرة على عدن ويحبذها . وقال « كامبل » فى رسالته أن سيطرة بريطانيا على عدن ستتيح لها فرصة الاستفادة من موقعها الممتاز وامكاناتها الطبيعية لجعلها محطة ومخزنا لتموين السفن البخارية البريطانية بالفحم والمياه والمؤن اللازمة لها لتحقيق فكرة اقامة خط للمواصلات البحرية بين بومباى والسويس عبر البحر الأحمر . كما أن وجود البريطانيين فى عدن سيحول دون امكانية قيام محمد على والى مصر أو غيره بمحاولة مد

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 29.

فتوحه فيما وراء البحر الأحمر ، كما سيوقف توسعه فى الجزيرة العربية بمـا لا يجعله قادرا على التحكم فى طريقى المواصلات البريطانية الى الهند عبر البحر الأحمر والخليج العربى • بل ان « كامبل » رأى أيضا أن سيطرة البريطانيين على ميناء عدن يوفر لهم امكانية تحويل تجارة البن اليمنى من ميناء مخا لتتركز فى عدن مما يعطى بريطانيا سيطرة كاملة على هذه التجارة الهامة ويمكنها من تحطيم المنافسة الأمريكية بعد أن أصبح الأمريكيون يحصلون على جزء كبير من هذه التجارة وكادوا يحتكرونها (١) • ولهذا فان سيطرة البريطانيين على عدن فى ذلك الوقت ستحقق لبريطانيا فوائد جمة من زوايا متعددة •

واذا تساءلنا عن الدور الذى لعبه الأمريكيون فى هذا المجال حينـــذاك فاننا نجد أنهم فى مطلع القرن التاسع عشر كانوا يرسلون سفنهم الى الموانى اليمنية وخاصة ميناء مخا حيث يحصلون على ثلاثة أرباع اجمالى محصول البن اليمنى الذى يبلغ ثلاثة عشر ألف بالة • وقد أدت منافستهم هذه فى مجال تلك التجارة الى رفع سعر البالة من ٥٦ دولارا (أى حوالى ١١ جنيها استرلينيا) الى ٧٥ دولارا (أى حوالى ١٥ جنيها استرلينيا) وقد حدث ذلك عندما قام التجار الأمريكيون باستخدام الطريق التجارى الموصل للبحر الأحمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح مع المرور بمحاذاة الساحل الشرقى لافريقيا • وقد وفر ذلك عليهم نفقات النقل التى كانت تحصل عليها شركة الهنـــد الشرقية البريطانية والشركات الفرنسية الأخرى التى اتخذت من جزر « موريشيوس ورينيون Mauritius and Reunion» قواعد لها • وكانت نتيجة ذلك أن احتكر الأمريكيون تجارة البن اليمنى فى مطلع القرن التاسع عشر (٢) •

وفى نفس الوقت كانت شركة الهند الشرقية البريطانيـــة تحرص كل الحرص على ما تجنيه من أرباح طائلة من التجارة اليمنية بواسطة الأعداد الكبيرة من التجار الهنود فى كل من جدة ومخا والحديدة حتى تمكنت من اقامة وكالة تجارية فى مخا لرعاية مصالحها التجارية • وعندما ضرب الأسطول البريطانى مدينة مخا فى سنة ١٨٢٠ فان البريطانيين كانوا يهدفون من وراء ذلك الى الانتقام للاهانة التى تعرض لها وكيلهم فى مخا حينذاك ، بالاضافة الى اجبار امام صنعاء على تخفيض الضرائب الباهظة التى يفرضها على البضائع المصدرة من الموانى اليمنية الى الخارج والتى كانت تنقلها السفن التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية • وعلى أية حال فقد خفضت هذه الضرائب الى نســـبة ٢¼٪ وذلك بناء على الاتفاق الذى تم بين امام اليمن وشركة الهند الشرقيـــة البريطانية فى سنة ١٨٢١ (٣) •

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 29, 30.

(٢) Marston, T. E. : Op. cit., p. 31.

(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 30.

على أنه فى نفس الوقت كان الأمريكيون وخاصة مواطنى « ماساشوستس Massachusetts » الذين كانوا يشكلون مجتمعا بحريا نشيطا ، يرسلون سفنهم لتعبر نصف الكرة الأرضية وتصل الى شرق افريقيا والبحر الأحمر وتتجول فى المحيط الهندى وجنوب المحيط الهادى ٠ وكان من أهم نتائج الثورة الأمريكية تدخل الأمريكيين فى أسواق التجارة الشرقية التى احتكرها الأوربيون من قبل لمدة قرنين من الزمان ٠ غير أن هذه الأسواق كانت مغلقة حينذاك بواسطة المحتكرين البريطانيين عن طريق النظام التجارى الذى وضعته شركة الهند الشرقية البريطانية واحتكرت به التجارة الشرقية بوجه عام (١) ٠ وكان الأمريكيون يتنافسون مع التجار الهنود حول بيع الأقمشة القطنية ، كما كانوا يتصيدون الحيتان من المحيط الهندى ويشتركون فى تجارة الرقيق والبخور واللبان والصمغ والجلود والعاج ، كما كانوا يجمعون مخلفات الحمام « Guano » من جزر كوريا موريا المواجهة للساحل الجنوبى للجزيرة العربية ، وذلك قبل قيام الحكومة البريطانية بمحاولتها الفاشلة لأخذ كميات منه لاستخدامها فى تسميد الأرض فى انجلترا نفسها ٠ وفى سنة ١٨٣٣ عقدت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أول معاهدة مع سلطان مسقط وزنجبار الذى كانت سفنه تبحر بالتجارة بين بلاد الهند والصين ، وقد عقد السلطان هذه المعاهدة بعد أن تبين الفوائد الجمة التى ستعود عليه من ارتباطه مع التجار الأمريكيين الذين كان لهم دور فعال حينذاك فى حركة التجارة الشرقية (٢) ٠

وقد تبينت شركة الهند الشرقية البريطانية فى ذلك الوقت أن الأمريكيين يعتبرون منافسين جادين لها ، فعلى الرغم من بعدهم عن ميدان التجارة فى منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندى فانهم كانوا يحضرون من بلادهم النائية للاشتراك فى النشاط التجارى هناك ، وكان من بينهم تجار على درجة بالغة من الهمة والنشاط مثل التاجر الأمريكى « تشالز ميليت Charles Miliet » فقد أبحر هذا التاجر من بلاده بسفينته الشراعية المعروفة باسم « أن Ann » ووصل الى ميناء مخا فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٢٦ ومعه حمولة ضخمة من البضائع القطنية والمسامير والدخان حيث أفرغ حمولة سفينته لدى التجار الذين كانوا يقومون ببيعها لحسابه حتى يعود اليهم فى رحلته ٠ وكان « ميليت » هذا يقوم بشحن سفينته بكميات هائلة من محصول البن اليمنى يأخذه معه الى بلاده ثم يعاود رحلاته الى بلاد الشرق بصفة منتظمة ٠ ويعتبر « ميليت » مثالا للتجار الأمريكيين الذين كان لهم دور فعال فى التجارة الشرقية فى ذلك الحين ٠ ويمكن أن نلمس النشاط التجارى الأمريكى فى تلك المنطقة عندما نعرف أنه خلال ثمانية عشر شهرا بين عامى ١٨٣٢ و ١٨٣٤ وصلت الى زنجبار على الساحل الشرقى لافريقيا ٣٢ سفينة أمريكية فى الوقت الذى لم تصل فيه الى هناك سوى سبع

(١) Coupland, R. : Op. cit., (E.A.I.), p. 362.

(٢) Coupland, R. : Ibid., (E.A.I.), p. 365.

سفن بريطانية فقط . كما وصلت الى ميناء مخا اليمنى مجموعة كبيرة من تلك السفن الامريكية لنقل كميات من البن الذى كان يلاقى ترحيبا بالغا وسوقا رائجة فى الولايات المتحدة الأمريكية حينذاك (١) . وهكذا شكل التجار الأمريكيون فى ذلك الوقت المبكر وهو النصف الأول من القرن التاسع عشر منافسة خطيرة للنشاط التجارى لشركة الهند الشرقية البريطانية فى منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندى رغم بعد الولايات المتحدة الأمريكية عن البحار الشرقية . وقد وجه ذلك البريطانيين الى ضرورة السيطرة على عدن للاستئثار بتجارة البن اليمنى واحتكار الأسواق الموجودة بمنطقة البحر الأحمر لتحطيم المنافسة الأمريكية بعد أن بدت خطورتها بشكل ملحوظ .

ويرجع بعض المؤرخين أسباب وصول قوات محمد على الى اليمن فى سنة ١٨٣٣ بعد انتصاره على الوهابيين الى رغبته هو الآخر فى السيطرة على تجارة البن اليمنى المربحة حينذاك . ويدللون على ذلك بأنه فرض ضرائب باهظة على التجار التابعين لشركة الهند الشرقية البريطانية بلغت نسبتها ٧٪ فى الوقت الذى كان الأمريكيون يحصلون فيه أيضا على نصف حجم التجارة الموجودة فى الموانى اليمنية حينذاك (٢) . وقد قام « لورد بالمرستون » وزير الخارجية البريطانية بتوجيه تعليماته الى « كامبل » القنصل البريطانى فى مصر فى سنة ١٨٣٧ ليطلب بشكل قاطع من محمد على رفع القيود المفروضة على التجارة البريطانية على وجه السرعة لأن بريطانيا لن تسمح للمصريين بأن يواصلوا تطبيق هذا النظام الذى ينطوى على العداء الكامل للتجارة البريطانية ، وأنه اذا لم ترفع هذه القيود فان الحكومة البريطانية سوف تأخذ فى اعتبارها فورا اتخاذ كافة الاجراءات التى تضمن المحافظة على « شرف بريطانيا العظمى » وعلى مصالحها التجارية فى منطقة البحر الأحمر (٣) . على أن هذه القيود على البضائع البريطانية قد زالت تماما عقب انسحاب محمد على من اليمن نتيجة لما فرضته عليه السياسة الدولية فى سنة ١٨٤٠ .

ويمكن أن أسوق فى هذا العرض ما ذكره أمين الريحانى الذى قام بزيارة اليمن فى بداية العقد الثالث من القرن الحالى من أن بريطانيا عند بداية استخدام البواخر كانت تفتش عن مكان فى البحر الأحمر أو البحر العربى يصلح لأن يكون مستودعا للفحم لتموين البواخر البريطانية وهى تعبر البحر الأحمر فى طريقها من الهند واليها . فرأى رجال شركة الهند الشرقية البريطانية أن عدن أصلح مكان لهذه الغاية ، وظلوا قرابة عشرين عاما فى مطلع القرن التاسع عشر يحومون حولها ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة أن يرفعوا فوق قلاعها العلم

(١) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 30, 31.
(٢) Waterfield, G. : Ibid., pp. 31, 32.
(٣) F.O., 78/318, Palmerston to Campbell, March 1, 1837.

البريطانى . وعندما لمس البريطانيون اهتمام المصريين بميناء عدن أثناء وجودهم فى اليمن خاصة بعد أن استقر حكمهم فى تهامة فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠ ، فان البريطانيين قد بذلوا جهودهم لتصفية النفوذ المصرى فى الجزيرة العربية بأكملها لابعادهم بصفة خاصة عن ميناء عدن الحيوى (١) .

ويؤكد أمين الريحـانى تواطؤ الدولة العثمانية مع البريطانيين حينذاك لتحقيق أغراضهم فى السيطرة على ميناء عدن الهام . وقد بدا ذلك عندما لم تكتف الحكومة العثمانية بأن تخول للبريطانيين حق ممارسة الاتجار فى كافة أرجاء الدولة العثمانية فى حرية تامة ، بل انها لبث بعد ذلك مطلب البريطانيين فى جعل عدن مركزاً تجاريا لهم عبر الطرق الموصلة الى الهند ، ولكى تـكون مستودعا للفحم الذى تتزود منه السفن البخارية البريطانية (٢) ومما يساعد على قبول هذا الرأى أن أهمية عدن بالنسبة للعثمانيين حينذاك كانت ضعيفة نتيجة لبعدها قرابة ألفى ميل عن عاصمة الدولة ووقوعها وراء ثلاثة بحار وفى أقصى جنوب البلاد العربية ولا سيادة حقيقية للدولة فيها . بل انه يبدو أن الصداقة التقليدية بين بريطانيا والدولة العثمانية فى ذلك الوقت كان من شأنها أن تحول دون سطو بريطانيا على عدن وضمها الى أملاكها . ولهذا فان بريطانيا تترقب حجة تتذرع بها أو سببا تسوغ به تدخلها فى عدن دون أن تبدو أمام العالم منتهكة لوعودها بالمحافظة على كيان الدولة العثمانية وسلامتها ، حتى استغلت حادثة السفينة « دوريا دولت » ـ التى سأتناولها بالدراسـة والتحليل فيما بعد ـ لتفرض سيطرتها على عدن بالقوة .

ويفيدنا فى هذا العرض أيضا قول « سير هيكنبوتام Sir T. Heikanbotham أحد المقيمين السياسيين فى عدن فى عهد الاحتلال البريطانى ، الذى يؤكد فيه أن البريطانيين اتجهوا لاحتلال مدينة عدن لأنهم كانوا فى أشد الحـاجة للسيطرة على هذا الميناء الفريد الممتاز على طريق البحر الأحمر الموصل بين مصر والهند ليكون محطة ومخزنا لتموين السفن البخارية البريطانية بالفحم . ثم يوضح بعد ذلك أن فشل المفاوضات مع سلطان لحج وعدن لتحقيق تلك الغاية حينذاك اضطر بريطانيا الى أن تلجأ لاستخدام القوة لتوجد لنفسها مخرجا وحلا لتلك الأزمة (٣) .

واذا كانت كثير من المصادر المختلفة قد دأبت على أن تقصر الهـدف من احتلال بريطانيا لعدن فى اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٨٣٩ على حاجة البريطانيين لاتخاذها محطة لتزويد سفنهم بالفحم ، وترجع السبب المبـاشر

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

(٢) أمين الريحانى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

(٣) Heikanbotham, T. : Aden, p. 12

لاقتحامها بالقوة على قيام العرب المحليين بنهب السفينة الهندية « دوريا دولت » التى جنحت بالقرب من عدن فى اليوم الرابع من يناير سنة ١٨٣٧ ، لأن السلطان محسن فضل العبدلى سلطان لحج وعدن رفض أن يقدم ترضية وتعويضا كافيا للبريطانيين فقد لقن درسا قاسيا بغزو بلاده ، فان هذه المصادر بذلك التفسير تحجب عن نفسها كثيرا من الحقائق التى يمكن أن يتبينها من يراقب الأحداث المعاصرة بدقة ، ويراجع الأصول التاريخية والوثائقية المتعلقة بالموضوع • وانى فى هذا المجال اتفق تماما مع رأى « الأستاذ جراهام Professor Gerald S. Graham » أستاذ تاريخ الامبراطورية البريطانية بجامعة لندن فى تفسير حقيقة حادثة السفينة المذكورة ، فقد قال أنها حادثة خدمت الأهداف البريطانية خدمة ممتازة ، وأنها من نوع الأحداث التاريخية التى تضع حدا لأى تردد وتفرض الحسم السريع للأمور (١) •

أما بالنسبة للأهداف البريطانية من وراء احتلال عدن فقد كانت متعددة على نحو ما عرضته ، ولم تكن قاصرة فقط على اتخاذ عدن محطة لتزويد السفن البخارية البريطانية بالفحم والمؤن المختلفة • ويؤيد ما عرضته فى هذا الصدد بعض فقرات من الخطاب المرسل من « سير روبرت جرانت حاكم بومباى Sir Robert Grant, Governor of Bombay » الى رئيس مجلس ادارة شركة الهند الشرقية فى لندن فى اليوم السابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٣٨ والذى جاء فيه : « أن أهمية عدن بالنسبة لنا لا تقدر بثمن • اذ أنه يمكن استخدامها كمخزن ومحطة لتموين السفن البخارية طيلة فصول السنة ، كما أنها مركز التقاء ومرفأ ممتاز لرسو السفن التى تعبر طريق البحر الأحمر ، فضلا عن أنها قاعدة عسكرية قوية بحيث يمكن بالسيطرة عليها أن نحمى ونستفيد من كل تجارة البحر الأحمر والخليج العربى والساحل المصرى المواجه والغنى بمنتجاته • واذا ما أصبحت عدن ملكا لنا فانها كجبل طارق تتميز بحصانتها ومنعتها من البر ومن البحر وعلى السواء • اننى أنظر الى الموضوع بشمول وبعمق أكثر ، فهناك أمتان كبريان تتآمران علينا وتودان القضاء على قوتنا فى الشرق ، أولهما روسيا وهى تتجه نحونا من خلال ايران ، والثانية فرنسا وهى آتية من خلال مصر • وحتى نتصدى لهذه التهديدات يتحتم علينا أن نقيم مراكز دفاعية متقدمة فيما وراء نطاق حدودنا » (٢) •

وقد تحدث بعض الكتاب الغربيين عن مخاوف بريطانيا من أية مجهودات أوربية أو مصرية تقف فى وجه احتلالها لعدن حينذاك ، ووصف أحدهم وهو « مارستن Marston » هذه المجهودات بقوله « أنها مؤامرات كانت تدبر

---

(١) Graham, G. S. : Op. cit., p. 293.

(٢) I. O., Home Miscellaneous, 841, Robert Grant's letter to the President of the Board of Control of the East India Company on 27 Feb. 1838, pp. 155, 156.

ضد اتجاه بريطانيا لاحتلال عدن » ، وكان هذا المشروع الاستعمارى هو حق للبريطانيين ، مع أن « مارستن » قد أثبت من خلال بحثه أن الأسلوب البريطانى الذى اتبع لاحتلال عدن كان مليئا بالتآمر على سلطان لحج وعدن بطريقة تفوق أى « تامر » مضاد لما أشار اليه على النحو الذى سنوضحه فيما بعد · على أنه كان يستند فى قوله هذا الى الاعتقاد الذى كان ساندا لدى بعض المسئولين البريطانيين أمثال « كامبل » قنصل بريطانيا فى مصر حينذاك « بأن وكلاء ثلاث قوى أوربية كبيرة وهى فرنسا وروسيا والنمسا كانوا سوف يتآمرون ضد الاحتلال البريطانى لعدن · » (١)

بل أن الأستاذ « جراهام » يؤكد أن البريطانيين كانوا فى حاجة الى « مالطة » جديدة أخرى فى الشرق الأوسط وليس مجرد « محطة لخزن الفحم أو رصيف لترميم وتموين السفن · أنهم كانوا فى حاجة الى قاعدة تأوى اليها سفنهم لتكون على أهبة الاستعداد التام وعلى مقربة من ساحة الصراع اذا ما قامت ازمة تنذر بالحاق الضرر بمصالح بريطانيا وبتجارتها الشرقية » (٢) ·

ويستطرد الأستاذ « جراهام » ملقيا مزيدا من الضوء على هذا الموضوع فيقول : « انه من غير المحتمل أن يكون قد اتخذ قرار الاستيلاء على عدن لمجرد الحاجة الى محطة للفحم · ان القيم التجارية والحربية متشابكة فيما بينها ومن الصعب الفصل بين احتلال عدن وبين سياسات الامبريالية التجارية · فمن الحقيقى أن عدن كانت محطة مهمة لتموين السفن بالوقود ونقطة تجمع فى الشرق الأوسط ، غير أنها تستمد أهميتها العظمى من موقعها الجغرافى كقاعدة للعمليات البحرية · ان تجارة بريطانيا الخارجية فى حاجة الى خط مواصلات مضمون وذاك بدوره يعتمد على وجود قواعد ساحلية يحسن اختيارها ويقوم بحراستها الأسطول الملكى البريطانى الضخم · ان عدن تتبوأ محورا حيويا على طريق البحر الأحمر المؤدى الى الهند ، وقد أرادتها بريطانيا بسبب صلاحيتها كمحطة وكقاعدة عسكرية وان كانت قد أرادتها بصورة رئيسية من أجل منع أى قوى أخرى من السيطرة على تلك المنطقة الاستراتيجية الحيوية » (٣) ·

وهكذا تتضح معالم الحقيقة التى تؤكد أنه ليس من المقبول أن يقرر البريطانيون الاستيلاء على عدن لتحقيق هدف بسيط واحد هو اتخاذها محطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمؤن اللازمة ، بل ان هذا القرار اتخذ بناء

(١) Marston, T. E. : Op. cit., p. 58.
(٢) Graham, G. S. : Op. cit., pp. 304, 305.
(٣) Graham, G. S. : Ibid., pp. 301, 306.

على احتياجات اقتصادية واستراتيجية وقومية أبعد مدى • ومن غير الممكن أن نفصل رغبة البريطانيين فى السيطرة على عدن عن الاتجاهات المعروفة لسياستهم الاستعمارية فى البحار الشرقية بوجه عام •

من هذا العرض نتبين أن بريطانيا لكى تحقق أهدافها الاقتصادية والاستراتيجية والقومية وجدت لزاما عليها أن تفرض سيطرتها على عدن بعد أن أكدت تقارير خبرائها من رجال البحرية الهندية البريطانية ، وتقارير قناصلها فى بلاد الشرق ، والرغبة الملحة لدى حكومة الهند البريطانية ، ضرورة السيطرة على هذا الميناء الحيوى الهام • وكانت دوافعها تتلخص فى استخدام عدن محطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمياه والمؤن اللازمة ، واتخاذ عدن مراكز لوقف توسع محمد على وتصفية نفوذه فى الجزيرة العربية حتى لا يهدد طريقى مواصلاتها الى الهند عبر الخليج العربى والبحر الأحمر • ثم الاستحواذ على التجارة اليمنية بوجه عام ، واحتكار تجارة البن اليمنى المربحة بوجه خاص ، وتحطيم المنافسة الأمريكية بعد أن بدت خطورتها • وأخيرا اتخاذ عدن قاعدة دفاعية (١) أمامية فيما وراء نطاق حدودها لمواجهة المنافسة الضارية من قبل روسيا القيصرية التى كانت تسعى للوثوب على المصالح البريطانية عبر ايران ، ومن قبل فرنسا التى كانت تتسلل لتحقيق غاياتها بضرب بريطانيا فى الشرق عبر مصر ، هذا فضلا عن الدور الذى كانت تلعبه النمسا أيضا فى ذلك الحين على نحو ما ورد بتصريحات بعض المسئولين البريطانيين (٢) • ولهذا فلم يكن أمام بريطانيا بدا من الاسراع للسيطرة على عدن التى ستحقق عن طريقها كل هذه الأهداف التى تتعلق بالمصالح البريطانية الاقتصادية والاستراتيجية والقومية فى بلاد الشرق فى ذلك الحين •

ثانيا – التمهيد للسيطرة على عدن بالضغط السياسى والحربى •

بعد أن تبينا دوافع البريطانيين المختلفة للسيطرة على عدن ، فاننا سنحاول تتبع سير الحوادث التى أدت فى النهاية الى هجوم البريطانيين عليها واحتلالها بالقوة فى اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٨٣٩ • وقد سبق هذا الهجوم تمهيد البريطانيين للسيطرة على عدن باتباع أساليب الضغط السياسى فى بداية الأمر • ولما استنفدت هذه الأساليب أغراضها دون جدوى فقد اتبع البريطانيون أساليب الضغط الحربى • غير أنها هى الأخرى لم تحقق لهم غايتهم مما اضطرهم أخيرا الى الهجوم على عدن وفرض سيطرتهم عليها بالقوة • وسوف نستعرض فيما يلى أساليب الضغط السياسى التى اتبعتها

(١) Graham, G. S. : Ibid., pp. 301, 306.
(٢) Marston, T. E. : Op. cit., p. 57.

بريطانيا للتمهيد لفرض سيطرتها على عدن تحقيقا لمصالحها الحيوية فى منطقة البحر الأحمر •

اتباع البريطانيين لأساليب الضغط السياسى :

بدأ تمهيد البريطانيين للسيطرة على عدن باتباع أساليب الضغط السياسى وذلك باستغلالهم لحادثة جنوح السفينة الهندية « دوريا دولت Duria Dowlat » التى كانت ترفع العلم البريطانى على بعد حوالى ستة أميال شرقى عدن فى صباح اليوم الرابع من يناير سنة ١٨٣٧ • وقد اشتمل كتاب « بلايفير R.L. Playfair » الصادر فى سنة ١٨٥٩ على أول عرض رسمى لتلك الحادثة فكان أول كتاب تاريخى يتناول هذا الموضوع (١) •

أما عن السفينة « دوريا دولت » فهى سفينة شراعية (٢) تبلغ حمولتها ٢٢٥ طنا وتمتلكها سيدة هندية من مدينة مدراس (٣) هى السيدة « البيجوم أحمد أم النساء » ابنة أخت حاكم مقاطعة « الكارناتيك » الهندية ، كما أن ناخودا السفينة هو مواطن هندى يدعى سيد نور الدين • وقد شحنت هذه السفينة بمعرفة التاجر العربى فريد أنسوف (٤) فى اليوم العاشر من ديسمبر سنة ١٨٣٦ ، ثم أبحرت من ميناء كلكتا الهندى فى اليوم السادس والعشرين من نفس الشهر • ولم يكن للسفينة سوى الناخودا المذكور بالاضافة لرئيس الشحن ، أما بقية طاقمها فيتكون من اثنين من الضباط واثنين وعشرين من البحارة • وكان على ظهر السفينة عشرة مسافرين قدموا لأداء فريضة الحج نظرا لأن السفينة كانت متجهة الى ميناء جدة • وقد مرت السفينة بميناء « ألبى Aleppee » بناء على تعليمات رئيس الشحن حيث أضيفت الى حمولتها بضائع أخرى • كما ركبها مسافرون جدد بلغ عددهم سبعة عشر فردا كان من بينهم بعض السيدات • ثم توقفت السفينة أيضا فى ميناء « قشن » اليمنى حيث شحنت بكميات أخرى من البضائع مما جعل حمولتها تزيد كثيرا عن الحد المقرر لها •

وأخيرا أبحرت السفينة متجهة الى ميناء جدة ، غير أنها جنحت الى ساحل « أبين » على بعد ستة أميال شرقى عدن وارتطمت بصخور الساحل فى الساعة الثالثة من صبيحة اليوم الرابع من يناير ١٨٣٧ • ولم يتمكن أفراد طاقمها من انقاذها ، بل انهم هربوا فى أحد زوارق الانقاذ ، ولكنهم غرقوا جميعا • وقد

---

(١) Playfair, R.L. : A History of Arabia Felix or Yemen, p. 161.

(٢) Hoskins, H.L. : Op. cit., (B.R.I.), p. 197.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 56.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 9, Affidavit of Sayed Nouradeen, 1st August, 1837, p. 11.

علمت حكومة بومباى بهذا الحادث (١) عن طريق وكيلها فى مخا ، وهو أحد اليمنيين من سكان هذا الثغر ، وذلك بعد أن نما الى علمه تفاصيل ما حدث (٢) ٠

وقد تضاربت الأقوال حول ما حدث للسفينة « دوريا دولت » بعد جنوحها٠ فالوثائق البريطانية (٣) تروى أن قاربين عدنيين صغيرين اقتربا من السفينة بعد ظهر يوم جنوحها ، وصعد من فيهما الى سطحها حيث نهبوا ما وجدوه مع ركابها ٠ ثم كرروا فعلتهم فى اليوم التالى ، ورفضوا تقديم أية مساعدات لانقاذ الركاب بعد أن امتلأت سفينتهم بالمياه ، مما اضطرهم الى أن يلوذوا بسطحها ٠

على أن ركاب السفينة قد حاولوا الوصول الى الساحل بصنع وسيلة للوصول من ألواح الخشب المتناثرة ٠ غير أن بعض الأعراب هاجموهم وأهانوهم ولم ينقذهم من أيديهم سوى سيد يمنى من آل العيدروس (٤) وهم من رجالات عدن المرموقين فى ذلك الحين ، فأحضرهم فى قارب الى ميناء عدن وقدم لهم طعاما وثيابا (٥) ٠

وقد مكث ركاب السفينة فى عدن خمسة عشر يوما شاهدوا أثناءها حمولة سفينتهم وقد نقلت الى جمرك المدينة ، وأخذ السلطان ثلثيها ، بينما استولى آخرون على الثلث الباقى ، كما استأثر السلطان لنفسه أيضا ببقية محتويات السفينة ٠ ولهذا فقد حرص السلطان على عدم وصول أية شكوى تدينه لدى حكومة الهند ، وأجبر سيد نور الدين ناخودا السفينة الغارقة على التعهد كتابة بعدم رفع شكواه للحكومة البريطانية ٠ وقد فعل نور الدين ذلك حماية لنفسه ولبقية الركاب الذين سمح لهم بالتوجه على ظهر قارب عربى صغير الى ميناء مخا (٦) حيث لجأوا لوكيل شركة الهند الشرقية البريطانية واطلعوه على ما حدث ويقال أنه هو الآخر لم يحسن استقبالهم (٧) ٠

وبعد أن مكث ركاب السفينة « دوريا دولت » ثلاثة وعشرين يوما فى مخا أبحروا الى جده على أمل اللحاق باحدى سفن الشركة لتعود بهم الى بومباى ٠ وعندما لم يتحقق أملهم عادوا ثانية الى مخا على ظهر سفينة هندية حيث وجدوا

---

(١) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد الاول ، مارس ١٩٦٩ ، المقال السابق ، ص ٢١٢ ٠

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 31.

(٣) I.O., B.P.S.C., Superintendent of Indian Navy to Bombay 7/21/37.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 9, Affidavit of Sayed Nouradeen, 1 August, 1837 pp. 10, 13.

(٥) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ٠

(٦) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 4. Statement of Facts relative to the loss of the ship of Doria Dowlut, with the signatures of the Nakhooda and others (without date), p. 7.

(٧) احمد فضل بن على محسن العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٤٣ ٠

سفينتين تابعتين للشركة هما « كوت وبالينورس Coote and Balinurus » فاستقلوا السفينة الأخيرة حيث أطلعوا قبطانها « هينز » على ما حدث لهم (١) · وتم نقلهم بعد ذلك الى بومباى ·

وكان الضابط البحرى « هينز » قد تبين فى شهر أبريل سنة ١٨٣٧ أن البضائع التى أخذت من السفينة « دوريا دولت » تباع فى أسواق عدن (٢) بأقل من ثلث قيمتها · ولهذا فانه قام بإخطار سلطان لحج وعدن بضرورة المحافظة على تلك البضائع حتى يتم الاتفاق بشأنها مع السلطات البريطانية فى الهند ، خاصة وأنها لابد أن تطلب منه تقريرا عما حدث للسفينة الهندية الجانحة ولركابها · ولم يقبل « هينز » الدعوة التى وجهت اليه من السلطان محسن لزيارته فى لحج لمعرفة تفاصيل ما حدث ، وأصر على ضرورة اعادة تلك البضائع المنهوبة الى أصحابها ·

وقد أثيرت آراء متناقضة حول الأسباب التى أدت الى غرق السفينة « دوريا دولت » · فقد قيل أن البريطانيين عمدوا الى تدبير جنوح السفينة بالقرب من عدن (٣) ، فى منطقة يسكنها البدو الفقراء لاغرائهم على نهبها ليكون ذلك سببا يتذرعون به لفرض سيطرتهم على هذا الميناء (٤) · كما ظهر رأى آخر يقول — مستندا الى الوثائق البريطانية — (٥) بأنه كانت هناك مؤامرة بين ناخودا السفينة ورئيس الشحن بها حتى يقوم الأخير بشحنها بحمولة تزيد كثيرا عن طاقتها حتى تجنح الى الساحل وتتعرض حمولتها للغرق · وأن السبب فى ذلك هو أن صاحب البضائع التى كانت تحملها السفينة كان قد أمن عليها بمبلغ يفوق بكثير قيمتها الأصلية وأنه كان يريد أن يحصل على قيمة التأمين ، (٦) ويعطى لشريكيه نصيبهما · وان كان يتعارض مع الرأى الأخير احتمال اقدام ناخودا السفينة ورئيس الشحن على المغامرة باغراق السفينة وهى مصدر رزقهما ·

ومن هنا فاننا نرجح الرأى القائل بأن جنوح السفينة قد حدث دون تدبير أو افتعال وان ما تعرضت له كان نتيجة لسوء تقدير بحارتها وثقل حمولتها من جهة ، والى فعل العوامل الجغرافية من هبوب الرياح واحتدام الأمواج

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 1, The Superintendent of the Indian Navy to the Governor of Bombay 31 July 1837, p. 5.

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 31.

(٣) قحطان محمد الشعبى : الاستعمار البريطانى ومعركتنا العربية فى جنوب اليمن (عدن والامارات) ، ص ١١ .

(٤) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٥) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 3, Haines to the Superintendent of the Indian Navy, 6 July 1837, p. 6.

(٦) Waterfield G. : Op. cit., p 39.
Foster, L. : Landscape with Arabs, pp. 18, 19.

وارتطام السفينة بصخور الساحل القريب من عدن من ناحية أخرى (١) • ومثل هذه الحادثة غير مستغربة ، بل كثيرا ما تحدث مثيلاتها فى هذه المياه عند الساحل الجنوبى للجزيرة العربية والساحل الشرقى لافريقيا • غير أن السلطات البريطانية فى الهند وجدت فى هذه الحادثة فرصتها الذهبية فاستغلتها استغلالا فاحشا لكى تتمكن من تحقيق مآربها وتنفيذ مخططها للسيطرة على عدن بعد أن تبينت أهميتها الحيوية للمصالح البريطانية (٢) •

ويهمنا فى هذا المقام أن نؤكد بأن نهب الأعراب للسفينة الجانحة « دوريا دولت » لم يكن ليبرر لبريطانيا على الاطلاق أن تفكر فى احتلال عدن،خاصة وأننا سنجد أن سلطانها قد وافق على دفع الجزء الأكبر من قيمة التعويض الذى طلب منه عن البضائع المنهوبة كما أنه تعهد بدفع الباقى أيضا • كما سبق أن وقعت حوادث نهب مماثلة لبعض السفن البريطانية على سواحل الصومال المواجهة لعدن فى تلك الفترة ، ومع ذلك لم يتخذ البريطانيون منها ذريعة لاحتلال بلاد الصومال كما فعلوا بالنسبة لعدن • وكل ما قام به البريطانيون حينذاك هو أنهم ارتبطوا بمعاهدات مع الصوماليين بأن لا تتكرر عمليات النهب ، وتعهد الصوماليون بحماية أرواح البحارة وشحنات السفن الجانحة • وقد عقدت أولى هذه المعاهدات فى سنة ١٨٣٧ بين « الكابتن بريمر Captain Breemer وزميله « تامار Tamar » وبين شيوخ قبيلة « حبر أول Habr Awal » وذلك عقب حادثة جنوح السفينة البريطانية « ماريان Marianne »وقتل بحارتها على مقربة من ميناء بربرة على الساحل الصومالى (٣) •

وعلى أية حال فان البريطانيين لكى يحققوا ما كانوا يهدفون اليه من وراء تلك الحادثة — رغم الاعتبارات التى أوضحناها — فقد طالبوا السلطان محسن العبدلى سلطان لحج وعدن بارجاع البضائع المنهوبة من السفينة الجانحة ، وتقديم تعويض عما لحق بها وبركابها • وقد رأى البريطانيون أن ذلك لن يتم الا بالضغط على السلطان لاستخلاص التعويض منه وحسم الأمور (٤) ، وذلك على النحو الذى بدا واضحا فى مذكرة حاكم بومباى المؤرخة فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٣٧ بشأن حادثة السفينة ، وجاء فيها : « ان الاعتداء الشائن الذى ارتكبته سلطات عدن ضد الأشخاص والممتلكات فى سفينة تحمل العلم البريطانى وتتمتع بالحماية البريطانية ، يحتاج الى اهتمام سريع واجراءات حاسمة » (٥) •

---

(١) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٨ •

(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الاحمر ، ١٨٦٣ — ١٨٧٩ ، ص ٩٨ •

(٣) Touval, Saadia : Somali Nationalism, Ph. D. Thesis, Harvard, 1963, pp. 32, 33.

(٤) I.O., B.P.S.C., Minute by Governor 8/14/37.

(٥) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 12, Minute by the Governor of Bombay, subscribed by the Commander in Chief, 14 August, 1834, p. 16.

بل ان اصرار البريطانيين على استغلال هذه الحادثة للسيطرة على عدن(١) وهو الهدف الأساسى من هذا التحايل ، قد بدا واضحا فى التقرير المرسل من « سير روبرت جرانت Sir Robert Grant » حاكم بومباى الى حاكم الهند العام حينذاك ، وجاء فيه : « ان انشاء خط مواصلات بخارى يخترق البحر الأحمر مرة فى الشهر يحتم علينا العمل على تدبير محطة خاصة بنا على ساحل بلاد العرب ، وأن ما وجه الى العلم البريطانى من اهانة فى عدن جعلنى أقرر دون ريب وبلا تردد أنه يجب علينا أن نضع أيدينا على ميناء عدن » (٢) وقد أرسل حاكم بومباى هذا التقرير ليكون برمته بين يدى حاكم الهند العـــــام فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٣٧ (٣) •

ولا شك أن اصرار البريطانيين على احتلال عدن يؤكد تقديرهم لميزاتها الطبيعية وحصانتها كما يشير الى ذلك نفس التقرير اذ جـــاء به : « ان رأس عدن الممتدة فى البحر تشكل مرتفعا صخريا يمكن اعتباره كجزيرة لا تتصل بالأرض الداخلية الا عن طريق شقة ضيقة من الأرض على هيئة شريط رفيع تغمره المياه خلال فترة طويلة من السنة ، ويمكن لعدد قليل من الرجال أن يحافظوا عليه ضد أى هجوم • أما مدينة عدن نفسها فهى محاطة بالجبال وتكفى للدفاع عنها قوة صغيرة • وفى مواجهتها جزيرة طولها ١٢٠٠ ياردة وعرضها ١٧٠٠ ياردة وارتفاعها حوالى ٤٣٠ قدما ، ويمكن بناء استحكامات للقوات العسكرية عليها » ، ويقصد حاكم بومباى بذلك جزيرة صيرة التى تحرس الجانب الشرقى لشبه جزيرة عدن وتشرف على الميناء الشرقية (٤) •

ويستطرد حاكم بومباى فى تقريره الذى بعث به الى الحاكم العام للهنـــد موضحا مزايا عدن من زوايا متعددة ، فقد جاء به « وتمتاز مياه الشرب فى عدن بأنها جيدة ، ومناخها صحى ، وتدل الآثار وبقايا الخزانات المتســـعة الموجودة بها (٥) على أنها كانت منذ القدم مدينة ذات أهمية عظيمة • ويمكن لميناء عدن اذا نظمت ادارته أن يصبح ميناء هاما لتصدير حاصـــلات بلادالعرب من بن وصمغ وتوابل ، كما يمكن من هذا الميناء التحكم فى الطريق البحرى التجارى الذى تعبر من خلاله المنتجات البريطانية والهندية ، فضلا عن كونه

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 51, The Secretary to the Bombay Government to the Secretary to the Government of India, 15 September 1837, p. 18.

(٢) F.O., Bombay Government to the Governor General, 23, September, 1837.

(٣). Marston, T.E. : Op. cit., p. 56.

(٤) P.P. 1839, No. 268, Minute by Governor 9/23/37, pp. 18, 19. Also in B.P., S.C., 1837.

(٥) تسمى هذه الخزانات حاليا « بصهاريج الطويلة » وتقع فى حى « كريتر » بمدينة عدن ، ويرجح ان الحميريين هم الذين اقاموا هذه الصهاريج فى بداية القرن الاول الميـلادى ، وقد قمت بزيارتها اثناء وجودى فى عدن •

مركزا للتبادل التجارى بين المناطق الغنية فى اليمن وحضرموت ، كما تعد ميناء عدن سوقا رائجة تتجمع فيها البضائع الواردة من الساحل الشرقى لافريقيا . أما من ناحية صلاحية عدن لتكون مخزنا ومحطة للفحم فانه لايوجد على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية مركز أكثر ملاءمة منها لتحقيق هذا الغرض ، وذلك نظرا لوقوعها فى منتصف المسافة بين بومباى والسويس ، ويمكن للبواخر أن تدخل الميناء حتى أثناء الليل وان تفرغ شحنتها فى أمان تام، ثم تتزود بحاجتها من الفحم والماء (١) .

وتشير الوثائق البريطانية الى أن الحاكم العام للهند حينذاك كان مشغولا عن عدن نتيجة لاهتمامه الزائد بصد مطامع روسيا القيصرية واتخاذ الحيطة ضد مهاجمتها لافغانستان . لذلك كان رده مثبطا لجهود حاكم بومباى ، اذ بعث اليه يلفت نظره الى أنه لا يصح له أن يتخذ من مجرد الاهانة مبررا للاستحواذ على ميناء عدن ، واستطرد فى خطابه يقول : « وحتى اذا اعتبرنا تلك الحادثة كافية لتبرير غزو عدن فاننا بذلك نعرض أنفسنا لمشاكل واصطدامات مع المصريين ومع القوى الغربية الأخرى فى المنطقة » (٢) . ثم اختتم الحاكم العام للهند خطابه هذا بأن أسدى النصح لحاكم بومباى بمطالبة سلطان لحج وعدن بتقديم الترضية اللازمة ، وببذل الجهد بعد ذلك للاتفاق معه على اتخاذ الميناء مخزنا للفحم ومحطة للسفن البريطانية العابرة (٣) .

وبناء على ذلك سارع حاكم بومباى « سير روبرت جرانت » بارسال الضابط البحرى «هينز» الى عدن على ظهر السفينة البخارية «برنيس Berenice » ليطالب سلطانها بتقديم الترضية الكافية ثم يفاوضه بعد ذلك فى موضوع انشاء محطة للفحم بالميناء (٤) . وقد وصل هينز الى عدن فى يناير سنة ١٨٣٨ وكان يحمل معه هدايا من الحاكم العام للهند قدمها للسلطان . وقد رد السلطان على هديته بأن بعث اليه بعدد من الابقار والاغنام . ثم بدأ « هينز » يفاوض السلطان فى موضوعين أولهما تسليم المتبقى من شحنة السفينة الجانحة ، وثانيهما دفع التعويض الذى ترتضيه حكومة الهند عما تعرضت له السفينة وركابها من نهب واساءة (٥) .

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 16, Minute by the Governor of Bombay 23 September 1837, p. 18.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 57.

(٣) F.O., The Governor General to the Governor of Bombay, 15 October, 1837.

I.O., B.P.S.C., 1837, Secretary to the Government of India to Bombay, 10/16/37.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 58.

(٥) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، العدد الاول ، مارس ١٩٦٩ ، المقال السابق ، ص ٢١٣ .

وتؤكد الوثائق البريطانية أن السلطان محسن العبدلى سلطان لحج وعدن قد أنكر فى بداية الامر معرفته بنهب شحنة السفينة « دوريا دولت »(١) موضحا أنه عندما تتحطم احدى السفن فى أى ميناء هندى أو عربى فان مايحدث فى معظم الأحيان أن تفقد السفينة بركابها وحمولتها ، ولا يعد حاكم المنطقة التى جنحت عندها السفينة أو تعرضت للغرق مسئولا بأى حال من الاحوال عن رد هذه المفقودات وأكد السلطان أنه على الرغم من عدم مسئوليته عن هذا الحادث فانه قد أرسل ابنه الى مكان غرق السفينة للعمل على انقاذ وحماية ركابها وطاقمها كما أن ناخودا السفينة نور الدين قد اتفق من جانبه مع بعض الأشخاص من الشحر والصومال على أن يبذلوا جهدهم لانقاذ مايمكن انقاذه من حمولة السفينة مقابل منحهم ثلث ماينقذونه ، هذا فضلا عن قيام السلطان بارسال قارب آخر لحمل الركّاب الى البر ٠

غير أن « هينز » طلب نيابة عن حكومته من السلطان محسن أن يدفع اثنى عشر ألف ريال (ماريا تيريزا) قيمة شحنة السفينة التى كانت لا تزال تباع فى أسواق عدن حينذاك ٠ واذا لم يفعل ذلك فعليه أن يقوم باعادة شحنة السفينة كاملة غير منقوصة(٢) ٠ كما أبدى «هينز» للسلطان استعداده لاستلام الكمية الباقية من شحنة السفينة على أن يحصل على قيمة باقى الشحنةالمفقودة بحيث تصل القيمة الكلية الى اثنى عشر ألف ريال ٠ وقد أكد «هينز» للسلطان محسن اصرار حكومته على استرجاع هذا المبلغ بأى وسيلة سلمية كانت أو قهرية ٠ ولم يجد السلطان محسن مفرا من اجابة مطلب الحكومة البريطانية فانصاع لتنفيذ رغبتها على النحو الذى تصوره الوثائق البريطانية اذ ورد بها قوله : « ٠٠٠ ومن ثم أطعنا تعليمات الحكومة ، وأعدنا كل ماعثرنا عليه من شحنة السفينة ، وبلغت قيمة ماعثرنا عليه ٧٨٠٩ ريالات ، وعندما طالبنا الضابط البحرى هينز بالباقى أعطيته صكا به قيمته ٤١٩١ ريالا على أن تدفع مدى عام واحد ، أى اننا لم نكسب شيئا من هذا الأمر » (٣) ٠

وقد انبرى الضابط البحرى « هينز » يغرى السلطان محسن ليتنازل لبريطانيا عن ميناء عدن مقابل دخل سنوى مقداره ٨٧٠٠ ريال تقدمها له حكومة الهند كما تفعل مع راجات الهند (٤) ٠ وحاول هينز أن يشير الى أن

---

(١) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 162.
حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٦
وقد اشار الى ان الجانب البريطانى لم يتقبل ذلك الانكار من قبل السلطان محسن نظرا لان البضائع المنهوبة كانت معروضة للبيع فى أسواق عدن ولحج ٠

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ٠

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 47, The Sultan of Aden to the Governor of Bombay, 15 January 1838, p. 36.
Marston, T.E. : Op. cit., p. 68.

(٤) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 31.

ميناء عدن قد أصبح لاقيمة له ولا نفع منه يذكر لسلطان عدن ، وأن الميناء عرضة لأن يقع فى أيدى احدى الدول الصغرى فتصبح عدن خطرا على السلطان، وعلى أملاكه فى الداخل ، وعلى ذلك فقد يضيع منه الميناء فى النهاية بدون مقابل ويقصد « هينز » بقوله احدى الدول الصغرى انها مصر فى عهد محمدعلى حيث كانت قواتها قد وصلت الى جنوب غرب الجزيرة العربية والى سواحل الخليج العربى لتعقب فلول الوهابيين وبعض المتمردين (١) ولتثبيت النفوذ المصرى فى المنطقة بأكملها ، مما شكل خطرا على مصالح بريطانيا وخاصة بعد أن أصبح المصريون يتحكمون فى طريقى مواصلاتها الى الهند عبر الخليج العربى والبحر الاحمر على السواء .

على أن السلطان محسن قد بدا مترددا فى الموافقة على مطالب الحكومة البريطانية خشية أن يتهمه العرب داخل عدن وخارجها بأنه باع أرضه للبريطانيين ، ولهذا طلب من « هينز » أن تكون مناقشاتهما فى طى الكتمان على نحو ماتؤكده الوثائق البريطانية (٢) . كما أن السلطان فكر مليا فى الأمر ورأى من مصلحته أن يتمم الصفقة مع المندوب البريطانى حتى يتخلص من دفع باقى التعويض من جهة ، وينتفع بالدخل السنوى الذى ستقرره له حكومة الهند البريطانية من جهة أخرى . وكان يأمل فى نفس الوقت ان تاتيه نجده على أيدى المصريين فتزحف قواتهم وتنقذ عدن من براثن البريطانيين اذا هم احتلوا الميناء عنوة . ولم يستبعد السلطان حدوث ذلك فعلا خاصة وأنه قد استفسر من « هينز » عما اذا كانت الحكومة البريطانية سوف تعامله كحليف لها تدافع عن بلاده ضد أى هجوم ، غير أنه لم يتلق اجابة حاسمة من « هينز » الذى أوضح للسلطان أنه لايملك الاجابة على هذا الاستفسار وان كان قدأبدى استعداده لابلاغ هذه الرغبة لحكومته . ولهذا طلب السلطان محسن مهلة من الوقت لتدبير الامر مع القبائل التابعة له ، وقد سمح « لهينز » بصفة مبدئية باختيار الموقع المناسب لاقامة محطة للفحم فى عدن . وقد اختار « هينز » « رأس ابن جاربيان » أو « الشيخ حامد » لتكون مخزنا ومحطة للفحم لتموين السفن البخارية التى تمر بميناء عدن (٣) .

وقد علق « الكولونيل جاكوب » على هذه المفاوضات التى دارت بين « هينز » والسلطان محسن بقوله : « ان تلك المفاوضات تطلبت كثيرا من اللباقة لان السلطان امتاز بمكره وحذره كشرقى أصيل ، وكان خوف السلطان من رجال قبيلته هو الذى منعه من تسليم عدن بصورة مكشوفة لأن رجال القبيلة ربما

---

(١) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهره ، العدد الاول ، مارس ١٩٦٩ المقال السابق ، ص ٢١٤ .

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 24, The Sultan of Aden to C. Haines, 21 January 1838.

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

طالبوه بحصتهم من الثمن » (١) • على أنه مما لا شك فيه أن السلطان كان يرغب في نفس الوقت فى تدعيم قوته ولهذا طلب من « هينز » أن يمده بستة مدافع وبعض الذخيرة ليواجه عدوه سلطان قبائل الفضلى المجاورة لعدن بعد انتهاء الهدنة المعقودة بينهما • غير أن « هينز » اعتذر عن مطلب السلطان محسن موضحا أن أمر تزويده بأية أسلحة أو ذخائر يستلزم بالضرورة موافقة الحكومة البريطانية ، واقترح على السلطان أن يكتب الى الحكومة برغبته لتمده بالسلاح (٢) •

وقد تسلم « هينز » من السلطان محسن خطابا يعزز اتفاقهما ويتضمن الموافقة على تحويل أية نقطة من أرض عدن تصلح كمخزن ومحطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمؤن اللازمة كما قام « هينز » بتسليم السلطان نسخة من مشروع معاهدة تخفى وجود أى ضغط عليه من قبل الحكومة البريطانية (٣) • ومن الغريب حقا أن يؤكد « هينز » ثقته فى أن سكان عدن سيرحبون برفع العلم البريطانى على مدينتهم ، كما ذكر أيضا أن أهالى عدن لن يشكلوا عقبة فى سبيل تحقيق ما تصبو اليه الحكومة البريطانية (٤) • غير أن هذا الرأى يتعارض تماما مع المقاومة العربية الضارية التى واجهها البريطانيون أثناء هجومهم على عدن وبعد سيطرتهم عليها بفترة طويلة •

على أن ماذكره « هينز » يتفق فقط مع موقف الجالية اليهودية المقيمة فى عدن • وكان معظمهم يشتغلون بالاعمال التجارية فى المدينة ، كما كانوا يقومون بالأعمال المالية والمحاسبية لدى شيوخ القبائل (٥) ، وببعض الصناعات المعدنية وأعمال التجارة وغيرها من الحرف المختلفة (٦) • وقد شكل يهود عدن فى مجموعهم طابورًا خامسا بالنسبة للمصالح البريطانية فى المدينة وعملوا عيونا وجواسيس « لهينز » (٧) حتى شكل منهم جهازا خطيرا للمخابرات وجمع المعلومات (٨) قبيل وفى أثناء الاحتلال البريطانى لعدن وفى أعقابه لأمد طويل (٩) وقد بلغ تعداد يهود عدن عند بداية وصول « هينز » اليها ٢٥٠ يهوديا من جملة

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 31, 32.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 21, C Haines to the Superintendent of the Indian Navy, 20 January 1838, pp. 20, 21.

(٣) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٨٤ •

(٤) Waterfield, G. : Op. cit., p. 52.

(٥) Marston, T.L. : Op. cit., p. 77.

(٦) أحمد فخرى (دكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٣٤ — ٣٥ •

(٧) I.O., P.D., S.L.D., No. 37 of 1845, C. Haines to the Honible J.P. Hilloughby Esquire, Chief Secretary to Government of Bombay, Aden 28 April 1845.

(٨) Marston, T.B. : Op. cit., pp. 77, 82.

(٩) كان اليهود يتجسسون على اليمن وشعبه لصالح البريطانيين وكانوا يكتبون رسائلهم الى السلطات البريطانية باللغة العبرية حتى لا يعرف العرب فحواها •

سكان المدينة البالغ عددهم حينداك ٦٠٠ نسمة (١) على نحو ماورد فى تقريره الذى أرسله الى حكومة الهند عقب احتلال عدن (٢) ·

على أن تطورا جديدا قد طرأ على الموقف فى عدن فى اليوم الحادى عشر من يناير سنة ١٩٣٨ عندما أوضح « هينز » للسلطان محسن أن حكومتهفوضته للاتفاق معه على شراء ميناء عدن والمنطقة المحيطة بها والتى تمتد شمالا حتى خور مكسر وتتصل بموانى جوبة التواهى ، وبندر صيرة ، وبندر دوراس ، وخلجان صيره الصغيرة ، وبقية الجزر المجاورة · وحاول « هينز » أن يؤكد للسلطان أن رفع العلم البريطانى على عدن سيضمن سلامة ممتلكاته من جهة ويضاعف من دخله برواج الحركة التجارية بين عدن والمدن الداخلية نتيجة للتوسع فى عمليات التصدير والاستيراد على أيدى البريطانيين من جهةأخرى· ولم يغب عن « هينز » أن يبالغ ويهول من الخطر المحدق بعرش السلطانمحسن من القوات المصرية الزاحفة فى الجزيرة العربية والتى لم تكن فى ذلكالوقت بعيدة عن عدن (٣) كما حاول « هينز » أن يستثير قلق السلطان محسن عندما ذكر له أن عدن قد تصبح فى وقت قريب مطمعا لبعض القوى الاجنبية فتتحول بذلك شوكة فى جنب السلطان بدلا من أن تكون فى يد البريطانيين مركزا للدفاع عن السهول الداخلية الخصبة وحماية ممتلكاته (٤) ·

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٩٧ ·

(٢) I.O., B.S.C., 1839. Haines to Bombay 2/5/39.
Waterfield, G. : Op. cit., p. 26.

فاروق عثمان أباظة (دكتور) : الحكم العثمانى فى اليمن (١٨٧٢ — ١٩١٨) ، ص٤٩ — ٥٠ ·

تجدر الاشارة الى أن اليهود اليمنيين يرجع تاريخهم فى بلاد اليمن منذ عهد الحميريين ، كما كانوا يعيشـون متفرقين فى جميع بلاد الهضبة اليمنية وفى الموانى حيث تنشط الحركة التجارية كما هو الحال فى مخا وعدن . وقد وجد اليهـود بين الزيديين فى اليمن تسامحا نسبيا ، وكان فى صنعاء وحدها نحو سبعة آلاف يهودى . وكانت قراهم المتفرقة فى جميع بلاد الهضبة اليمنية تبلغ ٣٥٩ قرية ، كما كانت تبنى اما وحدها بعيـدة قليلا عن قرى جيرانهم المسلمين ، أو يكونون لانفسهم حيا خاصا داخل المدن « كقاع اليهود » فى صنعاء . وكان معظمهم من أصحاب الحرف وخاصة الدقيقة .

واثناء وجود الأتراك العثمانيين فى اليمن اظهروا اهتماما باليهود هناك ، وحرصوا على اشعارهم بالأمن والطمأنينة ، واعتبروهم أحد العوامل المنشطة لاقتصاديات البلاد . وفى مدينة مناخة الواقعة فى غرب صنعاء والتى كانت أحد المراكز الهامة للاتراك ، كان يعيش هناك أمهر محترفى صناعة المعادن والنجارين من اليهـود ، وقد سمح لهم الأتراك بامتلاك الحدائق الأراضى ، غير أنهم لم يسمحوا لهم باقامة لمدارس أو المعابد فاكتفوا باقامة بيـوت غير مطلية ليقيموا فيها شعائرهم . وقد قل الاهتمام باليهود بعد أن استعاد الائمة سيطرتهم على البلاد اثر جلاء العثمانيين عن اليمن فى أعقاب الحرب العالمية الاولى مما جعلهم يستجيبون للدعاية الصهيونية ويهاجرون الى فلسطين وخاصة فى أعقاب حرب عام ١٩٤٨ .

(٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتـور) : المصدر السابق ، ص ١٠٠ ·

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 23, C: Haines to the Sultan of Aden, 11 January 1838, p. 22.

ويواصل « هينز » تحايله باتباع أساليب الضغط السياسى لاجتذاب السلطان وحثه على عقد معاهدة (١) يوافق فيها على نقل ملكية عدن والمنطقة المحيطة بها للحكومة البريطانية حتى قدم اليه مشروعا لتلك المعاهدة مترجما باللغة العربية (٢) • وقد أبدى « هينز » للسلطان استعداد حكومته لدفع اية مبالغ يطلبها ثمنا لتلك الاراضى كما تعهد بأن السلطان سيعامل بكل مظاهر الاحترام التى تليق بمكانته ، وأن له مطلق الحرية فى الاقامة بعدن مع احتفاظه بملكيته لمنزليه الكبيرين فيها (٣) • وهكذا تتضح لنا أساليب التحايل بالترهيب تارة والترغيب تارة أخرى ، وهى الاساليب التى اتبعها الضابط البحرى البريطانى « هينز » الممثل لشركة الهند الشرقية البريطانية حينذاك مع السلطان محسن العبدلى سلطان لحج وعدن تحقيقا للمصالح البريطانية الاستعمارية فى منطقة البحر الاحمر التى استلزمت السيطرة على ميناء عدن الهام •

وقد حرص السلطان محسن العبدلى على مراوغة البريطانيين بالاتصال بحاكم بومباى البريطانى فى اليوم الخامس عشر من يناير سنة ١٩٣٨مستفسرا عن حقيقة ماتقصده الحكومة البريطانية بالنسبة لعدن ، وعما اذا كان مطلبها منه يتفق والمعاهدة التى سبق أن عقدت بين سلفه السلطان أحمد عبدالكريم العبدلى وشركة الهند الشرقية البريطانية فى سنة ١٨٠٢ ، وذلك نظرا لأن « هينز » سبق أن أوضح له أنه بموجب الاتفاق الجديد ستكون الاراضى الداخلية ملكا للعرب ، بينما تصبح الموانى ملكا للبريطانيين • وقد أوضح السلطان محسن لحاكم بومباى أن هذا الامر يسلب رعايا العرب مواردهم ويفقدهم كرامتهم وأنه يرى امكانية الاتفاق على أن يظلوا أصدقاء لا يتعرض أيهما للآخر بسوء • كما طلب السلطان محسن من حاكم بومباى وجوب انقاص قيمة التعويض الخاص ببقية حمولة السفينة الجانحة « دوريا دولت » المقدرة بمبلغ ٤١٩١ ريالا والتى تعهد بدفعها للحكومة البريطانية ، موضحا أن تحميله هذا المبلغ أمر لا يتفق ومبادىء العدالة (٤) •

على أن ثمة عوامل جديدة أثرت فى مجريات الاحداث حينذاك اذ وجه السلطان محسن خطابا الى « هينز » فى ٣١ يناير سنة ١٨٣٨ كما بعث اليه ممثله الشخصى رشيد بن عبد الله الذى طلب منه أن يتصل بالسلطان الفضلى ليوقف عملياته العدوانية ضد العبادلة فى لحج • وكان ذلك أول مطلب من

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 31.

(٢) I.O., B. 209, Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, p. 8.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 23, C. Haines to the Sultan of Aden, 11 January 1838 p. 22.

(٤) I.O., I.B., I.F., F. 23, C.R.A., No. 47, The Sultan of Aden to the Governor of Bombay, 15 January 1838, pp. 36-37.

توعه يوجهه السلطان محسن للضابط البريطاني « هينز » ليتدخل في اقرار المنازعات الداخلية بين قبائل جنوبي اليمن · وكان « هينز » سياســـيا في اجابته على هذا الطلب الفريد ، اذ أنه وعد السلطان بتحقيق مطلبه غير أنه ركز كل اهتمامه حول الموضوع الذي جاء من أجله وهو نقل ملكية عدن لحكومته ولهذا طلب من السلطان أن يحدد الثمن الذي يريده في مقـابل ذلك · وكان « هينز » يعلم جيدا أن السلطان محسن يراوغه ويماطله عندما أبدى له ضرورة رجوعه الى شيوخ القبائل التابعة له بحجة أنه كان يخشى جانبهم (١) واعتبر أن هذا الموقف من جانب السلطان كان ينطوي على ادعاء كاذب ·

على أن « هينز » في نفس الوقت قد حقق غايته عندما حصل على موافقة السلطان محسن عن طريق ممثله رشيد بن عبد الله على مبدأ نقل ملكية عدن للحكومة البريطانية وذلك في نهاية هذه المفاوضـــات · ولم يذكر الســـلطان بالتحديد الثمن الذي يريده في مقابل ذلك ، غير أنه أوضح اعتماده على عدن بالدرجة الاولى للحصول على ايراداته التي يعطي منهـا لجـيرانه الرواتب التي يتقاضونها منه · كما أكد السلطان « لهينز » أن الحكومة البريطانية يجب أن ترضي هؤلاء جميعا كما يجب عليها في نفس الوقت أن ترضى سكان عدن بصفة خاصة لتضمن بذلك استقرار الامور في يدها وقد تشبث السلطان محسن بأنه اذا ماتحولت عدن لملكية الحكومة البريطانية فانه ينبغي عليها أن تمنحه اما نصف حصيلة الضرائب أو راتبا شهريا أو سنويا ، هذا فضلا عن اعترافها بطبيعة الحال بسيادته على رعاياه في عدن ، كما تحتفظ هي الاخرى بالسيادة على رعاياها البريطانيين في المدينة · وأنهى السلطان محسن رسالته الى « هينز » بقوله أنه اذا لم يحدد البريطانيون موقفهم خلال شهرين وتعرضت المنطقة لتدخل العثمانيين أو أية قوى أخرى ، فانه غير مسئول عن النتائج التي تترتب على ذلك (٢) ·

على أن « هينز » قد أراد حينذاك أن يحسم الموقف بناء على تعليمـــات حكومته على أن يتنازل السلطان عن عدن مقابل المبلغ المتفق عليه · وأوضـــح « هينز » للسلطان أنه لن يحتفظ بسلطاته في عدن بعـد تحـويل ملكيتهـا لبريطانيا لأن جميع سكانها سيصبحون رعايا بريطانيين ، وان كان سيســـمح للسلطان بدخول عدن في أي وقت يريده (٣) كما أن « هينز » أوضح أيضا أن كل من يريد أن يكون من رعايا الســـلطان فعليه أن ينتقـل الى الاراضي التي يحكمها ، ولن يرغم البريطانيون أحد على البقاء في عدن · وقد أكد « هينز » أن ذلك لن يتعارض مع مظاهر الاحترام التي ســـتقدمها الحـكومة البريطانية

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 31.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 23, The Sultan of Aden to C. Haines, 18 January 1838, pp. 29-30.

(٣) I.O. B.S.C., 1838, C. Haines (Aden) to Bombay 1/20/38.

للسلطان أثناء تواجده فى عدن • وأخيرا ألح « هينز » على السلطان ليعرف المبلغ المطلوب ثمنا لعدن ، ولم يفته أن يوضح له أيضا رفض الحكومة البريطانية لمطلبه الخاص بدفع نصف ايرادات جمارك عدن ، نظرا لأن هذه الايرادات كانت قليلة جدا وكان من المتوقع أن تزداد تبعا للجهود التى ستقوم بها الادارة البريطانية بعد أن تصبح مسئولة عن المدينة • وحاول « هينز » أن يبرز اتجاه النشاط التجارى فى عدن الى الاضمحلال لدرجة بلغت معها ايرادات السلطان ستة آلاف ريال فقط • وكان « هينز » يقصد من وراء ذلك اقناع السلطان محسن بحسم الموضوع ونقل ملكية عدن لبريطانيا وتحديد المبلغ الذى سيتقاضاه نظير تنازله عن عدن (١) •

ولكن السلطان محسن أصر على موقفه بضرورة بحث الامر مع رجال قبائله ، كما تمسك باستمرار سيادته على رعاياه فى عدن على أن تكون سيادة البريطانيين أيضا على رعاياهم فيها بعد انتقال ملكيتها اليهم • ولم يقبل السلطان بأى حال من الاحوال أن يتنازل عن نصيبه من ايرادات عدن خاصة اذا ماعتراها الانتعاش وزادت عما كانت عليه حينذاك (٢) • وقد أرسل السلطان الى « هينز » مندوبه رشيد بن عبد الله ، حيث استقبله على ظهر سفينته فى اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٣٨ • وقد أوضح رشيد « لهينز » بأن المبلغ المطلوب لنقل ملكية عدن للبريطانيين هو ٨٧٠٠ ريال سنويا (٣) بدلا من دفع مبلغ كبير دفعة واحدة مما يؤدى الى اثارة طمع جيرانه ويثير القلاقل ضده • ويبدو أن السلطان رأى أن تقاضيه لراتب سنوى سوف يؤكد بصفه دائمة مكانته فى عدن تحت الحماية البريطانية ، كما يؤدى الى وجود علاقة مستمرة بينه وبين البريطانيين تساعده على الاستعانة بهم اذا ما تعرضت أراضيه لعدوان القبائل المجاورة •

وهنا أبدى « هينز » استعداده لمقابلة السلطان محسن أو ابنه أحمد صباح يوم ٢٧ يناير سنة ١٨٣٨ ، وقد وصل فعلا الى ميناء عدن فى أحد قوارب السفينة « كوت » ونزل الى البر وبرفقته الملازم « سوان Swan » و « هاملتون Hamilton » غير أنه فوجىء بأنباء مؤامرة تحاك ضده على حد تعبير الوثائق البريطانية (٤) • مما اضطره للعودة مسرعا الى ظهر سفينته (٥)

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 35, C. Haines to the Sultan of Aden, 24 January 1838, pp. 30, 31.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 36, The Sultan of Aden to C. Haines (without date), p. 31.

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 31.
Waterfield, G. : Op. cit., p. 52.

(٤) I.O., B.S.C., 1838, Haines (Mocha Roads) to Bombay, 2/3/38.

(٥) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 31, 32.
ذكر « الكولونيل جاكوب » ان اعرابيا قال « لهينز » فيما بعد احتلال عدن : لو لم يكن الله

وتشير هذه الوثائق الى أن الامير أحمد بن محسن كان قد توجه الى قرية يقوم فيها صهره حيث أقسم وأقسم معه الجميع هناك على أن يقوموا بأسر «هينز» وأن يستولوا على كافة المستندات التى جمعها منذ بداية وصوله الى بلادهم (١) وأعد أحمد بن محسن كل الترتيبات اللازمة لوضع حد لتطلعات « هينز » وحكومته ٠ وقد رافق أحمد مائة رجل توجهوا معه الى عدن ، بينما استعد مائة وخمسون رجلا آخرين عند الشيخ عثمان لنجدته اذا ماتدخل بحارة السفن البريطانية الراسية فى الميناء لتخليص « هينز » من الأسر ٠

غير أن ثمة ملاحظة تثير الدهشة أوردتها الوثائق البريطانية عند ما أشارت الى أن رشيد بن عبد الله ممثل السلطان قد أرسل رسالة الى المترجم الذى قام بالترجمة بينه وبين « هينز » ينبهه فيها الى خطورة الموقف والى عزم الامير أحمد بن محسن واصراره هو ومعاونيه على أسر « هينز » وأخذ مايحمله من مستندات تتعلق بنقل ملكية عدن للحكومة البريطانية ٠ وقد ترتب على كشف « هينز » لما كان يدبر ضده (٢) أن وجه خطابا الى الامير أحمد (٣) يدعوه فيه الى زيارته على ظهر سفينته دون أن يظهر له معرفته بما كان يحاك ضده من تآمر عندما نزل الى عدن ٠ وقد أبدى « هينز » للامير أحمد ضرورة حصوله على تحديد معتمد كتابة للمبلغ اللازم دفعة مقابل التنازل عن عدن (٤) وذلك فى حالة ما اذا كانت السلطة قد انتقلت اليه فعلا من والده ٠ وعندما أجاب أحمد على « هينز » بأنه مفوض فعلا من قبل والده لوضع الترتيبات النهائية وعقد المعاهدة اللازمة (٥) أصر « هينز » على أن تتم المقابلة بينهما على ظهر سفينته ٠ وحاول أن يبرر مطلبه هذا بقوله ان ذلك سيكون أكثر ملاءمة من ناحية السرية حيث يمكنهما مناقشة الموقف وتنظيم الامور دون أن يتعرف أحد من أفراد الشعب فى السلطنة على نتائج مباحثاتهم ٠

غير أن الامير أحمد بن محسن طلب من « هينز » أن يحضر بنفسه الى عدن لاتمام الاتفاق وليؤكد روح الصداقة بينهما ، وعندما تخلف « هينز » عن الحضور لتوقيع الاتفاق بعث أحمد اليه رسالة شديدة اللهجة أوضح له فيها حقيقة موقفه بقوله : « ٠٠ اذا كنت تريد أن تمتلك عدن ، فان أهل عدن

فى جانبك طول الوقت لما أمكنك ان تحكم عدن . واذا كان هذا القول صحيحا فهو تملق ملحوظ، ولكنه يظهر فى نفس الوقت عمق عداء العرب « لهينز » ومحاولاتهم للقضاء عليه .

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ٠

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 54, C. Haines to the Superintendent of the Indian Navy, 3 February 1838, pp. 25, 27.

(٣) Graham, G.S. : Op. cit., p. 294.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 40, C. Haines to Sultan Ahmed, 28 January 1838, p. 33.

(٥) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 41, Sultan Ahmed to C. Haines, 28 January 1838, p. 33.

لايريدونكم ، وصدقني فان ما أقوله هو الحقيقة .. » (١) كما ذكر العبدلي أن الامير أحمد بن محسن هدد « هينز » بقوله : « .. ان كلمتي لهي العليا . فاذا جئت الى باب عدن لمقابلة السلطان فتحنا لك الباب وقطعنا رأسك بالسيف . وهكذا عادة البدو » (٢) . وهاتان الروايتان تؤكدان الموقف الصلب الذي أصر عليه أحمد بن السلطان محسن العبدلي ، وكان يأبى أن يقدم بلاده لقمة سائغة لافواه البريطانيين الشرهة .

وهنا ثبت « لهينز » بما لايدع مجالا للشك حقيقة موقف الامير أحمد بن محسن وتأكد من تآمره ضده وسعيه لاختطافه . ولهذا بعث اليه هو الآخر خطابا شديد اللهجة يهدد فيه بأنه سيسارع باخطار حكومته بالمؤامرة التي تحاك ضد مصالحها ، لتتخذ ماتراه ضروريا لمواجهة هذا الموقف من قبل السلطان وابنه ، خاصة بعد أن أصبحت عدن بموجب تنازل السلطان محسن ملكا للبريطانيين . كما قام « هينز » بتهديد السلطان محسن نفسه وبتحذيره من مغبة تصرفات ابنه أحمد التي تنطوي على العداء الكامل للبريطانيين وأنها ستؤدي في نهاية الامر الى الندم(٣) .

وفي نفس الوقت الذي استعمل فيه « هينز » أساليب التهديد والضغط نجده يعرض في محاولة أخيرة على الامير أحمد بن محسن استعداده للتغاضي عن الاهانة التي وجهت اليه اذا ماحدد والده السلطان محسن المبلغ المطلوب نظير التنازل عن عدن لبريطانيا ، والتعهد ببدء صفحة جديدة للعلاقات الطيبة بين الجانبين . غير أن هذه المحاولة باءت كمثيلاتها السابقات بالفشل الذريع نتيجة لتمسك السلطان محسن وابنه أحمد بعدم التنازل عن عدن للبريطانيين(٤) .

وقد بعث السلطان محسن العبدلي رسالة الى الحاكم العام للهند لخص فيها قصة السفينة الهندية الجانحة وما دار حولها من مفاوضات بينه وبين الضابط البحري البريطاني « هينز » واختتم السلطان رسالته بقوله : « بعد ذلك وصل الى أسماعنا أن في عزمكم رفع العلم البريطاني على الميناء ، وسألنا هينز عن معنى ذلك ، فقال ان الارض ستبقى ملكنا .. أما الميناء فلكم .. ألا فلتعلموا جنابكم أنه يهون على العربي أن يبيع حتى أمه على أن يقبل مثل هذه الصفقة . فاذا كان لجنابكم مصلحة عاجلة أو دائمة في عدن فاننا على استعداد

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA. No. 43, Sultan Ahmed to C. Haines, 29 January 1838, p. 34.
F.O., Hamed to Haines, 29 January 1838.

(٢) أحمد فضل بن علي محسن العبدلي : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 46, C. Haines to Sultan of Aden, 30 January 1838, p. 35.

(٤) I.O., B. 209, Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, pp. 8, 9.

بأن نستطلع بها نيابة عنكم ، فاصدقاؤكم أصدقاؤنا ، وأعداؤكم أعداء لنا ٠ ولكن علينا أن نعيش كل تحت علمه ، وأن تتركونا نعيش تحت علمنا ٠ونحن من جانبنا لا نضمر لكم سوءا وبوسع كل منا أن يعيش بموارده ٠ فاذا ماهاجمتمونا برا وبحرا فأمرنا لله القوى العظيم » (١) ٠

وهكذا توقفت المفاوضات بين « هينز » من جهة والسلطان محسن فضل العبدلى وابنه أحمد من جهة أخرى عند هذا الحد دون أن يتفق كلا الجانبين على نقل ملكية عدن للحكومة البريطانية ٠ وفشل « هينز » رغم اتباعه أساليب التحايل السياسى المصحوب بالترغيب أحيانا والترهيب أحيانا أخرى فى الحصول على تنازل رسمى من أصحاب البلاد الشرعيين ٠ ولهذا بدأ البريطانيون يتحايلون للاستيلاء على عدن باستخدام أساليب الضغط الحربى ليحققوا من وراء سيطرتهم على هذا الميناء الحيوى الهام مصالحهم الاستعمارية فى منطقة البحر الاحمر ٠

اساليب الضغط الحربى :

بعد أن فشل البريطانيون فى التمهيد للسيطرة على عدن باتباعأساليب الضغط السياسى فانهم لجأوا بعد ذلك الى اتباع أساليب الضغط الحربى ، وبذلك بدأ دور جديد فى سياسة البريطانيين التى اتبعوها لتحقيق مآربهم فى منطقة البحر الاحمر ٠

وقد بدأ هذا الدور عندما عاد « هينز » الى بومباى فى شهر فبراير سنة ١٨٣٨(٢) ٠ وقدم لحكومته تقريرا أوضح فيه امكانية السيطرة على عدنمقابل منحة سنوية تدفع للسلطان مقدارها ٨٧٠٠ ريال ، ولكنه اقترح على حكومته فى نفس الوقت أن تستولى على عدن بالقوة منتهزة فرصة الاهانة التى وجهت للرعايا البريطانيين من خلال حادثة السفينة « دوريا دولت » ٠ وقد أوضح « هينز » فى تقريره أنه يمكن الاستيلاء على عدن دون التعرض لخسائر فادحة ، كما أوصى بضرورة بقاء القوة التى ستحتل المدينة لحراستها بعد ذلك على أن تساندها من البحر سفينتان أو ثلاث من سفن الاسطول الهندى البريطانى ،

---

(١) مجلة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، العدد الاول ، مارس ١٩٦٩ ، المقال السابق ، ص ٢١٦ ٠

وقد استند الاستاذ محمد رفعت الى سجلات وزارة الخارجية البريطانية :

F.O. Records : Sultan Hussein's Letter to the Governor General, 1838.

وذكر أنه لاحظ أن اسم سلطان عدن يشار اليه فى هذه الوثائق بانه « حسين » ويؤكد العبدلى أن الاسم الحقيقى للسلطان هو « محسن بن فضل » ، وهو ما تحققت من صحته أثناء دراستى للوثائق والنصوص المختلفة فى المصادر المعاصرة ٠

(٢) Graham, G.S. : Op. cit., p. 294.

بالاضافة الى ماسبق ذكره من أن « هينز » قد أكد مرارا لحكومته فى تقريره هذا أن أهالى عدن لن يشكلوا عقبة فى وجه رغبات البريطانيين وتطلعاتهم الامر الذى يتناقض تماما مع المقاومة التى واجهها البريطانيون بعد ذلك عند احتلالهم لعدن فى شهر يناير سنة ١٨٣٩ وأثناء الفترة التى أعقبت ذلك(١)٠ غير أن « هينز » أوضح لحكومته فى ختام تقريره أن العقبة الكبرى التى يخشاها عند هجومه على عدن تتمثل فى خطر الجيوش الزاحفة التى يسيرها محمد على ، بعد أن وضحت لقواده أهمية عدن الحيوية وخاصة من الناحية التجارية ، مما يجعلها من جميع الوجوه أفضل ميناء فى الجزيرة العربية(٢)

على أن حكومة الهند البريطانية كانت مترددة فى استعمال القوة وكانت لاتزال تأمل فى امكانية تحقيق سيطرتها على عدن باتباع الاساليب السياسية، تلافيا لما تستلزمه متطلبات الحرب من تكاليف باهظة من جهة ، وتجنبا لزرع الاحقاد بين البريطانيين وأهالى البلاد الاصليين من جهة أخرى ، هذا فضلا عن تحقيق رغبة السلطات البريطانية فى لندن التى كانت تفضل أن يتم احتلال عدن بالاتفاق مع السلطان ٠ بل أن بريطانيا كانت تخشى أيضا رد الفعل الذى يحدثه الهجوم على عدن لدى مصر من ناحية ، ولدى القوى الاوربية المنافسة للبريطانيين من ناحية أخرى(٣) ٠ على أن بريطانيا فى نهاية الامر رأت ضرورة احتلال عدن حتى ولو تم ذلك عن طريق استخدام القوة على النحو الذى تؤكده الوثائق البريطانية(٤) ٠

وقد عاد « هينز » يؤكد لحكومته أن الصعوبات التى تواجه نقل ملكية عدن للحكومة البريطانية ليس مبعثها السلطان نفسه ، وانما مصدرها ابنه أحمد (٥) وزوج ابنته سيد محمد حسين الى جانب رئيس قبائل الحوشبى وهو صهر ابنه أحمد ٠ كما أوضح « هينز » لحكومته أيضا أهمية الاتصال بالقبائل المحيطة بعدن وخاصة قبائل الفضلى واليافعى لاجتذابهم الى جانبه حتى لا يشكلوا أية عقبة فى وجه التدخل البريطانى فى المنطقة ٠ واقترح « هينز » أن تتشكل القوات اللازمة لغزو عدن من ٣٠٠ جندى من المشاه البريطانيين و ٢٥٠ جنديا من المشاة الهنود و ٣١٠ جنديا من المدفعية ، وأربعة سفن حربية تحمل ١١٤ من البحارة البريطانيين و ٣ من البحارة الهنود ، على أن ترافق الحملة سفينتان بقاع عميق لنقل كميات الفحم اللازمة ٠ كما أن « هينز » قدر حجم الحامية التى سيقع على كاهلها عبء الدفاع عن عدن

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 52.

(٢) F.O., C. Haines Report, 5 February 1838.

(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 52.

(٤) I.O., B.S.C., 1838, Secret Committee to Bombay 5/30/38.

(٥) I.O., B. 209, Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, pp. 8, 9.

بعد احتلالها بمائتى جندى من المشاة البريطانيين و ٤٠٠ جندى من المشـــــاة الهنود ، الى جانب أربعين جنديا من المدفعيـــة البريطانية ، وستين آخرين من المدفعية الهندية ٠ وقد أوضح « هينز » ان هذه الاعداد كافية بصفة مبدئية ، غير أنه أوصى بضرورة تعزيزها فيما بعد بقوات أخرى لتتناسب مع تزايد عدد السكان واتساع الرقعة التى سيرفرف عليها العلم البريطانى ولمواجهة متطلبات التطور المرتقب لعدن عندما تصبح سوقا رائجة للتجارة أكثر مما هى عليــــه فى ذلك الحين ٠ وأخيرا اقترح « هينز » على حكومته ضرورة ابقاء الســـــفن الحربية البريطانية فترة من الوقت فى ميناء عدن عقب احتلاله لاشـــــاعة الرهبة فى قلوب الأهالى ٠ (١)

وكانت اللجنة السرية فى لنـــدن التى تشرف على حكومة الهند قـــد استفسرت من حكومة بومباى عن موقفها ازاء عدن فى ٣٠ مايو سنة ١٨٣٨ ٠ وقد أجابت حكومة بومباى أن الأمور لم تستقر بعد على اتخاذ موقف معين ، وأن الموضوع ما زال قيد البحث لدى الحاكم العام للهند الذى كان يخشى أن تقضى دواعى الأمن حينذاك المحافظة على ابقاء القوات البريطانية بكامل ثقلهـــا فى الهند لمواجهة أمور قد تكون أهم بكثير من السيطرة على عدن تبعا لتصوره واعتقاده الشخصى ٠ (٢) وقد انتظر « جيمس فارش James Farish» نائب حاكم بومباى وصول اجابة قاطعة من الحاكم العام للهند ليحـــــدد بذلك ما يجب أن تفعله حكومة بومباى بشأن عدن ٠

كان الموقف لدى حكومة الهنـــــد يتلخص فى أن حكومة بومباى أرادت أن تحصل على مخزن للفحم فى عدن ولم يبد سلطانهـــــا أية عراقيل امام ذلك ٠ وفيما يتعلق بنسبة الضرائب التى كان يتقاضـــاها الســـلطان فانه قد أبدى استعداده لتنفيذ ما سبق الاتفاق عليه بين ممثل البريطانيين والسلطان أحمد العبدلى فى المعاهدة المعقودة بينهما فى سنة ١٨٠٢ ٠ وكانت النسبة ٢ ٪ لمدة عشر سنوات على أن ترتفع بعد ذلك الى حد أقصى هو ٣ ٪ دون ما زيادة بعد ذلك على الاطلاق (٣) ٠ غير أن حـــكومة بومبـــاى لم تكن لتطمئن على تحقيق مصالحها اعتمادا على تعهدات السلطان محسن وابنه أحمد خاصة بعد أن تبينت أنهما يماطلان فى توقيع اتفاق صريح بنقل ملكية عدن لبريطانيا ٠ وحتى لو تحقق هذا الاتفاق فان حكومة بومباى ما كانت لتطمئن للسلطان وابنه خاصة بعد علمها بالمؤامرة التى كانت تدبر لاختطـــــاف ممثلها « هينز » ومن هنـــــا

(١) I.O., I.B., I.F., F. 23, CRA. No. 54, C. Haines to the Superintendent of the Indian Navy, 22 August 1838, pp. 42, 43.

(٢) I.O., Bombay to Secret Committee, Secret Letters receievd from Bombay, 1st Series, Vol. 7, August 27, 1838.

(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 53.

وجدت أن الموقف يتطلب أن تكون لها قوة عسكرية قادرة فى عدن لحماية المصالح البريطانية والمحافظة عليها (١) ٠

ولهذا أعدت حكومة بومباى للأمر عدته ، فاتصلت بقائد الأسطول الهندى لوضع امكاناته تحت تصرفها ،كما طلبت منه الاتصال « بهينز » لاعداد الترتيبات اللازمة لمواجهة احتمال حدوث أية صعوبات أو معوقات عند تنفيذ خطة السيطرة على عدن ٠ بل انها طلبت منه أيضا الاتفاق مع « هينز » على حجم القوة اللازمة للسيطرة على الموقف اذا ما قاوم سلطان عدن تنفيذ المخطط الذى يستهدف المحافظة على المصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر ٠(٢)

وتجدر الاشارة الى أن الرأى العام فى بريطانيا حينذاك كان يعارض فكرة احتلال أية ممتلكات جديدة وخاصة فى أعقاب حرب أفغانستان ٠ ففى مقال نشرته مجلة « بلاك وود Blackwood's Magazine » اللندنية بدا واضحا أن العرب أهالى عدن أبدوا استعدادهم لتقديم كافة التسهيلات اللازمة للبريطانيين لانشاء مخزن ومحطة للفحم لتموين السفن البريطانية (٣) ٠ كما أشارت المجلة الى أنه حتى لو سيطر المصريون على عدن فان والى مصر محمد على أبدى استعداده هو الآخر لتقديم كافة التسهيلات اللازمة للسفن البريطانية فى الموانى التابعة له كما هو معمول به فى الموانى المصرية ٠ (٤) ولهذا فقد انتهت المجلة الى أن توفير الفحم اللازم للسفن البريطانية فى عدن هو أمر سهل التحقيق باتباع الأساليب السياسية دون أن تتحمل بريطانيا مخاطر اقحام نفسها فى عمليات حربية لا لزوم لها ٠ (٥) وعلى الرغم من ذلك فقد أصبحت فكرة احتلال عدن بالقوة لاتتعارض كثيرا مع وجهة نظر الرأى العام البريطانى بعد ذلك وخاصة فى نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر (٦)٠ اذ يشير التقرير الذى كتبه « ماكنزى Captain Mackenzie» فى سنة ١٨٣٧ الى « أن الأمم المتقدمة فى مضمار المدنية سوف تغزو المناطق التى ما زالت شعوبها تعيش تحت وطأة التخلف والبربرية لتنتشل سكانها من أعماق الجهالة » (٧) ٠

على أن « جيمس فارش » نائب حاكم بومباى لم ينتظر تلقى أية اجابة من الحاكم العام للهند بعد أن اقتنع بضرورة الاسراع فى السيطرة على عدن ٠

(١) I.O., I.P., F. 23, C.R.A., No. 49, Minute by the Governor of Bombay, 26 March 1838, pp. 37, 40.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 52, The Bombay Government to the Secret Committee, 27 August 1838, p. 41.

(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 55.

(٤) F.O., Boghos (Mohammed Ali's Minister) to Campbell, 17 April, 1838.

(٥) BlackWood's Edinburgh Magazine, April 1834, Vol. 53, p. 485.

(٦) Marston, T.E. : Op. cit., p. 69.

(٧) Waterfield, G. Op. cit., p. 54.

ولم يكن لديه أية موانع تجعله يتراجع عن استعمال القوة ، كما أنه لم يكن يخشى سوى ردود الفعل لدى القوى الأجنبية المنافسة لبريطانيا حينذاك ، وفى اليوم الخامس من سبتمبر سنة ١٨٣٨ كان « جيمس فارش » يؤمن تماما بانه يتصرف على أساس مقنع للغاية بالنسبة للسيطرة على عدن ، خاصة وانه لم يكن ينتظر أية معارضة من قبل والى مصر محمد على ٠

وكانت أنباء المفاوضات التى دارت بين « هينز » وسلطان لحج وعــدن قد وصلت الى القاهرة فى شهر مارس ســـنة ١٨٣٨ ٠ وقد قام بوغوص بك وزير خارجية محمد على بابلاغ « كامبل » القنصل البريطانى فى مصر بان نبأ هذه المفاوضات لم يمر بسهولة على مسامع محمد على ، بل لقد أقلقه أن يكون للبريطانيين موقع قريب من مخا ٠ (١) وكان « كامبل » مقتنعا بأن ممثــلى القوى الكبرى الثلاثة فرنسا وروسيا والنمسا سوف يعترضون على احتـلال بريطانيا لعدن حينذاك (٢) ، فضلا عن موقف محمد على الذى بدا فى تصريحات وزير خارجيته ٠ بل ان بوغوص بك قد أكد أيضا بأن عدن ليست منطقــة مستقلة بحيث يمكن الاستيلاء عليها دون مواجهة أية اعتراضات بل انهـــا كانت تابعة حينذاك لامام صنعاء ٠ (٣) غير أن « كامبل » رفض أن يصرح بأى تعليق حتى يتلقى تعليمــات « بالمرستون » فى هذا الصـــدد ٠ ولكنه لاحظ أنه طالما أن سلطان لحج وعدن كان قادرا على عقد معاهدة مع البريطانيين فى سنة ١٨٠٢ (٤) فان الشك فى استقلاله عن امام صنعـــاء يفقـــد كل حجـــة تساانده (٥) ٠

وجدير بالذكر انه فيما يتعلق بعدم انتظار محمد على موافقة بريطانيـــا على ارســال حملته الى اليمن وقام باحتـلالها فعلا قبل أن تصـــله الموافقة على ذلك ، فان « بالمرستون » لم يجد أية غضاضة أو اضرار بالمصالح البريطانية اذا كانت الحملة قد بدأت فعلا (٦) ، أى أن « بالمرستون » لم يجد بدا حينذاك من قبول الأمر الواقع خاصة وأن بوغوص بك وزير خارجية محمد على قد أكد « للكولونيل كامبل » القنصل البريطـــانى فى مصر بأن الوالى لن يعوق رغبة حكومة بومباى فى اقامة محطة للفحم فى عدن (٧) اذا كانت غير خاضعة

---

(١) F.O. 78/342, Artin to Boghos, 3/20/38.

(٢) F.O., 78, Campbell to F.O., 3/270.

(٣) F.O., 78/342, Artin to Boghos, 3/20/38.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 59.

(٥) F.O., 78/34, Campbell to F.O., 4/17/38.

(٦) F.O., 78/342, Palmerston to Campbell 5/12/38.

(٧) Waterfield, G. : Op. cit., p. 54.

لامام اليمن كما أنه لا يعوق تحقيق هذه الرغبة فى أية منطقة تابعة لمصر (١) ٠ غير أن « بالمرستون » كان يعلم تماما عدم ارتياح محمد على لسيطرة البريطانيين على عدن ، كما كان يبدو له بوضوح أن القوى الكبرى الاوربيـــة كانت ترقب محاولات البريطانيين للسيطرة على عدن حينذاك بعين القلق والترقب لمعرفـة ابعاد تطلعاتهم الاستعمارية (٢) ٠

وعلى أية حال فان حكومة بومباى البريطانية رأت أن تتحايل باستخدام أساليب الضغط الحربى لاقناع السلطان محسن وابنه أحمد بالتنازل عن عدن لبريطانيا ٠ ولهذا أصدرت أوامرها للضابط البحرى « هينز » بالتوجه الى عدن على ظهر الســـفينة الحربية « كوت Coote » للتفاوض مع الســـلطان من جديد ، ولكنها هذه المرة طلبت منه أن يستخدم لهجة عنيفة لارهاب السلطان ولانذاره بأنها ستتخذ اجراءات قاسية لرد الاهانة التى لحقت بالعلم البريطانى ، فى حالة ما اذا رفض السلطان التنازل عن عدن مقابل المبلغ المتفق عليه مع التغاضى عن بقية التعويض الخاص بحمولة السفينة الهندية « دوريا دولت » ٠ فاذا ما رفض السلطان وابنه أحمد هذا العرض فان الحكومة البريطانية سترسل القوات اللازمة لاحتلال عدن وستحرمه وعائلته من الحصول على أية حقوق أو امتيازات أو مبـالغ مالية (٣) ٠ وسلمت حـكومة بومباى لممثلها « هينز » مشروع معاهدة باللغتين العربية والانجليزية لتوقيعها من السلطان على أن يصدق عليها بعد ذلك حاكم الهند العام ٠ وطلبت حكومة بومباى من « هينز » أن يحمل معه مبلغا من الريالات وبعض الهدايا المناسبة للتأثير بها على السلطان وأسرته و كبار الشخصيات الهامة فى عدن لاجتذابهم الى جانب البريطانيين ٠ كما طالبته بعدم المبالغة فى اظهار التساهل لدى السلطان حتى لا يساء تأويله باعتباره ضعفا فى جانب البريطانيين (٤) ٠

بل ان حـكومة بومباى أصــدرت تعليمـات أيضـا « للملازم وسترن Lieutenant Western » وهو مهندس بريطانى لمرافقة الحملة (٥) ولوضع تقرير عن القلاع الموجودة فى عدن ، وعما يمكن اقـامته من قلاع أخرى لحمـــاية المدينة وعن المبانى اللازمة لايواء الجنود البريطانيين الذين سيقومون باحتلالها والدفاع عنها بعد ذلك ضد أى هجوم (٦) ٠ وقد طلبت الحكومة من « هينز » أن يوطد علاقته بالقبائل المجاورة لعدن ، ولهذا سمحت له باصطحاب «الملاجعفر»

---

(١) F.O., Boghos (Mohamtted Ali's Minister) to Campbell, 17 April 1838.

(٢) Graham, G.S. : Op. cit., p. 295.
Waterfield, G. : Op. cit., p. 55.

(٣) Graham, G.S. : Op. cit., p. 297.

(٤) Waterfield, G. : Op. cit., p. 56.

(٥) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٨ ٠

(٦) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 32.

الذى شهد اتفاقية التنازل ، والشيخ « طيب ايرانجى » الوكيل المحلى السابق فى مخا ، وكان الرجل الأخير صديقا شخصيا لسلطان لحج وعدن (١) . وأخيرا أوصت حكومة بومباى ممثلها « هينز » بان يؤكد للسلطان ضمان حمايته وحماية أسرته ، والتزام الحكومة بعدم التدخل فى المنازعات التى تنشب بين القبائل طالما أنها لا تمس المصالح البريطانية الا اذا طلبت ذلك الأطراف المتنازعة واقتضت دواعى الأمن ضرورة التدخل (٢) .

ومما يؤكد أن الحكومة البريطانية كانت تخشى حينذاك من احتمالات قيام قوات محمد على بالزحف على عدن والسيطرة عليها ، أنها أوصت « هينز » بأنه اذا وجد القوات المصرية تتجه لاحتلال عدن فان عليه أن ينذر القائد المصرى بأن ذلك يعتبر عدوانا مباشرا على أراض بريطانية (٣) وكان « بالمريستون » قد أبلغ قنصل بريطانيا فى مصر من قبل فى اليوم الثامن من يونيو سنة ١٩٣٨ أن ينذر محمد على بأن أية محاولة عدوانيه تقوم بها قواته ضد عدن سيعتبر عدوانا على الممتلكات البريطانية وستتخذ بشأنها الاجراءات المناسبة لمواجهتها (٤) .

وهكذا أبحر « هينز » الى عدن على ظهر السفينة « كوت » فوصل اليها فى اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٣٨ . وقد علم « هينز » بأن أحمد ابن السلطان محسن كان قد وصل هو الآخر من لحج الى عدن ومعه مائة وخمسون مقاتلا من البدو المسلحين ، وكانت مدينة عدن فى حالة فزع وذعر فى ذلك الوقت (٥) . وقد وجه « هينز » خطابا للسلطان محسن وخطابا آخر لحاكم مدينة عدن من قبل السلطان (٦) . وأوضح « هينز » فى خطابه للسلطان أنه جاء لتنفيذ اتفاق يناير الماضى ، وطلب مقابلته لتنفيذ الاتفاق الخاص بالمبلغ الذى ستدفعه حكومة بومباى مقابل تنازل السلطان عن ملكيته لعدن . كما طلب « هينز » من السلطان أن يرسل من قبله مبعوثا مدعما بكتاب رسمى معتمد منه شخصيا (٧) .

وهنا قام الأمير أحمد بن محسن بالاجابة على « هينز » فى خطاب تاريخى شديد اللهجة فى اليوم السادس والعشرين من أكوبر سنة ١٨٣٨ موضحا

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 57.

(٢) I.O., I.B., I.P., F 23, CRA, No. 55, The Secretary to the Government of Bombay to the Superintendent of the Indian Navy, 5 September, 1838, pp. 43, 45.

(٣) F.O., Instructions to C. Haines, 1st September 1838.

(٤) F.O., Palmerston to Campbell, 8 June 1839.

(٥) Waterfield, G. : Op. cit., p. 57.

(٦) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 62, C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 7 November 1838, pp. 51, 52.

(٧) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 63, C. Haines to the Sultan of Aden, 24 October 1838, p. 52.

له بانه صاحب الكلمة الأولى فى عدن بعد والده ومهددا اياه بأن أى هجـــوم من قبل البريطانيين على المدينة سيواجه بكل عنف وضراوة (١) • ولا شك أن هذا الموقف من جانب أحمد ابن السلطان محسن سلطان لحج وعدن يعبر عن وجهة النظر العربية ازاء محاولات البريطانيين الاستعمارية للسيطرة على عدن بصراحة وجلاء • على أن والده السلطان محسن كان قد آثر مماطلة البريطانيين وعدم مجاهرتهم بالعداء حتى يأمن شرهم وان كان فى أعماقه يؤمن بوجهة نظر ابنه وبعدالة موقفه وبجرأته وغيرته على حرية وطنه واصراره على التصدى لأطماع البريطانيين . وعدم ترك عدن تسقط لقمة سائغة فى أفواههم • ولا أدل على ذلك من قيام السلطان محسن بارسال ممثله رشيد بن عبد الله الى «هينز» فى نفس اليوم لابلاغه بأنه لن يحصل على عدن بأية وسيلة •

بل ان رشيد بن عبد الله مبعوث السلطان محسن قد أكد « لهينز » بأن أحمد ابن السلطان لم يعد مستعدا فقط لاعادة البضائع المتبقية من شحنـــة السفينة « دوريا دولت » بل انه يرفض أيضا دفع أية تعويضات عن البضائع المفقودة مما أثار فعلا ثائرة « هينز » وحنقه • ثم حدث بعد ذلك ما أدى الى تفاقم الأمور عندما رفض السلطان محسن ومرافقوه فى اليوم الثانى مباشـــرة أى السابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٣٨ امداد ســفينة « هينز » بالمياه والأخشاب اللازمة لها • (٢) وهنا أعلن « هينز » مهددا بأن موقف السلطان هذا يعنى اعلانه الحرب على الحكومة البريطانية ، وانه يمكنه ازاء هذا الموقف العدائى أن يقطع كل وسيلة للاتصال بين عدن والمحيط الخارجى مما يشـــل الحركة التجارية فى الميناء •

وعندما تبين « هينز » جرأة الأمير ابن السلطان محسن فى عدائـــه للبريطانيين وتصديه لمواجهتهم ، أراد أن يؤكد عدم شرعيته ليؤثر بذلك فى موقفـــه العدائى الحـــازم • فأرســـل خطابا الى والده الســـلطان محسن ينبئه فيه بأنه لن يجيب على ابنه أحمد الا اذا أفاده السلطان نفسه بتعيينـــه ممثلا له . غير أن الاجابة وردت على عكس ما كان يبغى « هينز » اذ أرســـل السلطان محسن فى نهاية أكتوبر سنة ١٨٣٨ وفدا قبله الى «هينز» على رأسه احد رجاله المقربين وهو سيد محمد حسين وحمله خطابا أوضح فيه أنه ملازم للفراش لشدة مرضه وشيخوخته ، ولهذا فقد فوض ابنه أحمد ليكون ممثلا له فى كل الأمور (٣) وأنه يرجو وضـــع حد للمسائل المعلقة بينهمـــــا تحقيقا لمصلحة الطرفين المشتركة (٤) .

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 64, Sultan Ahmed to C. Haines (without date), pp. 52, 53.

(٢) Waterfield, G. : Op. cit., p. 58.

(٣) Jacob, H F. : Op. cit., p. 32.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 65, The Sultan of Aden to C. Haines, p. 53.

وهنا لم يجد «هينز» بدا من بدء المفاوضات المباشرة مع الأمير أحمد بن السلطان محسن ولهذا طلب منه أن يرسل بعثة من قبله تنيبها عنه فى التفاوض من أجل الارتباط الذى سبق الاتفاق عليه مع والده بشأن تحويل ملكية عدن للحكومة البريطانية (١) ولم ينس «هينز» أن يحذر أحمد من أن أية مماطلة فى تنفيذ ذلك الارتباط سوف تشكل خطرا عليه وعلى اسرته . كما لم يفت «هينز» أن يهددالعبادلة بقوة البريطانيين الحربية فى البحر والبر على السواء . ثم بعث « هينز » للأمير أحمد ابن السلطان مشروع المعاهدة المقترحة للتوقيع عليهـــا موضحا رغبته فى تنفيذها باتباع الاساليب الســـــلبية بدلا من اللجوء الى استعمال القوة العسكرية (٢) . كما أشار « هينز » الى أن القوات البريطانية اذا ما تدخلت فسوف يفقد السلطان كل ما تعهدت الحكومة البريطانيـــة بتقديمه اليه نظير موافقته على تحويل عدن الى ملكيتها (٣) .

غير أن هذا التهديد والوعيد لم يوهن من اصرار أحمد بن محســـن وصلابته فى الذود عن كرامته وحرية بلاده ، ولم يكن من السهل ارهابه أو التأثير عليه بتهديدات « هينز » ومناوراته . وقد بدا ذلك واضحا فى اجابته عـــلى « هينز » فى اليوم السادس من نوفمبر سنة ١٨٣٨ بأنه لم يأت الى عـــدن كصديق ، كما ان الاسلوب الذى تحدث به لم يكن يدل على أن حكومتـــه حكومة صديقة . أما تحويل عدن الى ملكية الحكومة البريطانية فهو أمر يتنافى مع طبيعة العرب ويتعارض تماما مع روح الصداقة . واختتم أحمد بن محسن رسالته الى هينز موضحا أنه اذا ما صرفت الحكومة البريطانية نظرها عن هـــذا الموضوع فسوف يبعث وفدا من قبله لانهاء الامر فى سلام ، وحتى لا يثـــار مطلقا التحدث عن أراضى عدن من جديد (٤) .

ولا شك أن ادعاء « هينز » بارتباطه مع السلطان محسن ارتباطا مبدئيا بالتنازل عن عدن وتحويلها الى ملكية الحكومة البريطانية لهو أمر يستحق الدراسة ويستوجب البحث والتحقيق . فمن دراسة الوثائق البريطانية المتعلقة بهذا الموضوع وخاصة سجلات حكومة الهند البريطانية فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٣٩ يتبين لنا أن ادعاء « هينز » بتنازل السلطان محســـن عن ملكيته لعدن لا يقوم على أساس من الصحة . اذ لم يعثر فى هذه السجلات التى تتضمن العديد من المراسلات على الخطاب الذى قيل ان السلطان محسن

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 57.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 69. C. Haines to Sultan Ahmed, 31 October 1838, p. 54.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 71. C. Haines to Sultan Ahmed, 4 November 1838, p. 55.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 73, Sultan Ahmed to C. Haines, 6 November 1838, p. 55.

قد تعهد فيه « لهينز » بالتنازل عن عدن للحكومة البريطانية (١) . وليس من الطبيعي أن يغفل مثل هذا الموضوع الهام بينما اشتملت هذه المراسلات على موضوعات كثيرة من بينها ما نعد قيمته ضئيلة للغاية اذا قورنت بأهمية هذا الموضوع . وكان ممكن لمثل هذا الخطاب ان كان موجودا فعلا أن تصدر هذه المراسلات نظرا لأهميته البالغة . ولم تخف مناورة « هينز » على السلطان محسن الذى أوضح أن ما يقصده المبعوث البريطانى هو تحقيق رغبة حكومته بامتلاك عدن غير أن ذلك لن يتم « الا فوق رقاب أهلها » على حد تعبيره (٢) .

ومن ناحية أخرى فان هذه المراسلات قد أثبتت تحدى السلطان محسن لادعاء « هينز » الكاذب ومطالبته له باظهار مثل هذا الخطاب المصدق عليه مبديا استعداده للالتزام بما جاء فيه اذا ثبتت صحته . فقد أوردت هذه الوثائق على لسان السلطان محسن قوله « لهينز » : « .. أنا لم أكذب على الاطلاق بل اننى أقول الصــــدق ، فاذا كان لديك خطاب منى أو تعهد فأرنى اياه ولســـوف أعرفه ، فاذا كان صحيحا فاننى أعد بتنفيذه » (٣) . بل ان الســــلطان محسن سبق أن أكد « لهينز » فى ٢٣ يناير سنة ١٨٣٨ أنه سوف يوقف المفاوضات الجارية بينهما اذا ما تعرضت سيادته على بلاده الى أى تهديد نتيجة لهذه المفاوضات (٤) . وكان هذا التأكيد كافيا لوضع حد لمحاولات « هينز » التى تهدف الى التأثير على السلطان ليتنازل عن ملكيته لعدن للحكومة البريطانية وأخيرا فقد كان من الطبيعى أن يتجنب «هينز» فى رده على السلطان محسن الاشارة الى وجود مثل هذا التعهد او الارتباط الوهمى بعد أن تحــــداه السلطان وكشف مناورته .

وقد ترتب على ذلك كله تجاوب السلطان محسن مع آراء ابنه أحمــد وموقفه الغيور دفاعا عن أراضيه . ولهذا واجه السلطان ادعاءات « هينز » متحديا اياه بقوله ان طلب شراء عدن هو أمر لا يصدر عن رجل عاقل ، كمـا أن الادعاء بمراوغة الحكومة البريطانية ما هو الا كذب وافتراء . وقــد أكد السلطان أيضا ان الموقف الودى والاحترام الذى قوبل به « هينز » كمبعـوث لحكومته يحمل خطابا بشأن السفينة « دوريا دولت » كان يتعارض تماما مع الأسلوب غير اللائق الذى بدا فى تصرفات « هينز » ولهذا فقد أبدى السلطان عدم استعداده لسماع مثل هذه اللهجة غير الودية من ممثل الحكومة البريطانية الا اذا تغيرت تماما . (٥)

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 63, 64.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, CRA, No. 88. The Sultan of Aden to Sheik Tyeb Ibramjee, 17 November 1838, pp. 66-67.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 114, The Sultan of Aden to C. Haines, 24 December 1838, p. 78.

(٤) Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, p. 93.

(٥) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 24, The Sultan of Aden to C. Haines, 4 November 1838, p. 56.

غير أن « هينز » استمر فى تمسكه بلهجة التهديد التى دأب عليهــا وأنذر مبعوثى السلطان بأن القوات البريطانية اذا ما تدخلت فان السلطـــان لن يتسلم ريالا واحدا · وقد أتهم « هينز » السلطان بانه أهـــان الحكومة البريطانية بامتناعه عن تقديم المياه والمؤن اللازمة للسفن التابعة لها ، ويرفض ابنه أحمد اعادة بضائع السفينه الغارقة، وبعدم الموافقه سلميا على التنازل عن عدن لبريطانيا مقابل العروض التى عرضها · ولم ينس « هينز » أخيرا أن يوجه النصح للسلطان بالحرص على صداقته للحكومة البريطانية والعمل على تحقيق رغباتها لكى تكون العلاقات بينهما على خير ما يرام (١)

وهكذا أفرغ « هينز » كل ما فى جعبته من أساليب التحايل بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى لاقناع السلطان محسن وابنه أحمد لقبول التنازل عن عدن للحكومة البريطانية غير أنه وجد منهما اصرارا وصلابة ورفضا قاطعـــا للتنازل عن أرضهم · وبذلك استقر رأى « هينز » بأنه لا مناص من استخدام القوة الحربية للسيطرة على عدن بعد أن فشل تحايل البريطانيين باستخدام أساليب الضغط السياسى والحربى . ومن ثم فقد طلب « هينز » من حكومة بومباى ارسال القوات اللازمة لاحتلال عدن والسيطرة عليها بأقصى سرعة ممكنة ليفوت الفرصة على سلطانها ورجاله حتى لا يأخذوا أهبتهم ويستجمعوا قواهم لمقاومة الغزو البريطانى · وقد أوضح « هينز » لحكومته أنه كلما كانت أعــداد القوات البريطانية التى سترسلها الى عدن كافية تساندها السفن الحربية ، فان ذلك يجعلها قادرة على الاستيلاء على المدينة دون أن تتعرض لخسائر فادحة ·

ولم يفت « هينز » والملازم « وسترن » فى خضم هذه الاحداث ان يكتشفا ويحددا المكان الذى يصلح استخدامه مخزنا للفحم فى رأس الشيخ حامد (٢) وهى منطقة رملية تحيط بها مياه عميقة مما يسمح للسفن بالاقتراب منها الى مسافة مائة ياردة من ساحلها وتوجد أيضــا منطقة متســعة صالحة لتخزين الفحم . واقترح « هينز » وضع أحدى السفن الضخمة على مقربة من مخزن الفحم ليقوم بحارتها ومدفعيتها بحماية السفن التجارية الراسية فى الميناء ، كما يقوم رجالها بالمعاونة فى تموين تلك السفن بكميات الفحم اللازمة لها . كما اكد « هينز » أهمية بناء رصيف صغير بجانب مخزن الفحم لتسهيل العمليات الخاصة بتفريغه ثم شحنه تبعا لاحتياجات السفن العابرة .

وأثناء الفترة التى انتظر فيها «هينز» وصول القوات البريطانية الى عدن رأى أن يستخدم أسلوب الحصار الاقتصادى حول الميناء كاجراء حربى فعال للتأثير على معنويات السكان ومعيشتهم (٣) وذلك بمنع وصـــول المؤن اللازمة لهم الى

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No 75. C. Haines to the Sultan of Aden (without date), p. 56.

(٢) سبق أن وقع اختيار « هينز » على هذا الموقع لجعله مخزنا للفحم اثناء زيارته لعدن فى يناير سنة ١٨٣٨ .

(٣) I.O., B.S.C., 1839, C. Haines to Bombay 12/12/38.
Marston, T.E. : Op. cit., p. 69.
Graham, G.S. : Op. cit., p. 298.

المدينة عن طريق البحر ، وخاصة فى الفترة التى يستلمون فيها زادهم السنوى من تمر الخليج العربى (١) • كما أصدر «هينز» أوامر مالى « دنتون Dunton » بوقف أية أعمال تجارية تتصل الى ميناء عدن • (٢) وقد حاول « هينز » أن يبرر أسلوبه الانتقامى هذا باعتباره ردا على عدم قيام السلطان محسن بتقديم الاحترام اللازم لممثل الحكومة البريطانية • بل أن « هينز » رأى أيضا وضع مدفع كبير فى احدى الجزر الواقعة شرقى عدن أو تركيزه على أحد القوارب ، على أن يكون ذلك متناسقا مع وضع السفينتين الحربيتين ، وذلك لمنع العرب من الحصول على المؤن اللازمة لهم سواء بالبحر أو البر مما يؤدى الى انهيار معوناتهم واضعاف صمودهم (٣) • وأخيرا اقترح « هينز » على حكومته ارسال سفينة حربية ضخمة فى أسرع وقت ممكن لتقوم بمظاهرة حربية لارهاب أهالى عدن ، وكان يتوقع أن هذه المظاهرة سترغمهم على اخلاء مدينتهم قبل وصول القوات البريطانية اليها ، وبالتالى ستضطر السلطان الى الانصياع لتحقيق أهداف الحكومة البريطانية بالتنازل لها عن عدن دون مقاومة أو صمود أمام القوات البريطانية عند وصولها •

ومن ناحية أخرى رأى « هينز » أن يستغل فرصة وجود المنازعات الداخلية بين قبائل المنطقة فيعمل على اشعال نيران الصراع بين القبائل ، وبذلك يتمكن من تمزيق وحدة الجبهة الداخلية كما يتمكن أيضا من جعل بعض القبائل تعمل كطابور خامس يخدم أغراضه ويمهد السبل الممكنة لنجاح عملية الغزو والاحتلال • وكانت قبائل الحواشب القاطنة فى المنطقة الشمالية الشرقية من عدن فى صراع مع قبائل العبادلة بقصد زيادة حصتهم السنوية التى يحصلون عليها من السلطان محسن العبدلى سلطان لحج وعدن • غير أن هذا الصراع لم يكن يشكل حربا شاملة بل اقتصر الموقف على اغارات متبادلة بين الجانبين من حين لآخر • وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه قبائل سلطنة الفضلى القاطنة شمال شرقى عدن فى هدنة مؤقتة مع قبائل العبادلة لمدة ستة شهور لم تحدث أثناءها أية مناوشات بين العبادلة وجيرانهم الشرقيين غير أنه كان من المتوقع أن ينشب الصراع من جديد بين سلطنة الفضلى واليافعى لزيادة الراتب المخصص لهم عقب انتهاء فترة الهدنة • وهذا ما حدث بالفعل وادى الى قيام الصراع بين العبادلة وقبائل الفضلى ، وهى أمور غالبا ما تحدث بين قبائل المنطقة • غير أنه من دواعى الأسف أن يتصل سلطان الفضلى فى اليوم الثامن من نوفمبر سنة ١٨٣٨ بالمبعوث البريطانى « هينز »

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ •

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 32, 33.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 92, Sultan Ahmed Ben Abdualla of the Bombay Government, 6 November, 1838, pp. 48, 50.

ليبدى له استعداده لمساعدته (١) نكاية بجيرانه العبادلة (٢) . وقد طلب «هينز» من سلطان قبائل الفضلى امداده بالمياه والأخشاب اللازمة ، وحاول أن يوطـــد علاقته معه لأنه رأى من مصلحة حكومته أن تصادق سلطان قبائل الفضـــلى القوية مما يمكنها من تدعيم نفوذها فى جنوب اليمن حتى بعد أن تتمكن من السيطرة على عدن . وقد أكد « هينز » لسلطان قبائل الفضلى أن البريطانيين سوف يذكرون له هذا الجميل الذى يتمثل فى تزويد السفن البريطانية بالمياه والاخشاب التى كانت فى حاجة اليها لمحاصرة عدن وغزوها .

ولا شك أن هذا الموقف من قبل سلطان قبائل الفضلى قد اضطر السلطان محسن العبدلى أن يرسل بعثة من قبله الى « هينز » فى اليوم العاشر من نوفمبر سنة ١٨٣٨ لتعرض عليه تقديم المياه والاخشاب والمؤن اللازمة للسفن البريطانية على شريطة الا يتعرض « هينز » لموضوع تنازله عن عدن للحكومة البريطانية . غير أن « هينز » أوضح لأعضاء البعثة أن الأمر الوحيد الذى يجعل حكومته تتغاضى عن الاهانات التى وجهت اليها هو تنازل السلطان عن عـــدن للحكومة البريطانية . ولكن أعضاء البعثة استنكروا فكرة التنازل عن عدن التى يرفضها بكل اصرار السلطان محسن وابنه أحمد على السواء لأنها تتنافى مع اعتزاز العرب ببلادهم وتتعارض مع شجاعتهم اذا ما تنازلوا عن مدينتهم بدون اطلاق رصاصة واحدة . ولم يكن يخفى على « هينز » ان هذه الاتصالات الودية التى لم تنته الى نتيجة مرضية كان يقصد بها فقط تهدئة الموقف فى وقت كانت فيه قبـــائل الفضلى فى سبيلها للتوغل من جهة الشرق فى أراضى العبدلى (٣) ، مما اضطر السلطان محسن الى محاولة التفاهم مع البريطانيين لتهدئتهم حتى لا يواجه عدوين فى وقت واحد .

غير ان السياسة البريطانية حينذاك كانت تستهدف استغلال الخلافـات الداخلية بين قبائل جنوبى اليمن لتمزيق الجبهة الداخلية التى يمكن ان تدافع عن عدن ضد أى هجوم بريطانى . ولهذا فقد فضل « هينز » ترك قبائل المنطقـــة يتصارعون ويتقاتلون فيما بينهم ، كما عمل من جانبه على اذكاء هذا الصراع نظرا لما فى ذلك من اضعاف لقوتهم وتفريق لشملهم بما يستتبع ذلك من تسهيل لعملية الغزو البريطانى لعدن والسيطرة عليها . بل ان بريطانيا كانت تأمل أيضا أن يؤدى ضعف قبائل المنطقة وتمزق شملها الى انصياعها بعد ذلك للتوجيهات السياسة البريطانية والسير فى فلكها الى أبعد مدى ممكن . ومن دواعى الأسف أن العرب أهالى البلاد الأصليين لم تكن لديهم حينذاك اليقظة التى تمكنهم من

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 78, C. Haines to the Secretary to the Futhless to C. Haines, received on 23 November 1838, p. 68.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 78, C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 13 November 1838, pp. 57, 58.

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 33.

الوقوف جبهة واحدة متماسكة وصفا متضامنا صامدا أمام المحاولات الاستعمارية للسيطرة على بلادهم والتحكم فى مقدراتهم ٠

ثالثا – هجوم البريطانيين على عدن وسيطرتهم عليها بالقوة :

تبينت الحكومة البريطانية فى نهاية سنة ١٨٣٨ أنها استنفدت كل أساليب الضغط السياسى والحربى فى محاولاتها لامتلاك عدن والسيطرة عليها من أصحابها الأصليين دون جدوى ٠ ورغم ما اتصف به السلطان محسن بن فضل العبدلى سلطان لحج وعدن من مرونة وبعد نظر ومعرفة حقيقية لقوة بريطانيا وسيطرتها على البحار حينذاك ، فان موقفه لم يكن يقل عن موقف ابنه أحمد فى تمسكه بأرضه ورفضه لكل أساليب الاغراء ، وتصديه لكل أساليب التهديد والوعيد التى استعملها الضابط البحرى البريطانى « هينز » بناء على توجيهات حكومة بومباى ، وبناء على الرغبة الملحة التى تفرضها المصالح الحيوية لشركة الهند الشرقية البريطانية . وكانت غاية البريطانيين من وراء محاولاتهم هذه أن يؤثروا على السلطان باجتذابه أو ارهابه لتوقيع وثيقة التنازل عن عدن وتحويل ملكيتها للحكومة البريطانية لتحقق من وراء السيطرة على مينائها الحيوى الهام كافة مصالحها الاستعمارية المختلفة فى منطقة البحر الأحمر مما يجعلها تتحكم فى هذا الممر البحرى الدولى الهام .

ولهذا لم يجد المبعوث البريطانى « هينز » بدا من ابلاغ حكومته باصرار السلطان محسن وابنه أحمد على رفض تفاهم ودى للتنازل عن عدن لبريطانيا وأن كافة أساليب الضغط السياسى والحربى قد استنفدت أغراضها فى هذا السبيل دون جدوى الأمر الذى يجعل السيطرة على عدن بالقوة العسكرية ضرورة حتمية تستوعبها حماية المصالح البريطانية فى منطقة البحر الاحمر فى ذلك الحين ٠ على أن الدور الذى قام به البريطانيون والذى انتهى بسيطرتهم على عدن تمثل فى مرحلتين أولهما قيام البريطانيين ببعض المناورات الحربية للتهديد باحتلال عدن ، وثانيهما هجوم البريطانيين الفعلى على عدن وسيطرتهم عليها بالقوة على النحو الذى سأتناوله فيما يلى بالدراسة والتحليل ٠

– المناورات البريطانية للتهديد باحتلال عدن :

بدأت الترتيبات الخاصة بالتحركات العسكرية التمهيدية لاحتلال عدن منذ اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٣٨ عندما اتصل سكرتير حكومة بومباى بالضابط البحرى « هينز » وأبلغه بان قائد الاسطول الهندى سيرسل السفينة الحربية « آن كريشتون Anne Criston » الى عدن وأنها ستشحن بكميات من الفحم لتموين السفن البخارية البريطانية فى البحر الاحمر ، كما أنها ستشحن أيضا بالمؤن والمياه اللازمة لتموين السفينة الحربية البريطانية « كوت Coote » الراسية حينذاك فى مياه عدن وقد أوضح سكرتير

الحكومة للضابط البحرى « هينز » بأنه يمكنه الاعتماد على أطقم المدفعية الموجودة على ظهر السفينة « آن كريشتون » واعتبارها جزءا من الحملة العسكرية التى طلب « هينز » سرعة ارسالها اليه (١) ليتمكن من غزو عدن والسيطرة عليها بالقوة ٠

وعلى الرغم من ذلك فان حاكم بومباى حتى ذلك الحين لم يقطع الامل فى امكانية السيطرة على عدن باتباع أساليب الضغط السياسى والحربى وتفادى عملية الغزو والصدام المسلح ٠ ويؤكد ذلك اتصاله بالسلطان محسن بن فضل العبدلى فى أول ديسمبر سنة ١٨٣٨ معبرا عن أسفه لما أبداه السلطان من مماطلة فى تنازله عن عدن نظير ما عرض عليه من راتب سنوى وما سوف تقدمه له الحكومة البريطانية من مظاهر الاحترام والتقدير ٠ غير أن حاكم بومباى لم يستطع أن يخفى عن السلطان — وهو يحاول أن يسترضيه ويجتذبه — أن الحكومة البريطانية لن تتغاضى عن المعاملة السيئة والاضطهاد الذى تعرض له بحارة وركاب السفينة الجانحة « دوريا دولت » ٠ ثم يسترسل حاكم بومباى مهددا السلطان (محسن) بأن عليه ان يضع فى حسبانه كافة الاحتمالات المترتبة على رفضه التنازل عن عدن للحكومة البريطانية مقابل الثمن الذى عرض عليه (٢) ٠ وهكذا بدت الشراسة البريطانية فى كل الخطابات الموجهة للسلطان محسن ، وكانت كلها تؤكد اصرار البريطانيين على تحقيق مآربهم دون أى اعتبار للحقوق الشرعية لأصحاب البلاد الأصليين ٠

وقد شرعت حكومة بومباى فى اعداد كافة الترتيبات اللازمة لغزو عدن والسيطرة عليها بالقوة واستمدت احتياجاتها لتنفيذ هذه العملية الحربية من واقع المذكرة التى أرسلها «هينز » الى قائد الاسطول الهندى (٣) فى الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١٨٣٨ ٠ وقد استفسرت حكومة بومباى من قائد البحرية الهندية عن مدى المساعدات التى يمكنه تقديمها لتنفيذ هذه العملية حتى يمكن تنسيق ذلك مع بقية الامكانات المعدة لتنفيذ الخطة ٠ كما أصدرت بومباى تعليماتها الى الضابط البحرى « سميث » Smith وقائد السفينتين « فولاج Volage » (٢٨ مدفعا) ، و « كرويزر Cruizer » (١٦ مدفعا) ، اللتين كانتا مكلفتين بمهمة أخرى فى نهر السند بتحويل مسارهما الى بومباى والابحار فورا تجاه عدن للمشاركة فى عملية الغزو ٠ وبالاضافة الى ذلك وجهت حكومة بومباى قوة لاحتلال عدن قوامها ٣٠٠ جندى من المشاة البريطانيين و ٤٠ جنديا من أطقم المدفعية البريطانية و ٣٥٠ جنديا

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 80. The Secretary to the Bombay Governement to C. Haines, 28 November. 1838, p. 59.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 81. The Governor of Bombay to the Sultan of Aden, 1 December 1838, pp. 59, 60.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 54. C. Haines to the Superintendent of the Indian Navy, 22 August 1838, pp. 42, 43.

من المشاة الهنود · وقد رافق هذه الحملة عدد من المهندسين المتخصصين فى مجالات متعددة ، وأمدتهم الحكومة بكل ما يلزمهم من الأجهزة والمعدات المختلفة · (١) وقد انضمت هذه القوة للسفينة الحربية « كوت » على أن تساندها المدفعية المركزة التى تحملها السفينة الحربية « آن كريشتون » وذلك لتنفيذ خطة الهجوم على عدن ·

كما أعدت حكومة بومباى كافة الترتيبات اللازمة لامداد الحملة بكميات المياه التى سوف تحتاجها وزودت بها السفن التى قامت بنقل الجنود · ونظرا لطول المسافة بين بومباى وعدن وما قد تستلزمه عملية الغزو من انتظار السفن فى عرض البحر الأمر الذى قد يترتب عليه فساد المياه المحمولة ، فقد أشار قائد الأسطول الهندى الى امكانية استبدالها من ميناء مخا اليمنى ، كما اشار ايضا الى اهمية انضمام عدد من الفنيين الى الحملة وشحن كميات من مواد البناء اذا سمحت حمولة السفن بذلك . هذا فضلا عن توفير كافة المؤن والذخائر والمهمات اللازمة لتحقيق اهداف الحملة . وقد أبدى حاكم بومباى للقائمين على الحملة اصراره على أن يتم احتلال عدن تحت أية ظروف وان كان يفضل أن يتحقق ذلك دون أن تتعرض قواته لأية خسائر فى الأرواح والعتاد · كما حدد حاكم بومباى مهمة السفن التى ستبقى فى خليج عدن موضحا أنها ستقوم بحراسة المدينة من جهة ، كما يمكنها أن تستجلب المياه اللازمة للحملة عند الحاجة اليها من جهة أخرى · كما أكد حاكم بومباى اهمية وضع طراد أو سفينة حربية فى قلب خليج عدن لمواجهة أية مفاجآت ، وأخيرا فقد حث « هينز » على ضرورة اختطاف بعض الأسرى من العرب لاستغلالهم فى التقاط المعلومات المساعدة من قبيل الحذر والحيطة وللتعرف على تحركات سلطان عدن وأتباعه لمواجهة الغزو (٢) ·

وقد تحددت خطة الغزو بأن يقوم « هينز » عندما تفشل محاولاته تماما فى اقناع السلطان بتسليم عدن بالأساليب السياسية وأساليب الضغط الحربى بابلاغ قائد الأسطول ليبدأ عملية الغزو · وعلى قائد الاسطول أن يتعاون مع قائد القوة البرية فى تنسيق متكامل لتنظيم عملية الغزو والاحتلال · وكانت تعليمات حاكم بومباى تقتضى فى مختلف الظروف التى ستواجه العملية اتخاذ أفضل السبل التى سيشير اليها « هينز » (٣) باعتباره هو المسئول الأول عن

(١) Graham, G.S. : Op. cit., p. 298.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 82. The Secretary to the Bombay Government to C. Haines, 2 December 1838, pp. 60, 61.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 83. The Secretary to the Bombay Government to C. Smith of H.M.S. Volage, 11 December 1838, pp. 61, 62.

نجاح الغزو والاحتلال . وقد أبدى « سميث » استعداده الكامل لتنفيذ هـــذه التعليمات (١) .

كما أعدت حكومة بومباى احتياطات اضـافية لتعزيز قـــوات الحملة اذا ما استدعت الظروف ذلك ضمانا لنجاح العملية . ولهذا أصدر حاكم بومباى تعليمات اضافية « لهينز » لضم قوات جديدة الى قواته المحمولة على ظهرالسفينة الحربية « كوت » وسفينة النقل الحربية الأخرى « آن كريشتون » . وكانت هذه القوات الجديدة تتكون من ٢٨٦ جنديا من فرقة بومباى الأوربية و ٢٢ جنديا من الفرقة الرابعة والعشرين الهندية فضلا عن ستين رجلا آخرين من المهندسين والفنيين . كما اضيفت للحملة أيضا عشرة مدافع أخرى للمعاونة فى عملية الغزو والدفاع عن المدينة بعد الاحتلال (٢) .

وقد يتبادر الى الذهن أن مثل هذه الاستعدادات التى أعدتها بريطانيـــا لغزو عدن مبالغ فيها الى حد كبير ، خاصة وأن عدد سكان المدينة كان لا يزيد على الستمائة نسمة تقريبا على حد ما ذكرته الوثائق البريطانية نفسها . غـير أن البريطانيين قدروا القوة اللازمة والاحتياطات المتعلقة بها ليس فقـــط لمواجهة سكان عدن بعددهم المعروف حينذاك ، بل أيضا لمواجهة ما يمكن أن يقوم بتجميعه السلطان محسن وابنه أحمد من رجال القبائل المجاورةالى جانب قوات العبادلة الخاصة للذود عن بلادهم ضد الغزو الأجنبى . هذا فضلا عن خشـــية البريطانيين من محاولة قيام المصريين فى تهامة اليمن بالتدخل لمساعدة اليمنيين فى صد الغزو البريطانى عن عدن .

وبالرغم من كل هذه الاستعدادات فان حاكم بومباى لم ينس أن يحدد أيضا فى خطة الغزو الواجبات الملقاة على عاتق القوات البرية التى ستقوم بالعملية ويقودهـــا « الميجـــور توماس بيـــلى Major Thomas Baillie » الذى طلب منه الحاكم أن يضع نفسه فى الاطار الذى تحدده له السلطةالسياسية التى يقوم عليها « هينز» (٣) . وقد أكد حاكم بومباى على « الميجور بيلى » أن يوجه كل اهتمامه بعد السيطرة على عدنالى تعزيزالمنطقة التى يسيطر عليها البريطانيون فى عدن وتدعيم وسائل الدفاع عنها ضد أى هجوم داخلى أو خارجى (٤) ، وبذلك يمكن التصدى لأية اخطار أو مفاجآت .

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 84. C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 14 December 1838, p. 62.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 85. J.P. Willoughby to C: Haines, 21 December 1838, pp. 62, 63.

(٣) Graham, G.S. : Op. c it., p. 298.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 86. The Secreltary to the Bombay Government to the Adjustant General of the Bombay Army, 24 December 1838. pp. 63, 64.

ونظرا لأن العلاقات بين « هينز » والسلطان محسن لم تلبث أن ساءت الى أقصى حد فقد نتج عن ذلك حدوث عدة مناوشات أدت الى وقوع الاحتكاك المباشر بين الجانبين فى اليوم التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٨٣٨ أى بعد مرور شهر كامل من الحصار البريطانى المضروب حول ميناء عدن . وقد بدأ هذا الاحتكاك عندما أرسل « هينز » وكيل بريطانيا السابق فى مخا ويدعى الشيخ « طيب ابراهيم ابرانجى » الى بريرة لتأجير بعض القوارب لاستخدامها فى جلب المياه والأخشاب والمؤن اللازمة للسفينة « كوت » ، ولتوفير الاحتياطى اللازم من هذه المؤن للسفن البريطانية القادمة للاشتراك فى غزو عدن. ولما كان هذا الحصار قد أوقف عمليات التبادل التجارى فى ميناء عدن فقد أثار ذلك ثائرة أهالى البلاد الذين اتجهوا الى المدينة فى اعداد كبيرة صباح اليوم العشرين من نوفمبر سنة ١٨٣٨ وضربوا القارب الذى وجهه « هينز » الى بريرة فأصيب بثلاث طلقات . كما أن العرب أطلقوا بنادقهم على قارب آخر كان يركبه بعض الضباط البريطانيين الذين ردوا على العرب باطلاق نيران مدفع هاون ثلاثى وبعض الأسلحة الصغيرة . بل ان السلطان محسن عندما علم أن السفينة « كوت » ستتجه الى زيلع على الساحل الصومالى لتحصل على ما تحتاجه من مياه ومؤن ، ارسل سنبوقا الى هناك ليطالب قبائل تاجورة الصومالية أن تمتنع عن تموين السفن البريطانية العادية بكميات المياه والمواد الغذائية والأخشاب التى تلزمها(١) وقد ثارت ثائرة « هينز » عندما وقعت فى يده الرسالة الخطية التى كتبها أحمد ابن السلطان محسن لقبائل تاجورة الصومالية يناشدهم فيها وقف امداد السفن البريطانية بالمياه والمؤن اللازمة لها ، وليقتلوا أى شخص من البريطانيين يصل اليهم (٢) .

وقد سارع « هينز » بابلاغ الكابتن دننون « بالمناوشات والاحتكاك الذى تم بين الجانبين وطلب منه المساعدة فارسل اليه مدفع هاون (٩ مم) أصبح معدا للانطلاق . وقد نتج عن ضرب المدينة بهذا المدفع وبمدفعية السفينة الحربية أن قام البدو باحتلال كل التلال المحيطة بالمدينة لاسكات مصادر النيران البريطانية غير أن نيرانهم لم تكن مؤثرة مما جعلهم ينزلون بأنفسهم وبأعداد كبيرة ليدمروا هذا المدفع ويقتلوا أفراد طاقمه . وأثناء قيامهم بهذه المحاولة خاصة بعد أن اقتربوا من مواقع البريطانيين انهالت عليهم النيران الصادرة من الأسلحة البريطانية الحديثة حتى أرغمتهم على التراجع . وانتهى هذا الاحتكاك بمقتل ما بين عشرين وثلاثين من عسكر السلطان بينما جرح جنديان من بحارة السفينة البريطانية (٣) .

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) Jacob, H. F. : Op. cit., p. 33.

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

وقد اكد « هينز » لحكومته أن المصريين كانوا قد دربوا عرب عـــدن تدريبا فائقا على استخدام مختلف الاسلحة · كما أكد « هينز » أيضا أن المصريين قد اشتركوا بالفعل فى هذه المناوشات (١) وانه لمس ذلك عندما حاول الضباط البريطانيون الاربعه « جونسون وهاملتون وايفانز وويسترن » الالتفاف حـول ميناء عدن لوقف محاولات التبادل التجارى هناك وتعرضوا لقصف من مدفعيـــة ثقيلة ألقت عليهم عشر قذائف « أحكم المصريون توجيهها » · غير أن وجـــود المصريين فى عدن حينذاك أمر بعيد الاحتمال نظرا لأن المصادر العربية ومن بينها محافظ الحجاز واليمن المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة لم تشر الى ذلك رغم تناولها للعديد من الأحداث الأقل أهمية من هذا الموضوع · هذا فضـــلا عن أن وجود أية قوات مصرية فى عدن حينذاك كان من شأنه عرقلة الغــــزو البريطانى والتصدى له (٢) بما لا يجعله يتم بالسهولة والسرعة التى تم بهـــا على النحو الذى سنوضحه فيما بعد · ويمكن القول بأنه من المرجح فى ذلك الوقت أن يكون محمد على ــ الذى كانت قواته متمركزة حينذاك فى تهامة على مقربة من عدن ــ قد عمد الى تدريب بعض العدنيين وجيرانهم على استخدام أسلحة المدفعية والأسـلحة الصغيرة الأخرى وأمدهم ببعض منها ، ليتمكنوا ــ اعتمادا على مقـــدرتهم الذاتيـــة ــ من الصمود أمام المحـــاولات البريطانية للسيطرة على بلادهم وكان محمد على يهدف من وراء ذلك ــ بطبيعة الحال ــ الى حماية مصالحه هو الآخر فى الجزيرة العربية التى سيهددها دون شك تدخل المنافسة البريطانية فى المنطقة فى ذلك الحين ·

وأثناء الحصار الذى فرضه البريطانيون حول ميناء عدن (٣) حـــدث أن أبحر القارب العدنى « نعمة الله » سرا مخترقا الحصار · غير أن بحـــــارة السفينة « كوت » شاهدوا القارب وتمكنوا من أسره فى اليوم السادس من ديسمبر سنة ١٨٣٨ · وهنا أوفد الامير أحمد بن محسن فى اليوم التـــالى مباشرة أحد معاونيه وهو رشيد بن عبد الله يرافقه صاحب القارب الى السفينة « كوت » وهما يرفعان علم الهدنة (٤) ويطالبان باسترجاع القارب المخطوف · وقد استفسروا من « هينز » عما اذا كان موافقا على دفع ثمانية آلاف ريال سنويا مقابل تنازل السلطان عن عدن للحكومة البريطانية · غير أن « هينز » أوضح لهما أن مطلبهما غير ذى موضوع خاصة بعد أن هاجم السلطان وأتباعه السفينة « كوت » والقوارب البريطانية الأخرى · كما أبلغهما « هينز » بأن القارب العربى

---

(١) Graham, G.S. : Op. cit., p. 298.

(٢) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١١٩

(٣) Marston, T.F.I. : Op. cit., p. 69.

(٤) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 33.

بحمولته يعد غنيمة حربية مشروعة للبريطـانيين ولا سبيل لاعادتـه الى صاحبه (١) ٠

ولا شك أن سكان عدن قاسوا الأمرين من وطأة حصار البريطانيين لمينائهم مما أدى الى توقف التجارة (٢) وانقطاع وصول المؤن اللازمة لهم عن طـريق البحر ٠ وقد عمد السيد زين العيدروس أحد أشراف مدينة عدن الى الاتصـال « بهينز » للاتفاق على وضع حد للنزاع القائم بينه وبين السلطان محسن وابنـه أحمد وأبدى استعداده لمقابلته للاتفاق على اقرار السلام بين الجانبين (٣) غير أن « هينز » وهو المصمم للوصول بعدوانه الى الاحتلال الكامل لمدينة عدن أجاب على السيد زين العيدروس بأن العبادلة هم الذين أعلنوا الحرب وقصفوا قوارب السفينة « كوت » بالنيران وبذلك بادروا بالعدوان (٤) ٠ وعلى الرغـم من أن « هينز » رحب بزيارة السيد زين العيدروس له تطبيقا لسياسته المرنة فى التقريب من الأهالى فقد أكد لابن السيد زين بأنه لا مناص من أن يتحمل العبادلة نتيجة أعمالهم العدوانية ضد البريطانيين (٥) ٠ ولا شك أن هذا الموقف من جانب « آل العيدروس » (٦) يوضـح دورهم المشـهود فى محـاولة ايجـاد نقطة الالتقاء بين « هينز » والعبادلة -حكام لحج وعدن ليجنبوا بلادهم التعرض لويلات عدوان البريطانيين والوقوع تحت سيطرتهم فى تلك الفترة الحرجة من التاريخ اليمنى الحديث ٠

وعندما اشتدت وطأة الحصار البريطانى لميناء عدن وأثرت على السكان أبلغ تأثير اضطر السلطان أن يرسل مبعوثه رشيد بن عبد الله الى « هينز » فى اليوم الثالث عشر من ديسمبر ١٨٣٨ ليطلب منه الاتفاق على عقد هـدنة مؤقتة لمدة عشرة أيام يقوم أثناءها السلطان وبقية الرؤساء بزيارته لوضع حد للخلافات القائمة بينهما (٧) ٠ غير أن « هينز » فى هذه المرة أيضا أجاب بأنه من جانبه

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 87. C. Haines to the Secretary of the Bombay Government, 12 December 1838, pp. 64-66.

(٢) I.O., B.S.C., 1839, Haines to Bombay 12/12/38.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 96, Sayed Zain Hydroose to C. Haines, 29 November 1838, p. 68.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 97, C. Haines lo Sayed Zain Ben Hydroose, 29 November 1838, p. 69.

(٥) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 99. C. Haines to Sayed Aloose Ben Zain Hydroose (without date), p. 70.

(٦) العيـدروس مسـجد مشـهور فى عدن احتمى فيه النسـاء والأطفـال أثناء غزو البريطانيين للمدينة فى سنة ١٨٣٩ ، وقد قمت بزيارة المسجد وشاهدت بعض التعديلات التى أجريت فيه ٠

(٧) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 33.

لا يمكنه الموافقة على اقرار السلام الا اذا تحولت عدن لملكية الحكومة البريطانية(١) وانه ليس على استعداد لقبول أية نتيجة أخرى أقل من ذلك تبعا لمتطلبات المصالح البريطانية ٠

وازاء هذا الاصرار والصلف من جانب « هينز » ، فقد استمر العرب فى مناوشاتهم مع البريطانيين المحاصرين لعدن ٠ وقام « هينز » من جانبه باستطلاع قوة العرب فوجد لديهم أربعة عشر مدفعا ٠ كما لاحظ « هينز » أن الذخيرة التى يستعملها العرب مختلفة الأنواع نظرا لأن تأثير الضرب كان يختلف من طلقة الى أخرى رغم صدورها من مدفع واحد ٠ وقد أصدر « هينز » تعليماته الى « دنتون » ليوجه قوة من رجاله الى احدى الجزر القريبة من ميناء عدن لتكون نيرانها أكثر فعالية وتأثيرا فى ضرب تجمعات قوات السلطان ٠ وقد تأثر العرب كثيرا بهذا القصف الموجه اليهم من الجزر القريبة اليهم من جهة ، ومن قوارب السفينة « كوت » من جهة أخرى (٢) ٠ وفى هذه الظروف القاسية التى تكبد فيها العرب خسائر جسيمة ، رغب أهالى عدن فى وقف اطلاق النيران واقرار السلام ، غير أن « هينز » أبلغ مبعوثهم بأنه لا يمكنه الموافقة على ذلك الا اذا تنازل السلطان عن ملكية عدن للحكومة البريطانية ووضع نفسه تحت حمايتها دون اعطائه أية تعويضات ٠

ولما كان العبادلة حكام لحج وعدن على علم تام بالمشكلات التى تواجهها حينذاك حكومة الهند البريطانية والتى كانت تثيرها حكومات كابول وكندهار وفارس وبورما وذلك من خلال مراسلاتهم مع بعض الهنود ، فقد جعلهم ذلك يعتقدون أن حكومة بومباى لن تتمكن من الاستغناء عن وحدات من قواتها توجهها للسيطرة على عدن فى وقت كانت فيه الأحوال غير مستقرة فى المناطق المحيطة بالممتلكات البريطانية فى الهند (٣) ٠ ومن هنا قام رشيد بن عبد الله مبعوث السلطان ومعه ثلاثة آخرون بمقابلة « هينز » فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٨ ٠ وطلبوا منه الموافقة على دفع مبلغ اثنى عشر ألف ريال سنويا بدلا من الثمانية آلاف ريال التى سبق أن عرضها على السلطان فى مقابل نقل ملكية عدن للحكومة البريطانية . غير أن « هينز » فى هذه المرة أجاب بأنه على السلطان أن يقدم اعتذاره عن سلوكه غير الودى تجاه البريطانيين وذلك قبل اتمام أى اتفاق بينهما .

وتجدر الاشارة الى أن سلطان لحج وعدن حاول أن يضم الى جانبه فى صراعه ضد البريطانيين السلطان حامد بن عبد الله سلطان قبائل الفضلى ، ليقوم

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 100. C. Haines to the Secretary to the Government of Bombay, 13 December, 1838, p. 70.

(٢) Graham, G.S. : Op. cit., p. 298.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 101. C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 13 December 1838, pp. 71-72.

بدور الوساطة بينه وبين « هينز » وذلك فى الاجتماع الذى تم بين السلطانين فى مدينه «الشيخ عثمان» فى اول يناير سنة ١٨٣٩ . غير أن هذا الاجتماع لم يكتب له النجاح نتيجة للخلاف الذى نشب بينهما أثر قيام بعض أتباع السلطان محسن بنهبْ قارب يملكه أحد رعايا سلطان قبائل الفضلى ورفض السلطان محسن دفع مبلغ ٦٥٠ ريالا ثمنا لهذا القارب · ولهذا لم يكتب لهذا الاجتماع أن يحقق الغرض المقصود منه الأمر الذى لم يتحقق معه تكوين جبهة داخليـــة متماسكة تقوى على مواجهة هجوم البريطانيين ·

وهنا قام اثنان من أشراف عدن فى اليوم السابع من يناير سنة ١٨٣٩ هما السيد زين العيدروس عبد الله والشيخ حامد بن عبد الله العذيبى بمحاولة ثانية لتهدئة الموقف واقرار السلام · وقد قام السيدان بمقابلة « هينز » واتفقا معه على أن يصرف نظره عما فعله السلطان محسن وقبيلته مقابل تقدم السلطان بالاعتذار الكافى وبوضع نفسه تحت حماية الحكومة البريطانية (١) · وقد كتب « هينز » بنفسه صيغة الاعتذار وطلب من السلطان محســـن التوقيع عليها · غير أنها كانت صيغة مهينة للغاية (٢) ، لم يتقبلها السلطان محسن بطبيعة الحال وانما كتب صيغة أخرى تختلف كثيرا عما صاغه « هينز » اذ أن السلطان تغافل فيها الموضوع الأساسى الخاص بتنازله عن عدن (٣) الأمر الذى أثار غضب « هينز » وحنقه · ولهذا قام « هينز » بابلاغ السلطان بأن الحرب ستستمر بينهما وأن القوات البريطانية ستحتل عدن فى أيام قليلة كما هدده أيضا بأن الحكومة البريطانية لن تمنحه شروى نقير (٤) نتيجة لاصراره على موقفه ·

على أن « هينز » علم حينذاك بأن السلطان « محسن » يجرى من جـــديد مفاوضـــات مع جاره سلطان قبائل الفضلى ليضمه الى جانبه فى صراعه ضـــد البريطانيين المحاصرين لبلاده · وقد أدرك « هينز » خطورة الموقف اذا ما تقاربت القوى الوطنية واتفقت فيما بينها على التصدى للغزو البريطانى · ولهـــذا سارع « هينز » واقترح على حكومته أن توافق على استخدامه لســـلاح الاغراء بالأموال للحيلولة دون اراقة الدماء (٥) · كما أكد « هينز » لحـــكومته أن

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 105. C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 9 January 1839, pp. 74, 76.

(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 113. Copy of Apology required by C. Haines from the Sultan of Aden, or words of the same effect (without date), p. 77.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 121, Syed Zain Hydroose to C. Haines, 8 January 1839, p. 80.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 115. C. Haines to the Sultan of Aden, 25 December 1838, p. 78.

(٥) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ ·

السلطان «محسن» سيظل يماطله حتى يتأكد من اصرار حكومة بومباى على تنفيذ مطالبها (١) ، وأن ذلك لن يتحقق الا بوصول القوات البريطانيه الى عـــدن للسيطرة عليها (٢) .

غير أن السلطان « محسن » كان قد قرر أن يتبع خطى ابنه أحمد وزعماء القبائل التابعة له ، وأصروا جميعهم على عدم تسليم عدن وبذلوا كل جهودهم الممكنة استعدادا لمقاومة الغزو البريطانى المنتظر لمدينتهم . وقد قام السلطان باعداد الترتيبات اللازمة لتقوية القــلاع الموجودة فى عدن تبعا لما توفر لديه من امكانيات محددة ، كما بذل جهدا كبيرا لحشد رجال البدو القاطنين على مقربة من لحج وعدن لمعاونته فى صد الهجوم البريطانى المرتقب ، وقد انضم اليه من قبيلة الفضلى قرابة ألف ومائتى مقاتل (٣) . هذا فضلا عن قيامه بتكديس كميات من المؤن والذخائر والمياه اللازمة لمواجهة الحصار الذى فرضته القوات البريطانية حول عدن من جهة البحر .

ولا شك أن هذه الأعمال الدفاعية التى قام بها سلطان لحج وعــدن قد شكلت خطورة على موقف البريطانيين فى الميناء (٤) ، كما أفقدت « هينز » كل أمل فى نقل ملكية عدن للحكومة البريطانية باتباع الأساليب السياسية ترغيبا كانت أو ترهيبا . بل ان هــذه الاستعدادات التى قام بها الســلطان آكدت « لهينز » ضرورة استخدام القوة خاصة وأن القوات البريطانية فى الميناء لم تكن لديها سوى كميات ضئيلة من المياه ، وكانت جهود السلطان لدى قبائل تاجورة الصومالية مستمرة حتى لا يزودوا السفن البريطانية بمــا تحتاجه من مؤن ومياه . وقد أدرك « هينز » أن كل تأخير فى مهاجمة البريطانيين لعدن كان من شأنه أن يؤدى الى تدعيم قوى العرب فى دفاعهم عن مدينتهم . الأمر الذى سيجعله يسارع الى تصعيد عملياته بالهجوم على عدن والسيطرة عليهــا بالقوة بمجرد وصول التعزيزات التى كان ينتظرها من حكومة بومباى . وبذلك تبدأ مرحلة جديدة يتم أثناءها احتلال البريطانيين لعدن والسيطرة عليهــــا بالقــــوة .

هجوم البريطانيين على عدن وسيطرتهم عليها بالقوة :

تطورت الأحداث فجأة بين البريطانيين وسلطان لحج وعدن ودفعت الجانبين من حافة الحرب الى ساحتها وذلك اثر وصول التعزيزات القوية للقوات البريطانية

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 104, C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 6 January 1839, pp. 73, 74.
(٢) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A, No. 123 C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 10 January 1839, p. 80.
(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 35.
(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 127, C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, 24 January, 1839, p. 82.

المحاصرة لميناء عدن (١) فى صبيحة اليوم السادس عشر من يناير سنة ١٨٣٩ للقيام بعملية الغزو والاستيلاء على المدينة بالقوة (٢) ٠ وهنا سارع « هينز » بتوجيه انذار نهائى من قبله الى السلطان محسن وجميع زعماء قبائل العبادلة أخطرهم فيه بوصول قوات بريطانية ضخمة لاحتلال عدن ، وأكد لهم أن أية مقاومة من جانبهم لن يترتب عليها سوى زيادة الخسائر فى الأرواح ، كما أنها ستؤدى الى تعرض مدينتهم للدمار ، هذا اذا لم يتم التنازل عن عدن حتى غروب شمس نفس اليوم ٠ كما أوضح « هينز » فى انذاره أنه فى حالة ما اذا وافق السلطان على التنازل عن عدن وأرسل اليه ثلاثة من زعماء العبادلة كرهائن لضمان تحويل ملكية المدينة للحكومة البريطانية ، فسوف يسمح للسلطان ولزعماء القبائل التابعة له بالانسحاب بأسلحتهم وأمتعتهم الشخصية ، مع تعهده بمعاملة سكان المدينة بكل احترام (٣) ٠

غير أن السلطان محسن طلب امهاله ستة أيام لبحث الأمر مع شيوخ قبيلته على أن يبعث باثنين من رجاله فورا الى « هينز » للتفاوض معه (٤) ٠ ولم يكن السلطان يقصد من وراء هذه المهلة سوى كسب الوقت لاستكمال تدعيم خطوط دفاعه عن مدينته (٥) ٠ وقد علم « هينز » بذلك من الخطاب الذى أرسله اليه عميله رشيد بن عبد الله ممثل السلطان فى المفاوضات السابقة معه والذى ثبتت خيانته مرارا من خلال اتصالاته الخفية بالبريطانيين ٠ ومما يؤسف له أن « رشيد » هذا قد أكد « لهينز » فى خطابه بأن العبادلة قد جهزوا ما لديهم من مدافع كبيرة لتكون على أهبة الاستعداد لمواجهة الغزو المرتقب ، وأن السلطان يبذل كل جهوده ليضم الى صفوفه مقاتلين آخرين من المناطق المجاورة (٦) ٠ ويؤكد هذا الخطاب بطبيعة الحال وجود عنصر الخيانة الذى كان يفت فى عضد المقاومة العربية أثناء مواجهتها للغزو البريطانى الاستعمارى للسيطرة على عدن فى فترة عصيبة من فترات التاريخ اليمنى الحديث بوجه خاص ، والتاريخ العربى الحديث بوجه عام ٠

على أن « هينز » اتخذ من جانبه الخطوط العملية لتنفيذ خطة الهجوم التى وضعها للسيطرة على عدن وعزم على الاسراع بقصف الساحل ٠ كما أنه سارع

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 69. Jacob, H.F. : Op. cit., p. 35.

(٢) I.O., B. 209, Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, p. 9.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 129. C. Haines to Sultan Mhousain Fadihl and all the Chieftaines of the Abdalee Tribe, 16 January 1839, p. 84.

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 130. Sultan Mhousain, on the part of all to C. Haines, January 16, 1839, p. 84.

(٥) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٢٦ ٠

(٦) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 35.

بارسال رسالة الى « كابتن سميث Captain Smith » أوضح له فيها معرفته التامة بطبيعة منطقة عدن ، وأنه يسعده أن يقدم له كافة المعلومات التى لديه . وأبدى له أيضا أنه من دواعى فخره أن يرافق قائد أية سفينة حربية بريطانية تتوجه لتحطيم أقوى مراكز الدفاع على الساحل العدنى ، كما قدم له رسما تخطيطيا مفصلا للمنطقة الساحلية المحيطة برأس عدن (١) .

وقبيل بدء الهجوم اقتربت من جزيرة صيرة الواقعة شرقى شبه جزيرة عدن سفينتان حربيتان بريطانيتان أولاهما السفينة « فولاج Voiage » ذات الثمانية وعشرين مدفعا ويقودها كابتن سميث Captain Smith وثانيهما السفينة كروزر Cruizer ذات الستة عشر مدفعا ويقودها الملازم دنيل Lt. Daniell » وقد رافق هاتين السفينتين ثلاثمائة جندى أوربى ، وأربعمائة جندى هندى يقودهم « ميجور بيلى Major Baillie » (٢) بينما كان يرافق السلطان فى عدن سبعمائة بدوى فقط وكان تسليحهم غير متكافىء على الاطلاق مع تسليح القوات البريطانية المهاجمة . وقد أمر « هينز » السفينة « ماهى « Mahi » بالاقتراب من مركز مدفعية صيرة ، وقسم الجنود الى فرقتين لانزالهما الى البر بعد أن يتم تخريب القلاع والحصون . ثم صعد « هينز » الى السفينة « فولاج وأصدر أوامره للسفينة « كوت » بأن تلقى مراسيها على مقربة من ساحل حقات (٣) . ثم بدأ الجنود فى الهبوط الى الزوارق تحت حماية مدفعية السفن البريطانية ، بينما وقف الجنود الاحتياطيون مستعدين فى السفينتين « فولاج » و « كوت » فى انتظار تعليمات تصدر اليهم (٤) .

وهكذا بدأ الهجوم فى الساعة التاسعة والنصف صباح اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٨٣٩ (٥) عندما تقدمت السفينة « فولاج » ببطء نحو أقوى مراكز الدفاع الساحلية . وبعد عشر دقائق تقريبا تقدمت السفينة « كوت » نحو الموقع المحدد لها فى خليج حقات ، بينما وجهت السفينة « ماهى » مدافعها هى الأخرى نحو ساحل حقات ، وفى وقت واحد مفاجىء انطلقت القذائف تزأر من أفواه المدافع حتى الحقت الدمار بالقلعة الرئيسية ، واسكتت مدفعية الساحل وأسقطت أبراجها على الأرض ، واشتعلت الحرائق فى أماكن كثيرة . ولقد كانت معظم قذائف المدافع العربية تتجاوز سفن العدو التى كانت

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

(٢) Graham, G.S. : Op. cit., p. 298.

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 36.

(٤) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٥) Graham, G.S : Op. cit., p. 298.

— مجلة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، العدد الاول مارس ١٩٦٩ ، المقال السابق ، ص ٢١٩ .

I.O., B. 209, Confidential 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January, 1873, p. 9.

ملاصقة كثيرا للجزيرة وللساحل ، مما جعل هذه القذائف تتجـــه الى عرض البحر دون أن تصيبها • بينما استطاعت مدافع العدو وكانت متحركة أن تصوب نيرانها ــ وهى أسفل القلعة ــ وتسكت البطاريات العربية •

على أن العرب المدافعين عن جزيرة صيرة ظلوا مسيطرين عليها ، وكانوا يطلقون نيرانهم على القوات البريطانية فى السفن المهاجمة • وقد اســـتمر التراشق عنيفا بين الجانبين مما اضطر الســـفينة « ماهى » الى الاقتراب من جزيرة صيرة حتى أصبحت على بعد خمسين ياردة منها • ورغم تعرضها لقذائف العرب (١) • قد أمكنها أن توجه نيرانها بغزارة مع أقواس النيران المتداخلة والموجهة من السفن الثلاث « فولاج وكروزر وكوت » البريطانية حتى اضطر العرب الى التقهقر وترك مواقعهم أمام التركيز المتزايد لنيران العدو عليهم • وتفرق الجنود العرب الذين كانوا يدافعون عن الجزيرة غير أنهم ظلوا يحتمون بجبل صيرة ، وهم على استعداد لاطلاق نيران بنادقهم على الجنـــود البريطانيين عند هبوطهم الى ساحل الجزيرة (٢) •

وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين قبيل الظهر غادر الجنود البريطانيون زوارقهم وهبطوا الى الساحل فى مجموعتين دون أن تواجههم سوى مقاومة ضعيفة • وفى الساعة الثانية عشرة الا خمس دقائق استولى جنود السفينة « كوت » على قلعة صيرة وأسروا عددا من البدو الذين كانوا قد اختفوا فيها . وفى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد ظهر ذلك اليوم ارتفعت الراية البريطانية على قصر السلطان محسن العبدلى سلطان لحج وعدن الذى فر مع أبنائه وحاشيته وأعيان عدن وكثير من سكانها الى لحج على النحو الذى ترويه المصادر العربية (٣) • بينما تشير الوثائق البريطانية الى أن السلطان «محسن» قد تم القبض عليه وأودع مســـجد العيدروس حيث فرضت عليه حراســـة مشددة (٤) . غير اننى أرجح الراى الأول الذى يتفق مع ســـير الحوادث التى أعقبت سيطرة البريطانيين على عدن • كما يتفق أيضا مع تطور العلاقات بين البريطانيين وبين السلطان محسن العبدلى الذى استقر فى لحج بعد عودته اليها فى أعقاب فشله فى صد الغزو البريطانى عن عدن فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ •

وعلى أية حال فقد استشهد من العرب أثناء دفاعهم عن مدينة عدن ضد الغزو البريطانى ١٣٩ شهيدا وأصيب خمســـة وعشرون آخرون باصابات

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 36.

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ــ ١٩٦ •

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٩٧ •

احمد فضل بن على محسن لعبدلى : المصدر السابق ، ص ١٤٥ •

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 128. C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, January 25, 1839, p. 82

خطيرة ، وكان من بينهم أحد زعماء القبائل وهو الشيخ رجب العزيبى وأحد أقارب السلطان وهو على سلام (١) · بينما بلغت خسائر البريطانيين خمسة عشر فردا بين قتيل وجريح (٢) على النحو الذى أوضحه « هينز » فى تقريره لحكومته · ولقد شهد « هينز » نفسه ببسالة المقاومة العربية فى عدن حينذاك فقال : « لو كانت خطة دفاعهم أحسن تنظيما مما كانت عليه لأصلونا نارا حامية ، خاصة وأن المدافع التى كانت بحيازتهم كبيرة وتستطيع فيما لو كانت متحركة أن تلحق بالسفن الغازية خسائر فادحة وهى تقترب من جزيرة صيرة » (٣) ·

وهكذا تمكن البريطانيون من السيطرة على عدن بالقوة بعد أن فشلت محاولاتهم للسيطرة عليها باتباع أساليب الضغط السياسى والمناورات الحربية لاجبار سلطان لحج وعدن على التنازل عنها دون جدوى · وكانت أهدافهم من السيطرة على عدن تتعلق بمصالحهم الاقتصادية والاستراتيجية والقومية فى أهم طريق لمواصلاتهم الى الهند وبلدان الشرق وهو طريق البحر الأحمر · وكانت عدن بمميزاتها الطبيعية وموقعها الممتاز بين السويس وبومباى عى أنسب موقع يتفق ومصالح بريطانيا الحيوية عبر هذا الطريق ، مما جعل « هينز » يسارع الى ابلاغ « كامبل » قنصل بريطانيا فى مصر بنجاحه فى السيطرة على عدن (٤) باعتبارها النقطة الحاكمة فى هذا الممر البحرى الهام فى عصر قربت فيه صناعة السفن البخارية المسافة بين الشرق والغرب · ولسوف تتخذ بريطانيا من وجودها فى عدن منطلقا لتنفيذ سياسة تستهدف السيطرة على منطقة البحر الأحمر ، لتحافظ على بقاء هذا الشريان الحيوى للمواصلات الدولية فى يدها ، ولتضع حدا لأى تنافس يهدد مصالحها ، سواء كان هذا التنافس من قبل أهالى المنطقة ذاتها ، أو من قبل القوى الكبرى الطامعة فيها ·

---

(١) Graham G.S. : Op. cit., pp. 298, 299.

(٢) أقام البريطانيون نصبا تذكاريا لقتلاهم فى هذه المعركة ما يزال قائما حتى الآن على ساحل عدن المواجه لجزيرة صيرة ، ومن الطريف ان يقيم اليمنيون ــ حديثا ــ على مقربة من هذا النصب مركزا لتجميع اصول التراث القومى لليمن والعمل على احيائه وكان لى شرف العمل باحثا بهذا المركز ·

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 37.

(٤) F.O., 78/373, Campbell to F.O. 2/11/39, Enclosing Haines to Campbell 1/28/39.

الفصل الثالث

سياسة بريطانيا في عدن والمنطقة المحيطة بها عقب الاحتلال ١٨٣٩ - ١٨٦٩

حرص البريطانيون بعد احتلالهم لعدن فى اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٨٣٩ على تدعيم سيطرتهم على المدينة نفسها فى بداية الأمر متصدين لكل المشكلات التى واجهتهم بكل ما تتميز به السياسة البريطانية من مرونة . ثم اتجهوا بعد ذلك الى الاستفادة من وجودهم فى عدن بجعلها مركزا للتوسع والانطلاق لبسط النفوذ البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية من جهة ، وفى حوض البحر الأحمر بساحليه الآسيوى والافريقى من جهة أخرى . وقد فرض عليهم هذا الاتجاه الوقوف فى وجه كل المحاولات المحلية التى قاومت وجودهم فى المنطقة فى بداية الأمر . كما فرض عليهم ذلك أيضا التصدى لأية محاولة تقوم بها أية قوى أجنبية لمنافستهم فى السيطرة على هذه المناطق . ولهـذا حرصت بريطانيا بادىء ذى بدء على تصفية النفوذ المصرى المجاور لها والمسيطر على المنطقة الساحلية التى تعرف بتهامة اليمن ، خاصة وأن المصريين فى ذلك الحين كانوا مسيطرين على معظم أرجاء الجزيرة العربية ، كما أن البحر الأحمر كان أشبه حينذاك ببحيرة مصرية .

وسوف نتتبع فى هذا الفصل المراحل المتتالية لجهود البريطانيين التى بذلت لتدعيم سيطرتهم على مدينة عدن نفسها ، وكيف واجـه البريطانيون المحاولات المتتالية لمقاومة وجودهم فيها . كما سنستعرض علاقة البريطانيين فى عدن بالمصريين فى تهامة اليمن حتى اضطروهم عن طريق السياسة الدولية الى الخروج من اليمن والعودة الى مصر فى نهاية شهر أبريل سـنة ١٨٤٠ . وسيبدو حرص بريطانيا على فرض نفوذها على القبائل المجاورة لعدن بجنوبى اليمن بكافة الوسائل والأساليب الأخلاقية وغير الأخلاقية . وسيمهد كل ذلك السبيل أمام بريطانيا ويحقق لها حرية الحركة للتوسع الاستعمارى متخذة من عدن مركزا للانطلاق بحيث تمكنت بعد ذلك من السيطرة على البحر الأحمر

حتى أصبح أشبه ببحيرة بريطانية . كما أنها تمكنت أيضا بفضل وجودها فى عدن من مراقبة جهود الدول الكبرى المنافسة لها فى البحار الشرقية عن كثب بحيث أصبحت قادرة على حماية مصالحها الحيوية فى بلاد الشرق .

اولا — سياسة البريطانيين لتدعيم سيطرتهم على عدن عقب احتلالها :

بعد أن تم للبريطانيين احتلال مدينة عدن بالقوة فى اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٨٣٩ فقد أرسل « هينز » تقريرا لحكومة الهند البريطانية (١) فى اليوم الخامس من فبراير حدد فيه الأسلوب الذى سيتبعه مع سكان المدينة ومع القبائل اليمنية المجاورة لعدن حتى لا يلجأ للاتصال بالقـــوات المصرية الموجودة حينذاك فى منطقة تهامة . وقد اقترح « هينز » على حكومته تحديد خط يمتد من مضيق باب المندب حتى وسط اليمن ويميل الى حوالى ٥٤٤ شرقا ليفصل اليمن الى منطقتى نفوذ احداهما مصرية والأخرى بريطانية . وقد أبقى هذا الخط المقترح مدينة صنعاء والأراضى اليمنية المنتجة لمحصول البن ضمن منطقة النفوذ البريطانية . كما أوضح « هينز » فى تقريره أن تعداد سكان عدن المدنيين كان يبلغ حوالى ستمائة نسمة ، بينهم ٢٥٠ يهوديا و ٣٠ ـ ٤٠ من الهنود غير المسلمين ، وبعض الهنود المسلمين ، والبعض الآخر من الصوماليين والافريقيين بوجه عام (٢) .

ويتضح من تقرير « هينز » لحكومته أن تعداد سكان عدن نفسها من العرب كان أقل من ثلاثمائة نسمة ، غير أنه مما لا شك فيه أن العرب كانوا يزيدون فى عددهم قبيل الاحتلال عما سجله « هينز » فى تقريره (٣) . وانما النقص المفاجيء فهو يرجع لسببين أولهما أن الأهالى خافوا من الاحتلال البريطانى بعد أن شاهدوا سفن البريطانيين الهائلة وهى تحاصر عدن . كما أن الحصار كان فى حد ذاته قد أثر فى معيشتهم . وقد أدى عامل الرهبة والخوف الى جانب ضيق المعيشة الى جعل الأهالى يفرون الى لحج والى غيرها من القرى القريبـــة المجاورة . وثانى هذين السببين أن « هينز » عندما شرع فى اجراء أول احصاء لسكان عدن فى شهر فبراير سنة ١٨٣٩ وأخذ يسجل أسماء الأهالى عقب الاحتلال مباشرة فان العرب كانوا يذكرون أسماء الذكور ويهملون أسماء الاناث وربما أنهم لم يكونوا يقدمون العدد الحقيقى لأبنائهم خوفا عليهم من أن يجندوا أو يؤخذوا كرهائن أو يكلفوا بخدمة قوات الاحتلال . والدليل على ذلك أن

---

(١) Low, C.R. : History of the Indian Navy, 1613—1863, Vol. 2, p. 119.

(٢) I.O., B.S.C., 1839. Haines to Bombay 2/5/39.

(٣) Marston, T.F. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, pp. 77. 78.

الأهالى بعد أن وقعت معاهدة بين السلطان والبريطانيين فى شهر يونيو سنة ١٨٣٩ شعروا بالطمأنينة وعادوا الى عدن • ولم يأت شهر سبتمبر من نفس السنة حتى كان تعداد سكان المدينة قد بلغ ٢٨٥٠ نسمة • بل ان « هينز » أبلغ حكومته فى سنة ١٨٤٠ بأن تعداد سكان عدن قد تزايد حتى بلغ ٤٦٠٠ نسمة •

أما بالنسبة لما حدث لسكان عدن يوم الاحتلال ، فقد اعترى الخوف الشيوخ والنساء والأطفال على وجه الخصوص من قذائف البريطانيين فلجأوا الى مسجد العيدروس حيث مكثوا فيه الى أن أرسل « هينز » بعد احتلاله للمدينة يؤمنهم على أرواحهم وممتلكاتهم ويدعوهم الى العودة الى بيوتهم وأعمالهم • وقد وصف « هينز » مدينة عدن عقب احتلالها بأنها كانت قرية صغيرة بائسة وفقيرة ، وتشتمل على حوالى ستمائة كوخ ، وأنها كانت فى حاجة الى جهود كبيرة للارتقاء بها •

وقد اتبع البريطانيون بعد احتلالهم لعدن سياسة مرنة للغاية فأخفوا عداءهم لأهالى البلاد وسلطانها ، بل انهم أعلنوا «العفو» عنهم وحاولوا التقرب اليهم واكتساب ثقتهم ليعيدوا بذلك الهدوء والاستقرار للمدينة الأمر الذى يواكب مصالحهم ويحقق أهدافهم ويضمن لهم بعد ذلك السيطرة الكاملة عليها • وقد اجتذبت هذه السياسة الكثيرين من الأهالى البسطاء خاصة بعد أن أدى الارهاب الحربى دوره فى اظهار قوة البريطانيين ومقدرتهم على قمع المقاومة العربية التى واجهوها من رجال السلطان وأتباعه ، والتى فقدت مقوماتها أمام الأسلحة البريطانية الحديثة المتفوقة من جهة ، وبفعل الخيانة التى كانت تفت فى عضدها من جهة أخرى •

وقد بدت تطبيقات هذه السياسة البريطانية المرنة فى الرعاية الطبية التى قدمها البريطانيون للجرحى العرب ، وصرف بعض التعويضات لهم عن الخسائر التى منوا بها أثناء اقتحام القوات البريطانية لمدينة عدن • كما بدت أيضا هذه السياسة فى اهتمام « هينز » بتقديم الرعاية الطبية اللازمة للشيخ رجب العزيبى الذى أصيب باصابات خطيرة أثناء المعركة • وعندما استشهد الشيخ رجب متأثرا بجراحه فقد منح « هينز » أسرته مبلغا قدره مائتا ريال كمعونة عاجلة وقال لابن الشيخ انه يجب أن يذكر أباه دائما بأنه كان بطلا شجاعا • وكان رد فعل هذه السياسة المرنة لدى رجال العزيبى البسطاء أنهم بدءوا يتوددون للبريطانيين ، وقدموا لهم الجمال لحمل أمتعتهم ومؤنهم الى

المدينة . ومن هنا قرر « هينز » تماديا منه فى تطبيق سياســـته منح عائلة الشيخ رجب راتبا سنويا ليضـــــمن بذلك اســـتمرار علاقاتهم الودية مع البريطانيين (١) .

وقد نجحت هذه السياسة المرنة أيما نجاح والدليل على ذلك أن عشيرة العزيبى كانت أول من ارتبط مع البريطانيين بمعاهدة صداقة فى ســـنة ١٨٣٩ ، (٢) وهى أولى سنى الاحتلال البريطانى لعدن . ولم تقتصر هـــذه السياسة البريطانية على الرعاية الطبية التى قدمت للجرحى العرب فى أعقاب احتلال عدن ، وعلى محاولات التقرب لبعض الرؤساء وعائلاتهم كالشيخ رجب العزيبى وقبيلته . بل ان «هينز» اهتم أيضا بتشجيع السكان على العودة الى أعمالهم وبث روح الثقة بينهم وبين البريطانيين حتى تهدأ الأحوال فى عدن ، وتنشط الحركة التجارية فيها ، ويتحقق لها الاستقرار والازدهار (٣) .

وقد أرسل « هينز » عدة خطابات للسلطان محسن وابنه أحمد ، والى زعماء قبائل العزيبى والسلمى وقبائل العقربى والحوشبى ، موصـــحا لهم فيها استعداده لتقديم الرعاية الطبية لجرحاهم من جهة ، كما سمح لهم بحرية التنقل من مدينة عـــدن واليها من جهـــة أخرى . وقد حقق « هينز » من وراء تلك السياسة كل نجاح اذ وافق هؤلاء على اقرار السلام وعلى اقامة العلاقات الودية مع البريطانيين فى عدن ونشطت الحركة التجارية من جديد فى المدينة . كما أبدوا أيضا استعدادهم لارسال المؤن والجمال اللازمة لمعاونة القوات البريطانية فى نقل مهماتها الى مدينة عدن وبدءوا يتوافدون عليها من جديد (٤) .

وتجدر الاشارة الى موقف السلطان محسن من البريطانيين بعد احتلالهم لعدن ، اذ انه بعد أن لحقته الهزيمة أجاب على خطـــاب « هينز » فى ٢١ يناير سنة ١٨٣٩ مبديا استعداده للانضواء تحت العلم البريطانى ومعبرا عن أسفه عما حدث . واختتم السلطان رسالته بقوله ان ما حدث هو قضاء الله ومشيئته وأنه ينتظر حينذاك تعليمات الحكومة البريطانية (٥) . وقد سارع « هينز »

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A. No. 132. C. Haines to the Secretary to the BombayGovernment, p. 85.

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 34.

(٣) أمين الريحانى : ملوك العرب ج ١ ، ص ٣٨ .

(٤) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 133. C. Haines to the Secretary to the Bombay Government, January 28, 1839, pp. 85, 86.

(٥) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 135. Mhousain to C. Haines, January 21, 1839, pp. 86, 87.

بالرد على السلطان متبعا معه أسلوب السياسة البريطانية المرنة لاجتذاب الأعداء ، فأكد له أن حكومة بومباى سوف تعامله بكل كرم . كما أوضح « هينز » للسلطان بأن له مطلق الحرية فى ابلاغ اتباعه بأنه مسموح لهم القيام بتصدير بضائعهم ومنتجاتهم الى عدن « وأن الأمور سوف تسير سيرا حسنا فى المستقبل (١) ، ثم اختتم « هينز » رسالته للسلطان موضحا انه يسعده أن يستقبل مبعوثى السلطان أو السلطان شخصيا ، وطمأنه بأنه ليس فى نية الحكومة البريطانية أن تمتلك بوصة واحدة من الأرض خلف الخط المتفق عليه بينهما من قبل .

على أن « هينز » كان يبغى من وراء سياسته المرنة هذه مع سلطان لحج وعدن ومع شيوخ القبائل المجاورة اقرار الأمن والهدوء فى عدن نفسها حتى يمكن الاستفادة منها بجعلها محطة لتموين السفن البريطانية بكميات الفحم اللازمة لها ، كما بدأت بريطانيا تجنى الثمار من وراء أهميتها البحرية والتجارية والاستراتيجية . ومن الأسباب التى أدت الى نجاح تلك السياسة المرنة فى تحقيق المصالح البريطانية أن « هينز » كان يتقرب من شيوخ القبائل المحيطة بعدن ويجتذب مودتهم وصداقتهم ، فى وقت كان يحتل فيه مركز الصدارة والقوة . وقد توالت على « هينز » خطابات من شيوخ القبائل المحيطة بعدن معبرة عن ولائهم للحكومة البريطانية واستعدادهم للتعاون معها . وقد حرص « هينز » على تشجيع الحركة التجارية فى عدن بحيث تصبح المنفذ التجارى الوحيد لليمن بأكمله . (٢) فأعلن أنها مفتوحة لأهالى المنطقة وأنه يسعده أن تتدفق البضائع والمحصولات على مينائها من كل جانب بعد أن أصبحت التجارة فيه آمنة مستقرة ، وقام بابلاغ ذلك لشيوخ القبائل القاطنة فى المنطقة المحيطة بميناء عدن (٣) وهكذا كان أسلوب السياسة البريطانية المتميز بمرونته من العوامل التى دعمت سيطرة البريطانيين على عدن وساعدتهم على بسط نفوذهم فى المنطقة المحيطة بها فى جنوبى اليمن .

وجدير بالذكر أن عدد سكان عدن قد تزايد بعد ذلك عما كان عليه فى سنة ١٨٤٠ نتيجة للسياسة المرنة التى اتبعها البريطانيون اذ كانت نتيجة التعداد الذى أجرى هناك فى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٢ تشير الى وجود ١٦ر٤٥٤ نسمة فى مدينة عدن باستثناء ٣ر٤٨٤ فردا يمثلون القوة البريطانية والعاملين بالمعسكرات وبذلك يكون العدد الاجمالى ١٩ر٩٣٨ نسمة كان بينهم ٨٥٧ أوربيا (٤) . كما ازدهر ميناء عدن ونشطت الحركة التجارية فيه وان كان ذلك

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 138, C. Haines to the Sultan Mhousain and his son Sultan Ahmed, January, 23, 1839. pp. 87, 88.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 80.

(٣) I.O., I.B., I.P., F. 23, C.R.A., No. 138, 144. C. Haines to Several Sheiks. January 23, 1839, p. 89.

(٤) I.O., B.S.C., 1843, Haines to Bombay 12/29/42.

قد أدى الى التأثير على حالة ميناء مخا اليمنى وعلى كثير من موانى البحر الأحمر بوجه عام فاعترتها حالة من الاضمحلال والضعف نتيجة لتحول التجارة عنها وتركزها فى ميناء عدن ٠ على أنه من العوامل التى ادت أيضا الى اضمحلال ميناء مخا بصفة خاصة تعرضها لموجة كاسحة من وباء الكوليرا الذى اجتاح المنطقة الساحلية من شمالى اليمن ٠ كما أن ميناء الحديدة انتزع بعد ذلك من مخــا تجارتها عندما سيطر العثمانيون على اليمن فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر واهتموا كثيرا بتنشيط الحركة التجارية فى ميناء الحديدة الجديد (١) ٠

بل ان « هينز » كتب لحكومة بومباى فى شهر نوفمبر سنة ١٨٤٢ يقول : « اننى سعيد أن أخطركم بأن جماهير عدن والعامة من سكانها قد شرعوا فى بناء حوانيت جديدة دائما ومنازل مســتقرة ثابتة (٢) مما يؤكد اتجاه أهالى عدن الى الاستقرار فى مدينتهم وانصرافهم الى ممارسة نشاطهم التجارى ممـا سيؤدى الى ازدهار المدينة وانتعاشها ٠

كما أن حكومة بومباى وافقت من جانبها على وضع خطة لاعادة بنــاء مدينة عدن ، بل انها اتجهت الى تمليك أراضى المدينة لمن يقبلون دفع ايجار الأرض للمقيم البريطانى هناك على أن تكون قيمة الايجار معتدلة مما يشجع الأهالى والمستوطنين على تعميرها (٣) ٠ وقد بدت سياسة البريطانيين المرنة فى معاملة أهالى عدن عندما وافقت حكومة بومباى أيضا على تقــديم الأراضى اللازمة لكل من يرغب فى اقامة مساجد جديدة للمسلمين فى عدن (٤) لتؤكد بذلك استعدادها للمحافظة على المشاعر الدينية لسكان المدينة المسلمين ٠

وقد تضمنت مراسلات « هينز » لحكومة بومباى ابراز حالة الانتعاش التجارى وتزايد السكان بعد احتلال البريطانيين لمدينة عدن حتى تطرق أيضا للاحصاءات المتعلقة بالثروة الحيوانية فى المدينة أثنــاء ذكره لعمليات العلف اللازم لتغذيتها من حضرموت موضحا الزيادة التى بلغتها بعد ثلاث سنوات من الاحتلال فيما بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٤٢ ٠ فذكر أن الخيول زادت من ٢ : ٨٠ وأن الجمال زادت من ١١ : ٧٠ وأن الحمير زادت من ١٨ : ٤٠٠٠ أما الأبقــار فقد زادت من ٤٠ : ٣٠٠ ولا شك أن هذه الثروة الحيوانية قد استغلت فى الوفاء بحاجات الحامية البريطانية فى عدن سواء من ناحية تسهيل عمليــات النقل أو توفير اللحوم (٥) ٠

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 38.
(٢) I.O., B.S.C., 1842, Haines to Bombay 11/2/42.
(٣) I.O., B.S.C., 1840, Minute by Board 4/15/40.
(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 70
(٥) Marston, T.E. : Op. cit., p. 72.

وهكذا كانت عدن وهى أول منطقة تضم الى الامبراطورية البريطانية بعد تولى الامبراطورة فيكتوريا عرش بريطانيا (١) ، انما تمثل ماسة قيمة فى التاج البريطانى على النحو الذى أكده « هينز » الذى أوضح أن أهميتها ستصبح خطيرة اذا ما نشبت حرب أوربية . ولقد تحقق ذلك بالفعل عندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ على الرغم من أن الامبريالية البريطانيــة تساءلت عقب احتلالها — وهى فى شك مريب — عما اذا كانت عدن مفيدة حقا للمصالح البريطانية ، لدرجة أنها أحجمت عن المساعدة فى تعميق مينائهــا ليكون مستعدا لاستقبال السفن البريطانية المتطورة على اختلاف أحجامها وعمق غاطسها (٢) .

ثانيا — الادارة البريطانية فى عدن والمشاكل التى واجهتها عقب الاحتلال :

أصبح « هينز » أول مقيم سياسى بريطانى فى عدن عقب احتلالها فى اليوم التاسع عشر من يناير سنة ١٨٣٩ (٣) . وقد أقام « هينز » فى أحد منازل المدينة فى حى « كريتر » واتخذه مقرا لادارة شئون المدينــة . وكان أول مســاعد له « الملازم ينكينز Jenkins » ثم حل بعد ذلك « الملازم كروتندن C.J. Cruttenden » فى شــهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ . وكان هؤلاء جميعا من رجال البحرية الهندية البريطانية الذين حل محلهم فى هذا المجال بعد ذلك رجال من الجيش الهندى البريطانى منذ سنة ١٨٦٣ (٤) . وقد أكد « كارناك Governor Carnac » حاكم بومباى فى شــهر ســبتمبر ســنة ١٨٣٩ أن « هينز » هو أنسب شخص للمنصب الذى يشغله فى عدن حينذاك (٥) .

واستطاع « هينز » بمقدرته وحزمه ولباقته أن يجمع فى يده جميع خيوط السلطة فى عدن ويوحد ادارة المدينة ويجعل المسئولين هناك يرجعون اليه فى كل الأمور . كما حرص « هينز » على الاستفادة من المواطنين العرب ذوى الخبرة من أهالى عدن للمشاركة فى ادارة شئون المدينة وسمح لهم باتباع أساليبهم الادارية الخاصة التى اعتادها الأهالى هناك . بل أن « هينز » استعان بعدد من الرجال العرب المسلمين من أهالى عدن ليحافظوا على الأمن فيها بعد أن أرسلهم الى بومباى حيث تم تدريبهم على نظم الشرطة (٦) . وكان « هينز »

---

(١) Playfair, R.I. : A History of Arabia Flix or Yemen from the Commencement of the Christian Era to the Present Time, p. 163.

(٢) Jacob, H.E. : Op. cit., p. 38.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 69.

(٤) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 39.

(٥) I.O., B.S.C., 1839, Minute by Carnac 9/9/39.
Marston, T.E. : Op. cit., p. 81.

(٦) Waterfield, G. : Op. cit., p. 112.

يهدف من اتباع سياسته هذه فى الاستعانة بالعرب من أهالى عدن فى مثل هذه الأعمال أن يضمن لحكمه الاستقرار ويحفظ الأمن فى البلاد ويقرب الأهالى اليه . كما كان « هينز » يهدف أيضا الى جعل ميناء عدن يقوم بدوره كاملا كميناء بحرى هام فى خدمة المصالح البريطانية (١) .

وفى نفس الوقت الذى كان « هينز » يقوم فيه بجهود مستمرة لتوحيد ادارة المدينة ، كان قائد الحامية البريطانية فى عدن مسئولا عن قواته المعسكرة فى المدينة حينذاك . وكانت واجبات قائد الحامية تتركز فى اعداد الترتيبات اللازمة لمواجهة أى هجوم مضاد من قبل القبائل العربية المجاورة لعدن (٢) . على أن سكان عدن البالغ عددهم حوالى خمسة آلاف نسمة فى مطلع سنة ١٨٤٠ والذين سهل على « هينز » فى بداية الأمر تهدئتهم واقرار الأمور بينهم (٣) . أصبحوا غير راضين عن أسلوب الحكم فى عدن نتيجة لتأثرهم كثيرا بالمحاولات المستمرة التى كان يبذلها سلطان لحج لاثارة السكان العرب وتحريضهم ضد البريطانيين فى ذلك الحين . ولم يخف على البريطانيين هناك أنه اذا ما نشبت ثورة أو تمرد بين سكان عدن على النحو الذى أوضحه الضابط البريطانى « كابتن فوستر Capiain Foster » فى تقريره أو اذا تمكن بعض الثوار من رجال السلطان من التسرب والتغلغل فى صفوف السكان ، فسوف يواجه البريطانيون هناك عواقب وخيمة . وكانت الحكومة البريطانية ورجال السلك العسكرى البريطانيين فى بومباى يخشون من مغبة حدوث ذلك .

على أن « هينز » كانت تصله باستمرار — وخاصة بعد مضى الخمس سنوات الأولى من الاحتلال (٤) — أنباء تحركات القبائل اليمنية المعادية للبريطانيين فى المنطقة المحيطة بعدن عن طريق بعض رجال القبائل الذين بدءوا يمالئون الادارة البريطانية من جهة ، وعن طريق اليهود المقيمين فى عدن نفسها أو الذين يعيشون منهم فى المناطق المجاورة لها من جهة أخرى . وكان بعض اليهود يعملون لدى شيوخ بعض القبائل ويشرفون على شئونهم المالية وحساباتهم الأمر الذى كان يجعلهم قادرين على معرفة نوايا العرب وخططهم . وقد أشار « هينز » الى ذلك عدة مرات فى التقارير التى كان يرسلها الى حكومة بومباى . بل ان « هينز » كان يعلم من هؤلاء العرب العملاء وأولئك اليهود الجواسيس الأنباء المتعلقة بتحركات جواسيس السلطان داخل مدينة عدن والأشخاص والجهات التى كانت تمدهم بالمعلومات المختلفة عن القوات البريطانية المحتلة . وهكذا كان يهود اليمن جواسيس البريطانيين على الشعب اليمنى ، وكانوا يراقبون الأحداث بدقة ، واستطاع « هينز » استخدامهم عن

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 70.

(٢) Waterfield, G. : Op. cit., p. 112.

(٣) I.O., B.S.C., 1839, Minute by Governor 2/21/39.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 70.

طريق اثنين من اليهود يقيمان فى عدن هما « منهاكن وشومادبل Manhakain and Shumadiel » كانت الرســـائل تصـل اليهمـــا وهى مكتوبة باللغة العبرية التى لا يعرفها العرب والتى كانت بالنسبة لهم أشبه بالشفرة . وعنـــــدما سألت حكومة بومباى « هينز » عن الطريقة التى يحصل بها على معلومات عن القبائل المجاورة لعـدن ، فقد ذكر لهم أنهـــا كانت ترد اليه « عن طريق اليهود » (١) .

وجدير بالذكر أن أحد المبشرين اليهود يدعى « صامويل Samuel » وصل الى عدن فى سنة ١٨٤٠ وعرض على « هينز » أن يدعو يهود اليمن للتجمع فى عدن للعمل فى خدمة الحكومة البريطانية التى كان عليها أن توفر لهم الأجر والطعام والمأوى غير أن « هينز » رفض هذا المشروع حينـــذاك . وقد عاد « صامويل » هذا الى عرض مشروع اقامة مدرسة لأبناء اليهود فى عدن ، غير أن هذا المشروع رفضه « هينز » أيضا نظرا لأن حكومة بومباى كانت تتبع حينذاك سياسة عدم التدخل فى أمور الأهالى الدينية (٢) .

على أن رجال السلك العسكرى البريطانى بصفة خاصة سواء من كان منهم فى بومباى أو فى عدن نفسها لم يكونوا على علم تام بمقـــدرة وامكانات ادارة المخابرات التى كان يحركها « هينز » ويوجهها داخل مدينة عدن وفى المنطقة المحيطة بها ليتعرف على تحركات القبائل العربية من أجل مقـــاومة الاحتلال البريطانى ولطرد البريطانيين من عدن حينذاك . بل انه قد لوحظ أيضا أن « الميجور بيلى Major Bailie » قائد الحامية البريطانية فى عدن قد حاول تشكيل ادارة خاصة للمخابرات تعمل لحسابه وذلك بعد أن أصبح « هينز » مقيما سياسيا فى المدينة . وقد استعان « بيلى » بمجموعة قليلة العدد من الضباط البريطانيين لمساعدته فى هذا المجال ، وكان من بينهم على سبيل المثال « الملازم رجبى Lieut. Rigby » الذى كان ملما باللغة العربية وكان يلتقى كثيرا مع كبار التجار العرب وعلماء المسلمين وغيرهم فى عدن (٣) .

وقد نشب صراع عنيف للاستئثار بالسلطة فى عدن بين الادارة المدنية السياسية الممثلة فى « هينز » كمقيم سياسى بريطانى فى المدينة ، وبين الجناح العسكرى الممثل للقوات البريطانية المعسكرة هناك . اذ تشكلت من رجال السلك العسكرى البريطانى فى عدن جبهة معارضة « لهينز » بعد أن تتولى سلطاته كمقيم سياسى مسئول عن المدينة باكملها . وقد حقـــد هؤلاء على « هينز » — وهو الضابط البحرى البسيط — أن تكون له كل هذه السلطات

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 82.
(٢) Marston, TE. : Ibid., pp. 72, 73.
(٣) Waterfield, G. : Op. cit., p. 113.

التى جعلته دكتاتورا يحكم عدن بأسرها · ونشأ بالفعل صراع حاد بين « هينز » وبين الميجور « بيلى » قائد الحامية البريطانية فى عدن كاد يؤدى الى تعرض الحامية هناك لأخطار جسيمة وكان السبب فى ذلك يرجع بالدرجة الأولى لخطأ ارتكبته القيادة العسكرية فى بومباى (١) يتلخص فى أنها لم تحدد من البداية اختصاصات ومهام رجالها الذين أرسلتهم الى عدن للسيطرة عليها وحمايتها من التعرض لأخطار المقاومة العربية أو أية مخاطر أخرى ·

ولمعرفة أبعاد هذا الخطأ يجب أن نشير الى أن القيادة العسكرية البريطانية فى بومباى الى جانب رجال السلك العسكرى البريطانى فى عدن لم يدركوا تماما أهمية عدن كميناء تجارى خطير ، بل انهم نظروا اليها على أنها موقع استراتيجى فقط يجب أن تكون ادارته فى يد السلطات العسكرية وحدها ، خاصة وأن عدن قد فرضت فيها الأحكام العرفية عقب تعرضها لأخطار المقاومة العربية من جانب القبائل القاطنة فى المنطقة المحيطة بها · غير أن حكومة بومباى عارضت بكل اصرار محاولات الضغط التى قام بها العسكريون البريطانيون فى عدن على الادارة المدنية السياسية فيها وترتب عليها ظهور مشكلات عديدة · وقد بدا ذلك واضحا عندما أكدت حكومة بومباى ثقتها فى « هينز » كمقيم سياسى مسئول عن عدن من قبل الحكومة البريطانية ورفضت قبول كافة الأعذار والبراهين التى قدمها « الميجور بيلى » ليبرىء ساحته فى الصراع الذى دار بينه وبين « هينز » فى ذلك الحين ·

على أنه عندما صدر قرار تعيين « كولونيل كابون Colonel Capon قائدا لحامية عدن فى شهر سبتمبر سنة ١٨٣٩ فقد اعتبر نفسه بموجب هذا القرار مسئولا عن الادارة المدنية فى عدن وليس فقط عن الحامية البريطانية هناك كما كان ينبغى — ولاشك أن ذلك يعتبر تعديا على اختصاصات «هينز» باعتباره المقيم السياسى البريطانى الذى يمثل الحكومة البريطانية بل ان «هينز» لم يخطر بهذا القرار من قبل الجهة الرسمية التى أصدرته وهى قيادة القوات البريطانية فى بومباى · ويبدو أن حكومة بومباى نفسها لم تكن لديها أية معلومات عن صدور هذا القرار، كما لم يكن لديها أيضا أية معلومات عن تطبيق الأحكام العرفية فى مدينة عدن · وبمرور ستة أشهر عقب صدور هذا القرار فقد تبينت حكومة بومباى حقيقة ما حدث ، وحاولت تدارك الأمر بانهاء الصراع الذى نشب بين الجناح السياسى والجناح العسكرى فى عدن حول الاستئثار بالسلطة فى المدينة (٢) وحول من يملك زمام الأمور ·

وكان « الكولونيل كابون » قد اعتقد خطأ من خلال التعليمات الصادرة اليه من قيادته العسكرية فى بومباى بأنه المسئول عن الناحيتين العسكرية والمدنية فى منطقة عدن بأكملها · ولهذا فانه عندما اكتشف وجود أحد

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 114.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 70.

الصوماليين فى عدن وهو يحرز بعض رءوس الحراب فقد سارع باصدار قرار عاجل بنزع السلاح من كل سكان المدينة وحظر عليهم حمله والا تعرضـوا للعقوبة · كما قام « الكولونيل كابون » بابلاغ « هينز » كمقيم سياسى فى عدن باصدار تعليماته لأهالى المدينة بأن أى شخص من المدنيين سـوف يضبط وفى حيازته أية أسلحة سيقدم على الفور للمحاكمة العسكرية · وهنـا روع « هينز » من صدور مثل هذا القرار الذى يؤكد اعتقاد « الكولونيل كابون » الخاطىء بأنه صاحب الحق فى مزاولة السلطات المخولة للوكالة السياسية ، ورفض أن يعلن هذه التعليمات على السكان المدنيين فى عدن (١) ·

والغريب أن « الكولونيل كابون » تحدى المقيم السياسى « هينز » وأعلن انه سيقوم بنفسه باعلام الأهالى بهذه التعليمات اذا أصر «هينز» على الامتناع عن اعلانها عليهم · غير أنه أحس بمدى الضيق الذى سببه « لهينز » وعلم بأنه غضب أشد الغضب لهذا التحدى السافر ، ولهذا أجل « كابون » التصرف فى هذا الموضوع ، ولكنه فى نفس الوقت وضع حراسة مشددة على المحـلات التجارية فى أسواق عدن وعلى الأماكن العامة فيها على النحو الذى أوضـحه « هينز » فى تقاريره لحكومته (٢) ·

وهنا احتج سكان عدن لدى المقيم السياسى البريطانى « هينز » معبرين عن تذمرهم واستيائهم وموضحين بأن حقوقهم بدأت تتأثر كثيرا نتيجة للتدخل الزائد من قبل القيادة العسكرية فى شئونهم · وقد أبلغ « هينز » حكومة بومباى بأن هذه التصرفات من قبل العسكريين البريطانيين قد سببت له كثيرا من الحرج وأضرت بمصالح المدنيين فى عدن وأساءت لمشاعرهم · كما أوضح « هينز » لحكومته بأن سكان عدن يتساءلون فى مرارة بأنه « اذا كانت هذه هى الطريقة السيئة التى يعاملون بها فىذلك الحين فان الله وحده يعلم مدى الظـلم والضرر الذى سيحيق بهم فى المستقبل من قبل البريطانيين » ، وأن ذلك من شأنه أن يعمق الهوة بين الادارة البريطانية فى عدن وبين سكان المدينة · ولا شك أن هذا الصراع العنيف حول الاستئثار بالسلطة بين العسكريين البريطانيين فى عدن والمقيم السياسى البريطانى فيها قد أدى الى اضعاف مركز البريطانيين فى المدينة بوجه عام · وقد كان للأنباء المتعلقة بهذا الصراع وقع طيب لدى العرب اليمنيين المناضلين حول عدن لأنها كانت تعنى وجود انقسامات وشقاقات فى صـفوف البريطانيين من شأنها أن تؤثر الى حد ما فى سيطرتهم الكاملة على المدينة وفى مقدرتهم على التصدى لعمليات المقاومة ·

ومن الملاحظ أن « الكولونيل كابون » كان ينظر الى موضوع التنازع على

---

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 115.

(٢) I.O., Reports to Bombay from Haines and Colonel Capon from January to March 1840, B.E., Vol. 20.

السلطة فى عدن من زاوية مختلفة . لقد اعتبر ان قيامه بالمحافظة على الأمن داخل مدينة عدن يشكل صلب اختصاصاته نظرا لان القوات البريطانية كانت تعسكر فى جوانب المدينة ، كما أن مخيمات قواته كانت قريبة جدا من سوق عدن ، مما جعل الأمر فى حكم المستحيل بالنسبة له أن يحافظ على النظام والأمن بينما كانت السلطات المخولة « لهينز » أعلى من سلطاته وأعظم . لقد كان «كابون» يعتقد بأن المقيم السياسى البريطانى نفسه وكل سكان مدينة عدن هم جميعا مواطنون فى قلعة تحميها الحامية العسكرية التى يقودها وتحاصرها قوات القبائل اليمنية المتعطشة للانقضاض عليها وطرد البريطانيين منها دون رجعة ، ولهذا كانت سلامة هذه القلعة وتامينها فى نطاق مسئوليته كما كانت شغله الشاغل .

ومن ناحية اخرى فقد أرسل « هينز » رسالة الى « كابون » أوضح له فيها بأن النظام المعمول به فى البحرية البريطانية لا يبيح باى حال وجود شخصين يمارسان نفس السلطة والنفوذ معا وفى وقت واحد . كما أنه لا يمكن أن توجد فى أية قلعة أو معسكر كبير فى الهند سلطتان احداهما عسكرية والأخرى مدنية كما هو الحال فى عدن . وقد عبر « هينز » عن أمله فى أن يحرص هو وزميله « كابون » دون اصرار وجمود وسعى من الجانبين للاستئثار بالسلطة على أن يتعاونا معا بحيث يصبحان قادرين على أن يعملا فى تناسق ووئام دون أن يتحولا الى انتهاج التصرفات التى تعوقهما عن مواجهة هذا الموقف الصعب الذى وضعا فيه (١) .

على أن « هينز » لم يكن على استعداد مطلقا لتقبل وجود أى سلطة مساوية لسلطاته فى عدن لأنه كان يعتقد أن معظم الحكومات كانت تؤكد مسئولية المقيم السياسى عن كل السلطات الموجودة فى المناطق التابعة لها ، وأن تحقيق ذلك فى عدن لا تواجهه أية معوقات اذ يمكن أن تؤدى السلطتان المدنية والعسكرية واجباتها وتمارس صلاحياتها تحت اشرافه ومسئوليته بطريقة مرضية .

غير أن المراسلات التى تبودلت بين « هينز » و « كابون » قد أزاحت الستار وكشفت عن وجود مشكلات أخرى عديدة شكلت صدمة حقيقية « لهينز » . فعلى سبيل المثال يتبين من هذه الرسائل أن « الميجور بيلى » كان قد تلقى عدة خطابات من الزعماء والشيوخ العرب فى المناطق المحيطة بعدن دون أن يخبر بها « هينز » أو يطلعه عليها . كما أنه لم يبلغه أيضا بان لجنة من الضباط البريطانيين قد استمعت الى شكاوى كثيرة ضد « هينز » وخاصة فيما يتعلق بقيامه بواجباته كمقيم سياسى من سيد علوى العيدروس الذى كان قد طلب رفع شكواه هذه الى حكومة بومباى . وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كان « هينز » قد حذر فيه « كابون » من أن الكثيرين من شيوخ القبائل كانوا

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 115.

يتآمرون لمصلحة سلطان لحج ويتصلون بالبريطانيين ليخدعوهم . وقد أحيط « هينز » لأول مرة علما بأن « كابون » قد تلقى عديدا من الانتقادات على الادارة البريطانية فى عدن من قبل الشيوخ اليمنيين عن طريق الملا جعفر . وقد قام « الكولونيل كابون » بابلاغ « هينز » بأنه يشك فى مدى اخلاص الملا جعفر فى اتصاله بالوطنيين وبأنه قد نما الى علمه أن سكان المدينة كانوا يمالئون الملا جعفر أكثر مما كانوا يتجاوبون مع مصالح الحكومة البريطانية ذاتها .

على أن هذه الرسائل عندما وصلت الى حكومة بومباى فقد قوبلت بتعجب واستغراب شديدين . ولهذا سارعت الحكومة الى تصحيح الأوضاع فى عدن فأبلغت « هينز » بخطابها فى ٢٣ مارس سنة ١٨٤٠ بأن القرار الخاص بعرض الأحكام العرفية فى المدينة قد ألغى نهائيا . وأن تعليمات جديدة قد صدرت لتؤكد أن « الكولونيل كابون » مسئول فقط عن الحامية البريطانية المعسكرة فى عدن . وقد أبدت حكومة بومباى اعتذارها « لهينز » عن التدخل الذى حدث من قبل العسكريين البريطانيين فى سلطاته المدنية والسياسية المكلف بها من قبل الحكومة البريطانية . وقد أثبتت ذلك التأكيد الذى أعلن على أهالى عدن أنهم سوف يحكمون تبعا لما تقضى به قوانينهم الخاصة والعرف المعمول به أصلا فى البلاد . على أن يتم ذلك فى نطاق السلطات المخولة « لهينز » المقيم السياسى البريطانى المسئول من قبل الحكومة البريطانية ، وأن ذلك لا يعنى احداث أى تغيير للنظم الموجودة فى عدن والسائدة فيها حينذاك (١) .

وقد اعتبر « هينز » أن السياسة التى اتبعها « الكولونيل كابون » وأدت الى التنازع حول الاستئثار بالسلطة فى عدن كانت ترجع للصياغة غير الدقيقة للقرار الرسمى الخاص بتعيينه . وقد ارسلت حكومة بومباى الى « الكولونيل كابون » خطابا شديد اللهجة أوضحت فيه أن أضرارا خطيرة كانت على وشك أن تلحق بالمصالح البريطانية اذا استأثرت السلطة العسكرية بالنفوذ المطلق فى عدن . اذ جاء فى هذا الخطاب الموجه « لكابون » أنه : « مطلوب منك ألا تتدخل بأية وسيلة فى شئون سكان المدينة أو فى سوق عدن الا من خلال التوجيهات الصادرة اليك من المقيم السياسى وأن تقتصر صلاحياتك مستقبلا على توجيه قواتك ومعاونيك الذين تضمهم الحامية البريطانية فى عدن » .

ولقد أحيط « الكولونيل كابون » علما بان الأسلوب الذى كان يستعمله فى خطاباته التى أرسلها للمقيم السياسى البريطانى « هينز » تميز بأنه غير لائق أو مقبول على الاطلاق خاصة عندما أبدى « كابون » اصراره على ممارسة صلاحيات التدخل فى صميم الادارة المدنية مثل توجيه الاتهامات ضد بعض الشخصيات والمسئولة والعاملة فى الأجهزة المدنية التى لا تخضع لسلطاته . كما تلقى « الكولونيل كابون » رسالة أخرى تعبر عن معارضة حكومته فى

(١) Waterfield, G. : Op. cit., p. 116.

بومباى لقيامه هو شخصيا أو بعض الضباط الذين يعملون تحت رئاســـته بمراسلة أى شخص من الزعماء الوطنيين فى المنطقة المحيطة بعدن أو بالاتصال بأى فرد من السكان ذوى النفوذ هناك (١) ٠

وهكذا خسر الجناح العسكرى البريطانى فى عدن جولته للسيطرة على ادارة المدينة والاستئثار بالسلطة فيها فى الفترة التى أعقبت احتـــلالها فى سنة ١٨٣٩ ٠ وقد أدى ذلك الى تدعيم مركز « هينز » كمقيم سياسى بريطانى مسئول من قبل الحكومة البريطانية وامامها. وقد أرسل « هينز » تقريرا الى حكومة بومباى فى شهر مارس سنة ١٨٤٠ أوضح فيه تزايد العمليات التجارية وانتظامها وزيادة حجم التجارة رغم الصعوبات التى كانت تثيرها بعض القبائل القاطنة حول عدن (٢) ٠ وكان واضحا للجميع حينذاك أهمية اعداد خطة لاعادة بناء مدينة عدن نظرا لأنه لم يبق فيها من مبان يمكن الاستفادة منها ســـوى مسجد العيدروس ٠ ولهذا رأى « هينز » ضرورة اعادة تنسيق أراضى مدينة عدن وتخصيص كل جزء منها لغرض معين (٣) ٠

ونظرا لما أبداه « هينز » من اخلاص تام لحكومته قبيل احتلاله لعدن وبعد سيطرته عليها فقد منحته حكومة الهند البريطانية ترقية لمرتبـــة « كابتن Captain » فى شـــهر أكتوبر ســـنة ١٨٤١ (٤) ، ليكون ذلك حافزا له على مواصلة قيامه بدوره كاملا فى خدمة المصالح البريطانية فى ميناء عدن الهام المتحكم فى أهم طريق للتجارة الدولية عبر البحر الأحمر ٠

وجدير بالذكر أن موضوع دمج الادارتين السياسية والعسكرية فى عدن لتكونا فى يد المقيم السياسى البريطانى هناك قد أثير جدل حوله فى دوائر حكومة الهند البريطانية فى ســـنة ١٨٥٤ ٠ وقد أكد « اللورد الفنستون Lord Elphinstone » حاكم بومباى أهميـــة وضرورة دمج وتركيز الادارتين السياسية والعسكرية فى منطقة عدن الهامة فى يد غادرة قوية وهى يد المقيم السياسى البريطانى هناك ، على أن يتقاضى المرتب الشهرى للوظيفتين ومقداره ٣٨٣٢ روبية ، منها ألفا روبية عن وظيفته كمقيم سياسى و ١٨٣٢ روبية عن وظيفته كحاكم عسكرى (٥) ، كما أصبح يعرف باسم « المقيم السياسى والحاكم العسكرى لعدن Political Resident and Commandant at Aden » وكان يتخذ له

---

(١) Waterfield, G. : Ibid., pp. 117, 118.

(٢) I.O., B.S.C., 1840, Haines to Bombay 2/2/40.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 70.

(٤) Waterfield, G. : Op. cit., p. 118.

(٥) I.O., B.S.C. 1854, Minute by Elphinston 4/17/54, concurred in by the rest of the Board.

في معظم الأحيان مساعدا يساعده في ادارة المنطقة وكانت له كافة صلاحيات المقيم أثناء غيابه (١) ، كما تعدد المساعدون بعد ذلك تبعا لتضخم المسئوليات ٠

ثالثا ـ الجهود البريطانية لتصفية النفوذ المصرى فى اليمن عقب احتلال عدن :

اتجه البريطانيون بعد احتلالهم لعدن في سنة ١٨٣٩ الى تدعيم وجودهم في هذا الميناء الهام بما يحقق مصالحهم السياسية والاقتصادية والاستراتيجية في جنوب الجزيرة العربية من جهة ، وفى منطقة البحر الأحمر من جهة أخرى ، وعلى الساحل الشرقى للقارة الافريقية من جهة ثالثة ٠ وقد فرض عليهم هذا الاتجاه ضرورة الوقوف في وجه كل محاولات المقاومة العربية المحلية من ناحية ، والتصدى لكل القوى الأجنبية المنافسة لهم من ناحية أخرى والتى تشكل خطرا على المصالح البريطانية في هذه المناطق ٠

وقد سبق أن أوضحنا أن من بين دوافع البريطانيين للسيطرة على عدن هو اتخاذها مركزا لوقف توسع محمد على في الجزيرة العربية خاصة بعد أن أصبح رجاله يسيطرون على معظم أرجاء الجزيرة العربية مما جعلهم يتحكمون في طريقى المواصلات الدولية عبر الخليج العربى والبحر الأحمر على السواء ٠ وكان رجال محمد على يسيطرون على مناطق شاسعة على جانبى البحر الأحمر الآسيوى والافريقى وخاصة في الحجاز واليمن شرقا ، وفى مصر والسودان على الساحل الغربى لهذا البحر الذى أصبح أشبه ببحيرة مصرية ٠

ومما أثار البريطانيين حقا أن « محمد على » أخذ يحد من حرية السفن الأوربية التى كانت تمخر عباب البحر الأحمر دون رقيب ، وأصدر أمرا يحرم على السفن الآتية من بومباى أن تصعد في البحر شمالى جدة ، مما أثار مخاوف البريطانيين وجعلهم ينظرون الى محمد على كخطر جديد على طريق الهند ينبغى القضاء عليه وتصفية نفوذه (٢) ٠ اذ كان البريطانيون يعتمدون فى تصريف شئونهم ومصالحهم في البحر الأحمر على موانى السودان واليمن ، فلما أصبح السودان في يد محمد على زاد اعتمادهم على اليمن ، ولما دخل اليمن في طاعته أيضا أحس الانجليز أن البحر الأحمر خرج من يدهم الى مصر (٣) ، فسعوا لاستخلاص التجارة من يد محمد على وعملوا على تصفية النفوذ المصرى في البحر الأحمر ٠ وقد أبوا على سفينة محمد على المسماة « افريقيا » التى كان قد أرسلها لتطوف بالسواحل الافريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح ـ أن تصل الى البحر الأحمر عن ذلك السبيل ٠ وكان « سولت Soult » القنصل

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 207.

(٢) Sanger, R.H. : The Arabian Peninsula, p. 204.

(٣) حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ص ١٦٦ ٠

البريطانى فى مصر يرقب تحركات محمد على ويتابع خطواته ، فبعث الى حكومته يقول : « أما فيما يختص بمصر ، فقد اندمج الباشا فى تيار التجارة حتى لقد جعل نفسه تحت رحمتنا تماماء ان موارده تعتمد اليوم على التجارة كل الاعتماد بحيث أصبح من المستحيل أن ينهض بتكاليف حكومته بدونها ، ولهذا يستطيع أمير البحر الانجليزى فى البحر المتوسط — فى رأيى — أن يضطره الى الطاعة اذا جنح الى عدائنا ، بغير أن يحتاج الى قوة جديدة زيادة عما لديه ، وذلك بأن يلقى مراسيه فى أبى قير ويطلق مدافعه على الساحل وكذلك الأمر فى البحر الأحمر ، اذ تستطيع سفينتان بين جدة والسويس أن تأخذا عليه سبيل البحر فلا يلبث أن يعود الى الطاعة » (١) .

ولهذا سارع البريطانيون باحتلال عدن فى مطلع سنة ١٨٣٩ حيث أرسخوا أقدامهم عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، ثم بذلوا مساعيهم السياسية بعد ذلك ومنها تهديد محمد على بأن يثيروا عليه الباب العالى والدول الأوربية . ولا شك أن احتلال بريطانيا لعدن كان ضربة موجهة لمحمد على لارغامه على الانسحاب من اليمن ومن الجزيرة العربية بأكملها ، بينما كان والى مصر يبذل كل طاقاته لتدعيم الادارة المصرية هناك والتقرب لأهالى البلاد الأصليين (٢) .

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية لم تكن تعترف لمحمد على بأى حق فى منطقة عدن باعتبار أنها كانت تابعة لسلطان لحج وعدن المستقل حينذاك ، فان « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن رأى أن يحيط ابراهيم يكن قائد القوات المصرية فى اليمن علما بامتلاك البريطانيين لعدن فكتب اليه رسالة يقول فيها : « لى الشرف أن أفيدكم بأن عدن أصبحت ملكا للحكومة البريطانية منذ ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ . وقد حالت مشاغل كثيرة دون افادتكم بهذا النبأ السعيد وأتمنى أن تكونوا متمتعين بكامل الصحة » (٣) على أن « هينز » فى حقيقة الأمر كان يقصد من هذه الافادة تحذير القوات المصرية من التقدم نحو الجنوب وحتى لا تتطلع الى الهجوم على عدن . وكان « هينز » يحرص على احاطة القائد المصرى فى اليمن بتحية الحكومة البريطانية فى السيطرة على عدن وذلك منذ أن بدأت المفاوضات بينه وبين السلطان محسن العبدلى سلطان لحج وعدن . اذ انه عندما وقع مع السلطان الاتفاق الذى ادعى البريطانيون توقيعه وأنكره السلطان فقد أرسل « هينز » فى حينه الى ابراهيم يكن يبلغه بأن حاكم الهند العام قد « أمره بالتوجه الى سلطان عدن لحل مشكلتها ، وأن السلطان وافق على استيلاء الانجليز على عدن حتى حدود خور مكسر وجبل تواهى ، وانى راجع

---

(١) Dodwell, H.H. : The Founder of Modern Egypt, pp. 55, 60.

(٢) عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ ـ ١٨٤٠ ، ص ١٨٥

(٣) F.O., 78/373, Haines to Ibrahim Pasha Commanding the Egyptian Force in Yemen, Aden, 25 February 1839.

الآن من عدن ومتوجه الى بومباى ومعى مكاتبة من سلطان عدن بخطه لعرض الأمر على السير كان الحاكم » (١) ٠

وهنا قام ابراهيم يكن بارسال كل هذه المعلومات الى القاهرة محذرا «محمد على» بأن : « أراضى عدن متداخلة فى أراضى برور الحجرية التى أدخلت حديثا فى الحكم المصرى، وأن الآلات الحربية التى لم يكن مسموحا بدخولها الى ثغور اليمن أخذت تدخل الى البلاد من ثغر عدن وبالاضافة الى ذلك سوف يلحق الضرر جمرك مخا من حيث الايراد (٢) ٠ وفى نفس الوقت كان امام صنعاء قد أعلن ولاءه للحاكم المصرى ابراهيم يكن باشا ليتقى بطش البريطانيين بعد سيطرتهم على عدن (٣) ٠ وقد فعل امام اليمن ذلك بعد أن علم بأن « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن كان يتصل بمشايخ القبائل اليمنية المجاورة لعدن ، خاصة وأن بعض هذه القبائل قد ارتضى الحكم المصرى من قبل ٠ وقد استعمل « هينز » سلاح الاغراء بالهدايا والهبات لاستقطاب شيوخ القبائل ، كما شرع يحرضهم على عدم دفع الزكاة المفروضة عليهم للادارة المصرية فى اليمن ، وقد نجح فى ذلك الى أبعد مدى ، حتى أن الشيخ قاسم شيخ قبائل الحجرية وضع نفسه تحت الحماية البريطانية بحجة تجنب السيطرة المصرية على بلاده بعد أن استجاب لاغراء البريطانيين (٤) ٠

وفى نفس الوقت أحس محمد على بالجهود البريطانية التى تبذل لتقوية نفوذ البريطانيين ومد سيطرتهم فى جنوب اليمن ، وخشى من العواقب التى ستترتب على تغلغلهم فى المنطقة ، وما سوف يستتبع ذلك من مد نفوذهم الى البحر الأحمر وفرض سيطرتهم عليه ٠ ولهذا أرسل الى واليه هناك ابراهيم يكن باشا يستفسر منه عن مدى صلة البريطانيين بشيوخ القبائل اليمنية المجاورة لعدن ، وطلب اليه عدم السماح بارسال أحد من الصناع وأرباب الحرف من الميناء اليمنى مخا الى عدن حتى لا يستفيد البريطانيون من وجودهم هناك ٠

بل ان وكيل البريطانيين فى مخا كتب للمقيم السياسى البريطانى فى

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من القطبان هينز الى ابراهيم يكن ، وثيقة عربية بدون رقم محفظة رقم ٢٦٧ فى ١٣ ذى القعدة سنة ١٢٥٣ ، فبراير ١٨٣٨ ٠

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من ابراهيم يكن الى محمد على ، محفظة رقم ٢٦٧ فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ ٠

(٣) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج ٣ ، عصر محمد على ، ص ٣٤٣ ٠

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من محمد على الى ابراهيم يكن محفظة رقم ٢٦٧ وثيقة ٢٢٢ فى ٢٥ ربيع الاول سنة ١٢٥٥ هـ . أشارت الوثيقة الى أن محمد على علم بوصول بعض عملاء الانجليز الى مخا ليجمعوا العمال والصناع وأرباب المهن كالخبازن والنجارين والبنائين والنقاشين لنقلهم من هناك على ظهر سفن انجليزية الى عدن بعد اغرائهم بالاجور المرتفعة بقصد تعمير عدن وتيسير الخدمة فى مينائها ، حتى هجر مخا عدد كبير من هؤلاء ٠

عدن مؤكدا أن مبعوثا مصريا كان يتفاوض مع امام صنعاء للاتفـــاق على طرد الانجليز من عدن ، غير أن الأموال كانت تعوز الامام · ولكن « هينز » كان مقتنعا بأن الفشل هو الذى سيطر على هذه المفــاوضات بين المصريين وامام اليمن لأن المال كان يعوز الطرفين المصرى واليمنى على السواء حينذاك · كما كان « هينز » يعتقد أيضا أن امام اليمن سيرفض الاشتراك فى طرد الانجليز من عدن سواء أكان يقدر على ذلك أو لا يقدر (١) · وقد بنى « هينز » اعتقاده هذا على أساس أن الامام لم يكن على وفاق مع القبائل اليمنية المجاورة لعدن ، وانه كان يرى أن الوجود البريطانى هناك سوف يكسر شوكة هذه القبائل غير ان « هينز » كان يخشى أن يسيطر المصريون على المناطق المنتجة للبن فى اليمن حينذاك (٢) ·

على أن الوالى المصرى ابراهيم يكن باشـــا كان على يقظة تامة بتحركات البريطانيين فى عدن والمنطقة المجاورة لها ، وعلى علم بمحاولاتهم للتقرب الى القبائل اليمنية القاطنة فيها · ولهذا فانه قبيل أن يتسلم أوامر محمد على كان قد بعث اليه برسالة يوضح له فيها تفاصيل الموقف حول عدن بقوله : « ان القائد « هينز » الذى احتل عدن يقيم بجوار الأماكن التى ألحقت حديثا بالحكومة المصرية » واضاف ابراهيم يكن الى ذلك قوله ان « هينز » هذا « أخذ يقوى مشايخ بعض المراكز والقرى ويتودد اليهم ، ويجتذب قلوب الذين يتبعـــونه بالكسوة والمرتب ، وأن سلوكه هذا يؤدى الى حدوث خلل فى المصالح المصرية فى اليمن » (٣) · وكان ابراهيم يكن يقصد من وراء هذا التوضيح أن يعرف حقيقة موقف محمد على من تحركات البريطانيين المشبوهة (٤) ، وعما اذا كان فى نيته أن يدعم قواته فى اليمن ليدرأ عن المنطقة الخطر البريطانى الذى ستكون له آثار وخيمة على المصالح المصرية فى ذلك الحين ·

ولا شك أن الاحتلال البريطانى لعدن كان له تأثير خطير على الشـــئون الاقتصادية للمصريين فى اليمن فمنذ اللحظة الأولى للاحتلال عمد المقيم السياسى البريطانى «هينز» الى محاولة تحويل التجارة اليمنية الى عدن · كما سار هينز بارسال خطاب الى امام صنعاء أوضح فيه « ان عدن أصبحت فى قبضة احتلالنا ، وأخرجنا مناديا ينادى بذلك ، وأنتم تعرفون الطريق الأصلى بين صـــــنعاء وعدن ، وأشجار البن ومحصولاتها تحت يد حكومتكم ، فاذا أصدرتم أمرا الى

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 99, 110.

(٢) F.O., 78/373, Campbell to F.O., 2/28/39. Enclosing Haines to Campbell 2/28/39, B.S.C. 1839, Haines to Bombay 2/25/39.

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من ابراهيم يكن الى محمد على ، محفظة رقم ٢٦٧ فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ ·

(٤) صلاح البكرى : فى جنوب الجزيرة العربية ؛ ص ١٦ ، ٧١ ·

التجار بأن يسوقوا بضائعهم نحو عدن بدلا من سوقها لبنادر اليمن ، فانه فى ذلك نفع عظيم من جهتين ، كما لا يخفى ذلك بادنى ملاحظة » (١) .

كما عمد « هينز الى تحويل كل تجارة البن من مخا الى عدن حتى اشتكى القائد المصرى فى مخا من النقص الشديد فى جمارك ذلك الميناء ، حتى أدى ذلك الى تأخر صرف مرتبات الموظفين فى ميناءى مخا والحديدة مدة بلغت عشرين شهرا (٢) . وقد تحولت تجارة البن بالفعل الى عدن لأن التجار المقيمين فى مخا والحديدة فى ذلك الوقت لم يكونوا من اليمنيين ، وهؤلاء لم يكن يهمهم بطبيعة الحـال لمن يبيعون أو ممن يشـترون بل انهم كانوا يجرون وراء أكبر منفعة ممكنة دون أدنى نظر لأية اعتبارات أخرى (٣) .

وهكذا حرص البريطانيون بعد أن احتـلوا عدن على جذب العمليـات التجارية الى مينائها من كل المناطق اليمنية . ولا شك أن ذلك قد شكل تهديدا خطيرا لاقتصاديات مصر ذاتها ، اذ لم يكن من السهل التكفل بنفقات القوات المصرية الموجودة باليمن حينذاك دون الحصول على مكوس جمركية عالية . كما أن تحويل تجارة البن من الموانى اليمنية الأخرى الى ميناء عدن كان ضربة قاسية للتجارة فى تلك الموانى باعتباره المحصول الرئيسى فى اليمن حينذاك . وكانت هذه المنافسة من قبل البريطانيين يقصد بها بالدرجة الأولى تصـفية النفوذ المصرى فى اليمن حتى لا تبقى له أية قاعدة اقتصادية محلية يستند اليها فى البقاء هناك فيضطر المصريون الى الرحيل عنه ، وبذلك ينتشر الاخطبوط البريطانى وينفرد بالسيطرة على المنطقة بأكملها .

غير أن بريطانيا لم تكتف بمحاولات الضغط الاقتصادى فقط كوسيلة لتصفية النفوذ المصرى . بل انها لجأت الى وسائل أخرى سياسية وحربيـة لتحقيق أهدافها . فعندما تلقت وزارة الخارجية البريطانية تقارير قناصـلها فى الشرق التى تنبأت بأن محمد على سيرسل جيوشه لاحتلال المدخل الجنوبى للبحر الأحمر عند باب المندب وعند سـواحل حضرموت ، بعد أن سيطر على سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربى فى الشرق وعلى البحر الأحمر فى الغرب ، فقد ترتب على ذلك أن سارع « بالمرستون Palmerston » رئيس الوزارة البريطانية حينذاك بالكتابة الى « كامبل Campbell » القنصل البريطانى فى مصر ليقابل محمد على ، ويخبره بأن مثل هذه الخطوة ــ ويقصد بها هجوم المصريين على عدن وطرد البريطانيين منها ــ لا ينظر اليها بعين الرضا سواء فى

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محافظ الحجاز ١٢٥٥ هـ . محفظة رقم ٢٦٦ رقم ٢٧ حمراء ــ ابراهيم يكن من عسكر الى حسين باشا كبير معاونى الجناب العالى فى ٢٥ ربيع الاول سنة ١٢٥٥ هـ .

(٢) I.O., B.S.C., 1839. Haines to Bombay 7/11/39 and 8/2/39.

(٣) Dodwell, H.H. : Op. cit., pp. 150, 151.

انجلترا أو فى الهند . ولكن محمد على وهو على علم تام بقـــوة البريطانيين ونفوذهم وتفوقهم رأى ألا يقف حينذاك موقف العداء الصريح من بريطانيا فى الوقت الذى كان على خلاف فيه مع الباب العالى (١) . ولهذا فقد أكد محمد على للقنصل البريطانى فى مصر بأنه لا يفكر حينذاك فى التوسع خارج حـدود البحر الأحمر ، ولا يبغى امتداد أملاكه فى شرق صنعاء (٢) وبالتالى فانه لا يهدد الوجود البريطانى فى عدن ولا يشكل خطرا عليه .

على أن بريطانيا لم تهدأ بالا وانتهزت فرصة تعقد المشاكل بين محمد على والسلطان العثمانى حتى استحكم النزاع وثارت الحرب بينهما . ورأت بريطانيا أن هذه الفرصة ستتيح لها تأليب الدول الأوربية الكبرى على محمد على بحجة المحافظة على التوازن الدولى حينذاك . ونجحت بريطانيا فى أن تجعل الدول الأوربية الكبرى تتفق وجهات نظرها على وضع حد للنزاع الناشب بين محمد على والبـــاب العـــالى حتى لا يتمادى الأول فى توســـعه ويعرض أوربا لخطر الصراع الذى قد ينشب بين الدول الكبرى اذا ما انهـــارت الدولة العثمانيـــة وطمع كل منها فى أملاكهـــا . ويبـــدو ذلك واضحا من خـــلال المناقشـــة التى أثيرت فى مجلس العمـــوم البريطانى عندما وجه أحد النـــواب ويدعى « ميلنز Mr. Milnes » ســـؤالا اعتبر على جانب كبير من الأهميـــة لرئيس الوزراء البريطانى عن الحـــرب القـــائمة بين الســـلطان العثمـــانى ومحمـــد على ، وعما اذا كان رئيس الحكومة يعلم بالمفاوضـــات التى دارت بين « المارشـــال ســـولت Marshal Soult » ووالى مصر لوقف هـــذه الحرب ، وأن قائمـــا بالأعمال قد أرسل الى محمد على ليخبره بأنه اذا أوقف عملياته الحربية ضد السلطان فان الدول الخمس الكبرى ستوجد حلا للمشكلة . وبناء على ذلك فقد كتب محمد على الى ابنه قائد الجيش المهاجم لقوات الباب العالى لينتظر الحل الذى سيتم على يد الدول الكبرى . واستفسر هذا النائب البريطانى عما اذا كان هذا تصرفا فرديا من جانب « سولت » ، أم أن ذلك قد تم بناء على موافقـــة رئيس الحكومة البريطانية ، وذلك نظرا لأن هذا الموضوع قد نوقش أيضا فى مجلس الشيوخ الفرنسى حينذاك .

وقد أبدى « اللورد بالمرستون » امتنانه بالاجابة على هذا السؤال موضحا أن الحكومتين البريطانية والفرنسية على علم تام بوجهتى نظرهما فى هذا الصدد وأنهما تصرفتا فى تناسق تام ازاء هذا الموضوع . كما أوضح بأن الحـــكومة الفرنسية قد أبدت استعدادها لارسال مبعوث الى الاســـكندرية وآخر الى القسطنطينية للعمل على وقف العمليات الحربية بين السلطان ومحمد على . ولم يقتصر الاهتمام بهذا الموضوع على بريطانيا وفرنسا فحسب ، بل اهتمت به أيضا كل من روسيا وبروسيا والنمسا التى أبدت رغبتها القوية للمشاركة

(١) Marston. T.E. : Op. cit., p. 99.

(٢) I.O., B. 209, Confidential. 2147. Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, pp. 11, 12.

فى القيام بعمل الترتيبات اللازمة لتجنب أوربا الخطر الذى يتهددها نتيجة الصراع العدائى بين الباب العالى ومحمد على (١) .

ولقد حدث ذلك على الرغم من أن بريطانيا ادعت من قبل تمسكها بسياسة الحياد التام ازاء الصراع الذى نشب بين الدولة العثمانية ومحمد على ، بينما نجدها فى حقيقة الأمر قد رأت فى هذا النزاع فرصتها لتأليب الدول الكبرى على محمد على وذلك لتجهز على طموحه وتضع حدا لآماله العريضة التى كان من شأنها تهديد المصالح البريطانية فى الشرق . ونلحظ ادعاء بريطانيا هذا بتمسكها بسياسة الحيادالتام ازاء الصراعالناشب بين محمد على والبابالعالى من خلال محاضر جلسات مجلس اللوردات البريطانى المعاصرة لفترة هذا النزاع . ففى المناقشات التى دارت بين « اللورد بروغام Lord Brougham ورئيسالحكومة البريطانية استفسر اللورد عن السياسة التى ستتبعها الحكومة البريطانية ازاء المشكلات القائمة بين الباب العالى ومحمد على والى مصر . وكانت الاجابة على تساؤله تتلخص فى أن الحكومة البريطانية ستلتزم باتباع سياسة الحياد التام ازاء الجانبين .

غير أن « اللورد بروغام » أشار الى حقيقة حدثت وهى أن عددا من الضباط البريطانيين قد أرسلوا الى القسطنطينية للعمل فى خدمة الباب العالى مما أظهر ميل الحكومة البريطانية حينذاك الى أحد الجانبين دون الآخر مما يتعارض مع سياسة الحياد . ولهذا فقد تساءل « اللورد بروغام » عن موقف الحكومة البريطانية من هذا التصرف . وكانت اجابة رئيس الحكومة البريطانية حينذاك تتلخص فى أنه لم تطرأ أية تغييرات فى سياسة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بالنسبة لهذا الموضوع . وان اعترف بان الحكومة قد أرسلت بعض الضباط للعمل فى خدمة البحرية العثمانية ، ولكنهم لم يتدرجوا فى خدمة السلطان وظلوا معطلين دون أن تسند اليهم أية أعمال فى القسطنطينية وذلك نظرا لعدم فهم الترك لمهمتهم . ولهذا فهو يؤكد أن الحكومة البريطانية مازالت متمسكة بموقفها الحيادى ازاء الجانبين . غير أن ذلك يوضح لنا أن الحكومة البريطانية كانت تميل فعلا الى جانب الباب العالى وتعمل على مساندته ضد محمد على الذى كان من مصلحة البريطانيين أن يحدوا من قوته ويضعوا حدا لطموحه وآماله . وأنه لا أدل على ذلك من قيام الحكومة البريطانية بارسال هؤلاء الضباط البريطانيين لعاصمة الدولة العثمانية ليقدموا العون للباب العالى حتى تقوى شوكته أمام محمد على .

أن رئيس الحكومة البريطانية اختتم هذه المناقشة بقوله ان الحكومات الحليفة لبريطانيا أعلنت هى الأخرى تمسكها بسياسة الحياد ازاء النزاع القائم

(١) Hansard's Parl'amentary Debates, Vol. 49, Subjects of Debate in the House of Commons, 9th July 1839, pp. 80, 81.

بين الباب العالى ومحمد على . وأنها ستبذل جهودها لوقف العمليات العدوانية بين الجانبين المتصارعين · كما أوضح أيضا أن ممثل الحكومة البريطانية فى البلاط العثمانى قد وجهت اليه تعليمات صريحة لبذل جهوده بالتعاون مع ممثلى الدول الأخرى للمحافظة على السلام فى هذا الجزء من العالم · وهنا أبدى « اللورد بروغام » امتنانه لهذه الاجابة ولهذا التوضيح الذى أبداه رئيس الحكومة البريطانية (١) ·

وجدير بالذكر أن اللجنة السرية التى تشرف على شئون حكومة الهند فى لندن طلبت من « بالمرستون » التصريح لها بعقد معاهدات للصداقة مع الزعماء المحليين المحيطين بعدن لاجتذابهم الى جانب البريطانيين هناك حتى لا ينضموا الى جانب المصريين ويشكلوا خطرا على الوجود البريطانى فى عدن · وقد أجاب « بالمرستون » بعد أن ضاق ذرعا من تحركات محمد على فى سوريا حينذاك بقوله : « اننى لا أدرى ما هى الأسباب التى تمنع حكومة الهند من توجيه وكيلها فى عدن لعقد معاهدات للصداقة والتجارة مع الزعماء اليمنيين الذى يعتبر استقلالهم مهددا من قبل قوات محمد على ، أو القيام بتدعيم قوة هؤلاء الزعماء بحيث يصبحون قادرين على الدفاع عن أنفسهم فاذا ما كانت حكومة الهند مصرة حقيقة على تحقيق تلك الغاية فان ذلك قد يؤدى فعلا الى منع محمد على من القيام بأى عدوان على هذه المنطقة » (٢) · غير أن حكومة الهند لم تكن فى حاجة للاستفادة من هذا التصريح نظرا لاضطرار مصر نتيجة للمشكلات التى واجهتها لسحب قواتها من الجزيرة العربية بعد فترة وجيزة (٣) ·

ومما شجع البريطانيين على الاتجاه نحو عقد هذه المعاهدات مع زعماء القبائل بالمنطقة المحيطة بعدن بهدف الحيلولة دون توسع المصريين فى اليمن على نحو ما أوردته الوثائق البريطانية وصول عدة خطابات من شيخ قبائل الحجرية فى شهر أغسطس سنة ١٨٣٩ الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن يعرض فيها على البريطانيين الدخول فى حمايتهم اذا ساعدوه فى تجنب عدوان المصريين على بلاده (٤) ·

وعلى أية حال فان الحكومة البريطانية حرصت على تصفية النفوذ المصرى فى المنطقة المجاورة لعدن تمهيدا لتصفيته نهائيا واقصائه عن البحر الأحمر حماية لمصالحها الحيوية فى هذا الطريق البحرى الحيوى الهام · ولهذا قررت الحكومة البريطانية فى شهر أكتوبر سنة ١٨٣٩ أن تطلب الى محمد على سحب قواته من

---

(١) Hansard's Parliamentary Debates, Vol. 47, Subjects of Debate in the House of Lords, 25th April 1839, pp. 509, 510.

(٢) F.O., 78/3/85, Palmerston to Sir John Hobhouse 5/10/39

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 98.

(٤) I.O., B.S.C. 1839, Two letters, Sheikh Sherzebee to Haines, without date, approximately 9/9/39..

جميع بلاد اليمن ، وطلبت الى « كامبل » ممثلها فى مصر أن يبلغ « رغبة حكومة جلالة الملكة فى جلاء القوات المصرية عن اليمن » على أن هذا المطلب كان مفاجأة قاسية لمحمد على لم يسعه ازاءها الا أن يعطى جوابا غامضا يكتسب به الوقت للتفكير فى هذا الانذار . وكان جوابه حينذاك انه سينظر فى الأمر بمجرد أن تنتهى المسألة الشرقية بينه وبين السلطان العثمانى والتى تتفاوض بشأنها الدول (١) . غير أن « كامبل » أجابه بأنه ليس هناك أية علاقة تربط بين المسألة الشرقية ومسألة اليمن ، وأن بحث المسألة الشرقيه يخص الدول الكبرى ، بينما مسألة اليمن فهى مرتبطة رأسا بالمصالح البريطانية وحدها ، وأن منطقتى البحر الأحمر والخليج « الفارسى » هما مجال بريطانيا الحيوى ، ولذلك فهى لا تستشير حلفاءها فيما يخصها .

وهنا أجاب محمد على على القنصل البريطانى على نحو ما أوضحه « كامبل » فى رسالته الى « بالمرستون » بقوله : « انه لا يستطيع فى الوقت الحاضر أن يتخذ أى اجراء لاجلاء قواته عن اليمن ، وأنه سوف يأمر بوغوص بك ناظر الخارجية المصرية بالرد على هذا الطلب فى الوقت المناسب » (٢) . وقد وصل رد بوغوص بك الى « كامبل » فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٣٩ وجاء فيه : « أن الباشا مشغول بشئون على جانب كبير من الأهمية فى الوقت الراهن ، وسوف ينظر فى المسألة اليمنية فى الوقت المناسب » (٣) .

غير أن ذلك الرد لم يعجب « بالمرستون » وزير الخارجية البريطانية الذى استدعى « كامبل » الى لندن وعين بدله « الكولونيل هودجز Colonel Hodges » وزوده بتعليمات جديدة كان على رأسها البعد عن أسلوب المجاملة واستخدام لغة الحزم والعنف مع محمد على لاقناعه بالجلاء عن اليمن (٤) .

وبعد وصول « هودجز » الى القاهرة كان أول تقرير أرسله الى وزارة الخارجية البريطانية يقول فيه ان « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن أفاده بأن قوات الفرسان التابعة لمحمد على آخذة فى الازدياد فى اليمن ، وأن العرب القاطنين بجوار عدن يتجمعون ضد الحكم البريطانى فى عدن بتحريض من المصريين . وأن « محمد على » قد أرسل مبعوثا اسمه السيد حسين الى امام اليمن يعرض عليه اقتراحين خطيرين أولهما أن الباشا على استعداد لمساعدة الامام بالمال والمئونة ومده بالرجال والذخيرة اذا أقدم الامام على مهاجمة البريطانيين وطردهم من عدن ، ويتعهد له أنه بمجرد الانتهاء من الحرب سوف يسلم كل الأراضى المفتوحة فى اليمن الى الامام حتى يظل « الجنوب العربى » فى يد عربية ،

---

(١) صلاح البكرى : المصدر السابق ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) F.O. 78/375, Campbell to Palerston, 2 November 1839.

(٣) F.O. 78/375, Bogus Bey to Campbell, October 1839.

(٤) Temperley : Foundations of British Foreign Policy, p. 109.

أما الاقتراح الثانى الذى عرضه السيد حسين على الامام فهو أن يقبـــل الامام السيادة المصرية على صنعاء على أن يمنح مرتبا كبيرا مدى الحياة (١) .

وجـــدير بالذكر أن الوثائق المصرية لم تشر الى الاقتراح الأول الخاص بتحريض امام صنعاء على مهاجمة الانجليز فى عدن وهو أمر مستبعد نظرا لمعرفة محمد على بالامكانات المحدودة لامام صنعاء ، أما الاقتراح الثانى بدعوة الامام للاعتراف بالسيادة المصرية على بلاده نظير منحه مرتبا كبيرا مدى حياته فقـد أشارت اليه وثائق مصرية كثيرة (٢) . وقد ذكرت الوثائق البريطانية أن « محمد على » أبلغ « هودجز » بأنه كان يهدف من وراء ذلك تخليص اليمن من حكم الامام « التافه الذى سمح للحكومة البريطانية بامتلاك عدن » (٣) .

وقد حاول محمد على بشتى الوسائل الممكنة أن يتغلب على معارضـــة البريطانيين لوجوده فى اليمن وذلك بعرض صداقته عليهم واستعداده لمراعاة المصالح البريطانية فى موانى البحر الأحمر . غير أن النتائج السياسية الدولية التى ترتبت على انتصاراته على الباب العـالى واقتراب القـــوات المصرية من الآستانة ، جعلت المسألة المصرية تتجاوز حدود تركيا ، حتى أن الخـــلاف لم يصبح محليا بينه وبين السلطان العثمانى ، بل أصبحت المسألة أوربية تتحالف عليه فيها الدول الكبرى الخمس ، انجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا على أثر اندحار الجيش العثمانى فى موقعة « نزيب » فى ٢٤ يونية سنة ١٨٣٩ وانحياز الأسطول التركى الى محمد على . ثم تلا ذلك ارسال المذكرة المشتركة فى ٢٧ يولية سنة ١٨٣٩ الى الباب العالى ، وأدرك محمد على أنه قادم على حرب خطيرة مع الحلفاء ، شغلت باله وتضاءلت معها مسألة وجوده فى اليمن .

وأخيرا فقد شعر محمد على بأنه فى أشد الحاجة لقواته المتناثرة فى أرجاء الحجاز ونجد واليمن ، وفى الوقت نفسه كانت الانذارات الشديدة اللهجة تتوالى عليه من الحكومة البريطانية تطلب منه اجلاء قواته عن اليمن وبقية أرجاء الجزيرة العربية (٤) . وفى اليوم الثالث عشر من مارس ١٨٤٠ ، أصدر محمد على أوامره الى حاكم اليمن وقائد القوات المصرية بالجلاء عن اليمن وتسليم زمام الأمور فيها الى الشريف حسين بن على بن حيدر شريف أبو عريش (٥) . وذلك

---

(١) F.O. 78/3185, Hodges to Palmerston, 22 March 1840.

(٢) عبد الحميد البطريق (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٣) I.O., B. 209, Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873, p. 12.

(٤) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 14.

(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة : من محمد على الى ابراهيم يكن ، ارادة مؤرخة فى ٩ محرم ١٢٥٦ هـ وثيقة رقم ١٤ محفظة رقم ٢٦٩ .

بعد أن انسحبت قواته من كل الأراضي التي استولى عليها في الجزيرة العربية وفي سوريا أثناء الأزمة المصرية التركية (١) .

وكان الجيش المصري في اليمن مركزا في مخا ، ومنذ أوائل شهر أبريل سنة ١٨٤٠ بدأت عملية جلاء المشاة بواسطة السفن بينما تم جلاء الفرسان عن طريق البر . وكانت اليمن حينذاك في حالة انهيار اذ كان يخشى أن يهجم البدو على هذه الموانى التي كانت في أيدي المصريين ويقتحمونها وينهبون ما فيها (٢) . وحماية للمصالح البريطانية في البحر الأحمر فقد قامت شركة الهند الشرقية البريطانية بارسال السفينة « الفنستون Elphinstone » الى جدة وارسال السفينة « ايوفراتس Euphrates » الى مخا لمراقبة الموقف (٣) . وقد سلم محمد على اليمن للحسين بن على بن حيدر حاكم ابى عريش فى شمالى اليمن (٤) ، واعتبر حاكما شرعيا للمنطقة الساحلية لليمن المطلة على البحر الأحمر حينذاك ليحكمها من قبل الباب العالى . وقد غادر ابراهيم يكن وقواته أرض اليمن فى اليوم التاسع من مايو سنة ١٨٤٠ (٥) وبذلك انفسح المجال امام بريطانيا لتوطيد أقدامها فى عدن ولتبسط نفوذها الاستعمارى فى جنوب اليمن وفى حوض البحر الأحمر بعد أن تخلصت من المنافسة المصرية الخطيرة فى تلك المناطق .

وقد أرسل امام صنعاء ابن شقيقه الى عدن لمفاوضة البريطانيين وعقد معاهدة للسلام والتجارة معهم عقب جلاء المصريين عن اليمن فى شهر مايو سنة ١٨٤٠ ، وكان الامام يأمل من تقريره للمقيم السياسى البريطانى فى عدن نيل مؤازرة البريطانيين له ضدالحسين بن على بن حيدر الذى تسلم المدن الساحلية من قوات محمد على . ولم يعترف الامام بشرعية الحسين بن على بن حيدر واعتبر نفسه هو الحاكم الشرعى الوحيد لليمن باكملها . غير أن حكومة بومباى طلبت من «هينز» الا يقحم نفسه فى اى صدام بشأن مخا ، مما جعله يتحفظ حينذاك ويحجم عن التدخل فى الصراع القائم بين امام صنعاء والحسين بن على ابن حيدر (٦) .

وتجدر الاشارة فى هذا المجال الى موقف العثمانيين الذين كانت عدن

---

(١) جمال زكريا قاسم (دكتور) : الخليج العربى ـ دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ؛ ص ٧٠ .

(٢) I.O., B. 209., Confidential, 2147. Abstract of Correspondence an Memorandum res-pecting the Yemen, January 1873, p. 12.

(٣) I.O., B.S.C. 1840, Haines to Bombay 4/28/40.

(٤) I.O., B.S.C., 1840, Haines to Secret Committee 4/9/40
I.O., B.S.C., 1840, Haines to Bombay 6/2/40.

(٥) عبد الحميد البطريق (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٦) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 101.

بل واليمن بأكملها تابعة لسيادتهم الاسمية على النحـــو الذى كانوا يدعونه حينذاك · فمن الملاحظ أن العثمانيين لم يفعلوا شيئا جـــديا للاحتجاج على البريطانيين عقب احتلالهم لعدن فى سنة ١٨٠٩ · بل ان البريطانيين استطاعوا أن يحصلوا على فرمان من الباب العالى يســـمح لهم باستخدام الأســـطول البريطانى لميناء عدن ، ولكنهم فضلوا بعد ذلك عقد معاهدة مع أهالى البلاد الأصليين ليعطوا لوجودهم هناك شيئا من الشرعية (١) ·

كما يتضح لنا من دراسة الموقف حينذاك ما يساعد على قبـــول الرأى القائل بأن العثمانيين قبلوا هذه السياسة البريطانية التى انتهت الى ضرورة السيطرة على عدن بالقوة ، ورءوا أن احتلال البريطانيين لعدن ليس الا من نوع المكافأة لبريطانيا على معاونتها للدولة العثمـــانية فى وقف أطماع والى مصر المتمرد محمد على · ولعل عدن لم تكن حينذاك ـ وهى تقع فى أقصى جنـــوب الامبراطورية العثمانية وعلى بعد قرابة ألفى ميل من عاصمتها ـ ذات أهميـــة كبيرة للعثمانيين اذا ما قورنت برغبتهم فى المحافظة على علاقتهم مع بريطانيا ، خاصة وهم يواجهون تحديات محمد على وطموحه لتكوين امبراطورية فى البلاد العربية على حساب ممتلكات الباب العالى (٢) ·

على أن هذا الموقف السلبى ازاء ما فعله البريطانيون بسيطرتهم على عدن بالقـــوة لم تنفرد به فقط الدولة العثمانية حينذاك ، بل ان الحكومات الاوربية لم يرتفع صوت واحدة منها بالمعارضة · حقيقة أن هذه الدول لم تكن فى ذلك الوقت تقدر مدى الأهمية الحيوية لهذه الزاوية الهامة من أرض شبه الجزيرة العربية ، ومدى ما يمكن أن يكون لسيطرة البريطانيين عليها من تأثير فى مستقبل هذه المنطقة وفى مصالح الدول الأوربية الأخرى ذاتها · غير أن البريطانيين كانوا على العكس من ذلك يعرفون ويقدرون تماما قيمة انتصارهم هذا ونجاحهم فى السيطرة على هذه النقطة الحاكمة فى أهم طريق بحرى بين الشرق والغرب (٣) مما سيمهد السبيل أمامهم أيضا للسيطرة على منطقة البحر الأحمر ـ فى وقت قصير ·

رابعا ـ معالم السياسة البريطانية فى جنوب اليمن عقب احتلال عدن :

اتبع البريطانيون منذ بداية استقرارهم فى عدن سياسة عدم التدخل فى الصراع الذى لا يكاد ينتهى بين القبائل اليمنية المحيطة بها الا بالقدر الذى يتفق والمصالح البريطانية · وكانوا يتدخلون بقدر محدود فى حالة ما اذا كان

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٢ ·

(٢) فاروق عثمان أباظة : الحكم العثمانى فى اليمن (١٨٧٢ ـ ١٩١٨) ص ٢٦ ، ٢٧ ·

(٣) Simonin, M.L. : La presqu'île d'Aden et la Politique Anglaise dans les Mers Arabiques, p. 18.

هذا الصراع يؤثر على سلامة الطرق الممتدة بين عدن والمناطق الداخلية أو يؤدى الى عدم استتباب الأمن فيها . وكانوا يهدفون من وراء ذلك ضمان استمرار وصول المؤن والمياه والمواد الغذائية اللازمة الى عدن من ناحية ، وانتظام التبادل التجارى بينها وبين المناطق الداخلية من ناحية أخرى .

ولكى تتحقق للبريطانيين الاستفادة الكاملة من ميناء عدن الهام ، فقد حرص البريطانيون على أن تكون الأوضاع القائمة فى عدن نفسها وفى المنطقة المحيطة بها فى جنوبى اليمن بصفة خاصة هادئة مستقرة . ولا شك أن وقوع عدن فى مركز ممتاز على طريق التجارة العالمية حيث تلتقى المنتجات البريطانية والهندية مع التجارة اليمنية (١) والتجارة الواردة من البلدان الواقعة على الساحل الشرقى لافريقيا ، لأمر يستلزم توافر الهدوء والاستقرار فى ميناء عدن وفى المنطقة المحيطة بها . وقد ترتب على ذلك أن اتجهت بريطانيا الى اتباع كافة الأساليب الممكنة لتنظيم العلاقات الودية مع شيوخ القبائل القاطنة فى المنطقة المحيطة بعدن فى جنوبى اليمن . وأهم هذه الأساليب عقد المعاهدات الولائية أو معاهدات الصداقة المصحوبة بالمشاهرات المالية التى تصرف لشيوخ القبائل وزعمائها (٢) . واستمر هذا الولاء مرتبطا بذلك العطاء حتى أصبحا سمة واضحة للعلاقات القائمة بين بريطانيا وسلاطين جنوبى اليمن وأمرائه حتى مطلع العقد الثامن من القرن التاسع عشر .

وكانت التعليمات التى صدرت من حكومة الهند البريطانية الى الضابط البحرى البريطانى « هينز » الذى أصبح أول مقيم سياسى بريطانى فى عدن ، هى أن يترك المنطقة الداخلية المحيطة بعدن وشأنها ويقوى فقط مركزه فى عدن نفسها . ولهذا اهتم « هينز » كثيرا بترميم واصلاح حصون حى « كريتر » فى عدن والقلاع الموجودة به . وكانت جبال عدن محصنة بقلاع وأبراج قديمة بعضها يحتاج الى ترميم وبعضها أطلال وخرائب غير صالحة للاستعمال . وكان من بين ضباط الحامية البريطانية فى عدن الملازم « جون وسترن » خبير التحصينات الذى كلفه « هينز » بمهمة تحصين المدينة . وقد نجح « وسترن » فى تدعيم وتحصين « درب الحوش » أو « درب الحريبى » الذى يقع فوق باب عدن الى يسار الداخل من الباب ، كما قام بتشييد تحصينات سريعة على طول السور العثمانى القديم « الخندق » المواجه لساحل « أبين » فى الشمال الشرقى لمدينة عدن (٣) .

ومن المرجح أن البريطانيين لم يهتموا بالتوغل فى المنطقة الداخلية المحيطة

---

(١) I.O., I.B., I.P., F. 23. C.R.A., No. 16, Minute by the Governor of Bombay, September 23, 1837

(٢) جاد طه (دكتور) : سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ١٤٤ .

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

بعدن نظرا لأنهم يكونوا فى حاجة ملحة الى ذلك ، خاصة وأن الامام الزيدى فى شمال اليمن حينذاك كان ضعيفا ولا يشكل أى خطر عليهم (١) ٠ اذ كان الامام الزيدى فى ذلك الوقت قد حول كل اهتمامه لاستعادة منطقة تهامة من الشريف حسين حاكم « أبى حريش » فى المخلاف السليمانى بشمالى اليمن (٢) ، وكان قد استلم هذه المنطقة بأكملها من قوات محمد على عند جلاء هذه القوات عن الأراضى اليمنية فى ٩ مايو سنة ١٩٤٠ ٠ بل ان الامام حاول من جانبه التقرب للبريطانيين حتى أنه أرسل بعثتين اليهم فى عدن فى سنة ١٩٤١ وذلك للاتفاق معهم على أخذ المساعدات اللازمة له نظير منحهم ميناء زيلع على الساحل الصومالى المواجه لليمن وكان تابعا حينذاك لحكم الأئمة الزيديين ٠ وعلى أية حال فان البريطانيين لم يقدموا للامام أية مساعدات على الرغم من أنه أرسل اليهم بعثة ثالثة لتحقق نفس الغرض فى سنة ١٨٤٣ دون جدوى (٣) ٠

غير أن هذه السياسة التى قررتها حكومة الهند البريطانية والتى التزمت بعدم التدخل فى شئون المنطقة المجاورة لعدن بجنوبى اليمن لم ترق « لهينز » الذى اتصف بطموحه ، وكان يحلم بأن يرى النفوذ البريطانى ينتشر نحو الداخل ٠ « حاملا معه نور الانجيل الى أبناء اسماعيل » على النحو الذى كان يدعيه حينذاك ٠ وقد اتبع فى سبيل تحقيق ذلك مبدأ من أبشع المبادىء الاستعمارية وهو مبدأ « فرق تسد Divide and Rule » على النحو الذى يؤكده « هارولد جاكوب » الذى كان واحدا من المسئولين البريطانيين الذين عملوا فى عدن (٤) ٠ وكان هذا المبدأ سمة واضحة من سمات التدخل البريطانى فى جنوب اليمن لايجاد الفرقة وبث الشقاق بين قبائل المنطقة (٥) حتى لا يشكلوا جبهة وطنية موحدة تقاوم الوجود البريطانى هناك ٠

ولكى يحقق « هينز » سياسة الاستعمار هذه فقد اضطر الى انفاق مبالغ طائلة من أموال شركة الهند الشرقية البريطانية على القبائل اليمنية المجاورة لعدن مشجعا اياها على التقاتل فيما بينها لكى تخور قواها فى النهاية ، وبذلك يتمكن البريطانيون من السيطرة على مقدراتهم ٠ وكان من الطبيعى أن تصبح خاتمة مطاف هذه السياسة الانفرادية من جانب « هينز » غرما عليه اذ ان شركة الهند الشرقية قدمته للمحاكمة بتهمة اختلاس وتبديد أموالها بعد أن حكم عدن خمسة عشر عاما فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٥٤ وأودعته

---

(١) Ingrams, H. : The Yemen, p. 54

(٢) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : تاريخ المخلاف السليمانى او الجنوب العربى فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٥٤٩ ٠

(٣) Ingrams, H. : Op. Cit., p. 54.

(٤) Jacob, H. : Op. Cit., p. 39.

(٥) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 95.

السجن حيث ظل سجينا ست سنوات وتوفى بعد أيام قلائل من اطلاق سراحه فى سنة ١٨٦٠ (١) . وبهذه النهاية البائسة انتهت حيـــاة الرجل الذى تم للبريطانيين على يديه احتلال عدن والذى كان أول مقيم سياسى لبريطانيا فى هذا الميناء الحيوى الهام .

على أن سياسة البريطانيين فى المنطقة المجاورة لعدن فى جنوب اليمن لم تكن ثابتة محددة سواء فى عهد « هينز » أو فى عهد المقيمين السياسيين الذين حكموا عدن بعده ، اذ ان هذه السياسة اعتمدت كثيرا على التقديرات والأحكام الشخصية لكل منهم (٢) . وبناء على ذلك فقد كان المقيم السياسى البريطانى فى عدن يملك القول الفصل فى اتباع السياسة التى كان يراها والتى ربما قد تكون فى غاية التطرف أو فى غاية الاعتدال وذلك تبعا للصفات الشخصية التى يتصف بها (٣) .

وعلى أية حال فان الطابع المميز للسياسة البريطانية فى جنوب اليمن كان واضحا فى التزامها « بالمبدأ المرن فى السياسة » ، اذ أن الساسة البريطانيين حينذاك قد اعتقدوا بأن هذا المبدأ هو أصلح المبادىء لحل المشكلات الاستعمارية بوجه عام (٤) . وكان أسلوب تحقيق هذا المبدأ يعتمد فى بداية الأمر على عقد معاهدات الولاء مع زعماء القبائل ، وصرف الرواتب الشهرية أو السنوية لهم بالقدر الذى يتناسب ومكانة كل منهم ، ثم بعد ذلك اطلاق مدافع الترحيب والتوديع لمن يصل منهم الى عدن أو يغادرها تعبيرا عن احترام الادارة البريطانية لهم وتقديرا منها لمكانتهم ، وأخيرا منحهم الألقاب والنياشين وتخصيص هدايا تمنح لـــكل من اثبتوا اخلاصـــهم للبريطانيين . على أن المـــال والاحترام Money and Prestige » كانا أهم وســـيلتين من الوســـائل التى اســـتعملها البريطانيون لكسب ود القبائل واستقطاب زعمائها لجانبهم (٥) على أن البريطانيين أصبحوا يتدخلون بعد ذلك فى الشئون المحلية التى تهم السلاطين وخاصـة عندما يقوم الأهالى باختيار سلاطينهم ، ففى مثل هذه الحالات كانوا يتحزبون لبيت طامع فى الملك على بيت مالك أو عكس ذلك مما يشيع الحقد والصراع بين القبائل ، بل ان البريطانيين كانوا يحرصون أيضـــا على استقلال كل سـلطان أو أمير عن الآخر حتى يتمكنوا بذلك من حماية المصالح البريطانية المرتبطة بكل سلطنة أو امارة كل على حدة من جهة ، وتحقيقا لرغبة هؤلاء السلاطين والأمراء فى استقلال كل منهم عن الآخر من جهة أخرى بما يؤدى فى نفس الوقت الى عدم قيام وحدة وطنية متماسكة تشكل خطرا على المصالح البريطانية .

---

(١) Waterfield, G. : Op. Cit., p. 252.

(٢) Jacob, H. : Op. Cit., P. 252.

(٣) Jhonston, C. : The View from Steamer point, p. 61.

(٤) امين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .

(٥) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 81.

على أن معاهدات الولاء التى كان يطلق عليها اسم « معاهدات الصداقة » والتى عقدتها بريطانيا مع الغالبية العظمى من هؤلاء السلاطين والأمراء والشيوخ بعد سيطرتها على عدن مباشرة ، قد تميزت بأنها متشابهة الى حد كبير (١) . فقد انحصرت فى تعهد بريطانيا بحماية القبيلة ضد أى عدوان خارجى تتعرض له ، على الرغم من أن البريطانيين لم يقفوا من أية قبيلة أى موقف ايجـــابى حققوا فيه حمايتها من أى عدوان طوال فترة وجودهم فى عـــدن ، ذلك لأن غرضهم الأساسى كان ينحصر فى حماية أنفسهم ومصالحهم دون أدنى اعتبار لمصالح القبائل اليمنية .

ولقد كانت الأسباب التى دفعت « هينز » لاتباع تلك السياسة التى تقوم على المبدأ الاستعمارى « فرق تسد » فى علاقاته مع القبائل المجاورة لعدن ترجع فى الدرجة الأولى الى احجام حكومة الهند البريطانية أو بالأحرى شركة الهند الشرقية البريطانية حينذاك عن مساعدته وامداده بكل ما يحتاج اليه من قوات بريطانية لحماية عدن والدفاع عنها ضد أى هجوم . ولهذا كان « هينز » يواجه ثورة أية قبيلة بتحريض قبيلة أخرى عليها (٢) . وقد أوضح « جاكوب » أن ادارة شركة الهند الشرقية البريطانية وجهت رسالة الى « هينز » جاء فيها أن عليه أن يحرض القبيلة الموالية له على القبيلة المعادية حتى لا يحتاج لامداده بقوات بريطانية جديدة ، وبالرغم من أن اراقة الدماء أمر يؤسف له فان مثل هذه السياسة تفيد البريطانيين فى عدن لأنها تعمق الهوة وتزيد الخلاف وتشيع الفوضى بين القبائل حتى لا يشكلوا فى يوم من الأيام جبهة وطنية قوية موحدة تهدد وجود البريطانيين هناك (٣) .

وقد أدرك الساسة البريطانيون أن ابقاء سيطرتهم على عـــدن وتدعيم وجودهم فيها يستلزم بالضرورة وعلى المدى الطويل وجود جيش قوى يكون قادرا على حمايتها ضد أى عدوان من الداخل أو من الخارج . اذ كانت قوة الحامية البريطانية فى عدن عقب الاحتلال تتراوح ما بين ١٨٠٠ — ٢٠٠٠ مقاتل ، بينما كان تعداد المقاتلين لدى القبائل اليمنية المجاورة لعدن حينذاك يبـــلغ حوالى ١٠٠٫٠٠٠ مائة الف مقاتل ، وذلك على نحو ما ورد فى تقرير « هنتر » و « سيلى » «Hunter and Sealy's Report» (٤) . ولهذا فقد رأى البريطانيون ضرورة العمل على تحويل المنطقة المحيطة بعدن من الشرق والشمال والغرب الى منطقة مهادنة لهم على أقل تقدير ، ان لم تكن القبائل القاطنة فيها حليفـــة لبريطانيا وتدور فى فلكها ، وذلك طالما أن البريطانيين لم تكن الامكانات متاحة

---

(١) Hurewitz, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I, p. 126.

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٣) Jacob, H. : Op. Cit., p. 45.

(٤) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 81.

لديهم لتعزيز قواتهم فى عدن فى ذلك الحين . ولتحقيق هذه الغاية اتبع البريطانيون سياسة اللين الذى تدعمه القوة حتى تمكنوا عن طريق المفاوضات مع زعماء القبائل اليمنية من شراء بعض المناطق منهم . وبمرور الوقت استطاعوا أيضا أن يأخذوا ما أرادوه بالقوة عندما لم تحقق لهم سياسة اللين فى بعض الأحوال بلوغ أهدافهم .

وقد فضلت بريطانيا اتباع سياسة اللين وعقد معاهدات الصداقة المصحوبة بمنح المشاهرات وكافة المرغبات الأخرى التى قدمتها لسلاطين المنطقة وأمرائها . واستطاعت عن هذا الطريق أن تجعل العدد القليل من هؤلاء السلاطين والأمراء الموالين لها يقومون بما يمكن أن يقوم به عشرون ألف جندى بريطانى بتكاليفهم الباهظة لحماية عدن والدفاع عنها ضد أى هجوم (١) .

وقد اتبع البريطانيون هذه السياسة المرنة فى علاقاتهم مع القبائل اليمنية المجاورة لعدن منذ أن عمل « هينز » مقيما سياسيا بالمدينة . اذ انه حاول اجتذاب شيوخ القبائل اليمنية القاطنة على طول الساحل اليمنى ليرسلوا سفنهم الى عدن بدلا من ارسالها الى شقرة التابعة لقبائل الفضلى . كما حاول « هينز » العثور على مصادر أخرى داخل اليمن لامداده بالماشية والمواد الغذائية والأخشاب حتى يتمكن من توفير كافة الامكانات التى تجعل مدينة عدن قادرة على الاكتفاء الذاتى بحيث تفى بالحاجات الضرورية للحامية البريطانية (٢) . وقد أعقب ذلك قيام العبادلة باغلاق طريق القوافل المؤدى الى عدن بواسطة سيطرتهم على أحد أبراج المراقبة فى « بير أحمد » وقد استلزم ذلك قيام « هينز » بزحف نحو الداخل للسيطرة على لحج والتخلص من السلطان محسن العبدلى . كما أرسل « هينز » فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٩ السفينة الحربية الفرات « Euphrates » الى ميناء شقرة لمنع أية سفينة من الدخول الى ذلك الميناء أو الخروج منه (٣) وقد أعقب هذا الحصار الذى فرضه « هينز » على شقرة فتح الطرق المؤدية الى عدن ودخول القوافل اليها مما ساعد على انعاش النشاط التجارى فى المدينة (٤) .

وعندما استفسرت حكومة بومباى من المقيم السياسى البريطانى « هينز » عن مدى الاحتياجات التى يجب توفيرها لتوجيه حملة عسكرية الى المناطق الداخلية المجاورة لعدن (٥) . وقد أجاب « هينز » على حكومة بومباى بخطاب

---

(١) امين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 84.

(٣) Marston, T.E. : Ibid., p. 92.

(٤) I.O., B.S.C. 1840., Haines to Bombay 12/30/39.

(٥) I.O., B.S.C., 1840, Minute by Board 1/13/40.

أرسله فى أول فبراير سنة ١٨٤٠ مؤكدا أن عدن لن تزدهر كمركز تجـارى الا اذا أجبرت القبائل اليمنية على احترام قوة البريطانيين (١) .

وكانت التجارة مع المناطق الداخلية قد توقفت تماما ما عدا ما كان متعلقا بالامدادات الضرورية ، كما أن قوافل البن الآتية من الجبال كانت ترتد ثانية من حيث جاءت . ولهذا رأى المقيم السياسى البريطانى أهمية القيام بالزحف الى الداخل لاجبار شيوخ القبائل على فتح الطريق . وأوضـــح « هينز » فى خطابه كل احتياجاته لتوجيه هذه الحملة (٢) . غير أن هذه الرســالة أقلقت حكومة بومباى كثيرا . وبغض النظر عن التكاليف التى تتطلبها هذه الحملة . فان القوات البريطانية بالهند كانت مشغولة للغاية باضطرابات الأفغان . ولهذا فان حكومة بومباى حذرت « هينز » بألا يتوقع أية موافقة على مثل هذه الحملة . بل انها أمرته بأن يقصر نشاطه داخل عدن ، وألا يشرع فى تنفيذ أية عمليات حربية بدون موافقة صريحة من حكومته ، كما أنها أوضحت له بأن هناك وسائل عديدة يمكنه استخدامها للدفاع عن نفسه ضد هجمات القبائل (٣) .

وهكذا فقد كانت هناك عدة اعتبارات فرضت على البريطانيين اتبــاع سياسة مرنة مع القبائل اليمنية المجاورة لعدن أهمها أن حكومة الهند كانت تعانى من التدهور الذى اعترى خزائنها بسبب اخفاق حملة الأفغان وظهـور حركات التمرد ضدها فى السند . وكانت حكومة الهند لا تزال خاضعة لادارة رجال شركة الهند الشرقية البريطانية وكان يهمهم فى المقام الأول الأهـداف التجارية وهى بالنســبة لهم أهم من اية أسباب قومية أو سياســية . بل ان بريطانيا فى ذلك الحين كانت تحرص على ارســال تعليماتها لرجالها فى القارة الافريقية وفى بلاد العرب لقصر تدخلهم فى شئون المناطق الموجودين فيها الى أدنى حد ضرورى وذلك لتفادى اثارة انتباه الدول الأوربية الأخرى المنافســة لها على نحو ما ذكره « سترانفورد كاننج » سفير بريطانيا فى الاستانة فى ذلك الحين (٤) . على أن عدن كانت قادرة الى حـد كبير حينــذاك على الدفاع عن نفسها ضد أى هجــوم ، كما انها كانت لا تزال حتى ذلك الوقت ـ كما يقول مارستن ـ مجرى مخزن للفحم ولم قد تحولت بعد الى قاعدة للتوســع (٥) . على أن تقاعس حكومة الهند البريطانية عن امداد « هينز » بما يســاعده على القيام بتحركات عنيفة ضد القبائل اليمنية المجاورة لعدن الا فى حدود الضرورة

---

(١) I.O., B.S.C., 1840, Haines to Bombay 2/1/40,

(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 85.

(٣) I.O., B.S.C., 1840, Minute by Board, 2/15/40.

(٤) Marston, T.E. : Op. Cit., pp. 109, 110.

(٥) Marston, T.E. : Ibid., p. 110.

القصوى قد أدى الى أضعاف مكانة البريطانيين وهيبتهم لدى قبائل المنطقة ، ما سيشجع بالتالى على ظهور بعض حركات المقاومة ضد الوجود البريطانى هناك .

وعلى أية حال فقد كان على « هينز » أن يتبع أسلوب السياسة المرنة فى علاقاته بالقبائل اليمنية المجاورة لعدن بعد أن تبين موقف حكومته السلبى وظروفها الصعبة حينذاك ٠ وتحقيقا لهذه السياسة المرنة فقد تم فى العام الأول للاحتلال البريطانى لعدن عقد عدة معاهدات « للصداقة والولاء » بين المقيم السياسى البريطانى « هينز » وبين عدد من القبائل والعشائر اليمنية المجاورة لعدن ٠ وكانت اول هذه المعاهدات تلك المعاهدة التى عقدت مع شيخ عشيرة العزيبى العبدلية وهى احدى عشائر لحج فى ٣١ يناير سنة ١٨٣٩ ٠ وقد تميزت هذه المعاهدة بالبساطة والايجاز ، اذ حوت بعد ذكر أسماء ممثلى الجانبين التزامهما بروح الصداقة والولاء فيما بينهما وتعهدهما باقرار السلام والمحافظة على رعايا الطرفين وعدم التعرض لهم بالأذى فى حالة تواجدهم أو وقوع أى منهم فى الأسر لدى الطرف الآخر ٠ وقد أورد أمين الريحانى نص هذه المعاهدة بعد استبعاد أسماء ممثلى الجانبين على النحو التالى :

« هذه معاهدة بين الانكليز والعزيبى ٠ نحن الآن أصدقاء ونتعهد بالسلم والولاء ٠ قلوبنا وبغياتنا واحدة ٠ الأمان الدائم على عدن وعلينا نتعهد به أمام الله ٠ واذا أخذ الانكليز أحدا من عشائرنا أو أخذنا أحدا من الانكليز فلا يؤذى الماسور أو يهان » ٠

كما عقد البريطانيون أيضا عدة معاهدات أخرى شبيهة بالمعاهدة السالفة فى نفس السنة مع شيخ قبائل الوهط العبدلية ومع شيخ قبائل العقارب فى ٤ فبراير ، ومع مشايخ قبائل الصبيحة فى ١٨ فبراير ، ومع على غالب سلطان يافع السفلى فى ٢١ فبراير ومع شيوخ قبائل اليوافع والحواشب وغيرهم من القبائل اليمنية المحيطة بعدن على نفس النمط الوارد بالمعاهدة سالفة الذكر ، وذلك فى العام الأول من الاحتلال ٠

وكانت أهم هذه المعاهدات هى تلك المعاهدة التى عقدت بين المقيم السياسى البريطانى « هينز » وبين السلطان محسن فضل العبدلى سلطان لحج فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٨٣٩ (١) ٠ وكان السلطان محسن قد قام

(١) Aitchison, C.V.: A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring countries, pp. 123, 124.

بزيارة عدن فى نفس هذا الشهر • وفى هذه المعاهدة تعهد السلطان محسن وأولاده أحمد وعلى وعبد الله وفضل « بحماية الضيف والفقير وسلامة قبائلهم وتأمين الطرق » (١) وأن يكونوا مسئولين عن أى اعتداء يقع عليها ، وألا تصدر عنهم أية أعمال لمقاومة البريطانيين ، وأن تكون مصلحة الطرفين مشتركة • وفى مقابل ذلك تعهد البريطانيون بدفع رواتب سنوية لسلاطين أبين والحواشب والأميرى ، كما تعهدوا أيضا بدفع راتب سنوى « للسلطان محسن فضل وأولاده ونسلهم » مقداره ستة آلاف وخمسمائة ريال (ماريا تيريزا) (٢) • بل أن الجانبين قد اتفقا كذلك على أن تكون الأراضى الممتدة من « المجداد » أى من « خور مكسر » فى الجنوب والتى تصل الى لحج وجميع حدود العبادل المعروفة فى الشمال ، خاضعة لادارة السلطان وتحت سيطرته • كما اتفق الجانبان على اقامة ما يشبه التحالف الدفاعى المشترك بينهما لمواجهـــة أى عدوان خارجى ، فاذا ما حدث ذلك « فان الطرفين يكونان يدا واحدة » • وأخيرا فقد التزم الجانبان بأن يحترم اتباع كل منهما قوانين الجانب الآخر عند تواجدهم فى أراضيه • وقد أعفت هذه المعاهدة سلطان لحج وأولاده من دفع أية رســوم أو عوائد عند دخولهم الى مدينة عدن فى أى وقت يشاءون (٣) •

وقد بدا واضحا أن الســـلطان محسن فضـــل العبدلى سلطان لحج كان يتفادى حدوث أى صدام بينه وبين البريطانيين حينذاك ، بل انه كان يتقرب اليهم لكسب ثقتهم • ففى اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٣٩ كان أحد الجنود الانجليز يسير وراء خطوط التحصينات المحيطة بمدينة عدن فكمن له بدوى من رعايا السلطان وقتله • وهنا سارع السلطان فى اليوم التـــالى مباشرة بالحضور الى عدن حيث قدم اعتذاره عن مقتـــل الجندى ليؤكد صداقتـــه للبريطانيين (٤) • ويعتبر هذا التصرف من قبل الســـلطان علامة مميزة على تطور العلاقات بين العبادلة والبريطانيين عقب احتلال عدن • وسوف تتزايد بعد ذلك علاقة الصداقة بين الجانبين بمضى الزمن وخاصة بعد أن يفقد السلطان كل آماله فى استرداد عدن من قبضة البريطانيين •

وعلى أية حال فقد ترتب على وجود هذه العلاقات الطيبة بين سلطان لحج وزعماء قبائل المنطقة المحيطة بعدن من ناحية ، وبين المقيم السياسى البريطانى فى عدن من ناحية أخرى ، استقرار الأوضاع القائمة فى عدن عما كانت عليه

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠١ •

(٢) Hurewitz, J.C. : Op. Cit., Vol. I, p. 126.

(٣) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 77, 78.

(٤) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ •

فى بداية عهد الاحتلال . وقد أدى ذلك الى رجوع أعداد كبيرة من سكان عدن الذين فروا منها أثناء تنفيذ عملية الاحتلال مما أدى الى تزايد تعداد سكان المدينة (١) . بل أن الحركة التجارية فى عدن قد نشطت بشكل ملحوظ ، كما هاجرت اليها - بتحريض من البريطانيين - مجموعات كبيرة من الحرفيين فى ميناءى مخا والحديدة ، بحيث بلغت هجرة مجموعة منهم فى أسبوع واحد ٣٨٣ حرفيا استطاعوا أن يلعبوا دورا جوهريا فى رخاء عدن وازدهارها (٢) .

خامسا - الجهود العربية لاستعادة عدن من قبضة البريطانيين :

لم يستكن العرب اليمنيون للاحتلال البريطانى الذى انقض على بلادهم واقتنص مدينتهم الفريدة عدن التى تعتبر فى الحقيقة « عين اليمن » تبعا لما أطلقه عليها الكثيرون ممن أدركوا أهميتها (٣) . بل انهم هبوا بضع مرات يحاولون فى استماتة طرد البريطانيين من أراضيهم ، حتى أضحت حركة المقاومة العربية هى الظاهرة المميزة للسنوات الأولى من سنى الاحتلال البريطانى لعدن .

المحاولة الأولى :

واذا كان السلطان محسن فضل العبدلى سلطان لحج قد غلب على أمره نتيجة لضعف قواته أمام قوة البريطانيين الغزاة ، مما اضطره بعد هزيمته الى مهادنتهم ومصادقتهم ، فانه سرعان ما تنصل من اتفاقه معهم وتحالف مع جاره أحمد بن عبد الله الفضل سلطان « أبين » (٤) واتفقا على غزو عدن (٥) واسترجاعها من قبضة البريطانيين . وفى اليوم الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٨٣٩ جهز السلطان نحو خمسة آلاف مقاتل زحف بهم تجاه عدن حيث وقعت معركة دامية بين قوات السلطان والحامية البريطانية (٦) وذلك فى مواجهة السور عند « خندق جبل حديد » .

غير أن قوات السلطان انهزمت أمام نيران المدافع المركزة على هذا السور ، وبلغت خسائرهم مائتى رجل بين قتيل وجريح (٧) . وكان من الطبيعى ان

---

(١) Playfair, R.L. : Op. Cit., p. 164.

(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., pp. 103, 104.

(٣) Graham, G.S. : Op. Cit., p. 282.

(٤) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٥) Hunter, F.M. : Op. Cit., p. 65.

(٦) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 84.

(٧) I.O., B.S.C., 1839, Haines to Bombay 11/12/39.

يوقف المقيم السياسى البريطانى فى عدن صرف الراتب المقرر للسلطان محسن بعد أن كشف عداءه للبريطانيين • كما فرض الأسطول البريطانى حصارا بحريا على طول ساحل « أبين » ومنع السفن التجـــارية من دخول ميناء « شقرة » نكاية بالسلطان الفضلى الذى تحالف مع سلطان لحج فى عدائه للبريطانيين (١) •

وهكذا لم يكتب لهذه المحاولة النجاح ومنى العرب فيها بخسائر فادحة • بل إنه كان من بين النتــــائج التى ترتبت على تلك المحاولة قيام البريطانيين بمحاصرة ساحل الفضلى وضربه بمدفعية السفن البريطانية • كما تنصـــــل البريطانيون أيضا من ارتباطاتهم مع سلطان لحج وسلطان الفضلى وأوقفوا صرف المرتبات التى كانت تمنح لكل منهما • وفى نفس الوقت حاول « هينز » العثور على مصادر أخرى غير الساحل اليمنى لامداده بالماشية والمواد الغذائيـــــة والأخشاب ، حتى يجعل عدن قادرة على الاكتفاء ذاتيا وسد الحاجات الضرورية للحامية البريطانية (٢) •

المحاولة الثانية :

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يثور السلطان محسن من جديد خاصة وأنه قد منى بخسائر فادحة نتيجة لمحاولته الســـابقة التى قام بهـــا ضـــد البريطانيين • وقد أشارت الوثائق البريطانية الى أن بعض المعلومات قد وصلت الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى أول فبراير سنة ١٨٤٠ تفيـــد بأن بعض رسل ابراهيم يكن باشا الوالى المصرى فى تهامة قد وصلوا الى داخل اليمن مما ترتب عليه تغير مفاجىء فى موقف العبادلة • وتضيف الوثائق أن عبد الرسول وكيل البريطانيين فى مخا قد أرسل تقريرا الى عدن يوضح فيه أن بعض رسل السلطان محسن أيضا قد وصلوا الى مخا ليطلبوا بنادق ومقاتلين لمساعدتهم فى اخراج البريطانيين من عدن وأن ابراهيم باشا قد منحهم كل تشجيع (٣) • على أننا اذا صدقنا هـــذه الرواية فانها تكون قد حدثت قبيل خروج المصريين من اليمن بفترة قصيرة خاصة وأنهم بدءوا يخرجون منها فى أوائل شهر أبريل سنة ١٨٤٠ (٤) • بحيث تم خروجهم من هناك فى ٩ مايو من السنة المذكورة • وجدير بالذكر أن الوثائق المصرية (٥) لم يرد فيهـــا ما يؤيد هذه الرواية التى تذكر تعاون المصريين مع العبادلة لاجلاء البريطانيين عن عدن ، وان كانت هذه رغبة لابد انهـــا كانت متوافرة لدى المصريين • على

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ •

(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 84

(٣) I.O., B.S.C. 1840, Haines to Bombay, 2/1/40.

(٤) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 100.

(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محافظ اليمن والحجاز •

أنه لا يفوتنا أيضا أن « هينز » كان يظهر لحكومته خطورة الوجود المصرى فى اليمن حينذاك بالنسبة للمصالح البريطانية حتى تعزز قواته وتدعم موقفه ٠

وعلى أية حال فان السلطان محسن العبدلى استجمع قواه وعاود الكرة من جديد وللمرة الثانية فى اليوم الحادى والعشرين من مايو سنة ١٨٤٠ وهاجم عدن بقوة قوامها يتراوح ما بين أربعة آلاف الى خمسة آلاف مقاتل من القبائل التابعة له ٠ وفى نفس الوقت أغلق سلطان الفضلى من جديد أيضا طرق القوافل المؤدية الى عدن وأعلن هو الآخر أنه سيقود حربا دينية ضد البريطانيين (١) ٠ ومما شجع العرب اليمنيين على هذا التحرك انه قد اشيع بين القبائل أن بريطانيا كانت فى حرب مع مصر نتيجة للموقف المتوتر حينذاك فى منطقة الشرق الأوسط بين محمد على والباب العالى ، ونتيجة للسياسة الجافة التى اتبعها « بالمرستون » مع محمد على ، مما جعلهم يعتقدون أن البريطانيين سوف يشغلون عن مشاكلهم فى اليمن بما يتيح الفرصة للعرب لتحقيق النصر ٠ كما ظن رجال القبائل خطأ أن من غير الممكن للحامية البريطانية فى عدن أن تحصل على أية تعزيزات جديدة (٢) ٠ فى تلك الفترة قبيل مجىء فصل الرياح ، ولم يكونوا على علم بامكانات السفن البريطانية وخاصة تلك التى تعمل بقوة دفع البخار مما يجعلها قادرة على الوصول الى عدن فى جميع فصول السنة ٠

ولهذا فعلى عكس ما توقع السلطان محسن ورجاله تمكن البريطانيون من صد الهجوم ، مما اضطر العرب الى التراجع بعد أن تركوا خلفهم كثيرين من القتلى والجرحى (٣) ٠ وكان عنصر الخيانة فى صفوف العرب ، الى جانب عمليات التجسس التى كان يقوم بها اليهود فى لحج ، من أهم العوامل التى سهلت على البريطانيين صد هذا الهجوم ، والحاق أبلغ الأضرار بقوات السلطان ٠ اذ كان البريطانيون قد عينوا الشيخ حسن الخطيب وكيلا لهم فى لحج ، وكان الشيخ حسن من كبار المقربين الى سلطان لحج ، كما كان أحد الذين وقعوا على المعاهدة الأولى بين بريطانيا والسلطان محسن بصفته أحد ممثلى السلطان ٠ وقد ذكر « الكابتن بلايفير C. Playfair » أن معلومات تتعلق باستعدادات السلطان فى الهجومين السابقين قد وصلت الى البريطانيين فى عدن عن طريق وكيلهم فى لحج (٤) ٠ وقد تأثر السلطان محسن كثيرا عندما علم بالدور الذى قام به وكيله السابق الشيخ حسن الخطيب وانتقم منه بأن أمر بقتله ونهب بيوته وبيوت أقربائه التى بلغت ستة عشر بيتا ٠

---

(١) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 86.

(٢) I.O., B.S.C. 1840, Haines to Bombay 3/2/40.

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ؛ ٢٠٤ ٠

(٤) Playfair, R.L. : Op. Cit., pp. 164, 165.

أما عن دور اليهود فى أعمال التجسس على جهود العرب لاسترجاع عدن حينذاك فقد علم به السلطان محسن عندما أبلغه أتباعه بأن أحد يهود لحج كان الواسطة فى نقل رسائل الشيخ حسن الخطيب من لحج الى عدن ، وأن عددا من يهود لحج كانوا يقومون بأعمال التجسس لحساب بريطانيا • وقد استاء السلطان لذلك وأمر بنهب جميع بيوت اليهود اللحجيين ، سواء من كان منهم فى لحج أو منْ انتقل منها الى عدن ، حتى قدرت خسائرهم بخمسة عشر ألف ريال •

وهكذا اشترك عنصر الخيانة من قبل العملاء العرب مع عنصر التجسس من قبل اليهود ، وكانا من العوامل المؤثرة التى أدت الى فشل العرب فى استرجاع عدن • وقد أكد « هينز » ما قام به يهود اليمن فى أعمال الجاسوسية حتى أنهم شكلوا طابورا خامسا للتجسس على تحركات العرب ومعرفة خططهم وذلك فى مجال تقديره للمعاونة القيمة التى لقيها منهم (١) مما ساعده كثيرا فى تدعيم السيطرة البريطانية على عدن فى ذلك الحين • وقد أوضح « هينز » فى تقاريره لحكومته بأن اليهود هم أفضل العناصر التى استعان بها فى أعمال التجسس على العرب ، وأنهم كانوا ينقلون اليه الأنباء والمعلومات الحقيقية عنهم من المواقع المتعددة التى كانوا يقيمون فيها ويعملون بها صيارفة ومحاسبين لدى شيوخ القبائل فى صنعاء وتعز وقعطبة ولحج ومعظم المناطق المجاورة لعدن (٢) • ولا شك أن ذلك يعطى لمعلوماتهم قيمة أكبر خاصة وأنهم كانوا يفعلون ذلك نظير مبالغ تافهة ترشيهم بها الادارة البريطانية فى عدن • واذا كانت ثقة « هينز » قد بلغت غايتها بالنسبة لليهود فانه فى نفس الوقت لم يكن يثق فى كثير من العملاء العرب الذين استخدمهم لنفس الغرض نظرا لأن المعلومات التى كانوا ينقلونها اليه اتسمت معظمها بالمبالغة •

وجدير بالذكر أن البريطانيين غضبوا من السلطان الفضلى الذى حالف العبادلة وأغلق الطرق الموصلة من بلاده الى عدن ، مما جعلهم يفكرون فى اجباره على سحب قواته واعادة فتح هذه الطرق • ولهذا وجهوا السفينة البريطانية « الفنستون Elphinstone» الى شقرة فى شهر مارس سنة ١٨٤٠ • وقد قذف العرب هذه السفينة بنيرانهم من الساحل مما جعل البريطانيين يقصفون احدى القلاع فى شقرة وأحد بيوت الجمارك • وقد نتج عن هذا القصف استشهاد اثنين من العرب على نحو ما تشير اليه الوثائق البريطانية (٣) ، التى تذكر أيضا أن الشائعات قد هولت فى وصف هذا الحادث وأذاعت أن ثمانين عربيا

---

(١) Playfair, R.L. : Op. Cit., p. 165.

Marston, T.E. : Op. Cit., p. 88.

(٢) I.O., I.B., S.L.B., No. 37, Haines to the Chief Secretary to Government of Bombay, April 25, 1845.

(٣) I.O., B.S.C. 1840, Haines to Bombay 3/25/40, And minute by Board 4/11/40.

قد قتلوا وأن كثيرين غيرهم قد جرحوا ، وانتشرت هذه الشائعات حتى وصلت الى بومباى (١) ٠

وفى بومباى كانت مناقشات كثيرة قد دارت بين حكومتها وحكومة الهند حول امكانية ارسال حملة عسكرية لتعزيز حامية عدن ولشن الحرب على القبائل اليمنية المجاورة لها (٢) ٠ غير أن حكومة بومباى كانت قد استنفدت قوتها فى حملة الأفغان (٣) وفى المشكلات الأخرى التى واجهتها فى الهند مما جعلها عاجزة عن تعزيز حامية عدن فى ذلك الحين (٤) ٠

وعندما انتهت هذه المعارك بين البريطانيين والقبائل المحيطة بعدن دون أن تحقق غايتها بالنسبة للعرب (٥) ، فقد استاء السلطان محسن العبدلى غاية الاستياء وخاصة للموقف السلبى الذى وقفه رجال مشيخة العقارب الذين رفضوا أن يشتركوا معه أو مع حليفه السلطان أحمد بن عبد الله الفضلى فى مهاجمة عدن ٠ ولهذا فقد قام كلاهما بمهاجمة مشيخة العقارب ، وحاصرت قواتهما حصن « بير أحمد » (٦) والحقوا برجال العقارب خسائر فادحة (٧) ٠

وتشير الوثائق البريطانية الى أن الكسب الكبير الذى حصلت عليه القبائل اليمنية نتيجة لتبادل التجارة مع البريطانيين فى عدن قد جعل الكثير منهم لا يتعاطفون مع السلطان محسن فى عدائه للبريطانيين (٨) ٠ وتستند الوثائق فى ذلك الى أن السلطان «محسن» عندما أمر باغلاق الطرق المؤدية الى عدن فان هذه الطرق ظلت مفتوحة ولم تستجب القبائل لندائه مما أدى الى انتعاش التجارة وازدهارها فى عدن (٩) ٠ ولهذا حاول السلطان أن يضاعف نسبة الضرائب المفروضة على التجارة المتجهة الى عدن عبر بلاده ، كما قام بسجن واحد وأربعين يهوديا لم يطلق سراحهم الا بعد أن دفعوا اليه ضريبة من المال تعادل ما كان يحصل عليه من عدن سنويا ، وذلك باعتبارهم قد استفادوا كثيرا من هذه التجارة ٠

على أن « هينز » أراد أن يفرض هو الآخر عقوبة على السلطان ، تمثلت فى اغلاق باب عدن أمام المؤن التى تصل اليها من لحج ٠ وعلى الرغم من أن عدن كانت فى أشد الحاجة الى استيراد تلك المؤن من لحج ، غير أن « هينز » أراد بتصرفه هذا أن يشعر السلطان بأن عدن يمكنها الحصول على احتياجاتها من

(١) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 87.
(٢) I.B., B.S.C. 1840, Govt. of India to Bombay 7/6/40.
(٣) I.B., B.S.C. 1840, Bombay to Govt. of India 10/19/40.
(٤) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 89.
(٥) I.O., B.S.C. 1840, Haines to Bombay 7/9/40.
(٦) I.O., B.S.C. 1840, Haines to Bombay 8/13/40.
(٧) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 89.
(٨) I.O., B.S.C. 1841, Haines to Bombay 3/4/41.
(٩) I.O., B.S.C. 1841, Haines to Bombay 4/1/41.

المؤن المختلفة من مصادر أخرى (١) . وكان المقصود بهذه المصادر الساحل الافريقى للبحر الأحمر ولخليج عدن أو بالأحرى ساحل الصومال المواجه لليمن .

المحاولة الثالثة :

ظل السلطان محسن فضل العبدلى سلطان لحج متأثرا غاية التأثر نتيجة لعدم مقدرته على استعادة عدن من أيدى البريطانيين خاصة بعد أن علم بأن تعداد سكانها قد تضاعف وأن تجارتها قد ازدهرت وأن أهميتها قد زادت كثيرا عما كانت عليه . فأخذ يعد العدة من جديد لاسترجاعها من قبضة البريطانيين رغم بلوغه سن الشيخوخة الا أن قلبه كان لا يزال ملتهبا بروح النضال . ولهذا فقد قام بمحاولة ثالثة فى اليوم الخامس من يوليو سنة ١٨٤١ (٢) . شاركه فيها السلطان أحمد بن عبد الله الفضلى بحيث بلغت قواتهما خمسة آلاف مقاتل اتجهوا نحو عدن لطرد البريطانيين فيها . غير أنهم عندما اقتربوا من الخندق عند أسوار عدن فاجأتهم النيران المركزة من مدفعية احدى السفن البريطانية الراسية فى خليج عدن ومن الزوارق الراسية حول « جزيرة العبيد » (٣) فاضطربت صفوف رجال السلطان المهاجمين وانسحبوا تاركين وراءهم ثلاثمائة منهم بين شهيد وجريح .

غير أن السلطان « محسن » ورجاله تجمعوا فى « بير أحمد » فى شمال « خور مكسر » حيث أقاموا حصنا أطلقوا عليه « نوبة الشيخ مهدى » واتخذوه مركزا للاغارة على قوافل المؤن المتجهة من المناطق الداخلية فى الشمال الى رأس عدن حيث البريطانيين فى الجنوب . غير أن البريطانيين رءوا حينذاك ضرورة ازاحة العرب عن هذا الموقع وتدمير الحصن الذى أقاموه هناك . وعندما استطلع « هينز » رأى حكومة الهند فى هذا الشأن فقد وافقت على اتخاذ هذا الاجراء حتى تضمن وصول المؤن والتجارة باستمرار الى عدن . غير أنها طلبت من « هينز » العمل على استقطاب القبائل اليمنية الأخرى بانشاء علاقات صداقة معهم حتى يقفوا الى جانب البريطانيين ضد سلطان لحج (٤) .

ولهذا تقدمت قوة قوامها ثلاثمائة جندى بريطانى يرافقهم مائتان من المقاتلين الهنود الذين جندهم البريطانيون (٥) ، كما صاحبتهم أيضا بطارية مدفعية ، وكان يقودها «الكولونيل بينيكويك Colonel Pennycuick» لانجاز هذه

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 90, 91.

(٣) تعرف هذه الجزيرة حالية بجزيرة العمال

(٤) I.O., B.S.C., 1841, Govt. of India to Bombat, 7/19/41.

(٥) Anonymous : « Officers in the Queen's Army », Historical and Statistical Sketches of Aden, Madras, Twigg, 1848, p. 63.

المهمة فى اليوم الحادى عشر من أكتوبر سنة ١٨٤١ (١) وقد تمكنت هذه القوة من تدمير « توبة الشيخ مهدى » ثم زحف الى « الشيخ عثمان » حيث دمرت قلعتها • على أنه فى نفس الوقت الذى حدثت فيه هذه العمليات الحربية البرية ، فان سفن الأسطول الهندى البريطانى كانت تقـــوم بضرب ســـاحل قبائل الفضلى (٢) نتيجة لمساندتهم للعبادلة فى العمليات العدائية ضـــد البريطانيين فى عدن (٣) •

وقد أثرت هذه العمليات الحربية البريطانية التى اتسمت بطابع الانتقام فى اضعاف الروح المعنوية لدى القبائل اليمنية المحيطة بعدن ، خاصة وأن امكانات البريطانيين كانت متفوقة الى حد كبير على امكانات العرب هناك فى ذلك الحين • وقد بدا ذلك واضحا عندما طلب السلطان الفضلى من البريطانيين فى عدن العفو عن الأعمال العدوانية التى قام بها ضدهم وتعهد بالتزام السلوك الودى معهم فى المستقبل (٤) ، وقد حدث ذلك أثناء الزيارة التى قام بها الى عدن برفقة السلطان محسن فضل العبدلى والتى تحدد موعدها فى اليوم الثانى من ديسمبر سنة ١٨٤١ غير أن السلطان العبدلى سبق الفضلى فى الوصول الى عدن برفقة السلطان محسن فضل العبدلى والتى تحدد موعدها فى اليوم الثانى حتى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٤١ ودارت حول ضرورة اعتذار السلطان للبريطانيين عما بدر منه ازاءهم ، وعلى أن يترك اثنين من أبنـــائه كرهينـــة لتـــؤيد حسن نواياه ، كما كان عليه أن يعيد الأموال الخاصـــة بعائلة وكيل البريطانيين فى لحج ، فضلا عن كل الغنائم التى استحوذ عليها أثناء عمليات هجومه على عدن فى الفترة السابقة • غير أن السلطان محسن عاد الى لحج دون أن يرتبط مع البريطانيين بأى اتفـــاق ، بل انه فكر فى اعداد العـــدة لمهاجمة عدن من جديد (٥) • ولكن قبيلة الفضلى هـــذه المرة كانت قد تأثرت بالحصـــار الذى ضربه البريطانيون حول شقرة وعلى طول الساحل مما أوقف عمليات صـــيد الأسماك ، كما أوقف تجارة التمور التى تعد الغذاء الشعبى للقبائل بعـــد نفاد المحصولات الأخرى • ولهذا رفض الســـــلطان الفضلى أن يتعاون مع العبدلى ، كما تخاذل عن نصرته أيضـــا ســـــلطان الحواشب الذى أغرته كثيرا التجارة المربحة مع عدن • هذا فضلا عما كان يجده العبدلى من المناوأة المستمرة من الامام الزيدى فى صنعاء ، الذى اعتبر العبادلة مسئولين عن تعويض قوافل

---

(١) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٢٩ •

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ •

(٣) I.O., B.S.C., 1841, Haines to Bombay, 10/2/41

(٤) Playfair, R.L. : Op. cit., pp. 166, 167.

(٥) Marston, T.E. : Op. cit., p. 93.

I.O., B.S.C., 1842, Haines to the Secret Committee, 12/10/41, enclosed in Haines to Bombay, 1/4/42.

البن المتجهة من المنطقة الجبلية فى الشمال الى عدن فى الجنوب ، بعد أن اجتذب البريطانيون هذه التجارة وجعلوها تتحول عن مخا الى ميناء عدن (١) ٠

وعندما أحس « هينز » بأن جهود السلطان محسن العبدلى قد فشلت فى تكوين تحالف من القبائل اليمنية لمناوأة البريطانيين فقد طلب من حكومة بومباى فى شهر فبراير سنة ١٨٤٢ التصريح له بمنح شيوخ القبائل باستثناء السلطان محسن رواتب مالية تؤكد لهم تقدير البريطانيين لموقفهم (٢) ٠ وقد وافقت حكومة بومباى على ذلك ولكنها أوصت بعدم دفع المتأخر من هذه الرواتب (٣) ٠ وعلى الرغم من ذلك فقد ظل السلطان محسن مصرا على عدائه للبريطانيين ، رغم أنه لم يكن قويا بدرجة كافية تمكنه من غزو عدن ، كما أن جميع خططه كانت تتطلب مشاركه جدية من القبائل اليمنية الأخرى ٠ وعلى أية حال فقد سبب السلطان محسن للبريطانيين متاعب كثيرة ومضايقات كانت أبرزها تلك الضرائب الباهظة التى فرضها على البضائع والمؤن التى كانت تصل الى عدن عبر بلاده ٠ وقد أوضح « هينز » تصرفات السلطان المتغطرسة من وجهة نظره فى خطاب بعث به الى حكومة بومباى فى ٣١ مايو سنة ١٨٤٢ (٤) ٠

وجدير بالذكر أن مكانة البريطانيين وسمعتهم بين القبائل اليمنية قد ارتفعت كثيرا فى نهاية سنه ١٨٤٢ عن طريق التقارير التى كانت تصل الى عدن وتشيع ما أحرزوه من نصر فى الصين وفى أفغانستان ٠ وكانت هذه الأنباء تصاغ بأسلوب لا يخلو من المبالغة والتهويل ينتشر مع الشائعات فى سوق عدن ، ويحدث تأثيرا مفيدا غاية الفائدة للبريطانيين على نحو ما تؤكده الوثائق البريطانية (٥) ٠

وازاء هذه الظروف قام السلطان محسن بزيارة عدن فى شهر فبراير سنة ١٨٤٣ وعقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع المقيم السياسى البريطانى « هينز » فى اليوم الحادى عشر من هذا الشهر ، واتفق معه على أن يعيد الأراضى والثروات التى نهبت من الشيخ حسن الخطيب وكيل البريطانيين السابق فى لحج الى عائلته (٦) ٠ كما تعهد السلطان بالموافقة على جميع مطالب نقيب التجار اليهود فى لحج ، وكان السلطان قد استولى على ممتلكاتهم عندما اكتشف قيامهم بأعمال التجسس لحساب البريطانيين فى عدن ٠ وأخيرا التزم السلطان أيضا

---

(١) I.O., B.S.C., 1842, Haines to Bombay, 1/31/32 and 3/4/42.

(٢) I.O., B.S.C., 1842, Haines to Bombay. 2/7/42 and Minute by the Board N.D.

(٣) Marston T.E. : Op. cit., pp. 94, 95.

(٤) I.O., B.S.C., 1842, Haines to Bombay, 5/31/42.

(٥) I.O., B.S.C., 1842, Haines to the Secret Committee, 11/11/42

(٦) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ٠

بحماية التجارة والمحافظة على سلامة الطرق الداخلية ، كما سمح للبريطانيين بامتـلاك بعض الأراضى فى لحج على أن يعـامل رعاياه بالمثـل فى مدينـة عدن نفسها (١) وقد نتج عن عقد هذه المعاهدة أن شمل الهدوء والسلام منطقة عدن حتى بلغ الأمر بحكومة بومباى أن اعتقدت وخاصة فى شهر يوليو سنة ١٨٤٣ أن حامية عدن يمكن تقليل عدد أفرادها دون أن تتعرض المدينة لأية مخاطر من قبل القبائل اليمنية المجاورة (٢) . حتى انه قد حدث فى نفس هذا الشهر ان أرسل « هينز » الملازم كروتندن Lieutenant Cruttenden لزيارة لحج بناء على رغبة السلطان ، وكانت هذه أول زيارة لأحـد البريطانيين فى عدن الى المنطقـة الداخلية (٣) .

بل ان السلطان «محسن فضل العبدلى» ارتبط مع البريطانيين باتفاق آخر بعد ذلك بعام واحد فى اليوم العشرين من فبراير سنة ١٨٤٤ تعهد فيـه بالمحافظة على الاتفاق السابق ، كما أكد مسئوليته عن أية حـوادث تخريب أو اعتداء تحدث من قبل العرب على الطرق التى تربط عدن بالمناطق الداخلية ، ووضع كافة امكاناته فى خدمة « العلم البريطانى » (٤) . وفى مقابل ذلك فقد نص الاتفاق على اعادة صرف راتب السلطان الذى كان قد توقف منذ أن قام العبادلة بأول هجوم لهم على البريطانيين فى عدن وسـببوا مضايقات مستمرة للسلطة البريطانية هناك (٥) .

وقد ترتب على عقد هذه الاتفاقات بين البريطانيين من جهة ، وبين بعض شيوخ القبائل اليمنية المجاورة لعدن وعلى رأسهم سلطان لحج من جهة أخرى أن عم المنطقة بوجه عام هدوء نسبى استمر حتى سنة ١٨٤٥ . كما كانت العلاقات القائمة بين القبائل اليمنية نفسها وبين بعضها البعض تتسم بالهدوء النسبى أيضـا (٦) ، الأمر الذى سـاعد البريطانيين الى حد كبير على تدعيم سيطرتهم على عدن حينذاك ، وعلى تنظيم علاقاتهم مع القبائل اليمنية التى بدأت تتردد على عدن وتشارك فى تنشيط الحركة التجارية فيها .

حركة الشريف اسماعيل بن الحسن :

لم تستمر حالة الهدوء النسبى حول مدينة عدن على حالها طويلا ، بل ان البريطانيين تعرضوا فى سنة ١٨٤٦ (١٢٦٢ هـ) لاحدى حركات المقـاومة

---

(١) I.O., B.S.C., 1843, Haines to Bombay, 2/28/43

(٢) I.O., B.S.C., 1843, Minute by Board, 7/12/43.

(٣) I.O., B.S.C., 1843, Haines to Bombay, 7/29.

(٤) Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, pp. 125, 127.

(٥) I.O., B.S.C. 1844, Haines to Bombay, 3/3/44.
Playfair, R.L. : Op. cit., p. 167.

(٦) I.O., I.B., S.D., S.L.B., No. 26, Haines to the Chief Secretary to the Government of Bombay, April 30, 1845.

العربية العنيفة تزعمها أحد أشراف مكة هو الشريف اسماعيل بن الحسن (١) ، الذى توجه من مسقط رأسه مكة فى أقصى الشمال واستنهض همم النـــاس للجهاد « لاخراج الافرنج من عدن » (٢) ٠ وقد انضم اليه الكثيرون من أهالى عسير وباجل ويام بشمالى اليمن حتى وصل الى أراضى السلطنة العبدلية وبرفقته الفى مقاتل ٠ وقد اتصل الشريف اسماعيل بسلطان لحج والسلطان الفضلى وسلطان الحواشب وشيخ العقارب ودعاهم الى اعلان الجهاد وشجعهم على النضال ممنيا اياهم بالنصر (٣) ، وموحيا اليهم بما تميز به من قوة روحية أثرت على الكثيرين وجعلتهم يعتقدون بأن « مدافع الانجليز قد أطفأ الله شرارها ودفعت عن المجاهدين أشرارها » (٤) وعندما اتصل الشريف اسماعيل بامام صـنعاء الزيدى ،، فقد تقاعس عن مناصرته (٥) وقال « ان عليه أن يعتمد على القوى الروحية التى يدعى أنه يمتلكها » (٦) ولا شـك ان اختلاف المذاهب قد لعب دوره وأدى الى عدم تجمع القوى الوطنية فى اليمن وفى الجزيرة العربية فى ذلك الحين ٠

على أن الشريف اسماعيل بن الحسن التقى بعد ذلك بالسلطان محسن نفسه وببعض أبنائه فى « خارون » القريبة من لحج (٧) ودعاهم الى مشاركته الجهاد لاجلاء البريطانيين عن عدن (٨) غير أن موقف السلطان محسن أيضا كان متذبذبا حينذاك بين مواصلة الجهاد ضد البريطانيين مما جعله يسـاند الشريف اسماعيل من جهة (٩) ، وبين خشيته من قوة البريطانيين مما جعله يتجه الى مصادقتهم واطلاعهم على نوايا الشريف ومدى قوته من جهـة أخرى ٠ وقد أجاب « هينز » على السلطان محسن بأنه مطمئن الى أن خطوط دفاعه تستطيع أن تصد قوة الشريف المكى (١٠) ٠

على أن قوات الشريف اسماعيل بن الحسن اتجهت نحو عدن (١١) بعد أن انضم اليها ألف مقاتل من العبادلة وخمسمائة مقاتل آخرين من « آبين»

---

(١) Hunter, F.M. : Op. cit., p. 166.

(٢) عبد الواسع الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ص ٢٣١ ٠

(٣) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 167.

(٤) احمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص ١٥٠

(٥) Marston, T.E. : Op. cit., p. 142.

(٦) I.O., B.S.C., 1847, Haines to Bombay, 12/18/46.

(٧) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 167.

(٨) IO., B.S.C., 1846, Haines to Bombay, 8/15/46.

(٩) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٤٩
Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, p. 93.

(١٠) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢١٣ ٠

(١١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 142.

ومائتان من الحواشب ، ومائة من رجال العقارب . وقد أصاب الرعب أهالى عدن واستولى عليهم الفزع بعد أن انتشرت بينهم الشائعات بأن البريطانيين هناك كانوا أضعف من أن يقفوا أمام معجزات الشريف اسماعيل وأفعاله الخارقة ، فبدءوا يتسللون هاربين (١) حتى بلغ عدد الذين هجروا عدن فى ذلك الحين أكثر من الف شخص تقريبا . وقد انقطعت المواصلات بين عدن والمناطق المجاورة لها مما عطل وصول المؤن اليها من الداخل . بل ان الشريف اسماعيل أرسل رسالة الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى شهر اغسطس سنة ١٨٤٦ (شعبان سنة ١٢٦٢ هـ) قال له فيها : « اسمع يا كابتن هينز ، سلم لى عدن وما فيها ، فانك لن تستطيع الوقوف أمام طريقى مهما كانت قوتك . انك يا هينز ان استمعت الى نصيحتى وسلمت نفسك تسليما شريفا فان الله جل وعلا سيضاعف أجرك وسيمنحك بركاته ونكون أصدقاء حتى ولو أن ديانتينا قد وضعتانا فى وضعين مختلفين ، وسيكون لك ما لنا وعليك ما علينا ، أما اذا أبيت أن تفعل ما آمرك به فلا تلومن الا نفسك على النتائج . وأؤكد لك أن قدومى من بلد قصى لم يكن فى سبيل المال بل من أجل الجهاد فى سبيل الله وعلى الله الاتكال » . وقد حمل الشريف اسماعيل هذه الرسالة لثلاثين صوماليا من أتباعه أوصلوها الى « هينز » الذى استلمها منهم وأمر بترحيلهم الى بلادهم (٢) .

وفى اليوم السابع من أغسطس سنة ١٨٤٦ زحفت قوة من رجال الشريف اسماعيل قوامها أربعمائة مقاتل تجاه عدن لمحاولة استكشاف مواقع البريطانيين . غير أنهم ما كادوا يقتربون من الخندق على حدود عدن حتى اشتبكوا مع القوات البريطانية التى أجبرتهم على الانسحاب بعد أن تركوا خلفهم ستة قتلى وسبعة عشر جريحا وثلاثة أسرى . وقد أعقب ذلك وقوع عدة مناوشات كان رجال الشريف فى كل مرة ينسحبون بعدها . وفى اليوم الحادى عشر من اغسطس سنة ١٨٤٦ زحف الشريف اسماعيل الى « الشيخ عثمان » وعسكرت قواته هناك ، وأمر ألفا ومائتين من رجاله بالتقدم نحو جسر خور مكسر . وفى اليوم السادس والعشرين من نفس الشهر زحف ألفان من رجال الشريف نحو عدن ، ولكنهم قوبلوا بوابل من النيران الكثيفة من خندق السور . وعندما رأى الشريف اسماعيل فشل محاولاته وأحس بأن رجاله قد بدءوا يتشككون فى مقدرته فقد أمر بالزحف العام على عدن (٣) ، فتقدمت قواته التى انقسمت الى فرقتين ، احداهما اتجهت نحو خندق السور ، بينما سارت الأخرى نحو باب عدن .

---

(١) I.O., B.S.C., 1846, Haines to Bombay, 8/15/46.

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٣) احمد فضل بن على محسن العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

وعندما اقتربت قوات الشريف اسماعيل من عدن فقد تعرضت لنيران مركزة من الخطوط الدفاعية البريطانية ، كما تعرضت أيضا لضرب مؤثر من مدفعية السفينة الحربية « سيزوستريس Cesostris التى انتظر قائدها « الكابتن هاملتن Captain Hamilton » فى ساحل أبين حتى جاء حين المد ، فتقدم نحو الشاطىء وأطلق مدافع سفينته نحو مواقع قوات الشريف ، فحطم جسر خور مكسر (١) وألحق برجال الشريف خسائر فادحة ·

ومما زاد الطين بلة تفشى وباءى الكوليرا والطاعون بين أتباع الشريف اسماعيل وفتكا بهم فتكا ذريعا ، وتفرق الباقون منهم بحثا عن لقمة العيش بعد أن قاسوا الأمرين من المجاعة فكان بعضهم يضطر الى بيع سيفه أو بندقيته مقابل حصوله على رغيف خبز(٢) · وقد أنهارت بذلك مقاومة الشريف اسماعيل مما اضطره أن يلجأ الى أبين برفقة السلطان أحمد بن عبد الله الفضلى الذى حاول أن يقفل الطريق الموصلة بينها وبين عدن ، غير أن البريطانيين حاصروا الساحل وأجبروه على فتح الطريق · وقد استنجد الشريف اسماعيل بامام صنعاء غير أنه لم يتلق منه أية مساعدة (٣) · وفى اليوم الثانى عشر من أغسطس سنة ١٨٤٨ قتل الشريف اسماعيل بيد بدوى من أهالى أبين · وبذلك انتهت حياة هذا المناضل العربى هذه النهاية المؤلمة ، وفشلت تلك الحركة النضالية التى كانت متأثرة الى حد كبير بحركة الوهابيين وكان مصدرها منطقة الحجاز (٤) ، ولم تتمكن من تحقيق غايتها بطرد البريطانيين من عدن · بل ان هذه الحركة أثارت حنق البريطانيين وحقدهم على كل من تعاونوا مع الشريف اسماعيل مما جعل هؤلاء يهادنون بريطانيا ، كما استغل البريطانيون فى عدن هذه الحركة عندما طلبوا من حكومة الهند تعزيز قواتهم لتتمكن من مواجهة أى هجوم جديد حتى لا يتعرضوا للانتقام (٥) .

وهكذا اخفقت المحاولات الثلاث التى قام بها السلطان محسن فضل العبدلى سلطان لحج وشاركه فيها سلطان قبائل الفضلى لاسترجاع عدن من قبضة البريطانيين · واستمرت هذه المحاولات على مدى عامين عقب احتلال البريطانيين لعدن فى شهر يناير سنة ١٨٣٩ · فكانت المحاولة الأولى فى شهر نوفمبر سنة ١٨٤٠ بينما أعقبتها الثانية فى شهر مايو سنة ١٨٤١ وكانت

---

(١) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 167.
حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ·
(٢) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٥٠ ــ ١٥١ ·
Marston, T.E. : Op. cit., p. 142.
(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢١٦ ·
(٤) Playfair, R.L. : Op. cit., pp. 167, 168.
(٥) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 142, 143.

آخرها المحاولة الثالثة فى شهر يوليو من نفس السنة ٠ بل لقد فشلت أيضا المحاولة الكبرى التى قام بها الشريف اسماعيل بن الحسن عندما زحف من مكة تجاه عدن لاخراج البريطانيين من هناك فى سنة ١٨٤٦ دون جدوى ٠ وقد ترتب على هذا الفشل الذى منى به العرب أن توطدت أقدام البريطانيين فى عدن التى حرصوا على تحصينها باستمرار لمواجهة أى هجوم ٠ كما نتج عن هذا الفشل أيضا فتور الروح المعنوية لدى أهالى البلاد بعد أن لمسوا عن كثب تفوق البريطانيين الحربى وضخامة امكاناتهم وحداثة أسلحتهم ٠ وقد أدى ذلك الى احداث ذلك التغير الكبير الذى سنلحظه فى طبيعة العلاقات التى ستنشأ بين السلاطين العرب فى المنطقة وبين المقيم السياسى البريطانى فى عدن (١) ٠ وقد اتسمت هذه العلاقات فى بداية الأمر بطابع الصداقة والولاء وانتهت أخيرا الى التبعية الكاملة والخضوع التام لحماية البريطانيين نظير رواتب سنوية ومميزات شكلية تعبر عن احترام كاذب وتقدير زائف ٠

سادسا ـ تطور علاقة البريطانيين بسلطنة لحج وبالقبائل المجاورة لعدن عقب احتلالها :

تتبعنا فيما سبق تطور علاقة البريطانيين بالسلطان محسن فضل العبدلى سلطان لحج الذى تم فى عهده احتلالهم لعدن ، والذى بذل جهوده لاجلائهم عنها دون جدوى نظرا للأسباب العديدة التى سقناها فى هذا السبيل٠ وقد توفى السلطان محسن فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٤٧ م (آخر ذى الحجة سنة ١٢٦٣ هـ) ، (٢) وخلفه ابنه السلطان أحمد محسن فضل العبدلى (٣) الذى كان له دور مشهود فى مقاومة مطالب البريطانيين قبيل احتلالهم لعدن حتى أنه هددهم بقطع رقابهم اذا هم حاولوا دخول المدينة ، كما كان له دور مشهود أيضا فى فترة النضال ضد البريطانيين بعد تمكنهم من السيطرة على عدن ٠ غير أنه بعد هذه التجارب التى خاضها فى حياة والده ، وبعد هذا الفشل المتكرر الذى منى به العرب فى نضالهم ضد البريطانيين لاجلائهم عن عدن ، فان السلطان أحمد بدا وقد غير من سياسة العنف والصلابة التى اتبعها مع البريطانيين من قبل واستبدلها بسياسة اللين والمودة بعد أن يئس من جدوى المقاومة أمام القوة البريطانية الهائلة ٠ ولهذا فانه انصاع للبريطانيين وأصبح مواليا لهم ، وقام بزيارتهم فى عدن فى شهر فبراير سنة ١٨٤٨ ٠ (٤) وقد تفاوض السلطان أحمد مع « كابتن هينز » فى عقد معاهدة تتضمن بعض

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 142.

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢١٦ ٠

(٣) Hunter, F.M. : Op. cit., p. 166.

(٤) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 168.

المطالب التى تتعلق بتنمية الزراعة والتجارة فى لحج. وتذكر الوثائق البريطانية ان السلطان احمد طلب من البريطانيين الدخول تحت حمايتهم ، غير ان حكومة الهند البريطانية رفضت الاستجابة لطلبه هذا فى الوقت الذى وافقت فيه على معظم مواد المعاهدة المقترحة . (١) وعلى أية حال فقد أصيب السلطان أحمد بمرض الجدرى وتوفى فى ١٨ يناير سنة ١٨٤٩ وخلفه أخوه السلطان على محسن فضل العبدلى . (٢)

وقد كان السلطان على محسن مختلفا عن أخيه أحمد فى كل شىء وخاصة فى شعوره نحو البريطانيين وموقفه منهم . اذ كان السلطان على محسن متخلقا بصفات والده فى الحذر واتخاذ الحيطة ، ولكنه كان أقل رغبة فى القتال من والده . فعلى الرغم من أنه كان يصادق البريطانيين ويظهر لهم الود ، فانه كان يعمل فى نفس الوقت على اثارة السلطنات المجاورة ضدهم حتى يثبت للبريطانيين فى عدن أنه الوحيد بين حكام المناطق المجاورة الجدير بثقتهم . ونتيجة لهذه السياسة فان الاداوة البريطانية فى عدن قاست الكثير من المتاعب نتيجة لأعماله وتصرفاته التى تميزت بالمراوغة وسعة الحيلة . (٣)

وقد توصل البريطانيون فى اليوم السابع من مايو سنة ١٨٤٩ الى عقد معاهدة مع السلطان على محسن وقعها المقيم السياسى البريطانى « الكابتن هينز» بتفويض من الحاكم العام للهند الذى صدق عليها فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٤٩. وكان الهدف من هذه المعاهدة تبعا لما ورد فى الأصل الانجليزى « الحصول على فوائد تجارية بالطرق الودية والنية الحسنة والسلام الدائم» لكلا الجانبين . (٤) وقد تعهد السلطان فى هذه المعاهدة بحماية ممتلكات وأموال الرعايا البريطانيين التى توجد فى لحج وحماية هؤلاء الرعايا أو وكلائهم والسماح لهم بزيارة أى جزء من بلاده للتجارة أو للسياحة مع ضمان التسامح الدينى الكامل فى معاملتهم. كما التزم السلطان بارسال المتهمين أمام القانون من الرعايا البريطانيين الى سلطات عدن لمحاكمتهم . ووافق السلطان على أن يحصل البريطانيون على أراض لمدد معينة فى أرجاء بلاده تبعا لقوانينه على أن يكون لرعايا السلطان نفس الحقوق فى عدن تبعا للقوانين البريطانية . واقر السلطان ان جسر خور مكسر والأرض الفضاء الواقعة بينه وبين جبال عدن والتى تكون البرزخ تعد ممتلكات بريطانية . وقد التزم السلطان أيضا بحماية الطرق الموصلة بين عدن والمناطق الداخلية ــ بقدر استطاعته ــ من عصابات النهب وقطاع الطرق ، وحماية

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 147.

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٣) I.O., B.S.C., 184. Haines to Bombay, 1/28/49.

(٤) Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, p. 128.

تجارة الرعايا البريطانيين المارة ببلاده على ألا يفرض عليها رسوما للمرور أكثر من ٢ ٪ من سعرها الأصلى • أما المواد التى يحتاجها سلطان لحج شخصيا لأغراضه المنزلية فانها ستمر فى عدن دون أن تفرض عليها أية عشور ، وستعامل بالمثل المواد اللازمة للسلطات البريطانية فى عدن عندما تمر عبر بلاد السلطان ودون أن تفرض عليها أى رسوم خاصة بالمرور • (١)

وقد تعهد السلطان على محسن فى هذه المعاهدة بأن يشجع رعاياه على زراعة جميع أنواع الخضراوات الأوربية والمحلية لتباع فى الأسواق العدنية • كما انه أعلن أنه سيقدم أقصى معونة لتأييد المصالح البريطانية فى جميع الأمور المتعلقة بسلام وتقدم ورفاهية عدن ، وأنه سيستمع وأيضا سيمتثل فى حدود امكانياته الى نصائح ممثل الحكومة البريطانية فى عدن فى جميع الأمور • وأخيرا تعهد السلطان بمسئوليته الكاملة عن أى اخلال بهذا الارتباط أو أى خرق لهذه المعاهدة أو أى اعتداءات تقوم بها القبائل التابعة له فى الطرق المؤدية الى عدن والمارة عبر أراضيه ، وأن عليه أن يقدم الاجابة المقنعة والمرضية للحكومة البريطانية عن حدوث أى خرق لمواد المعاهدة • (٢) وفى مقابل كل ذلك تعهد « الكابتن هينز » باسم الحاكم العام للهند بأن يدفع للسلطان على محسن فضل وورثته وخلفائه مبلغ ٥٤١ ريالا (ماريا تريزا) شهريا طالما استمر هو أو ورثته وخلفاؤه من بعده ملتزمين بالاخلاص والصداقة فى علاقتهم مع السلطات البريطانية فى عدن • (٣)

على أن الأحوال لم تهدأ تماما بين البريطانيين والعرب فى جنوب اليمن عقب توقيع هذه المعاهدة مع السلطان على محسن فى سنة ١٨٤٩ اذ تعددت المصادمات بين الجانبين • فقد شهدت سنة ١٨٥٠ أعمالا عدائية قام بها العرب وسببت كثيرا من القلق والازعاج للبريطانيين فى عدن • وعلى الرغم من أن هذه الأعمال لم تشكل هجوما شاملا على البريطانيين (٤) ولم تزد عن كونها محاولات فردية كانت تظهر بين الحين والآخر ، غير أنها أدت الى تعقيد العلاقات بين الجانبين نظرا لما نتج عنها من مقتل عدد غير قليل من البريطانيين •

وقد وقعت أول تلك الأعمال المعادية للبريطانيين فى ٢٩ مايو سنة ١٨٥٠ عندما استقل عدد من بحارة السفينة « أوكلند Auckland » زورقا وأبحروا نحو الساحل ليجمعوا أصداف البحر • وفجأة انقض عليهم بعض البدو من أهالى «بير أحمد» وقتلوا أحد البحارة وجرحوا آخر ، وتفرق بعضهم هاربين سباحة نحو أحد الزوارق ، بينما فر آخران جريا الى « باب

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : نفس المصدر ، ص ٢١٩ — ٢٢١ •

(٢) Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, pp. 129-131.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p 152.

(٤) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٤٦ •

السلب » • (١) وبعد هذه الحادثة بأيام اعتدى بدوى اسمه السيد أبو بكر على جندى هندى مدراسى من القوات البريطانية وجرحه جرحا خطيرا ، (٢) غير أن حرس « باب السـلب » من البريطانيين أطلقوا النيران على هـذا البدوى فأردوه قتيلا • (٣)

وتكررت هذه الحوادث الفردية على النحو الذى حدث يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٥١ عندما نظم جمع من ضباط الحامية البريطانية رحلة الى الساحل المجاور لعدن • وكان بينهم « الكابتن ميلن Captain J.D. Milne والملازمون : « مكفرسون Mc'Pherson » و « أوجيلفى Ogilvie » و « هنكى Henchy » و « سوليز Saulez » وقد وافقهم الى لحج الملازم « كروتندن Cruttenden » مساعد المقيم السياسى البريطانى • وقضى هؤلاء الضباط الليلة التالية فى قرية « الوهط حيث صرفوا الحراس دون أن يأخذوا حذرهم • وعند منتصف الليل فاجأهم رجل يدعى السيد حسين ، تمكن من الدخول الى فناء المنزل الذى ينام فيه الضباط وأصاب « الكابتن ميلن بجروح خطيرة مات متأثرا بها فى اليوم التالى ، كما أصاب « مكفرسون » بجروح خطيرة أيضا ، بينما أصاب « سـوليز » بجروح طفيفة • وقد هرب السيد حسين الى أرض الحواشب ، ولكن سلطانها طرده فلجأ الى أحمد بن عبد الله الفضلى سلطان أبين •

وفى اليوم السابع من مارس سنة ١٨٥١ نزل بدوى مسلح من أهالى « بير أحمد » الى التواهى فى عدن ، وكان يهدف الى قتل « الكابتن هينز » المقيم السياسى البريطانى • وقد حدث أن كان الملازم دليسر Delisser يتجول راكبا حصانه حينما أوقفه هذا البدوى مدعيا أنه يريد أن يقدم له عريضة ، ثم اسرع فقطع عنان الحصان فهبط «دليسر » وتصـارع الاثنان بالأيدى وتمكن البدوى من اصابة « دليسر بعدة طعنات ، ولكن الأخير انتزع الخنجر من يد البدوى وطعنه طعنة قاتلة فأرداه صريعا • وقد علق البريطانيون جثة هذا البدوى على « باب السلب » ليراها كل العرب القادمين الى عـدن ليكون عبرة لمن تسول له نفســه مقاومة البريطانيين • غير أن ذلك لم يوهن من اصرار العرب على انتهاز كل فرصة للنيل من البريطانيين • اذ حدث فى اليوم الرابع من يونيو سنة ١٨٥١ أن اعتدى بدوى من أهالى « بير أحمد » على مقاتل هندى من جنود الحامية البريطانية فى عدن خارج « باب السلب » وأصابه بجروح ولاذ بالهرب • وعندما تحطمت السفينة البريطانية Sons of Commerce » عند أحد الشواطىء فقد نهب بعض رعايا السـلطان على محسن حمولة السفينة وقتلوا اثنين من بحارتها • وكان المحرض على عملية نهب

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٢١ •

(٢) I.O., B.S.C., 1850, Haines to Bombay, 6/12/50.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 152.

السفينة بدوى يدعى « الصوملى » غير أن السلطان على محسن أمر بشنقه فى ٢٧ أكتوبر من نفس السنة (١) ، وكانت حجته فى ذلك أنه لا يريد اثارة المشاكل بينه وبين البريطانيين فى ذلك الحين ·

وهكذا كانت عمليات المقاومة الفردية من قبل العرب تشكل بعض المتاعب التى واجهت « الكابتن هينز » أثناء عمله كمقيم سياسى بريطانى فى عدن فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٩ ــ ١٨٥٤ · وقد حاول « هينز » مرارا أن يضع حدا لعمليات المقاومة هذه بشتى الوسائل الممكنة ، فقام بأعمال عنيفة ضد سلطنة الفضلى وحاصر موانى ساحل « أبين » التابعة لها · وكان « هينز » يرى أن عواقب الامتناع عن تغريم أو معاقبة أحد حكام القبائل التى تقوم بأعمال معادية للبريطانيين سوف تكون باعثا على حدوث مزيد من المتاعب فى الطرق التجارية المؤدية الى عدن · وقد وافقت حكومة الهند على قيام « هينز » بانزال العقاب بسلطان « أبين » أحمد بن عبد الله الفضلى· بل ان حكومة الهند أمرت « هينز » بألا يكتفى بهدم مدينة أو اثنتين بالقرب من الساحل ، بل ان عليه أن يحمل السلاح الى داخل البلاد وينزل بقبائل « أبين » أشد أنواع العقاب فى أشخاصهم وممتلكاتهم على ألا يكون ذلك « منافيا للأعمال الانسانية » ! ! وقالت الهند حينذاك انها لا تستطيع أن تبعث اليه بتعزيزات أخرى من المقاتلين (٢) قبل مضى شهرين على أقل تقدير ولذلك فعليه أن يكتفى باستخدام الجنود الموجودين لديه فى عدن · (٣)

وفى نفس الوقت وصلت الى « هينز » رسالة من اللجنة السرية فى لندن ترفض فيها القيام بأى تقدم نحو الداخل الا فى حالة الضرورة القصوى · (٤) وأبدت اللجنة رغبتها فى تحسين العلاقات مع سلطان « أبين » وتجنب استخدام العمليات العسكرية · (٥) وبناء على ذلك توقف « هينز » عن تنفيذ الأمر السابق ، واكتفى بتهديد سلطان « أبين » بأنه سينزل به العقاب الرادع اذا امتنع عن تسليم قاتل « الكابتن ميلن » الذى لجأ اليه · وكان من الصعب على العرب أن يسلموا من لجأ اليهم باعتباره ضيفا لا يجوز تسليمه ، فضلا عن ايمانهم بأن ما يعد جريمة فى حق البريطانيين هو بالنسبة لهم نضال لتحرير بلادهم · وقد رأى « هينز » أن هذا التباين بين سياسة حكومة الهند الملتزمة بآراء اللجنة السرية فى لندن وبين سياسة حكومة بومباى لهو أمر يضر بكرامة بريطانيا فى هذه البلاد · اذ رأت حكومة الهند قصر

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ·
(٢) I.O., B.S.C., 1840, Haines to Bombay, 6/2/40 and Minute by Board, 6/24/40.
(٣) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 88, 89.
(٤) Marston, T.E. : Ibid., p. 111.
(٥) I.O., B.S.C., 1851, Govt. of India to Bombay, 9/29/51.

تدخل البريطانيين فى منازعات الشيوخ والزعماء فى منطقة البحر الأحمر الى أدنى حد ضرورى ، واستخدام كافة الأساليب السياسية التى يمكن أن تحقق أكبر قدر من الفائدة بأقل قدر من الخسائر والتضحيات ٠ (١)

وجدير بالذكر أن حكومة بومباى كانت تقوم بتوجيه البحرية الهندية البريطانية توجيها مباشرا مما جعلها على دراية تامة بأمور القوى المحلية فى منطقة عدن والبحر الأحمر بشكل لم يكن متوافرا لحكومة الهند البريطانية ذاتها ٠ ورغم أن الضباط وقادة السـفن الحربية البريطانية يخرجون من قواعدهم فى بومباى مزودين بتعليمـات محددة ، غير أنهم كثيرا ما كانوا يواجهون أوضاعا ومواقف ليس من اليسير على حكومة الهند تفهمها نظرا لأن حكومة بومباى كانت تباشر اشرافا كاملا على البحرية الهندية ٠ وعلى أية حال فانه لم يسع « هينز » الا أن ينفذ ما تخوله له السلطات التى يتبعها مباشرة ، مما جعله يشدد الحصار على « بير أحمد » ونواحيها من أرض العقارب ، وعلى ميناء شقرة التابع للسلطان الفضلى ، كما أمر بطرد رعايا الفضلى والعقارب من مدينة عدن ٠ بل انه قام فى نفس الوقت باقامة علاقات ودية مع القبائل المجاورة لسلطنة الفضلى وهى قبائل يافع والعوالق فى سنة ١٨٥٤ ، فى الوقت الذى اتبع فيه أيضا سياسة « فرق تسد » فكان يحرض السلطنات بعضها على البعض الآخر ويشعل نيران الفتنة بينهم (٢) حتى يشـغلهم بمشاكلهم الداخلية عن التصدى للبريطانيين ٠ وهكذا أخذ « هينز » يصطاد فى الماء العكر بهدف واحد هو تحقيق المصالح البريطانية فى مدينة عدن نفسها وفى المنطقة المحيطة بها دون ما تفريق بين الأساليب الأخلاقية وغير الأخلاقية ٠

وقد كانت نهاية « هينز » تتفق والأساليب التى اتبعها مع أهالى عدن وما حولها أثنـاء توليه لمنصبه كمقيم سياسى هنـاك ٠ فقد أدانته حكومته بالتسبب فى حدوث عجز مالى خطير فى ميزانية عدن ٠ اذ أن « هينز » كان قد أسس ادارة الجمرك تحت اشراف موظف عربى يعاونه موظف يهودى ٠ وحين ازداد حجم العمل فى جمرك عـدن فقد عين « هينز عـددا من الهنود المعروفين هناك باسم « الهنود الانجليز Anglo-Indian » وقد ظهر فيما بعد أن هؤلاء الموظفين قد تلاعبوا بمالية الجمرك مما اضطر « هينز أن يطردهم من العمل بعد أن اتهمهم بالاختلاس ٠ وكان الدور الذى قام به هؤلاء الموظفون سببا فى التعجيل بنهاية « هينز » ، اذ جرت عادته أن يقدم قروضا لربابنة السفن يسجلها فى التقارير التى يرفعها لحكومة الهند ٠ ويبدو أن « هينز » كان يشعر أن ثمة تلاعبا يحدث فى الشئون المالية مما جعله يطلب من حكومة الهند أن ترسل عددا من الخبراء لادارة الشئون المالية بجمرك عدن ٠ (٣) غير

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 111, 112.
(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 71.
(٣) Waterfield, G. : Op. cit., pp. 230, 235.

ان الحكومة لم تستجب لمطالبه فى حينه مما زاد من تفاقم المشكلة وأتاح الفرصة لحدوث مزيد من الاختلاسات ·

على أن حكومة الهند أرسلت أخيرا بعثة فى نهاية سنة ١٨٥٣ ، ضمت عددا من المحاسبين والخبراء فى تفتيش الدفاتر المالية ومراجعتها ، ووجدت هذه البعثة فى ميزانية عدن عجزا كبيرا (١) وقد ترتب على ذلك أن قامت حكومة الهند البريطانية باستدعاء « كابتن هينز » ومساعده الأول « الملازم كروتندن » ، وكان هو الآخر من رجال البحرية الهندية البريطانية ، للتحقيق معهما فى تهمة الاختلاس التى وجهت اليهما فى قضيتين جنائيتين · ورغم أن المحلفين برآهما من تهمة الاختلاس أثناء محاكمتهما فى بومباى ، غير أن المحكمة رأت أن « هينز » كان هو المتسبب فى حدوث العجز الذى أصاب مالية عدن ، ولهذا قضت عليه بسداده لخزانة الحكومة · ونظرا لأن « هينز » لم يستطع أن يفعل ذلك فقد أصدرت المحكمة حكمها بحبسه فى « سجن الدين » فى بومباى ، وقد عاش « هينز » فى السجن ست سنوات دون أن يطلق سراحه الا عندما اعتلت صحته وتدهورت · وقد أطلق سراحه من السجن « السير جورج كليرك Sir George Clerk » حاكم الهند البريطانى الجديد فى مطلع عام ١٨٦٠ · (٢)غير أنه توفى بعد مضى ستة اشهر فى أعقاب خروجه من السجن وذلك فى اليوم السادس عشر من يونية سنة ١٨٦٠ ، وكان قد بلغ من العمر ثمانية وخمسين عاما · وبعد وفاته أقامت له حكومة الهند البريطانية ضريحا فى مقبرة « كوبالا » فى بومباى · (٣) وبهذه النهاية التعسة انتهت حياة أحد ضباط البحرية البريطانية الذين قدموا لبريطانيا أجل الخدمات (٤) فى مجال تحقيق تطلعاتها الاستعمارية فيما وراء البحار بوجه عام وفى منطقة البحر الأحمر بوجه خاص ·

ولقد ذكر « مارستن » فى كتابه أن « هينز » حقق المعجزات فى الظروف التى كان يعمل فيها فى عدن ، وأنه هو الذى جعل منها مدينة تجارية ممتازة فى منطقة البحر الأحمر، بل انه قال عنه انه قد أحيا التجارة فيها وأعادها الى سابق مجدها · (٥) كما أصدر « جوردون ووترفيلد » كتابا عن حياة « هينز » فى سنة ١٩٦٨ عبر فيه عن أعمق معانى التقدير لضابط البحرية البريطانية الذى ضم عدن لممتلكات التاج البريطانى · (٦) وتأتى أهمية هذا الكتاب فى صدوره

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 163, 164.

(٢) Low, C.R. : History of the Indian Navy 1613—1863, Vol. 2, pp. 527, 528.

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٣١٤ ، ٣١٥ ·

Waterfield, G. : Op. cit., pp. 240, 241.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 164.

(٥) Waterfield, G. : Op. cit., p. 240.

(٦)

بعد جلاء البريطانيين عن عدن بعـام واحد ليؤكد اهتمـامهم باحيـاء ذكرى سيطرتهم على هذا الميناء العربى الهام وتقديرهم لمن قاموا بهذا العمل الذى حقق نفعا كبيرا للمصالح البريطانية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ·

ومهما وجه « لهينز » من ثناء وتقدير فان تقييمنا له لا يتعدى هذا الاطار الذى نوجزه فيما يلى :

١ ـ لم يكن « هينز سـوى منفذ للسياسـة الاسـتعمارية البريطانية التى سعت لوضع منطقة البحر الأحمر فى خدمة الاستعمار البريطانى قبل كل شيء ·

٢ ـ أن نمو ميناء عدن فى ظل الاسـتعمار البريطانى كان على حسـاب ميناءى مخـا والحديدة اليمنيين واللذين كان لهما نشاطهما المعروف من قبل ·

٣ ـ أن نزول البريطانيين الى عدن قد فرض على اليمن بصـفة خاصـة وعلى منطقة البحر الأحمر بوجه عام صراعا مريرا بين رفض الوجود البريطانى فيها وبين محاولة التفاهم معه ·

٤ ـ ان الوجود البريطانى شـكل ـ دون أدنى شـك ـ عقبة فى وجه التطور العام للمنطقة اليمنية نحو تشكيل وحدة وطنية تحت حكومـة قوية · حقيقة كانت سـتحدث تفاعلات وتنشب صراعات بين القوى المحلية الوطنية خلال عملية التشكيل تلك لا تقل ضراوة ان لم تزد على تلك المعارك التى وقعت بسبب الوجود البريطانى فى المنطقة · ولكن التفاعلات والصراعات بين القوى المحلية الوطنية كانت ستؤدى ان عاجلا أو آجلا الى تحقيق هدف الارتقاء الأصيل بالمنطقة الى مستوى العصر ·

٥ ـ أنه ممـا لا شـك فيه أن « هينز » قـد خدم الامبراطورية البريطانية خدمة جليلة بسيطرته على عدن فى ذلك الوقت المبكر ، بحيث كانت أول موقع فى منطقة البحر الأحمر تسيطر عليه بريطانيا وتبقى فيـه بل وتظل تتشبث به حتى يكون آخر موقع نجلو عنه فى الثلاثين من نوفمبر سنة ١٩٦٧ بعد أن ووجهت بمعارضة شديدة من قبل القوى الوطنية التى بلغت درجة عالية من النمو مكنتها من تحرير أراضيها·

أما فيما يتعلق بسياسة البريطانيين فى عدن بعد عزل «هينز» عن منصبه كمقيم سياسى هناك فانها فى جملتها لم تتغير كثيرا عما كانت عليه · اذ ان الأسس التى وضعها « هينز » لتوجيه السياسة البريطانية داخل عدن وفى المنطقة المحيطة بها أيدها وسار على نهجها كل من تولوا السلطة من بعده أمثال « كلارك Clarke » فى سنة ١٨٥٤ ، و « أوترام Outram » فى نفس

الســـتة . وقد عمل الأول كمقيم سياسى بالنيابة « Acting political Resident لوقت قصير . (١) بينما عمل الثانى كمقيم سياسى هناك حتى تولى « البريجادير وليم مرقص كوجلان Brigadier William M. Coghlan » هذا المنصب فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٥٤ و ١٨٦٣ .

وتجدر الاشاره الى أنه بعد أن استدعى « هينز » الى الهند لمحاكمتـــه وأصبح « البريجادير كلارك Brigadier Clarke » مقيما سياسيا بالنيـــابة فى مدينة عدن فقد أظهر السلطان على محسن العبدلى حينذاك وثيقة وقعها « هينز » وتعهد فيها بتقديم المساعدة للعبادلة لاستعادة « بير أحمد » . (٢) وقد سئل « هينز » فى بومباى عن أمر هذه الوثيقة فأجاب بأنه لم يوقع أبدا وثيقة مع العبدلى غير ما كان يحيط به حكومته فى حينه . وعقب « هينز » على ذلك موضحا بأن تبادل المراسلات الكثيرة مع شيوخ القبائل اليمنية يعتبر أمـــرا غير مفيد ان لم يكن ضارا بالفعل ، وذلك نظرا لأنه يزيد من حـــدة التوتر والخلافات ، فضلا عن أنه لا يحقق مصلحة معينة . كما أوضـــح « هينز » أنه يمكن انجاز أعمال كثيرة من خلال اللقاءات الشخصية التى لا تستغرق سوى ساعات قليلة وأن هذا أفضل بكثير من تبادل الرسائل خلال شهور عديدة .

وتحدث « هينز » عن السلطان على محسن العبدلى فقال انه يشـــبه الحية التى تعيش بين الحشائش وأنه سوف يلدغ عدوه اذا ما أتيحت له الفرصة لتحقيق ذلك . (٣) واخيرا أبدى «هينز» أمله فى استمرار تقدم عدن وازدهارها بتنفيذ الخط السياسى الجديد الذى يتبعه « كلارك » (٤) وقد حولت حـــكومة بومباى خطـــاب « هينز » الذى أوضح فيه ذلك الى المقيم السياسى البريطانى بالنيابة فى عدن ليسترشد بما جاء فيه ، (٥) مما يؤكد تقدير الحكومة لآراء « هينز » وخبرته بشئون عدن .

وجدير بالذكر أن « أوترام » الذى أصبح سياسيا فى عدن بعد « كلارك » استدعى من الهند « الملازم بلايفير Lieutenant Playfair » من ســـلاح مدفعية مدراس Madras Artillery ليكون مساعده . كما انتفع « أوترام » كثيرا من معلومات المبشر « جورج بيرس بادجر George Percy Badger » الذى كان ملما باللغة والتقاليد العربية وبتعاليم الشريعة الاسلامية مما ساعده كثيرا فى خدمة الادارة البريطانية فى عدن من ناحية علاقاتها مع القبائل اليمنية . أما

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 207.

(٢) I.O., B.S.C., 1854, Clarke to Bombay, 3/31/54.

(٣) I.O., B.S.C., 1854, Haines (in Bombay) to Government of Bombay, 4/13/54.

(٤) I.O., B.S.C., 1854, Resolution 4/25/54.

(٥) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 205, 206.

بالنسبة « لكوجلان » فقد استعان كذلك بشخص آخر يدعى « هرموز راسام Hurmudz Rassam » وهو مواطن مسيحى من بغداد كان والده يعمل مترجما لدى المقيم السياسى البريطانى هناك ٠ وقد اشتهر « راسام » هذا بالدور الذى قام به بتخليص الأسرى البريطانيين من لدن « تيودور » ملك الحبشة فى ذلك الحين ٠ (١)

وقد وصل « أوترام » الى عدن فى شهر يونيو سنة ١٨٥٤ وتسلم السلطة من « كلارك » ٠ (٢) وكان أوترام ينظر بعين الحذر والشك بالنسبة للنشاط الفرنسى فى منطقة البحر الأحمر ، اذ رأى أن « هينز » والمسئولين البريطانيين فى عدن لم يكونوا يهتمون اهتماما كافيا بتحركات الفرنسيين هناك على على الرغم من أنهم كانوا يهددون باحتلال بعض المراكز الحيوية ٠ (٣)

وقد التزم « أوترام » باتباع سياسة « هينز » بكل تفاصيلها وطالب بتعزيز حامية عدن لمواجهة أية تحركات معادية من جانب القبائل اليمنية المحلية بالمدينة ٠ (٤) وقد عزز لورد الفنستون Lord Elphinstone ، حاكم بومباى مطالب « أوترام » ورأى أن تترك له حرية التصرف فى اتخاذ كافة الاجراءات المتعلقة بمقتضيات المحافظة على عدن ٠ بل ان « الفنستون » طالب كذلك بصرف تعزيز مالى سنوى للحامية البريطانية فى عدن حتى يساعدها ذلك فى أداء المهمة الموكولة لها على خير وجه ٠ (٥) وفى نهاية شهر سبتمبر سنة ١٨٥٤ مرض « أوترام » واضطر أن يعود الى بومباى للعناية بصحته ٠ وقد حل مكانه مؤقتا « الكولونيل كوجلان » الذى عين بعد وقت قصير مقيما سياسيا فى عدن ٠ (٦)

وبالنسبة الى سياسة « كوجلان » فقد استمرت العلاقات الودية بينه وبين السلطان على محسن فضل العبدلى سلطان لحج من جهة ، بينما ساءت العلاقات بينه وبين قبائل الفضلى والعقربى من جهة أخرى وقد دأبت هاتان القبيلتان على نهب الطرق مما أدى الى توقف حركة وصول المؤن الى عدن من داخل البلاد لسد حاجة السكان ولوازم الحامية البريطانية فى المدينة ٠ (٧) ولم يكن سلطان لحج قادرا على تهيئة السبيل أمام السلطات البريطانية فى عدن لضمان استمرار الاتصال مع الداخل نظرا لافتقاره للقوة اللازمة من ناحية ، ولعدم مقدرته على تحمل نفقات القتال مع القبائل اليمنية من ناحية أخرى ٠ وكان ذلك سببا

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 209. 210.

(٢) I.O., B.S.C., 1854, Outram to Bombay, 6/26/54 and 7/12/54.

(٣) I.O., B.S.C., 1854, Outram to Bombay, 7/18/54.

(٤) I.O., B.S.C., 1854, Outram to Bombay, 8/10/54.

(٥) I.O., B.S.C., 1854, Minute by Elphinstone, 9/6/54 and Outram to Bombay, 9/13/54.

(٦) Marston, T.E. : Op. cit., p. 207..

(٧) I.O., B.S.C., 1854, Coghlan to Bombay, 11/28/54.

وجيها أمام « كوجلان » ليوجه جهوده لاقامة العلاقات المباشرة مع القبائل اليمنية المجاورة لعدن لضمان تحقيق المصالح البريطانية . وقد نجح « كوجلان » فى ذلك عندما اتصل بقبيلة العوالق السفلى القويةوضمن بذلك عدم انضمامها للفضلى ضد سلطان لحج . كما نجح « كوجلان » أيضا فى منع العوالق العليا من الانضمام الى الفضلى (١) هذا فضلا عن قيامه بعدة عمليات هجومية ضد القبائل غير الموالية ليجبرها على اتخاذ موقف موال للسلطات البريطانية فى عدن . (٢)

ورغم أن حكومة الهنـــد كانت قد أكدت سياستها نحو عدم التدخـــل فى الصراعات والمنازعات الداخلية فى المنطقة المحلية بعدن ، فان تصـاعد العداء ضد الوجود البريطانى ، وتعدد الهجمات على ميناء عدن قد اضطر الحاكم العام للهند الى اصدار أوامره فى شهر أغسطس سنة ١٨٥٥ بتوجيه بعض الهجمات الليلية المفاجئة على القرى الساحلية . (٣)

وفى نهاية تلك السنة حدث تقارب بين العبادلة وآل فضل ، ونجح السلطان على محسن فى التوصل الى اتفاق مع السلطان الفضلى لانهاء الخلاف بينهما . وقد أبدى السلطان الفضلى استعداده ورغبته فى مسالمة البريطانيين فى عدن، وليؤكد حسن نيته لهم فقد أعلن أنه طرد قاتل « الكابتن ميلن » الذى كان قد لجأ اليه وتعهد بتأمين الطرق المؤدية الى عدن . ولا شك أن البريطانيين حينذاك كانوا يرغبون فى انهاء حالة التوتر القائمة بينهم وبين الســلطان الفضــلى ، ولهذا سارع « كوجلان » بالموافقة على عقد اتفاق معه ، (٤) وأمر برفع الحصـار البحرى عن ميناء شقرة ، كما سمح لأهالى الفضلى بالدخول الى عدن . أما مسألة اعادة صرف الراتب الذى كان يصرف من قبل للسلطان الفضلى فقد أجل « كوجلان » بحثها حتى يتأكد من حرص السلطان على الوفاء بتعهداته . (٥)

على أن السلطان على محسن فضل العبدلى ، وهو المتسبب فى الوصول الى هذا الاتفاق بين البريطانيين والسلطان الفضلى ، استولت عليه الغيرة عندما علم بتحسن العلاقات بينهما ، ولهذا بدأ يبذل جهوده سرا لخلق المشكلات بين الجانبين فى الوقت الذى كان يتظاهر فيه بأنه رســـول السلام بين البريطانيين والقبائل المجاورة . ولم يترك السلطان على محسن أية فرصة الا وصور فيها للمقيم السياسى البريطانى شكوكه فى اخلاص الفضلى للادارة البريطانية وذلك ليستحوذ لنفسه على ثقة البريطانيين وعلى تدعيمهم لمركزه بين قبائل المنطقة . ولم

(١) I.O., S.D., S.L.B., No. 18, Brigadier W.M. Coghlan, Political Resident of Aden to H.L. Anderson, Secretary of the Government of Bombay, February 24, 1858.

(٢) Playfair, R.L. : Op. cit., p. 170.

(٣) I.O., B.S.C., 1855, Government of India to Bombay, 2/8/55.

(٤) I.O., B.S.C., 1857, Coghlan to Bombay, 4/10/57.

(٥) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ٢٢٤ .

غضاضة فى تغذية هذه الرغبة لدى سلطان لحج ، ومن هنا قبل « كوجلان » الدعوة التى وجهها اليه السلطان على محسن لزيارة لحج ٠

وعندما جنح السلطان على محسن الى مسالمة السلطان الفضلى فى سنة ١٨٥٦ بعد أن تفاقمت الخلافات بينهما نتيجة لكثرة اغارة رجال كل منهما على أراضى الآخر حتى سئما الحرب ، فقد توصلا الى اتفاق للصلح فى نهاية الأمر ٠ وقد حضر السلطان الفضلى الى عدن ليطلع السلطات البريطانية على مواد هـــذا الاتفـــاق ، ممـــا يوضـــح مدى ما حظى به البريطانيون من نفوذ بين قبائل المنطقة فى وقت قصير منذ وصولهم اليها ، وذلك عائد بالدرجة الأولى لقوتهم الحربية ودهائهم السياسى ٠

بل ان قبائل العقارب أبدوا استعدادهم لاقامة علاقات ودية مع البريطانيين فى عدن ، وقد رحب المقيم السياسى البريطانى بذلك بطبيعة الحال ٠ وهكذا هدأت الأحوال وانتهت الخلافات التى طالما عقدت العلاقات بين السلطات البريطانية فى عدن وبين القبائل اليمنية المجاورة لها مـــدة طويلة ٠ وحصـــل البريطانيون على كل ما كانوا يبغون الحصول عليه بعد أن أصبحت الطرق مفتوحة وآمنة ، وبعد أن تدفقت المؤن بكثرة وبوفرة الى مدينة عدن التى ازدهرت كثيرا عما كانت عليه من قبل ٠

على أن معظم القبائل المجاورة لعدن وخاصة قبيلتى الفضلى والعقربى لم تقلعا فقط عن مقاومة البريطانيين وتأمين طرق التجارة الموصلة الى المدينـــة ، بل نافست كل منهما الأخرى فى اظهار صداقتها للبريطانيين واتجاهاتها الودية نحوهم ٠ وهكذا أصـــبح البريطانيون فى نهـــاية سنة ١٨٥٦ بمنأى عن أية تحركات عدوانيـــة من جانب القبائل اليمنية المجاورة لعدن ٠ كمـــا بدأت العلاقات الودية تتوطد بينهم وبين تلك القبائل مما أدى الى استقرار البريطانيين فى عدن والى تدعيم النفوذ البريطانى فى المنطقة المحيطة بها ٠

وجدير بالذكر أن المقيم السياسى البريطانى « كوجلان » قام برحلة بحرية حول خليج عدن فى نهاية عام ١٨٥٥ على ظهر الباخرة « سيراميس Semiramis » وقد قام بزيارة زعيم العوالق السفلى ووقع معاهدة معه بشأن تحريم تجـــارة الرقيق ، كما وقع عدة معاهدات أخرى مع شيوخ القبائل المجاورة لتحقيق هـــذا الهدف ٠ بل ان « كوجلان » طالب حكومة بومباى فى ربيع عام ١٨٥٦ بوضـــع باخرتين صغيرتين على مقربة من جزيرة بريم لمراقبة تحريم تجـــارة الرقيق فى

منطقة البحر الأحمر وفى خليج عدن • (١) ولقد قيل أن الفرامانات التركيـــة الخاصة بتحريم تجارة الرقيق كانت تصدر لترضية الأوربيين فحسب مما جعل اللجنة السرية لمكتب شئون الهند فى لندن تمنح السفن البريطانية صلاحيات تفتيش السفن العثمانية المارة بالمنطقة المذكورة ، (٢) وان كان لايخفى علينـــا أن البريطانيين تحايلوا بذلك الهدف النبيل وهو تحريم تجارة الرقيق ليكون سببا وتكأة لبسط نفوذهم فى مياه البحر الأحمر وخليج عدن وفى البحار الشرقية بوجه عام تحقيقا لمآربهم الاستعمارية •

على أن ثمة دورا خطيرا قام به الســـلطان على محسن العبدلى سلطان لحج للدس والايقاع بين البريطانيين فى عدن وبين القبائل اليمنية المجاورة • وكان يهدف من سياسته هذه الى المحافظة على ابقاء القبائل اليمنية الأخرى بعيدة عن البريطانيين لكى ينفرد هو بالاتصال بهم والاستفادة من التحالف معهم • وكان يحرص كل الحرص على أن يكون صاحب المكانة المتـــازة بين أقرانه من زعماء القبائل اليمنية فى المنطقة ، وذلك نظرا لأن الرواتب التى يدفعها البريطانيون لزعماء القبائل كانت تصرف لهم عن طريقه ، كما كانت تتم اللقاءات وتعقـــد الارتباطات بواسطته أيضا ، وكان هو المستفيد أدبيا وماديا عن طريق هــذه الوساطة • ولهذا فقد حرص على أن يحول دون جعل هذا التفاهم المباشر بين البريطانيين وبين رؤساء القبائل الأخرى سببا للاضرار بمصالحه الخاصة • ولم تكن نوايا سلطان لحج خافية على المقيم السياسى البريطانى « البريجادير وايام مرقص كوجلان » الذى أكد لحكومته حرصه على تعزيز التقـــارب مع القبائل اليمنية المجاورة (٣) ، ليؤمن الطرق بين عدن والمناطق الداخليـــة ، وليضمن وصول المؤن الى قواته بوفرة وانتظام • كما أوضح أيضا لحكومته أنه لا يريد الاعتماد على سلطان لحج فى المحافظة على المصالح البريطانية بعد أن ثبت فشله فى تحقيق ذلك ، وبعد أن تبين أنه مازال يكن فى نفســـه مشاعر الكراهية للبريطانيين •

على أن سلطان لحج على محسن العبدلى عندما فشل فى سياسة الايقاع والدس بين البريطانيين والقبائل اليمنية الأخرى المجاورة لعدن وخاصة قبائل الفضلى ، فقد عمد الى بذل جهد أكبر لاثارة الخلاف حتى بين احدى عشائر العبادلة أنفسهم وهى عشيرة العزيبى وبين البريطانيين • وكان الشيخ على زعيم هــذه

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 216.
I.O., B.S.C., 1856, Coghlan to Bombay, 5/22/56.

(٢) I.O., B.S.C., 1856, Secret Committee to Bombay, 10/4/56.
Marston, T.E. : Op. cit., p. 220.

(٣) I.O., S.D., S.L.B., No. 18, W.M., Coghlan to H.L Anderson, February 24, 1858.

العشيرة مواليا للبريطانيين وسبق له أن حرض سلطان الفضـــلى على اتباع السلوك الودى ازاءهم (١) ٠ بل ان السلطان على محسن وضع مكوســـا على مياه بئر الشيخ عثمان التى تعتمد عليها مدينة عدن وتزود منها السفن التى تأتى الى الميناء (٢) ٠ ولهذا سارع « كوجلان » الى الاتصال بالسلطان متسائلا عن مدى شرعية تصرفه ، وذلك نظرا لأن المتعهدين بنقل المياه اضطروا للتوقف عن احضارها الى عدن نتيجة للضريبة العالية المفروضة عليها ٠ غير أن السلطان لم يستجب لهذا الاحتجاج على الرغم من أن زعماء القبائل الأخرى فى المنطقة لم يساندوه فى موقفه وذلك نظرا لعدم وجود أية مصلحة لأى منهم فى هذا الموضوع (٣) ٠

وقد استمرت العلاقات مضطربة بين ســلطان لحج وبين المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، بل انها أخذت تتـــدهور على مر الأيام ٠ وقد رأى المقيم السياسى البريطانى أنه اذا وافق على قرار السلطان بفرض مكوس على ميـاه بئر « الشيخ عثمان » فسوف يعقب ذلك فرض ضرائب على المؤن وعلى السلع التجارية التى تمر عبر أراضى العبدلى ، وبذلك تصل هذه السلع الى عدن باهظة الأثمان ٠ كما اكتشف المقيم البريطانى بأن السلطان حرض قبيلة الصبيحى على القيام باعتداءات قرب « الشيخ عثمان » وادعى كذبا أنه قام بتفتيشها ٠ كما قام السلطان أيضا بالقبض على مبعوث امام صنعاء الذى كان متجهــا الى عدن وأمر بحبسه ٠ هذا فضلا عن قيامه بحمـــاية بعض المتهمين بقتل بعض البريطانيين وقبوله لجوئهم عنده ٠ بل ان سلطان الفضلى قدم ثلاث شـــكايات منفصلة للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى مطلع شهر فبراير سنة ١٨٥٨ أوضح فيها أن العبادلة قاموا باعتداءات متتالية على أتباعه المارين فى الطرق الممتدة عبر أراضيهم وقتلوا واحدا منهم ٠ كما أن الاعتداءات والاغارات على الطرق أخذت فى التزايد مما هدد بعزل عدن عن المناطق الداخلية الأخرى ٠ وقد احتج « البريجادير كوجلان » المقيم الســياسى البريطانى فى عدن على السلطان محسن سلطان لحج (٤) لارتكابه كل هذه الأعمال التى من شأنها أن تهدد الأمن فى المنطقة وتعوق ارسال المؤن والميــاه اللازمة لعدن وتلحق أبلغ الأضرار بالمصالح البريطانية ٠

ولم يكتف « كوجــلان » بالاحتجاج على تصرفات ســلطان لحج وأتباعه العبادلة ، بل انه اقترح على حكومة بومباى ضرورة الاستيلاء السريع على الشيخ

---

(١) Playfair, RL. : Op. cit., p. 173.

(٢) Hunter, F.M. : Op. cit., p. 167.

(٣) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥٥ ٠

(٤) I.O., S.D., S.L.B., No. 18, W.M. Coghlan to H.L. Anderson, February, 24. 1858.

عثمان حتى يتسنى اجبار السلطان على الاستجابة للمطالب البريطانية • وكان « كوجلان » يهدف من وراء ذلك أن يفرض على السلطان تقديم تعويض عن تصرفاته المعادية ، وأن يسلم القتلة اللاجئين اليه أو يطردهم • وفيما يتعلق بمسألة اعادة « الشيخ عثمان » الى السلطان فيما بعد فقد رأى « كوجلان » أن يتصرف فى هذا الموضوع تبعا لما يبديه السلطان من ولاء واخلاص للمصالح البريطانية •

وتجدر الاشارة الى أهمية موقع « الشيخ عثمان » الذى يمكن من يسيطر عليه من التحكم فى الطريق المتجهة من لحج فى الشمال الى عدن فى الجنوب • وتبعد « الشيخ عثمان » عن منطقة « خور مكسر » التى تعتبر نهاية حدود الأراضى التى احتلها البريطانيون من جهة لحج بحوالى ميلين ونصف ميل • أما المنطقة الواقعة بين « الشيخ عثمان » ولحج فى الشمال فتسكنها عشيرة العزيبى ، وهى فرع من قبائل العبادلة حكام لحج كما سبق الاشارة الى ذلك • ولم يكن فى امكان الحامية الموجودة فى « الشيخ عثمان » مقاومة أية قوة بريطانية صغيرة تهاجمها من عدن • وكان المقيم السياسى البريطانى فى عدن متأكدا من أن استيلاء البريطانيين على « الشيخ عثمان » سيشكل ضربة قاسية لسلطان لحج نظرا لأن ذلك سيحول بينه وبين الحصول على أية ضرائب على مياه الآبار ، الى جانب تأثره ماليا بوقف راتبه الشهرى ، الأمر الذى سيؤدى فى النهاية الى رضوخه واستجابته للمطالب البريطانية (١) •

وقد رأى البريطانيون أن احتلالهم « للشيخ عثمان » سيمكنهم من فتح الطرق الموصلة بين عدن وبقية المناطق الداخلية لليمن مما ينشط حركة التبادل التجارى مع القبائل اليمنية الأخرى • ومما سهل الأمر على المقيم السياسى البريطانى فى عدن أن القبائل اليمنية المجاورة وخاصة قبائل الفضلى والعقربى لم تكن موالية فقط للبريطانيين وفى تنافس مستمر فيما بينها لارضائهم بل انها كانت فى صراع لا يكاد ينقطع مع العبادلة ، هذا فى الوقت الذى كان فيه العبادلة أنفسهم متنازعين فيما بينهم — وبالتالى لم يواجه البريطانيون جبهة يمنية موحدة تصدهم عن تحقيق أغراضهم ومصالحهم ومطامعهم (٢) •

وقد طالب « كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن حكومته فى الهند بتدبير القوات اللازمة للسيطرة على « الشيخ عثمان » تأمينا للطرق المؤدية الى عدن وضمانا لوصول المؤن والمياه اللازمة اليها ، خاصة بعد أن ازدادت أهمية عدن نفسها كمركز استراتيجى هام على خط المواصلات الامبراطورية البريطانية الى الهند • وأوضح « كوجلان » لحكومته أن هذه الأهمية ترجع الى النشاط

---

(١) I.O. S.D., S.L.B., No. 18, W.M., Coghlan to H.L, Anderson, February, 24, 1858.

(٢) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٦١ •

المتزايد للمواصلات التجارية عبر البحر الأحمر المتجهة الى سيلان والهند والصين واستراليا ، هذا فضلا عن الحركة المستمرة لنقل الوحدات العسكرية البريطانية عن طريق البحر الأحمر أيضا الى هذه الجهات · ويضاف الى ذلك تنفيذ مشروع الخط البرقى الممتد تحت سطح البحر بين السويس وعدن ، ثم على طول الخليج العربى متجها الى الهند · كما انه لا يمكن اغفال التزايد المستمر فى عدد السفن الأجنبية الأخـرى التى تتردد على ميناء عدن للقيام بعمليات التبادل التجـارى نتيجة لازدهار عدن ونشاط الحركة التجارية فيها (١) ·

ولم يكد السـلطان على محسن سـلطان لحج يحس بخطورة ما يضمره البريطانيون حتى أرسل قوة قوامها خمسمائة رجل الى « الشيخ عثمان » فى أوائل مارس سنة ١٨٥٨ وقطع كل اتصال بين عدن والمناطق الداخلية · ومن هنا لم يجد المقيم السياسى البريطانى بدا من توجيه قوة بريطانية الى « الشيخ عثمان » تكونت من ٦٥٧ جنديا من المدفعية ، ومدفعية الهاون ، والمشاة البحرية ، والمهندسين العسكريين فى ١٧ مارس من السنة المذكورة واشتبكت هذه القوة البريطانية مع العبادلة فى « خور مكسر » (٢) على بعد ميلين ونصف ميل من عدن · ورغـم ما أبداه العبـادلة من شـجاعة واقدام ، فانهـم لم يسـتطيعوا الصـمود (٣) أمام قسـوة النيران البريطانية ممـا جعلهم يفقدون أربعـين شهيدا (٤) وتمكن البريطانيون من السيطرة على « الشيخ عثمان » واستولوا على القلعة والمدفع الوحيد الموجود بها ، ثم قاموا بتدميرها مستعملين فى ذلك كل ما وجدوه من ذخائر ومتفجرات (٤) ·

وقبل أن ينتهى ذلك اليوم الذى سقطت فيه قرية « الشيخ عثمان » فى أيدى البريطانيين ، فقد سارع السلطان لحج بارسال بعثة كونها من ثلاثة من أتباعه لعرض الصلح ، وللمطالبة بجلاء البريطانيين عن قريتهم ، مع تعهدهـم باجابة كافة المطالب البريطانية ، وفتح الطرق الموصـلة الى عدن من الداخـل والمحافظة على سلامتها · هذا فضلا عن تأكيد قبول السـلطان لمشـورة المقيم السياسى البريطانى وبعدم سلوكه مسلكا معاديا تجاه السلطات البريطانية فى عدن · وهنا تأكد « كوجلان » بأن حملته قد حققت النجاح المطلوب ، ولهذا قبل العودة الى عدن وفتحت الطرق الممتدة بينها وبين بقية اليمن (٥) وتدفقت المؤن عليهـا بكميات وفيرة من كـل جانب · وقد اعتبرت حـكومة الهند البريطانية

---

(١) I.O., S.D., S.L.B., No. 18, W.M., Coghlan to H.L, Anderson, February, 24, 1858.

(٢) I.O., S.D., S.L.B., No. 7, W.M., Coghlan to the Adjustant General of the Army, Bombay, March 19, 1858.

(٣) Playfair, R.L. : Op. cit., pp. 174, 175.

(٤) Hunter, F.M. : Op. cit., p. 168.

(٥) I.O., S.D., S.L.B., No. 146, Lieutenant Wilkins to Executive Engineer Aden Captain Tracker, Major of Brigade, March 19, 1858.

حينذاك أن سيطرة البريطانيين على « الشيخ عثمان » كان من شأنها أن تؤدى الى تدعيم النفوذ البريطانى فى الجزيرة العربية كلها • غير أنها أجلت تعزيز قواتها فى عدن لتحقيق تلك الغاية لحين انتهاء الرياح الموسمية الجنوبية كما عاقت امكانية تنفيذ ذلك على الأحوال القائمة فى الهند حينذاك (١) •

وهكذا أدت سياسة العنف التى اتبعها « كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن مع سلطان لحج الى جعل الطرق التجارية الموصلة بين عدن والمناطق المجاورة فى جنوب اليمن مفتوحة وآمنة • كما انتظم وصول المؤن والضروريات الأخرى اليها ، وخاصة المياه العذبة من « الشيخ عثمان » ومن المنطقة القريبة من « بير أحمد » ، مما كان يفى بحاجة الاستهلاك اليومى فى عدن وحاجة السفن التجارية العابرة بمينائها • بل ان السلطان على محسن فضل العبدلى أرسل بعثة من قبله الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن حاولت بشتى الوسائل الممكنة التوصل الى تسوية للخلاف (٢) وذلك بعد أن تعرض السلطان لكل هذا الضغط العسكرى وبعد أن قطع عنه راتبه الشهرى أيضا • وقد التمس أعضاء البعثة للسلطان بعض العذر بحجة أنه كان يتصرف بمشورة الآخرين ، واتهموه علنا وأمام المقيم السياسى البريطانى بعدم المقدرة على تصريف الأمور بالنسبة لبعض المواقف (٣) ، وذلك ضمن محاولاتهم لاسترضاء البريطانيين والتودد اليهم خاصة بعد أن وعدوهم بتزويد عدن بالمياه اللازمة لها (٤) • وقد فعلوا ذلك مضطرين بطبيعة الحال أمام القوة البريطانية الهائلة التى أصبحت تتحكم فى مقدراتهم •

وتجدر الاشارة الى أن حكومة الهند البريطانية باركت اجراءات العنف الحاسمة التى اتخذها المقيم السياسى البريطانى فى عدن ازاء سلطان لحج فيما يتعلق بالسيطرة على « الشيخ عثمان » والتى أدت الى اجبار السلطان على الانصياع بعد ذلك لكل متطلبات سياسة البريطانيين فى جنوب اليمن (٥) • غير أن هذه السياسة القاسية أدت الى أن المواطنين العرب وخاصة المتمسكين منهم بتعاليم الاسلام القائمة على العزة والكرامة ، كانوا يشعرون بنوع من المهانة والاذلال (٦) وبخاصة فى الوقت الذى أصبحت فيه سلطنة لحج نتيجة

---

(١) I.O., S.D., S.L.B., No. 31, H.L. Anderson to G.T, Edmonstone, Secretary to the Government of India, April 7, 1858.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 152.

(٣) I.O., S.D., S.L.B., No. 28, W.M. Coghlan to H.L, Anderson, April 3, 1858.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 152, 153.

(٥) I.O., S.D., S.L.B., No. 28, Resolution by the Honible Board, April 22, 1858.

(٦) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 155, 157.

لهـذه الارهاب احدى دعامات النفـــوذ البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية ٠ ومن المؤسف حقا أن يرسل سلطان لحج الى حـكومة الهند البريطانية عددا من الشكاوى ضد مسلك المقيم السياسى البريطانى فى عدن من ناحية تحيزه الى غيره من زعماء القبائل الأخرى ، مظهرا امعانه فى الولاء للمصالح البريطانية ٠ ورغم أن المقيم السياسى البريطانى فى عدن قد أنكر على السلطان اخلاصه المزعوم مؤكدا انه لم يكن يتصرف دائما الا تبعا لما كانت تمليه عليه مصـــالحه الخاصـــة ، فقد أوصت حكومة الهند البريطانية المقيم السياسى بأن يوضح لسلطان لحج بأن عليه — حرصـا على مصـــالحه — أن يخلص الوفاء بارتبــاطاته مع الحـكومة البريطانية ، بدلا من كثرة تقديم الشـــكاوى أو الانصياع لتحريض مستشاريه واتباعه ٠

وقد ظلت الأحوال هادئة بين البريطانيين والعبادلة فى جنوب اليمن حتى بعد وفاة السلطان على محسن سلطان لحج فى سنة ١٨٦٢ ٠ وفى أثناء الفترة التى أعقبت ذلك أيضا والتى نشب فيها صراع بين اخوة السلطان حول من يتولى منهم منصب الســـــلطنة واستمر ذلك حتى سنة ١٨٦٥ ٠ ومن المؤسف أيضا أن المقيم السياسى البريطانى فى عدن كان يتدخل لاقرار الأمور بين أقارب السلطان المتصارعين للسيطرة على الحكم فى السلطنة (٥) فكان المقيم السياسى يتدخل لتولية حاكم بعينه يكون مواليا للبريطانيين وذلك بالتأثير على رؤساء العشائر وشيوخ القبائل لاختياره ٠ وكان نظام الحكم فى سلطنة لحج تبعا لما جرى عليه العرف انتخابيا وليس وراثيا ، كما كان ينتخب ولى العهد فى عهد السلطان الحاكم ، وبذلك كان الشخص المنتخب مقيدا بالتزام سياسة السلطنة ورعاية مصالح اللحجيين من جهة ، وفى نفس الوقت كان عليه أن يضـــع نفسه رهن اشـــارة المقيم السياسى البريطانى فى عدن من جهـــة أخـــرى وذلك طبقا للمعاهدات المعقودة بين الجانبين ٠

وقد استغل البريطانيون نظام الحـكم فى سلطنة لحج والأســلوب الذى كان يتبـــع عند اختيار الســـلطان وذلك لـكى يحققوا أغراضهم بما يتفق مـــع مصالحهم ، ونجحوا فى ذلك أيما نجاح ٠ ولا أدل على ذلك من قيـــام الســـلطان فضل محسن سلطان لحج ، الذى استتبت مقاليد الأمور فى يديه بمســـــاعدة البريطانيين عقب الصراع الذى نشـــب بين أقارب الســـلطان الســـابق محسن فضل ، ترافقه قوة من العبادلة شارك بهم القوات البريطانية المتجهة الى «أبين» لمعاقبة القبائل التى وجهها السلطان أحمد بن عبد الله الفضلى لنهب الطرق المتدة

بين عدن والمنطقة الداخلية فى جنوب اليمن (١) . ورغم أن هذه القوة البريطانية كانت مجهزة التجهيز الكافى الذى يحقق لها النصر ، فان مشاركة السلطان ورجاله لهذه القوة ساعدتها دون شك فى تحقيق غايتها ، خاصة وأن العرب كانوا على دراية تامة بطبيعة بلدهم وبدروبها ومسالكها . وقد تألفت هذه القوة البريطانية من أربعة مدافع وعشرين جنديا بريطانيا وثلاثين هنديا من رجال المدفعية ، هذا فضلا عن مائتى جندى من الفرقة رقم (١٠٩) البريطانية وثلاثمائةهندى من الجنود المشاة بقيادة«الكولونيل وولكرب Colonel Welcombe وقد تقدمت هذه القوة البريطانية يرافقها رجال سلطان لحج ، وكان يصاحبهم أيضا المقيم السياسى البريطانى « سير وليم ميرويذر William Mereweather وقد اتجهوا نحو «بير سعيد» حيث كان يعسكر رجال السلطان أحمد بن عبد الله حيث تمكنوا من قهرهم ، ثم ساروا نحو « العصلة » و « الكور » و « عمودية » وهدموها ، ثم عادوا الى عدن بعد مضى أحد عشر يوما . أما «شقرة» فقد حاصرتها السفن البريطانية وقصفت حصونها . وأخيرا اضطر السلطان الفضلى الى التوقيع على معاهدة فى شهر مايو سنة ١٨٦٧ التزم فيها بأن يمتنع عن القيام بقطع الطرق ونهب القوافل ، كما تعهد فيها بأن يحافظ على السلام مع القبائل المجاورة (٢) ، بما يجعل الطرق الموصلة الى عدن مفتوحة وآمنة .

وقد ذكر أحمد فضل العبدلى فى كتابه : « ان السلطان « فضل محسن » ورجاله العبادلة رافقوا العساكر البريطانية الى « أبين » ونال السلطان من الدولة البريطانية ثمانية آلاف ريال مكافأة له على تقديمه العلف ووسائل النقل للعساكر البريطانية التى خرجت لقتال الفضلى » (٣) . ويدل ذلك أيضا على أهمية الدور الذى قام به السلطان فضل محسن العبدلى سلطان لحج فى مساعدته للبريطانيين حتى أثناء مهاجمتهم لأحد جيرانه من السلاطين اليمنيين مما جعل السلطات البريطانية فى عدن تجزل له العطاء . وتعتبر هذه الحادثة بداية لعهد ساد فيه السلام بين سلطنة لحج وبين السلطات البريطانية فى عدن، كما انها دلالة واضحة على استقرار الوضع السياسى للبريطانيين فى عدن وفى المنطقة المحيطة بها فى جنوب اليمن وعلى مقربة من المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

وقد اتجهت حكومة الهند البريطانية الى تهيئة كافة السبل اللازمة لتدعيم

---

(١) Hunter, F.M. : Op. cit., p. 168.

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٣) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

النفوذ البريطاني في تلك المنطقة وتوفير الامكانات اللازمة للحامية البريطانية في عدن . ولا شك أن أهم هذه الامكانات تركزت في توفير المياه اللازمة لرجال الحامية ولسكان مدينة عدن . ولهذا اتفق المقيم السياسي البريطاني في عدن سير وليم ميرويذر Sir William Mereweather ، مع السلطان فضل بن محسن العبدلي سلطان لحج في ١٧ مارس سنة ١٨٦٧ على شق قناة يغذيهـــا اثنان من أحسن آبار « الشيخ عثمان » في الشمال لتتجه جنوبا نحو عدن . وقد تكفل البريطانيون بعملية شق القناة بينما تعهد السـلطان بحمايتها من « الشـيخ عثمان » حتى عدن ، وقد كلفت القناة حكومة عدن مبلغ ٢٩٦٩٣٣ روبية . وكانت المياه تتدفق في القناة حتى تصل الى معســكرات عدن حيث تصب في صهاريج كبيرة تزود منها فرق الجيش البريطاني هناك . أما أهالي عدن فكانوا يحصلون على كميات محدودة من تلك المياه بسعر روبية واحدة لكل مائة جالون. وكان الماء الذي يوزع على الأهالي لا يصلح الا للغسيل . وكان السطان يحصل على نصف الفائدة من ثمن الماء ، وتبلغ حصته ألفا ومائتى روبية في الشهر ، ولهذا فان السلطان محسن العبدلي كان حريصا على حماية بئرى الماء في «الشيخ عثمان » (١) . وقد تعهد السلطان بأن يقيم من العوائد المالية لهـذا المشروع طريقا معبدة تبدأ من « خورمكسر » وتتجه شمالا حتى «الشيخ عثمان» ، أما بقية الطريق المتجهة جنوبا من « خـور مكسر » حتى عدن فقد تعهدت السـلطات البريطانية بتعبيدها (٢) .

وحتى تضمن بريطانيا سيطرتها الكاملة على عدن والمنطقة المحيطة بها فقد رأت ضرورة السيطرة على شبه جزيرة عدن الصغرى الواقعة الى الغرب والتابعة لمشيخة العقارب . ولهذا بعثت حـكومة الهنـد البريطانية بتعليماتها للمقيم السياسي البريطاني في عـدن حينذاك وهو « ميجـور جنرال ادوارد رسـل Major General Edward L. Russell » ليبذل جهوده بدون تحفظ لشراء شبه جزيرة عدن الصغرى من العقارب . وقد أجرى المقيم السياسي البريطاني مفاوضات مع الشيخ عبد الله بن حيدره مهدى شيخ العقارب ، استعمل فيها مختلف أساليب الترغيب والترهيب الممكنة حتى اضطر الأخير الى الرضوخ . وقد وافق الشيخ عبد الله شيخ العقارب على عقد معاهدة باع بموجبها شبه جزيرة عدن الصغرى للبريطانيين (٣) في اليوم الثاني من أبريل سنة ١٨٦٩ مقابل مبلغ ثلاثين ألف ريال (كراون ألماني) ، بالاضافة الى مبلغ الثلاثة آلاف ريال التي ســبق أن سلمها اليه « البريجادير وليم مرقص كوجلان » المقيم السياسي البريطاني السابق

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٣١ .
(٢) Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, pp. 132, 133.
(٣) Hunter, F.M. : Op. cit., p. 167.

فى عـــدن بموجب المعاهدة التى عقـــدت بين الجـــانبين فى ٢٣ يناير سنة ١٨٦٣ (١) ٠

وبسيطرة بريطانيا على شبه جزيرة عدن الصغرى ، فضلا عن سيطرتها على رأس عدن الكبرى بالاحتلال الفعلى وتحكمها فى مقدرات القبائل اليمنية المجاورة بالمعاهدات والرواتب ، فقد أصبحت عدن والمنطقة المحيطة بها فى جنوبى اليمن وعلى مقربة من المدخل الجنوبى للبحر الأحمر فى قبضـــة البريطانيين ، ممـــا ساعدهم كثيرا على تحقيـــق أهدافهم وتنفيذ سياستهم الاســتعمارية فى منطقة البحر الأحمر بأكملها ٠

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ ٠

الفصل
الرابع

معالم السياسة البريطانية في البحر الأحمر
بعد احتلال عدن ١٨٣٩ - ١٨٦٩

استطاع البريطانيون بعد احتلالهم لعدن فى نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر أن يفرضوا سيطرتهم الكاملة على المدينة ذاتها ، وأن يقيموا حكما مستقرا فيها • كما أنهم تمكنوا من تصفية النفوذ المصرى فى تهامة اليمن حتى لا يشكل خطرا على وجودهم فى عدن • بل انهم تصـــدوا أيضا لحركات المقاومة العربية حتى تغلبوا عليها ونجحوا فى نهاية الأمر فى تدعيم نفوذهم فى المنطقة المحيطة بعدن باتباعهم سياسة مرنة ، تمثلت فى عقد معاهدات الولاء والصداقة ، المصحوبة بصرف مرتبات مالية ، واظهار الاحترام لزعماء القبائل اليمنية لضمان ولائهم ، وذلك بعد أن استنفدت سياسة « فرق تسد » الاستعمارية أغراضها •

وقد ترتب على تدعيم النفوذ البريطانى فى عدن نفســـها وفى المنطقة المحيطة بها أن أصبح السبيل ممهدا أمام بريطانيا للتوسع الاستعمارى فى منطقة البحر الأحمر باتخاذ عدن ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز مركزا للانطلاق وقاعدة للتحرك • وقد تمكنت بريطانيا من بسط نفوذها فى منطقـــة البحر الأحمر فى فترة زمنية قصيرة أصبح بعدها هذا البحر أشبه ببحيرة بريطانية •

على أن بريطانيا أثناء قيامها بهذا التحرك الاســتعمارى فى منطقة البحر الأحمر اصطدمت فى بداية الأمر بحقوق السيادة العثمانية على الساحل الآسيوى لهذا البحر وعلى الساحل الافريقى أيضا • كما أنهـــا وقفت موقف الرقيب المنافس لنشاط المصريين على سواحل بلاد العرب فى الحجاز واليمن وعلى طول الساحل الغربى للبحر الأحمر ثم على الســـاحل الشرقى لافريقيا حتى رأس جوردقوى • بل ان البريطانيين كانوا يرقبون بكل يقظة التحركات الفرنســية الاستعمارية المنافسة لهم وخاصة فى سواحل الصومال وفى الحبشة ، فى وقت كانت فيه أطماع فرنسا لا تقل عن أطماع البريطانيين فى السيطرة على البحر الأحمر وعلى الساحل الشرقى للقارة الافريقية •

وأثناء كل هذا كان على بريطانيا أن تخوض تجارب عـــديدة مع أهالى البلاد الأصليين فى منطقة البحر الأحمر ومع حكامهم ، وكانت أبرز هـــذه التجارب مع الحبشـــة التى حرصت على أن يكون لتجارتها منفـــذ طبيعى على البحر الأحمر يربطها بحركة التجارة العالمية فى منتصف القرن التاسع عشر · وكان النشاط التجارى يزداد عاما بعد آخر فى هذا البحر وخاصة بعد اســتخدام السفن البخارية فى الملاحة البحرية بحيث أصبح البحر الأحمر يعج بالحركة والنشاط التجارى الذى سيزداد كثيرا بعد فتح قناة السويس ·

وسوف نستعرض فيما يلى هذه القضايا المختلفة لمحاولة القاء الضــوء على معالم السياسة البريطانية فى البحر الأحمر بعد احتلال البريطانيين لعدن فى سنة ١٨٣٩ وحتى قبيل فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ · ومن خلال هذا العرض سنحاول التعرف على مدى استفادة البريطانيين من وجودهم فى عدن لتنفيذ هذه السياسة · ولما كان البريطانيون قد اصـــطدموا منذ بداية الأمر بحقوق الدولة العثمانية ومطالبها بالسيادة فى منطقة البحر الأحمر فان ذلك يوجب علينا أن نستعرض بايجاز الأصول التاريخية لهذه السيادة العثمانية وما كانت عليه فى ذلك الحين ·

أولا ـ الأصول التاريخية لسيادة العثمانيين فى منطقة البحر الأحمر :

لقد اســـتطاع العثمانيون فى مطلع القرن السادس عشر أن يطردوا البرتغاليين من البحر الأحمر وأن يبســـطوا نفوذهم على ساحليـــه الآسيوى والافريقى من خليجى السويس والعقبة فى الشمال حتى مضيق باب المندب فى الجنوب ، ونجحوا فى جعل هذا البحر بحيرة عثمانية أغلقوها فى وجه السفن المسيحية · وقد استولوا على موانيه الهامة فى مطلع العصور الحديثة كجدة ومخا وعدن على الساحل الآسيوى ، وسواكن وعقيق ومصـــوع على الساحل الافريقى ، ووضعوا حاميات عثمانية فى هذه الموانى ·

وقد عين العثمانيون حاكما تركيا على مصوع وآخر على سواكن منـــذ منتصف القرن السادس عشر ، ووضعوا هذين الحاكمين تحت اشراف والى جدة الذى كان يحكم الحجاز · وفى نفس الوقت استعانوا بأحد الزعماء الوطنيين وهو نائب « أركيكو Arkiko » (١) للمعاونة فى أعمـــال الحكومة بمصـــوع ، بينما استعانوا بآخر مثله فى سواكن ، وخاصة فى الأعمال المتعلقـــة بجباية الضرائب من القبائل المنتشرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر (٢) · وفى ذلك الوقت كان حاكم مصوع الخاضع لباشا الحجاز يتمتع بسلطة مطلقة فى

---

(١) تبعد قرية « اركيكو » عن جزيرة مصوع بحوالى خمسة أميال فى الجهـة الجنـوبية الغربية ، وتعتبر من اهم القرى الموجودة فى تلك المنطقة .

Rassam, H. : Narrative of the British Mission to Theodore, Vol. I, pp. 10, 11.

(٢) Plowden, W. : Travels in Abyssinia and the Galla Country, pp. 2, 3.

جزيرة مصوع ، غير أنه لم يكن يتمتع بمثل هذه السلطة على الاقليم الساحلي ، حيث كان نائب « اركيكو » الذى يعين من قبل باشا جدة يتولى أمر القبائل التى تعيش فى الأراضى المنخفضة الممتــدة بين ساحل البحر الأحمر الغربى وهضاب « تيجرى Tigré » (١) ، كما كان يتمتع بحق فرص الضرائب على القوافل التى تدخل الحبشة · ومن ثم فان الأتراك العثمانيين لم يكن لهم فى الحقيقة نفوذ كامل على الساحل الغربى للبحر الأحمر الا فى جزيرتى سواكن ومصوع ، أما بقية الساحل فكان نفوذهم فيه ضئيل بل يكاد يكون معدوما ·

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل العثمانيون متمسكين بحقوق السيادة على الســـاحل الافريقى للبحر الأحمر ، ولم يتركوا فرصة الا وانتهزوها لتأكيد تبعية الساحل كله لسيادتهم (٢) · ولا شك أن تمسك العثمانيين بحقـــوق السيادة على هذا الساحل كان له آثار خطيرة نظرا لأن الولاية القضائية التى كانت لسواكن ومصوع شملت أيضا بلاد الحبشة الى جانب ما يتاخم حدودها الشمالية والجنوبية (٣) ، وهى الأقاليم الممتدة حتى مضيق باب المندب عنـــد المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ·

وقد تعرضت حقوق السيادة العثمانية على الحجاز للضياع عندما اشتعلت نيران الثورة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر · وقد كلف الباب العالى واليه فى مصر باخماد هذه الثورة لاعتبارات كثيرة · وحين انتصر ابراهيم بن محمد على على الوهابيين ، عينه السلطان محمود الثانى على باشوية جدة فى يوليو سنة ١٨٢٠ (أوائل شوال سنة ١٢٣٥ هـ) مكافاة له على خدماته · ونظرا لأن هذه الباشوية كانت تشـــمل أيضا أقاليم ســـواكن ومصوع والحبشة (٤) ، فقد أصبح ابراهيم باشـــا يلقب بمتصرف جدة والحبش أو والى ايالة الحبش ومتصرف سنجق جدة (٥) · وبذلك أصبح لمصر أيضـــا حينذاك نوع من السيادة على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، وان كانت هذه السيادة غير مباشرة فضلا عن أنها كانت سيادة اسمية وذلك نظرا لأن العثمانيين أنفسهم لم يكن لهم نفوذ فعلى على هذا الساحل · وقد بذلت باشـــوية مصر فى تلك الفترة قصارى جهدها لتجعل هذه السيادة الأسمية سيادة حقيقية ومن ثم أخذت حكومة مصر حينذاك تفكر جديا منذ تقليد ابراهيم ولاية جـدة فى فتح بلاد الحبشة ·

---

(١) D'Abbadie, A. : Douze ans dans la Haute Ethiopie, p. 10.

(٢) Munzinger, W. : Narrative of a Journey through the Afar Country, « Journal of the Royal Geogr. Society, Vol. 39, 1869 ».

(٣) السيد محمد رجب حراز (دكتور) · التوسع الايطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ١٩٦٠ ، ص ٦٣ ·

(٤) Douin, G. : Histoire du Soudan Egyptien, p. 59.

(٥) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسيادة عى السودان ، ص ٢٣ ، ٢٤ ·

وهنا قلقت بريطانيا نتيجة لاتجاه المصريين لفتح الحبشة نظرا لأنهـــا دولة مسيحية ولأنها كانت تسعى منذ أوائل القرن التاســـع عشر الى انشاء علاقات تجارية مع الأحباش • ولذلك بذلت بريطانيا جهدا كبيرا عن طـــريق قنصلها فى مصر « سير هنرى ســـولت Sir Henry Salt » الذى شـــغل هـــذا المنصب فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨١٥ ـ ١٨٢٧ ، لاثناء محمد على عن ارسال هذه الحملة • ومن ثم عدل محمد على عن محاولة مهاجمة الحبشة مباشرة ، غير أنه أرسل فى سنة ١٨٢٦ جيشا تمكن من احتلال جزيرة مصوع فى نفس الوقت الذى وجهت فيه حملة السودان • ولا شك أن حكومة محمد على كانت تهدف من وراء احتلال مصوع أن يكون هذا الاحتلال بمثابة الخطوة الأولى فى نشر نفوذ مصر ـ فى ظل تبعيتها للدولة العثمانية ـ على الحبشـــة والساحل الافريقى للبحر الأحمر (١) ولكن الباب العالى رفض حينذاك السماح لمصر بتوطيد نفوذها على الساحل الغربى للبحر الأحمر وذلك حرصا على النفـــوذ العثمانى هناك • ولهذا اضطرت حكومة مصر الى اخلاء مصوع فى وقت لم تشأ أن تصطدم فيه بالباب العالى •

وعندما احتدم النزاع بين السلطان العثمانى ومحمد على تدخلت الدول بينهما لتسوية المسألة المصرية العثمانية عقب حوادث الشام ، فقـــد أجبرت الدول باشوية مصر على اخلاء شبه جزيرة العرب ، وأخذت بريطانيا على عاتقها تنفيذ قرارات مؤتمر لندن فى سنة ١٨٤٠ بالقوة لاجبار محمد على على سحب قواته بعيدا عن عدن التى احتلتها فى سنة ١٨٣٩ • وحينذاك استعاد الباب العالى نفوذه المباشر على الأقاليم المطلة على البحر الأحمر فى ساحليه الآسيوى والافريقى والتى كانت تحتلها القوات المصرية • وبذلك توطدت سلطة سلطان العثمانيين من جديد فى اقليم الحجاز الذى يمتد ســـاحله حتى القنفذة • كمـــا استعادت الدولة العثمانية عن طريق واليها فى الحجاز سيادتها المباشرة على سواكن ومصوع على الساحل الغربى للبحر الأحمر • أما منطقة تهامة القريبة من عدن والممتدة على الساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر (٢) فقد سلمها محمد على للشريف الحسين بن على بن حيدر حاكم أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى بشمالى اليمن ليحكمها ممثلا عن الباب العالى (٣) •

ثانيا ـ الأوضاع القائمة فى اليمن بعد جلاء المصريين عنه (١٨٤٠ ـ ١٨٤٩) :

تعرضت الأراضى اليمنية المطلة على البحر الأحمر والتى تعرف بتهـــامة لحملة من الفوضى والاضطراب عقب جلاء المصريين عنها فى سنة ١٨٤٠ • وكان

---

(١) Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, p. 240.

(٢) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome III, 1ère partie, p. 233.

(٣) Marston, T.E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, p. 100.

المصريون ـ كما سبق أن أوضحت قد أقاموا ادارة منظمة فى تهامة اليمن أتاحت استقرارا نسبيا للبلاد لم تنعم به من قبل فى تاريخها الحديث (١) وذلك أثناء الفترة القصيرة التى عاشوها هناك فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر · وقد أدى ذلك الى مطالبة أهالى حضرموت حينذاك بالانضمام الى حكومة محمد على (٢) · بل ان ذكرى الادارة المصرية الممتازة ظلت عالقة فى أذهان اليمنيين مما جعل أهالى الحديدة يطالبون فى أوائل العقد الثـــالث من القرن العشرين بالانضمام الى الحكومة المصرية بعد زوال الحكم العثمانى عن اليمن فى نهـــاية الحرب العالمية الأولى (٣) ·

غير أنه بخروج المصريين من اليمن فى اليوم التاسع من مايو ســـــنة ١٨٤٠ (٤) فقد امام صنعاء منطقة تهامة بعد أن تســلمت للحسين بن على بن حيدر (٥) شريف أبى عريش الذى لم يتمكن من مد نفوذه الفعلى الى الســـاحل الافريقى للبحر الأحمر المواجه للساحل اليمنى المطل على هذا البحر · وقد ترتب على ذلك خضوع زيلع وتاجورة تدريجيا لحكامها المحليين الذين لم يخضعوا لأية قوى أجنبية لها حق السيادة عليهم ، مما جعل فى مقدورهم تماما التنازل عن أى قطعة من أرضهم بســـهولة ويسر (٦) ، على النحو الذى سنوضحه فيما بعد ·

وعندما سلم ابراهيم يكن باشا والى مصر فى اليمن مدينة الحديدة التى كانت مركزا للادارة المصرية هناك الى الحسين بن على بن حيدر حاكم أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى بشمالى اليمن فقد أعلن الحســين اعترافه وتبعيته للسيادة العثمانية ، كما تعهد فى نفس الوقت بأن يدفع سنويا للباب العالى مبلغا من المال قدر بتسعين ألف ريال (٧) ·

وقد بادرت الدولة العثمانية بتأييد الحسين فى حكم البلاد اليمنية التى تسلمها من المصريين ، حتى يحفظ لها على أقل تقدير سيادتها الاسمية عليها الى أن تحين الفرصة المناسبة لاخضاعها لسيطرتها الفعلية · وأرسل السلطان العثمانى عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) تأييده للحسين (٨) عن طريق حاكم

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 53.

(٢) صلاح البكرى : فى جنوب الجزيرة العربية ، ص ١٦ ·

(٣) امين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٢٣٦ ·

(٤) عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ ـ ١٨٤٠ ، ص ١٠٣

(٥) I.O., B. 209, Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January, 1873, p. 12.

(٦) Playfair, R.L. : A History of Arabia Felix or Yemen, p. 165.

(٧) امين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ·

(٨) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 111.

جدة وأمير مكة مشترطا أن تكون الخطبة « للخليفة العثماني » على منابر المساجد اليمنية . كما أطلق الباب العالى على الحسين لقب « حاكم اليمن حسين باشا » وذلك فى سنة ١٨٤٣ (١) حتى يطبعه بالطابع العثمانى الذى يرمز الى تبعيته للدولة . وكان طبيعيا أن يتلقى الحسين هذا التأييد العثمانى بالقبول والرضا لأن ذلك سيدعم مركزه أمام أعدائه ومنافسيه ، كما سيمكن لنفوذه أن يقوى فى المنطقة التى يحكمها .

على أن الحسين الذى استقر فى مدينة الحديدة وأخذ ينظم شئونها ، قد بدأ يوسع حدود المنطقة التى يحكمها فى تهامة . اذ استولى على مخا ، وزبيد ، وحيس ، حتى امتد نفوذه من المخلاف السليمانى فى الشمال الى ميناء مخا فى الجنوب على الساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر (٢) . وفى مدينة أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى شيد الحسين قلعته المعروفة باسم « نجران » التى وصفت بأنها من أمنع المعاقل فى تهامة ، كما كانت تشتمل على أربعين منزلا على أحسن نسق بلغه فن العمارة اليمنية حينذاك ، وقد حصنها بثلاثة أبراج مجهزة بالمدافع ونقل اليها تحفا ثمينة ومكتبة تحتوى على ثلاثمائة مجلد (٣) .

وعلى الرغم من أن الحسين حاول القيام بالمهمة الملقاة على عاتقه خير قيام ، فانه لم يسلم من المخاطر التى سببها له ذلك الصراع المستمر بين المتنافسين على الامامة الزيدية فى صنعاء ، واستعانة كل منهم بحشود القبائل الطامعة فى السلب والنهب للانتقام من أعدائه ، ثم رغبة من يستأثر منهم بالامامة بمد سيطرته على أملاك الحسين فى تهامة والمخلاف السليمانى باعتبارها كانت تابعة لأسلافهم من الأئمة السابقين . بل ان أشراف عسير كانوا يطمعون أيضا فى ملك الحسين فى تهامة ولم يكن تعاونهم معه فى محاولة اجلاء المصريين عن المنطقة ليسلموها اليه لقمة سائغة ، بل ليسيطروا عليها بعد أن يطيحوا بحكمه . وقد التجأ الامام الزيدى محمد بن يحيى بن المنصور الى الحسين فى تهامة ، يرجو مساعدته ضد منافسه الامام المهدى عبد الله بن المتوكل أحمد فى صنعاء . ورأى الحسين فى الاستجابة الى مساعدة ابن يحيى ما يحقق أهدافه التوسعية فى المنطقة الجبلية التابعة للأئمة الزيديين ، فجند قواته لمناصرة ابن يحيى (٤) وشغل بذلك عن تنفيذ الفكرة التى كانت تراوده فى ذلك الوقت بغزو عدن وطرد البريطانيين منها بعد أن فشلت المحاولات العربية الأخرى لاستعادتها .

---

(١) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 14.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 100, 101.

(٣) محمد بن احمد عيسى العقيلى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٤) Playfair, R.L : Op. cit., pp. 150, 151.

بل ان الحسين قد شغل فى نفس الوقت باخماد تمرد قبيلتى « القحرية » و « أسلم » حتى أخضعها لطاعته (١) ٠ وقد تمكن ابن يحيى بمساعدة قوات الحسين من الانتصار على منافسه ودخول صنعاء والاستئثار بالامامة ٠ وأهدى ابن يحيى الى الحسين مكتبة تشتمل على مخطوطات كانت فى حوزة منافسه المهدى (٢) . وكان الحسين شغوفا بالكتب النادرة فأضافها الى مجموعته الثمينة ٠

وتجدر الاشارة الى أن الحسين فرض ضرائب باهظة على التجار والأهالى فى المناطق التابعة له بحجة أنه يقوم باعداد جيش كبير يهاجم به عدن لينتزعها من أيدى البريطانيين ٠ وقد ضاق الأهالى بعبء هذه الضرائب وبدءوا يفرون من مخا والحديدة متجهين الى عدن ٠ وقد انتشرت فى عهده الأمراض فى اليمن مما جعله يخشى على رجاله ويصدر أوامره لجميع السفن الراسية فى مخا والحديدة بافراغ شحناتها ونقل المرضى فقط الى عدن ٠ وقد بلغ معدل الداخلين الى عدن شهريا حوالى ألف ومائتين من سكان تهامة ٠ وقد ترتب على ذلك أن ازداد تعداد السكان فى عدن وبدأت المدينة تتوسع لتستقبل المهاجرين والتجار والداخلين اليها حتى بلغ عدد منازل المدينة ألفى منزل بنيت من الحجارة والطين فوق بقايا مدينة عدن القديمة ٠ وفى سنة ١٨٤٢ بلغ تعداد سكان عدن خمسة عشر الف نسمة وانتعشت المدينة واستعادت بعض مجدها الغابر ، خاصة بعد أن أصبحت ميناء حرا مفتوحا للتجارة فى سنة ١٨٥٠ ، وقد أجرى احصاء رسمى لسكان عدن فى سنة ١٨٥٦ ووجد أن تعداد السكان حينذاك قد بلغ ٢٠٫٦٥٤ نسمة ٠ وفى سنة ١٨٧٢ أجرى احصاء آخر فى عدن أظهر مدى التزايد المستمر فى تعداد السكان الذى بلغ حينذاك ٢٩٫٢٨٩ نسمة ٠ وكان تعداد الجنود بينهم ٣٫٤٣٣ ، أما بقية السكان فكان بينهم ٨٫٢٤١ يمنيا ، و ٤٫٣٤٦ صوماليا ، و ٢٫٦١٤ هنديا مسلما و ١٫٤٣٥ يهوديا ، و ٨٥١ هنديا من البانيان غير المسلمين ، و ١٨٢ بريطانيا مدنيا ٠ أما الباقون فكانوا من الأتراك والايرانيين والمصريين والأكراد والصينيين وبعض الأوروبيين ، وأمريكى واحد فقط ٠ وكان ذلك الأمريكى هو « المستر وليم لوكرمان » الذى كان يشتغل بالتجارة ٠ وقد عينته حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قنصلا فخريا فى عدن فى سنة ١٨٧٩ ، غير أن القنصلية الأمريكية الرسمية أنشئت فى سنة ١٨٩٥ ، وكان القنصل الرسمى فى عدن حينذاك هو « مستر ماسترسن » (٣) ٠

---

(١) محمد بن احمد عيسى العقيلى : نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٤ ٠

(٢) عبد الواسع الواسعى ٠ تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ص ٢٣٠ ٠

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ٠

على أن الحسين لم يتعم بالاستقرار فى تهامة فى ظل اعترافه بالسيادة العثمانية ، اذ أراد الامام محمد بن يحيى امام صنعاء أن يضم الى منطقة نفوذه بعض البلاد التى استولى عليها وعين لحكمها عمالا من قبله . وكانت وجهة نظر ابن يحيى أنه صاحب الحق الشرعى فى هذه البلاد التى كانت تضم تعز والجند وغيرها ، وأن الظروف قد اضطرته الى الاستعانة بالحسين الذى كان أسلافه تابعين لأئمة صنعاء . كما رأى أنه قابل جميل الحسين بالمثل عندما أرسل اليه هدية الكتب ، وعلى الحسين أن يسحب جنوده من تلك البلاد لتعود اليه بعد أن أصبح اماما لصنعاء (١) . وقد اتصل ابن يحيى بالعناصر المناوئة للحسين فى تهامة ، وتعاون معهم فى مهاجمة جيش الحسين الذى اخذت خيانة الهمدانيين تفرق صفوفه ، نظرا لولائهم للامام الزيدى .

وقد حاول الامام محمد بن يحيى أن يعقد معاهدة للصلح وتبادل التجارة مع البريطانيين فى عدن ، وكان يأمل فى الحصول على معونة بريطانية لمواجهة الشريف الحسين بن على بن حيدر ، غير أن ذلك لم يتحقق (٢) . وعلى أية حال فقد انتهى الأمر بهزيمة الحسين ووقوعه أسيرا فى قبضة ابن يحيى ، فتنازل له عن أملاكه لقاء تأمينه واطلاق سراحه . وفى ذلك الوقت حاول محمد بن الحسين أن يستعين بالأمير عائض حاكم عسير لتخليص والده من الأسر . غير أن « عائض » هذا تخاذل عن نصرة الحسين ، بل انه اغتنم هذه الفرصة واخذ يستعد لضم تهامة الى منطقة نفوذه فى عسير . وأخيرا استطاع أخوة الحسين أن يخلصوه من الأسر بعد أن استعانوا برجال قبائل يام اليمنية ، وهاجموا القوات الامامية فى زبيد ، وتمكنوا من السيطرة عليها فى سنة ١٨٤٨ (١٢٦٤ هـ) (٣) وهكذا انسحبت قوات الامام الزيدى الى صنعاء دون أن تحقق بغيتها من السيطرة على تهامة ، بينما عاد عائض أيضا الى عسير دون أن يحقق أهدافه .

وقد أثرت تلك الأحداث مجتمعة فى نفسية الحسين أبلغ تأثير مما جعله يزهد فى ملكه المضطرب . فقرر أن يستنجد بالسلطان العثمانى عبد المجيد عله يعيد الى البلاد حالة الأمن والاستقرار التى سبق أن نعمت بها فى ظل الادارة المصرية ، وحتى يعود للمنطقة نشاطها التجارى من جديد (٤) . ولهذا طلب من الباب العالى ارسال من يتسلم منه المنطقة اليمنية التى يحكمها ، باعتبارها أمانة فى عنقه يعيد أمرها الى الخليفة (٥) ، بعد أن عجز عن احتمال عبء المحافظة

---

(١) محمد بن أحمد عيسى العقيل : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٦ .
(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 102.
(٣) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ .
(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 102.
(٥) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

عليها . كما أن تجار تهامة وأعيانها ، وخاصة المقيمين منهم فى الحديدة ، طالبوا السلطان العثمانى بالتدخل لاقرار الأمور فى اليمن (١) ، بعد أن كسدت متاجرهم ونهبت أموالهم أثناء المعارك التى دارت رحاها بين قوات الحسين التهامية والقوات الامامية المهاجمة والطامعة فى السلب والنهب والتخريب .

وكان من الطبيعى أن يتلقى السلطان العثمانى عبد المجيد مطلب « حاكم اليمن حسين باشا » وتجار تهامة وأعيانها بالقبول والرضا ، اذ اعتبر ذلك فرصة لا تعوض بالنسبة للدولة لاعادة فرض سيطرتها الفعلية على اليمن (٢) . لهذا أصدر الباب العالى أوامره الى نائبه فى الحجاز توفيق باشا ، والى أمير مكة محمد بن عون بسرعة التحرك الى اليمن على رأس قوة عثمانية ضاربة أبحرت من ميناء جدة وكان قوامها ثلاثة آلاف من الجنود المشاة والفرسان . وقد وصلت الحملة العثمانية الى ميناء اللحية اليمنى ، واتجهت بعد ذلك الى الحديدة حيث استقبلها الحسين مرحبا مستبشرا ، وذلك فى ١٩ أبريل سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥) (٣) .

ولم يكد امام صنعاء محمد بن يحيى يعلم بوصول القوات العثمانية الى الحديدة حتى قرر ألا ينفرد خصمه الحسين بالتزلف للعثمانيين والاعتماد عليهم فى تدعيم حكمه فى تهامه والمخلاف السليمانى بالدرجة التى تجعله يشكل خطرا على الامامة الزيدية فى المستقبل ، كما أراد أن يفوت الفرصة على منافسه فى الامامة على بن المهدى حتى لا يستعين بالعثمانيين لنصرته عليه فتئول له الامامة فى صنعاء . ولهذا سارع محمد بن يحيى الى الاتصال بالعثمانيين مرحبا بقدومهم الى اليمن ، بل انه ذهب لاستقبالهم عند أطراف المنطقة الجبلية المواجهة لتهامة (٤) . واتفق مع قائدهم ، دون مشاورة لزعماء القبائل الزيدية ، على أن يصحبه الى صنعاء ليستعين بما لديه من قوات فى اخماد القلاقل الداخلية . وأخيرا قدم الامام محمد بن يحيى الى صنعاء مصطحبا توفيق باشا « ضيف الاحتلال » وكتائبه العثمانية حيث أنزلهم فى قصر غمدان (٥) . وهكذا تمكن العثمانيون من دخول مدينة صنعاء فى سنة ١٨٤٩ دون أن تلقى قواتهم أية مقاومة تذكر (٦) .

غير أنه أثناء غياب الامام محمد بن يحيى عن صنعاء عند قيامه باستقبال

---

(١) عبد الله الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٨٨ .
(٢) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 150, 151.
(٣) حسين بن احمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، ص ٧٢ .
(٤) عبد الله الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
(٥) احمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين ، ص ٢٦٦ .
(٦) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 111.

الترك على حدود تهامة ، فقد استطاع منافسه فى الامامة على بن المهدى أن يجمع من حوله عددا كبيرا من رجال القبائل اليمنية ويحرضهم على مهاجمة صنعاء ٠ وقد اغتنم على بن المهدى فرصة استقبال خصمه للأتراك وتسليمهم مدينة صنعاء ، وأخذ يشعل نار الثورة ضده بين القبائل اليمنية معلنا أن ابن يحيى باع اليمن وأهله للأتراك الدخلاء (١) ٠ وزاد من تفاقم الموقف أن أهالى صنعاء أنفسهم أنكروا على ابن يحيى فعلته أشد الانكار ، وشاركوا القبائل اليمنية ثورتها على العثمانيين ٠ ولهذا انهمرت سيول القبائل اليمنية على مدينة صنعاء من كل جانب ، وضاعف من حماستهم ما كان ينتظرهم من المغانم داخل المدينة ، فاكتسحوا تحصينات الدفاع وأبادوا معظم رجال الحملة العثمانية ٠ أما بالنسبة لأهالى صنعاء فقد أوضح الواسعى دورهم فى مقاومة العثمانيين بقوله : « قام أهل صنعاء قومة رجل واحد على حين غفلة فأبادوا الأتراك قتلا ، ولم يسلم منهم الا من كان ملتجئا فى القصر أو فى بستان السلطان ، وسبب ذلك — كما سمعت والله أعلم — أن اليوم الأول كانت العساكر تمر فى الشوارع وتقول هذا البيت غدا نأخذه وهذه الحرمة نأخذها » (٢) ٠

وقد انتهت تلك الأحداث بخروج العثمانيين من صنعاء وانسحابهم الى الحديدة (٣) ، بينما اقتحم رجال القبائل وأهالى صنعاء الثائرين قصر الامام محمد ابن يحيى ، واقتادوه أسيرا الى امامهم الجديد على بن المهدى ، الذى أمر بحبسه ثم اعدامه ٠ بل ان هؤلاء هاجموا بيوت أتباع محمد بن يحيى ، وكان من بينهم أحد العلماء وهو عبد الرحمن بن محمد العمرانى الذى كان ناظرا للأوقاف فى صنعاء فنهبوا داره وبددوا مكتبته الثمينة التى حوت ما يقدر بألف من المخطوطات النادرة (٤) ولهذا كان وصول الأتراك العثمانيين الى صنعاء فى سنة ١٨٤٩ سببا فى خلع أحد الأئمة وتنصيب امام آخر ، كما ترتب على مقاومتهم واخراجهم من تلك المدينة أن تعرضت فى نفس الوقت للخراب والدمار بعد أن عاثت فيها القبائل سلبا ونهبا ٠ وحولت شوارعها الى ميادين للقتال ٠ ولقد أشار الى ذلك « سلفادور أبونتى » بقوله : « عندما دخل الألف وخمسمائة رجل من (العثمانيين) الذين استحضرهم (الامام محمد بن يحيى) فى صنعاء ، هاج الشعب اليمنى واشتد غضبه فارتكب الكثير من أعمال العنف وسالت الدماء أنهارا ، وغزا العاصمة وهدمها على من فيها وقتل الامام شر قتلة ، وبذلك سقطت البلاد فى الفوضى وعم الفساد » (٥) ٠

---

(١) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٢ ٠

(٢) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ ٠

(٣) Scott, H. : In the High Yemen, p. 228.

(٤) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ح ١ ، ق ٢ ، ص ٣٨٨ — ٣٨٩ ٠

(٥) سلفاتور ابونتى : مملكة الامام يحيى (ترجمة عن الايطالية طه فوزى) ، ص ٥٣ ٠

أما بالنسبة للحسين بن على بن حيدر فقد تعاون مع العثمانيين الذين عادوا الى تهامة واستقروا فيها بعد انسحابهم من صنعاء ، وكانوا قد اتخذوا مدينة الحديدة مركزا لهم لسهولة الاتصال بينها وبين موانى الحجاز حتى يمكنهم تلقى الامدادات والمؤن اللازمة من هناك • وقد وجه القائد العثمانى توفيق باشا قوة من رجاله تحت قيادة الحسين لاخضاع قبيلة أسلم ، وقد نجح الحسين فى مهمته ، غير أنه أراد أن يبتعد عن الاشتغال بأمور الحكم فتوجه الى مسقط رأسه فى مدينة أبى عريش ، حيث أقام فى قصره المعروف « بنجران » • وأخيرا أصدر الباب العالى أوامره بترحيل حسين باشا الى الآستانة حيث تقرر له هناك راتب شهرى ، ثم خير فى الاقامة فى أى بلد من بلدان الدولة ، ففضل الاقامة فى مكة التى مكث فيها حتى توفى فى سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣ هـ) (١) •

وهكذا لم تتمكن حملة العثمانيين التى وصلت الى اليمن فى سنة ١٨٤٩ من السيطرة على صنعاء واقامة حكم عثمانى مستقر فيها ، رغم المساعدات التى قدمها الحسين بن على بن حيدر للعثمانيين فى تهامة ، والتسهيلات التى هيأها لهم الامام الزيدى محمد بن يحيى حتى أدخلهم صنعاء دون مقاومة • وقد استطاعت القبائل اليمنية التواقة للسلب والنهب ، والتى ألهبتها دعايات على بن المهدى ضد منافسه الامام محمد بن يحيى بأنه باع اليمن « للأتراك الأجانب » حتى يتمكن بذلك من خلعه من الامامة والاستحواذ عليها لنفسه ، الى جانب ثورة أهالى صنعاء العنيفة ضد الأتراك الدخلاء الذين لم يراعوا حرماتهم ولم يحترموا مقدساتهم ، استطاعت هذه وتلك أن ترد العثمانيين عن صنعاء بعد أن قضت على معظم قواتهم •

ولهذا عاد العثمانيون الى تهامة يجرون أذيال الخيبة والفشل ، وقنعوا بالاقامة فى الحديدة ومنطقة الساحل اليمنى القريبة من مراكزهم فى الحجاز ، بعيدين عن جبال اليمن الوعرة فى طبيعتها ورجالها ، ومشاكلها • على أن تلك الحملة كانت تجربة مفيدة للعثمانيين ، وتقييما لما يلزمهم من رجال وعتاد وظروف مناسبة لفرض سيطرتهم الفعلية على اليمن • ولهذا سيعاود العثمانيون الكرة من جديد فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) وهم أكثر قوة ودراية واستفادة من الظروف وخاصة بعد أن سهل عليهم الاتصال المباشر بين بلادهم وتلك المناطق عقب فتح قناة السويس المصرية للملاحة البحرية فى سنة ١٨٦٩ ، ما سيمكنهم من دخول صنعاء واقامة حكم عثمانى فيها استمر حتى هزمت دولتهم فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ (٢) •

وقد حاول العثمانيون أثناء وجودهم فى تهامة فى الفترة الممتدة بين

---

(١) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٢ •

(٢) فاروق عثمان أباظه : الحكم العثمانى فى اليمن ، ١٨٧٢ ــ ١٩١٨ ، رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ٣٤ •

عامى ١٨٤٩ – ١٨٧٢ أن يقنعوا امام صنعاء باعلان تبعيته للسلطان العثمانى فى مقابل مرتب سنوى يدفع له . غير أن ثمة عقبات كانت تحول دون عقد اتفاق بين العثمانيين وامام صنعاء أهمها كراهية الامام وأتباعه الزيديين للأتراك السنيين . كما أن العشائر اليمنية رغم اعترافها بتبعيتها للامام وخاصة العشائر الزيدية ، فان كل عشيرة كانت تعتبر نفسها وحدة مستقلة قائمة بذاتها ، مما صعب على الترك مهمة التأثير عليها ، للانضواء تحت السيادة العثمانية (١) .

ثالثا – موقف البريطانيين فى عدن ازاء حكم الشريف الحسين فى تهامة (١٨٤٠ – ١٨٤٩) :

يهمنا الآن أن نوضح موقف البريطانيين فى عدن ازاء الشريف الحسين ابن على بن حيدر حاكم المخلاف السليمانى بشمالى اليمن الذى ورث حكم المصريين فى تهامة اليمن عقب جلائهم عنها فى سنة ١٨٤٠ ، واستمر حكمه فيها حتى سنة ١٨٤٩ . اذ انه بتولى الشريف الحسين حكم تهامة فى ظل تبعيته الكاملة للسيادة العثمانية فان ذلك قد أدى الى اتساع الرقعة التى تدين بالولاء للنفوذ العثمانى فى سواحل البحر الأحمر وخاصة فى الساحل اليمنى المطل على هذا البحر والمجاور مباشرة لمنطقة عدن . وكان ذلك يشكل تهديدا للمصالح البريطانية فى عدن والبحر الأحمر لدرجة سجلها المبعوث البريطانى « الملازم باركر Lieutenant Barker » الذى زار منطقة البحر الأحمر فى مطلع العقد الخامس من القرن التاسع عشر عندما أوضح أن أية محاولة لعقد معاهدة مع زيلع المواجهة لعدن على الساحل الافريقى عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر والتى كانت تابعة حينذاك لمخا ، ستكون عديمة الجدوى طالما ظل الحسين يتولى زمام الحكم فى مخا وفى تهامة اليمن كممثل للسيادة العثمانية .

بل ان « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن اقترح على حكومة الهند البريطانية بذل جهودها بما يؤدى الى وضع ميناء مخا تحت السلطة الشرعية للامام الزيدى فى صنعاء (٢) ، خاصة وأن الامام كانت لديه القوة الكافية لاستعادتها من قبضة الحسين اذا ما أيدته بريطانيا وقدمت اليه بعض المساعدات . وكان المقيم السياسى البريطانى « هينز » يرى أن الامام لا يشكل خطرا على البريطانيين فى عدن ، أو على مصالحهم الحيوية فى البحر الأحمر

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 151, 152.

(٢) I.O., B. 8, Confidential, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea and the whole of Arabia, and on the Egyptian claim to the whole of the Western shore of the same sea, including the African Coast from Suez to Cape Guardafui, printed for the use of the Foreign Office, Hertzlet, March 10, 1874, p. 14.

حينذاك ، وقد بعث « هينز » برسالة الى امام صنعاء يبلغه فيها باستيلائه على عدن وضمها تحت العلم البريطانى وذلك فى مطلع عام ١٨٣٩ ، غير أن الامام لم يجب على هذه الرسالة . وفى نفس الوقت بعث « هينز » برسالة مشابهة الى محمد على فى مصر . وقد ذكر حمزة على ابراهيم لقمان فى كتابه أن « محمد على » أجاب على « هينز » بقوله : « انك أخـــذت عين اليمن فى يوم واحد ، بينمـــا قضيت أنا أعواما كثيرة أحاول امتلاكها دون جدوى » (١) . ورغم أن هـــذا القول يوضح حقيقة موقف محمد على ، غير أننى لا أعتقد أن مثل هذا التصريح المكشوف يمكن أن يصدر عنه ، خاصةوأننى لم أعثر على هذا النص بين الوثائق المصرية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، فضـــلا عن أنه يتناقض مع تصريحات محمد على السابقة التى أكد فيها للساسة البريطانيين أنه لم يكن يفكر حينذاك فى التوسع خارج حدود البحر الأحمر ولا ينبغى امتداد أملاكه فى شرق صنعاء (٢) ، حتى لا يثير حفيظة البريطانيين ضده أثناء نزاعه المعروف مع الباب العالى .

أما بالنسبة لموقف الشريف حسين بن على بن حيدر حاكم تهامة ازاء البريطانيين فى عدن فقد تميز بعدائه الواضح لهم . ويرجع السبب فى ذلك الى تأثره كثيرا بالدور الذى لعبته السياسة البريطانية فى التآمر ضد محمد على مما جعله لا يأمن جانبهم . ولهذا فقد رفع نسبة الضرائب على البضائع البريطانية فى ميناء مخا حتى بلغت ٧٪ من قيمتها . كما أهان الرعايا البريطانيين فى مخا ورفض ارسال المؤن اللازمة الى عدن . بل انه ذهب الى أبعد من ذلك عندما انزل العلم البريطانى عن مبنى الوكالة البريطانية فى مخا (٣) ، وأرسل خطابا الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ اتهم فيه عبد الرسول وكيل البريطانيين فى مخا بانه « كاذب ومنافق » ، كمـــا اتهم البريطانيين بأنهم يعملون على تخفيض الضرائب بما يؤثر تأثيرا سيئا على دخل حكومته (٤) .

وعندما علمت حكومة لندن وخاصة وزارة الخارجية البريطانية ، عن طريق « مجلس شئون الهند India Board » الذى كان يدير شـــئون شركة الهنـــد الشرقية البريطانية فى لندن ، بالتصرفات العدائية التى قام بها الشريف حسين حاكم تهامة ضد الوكالة البريطانية والعلم البريطانى فى مخا ، فقد ثارت ثورة عارمة حفاظا على المصالح البريطانية فى البحر الأحمر . ولما كانت وزارة الخارجية البريطانية لا تعلم حقيقة الأوضاع القائمة فى المنطقة واســـتنادا الى أن كل

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 99.

(٣) F.O., 78/3/85, Haines to Secret Committee, 9/14/40.

(٤) Marston, T.E. : Ibid., p. 102.

ما فتحه محمد على فى الجزيرة العربية قد آل الى الدولة العثمانية ، فان الوزارة قد احتجت على الباب العالى فى الاستانة (١) ٠ وقد سارع الباب العالى الى ارسال أشرف بك الى مخا لاقرار الأمور بالنسبة لما يتفق والمصالح البريطانية ، وقد مر بمصر أثناء توجهه الى مخا فى شهر مارس سنة ١٨٤٢ (٢) ٠ كما أحيط « هينز » رسميا بالخطوات التى قامت بها الحكومة العثمانية فى هذا الشأن وذلك فى شهر مايو من نفس السنة ، بل انه قد أبلغ أيضا بمعلومات اضافية تفيد بأن أشرف بك قد أعطى تعليمات بأن يعزل شريف مخا الحسين بن على بن حيدر (٣) ، اذا استدعت الضرورة ذلك ٠

وعندما علم « هينز » باحتجاج الحكومة البريطانية على الباب العالى نتيجة لتصرفات شريف مخا ، فقد أعرب عن دهشته من تصرف حكومته نظرا لأن ذلك يعنى اعترافها رسميا بسيادة الدولة العثمانية على موانى البحر الأحمر ٠ وقد أوضح « هينز » ذلك فى برقية بعث بها لحكومته فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٤٢ مؤكدا أن مخا كانت دائما تابعة لامام صنعاء ، حتى أنه فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر عندما كان للبريطانيين وكالة فى مخا فقد كان التعامل كله بشأنها مع امام صنعاء وحكومته ، حتى تمكنت قوات محمد على من السيطرة على المدينة التى سلمتها بعد ذلك للشريف حسين بن على بن حيدر (٤) ٠ وقد قامت حكومة بومباى بالاحتجاج بشدة على حكومة الهند على التصرف الذى قامت به وزارة الخارجية البريطانية ٠ وقد كانت هذه الحادثة نقطة البداية بالنسبة لاثارة مشكلة سيادة العثمانيين فى منطقة البحر الأحمر التى ستصبح فى غاية الأهمية عندما تثار من جديد وتحتدم فى سنة ١٨٣٧ ٠ وعندما تنبهت الدوائر الدبلوماسية فى بريطانيا للخطأ الذى ارتكبته فقد عملت على تجاهل موضوع السيادة العثمانية ليكون فى طى الكتمان ٠ اذ كان من الممكن أن تتخذ الحكومة العثمانية من حادثة الاحتجاج تلك دليلا على حقها فى السيادة على منطقة البحر الأحمر ، غير أن سجلات وزارة الخارجية العثمانية كانت من سوء الترتيب لدرجة أن ذلك الاحتجاج البريطانى لم يعثر عليه خلال احتدام مشكلة السيادة فى سنة ١٨٣٧ فكان ذلك فى صالح البريطانيين (٥) ، نظرا لأن وجود مثل هذا البرهان كان من شأنه أن يدعم المطالب العثمانية ، عقب عودة العثمانيين الى اليمن وسيطرتهم على صنعاء فى سنة ١٨٧٢ ٠

أما بالنسبة لمهمة المبعوث العثمانى أشرف بك فى مخا فقد وصل اليها فى شهر أكتوبر سنة ١٨٤٢ ٠ وقد بعث اليه « هينز » بسلسلة من المطالب

---

(١) I.O., B.S.C., 1842, Government of India to Bombay, 2/28/42. enclosing Aberdeen to Fitzgerald, 12/22/41.

(٢) F.O., 78/502. Barnett to F.O., 3/20/42.

(٣) I.O., B.S.C., 1842, Government of India to Bombay, 5/16/42.

(٤) I.O., B.S.C., 1842, Haines to Bombay, 6/27/42.

(٥) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 104, 105.

ضد الشريف الحسين بن علي بن حيدر أهمها عزله ، وفتح موانى مخا والحديدة وغيرها للتجارة البريطانية ، والمحافظة على حسن معاملة الرعايا البريطانيين واحترام الوكالة البريطانية هناك • وقد انتهت زيارة أشرف لمخا بتأكيدتبعية الشريف الحسين بن علي بن حيدر السلطان العثماني • وقد رفض أشرف بك التباحث مع أى مسئول بريطاني فى عدن ، بل ان البريطانيين علموا من أحد المسئولين الأتراك فى جدة أن الباب العالى يضع خطة لاسترداد تهامة • كما أكد هذا المسئول التركى فى جدة وهو محمد أغا بك (١) أن عودة القوات العثمانية أو المصرية فى مخا سوف تضعف الحركة التجارية لدى البريطانيين فى عدن •

وكان طبيعيا أن يتحول موقف البريطانيين من بعثة أشرف بك من الانتظار والتطلع المتفائل الى الاحتجاج ، خاصة بعد أن أصدر الباب العالى عدة فرمانات لتثبيت الحسين بن علي بن حيدر فى مخا واعلانه « باشا » على موانى تهامة وتعز وما حولها (٢) •

وجدير بالذكر أن امام صنعاء محمد بن يحيى عرض على المقيم السياسى البريطانى فى عدن اقامة تعاون بينهما ضد الشريف حسين حاكم تهامة ، وذلك فى مقابل تسوية موضوع السيادة على زيلع التى تتحـــكم فى الطريق الى « شوا Shoa أحد أقاليم الحبشة ، وكانت زيلع حينذاك تابعة لمخا • وقد رحبت حكومة بومباى بهذا العرض نظرا لأهمية زيلع من جهة ، كما كانت ترغب تلك الحكومة فى معاقبـــة الشريف حسين على مواقفـــه العدائية ازاء البريطانيين • بل ان « الكابتن هاريس Captain Harris » كان قد أكـد لحكومة الهند التى بعثته الى زيلع ، القيمة الكبيرة لضم هذه المدينة ، غير أن تلك الحكومة آثرت التريث حينذاك ولم تكن ترغب فى اقحام نفسها فى المنازعات المحليـــة حتى لا تتحمل أعباء جديدة •

ولهذا فان المقيم السياسى البريطانى « هينز » لم تكن لديه تعليمات بعقد اتفاق مع امام صنعاء للتعاون عسكريا ضد الشريف حسين حاكم تهامة ، وهذا قد جعله يرد محاولتين من جانب الامام لطلب التعـــاون ، غير أنه عرض على الامام أن يفتح ميناء عدن لتصدير البن اليمنى بدلا من تصديره عن طريق مخا • بل ان المقيم الســـياسى البريطانى « هينـــز » أخطر المجلس السرى The Secret Board لشركة الهند الشرقية البريطانية فى ١٠ أبريل ســـنة ١٨٤٢ بان امام صنعاء عاد مرة أخرى وعرض عليه تعاون بريطانى يمنى لحصار مخـــا فى مقابل تنازل الامام لبريطانيا عن تهـــامة بعد تخليصـــها من حكم

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 107.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 108.

الحسين (١) • وقد وصل الأمر بالامام الى هذا الحد نكاية بالحسين نظرا لأنه لم يكن قادرا على التغلب عليه حينذاك •

وفى نفس الوقت وجه الشريف حسين ضربة اقتصادية ضد البريطانيين في عدن عندما هبط بالضريبة الجمركية على البن المصدر من مخا على السفن الأمريكية الى ٣٪ فقط ، بل انه تنازل أيضا عن رسوم الرسو فى الميناء فى سنة ١٨٤٢ • وكان يهدف من وراء ذلك الى توجيه عمليات تصدير البن الى مخا بدلا من عدن حتى أنه أقنع « مستر ويب Mr. Webb » قائد السفينة الأمريكية « راتلر Rattler » بأخذ شحنات البن اللازمة له بصفة دورية من مخا • وكان طبيعيا أن يرحب هذا التاجر الأمريكى باستيراد البن من مخا بدلا من عدن بتلك الشروط المرضية (٢) •

وازاء هذا الموقف فقد رأت حكومة الهند البريطانية أن تسعى من جانبها لاقامة علاقات ودية مع الحسين بن على بن حيدر بعد أن ملك زمام الأمور فى تهامة محاولة استرضاءه • ولهذا أصدرت تعليماتها الى « كابتن مورسبى Captain Moresby » للتقدم تجاه ميناء مخا لمحاولة استرضاء الشريف حسين واقامة علاقات ودية معه • وقد نجح « كابتن مورسبى » فى الاتفاق مع شريف مخا وعقد معه معاهدة تجارية تتفق والمصالح البريطانية فى البحر الأحمر (٣) • وكانت السياسة البريطانية قد اتجهت حينذاك الى اغفال أمر الدولة العثمانية صاحبة السيادة فى سواحل البحر الأحمر ، وشرعت تتحالف مع بعض شيوخ تلك المناطق أو صغار أمرائها وتحصل منهم على صك بالتنازل عن بعض الأماكن التى فى حوزتهم (٤) • وقد تمكنت بريطانيا وبعض الدول الأوربية الأخرى ، من وضع أقدامها فى تلك الأرجاء باتباعها لهذه السياسة على النحو الذى سنوضحه فيما بعد •

وعندما قتل امام صنعاء فى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٩ فقد تعرضت اليمن لحالة من الفوضى والاضطراب ، وتوقفت الطرق المؤدية الى مخا والحديدة • بل ان الضرائب الباهظة التى فرضها الترك فى مخا أدت الى توقف الحركة التجارية بها وتدفقت التجارة بعد ذلك الى عدن فى سنة ١٨٥٠ (٥) ، مما أدى الى زيادة عدد سكانها نتيجة لانتعاشها من الناحية التجارية •

وقد حاول العثمانيون بعد أن استقروا فى تهامة فى سنة ١٨٤٩ أن

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., pp. 103, 105.

(٢) I.O., B.S.C., 1842, Haines to Bombay, 5/31/42.

(٣) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea... etc., pp. 14, 15.

(٤) محمد صبرى (دكتور) : مصر فى افريقية الشرقية ، هرروزيلع وبربره ، ص ١٧ •

(٥) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 152, 153.

يسيطروا على المناطق الساحلية اليمنية بالقوة غير أنهم لم يوفقوا فى ذلك كل التوفيق . بل انهم فشلوا تماما فى السيطرة على ميناءى المكلا والشحر فى ساحل حضرموت ، نظرا لأن الأهالى هناك وضعوا جانبا خلافاتهم المحلية واتحدوا فى مجابهة هذا الخطر ، حتى أبادوا القوة العثمانية المهاجمة فى سنة ١٨٥٠ . غير أن الأتراك نجحوا بعد ذلك فى السيطرة على منطقة الصليف على الساحل اليمنى الشمالى المطل على البحر الأحمر . كما أنهم بذلوا جهودهم للسيطرة على مناطق انتاج البن لتحويل تصديره الى مخا والحديدة بدلا من عدن ، ولكنهم لم يوفقوا فى ذلك نظرا لرفض القبائل الزيدية السيطرة التركية السنية على بلادهم . بل ان الاتراك تعرضوا لمحن مختلفة أثناء وجودهم فى اليمن فى تلك الفترة التى تشبثوا أثناءها ببقائهم فى المنطقة الساحلية حتى تعرض بعض قادتهم لحوادث قتل مريبة على نحو ما حدث لمصطفى صبرى باشا فى سنة ١٨٥١ ، كما أبيدت قوة عثمانية مكونة من الف رجل على يد عشائر عسير بالقرب من ميناء الحديدة من جهة الشمال فى شهر سبتمبر من السنة المذكورة (١) .

ومن الملاحظ فى تلك الفترة أن معظم محصول البن اليمنى أصبح يصدر لخارج اليمن عن طريق عدن حيث يتفادى التجار دفع الضرائب التى كان يفرضها الأتراك فى ميناءى مخا والحديدة ، مما أدى الى اضمحلال الحركة التجارية فيهما ، وأثر ذلك تأثيرا بالغا على اقتصاديات اليمن . وقد حدث ذلك فى الوقت الذى حرص فيه البريطانيون على أن يظل ميناء عدن حرا « Free Port » كما أن الغالبية العظمى من السفن اتجهت الى ميناء عدن وفضلته عن غيره لاعتبارات معينة أهمها أن الرسو فى عدن يوفر على التجار دفع ضريبة قدرها ٥٪ للجمرك التركى بالنسبة للسفن البريطانية أما بالنسبة للسفن غير البريطانية فكان عليها أن تدفع ضريبة قدرها ١٢٪ الى جانب ضريبة أخرى تدفع على كل بالة بن . هذا فضلا عن أن الرحلة فى البحر الأحمر كانت خطيرة نسبيا وكان يمكن تجنبها أو اختصارها اذا ما أتيحت لتلك السفن فرصة الرسو فى ميناء عدن (٢) .

ولا يجب ان نغفل مسئولية الولاة الأتراك عن تدهور ميناءى مخا والحديدة فى سنة ١٨٥١ . اذ ان أساليب الأتراك التعسفية فى الحكم وحصولهم على الأموال من التجار هناك بدون وجه حق قد أدى الى تدهور الميناءين لصالح ميناء عدن الذى ازدادت أهميته . وكان بعض الولاة يأخذون أموالا من التجار على أمل ردها من عائدات الجمارك فى العام التالى ، بل ان بعضهم كانوا يفرضون قروضا بالقوة على بعض التجار فى ميناءى مخا والحديدة . ولما كانت مدة الوالى العثمانى تمتد بين عامين الى ثلاثة أعوام تقريبا فقد كان الوالى يغادر البلاد دون

(١) Marston, T.E. : Ibid., pp. 157, 159.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 159.

أن يسدد ديونه ، فاذا ما جاء خليفته من بعده رفض الاعتراف بديون سلفه فتضيع الأموال على أصحابها - من التجار الذين أصبحوا يفضلون التعامل مع البريطانيين فى عدن (١) ٠

وهكذا تحولت مخا الى مدينة خاملة وأصبحت تجارتها ضئيلة ودخلها تافه ، كما أن القلة الباقية فيها من سكانها كانوا على استعداد للرحيل الى عدن اذا ما سمح لهم بذلك ٠ وكان « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن حينذاك يرقب كل ما يدور عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وفى الموانى الواقعة هناك ٠ وقد أبلغ حكومته فى بومباى فى شهر مايو سنة ١٨٥٢ عن حالة الانهيار التى اعترت ميناء مخا اليمنى (٢) ، مما سيؤدى بالتالى الى زيادة ازدهار النشاط التجارى فى عدن نتيجة لهجرة معظم سكان مخا اليها ٠

وجدير بالذكر أن وجود الأتراك العثمانيين فى ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر كان يثير قلق البريطانيين على مصالحهم فى عدن ٠ وفى شهر فبراير سنة ١٨٥٣ وردت عدة تقارير « لهينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن تفيد بأن الأتراك بقيادة القائد العثمانى محمد باشا سيحاولون مرة ثانية السيطرة على صنعاء بعد أن فشلوا فى تحقيق تلك الغاية فى سنة ١٨٤٩ ٠ وقد وقعت عدة اشتباكات بين الأتراك وامام صنعاء وأدت الى توقف طرق التجارة بعض الوقت حتى هدأت الأمور من جديد وقد بعث امام صنعاء مبعوثا الى الاستانة فى سنة ١٨٥٣ بقصد الحصول على حق ادارة الموانى اليمنية المطلة على البحر الأحمر ، غير أن الباب العالى لم يستجب لهذا الطلب ، الذى رأى الكثيرون أنه كان سيعود على المنطقة بالهدوء (٣) ٠ غير أن ذلك الطلب بطبيعة الحال كان لا يتفق مع وجود العثمانيين فى اليمن وخاصة وأنهم كانوا يتشبثون بالبقاء هناك ٠

رابعا ــ موقف البريطانيين فى عدن ازاء الادارة العثمانية فى الحجاز وتهامة (١٨٤٩ ــ ١٨٦٩) :

لا شك أن وجود البريطانيين فى عدن قد ساعدهم كثيرا فى مراقبة مصالحهم فى الحجاز وتهامة ورعايتها ٠ اذ حدث بعد أن سيطر البريطانيون على عدن أن قامت شركة الهند الشرقية البريطانية بتعيين « مستر أو جلفى » قنصلا بريطانيا فى جدة ، بعد أن حصلت على موافقة وزارة الخارجية على ذلك ، بحيث أصبح مسئولا أمام قنصل بريطانيا العام فى الآستانة ٠ وفى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٤٥ و ١٨٤٩ لم تقم أية سفينة بريطانية بزيارة ميناء جدة ٠

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 158.

(٢) Marston, T.E. : Ibid., p. 162.

(٣) Marston, T.E. : Ibid., pp. 162, 163.

وكانت مصالح البريطانيين فى المنطقة متروكة « لاجولفى » ليديرها بامكانياته وذكائه . وقد اصطدم « أوجلفى » فى سنة ١٨٤٩ بحكومة جدة العثمانية التى كان حاكمها يقضى معظم أوقاته فى مكة تاركا جدة فى يد واحد من أتباعه لم يكن يخضع لأية رقابة .

ومن أهم المشكلات التى كان على « أوجلفى » أن يجد حلا لها تلك الزيادة الملحوظة فى نسبة الضرائب التى كانت تفرضها الادارة العثمانية فى جدة على البضائع البريطانية . ولهذا فقد طالب الادارة العثمانية بتخفيض نسبة الضرائب ، وبعدم المغالاة فى أسعار البضائع ، كما طالب بدفع تعويض عن استيلاء الأتراك قبل ذلك بعامين على سفينة بريطانية . بل ان أوجلفى طالب الادارة العثمانية فى جدة أيضا بعدم فرض قروض اجبارية على تجار جدة بالقوة (١) وكان بينهم عدد كبير من التجار الهنود .

وبناء على التقارير التى رفعها « أوجلفى » الى حكومته باعتباره قنصلا بريطانيا فى جدة ، فقد سارع « بالمرستون » باصدار تعليماته الى سفيره « كاننج » فى الاستانة لكى يخبر الباب العالى بأنه اذا لم يكن قادرا على احقاق الحق بالنسبة للرعايا البريطانيين فى جدة ، فان بريطانيا تعرف كيف تفعل ذلك حفاظا على مصالحها ومصالح وممتلكات رعاياها (٢) . وفى مطلع سنة ١٨٥١ نقل الأتراك العثمانيون الشريف محمد بن عون حاكم مكة وولديه عبد الله وعلى من الحجاز الى مصر ، وتركوا البلاد فى حالة من الفوضى والاضطراب نتيجة لعدم استقرار الادارة العثمانية هناك .

ورغم عدم استقرار الأحوال فى الحجاز فان العثمانيين كانوا متشبثين بالبقاء فى الموانى اليمنية وكانت الادارة البريطانية فى عدن على علم تام بالأوضاع القائمة فى الحجاز حينذاك . ورغم أن الهدوء الظاهرى كان يسود المنطقة بين آونة وأخرى ، فان ما تحت السطح كان يوحى بحدوث انفجار فى وقت قريب ، خاصة وأن ثمانية آلاف جندى من قوات الوالى العثمانى فى الحجاز قضوا عاما كاملا دون أن يتقاضوا مرتباتهم ، مما يظهر مدى تدهور الادارة العثمانية هناك .

وعندما كانت حرب القرم على وشك الوقوع ، فقد كان لهذه الحرب صداها فى الحجاز . وقد أراد « كابتن هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن أن ينقذ أرواح الرعايا البريطانيين والأجانب المسيحيين فى جدة بنقلهم منها فى الوقت المناسب . ولهذا أرسل السفينة الحربية البريطانية « الفنستون » الى جدة لحماية المصالح البريطانية هناك (٣) مما يظهر الدور الذى كان يلعبه

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 157, 158.
(٢) Marston, T.E. : Ibid., p. 158.
(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 163.

البريطانيون فى سواحل البحر الأحمر انطلاقا من وجودهم فى عدن ، التى تشرف على مدخله الجنوبى وتتحكم فيه .

أما بالنسبة لأحداث الحجاز فقد ثارت العشائر العربية منتهزة فرصة الحرب العثمانية الروسية حينذاك ، بل لقد انضم اليها كثيرون من أفراد القوة العثمانية الذين لم يتسلموا رواتبهم منذ عام مضى وقد بدأت عمليات الثورة والتمرد هذه على حكم الأتراك فى الحجاز فى شهر يونيو سنة ١٩٥٤ واضطر الوالى الى استخدام القوة لاخمادها . وقد حدث فى اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٥ أن أعلن قاضى مكة فرمانا بمنع تجارة الرقيق هناك . وعندما أكد أهالى مكة ضرورة تنفيذ الفرمان فانهم هجموا عليه وكادوا أن يفتكوا به ، ولم ينقذه منهم سوى الجنود العثمانيين (١) وعندما صعد مؤذن يدعو المسلمين فى مكة للصلاة أصابه أحد الجنود العثمانيين برصاصة من بندقيته فارداه قتيلا الأمر الذى أثار حفيظة الأهالى وسخطهم على الادارة العثمانية . وعندما علم الشريف عبد المطلب بهذه الأحداث هرع من الطائف الى مكة ، غير أنه فوجىء بأن السلطان العثمانى أصدر فرمانا بعزله ، فانضم الى الثوار وطالب الباشا فى جدة بأن يبقى على الرق ، وأن ينزل الأعلام الأوربية عن القنصليات الموجودة فى تلك المدينة . وقد تهاون الباشا بالنسبة لموضوع الرق ، بينما تمسك بعدم انزال الأعلام المرفوعة على القنصليات الأجنبية هناك . ويؤكد تقرير القنصل البريطانى فى جدة وكان يدعى « باج » الذى أرسله الى حكومته بشأن أحداث مكة ، أنها ترجع الى عزل الشريف عبد المطلب لصالح الشريف عبد الله بن ناصر ، وليس بسبب مشكلة الرق التى استخدمت كحجة فقط لاحداث التمرد (٢) . على أنه لم تلبث أن انتشرت عمليات التمرد من مكة الى أنحاء الجزيرة العربية ، واستمرت قائمة حتى استعاد الأتراك سيطرتهم على مكة فى مطلع سنة ١٨٥٦ (٣) .

وجدير بالذكر أن العشائر اليمنية التى تسكن منطقة عسير بشمالى اليمن قد ثارت بينها موجة من التمرد دفعتها للزحف جنوبا فى منطقة تهامة تجاه الحديدة . بل لقد ظهر بين العشائر العسيرية من نادى أيضا باشعال نيران الحرب المقدسة ضد الوجود البريطانى الدخيل فى عدن وبدء الهجوم بالزحف على لحج فى سنة ١٨٥٦ . وعندما علم البريطانيون فى عدن بانباء هذا الزحف فقد أرسلوا السفينة البريطانية « كوين » الى الحديدة لتكون تحت تصرف حاكمها العثمانى . كما ظهرت السفينة البريطانية « الفنستون » أمام ميناء جدة فى نفس الوقت الذى تخلى فيه أنصار الوالى العثمانى عن مساعدته (٤) .

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., pp. 163, 164.
(٢) I.O., B.S.C., 1856, Page to Bombay, 11/13/56.
(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 217.
(٤) Marston. TE. : Ibid., p. 218.

وقد أدى ظهور وباء الكوليرا فى مخا الى انسحاب القبائل العسيرية من تهامة ٠ وفى نفس الوقت نتج عن انتشار الوباء هناك وفاة حوالى مائة فرد يوميا مما ترتب عليه اشاعة الذعر لدى سكان أوربا خشية انتقال الوباء عبر طريق البحر الأحمر المعروف بقصره ، بينما أصبح استخدام الطريق الطويل حول رأس الرجاء الصالح مرغوبا فيه بصفة مؤقتة فى ذلك الحين نظرا لأنه يبعد شبح انتقال الوباء بواسطة السفن والبضائع المنقولة الى أوربا ٠ على أن ذلك كان حافزا على اجراء مفاوضات استمرت قرابة نصف قرن وأدت فى النهاية الى عقد اتفاقية الحجر الصحى التى عرفت باسم اتفاقية « جينيف » فى سنة ١٨٩٢ واشتركت فيها مصر والدولة العثمانية (١) ٠

أما بالنسبة لجدة فقد تسلم الشريف عبد الله بن ناصر منصبه كوالى للحجاز من قبل الباب العالى فى ١٣ أبريل سنة ١٨٥٦ ٠ بينما عاد الشريف عبد المطلب الى الطائف التى حاصرها الترك فى شهر مايو من نفس السنة حتى استسلمت ونقل منها الشريف عبد المطلب الى الآستانة ٠ وقد ذكر « باج » الذى كان يعمل حينذاك قنصلا لبريطانيا فى الحجاز أن ظهور السفينتين « كوين » و « الفنستون » فى مياه ميناءى جدة والحديدة هو الذى حفظ الحجاز وتهامة فى أيدى العثمانيين (٢) ٠ كما أنه انتقد موقف العثمانيين السلبى ازاء عشائر عسير ، نظرا لأنهم لم ينتهزوا فرصة وفاة قائد العسيريين فى مطلع سنة ١٨٥٥ ، مما كان من شأنه أن يضعف شوكتهم ويفتت قواهم (٣) ٠

وفى نهاية سنة ١٨٥٦ وصل الى اليمن المبشر « شتيرن » الذى كان قد حبسه من قبل « تيودور » ملك الحبشة ، والذى كان يقوم بالتبشير بين اليهود هناك ٠ وعندما اتجه « شتيرن » من صنعاء الى عدن فقد التقى « بالبريجادير وليم كوجلان » المقيم السياسى البريطانى الذى استقى منه معلومات عن المناطق التى زارها ، واتضح منها أن بلاد اليمن كانت تعانى حينذاك من فوضى عامة ٠ وكان امام صنعاء لا يملك من السلطة شيئا وكان يدعى الهادى غالب بن محمد بن يحيى الذى قتل أبوه فى سنة ١٨٤٩ ٠ وقد استقر الامام غالب فى بلاد «انس» على بعد أربعين ميلا من صنعاء ، ولم يكن لديه القوة أو المال لكى يتمكن من استعادة سلطاته ، وكان يقضى معظم وقته فى الاستمتاع بمضغ القات ٠ وقد وصف « شتيرن » بلاد اليمن بأنها جميلة وغنية ، ولكن الحياة فيها صعبة بسبب الفوضى والقلاقل ٠ وأكد « شتيرن » أن صنعاء كانت حينذاك تحت رحمة أية قوة منظمة ترغب فى السيطرة عليها (٤) ٠

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 141.
(٢) I.O., B.S.C., 1856, Page to Bombay, 4/19/56.
(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 220.
(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 260.

ولا شك أن كل الدلائل تشير الى أن ما ذكره « شتيرن » كان صحيحا ، اذ ان أحوال اليمن المضطربة كانت توحى بأن أية قوة منظمة يمكنها السيطرة على صنعاء والتحكم فيها • غير أن أية قوة كانت تفعل ذلك وتتقدم لتسيطر على صنعاء ذاتها ، بل وتتجه للتوسع فى المنطقة المحيطة بها فان هذا التوسع ما ان يصل الى حد معين الا ويستثير أشجان القبائل الزيدية • فتتجمع من شتى أرجاء اليمن ولا تلبث أن تشن الهجمات على تلك القوة المسيطرة على عاصمتهم ، بحيث تصبح تلك القوة عاجزة عن الدفاع عن الأراضى التى فتحتها ، بل انها تعجز أيضا فى نهاية الأمر عن الدفاع عن نفسها فتلوذ بالفرار تاركة عاصمة البلاد (١) • ومن هنا تظهر حقيقة واضحة وهى صعوبة السيطرة على اليمن بواسطة أية قوة أجنبية لا تتمكن من استقطاب القبائل اليمنية أو تنجح فى ارضائها • ولا شك أن البريطانيين فى عدن قد تنبهوا لهذه الحقيقة مما دفعهم الى تنظيم علاقتهم مع القبائل اليمنية المحيطة بعدن عن طريق معاهدات الصداقة والولاء ، ودفع الرواتب المالية واظهار الاحترام لزعمائهم حتى يضمنوا استقرارهم فى عدن ، وقد استخدموا هذه الأساليب السياسية ولم يستندوا فقط الى مقدرتهم الحربية رغم تفوقهم المعروف على القبائل اليمنية فى هذا المجال •

وجدير بالذكر أن موقف الأتراك العثمانيين فى الحجاز كان لا يختلف كثيرا عن موقفهم فى اليمن • وكان هدفهم فى الحجاز ينحصر فى سيطرتهم على المدن الاسلامية المقدسة وعلى مدينة الطائف حيث يوجد مركز القيادة مع ابقاء الطرق مفتوحة الى جدة بصفة دائمة • وفى الظروف العادية كان من اليسير تنفيذ هذه السياسة بقوة صغيرة نسبيا خاصة وأنهم لم يكونوا يتعاملون مع طائفة مذهبية مخالفة لهم على نحو ما كان يحدث مع الزيديين فى اليمن ، وانما كان عليهم فقط أن يراعوا أنهم يتعاملون مع شعب ظل منذ عدة أجيال عشائريا فى تكوينه وفكره وتطلعاته بحيث كان يتمتع بحرية العمل منذ عهد بعيد • وعلى الرغم من أن حركة الوهابيين وسياسة محمد على فى الحجاز قد وجهت ضربات قــوية للتكوينات العشائرية ، فيما عدا منطقة عسير بشمالى اليمن ، الا أن الرغبة فى الحرية المطلقة كانت قوية واضحة لدى أهالى الحجاز • ولقد عمقت ثورة الشريف عبد المطلب من هذه الرغبة هناك فى سنة ١٨٥٦ بحيث ظل شعب الحجاز يشعر بالقلق وعدم الاستقرار نتيجة للضغوط التى فرضتها عليــه حكومة العثمانيين •

وعندما ألهبت الثورة الهندية عواطف مسلمى العالم فى سنة ١٨٥٧ فان مشاعرهم لم تتحول الى حركة عنيفة ضد المسيحيين الأوربيين الا فى بقاع قليلة • أما بالنسبة لحرب القرم فقد أدت الى ظهور شعور بالعداء ضــد كل الأوربيين بوجه عام على اعتبار أنهم أعداء الدولة العثمانية ، خاصة وأن الروس

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 262.

« الفرنجة » هاجموا هذه الدولة المدافعة عن الاسلام والتى يتزعمها « الخليفة العثمانى » . ولا شك أن هذه المشاعر التى تنطوى فى حقيقة الأمر على العداء للبريطانيين والفرنسيين بصفة خاصة فضلا عن اشتعال الثورة الهندية ، وحرب القرم ، وظهور مساعى عبد المطلب للاستقلال ، كل هذا جعل الأمور فى الحجاز مهيأة لتحرك كبير وعنيف ضد الأوربيين بوجه عام (١) .

وقد نشبت بعض الخلافات بين والى الحجاز محمد باشا وبين « باج » القنصل البريطانى فى جدة سببها أن الوالى العثمانى لم يحترم مواد المعاهدة التجارية المعقودة فى سنة ١٨٣٨ ، وأن الادارة العثمانية أرغمت الرعايا البريطانيين على أن يحاكموا أمام المحاكم التركية رغم تعارض ذلك مع الامتيازات الأجنبية . بل ان الباشا التركى كون لنفسه ثروة طائلة تبلغ ٢٠ الى ٣٠ ألف كيس (وتعادل ١٠٠ ألف الى ١٥٠ ألف دولار) نتيجة لسوء استغلاله لصلاحيات منصبه . هذا الى جانب وجود بعض الخلافات البسيطة الأخرى . وقد أبلغ « باج Page » حكومته بأنه لولا وجود بعض البريطانيين فى عدن فى ذلك الحين لأقدم الباشا على خطوات كبيرة وخطيرة ضد رعايا بريطانيا فى الحجاز وضد مصالحها الحيوية فى منطقة البحر الأحمر .

وعندما وصل نامق باشا والى الحجاز الجديد الى جدة فى شهر أكتوبر سنة ١٨٥٧ فقد أكد للقنصل البريطانى « باج Page » أن سلفه محمد باشا والى الحجاز السابق « عسكرى ممتاز » ، وأنه لا يصلح للمناصب المدنية ، ومن ثم فقد أعاد « باج Page » رفع العلم البريطانى على القنصلية البريطانية فى جدة . ومن الواضح أن نتائج حرب القرم قد أعطت لقناصل بريطانيا وفرنسا نفوذا ومكانة كبيرة أثارت حسد الموظفين الأتراك الذين يكرهون القناصل نظرا لأنهم يفضحون اختلاسات الموظفين وسرقاتهم من الأهالى ، كما أثارت حسد أهالى الحجاز الذين يكرهون وجود هؤلاء « الفرنجة » فى الأراضى المقدسة الاسلامية (٢) .

وبتعيين نامق باشا واليا على الحجاز فقد جلب معه تنظيما جديدا للولاية . فكان يساعد الوالى اثنان من كبار الموظفين هما سر عسكر الحجاز وقائد عام الجند فضلا عن حاكم اليمن ، وكان الاثنان الأولان مستقلين من قبل . وقد ألغت الضرائب التى كان يشكو منها القنصل البريطانى « باج Page » ووضعت الضرائب على النحو المتفق عليه فى معاهدة سنة ١٨٣٨ .

أما بالنسبة لأخطر تغيير أحدثه هذا النظام فهو احلال « الجند الباشبوزق » محل الحامية المكونة من « الجنود النظاميين » (٣) .

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 261, 262.
(٢) Marston, T.E. : Ibid., p. 363.
(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 264.

وقد وقعت بعض الاضطرابات فى الحجاز فى أعقاب وفاة الشريف ابن عون فى ٢٨ مارس سنة ١٨٥٨ واسناد منصبه من بعده الى الشريف على ، وماجت البلاد بالتمرد والثورة . غير أن القنصل البريطانى « باج لم يقلق على المصالح البريطانية نظرا لوجود السفينة « سكيلوبس Cyclops على مقربة من شواطىء الحجاز فى ذلك الحين .

وفى مطلع شهر يونيو سنة ١٩٥٨ حدث نزاع حول ملكية السفينة « ايرانى Eranee » وقد قرر القنصل البريطانى « باج Page » أنها تعود الى اثنين من الرعايا البريطانيين ، مما أدى الى تحريك مشاعر أهالى جدة ضد الأجانب ، غير أن ذلك لم يصحبه ظهور حركات عنيفة فى بداية الأمر ، حتى حدث فى ١٥ يونيو سنة ١٨٥٨ أن سبح اثنان من اليونانيين من ميناء جدة الى السفينة البريطانية « سيكلوبس Syclops » الراسية فى الميناء ، وأبلغا قبطانها عن تعرض المسيحيين فى جدة لمذبحة كبيرة . وقد قتل فى هذه المذبحة عدد من المسيحيين قدر بحوالى ٢١ شخصا كان من بينهم « ايفيلارد Eveillard القنصل الفرنسى فى جدة . وقد انتظر قبطان السفينة وصول الوالى العثمانى نامق باشا من مكة الى جدة ، حتى وصل اليها فى ٢٠ يونيو من السنة المذكورة . وكان من المنتظر أن يقوم الوالى بارسال المشتبه فيهم الى الآستانة ، غير أنه وجد من بينهم أحد المقربين اليه ، مما جعله يعدل عن تنفيذ هذه الفكرة ، بحجة أن مشكلة السفينة « ايرانى Eranee » هى التى أثارت أهالى جدة . وبهذا أبحر القبطان « بولين Pullen » قائد السفينة « ايرانى Eranee » الى ميناء السويس عبر البحر الأحمر . وقد تردد حينذاك أن أهالى حضرموت كانت لهم يد طولى فى تهيئة الأذهان لمثل هذه الحادثة ، التى تعبر عن توفر الشعور بالعداء لدى أصحاب البلاد الأصليين ضد الأجانب .

ويهمنا كثيرا أن نوضح أن « البريجادير وليم كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن كان يخشى فى سنة ١٨٥٨ أن تقع حوادث انتقام مشابهة لما حدث فى جدة ضد البريطانيين فى عدن بوجه خاص وفى بقية موانى البحر الأحمر بوجه عام . ولم يكن ذلك مستبعدا نظرا لما أحدثته هذه الحوادث من أثر عميق لدى شعوب المنطقة . ويؤكد لنا ذلك أن أحد المسئولين البريطانيين فى القاهرة كتب لحكومته موضحا أن الشعب المصرى كان متذمرا حينذاك بسبب الثورة الهندية وبسبب حوادث جدة ، وكان مستعدا للتحرك ضد الأجانب (١).

بل « ان البريجادير وليم كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن حرص كل الحرص على معرفة الشخصيات التى قادت حركة الثورة ضد المسيحيين الأجانب فى جدة ، حتى حصل على قائمة بأسمائهم سارع بارسالها الى حكومة لندن ، وذكر من بينهم الأسماء التالية :

---

(١) Marston. T.E. : Ibid., pp. 264, 266.

١ ـ القائمقام ابراهيم أغا ٠

٢ ـ الشيخ باجعفر رئيس التجار وهو الذى قاد الهجوم على مقر شركة « توماس سافا Thomas Sava and Co. » فى جدة ، وكانت هذه الشركة تحت الحماية البريطانية وتعتبر من أهم البيات التجارية البريطانية فى منطقة البحر الأحمر حينذاك ٠

٣ ـ عبد الله المحتسب ، وهو واحد من موظفى الادارة العثمانية فى جدة وهو أصلا من صعيد مصر ، وقد قاد الهجوم على القنصلية البريطانية فى جدة ٠

٤ ـ سالم سلطان وهو واحد من تجار جدة (١) ٠

أما بالنسبة لموقف الدولة العثمانية من حوادث ثورة أهالى جدة ضد المسيحيين الأجانب هناك فى سنة ١٨٥٨ فيتلخص فى مطلب الباب العالى من اسماعيل باشا والى مصر أن يتوجه على رأس قوة مصرية قوامها ٤٩٤ جنديا لتوطيد الأمن فى الحجاز ٠ وقد قبضت قوات اسماعيل باشا على عدد كبير من الأبرياء فى جدة ، دون أن تمس التجار الحضارمة الأقوياء ، ثم توجهت بعد ذلك الى مكة ٠

وفى نفس الوقت أصدرت الحكومة البريطانية تعليماتها الى القبطان « بولين Pullen » قائد السفينة « سيكلوبس Syclops » ليتجه من السويس الى جدة لاستلام المسئولين عن التمرد والثورة ضد المسيحيين الأجانب وذلك بالتهديد بضرب جدة بالمدفعية ٠ وقد وصلت هذه السفينة الى جدة فى اليوم الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٨٥٨ وقدم قبطانها انذارا بتسليم المسئولين عن الحوادث المذكورة خلال ستة وثلاثين ساعة فقط ٠ وبعد مرور أربعين ساعة بدأ قصف ميناء جدة واستمر القصف عشرة أيام حتى اليوم الرابع من أغسطس سنة ١٨٥٨ ، وذلك نظرا لأن والى جدة لم ينفذ مطالب القبطان الانجليزى « بولين » ٠ وقد حدث هذا القصف فى وقت مناسب للبريطانيين حيث كان عائدا من مكة الى جدة عدد كبير من الحجاج ، ونتج عن استمرار قصف جدة فرار السكان والحجاج منها ٠ وفى اليوم الخامس من أغسطس سنة ١٨٥٨ وصل اسماعيل باشا الى جدة وكانت له صلاحيات المحاكمة واعدام من تثبت ادانتهم ٠ وقد تم فعلا اعدام أحد عشر شخصا لم يكن بينهم واحد من المتآمرين الكبار ٠ ثم أقلع « بولين » بعد ذلك دون أن يحصل على الترضيات التى كان يطمع فى الحصول عليها ٠ وقد ذكر « كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن أن قصف جدة كان مفيدا للبريطانيين من ناحية تأكيد وجودهم فى المنطقة

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 266.

ودفاعهم عن مصالح الأجانب المسيحيين هناك ، خاصة وأن هذا الحادث لم يعتبر عدوانا بريطانيا على الأراضى الاسلامية المقدسة ، كما لم يثر شعورا بالعداء ضد البريطانيين هناك (١) ٠

على أن الحكومة الفرنسية التى وقفت هى الأخرى تدافع عن رعاياها فى جدة ، لم تكتف بما تم من عمليات القمع للحركة التى قام بها الثوار هناك ، بل انها سارعت الى تشكيل لجنة على مستوى عال للتحقيق فى الموضوع ، وخاصة فيما يتعلق بمسلك نامق باشا وغيره من كبار موظفى الباب العالى فى جدة قبيل وفى أثناء الأزمة ، مما أدى أخيرا الى عزل القائمقام ٠ غير أن وزارة الخارجية البريطانية رفضت تأييد فرنسا فى مطالبتها بتعويض باهظ جدا عما أصاب رعاياها من أضرار ٠

وعلى أية حال فقد انتهى التحقيق فى أول يناير سنة ١٨٥٩ مؤكدا بان حادثة الثورة ضد المسيحيين الأجانب فى جدة تعتبر حادثة سرقة وسطو وليست لها علاقة بالنواحى الدينية ٠ كما أظهر التحقيق أيضا أن اثنين من التجار الحضارمة دبرا سلب أموال القنصلية البريطانية فى جدة ، وأن هذين الشخصين قد أعدما علانية وحبس بعض كبار تجار جدة ممن أدينوا باشتراكهم أو بتحريضهم على حوادث الشغب والفتنة التى أثيرت ضد الأجانب (٢) ٠

وعلى أية حال فان البريطانيين فى عدن رغم قلقهم البالغ من حوادث الثورة ضد المسيحيين الأجانب فى جدة ، فانهم قد عملوا على اخمادها بتوجيه بعض السفن الحربية الى هناك ومراقبة الحوادث بكل يقظة ، بل انهم قد استفادوا أيضا من هذه الحوادث فى الضغط على الباب العالى للقيام باخماد الثورة والاستجابة لمطالب الأجانب وخاصة البريطانيين الأمر الذى زاد من تدعيم مكانتهم فى عدن ، التى شكلت برج مراقبة ممتاز بل ومركز حراسة متقدم للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر ٠

ومما يؤكد ذلك أن امام صنعاء طلب من « كوجلان » المقيم السياسى فى عدن مساعدته فى اقرار الأمور فى بلاده واعادة تنظيمها عارضا عليه وضعها تحت الحماية البريطانية ٠ غير أن « كوجلان » أجاب على الامام بقوله انه فى ظروف سابقة أكثر ملاءمة من الظروف المعاصرة حينذاك رفضت الحكومة البريطانية فكرة فرض حمايتها على اليمن ، الأمر الذى يجعلها فى ظروف سنة ١٨٥٩ – الأقل ملاءمة عن ذى قبل – ترفض الموافقة على طلب الامام ، خاصة وأن الفوضى كانت تعم البلاد ، فضلا عن وجود الترك فى الموانى اليمنية حينذاك (٣) ٠

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 267.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 268.

(٣) Marston, T.E. : Ibid., p. 269.

بل ان القبائل اليمنية بدأت توجه تجارتها الى ميناء عدن بدلا من توجيهها الى الموانى اليمنية التى كان يسيطر عليها الأتراك حينذاك ٠ اذ وجهت قبائل « الحجرية » و « اليافعى » و « الحوشبى » و « باقل » تجارتها الى عدن لضمان تسويقها نظير ربح وفير ٠ واستمر اليمن فى تدهور مستمر تحت تبعيته الاسمية للباب العالى وسيطرة الأتراك على الموانى اليمنية المطلة على البحر الأحمر ، حيث كان الأتراك يبتزون أموال التجار ولا يعملون على تنشيط هذه الموانى ٠ بل لقد ظهرت قوى محلية غير قادرة على التحكم فى اليمن بأسره ، وانما كانت تسيطر على بعض المدن الصغيرة لفترة مؤقتة حتى تجردها من ثروتها ٠ ووصلت اليمن الى أدنى مستوى فى حوالى سنة ١٨٦٠ نتيجة لانتشار وباء الكوليرا وضعف الانتاج الزراعى وكثرة القلاقل والاضطرابات ٠ بل ان منطقة البحر الأحمر أيضا وصلت لأقل مستوى فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٦ بحيث أصبحت تجارة الرقيق هى التجارة الرائجة خاصة وأن بريطانيا والباب العالى لم تكن بينهما حينذاك معاهدة لمنع هذه التجارة (١) ٠

وقد وقعت بعض الاضطرابات فى منطقة حضرموت فى شهر نوفمبر سنة ١٨٦٥ بسبب الصراع الذى نشب هناك بين قبائل الكثيرى فى المكلا وبين قبائل القعيطى الذين استولوا على الشحر ٠ غير أن هذا الصراع لم يسفر عن نتيجة حاسمة نظرا لتعادل القوتين ٠ وقد وصلت أنباء الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن « الكولونيل وليم ميرويذر Colonel W. Merewether » تفيد بأن قرقاطة عثمانية عليها قوة تركية اتجهت صوب المكلا لتحث قبائل الكثيرى والقعيطى على رفع الأعلام العثمانية واعلان ولائهم للخليفة العثمانى ٠ وهنا حث المقيم السياسى البريطانى فى عدن زعماء تلك القبائل على رفض طلبات الباب العالى نظرا لأن الفتوحات العثمانية الأولى فى عهد السلطان سليم الأول وخلفه السلطان سليمان القانونى لم تصل الى حضرموت التى لم تحتلها قط قوات عثمانية (٢) ٠ كما أبدى المقيم السياسى البريطانى فى عدن تعاطفه مع هذه القبائل موضحا أنه كان يبغى القيام بعمليات فعالة لمساعدتهم ضد العثمانيين لولا عدم توفر سفن حربية لديه فى ميناء عدن حينذاك (٣) ٠ ولم يكن هذا التعاطف بطبيعة الحال الا حرصا على المصالح البريطانية التى كان يضرها امتداد النفوذ العمثانى الى تلك المناطق ٠

وتشير الوثائق البريطانية الى أن أهالى حضرموت عندما علموا برغبة الترك فى انزال قواتهم المحمولة على الفرقاطة « أزمير » الى ميناء الشحر ، فقد عرضوا على المقيم السياسى البريطانى فى عدن وضع أنفسهم وبلادهم تحت

---

(١) Marston, T.E., : Op. cit., pp. 365, 367.

(٢) Marston, T.E. : Ibid., p. 373.

(٣) I.O., L.A., Marewether to Bombay, 8/10/67.

الحماية البريطانية (١) • كما تشير هذه الوثائق أيضا الى أن شريف مكة قد كتب الى زعماء الكثيرى والقعيطى موضحا أن دولا أجنبية عديدة تريد الاستيلاء على منطقة البحر الأحمر وأنها تطمع أيضا فى الاستيلاء على الجزيرة العربية • على أننا نرجح أن الشريف أراد أن يحقق أهدافا شخصية عن طريق هـــذه الوساطة ودون أن يستأذن الباب العـــالى • كما أنه كان يقصد أيضا تحذير قبائل المنطقة من النشاط المصرى فى البحر الأحمر الذى نتج عنه نقل ادارة مصوع وسواكن الى خديو مصر • وعلى أية حال فان الأتراك لم يتدخلوا مرة أخرى فى منطقة حضرموت ، مما أعطى للبريطانيين فى عدن فرصة العمل لبسط نفوذهم هناك (٢) •

خامسا : موقف البريطانيين فى عدن ازاء نشاط العثمانيين والمصريين فى عســـير (١٨٦٣ - ١٨٦٩)

حرص البريطانيون فى عدن على مراقبة نشـــاط العثمانيين فى عســير وخاصة عندما استعانوا بخديو مصر اسماعيل لاخماد ثورة العسيريين ضد الادارة العثمانية فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٩ • وكانت بريطانيا تخشى عودة النفوذ المصرى الى الجزيرة العربية واحتمال تهديده للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر وفى ميناء عدن الهام • وقد أشارت التقارير الصادرة عن وزارتى الخارجية والهند البريطانيتين الى خطورة التدخل المصرى فى الجـــزيرة العربية بوجه عام وفى المنطقة المجاورة لعدن بوجه خاص ، وتضمنت هذه التقارير توصيات بضرورة التدخل للحيلولة دون امتـــداد النفوذ المصرى من جديد فى الجزيرة العربية • غير أن السلطات البريطانية المسئولة رأت من الأفضل عدم اقحام نفسها فى تلك المشكلة حينذاك حتى لا تثير انتباه وغيرة القوى الاوروبية الكبرى المنافسة •

وكان العثمانيون ــ كما سبق أن أوضحت ــ قد ارتدوا عن صنعاء بعد فشلهم فى السيطرة عليها فى سنة ١٨٤٩ ، وقنعوا بالبقاء فى تهامة حتى تحين لهم الفرصة لاعادة الكرة من جديد فى ظروف أفضل • وقد اتخذ العثمانيون من الحديدة مركزا لتجمعهم ، كما نصبوا الحسن بن الحسين بن على بن حيدر حاكما للمخلاف السليمانى بشمالى اليمن على أن يكون تابعا للسيادة العثمانية، غير أن ثمة نزاعا نشب بين الحسن وابن عمه الحسين بن محمد فى مدينة أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى مما أدى الى انقسام أهلها الى فريقين متصارعين وقد انتهى هذا الصراع باغتيال الحسن وانفرد الحسين بن محمد بحكم المخلاف السليمانى • غير أن أهالى المخلاف افتقدوا فى عهده الأمن والاستقرار مما دفعهم

(١) I.O., L.A., Abbott (Acting Resident) to Bombay, 9/17/67.

(٢) I.O., L.A., Russell to Bombay, 2/20/68.

الى الاستنجاد بالعثمانيين فى الحديدة حتى يخلصوهم من ظلم الحسين وجبروته(١) ٠

وقد استجاب قائد العثمانيين لطلب أهالى المخلاف واستدعى الحسين لمقابلته فى الحديدة ، غير أن الحسين تفادى الصدام مع العثمانيين فى معركة خاسرة ، ولكنه لم يغير من سياسته فى حكم المخلاف السليمانى ٠ وقد ساءت الامور عما كانت عليه من قبل ، حتى اضطر رئيس مدينة أبى عريش أحمد بن حسن الحمزى الى الاستنجاد بأمير عسير محمد بن عائض ، بعد أن تعهد له نيابة عن أهل المدينة بالتأييد والمساندة ٠ ولقى هذا المطلب لدى أمير عسير كل قبول ورضا لأنه كان يطمع فى السيطرة على المخلاف السليمانى من جهة ، كما كان يهدف ــ من جهة أخرى ــ الى طرد الترك من تهامة واخضاعها لحكمه ٠ لهذا تقدم أمير عسير صوب مدينة أبى عريش ، منتهزا فرصة اشتغال الترك عنه فى الحديدة بتسكين الفتن والثورات التى نشبت ضدهم فى تهامة نتيجة لضعف السيطرة العثمانية واضطراب الأمور فى تلك البلاد ٠ وقد اقتحم العسيريون على الحسين قصر « الشامخ » فى أبى عريش ، وسيطروا على المدينة بأسرها بعد أن تخلى أهلها عن مساندته ، مما اضطره أخيرا الى الفرار ناجيا بنفسه فى سنة ١٨٦٣ (١٢٨٠ هـ) ٠ (٢) وقد شجع النجاح الذى أحرزته قبائل عسير فى المخلاف السليمانى على تدعيم المقاومة اليمنية ضد السلطات العثمانية فى تهامة التى أزعجها هذا الانتصار ٠ وتحرج موقف متصرف الحديدة التركى على ياور باشا ، وطلب النجدة من عزت حقى باشا حاكم عام الحجاز ٠ وكان مجىء قوات عثمانية جديدة الى اليمن كافيا لانسحاب القبائل الثائرة عن الحديدة واعتصامها فى المناطق الجبلية المجاورة لها (٣) ٠

على أن خطر الثوار لم ينته بهذا الانسحاب لأنهم ظلوا يسيطرون على بعض المناطق الحصينة على ساحل عسير ، والتى مكنتهم من مطاردة السفن التجارية المارة بمحاذاة هذا الساحل ، والاستيلاء على ما تحمله من متاجر (٤) ٠ وكان على السلطات العثمانية الحاكمة فى الحجاز والتى تتمثل فى عزت حقى باشا الوالى العثمانى والشريف عبد الله شريف مكة أن تقضى على تلك الثورة ، حتى لاينحسر نفوذ الدولة عن اليمن ، وبلدان الجزيرة العربية تدريجيا ٠ ولكن نظرا لعدم تحديد اختصاص كل من الرجلين المسئولين تحديدا دقيقا فقد حاول كل منهما أن يفتئت على سلطة الآخر ، فكثر الاحتكاك بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين ،

---

(١) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٣ ٠

(٢) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٤ ٠

(٣) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ ــ ١٨٦٦ ، ص ٩٦ ٠

(٤) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, Tome III, p. 316.

وساعد على ذلك الكراهية المتبادلة بينهما · فعزت باشا كان يمثل العصبية التركية الحاكمة ، بينما الشريف عبد الله يمثل العصبية العربية المحكومة ، وأدى ذلك الى عدم القيام بعمل ايجابى مشترك لاخماد تلك الثورة · كما أن موقف شريف مكة تحرج كثيرا عندما كلفه الباب العالى بالقضاء على ثورةقبائل عسير ، وذلك لأن تلك القبائل كانت من أهله وعشيرته · بل انه كان علىالعكس من ذلك يحرضهم سرا على الثورة ضد الحكم العثمانى · ولهذا لم تستطع السلطات العثمانية الحاكمة فى الحجاز القيام بعمل ايجابى حاسم للقضاء على ثورة العسيريين ضد العثمانيين فى المخلاف السليمانى وتهامة اليمن ·

وازاء هذا الموقف اضطر الباب العالى أن يلجأ الى والى مصر (اسماعيل) للاستعانة به فى اخماد ثورة العسيريين ضد العثمانيين فى اليمن ، حتى لاتخرج تلك البلاد نهائيا عن حظيرة الدولة · ولما كان والى مصر يسعى فى ذلكالوقت للحصول على فرمان من الباب العالى يجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر أبنائه ، فقد رحب بتلك الدعوة ارضاء للسلطان العثمانى ومن ثم فقد أعدت مصر قوة حربية قوامها ٥٤٤٤ جنديا من المشاة والفرسان الباشبوزق (غيرالنظاميين) مزودة بأربعة مدافع جبلية تحت قيادة اسماعيل صادق بك · وأبحرت تلك القوة فى ٣ يونية سنة ١٨٦٤ من ميناء السويس على الباخرة « الحديدة » ، متجهة الى جدة ومنها الى شمال اليمن · وهكذا كان تدخل مصر فى بلاد اليمن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، يشبه ــ الى حد كبير ــ تدخلها فى شئون شبه الجزيرة العربية فى عهد محمد على حينما استعان به السلطان العثمانى لاخماد الثورة الوهابية · ولكن والى مصر « اسماعيل » لم يكن على استعداد لأن يقدم تضحيات كبيرة كتلك التى قدمها محمد على ، ثم يكون شأنه فى النهاية شأن جده من قبل · ولهذا فقد آثر سياسة اللين ، وعدم المخاطرة بالدخول فى حرب ضد الثوار ، بأية حال من الاحوال ، مع بذل كل المساعى الممكنة للوصول الى تسوية سلمية بين الطرفين المتنازعين(١) هذا فضلا عن أن مصر حرصت أيضا على اقناع رجال الحكومة فى الآستانة بوجهة نظرها فى حسم النزاع بالطرق الودية ، ونجحت فى الحصول على موافقة الباب العالى على تلك السياسة ، وخصوصا بعد أن أظهر الثوار اليمنيون ميلهم للتفاهم والدخول فى طاعة الدولة العثمانية حقنا للدماء وحفاظا على الأموال والممتلكات ·

وقد زاد من اشتعال ثورة العسيريين ضد النفوذ العثمانى فى تهامة والمخلاف السليمانى انضمام ثلاث قبائل عربية كبيرة كانت تقيم بالقرب من الطائف الى الثوار اليمنيين ، بعد أن خضعت تلك القبائل فترة طويلة منالزمن لحكومة الحجاز · وقد أصرت السلطات العثمانية على عودتها ، واتخذت التدابير اللازمة للقيام بعمل حاسم ، فاجتمع مجلس عسكرى ضم كلا من اسماعيل

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٩٧ ·

صادق بك ، والشريف عبد الله ، وعزت حقى باشا ، وبعض الضباط العظام لبحث الموقف ووضع الخطط الحربية الكفيلة بقمع الفتنة . وقد استقر رأى المجلس على ايفاد القوات المصرية والعثمانية الى بلدة قنفده لاتخاذها مركزا أماميا للعمليات الحربية (١) وتحركت هذه القوات فى اليوم الثانى عشر من أغسطس سنة ١٨٦٤ متجهة الى قنفدة .

ومن الملاحظ أن والى مصر أراد أن يوفق بين مصلحته وبين تنفيذ بنود فرمان سنة ١٨٤١ ، الذى نص على اعتبار الجيش المصرى جزءا من الجيش العثمانى ، وعلى وجوب مساعدة مصر للدولة العثمانية اذا ما طلب منها ذلك فى أى وقت من الأوقات . أى أنه أراد أن يحافظ على نصوص هذا الفرمان من ناحية الشكل ، لا من ناحية الجوهر . ولذا حرصت مصر على مساعدة الدولة العثمانية فى مختلف المناسبات دون أن تكبد نفسها خسائر كبيرة ، كان فى مقدورها تجنبها وتلافيها (٢) ، ودون أن تثير حربا جدية مع اليمنيين الا لالزامهم باحترام السيادة العثمانية ، مع تجنب القتال قدر المستطاع . ولا أدل على ذلك من رفض والى مصر اجابة مطلب شريف مكة لتزويده بأورطتين سودانيتين علاوة على ما لديه من جنود لاخماد ثورة العسيريين لأن والى مصر لم يشأ أن يذهب فى مساعدته للباب العالى فى مسالة عسير الى أبعد من هذا الحد ، كما أنه كان يخشى على الحالة فى السودان من جراء سحب هاتين الأورطتين نظرا لقلة ما لديه من القوات ، ولذا أمر والى مصر قائد قواته فى الحجاز بتجاهل طلب شريف مكة « وبان ينفذ التعليمات السرية حرفيا وبكمال الدقة والعناية ، وألا يهتم بتعليمات الباب العالى اذا ما تعارضت مع تلك التعليمات » (٣) .

بل ان والى مصر حاول أن يتوسط لفض مشكلة عسير وديا ، موجها النصح الى أمير عسير محمد بن عائض حتى يخلد الى الهدوء والسكينة ويحترم سيادة الدولة العثمانية وحذره من عاقبة تماديه فى هذا العصيان (٤) . وقد طلب والى مصر من المندوب الذى أرسله الى أمير عسير لابلاغه بذلك وكان يدعى « أحمد أفندى اليمنى » أن يتفاوض معه سرا بشأن الوصول الى اتفاق فيما بينهما . وفى نفس الوقت أرسل والى مصر الى اسماعيل بك صادق قائد القوات المصرية فى الحجاز بأن يترقب عودة المندوب وألا يعلن نتيجة تلك المفاوضات الا اذا أسفرت عن نجاحها حتى لا يضعف مركزه أمام شريف مكة وأمام الباب العالى . وكانت مصر تقوم من نفسها بالوساطة للصلح ، كما كانت تقدم وعودا سخية

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محفظة سايره من الجناب العالى الى اسماعيل صادق بك ، وثيقة رقم ٩٣ فى أوائل سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٣ ربيع ثان سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٤) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ص ٤١٥ — ٤١٧ .

لأمير عسير ، فتعده لا بالعفو عنه فحسب ، ولكن أيضا بتعديل حـــدود امارته وتغيير اسمها تبعا لذلك ، وبالانعام عليه بالباشوية ٠ ولاشك أن هـــذا يدل دلالة واضحة على مكانة مصر فى بلاد اليمن فى ذلك الحين (١) ، خاصـــة وأن أمير عسير أظهر ميله الى السلم ، والرجوع الى حظيرة الدولة العثمانية ٠ وقـــد طالبت مصر الباب العالى بتنفيذ ما وعدت به أمير عسير ، حتى لا تحرج معـــه وحتى لا تتجدد ثورة العسيريين (٢) ، مؤكدة الأهمية القصوى لمســـألة عسير فى البلدان العربية وما سوف يوفره حسم الموضوع بالطريقة المقترحة من الجهود والنفقات (٣) ٠

ورغم جنوح أمير عسير للسلم فان الباب العالى لم يسمح للقوات المصرية بالانسحاب من الأراضى الحجـــازية واليمنية ، بل أصـــدر أمره بأن تظل تلك القوات مرابطة فى قنفده ريثما يحسم الأمر بصفة نهائية ، فربما تتطور الأمور فجأة ٠ وهكذا لم يكن هناك مناص من بقاء القوات المصرية فى مواقعهـــا فى الحجاز واليمن فترة أخرى من الزمن ، وكان والى مصر يخشى من قيام اضطرابات أخرى فى قلب شبه الجزيرة العربية خصوصا وان الأحوال فى اليمن والحجـــاز كانت غير مستقرة بوجه عام مما كان يتعذر معه سحب القوات المصرية من هناك ٠ وأخيرا انتهز الوالى المصرى فرصة تجمع تلك القوات فى ميناء جدة ، وأخـــذ يلح على الباب العالى فى سحب قواته بعد أن استقرت الأمور ، محتجا بأن بقاءها خارج مصر فى مهمة حربية يحمل الميزانية المصرية أعباء كبيرة ٠ كمـــا أن مصر فى ذلك الحين لم تكن لها سياسة عربية تشجعها على ابقـــاء جنودها فى بلاد الجزيرة العربية وان حاولت أن تنتفع من وجود قواتها فى اليمن عندما علمت بوجود بعض الأماكن الغنية بالفحم الحجرى فى منطقة الحديدة ٠ وكانت مصر تهدف من استخراج تلك الثروة الطبيعية الى انعاش أحوال البلاد اليمنية ذاتها من جهة ، ودر الخير الجزيل على الخزانة المصرية وخزانة الباب العـــالى من جهة أخرى ٠ ولذا أرسلت مصر بعثة على باخرة خاصة الى الحديدة للتنقيب والبحث عن الفحم برئاسة « أمين بك » فى شـــهر نوفمبر سنة ١٨٦٥ (٤) ، وأوصى ممثل الدولة العثمانية فى الحديدة وقائد العساكر المصرية فى الحجاز بتسهيل مهمة البعثة وضمان الحماية اللازمة لها (٥) ٠

وعلى أية حال فقد وردت أوامر القاهرة الى اسماعيل صادق بك قائد

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٠١ ٠

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : دفتر ٢٢ صـــادر ، وثيقة رقم ١٢٢ فى أكتوبر ١٨٦٥ (٥) جمادى الاول ١٢٨٢ هـ) ٠

(٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٨ ٠

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : دفتر ٢٢ صادر ، وثيقة رقم ٢٠٦ فى نوفمبر ١٨٦٥ (١٠) جمادى الثانية فى سنة ١٢٨٢ هـ) ٠

(٥) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٩ ٠

القوات المصرية فى الحجاز فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٥ (٧ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) بأن يشرع فورا فى ترحيل الجنود النظامية الى مصر أولا ، على أن تتلوها القوات غير النظامية (١) . وتم بذلك انسحاب القوات المصرية من الحجاز وشمالى اليمن فى شهر يناير سنة ١٨٦٦ بعد أن أمضت حوالى السنتين دون حرب أو قتال مع محمد بن عائض أمير عسير .

على أنه لم تمض فترة طويلة حتى ظهرت من جديد بوادر واستعدادات أمير عسير العسكرية وتحركاته لتحقيق أهدافه التوسعية على حساب النفوذ العثمانى فى اليمن . وعند ذلك كتب اليه خديو مصر اسماعيل فى سنة ١٨٦٨ م (١٢٨٤ هـ) محذرا اياه من نتائج العودة للعصيان من جديد ، وموضحا أن مثل هذا التعدى سيؤثر فى صلات الود والصداقة بينهما وأنه قد يضطر يوما ما أن يوجه الى عسير قوة لوقف هذا العدوان (٢) . وقد أبدى أمير عسير لخديو مصر اعتزازه بصلات الود والصداقة مع الحكومة المصرية ، موضحا للخديو أنه « محط رحال الآمال » وأن الحساد يحسدونه على ما بينه وبين مصر من ود . كما طلب ارسال اخصائيين أوفنيين مصريين لاصلاح المدافع فى عسير ، عندما ذكر أنه « اذا رأى حضرة أفندينا ارسال واحد سباك لفك المدافع خاصة وتوضيب جميع ما يتعلق بها فهو لدينا من جزيل الاحسان وقوتنا لأفندينا ، والله يعلم انا صادقون فى ذلك » (٣) .

غير أن محمد بن عائض كان يعد العدة لتحقيق آماله فى طرد العثمانيين من المخلاف السليمانى وتهامة واخضاعها لحكمه . ولهذا قام فى سنة ١٨٧١ م (١٢٨٧ هـ) فى أواخر عهد السلطان العثمانى عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦) بغزو المخلاف السليمانى ، وتمكن من طرد الحامية العثمانية ورحلها بحرا الى الحديدة التى كانت مركزا لتجمع القوات العثمانية فى اليمن . ثم تقدم أمير عسير صوب تهامة حتى وصلت طلائع جيشه الى مخا وزبيدة ، واشتبكت قواته مع العثمانيين فى الحديدة فى نوفمبر سنة ١٨٧١ م (رمضان سنة ١٢٨٨ هـ) (٤) ، وكان يتولى زمام الأمور فيها القائد العثمانى على باشا

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محفظة سايرة .. من الجناب العالى الى اسماعيل صادق بك ، وثيقة بدون رقم فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٥ (٧ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : دفتر ٢٤ ، ص ١٠٦ ، وثيقة بدون رقم فى (٧ محرم ١٢٨٤ هـ) .
شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٦ – ٤٢٧ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محفظة ١٩ ، وثيقة رقم ١٢٥ فى ٣٠ يوليو سنة ١٨٧٠ ، (غرة جمادى الاول سنة ١٢٨٧ هـ) .

(٤) Bury, G.W. : Op. cit., p. 14.

الحلبى (١) • غير أن قوات عسير منيت بالهزيمة ، وارتكبت أثناء تراجعها الى عسير من الفظائع ما تقشعر له الأبدان ، وخاصة فى قرية الزيدية (٢) •

وعندما وصلت أخبار اغارة الجيش العسيرى على تهامة الى عاصمة الدولة العثمانية ، فقد رأت من الضرورى لابقاء اليمن تابعة لها وللمحافظة على الحامية العثمانية هناك ، أن تجرد حملة قوية الى اليمن للقضاء على أمير عسير المتمرد • ولهذا وصلت حملة عثمانية الى ميناء القنفده فى سنة ١٨٧١ (١٢٨٨) يقودها محمد رديف باشا « فى عسكر يزيد عدده على ستة آلاف ، ومعهم المدافع المستديمة ، والمدافع الشاشخانه » (٣) •

وجدير بالذكر أن مصر — بناء على تكليف من الباب العالى — تكفلت بارسال المؤن اللازمة من أرز وسمن وسكر للقوات العثمانية المرسلة للحجاز واليمن • وقد تبينا ذلك من الخطاب الذى أرسله خديو مصر الى الباب العالى فى ١١ فبراير سنة ١٨٧١ (١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ) يخبره بوصول مكاتبته التى يطلب فيها ارسال خمسمائة ألف أقة أرز وخمسين ألف أقة سمن ، وخمسة وعشرين ألف أقة سكر لأجل « الفرقة العسكرية الشاهانية » التى أرسلت الى الحجاز واليمن • ويرد خديو مصر على الباب العالى بأنه أصدر الاوامر المؤكدة والمشددة للمختصين باعداد وتجهيز الكميات المذكورة وارسال نصفها الى ميناء الحديدة ، والنصف الآخر الى المناطق التى يخصصها رديف باشا • أما أثمان هذه المؤن وتكاليف ارسالها فسيعد بها كشفاً فيما بعد • كما عبر الخديو فى ختام هذا الخطاب عن استعداده لتلبية أى طلب يصدر اليه من الباب العالى (٤) •

أما عن الدور الذى قامت به تلك الحملة العثمانية فى اخماد ثورة عسير فيتلخص فى أن القائد العثمانى محمد رديف باشا بعث بانذاراته للعسيريين ليعلنوا تبعيتهم للدولة العثمانية ودخولهم فى طاعتها ، غير أنه لم يجد لنداءاته وانذاراته أى صدى ، فأمر قواته بالزحف على عسير • وقد احتلت القوات العثمانية « حلى بن يعقوب » التى كانت أول مركز عسيرى على الحدود ، ثم سيطرت بعدها على « محائل » عند ذلك رابط محمد بن عائض بحشوده من رجال القبائل اليمنية فى «باحة شعار» وأخذ فى اقامة التحصينات والاستحكامات وتهيئة خط للدفاع ، ظنا منه أن الأتراك سيتقدمون فى عسير من تلك الجهة • وكان ابن عائض قد استنجد بقبائل ألمع اليمنية التى رابط رجالها فى « وادى حلى » غير أنهم لم يتمكنوا من صد الزحف العثمانى فولوا منهزمين •

---

(١) عبد الله الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ •

(٢) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ •

(٣) حسين بن احمد العرشى : المصدر السابق ، ص ٤٣١ •

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة : سجل ٢٤ ، الوثيقة رقم ١٢٧٢ فى ١١ فبراير سنة ١٨٧٧ (١٨ ذو القعدة سنة ١٢٨٧ هـ) •

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٣١ •

على أن رديف باشا بعد أن انتصر على رجال قبائل المع اليمنية الموالية لأمير عسير ، والى زحفه حتى وصل الى وادى « العوص » وتسلقت قواته « العقبة الصعبة » ونصبت خيامها فى سطح « تهلل » ٠ وقد ارتبكت خطة دفاع محمد بن عائض ، فاضطر الى الانسحاب محاولا القيام بحركة خاطفة لمفاجأة العثمانيين بالهجوم ، غير أنه منى بالفشل واضطر الى الانسحاب تجاه «الحفير» ، بينما تقدم القائد العثمانى واحتل « السقا » وضيق الخناق على أمير عسير الذى التجأ الى قرية « ريدة » وتحصن بها ٠ ونظرا لما امتازت به قرية «ريدة» من حصانة طبيعية ، وما أعده ابن عائض من وسائل الدفاع فان الأتراك لم يظفروا من هجماتهم المتتالية عليها بطائل ٠ فأصدر القائد العثمانى رديف باشا أوامره الى قسم من الجيش الاحتياطى المرابط فى ميناء « القنفده » بأن يبحر الى « الشقيق » بقيادة أحمد مختار باشا ، على أن تزحف هذه القوات العثمانية الى قرية « ريدة » من جهة الغرب ٠ وقد نجحت هذه الخطة لأنها جعلت القرية محصورة بين قسمى الجيش العثمانى (١) ٠

وهكذا شدد العثمانيون الهجوم على قرية « ريده » من جهة الشرق بقيادة محمد رديف باشا ، ومن جهة الغرب بقيادة أحمد مختار باشا ، واستمر القتال خمسة أيام متتالية ، ضعفت بعدها مقاومة العسيريين ودب اليأس فى قلوبهم ٠ كما أن الخيانة لعبت دورها فى هزيمة أمير عسير حتى استسلم من أتباعه كل من كان منهم فى قصر « شهدان » ، كما استسلم « آل مفرح» ولم يجد ابن عائض لدى حرسه الخاص ورجاله المقربين الرغبة فى المثابرة على المقاومة والدفاع ٠ وأخيرا استسلم العسيريون للأتراك الذين حاصروا قصر أميرهم محمد بن عائض ، مما اضطره أخيرا الى طلب الأمان من الترك ، ثم سلم نفسه اليهم بعد أن تعهد قائدهم أحمد مختار باشا بتأمينه (٢) ٠

وقد ذكر الواسعى فى تاريخه أن محمد بن عون الذى نصبه الترك شريفا لمكة فى سنة ١٨٥٦ ، اتصل بأمير عسير محمد بن عائض ، الذى وافق على أن يسلم بلاده للدولة العثمانية « وأن أملاكه وخيوله وحصونه تحفظ ، وتخصص مرتبات له ولعائلته ، ولبعض الرؤساء المستحقين ويستخدم جميع من يستحق الخدمة فى الوظائف العالية » ٠ وقد رفع شريف مكة ما تم الاتفاق عليه الى السلطان العثمانى الذى أصدر فرمانا ، أوصله الى أمير عسير رسول من قبل شريف مكة وتضمن تأمينه وضمان سلامته وموافقة السلطان على مطالبه التى عرضها عنه الشريف المذكور ٠ وقد طلب السلطان العثمانى من أمير عسير أن يسلم كل ماتحت يده من الأراضى اليمنية الى القائد العثمانى محمد رديف باشا ، على ألا ترد له الدولة أمواله وخيوله وجميع أملاكه الخاصة الا اذا وافق على قرار السلطان ٠ وبعد أن اطلع أمير عسير على ما ورد بالفرمان ، كتب الى القائد

---

(١) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٤ — ٥٨٥ ٠

(٢) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٦ ٠

العثماني أحمد مختار باشا الذى كان يحاصر قصره بقواته ما يؤكد أنه أصبح تابعا للسلطان وفقا للشروط التى أوردها الفرمان المشار اليه (١) ٠

وقد تمكن العثمانيون بعد ذلك من دخول قصر أمير عسير الذى سلم نفسه اليهم ، كما تمكنوا من السيطرة على القلاع الهامة فى الامارة (٢) ٠ وعلى الرغم من العهد الذى قطعه على نفسه القائد العثماني أحمد مختار باشا بسلامة أمير عسير وأهله ومواليه وعدم تجريدهم من أسلحتهم ، فقد ألقى الأتراك القبض على جميع من كانوا مع ابن عائض ، وجردوهم من سلاحهم ، وأودعوهم السجن ٠ بل ان القائد العثماني رديف باشا عندما عاد من « السقا » ودخل قرية « ريده » فى نفس اليوم الذى دخلها فيه زميله أحمد مختار باشا ، فقد شاهد محمد بن عائض جالسا بجوار مختار باشا ، فأصدر أوامره فورا بالقبض عليه وايداعه السجن غير مراع لما قطع له من العهود من قبل زميله ، وما جاء بالفرمان من قبل السلطان العثماني نفسه ٠ بل ان رديف باشا فى مساء تلك الليلة أمر بقتل محمد بن عائض مع خمسة وثلاثين شخصا من رؤساء رجاله العسيريين ، وكان ذلك فى شهر ابريل سنة ١٨٧٢ م (صفر ١٢٨٩ هـ) ٠ وقد علق العرشى فى تاريخه على هذا الحادث بقوله ان « محمد رديف باشا » قد خالف بذلك أوامر الباب العالى الذى كان قد أوصى بعدم قتل أمير عسير محمد بن عائض طالما أنه أعلن استسلامه للعثمانيين ٠ وأضاف العرشى الى ذلك أن السلطان العثماني أسف لهذا الحادث وأمر بعزل محمد رديف وتنصيب أحمد مختار باشا (٣) قائدا للقوات العثمانية العاملة فى اليمن ٠

وهكذا سيطر العثمانيون على بلاد المخلاف السليماني وعسير وضموها الى المنطقة الخاضعة لنفوذهم فى تهامة ، واستولوا على كل ماكان يملكه أمير عسير « من خيل ونقود وأسلحة ومدافع وغير ذلك من الأحجار النفيسة » (٤) ٠ ولم تكن سيطرة العثمانيين على هذه المناطق سيطرة كاملة على الاطلاق ، اذ كانت سلطة المدير التركى لا تتعدى بناية المركز الحكومى فى معظم الأحيان (٥) ٠ كما أن هذه المناطق لم تعرف الهدوء والاستقرار النسبى الذى شهدته تهامة فى ظل الادارة المصرية فى أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، ذلك لأن القبائل اليمنية لم تكن لتهدأ قليلا عن شن الغارات المستمرة على بعضها البعض من جهة ، وعلى القوات العثمانية المعسكرة فى أراضيها من جهة أخرى ٠ وعلى أية حال فقد شكلت سيطرة العثمانيين هذه على تلك المناطق أكبر تمهيد لسيطرتهم على صنعاء ذاتها فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) ، وبالتالى نجاحهم فى اقامة الحكم العثماني فى اليمن من جديد ، بعد مضى نيف وقرنين من زواله ٠

---

(١) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٣ ٠

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 15.

(٣) حسين بن أحمد العرشى : المصدر السابق ، ص ٧٦ ٠

(٤) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٥٣ ٠

(٥) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ٠

وبعد أن استعرضنا الدور الذى قام به اسماعيل باشا خديو مصر فى مساعدة العثمانيين بناء على مطلب الباب العالى لاخماد ثورة العسيريين بشمالى اليمن حتى لا تخرج تلك البلاد نهائيا عن حظيرة الدولة ، وللمحافظة على بقاء الحامية العثمانية فى تهامة فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٧١ حيث وصلت الى اليمن فى السنة الأخيرة حملة عثمانية قوية قضت نهائيا على ثورة عسير وأعادت بسط السيادة العثمانية على تلك البلاد ٠ فانه يهمنا أن نشير الى موقف البريطانيين فى عدن حينذاك ازاء الدور الذى لعبه خديو مصر لتأكيد السيادة العثمانية على الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى الحجاز واليمن على السواء ٠

لقد أدرك البريطانيون أن خديو مصر عندما قبل التدخل فى الحجاز واليمن لصالح العثمانيين انما كان يهدف الى تحقيق مصالحه الخاصة ، ولتأكيد دور مصر ونفوذها فى تلك الجهات٠ بل أن بعض المسئولين البريطانيين مثل «ساندسون Sandison » الوكيل البريطانى فى جدة أكد أنه عثر على أدلة واضحة تدين خديو مصر اسماعيل باشا بالتآمر ضد الوجود التركى فى بلاد العرب ، وأن الخديو كان يشجع أمير عسير على مهاجمة المناطق اليمنية المجاورة فى تهامة ، حيث توجد الحامية التركية على سواحل اليمن المطلة على البحر الأحمر ، بينما كان الخديو يسعى للسيطرة على بلاد العرب مما جعله يرسل ثلاثين ألف جندى على الأقل لتحقيق هذا الهدف ٠

ونظرا لأن الحجاز واليمن كان يعيش فيها ما يقرب من عشرة آلاف مواطن هندى معظمهم من التجار فقد أراد البريطانيون أن يستغلوا ذلك كسبب للتدخل فى شئون المنطقة ، مما جعل « ساندسون » هذا يقترح على حكومته اتخاذ التدابير لحماية هؤلاء الرعايا الهنود ورعاية مصالحهم (١) حيث لم تتخذ من قبل أية اجراءات فى هذا السبيل ٠ بل ان « ساندسون » اقترح اقامة قنصلية بريطانية دائمة فى جدة ، وارسال بعثة بريطانية الى شريف مكة يحثه على اقامة تعاون مشترك بينه وبين الحكومة البريطانية لمواجهة تطلعات الخديو اسماعيل التوسعية فى الجزيرة العربية ٠

غير أن الدوائر الرسمية المسئولة فى وزارة الهند البريطانية ووزارة خارجية لندن لم تستمع للاقتراحات التى بعث بها « ساندسون » فى سنة ١٨٦٧ فى هذا الشأن (٢) ٠ ولا شك أن هذه الدوائر الرسمية البريطانية كانت محتفظة فى ذلك الحين بالنسبة للتدخل فى مشكلات بلاد العرب خشية أن تنتشر أنباء تدخلها وتتضخم لدى الدوائر السياسية الأوربية المنافسة الأمر الذى يثير انتباهها وغيرتها (٣) ، فتنشط وتسعى للتدخل فى شئون المنطقة مما يهدد بالتالى المصالح البريطانية فيها ٠

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 376.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 376, 377.

(٣) Marston, T.E. : Ibid., p. 109.

ولهذا فان البريطانيين فى عدن وقفوا موقف المراقب اليقظ بالنسبة للأحداث التى شهدتها المنطقة (عسير) أثناء العقد السابع من القرن التاسع عشر · وقد تبينوا حقيقة أهداف خديو مصر اسماعيل من تدخله لحل مشكلة عسير تحقيقا لمصالحه الشخصية وتأكيدا لدور مصر ومكانتها فى الجزيرة العربية · كما شهد البريطانيون تحرك العثمانيين لاخماد ثورة العسيريين حتى نجحوا فى تحقيق ذلك فى مطلع عام ١٨٧٢ · وقد أحجم البريطانيون فى عدن عن التدخل فى تلك المشكلة حتى لا يثيروا انتباه وغيرة الدول الكبرى المنافسة حينذاك وفقاً لما قررته وزارة الخارجية البريطانية وما انتهت اليه وزارة الهند البريطانية التى كانت تعتبر السلطة المسئولة والموجهة للسياسة التى كان يتبعها المقيم السياسى البريطانى فى عدن حينذاك ·

سادسا ـ تطلع البريطانيين فى عدن لبسط نفوذهم على الساحل الافريقى المواجه وعلى الجزر اليمنية (١٨٣٩ ـ ١٨٦٩) :

عندما احتل البريطانيون عدن فى سنة ١٨٣٩ فقد أصبحوا بذلك يتحكمون ليس فقط فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، بل أيضا فى الساحل الافريقى المواجه لعدن الى ثلاثة أقسام · القسم الأول يمتد من رأس جوردفوى مضيق باب المندب غربا وحتى ميناء سواكن شمالا · ويمكن تقسيم الساحل الافريقى المواجه لعدن الى ثلاثة أقسام · القسم الأول يمتد من رأس جوردفوى شرقا حتى غربى ميناء بربرة · وهذا الجزء أصبح بعد ذلك يعرف بالصومال البريطانى ، وهو يعرف حاليا بالساحل الصومالى · وتعتبر بربرة هى الميناء الرئيسى الهام فى تلك المنطقة ، بل انها أفضل ميناء صالح لرسو السفن فى هذا الساحل ·

وبالنسبة للبريطانيين فى عدن فان استقلال هذا الساحل وخاصة ميناء بربرة كان يشكل بالنسبة لهم ضرورة حيوية · وكانت سياسة البريطانيين ازاء الساحل الصومالى سياسة « رجل الشرطة » بحيث كان عليهم أن يهيئوا حماية مناسبة للتجار الهنود الذين يقومون بأعمالهم التجارية هناك · كما كان عليهم وضع حد لأية اضطرابات من قبل القبائل المحلية من شأنها ان تقطع وصول الامدادات من المواد الغذائية والماشية وغيرها الى عدن · وقد ظل البريطانيون يفكرون فى بسط حمايتهم على القبائل القاطنة فى هذا الساحل الصومالى لمنع أية دولة أخرى من التدخل فى شئون المنطقة أو السيطرة عليها · غير أن ذلك لم يحدث الا عندما وصلت الى هناك حملة المصريين فى سنة ١٨٧٠ مما شكل بطبيعة الحال تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية فى تلك المنطقة (١) ·

أما القسم الثانى من الساحل الافريقى المواجه لعدن فيمتد غربى القسم الأول حتى يضم فى وسطه ميناءى زيلع وتاجورة · ويتوسط هذين الميناءين

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 113.

حاليا ميناء جيبوتى عاصمة الصومال الفرنسى حيث ينتهى خط سكة حديد أديس أبابا . أما عن زيلع وتاجورة فانهما ميناءين صالحين لرسو السفن ، كما أنهما يشكلان المنفذين الطبيعيين لتجارة اقليمى « شوا » و « هرر » وهمـــا اقليمان حبشيان كانت لكل منهما حكومة مستقلة منذ عام ١٨٤٠ . ورغم أن الخلافات التى كثيرا ما كانت تنشب بين القبائل هناك كانت تؤدى الى توقف الحركة التجارية بعض الوقت فى هذين الاقليمين ، فان تجارة الرقيق هى التى كانت تنفرد دائما بالنشاط الدائم هناك .

وكانت زيلع تابعة لحاكم مخا الذى كان يدين بالولاء لامام صنعاء ، ولكنها تحولت الى تبعية محمد على بعد وصول قواته الى اليمن فى سنة ١٨٣٦ ، ثم أصبحت تابعة للشريف حسين بن حيدر الذى تسلم حكم تهامه من المصريين فى سنة ١٨٤٠ . وكانت توجد فى زيلع بصفة مستمرة حامية عسكرية تجىء اليها من اليمن . أما بالنسبة لحاكم تاجورة فكان يتمتع بالاستقلال التام رغم أنه كان يدفع جزية سنوية لحاكم زيلع نظير بعض الخدمات التى كان يحصل عليها .

ولا شك أن أهمية زيلع وتاجورة كانت بالغة بالنسبة للقوى الأوربية ، خاصة وأنهما يتحكمان فى طريقين هامين يؤديان الى الحبشـــة ، بحيث كان امتلاكهما بواسطة قوة تجارية يؤدى بطبيعة الحال الى تنمية التجارة مع بلاد الحبشة . هذا فضلا عما كانا يتمتعان به من قيمة استراتيجية عظيمة بتحكمهما فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر بحيث كانا اذا وقعا فى يد أية قوة منافسة سيشكلان خطرا بالغا على الوجود البريطانى فى عدن (١) .

وبالنسبة للقسم الثالث من الساحل الافريقى المواجه لعدن فيغطى المنطقة الممتدة من تاجورة على طول الساحل الغربى للبحر الأحمر حتى سواكن الواقعة على مقربة من ميناء بور سودان الحالى . وكان هذا الساحل منعزلا نسبيا وان كان يتوسطه ميناء هام تحميه وتتحكم فيه جزيرة مصوع . وكان هذا الميناء يعتبر أفضل ميناء فى البحر الأحمر ، اذ كان يشكل بداية ومنفذا للطريق الى أغنى ولايتين فى الحبشة وهمـــا « تيجرى Tigré » و « جوندار Gondar وكلتاهما كانتا مملكتين مستقلتين . أما مصوع نفسها فكان يحتلها الأتراك العثمانيون لسنوات عديدة وكانت تعتبر جـــزءا من باشـــوية جـــدة بحيث كان حاكمها مسئولا أمام باشا جدة . على أن ذلك لا يعنى أن الأتراك كانوا يتمسكون بأى نفوذ لهم فى جزيرة مصوع نفسها ، بل انهم فقط كانوا يطالبون بالسيادة على الساحل السهلى للمنطقة مطالبة نظرية بحتة .

ويهمنا أن نعرف مصالح البريطانيين الموجودين فى عدن وتطلعاتهم لتلك المنطقة من الساحل الافريقى المواجه . وكانت كلها تتعلق بالنواحى التجارية والاستراتيجية والسياسية ، وخاصة بالنسبة لبلاد الحبشـــة . على أن علاقة بريطانيا بالمنطقة بدأت مع قيام شركة الهند الشرقية البريطانية بتعيين قنصل

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 114.

لها فى جدة ، وكانت ترقب عن طريقه أحداث المنطقة بأكملها . غير أن المسئولية انتقلت منذ عام ١٨٥٠ الى وزارة الخارجية البريطانية ، مما جعل القنصل البريطانى فى جدة يرسل تقارير مزدوجة ، أولها لحكومة بومباى والآخر الى القنصل العام البريطانى فى الآستانة . أما بالنسبة لحالات الهجرة فكان يرسل تقاريره الى الاسكندرية . وكان اهتمام وزارة الخارجية فى معظم الأحوال موجه تجاه الحبشة وخاصة ولايتى « تيجرى » و « جوندار » . حتى عينت بريطانيا « بلودن Flowden » قنصلا لها فى الحبشة فى شتاء عام ١٨٤٧ مما جعل الأسطول الهندى البريطانى يقلل من زياراته لمصوع حيث كان يقيم هناك عدد من التجار الهنود . ولم تكن حكومة بومباى تعلم عن هذه المنطقة شيئا الا من خلال الأنباء التى كانت تصل الى عدن ويبعث بها المقيم السياسى البريطانى هناك الى بومباى . وجدير بالذكر أن الوثائق البريطانية وخاصة ما كان محفوظا منها لدى حكومة الهند البريطانية قبل احتلال عدن فى سنة ١٨٣٩ لا تتوافر بها سوى دلالات بسيطة عن وجود اهتمامات معينة أو اشارات عن محاولات التدخل فى شئون الساحل الافريقى المواجه لعدن أو فى شئون الحبشة على وجه الخصوص (١) .

لقد كانت وجهة نظر بعض الموظفين الرسميين البريطانيين فى حكومة الهند بالنسبة لعدن على أنها مجرد محطة لتزويد السفن التجارية البريطانية بكميات الفحم اللازم لها ، بينما كانت وجهة نظر البعض الآخر منهم تعتبر عدن مركزا استراتيجيا لحماية الخط الملاحى البحرى بين بومباى والسويس . ونتيجة لتضارب وجهات النظر لدى المسئولين البريطانيين فى حكومة الهند فقد ترتب على ذلك عدم اتخاذ خطوات ايجابية بدرجة كافية نحو الارتقاء بعدن وتحسين حالتها فى أى اتجاه ، وقد استمر هذا الحال لعدة سنوات عقب احتلالها فى سنة ١٨٣٩ . وعندما أرسلت الحملة البريطانية على الحبشة فى سنة ١٨٦٧ وما أعقبها من فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ثم اقتراب مناطق نفوذ كل من الأتراك والمصريين من عدن والمنطقة القريبة المحيطة بها ، فقد أدى ذلك الى تحرك المسئولين البريطانيين فى حكومة الهند للعمل على الارتقاء بعدن ذاتها ، كما عملوا على زيادة تدعيم القوة البريطانية الموجودة فيها (٢) .

ويرجع السبب فى ذلك الى أن أهمية عدن قد ازدادت لدرجة بالغة عندما أرسلت بريطانيا حملتها على الحبشة ، بل ان أهميتها قد فاقت ذلك أيضا بعد فتح قناة السويس (٣) . وقد برزت أهميتها كميناء بحرى يتوسط الطريق البحرى بين بومباى والسويس ، كما ثبتت أهميتها كقاعدة استراتيجية من الناحيتين العسكرية والبحرية على السواء . هذا وان كان أحد رجال حكومة

---

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 115.

(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 144.

(٣) Marston, T.E. : Ibid., p. 222.

الهند وهو « سير مانسفيلد Sir W.A. Mansfield » قد أكد أن عدن لن تكون قاعدة صالحة بمعنى الكلمة طالما لا يتوافر فيها الا القليل من المياة العذبة (١) . غير أن هذا الاعتقاد قد تلاشى تماما باستخدام المكثفات لتنقية ميــاه البحر من الأملاح (٢) .

وعلى الرغم من أنه قد أشيع أن عدن تتميز بقسوة حرارتها حتى أن « مارستن » أورد على لسان سائح أمريكى زار عدن بقوله « لو كان لى بيت فى عدن لقمت ببيعه واشتريت بدلا منه بيتا آخر فى جهنم ، فربما يكون جوها أقل حرارة من جو عدن » . وذلك ليؤكد أن البريطانيين هناك كانوا يقاسون الامرين ، وأن الضرورة فقط هى التى فرضت عليهم البقاء هناك (٣) . ولا شك أن ذلك قول مبالغ فيه نظرا لأن عدن كانت أفضل حالا فى جوها عما كان عليه الحال فى مناطق كثيرة أخرى من التى استعمرها البريطانيون وبســطوا نفوذهم فيها .

وعلى أية حال فقد اتجهت بريطانيا الى بسط نفوذها على الساحل الغربى للبحر الأحمر وخاصة فى بلاد الصومال منذ سنة ١٨٢٧ عندما أرسلت مبعوثا بريطانيا الى قبيلة « حبر أول Habr Awal » للتفاهم على التعويض اللازم بعــد أن نهب أفراد هذه القبيلة سفينة تجارية بريطانية فى بربرة (٤) . وعقد كبار رجال هذه القبيلة اتفاقية للسلام والتبادل التجارى مع البريطانيين فى أوائل فبراير سنة ١٨٢٧ . وبمقتضى هذه الاتفاقية وافق شيوخ « حبر أول » على عدم القيام بنهب السفن التى ترفع العلم البريطانى مع تقديم الحماية والمؤن اللازمة لها ، مقابل أن تجد السّفن المملوكة لشيوخ تلك القبيلة نفس المعاملة فى الموانى التابعة للبريطانيين . كما وافق الشيوخ أيضا على تعويض قبطان السفينة البريطانية المنهوبة عن خسائره ، وكذلك تعويض أسر الرجال الذين قتلوا على ظهر السفينة من بحارتها وركابها (٥) .

وعندما تبلورت السياسة البريطانية التوســـعية على سواحل البحر الأحمر والجزر المتناثرة فى مياهه بعد احتلال عدن فى سنة ١٨٣٩ ، اتجهت بريطانيا الى الاستيلاء على موقع حاكم موانى تاجورة وزيلع على الساحل الافريقى للبحر الأحمر . ففى اليوم التاسع عشر من أغسطس سنة ١٨٤٠ عقــــد « كابتن مورسبى Captain Moresby » بصـــفته ممثلا لشركة الهنـــد الشرقية

(١) F.O. 1/19, Minute Sir W A Mansfield on proposed Abyssinian Expedition 6/14/67.

(٢) Marston, T.E. : Op. Cit., p. 372.

(٣) Marston, T.E. : Ibid., pp. 272, 273.

(٤) Aitchison, C.U. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries. Vol. XI., p. 114.

(٥) Aitchison,. C.U. : Ibid., pp. 191, 192.

البريطانية معاهدة للصداقة والتجارة(١) مع السلطان محمد بن محمد سلطان تاجورة ٠

وقد تعهد السلطان بأن يبذل قصارى جهده لتسهيل نقل الحاصلات المختلفة من الأقاليم الداخلية فى الحبشة الى الساحل ، وفى مقابل ذلك تعهدت السلطات البريطانية فى عدن بتشجيع التجارة الداخلية فى تاجورة (٢) ٠

غير أن تلك المعاهدة لم تقتصر على اقامة علاقات الصداقة والتبادل التجارى بين الجانبين فحسب ، بل انها تعدت ذلك الى الجانب السياسى ٠ اذ نصت المادة السابعة من هذه المعاهدة على التزام حاكم تاجورة بعدم الدخول فى أية علاقات سياسية أو تجارية مع أية قوى أوربية أخرى أو غيرها ، اذا ما كانت هذه العلاقات تمس المصالح البريطانية من قريب أو بعيد ، دون الرجوع فى ذلك الى السلطات البريطانية فى عدن باعتبارها ممثلة لشركة الهند الشرقية البريطانية ٠ وقد تعهدت الشركة فى مقابل ذلك عدم القيام بأية أعمال عدوانية ضد حاكم تاجورة (٣) ، الذى وافق فى نفس الوقت على بيع جزر موسى للحكومة البريطانية (٤) مقابل عشرة أكياس من الأرز (٥) ٠

وجدير بالذكر أن أرخبيل موسى يتكون من ثلاث جزر كبيرة نسبيا وخمس جزر صغيرة ، وكانت كلها تفتقر الى المياه الصالحة للشرب ، غير أنها فى نفس الوقت كانت صالحة لرسو السفن ٠ بل ان موقعها داخل خليج تاجورة يجعل منها نقطا استراتيجية هامة نظرا لأنها كانت تتحكم فعلا فى بداية طريق القوافل الذى يسير مع وادى « الحواش » من الساحل الى داخل الحبشة عبر بلاد الدناقل ٠ وعلى الرغم من أن البريطانيين اشتروا هذه الجزر من سلطان تاجورة ، غير أنهم لم يحتلوها كما أنهم لم يرسلوا حاميات عسكرية اليها ، وانما تركوها خالية قاحلة واكتفوا بالاحتفاظ بحقوقهم عليها (٦) للاستفادة منها اذا استدعت الظروف ذلك ٠

اتجه « مورسبى » بعد ذلك الى زيلع حيث فاوض حاكمها الشيخ سعيد محمد البار زعيم القبائل القاطنة فى زيلع وقائد جيش شريف مخا هناك ، والذى كانت أسرته تحكم زيلع مستمدة سلطاتها من شريف مخا منذ سنوات

---

(١) Aitchison, C.U. : Ibid., p. 114.

(٢) I.O., B.O., Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea, pp. 9, 10.

(٣) Aitchison, C.U. : op. cit., vol. XI., pp. 193, 194.

(٤) Aitchson, C.U. : Ibid., vol. XI., pp. 114.

(٥) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ١٠٢ ٠

(٦) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ١٣ ، ١٤ ٠

مقابل جزية سنوية كانت ترسلها اليه · وقد أبرم « مورسبي » معاهدة مع الشيخ سعيد (١) في اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٨٤٠ · وقد استولى البريطانيون بموجب هذه المعاهدة على جزيرة « باب Bab » التى تتحكم فى مدخل « قبة الخراب » التى كان من المتوقع حينذاك أن تزداد أهميتها ، كما أنهم استولوا على جزيرة « ايفات Efat التى تتحكم فى مدخل ميناء زيلع (٢) · بل ان هذه المعاهدة تضمنت شرطا حرمت فيه على حكومة زيلع عقد أية معاهدات أو اتفاقات مع أية قوى أخرى دون موافقة السلطات البريطانية فى عدن ، وذلك مقابل أن تبذل هذه السلطات قصارى جهدها لمعاونة زيلع فى تنمية مواردها التجارية (٣) ·

على أن الوضع فى زيلع قد تغير فجأة عندما استولى « شارماركى على Shermarkee Ali » على تلك المدينة وحبس الحامية التابعة للشريف الحسين بن على بن حيدر حاكم تهامة اليمن وكانت تتكون من ثلاثين رجلا (٤) · وقد عبر «شارماكى على» البحر الأحمر متجها الى عدن حيث التقى « بكابتن هينز » المقيم السياسى البريطانى وأبدى له رغبته فى أن يضع «زيلع» تحت الحماية البريطانية وذلك فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٤٣ · كما عرض أيضا استعداده للمشاركة فى القضاء على تجارة الرقيق ، وتخفيض الضرائب الجمركية بحيث تصبح نسبتها ٥٪ فقط مع فتح الطريق الى هرر أمام التجارة البريطانية (٥) ·

وقد بعث « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن هذه المقترحات الى حكومة الهند البريطانية لاستطلاع رأيها · وقد أجابت عليه تلك الحكومة فى اليوم السابع من أكتوبر سنة ١٨٤٣ بشأن المقترحات والعروض التى قدمها « شارماكى على » وقد رأت حينذاك ما يلى :

١ — عدم التدخل فى الشئون الداخلية وفى المنازعات القائمة حينذاك بين شيوخ وحكام منطقة الساحل الافريقى للبحر الاحمر ·

٢ — التركيز على استمرار العلاقات التجارية مع حكام منطقة الساحل الافريقى للبحر الاحمر والعمل على تنميتها ·

٣ — قد يؤدى التدخل فى المنازعات القائمة بين شيوخ وحكام منطقة الساحل الافريقى للبحر الأحمر سواء بوجه عام أو فى حادثة معينة الى اقحام الهند البريطانية فى تدخلات أخرى غير مربحة ومكلفة ، بل وقد تسيء غاية الاساءة للمصالح البريطانية ·

---

(١) Aitchison, C.U. : op. cit., vol. XI., p. 114.

(٢) جلال يحيى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٣

(٣) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty ... etc., p. 15.

(٤) I.O., B.S.C. 1843, Haines to Bombay 5/29/43.

(٥) Marston, T.B. : op. cit., pp. 108, 109.

٤ ـ ان التدخل من جانب حكومة الهند البريطانية في مثل هذه الخلافات بين حكام وشيوخ افريقيا وبلاد العرب قد تنتشر أنباؤه بحيث تبالغ في تقديرها الدوائر السياسية الأوروبية ، الأمر الذى يؤدى الى اثارة غيرة الحكومات الاوربية المنافسة وحقدها على الحكومة البريطانية ٠

٥ ـ ان الهدف الأساسى لحكومة الهند البريطانية من وراء احتلالها لعدن هو ضمان الاحتفاظ بمخزن ومحطة للفحم في موقع متوسط بين بومباى والسويس وليس من أجل التدخل أو التوسع فيما وراء عدن ٠

٦ ـ ان حكومة الهند البريطانية تفضل وجود علاقات صداقة بينها وبين حكام منطقة البحر الاحمر ، ولكنها تأسف غاية الأسف اذا اضطرت الى اتخاذ اجراءات عنيفة من أجل حماية مصالحها في تلك المنطقة بوجه خاص ، وفي منطقة البحر العربى والخليج « الفارسى » على وجه العموم (١) ٠

وجدير بالذكر أن شركة الهند الشرقية البريطانية على الرغم من انها كانت جهازا حكوميا يدير « امبراطورية كبيرة » ، فانها في حقيقة الأمر كانت شركة تجارية ، وكان مركزها في عدن واصرارها على الاحتفاظ بها يسبب لها عجزا كبيرا في الميزانية كل عام ٠ كما أن نفقات حملة الأفغان الفاشلة والصعوبات التى واجهها البريطانيون في الهند حينذاك قد أثرت تأثيرا سيئا على الميزانية ٠ وكانت عدن بالنسبة لشركة الهند الشرقية البريطانية في ذلك الحين « مجرد مستودع ومحطة للفحم A mere depot of coal » أما بالنسبة للبحر الاحمر فقد كان في نظر هذه الشركة « مجرد طريق عام A mere highway » بينما كانت حكومة بومباى البريطانية ترى أن عدن مركزا حيويا هاما يتحكم في الطرق المؤدية الى بلاد الشرق بوجه عام ، كما أنها تعتبر في نفس الوقت قاعدة استراتيجية هامة للبحرية الهندية البريطانية (٢) ٠

وجدير بالذكر أن عدن كانت تتأثر كثيرا بالاوضاع القائمة على الساحل الصومالى المواجه بحيث كانت الاضطرابات هناك تؤثر على امدادها بالمواد الغذائية اللازمة لها ٠ وقد أرسل « كابتن هينز » المقيم السياسى البريطاني في عدن مساعده « كروتندن Cruttenden » ثلاث مرات الى الساحل الصومالى في عامى ١٨٤٧ ، ١٨٤٨ لمتابعة الاحوال في سوق بربره وكتابة تقريره عن الاوضاع القائمة بالساحل الصومالى ٠ وقد حاول « كروتندن » التقريب بين قبيلتى « أبناء أحمد وأبناء يونس » المتصارعتين بما يحقق الهدوء الذى يهيىء استمرار تزويد عدن باحتياجاتها من المواد الغذائية ٠ كما حاول ايجاد حل مناسب للموقف الخطير الناتج عن مصادرة بعض السفن التى تنقل الرقيق

(١) I.O., B.S.C. 1843, Govt. of India to Bombay 10/7/43.
(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 110, 112.

والتابعة لقبائل المنطقة التى لم تعقد اتفاقا مع بريطانيا لمحاربة هذه التجارة . وكانت بعض أعمال القرصنة قد وجهت للسفن البريطانية للانتقام(١) . وكانت آخر زيارة قام بها « كروتندن » لبربره فى ٤ فبراير سنة ١٨٤٨ (٢) وعاد بعد ذلك الى عدن فى شهر ابريل من نفس السنة بعد أن زار منطقة رأس حافون . وقد علم أن الفرنسيين حاولوا شراء الميناء الموجودة هناك ، غير أنهم لم يوفقوا فى ذلك نتيجة لرفض الاهالى ومعارضتهم لذلك (٣) .

على أن حكومة الهند البريطانية لم يكن يخفى عليها حينذاك ان « شارماركى على » حاكم زيلع حاول أن يضع نفسه فيما بعد تحت الحماية البريطانيةليستغل ذلك فى السيطرة على الساحل الصومالى باكمله (٤) . ولم يمض وقت طويل حتى تدهورت العلاقات بين البريطانيين و « شارماركى على » عندما تعرضت احدى السفن البريطانية الى هجوم شنه رجاله عليها ، مما جعل بريطانياتطالبه بدفع تعويض عن ذلك الحادث تحت تهديده باستخدام الاسطول البريطانى فى القيام بعمليات حربية ضده . وقد وضع البريطانيون أيديهم فعلا على بعض السفن التابعة « لشارماركى على » كانت راسية فى ميناء عدن ، مما أدى الى توجه « شارماركى على » الى عدن حيث دفع التعويض المطلوب (٥) . وقد ترتب على ذلك تدهور مكانة «شارماركى »فى بربرة فى سنة ١٨٥٢ حتى أبعد عن حكم زيلع بواسطة باشا الحديدة التركى ، غير أنه عاد الى حكم تلك المدينة فى سنة ١٨٥٧ (٦) .

وجدير بالذكر أن حكومة الهند البريطانية عندما علمت بأنبــاء الحرب الفرنسية النمساوية، وبالاشاعات القائلة بعزم فرنسا على شراء جزيرة سقطرى وبالتدخلات الفرنسية فى شئون الحبشة ، فانها قد عزمت على اتخــاذ تدابير دفاعية عن منطقة البحر الاحمر وعن عدن ومصر ضد المؤامرات الفرنسية . وقد أوصى « الكولونيل جيمس أوترام Colonel James Outram » المقيم الســياسى البريطانى فى عدن فى سنة ١٨٥٤ بأنه بعــد أن أصبح الأسطول الفرنسى قويا فى البحر المتوسط ، فانه يجب أن يترك أمر الدفاع عن مصــر الى حكومة الهند ، وذلك عن طريق تقوية عدن ، ورفعها الى مستوى قاعدةتجمع وهجوم للبريطانيين ، بحيث يمكنهم انطلاقا منها أن يستولوا على القصــير والسويس اذا مافرضت عليهم الظروف الدفاعية ذلك .

(١) I.O., B.S.C. 1848, Cruttenden to Haines 11/24/47, enc 1, in Haines to Bombay 11/27/47.

(٢) I.O., B.S.C. : 1848., Haines to Bombay 1/5/48.

(٣) I.O., B.S.C. : 1848, Cruttenden to Haines 4/4/48., encl. in Haines to Bombay 4/5/48.

(٤) Marston, T.E. : op. cit., p. 161.

(٥) Marston, T.E. : Ibid, p. 255.

(٦) I.O., B.S.C. : 1857, Coghlan to Bombay 4/24/57.

وكان حاكم الهند العام البريطانى « كانئج Canning » متفقا فى الرأى مع المقيم السياسى البريطانى فى عدن « الكولونيل جيمس اوترام » بالنسبة لتفهم سياسة فرنسا التوسعية حينذاك • بحيث كان واضحا أمامهما ان النشـاط الفرنسى فى البحر الاحمر وفى بورما والهند الصينية ليس مجرد عمل قامت به مجموعة من المغامرين فحسب ، بل ان ذلك كان فى حقيقته تطبيقا للسـياسة الفرنسية التوسعية المنافسة لبريطانيا فى بلاد الشرق • غير أن حاكم الهندالعام البريطانى لم ير ضرورة لتحويل عدن الى قاعدة هجومية حينذاك ، بل انه اكتفى بأن أوصى باضافة سفينة حربية كبيرة الى الاسطول البريطانى العامل فى البحر الاحمر(١) • وقد صدرت تعليمات حاكم الهنـد العـام البريطانى بتنفيذ هذه التوصية فى ٥ أغسطس سنة ١٨٥٩(٢) • غير أن تلك التوصية لم تلبث أن ألغيت بعد عشرة أيام فقط عندما اقتضت الضرورة توجيه السفن البريطانية حينذاك الى مياه الصين(٣) •

وجدير بالذكر أن بريطانيا اتجهت فى ذلك الحين الى انشاء خطوط للبرق تربط الجزر البريطانية فى أقصى الشمال بالهند فى أقصى الجنوب وذلك عبر البحر الاحمر ، مستفيدة بذلك من قاعدتها فى عدن ومن الجزر المختلفة التى سيطرت عليها عبر هذا الطريق الملاحى الهام • وقد شرعت بريطانيا فى وضع « كابلات » لخطوط البرق ، كما أقامت عدة فنارات لارشاد السفن البريطانية • وقد أدى ذلك الى اثارة تساؤلات عديدة حول مسألة السيادة على ساحلى البحر الاحمر الاسيوى والافريقى وعلى الجزر المتناثرة فى هذا البحر وفى خليج عدن• ففى نهاية سنة ١٨٥٨ أصدر « اللورد مالمسبورى Lord Malmesbury » تعليماته للسفير البريطانى فى الآستانة « سير بولور Sir H. Bulwer » ليحصـل من السلطان العثمانى على الفرمانات اللازمة التى تسمح بمد خطوط البرق على طول الاراضى التابعة للسيادة العثمانية دون مواجهة أية اعتراضات من قبل الحكام المحليين(٤) •

ونتيجة لذلك فقد حصل السفير البريطانى فى الآسـتانة على فرمانين أولهما صدر الى الوالى العثمانى فى بغداد ، والثانى الى الوالى العثمانى فى تهامة اليمن • وقد تضمن الفرمانان الاشارة الى أهمية وضرورة انشاء خط برقى يربط عدن بالهند مما استلزم مد أسلاك البرق على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية فى موقع أو موقعين شرقى عدن • وقد نص الفرمانان على توصـية

(١) I.O., B.S.E. : 1859, Govt. of India to I.O. 7/13/59, Minute by Canning 6/23/59.
(٢) I.O., B.S.E. : 1859, Minute by Eliphinstone 8/5/59 and 8/15/59.
(٣) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 259, 260.
(٤) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea, p. 35.

السلطات المحلية بازالة أية معوقات قد تواجه تنفيذ هذا المشروع الهام . على انه لم يكن معروفا حينذاك أى المراكز الواقعة على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية شرقى عدن يمكن اختيارها لوضع أسلاك البرق . وقد رأى «البريجادير وليم كوجلان Brigadier William M. Coghlan » المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ذلك الحين (١٨٥٤ – ١٨٦٣) أن هذه المراكز من المحتمل أن تكون « المكلا » أو « الشحر » أو جزر « كورياموريا » أو « ماسيرا Massera أو « رأس الحاد » . وقد ورد هذا الرأى فى الرسالة التى بعث بها «كوجلان» عقد صدور هذا الفرمان الى « مستر جرين Mr. Green » ممثل بريطانيا فى مصر حينذاك ، يوضح له ان الفرمان السلطانى يصرح بمد أسلاك البرق فى موقع أو موقعين على ساحل الجزيرة العربية بين عدن والهند . على ان ذلك لم يكن يعنى فى حقيقة الامر أكثر من أن يوافق الوالى العثمانى فى تهامة اليمن حينذاك على السماح بأن تمد أسلاك البرق فى نطاق الممتلكات التابعة للدولة العثمانية والممتدة فقط حتى مضيق باب المندب عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

وقد أشار « كوجلان » فى رسالته هذه الى ممثل بريطانيا فى مصر « مستر جرين » بأنه نظرا لأن مطالب الباب العالى التوسعية لا حدود لها ، الأمر الذى يجعل السلطان العثمانى مستعدا دائما لادعاء السلطة على أية أراض اسلامية ، فان ذلك يمكن أن يشكل صعوبات كثيرة أمام المصالح البريطانية اذا ماتحقق أى اعتراف ضمنى بادعاءات العثمانيين بالسيادة على هذه المناطق الواقعة فى جنوب الجزيرة العربية . اذ ان « المكلا » و « الشحر » و « ماسيرا » و « رأس الحاد » توجد بها حكومات قوية يمكنها تقديم الحماية الكافية لمنشآت الخط البرقى بين عدن والهند . « فالمكلا » و « الشحر » يحكمهما رئيسان مستقلان ، وكثيرا ما أظهرا مواقف ودية ازاء البريطانيين . بينما جزر «كوريا موريا » كان قد تنازل عنها امام مسقط للبريطانيين فى سنة ١٨٥٤ ، وفى نفس الوقت كانت « ماسيرا » و « رأس الحاد » تابعتين للامام نفسه . ونظرا لأن هذه المناطق غير تابعة ، ولو من الناحية الاسمية ، للباب العالى الذىلاتتعدى سلطاته مضيق باب المندب ، فضلا عن احتمال عدم وجود شخص واحد فيها يستطيع قراءة الفرمان ، فان صدور مثل هذا الفرمان يعتبر غير ذى قيمة على الاطلاق(١) .

وعندما تلقى القنصل العام البريطانى فى بغداد هذا الفرمان ، فقد سارع وأرسل خطابا عاجلا الى السفير البريطانى فى الآستانة ، أوضح فيه السبب الأساسى فى عدم ارساله للفرمان المذكور الى عمر باشا والى بغداد

---

(١) I.O., B. 8, : Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea, p. 36.

العثمانى حينذاك ، وهو الفرمان الخاص بوضع أسلاك البرق على الساحل الجنوبى الشرقى للجزيرة العربية · ويتلخص هذا السبب فى ضرورة عدم الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية على القبائل الوطنية التى تقطن هذا الساحل حتى لايثير ذلك مشكلات أخرى أمام المصالح البريطانية · وقد أبدت الحكومة البريطانية موافقتها على الموقف الذى اتخذه قنصلها العام فى بغداد ، وسارعت فى نفس الوقت بارسال تعليماتها الى كل من المقيم السياسى البريطانى فى عدن وزنجبار للالتزام بعدم التصرف بأية طريقة قد يفهم منها أى اعتراف ضمنى من قبل الحكومة البريطانية بأية مطالب أو امتيازات للباب العالى فى الساحل الجنوبى للجزيرة العربية الممتد شرقى عدن ·

أما فيما يتعلق بالمراكز التى اختارتها الشركة الهندية البريطانية للبرق على الساحل الافريقى للبحر الاحمر لتقام فيها المحطات اللازمة ، فقد وقع اختيار هذه الشركة فى شهر مارس سنة ١٨٥٩ على كل من السويس والقصير وسواكن · وقد تقدم « مستر جرين Mr. Green ممثل بريطانيا فى مصر بطلب للحكومة المصرية للموافقة على اقامة محطة للبرق فى القصير · وكانت القصير فى واقع الامر هى النقطة الوحيدة بعد السويس الواقعة داخل الاراضى المصرية ، كما انه على الرغم من أن المنطقة المحيطة بسواكن كان يحكمها والى مصر ، فان سواكن نفسها كانت تقوم بحراستها حامية عثمانية ، كما كان حاكمها يعين من قبل الباب العالى · وقد وافق والى مصر على اقامة محطة للبرق فى القصير ، وأقيمت المحطة فعلا فى شهر يونيو سنة ١٨٥٩ ، غير أن بعض المتعصبين هاجموا المحطة ودمروها · وقد ترتب على ذلك أن أوصى القنصل البريطانى فى الاسكندرية حكومته بتوجيه نظر قيادة البحرية البريطانية بمراعاة وضع قوة بحرية بريطانية لحماية مصالح البريطانيين فى البحر الاحمر ، على أن تقوم الطرادات البريطانية بزيارة الموانى الرئيسية فى هذا البحر من حين لآخر · وكان « بلودن Plowden » قنصل بريطانيا فى مصوع قد اقترح على حكومته فى سنة ١٨٥٨ ايجاد قوة بحرية بريطانية فى البحر الاحمر(١) ، مؤكدا أن ذلك من شأنه حماية المصالح البريطانية فى المنطقة وتدعيمها ·

وهكذا استغل البريطانيون وجودهم فى عدن لتحقيق تطلعاتهم فى منطقة البحر الاحمر وفى خليج عدن · وقد اتبعوا سياسة مرنة ازاء حقوق السيادة العثمانية فى المنطقة من جهة ومع حكام البلاد الاصليين من جهة أخرى · كما انهم تمكنوا عن طريق وجودهم فى عدن من مراقبة تحركات القوى الاوربية المنافسة وسلكوا كافة السبل التى تؤمن مصالحهم فى منطقة البحر الاحمر ·

وجدير بالذكر أن الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦٠ — ١٨٦٥) قد أثرت

---

(١) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea, pp. 36, 37.

كثيرا على النشاط التجارى فى ميناء عدن بحيث أصبح حجم التجارة قليـلا بشكل ملحوظ(١) ٠ بل ان هذه الحرب قد أثرت أيضا فى حجم التجارة فى منطقة البحر الاحمـــر بوجه عام ٠ ويؤكد « كوبلاند » ذلك بقوله أن خمسـا وثلاثين سفينة أمريكية مرت بزنجبار على الساحل الشرقى لافريقيا فى سـنة ١٨٥٩ بينما مرت من هناك فى سنة ١٨٦٦ خمس سفن أمريكية لاغير(٢) ٠

ويوضح الاحصاء التالى(٣) التزايد الواضح فى حجم عمليـات تصـدير محصول البن اليمنى عن طريق ميناء عدن فيما بين عامى ١٨٤٩ و ١٨٥٢ :

السنة	عدد البالات	القيمة بالروبية
١٨٥٠/٤٩	٦ر٥٥٨	٩٦ر٨٤٧
١٨٥١/٥٠	١٣ر٠٣٧	١٥٧ر٨٧٤
١٨٥٢/٥١	٢٨ر٥٥٠	٣٦٥ر٧٨٠

بينما يوضح الاحصاء التالى أيضا عدد السفن المارة بميناء عدن وجنسيتها وحجم حمولتها من البضائع المختلفة فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٤٨و١٨٥١ :

السنة ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩

	البريطانية	الامريكية	الفرنسية	الهولندية		الروسية
عدد السفن	٧٩	٨	٣		–	–
الحمولة بالطن		٣٣ر٦٤٠	١ر٨٧٥	٤٦٨	–	–

السنة ١٨٤٩ ــ ١٨٥٠

عدد السفن	٧١	١١	٢	–	–	–
الحمولة بالطن	٣٤ر٠٥١	٢د٧٩٣	٢٠٢		–	–

عدد السفن	٦١	٩	٧	٢	١	
الحمولة بالطن	٢٧ر٤٤	٧ر١٦١	٢ر٠١٥	١ر٢٥٨	٣٣٠	

وهذ الاحصاء (٤) يؤكد اهمية ميناء عدن والحجم الكبير للتجارة التى تمر به والمنقولة بواسطة الاساطيل التجارية الاجنبية الموضحة ، هذا فضـلا عن السفن العربية والمحلية التى لم يشملها الاحصاء فى السنوات المذكورة ٠

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 368.
(٢) Coupland, R. : The exploitation of East Africa 1856-1890, pp. 77,78
(٣) I.O., B.S.C. : 1851, Haines to Bombay, 6/11/51.
(٤) Marston, T.E. : op. cit., p. 160.

– تطلع البريطانيين فى عدن للسيطرة على الجزر اليمنية :

اتجه البريطانيون فى عدن بعد أن استقرت أحوالهم فيها الى السيطرة على الجزر المتناثرة فى المنطقة المحيطة بها وفى البحر الاحمر وأمام الساحل الشرقى لافريقيا باعتبارها ركائز يمكن الانطلاق منها لرعاية المصالح البريطانية هناك . وتحقيقا لهذا الاتجاه فقد استولى البريطانيون على جزر « كوريا موريا » فى سنة ١٨٥٦ وجعلوها مستعمرة بريطانية . وكان السبب الظاهرى لاحتلال هذه الجزر الفقيرة هو محاولة استغلالها من الناحية الاقتصادية ، غير أن الهدف الحقيقى من وراء ذلك هو السيطرة على موقع بحرى فى جنوب الجزيرة العربية يتوسط المسافة تقريبا بين عدن ومسقط (١)

بل لقد حدث فى نفس الوقت أن قام « البريجادير كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن برفع تقرير الى حكومة بومباى فى سنة ١٨٥٦ أوضح فيه أهمية السيطرة على جزيرة « بريم » مؤكدا ان ذلك يدعم النفوذ البريطانى فى المدخل الجنوبى للبحر الاحمر (٢) . خاصة وأنها تقع على مقربة من القاعدة البريطانية فى عدن مما يضمن تأمينها على عكس ما كان عليه الحال عندما احتلها البريطانيون فى سنة ١٧٩٩ حيث كانت أقرب قاعدة لهم حينذاك فى بومباى مما كان يجعل الجزيرة غير آمنة الا اذا توفرت فيها قوة كبيرة لحراستها وتبعد جزيرة بريم عن الساحل الاسيوى لمضيق باب المندب بمسافة ميل واحد ونصف الميل ، بينما تبعد عن الشاطئ الافريقى بمسافة أحد عشر ميلا (٣) . وكان الفرنسيون يتطلعون فى نفس الوقت للسيطرة على هذه الجزيرة بل ان الحكومة الفرنسية قد أوصت باحتلالها . وقد أوضح « كوجلان » لحكومته الأهمية البالغة لجزيرة بريم من الناحية الاستراتيجية من جهة ، ومن الناحية التجارية من جهة أخرى . فهى ستتيح للبريطانيين فرصة التحكم فى موانى الساحل الافريقى المواجه مثل زيلع وتاجورة وزنجبار وفضلا عن موانى البحر الاحمر الاخرى . كما انها ستمكن البريطانيين من وقف تجارة الرقيق التى كانت تتنقل بين زيلع وتاجورة وساحل زنجبار على الساحل الشرقى لافريقيا وبين موانى الجزيرة العربية ، مؤكدا « أن وضع قوة بحرية صغيرة فى تلك الجزيرة سوف يكون كافيا لمراقبة المضايق وتفتيش أى سفينة تمر بها » (٤)

(١) Simonin, M.L. : La presqu'île d'Aden et la Politique Anglaise dans les Mers Arabiques, p. 22.

(٢) I.O., B.S.C. : 1856, Bombay to Coghlan 5/30/56.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 221, 222.

(٤) F.O. 78/1333, I.B. to F.O. 11/27/56, encl. Coghlan to Bombay 10/27/58 ; also in B.S.C. 1856.

وكانت بريطانيا تستفيد من وراء حركة منع تجارة الرقيق نفوذا سياسيا ناتجا عن طريق قيامها بتفتيش السفن المتنقلة بين سواحل المنطقة والتى تشك فى قيامها بنقل تلك التجارة ٠

ولم ينس « كوجلان » أن يشير فى تقريره الى مسألة السيادة على جزيرة بريم عندما أوضح ان « القوات البريطانية كانت قد احتلتها فى سنة ١٧٩٩ ، غير أنه من المحتمل اذا سئل الباب العالى عن أية حقوق له فيها فانه سوف يجيب بالايجاب لأنه يطالب باليمن كله رغم انه لم يمارس أى سلطة على جزء كبير منه » (١) ٠ وقد سبقت الاشارة الى أن حكومة بومباى كانت قد تلقت أوامر من لندن فى ١٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ لاحتلال جزيرة بريم لاغلاق مدخل البحر الاحمر فى وجه الاخطار الناتجة عن غزو بونابرت لمصر ٠ وقد أرسلت حكومة بومباى قواتها الى جزيرة بريم واحتلتها فى اليوم الثالث من مايو سنة ١٧٩٩، غير أن البريطانيين تركوها فى اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر من السنة المذكورة نظرا لأنها كانت خاوية وتفتقر للمياه العذبة رغم تمتعها بميناء بحرى ممتاز ٠ وقد ذكر « الكولونيل موراى Colonel J. Murray» قائد هذه القوة أن مدافعه كان يمكنها التحكم فى الجانب الشرقى أى جهة الجزيرة العربية وليس الجانب الغربى أى الساحل الافريقى نظرا لقصر المسافة الاولى عن الثانية (٢) ٠

وعلى أية حال فقد قام البريطانيون ــ بناء على التوصيات التى وردت بالتقرير الذى رفعه « كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن ــ باحتلال جزيرة بريم بقوة قادها الملازم « جراى Gray » فى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٧ (٣) ٠ وقد فعلوا ذلك بدعوى حاجتهم لبناء فنار فى تلك الجزيرة لارشاد السفن البريطانية (٤) ٠ غير أنهم واجهوا مشكلة توفير المياه العذبة التى افتقرت اليها الجزيرة ، خاصة وأن غايتهم لم تكن قاصرة على توفير المياه للاستهلاك اليومى ، بل لتخزين كميات منها لمواجهة الطوارىء فى حالة ماإذا حطمت الرياح الشديدة القوارب التى تنقل المياه العذبة الى الجزيرة من عدن ٠ وعلى الرغم من أن البريطانيين أقاموا فيها فنارا وبعض الابنية الملائمة للسكنى، كما أقاموا الخزانات لحفظ المياه (٥) فان جزيرة بريم لم تحقق فائدة تذكر للمصالح البريطانية ٠

---

(١) I.O., B.S.C. 1857, Coghlan to Bombay 6/9/57.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 225.

(٣) Simonin, M.L. : Op. cit., p. 24.

(٤) F.O. 78/1333, I.B. to F.O. 2/18/57 encl. Resolution 1/13/57 ; also in B.S.C. 1857.

(٥) I.O., S.D., S.L.B., No. 12, 1858. Perin Islamd., Lieutenant J.M. Greig, Assistant Execuive Engineer to Lieutenant N. Wilkins, Executive Engineer August 1, 1857.

فقد كان أحد موظفى حكومة بومباى ويدعى « لومسدن Lundson
فى أجازة مرضية قضاها فى لندن وقد انتهز فرصة وجوده هناك واقترح على حكومته اقامة أربع فنارات ، الأولى عند مدخل السويس والثانية فى جزيرة شدوان ، والثالثة فى وسط البحر الأحمر عند « Dadalus Shoal والرابعة وهى أهمهم جميعا فى جزيرة بريم (١) • وكان البريطانيون يقصدون أيضا من اقامتهم فنارا فى بريم هو أن يكون ذلك سببا مقبولا لسيطرتهم على الجزيرة (٢) ورغم احضار الفنار من الهند فقد حدث خلاف حول المكان المناسب لاقامته حيث تعطل ذلك . حتى احتجت على هذا التأخير « شركة خطوط الملاحة البخارية لشبه الجيزرة والشرق » Peninsular and Oriental Steanship Lines فى سنة ١٨٦٢ مما أدى الى اقامة الفنارات • ويقال ان البريطانيين سيطروا على جزيرة بريم لخوفهم من قيام منافسيهم الفرنسيين باحتلالها قبلهم (٣) مما يؤدى الى تهديد المصالح البريطانية فى البحر الاحمر •

ومن الواضح أن البريطانيين اهتموا كثيرا باغلاق الطرق أمام المشروعات المنافسة فى مجال الخطوط العالمية للمواصلات • فبينما كان مشروع فتح قناة السويس فى مهده فقد قام البريطانيون باحتلال جزيرة بريم فى سنة ١٨٥٧ لحماية مواصلاتهم عبر طريق البحر الاحمر • وعندما كان مشروع خط سكة حديد برلين ــ بغداد ــ البصرة فى أول دور للتنفيذ فقد سارع البريطانيون باحتلال الكويت لحماية مواصلاتهم عبر الخليج العربى • وهكذا كان البريطانيون يحتلون الجزر والمناطق التى تمكنهم استراتيجيا من حماية مصالحهم عبر خطوط المواصلات الدولية ، ومن أهمها طريق البحر الاحمر بطبيعة الحال •

على أن البريطانيين بعد أن سيطروا على جزيرة كوريا موريا فى سنة ١٨٥٦ وعلى جزيرة بريم فى سنة ١٨٥٧ فانهم قد استمروا فى تنفيذ سياسة استعمارية تهدف الى الاستيلاء على الجزر الهامة المنتشرة فى منطقة البحر الاحمر ، ولهذا فانهم استولوا بعد ذلك بعامين أى فى سنة ١٨٥٩ على جزيرة كمران (٤) الواقعة أمام ميناء اللحية فى شمال الساحل اليمنى المطل على البحر الاحمر •

ولا شك أن هذه السياسة البريطانية للسيطرة على الجزر الهامة فى البحر الاحمر وفى خليج عدن وجنوبى الجزيرة العربية قد لفتت أنظار الفرنسيين الذين كانت لديهم رغبة شديدة فى الحصول على قواعد بحرية لهم فى تلك المياه ، خاصة وأن مشروع فتح قناة السويس كان فى سبيله للتنفيذ • وقد

(١) F.O. 78/1333, Memo by Mr. Lunsden Jan. 1857.
(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 225.
(٣) Marston, T.E. : Ibid., pp. 223-226.
(٤) Simonin, M.L. : op. cit., p. 22.

رأى الفرنسيون أن رغبتهم هذه يمكن تحقيقها اذا ماسيطروا على جزيرة سقطرى ذات الموقع الممتاز المواجه للساحل الجنوبي للجزيرة العربية والذى يشرف على رأس جورد فوى على الساحل الشرقى لافريقيا (١) • ولهذا تقدمت احدى الشركات الفرنسية فى الآستانة فى شهر مايو سنة ١٨٥٩ بطلب الى الباب العالى للموافقة على شراء هذه الجزيرة •

وقد تنبه البريطانيون للمحاولة التى يقوم بها الفرنسيون لشراء جزيرة سقطرى ، ولهذا سارع « اللورد مالمسبورى Lord Malmesbury » الى ابلاغ « السير بولور Sir H. Bulwer » فور علمه بهذه المحاولة الفرنسية حتى يطلب من الباب العالى أن يرفض بيع هذه الجزيرة للفرنسيين • وقد تلقى « اللورد مالمسبورى » برقية من « السير مولور » ردا على البرقية السابقة ، وقد جاء فيها أن فؤاد باشا « يعتقد بأن جزيرة سقطرى الواقعة عند فوهة البحرالاحمر مملوكة لامام مسقط ، غير أنه اذا تبين أن الباب العالى له حق السيادة عليها فانه سوف يصدر الأمر المطلوب » (٢) ، ويقصد بذلك الأمر بعدم بيع هذه الجزيرة للفرنسيين •

وفى نفس الوقت قامت حكومه الهند البريطانية بمراجعة الوثائق المتوافرة لديها عن جزيرة سقطرى تمهيدا لاتخاذ بعض الخطوات التى من شأنها الضغط على امام مسقط حتى يرفض بيع سقطرى للفرنسيين • وقد أكدت هذه الوثائق انه منذ عام ١٨٣٥ قامت الحكومة البريطانية بمحاولة لشراء الجزيرة منسلطان « قشن Kisseen » كما أن قوة بريطانية عسكرت فى سقطرى حتى يتم الاتفاق بشأنها • غير أن سلطان قشن رفض بيع هذه الجزيرة ، بل انه لم يوافق حتى على بيع جزء منها ليكون مستودعا للفحم تزود منه السفن البريطانية العابرة ولهذا انتهت محاولة البريطانيين بجلاء تلك القوة البريطانية عن جزيرة سقطرى دون أن تحقق غايتها (٣) •

وقد نشر فى العدد الخامس من مجلة الجمعية الجغرافية الملكيةالبريطانية الصادر فى سنة ١٨٣٥ « Journal of the Royal Geographical Society » مقال كتبه أحد ضباط البحرية الهندية البريانية حينذاك وهو «الملازم ولستد J. R. Wellested » جاء فيه أن جزيرة سقطرى تقع على الطريق البحرى الهام الموصل الى الهند عبد البحر الاحمر من ناحية مدخله الجنوبى وهى تسيطر على هذا المدخل (٤) ، كما انها ملاصقة للطريق البحرى الذى تعبره السفن البريطانية التى تسلك طريق رأس الرجاء الصالح مما يكسبها أهمية استراتيجية بالغة(٥)

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 255.

(٢) I.O., B. 8, Memorandum on the Turiksh Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea, etc., p. 37.

(٣) Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, p. 118.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 255.

(٥) George, H.B. : A Historical Geography of the British Empire, p. 124.

وقد أشيع في سنة ١٨٠٠ أثناء حملة بونابرت على مصر أن الحكومة البريطانية حينذاك كلفت « القبطان بلانكت Commodore Blarket » أحد رجال البحرية البريطانية في الهند لاحتلال هذه الجزيرة نظرا لأهميتها ، غير أنه لم يوفق في ذلك ، وكان سلطان قشن في ذلك الوقت أيضا هو صاحب السلطة المعترف بها في تلك الجزيرة (١) ·

وجدير بالذكر أن الفرنسيين قد أبدوا اهتماما كبيرا بجزيرة سقطرى وحاولوا في سنة ١٨٤٧ دراسة شئونها ، الامر الذى أثار مخاوف المقيم السياسي البريطاني في عدن ، بل انهم كانوا يتطلعون في ذلك الوقت لايجاد موضع قدم لهم على الساحل الشرقي لافريقيا ، حيث كان « الكابتن جيوم » يقوم بنشاط كبير في تلك المنطقة · وكانت أنباء ذلك النشاط تصل تباعا الى عدن ، وتثير قلق البريطانيين البالغ هناك (٢) ·

وعلى أية حال فقد رأت الحكومة البريطانية ضرورة ابعاد أية محاولات فرنسية للسيطرة على جزيرة سقطرى حتى لا تشكل خطرا على مصالحها الحيوية في طريق مواصلاتها الى الهند · ولهذا اتفق «السير وود Sir C. Wood » مع « اللورد مالمسبورى Earl of Malmsbury » على ضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لاقناع صاحب سقطرى بعدم بيع هذه الجزيرة للفرنسيين · كما استقر الرأى على الاتصال بالمقيم السياسي البريطاني في عدن وبحكومة بومباى البريطانية للحيلولة دون حدوث ذلك (٣) · ولا شك أن ما كلف به المقيم السياسي البريطاني في عدن في هذا المجال ليوضح الدور الذى كان يناط بالسلطات البريطانية في عدن القيام به حينذاك لتنفيذ سياسة بريطانيا التى تهدف الى انفرادها بالنفوذ في الطريق البحرى الموصل للهند عبر البحر الاحمر وعند مدخله الجنوبي ، حماية للمصالح البريطانية وتحقيقا لأهداف بريطانيا الاستعمارية حينذاك ·

وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى جهود النمسا الاستعمارية في منطقة خليج عدن وعند المدخل الجنوبي للبحر الاحمر خاصة بعد أن أصبح الساحل الصومالي المواجه لعدن محط آمالها في منتصف القرن التاسع عشر · اذ بعثت حكومة النمسا أحد دبلوماسييها وهو قنصلها في الخرطوم وكان يدعى البارون « هيوجلن Baron Heuglin » الى بلاد الصومال ، غير أنه اختطف بعد وصوله الى الساحل بمعرفة القبائل المحلية ، ولم يطلق سراحه الا بعد دفع فدية كبيرة ، وبذلك قضى نهائيا على مهمته دون أن يحقق لبلاده فائدة تذكر (٤) · ولقد قيل

---

(١) Graham, G.S. : Great Britain in the Indian Ocean 1800-1850, pp. 290-291.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 144.

(٣) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea, etc., p. 38.

(٤) I.O., B.S.C. 1857, Coghlan to Bombay 9/28/57.

أن من أهداف النمسا حينذاك الاستيلاء أيضا على جزيرة سقطرى ، غير أن ذلك الهدف لم يتحقق على الاطلاق (١) ٠

سابعا : موقف البريطانيين فى عدن ازاء المنافسة الفرنسية فى منطقة البحر الاحمر وأثر ذلك على حقوق سيادة العثمانيين والمصريين والحكام المحليين فى المنطقة (١٨٣٩ - ١٨٦٩) :

تناولنا بالدراسة فيما سبق تطلعات البريطانيين لبسط نفوذهم فى منطقة البحر الأحمر وعلى الساحل الأفريقى المطل على خليج عدن من رأس جوردفوى شرقا حتى مضيق باب المندب غربا وذلك انطلاقا من وجودهم فى عدن منذمطلع عام ١٨٣٩ ٠ وقد اصطدم البريطانيون أثناء سعيهم لتحقيق ذلك بمطالب الدولة العثمانية بالسيادة فى منطقة البحر الاحمر من جهة ، وامتداد النفوذ المصرى ناحية الجنوب من جهة أخرى ، فضلا عن حكام البلاد الاصليين من جهة ثالثة ٠ غير أن البريطانيين اتبعوا سياسة مرنة مع العثمانيين الذين كانوا يبذلون جهودهم لتثبيت نفوذهم المتداعى فى الحجاز واليمن وعلى الساحل الغربى للبحر الاحمر ٠ على أن ماأزعج البريطانيين بالفعل وأقلقهم ، وهم يرقبون الاحداث عن كثب من قاعدتهم فى عدن ، هو ظهور المنافسة الفرنسية التى أصبحت تشكل أكبر تهديد للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الاحمر ٠

وكانت فرنسا قد اتجهت هى الاخرى لتنفيذ سياستها التوسعية الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر وخاصة على السواحل الأفريقية بعد أن قرر الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث أن الوقت قد حان لتحقق فرنسا تطلعاتها فى هذا المجال وذلك فى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٥٩ ٠ ولهذا بدأت الجهود الفرنسية تلاحق الجهود البريطانية للاستحواذ على السلطة والنفوذ فى المراكز البحرية ذات الأهمية الحيوية فى منطقة البحر الأحمر وخاصة على الساحل الغربى لهذا البحر وعلى الساحل الشرقى لافريقيا بوجه عام ٠ وقد نتج عن ظهور ذلك النشاط الفرنسى خلق عدة مشكلات تتعلق بحقوق السيادة العثمانية فى منطقة البحر الاحمر ، وصلة ذلك بامتداد النفوذ المصرى ناحية الجنوب ، هذا فضلا عن بعض المشكلات الاخرى المتعلقة بأهالى البلاد الاصليين وموقفهم من التدخل الاجنبى فى بلادهم ، على نحو ما حدث أيضا مع البريطانيين عند توجيه حملتهم على الحبشة فى سنة ١٨٦٧ مستفيدين غاية الاستفادة من وجودهم فى عدن فى ذلك الحين ٠

والأسئلة التى تطرح نفسها الآن تدور حول معرفة المراحل المتتالية لظهور النشاط الفرنسى فى منطقة البحر الاحمر كمنافس للمصالح البريطانية ، وكيف كان البريطانيون يرقبون هذا النشاط عن كثب من قاعدتهم الحيوية فى عدن ،

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 255.

وما هى معالم السياسة التى اتبعوها ليواجهوا المنافسة الفرنسية التى أصبحت تشكل تهديدا لمصالحهم فى منطقة البحر الاحمر وذلك منذ احتلالهم لعدن فى سنة ١٨٣٩ وحتى قبيل فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ .

- موقف البريطانيين ازاء النشاط الفرنسى المنافس على الساحل الافريقى للبحر الأحمر :

لقد بدأ النشاط الفرنسى المنافس للبريطانيين يظهر بوضوح على السباحل الافريقى للبحر الاحمر وخاصة فى سواحل الحبشة والصومال فى أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر . اذ قامت عدة بعثات استكشافية فرنسية اتصفت مظهريا بالصفة العلمية لاستكشاف هذه المناطق . وقد أوصت هذه البعثات فى تقاريرها الى ضرورة عدم ترك الدول الاخرى وخاصة بريطانيا تسبق فرنسا فى احتلالها لتلك المناطق .

وبعد الرحلات الاستكشافية التى قام بها الفرنسيان « كومب Combes » و « تاميزييه Tamisier » فى لفلترة الممتدة بين عامى ١٣٨٥ و ١٨٣٧ ، فقد قامت بعثات « فريه Ferret » و « جالينيه Gallinier » و « روجيه Roger » فى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٤١ . وقد أكدت تلك البعثات الاستكشافية الفرنسية سرعة نجاح البريطانيين فى بسط نفوذهم فى تلك البلاد انطلاقا من وجودهم فى عدن . بل لقد وضح لتلك البعثات ان الرحالة البريطانيين سبقوهم بزيارة الحبشة فى مطلع القرن التاسع عشر ، وكانت هذه نتيجة طبيعية ترجع للنشاط الذى كانت تقوم به شركة الهند الشرقية البريطانية بامكاناتها المعروفة(١) .

وازاء هذا النشاط البريطانى رأى الفرنسيون أن يرسلوا بعثة رسمية الى تلك المناطق كان يرأسها « كابتن دى فوسيه Des Fosses » فى سنة ١٨٤٦(٢) . ويمكن أن يقال عن النشاط الفرنسى فى منطقة البحر الاحمر حينذاك بأنه كان عملا من أعمال المخابرات الفرنسية يهدف بالدرجة الأولى الى مراقبة النشاط البريطانى فى منطقة البحر الاحمر المنطلق من القاعدة الحيوية لبريطانيا فى عدن على وجه الخصوص(٣) .

على أن هذه البعثات الفرنسية قد أصيبت فى أول أمرها بفشل تام ، اذ أوضح « الملازم فريه » أن بعثة « كومب » التى اشترك فيها قد فشلت فى زيلع، ولم تتمكن من اقامة منشأة فرنسية فى مصوع. نظرا لأن ادارة تلك الميناء

---

(١) Marston, T.E. : Op. cit., p. 118.

(٢) Martineau, A. : La Côte des Somalis, p. 851.

(٣) Marston, T.E. : Op. cit., p. 124.

عارضت محاولته بشدة وذلك لأنها لم تكن قد استلمت أى تعليمات من والى مصر حينذاك . وقد نصح « فريه » حكومته بأن تسرع فى أن تطلب من محمد على تنازلا عن مصوع ، نظرا لأنه كان يعتقد شخصيا فى سهولة الحصول على هذا التنازل ، لأن جمارك تلك الميناء لم تكن حصيلتها تزيد عن ١٨٠ ألف فرنك، ولم يكن يصل الى خزانة الحكومة المصرية منها سوى ٥٠ ألف فرنك لاغير(١)

كما أصر « فريه » فى تقريره بصفة خاصة على ابراز أهمية نشاط البريطانيين فى تلك الجهات ، ذلك النشاط الذى بدأ واضحا جليا بعدسيطرتهم على عدن فى سنة ١٨٣٩ . وأكد « فريه » لحكومته بأن البريطانيين لن يتراجعوا أمام أية تضحيات ولن يهملوا أى شىء فى سبيل دعم نفوذهم على جانبى البحر الاحمر . كما أن الأنباء التى وردت اليه مؤخرا أفادت بأن البريطانيين كانوا يدفعون مبلغ ١٠٤ الف فرنك سنويا للشريف حسين بن على بن حيدر حاكم تهامة اليمن (١٨٤٠ – ١٨٤٩) ، حتى يحصلوا على حق التجارة على طول الساحل الجنوبى لبلاد العرب . وأوضح « فريه » فى تقريره أيضا بأن العلم البريطانى كان يخفق حينذاك على زيلع وعلى تاجورة القريبتين من مضيق باب المندب . وأخيرا أكد « فريه » لحكومته بأن البريطانيين قد ذهبوا الى حنفيلة ومصوع لكى يشتروا هذين المناءين أو يمنعوا الفرنسيين من الاقامة فيهما(٢) حفاظا على مصالحهم البريطانية ، خاصة وأن الأمر كان سهلا أمامهم نتيجة لوجودهم فى عدن فى ذلك الحين .

أما بالنسبة لبلاد الحبشة التى زارها البريطانيون فى مطلع القرن التاسع عشر وسبقوا فى ذلك الفرنسيين ، فان وصولهم الى هناك فى ذلك الوقت المبكر كان نتيجة طبيعية للنشاط الذى بذلته شركة الهند الشرقية البريطانية . وازداد هذا النشاط بطبيعة الحال بعد سيطرة البريطانيين على قاعدتهم القريبة فى عدن . على أنه لم يكن أى رحالة فرنسى قد وصل الى الحبشة حتى سنة ١٨٣٥ . ولا شك انه من الصعب ان نفهم حقيقة الأوضاع والاحداث فى الحبشة دون أن نتعرف على النشاط الذى قام به الرحالة الذين زاروا هذه البلاد وقادوا كثيرا من البعثات الاستكشافية التى وصلت الى هناك . على أن التفصيلات الكاملة عن هذه البعثات موضحة فى كتاب « البعثات الكاثوليكية الفرنسية فى القرن التاسع عشر » (٣) . ومن هذا الكتاب نتبين ما أكده تقرير « فريه » السابق الاشارة اليه من قيام « كومب » و « تاميزيه » بدخول الحبشة عن طريق

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ١٢ . وقد استند الى تقرير الملازم اركان حرب « فريه » فى ٦ يناير سنة ١٨٤١ المحفوظ بأرشيفات وزارة المستعمرات الفرنسية F.O.M., 1014/1.

(٢) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ١٤ .

(٣) Pollet, J.B. : Les Missions Catholiques Francais Aux XIX Siecle Vol. 2., Abyssinie, Inde, Indo-Chine, N.D.C., 1900.

مصوع وانهما توغلا بعد ذلك في منطقة « جوندار » حيث تعيش قبائل «الجالا» وذلك في سنة ١٨٣٥ ، وانهما أوضحا تفاصيل رحلتهما في كتاب « رحلة في بلاد الحبشة » الذى صدر في باريس في سنة ١٨٣٨ (١) ·

ويوضح تقرير « كومب » عن هذه الرحلة ان وزارة البحرية الفرنسية أرسلت بعثة رسمية لاكتشاف الحبشة وسواحل البحر الاحمر · ورغم أن هذه البعثة بدا مظهرها علميا الى حد كبير ، فقد طلب منها تقديم تقرير يوضح مدى امكانية قيام الفرنسيين باستعمار الحبشة · ويمكن الاطلاع أيضا على تفاصيل هذه البعثة التى استمرت في الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٤٣ في كتاب « رحلة في الحبشة ١٨٣٩ — ١٨٤٣ » الذى ألفه « ليفيبفر Lefebvre » (٢) ·

وقد عرض حاكم منطقة « تيجرى » الحبشية على « ليفيبفر » في سنة ١٨٤٠ أن يتنازل لفرنسا عن خليج « حنفيلة » · ولكن الحكومة الفرنسية رفضت هذا العرض حينذاك نظرا لتشككها في حقوق السيادة التى يدعيها حاكم « تيجرى» على الساحل المطل على البحر الاحمر · كما رفضت الحكومة الفرنسية أيضا في ذلك الحين تنازل شركة « نانت بوردو La Société Manto-Bordelaise » الفرنسية عن منطقة واسعة في اقليم « عيد Edd » الواقع على الساحل الغربى للبحر الاحمر في منتصف المسافة بين مصوع وباب المندب (٣) ·

أما بالنسبة لموقف البريطانيين ازاء هذا النشاط الفرنسى على الساحل الافريقى المواجه لعدن فقد بدا واضحا عندما تحركت « اللجنة السرية The Secret Committee » التى تدير أمور شركة الهند الشرقية في لندن وأبلغت « هينز » المقيم السياسى البريطانى في عدن بأنباء تلك البعثة الفرنسية التى قام بها « كومب » و « تاميزيه » · وطلبت اللجنة من « هينز » أن يرسل ضابطا بريطانيا الى زيلع ليعمل على احباط محاولات الفرنسيين لبسط نفوذهم هناك ، على أن يمنح كافة الصلاحيات التى تخول له حق شراء محطة تتحكم في ميناء تاجورة · وجاء في خطاب اللجنة السرية المرسل الى « هينز » بأنها تثق في مقدرته على القيام بهذا العمل وعلى حسن توجيهه لمن سيوفده لاداء هذه المهمه في تلك المنطقة حتى يحفظ لبريطانيا هناك مصالحها التجارية والسياسية (٤) خاصة وأن الساحل الافريقى المواجه لعدن اذا ماتعرض لاى احتلال من قبل أية قوة أوربية فان ذلك من شأنه أن يشكل تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية في منطقة البحر الاحمر (٥) ·

---

(١) Combes, E. and Tamisier, M. : Un Voyage en Abyssinie, 4 Vols. ;

(٢) Lefebvre, C.T. : Voyage en Abyssinie 1839-1843. 6 Vols.

(٣) Douin, G. : Histoire du règne du Khédive Ismaïl, tome 3, 1ère partie, pp. 281, 283.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 121.

(٥) I.O., B.S.C. 1840, Secret Committee to Haines, 7/2/40

ولما كانت القبائل اليمنية المجاورة لعدن قد هدأت بعض الوقت نتيجة لفشل هجومها على البريطانيين فى ٧ يوليو سنة ١٨٤٠ ، فقد أدت حالة السلام المؤقت هذه الى جعل « هينز » قادرا على أن يوجه نشاطه بكامل ثقله الى هذا المشروع الجديد . ولهذا قام «هينز» بارسال «كابتن مورسبى Captain Moresby على ظهر السفينة » سيزوستريس Sesostris » كما أرسل الملازم « باركو Barker على ظهر السفينة « الفرات Euphrates ليتجها الى ميناء تاجورة على وجه السرعة . وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٤٠ عاد « مورسبى » الى عدن ، وأبلغ « هينز » بأنه قد نجح فى شراء جزر موسى ، الواقعة فى رأس خليج تاجورة من حاكمها المحلى بمبلغ ١١٠٠ كراون ، كما وقع معاهدة للصداقة مع القبائل القاطنة هناك (١) .

وفى نفس الوقت قام « هينز » بابلاغ « هودجس Hodges » قنصل بريطانيا العام بالاسكندرية عن نشاط الفرنسيين فى خليج عدن وسواحل البحر الاحمر موضحا له ان « السفن الفرنسية بدأت تظهر فى هذه البحار ويوجد أمامنا الآن سفينة فرنسية بها ثمانية عشر مدفعا ، وهى تنتظر وصول سفينة حربية فرنسية أخرى . أما فى مخا فتوجد سفينة حربية فرنسية أيضا ، كما توجد سفينة نقل مسلحة فى مصوع . ومن الواضح أن الفرنسيين يريدون وضع أقدامهم فى الحبشة » (٢) .

بل ان هينز طلب من مورسبى و باركر ان يقوما بشراء جزيرة صغيرة فى نهاية « قبة الخراب » وهو خليج صغير فى نهاية خليج تاجورة . كما قام هينز بتعيين « هاتشاتور J. Hatchatoor » وهو تاجر هندى ليكون وكيلا للبريطانيين فى تاجورة (٣) أما بالنسبة للمصالح البريطانية فى زيلع فكان يقوم برعايتها الشيخ « شارماركى على » الصومالى الذى كان يتمتع بنفوذ كبير على طول الساحل الافريقى المواجه لعدن وخاصة فى بربرة (٤) .

على أن السفن الفرنسية واصلت نشاطها فى البحر الاحمر وفى خليج عدن ، حتى أن هينز تلقى رسالة من حاكم ميناء « عيد Edd » الواقع جنوبى حنفيلة على الساحل الغربى للبحر الاحمر يخبره بأن الفرنسيين أرادوا أن يشتروا هذا الميناء (٥) . بل ان الفرنسيين حاولوا بعد ذلك أيضا التفاوض لشراء « حنفيلة » ذاتها من حاكمها مقابل مبلغ ٢٠٠٠ كراون . وتعرف « حنفيلة » بمينائها الممتاز الذى يعتبر أقرب ميناء للحبشة .

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 122.

(٢) F.O. 78/3/85, Hodges to F.O. 7/22/40, quoting a private letter from Haines.

(٣) I.O., B.S.C. 1840, Govt. of India to Govt. of Bombay 11/9/40.

(٤) Marston, T.E. : op. cit., 125.

(٥) I.O., B.S.C. 1840, Haines to Bombay 9/25/40.

وفى اليوم السادس من شهر يونيو سنة ١٨٤٠ قام الملك « سهلاسيلاسى» حاكم اقليم « شوا » وهو من أهم أقاليم الحبشة ، بارسال رسالة الى حكومة الهند البريطانية عن طريق المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، يطلب فيها توطيد أواصر الصداقة مع بريطانيا ٠ وقد فعل ذلك بايعاز من المبعوث البريطانى « كرايف Krapf » الذى كان قد وصل من قبل الى « شوا » قادما من عدن كما كان حاكم « شوا » متأثرا الى حد كبير بانتصار البريطانيين على العرب فى (١) عدن خاصة وأن الانباء التى كانت تصل اليه اتصفت بالمبالغة والتهويل٠ وقد ذكر الملك « سهلاسيلاسى » فى رسالته الى حكومة الهند البريطانية « ان الفنون والعلوم لم تصل بعد الى وطنى كما هى عندكم ، فانه يجدر بكم ان تساعدونى فى هذه المجالات ٠ والشىء الذى يمكن أن تبدءوا بمساعدتى به هو ارسال بنادق ومدافع ولوازمها من التى لا تتوفر عندى » (٢) ٠ كما أرسل « سهلاسيلاسى » الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن بعض الهدايا محاولا التقرب اليه (٣) ٠

وقد قام « كرايف » المبعوث البريطانى فى « شوا » بارسال خطاب رفق الخطاب المرسل من « سهلاسيلاسى » الى حكومة الهند البريطانية ، أوصى فيه بضرورة تدعيم النفوذ البريطانى فى « شوا » باعتبارها تتحكم فى واحد من الطرق التجارية الهامة التى تخترق القارة الافريقية ٠ بل انه يمكن بالسيطرة عليها وقف تجارة الرقيق وبسط النفوذ البريطانى فى وسط افريقيا وفى جانبها الشرقى ٠ واختتم خطابه بأن عزز مطلب « سهلاسيلاسى » بامداده بكميات من الأدوية المختلفة (٤) ٠ وقد رفع « هينز » هذين الخطابين الى حكومة بومباى التى رفعتها هى الاخرى الى حكومة الهند البريطانية بعد أن أوصت بارسال بعثة الى « شوا » لعقد معاهدة سلام وصداقة مع الملك «سهلاسيلاسى » ٠ كما أنها طلبت من « هينز » تحديد أفضل طريق للوصول الى هناك واقتراح أفضل الهدايا التى يمكن اهداؤها لملك « شوا » (٥) ٠

وفى نفس الوقت أرسل « كرايف » المبعوث البريطانى فى « شوا » خطابا الى « كامبل » قنصل بريطانيا بالاسكندرية حيث قام الاخير بابلاغه لوزارة الخارجية البريطانية ، التى قامت بدورها بابلاغه الى مجلس شئون الهند فى لندن فى اليوم الثانى من شهر ديسمبر سنة ١٨٤٠ ٠ وقد أبلغ المجلس وزارة

(١) F.O. 1/3, Krapf to Haines, August 1840.

(٢) F.O. 78/3185, I.O. to F.O. 11/21/40, enclosing letter from king of Shoa to Hajnese.

(٣) I.O., B.S.C., 1840, Haines to Bombay 9/25/40.

(٤) F.O. 78/3185, I.O. 11/21/40, enclosing Krapf to Haines 7/1/40.

(٥) I.O., B.S.C. : 1840, Minute by Board, 10/12/40.

الخارجية البريطانية بأن ثمة ترتيبات تم الاتفاق عليها تستهدف احباط محاولات الفرنسيين لبسط نفوذهم في « شوا » (١) وقد وافقت حكومة الهند البريطانية على ارسال بعثة الى « شوا » لتحقيق تلك الغاية وخولت حكومة بومباى اعداد كافة الترتيبات اللازمة (٢) ٠

على أنه في نفس الوقت استمر النشاط الفرنسى يتزايد في منطقة البحر الاحمر ، مما جعل الحكومة البريطانية في لندن تصدر أوامرها بارسال بعثة جديدة الى « شوا » واحدى سفن الاسطول الملكى البريطانى لتعزيز قوة حامية عدن على أن تتوجه فورا الى البحر الاحمر ، وذلك بعد أن تقاعست حكومة بومباى عن ارسال سفينه حربيه الى عدن حينذاك (٣) ، وقد قام « الملازم باركز Lietenant Barker » برسم خريطه لخليج تاجورة ، واختبر الطرق التى يمكن أن تمر بها تلك البعثة ٠ كما قام « هينز » بدراسة الطريق الموصله الى « شوا » باهتمام بالغ ، وحاول أن يجمع كافة المعلومات المفيدة التى جعلته يقتنع بأن أفضل طريق هو طريق تاجورة ٠ كما أنه رأى أن تكون البعثة من مبعوث أو مفوض ، ومن ضابط مهندس يمكنه أن يرسم خريطة للمنطقة ، وضابط من الفرسان أو المشاة ، وضابط طبيب ، ومساعد من الاهالى ، وعدد من المرشدين والحراس (٤) ٠ وقد أوصى « هينز » بأفضلية اختيار الحراس من الوطنيين حتى لا يؤدى ظهور حراس من الهنود الى اثارة حفيظة الأهالى مما يخلق مشكلات مع القبائل ٠ كما رأى انه يمكن الحصول على بعض الجمال والخيول من تاجورة (٥) ٠

وقد اختير لرئاسة هذه البعثة « كابتن وليم كورنواليس هاريس Captain William Cornwailis Harris » وهو أحد مهندسى شركة الهند الشرقية البريطانية وكان قد نال خبرة كبيرة أثناء عمله في جنوب افريقيا ٠ وقد سمح له باختيار مرافقيه من الضباط ، كما قام بالاشراف على الاستعدادات المختلفة ٠ وكان مزودا بسلطات كافية لعقد معاهدة للصداقة والتجارة باسم الملكة « فيكتوريا » مع « سهلا سيلاسى » ملك « شواوالجالا » ٠ ويستعرض الكتاب الذى وضعه « هاريس » نفسه كيفية تشكيل هذه البعثة وأسماء المشتركين فيها ٠ وقد ضمت البعثة خمسة ضباط آخرين منهم طبيبان وثلاثة مدنيين بالاضافة الى « هاتشاتور J. Hatchatoor » الوكيل البريطانى في تاجورة و ١٧

---

(١) F.O. 1/3, F.O. to I.B. 12/2/40, and I.B. to F.O. 12/14/40.

(٢) I.O., B.S.C. : 1840, India to Bombay 11/1/40.

(٣) F.O. 1/3, I.B. to F.O. 1/13/41, enclosing London to Bombay 10/26/40.

(٤) F.O. 1/3, I.B. to F.O. 1/13/41, enclosing Haines to Bombay 11/20/40.

(٥) Marston, T.E. : Op. cit., p. 129.

رجلا كحراس ، يرافقهم نجار وحداد وخادمان (١)

وقد أبحرت البعثة البريطانية من بومباى فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٤١ ورافقتها من عدن مجموعة من الحراس ، ثم وصلت الى تاجورة فى ١٨ مايو من نفس السنة . وقد واجهت البعثة صعوبات كثيرة كان من بينها هجوم رجال قبائل الدناكل على أفراد البعثة فى المساء ونتج عن ذلك مقتل اثنين من الضباط البريطانيين (٢) . وقد وصلت البعثة الى « انكوبار » فى « شوا » فى ١٨ يوليو سنة ١٨٤١ (٣) . وقد تبين « هاريس » أن النفوذ الفرنسى هناك كان قويا فى نفوس أهالى المنطقة رغم عدم وجود أحد من الفرنسيين هناك فى ذلك الحين (٤) . على أن الملازم « باركر » قرر العودة عبر الطريق الممتد من هرر الى زيلع وبعد أن بدأ مسيرته أصيب بمرض الحمى ونقل الى تاجورة (٥) . ولا شك أن البعثة واجهت أثناء عودتها صعوبات جمة . وقد أرسل « هاريس » الى « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن رسالة أوضح فيها لن الوعود التى قدمها الملك « شوا » المبعوث الفرنسى « روشيه M. Rochet » الذى زار « شوا » قبل وصول البعثة البريطانية اليها قد تركت تاثيرات طيبة فى نفسية الملك . وكانت رسالة « هاريس » هذه هى آخر رسالة تصل من البعثة نظرا لأن الطريق قد أغلقت بعد ذلك نتيجة للاضطرابات القبلية الداخلية فى ذلك الحين (٦) .

أما بالنسبة لما لقيته بعثة « هاريس » البريطانية فى « شوا » فى ذلك الحين فقد قوبلت هناك بمعاملة طيبة وبنجاح قليل ، بينما أسدل بعد ذلك ستار من النسيان فى الهند على أنباء هذه البعثة . وقد أقنع « هاريس » ملك « شوا » بتوقيع معاهدة للتجارة والصداقة مع بريطانيا فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١ . ونظرا لأن المعاهدة لم يكن لها تأثيرات فعالة (٧) ، فسوف نشير فقط الى بعض بنودها . فقد حددت المادة الخامسة منها أن « سهلاسيلاسى » وخلفاءه لن يفرضوا ضرائب أو رسوم أكثر من ٥٪ فقط من قيمة البضائع على التجارة الانجليزية التى تستورد الى بلادهم أو التى تمر عبرها . كما حددت المادة التالية من هذه المعاهدة طريقة تثمين قيمة تلك البضائع ودفع الرسوم اما نقدا أو عينا حسب رغبة التجار أنفسهم . وقد تعهد كل من « سهلاسيلاسى » والملكة « فيكتوريا » (ببذل كل ما فى وسعهما لكى تبقى طرق التجارة مفتوحة،

---

(١) Harris, W.C. : The Highlands of Ethiopia, pp. XIV, XXIV.

(٢) I.O., B.S.C. 1841., Haines to Bombay 7/25/41.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 132.

(٤) I.O. B.S.C. : 1841, Haines to Secret Committee 9/15/41.

(٥) Barker, Lentenant W. : «Narrative of journay to Shoa» in Forrest, George W., ed., Selections from the Travels and Journals Preserved in the Bombay Secretariat, p. 9.

(٦) I.O., B.S.C. : 1841, Harris to Haines 10/15/41.

(٧) Aitchison, C.U. : op. cit., vol. VII, pp. 185, 187.

ولتأمين المواصلات بين ساحل البحر الأحمر وبلاد الحبشة ، وللمحافظة على سلامة التجار وبضائعهم وأموالهم • كما تعهدت حكومة الحبشة بالا تقيم أية عقبات أمام المسافرين البريطانيين سواء من كان يرغب منهم فى الاقامة فى الحبشة أو من كان يرغب فى مواصلة السفر فيما وراء حدود تلك المنطقة (١) •

على أن الفرنسيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام ذلك النشاط البريطانى الملحوظ • اذ قام العالم الفرنسى «روشيه ديريكور Rochet d'Héricourt» فى سنة ١٨٣٩ بالسفر الى تاجورة ، ثم اتجه الى « شوا » حيث وصل اليها بعد ثلاثة أشهر • وقد حظى « روشيه » بصداقة الملك « سهلاسيلاسى » الذى أرسل معه بعض الهدايا الى ملك فرنسا « لويس فيليب » (٢) • ولما كانت نتائج هذه الرحلة مشجعة فقد عاد « روشيه » مرة أخرى فى سنة ١٨٤٢ وحصل على توقيع الملك على معاهدة سياسية وتجارية أعطت للفرنسيين مزايا خاصة فى تلك المناطق الأفريقية (٣) • كما أنها أظهرت ميل « سهلاسيلاسى » الى جانب فرنسا • غير أن هذه المعاهدة لم تطبق نظرا لأن التجار الفرنسيين لم يحضروا حينذاك بصفة مستمرة (٤) • وبذلك اصبحت الأوضاع فى « شوا » منذ عام ١٨٤٣ شبه مجهولة من جديد بالنسبة للأوربيين نظرا لأن المعاهدتين البريطانية والفرنسية لم توضعا موضع التنفيذ • واستمر هذا الوضع قائما حتى بداية عهد « منليك Menelik » فى سنة ١٨٧٠ •

ولكن ما هى الدوافع الحقيقية للبريطانيين لارسال بعثة « هاريس » التى كلفتهم أموالا طائلة خاصة وأن حكومة بومباى قررت ذلك فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٤٠ بحجة اكتشاف منطقة « شوا » • فعلى الرغم من أن حكومة بومباى رفضت مطلب « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن لتوجيه حملة الى لحج فى ١٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ وذلك ليأمن جانب القبائل اليمنية المعادية بما يساعده على اقرار الأمور فى عدن نفسها ، وبنت الحكومة رفضها على عدم توفر الأموال اللازمة لذلك • كما أن حكومة بومباى حذرت « هينز » من احداث أى تصادم مع حاكم مخا بعد أن تعرض العلم البريطانى هناك للاهانة ، لأنها ارادت أيضا ألا تقحم نفسها فى مشكلات تحملها أعباء مالية جديدة • فعلى الرغم من كل ذلك رأت بريطانيا أن ترسل بعثتها الى « شوا » نظرا لوجود سبب قوى دفعها الى ذلك • ويرجع السبب الى ظهور المنافسة الفرنسية للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندى فى ذلك الحين (٥) •

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال • ص ١٥ •

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 133.

(٣) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ١٦ •

(٤) Martineau, A. : op. cit., p. 581.

(٥) Morston, T.E. : op. cit., p. 134.

اذا كانت هناك مباراة كبرى أشبه بمباراة للشطرنج يلعبها الساسة البريطانيون والفرنسيون فى وزارتى الخارجية بلندن وباريس على خريطة العالم • وكان يقصد بها التحكم فى المياه الجنوبية من رأس الرجاء الصالح الى جنوب المحيط الهادى • وكانت هذه المباراة أحد مظاهر الاستعمار الأوربى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الناتج عن حرص القوى الكبرى على تأسيس خطوط من القواعد الاستراتيجية التى يمكن عن طريقها تعويق النشاط البحرى لسفن الأعداء •

وكانت القاعدة الفرنسية الرئيسية فى المحيط الهندى تتركز فى جزيرة « بوربون Baurbon » التى تعرف حاليا بجزيرة « ريونيون Réunion » وهى التى أعادتها بريطانيا لفرنسا بعد الحروب النابليونية • وكانت فرنسا قد جددت علاقاتها مع زنجبار فى صيف عام ١٨٤٠ وبجزيرة « نوسى بى Mossi-Bé » المواجهة للساحل الشمالى الشرقى لمدغشقر باحتلالها فى سنة ١٨٤١ ، ثم بدأت بعد ذلك محاولات الفرنسيين بالنسبة لجزر « كومورو Comorro » وجزر « تاهيتى Tahiti » التى ضايقت حكومة بومباى البريطانية الى حد بعيد •

وكان البريطانيون يرقبون بقلق شديد ذلك الامتداد الفرنسى فى البحار الشرقية منذ عام ١٨١٥ (١) ، فضلا عن محاولات الفرنسيين على مقربة من الجزر البريطانية فى أوربا ، ثم سيطرتهم على الجزائر فى سنة ١٨٣٠ ، وموقفهم أثناء الأزمة الدبلوماسية مع محمد على فى نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر • وقد أظهر كل ذلك تصادما واضحا وعنيفا بين المصالح البريطانية والفرنسية ، وكانت حكومة لندن تقدر خطورته أكثر مما كانت تفعل حكومة بومباى • وقد انتشرت القوات البريطانية والفرنسية فى عرض المحيط الهندى فى دقة متناهية • وكان ظهور سفينة صغيرة وعلى ظهرها أحد الموظفين الرسميين يعنى أنها تتجه لتسيطر على جزيرة من الجزر أو على منطقة من مناطق المحيط (٢) •

على أن حسن استخدام « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن للقوة البحرية الصغيرة التى كانت لديه ، قد أضعف الى حد كبير جهود الفرنسيين الاستعمارية المنافسة فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن • كما أن تعيين « هامرتون Hàmerton » كمقيم سياسى بريطانى فى زنجبار فى سنة ١٨٤٠ قد أنهى النفوذ الفرنسى هناك • أما بالنسبة لـ « تاهيتى Tahiti » فان غياب المقيم السياسى البريطانى عن الجزيرة فى سنة ١٨٤١ جعل الفرنسيون يسيطرون عليها وبذلك فقدها البريطانيون • وهكذا كانت تجرى المباراة

(١) Graham, G.S. : Great Britain in the Indian Ocean 1810-1850, p. 297.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 134, 135.

الكبرى فى التنافس الاستعمارى بين البريطانيين والفرنسيين فى البحـــار الشرقية بوجه عام وفى البحر الأحمر وخليج عدن على وجه الخصوص ٠

ويمكن ان تفسر الحادثة التالية موقف البريطانيين فى عدن ازاء النشاط الفرنسى فى منطقة البحر الأحمر فى منتصف العقد الخامس من القرن التاســع عشر ٠ اذ مرت سفينة فرنسية تعرف باسم « التمساح The Crocodile » بميناء عدن فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٤٤ ، وكان يقودها « الكابتن روبين Captain Robin » وكانت تحمل معها فقط خمسة أطنان من الفحم بعد أن مرت بالساحل الشرقى لافريقيا ٠ وقد طلب « روبين » من « كابتن هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن تزويد سفينته بكمية من الفحم تبلغ ١٨٥ طنا ، وقد رحب « هينز » بذلك ٠ وعندما سئل « روبين » عن الهدف من رحلتــه فقال انها بغرض اكتشاف البحر الأحمر نظرا لأنه كان مجهولا تماما بالنسبة للبحرية الفرنسية ٠

كما أضاف « روبين » الى ذلك قوله بأن السفن الفرنسية التى ظهرت فى البحر الأحمر هى ملك خاص لأصحابها ٠ على أن « هينز » قد ساورته الشكوك فى ذلك وتوقع أن الفرنسيين يبحثون عن مركز أو قاعدة لهم فى البحر الأحمر ، خاصة وأنه سبق أن أحيط علما بأن الضابط الفرنسى المســئول فى جزيرة « بوربون » كان سيزور عدن فى فبراير أو مارس سنة ١٨٤٥ (١) ٠

وعندما علمت حكومة بومباى بأن « هينز » قام بتزويد السفينة الحربية الفرنسية بحاجتها من الفحم (٢) فانها انتقدت تصرف « هينز » بشدة حتى أن « آرثر Arthur » حاكم بومباى بعث اليه يقول : « اننا لســنا مضطرين لتقديم المساعدة لتلك الرحلات الاستكشافية لحساب أى منافس حتى ولو كان دولة صديقة » (٣) ٠

ولهذا سرعان ما صدرت الأوامر من حكومة الهنــد البريطانية للمقيم السياسى البريطانى فى عدن بأن يعتذر عن تقديم الفحم للسفن الفرنسية بطريقة مهذبة يستند فيها الى قلة الكمية المخزونة لديه ، وذلك فيما عدا حالات اللجوء الاضطرارى للسفن الى ميناء عدن (٤) ٠

وأثناء مناقشة هذا الموضوع فى دوائر حكومة الهند البريطانية فقـــد رأى « الجنرال ماكماهون General Mac Mahon » أن «هينز» لم يكن من الأفضل أن يرفض مطلب قبطان السفينة الفرنسية بتزويدها بكميات الفحم اللازمه

(١) I.O., B.S.C. 1845, Haines to Bombay, 12/20/44.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 137

(٣) I.O., B.S.C. 1845, Minute by Governor Arthur 1/13/45.

(٤) I.O., B.S.C. 1845, India to Bombay 2/8/45.

لها ، رغم أنه أيد فى نفس الوقت تحذير « هينز » من الاستجابة لمثل هـذا الطلب فى المستقبل (١) ، واعتبرت هذه الدوائر أن تلك الحادثة خطيرة • وقد تأكد ذلك فعلا عندما شوهدت هذه السفينة « التمساح » أخيرا أمام الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية على مقربة من ميناء المكلا اليمنى وبعيدة عن خط السير الذى كان محددا لها بالعودة مباشرة الى جزيرة « بوربون » (٢) • وكان واضحا اذن أن الوقوف لأخذ الفحم من عدن كان مقصودا به أمرا آخر ، ولم يكن مجردا من الأغراض الأخرى على نحو ما كان يؤكده قبطان السفينة بأنه حادث عفوى مفاجىء •

وجدير بالذكر أن فرنسا أرسلت أيضا حملة استكشاف أخرى الى الحبشة فى سنة ١٨٤٤ كلف بها القبطان « روما ديفوسيه » قائد محطة « البربون » و « مدغشقر » البحرية فى ذلك الحين • وكان ذلك استكمالا للدراسات المتعلقة بالبلاد المحطية بالبحر الأحمر وبخليج عدن (٣) • غير أن فرنسا لم تبدأ فى تطبيق سياستها التوسعية بناء على هذه الدراسات الا فى عصر امبراطورية نابليون الثالث فى سنة ١٨٥٨ ، وكان تطبيقها فى « زولا » وفى « أوبوك » (٤) •

وفى شهر مارس سنة ١٨٤٥ وصلت الى ميناء عدن سفينة فرنسـية صغيرة اسمها « زيلى Zelée » وقد طلب قبطانها من المقيم السياسى البريطانى باسم حاكم الجزيرة « بوربون » الفرنسى تزويد السفن الفرنسية بالفحم اللازم لها بصفة دائمة ، أما فى حالة تعذر تحقيق ذلك فقد طلب التصريح للفرنسيين باقامة محطة للفحم فى عدن نفسها باعتبارها الميناء الصالح للملاحة فى كل فصول السنة • غير أن « هينز » أجاب هذه المرة موضحا بان كميات الفحم الموجودة فى عدن هى ملك لحكومة الهند أو بالأحرى « لشركة البواخر الشرقية البريطانية The Penisular and Oriental Steamship Company » هذا فضلا عن أنه ليست لديه صلاحيات التصريح باقامة محطة فرنسية للفحم فى عدن لتزويد السفن الفرنسية (٥) • وكانت حكومة الهند البريطانية قد طلبت من « هينز » ألا يدلى بأية تصريحات عن امكانية اقامة محطة للفحم لتزويد السفن الفرنسية المارة بميناء عدن دون أن يرجع فى هذا الصدد الى حكومة بومباى (٦) •

على أن قيمة عدن وأهميتها بالنسـبة للبواخر الفرنسية العـاملة بين الصين والسويس أخذت تتزايد حتى أنها تضاعفت بشكل ملحوظ فى منتصف

---

(١) I.O., B.S.C. 1845, Minute by Mac Mahon N.D., Without Number.

(٢) I.O., B.S.C 1845, Haines to Bombay, 12/30/44.

(٣) Graham, G.S. : op. cit., p. 101.

(٤) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٢٦ .

(٥) I.O ..B.S.C. 1845, Haines to Secret Committee 3/11/45. and Haines to Bombay 3/12/45.

(٦) I.O., B.S.C. 1845. Govt. of India to Bombay 4/25/45.

العقد الخامس من القرن التاسع عشر . وقد كرر قادة هذه السفن طلبهم للتزود بالفحم من عدن ، وفى حالة عدم وجود ما يكفى لذلك فقد استفسروا عن امكانية اقامة محطة فرنسية للفحم فى عدن باعتبارها أصلح ميناء للتزود بالفحم فى المنطقة بل لقد زادت أهمية عدن بالنسبة للسفن الفرنسية بصفة خاصة بعد أن استخدمت الباخرة الفرنسية المسماة « أرشميد Archimede » والتى وصلت الى عدن فى ١٩ أبريل سنة ١٨٤٥ وكانت متجهة من الصين الى السويس محملة بمهمات خاصة بالحكومة الفرنسية . وقد طلب قبطانها تزويد سفينته بكمية من الفحم مقدارها ٢٨٥ طنا حتى تساعده فى الوصول الى السويس . وقد رفض « هينز » تحقيق تلك الغاية بناء على ما أوصته به حكومته ، ولكنه فى نفس الوقت اقترح على قائد الباخرة تزويدها بالفحم عن طريق أهالى عدن وليس عن طريق الادارة البريطانية هناك (١) . وكانت هذه السفينة هى أول سفينة فرنسية تستخدم هذا الخط الملاحى الجديد للمواصلات ، وأصبحت بذلك فرنسا ثانى دولة اوربية بعد بريطانيا تستخدم البحر الأحمر كطريق للبواخر باعتباره أقصر طريق للمواصلات بين الشرق والغرب (٢) .

وقد علم المقيم السياسى البريطانى فى عدن عن طريق التقارير الصادرة من قنصل بريطانيا فى مصر بأن الفرنسيين يحاولون شراء مصوع أو مخا من الباب العالى لتكون لهم قاعدة فرنسية فى البحر الأحمر ، غير أن محاولاتهم لم تتحقق (٣) . ولكن اللجنة السرية التى كانت تدير شئون شركة الهند الشرقية فى لندن أبلغت حكومة الهند البريطانية بأنها لا تعارض فى انشاء محطة فرنسية للفحم فى عدن ، بل انها تعتبر ذلك ضمانا لتأمين المصالح البريطانية فى البحر الأحمر نظرا لأن مثل تلك المحطة ستكون تحت نظر البريطانيين وتحت سيطرتهم بحكم وجودهم فى عدن . كما أن اللجنة رأت وجود تلك المحطة سيجعل الفرنسيين لا يبحثون عن مواقع أخرى فى منطقة البحر الأحمر يستعمرونها لتحقيق تلك الغاية (٤) .

غير أن الحاكم العام للهند لم يقتنع بهذه الفكرة وذلك نظرا لاعتقاده بأن رفض اقامة محطة فرنسية للفحم فى عدن سوف يحبط أى اتجاه أو محاولة للفرنسيين لاستخدام السفن البخارية فى البحر الأحمر ، كما سيعوقهم عن تحقيق ذلك ضخامة التكاليف التى تستلزمها اقامة مثل هذه المحطة (٥) . ولهذا

---

(١) I.O., B.S.C. 1845. Haines to Bombay 4/20/45. and B.S.C. 1845, Haines to Commodore Blackwood, 7/28/45.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 138.

(٣) I.O., B.S.C. 1845, Haines to Bombay 8/25/45.

(٤) I.O., B.S.C. 1845, India to Bombay 11/19/45, enclosing Secret Committee to India 8/15/45.

(٥) I.O., B.S.C. 1845. India to Bombay 11/19/45 enc. India to Secret Committee 11/18/45.

قام بابلاغ « هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بالا يتصرف بموجب خطاب اللجنة السرية دون أن تصـــدر اليه الأوامر من حكومة الهنـــد البريطانية (١) ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد أبرمت اتفاقية انجلترا بين الحكومة الفرنسية وبين « شركة البواخر الشرقية البريطانية P. & O. Steamship Company لتزويد السفن الفرنسية بالفحم (٢) ٠ وقد تلقت حكومة بومباى أنباء هذه الاتفاقية بمرارة نظرا لأنها اعتبرت « أنه بناء على هذه الترتيبات فقد منح الفرنسيون محطة للفحم فى عدن » (٣) ٠

ـ موقف البريطانيين فى عدن ازاء التوسـع المصرى على الساحل الافريقى للبحر الأحمر :

طرأ على الساحل الافريقى للبحر الأحمـر تطور جديد ساعد على امتداد النفوذ المصرى ناحية الجنوب ٠ فقد رأى الباب العالى ــ ازاء استمرار نشاط الأحباش المعادى فى مصوع ــ أنه اذا ظل يرفض مطلب حكومة محمد على بشأن سواكن ومصوع ، فقد يصبح من المتعذر بعد ذلك الاحتفاظ بهذين الميناءين بعيـدا عن أيدى الأحباش وخصـــوصا رأس « تيجرى » المعروف باطماعه فى المنطقة ، بل انه قد تتعرض للضياع فى هذه الحالة حقوق السيادة العثمانية على الساحل الافريقى للبحر الأحمر بأكمله ٠ وبناء على ذلك فقد وافق الباب العالى فى شهر سبتمبر سنة ١٨٤٦ (٤) على تأجير ميناءى سواكن ومصوع لمحمد على مدى حياته (٥) ٠

وفى شهر مارس سنة ١٨٤٧ جاء اسماعيل حقى أفنـــدى للاضطلاع بشئون الادارة فى مصوع وسواكن من قبل الحكومة المصرية ٠ كما حضر أيضا « الياس اغا » رأس الجند الذى أخبر القنصل الفرنسى « دى جوتان De Goutin بأن محمد على كلفه بالقيام بتفقد أحوال الساحل الافريقى للبحر الأحمر حتى مضيق باب المندب فى أقصى الجنوب (٦) وقد قام اسماعيل حقى حاكم مصوع بنشاط ملحوظ عندما شرع فى اعداد احصاء تقريبى للقبائل المنتشرة على طول الساحل بين سواكن وبربرة توطئة للاستيلاء على كل الساحل الافريقى حتى رأس جوردفوى باسم والى مصر على النحو الذى صرح به للقنصل الفرنسى هناك ٠

---

(١) I.O., B.S.C. 1845, Minute 12/15/45.

(٢) I.O., B.S.C. 1846, Haines to Bombay 12/26/45.

(٣) I.O., B.S.C. 1846, Minute 1/9/46.

(٤) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والســـيادة على الســـودان ؛ الوضع التاريخى للمسألة ، ص ٢٣ .

(٥) Longrigg, S.H. : Short history of Eritria, p. 86.

(٦) Douin, G. : Histoire du Régne du Khedive Ismail, 1re partie, p. 238.

وكانت الحكومة المصرية قد قررت ضم الأراضى الممتدة على الساحل الغربى للبحر الأحمر التى كان للعثمانيين حق السيادة عليها منذ القرن السادس عشر على النحو الذى سبق الاشارة اليه ٠ وقد فعلت ذلك بعد أن فشلت حينذاك فى انشاء علاقات طيبة مع نجاشى « جوندار » باعتباره صاحب السلطة المركزية فى الحبشة ٠ وكان محمد على يفضل توثيق العلاقات الطيبة معه ، خاصة وأن الأراضى المصرية أصبحت بعد امتلاك مصوع متاخمة للحبشة ٠ ولذلك فقـــد أرسل الى نجاشى « جوندار » رسولا يعرض عليه صداقته ، ولكن هذا الرسول لم يصل الى « جوندار » اذ أوقفه الرأس « والدى سيلاسى Walde Sellasse فى مدينة « اكسوم » واغتصب الهدايا التى أرسلها محمد على للنجاشى ، ثم رد الرسول الى مصر بعد أن أرسل معه للباشا قميصا أبيض من القطن وثوبا من ثياب البلاد الوطنية ومبلغا من المال (١) ٠

بل انه كان من أسباب توتر العلاقات بين مصر والحبشة حينذاك اخفاق الحكومة المصرية فى الاتفاق سلميا مع الأحباش على الرغم من محاولاتها المتكررة فى هذا السبيل (٢) ٠ ولهذا رأت الحكومة المصرية أن ترسل حملة من سواكن ومصوع لغزو الحبشة والاستيلاء على جميع أراضى الساحل الغربى للبحر الأحمر التى دخلت فى حوزة الدولة العثمانية منذ الاستقلال الأول من القرن السادس عشر (٣) ٠ غير أن هذا النشاط المصرى كان من شأنه بطبيعة الحال أن يهدد الحبشة بالخطر ، كما يترتب عليه الى جانب اتساع دائرة النفـــوذ المصرى فى الباشوية التى كان من سياسة الحكومة البريطانية حينذاك أن تجعل نفوذها محصورا فى نطاق الحدود التى رسمتها الفرمانات السلطانية فى سنة ١٨٤١ ٠ وكان من الطبيعى أن يؤثر ذلك فى المصالح البريطانية فى البحر الأحمر خاصة بعد أن أصدر السلطان العثمانى فرمانا بنقل ملكية ميناءى سواكن ومصوع لمحمد على فى سنة ١٨٤٧ ٠

ولهذا فقد سارع « اللورد كاولى Lord Cowley » السفير البريطـــانى بارسال صورة من فرمان نقل ملكية ميناءى سواكن ومصوع الى « اللـــورد بالمرستون » الذى رأى فى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٧ أن يلفت نظر الباب العالى الى ما ينطوى عليه تنازل الدولة العثمانية لهينز عن ادارة ميناءى ســـــواكن ومصوع من تعد وافتئات على الحبشة ، فضلا عن أن ذلك كان من شأنه تعطيل العلاقات التجارية التى تسعى بريطانيا الى انشائها مع هذه البلاد (٤) ٠ وكان

---

(١) Douin, G. : Histoire du Soudan Egyptien, p. 59.

(٢) Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan 1863-1879, p. 257.

(٣) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسـع الايطالى فى شرق افريقيـا وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ٦٨ ٠

(٤) Douin, G. : Histoire du Régne du Khedive Ismail, tome 3, 1re partie, p. 239.

« بالمرستون » يعلم بطبيعة الحال بأن محمد على اذا ما شدد قبضته على سواكن ومصوع فانه سوف يتدخل فى التجارة الافريقية ، وسوف ينشىء علاقات قوية مع سكان المناطق الداخلية فى القارة بما يؤثر على التجارة والمصالح البريطانية هناك • وكان ذلك هو السبب الرئيسى الذى دفع البريطانيين الى الوقوف من الباب العالى هذا الموقف المعارض لكى يعـــدل قراره السابق الخاص بالتنازل لمحمد على عن سواكن ومصوع • خاصة وأن الحكومة البريطانية كانت قد أنشأت فى سنة ١٨٤٧ قنصلية بريطانية فى مصوع كان الهدف من ورائها الوقوف على مجريات الأمور فى تلك المناطق الهامة ، بينما كان الغرض الظـاهرى منها هو رعاية المصالح التجارية وزيادة حجم التجارة مع الحبشة • وقد قام «بالمرستون» بتعيين « والتربلودن Walter Plowden » قنصلا لبريطانيا فى مصوع فى اليوم الثالث من يناير سنة ١٨٤٨ (١) •

وقد طلب « اللورد بالمرستون » من « بلودن » فى التعليمات التى كلفه بتنفذها ان يحيط الحكومة البريطانية علما بمدى ما لنائب « اركيكو » من حقوق كحاكم مستقل ، وأن يتحقق مما اذا كانت الحكومة العثمانية تتمتع فعلا بسيادة شرعية فى جزيرة مصوع من ناحية ، وعلى نائب « اركيكو » فى الساحل من ناحية أخرى ، بل ان « بالمرســـتون » أكد « لبلودن » احاطة الحـــكومة البريطانية بهذه المعلومات هو أمر ضرورى ، اذ بمعرفتها تستطيع حكومة جلالة الملكة اتخاذ قرار بشأن المكان المناسب لتأسيس القنصلية البريطانية فى مصوع أو فى الساحل • على أنه اذا كانت حقوق السيادة العثمانية تشـــمل جزيرة مصوع فقط ، فانه من الأفضل أن تؤسس القنصلية البريطانية على الساحل الخاضع للحبشة ، تسهيلا لمهمة انشاء علاقات تجارية معها •

وعلى الرغم من أن « اللورد بالمرستون » قد أوضح « لبلودن » قنصل بريطانيا فى مصوع أن الحكومة البريطانية بتأسيسها قنصلية لها على الساحل الغربى للبحر الأحمر سواء بطريق الشراء أو بغير ذلك من الوسائل ، لا تقصد الاستيلاء على أى جزء من القارة الافريقية فى هذه الجهـــة أو على أية جزيرة مجاورة ، وان غرضها الوحيد هو تشجيع وتوســـيع التجارة البريطانية مع الحبشة ، فانه يمكن أن نتبين بوضوح معالم سياسة البريطانيين لتدعيم نفوذهم فى تلك المناطق • اذ أن « اللورد بالمرستون » قد كلف القنصل البريطانى فى مصوع بأن يعقد مع « الرأس على » ــ صاحب السلطة الفعلية فى « جوندار » ــ معاهدة صداقة وتجارة لتشـجيع المعاملات التجارية بين الشـــعبين الحبشى والبريطانى • ولكن « بالمرستون » فى نفس الوقت وصف مركز « الرأس على » بأنه ليس فى الواقع سوى « حاكم فى الحبشة » حتى أنه من المحتمل أن يكون حاكما لفترة مؤقتة فقط ، ولهذا من الضرورى أن تعقد المعاهدة المزمعة باسم

(١) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea .. etc., pp. 28, 30.

الامبراطور « نجاشى جوندار » أو باسمى الامبراطور و « الرأس على » معا ، و أنيقوم كلاهما بالتوقيع عليها (١) ٠

ولهذا فعلى الرغم من أن هذه التعليمات الصريحة التى تجعل مهمـــة « بلودن » فى الحبشة تجارية بحتة ، فانه قد أظهر هناك نشاطا سياسيا أكثر منه تجاريا ، وزج بنفسه فى المنازعات القائمة بين الرءوس الأحباش ، فانضم الى جانب السلطة المركزية فى « جوندار » ضد حاكم « تيجرى » ، واعتمد على الأسقف سلامة الذى كان يميل للتعاليم البروتستانتية فى التخلص من الارسالية الكاثوليكية التى كانت تؤيدها فرنسا فى « تيجرى » (٢) ٠ وقد نجح « بلودن » فى عقد معاهدة للصداقة والتجارة مع « الرأس على » فى اليوم الثانى من نوفمبر سنة ١٨٤٩ (٣) ٠ ومع ذلك فقد بقيت هذه المعاهدة حبرا على ورق طوال حكم هذا « الرأس » الذى استمر حتى سنة ١٨٥٥ ، كما لم يعترف بهذه المعـاهدة أيضا « النجاشى تيودور » الذى سيطر على زمام الأمور فى الحبشة فيما بعد ٠ على أن مركز « بلودن » فى بلاد الحبشة بعد ابرام هذه المعاهدة لم يكن ممـــا يحسد عليه كثيرا ، اذ يدل على ذلك قول « بلودن » نفسه بأنه قنصل اسما فقط ، لأنه لا يتمتع بأية سلطات قنصلية ، ولا يقوم بأى نشاط تجارى خارجى كما أنه لم يوجد فى الحبشة رعايا بريطانيين يقوم بحمايتهم (٤)

وجدير بالذكر أن بريطانيا على الرغم من معارضتها حينذاك لمشروعات مصر التوسعية فى الحبشة والساحل الغربى للبحر الأحمر ، فانه لم تتعرض أمام الأمر الواقع لحقوق السيادة العثمانية على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ٠ غير أن مشروعات الباشوية المصرية من أجل التوسع فى هذه المناطق لم تلبث أن تركت جانبا عندما دهم الموت محمد على قبل أن يتمكن من تنفيذها ٠ ولا شك فى أنه قد تأيد بفضل نشاط السياسة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الاعتراف أو التسليم بأنه كان للسلطان العثمانى وبالتـــالى للباشوية المصرية ، حقوق فى السيادة الشرعية ، امتدت على طول الســاحل الافريقى للبحر الأحمر من حدود الباشوية المصرية فى الشمال الى جوردفوى فى الجنوب بما فى ذلك الحبشة ، وأن الدول الأوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا لم تستطع منازعة الباشوية المصرية حقوق السيادة على هذا الساحل (٥) ٠

---

(١) F.O., Doc. No. 5, Viscount Palmerston to Mr. Plowden, January 3, 1948, p. 8.

(٢) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome 3, 1ère partie, p. 240.

(٣) F.O., G.R.A., Doc. No. 5, enclosure 2, Draft of Treaty between Great Britain and Abyssinia, pp. 9-11.

(٤) Plowden, W. : **Travels in Abyssinia and the Galla Country**, p. 469.

(٥) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : **التوسع الايطالى فى شرق افريقية** ، ص ٧٠ – ٧١ ٠

وفى ذلك الوقت رأت الحكومة المصرية فى عهد عباس الأول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) بأن مصر قد خرجت من نضالها الطويل مع الباب العالى فى العهد السابق ، منهوكة القوى قليلة الموارد ،ولذلك فقد أصبحت فى أشد الحاجة الى الاستجمام ، حتى تستعيد نشاطها وتصلح أحوالها • ولهذا فانها لا تستطيع أن تتحمل زيادة تضاف الى أعباء الحكم والادارة • ولما كان بقاء ادارة ميناءى سواكن ومصوع فى يد مصر يكلفها الكثير من الجهد والمال ، فقد استقر رأى عباس الأول على اعادة ادارة هذين الميناءين الى الدولة العثمانية ، نظرا لأن مصر لا تستفيد شيئا من مصوع وسواكن فى عملياتها الحربية فى شرق افريقيا ، وذلك لوقوعها بعيدا عن المركزين الرئيسيين للادارة والحكومة فى الخرطوم والقاهرة بحيث يتعذر ارسال النجدات اليهما سريعا • هذا فضلا عن أن بقاء هذين الميناءين فى حوزة مصر يسبب — فى رأى عباس الأول حينذاك — الاحتكاك بممثل الدول الأجنبية • وعلى ذلك فقد أخلت الحكومة المصرية سواكن ومصوع فى أوائل سنة ١٨٤٩ ، فعادت فى شهر يونيو من تلك السنة ادارة هذين الميناءين الى الدولة العثمانية (١) •

غير أن الاحتكاك الذى توقعه عباس الأول من جانب الدول الأوربية وكان من أسباب اخلاء حكومته لميناءى سواكن ومصوع ، لم تقدم عليه هذه الدول وخاصة بريطانيا وفرنسا ، بل انها أيدت حقوق السيادة العثمانية على الساحل الافريقى للبحر الأحمر على النحو الذى أكدته الحوادث التالية •

فقد أرسل الرأس « أوبى » حاكم مقاطعة « تيجرى » الحبشية رسالة الى الملكة « فيكتوريا » فى اليوم الثالث من شهر مارس سنة ١٨٤٩ عن طريق « بلودن » قنصل بريطانيا فى مصوع يطلب فيها « مساعدة وتدخل جلالتها لتأييد حقوقه فى ساحل البحر الأحمر « باعتبار » أن أسلافه كانوا يمتلكون من قبل كل الساحل الافريقى للبحر الأحمر وجزيرة مصوع » ، وأن العثمانيين فى العصور الحديثة استولوا على مصوع بسبب تنازع رءوس الأحباش مع بعضهم بعضا • وأخذ « أوبى » يستعطف الملكة « فيكتوريا » فيصفها بأنها « ملكة مسيحية وصديقة للمسيحيين ، وأنها قوية ، وأنه يطلب مساعدتها وصداقتها ، وألا تسمح لقوات المسلمين بتخريب واحتلال ممتلكاته » • وقد وافق « أوبى » على أن يبقى الأتراك فى جزيرة مصوع على شريطة ألا تطأ أقدامهم الاقليم الساحلى الذى عين فيه نائبا عنه (٢) •

وعلى الرغم من أن « بلودن » قد أيد بحرارة الرأس « أوبى » ، فقد

---

(١) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسيادة على السودان ، الوضع التاريخى للمسألة ، ص ٢٨ — ٢٩ •

(٢) F.O., Correspondence respecting Abyssinia, Dejaj Ocbeay to Her Majesty the Queen, enclosure in Doc. No. 49, Plowden to Palmerston, Debra July 3, 1849. pp. 30, 31.

رأى « بالمرستون » أنه ليس من الحكمة التدخل وقتذاك فى هذه المسألة (١) ٠ وقد حدث بعد ذلك أن عادت ادارة مصوع وسواكن الى الباب العالى فى سنة ١٨٤٩ ، وغادرت القوات المصرية هذين الميناءين ، وأرسل باشا جدة قوات تركية حلت محلهم هناك (٢) ٠

وتجدر الاشارة الى أن الرأس « أوبى » حاكم « تيجرى » اتجه الى الحكومة الفرنسية بعد أن رفض البريطانيون التدخل لصالحه ٠ وقد طلب منها التدخل لدى الباب العالى لتأييد « حقوقه » فى الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠ اذ أبرم « أوبى » فى أول أكتوبر سنة ١٨٤٩ معاهدة مع « رولاند Raulland » قنصل فرنسا فى مصوع ، تعهد فيها بأن يسمح لفرنسا دون غيرها من الدول الأوربية بأن تفرض حمايتهـــا على موانى ساحل البحر الأحمر الغربى التى يقع عليها اختيارها ٠ بينما قبل « رولاند » أن تبذل الحكومة الفرنسية جهدها لمساعدة « أوبى » حتى تنهى لصالحه النزاع القائم بينه وبين الباب العالى حول امتلاك الساحل الافريقى للبحر الأحمر ٠ غير أن « رولاند » كان قد أبرم هذه المعاهدة دون استشارة حكومته ، ولذلك فقد أراد أن يبرر اقدامه على هذه الخطوة بعدة أسباب أوضحها فى رسالة رفعها الى وزير الخارجية الفرنسية فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٤٩ وجاء فيها :

« ان ثغرا على البحر الأحمر لا غنى عنه لحياة الحبشة ، ونحن نأمل آجلا أو عاجلا أن تنشأ قناة فى السويس ، وعندئذ ستصبح للبحر أهمية بالغـة ٠ وعلى ذلك فان « سيدى الوزير » يريد بلا شك أن يضـــمن لبلادنا مستعمرة تجارية وسياسية فى تلك المنطقة من العالم ٠ أما كان ينبغى أن يكون لنا ميناء ترسو فيه سفننا ، ومخزن يمد سفننا التجارية بالفحم ، ومحطة تجارية تنتشر منها تجارتنا وما يتبعها من حضارة فى هذه القارة الواسعة ؟ » (٣) ٠

وعلى الرغم من دفاع « رولاند » المتكرر عن هذه المعاهدة التى عقدها مع الرأس « أوبى » حاكم « تيجرى » فقد رفضت الحكومة الفرنسية التصديق عليها فى شهر مايو سنة ١٨٥٠ وذلك لسببين هامين : أولهما أنه كان من غير المعقول فى رأيها ، موافقة الباب العالى على التخلى عما يملكه فى تلك المنطقة من القاهرة الافريقية أو بيعه للغير ٠ وثانيهما ، لأن الحكومة الفرنسية سبق أن رفضت فى عامى ١٨٤٠ و ١٨٤٥ الاعتراف للرأس « أوبى » بحق التصرف فى منطقة تخضع لسيادة الباب العالى ٠

كان ذلك اذن موقف الحكومتين البريطانية والفرنسية من مسألة السيادة

---

(١) F.O., C.R. Ab., Doc. No. 52, Viscount Palmerston to Consul Plowden, July 3, 1849, pp. 30,31.

(٢) Longrigg, S. : A Short history of Eritria, p. 86.

(٣) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome 3, 1ère partie, pp. 241, 242.

العثمانية على الساحل الغربى للبحر الأحمر فى مستهل عهد والى مصر عباس الأول ، وقد ظلت هاتان الحكومتان متمسكتين بهذا الموقف حتى نهاية عهده فى سنة ١٨٥٤ • وقد بدا ذلك واضحا عندما أرسل « بلودن » قنصل بريطانيا فى مصوع الى حكومته ، بعد أن أبرم معاهدة الصداقة والتجارة مع الرأس على فى « جوندار » فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ يوضح لها بأن الحبشة لا تملك منفذا على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، وأن المعـــــاهدة التى كان قد عقدها « هاريس Harris » مع ملك « شوا » سوف تظل عديمة القيمة ما لم تبادر بريطانيا بفتح طريق للاتصال بين ساحل البحر الأحمر والهضبة الحبشية ، وذلك وفقا لما جاء بالمادة الثالثة عشر من المعاهدة التى عقدها « بلودن » نفسه مع « الرأس على » • واقترح القنصل البريطانى على حكومته أن تمر التجارة الحبشية بطريق « حنفيلة » بدلا من مصوع • غير أن شركة الهند الشرقيـــــة البريطانية لم تلبث أن رفضت اقتراح « بلودن » ، اذ أعلنت فى ٢٨ مارس سنة ١٨٥٠ أن « حنفيلة » ليست سوى « مرسى مفتوح » ومعرض للرياح الموسمية ، كما أنها تعتبر « من أفقر المواقع على الساحل » (١) •

على أنه فى أواخر سنة ١٨٥٠ عرض « دى جوتان De Goutin » قنصل فرنسا السابق فى مصوع على « موراى Murry » قنصل بريطانيا العام فى مصر ، أن يبيع للحكومة البريطانية منطقة « عيد » الواقعة فى جنوب « حنفيلة » التى اشترتها شركة « نانت ــ بوردو » فى شهر مايو سنة ١٨٤٠ من سلطان هذه المنطقة • وكان « دى جوتان » قد حصل فى ٢٥ يونية سنة ١٨٥٠ عند تصفية الشركة المذكورة على حقوقها فى اقليم « عيد » مقابل دفع مبلغ ٢٥ ألف فرنك • ولكن « بالمرستون » طلب من « بلودن » فى ٢٠ يناير سنة ١٨٥١ تجاهل هذا العرض (٢) وهكذا فانه لم يحدث أى افتئات من قبل بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الأوربية على حقوق السيادة العثمانية على هــــذه الأقاليم فى تلك الفترة •

وجدير بالذكر أن قبطان الفرقاطة الفرنسية « ايوريديس Eurydice » حاول فى سنة ١٨٥١ أن يشترى جزيرة كمران الواقعة أمام ميناء اللحية فى شمال الساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر ، غير أنه فشـــــل فى تحقيق ذلك • ولكن الفرقاطة المذكورة ظلت تعمل فى البحر الأحمر (٣) ، وقد قيل انها تركت فى مخا والحديدة وكلاء قنصليين لفرنسا ، الأمر الذى أدى الى اجراء

---

(١) F.O., C.R.Ab., The Secret Committee to Sir J. Hobhouse, East India House, March 28, 1850, inclosure in Doc. No. 69, Sir J. Hobhouse to Viscount Palmerston, India Office, March 30, 1850, pp. 37,38.

(٢) F.O., C.R.Ab., Doc. No. 102, Viscount Palmerston to Consul Plowden, January 20, 1851, p. 58.

(٣) I.O., B.S.C. 1852, Haines to Bombay 4/24/52, also in F.O. 78/3185.

محادثات بين السفارة البريطانية فى الاستانة وبين الباب العالى . وتشير الوثائق البريطانية الى أن الباب العالى قد صرح حينذاك بأنه لا خطر يمكن أن يتوقع اذا ما بيعت كمران للفرنسيين (١) ، غير أن الوكلاء العثمانيين فى مخا والحديدة لم تصلهم موافقة منه على بيع هذه الجزيرة (٢) .

وقد ظل البريطانيون فى عدن يرقبون تحركات الفرنسيين فى البحر الأحمر وذلك طوال الفترة التى قضاها « هينز » كمقيم سياسى بريطانى هناك . وعندما حل محله « الكولونيل جيمس أوترام Colonel James Outram » فى شهر يونيو سنة ١٨٥٤ فقد بعث بتقرير لحكومة بومباى عن الأوضاع القائمة فى منطقة البحر الأحمر حينذاك (٣) . وقد أبدى فى تقريره هذا تخوفه من تحركات « الحلفاء الفرنسيين » مؤكدا اعتقاده بأن لديهم مخططا لاحتلال بعض المواقع الهامة فى منطقة البحر الأحمر (٤) .

وعلى أية حال فقد كان هذا عرضا لأهم الأحداث التى جرت فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن فيما بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٥٤ بدا من خلالها بوضوح موقف البريطانيين فى عدن ازاء المنافسة الفرنسية فى تلك المنطقة ، كما بدا أيضا حرص الجانبين البريطانى والفرنسى على عدم التعرض لحقوق السيادة العثمانية هناك ، وعلى رفضهما الاعتراف بحق الأحباش فى التصرف فى مناطق خاضعة للباب العالى حينذاك .

- دفاع البريطانيين والفرنسيين للسيطرة على الساحل الافريقى للبحر الأحمر :

لم يلبث الموقف فى منطقة البحر الأحمر أن تغير تماما بعد تولى محمد سعيد باشا حكم مصر منذ منتصف سنة ١٨٥٤ . اذ بدأ يظهر فى أفق السياستين البريطانية والفرنسية اتجاه للاستيلاء على بعض المواقع الحيوية فى المنطقة وخاصة على الساحل الغربى للبحر الأحمر والساحل الشرقى لافريقيا . هذا على الرغم من أن السياسة العثمانية حينذاك فوتت على البريطانيين والفرنسيين هذه الفرصة ، ووضعت العراقيل أمام جهودهم للسيطرة على تلك المناطق . كما اصطدمت القوتان البريطانية والفرنسية بالقوى المحلية هناك مما كان له أعمق الأثر فى توجيه سياستهما الاستعمارية فى ذلك الحين . وكان طبيعيا أن تستفيد بريطانيا من قاعدتها الحيوية فى عدن لاحكام توجيه سياستها

---

(١) F.O. 78/3185, Rose to F.O. 7/4/52.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 160.

(٣) I.O., B.S.C. 1854. Outram to Bombay, 7/18/54.

(٤) Marston, T.E. : Op. cit., p. 207

الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن على نحو ما يبدو بوضوح فى وثائق حكومة الهند البريطانية حينذاك ٠

فقد قامت حكومة بومباى فى منتصف عام ١٨٥٤ بتوجيه بعثة استكشافية من عدن على رأسها الضابط البريطانى « بورتون Burton » يرافقه زملاؤه « ستروويان Stroyan » و « سبيك Speke » و « هرن Herne » ، وذلك لكشف المنطقة الممتدة بين « بربرة » و « زنجبار » على الساحل الشرقى لافريقيا جنوبى خليج عدن ٠ وكانت هذه المنطقة مصدرا تستورد منه عدن اللحوم والمواد الغذائية (١) ٠ كما أن « بورتون » كان يرغب فى اقامة وكالة بريطانية فى بربرة لتكون مركزا لمراقبة منع تجارة الرقيق فى البحر الأحمر فى المنطقة الممتدة من جدة فى الشمال حتى « ممبسة » فى الجنوب على الساحل الشرقى لافريقيا (٢) ، وكانت الأهداف الاستعمارية تختفى بطبيعة الحال وراء هذا السبب الظاهرى ٠

وعلى أية حال فقد نجح « بورتون » فى الوصول الى « هرر » بينما توغل « سبيك » فى الاقليم الذى تقطنه قبيلة « واسنجلى » الصومالية ٠ وقد مكث « هرن » و « ستروويان » فى بربرة أثناء السوق السنوية ليتمكنا من جمع المعلومات الوافية عن هذا الميناء ٠ وقد التقى الضباط البريطانيون الأربعة فى بربرة فى شهر أبريل سنة ١٨٥٥ ليرافقوا القافلة العائدة الى « أوجادن » فى الداخل ٠ غير أن جماعة من الصوماليين معظمهم من قبيلة « عيسى موسى » هاجموا أعضاء البعثة ، ونتج عن ذلك مقتل « ستروويان » وأسر « سبيك » بعد اصابته غير أنه تمكن من الهرب ، كما أصيب « بورتون » اصابة بالغة ٠ ولم ينج من هذا الهجوم سوى الضابط البريطانى « هرن » ، بينما نهبت أمتعة البعثة ومهماتها ، وهرع « بورتون » و « سبيك » الى قارب عاد بهما الى عدن بعد أن فقدت البعثة واحدا من أعضائها (٣) ٠

وقد طلبت السلطات البريطانية فى عدن من قبيلة « حبر أول » تسليم ومعاقبة الذين دبروا هذا الاعتداء على أعضاء البعثة البريطانية ، وقد دعم هذا الطلب وجود بعض قطع الأسطول البريطانى فى ميناء بربرة ٠ وبذل كبار رجال القبيلة جهدهم لتنفيذ هذا المطلب دون جدوى ، لأن مدبرى هذه الاغارة توغلوا فى المناطق الداخلية واختفوا فيها ٠ على أن البريطانيين وافقوا على سحب أسطولهم من ساحل الصومال بعد أن تعهد الصوماليون بمقتضى المعاهدة التى عقدت بين الجانبين فى سنة ١٨٥٦ ببذل أقصى جهودهم للقبض على

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., pp. 213-215.

(٢) I.O., B.S.C. 1855, Coghlan to Bombay 2/22/55, encl. Burton to to Coghlan 2/22/55.

(٣) Playfair, R.Z. : op. cit., pp. 176, 177.

مدبرى هذا العدوان على أعضاء البعثة البريطانية ، كما تعهدوا بضمان حرية التجارة البريطانية فى أراضيهم ، وبالغاء تجارة الرقيق ، وبأن يعاملوا باحترام أى وكيل بريطانى يكون مكلفا بالتثبت من تنفيذ نصوص هذا الاتفاق (١) ٠

على أنه بعد أن انسحبت القوات البريطانية المحاصرة لبربرة فقد وردت الى عدن أنباء تفيد بأن الأتراك بعد أن أخمدوا حركة التمرد ضدهم فى مصوع ومكة فانهم سيتجهون بعد ذلك الى بربرة للاستيلاء عليها ٠ على أن ذلك جعل « كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن يقترح على حكومته اعلان استقلال بربرة حتى لا تتاح للعثمانيين فرصة للسيطرة عليها (٢) ٠

وعندما توج « تيودور » ملكا على الحبشة فى ٧ فبراير سنة ١٨٥٥ فقد عقد « بلودن » القنصل البريطانى فى مصوع آمالا عظيمة على امبراطور الحبشة الجديد ٠ وقد شعر « بلودن » بأن فرصة توحيد الحبشة تحت حكم عاهل واحد قد واتتها أخيرا ، ولذلك فقد رأى أن ذلك الحاكم الجديد جدير بتأييد وصداقة الحكومة البريطانية ٠ ومن ثم فقد تقرب « بلودن » الى « تيودور » من أجل احياء معاهدة التجارة التى كان قد عقدها مع الرأس على فى « جوندار » فى سنة ١٨٤٩ ٠

وقد أوضح « بلودن » فى أحاديثه مع النجاشى « تيودور » أنه من الممكن عودة ساحل البحر الأحمر الافريقى وجزيرة مصوع الى الحبشة مرة ثانية اذا أراد الامبراطور ذلك (٣) ٠ ثم ألقى فى روعه بأن الذى يمتلك مصوع انما يسيطر على كل تجارة الحبشة ، وأن من المتعذر توثيق العلاقات التجارية بريطانيا وامبراطورية النجاشى طالما يسيطر الأتراك على المنافذ المؤدية الى الحبشة ٠ ولهذا فمنذ ذلك الحين وضع « تيودور » نصب عينيه تنفيذ آراء « بلودن » هذه فصار برنامجه السياسى يهدف الى توسيع رقعة الامبراطورية الحبشية حتى يتسنى ضم قبائل الساحل اليها ، وكذلك الاستيلاء من الأتراك على مصوع (٤) ٠

غير أن الحكومة البريطانية حينذاك رفضت الموافقة على خطط « تيودور » السياسة بحذافيرها ، فأبلغ « لورد كلارندون » القنصل البريطانى « بلودن » فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٥٥ بأن حكومته ترفض تشجيع مشروعات « تيودور »

---

(١) I.O., B.S.C. 1856, Govt. of India to Bombay 7/28/56. Aitchison, C.U : op. cit., vol. XI, pp. 196,198.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 215, 216.

(٣) F.O., C.R.Ab., Doc. No. 227., Consul Plowden to the Earl of Clarendon, Gondar, June 25, 1855, pp. 148-154.

(٤) Douin, G. : Histoire du Régne du Khedive Ismail, tome 3, 1re partie, p. 246.

العدائية ضد مصر ومصوع (١) . على أن الحكومة البريطانية لم تكن ترى بأسا في نفس الوقت في الاستجابة لبعض مطالب الحبشة ، ولكن ليس بطريق العنف والقوة . فقد حدث في شهر مارس سنة ١٨٥٦ أن اقترح « فريدريك بروس Frederick Bruce » قنصل بريطانيا العام في مصر حينذاك على « لورد ستراتفورد رد كليف Stratford de Redcliffe » السفير البريطاني في الآستانة ، أن يحاول هذا الأخير اقناع الباب العالي بالتنازل عن جزيرة مصوع للحبشة ، « حتى يصبح الأحباش على صلة بالحضارة اذا صار لهم منفذ على البحر الأحمر » (٢) .

وقد وافق « لورد كلارندون » على هذا الاقتراح ، وطلب من السفير البريطاني في الاستانة مخاطبة الباب العالي في هذا الشأن ، وأن ينصحه بالتنازل عن مصوع التي تبدو عديمة الأهمية للدولة العثمانية والتي سوف يعجز العثمانيون عن حمايتها اذا ما نفذ حكام الحبشة الخطط الحربية التي تدور في رءوسهم (٣) . غير أن الباب العالي رفض التنازل عن مصوع للحبشة وأصم أذنيه عن سماع « نصائح » الساسة البريطانيين حينذاك .

على أن ثمة عاملا جديدا ظهر على مسرح المنازعات « المحلية » في الحبشة حينذاك بظهور زعيم حبشي جديد يدعى « نيجوسي Negussie » ، استطاع أن يطرد الرأس آريا Areya الذي كان « تيودور » قد قلده حكومة « تيجري » بعد هزيمة « أوبي » ، ورفع « نيجوسي » راية العصيان ضد « تيودور » في شمال أثيوبيا ، واستقل باقليم « تيجري » (٤) . وقد رأى « نيجوسي » تعذر الوقوف أمام « تيودور » بمفرده دون مساعدة أجنبية ، وبذلك عمد الى الاتصال بفرنسا . وفي شهر يونيو سنة ١٨٥٦ أرسل الى الامبراطور نابليون الثالث يطلب أن يشمله بحمايته ، ويعرض عليه أن ينصب الأسقف الكاثوليكي « يعقوب » مطرانا على الحبشة . وألح « نيجوسي » على القنصل الفرنسي في مصوع أن يأتي الى « تيجري » لرفع الراية الفرنسية عليها . وعندما تباطأت الحكومة الفرنسية في اجابة مطلبه ، أرسل « نيجوسي » في سنة ١٨٥٨ سفارة الى روما وباريس لتنقل الى البابا « بيوس التاسع » الحكومة الفرنسية على وجه الخصوص رغبته الشديدة في أن يعتبره البابا نصيرا للكاثوليكية في الحبشة وأن تعده فرنسا من حلفائها ، وطلبت هذه السفارة من حكومة باريس

(١) F.O., Ooc. No. 228, The Earl of Clarendon to Consul Plowden, November 27, 1855, pp. 154, 155.

(٢) F.O., Mr. Bruce to Lord Stratford de Redcliffe, Alexandria, Feb. 16, 1856, inclosure in Doc. No. 236. (Mr. Bruce to the Earl of Claren- don, Alex. February 18, 1856).

(٣) F.O., Doc. No. 238, The Earl of Clarendon to Lord Stratford de Red- cliffe, Paris, March 6, 1856, p. 16.

(٤) F.O., Ooc. 282, Consul Plowden to the Earl of Clarendon, Debra Tabor, November 15, 1857, pp. 182, 183.

أن ترسل « لتيجرى » شحنة من الأسلحة وبعض القوات الفرنسية لمساعدة « نيجوسى » فى التغلب على منافسه « تيودور » (١) ٠

وتجدر الاشارة الى أن الفرنسيين فى ذلك الحين كانوا يحاولون « لأسباب سياسية ودينية أكثر منها تجارية » وضع أقدامهم على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، ولكنهم لما كانوا حلفاء للباب العالى حينذاك فانهم لم يستطيعوا منازعته حقوق السيادة على هذا الساحل ٠ الا أنهم رءوا أنه اذا ما تنازل لهم رأس حبشى عن أية منطقة من هذا الساحل فانهم يستطيعون حينئذ وضع أيديهم عليها بمقتضى هذا الحق الذى لا تقدر الدولة العثمانية — فى نظرهم — أو احدى حليفاتها ، على معارضته (٢) ٠

وعلى ذلك فقد رأت الحكومة الفرنسية قبل أن تتخذ قرارا فى اجابة طلبات « نيجوسى » أن ترسل سفارة الى الساحل الافريقى للبحر الأحمر للبحث عن مكان يصلح لتأسيس مستعمرة تخدم مصالح فرنسا السياسية والبحرية والتجارية ٠ ومن ثم أرسلت فى سنة ١٨٥٩ سفارة القبطان الفرنسى « ستانسلاس رسل Stanislas Russell » والتى كان من أعضائها المبشر الايطالى « سابيتو » الذى كان قد صحب السفارة الحبشية التى أرسلها الرأس « نيجوسى » الى روما وباريس فى سنة ١٨٥٨ ، واتجهت هذه السفارة الى منطقة البحر الأحمر ، للتعرف على المواقع البحرية التى ستقوم فرنسا باحتلالها (٣) ٠

ومع أن القبطان « رسل » كان قد أبحر من فرنسا فى طريقه الى الحبشة ، فقد كتب « نيجوسى » فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٥٩ الى الامبراطور نابليون الثالث يشكره على الحفاوة التى قوبلت بها سفارته فى باريس ، وتوسل بكرم الامبراطور أن يرسل له اثنى عشر مدفعا وبعض رجال المدفعية الفرنسية ، قائلا أنه سيقدم للامبراطور « كعنوان دائم على هذا المعروف » جزيرة « ذولا Zulla » أو « رأس دوميرا Ras Dumeira » (٤) ٠

وكان على المبعوث الفرنسى « رسل » أن يقوم بجمع المعلومات اللازمة عن المزايا السياسية والتجارية والبحرية للساحل الغربى للبحر الأحمر ، وخاصة منطقة خليج « زولا » وجزيرة « ديسى » وميناء « عيد » وأراضى « رأس على » و « عوينو » ٠ وقد منحت الحكومة الفرنسية للقبطان « رسل » سلطة التوقيع

---

(١) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome 3, 1ère partie, pp. 242-248.

(٢) F.O., Dr. Beke to Sir J. Emerson Tennent, Bekesbourne, November 3, 1862, enclosure 1 in Doc. No. 342. (Mr. Murry to Consul Cameron, January 8, 1863).

(٣) Russell, Stanislas : Une Mission en Abyssinie, pp. 263-266.

(٤) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome 3, 1ère partie, p. 248.

على المعاهدات ، كما كان عليه أن يحتفظ بسرية تحركاته لدرجة أنه سافر على احدى البواخر التجارية حتى لا يثير انتباه البريطانيين (١)

وفى اليوم الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٨٥٩ وصل المبعوث الفرنسى « رسل » الى مصوع ،حيث الأسقف « يعقوب » والأب « امناتو Emnato » موضع ثقة الرأس « نيجـــوسى » . ثم قام بمعاينة خليج « زولا » وجزيرة « ديسى Disse » التى تعتبر مفتاح هذا الخليج (٢) وبعد ذلك توغل فى الأراضى الحبشية فى الاتجاه الجنوبى الغربى لمقابلة « نيجوسى » فى « تيجرى » ، ولكن الفوضى السائدة فى البلاد لم تمكنه من اجتياز « هالاى Halaye » ، فقد كانت الحرب الأهلية بين « نيجوسى » و « تيودور » على أشدها فى أثيوبيا (٣) .

وعندما نجح « تيودور » فى دخول « تيجرى » حيث استقبله سكان هذا الاقليم بأغانى النصر (٤) ، اضطر « نيجوسى » الى التقهقر غربا الى جبال « سيمين Semene » ،(٥) ومن ثم أخفق « رسل » فى الوصول الى هذا الرأس الثائر وقفل راجعا الى مصـــوع حيث ابرم مع وكيل « نيجوسى » حاكم تيجرى فى هذه الجزيرة معاهدة تم الاتفاق فيها على منح « زولا » لفرنسا مقابل صداقتها لهذا الرأس وتعهدها بارسال عتاد حربى اليه (٦) .

على أن المبعوث الفرنسى « رسل » كان مضطرا للاحتفاظ بسرية هـــذه المعاهدة طبقا لتعليمات الحكومة الفرنسية حتى يتم التصديق عليها فى باريس. وكانت التعليمات صريحة وواضحة فى هذا الشأن وذلك تجنبا لاغضـــاب البريطانيين الذين كانوا يراقبون المنطقة من قاعدتهم فى عدن . غير أن هـــذه المعاهدة كانت عديمة القيمة ، لأن قوات « تيدور » ما لبثت أن طاردت « نيجوسى» حتى تمكنت أخيرا من القاء القبض عليه وأسره .

وقد ترتب على هذا النشاط الذى أبداه الفرنسيون فى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، أن ساورت شكوك البريطانيين فى عدن حول طبيعة هـــذا النشاط . وقد قام « البريجادير وليم كوجلان » المقيم السياسى البريطـــانى فى عدن (١٨٥٤ ــ ١٨٦٣) يرافقه « مســـتر بـــادجر Badger » بجولة تفتيشية بدأها فى ١٦ يناير سنة ١٨٦٠ فى المناطق التى زارها المبعوث الفرنسى

---

(١) جلال يحيى (دكتـــور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٣٢ .

(٢) Russell, S. : op. cit., pp. 19, 27.

(٣) Russell, S. : Ibid, p. 72.

(٤) F.O., C.R.Ab., Doc. No. 306, Consul Plowden to Lord Russell, Debra Tabor, Feb. 1860, p. 193.

(٥) F.O., C.R.Ab., Mr. Schimper to Mr. Barroni, Adowah, March 19, 1860. Inclosure in Doc. No. 312. (Mr. Colouhoum to Lord J. Russell, Alexandria, July 17, 1860), p. 197.

(٦) جلال يحيى (دكتـــور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٣٣ ــ ٣٤ .

« رسل » • وقد قاما أثناء جولتهما بزيارة جزيرة بريم وميناءى مصوع وزولا ثم جزيرة « ديسى » • ولما تأكد « كوجــلان » من أهميـــة جزيرة « ديسى » الاستراتيجية لاقامة الأوربيين اقترح أن يقوم أحد الرعايا البريطانيين بشرائها بحجة انشاء محطة للبرق فيها •

وقد التقى « كوجلان » بنائب حاكم الجزيرة وهو شقيق حاكمها الذى كان غائبا حينذاك ، وتبين من حديثه رغبته فى مصـــادقة بريطانيا • اذ انه ابلغ « كوجلان » بأن بعثة فرنسية زارت الجزيرة وابلغت سكانها بأن الجزيرة ملك لفرنسا هى والمنطقة المحيطة بميناء « زولا » وانه لا يعرف من الذى تنازل عن الجزيرة والمنطقة المذكورة للحكومة الفرنسية • كما أن نائب حاكم جزيرة «ديسى» ابلغ « كوجلان بأن الفرنسيين أوضحوا له انهم سيروجون التجارة مع الحبشة وان ذلك سيؤدى بالتالى الى ازدهار الاحوال فى الجزيرة •

وهنا قام « كوجلان » بابلاغ حكومة بومباى البريطانية بأن أمبراطور الحبشة من المحتمل ان يطالب بأحقيته فى « جزيرة ديسى » ، غير أن ادعاءه بملكيتهـــا سيكون ضعيفا • كما أوضح « كوجلان » لحكومة بومباى أن الباب العالى سيطالب هو الآخر بالجزيرة على انها ضمن ممتلكاته ، هذا على الرغم من ان قائمقام مصوع العثمانى لا يعلم تماما المكان الذى تقع فيه هذه الجزيرة وهما اذا كان ســكانها يدفعون الضرائب المستحقة عليهم حينذاك للباب العالى أم أنهم يتجاهلون هــذا الأمر •

بل ان « كوجلان » أشار أيضا الى أن ثمة مطالب آخر بالجزيرة قد يظهر على مسرح الأحداث وهو حاكم « اركيكو » الذى كان معينا من قبل والى جدة العثمانى ، غير أنه كان شبه مستقل عن الباب العالى ، وكانت له سلطة اسمية على القبائل القاطنة فى المنطقة المواجهة لجزيرة « ديسى » على الساحل الغربى للبحر الأحمر • وأخيرا فقد أبلغ « كوجلان » حكومة بومباى البريطانية بأن التحركات الفرنسية على الســـاحل الغربى للبحر الأحمر تستحق الاهتمام الشديد (١) من قبل حكومة صاحبة الجلالة البريطانية حماية لمصالحها فى البحر الأحمر •

على أن فرنسا واصلت محاولاتها لبسط نفوذها على الســـاحل الغربى للبحر الأحمر وعند مدخله الجنوبى وعلى الساحل الشرقى لافريقيا • ولم تثبط من همتها هزيمة الرأس الحبشى « نيجوسى » حاكم « تيجرى » أمام منافســه « ثيودور » مما أفسد عليها المعاهدة التى عقدها المبعوث الفرنسى « رسل » مع وكيل « نيجوسى » الذى تنازل بموجبها عن ميناء « زولا » ، وبذلك أصبحت تلك المعـاهدة عديمة الجدوى ، بل ان عزيمة الفرنســيين لم تنثن أيضــا أمام

(١) I.O., B. 8, Memorandum on the Türkish Claim to Sovereignty over the Eastern Shores of tuhe Red Sea ... etc., pp. 40-42.

ما واجهوه فى محاولاتهم السابقة نتيجة لتصدى البريطانيين لهم وهم يرقبون تحركاتهم من القاعدة البريطانية فى عدن ويحرضون الباب العـــالى لتأكيد سيادته على المناطق التى يتطلع الفرنسيون عليها . وقد رأينـــا كيف فكرت فرنسا فى الحصول على احدى المحطـــات فى البحر الأحمر وكيف اتجهت الى « زولا » القريبة من مصوع ، غير أن الحالة الداخلية فى الحبشة ووجود المنافسة البريطانية وخضوع هذه السواحل للسيادة العثمانية جعلت فرنسا تتراجع عن الاستيلاء على هذا المكان . وقد تريثت فرنسا حتى ساقتها الأحداث الى اختيار قطعة من الأرض على ساحل بلاد الصومال وتقع عنـــد بوغاز باب المندب بين البحر الأحمر وخليج عدن وتمثلت فى ميناء « أوبوك » الذى يمتاز بأهمية موقعه على الساحل الصومالى المواجه لعدن بحيث يتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

وتبدأ قصة الاستيلاء على ميناء « أوبوك » فى اليوم الرابع من شهر يونيو سنة ١٨٥٩ عندما غرق « هنرى لامبرت Henri Lambert » نائب القنصل الفرنسى فى عدن عند عبوره من الحديدة الى تاجورة فى قارب يمتلكه حاكم زيلع وذلك خارج مضيق باب المندب (١) . وتشير الوثائق الفرنسية الى أن « لامبرت » هذا الذى كان يقيم فى عدن منذ سنة ١٩٥٥ كان قد ساعد أبو بكر ابراهيم شيخ تاجورة مساعدة مالية ، مما دفع هذا الأخير الى أن يعرض عليه أن يتنازل لفرنسا عن جزء من الشاطىء الافريقى . غير أن ثمة خلافا قد نشأ بينهما وانتهى بقضية رفعها « لامبرت » ضد الشيخ أبو بكر فى الحديدة ، وخسرها الشـــيخ الذى قيل انه تسبب فى قتل « لامبرت » وهو على ظهر سفينته بالقرب من جزر موسى فى التاريخ المذكور (٢) .

وقد قام « كابتن بلايفير Captain Playfair » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن يرافقه « كابتن شيرارد Captain Sherard » بالتعرف على الظروف والملابسات المختلفة التى أدت الى وقوع الحادث . وانتهى بحثهما الى استنتاج أنه حادث عفوى نتج عنه تحطم القارب عند اصطدامه بصخرة قرب جزر موسى . وقد ارسلت نسخة من تقريرهما الى الحـــكومة الفرنسية لتوضيح حقيقـــة ما حدث (٣) .

غير أن الحكومة الفرنسية أرادت أن تفعل ما فعلته بريطانيا عند احتلالها لعدن وانتهزت هـــذه الفرصة وأرســـلت الى مكان الحادث السفينة الحربيـــة « السوم La Somme » يقودها القبطـــان « فليريودى لانجل De Langle »

(١) Marston, T.E. : op. cit., pp. 255, 256.

(٢) Martineau, A. : op. cit., p. 581.

(٣) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Easern shores of the Red Sea... etc., pp. 37, 38.

لاجـراء التحقيق ولطلب التعويض • غير أن « دى لانجل » لم يعد من مهمته بنتيجة التحقيق ومحاولة العثور على القتلة فقط ، بل انه قدم دراسات وملاحظات أكدت للحكومة الفرنســية أهمية انشاء مستعمرة أو حتى محطة بحرية على الساحل الافريقى للبحر الأحمر •

وتشير الوثائق البريطانية الى أن الفرنسيين قبضوا على « شرماركى على » حاكم زيلع ونصبوا خلفا له ثم نقلوه ومعه بعض الوطنيين الى الحديدة — التى كانت زيلع وتاجورة تابعة لها حينـــذاك — وذلك لمحاكمته على جريمة قتل « لامبرت » (١) • على أن حاكم الحديدة وكذلك حاكم جدة لم يوافقا على التدخل فى هذا الموضوع ، مما جعل الفرنسيين يطلبون التعويض مباشرة من الباب العالى بعد أن مات « شرماركى على » على ظهر السفينة الفرنسية • وقد وافقت الحكومة العثمانية على دفع تعويض قدره ثلاثين ألف ريال تمول من ايرادات اليمن الى الحكومة الفرنسية لسداد التعويض المطلوب (٢) •

على أن القبطان « دى لانجل » قدم للحكومة الفرنسية عقب عودته من مكان الحادث أمام سواحل الصومال خطابا فى اليوم الخامس من يونيو سـنة ١٨٦١ (٣) ، أرفق به طلبا كتبه بعض شيوخ الصومال الى الامبراطور الفرنسى طالبين منحهم الحماية الفرنسية • كما اقترح « دى لانجل » على وزير الخارجية الفرنسية شراء أراضى « أوبوك » وأحضر معه الى باريس أحد مشايخ هذه الجهة وهو « دنى أحمد أبو بكر » ابن عم أبو بكر ابراهيم شيخ تاجورة وصـــديق الفرنسيين حينذاك •

وقد رحب « شاسلوب لوبا Chasseloup Laubat الخارجية الفرنسية» وزير بالعروض التى قدمها مبعوث شيخ تاجورة ، وكتب فى اليوم الرابع من فبراير سنة ١٨٦٢ الى وزير البحرية الفرنسية بأنه من الناحية الدبلوماسية ليس لأية دولة أجنبية بصفة عامة والدولة العثمانية بصفة خاصة أى ادعاءات على الأراضى المذكورة • أما بالنسبة للحكومة البريطانية التى تحتل مواقع هامة عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر فانها لا تستطيع أن تعترض على الترتيبات التى يعتزم الفرنسيون القيام بها فى نفس المنطقة حينذاك (٤) •

على أن « كولكوهون Colquhoun » القنصل العام البريطانى فى مصر قد سجل فى مطلع عام ١٨٦٢ أن « شيفر Schaeffer » وهو أحد مستشارى السفارة الفرنسية فى الاستانة قد مر بمصر تحت اسم مستعار • وكان يحمل

---

(١) I.O., B.S.C. 1851, Playfair to Bombay 4/20/61.

(٢) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Cnim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea .. etc., p. 39.

(٣) I.O., B.S.C. 1862, Playfair to Bombay 1/12/62.

(٤) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٣٩ ، ٤٠ •

مبلغا كبيرا من المال ليشترى قطعة من الأرض على ساحل البحر الأحمر لتكون محطة لتزويد سفن الأسطول الفرنسي بكميات الفحم اللازمة لها . غير أن « توفينيل Thouvenel » وزير الخارجية الفرنسية فى ذلك الوقت قام بابلاغ « اللورد كاولى Lord Cowley » بأنه قد أرسل « شيفر » للعثور على محطة للفحم لتموين البواخر الفرنسية التى تقوم برحلاتها عبر البحر الأحمر . وأشار « توفينيل » الى أن وزير البحرية الفرنسية قد رشح قطعة أرض صحراوية تسمى « أوبوك » كميناء آمن يتميز بمياهه الهادئة ، وأنه يأمل أن يقام هناك مستودع للفحم لتزويد السفن الفرنسية بما تحتاج اليه من وقود (١) .

وعلى أية حال فقد تم فى باريس فى اليوم الحادى عشر من مارس سنة ١٨٦٢ التوقيع على معاهدة « أوبوك » من جانب « توفينيل » وزير الخارجية الفرنسية ، ودنى أحمد أبو بكر ممثلا لمشايخ الدناقلة (٢) بالتنازل لفرنسا عن ميناء « أوبوك » الواقعة فى منتصف المسافة بين بريم وتاجورة الصومالى المواجه لميناء عدن والأقرب الى مضايق باب المندب من ميناء زيلع على الساحل الافريقى لخليج عدن . وقد تم ذلك نظير مبلغ عشرة آلاف ريال أى ما قيمته ٥٠٫٥٠٠ فرنك يدفع نصفه فى يوم التصديق على هذه المعاهدة من قبل مشايخ الدناقلة ، ويدفع النصف الآخر بعد ثلاثة أشهر من يوم استيلاء فرنسا على هذه الأراضى . بل ان هذه المعاهدة تضمنت تعهدا من هؤلاء المشايخ برفض كل محاولة تقوم بها أى حكومة أجنبية للتفاوض معهم مادامت فرنسا لم تسمح لهم بالقيام بذلك . كما احتفظت فرنسا لنفسها فى حالة عدم صلاحية « أوبوك » لايواء السفن بأن يتنازل لها الشيوخ المذكورون عن أية منطقة أخرى من بلادهم بنفس الثمن المنصوص عليه وبنفس الشروط المشار اليها (٣) .

بل ان الفرنسيين قد قاموا بعد ذلك فى اليوم التاسع عشر من مايو سنة ١٨٦٢ بالاستيلاء على ميناء « أوبوك » مع السهل الممتد من « راس علي » فى الجنوب حتى « راس دميرة » فى الشمال . وقد تأكدوا من صلاحية ميناء «أوبوك» لتحقيق أغراضهم وبذلك اعتبروا أن التصديق على المعاهدة أمر نهائي. ولهذا أقيمت هناك كافة الاحتفالات والشكليات لاثبات أن « أوبوك » قد أصبحت ملكا لفرنسا . ثم اصطحب الفرنسيون الشيخ أبو بكر على سفينتهم حتى زيلع ، وبعد ذلك واصلت سفينتهم سيرها الى عدن وتوجهت منها بعد ذلك الى ميناء السويس (٤) .

---

(١) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern Shores of the Red Sea ... etc., p. 45.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 258,259.

(٣) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٤١ .

(٤) جلال يحيى (دكتـــور) : التنافس لدولى فى بلاد الصومال ؛ ص ٤٣ ـ ٤٤ .

وكان من الطبيعى أن تصل أنباء إستيلاء الفرنسيين على « أوبوك » الى البريطانيين فى عدن قبل وصول السفينة الفرنسية « كيريو Curieux » اليها . ولقد أظهر « الكابتن بلايفير » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن ضيقه من حضور الفرنسيين الى « أوبوك » . ولهذا لم يعرض عليهم خدماته . كما أنه لم يبلغهم أن اليوم التالى لوصولهم الى عدن هو يوم تحتفل فيه كل السفن بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا . وقد ظهر موقفه الجاف هذا بوضوح خاصة وأن البريطانيين كانوا يظهرون سلوكا مهذبا مع الفرنسيين ومع السفن الفرنسية التى تلجأ الى موانيهم فى ذلك الحين . ولم يكن « بلايفير » يجهل وجود « مسيو شيفر » على ظهر السفينة الفرنسية . وعندما استفسر القبطان الفرنسى من المقيم السياسى فى عدن أثناء مقابلة خاصة بينهما عن أسباب هذا الجفاء فقد ادعى « بلايفير » بان المسألة ترجع الى سوء فهم بسيط . غير أن الأمر فى حقيقته كان يعكس عداء السياسة البريطانية لمثل هذه التحركات الفرنسية المنافسة على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ولخليج عدن .

ولقد بدا ذلك واضحا فى تصريحات « كابتن بلايفر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى أول فرصة سنحت له للتحدث عن استيلاء الفرنسيين على « أوبوك » فقد قال ان الفرنسيين قد استولوا على أراض تابعة للامبراطورية العثمانية ، وأنه وان كانت الدولة العثمانية لا تباشر سلطاتها عن طريق رفع علمها وارسالها لأحد الموظفين الرسميين الى هذه المنطقة ، فان أحدا لا يستطيع أن ينكر أنها هى الدولة صاحبة السيادة على كل هذا الساحل .

وجدير بالذكر أن أحمد باشا الحاكم العثمانى للحديدة أعاد ذكر هذه العبارات التى وردت على لسان « بلايفير » أمام الضابط الفرنسى « بوريه Buret » مما جعل الفرنسيين يعتقدون أن هذا التصريح قد صدر فى عدن ، وأنه تردد بعد ذلك حتى وصل الى الدوائر المسئولة فى الآستانة ومن المعروف أن سلطة أحمد باشا كانت تمتد حينذاك على مخا وزيلع . وقد أوضح أحمد باشا للبعثة الفرنسية عند زيارتها له فى الحديدة ، بأن فرنسا أنفقت بدون أى داع ذلك المبلغ الذى دفعته لشراء الأراضى اللازمة لاقامة مستودع للفحم ، لأنه لم يكن هناك شك فى أن السلطان هو المالك الوحيد لجميع الأراضى الساحلية . وقد أضاف أحمد باشا مؤكدا أنه اذا كانت الحكومة الفرنسية قد طلبت من الباب العالى أن يمنحها هذه الأرض ، فانه لم يكن ليرفض للفرنسيين هذا الطلب .

غير أن ذلك يعنى بطبيعة الحال اعتراف فرنسا بحقوق الباب العالى على تلك المناطق ، ولم تكن فرنسا مستعدة حينذاك للقيام بهذا العمل . ولهذا أجاب « شيفر » على أحمد باشا بأن البريطانيين سبق أن تصرفوا بنفس هذه الطريقة عند شرائهم جزر « موسى » و « ايفات » . غير أن الحاكم العثمانى أبدى

دهشته عند معرفته بهذه الأنباء التى كان المقيم السياسى البريطانى فى عدن قد أخفاها عنه ٠

على أن « الكابتن بلايفير » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن كان قد أصدر كتيبا صغيرا شرح فيه كيف تم استيلاء البريطانيين على جزر « موسى » و « ايفات » القريبة من «أوبوك» ، كما ذكر أن حكومة زيلع وتاجورة كانت فى أيدى المشايخ المحليين الذين كانوا يتوارثون الحكم فيها ٠ ولم يكن هؤلاء الشيوخ يخضعون لأية دولة أجنبية مما يعطيهم الحق فى التنـــــازل عن أى جزء من أراضيهم ٠ ولم يخطر ببال البريطانيين فى هذه الفترة بطبيعة الحال أن يطلبوا من الدولة العثمانية أن تقرر ما اذا كانت العقود التى وقعوها مع الأهالى صحيحة أو شرعية وليس فيها أى افتئات على حقوق السيادة العثمانية فى المنـــاطق المجاورة ٠

ومما لا شك فيه أن استيلاء الفرنسيين على « أوبوك » كان له تأثير سيىء لدى المقيم السياسى البريطانى فى عدن نظرا لما ينطوى عليه هذا العمل من تهديد صريح لنمو عدن وتوسعها وما يمكن أن يترتب عليه من أضرار للمصالح البريطانية فى المنطقة بوجه عام ٠ وكانت الأحوال القائمة فى عدن قد ازدهرت خلال السنوات التى أعقبت الاحتلال بسبب ازدياد حجم تجارة البن اليمنى وأيضا بسبب نشاط التجارة الافريقية التى كانت القوافل تنقلها حتى زيلع وبربرة ثم تحملها السفن حتى ميناء عدن ٠ ونظرا لأن « أوبوك » كانت أقرب للمنتجات الافريقية من عدن ، فقد كان فى استطاعتها أن تحتكر تجارة البن المصدر من هرر على وجه التحديد ، خاصة وأن الأوربيين كانوا يقدرون هذا البن الافريقى بنفس الدرجة التى يقدرون بها البن اليمنى (١) ٠

على أن الحكومة العثمانية كان فى مقدورها أن تستند من أجل تدعيم حقوقها على تلك الأراضى ، الى طلب الحكومة الفرنسية من الباب العـــالى أن يبحث عن المتهمين بقتــــل « لامبرت » (٢) فى نفس الوقت الذى أرسلت فيه القبطان « دى لانجل » للبحث عنهم ٠ وكانت الحكومة الفرنسية قد ذكرت فى طلبها الرسمى فى هذا الصـــدد بأن الأماكن التى ارتكبت منهـــا الجريمة هى أراض تابعة للدولة العثمانية وخاضعة لسيادتها ٠

وعلى أية حال فان وزير الخارجية الفرنسية لم يجد ضرورة للخوض فيما تعرض له القبطـــان « بوريه Buret » فى تقريره من ناحية تبعية زيلع للســـيادة العثمانية ، نظرا لأنه من الصعب الوصول الى رأى ثابت فى هـــذه المسألة ، خاصة وأن وزير الخارجية نفســـه قد اعترف بسيادة العثمانيين

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٤٥ — ٤٧ ٠

(٢) I.O., B.S.C. 1862, Playfair to Bombay, 1/12/62.

وبحقوقهم حينما طلب من حاكم الحديدة أن يســـــاعده فى العثور على قتلة « لامبرت » (١) .

بل ان الحكومة الفرنسية رأت فى نفس الوقت انه ليس من مصـــلحة فرنسا فصل الارتباط الجمركى الموجود بين زيلع وبين الممتلكات العثمانية فى الحديدة . كما رأى وزير الخارجية الفرنسية حينذاك بأنه ما دام الفرنسيون يرفضون الاستيلاء على زيلع لأنفسهم ، فانه من الأفضل أن تبقى ســــيادة السلطان العثمانى ممتدة عليها بشكل واضح حتى لا يستطيع غيرهم أن يحتلها دون أن يخرق مبدأ سلامة أراضى الامبراطورية العثمانية (٢) .

وأخيرا قام وزير الخارجية الفرنسية بتســـليم زمام الاشراف على تلك المنطقة التى استولت عليها فرنســــا الى وزير البحرية والمستعمرات الفرنسى ليشرف عليها من الناحيتين المالية والادارية ، وليقوم باتخاذ الاجراءات اللازمة للاستفادة منها لصالح الأسطول البحرى الفرنسى . وقد حرص وزير الخارجية الفرنسية على أن يوضح لزميله وزير البحرية والمستعمرات المزايا التى يمكنه الحصول عليها من تلك الأراضى ، ولهذا كتب اليه يقول : « اننى أعتقد فعلا بأنه من اللازم لنفوذها السياسى أن تتخذ قرارا نهائيا بخصوص تلك المناطق القريبة من عدن ومن بريم ، وسيكون من المؤسف أن نقوم عبثا بهذه المظاهرة دون أن تتلوها أية نتيجة . ومن ناحية أخرى فان شق برزخ السويس فى المستقبل ووجود سفن حربية فى البحر الأحمر وبحر الهند ، علاوة على امكانية تحويل جزء من القوافل التى تصل الآن الى تاجــوره وزيلع وبربره الى محطة فرنسية ، كل هذه الامكانات تجعلنى شديد الأمل فى أن تجد علاقاتنا التجــارية نقطة ارتكاز هامة فى احتلالنا لهذه الأراضى » (٣) .

وعلى الرغم من أن فرنسا لم تقم ــ لفترة سنوات طويلة ــ باستغلال منطقة اوبوك أو حتى باحتلالها ، ولكن بقاء عقد الشراء جعل منهــــا منافسا خطيرا لبريطانيا التى كانت ترغب فى البقاء هناك بمفردها ، وهى تركز قوتهـــا فى قاعدتها الحيوية فى عدن ، دون وجود أى منافس لها . كما كان بقـــاء عقد الشراء هذا فى يد الفرنسيين مهددا فى نفس الوقت لحقــوق الدولة العثمانية هناك بطبيعة الحال .

وجدير بالذكر أنه قد ترددت من ناحية أخرى حينذاك شائعات مختلفة عن نشاط الفرنسيين على سواحل الجزيرة العربية للعثور على موطىء قدم لهم على مقربة من عدن ، حتى قبل انهم يقصدون منطقة « بئر أحمد » الواقعة فى

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 257
(٢) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٤٧ ــ ٤٨ .
(٣) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ٤٨ .

شمالها الغربى ، وأن فرنسا تثير القبائل اليمنية المحيطة بعدن ضد الوجـود البريطانى فيها لتحقيق هـــذا الغرض • وقد ظهرت اقتراحات لدى الدوائر البريطانية فى عدن تدعو الى شراء «جبل احسان» أو شبه جزيرة «عدن الصغرى» التى يقع فى وسطها الجبل المذكور ، وذلك بهدف القضــــاء على المشروعات الفرنسية المنافسة فى ذلك الحين • غير أن حكومة الهند البريطانية رفضـت هذه المقترحات وأيدت تقديم معونة لشيخ « بئر أحمد » لحمايته من «المؤامرات الفرنسية » فى سنة ١٨٦٢ (١) •

غير أن استمرار وجود احدى قطع الأسطول البحرى الفرنسى على مقربة من عدن ، والخوف من قيام الفرنسيين بشراء جزيرة « ابن عمران » القريبة من عدن جعل حكومة الهند البريطانية تحث « كوجلان » المقيم السياسى البريطانى فى عدن على شراء شبه جزيرة « عدن الصغرى » قبل ان تسيطر عليهـــا أية قوة أخرى وخاصة فرنسا • فبدأ « كوجلان » مفاوضاته لشراء شـبه جزيرة « عدن الصغرى » (٢) نظير مبلغ يقدر بحوالى ٤٨ ألف ريال منها ٣٠ ألف ريال تسلم على الفور ، بينما ١٨ ألف ريال تسلم على أقساط (٣) • وقد اتخذ حاكم « بئر أحمد » اليمنى خطوات من جانبه لاثبات حقه فى المنطقة المذكورة ليتمكن من التنازل عنها لبريطانيا (٤) • وقد تمت الصفقة بعد أن بذلت جهود كبيرة أثناء المفاوضات ، وتم رفع العلم البريطانى على شبه جزيرة « عدن الصغرى » فى اليوم التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٨٦٩ واعتبرت بعد ذلك جزءا من مستعمرة عدن (٥) •

وجدير بالذكر أن أهمية شبه جزيرة « عدن الصـــغرى » للبريطانيين حينذاك هى أهمية استراتيجية نظرا لأن وقوعها فى يد أية قوة أجنبية أخرى كان سيشكل تهديدا خطيرا للبريطانيين فى عدن ، ولهذا فانها بعد أن أصبحت فى أيديهم فقد استفادوا منها فى أغراض الدفاع عن شبه جزيرة عدن الأصلية وعن منطقة جنوبى اليمن المحيطة بعدن بطبيعة الحال •

وهكذا كان موقف البريطانيين ازاء المنافسة الفرنسية فى منطقة البحـر الأحمر منذ احتلالهم عدن فى سنة ١٨٣٩ وحتى قبيل فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ • وكان هذا الموقف يعتمد على يقظة المقيم السياسى البريطانى فى عدن الذى كان يراقب عن كثب كـــل تحركات الفرنسيين فى منطقة البحـــر الأحمر • وقد بدأ بوضوح اصرار البريطانيين وحرصهم على الانفراد بالنفوذ فى

---

(١) I.O., B.S.C. 1862, Minute by Governor 12/6/62.
(٢) IO., L.A., Goodfello (Acting Resident) to Bombay, 9/22/69.
(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 253.
(٤) I.O., B.S.C. 1863, Coghlan to Bombay 5/18/63.
(٥) Marston, T.E. : op. cit., pp. 253, 254

المنطقة ومنع اية قوة أخرى منافسة من الحصول على موطىء قدم هنـــاك ، مما جعلهم يبذلون غاية جهدهم بكافة الأساليب الممكنة للحيلولة دون ظهـور المنافسة الفرنسية التى اســتغلت الظروف ــ على نحو ما ســبق أن فعلته بريطانيا عند احتلالها لعدن ــ لتكون لها قاعدة فى ميناء اوبوك ، ذلك الميناء الصغير الذى لم يكن معروفا لدى الأسطول الهندى البريطانى الا من حيث كونه مجرد مرسى تستخدمه القوارب والسفن المحلية الصغيرة أثناء الليل ٠ وكان يبدو الأمر للبريطانيين حينذاك على أن الفرنسيين كانوا يهدفون الى السيطرة على تجارة الحبشة (١) ٠

على أن أعمال الفرنسيين التى انتهت بسيطرتهم على « اوبوك » وصفت على لسان « مارستن » بأنها كانت « تشكل اساءة بالغة للقانون الدولى » ٠ كمـا أشار الى أن قطع البحرية الفرنسية التى اشتركت فى هــذا الأمر قامت بعمليات عنيفة للغاية على الساحل الصـومالى فى سنة ١٨٦١ أثناء تتبعهـا للشهود الذين يمكن أن يدلوا بأقوال حول حـادثة « لامبرت » التى استغلتها فرنسا للسيطرة على « اوبوك » ، حتى أن الفرنسيين حاولوا ان يثنوا بالقوة هؤلاء الشهود عن أقوالهم الصحيحة ليرغموهم على القبول بأن غرق « لامبرت » كان نتيجة لمؤامرة دبرها « شارماركى على » حاكم زيلع ليكون ذلك ذريعة لهم لتحقيق مآربهم الاستعمارية (٢) ٠ وقد وصف على باشا والى الحجاز العثمانى هذه الأعمال التى أقدم عليها الفرنسيون حينذاك بأنهـا كانت « استفزازا وقحا » (٣) ٠

اما بالنسبة للبريطانيين فقد أخطر باشا الحديدة حينذاك المقيم السياسى البريطانى فى عدن بأن الفرنسيين يعتقدون ان الانجليز ــ نظرا لأنهم يكرهون الوجود الفرنسى فى منطقة البحر الأحمر ــ فانهم يمكنهم أن يخفوا حقيقة جريمة قتل « لامبرت » تحقيقا لأهدافهم بارهاب الآخرين من خطر الاغتيال الذى يمكن أن يتعرضوا له اذا تجولوا فى تلك المنطقة (٤) ٠ ولا شك أن ذلك دليل آخر على روح العداء الكامن فى نفوس المتنافسين للسيطرة على منطقة البحر الأحمر سواء ازاء أهالى البلاد الأصليين أو بين بعضهم البعض ٠

وجدير بالذكر أن الوثائق البريطانية قد اشارت الى ظهور الفرنسيين أمام ميناء المكلا اليمنى فى سنة ١٨٦٩ عندما وصلت احدى سفنهم الى هناك فى ذلك الحين ٠ اذ ورد فى تلك الوثائق أن نقيب ميناء المكلا قد حضر الى عدن وطلب من المقيم السياسى البريطانى هناك بسط الحماية البريطانية على الميناء ، نظرا

---

(١) I.O., B.S.C. 1862, General Honner to Bombay 5/23/62.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 257.

(٣) I.O., B.S.C., 1862, Playfair to Bombay, 1/12/62.

(٤) Marston, T.E. : op. cit., p. 257.

لأن الفرنسيين قد ظهروا أمام سواحل حضرموت ، وحاولوا الاتصـال بجاره القعيطى الذى كان على خلاف معه فى ربيع سنة ١٨٦٩ (١) • غير أنه يرجح ان نقيب المكلا استغل وصول هذه السفينة الحربية الفرنسية التى ظهرت أمام الميناء ليحصل على حماية بريطانيا ومساعدتها ليتغلب على منافسه القعيطى (٢) ولهذا تحفظ البريطانيون فى تلبية مطلبه حينذاك •

وعلى أية حال فان البريطانيين — كما تبينا فى العرض السابق — كانوا متيقظين غاية التيقظ لكل التحركات الفرنسية فى منطقة البحر الأحمر وحول ميناء عدن الهام • وقد أتاح لهم وجودهم فى عدن منذ عام ١٨٣٩ فرصة مراقبة تلك التحركات عن كثب والعمل على وضع العراقيل أمامها حتى لا تشكل خطرا على المصالح البريطانية فى المنطقة المذكورة ، التى ستتضاعف أهميتها بعـد فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ على النحو الذى سنتبينه فيما بعد •

ثامنا — حملة البريطانيين على الحبشة ومدى استفادتهم من وجودهم فى عدن ١٨٦٧ — ١٨٦٩ :

سوف نستعرض — بايجاز تام — الظروف التى وجهت فيهـا بريطانيا حملتها على الحبشة فى سنة ١٨٦٧ حتى نتبين مدى استفادة البريطانيين من وجودهم فى عدن لبسط نفوذهم فى الحبشة فى ذلك الحين • وقد تبينا فيما سبق أن « والتربلودن » كان قنصلا لبريطانيا فى مصوع عند ارتقاء « تيودور » عرش الحبشة فى سنة ١٨٥٥ • وقد ظل « بلودن » يؤدى مهام وظيفته هناك حتى قتل فى سنة ١٨٥٩ بينما كان يحاول العـودة الى انجلترا • ولم تعين الحكومة البريطانية خلفا له الا فى سنة ١٨٦٢ عندما ارسـلت القبطان « كاميرون Cameron » الى الحبشة ليحل محل « بلودن » بعد وفاته • وكانت الحبشة حينذاك تعانى من عدم الاستقرار ، كما كان فيها ما يمكن أن يسمى « بالفراغ الحكومى Governmental Vacuum » على حـد تعبير « مارستن » (٣) ، خاصـة وان حكامها كانوا أشبه بمجموعة من الاقطـاعيين المتصارعين •

وفى ذلـك الوقت كان « تيودور » ملك الحبشة يتوق الى كسب ود بريطانيا الى جانبه ضد ما اسماه « باعتداءات العثمانيين والمصريين » على بلاده• ولهذا فقد بعث برسالة الى الملكة « فيكتوريا » تلقتها الحكومة البريطانية فى اليوم الثانى عشر من فبراير سنة ١٨٦٣ ، يطلب فيها مسـاعدته ، ويستثير

(١) I.O., L.A., Goodfellow (Acting Resident) to Bombay 6/15/69.
(٢) Marston, T.E. : op. cit. pp. 380,381.
(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 371.

غيرة الملكة بقوله « أنظرى كيف يجور المسلمون على المسيحيين » (١) مما يوضح انه كان يحاول أن يستفيد من الناحية الدينية · غير أن الحكومة البريطانية خيبت أمل « تيودور » وأهملت الرد على رسالته ، فغضب العاهل الحبشى كثيرا من ذلك · وازداد غضبه حينما رفضت الحكومة الفرنسية أيضا تأييد خططه العدوانية على مصر ، وأصبح مقضيا على اغراضه التوسعية بالفشل الذريع ·

وقد فوجىء « كاميرون » القنصل البريطانى فى الحبشة بتعرض بعض المبشرين البريطانيين لاضطهاد « تيودور » الذى جلد أحدهم وقبض على عدد منهم والقى بهم فى السجن ، كما أوقف نشاط جميع المبشرين الذين ينتمون الى « جمعية لندن التبشيرية London Missionary Society » بعد أن وقعت فى يده بعض تقاريرهم التى حوت أقوالا تسىء الى حكمه وتتعرض لسلوكه الشخصى (٢) · ولم يستطع القنصل البريطانى أن يحول دون وقوع هذا الأذى الذى حاق بمواطنيه المبشرين البريطانيين · بل ان « تيودور » اعتقد خطأ أن غرضه من الجولة التى قام بها فى اقليم « تاكه » الاتصال بأعدائه ، وأنه كان يجهز حملة بمساعدة المصريين للسيطرة على الحبشة (٣) ولهذا فقد القى « تيودور » القبض على « كاميرون » فى اليوم الثالث من يناير سنة ١٨٦٤ (٤) ·

على أن هذا التصرف التعسفى من جانب « تيودور » نجاشى الحبشة قد أثار الرأى العام البريطانى · ومن هنا بدأت الحكومة البريطانية تدرس الوسائل الواجب اتخاذها لاطلاق سراح القنصل البريطانى ، ورفاقه المبشرين البريطانيين · وقد رأت الحكومة البريطانية أن تستخدم الوسائل الدبلوماسية فى بداية الأمر ، فعهدت الى « هرمزد راسام Hormuzed Rassam » بالتفاوض مع « تيودور » فى مسألة اطلاق سراح « كاميرون » وباقى زملائه من الانجليز (٥) · وكان « راسام » وهو عالم من علماء الآثار يعمل حينذاك فى خدمة الادارة البريطانية فى عدن ، وقد استدعته الحكومة البريطانية من عدن ليرأس البعثة التى أرسلتها للحبشة لمحاولة اطلاق سراح الأسرى الذين ألقى « تيودور » القبض عليهم وسجنهم ·

---

(1) F.O., C.R.Ab., King Theodore to Her Majesty the Queen, Inclosure 3 in Doc. 343, Consul Cameron to Earl Russell, Godjam, October 31, 1862.

(٢) ثيوفيل ولدمير : تاريخ حرب الانجليز والحبشه سنة ١٨٦٨ ، ص ٥٩ — ٦٠ ·

(٣) Jones and Monroe : History of Abyssinia pp. 123, 124.

(٤) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ١٤ ·

(٥) Hill, R.L. : A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the earliest times to 1937, p. 315.

ولقد وصل « راسام » الى مصوع وبصحبته الدكتور « بلانك Blanc » والضابط « بريدو Prideau » وبعث بعدة رسائل الى النجاشي يطلب فيها السماح لبعثته بدخول الحبشة (١) ٠ غير أن « تيودور » تجاهل هـــذه الرسائل مدة سنة كاملة ، من يوليو سنة ١٨٦٤ الى أغسطس سنة ١٨٦٥ ٠ ثم سمح أخيرا لبعثة « راسام » بالحضور اليه عن طريق السودان متخذة طريق « كيرن » و « كسلا » و « القلابات » ٠ وقد وصل المبعوث البريطاني الى معسكر النجاشي في شهر يناير سنة ١٨٦٦ حيث استقبله « تيودور » استقبالا طيبا ٠

وعلى الرغم من أن « تيودور » أمر باطـــلاق سراح الأسرى البريطانيين وتسليمهم للمبعوث البريطاني الذى تأهب لمغادرة الحبشة ، فانه رفض التصريح لهم بالسفر لاعتقاده بأنه اذا أطلق سراحهم وتركهم يرحلون فلن يبقى لديه بعد ذلك من يستطيع التباحث عن طريقهم مع الحكومة البريطانية (٢) ٠

على أن النجاشي « تيوُدور » قد اوفد المبشر الألماني « فلاد Flad » الى لندن في شهر ابريل سنة ١٨٦٦ وحمله رسالة الى الملكة « فيكتوريا » يطلب فيها أن ترسل اليه الحكومة البريطانية بعض الآلات والعمال ٠ وقد تداولت الحكومة البريطانية مع المبشر الألماني في موضوع الحوادث الجارية على ضفاف بحيرة « تسانا » ، وحول مطالب « تيودور » ٠ غير أن ثمة أنباء وصلت الى لندن في حوالى منتصف شهر سبتمبر سنة ١٨٦٦ تفيد بأن « تيودور » نجاشي الحبشة قد ألقى القبض على المبعوث البريطاني «راسام» ورفاقه وسجنهم في « مجدالا » (٣) ٠

وقد سارعت الحكومة البريطانية وطلبت من المبشر « فلاد » في أوائل شهر أكتوبر سنة ١٨٦٦ العودة الى الحبشة بعد أن زودته بخطاب الى « تيودور » طلبت فيه طلاق سراح « راسام » و « كاميرون » وغيرهما من الأوربيين فورا، غير أن « تيودور » رفض الاستجابة الى هذا النداء ٠ وهنا استقر رأى الحكومة البريطانية على تخليص هؤلاء الأسرى بالقوة بعد أن فشلت الأساليب الدبلوماسية في اقناعه ٠

وقد اصدرت الحكومة البريطانية أوامرها الى المقيم السياسي البريطاني في عدن وهو « الكولونيل وليم ميرويذر Colonel William Merewether » (١٨٦٣ – ١٨٦٧) لكي يتقصى أحوال الحبشة الداخلية ، ولدراسة الطرق التى تربط الساحل الغربي للبحر الأحمر بهضاب الحبشة ٠ وقد قام المقيم السياسي البريطاني في عدن بجولة في الساحل الأفريقي للبحر الأحمر في منتصف شهر

---

(١) Longrigg, S. : op. cit., p. 95.

(٢) ثيوفيل ولدمير : تاريخ حرب الانجليز والحبشة ، ص ٩٦ ، ٩٧ ٠

(٣) Jones and Monroe : History of Abyssinia, p. 132.

يناير سنة ١٨٦٧ . وقد مر أثناء هذه الجولة بمصوع ، وطاف بساحل « سمهار » و خليج « انسلى » لتقصى أحوال الحبشة الداخلية ، وللتعرف على الأماكن المناسبة لنزول قوات الحملة البريطانية التى تقرر ارسالها الى الحبشة ، وقد بدا للمقيم السياسى البريطانى فى عدن أن طريق « حنفيلة ــ عدوة » هو أنسب الطرق للزحف على عاصمة « تيودور » . ولذلك فقد اصدر أوامره للوكيل البريطانى فى مصوع (١) وهو « فرنر مينزنجر Werner Munzinger » السويسرى الأصل والذى شغل هذا المنصب منذ عام ١٨٦٥ ، ليقوم بدوره بدراسة هذا الطريق الذى ستعبره الحملة . وقد شرع « مينزنجر » يتجول فى هذه المنطقة من بلاد « الدناكل » فى شهر يونيو سنة ١٨٦٧ ، فعبر سهل الملح من حنفيلة الى « آلا Ala » ومنها اتجه الى خليج « انسلى » (٢) .

ولا شك أن اعتماد بريطانيا على المقيم السياسى البريطانى فى عدن وهو « الكولونيل وليم ميرويذر » فى التعرف على أحوال الحبشة الداخلية حينذاك ، وفى دراسة المنطقة واختيار أنسب طريق تعبره حملة البريطانيين الموجهة لتأديب نجاشى الحبشة ولاكتساب مناطق لنفوذهم هناك ليوضح مدى استفادة بريطانيا من قاعدتها فى عدن لتحقيق مصالحها فى منطقة البحر الأحمر ، كما يظهر ذلك أيضا الدور الذى قام به البريطانيون فى عدن لتحقيق أهدافهم الاستعمارية فى الساحل الافريقى للبحر الأحمر وعلى الساحل الشرقى لافريقيا بوجه عام .

وجدير بالذكر أن أحوال البريطانيين فى عدن فى سنة ١٨٦٧ كانت مستقرة الى حد كبير مما ساعد البريطانيين حينذاك على توجيه حملتهم على الحبشة . فقد كانت القبائل اليمنية القاطنة حول عدن تعيش فى حالة سلم وهدوء مع الحامية البريطانية المعسكرة فى المدينة ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه القبائل تتقاتل مع بعضها البعض . اذ حدث صدام بين هذه القبائل فى شهر يوليو سنة ١٨٦٨ وخاصة بين قبائل العبادلة والحواشب ، تغلب فى نهايته العبادلة وتنازل الحواشب لهم عن مدينة « زائدة » . وكانت هذه المدينة هى السبب فى اثارة هذا الصراع نظرا لأن الحواشب حولوا عنها مجرى المياه الذى كان يمر بها الى ممتلكاتهم . وقد حاول الحواشب تجميع القبائل المجاورة لمحاربة العبادلة ، مما جعل « الجنرال راسيل » يطلب من حكومة بومباى التخلى عن سياسة عدم التدخل فى شئون القبائل نظرا لأن عدن كانت تعتمد على لحج فى الحصول على المياه العذبة والمواد الغذائية اللازمة (٣) .

---

(١) Douin, G. : Histoire du Régne du Khedive Ismail, Tome 3, 1re partie, p. 346.

(٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ٩٨ .

(٣) I.O., L.A., Russell to Bombay, 11/19/68.

ومما يؤكد استقرار الأمور فى عدن فى عامى ١٨٦٧ و ١٨٦٨ أثناء توجيه البريطانيين لحملتهم على الحبشة تلك الرسالة التى وجهها لحكومة بومبـاى « الجنرال راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن وهى مؤرخـة فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٦٨ وأشار فيها الى أنه أرسل بعض قواته الى الأماكن الأنسب صحيا فى المنطقة المحيطة بلحج فى شمال عدن ، موضحا أن مثل هذا التصرف « بتحرك قواتنا فى المناطق التى يمتلكها حلفاؤنا سيكون له آثار مفيدة » (١) . ولا شك أن هذا التصرف يعتبر تغييرا كبيرا فى السياسة المحلية عما كان يتبع عقب الاحتلال مباشرة عندما كان رجال الحامية البريطانية والأوربيون بوجه عام ممنوعين من الخروج خارج أسوار عدن نفسها .

وقد ذكر « الجنرال راسيل » المقيم السـياسى البريطانى فى عدن أن « اللورد نابير Lord Mayo » و « اللورد مايو Lord Napier » قد حضرا الى عدن فى شهر ديسمبر سنة ١٨٦٨ وقاما بالتفتيش على التحصينات المقامة حول المدينة واستفسرا عن كميات المياه الموجودة هناك ، وأظهرا اهتماما رسـميا بأشياء لم يسبق الاهتمام بها من خارج عدن (٢) . ولا شك أن هـذا يؤكد حرص البريطانيين على الاستفادة من وجودهم فى عدن حينذاك لتحقيق أهدافهم فى الحبشة مما جعلهم يقيمون امكاناتهم هناك .

على أن المنطقة المحيطة بعدن بعد أن استقرت أحوالها نسـبيا بصـفة مؤقتة فى ذلك الحين ، فقد ثارت من جديد عندما عاد العثمانيون الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ ، نتيجة لجهودهم فى غرس بذور الشـقاق بين القبائل اليمنية والبريطانيين فى عدن حينذاك (٣) .

وجدير بالذكر أن بعض البريطانيين فى سنة ١٨٦٧ كانوا يفـكرون فى أن تتعاون مصر عسكريا مع الحملة البريطانية وذلك باشتراك قوات مصرية فى هذه الحملة (٤) ، على أن تكافىء بريطانيا حكومة مصر نظير هـذه المساعدة باعطائها « سلسلة الجبال الضخمة التى تتكون منها الحدود الطبيعية بين السودان والحبشة ، وكذلك نهر العطبرة فى الغرب » . غير أن سلطات عدن البريطانية رفضت حينذاك هذا الاقتراح رفضا باتا ، كما رأت حكومة الهنـد البريطانية ضرورة تجنب أى مظهر من مظاهر التحالف ضد الحبشة (٥) نظرا لأن ذلك

---

(١) I.O., L.A., Russell to Bombay 10/30/68.

(٢) I.O., L.A., Russell to Bombay 12/11/68.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 379.

(٤) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر وأثيوبيا فى القرن التاسـع عشر ، ص ١٥ .

(٥) Douin, G. : Histoire du Régne du Khedive Isma:l, Tome 3, 1re partie, pp. 350, 351.

من شأنه تعطيل عقد الصلح مع الأحباش وعدم الافراج عن الأسرى البريطانيين ٠ وعلى أية حال فان رفض سلطات عدن لهذا الاتجاه يظهر بوضوح الدور الذى كانت تقوم به فى توجيه السياسة البريطانية وتحديد مسارها فى منطقة البحر الأحمر ٠

على أن نشاط البريطانيين على الساحل الغربى للبحر الأحمر كان سببا فى اثارة شكوك حاكم مصوع المصرى الذى أبرق الى القاهرة بما لديه من معلومات عن طبيعة هذا النشاط ، الذى يريد البريطانيون من ورائه أن يكسبوا الى جانبهم شيوخ الساحل حتى يستطيعوا الوصول الى الحبشة عبر أراضيهم ٠ وقد أثار ذلك النشاط شكوك الحكومة المصرية التى رأت أن تؤكد حقوقها فى السيادة على هذا الساحل الذى صار ملكا لمصر منذ أن تنازل الباب العالى لها عن مصوع ٠ وقد كلفت الحكومة المصرية جعفر باشا حكمدار السودان فى شهر يوليو سنة ١٨٦٧ ليقوم بالجولة التفتيشية – التى سبق الاشارة اليها – وذلك على الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠ وقد ترتب على هذه الجولة والاجراءات التى اتخذت فى أثنائها أن صارت « الشواطىء الخديوية فى مأمن من التدخل الأجنبى » (١) ، وخاصة من ناحية بريطانيا التى كانت ترقب المنطقة عن كثب من قاعدتها الجوية فى عدن ٠

وحينما أيقنت الحكومة البريطانية بأن الأزمة فى الحبشة لن تحل الا باستخدام القوة ، ويئست من الوصول الى حل ودى ، فقد كلفت حكومة الهند البريطانية بتجهيز حملة كبيرة تحت قيادة « الجنرال روبرت نابيير Robert Napier » فى شهر سبتمبر سنة ١٨٦٧ (٢) لتأديب نجاشى الحبشة ٠ وقد تألف هذا الجيش الذى أعدته حكومة الهند البريطانية « من ١٤٫٦٨٣ جنديا يتبعه ٢٨٫٠١٦ من الخدمة ومعه ٣٦٫٠٩٣ من حيوانات النقل والخيل و ٤٤ فيلا ٠٠ » (٣) ٠

وفى نفس الوقت رأت بريطانيا أن ترسل جزءا من قوات الحملة الى الحبشة عن طريق مصر ، ولهذا قامت الحكومة البريطانية ببعض المساعى الدبلوماسية فى الآستانة والقاهرة للحصول على موافقة الحكومتين العثمانية والمصرية على مرور القوات البريطانية عبر الأراضى العثمانية ٠ وقد استجاب الباب العالى لمطالب بريطانيا ولم يسمح لها بالمرور عبر مصر بل أباح للبريطانيين انزال قواتهم فى ميناء « زولا » أيضا ٠ كما وافق الباب العالى على منح كل مساعدة ممكنة للحملة البريطانية ٠ بل ان الحكومة المصرية كذلك أجابت مطالب

(١) Douin, G. : Ibid, pp. 346-348.

(٢) Buckle : The life of B. Disraeli, Vol. 2, p. 302.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دولة البحار ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ٠

بريطانيا لكى تثبت « فى هذه المناسبة قيمة الصداقة والعلاقات الطيبة القائمة بين البلدين » (١) ٠

وعلى أية حال ، فقد كان الموقف الناشىء من قرار الحكومة البريطانية باعلان الحرب على الحبشة ، تحقيقا للغاية ٠ ذلك لأنه كان يسود الاعتقاد حينذاك بأن بريطانيا لن ترضى بمجرد انزال العقاب بنجاشى الحبشة « تيودور » ، ولكنها ستحاول اقتطاع منطقة من الامبراطورية الحبشية على الأقل واحتلالها ٠ بل لقد أشيع فى نفس الوقت أن بريطانيا كانت تطمع فى الاستيلاء على جزيرة مصوع ثم احتلال مصر نفسها بعد انتصارها فى الحبشة (٢) ٠

ومما لا شك فيه أن هذه الاشاعات قد أثارت مخاوف الحكومة المصرية التى لم تجهر مع ذلك بشىء مما كان يساورها ٠ وقد تحققت الحكومة البريطانية فى نفس الوقت من أهمية تكذيب هذه الشائعات فى هذه الظروف وتبديد الشكوك التى ساورت حكومة القاهرة ٠ ولهذا بادرت بريطانيا بابلاغ قنصلها فى مصر « ريد Reade » فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٦٧ بأن يؤكد للخديو بأن القوات البريطانية سوف تغادر الحبشة فى اللحظة التى يتم فيها اطلاق سراح الأسرى ، وأن الحكومة البريطانية ليس لديها نية غزو هذه المنطقة من حوض البحر الأحمر ٠

وقد عرض الخديو اسماعيل على حكومة لندن فى ٧ أكتوبر سنة ١٨٦٧ التوسط بينها وبين « تيودور » بأن يبعث الى الأخير برسالة ينصحه فيها باطلاق سراح الأسرى البريطانيين ٠ وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح وأرسل الخديو اسماعيل رسالة من انشاء عبد الله فكرى الى « تيودور » ينصحه فيها ويخوفه من بأس بريطانيا « المشهورة من قديم الزمان بالشجاعة والقوة والبأس والسطوة » (٣) غير أن نجاشى الحبشة لم يعر رسالة الخديو اسماعيل أدنى اهتمام (٤) ٠

ويرجح أن الخديو اسماعيل لم يكن يهمه أن يقوم بدور الوسيط الفعلى فى هذا النزاع بقدر ما كان يهمه تبرير موقفه ازاء مرور القوات الانجليزية عبر الأراضى المصرية فى حالة رفض ملك الحبشة انهاء المشكلة بالطرق الودية ،

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ١٦ ٠

(٢). Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, pp. 246-247.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠ ٠

(٤) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome 3, 1ère partie, pp. 358-361.

لأنه كان يعلم مقدما بفشل كل المساعى الودية التى بذلتهـــا انجلترا فى هذا الشأن (١) ٠

أما عن موقف الخديو اسماعيل من الحملة البريطانية على الحبشة ، فانه قد أمدها بكل مساعدة ممكنة ٠ فهو لم يسمح لبريطانيا بتأجير بواخر الشركة العزيزية (٢) فحسب ، بل انه عرض مساعدة سفن الأسطول المصرى لنقـل الجنود البريطانيين ومؤنهم بدون مقابل ٠ بل ان الحكومة المصرية أرسلت الى حكمدار السودان وحاكم مصوع أوامر مشددة فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٦٧ تقضى بضرورة تقديم كافة التسهيلات الممكنة للبريطانيين ٠ كما أمرتهما بالتنبيه على شيوخ الأقاليم التى تمر بها القوات البريطانية وعلى وجه الخصوص تلك التى تجاوز الحدود الحبشية ، بأن يقدموا للجيش البريطانى كافة المساعدات الممكنة ، وأن يسهروا على حماية جنود وسفن ومعدات الحملة ضد أى اعتداء من جانب البدو (٣) ٠

على أن الصداقة البريطانية المصرية حينذاك لم تمنع الحكومة المصرية من اتخاذ بعض الخطوات التحفظية لحماية المصالح المصرية فى السودان الشرقى وفى مصوع وفى الساحل الافريقى للبحر الأحمر ٠ وقد أدى خوف حكومة القاهرة من أن تفقد مصر شيئا من حقوقها على الساحل الى ارسال امدادات مصرية الى سواكن ومصوع ، كما عينت الحكومة المصرية عبد القـــادر باشا « حاكما على سواحل افريقية الشرقية » فى شهر نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، وأرسلت ستة بواخر تحت قيادة جمال بك من السويس الى مصوع (٤) ٠

٠ غير أن الحكومة البريطانية اعتبرت وجود قوات مصرية بالقرب من الحدود الحبشية مما يحول دون عقد الصلح مع الحبشة ٠ ولذلك فقد طلبت من الحكومة المصرية أن تسحب بعض هذه القوات ٠ وقد وافق اسماعيل لاقتناعه على ما يبدو بتأكيدات بريطانيا ، على سحب جزء من القوات المصرية من مصوع فى شهر يناير سنة ١٨٦٨ حتى يثبت « رغبته الطيبة » نحو الحكومة البريطانية ٠ وعلى أية حال ، فقد جلت سريعا القوات البريطانية من الحبشـــة بعد أن أنزلت « بتيودور » هزيمة ساحقة فى «مجدالا» فى ١٠ أبريل سنة ١٨٦٨ وأطلقت سراح الأسرى جميعهم ٠

---

(١) محمد محمد السروجى (دكتور) : العـلاقات بين مصر واثيوبيـا فى القـرن التاسع عشر ؛ ص ١٥ ٠

(٢) تأسست هذه الشركة فى عهد اسماعيل فى سنة ١٨٦٣ واختصت بالملاحة التجارية فى البحرن الاحمر والمتوسط .

(٣) Douin, G. : Histoire du Régne du Khedive Ismail tome 3, 1re partie, pp. 352-355.

(٤) Sabry, M. : L'Empire Egypt en sous Ismail, p. 491.

وقد تلقى الشعب الانجليزى وعلى رأسه « دزرايلى » نبأ الانتصار على الأحباش فى صباح ٢٦ أبريل ١٨٦٨ بفرح وسرور عظيمين ، وذلك لتعلق الحملة بهيبة الحكومة الانجليزية وكرامتها الى حد بعيد . وبعد أن تحقق هذا النصر وحققت الحملة أغراضها انسحبت من الأراضى الحبشية فى نفس السنة . وبهذا يصح ما أعلنه « دزرايلى » فى شهر نوفمبر سنة ١٨٦٧ عند إرساله الحملة بأن الحكومة البريطانية مقدمة على حرب « لا لضم أراض جديدة ، ولا لتأمين المصالح الانجليزية ولكن لأسباب أخلاقية عالية ، ولأسباب أخلاقية فقط » (١) .

و جدير بالذكر أن « نابيير » كان يعتقد أن وجود قنصلية بريطانية فى مصوع يفيد فى تحذير الحبشة من احتمال وقوع هجوم مصرى عليها على اعتبار أن سحب الوكيل البريطانى من مصوع يعنى قرب الهجوم المصرى على الحبشة التى كانت — بغض النظر عن أية اعتبارات — الدولة المسيحية الوحيدة فى افريقيا (٢) .

ولا شك أن الحملة البريطانية على الحبشة قد هيأت لمصر ظروفا استطاعت أن تؤكد فيها أمام البريطانيين حقوق سيادتها على الساحل الافريقى للبحر الأحمر حتى مضيق باب المندب (٣) . كما جعلت هذه الحملة الحكومة المصرية تتبع سياسة أكثر تحديدا واحكاما من السياسة التى كانت تتبعها من قبل فى الساحل الغربى للبحر الأحمر وفى شرق السودان . فقد أصبحت هذه الحكومة تريد حينذاك توحيد الأملاك المصرية فى شرق السودان بضم اقليم « بوغوص » الذى يقع بين اقليم « التاكة » و « مصوع » (٤) . بل ان الخديوية رغبت فى تاكيد حقوق مصر على الساحل الافريقى للبحر الأحمر حتى مضيق باب المندب ، وفى بلاد الصومال حتى نهر « الجب » فى جنوب تلك البلاد (٥) .

وبناء على ذلك فقد أصدرت الحكومة المصرية أوامرها الى جمالى بك فى مطلع سنة ١٨٧٠ بالابحار على رأس الأسطول المصرى الى شواطىء « بلهار » و « بربرة » غير أن هذه الخطوة من قبل الحكومة المصرية سرعان ما أثارت شكوك المقيم السياسى البريطانى فى عدن وهو « الجنرال ادوارد راسيل Major General Edward L. Russell » (١٨٦٧ — ١٨٧٠) الذى كان يرقب التطورات التى تتعرض لها المنطقة المواجهة لعدن على الساحل الشرقى لافريقيا وفى منطقة

---

(١) Buckle : The Life of B. Disraeli, Vol. I, p. 384.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 381.

(٣) Douin, G. : Histoire du Rtgne du Khedive Ismail tome 3, 1re partie, p. 409.

(٤) Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, p. 248.

(٥) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية ، ص ١٠١ .

البحر الأحمر · وقد سارع المقيم السياسي البريطاني « الجنرال راسيل » بالكتابة الى جمالى بك في شهر أبريل سنة ١٨٧٠ مستفسرا عن سبب مجيئه الى تلك المنطقة ، وعما اذا لم يكن الدافع له فكرة الفتح والاستيلاء على أملاك جديدة (١) · ولا شك أن هذا التساؤل كان يعبر عن قلق سلطات عدن البريطانية ازاء النشاط المصرى على الساحل الغربى للبحر الأحمر حينذاك ·

غير أن شريف باشا وزير الخارجية المصرية وجه بهذه المناسبة الى « الكولونيل ستانتون Stantan » قنصل بريطانيا العام فى مصر خطابا فى أول يونية سنة ١٨٧٠ أكد فيه سيادة مصر على كل الساحل الأفريقى للبحر الأحمر قائلا : « ان الأراضى المذكورة ليست مستقلة ، بل انها وكما كانت دائما أراضى عثمانية · وهى ضمن البلاد التى تنازل عنها الباب العالى للحكومة المصرية بمقتضى فرمان سلطانى نص فيه على تنازله عن مديريات مصوع وسواكن وملحقاتها · كما أن مصر لاتزال تدفع جزية سنوية مقابل ذلك ، فلا يسع الحكومة المصرية أن تترك الحقوق الثابتة لها على هذه البلاد » (٢) · ويؤكد هذا الخطاب اصرار مصر على الاحتفاظ بحقوقها فى تأكيد سيادتها على كل الساحل الافريقى للبحر الأحمر ازاء النشاط البريطانى الذى صاحب حملة البريطانيين على الحبشة فى سنة ١٨٦٨ ·

أما بالنسبة « لتيودور » نجاشى الحبشة فقد قتل فى معركة « مجدالا » فى شهر أبريل سنة ١٨٦٨ بأيدى القوات البريطانية ، وحل محله الملك « يوحنا » الذى كان يعاون البريطانيين ضد « تيودور » · وهكذا انتهى الأمر بتنصيب « يوحنا الرابع » على عرش اثيوبيا · وقد اعترف هذا العاهل الحبشى الجديد حتى آخر حياته بأنه يدين بعرشه للملكة فيكتوريا (٣) · ولا شك أن دخول البريطانيين فى الحبشة وخروجهم منها بعد ذلك قد فتح أعينهم أكثر على الأهمية البالغة للبحر الأحمر مستندين فى ذلك الى ما يمكن أن يحققوه عن طريق قاعدتهم الحيوية فى عدن التى تزايدت أهميتها أثناء الحرب الحبشية البريطانية فى عامى ١٨٦٧ و ١٨٦٨ ·

وفى الوقت الذى انتهت فيه الحملة البريطانية على الحبشة بتحقيق مصالح بريطانيا فانها قد أضرت بمصالح مصر ضررا بليغا ، نظرا لأنها أشعلت عوامل العداوة والبغضاء التى يكنها ملك الحبشة الجديد « يوحنا » لمصر ، وحملها كل ما أصاب بلاده من هزيمة واندحار · فلولا سماحها للقوات البريطانية بعبور

---

(١) Sabry, M. : Op. cit., p. 392.

(٢) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسيادة على السودان ؛ الوضع التاريخى للمسألة ، ص ٤٩ ·

(٣) جلال يحيى (دكتور) : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ٣٣ ·

أراضيها وتقديمها المساعدات اللازمة لها ، لما استطاعت تلك القوات أن تصل الى قلب الأراضى الحبشية فى يسر وسهولة وأن تنزل بالأحباش هزيمة سريعة • وعلى الرغم من ذلك فان الحكومة البريطانية لم تعترف بما أسدته اليها مصر من جميل ، بل على العكس ، قامت ببيع بعض أسلحة الحملة ومعداتها الى الحبشة بثمن بخس • كما فضل عدد قليل من ضباطها البقاء فى الحبشة والدخول فى خدمة « يوحنا » كمستشارين ومدربين للجيش الحبشى • فتسليح الأحباش بهذه المعدات الانجليزية الحديثة لم يكن فى صالح مصر البتة • بل ان ذلك كان من الأسباب الهامة التى شجعت « يوحنا » على المضى فى تحديه للادارة المصرية وعدم الميل الى حل المشاكل المعلقة بين البلدين بالطرق الودية (١) •

وجدير بالذكر أنه بعد أن عاد قادة الحملة البريطانية على الحبشة الى انجلترا فقد أوصت « وزارة الهند I.O. فى ١٥ يوليو سنة ١٨٦٨ بتعيين « وارنر منزنجر Warner Munzinger » السويسرى الجنسية قنصلا لبريطانيا فى مصوع (٢) • وقد حقق هذا الرجل من قبل نفعا كبيرا لبريطانيا أثناء قيامه بعمله كوكيل « لراسام Rassam » فى مصوغ • كما انه صاحب البعثة البريطانية التى اتجهت الى « مجدالا Magdala » باعتباره مستشارا فنيا نظرا لمعرفته الكاملة بتلك المنطقة (٣) •

وقد استدعت وزارة الخارجية البريطانية « اللورد نابير » قائد الحملة البريطانية على الحبشة وذلك فى اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ حيث قابل « موراى » الذى رأى عدم جدوى اقامة قنصلية فى مصوع نظرا لعدم توفر حركة تجارية نشيطة هناك تستدعى ذلك • غير أن « نابير » أوضح أن انسحاب الوكيل البريطانى من مصوع سيكون عاملا مشجعا لاعتداء المصريين على الحبشة التى كانت رغم ما حدث الدولة المسيحية الوحيدة فى أفريقيا • وذكر « نابير » أن القنصل البريطانى فى مصوع ستكون مهمته مراقبة الموقف هناك دون أن يتدخل فى شئون الحبشة ، كما أشار الى وجود حركة تجارية لا بأس بها نتيجة لنشاط التجار الهنود هناك • واعتقد « نابير » أن أى وكيل بريطانى يعين فى مصوع سيؤدى خدمات طيبة وخاصة لحكومة الهند البريطانية ، نظرا لأن القنصل البريطانى العام فى القاهرة كان بعيدا عن المنطقة ولا يمكنه أن يتلقى مراسلات منتظمة من مصوع دون أن تتأخر وقتا طويلا • بل ان « نابير » وصل الى أبعد من ذلك عندما أكد أن كل الوكلاء البريطانيين على الساحل الافريقى للبحر الأحمر وساحل الجزيرة العربية يجب أن يكونوا

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٢ ، ٢٣ •

(٢) F.O., 1/26, I.O. to F.O. 7/15/68.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 381.

مسئولين أمام المقيم السـياسى البريطانى فى عدن • كما أكد « نابيير » أن « الجنرال راسيل » المقيم السياسى البريطـانى فى عدن على درجة من الكفاءة تؤهله لرعاية المصالح البريطانية فى منطقـة البحر الأحمر ، وأشار الى أن « منزنجر » هو أنسب رجل يمكن تعيينه قنصلا لبريطانيا فى مصوع • وقد أجاب « موارى » على ذلك بقوله ان وظيفة القنصل البريطانى فى مصوع ليست خالية حينذاك لأن « كاميرون Cameron » مازال يشغل هذا المنصب ، وأنه لا يجب اصدار أى قرار قبل أن ترد تقارير « راسام » عن الأوضاع القائمة فى المنطقة فى ذلك الحين (١) •

وقد أشار « اللورد ستانلى Stanly » فى ملاحظة أبداها فى احدى مذكراته بأن سيلتقى مع «نابيير» فى اليوم الثامن من أغسطس سنة ١٨٦٨ (٢)• غير أن « نابيير » لم يكن موفقا فى علاقته مع « ستانلى كما كان مع « موراى » حتى أن وزارة الخارجية البريطانية أخطرت وزارة الهند بأنه طالما أن المصـالح الاستعمارية هى التى تعليها بالدرجة الأولى فان الأمر لا يحتاج لوجود قنصل بريطانى فى مصوع ، ولهذا لا يعين أحد خلفاء « لكاميرون » غير أن وزارة الخارجية البريطانية أبدت عدم معارضتها لوجود وكيل بريطانى فى مصوع اذا ما رأت وزارة الهند ذلك (٣) •

ولا شك أن طلب « نابيير » رغم أنه يعتبر طلبا معقولا أمام الساسـة البريطانيين بوجه عام فانه دون شك كان يمثل ثورة بالنسبة لوزارة الخارجية البريطانية • ففى المقام الأول كان ذلك يعنى تغييرا جذريا فى مناطق النفوذ التقليدية لوزارة الخارجية البريطانية ولوزارة الهند ، بحيث يعطى للوزارة الأخيرة سيطرة كاملة على كل منطقة البحر الأحمر ، بينما كانت مسئولياتها من قبل قاصرة على الجزء الجنوبى من هذه المنطقة حتى الوكالة البريطانية فى ميناء مخا اليمنى ، فى الوقت الذى كانت فيه وزارة الخارجية البريطانية تشرف على قنصليتى بريطانيا فى مصوع على الساحل الافريقى ، وفى جدة على الساحل الآسيوى للبحر الأحمر • بل ان « نابيير » اقترح منح وظيفة القنصل البريطانى فى منطقة البحر الأحمر صلاحيات دبلوماسية الى جانب تبعيتها لوزارة الهند مما يعطى صلاحيات جديدة لموظفى هذه الوزارة ، بينما كانت كافة الخدمات الدبلوماسية قاصرة على موظفى وزارة الخارجية البريطانية حتى ذلك الحين •

وقد شعرت وزارة الخارجية البريطانية أن مثل هذا التغيير فى المناطق التى كانت تقوم بمهمتها فيها سوف يبعدها عن ممارسة صلاحياتها هناك • بينما تحققت وزارة الهنـد دون شك من عدم جدوى أن يكون لها وكيل فى

---

(١) F.O. 1/26, Murray — Minute dated 8/4/68.

(٢) F.O. 1/26, Murray — Minute 8/4/68, note by Stanley 8/6/68.

(٣) F.O. 1/26, F.O. to I.O., 8/6/68

مصوع وهو يفتقر لصلاحيات القنصل ومكانته . ولهذا لم يحدث شيء من التغيير الحقيقي في المنطقة ، واستمر « ميزنجر » يقوم بدوره كوكيل غير رسمي للمقيم السياسي البريطاني في عدن مدة من الزمن ، كما أنه كان مصدرا لكل المعلومات التي كانت تصل للقنصل البريطاني العام في الاسكندرية عن تلك المنطقة (١) .

وعندما أغلقت القنصلية البريطانية في مصوع ، فقد فقد « منزنجر » مكانته هناك ونتج عن ذلك الغاء المصريين لمعاهدة سنة ١٨٣٨ وفرضت ضرائب زائدة على التجارة . وقد رفع « جـــود فلو Goodfellow » نائب المقيم البريطاني في عدن شكواه عن طريق وزارة الهنـــد التي أبلغت ذلك لوزارة الخارجيـــة (٢) . وهنا قام وزير الخارجية الجـــديد « اللـــورد كلارندون Lord Clarendon » عند تسلمه لهذه الشـــكوى باعادة تعيين « منزنجر » ومكافاته على عمله بدفع مرتب له يعادل مرتب القنصل وذلك اعتبـــارا من ٣٠ يونية سنة ١٨٦٩ (٣) .

وقد ترك « اللورد نابيير » الحبشة دون أن يشكل فيها حكومة قوية ، ولهذا فقد كانت البلاد تعاني من الفوضى والاضطراب . وكان « كاسا » يحكم « تيجرى Tigrée » بينما كان « واجسهو جوباز Wagshu Gobaze » يحـكم « جوندار Gondar » وفي نفس الوقت كانت « شوا » يحكم موقعها الجغرافي بعيدة عن مسرح الصراع حيث حاول « منليك » أن يقوى حكمه . بينما كان « منزنجر » في مصوع يبلغ الحكومة البريطانية في شهر فبراير سنة ١٨٦٩ بان « كاسا » الذي أصبح أقوى حاكم هناك قد بعث الى مصر يطلب حضور قس جديد « New Abuna » (٤) كما ارســـل كل من « جوباز » و « منليك » خطابات للتعبير عن صداقتهما للملكة « فيكتوريا » .

وبناء على ما أشار به كل من « نابيير » و « راسام » فقد أجابت الحـكومة البريطانية على العاهلين الحبشيين داعية اياهما للتشاور مع المقيم السياسي البريطاني في عدن . كما استقر رأى الحـــكومة البريطانية أيضا على ارسال اجابة مشابهة ل « كاسا Kassa » حتى يمكن تجنب أى تحيز لطرف دون آخر (٥) . وعلى أية حال فقد كان لبريطانية عشية فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ مصدرا واحدا لجمع المعلومات في منطقة البحر الأحمر هو المقيم السياسي البريطاني في عدن . ولا شك أن ذلك يرجع لجهود وزارة الهند البريطانية (٦) التي أصبحت أقوى مما كانت عليه في سنة ١٨٦٦ .

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 282

(٢) F.O. 1/29, I.O. to F.O. 1/29/69 enc. despatches from Aden to Bombay.

(٣) F.O. 1/29, F.O. to I.O. 12/17/69 and I.O. to F.O. 12/23/69.

(٤) I.O., L.A., Russell to Bombay 2/11/69.

(٥) F.O., 1/28, I.O. to F.O. 11/5/69, F.O. to I.O. 12/21/69.

(٦) Marston, T.E. : op. cit., p. 383.

وهكذا يمكننا القول بأن الحملة البريطانية على الحبشة فى عامى ١٨٦٧ ـ ١٨٦٨ قد أدت الى ابراز أهمية عدن ورفع قيمتها الاستراتيجية الى درجة كبيرة • اذ ان عدن أصبحت قاعدة متقدمة لتزويد الحملة البريطانية على الحبشة بكل احتياجاتها ، بل وتدعيم أى تحرك بريطانى وتعزيزه فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن ، الأمر الذى أثبت للمسئولين فى حكومة الهند البريطانية وفى العاصمة البريطانية نفسها تلك الأهمية البالغة التى تحظى بها عدن • وسوف يؤدى ذلك الى قيام وزارة الهند البريطانية بالتركيز على تقوية عدن استراتيجيا بحيث أوجدت فيها قوة عسكرية تتناسب مع أهميتها (١) ، حتى تكون دائما على أهبة الاستعداد لتحقيق أهداف بريطانيا وحماية مصالحها فى منطقة البحر الأحمر وعلى الساحل الشرقى لافريقيا ، بل وفى البحار الشرقية بوجه عام •

تلك كانت اذن معالم السياسة البريطانية فى منطقة البحر الأحمر منذ احتلال بريطانيا لعدن فى سنة ١٨٣٩ وحتى قبيل فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ • وقد تبينا مدى الفائدة البالغة التى حققتها بريطانيا من قاعدتها الحيوية فى عدن التى كانت ترقب منها عن كثب تطورات الأحداث على الساحل الآسيوى للبحر الأحمر فى الحجاز وعسير واليمن من جهة ، وعلى الساحل الافريقى للبحر الأحمر فى مصر والسودان والحبشة والصومال من جهة أخرى • واستطاعت بريطانيا أن تتبع أساليب مرنة تكاد تنفرد بها السياسة البريطانية للتغلغل والاستئثار بالنفوذ فيها ، وان استلزم الأمر فى بعض الأحيان استخدام القوة العسكرية لتحقيق ذلك • وقد احتك البريطانيون بحكام البلاد الأصليين ، كما كان عليهم أن يواجهوا حقوق السيادة العثمانية والامتداد المصرى الى هذه الجهات • بل ان البريطانيين واجهوا أيضا المنافسة الفرنسية التى هددت مصالحهم والتى سعت لايجاد ركيزة لتطلعاتها الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر على النحو الذى فعلته بريطانيا من قاعدتها الحيوية فى عدن • وقد تأكد البريطانيون بما لا يدع مجالا للشك وخاصة حكومة الهند البريطانية ـ وكانت بعض الدوائر المسئولة فيها تنظر الى عدن على أنها مجرد مستودع للفحم لتزويد السفن البخارية البريطانية بين السويس وبومباى ـ تأكدوا بأن «عدن» تحظى بأهمية بالغة فى مجال الاستراتيجية البريطانية وخاصة بعد أن استخدمت كقاعدة متقدمة لتزويد الحملة البريطانية على الحبشة فى سنة ١٨٦٨ بكافة احتياجاتها ، فضلا عما قامت به «كبرج للمراقبة» لرصد التحركات الفرنسية وغيرها التى يمكن أن تشكل تهديدا للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر وفى البحار الشرقية بوجه عام • ولقد استلزم ذلك تقوية عدن والعناية بها بما يتناسب مع أهميتها ، تلك الأهمية التى ستتضاعف باتصال البحرين الأحمر والمتوسط عبر قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ، مما سيعرض منطقة البحر الأحمر بوجه خاص لتطورات جديدة •

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., pp. 368, 373.

الفصل

الخامس

تطور السياسة البريطانية في عدن والبحر الأحمر بعد فتح قناة السويس ١٨٦٩ - ١٨٨٢

كان فتح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ نقطة تحول هامة فى تاريخ البحر الأحمر ، وتاريخ ميناء عدن الهام ، وتاريخ السياسة البريطانية فيها بوجه عام • اذ ان بريطانيا عمدت منذ ذلك الحين الى زيادة نفوذها فى تلك المنطقة متذرعة فى ذلك بذرائع مختلفة (١) • فهى قد سعت للسيطرة على شئون مصر لتتحكم فى قناة السويس المفتاح الشمالى للبحر الأحمر ، فى الوقت الذى احتفظت فيه بسيطرتها المتزايدة على عدن والمنطقة المحيطة بها باعتبارها المفتاح الجنوبى لهذا البحر • وبفتح قناة السويس أصبح البحر الأحمر من الناحية الاقتصادية معبرا هاما ميسرا للمحيط الهندى ، ولم يعد هذا البحر طريقا للمسافرين والبريد الى الهند فحسب ، بل انه أصبح واحدا من أهم الطرق البحرية التجارية الرئيسية فى العالم •

على أن بريطانيا لم تكن وحدها فى هذا الميدان ، بل كانت هناك قوى أخرى تنافسها فيه • وأول هذه القوى هى فرنسا التى أشرفت على مشروع قناة السويس ، والتى سبق أن سعت منذ وصول حملتها الى مصر فى سنة ١٧٩٨ الى قطع الطريق بين بريطانيا والهند • وقد أرادت فرنسا أن تكون لها محطة بحرية فى منتصف هذا الطريق الذى أصبح أقصر طريق للملاحة البحرية يصل غرب أوربا بالشرق الأقصى بعد فتح قناة السويس • وكانت فرنسا ترغب فى أن تكون هذه المحطة قاعدة بحرية قائمة بذاتها ومستقلة عن القاعدة البريطانية فى عدن حتى لا تقع تحت سيطرة بريطانيا أو لتحكمها اذا ما تأزمت الأمور بين الدولتين واحتدم النزاع بينهما •

---

(١) Marston, T.B. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area. p. 385.

وعندما اشـــترت فرنسا مينـــاء « آبوك Obock » فى سنة ١٨٦٢ فانها كانت تهدف باستيلائها النظرى على هذا الميناء الى الاحتفاظ بامكانيه اخـــذ قرار فى المستقبل بخصوص المنطقة المجاورة لعدن وبريم التى كان البريطانيون يسيطرون عليها . غير أن الفرنسيين لم يستفيدوا من منطقـــة « أوبوك » الا عند تأزم المسألة المصرية بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، وتدخل السياسة البريطانية فى الشئون المصرية واجبارها لحكومة القاهرة على اتخاذ قرار بشأن « ملحقاتها » فى سواحل البحر الأحمر حينذاك . وقد اتخذت فرنسا فى ذلك الوقت من « أوبوك » مركزا وقاعدة استعمارية لها عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، توسعت منها فى بلاد الصومال ، وكانت نواة لمستعمرة ساحل الصومال الفرنسى ، وقد شكلت بذلك منافسا خطيرا للمصالح البريطانية فى عدن والبحر الأحمر . بل ان فرنسا حاولت السيطرة على منطقة « الشيخ سعيد » غربى عدن فى سنة ١٨٦٩ غير أن بريطانيا أحبطت محاولتها هذه حتى لا يتعرض الوجود البريطانى فى عدن لأى خطر .

أما بالنسبة للدولة العثمانية فان فتح قناة السويس قد أدى الى تقريب المسافة بين الآستانة وسواحل البحر الأحمر ، مما ترتب عليه احكام قبضة العثمانيين نسبيا على الحجاز ، وتوجيه حملة عسكرية تمكنت من استعادة اليمن الى حظيرة الدولة العثمانية وسيطرت على صنعاء واقامة حكومة عثمانية فيها فى سنة ١٨٧٢ بعد فتح قناة السويس بثـــلاثة أعوام (١) . وكان على بريطانيا بطبيعة الحال أن تواجه هذا النفوذ العثمانى حتى لا يشكل هو الآخر خطرا على المصالح البريطانية فى البحر الأحمر بعد أن أصبح على مقربة من قاعدتها الحيوية فى عدن . ولهذا اتجه البريطانيون الى عقد معاهدات « الحماية » مع سلاطين المنطقة المجاورة لعدن وأمرائها ، ولم يكتفوا بمعاهدات « الولاء والصداقة » التى سبق أن عقدوها مع الحكام المحليين عقب احتلالهم لعدن فى سنة ١٨٣٩ .

بل ان بريطانيا فى ذلك الوقت أيضا كانت ترقب بحذر شديد الامتداد المصرى على طول الساحل الغربى للبحر والذى وصل حتى رأس حافون على الساحل الشرقى لافريقيا (٢) . وكان يقلقها كثيرا أن تكون خطوط السياسة والاستراتيجية المصرية حينذاك متمشية مع سياسة فرنسا التى أشرفت على

---

(١) فاروق عثمان أباظة : الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ ـ ١٩١٨ ، رســالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٦ ، ص ٧٧ ـ ٨٣ .

(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الاحمر ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ ، رسالة دكتوراه قدمت لكلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٩ وقد تناولت دراسة هــذا الموضوع باستفاضة .

مشروع قناة السويس ٠ ولهذا فقد صممت بريطانيا على السيطرة على مصر قبل أن تقع تدريجيا تحت السيطرة الفرنسية حتى تمكنت من احتلالها كلية فى سنة ١٨٨٢ ٠ وبذلك أصبحت بريطانيا تسيطر على البحر الأحمر بتحكمها فى مدخليه الشمالى فى مصر وقناة السويس ، والجنوبى فى عدن التى تشرف على مضيق باب المندب ٠

على انه بعد فتح قناة السويس كان على بريطانيا فضلا عن كل ذلك أن تواجه فى نفس الوقت تطلعات الايطاليين التى كانت أنظارهم مسلطة حينذاك على الساحل الغربى للبحر الأحمر منذ أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر ، وان كانت قد اتبعت سياسة خاصة ازاءهم اتصفت بالمرونة والدهاء ٠ على أن اتصالات الايطاليين بالبحر الأحمر وسواحله كانت قد بدأت عن طريق رجال التبشير والمستكشفين الجغرافيين ٠ وقد حاول هؤلاء قبل قيام الوحدة الايطالية اغراء بلادهم وخاصة « مملكة بيدمونت » على اقامة علاقات تجارية وسياسية مع البلاد الواقعة على سواحل هذا البحر أثناء عهد نشطت فيه عمليات الزحف الأوربى على القارة الأفريقية ٠

على أن ايطاليا الموحدة الناهضة فيما بعد لم تتخلف عن الركب الأوربى فى هذا الميدان ، خاصة بعد أن رأى « السنيور مانشينى » وزير الخارجية الايطالية أن يتخلى عن سياسته المثالية السلبية وبدأ يتطلع لاتباع سياسة ايجابية نشطة فى مجال الشئون الخارجية ٠ ولهذا اتجه الى نشر النفوذ الايطالى على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، بحيث أصبح للطليان هناك نشاط سياسى تجارى ملحوظ ٠ بل انه مما شجع « مانشينى » على اتباع هذه السياسة الايجابية النشيطة تغير سياسة الحكومة البريطانية ازاء النشاط الايطالى فى البحر الأحمر ٠ فبعد أن كانت بريطانيا قد دأبت فى السبعينات من القرن التاسع عشر على معارضة اعتداءات الطليان على حقوق مصر فى البحر الأحمر ، فان هذا الموقف لم يلبث أن تبدل منذ شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وصارت حكومة لندن تعمل على تشجيع الطليان ليمدوا نفوذهم الى هذه الأصقاع ٠ ويرجع سبب هذا التغير الى اشتداد المنافسة بين بريطانيا وفرنسا على الاستعمار فى افريقيا والبحر الأحمر ، الأمر الذى جعل الحكومة البريطانية تصانع ايطاليا وتتخذ منها « حارسا خاصا » (١) يحرس لسيده أملاكه حتى يحين الوقت ليسترد السيد هذه الأملاك ٠

غير أن الايطاليين أنفسهم كانوا يهدفون الى نشر النفوذ الايطالى على السواحل الغربية للبحر الأحمر بالاتفاق والتعاون مع بريطانيا التى أقلقها حينذاك توسع الفرنسيين فى افريقيا وازدياد مصالحهم فيها الأمر الذى كان

(١) محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ؛ ص ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ٠

يهدد المصالح البريطانية هناك • كما كان الايطاليون يحلمون بالتوغل فى السودان المصرى غربا الى دارفور حتى يصل النفوذ الايطالى تدريجيا باتجاهه شمالا الى سواحل اقليم طرابلس (١) ، وبذلك يبسطون سيطرتهم على سواحل البحر المتوسط من ناحية الجنوب • على أن ذلك كان غاية أمانيهم كما عبر عنها « السنيور مانشينى » حين قال : « ان مفاتيح البحر المتوسط انما توجد فى البحر الأحمر » (٢) ، وكان يعنى بذلك أن التقاط هذه المفاتيح يكون عن طريق الزحف من سواحل البحر الأحمر الغربية والسودان ودارفور الى طرابلس الغرب على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط (٣) •

ولا شك أن فتح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ كان له أعمق الأثر على مجريات الأحداث التاريخية فى منطقة البحر الأحمر بشكل يبعد عن تصور أى شخص يعاصر تلك الفترة • ولما كانت بريطانيا هى التى تعنينا فى هذا البحث فاننا نرجع اندفاعها الملحوظ فى سياستها الاستعمارية عقب فتح القناة الى العوامل التالية :

١ ـ لقد خرجت بريطانيا من مؤتمر فيينا فى سنة ١٨١٥ وهى الدولة الاستعمارية الأولى وقد أعطى مؤتمر فيينا لفرنسا بعض المواقع التى مكنتها من أن تستمر فى منافستها لبريطانيا دون أن تكون هذه المواقع قادرة على كسر التفوق البريطانى • بينما خرجت فرنسا من الحروب النابليونية عاجزة اقتصاديا عن مناورة بريطانيا التى كان لها السبق على فرنسا فى نهضتها الصناعية •

٢ ـ أظهرت الحركات الاصلاحية فى بريطانيا فى عامى ١٨٣٢ و ١٨٦٧ دور الأعداد الكبيرة من الشعب العامل فى المجالات التى كانت تسيطر عليها من قبل جماعات قليلة وخاصة فى مجالات النشاط التجارى • كما تضخمت عمليات التصدير فى بريطانيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وتفوقت السلع البريطانية وانتشرت فى أرجاء العالم مما جعل البريطانيين فى بداية الأمر فى غنى عن دفع الحركة التجارية لديهم بأساليب غير طبيعية (٤) •

٣ ـ ظهور بعض الشخصيات البريطانية التى ساعدت على نمو امبراطوريتهم نتيجة لما بذلوه من جهود سواء فى داخل بريطانيا نفسها مثل «بالمرستون» أو فى المناطق المستعمرة مثل « هينز » و « كوجلان » و « ميرويذر »

---

(١) محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ٤٥ •

(٢) Albrecht — Carrié, Rene : Italy from Napoleon to Mussolini, p. 218.

(٣) Villari, Luigi : The Expansion of Italy, pp. 30-31.

(٤) Marston, T.E. : op. cit., pp. 386, 388.

الذين أسهموا مساهمة فعالة في تدعيم النفوذ البريطاني في عدن وعند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر أثناء عملهم كمقيمين سياسيين هناك ٠

٤ ــ اتساع مصالح الشعب البريطاني في أرجاء العالم وازدهار التجارة البريطانية بشكل ملحوظ وبسرعة مذهلة ، بحيث تعددت شركات النقل البحري التي اعتمدت على السفن البخارية واستخدمت خطوطا منتظمة وخاصة عبر طريق البحر الأحمر ٠ وصاحب ذلك تطور ملحوظ في تحسين الخدمات البريدية فضلا عن نقل المسافرين والبضائع وانتظام خطوط البرق ومد كابلات بحرية جديدة (١) ٠

٥ ــ وفي نفس الوقت تعاظم النشاط التبشيري في بريطانيا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر وتدفق طوفان من البعثات التبشيرية البريطانية التي صاحبها بطبيعة الحال رواج التجارة البريطانية ونمو المصالح الاستعمارية وخاصة على الساحل الافريقي للبحر الأحمر ٠

٦ ــ بدأت بريطانيا تفقد قيادتها البارزة في مجالات الصناعة نتيجة لظهور المنافسة التي أوجدتها الثورة الصناعية في القارة الأوربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ٠ وقد أدى ذلك الى اجبار بريطانيا على أن تضع في اعتبارها أن عليها أن تتحكم في الأسواق التجارية بالاعتماد على الاحتلال والسيطرة العسكرية أكثر من اعتمادها على مقدرتها الاقتصادية وتفوق منتجاتها ٠

٧ ــ أدت حملة البريطانيين على الحبشة في عامي ٦٧ و ١٨٦٨ وما أعقبها من فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ الى تحول نظرة البريطانيين بالنسبة لعدن من اعتبارها مجرد محطة لتزويد السفن البريطانية بكميات الفحم اللازمة لها ، الى الاقتناع الكامل بأهميتها كقاعدة استراتيجية بحرية وعسكرية لبريطانيا في منطقة البحر الأحمر (٢) ٠

وسوف أستعرض في هذا الفصل جوانب هذه الموضوعات موضحا تطور السياسة البريطانية في عدن والبحر الأحمر بعد فتح قناة السويس التي أبرزت البحر الأحمر كواحد من أهم الطرق البحرية الرئيسية في العالم ٠ وسوف أتتبع موقف البريطانيين ازاء مشروع قناة السويس حتى تم تنفيذه ، وما أعقب ذلك من خطوات للاستئثار بالتسلط عليه ٠ ثم أتناول بعد ذلك

---

(١) تعددت شركات النقل البحري الكبرى في بريطانيا التي استخدمت خطوطا منتظمة للبواخر البريطانية وأدت زيادة الاهتمام بها الى نمو المصالح البريطانية فيما وراء البحار بوجه عام وفي طريق البحر الأحمر على وجه الخصوص ، وقد أورد « مارستن » ــ في كتابه ــ بيانا بأسماء أهم هذه الشركات ، ص. ٢٢١ ٠

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 222.

دراسة موقفهم ازاء النشاط العثمانى والمصرى فى منطقة البحر الأحمر من جهة ، وازاء النشاط الفرنسى والايطالى هناك من جهة أخرى مع ابراز حقيقة دور القوى المحلية المتمثلة فى أهالى المنطقة وتوضيح موقفهم من القوى الأجنبية المتنافسة للسيطرة على مقدراتهم ، وخاصة بالنسبة لبريطانيا التى حرصت باستمرار على تدعيم قاعدتها فى عدن لتكون مركز انطلاق لتحقيق تطلعاتها الاستعمارية المتزايدة هناك بعد أن تبينت أهميتها الفعلية لتحقيق هذه الأهداف ·

اولا — موقف البريطانيين ازاء مشروع قناة السويس :

حاربت بريطانيا مشروع قناة السويس — منذ بدايته — بكل ما أوتيت من قوة ، وظلت على موقفها هذا حتى أصبحت القناة حقيقة واقعة بعد فتحها فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ · وهنا غيرت بريطانيا موقفها واتجهت الى الاستفادة من القناة حتى أصبحت فى مقدمة الدول المستفيدة منها · كما أنها حرصت على ألا تسيطر دولة واحدة غيرها على قناة السويس أو على ادارة شركتها حتى لا يؤثر ذلك على المصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر ·

وتطبيقا لهذه السياسة اشترت بريطانيا من الخديو اسماعيل أسهم مصر فى قناة السويس فى سنة ١٨٧٥ · ولم تنقض ثمانى سنوات على ذلك الا وكانت قد احتلت القناة واحتلت مصر ذاتها فى سنة ١٨٨٢ (١) وبذلك أصبحت بريطانيا صاحبة المركز الفعلى الممتاز فى قناة السويس ، وضمنت بذلك حماية مصالحها فى منطقة البحر الأحمر · وكانت التجارة البريطانية التى تعبر القناة تشكل أربعة أخماس حجم التجارة العالمية التى تعبرها ، كما كان جزءا كبيرا من هذه التجارة يمر بميناء عدن مما زاد من أهميتها بطبيعة الحال ، وأدى ذلك بالتالى الى تشبث البريطانيين بالبقاء فيها وتدعيم نفوذهم فى المنطقة المحيطة بها · ولا شك أن قناة السويس الى جانب كونها ممرا عالميا للمواصلات بين الشرق والغرب مما جعلها ذات أهمية بالغة للتجارة العالمية بوجه عام ، فانها قد أصبحت أيضا ممرا ضروريا للمواصلات بين الأجزاء المختلفة من الامبراطورية البريطانية بوجه خاص (٢) ·

وقد ظلت بريطانيا تحتفظ لنفسها بهذا المركز الخطير طيلة فترة الاحتلال البريطانى لمصر على أساس الحق الذى ادعته لنفسها مع أنه كان يهمها أكثر من غيرها حماية حرية المرور فى قناة السويس للسفن التجارية والحربية وغيرها فى وقتى السلم أو الحرب · وبذلك تحكمت بريطانيا فى المدخل الشمالى للبحر

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس (١٨٥٤ — ١٩٥٦) ص٣ ·

(٢) سيتون وليمز ؛ م· ف : بريطانيا والدول العربية ، عرض العلاقات الانجليزية العربية (١٩٢٠ — ١٩٤٨) (ترجمة وتعليق الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى) ص ٥٣ ·

الأحمر بسيطرتها على مصر وقناة السويس ، وعلى المدخل الجنوبى لهذا البحر بسيطرتها على عدن وبسط نفوذها فى المنطقة المحيطة بها فى جنوبى اليمن ، وفى المنطقة المواجهة لها على الساحل الافريقى للبحر الأحمر والتى تشرف على خليج عدن من ناحيتى الغرب والجنوب ·

ولا شك أن الأهمية البالغة التى حظيت بها قناة السويس والتى انعكست على ميناء عدن الهام ترجع الى حد كبير الى تقدم صناعة السفن البخارية · اذ بعد أن ضعفت تجارة البن فى اليمن وتم احتكار تجارة التوابل بمعرفة الأوربيين فى نهاية القرن الثامن عشر · فقد كانت عدن على وشك الانهيار والاهمال · وكانت الأهمية الكبرى لعدن من الناحية الاقتصادية ترجع الى أنها كميناء يتم فيه نقل البضائع من السفن الكبيرة التى تمخر عباب المحيط الهندى الى السفن المتوسطة التى تقطع رحلاتها عبر البحر الأحمر · وكان استخدام السفن البخارية منذ مطلع القرن التاسع عشر من العوامل الهامة فى احياء أهمية ميناء عدن من جديد كمخزن ومحطة للفحم لتزويد السفن البخارية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية (١) · كما كان فتح قناة السويس أهم عامل من عوامل تنشيط ميناء عدن وربطه مباشرة بموانى الدول الأوربية بواسطة الطريق القصير عبر البحرين الأحمر والمتوسط ·

وجدير بالذكر أن البريطانيين لم يكونوا فى أول الأمر معارضين لمشروع القناة ، بل انهم كانوا مرحبين بذلك وحاول الفرنسيون والبريطانيون دراسة المشروع دراسة قائمة على أسس علمية صحيحة ، وقام الفرنسيون بعرضه على محمد على الذى أصر على ضرورة اشراف الحكومة المصرية على تنفيذه وتمويلها له ، كما أنه أصر أيضا على ضمان الدول الكبرى لحيدة القناة ، على اعتبار أن المشروع ذو صبغة دولية عامة · على أن«محمد على»قد غض النظر عن تنفيذ هذا المشروع ، وان كان قد وجه عناية كبرى الى فتح الطريق البرية التى تمر عبر مصر من الاسكندرية الى القاهرة ومن القاهرة الى السويس · وكانت الحكومة البريطانية قد اقتنعت بأفضلية هذا الطريق على مشروع القناة من الناحية السياسية نظرا لأنها اعتقدت بأن تنفيذ مشروع القناة سيؤدى الى فتح بوسفور جديد ، واثارة مشاكل جديدة ، ربما تضطرها لاحتلال مصر ذاتها (٢) ·

وعلى أية حال فقد بذلت بريطانيا جهودها لمنع الفرنسيين من الحصول على امتياز من والى مصر بانشاء قناة السويس · وكلما كانت حماسة الفرنسيين تزداد فى تعضيد مشروعهم ، زادت حماسة البريطانيين فى معارضته · حتى ان الحكومة البريطانية وضعت مشروعا قويا منافسا للمشروع الفرنسى ، وهو مشروع انشاء السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة والسويس · وقد استجاب والى مصر عباس الأول لتنفيذ هذا المشروع البريطانى وهو يعلم مدى

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., pp. 385, 386.

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) :انجلترا وقناة السويس ، ص ١٧ ·

ما تستطيعه القوة البحرية البريطانية فى ذلك الحين ، كما انه لم يئس ان فرنسا تخاذلت عن أسرة محمد على فى أزمته الشديدة فى سنة ١٨٤٠ . ولهذا رأى عباس أن يجامل بريطانيا ويؤجل المشروع الفرنسى دون أن يكترث بانذار فرنسا له ببذل جهودها لدى الباب العالى لعزله عن ولاية مصر حينذاك .

غير أن «فردنند دى لسبس» رجل الأعمال الفرنسى الذى حمل على عاتقه تنفيذ مشروع قناة السويس استطاع ان ينتهز فرصة تولى سعيد باشا حكم مصر فيسارع اليه مذكرا بصلاتهما الوثيقة القديمة ، ويجد من الوالى الجديد ترحيبا كبيرا ، وينجح فى اقناعه بقيمة المشروع الفرنسى بفتح قناة السويس . وعلى الرغم من أن « دى لسبس » قدم مشروعه على أنه ذو صبغة تجارية محضة ، فان منطق التاريخ كان يأبى الا أن يدمغه بالصبغة السياسية . فقد اقترح هذا المشروع « ريشيليو » و « كولبير » لاستعمار أفريقيا ، بينما قصد به « بونابرت » ضرب انجلترا فى تجارتها الشرقية . ولهذا فليس من المستغرب أن تشن بريطانيا معارضتها منذ البداية لهذا المشروع لاعتقادها بأنه يحرمها من تفوقها البحرى والتجارى ويضعها على قدم المساواة مع دول البحر المتوسط . بل ان السياسى النمسوى « مترنخ » قد أعلن بالفعل بأن القناة سوف تحول التجارة الشرقية الى النمسا . (١) هذا فضلا عن أن ضعف جمهورية البندقية راجع أصلا الى تحول التجارة الشرقية عنها بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، على نحو ما سبق أن أشرت اليه من قبل .

وقد منح سعيد باشا امتياز مشروع قناة السويس « لفردنند دى لسبس » فى عامى ١٨٥٤ ، ١٨٥٧ . وقد نص عقد الامتياز الأول على أن تكون الملاحة فى القناة حرة لجميع السفن بلا استثناء ولا تمييز ، وعلى أن تقوم الشركة بفرض رسوم على مرور السفن بالاتفاق مع الحكومة المصرية ، وعلى أن مدة عقد الامتياز ٩٩ عاما من تاريخ فتح القناة . بينما كان امتياز عام ١٨٥٦ ، ثم الفرمان الذى أقر به السلطان مشروع القناة فى عام ١٨٦٦ ، من الاجراءات التى تمس القانون الداخلى (٢) . ولا شك أن امتياز القناة الذى منحه سعيد « لدى لسبس » كانت شروطه مجحفة بحقوق مصر ومصالح المصريين . اذ نص الامتياز الممنوح « للشركة العالمية لقناة السويس » على تسخير عدد كبير من الفلاحين المصريين لخدمة الشركة وتنفيذ أغراضها . كما اعطاها فرمان الامتياز من امتيازات الملكية ومن حيازة مساحات شاسعة من الأراضى فى منطقة القناة مالم يوجد له نظير (٣) . وعلى الرغم من التساهل المعيب فى امتياز القناة ،

---

(١) Wilson, A. : The Suez Canal, p. 17.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) وجلال يحيى (دكتور) : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، ص، ٥٧١ — ٥٧٥ .

(٣) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ١٧ ؛ ١٨ .

الا أن سعيد كان يرى أن القناة ستؤدى الى رخاء مصر ، وبالتالى الى تحرر واليها من السيطرة العثمانية . كما كان يعتقد أيضا أن القناة ستغرى الدول الى احترام الأوضاع القائمة بالبلاد ، على اعتبار أن التنافس الدولى سيؤكد حيدة القناة وبالتالى حيدة مصر ، مما يكون من شأنه اشتراك الدول الكبرى فى ضمان الحقوق الوراثية التى تتمتع بها أسرة محمد على . بل انه كان يعتقد أيضا أن تحقيق مشروع الفرنسيين لفتح القناة سيكسبه عطف فرنسا وتأييدها له (١) . وبذلك كان سعيد يفكر فى مصالحه الخاصة قبل كل شىء .

اما عن موقف بريطانيا من مشروع قناة السويس فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٥٤ و ١٨٦٩ فيمكننا القول بأن الحكومة البريطانية كانت تنظر الى مشروع القناة على أنه مشروع فرنسى قبل كل شىء ، من شأنه أن يجعل للفرنسيين نفوذا كبيرا فى مصر يمكنهم من التحكم فى الطريق العالمية عبر البحر الأحمر لخدمة أغراضهم الامبراطورية الخاصة . واذا كانت بريطانيا قد ارتبطت بفرنسا فى الخمسينات من القرن التاسع عشر فى عهد الامبراطور نابليون الثالث ، بصلات ود وصداقة نمت فتحولت الى تحالف متين الأواصر فى حرب القرم حين وقفت الدولتان جنبا الى جنب مع الدولة العثمانية ضد أطماع الروس ، فان تلك الصلات الطيبة ووجود هذا التحالف بينهما لم يترتب عليه أن تنسى الدولتان أبدا تنافسهما القديم فى ميدان الاستعمار (٢) ، كما لم تنس بريطانيا على وجه الخصوص الجهود الفرنسية لقطع الطريق عليها الى الهند عبر البحر الأحمر .

ولهذا فان بريطانيا قد عارضت مشروع قناة السويس حينذاك . بل انها كانت ترى أيضا أن فتح القناة سيؤدى من ناحية أخرى الى فصل مصر فصلا تاما عن الدولة العثمانية بحيث يكون بامكانها اعلان استقلالها عن الدولة فى الوقت الذى تريده . ونظرا لأن العديد من الاستحكامات القوية كانت قد أنشئت حول مدينة الاسكندرية وعلى طول الساحل المجاور للدفاع عنها ضد أى هجوم من البحر ، فان الحكومة البريطانية استنتجت أن من السهولة وضع قوات فرنسية فيها اذا عجزت القوات المصرية عن الدفاع عن القلاع . وكانت كل هذه التحصينات قد صممت فى وزارة الحربية فى باريس ، ونفذها مهندسون فرنسيون فى مصر ، بحيث كانت تكفى لايواء حامية تتكون من عشرين الف جندى . وكان الهدف من هذه التحصينات هو الدفاع عن مصر ضد أى هجوم بريطانى تتعرض له من جهة البحر المتوسط ، خاصة وانه كان باستطاعة الفرنسيين أن يرسلوا جيشا من الجزائر وطولون الى مصر قبل ان

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : مشكلة قناة السويس (١٨٥٤ — ١٩٥٨) ص ١٠ .

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ١٩ .

يتمكن الأسطول البريطاني من عرقلة هذه المحاولة · وكان من المعروف حينذاك أن القناطر الخيرية التي أقنع الفرنسيون محمد علي بانشائها تحت ستار رى الدلتا كانت في حقيقة الأمر منشأة عسكرية هدفها التصدى لأية قوة قد تأتي من ناحية البحر الأحمر للزحف على الاسكندرية وذلك بالتحكم في عملية اغراق الدلتا (١) وتعطيل أى هجوم ·

على أن كل ذلك كان يعني أن من أهداف مشروع القناة اكمال نظم الدفاع في مصر بحيث يمكن ، اذا ما اقيمت استحكامات على القناة ووضعت فيها سفن حربية ، أن يوقف أى جيش قادم من سوريا · وقد أدى ذلك الى اقتناع بريطانيا بأن اكتمال مشروع القناة سيكون مقدمة لوقوع مصر بأكملها تحت السيطرة الفرنسية · فاذا ما نشبت الحرب بين بريطانيا وفرنسا أمكن للفرنسيين في الحـــال ان يحتلوا مداخل القنـــاة التي ستصبح مفتوحة أمامهم ومغلقة أمام البريطانيين · وحينذاك يمكن لحملة فرنسية أن تسيطر على عدن التي كانت حاميتها البريطانية في أوقات السلم خاصـــة تضعف أمام مواجهـــة قوة أوربية كبيرة والتصدى لها ، هذا على الرغم من تمكن هذه الحامية من مقاومة هجمات القبائل العربية المجاورة · وكان ذلك يهدد بتحكم فرنسا في التجارة البريطانية شرقي رأس الرجاء الصـــالح واســـتيلائها على جزر « الموريس » ووضـــع البريطانيين هناك تحت رحمتها وتهديد المصالح البريطانية في الشرق بوجه عام · (٢)

فالحكومة البريطانية اذن كانت تفهم جيدا مرامي السياسة الفرنسية ، وحرصها على التفوق في الشرق الأوسط ، بل وسعيها لتحويل البحر المتوسط الى بحيرة فرنسية · ولهذا فان بريطانيا أخـــذت تبذل جهودها لوقف ذلك النفـــوذ الفرنسي والعمـــل على تفوق النفوذ البريطاني · وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تكن لها سواحل مطلة على ذلك البحر ، فان قوة أسطولها وتفوقها البحرى ، وقواعدها الحصـــينة في جبل طارق ومالطة ، وصـــلات الصداقة والتحالف التي كانت تربطها مدة طويلة بالدولة العثمانية ، فقد جعـــل ذلك كله لبريطانيا مركزا قويا وممتازا في البحر المتوسط دون أدنى شك ·

وتجدر الاشارة الى أن الحكومتين البريطانية والفرنسية بعد أن اصطدمت مصالحهما في مشروع قناة السويس وجدتا من الضرورى المحافظة على تحالفهما وعلاقاتهما الطيبـــة ، فاتفقتا فيما بينهما على أن تمتنعا عن التدخـــل الفعلي لا بتعضيد هذا المشروع ولا بالعمل على فشله · غير أن هذا الاتفاق لم يمنع

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقات مصر بتركيـا في عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ص ١٢ ·

(٢) F.O., 78/1556 ; Memorandum, Insuperable Objections of Her Majesty's Government to the Projected Suez Canal., pp. 1, 2.

الحكومة البريطانية من أن تتابع خطتها فى بث العقبات والعراقيل أمام المشروع الفرنسى مما اضطر « دى لسبس » ان يقـــوم بالدعاية لمشروعه فى بريطانيا ذاتهـــا • وكان على رأس الحكومة البريطانية حينـــذاك « لورد بالمرستون Lord Palmerston » وهو ســـياسى بريطـانى من أكبر دعـــاة الامبراطورية البريطانية الذين يحرصون على حماية مواصلاتها وطرق تجارتها ، وهو الذى وضع سياستها التقليدية فى الشرقين الأدنى والأقصى • ولهـــذا فقد عارض مشروع القناة الذى اعتبره متعارضا مع المصالح الامبراطورية البريطانية كمـــا أنه كان يرى ان بريطانيا يجب ان تتمسك بطريق الاطلنطى لأنها تشرف عليه بالفعل بما لها من قوة بحرية متفوقة •

غير أن هذا الموقف العدائى من قبل الحكومة البريطانية لمشروع قنـــاة الســـويس لم يثبط من همة « دى لسبس » الذى حاول الاتصال بالزعماء البريطانيين الآخرين من امثال « جلادستون » • كما حاول الاتصال بالرأى العام البريطانى لاقتـــاعه بقيمة المشروع من النواحى العملية والحضـــارية والانسانية • بل انه أرسل خطابات الى أعضاء البرلمان البريطانى والى ادارة شركة الهند الشرقية وأصحاب السفن وأعضاء الغرف التجارية وكبار رجال الصناعة وأصحاب المصارف ، وحاول اقناعهم بفائدة المشروع من النـــاحية العملية والمالية • ولم تذهب كل مساعى « دى لسبس » دون جدوى ، اذا أظهرت شركة الهند الشرقية البريطانية عطفها على مشروعه ، كما أظهرت ذلك أيضا بعض شركات الخطوط الملاحية (١) •

على أن الرأى العام البريطانى حينذاك لم يكن مجمعا على معارضة مشروع قناة السويس ، اذ ان جانبا منه كان محبذا للناحية التجارية لهذا المشروع • ولقد شجع ذلك « دى لسبس » على أن يكون لجنة دولية ضم اليها عددا من كبار المهندسين الانجليز أنفسهم لفحص المشروع ودراسته ووضع تقرير عن مدى امكانية تنفيذه • وقد وضعت هذه اللجنة تقريرا فى شهر يناير سنة ١٨٥٦ أكدت فيه امكانية نجـــاح المشروع • وعلى أساس هـــذا التقرير أجاب « دى لسبس » على اعتراضات « بالمرستون » فى شهر يوليو سنة ١٨٥٧ فأكد أن قيمة المشروع لبريطانيا لا تقدر من الناحية التجارية ، نظرا لأن طريق القناة سيكون أقصر الطرق الى الشرق مما يوفر الوقت والمال والجهد • كمـــا حاول أن يظهر أن آراء « بالمرستون » قائمة على أساس أخطار وهمية على الهند والامبراطورية العثمانية ، وانه لا خطر ممكن أن يتحقق من مشروع القنـــاة طالما أن بريطانيا تسيطر على جبل طارق ومالطة وعدن وجزيرة بريم فى وسط مضيق باب المندب • بل انه أوضح أن فتح القناة سيجعل مصر بمنأى عن أطماع

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ٢٩ — ٣٠ •

الدول الأوربية اذ سيجعل لها مركزا محايدا · أما بالنسبة للدولة العثمانية فقد أوضح « دى لسبس » أن مركزها مضمون بالمعاهدات والمواثيق الدولية ، وفى ذلك تأييد لسياسة بريطانيا التقليدية فى المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانية ·

وعلى أية حال فقد نال « دى لسبس » بناء على تقرير اللجنة الدولية من سعيد باشا امتيازا جديدا خاصا بالقنـــاة روعى فيه مقابلة بعض مخاوف بريطانيا · اذ نص فيه على حياد القناة ، وان معظم من ســيقومون بالتنفيذ مصريون وليسوا فرنســيين ، كما نص فيه أيضــا على ضرورة موافقة الباب العالى · ولا شك أن تكوين هذه اللجنة الدولية وما توصلت الى تحقيقه قد ضم الى صف « دى لسبس » جانبا كبيرا من الرأى العـــام البريطانى والاوروبى ساعده كثيرا على تحقيق مشروع القناة (١) ·

ولقد كان وقع الامتيازات التى منحها سعيد « للشركة العالمية لقنـــاة السويس » لدى السلطات البريطانية حينذاك لا يقل عن وقع حملة بونابرت على مصر (٢) · ولهذا طلبت الحكومة البريطانية من سفيرها فى الآستانة وهو « اللورد ستراتفورد دى ردكليف » بأن يبذل قصارى جهده للقضاء على مشروع قناة السويس فى مهده · وأخذت الحكومة البريطانية تضرب على الوتر الحساس حين أشارت على سفيرها بأن يوضـــح للحكومة العثمانية خطورة انشاء ذلك الطريق المائى الذى قد يؤثر على نظام الدفاع عن مصر بحيث يتوقف اتصالها بالدولة العثمانية على حسن نيات الوالى الذى قد يفيد من التسهيلات المادية التى يوفرها له حفر القناة فيخلع ولاءه للباب العالى ويعلن استقلاله مدفوعا الى ذلك بأطماعه الشخصية أو بتحريض من قبل أية قوى أخرى (٣) · بل ان بريطانيا هددت الباب العالى بأنه فى حالة موافقته على مشروع القناة . بعد أن وضح هدفه المباشر وهو فصل مصر عن تركيا ، فانه لا يجب أن يتوقع من الدول الأوربية العظمى أن تحافظ على مبدأ سلامة أراضى الامبراطورية العثمانية باعتباره مبدأ عاما ، لأن السلطان فى مثل هذه الحالة يكون أحد الأطراف التى أبطلت مفعول هذا المبدأ (٤) ·

على أن « اللورد ستراتفورد دى ردكليف » استغل موقف بلاده من الأزمة الشرقية ، فضلا عن نفوذه الشخصى فى دوائر الباب العالى لكى يوجه نظـر

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ٣٣ ·

(٢) Sabry, M. : L'Empire Egyptien sous Ismail, p. 80.

(٣) Seifeddean, I.N. England's Opposition to the Suez Canal Project, p. 51.

(٤) F.O. 78/1421 : Draft No. 1, F.O. to Mr. Alison, dated January 1st, 1858.

الساسة العثمانيين الى أن سعيدا قد أرفق بعقد الامتياز الأول خطابا قرر فيه ان عقد الامتياز ذاته يجب أن ينال موافقة الباب العالى وانه لا يمكن البدء فى العمل الا بعد الحصول على هذه الموافقة من السلطان (١) • وطالما كان السلطان لا يقر افتتاح القناة وبدء العمل فيها ، فان أى اجراء مضاد يعتبر لاغيا قانونا • وعلى هـذه الثغرة انصب الضغط البريطانى فى الآستانة والقـاهرة على يد سفيريها « دى ردكليف » ومن بعده « سير هنرى بولور » •

ولقد نجح « دى ردكليف » فى نصحه للباب العالى مما عقد الأمور كثيرا « لدى لسبس » • ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أرسل الباب العالى نتيجة للمساعى البريطانية خطابا شديد اللهجة الى سعيد باشا فى مصر يحذره فيه من عواقب عمله الجرىء • وعلى الرغم من ذلك فقد قدر للمشروع الفرنسى البقاء نتيجة للجهود الفرنسية ولدور « دى لسبس » نفسه فى التأثير على والى مصر ، هذا فضلا عن تدخل الدولة النمساوية فى صالح « دى لسبس » ومساندتها لمشروع القناة (٢) •

وعندما تولى اسماعيل عرش مصر فقد رأت بريطانيا أن الفرصة قد سنحت للقضاء على مشروع قناة السويس • اذ اعتقد ساستها أن الوالى الجـديد أشد ميلا الى وجهة النظر البريطانية من سلفه • وكان « السير هنرى بولور » شديد التحمس لهذا الاعتقاد ، وكان قد قام بزيارة لمصر (٣) فى أواخر سنة ١٨٦٢ لمراقبة تطور العمل عن كثب ، وقابل اسماعيل ولى العهد حينذاك ، ولمس فيه ، باعتباره أحد كبار الملاك المحتاجين الى الأيدى العاملة ، معارضة خافتة للمشروع ومخاوف لا حد لها • غير ان اسماعيل بعد أن تولى زمام الحكم فانه قد آثر الانتظار حتى لا يغضب فرنسا أو بريطانيا أو الباب العالى فى ذلك الوقت ••

وتجدر الاشارة الى موقف الباب العالى من مشروع قناة السويس • فقد حدد موقفه من المشروع لأول مرة عندما قام باصدار مذكرتين احداهما لوالى مصر فى اليوم الثانى من ابريل سنة ١٨٦٣ • والثانية الى سفيرى تركيا فى لندن وباريس فى ١٦ ابريل من نفس السنة ، وجاء فيها انه رغم عدم رغبته فى القضاء على المشروع الا انه لا يوافق عليه الا اذا ضمنت حيدته • كما أصر الباب العالى على وجوب الغاء السخرة ذات النتائج الخطيرة على الزراعة المصرية والمناقضة لقوانين الامبراطورية التى لا يقرها الوالى الجديد • بل انه أصر أيضا على وجوب الغاء استعمار الأجانب للأراضى الواقعة على جانبى ترعة المياه العذبة فى السويس ــ ذلك الاستعمار الذى يضع على الحدود المصرية سكانا لا يخضعون

---

(١) انجلو سماركو : الحقيقة فى مسألة قناة السويس (ترجمة طه فوزى) ، ص ٢٢ •
(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتـور) : انجلترا وقناة السويس ؛ ص ٢٨ •
(٣) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : نفس المصدر ، ص ٣٩ •

لتشريع أجنبى · وبعد القضاء على هذين الامتيازين اللذين لا يعترف بهما الباب العالى ، للشركة أن تتنحى عن العمل ، ويتفق الوالى مع الباب العالى على تعويضها عما تكبدته من نفقات حتى ذلك الوقت ، ثم يتعهدان سويا بتنفيذ المشروع بطرق مباشرة أو غير مباشرة (١) · وقد أعطيت الشركة مهلة قدرها ستة شهور لكى تقبل هذه الشروط أو تتنازل عن العمل للحكومة المصرية ، وذلك بعد أن حدد الباب العالى موقفه من المشروع على النحو المشار اليه ·

على أن بريطانيا قد فوجئت باتفاقى ١٨ ، ٢٠ مارس سنة ١٨٦٣ بين اسماعيل وشركة القناة (٢) ولهذا قام « السير هنرى بولور » بتوجيه اللوم « للمستر كلكهون Mr. Colquhoun » القنصل الانجليزى العام فى مصر لعدم الحيلولة دون عقد الاتفاقين المذكورين · ونصح « بولور » وزارة الخارجية البريطانية حينذاك بتوجيه خطاب شديد اللهجة الى الوالى · ولهذا أرسل « اللورد رسل » الى اسماعيل يخبره أنه قد تحدى السلطان بعدم انتظار قراره الذى كان قد طلبه فى مذكرة الثانى من ابريل سنة ١٨٦٣ التى أرسلها الباب العالى اليه ، وسمح لنفسه بالوقوع فى أحابيل رجال شركة القناة (٣) · ولهذا كلف « كلكهون » باقناع الوالى بطاعة أوامر السلطان أى بتنفيذ مضمون المذكرة ، كما وجه نظره الى أن الوالى لا يعدو أن يكون حاكما اداريا يباشر سلطته باسم سيده ، وانه لا يتمتع بأى حق فى منح « دى لسبس » حقوقا تخص الباب العالى (٤) ·

على أن الضغط الشديد الذى واجهه اسماعيل من جانب القنصل العام البريطانى فى مصر ، وتهديد الساسة البريطانيين بعزله اذا لم ينقض اتفاقه مع شركة قناة السويس فقد اضطره ذلك الى العمل على ارضاء السلطان دون أن يغضب فرنسا · وكان انشغال السلطان ينحصر فى مسألتين أولاهما الأراضى الممنوحة للشركة ، وثانيتهما تسخير العمال المصريين فى برزخ السويس ، ومن الواضح ان القضاء على هذين الامتيازين يعتبر تحقيقا للأمانى البريطانية ومجافاة للمصالح الفرنسية · ولهذا فقد أكد اسماعيل ــ الذى كان يخشى اغضاب شركة القناة والحكومة الفرنسية ــ للقنصل البريطانى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٣ انه لا يمكنه اجراء أى تعديل فى الأوضاع القائمة دون أن يعرض نفسه لدرجة كبيرة من الضغط ليس باستطاعته تحملها (٥) ·

---

(١) Sammarco, A. : Histoire de l'Egypte Moderne (1801 — 1882) tome 3. pp. 153, 154.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) وجلال يحيى (دكتور) : وثائق ونصوص التاريخ لحديث والمعاصر ، ص ٥٨٨ ·

(٣) Hoskins, H.L. : British Routes to India, pp. 360-361.

(٤) Douin, G. : Histoire du Régne du Khedive Ismail, p. 55.

(٥) Hallbery, Ch. : The Suez Canal, p. 202.

غير أن بريطانيا كانت لا تزال تصر على تطبيق ما تضمنته مذكرتا الباب العالى الصـــادرتين فى شهر ابريل ســــنة ١٨٦٣ بحذافيرهما ٠ اذ صرح « بالمرستون » فى مجلس العموم فى ١٥ مايو من نفس السنة بأن السلطان والوالى سيجدان من انجلترا كل مساعدة مما جعل الباب العالى يصر على ضرورة تنفيذ مذكرة ابريل ٠ وأكد فؤاد باشا الصدر الأعظم استعداد الحكومة العثمانية لادارة منطقة القناة واقامة تحصينات بها تحرسها قوات تركية خوفا من وقوع المنطقة فى يد شركة أجنبية ٠ ولكن اسماعيل فوت على الباب العالى هذه الخطوة بأن عين فى أواسط ابريل حاكما مصريا للبرزخ تحت تصرفه ضبطيات وطنية ، على اعتبار ان الحكم التركى للبرزخ يحرم مصر من مورد هام ، اذ معناه أن تفقد ضريبة المرور المفروضة على التجارة وبخاصة بعد انجاز مشروع القناة ٠

على أن اسماعيل أوفد نوبار باشا الى الآستانة فى شهر يونيو سنة ١٨٦٣ لكى يرضى كلا من انجلترا وفرنسا من جهة ، والباب العالى من جهة أخرى دون أن يتنازل عن حقوق مصر ؛ وقد عول نوبار على الاعتماد على انجلترا للقضاء على امتيازات شركة القناة ، وعلى فرنسا للتغلب على محاولة كل من انجلترا والباب العالى فرض السيادة العثمانية على مصر ٠ أما الباب العالى فكان يمكن اكتسابه بالطرق المألوفة ٠ وقد انتهت مهمة نوبار بأن صدرت من الباب العالى فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٦٣ مذكرة نصت على موافقته على مشروع القناة من حيث هى ممر بحرى وتجـارى ، ولكن بشرط أن يتفق الوالى مع الشركة على استرجاع الأراضى وترعة المياه العذبة وأن يلغى السخرة ويوجد الضمانات الكافية لاقتصار القناة على التجارة وحدها ، ثم يعطى اسماعيل مهلة قدرها ستة أشهر لكى يجرى مع الشركة اتفاقا معقولا ، على أن تصبح مذكرة ابريل نافذة المفعول اذا ما انتهت هذه المهلة دون أن يعقد اتفاق بين الطرفين ٠ وبذلك تكون مسألة القناة قد عادت من الناحية الدبلوماسية الى المجال التجارى البحت ، مما أضعف من دواعى المعارضة البريطانية ، وتركز النشاط الدبلوماسى فى القاهرة بدلا من الآستانة فيما يتعلق بمشكلة القناة ٠

ولم يكد اسماعيل يعلم بفحوى مذكرة الباب العالى الخاصة بالموافقة على مشروع قناة السويس والصادرة فى أوائل أغسطس سنة ١٨٦٣ حتى بعث الى « دى لسبس » يخبره بمضـمونها ويطلب منه أن يتعـاون معه فى جو ودى « بعيدا عن الصعاب والعوائق » (١) ٠ كما أوفد اسماعيل نوبار باشا الى باريس لكى يبلغ شروط الباب العالى الى مجلس ادارة شركة القناة ، وليواصل السعى لحل مسألتى الأراضى والسخرة ٠ وقام نوبار بشن حملة صحفية على

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل . ص ٤٠ ، ٤١ ٠

الشركة فى باريس ، غير أن مجلس ادارتها الذى تسانده الحكومة الفرنسية رفض شروط اسماعيل الواردة فى مذكرة الباب العالى الصادرة فى أوائل شهر اغسطس سنة ١٨٦٣ ، ولجأ المجلس الى امبراطور فرنسا ودعاه الى التدخل لحكم فى هذا النزاع • وقد أبدى اسماعيل ترحيبه بهذه الخطوة ليظهر للرأى العام الأوربى أنه لا يعادى مشروع القناة •

وفى ٢١ ابريل سنة ١٨٦٤ توصل نوبار الى عقد اتفاق مع «دى لسبس» الذى وافق فيه على الغاء السخرة واعادة الأراضى المتنازع عليها الى الحكومة المصرية • وقد تشكلت لجنة امبراطورية فى باريس لوضع قواعد التحكيم وهى التى وافقت من حيث المبدأ على انقاص مساحة الأراضى الممنوحة لشركة القناة والغاء السخرة فى نظير ما سوف تدفعه الحكومة المصرية كتعويض مالى • غير أن ذلك لم يرض « السير هنرى بولور » سفير بريطانيا الذى احتج على أن يسلخ الامبراطور جزءا من أراضى السلطنة حتى ولو كان ذلك برضى الوالى واستجابة لطلبه • كما أعلن أن السخرة نظام لا يقره الباب العالى لمناقضته لقوانين الامبراطورية العثمانية (١) • وأدى ضغط « بولور » على الباب العالى الى صدور التعليمات الى جميل باشا سفير تركيا فى باريس لكى يعارض نصوص التحكيم • وعلى الرغم من ذلك فقد صدر حكم « نابليون الثالث » فى ٦ يولية سنة ١٨٦٤ وأقر الغاء السخرة مع تعويض الشركة بمبلغ ٣٨ مليون فرنك (٢) ، ومع تنازلها عن الجزء الذى حفرته من الترعة العذبة ، على أن يكون من حقها أن تأخذ منها مقدارا معينا فى كل يوم حتى يتم حفر القناة البحرية ، وأن تعفى سفنها من الرسوم (٣) •

وعلى الرغم من أن بريطانيا واجهت تحكيم « نابليون الثالث » فى موضوع قناة السويس بعاصفة من الحملات العدائية لم يكن مثارها الكميات الكبيرة من الأموال التى كان على مصر ان تدفعها ، بل مساحة الأراضى المسموح بها للشركة ، غير أن الحكومة البريطانية لم تستطع أن تعارض رسميا فى تحكيم امبراطور الفرنسيين ولا فى الحكم الذى أصدره • حقيقة أن « بولور » نبه دوائر الباب العالى الى ان الأراضى التى سمح بها حكم الأمبرطور للشركة من شأنها أن توفر لها السيطرة على كل النقاط الهامة بما فيها بورسعيد والسويس وغيرها ، وحذرها من أن مخازن اللاسلكى وغيرها ليست سوى حصون مقنعة وحقيقة أن « بولور » اتفق مع الوزراء الأتراك على مخابرة الحكومة الفرنسية

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : السخرة فى حفر قناة السويس فى عهد سعيد باشا ، رسالة ماجستير تناولت دراسة هذا الموضوع باستفاضة •

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : مشكلة قناة السويس ، ص ١٨ •

(٣) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) وجلال يحيى (دكتور) : وثائق ونصص التاريخ الحديث والمعاصر ؛ ص ٥٩٧ •

فى أمر تعديل حكم الامبراطور · غير أن مركز شركة القناة ازداد قوة ، وزادت الثقة بها وتمكنت من أن تسير فى تنفيذ مشروعها حتى اســـتطاعت اخيرا الجازه ·

بل انه بعد الاتفاق الذى تم بين اسماعيل وشركة القناة لم يجد الباب العالى ــ وخاصة بعد أن أصلح اسماعيل علاقته به ــ بدا من الموافقة على الامتياز الممنوح للشركة ، مما جعل مركزها قانونيا · ولم تعد بريطـانيا بقادرة على مهاجمة المشروع من هذه الناحية ، مما أدى الى تقوية مركز الشركة ، كما وضع حدا نهائيا لمحاولة الحكومة البريطانية وضع العراقيل أمام تنفيذ المشروع · بل انه بعد فتح القناة فى ١٧ نوفمبر ســـنة ١٨٦٩ ، قدم وزير الخارجية البريطانية « اللورد كلارندن » تهانيه « لدى لسبس » ، كما هنأ الشعب الفرنسى والحكومة الفرنسية ، وفضلا عن ذلك فقد منحت الحكومة البريطـانية « لدى لسبس » النياشين ، واستقبل استقبالا حافلا فى لندن بعد أن أتم انجاز مشروعه بنجاح ·

وبافتتاح قناة السويس فقد تم وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وأصبحت القناة من أهم الممرات البحرية فى العالم · وعلى الرغم من أن القناة قد فصلت بين قارتى آسيا وافريقيـــا ، غير أنها ربطت بين الشرق والغرب وأحكمت الصلة بينهما · واصبح طريق البحر الأحمر بعد فتح القناة أقصر وأقرب طريق بين الدول الأوربية ومستعمراتها الشرقية · وكانت بريطانيا على رأس هذه الدول نظرا لأنها كانت تملك أقوى أسطول بحرى حينذاك · ولقد قدرت بريطانيا الأهمية البالغة لقناة السويس منذ افتتاحها بالنســبة لها ولأمبراطوريتها وتجارتها وحياتها كأكبر دولة بحرية استعمارية فى ذلك الوقت · ولا شك أن طريق القناة كانت تحت رحمة القوة البحرية المتفوقة لبريطانيا ، وخاصة بعد الكارثة السياسية والحربية الكبرى التى حلت بفرنسا فى الحرب الفرنسية الألمانية فى سنة ١٨٧٠ · كما قدرت بريطانيا أهمية القناة فى وقتى السلم والحرب على السواء ، اذ أصبحت القناة الطريق الرئيسية لمرور السفن والقوات والمعـــدات الحربية البريطانية الى الشرقين الأوسط والأقصى والى شرقى افريقيا واستراليا ونيوزيلندة · وأصبحت قناة السويس وطريق البحر الأحمر الطريق الرئيسية لمد النفوذ البريطانى فى شرقى العالم فى عصر من عصور التوسع الأوربى الاستعمارى ، الأمر الذى جعل الحكومات البريطانية رغم تعدد ألوانها الحزبية واختلاف برامجها السياسية تهتم طوال بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحرية المرور فى قناة السويس للسفن التجارية والحربية فى وقتى السلم والحرب على السواء (١) ·

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٦ ــ ٤٩ ·

ولا شك ان اهتمام بريطانيا بالقناة سيؤدى الى زيادة اهتمامها بمصر التى تخترق القناة أجزاءها الشرقية ٠ ٠ وقد ربطت السياسة البريطانية لمدة طويله مصير مصر ومستقبلها بمصير القنــاة ، وطالب البعض بأن من الواجب على الحكومة البريطانية شراء شركة القناة والاشراف اشرافا تاما على ادارتها ٠ كما أشيع أيضا فى سنة ١٨٧٤ أن الخديو والباب العالى كانا يفكران جديا فى بيع القناة لبريطانيا ، على أساس أن بريطانيا أكثر الدول اهتماما بها منذ فتحها ، وأن « الجنرال ستانتون » قنصل بريطانيا العام فى مصر قد خاطب حكومته فى هذا الشأن ، وأيده فى ذلك بعض أعضاء وزارة الأحرار البريطانية ٠ غير أن « جلاد ستون » رئيس الوزارة البريطانية ومعه « لورد جرانفيل » وزير الخارجية عارضاه فى ذلك ٠ كما رفضا فكرة قيام الدول البحرية الاوربية بشراء شركة القناة عندما واجهتها فى سنيها الأولى بعض الصعوبات المادية والخسائر الباهظة ٠ على أن « اللورد داربى » وزير الخارجية البريطانية فى عهد وزارة المحافظين فى سنة ١٨٧٤ كان يرى أن من مصلحة بريطانيا أن تدير القنــاة شركة دولية لا فرنسية الصبغة ، وكرر رأيه هذا فى سنة ١٨٧٥ ، غير أن هذه الأفكار لم تخرج الى حيز التنفيذ وظلت شركة القناة على حالها ٠

ولقد علم « بنجامن ديزرايلى Disraeli » زعيم المحافظين فى بريطانيا ورئيس الحـكومة البريطانية بوجود مفاوضات بين الحـكومة المصرية وشركة فرنسية لرهن أسهم الخديو اسماعيل فى قناة السويس فى سنة ١٨٧٥ ٠ واكد هذه المفاوضات «فريدريك جرينوود» وهو أحد رجال الصحافة البريطانية البارزين لوزير الخارجية البريطانية « اللورد داربى » وبين له ان من مصلحة بريطانيا شراء هذه الأسهم ٠ غير أن « داربى » لم يرحب بهذه الفكرة عندما عرضت على الحكومة البريطانية بعد أن رفض الخديو اسماعيل الشروط القاسية التى وضعتها الشركة الفرنسية التى تفاوض اسماعيل معها لبيع أسهمه ٠ وكان على اسماعيل أن يوفر مبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ليواجه ما أصاب ميزانية مصر من عجز عن سداد أقساط الديون المتراكمة أو فوائدها الفادحة والتى كانت نتيجة لاسرافه المعروف ٠

وقد أدرك « ديزريلى » أهمية الصفقة لبريطانيا من الناحيتين السياسية والامبراطورية ، فسارع بتوضيح ذلك للملكة « فيكتوريا » فى اليوم الثامن عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٥ (١) ٠

كما حرص « ديزرايلى » رئيس الوزارة البريطانية حينذاك على اقنــاع زملائه فى الوزارة بأهمية الصفقة لبريطانيا ، حتى نال موافقتهم جميعا على مبدأ شراء الحكومة البريطانية لأسهم الخديو اسماعيل فى قناة السويس ، على

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ٥١ — ٥٣ ٠

الرغم من تمسك عـــدد منهم بمعارضـــة الفكرة حتى آخر لحظـــة ، ولكنهم استصوبوا رأيه فى نهاية الأمر • فقد أعلن « داربى » وزير الخارجية البريطانية « لجافارد » ممثل فرنسا فى لندن ، بأن الحكومة البريطانية كانت ترى فى ملكية الخديو لجانب كبير من أسهم شركة القناة وسيلة للاطمئنان بأن القناة ليست ملكا للفرنسيين وحدهم ، ولهذا فليس أمام بريطانيا الا أن تعارض معارضة شديدة فى وقوع هذه الأسهم فى يد شركة فرنسية • كما أكد «داربى» أن هذا الموقف من قبل وقوع بريطانيا ضروريا تمليه عليها أبسط وسائل الدفاع عن مصالحها ، وذلك نظرا لأن القناة هى سبيل المواصلات البريطانية الى الهند ، خاصة وأن لبريطانيا أربعة أخماس التجارة التى تمر بها ، كما انه أكد أن مصلحة بريطانيا فى حماية قناة السويس وادارتها أكبر بكثير من مصلحة أية دولة أخرى تمر سفنها عبر القناة •

ولهذا أرسلت حكومة لندن تعليماتها الى « ستانتون » معتمدها البريطانى فى مصر ليؤكد للخديو اسماعيل ان الحكومة البريطانية لن تسمح برهن هذه الأسهم لدى شركة فرنسية ، وأن الأمر يقتضى وقف المفاوضات بين الخـديو والشركة الفرنسية حتى تبدى الحـكومة رأيها فى ذلك • ولم تعمل الحـكومة الفرنسية فى ذلك الوقت على عرقلة هذه الخطوات دفاعا من الشركة الفرنسية ، وذلك نظرا لشدة حرصها على صداقة بريطانيا التى وقفت الى جانبها فى أزمة ربيع سنة ١٨٧٥ ، وأنقذتها من الخطر الألمانى الذى كان يتهددها ويكاد يطيح بمركزها فى أوروبا • هذا فضلا عن مركز فرنسا المزعزع فى الداخل نظرا لانقسام الملكيين على أنفسهم وتهديد الحزب الجمهورى لحكم المحافظين فيها • ومعنى ذلك أن فرنسا لم تكن قادرة على منع البريطـانيين من شراء نصيب الخديو اسماعيل فى أسهم قناة السويس •

وقد عرض « ديزرايلى » أربعة ملايين من الجنيهات ثمنا لشراء نصيب الخديو اسماعيل فى أسهم قناة السويس • كما قام بعرض هذا الموضوع على مجلس الوزراء البريطانى الذى وافق على الثمن فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ • وفى اليوم التـــالى مباشرة أمضى العقد فى القاهرة ، وأودعت الأسهم فى دار القنصلية البريطانية ، وبذلك تم للبريطانيين الاستيلاء على أسهم الخديو اسماعيل خلال فترة لم تتجاوز عشرة أيام ، مما يظهر مدى السرعة التى تحركت بها السياسة البريطانية لنيل هذا الكسب السياسى والاقتصادى الخطير • اذ ان « ديزرايلى » أخذ المسئولية على عاتقه واتصل بأصدقائه من « آل روتشيلد » الماليين المعروفين فى بريطانيا لاقراض الحكومة البريطانية أربعة ملايين من الجنيهات بفائدة مخفضة لانهاء صفقة أسهم القناة ، وذلك نظرا لأن البرلمان البريطانى الذى يملك الموافقة على صرف المبلغ لم يكن منعقدا حينذاك كما لم يكن فى الامكان عقـده على وجه السرعة التى كانت تسـتلزمها المحافظة على الصفقة • وبشراء بريطانيا لأسهم الخديو اسماعيل فى شركة القناة أصبحت

الحكومة البريطانية تملك خمس الأسهم ، وبذلك صارت أكبر مساهمة فى شركة القناة ، وترتب على ذلك أن قبلت الشركة ثلاثة أعضاء بريطانيين فى مجلس ادارتها (١) ٠

وكان لهذه الصفقة دوى كبير فى كل أرجاء أوربا ، اذ انها أصبحت دليلا على أن بريطانيا تركت نهائيا السياسة السلبية التى اتبعها « جلاد ستون » فى وزارته الأولى ، وانها أصبحت الآن « تتبع سياسة خارجية نشيطة » ٠ وبدأ « ديزرايلى » سياسة التسلط الاستعمارى التى ستبلغ أوجها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر باحتلال البريطانيين لمصر وتصميمهم على البقاء فيها وتقسيم افريقية والاشراف على مناطق كبيرة فى آسيا ٠

وتجدر الاشارة الى أن الحكومة الفرنسية اهتزت اهتزازا عنيفا نتيجة لاتمام هذه الصفقة ، واحتجت فعلا لدى صديقتها الروسيا وطلبت منها التوسط حتى لا يتزعزع مركز الفرنسيين فى مصر ٠ غير أن حكومة القيصر الروسى رفضت ذلك التوسط بحجة انه ليس للدولة الروسية مصالح حيوية فى مصر حينذاك تدعوها لاثارة غضب الحكومة البريطانية (٢) ٠

وعلى الرغم من عظم أهمية قناة السويس فى المواصلات البريطانية الامبراطورية الى الشرق ، فان رئيس الحكومة البريطانية « ديزرايلى » كان يرى حتى سنة ١٨٨٠ أن الآستانة هى التى تشرف على الطريق الى الهند وليست مصر أو قناة السويس ، مما جعله يفضل دائما الاستيلاء على آسيا الصغرى ذاتها ٠ بل انه كان يرى أن احتلال بريطانيا لمصر وقناة السويس حينذاك لن يفيدها كثيرا ، بل قد يفسد علاقاتها مع فرنسا ٠ ولهذا لم تلتفت الحكومة البريطانية الى آراء المستشار الألمانى « بسمرك » الذى كان يرى أن تستولى بريطانيا على مصر وتشرف على قناة السويس كنصيبها من ممتلكات الدولة العثمانية التى أخذت فى الضعف والتدهور ، وكان يرى أن فى ذلك تعويضا كبيرا لبريطانيا اذا سيطرت الدولة الروسية على شرقى البلقان وعلى مداخل البحر الأسود ٠ بل ان الوزراء البريطانيين لم يرحبوا فى سنة ١٨٧٧ باقتراح نوبار باشا الذى عرض عليهم فكرة بسط الحماية البريطانية على مصر فى ذلك الحين (٣) ٠

غير أن تعقد المسألة الشرقية فى سنة ١٨٧٧ وقيام الحرب بين روسيا والدولة العثمانية ، جعل الحكومة البريطانية تؤكد أنها لن تقبل أبدا امتداد

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ص ٥٨ ، ٥٩ ٠

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ، ص ٣٦ ٠

(٣) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٤ : ٦٥ ٠

الحرب الى مصر والقناة ، وتعتبر الاعتداء عليها عملا عدوانيا موجها ضد بريطانيا ذاتها على نحو ما صرح به وزير الخارجية البريطانية للسفير الروسى فى لندن حينذاك • وقد أكدت الحكومة الروسية أنها لن تمس مصر أو قناة السويس وأنها لن تستفيد من معاكسة بريطانيا فى ممتلكاتها فى الهند أو فى مواصلاتها • ولم تكن روسيا تريد حينـذاك افساد علاقاتها مع بريطانيا فى الوقت الذى تعانى فيه الجيوش الروسية من حربها الضارية ضد الأتراك •

على أن الاتجاه فى بريطانيا بعد تولى « سولسبرى Salisbury » وزارة الخارجية البريطانية خلفا « لداربى » قد تحول الى السـير فى الطريق التى رسمها « بسمرك » من ناحية التخلى عن تأييد الدولة العثمـانية والمحافظة عليها • وكان « سولسبرى » يرى أن السياسة العملية هى الاشراف الفعلى على طرق المواصلات البحرية الى الهند باحتلال مصر وقنـاة السويس وكريت والعمل على القضاء على الدولة العثمانية • على أن أعضاء الوزارة البريطانية جميعهم لم يكونوا يرون أن الوقت مناسب لذلك ، نظرا لخشـيتهم من عداوة فرنسا • اذ كانت سياسة فرنسا الخارجية حينذاك أى فى سنة ١٨٧٧ تقوم على منع بريطانيا من الاستئثار بنفوذ متفوق فى وادى النيل أو فى قناة السويس • وقد وافقت بريطانيا على اقتراح فرنسا بألا تدخل مسألة مصر فى مناقشات مؤتمر برلين فى سنة ١٨٧٨ ، ورأت استبقاء لصداقة فرنسا ألا تحتل مصر • غير أن « سولسبرى » قد استعاض عن ذلك باحتـلال قبرص التى تشرف على آسيا الصغرى من ناحية ، وعلى مدخل قناة السويس من ناحية أخرى (١) •

وعندما تعقدت المسألة المصرية فى أواخر عهد الخديو اسـماعيل نتيجة لتحرج المسألة المالية من ناحية ، ولتدخل الدول الكبرى فى شئون مصر من ناحية أخرى ، فضلا عن نمو الشعور القومى المصرى من ناحية ثالثة ، وهى أمور أثارت مخاوف بريطانيا ، فقد طلبتا من الباب العالى عزل الخديو اسماعيل ، وتم لهما ما ارادتا فى سنة ١٨٧٩ وتولى الحكم من بعده الخديو توفيق • غير أن مهمته كانت بالغة الصعوبة أمام سيطرة بريطانيا وفرنسا وتدخلهمـا فى شئون دولته ، وأمام الرأى العام المصرى الذى ساءه تدخل الأجانب فى كل مرافق الحياة المصرية مما هدد مستقبل البلاد وأمنها • ثم تفجرت الثـورة العرابية ، وخشيت بريطانيا وفرنسا على مصالحهما فى مصر وأرسلت سفنهما الحربية الى مياه الاسكندرية • واقترحت فرنسا عقد مؤتمر من الدول الكبرى فى الآستانة فى سنة ١٨٨٢ لايجاد حل حاسم للمسألة المصرية والقضـاء على الثورة العرابية • وكانت فرنسا لا ترغب فى انفراد بريطانيا حينذاك بالتدخل فى مصر والسيطرة عليها وعلى قناة السويس وتهديد المصالح الفرنسية فى منطقة

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٧ •

البحر الأحمر على نحو ما حدث بالفعل فى السنة المذكورة ، وفشل المؤتمر فى تحقيق أهدافه ٠

وهكذا أصبحت بريطانيا تسيطر على قناة السويس بل وعلى مصر نفسها التى تشرف على المدخل الشمالى للبحر الأحمر من جهة ، فضلا عن سيطرتها على ميناء عدن الهام الذى يتحكم فى المدخل الجنوبى لهذا البحر من جهة أخرى ، وبذلك كاد هذا البحر أن يصبح أشبه ما يكون ببحيرة بريطانية فى ذلك الحين ٠

ثانيا ـ الأوضاع القائمة فى عدن والمنطقة المحيطة بها فى اعقاب فتح قناة السويس (١٨٦٩ ـ ١٨٨٢)

سوف نلقى الآن نظرة سريعة على الأوضاع القائمة فى عدن والمنطقة المحيطة بها فى أعقاب فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ، لنتعرف بعد ذلك على موقف البريطانيين هناك فى مواجهتهم للنتائج المتوقعة والمفاجئة لفتح هذا الممر الملاحى البحرى الهام ٠

لقد كانت الأحوال فى عدن هادئة نسبيا عند فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ وخاصة من ناحية علاقة البريطانيين هناك بالقبائل اليمنية المحيطة بعدن ٠ بل انه قد حدث فى عام ١٨٧٠ أن تم مد خط برقى جديد بين عدن والهند من ناحية ، كما تم أيضا مد خط بحرى جديد من ناحية أخرى فى البحر الأحمر بمعرفة « الشركة الكبرى Great Eastern Company » فى ذلك الحين (١) ٠

وفى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٠ عين « الميجور سير تشارلز تريمنهير Major General Sir Charles W. Tremenheere » مقيما سياسيا بريطانيا فى عدن (١٨٧٠ ـ ١٨٧٢) وذلك خلفا للميجور جنرال ادوارد راسيل » وكان اختيار « تريمنهير » موفقا نظرا لأنه كان يقود حامية عدن مدة طويلة من الزمن فكان على علم تام ومعرفة جيدة بالأحداث الجارية هناك ٠ وقد نجح « تريمنهير » فى عقد هدنة مدتها ثمانية شهور مع القبائل اليمنية المحيطة بعدن والتى كانت تتصارع أيضا فيما بينها ٠ وقد نصح « تريمنهير » حكومة بومباى بأن الحل الوحيد الذى يضع حدا للصراع الدائر حول عدن يكمن فى زيادة المنحة لسلطان لحج نظير الغاء الضرائب مع تخفيض أسعار المواد الغذائية التى كانت ترد الى عدن من المناطق الداخلية (٢) ٠

وقد قام سلطان لحج بزيارة لحكومة الهند البريطانية فى شهر فبراير

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 393.

(٢) I.O., L.A., Tremenheere to Bombay, 12/31/70.

سنة ١٨٧٠ واستغرقت زيارته ثلاثة شهور ٠ وقد صاحبه فى هذه الزيارة « جودفلو Good fellow » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن كمرافق رسمى له (١) ٠ وكانت العلاقات بين سلطان لحج وحكومة الهنـد البريطانية تستند الى المعاهدة التى سبق أن عقدت بينهما فى سنة ١٨٤٩ ٠ وكانت تلك الحكومة تدفع للسلطان مبلغا من المال سنويا ليجعل الطرق المؤدية الى عدن من داخل اليمن مفتوحة باستمرار ٠ وكان السلطان يعتبر مسئولا بالتالى عن أية أعمال عدوانية تقوم بها القبائل الأخرى لاغلاق هذه الطرق ٠

على أنه طالما كان العبادلة قادرين على ضمان استمرار الطرق المؤدية الى عدن من داخل اليمن مفتوحة ، فانه كان من اليســـير على المقيم السياسى البريطانى فى عدن أن يطبق سياسة حكومة الهند البريطانية الذاهبة الى عدم التدخل فى الصراعات القبلية فى المنطقة المحيطة بعدن ٠ وقد تعامل المقيمون السياسيون البريطانيون فى عدن وهم « هينز » و « كوجلان » و «ميرويذر » على هذا الأساس مع القبائل اليمنية المجاورة لعدن حتى عين « تريمنهير » مقيما سياسيا هناك فى سنة ١٨٧٠ ٠ غير أن التفوق الذى تمتع به سلطان لحج تدهور فى أعقاب المجاعة التى اجتاحت المنطقة فى عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٥ ، ووباء الكوليرا الذى تفشى هناك فى السنة الأخيرة ، فضلا عن الوباء الذى أصاب الماشية وقضى على معظم الثروة الحيوانية التى يمتلكها العبادلة حينذاك ٠

وقد استخدم « تريمنهير » المقيم السياسى البريطانى فى عدن نفوذه فى عقد اتفاقية مع شيخ قبائل الصبيحى التى تعيش فى المنطقة الواقعة غربى عدن وذلك لحماية الطرق المؤدية الى عدن وضمان استمرار فتحها ٠ وقد تم ذلك بعد أن قامت قبائل الصبيحى ببعض القلاقل على طرق القوافل فى شـــهر أبريل سنة ١٨٧١ ٠ ولهذا فقد سارع « تريمنهير » بتوجيه قوة بريطانية للقبض على شيخ قبائل الصبيحى ، غير أن ذلك لم يتحقق على الرغم من مقتل عدد غير قليل من رجال تلك القبائل ٠ ولا شك أن التهديد بالقوة قد جعل شيخ قبائل الصبيحى يحضر بنفسه الى عدن فى أول مايو سنة ١٨٧١ ليتفاهم مع البريطانيين هناك (٢) ٠ وبذلك تم الاتفاق معه ٠ على أن ذلك يؤكد أن الادارة البريطانية فى عدن كانت تقبض على زمام الأمور وتفرض نفسها على المنطقة المحيطة بعدن بشتى الوسائل والأساليب الممكنة ٠

بل أن « تريمنهير » عقد معاهدة أخرى مع قبائل العطيفى ، وهى قبـائل تقطن المنطقة الساحلية الممتدة من عمران حتى باب المندب غربى عدن وذلك لحماية السفن التى تجنح فى تلك المنطقة من التعرض للنهب والتبديد ٠ كما عقد « تريمنهير » أيضا معاهدة أخرى مع قبائل العوالق التى تعيش شرقى عدن

---

(١) I.O., L.A., Russell to Bombay, 2/19/70.

(٢) I.O., L.A., Tremenheere to Bombay 4/7/71, 4/14/71 and 5/4/71.

لضـــمان تأمين الطريق الساحلى الممتد ناحية الشرق (١) • وقد تجنب « تريمنهير » بذلك اتباع القاعدة التى كان يلتزم بها كل من جاءوا قبله من المقيمين السياسيين فى عدن وذلك من ناحية قيامهم بالاتصال أولا بســلطان لحج فى مثل هذه الأمور ، بحيث كانت أية علاقات بين البريطانيين وشـــيوخ القبائل تتم عن طريق هذا السلطان •

وقد ترتب على كل ذلك أن أصبح المقيم السياسى البريطانى فى عدن يدعو الى أن الوقت قد حان لتغيير سياسة البريطانيين هناك فى مواجهتهم للمشكلات التى تثيرها القبائل اليمنية • ورأى أن الأمر يستلزم ايجاد وسائل مباشرة للوصول الى تسويات لما قد ينشأ من خلافات أو مصادمات بين القبائل القاطنة حول عدن فى سنة ١٨٧١ • كما أن حكومة الهند البريطانية طلبت من المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ٢٩ يونيو سنة ١٨٧١ اعادة النظر فى السياسة المتبعة مع قبائل المنطقة والعمل على عقد معاهدة جديدة مع سلطان لحج (٢) تبعا لمتطلبات الأوضاع الجديدة التى تعرضت لها المنطقة وخاصة بعد فتح قنـــاة السويس •

وبناء على ذلك فقد أصدرت حكومة الهنـــــد البريطانية تعليماتها الى « ترمنهير » المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ٢٩ يونيو سنة ١٨٧١ بأن يفاوض سلطان لحج لعقد معاهدة جديدة معه على الأسس التالية :

١ ــ أن يقدم السلطان تسهيلات تمكن البريطانيين فى عدن من الحصول على التموين اللازم من الأغذية الطازجة من لحج •

٢ ــ أن يقدم السلطان تسهيلات تمكن البريطانيين فى عدن من انشاء مشاريع للحصول على المياه العذبة من أراضى لحج •

٣ ــ أن يقدم السلطان تسهيلات تمكن البريطانيين فى عدن من اقامة بعض قواتهم فى أراضى لحج خلال شهور القيظ حيث تكون درجة الحرارة فى عدن مرتفعة فى ذلك الحين •

٤ ــ أن يحصل البريطانيين على تعهد من السلطان بعدم السماح لأية دولة أجنبية أخرى غير بريطانيا بأن تضع قدمها فى أراضيه دون الحصول على موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية •

٥ ــ أن يلغى السلطان ضريبة المرور عبر بلاده التى كان يحصلها من رجال القبائل التى كانت تنقل التموين اللازم من المواد الغذائية للبريطانيين فى عدن (٣) •

---

(١) I.O., L.A., Tremenheere to Bombay 6/2/71, 4/5/71 and 5/18/71.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., pp. 394, 395.

(٣) I.O., L.A., Bombay to Tremenheere 6/29/71.

واذا ما قمنا بتحليل تلك المقترحات التى رأت حكومة الهند البريطانية أن تكون موضع اعتبار المقيم السياسى البريطانى فى عدن أثناء تفاوضه من أجل عقد معاهدة جديدة مع سلطان لحج فى سنة ١٨٧١ نلاحظ ما يلى :

١ ــ ان هدف البريطانيين المنشود من وراء المادة الأولى هو مواجهة الزيادة الكبيرة فى عدد السفن التى ترسو فى ميناء عدن بعد فتح قناة السويس وتموينها بما تحتاجه ٠

٢ ــ كما أن هدف البريطانيين المنشود من وراء المادة الثانية هو مواجهة سنوات الجفاف وندرة سقوط الأمطار فى عدن مما يشكل تهديدا خطيرا للحامية البريطانية فيها ٠

٣ ــ من الملاحظ أن المادة الثالثة تشكل تغييرا وتحولا جديدا فى السياسة التى اتبعها البريطانيون منذ سيطرتهم على عدن من ناحية العناية براحة جنود الحامية البريطانية هناك ٠ اذ أصبح البريطانيون يحرصون على راحة جنودهم فى عدن وحمايتهم من ارتفاع درجة الحرارة وشدة القيظ فى شهور الصيف ٠ ولا شك أن هذه الرعاية الملحوظة كانت رد فعل طبيعى للضغوط المصرية والعثمانية التى طرأت على منطقة البحر الأحمر على مقربة من عدن ، فضلا عن المنافسة الفرنسية التى كانت تسعى للسيطرة على منطقة « الشيخ سعيد » الواقعة غربى عدن ٠

٤ ــ أما المادة الرابعة فهى توضح مدى حرص البريطانيين على عدم اتاحة الفرصة للقوى الأخرى المنافسة للحصول على موطىء قدم فى المنطقة القريبة من عدن ، خاصة وأن بريطانيا كانت تخشى أن يضعف سلاطين وحكام المنطقة أمام اغراء تلك القوى المنافسة بما يشكل فى نهاية الأمر تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية هناك ٠ ولا شك أن غرض البريطانيين الأساسى من وراء هذه المادة يكمن فى حرصهم على مواجهة تزايد التغلغل الأوربى فى المنطقة المحيطة بعدن بعد فتح قناة السويس ٠

على أن « تريمنهير » المقيم السياسى البريطانى فى عدن انتقد مواد هذه المعاهدة المقترحة من قبل حكومة الهند البريطانية على النحو التالى :

١ ــ رأى « تريمنهير » أن المادة الأولى لن تؤدى الى زيادة وصول المؤن اللازمة من المواد الغذائية الى عدن ، وأن الأمر يتطلب الاعتماد باستمرار على الساحل الصومالى المواجه لعدن خاصة بعد الوباء الذى أصاب الماشية فى لحج فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٥ و ١٨٦٨ ٠ كما رأى أيضا أن الغاء ضريبة المرور عبر أراضى سلطان لحج سيكون له أسوأ الأثر فى تعويق وصول هذه المؤن اذ ان الغاء هذه الضريبة يتعارض مع رغبة شيوخ القبائل بالمنطقة المحيطة بعدن بوجه عام ٠

٢ ـ اعتقد « تريمنهير » أنه يتعذر عليه تماما مراقبة أية مشروعات بريطانية في أراضي سلطان لحج أو رعايتها بعد ذلك نتيجة لعدم استقرار الأمور بصفة مستمرة هناك .

٣ ـ لم يجد « تريمنهير » أية صورة تستلزم اقامة القـــوات البريطانية في المنطقة الداخلية التابعة لسلطان لحج خلال أشهر القيظ في عدن خاصة وأنه كان يعتقد أن السلطان كان سيرفض التنازل عن أية أراض داخل بلاده لتديرها بريطانيا وتهيئها لاقامة جنودها في ذلك الحين .

٤ ـ رأى « تريمنهير » أن سلطان لحج يمتلك على الساحل فقط مسافة طولها ستة أميال تقريبا واعتقد أنه يمكنه حينذاك التفاهم مع السلطان حول الاستفادة منها خاصة وأنه لمس بنفسه استعداد السلطان للتنازل عنها عن طريق بيعها لبريطانيا .

٥ ـ أما بالنسبة للمادة الأخيرة الخاصة برغبة حكومة الهند البريطانية الغاء ضريبة المرور عبر أراضي سلطان لحج ، فقد اعتبر « تريمنهير » هذه المادة في غاية الأهمية من ناحية نمو عدن وتطورها ، غير أنه رأى أن ذلك الأمر يتطلب التزام السلطان بتنفيذ ذلك .

وقد عبر « تريمنهير » عن رغبته في بدء هذه المفاوضات على وجـــه السرعة (١) . غير أن مثل هذه المفاوضات التي كانت تدور في أراضي الجزيرة العربية وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر كانت تستغرق شهورا وأحيانا سنوات عديدة لكي يتم الوصول الى عقد اتفاق حول موضوعها .

وعلى أية حال فقد كانت هذه اشارة الى الأوضاع القائمة في عدن والمنطقة المحيطة بها في أعقاب فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ . وسوف نتناول هذه الأوضاع بالتفصيل أثناء تعرضنا لسياسة البريطانيين في عدن ازاء النشاط العثماني والمصري من جهة والفرنسي والايطالي من جهة أخرى في منطقة البحر الأحمر بعد فتح قناة السويس وحتى احتلال بريطانيا لمصر في سنة ١٨٨٢ .

تزايد اهتمام البريطانيين بجزيرة سقطرى اليمنية بعد فتح قناة السويس :

اهتم البريطانيون اهتماما زائدا بجزيرة سقطرى اليمنية (٢) في أعقاب فتح قناة السويس وذلك نظرا لأهمية موقعها على مقربة من القاعدة البريطانية

---

(١) I.O., L.A., Tremenheere to Bombay 5/25/71.

(٢) اتفق الهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب » ، وياقوت الحموي صاحب « معجم البلدان » على كتابة اسم هذه الجزيرة « سقطرى » . ويقال ان هذا الاسم مشـــتق من كلمتين عربيتين هما « سوق القطرة » ، والقطرة هنا هي السوائل التي تنســـاب من الأشـــجار الكثيرة المتناثرة على جبـــال الجزيرة . وتبعد سقطرى عن عدن حوالي ٥٩٠ ميلا وعن المكلا ٣٢٧

فى عدن من جهة ، وفى طريق مواصلاتهم البحرية الى الهند والشرق الأقصى من جهة أخرى • ويمكننا أن نتبين بوضوح مدى اهتمـــام البريطانيين بتلك الجزيرة من خلال ذلك التقرير الذى وجهته وزارة الهند الى وزارة الخارجيـــة البريطانية فى ٣١ مارس سنة ١٨٧٥ والذى يضم معلومات تتعلق بهـــذه الجزيرة (١) • اذ جاء فى هذا التقرير أن جزيرة سقطرى تقع فى مواجهـــة الساحل الشرقى لافريقيا أمام رأس جوردفوى (أو ما يسمى بالقرن الافريقى) ، وأن موقعها الجغرافى يتيح لها فرصة التحكم فى الساحل الافريقى المؤدى الى خليج عدن والبحر الأحمر بحيث يمكن استخدامها كقاعدة بحرية ذات أهمية استراتيجية بالغة •

على أن جزيرة سقطرى كانت تابعة لسلطان قبائل المهرة الذى كان يقيم فى عاصمته « قشن » الواقعة فى وسط الساحل الجنوبى للجزيرة العربية وذلك منذ مطلع القرن السابع عشر وظلت سقطرى تابعة لحكم هذا السلطان حتى أصبحت موضع اهتمام البريطانيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وذلك عندما استخدم البحر الأحمر كطريق ملاحى للسفن البخارية فى شراء جزيرة سقطرى لتكون محطة لتموين السفن البريطانية بكميات الفحم اللازمة لها • وقد قام « كابتن دانيل روس Captain Daniel Ross I.N. » أحد رجال البحرية الهندية بالتفاوض مع سلطان المهرة حتى سمح للبريطانيين باستخدام الجزيرة لهذا الغرض ، غير أنهم لم يستخدموها بصفة مستمرة (٢) •

وفى سنة ١٨٣٤ توجه القبطان « ستافورد بيتزويرث هينز » — الذى تم على يديه فيما بعد احتلال عدن كما سبق أن أوضحت — على ظهر السفينة البريطانية « بالينورس Palinorus » الى جزيرة سقطرى ، وحاول شراء هذه الجزيرة مقابل عشرة آلاف ريال ، يدفعها لسلطان قبائل المهرة الذى رفض هذا العرض • وقال قولته المشهورة لممثل حكومة بومباى البريطانية : « اسمع يا قبطان هينز • بحق رب العرش لن أفرط فى ذرة من أرض الجزيرة (سقطرى)،

= ميلا على وجه التقريب • وتتميز الجزيرة بانها بيضاوية الشكل تقريبا ، ويبلغ طولها ٨٠ ميلا ؛ وعرضها عند الأطراف خمسة أميال ، وهى تتسع فى الوسط حتى تصل الى ٢٢ ميلا ، وتبلغ مساحتها حوالى ١٢٠٠ ميل مربع ، وهى تنقسم الى قسمين : البادية والساحل • وتكمن البادية فى وسط الجزيرة بين الجبال الشاهقة التى ترتفع حوالى ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . ولا تترك هذه الجبال متسعا كبيرا للساحل فى أغلب الاجزاء الشمالية من سقطرى . وعند مصب أودية الجبال عند الساحل الضيق توجد بعض القرى أكبرها « حديبو » العاصمة التى تقع فى شمال الجزيرة .

(١) F.O. 78/3188, I.O. to F.O. 3/31/75.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p 475.

لقد حباها الله المهريين فقط وسنبقى نتوارثها صغارنا عن كبارنا الى ماشاء الله » (١) ·

على أن حكومة الهند البريطانية أرسلت بعد ذلك بعض قواتها لتقوم باحتلال الجزيرة وعينت « كابتن باجلى Captain Bagley » ليكون حاكما عليها · وعندما وطئت أقدام الجنود البريطانيين أرض الجزيرة حلت بهم النكبات من كل جانب · اذ انقلب أحد الزوارق المحمل بالجنود أثناء عملية انزالهم الى البر وغرق كل من كانوا فيه · ثم تفشت الحمى بين الجنود فهلك الكثيرون منهم حتى وصف واحد منهم حالتهم بقوله انه : « أصبح من الصعب العثور على من بقى به رمق ليحفر قبرا لنفسه أو لزملائه ·· ولم ينج من الوباء الا القليل الذين رووا للآخرين مأساتهم فى سقطرى » · بينما أشارت الوثائق البريطانية الى أن مناخ الجزيرة كان رديئا للغاية مما اضطر البريطانيين الى مغادرتها فى سنة ١٨٣٥ (٢) ·

وكان الضابط البريطانى « الملازم ويلستد Licutenant J.R. Wellsted » الذى سبق أن رافق القبطان « هينز » على السفينة « بالينورس » عند زيارته لجزيرة سقطرى قد ألف كتابا تحت عنوان « رحلات الى مدينة الخلفاء » (٣) أورد فيه وصفا تفصيليا للجزيرة ، كما استعرض المفاوضات التى دارت بشأنها بين البريطانيين وسلطان المهرة ·

ورغم أن حكومة الهند البريطانية صرفت النظر عن البقاء فى جزيرة سقطرى ، وبدأت تتجه نحو محاولة السيطرة على عدن لاتخاذها محطة لتزويد سفنها البخارية بالفحم ، فقد عرض بعض أعراب قشن القيام بزراعة بعض أراضى الجزيرة لسد احتياجات البريطانيين فى سنة ١٨٣٧ (٤) ، بما يعود فى نفس الوقت على أهالى الجزيرة بالفائدة والنفع · غير أن البريطانيين لم يتقبلوا هذا العرض نتيجة لخبرتهم السابقة ومعرفتهم بامكانات الجزيرة (٥) ·

غير أن ثمة شائعات قد أثيرت حول رغبة الفرنسيين فى السيطرة على جزيرة سقطرى جعلت « كابتن هينز » المقيم السياسى البريطانى فى عدن

---

(١) I.O., B.S.C. 1835, Bombay to Bagley 12/24/34.

(٢) Waterfield, G. : Sultans of Aden pp. 22, 23.

(٣) Wellsted, J.R. : Travels to the city of the Caliphs, etc., London, Colburn 1480, 2 vols.

وجدير بالذكر أن « ويلستد » يعود اليه فضل اكتشاف نقش « حصن الغراب » فى مدينة « بئر على » وهو النقش الذى أثار رغبة العلماء الغربيين فى العمل على حل رموز الخط المسند الحميرى .

(٤) I.O., B.S.C. 1838, Sheikh Ali Ibn Saod Ibn Wazir to Bombay Government 12/8/37.

(٥) Marston, T.E. : op. cit., p. 476.

(١٨٣٩ — ١٨٥٤) يرسل مساعده « كروتندن Cruttenden » ليتبين حقيقة الأوضاع فى سنة ١٨٤٧ أثناء قيامه برحلته على الساحل الصومالى (١) . وقد وجد « كروتندن » أن جزيرة سقطرى تكاد تكون خالية تماما من السكان نتيجة لانتشار الحمى فيها قرابة ثلاث سنوات متصلة ، كما عمتها المجاعة وأصبح لا يوجد بعاصمتها أية مبان . غير أن « كروتندن » عثر بالجزيرة على كمية من الفحم تقدر بمائة طن تقريبا ، كانت متروكة هناك منذ عام ١٨٣٥ (٢) .

بل ان لجنة تحريم تجارة الرقيق فى لندن المعروفة باسم « The Slave Trade Committee in London » قد اقترحت فى سنة ١٨٦٠ الاستفادة من جزيرة سقطرى لمراقبة تجريم هذه التجارة وتحرير الرقيق المختطف من الساحل الصومالى المواجه لها ، غير أن هذا الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ .

وقد ظلت أحوال جزيرة سقطرى على ما هى عليه حتى فتحت قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ وبدت أهمية الجزيرة تزداد ، كما أثيرت تكهنات حول رغبة بعض القوى الأوروبية فى السيطرة عليها . فقد قيل ان النمسا كانت ترغب فى السيطرة على هذه الجزيرة لكى تستخدمها شركة البواخر النمساوية المعروفة باسم «The Lioyd Trestrine Steamship Line» وتجعلها محطة لسفنها فى سنة ١٨٧٠ بعد فتح قناة السويس بعام واحد .

وفى سنة ١٨٧١ طلبت الحكومة الايطالية من حكومة الهند البريطانية أن تسمح لها بشراء الجزيرة على نحو ما ورد فى مذكرة « فرير » فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٤ « Frere's Memorandum of June 27, 1874. » غير أن حكومة الهند امتنعت عن السماح لها بذلك (٣) ، مما يؤكد حرص البريطانيين على عدم وقوع الجزيرة تحت سيطرة أية قوة أخرى يمكن أن تهدد طرق مواصلاتها الى الهند وخاصة الطريق الحيوى عبر البحر الأحمر بعد فتح قناة السويس .

على أن وزارة الهند البريطانية وجدت لزاما عليها أن تتفاوض مع سلطان المهرة بشأن جزيرة سقطرى (٤) وخاصة فى ضوء توسع الخديو اسماعيل تجاه رأس جوردفوى وبدء تنفيذه لسياسته الافريقية . وعلى الرغم من أن الجزيرة لم يكن لها حينذاك أية قيمة ايجابية لبريطانيا ، فان قيام أية قوة أخرى منافسة باحتلالها كان من شأنه أن يشكل تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية فى البحار

---

(١) I.O., B.S.C. 1847, Haines to Bombay 2/9/47.

(٢) I.O., B.S.C. 1847, Cruttenden to Haines 4/20/47.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 477

(٤) عبد الرحمن ابو طالب : الجنوب اليمنى المحتل من النواحى التاريخية والطبيعية والسياسية ونصوص الاتفاقات والمعاهدات البريطانية مع امارات الجنوب ؛ كتاب قدمه للادارة السياسية بالامانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة فى ٥ اغسطس ١٩٥٦ ولم ينشر بعد ، ص ٦٠ .

الشرقية وفى القاعدة البريطانية فى عدن على وجه الخصوص . ولهذا فقد رأى البريطانيون أن احتلالهم لسقطرى من شأنه حماية عدن والمصالح البريطانية فى البحر الأحمر وخليج عدن ،وذلك ضمن خطة الاستعمار السلبى « The Passive Imperialism » التى اتبعتها بريطانيا فى ذلك الحين . وكانت تهدف من وراء هذه السياسة الحيلولة دون وقوع المناطق الهامة فى أيدى قوى استعمارية ولو لم يكن لدى بريطانيا أى غرض لاستغلال هذه المناطق لمصلحة الامبراطورية البريطانية بصفة مباشرة . وقد اتبع هذه السياسة « سالزبرى » فى المعاهدة التى عقدها مع شيخ الكويت فى سنة ١٨٩٩ وما نتج عنها من حماية للمصالح البريطانية فى الخليج العربى ، عندما كانت ألمانيا مندفعة لانشاء خط سكة حديد برلين ــ بغداد .

وقد استؤنفت المفاوضات الخاصة بجزيرة سقطرى من جديد فى ٢٣ يناير سنة ١٨٧٦ حتى تم عقد معاهدة بين البريطانيين وسلطان المهرة (١) وافق بموجبها السلطان على ألا يبيع الجزيرة أو يتنازل عنها لأية قوة أجنبية وذلك مقابل استلامه منحة سنوية من حكومة الهند البريطانية . وقد تم دفع مبلغ ثلاثة آلاف ريال لسلطان المهرة مقابل توقيع المعاهدة ، على أن يتلقى مبلغ ٣٦٠ ريالا شهريا كمنحة من بريطانيا . وحتى يتجنب البريطانيون اثارة أية مشاكل اذا ما توفى السلطان ، فقد وقع على المعاهدة المذكورة كل من يرثونه من بعده من أبنائه وذويه (٢) .

وهكذا أمنت بريطانيا مصالحها بعقد هذه المعاهدة (٣) حتى تضمن عدم سيطرة أى قوة استعمارية منافسة على جزيرة سقطرى ذات الموقع الاستراتيجى الهام ، بما يدعم الوجود البريطانى فى عدن ومنطقة البحر الأحمر حينذاك وخاصة فى أعقاب فتح قناة السويس .

ثالثا ــ سياسة البريطانيين فى عدن ازاء النشاط العثمانى فى البحر الأحمر وخليج عدن بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩ ــ ١٨٨٢) :

أدى فتح قناة السويس للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ الى زيادة اهتمام العثمانيين بالبحر الأحمر الذى أصبح أهم طريق للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب ، وبسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة الساحل اليمنى الذى أصبح البريطانيون يسيطرون على جانبه الجنوبى

---

(١) Aitchison, C.U. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, Vol. XI, p. 118.

(٢) I.O., Pol. 2136 / 07, Secret and Political Department, Secret Memorandum, British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat) 1st November 1887. p. 3.

(٣) F.O. 78/3189, I.O. to F.O. 2/24/76, Admiralty to F.O. 3-7-76 and I.O. to F.O. 4/8/76.

المتحكم فى باب المندب بسيطرتهم على عدن فى سنة ١٨٣٩ (١) وقد رأى العثمانيون بعد فتح قناة السويس ضرورة اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على بلاد اليمن بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورته بتحول التجارة العالمية الى طريق البحر الأحمر عبر القناة (٢) ·

وقد يسرت قناة السويس للأسطول العثمانى عملية العبور الى البحر الأحمر والخليج العربى ، ووصل ميناء الآستانة بموانى الجزيرة العربية مباشرة (٣) · وبذلك سهلت عمليات توصيل القوات والامدادات العسكرية فى أقصر وقت ممكن الى بلدان الجزيرة العربية ، وهو ما حاول أن يحققه القائد العثمانى المشهور سنان باشا فى القرن السادس عشر الميلادى عندما أمر بحفر قناة تصل ما بين البحر المتوسط والسويس لتسهيل مرور السفن الحربية والمدفعية أثناء توجيه الحملات العسكرية العثمانية الى البحر الأحمر والمحيط الهندى لمحاربة البرتغاليين (٤) ·

وكانت الجزيرة العربية فى مطلع القرن التاسع عشر تابعة للسيادة العثمانية من الناحية الاسمية فى بعض مناطقها ، ومن الناحية الفعلية فى بعض مناطقها الأخرى (٥) · وكان التفكك السياسى فى شواطئها الشرقية الواقعة على الخليج العربى ، الى جانب مهادنة الباب العالى لبريطانيا عند احتلالها لعدن فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ ، وتعاونه معها لاجلاء المصريين عن الجزيرة العربية اثر تمرد محمد على ، فان ذلك أدى الى اضعاف مركز العثمانيين فى الجزيرة العربية بوجه خاص وفى البحر الأحمر بوجه عام بينما أدى من ناحية أخرى الى دعم النفوذ البريطانى هناك بحيث أصبح المنافس الأول للنفوذ العثمانى ·

وقد بدأ تفوق البريطانيين واضحا عندما أصبح لا يرى للعثمانيين فى معظم سواحل الجزيرة العربية وخاصة سواحل الخليج العربى سفن ترفع العلم العثمانى سوى السفن الصغيرة · كما أن الآستانة اصطدمت بمعارضة بريطانية شديدة عندما اقترحت ارسال سفينتين حربيتين الى الخليج العربى فى سنة ١٨٤٧ لمشاركة بريطانيا فى التفتيش على تجارة الرقيق وذلك بمناسبة توقيع أول اتفاق معها لمنع هذه التجارة · بل ان بريطانيا بدأت تتوسع فى المنطقة المحيطة بعدن خاصة بعد أن تخلصت من الوجود المصرى فى سنة ١٨٤٠ الذى كان يعوق توسعها ويقف حائلا بينها وبين بسط نفوذها هناك (٦) ·

---

(١) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 34.

(٢) Jacob. H.F. : Kings of Arabia, p. 24.

(٣) صلاح العقاد (دكتور) : الاستعمار فى « الخليج الفارسى » ، ص ١٦٩ ·

(٤) Kammerer, A. : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité, Vol. II, p. 139.

(٥) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ·

(٦) صلاح العقاد (دكتور) : المصدر السابق ؛ ص ١٩٦٧ ، ١٦٩ ·

وكان من الطبيعي أن تخشى الدولة العثمانية من النفوذ البريطاني المتزايد فى سواحل الجزيرة العربية بوجه خاص ، وفى البحر الأحمر بوجه عام بعد احتلال البريطانيين لعدن فى سنة ١٨٣٩ ، خاصة وأن العثمانيين قد لاحظوا أن الأمر لن يقتصر على بريطانيا وحدها ، بل زاد اهتمام الأوربيين بصفة عامة بشئون الجزيرة العربية ، وبمحاولة الاستيلاء على بعض المواقع الاستراتيجية بمنطقة البحر الأحمر وخاصة المناطق القريبة من عدن بعد فتح قناة السويس ·

وقد كان يسود الدولة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر وخاصة بعد فتح قناة السويس اتجاه قوى ورغبة أكيدة لاعادة بسط نفوذها الفعلى على المناطق التابعة لها اسميا فى حوض البحر الأحمر · وكان يؤكد هذا عدة عوامل أهمها حاجة الدولة الى تدعيم مكانتها فى تلك البلاد استعاضة عن ممتلكاتها التى فقدتها فى أوربا ، ورغبتها فى ملء الفراغ الذى خلفه جلاء المصريين عن الجزيرة العربية مما أتاح للنفوذ البريطانى فرصة التوسع حول عدن وأصبح المنافس الأول للنفوذ العثمانى · كما أرادت الدولة العثمانية أن تضع حدا لعودة القوى المحلية الى الظهور والتمرد على سلطانها فى الجزيرة العربية بعد التجربة التى واجهتها واستعانت فيها بالمصريين لاخماد ثورة أمير عسير ضد النفوذ العثمانى فى العقد السابع من القرن التاسع عشر (١) ·

وقد سبق أن أشرت الى أن المصريين كانوا أكثر تحفظا فى تقديم مساعداتهم للدولة العثمانية حينذاك عما كان عليه الحال فى عهد محمد على عند اخماد حركة الوهابيين فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر · وان كانت مصر قد قامت بدور دبلوماسى كان له أكبر الأثر فى تسكين ثورة عسير وحل الأزمة مؤقتا بالطرق السلمية · على أن ثورة عسير نفسها كانت من المشاكل التى حاولت الدولة العثمانية أن تتجنب قيامها عندما فكرت فى أن تحل محل قوات محمد على المصرية فى الجزيرة العربية حتى لا تتيح الفرصة للقوى المحلية هناك للعودة الى الظهور وتهديد السيادة العثمانية ، خاصة وأن المصريين خلفوا وراءهم اصلاحات كثيرة فى المناطق التى استقروا فيها فى الجزيرة العربية بوجه عام وفى تهامة اليمن على وجه الخصوص ، واكتسبوا صداقات مع أهالى البلاد الأصليين ظل أثرها باقيا لعهد بعيد ·

وكان طابع الاستقرار المصرى فى بلدان الجزيرة العربية حينذاك متمثلا فى احياء السيادة العثمانية التى شكلت قاعدة جديدة للعمل السياسى يواجه بها التوسع الاستعمارى الأوربى بوجه عام (٢) من جهة ، ويتعهد تلك المناطق

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير (١٨٦٤ — ١٩٦٦) ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية المجلد التاسع — ديسمبر سنة ١٩٥٥ ، ص ٩٦ — ٩٧ ·

(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) ، ص ٤٢٣ ·

بالتنظيم والاصلاح من جهة أخرى . واذا كان المصريون قد تركوا الجزيرة العربية للدولة العثمانية أسلس قيادا وتنظيما عن ذى قبل ، فان العثمانيين أرادوا أن يحلوا محــل المصريين وأن يعيدوا لحكمهم العثمانى ثقــة أهالى البلاد (١) الذين شهدوا ميزات الادارة المصرية الصالحة (٢) . وكانت رغبة العثمانيين هذه تتفق من جميع النواحى مع الاتجاه العام لسياستهم فى فرض السيطرة الفعلية على المناطق التى كانت تابعة لهم اسميا فى حوض البحر الأحمر وذلك حفاظا على المصالح العثمانية .

ولما كانت ثورة عسير قد قامت من جديد وشرعت الدولة فى توجيه الحملات لاخمادها فى نهاية العقد السابع من القرن التاسع عشر ، فقد كان ذلك من الأسباب الجوهرية التى حملت الدولة العثمانية على الاتجاه نحو اعادة فرض نفوذها الفعلى على المناطق التابعة لها اسميا فى حوض البحر الأحمر ومن بينها اليمن مهما كلفها هذا الأمر .

وكانت الدولة العثمانية تحرص على ألا تواجه من جديد ثورات أخرى تهدد مركزها فى البحر الأحمر الذى يعتبر بحيرة عثمانية منذ مطلع العصور الحديثة ، بل وتفقدها هيبتها فى كافة الولايات العثمانية وأمام الشــعوب الاسلامية باعتبارها دولة الخلافة والحامية للأماكن الاسلامية المقدسة . بل ان الدولة العثمانية كان يهمها أيضا أن تحفظ هيبتها أمام الدول الأوربية الكبرى الطامعة فى تقسيمها والتى كانت ترصد حركتها فى ذلك الحين .

وكانت أخبار ثورة عسير تشير الى أن القبائل العسيرية قد تجمعت من جديد فى أبى عريش وشنت هجوما على اليمن . وقد أشيع فى الدوائر العثمانية حينذاك أن هذا التمرد انما حدث نتيجة « لتآمر » خديو مصر اسماعيل مع العسيريين ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن . بل ان على باشا أخبر « سير اليوت Sir Elliot » السـفير البريطـانى فى الآستانة فى مقابلة تمت فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٧٠ أن مشكلة عسير كلها نتجت عن « تآمر » الخديو اسماعيل واتفاقه مع شريف مكة وأمير عسير (٣) ، ممـا يوضح موقف العثمانيين ازاء مصر حينذاك . ولهذا اتجهت نية الباب العالى الى عدم اسناد أمر اخماد الثورة فى عسير هذه المرة الى الخديو اسماعيل — مثلما فعل من قبـــل — خوفا من نوايا اسماعيل وطموحه من جهة ، ولأن الثورة هذه المرة كانت أكبر بكثير من تلك التى شارك اسماعيل فى اخمادها قبل ذلك بثلاث سنوات (٤) .

وقد بدا موقف الخديو اسماعيل حينذاك فى اجابته على « ســتانتون

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ٢٢٤ .

(٢) Hogarth, D.G. : Arabia, pp. 110-111.

(٣) F.O. 78/3186, Elliot — F.O. 12/28/70.

(٤) Marston, T.E. : op. cit., p. 398.

Stanton » القنصل البريطاني العام في الاسكندرية عندما سأله عن معلوماته عن ثورة عسير في شهر ديسمبر سنة ١٨٧٠ بقوله انه ليست لديه أية معلومات عن تمرد قبائل عسير ، وانه لم يحدث أى تدخل من جانبه في تلك المشكلة . بل أن الخديو اسماعيل أيد فكرة ارسال مبعوث عثماني كبير لبحث أسباب التمرد حينذاك (١) . على أن « ستانتون » أوضح أن الخديو اسماعيل عندما علم بارسال جيش عثماني لاخماد ثورة عسير بدا عليه الضيق والاضطراب مما يؤكد « نواياه المعادية » للباب العالي حينذاك (٢) .

وقد أدت مخاوف الباب العالي من « تآمر » الخديو اسماعيل ضده في عسير والحجاز الى قيام حاكم تهامة العثماني على باشا بطلب مساعدات عسكرية من المقيم السياسي البريطاني في عدن وهو « الميجور جنرال ادوارد راسيل Major General Edward » (١٨٦٧ ــ ١٨٧٠) ليتمكن من اخماد ثورة قبائل عسير ولم يطلب ذلك من القاعدة المصرية القريبة منه في مصوع على الرغم من أن على باشا لم يكن على علاقة طيبة مع « راسيل » حينذاك . ومما يؤكد ذلك أن « راسيل » قد تباطأ فعلا في اجابة مطلب على باشا ، بحجة أنه لا يمكنه تلبية مطلبه الا بعد موافقة رؤسائه في حكومة الهند البريطانية (٣) .

غير أن « راسيل » المقيم السياسي البريطاني في عدن عندما علم بسقوط مدينة « أبي عريش » عاصمة المخلاف السليماني بشمالي اليمن في يد قبائل عسير الثائرة ، بعث بمدد من البارود الى على باشا متحملا الأمر على مسئوليته الخاصة . وكان « راسيل » يتوقع سقوط الحديدة في يد القبائل العسيرية نظرا لأن القوات التي كانت تحت تصرف على باشا كانت قليلة العدد والعتاد وأن أهالي المدينة كانوا يكرهون الأتراك (٤) .

وقد كان على باشا حاكم تهامة العثماني يبالغ في تصوير العمليات العسكرية التي كان يقوم بها لاخماد ثورة قبائل عسير في سنة ١٨٧٠ عندما كان يبلغ الآستانة عنها . وتبدو هذه المبالغة والتهويل اذا ما قارنا بين تقرير على باشا حاكم تهامة والذى أرسله الى الآستانة حول هذا الموضوع ، وبين تقرير « وست بروك Westbrooke » قائد السفينة البريطانية « السند The Sind » الذى قدمه للمقيم السياسي البريطاني في عدن ، وكان الأخير قد أمره بالتوجه بسفينته الى ساحل عسير لمراقبة الأحداث التي جرت عندما نشبت المعارك بين العسيريين والأتراك العثمانيين هناك . فنجد على باشا

(١) F.O. 78/3186, Elliot — F.O., 12/16/70.

(٢) Marston, T.E. : Op. cit., p. 398.

(٣) I.O., L.A. Russell : Bombay 11/19/70, encl. Ali Pasha — Russell N.D.

(٤) I.O., L.A., Russell — Bombay, 12/2/70.

يقـــول ان هجوما شنته قبائل عسـير على الحـديدة أدى الى انســحابه منها ، ثم شن هو هجوما مضادا استرد به المدينة • بينما أكد « وست بروك » فى تقريره أن هجوم القبائل على الحديدة كان عنيفا ، غير أنه لم يجعل المدينة فى أى وقت من الاوقات فى خطر (١) • ومن الواضح أن على باشا كان يستعمل أسلوب المبالغة والتهويل فى تقاريره ليحيط نفسه بهالة من البطولة الكاذبة بما يبرز مكانته لدى الباب العالى •

وعلى أية حال فقد كان الباب العالى يرى فى أعقاب حوادث عسـير فى عام ١٨٧٠ أن يمنع الخديو اسماعيل من متابعة « تآمره » فى المنطقة ، وأن يخمد ثورة القبائل العسيرية بتوجيه حملة كبرى حتى يفرض السلام العثمانى على بلاد اليمن بأكملها ، سواء هدأت منطقة عسير أم أنها مازالت مشتعلة (٢) • ولا شك أن حركات الاصلاح والتجديد التى ظهرت فى الدولة العثمانية ذاتها منذ أواسط القرن الثامن عشر ، وصادفت سلسلة طويلة من العراقيل حتى دخلت فى طور التأثير المثمر فى أواسط القرن التاسع عشر فى النواحى العسكرية والمدنية بوجه عام (٣) ، قد أحكمت توجيه امكانيات الدولة نحو تحقيق سياســتها فى استعادة سيطرتها على الولايات التابعة لها اسميا • هذا فضلا عن أن حملة العثمانيين على اليمن فى سنة ١٨٤٩ التى انتهت باستقرارهم فى تهامة ، فانها على الرغم من فشلها فى السيطرة على صنعاء حينذاك فقد أتاحت الفرصـــة للعثمانيين لمراقبة أحداث اليمن الداخلية عن كثب ، وأصبحت تهـامة موطنا صالحا تمكن العثمانيون عن طريقه من اعادة الكرة على صنعاء من جديد والسيطرة عليها واقامة حكومة عثمانية فيها فى سنة ١٨٧٢ (٤) وقد سهلت قناة السويس توصيل القوات والامدادات اللازمة التى مكنت الدولة العثمانية من تدعيم قواتها فى اليمن ، فضلا عما حققته القناة من ابراز أهمية موقع اليمن المتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر •

ويمكن تتبع وصول حملة العثمانيين الى اليمن فى مطلع العقد الثامن من القرن التاسع عشر بعد ثلاث سنوات من فتح قناة السويس ، ومعرفة موقف البريطانيين فى عدن ازاءها من خلال التقارير التى وردت الى عدن نفســها والصادرة عنها أيضا حينذاك •

فقد تلقى « الميجور جنرال سير تشالز تريمنهير » المقيم السـيـاسى البريطانى فى عدن (١٨٧٠ — ١٨٧٢) أنباء تفيد بأن قوات كبيرة قد تحركت من الآستانة يقودها محمد رديف باشا الذى أصدر اعلانا فى ٨ يناير ســنة

(١) F.O. 78/3186, Elliot — F.O. 21/23/70 encl. Ali Pasha (Hodeida) — Constantinople N.D.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 398 — 399.

(٣) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٧٢ — ٨٢ •

(٤) فاروق عثمان أباظة : المصدر السابق ، ص ٧٧ — ٨٣ •

١٨٧١ يشير فيه الى أنه جاء الى اليمن لتأديب حاكم عسير وقبائله المتمردة ٠ وكان قوام هذه القوات أربعة آلاف مقاتل وسفينتين حربيتين ، فضلا عما ألحق بها من قوات عثمانية فى « الشيخ سعيد » ومخا ٠ ويعلق « تريمنهير » على ذلك بأنه لا يتصور أن تلك الحملة العثمانية الكبيرة تكون مهمتها قاصرة على تحقيق هدف بسيط كاخماد ثورة العسيريين ، الأمر الذى أثار الشكوك لديه فى نوايا تلك الحملة (١) ٠

وقد وصلت الى عدن بعد ذلك أنباء وتقارير تفيد بأن القوات العثمانية قد سيطرت على عسير فى ربيع عام ١٨٧١ ، وأن الأتراك العثمانيين قد قبضوا على أمير عسير فى عاصمته (٢) ٠ وقد أخذت القوات العثمانية تتجمع بعد ذلك فى الحديدة فى شهر فبراير سنة ١٨٧٢ (٣) انتظارا لوصول القائد العثمانى أحمد مختار باشا تمهيدا للتوجه بقيادته الى صنعاء للسيطرة عليها (٤) ٠

وقد تمكن العثمانيون من السيطرة على صنعاء فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٧٢ (٥) ٠ غير أن حكمهم لم يمتد بعيدا فى شرقيها ، كما لم يمتد شمالا من صنعاء ، هذا فضلا عن عدم امتداده — فى بداية الأمر — فى النواحى التسع المجاورة لعدن والتى ارتبطت مع البريطانيين بمعاهدات صداقة وولاء (٦) ٠

ويمكننا القول بأن ولاية اليمن العثمانية فى سنة ١٨٧٢ كانت تقع حدودها بين خطى طول ٤١° و ٤٦° شرق جرينتش وبين خطى عرض ١٢° و ٢٠° شمال خط الاستواء ٠ وخط الحدود كان يبدأ من الجنوب على بعد عشرة أميال شمال مضيق باب المندب من رأس « الشيخ سعيد » التى تبرز تجاه جزيرة ميون أوبريم « Perim » ويفصل بينهما مضيق يبلغ اتساعه ٣ر٥ ميلا ٠ ومن هناك تجرى الحدود فى الاتجاه الشمالى الشرقى فتمر مقتربة من شرق تعز ، الى جنوب ماويه ، وتلاصق أراضى أمير الضالع ، ثم تضم هذه الحدود الى الولاية العثمانية مدينة قعطبة ، الواقعة فى الشمال الشرقى من تعز ٠ ومن هذه النقطة تتجه الحدود الى الشرق لتضم للولاية مدينتى يريم وذمار ، وهاتان المدينتان تمثلا الحدود الشرقية لليمن العثمانية ٠ ثم يمتد خط الحدود شمالا من شرق ذمار الى شرق صنعاء بمسافة ١٤٠ ميلا تقريبا ، ويستمر

---

(١) I.O., L.A., Tremenheere — Bombay 1/27/71.

(٢) I.O., L.A., Tremenheere — Bombay 5/11/71.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 399.

(٤) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : الدولة العثمانية او شبه جزيرة العرب ١٨٤٠ — ١٩٠٩ ، ص ٨٥ ٠

(٥) فاروق عثمان أباظة : المصدر السابق ؛ ص ٦٩ ٠

(٦) أحمد وصفى زكريا : المقتطف ، المجلد ٩٠ ، ج ١ ، ص ٨٠ ٠

الامتداد الى حدود الحجاز بعـــد أن يضم منطقة عسـير الى بقيـــة اليمن العثمانية (١) ٠

على أننا يجب أن نشير الى أن الأراضى اليمنية المحصورة داخل الحدود التى أوضحناها لم تكن تخضع جميعها للحكم العثمانى بل وجدت قبائل يمنيـــة بأكملها لم تقبل الخضوع للأتراك وان كانت تابعة من الناحية الاسمية فقط للسيادة العثمانية ٠

وتجدر الاشارة الى أن العثمانيين اهتموا اهتماما بالغا بميناء الحـــديدة وجعلوه الميناء الأول لليمن ٠ وقد أدى ذلك الى اضمحلال ميناء مخا اليمنى القديم الذى أطلق اسمه على محصول البن الذى كان يصدر من اليمن عن طريق هذا الميناء (٢) ٠ غير أن ميناء الحديدة على الرغم من عناية العثمانيين به لم يتفوق على ميناء عدن الذى عنيت به بريطانيا عناية فائقة ٠

أما عن موقف البريطانيين فى عدن ازاء عودة العثمانيين الى اليمن وسيطرتهم على صنعاء فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٧٢ فان « الميجور جنرال سير تشالز تريمنهير » المقيم السياسى البريطانى فى عدن اعتقد أن العثمانيين لن يلبثوا أن يضعوا أيديهم على مناطق انتاج البن فى اليمن الأمر الذى يهدد بقوة تجارة عدن مع بقية موانى البحر الأحمر (٣) ٠ بل ان البريطانيين فى عدن توقعوا أيضا أن تقدم العثمانيين فى المناطق المجاورة لعدن سوف يؤدى الى تضييق الخناق على وصول المؤن اليها من داخل اليمن والى التأثير فى اقتصادياتها ، فضلا عما يشكله الوجود العثمـــانى على مقربة من عدن من تهديد ســـياسى أيضا للمصالح البريطانية هناك ٠

اذ كتب « تريمنهير » المقيم السياسى البريطـــانى فى عدن الى حكومة بومباى يقول : « ان تقدم الأتراك العثمانيين فى المناطق المجاورة لعدن سيكون له تأثير كبير على عدن نفسها من الناحيتين السياسية والتجارية » (٤) ٠ وكان العثمانيون قد حاولوا فى أواخر عام ١٨٧٢ أن يتوغلوا فى داخل اليمن حتى وصلوا الى مقربة من نواحى عـدن ٠ ثم بدءوا يستحثون الأمراء والسـلاطين والمشايخ على الثورة ضـــد البريطانيين المتمركزين فى عدن واعلان ولائهم للسيادة العثمانية ، وخاصة السلطان فضل بن محسن العبدلى ســـلطان

(١) Bury, W.B. : op. cit., pp. 24-25.

(٢) Scott, H. : In the High Yemen, p. 229.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 400.

(٤) I.O., L.A., Tremenheere — Bombay 2/8/72.

لحج وأقوى سلاطين ومشايخ المنطقة • غير أنهم لم يوفقوا فى ذلك نتيجة لارتباط هذا السلطان مع البريطانيين فى عدن بمعاهدة صداقة وولاء (١) •

وقد رغب سلطان الحواشب فى ذلك الوقت فى استعادة الأراضى التى كان السلطان فضل محسن العبدلى سلطان لحج قد انتزعها منه بطريق الشراء ، وهى « زايدة » و « الشقعة » • وكان سلطان الحواشب يعتقد أن حكومة عدن البريطانية لن تقف فى جانبه حينذاك مما دفعه الى الاتصال بالعثمانيين أملا منه فى أن يساعده لاستعادة أراضيه ، وقد استجاب العثمانيون فعـــلا لرجائه واستولوا على « زايدة » (٢) • غير أن الحكومة البريطانية سرعان ما احتجت على الدولة العثمانية فى ذلك الحين ، مما جعل الباب العالى يؤكد بأن الأوامر ستصدر للجنود العثمانيين بالانسحاب من « زايدة » (٣) • غير أن العثمانيين تباطئوا فى تنفيذ ذلك •

وقد قام العثمانيون بالكتابة الى سلطان لحج يدعونه لاعلان ولائه للباب العالى • غير أن « تريمنهير » المقيم السياسى البريطانى فى عدن أوصى سلطان لحج حينذاك بألا يلتفت الى أى خطاب يصل اليه من قبل السلطات العثمانية (٤) • ولهذا حاول العثمانيون أن يتصلوا مباشرة بالسلطان فضل بن محسن العبدلى سلطان لحج وطالبوه باعلان ولائه للباب العالى • غير أن السلطان قام فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٢ بزيارة « البريجادير جون Brigadier John W. Schneider » (١٨٧٢ — ١٨٧٨) المقيم السياسى البريطانى فى عدن ليستفسر منه عما اذا كان البريطانيون سيقفون الى جواره فى مواجهة الأتراك العثمانيين حتى يستمر فى رفضه الخضوع لهم • وكان الترك قد وزعوا أموالا كثيرة تقدر بحوالى أربعمائة الف ريال فى السنة على زعماء القبائل اليمنية المجاورة لعدن اعتبارا من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٢ لكسب ودهم وولائهم •

وقد ظلت مدينة قعطبة تعوق تقدم العثمانيين بعض الوقت ، وأصبحت تمثل أقصى امتداد لهم من ناحية الجنوب وفى اتجاه عدن (٥) • على أن الأتراك قد تمكنوا فى مطلع شهر ديسمبر سنة ١٨٧٢ من السيطرة على قعطبة كمـــا سقطت بعدها فى أيديهم مدينة الحوطة عاصمة لحج (٦) •

---

(١) P.P., P., F. 126, Correspondence Respecting Turkish Proceedings in the Neighbourhood of Aden. Inclosure 2 in No. 2. The Mushir Sayyid Maukhtar Pasha of Yemen to Shaikh Fadhl Bin Mohsin the Abdalle. Printed to both Houses of Parliament of Her Majesty, 29 August 1872.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 400.

(٣) حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص ٢٣٥ .

(٤) I.O., L.A., Tremenheere -- Bombay 5/21/72.

(٥) F.O. 78/2753, I.O. — F.O. 2/12/73 encl Schneider new letter, 9/12/72.

(٦) F.O. 78/2753, Aden news letter, 12/14/72.

وقد سارع « تريمنهير » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بارسال تقرير عن تحركات الأتراك فى لحج الى حكومة الهند البريطانية لاستطلاع رأيها . ولاتخاذ الاجراءات اللازمة لوقف التوسع العثمانى فى اليمن ، وذلك فى الفترة ما بين شهرى فبراير ومايو سنة ١٨٧٢ ٠ كما وضع خليفته « شـــنيدر » المعلومات المتعلقة بالأوضاع القائمة فى اليمن تحت عين حكومة بومباى فى شهر أكتوبر سنة ١٨٧٢ ٠ غير أن حكومة بومباى لم تتخذ أية تدابير من جانبهـا لمواجهة الموقف فى اليمن ٠ ولكن الصدفة وحدها هى التى لعبت دورها فى تحريك المسئولين البريطانيين لمواجهة هذا الموقف المهدد لعدن ٠

ففى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٨٧٢ وصل الى عدن « سير بارتل فرير Sir Bartle Frere » وهو فى طريقه لدراســة الأوضاع المتعلقة بمحاربة تجارة الرقيق فى زنجبار ٠ وأثناء وجوده فى عدن عرضت أمامه الأوضاع الخاصــة بالمنطقة ٠ وقد قدر « فرير » خطورة الموقف فى عدن مما جعله يسارع الى ارسال احتجاجات مشددة الى كل من « جرانفيل Granville » و « اليوت Elliot » بسبب تقاعس كبار المسئولين عن التحرك لمواجهة الخطر العثمانى الذى كان يهدد عدن فى ذلك الحين ٠ وقد ترتب على هذه الاحتجاجات أن تحركت الدوائر البريطانية المسئولة بسرعة لمواجهة الموقف ٠ على أن تحركها لم تكن له فعالية كبيرة أو تأثيرات قوية فى كل من الآستانة ولندن (١) ٠

وكان « فرير » قد أبلغ الحكومة البريطانية فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٢ بأن الأتراك يريدون لسكان عدن أن يموتوا عطشا من أجل أن يفرضوا هم سيطرتهم على لحج ٠ واخذت البرقيات تتوالى على حكومة الهند وعلى وزارة الهند ووزارة الخارجية البريطانية فى لندن تشير الى الأخطار التى ستنجم عن تحركات العثمانيين العسكرية وتظهر مدى خطورتهم على عدن وعلى الحاميــة البريطانية فيها ٠

وعلى سبيل المثال فقد كتب « فرير » فى برقية بعث بها الى وزارة الهند البريطانية فى اليوم الخامس من يناير سنة ١٨٧٣ « أن تحركات الأتراك ضد القبائل خطيرة للغاية ، فاذا لم توقف فان الحامية البريطانية ستموت جوعا ، أو أن نفقات تزويدها بالمؤن الغذائية ستتضاعف » على أقل تقدير (٢) ٠ وقد حـــول « ماريفال Marival » المسئول فى وزارة الهند البريطانية هذه البرقية وغيرها الى وزارة الخارجية البريطانية ، وأرفق بها برقية موجهة من حاكم الهند The Duke of Argyle هذا نصها « ارسل البرقية الواردة من فرير الى وزارة الخارجية البريطانية ، وينبغى الاحتجاج على الباب العالى » (٣) ٠

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 401.

(٢) F.O. 78/2753. Cable Frere — I.O. 1/5/73.

(٣) Marston, T.E : op. cit., p. 202.

غير أن اهتمام « جلادستون » بكل ذلك لم يكن بالقدر الكافى ، ممـــا دعا البريطانيين فى عدن الى اثارة موضوع تحريم تجارة الرقيق كوسيلة لجذب اهتمام « جلادستون » ووزرائه بالأوضاع المحيطة بعدن • ولهذا فقد أعلنوا أن الأتراك يريدون السيطرة على عمان حتى تفتح أمامهم بالتالى أبواب تجارة الرقيق التى سبق أن أغلقها البريطانيون فى وجوههم من قبل •

وقد أشار « مارستن » الى ذلك بقوله أن « سير فرير » « لكى يبلغ وجهة نظره الى حكومة جلادستون فقد شعر أنه من الضرورى أن يدخل الموضوع ضمن مسألة تجارة الرقيق وذلك فى خطابه الذى أرسله الى جرانفيل » (١) • وعلى أية حال فقد تم عن طريق بذل هذه الجهود جذب أنظار حكومة لندن لتحول دون تهديد الترك للوجود البريطانى فى عدن بعد وصول القوات العثمانية الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ •

فقد أصدرت حكومة الهند البريطانية أوامرها الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن بأن يقدم المساعدات الكافية لسلطان لحج حتى يتمكن من التخلص من سيطرة العثمانيين على بلاده • غير أنها طلبت من المقيم السياسى البريطانى فى عدن عدم اعلان اشتراك حكومته رسميا فى الهجوم على الأتراك العثمانيين فى اليمن (٢) ، حفاظا على موقف بريطانيا السياسى العام من الدولة العثمانية •

وبناء على ذلك فقد جهزت السلطات البريطانية فى عدن قوة قوامهـــا ثلاثمائة وخمسين جنديا تصحبهم المدفعية وفرقة من الفرسان والمشاة بقيادة « الكولونيل ماكنزى Colonel Mackenzie » وقد رافقهم المقيم السياسى البريطانى « البريجادير جون شنيدر » وتوجهت هذه القوة الى سلطنة لحج • على أنه فى نفس الوقت وصلت الى ميناء عدن سفينتان عثمانيتان تحملان ألفـــا ومائتى جندى لتدعيم القوة التركية الموجودة فى لحج • غير أن هاتين السفينتين غادرتا ميناء عدن بعد قدوم السفينة الحربية البريطانية « وولفرين Woolverine » •

وعلى أية حال فبعد أن تمت عدة اتصالات بين الحكومة البريطانية وحكومة الباب العالى ، فقد انسحب الأتراك العثمانيون من مدينة « الحوطة » عاصمة لحج • ولم تعد القوات البريطانية من لحج الى عدن الا بعد أن أعادت منطقـــة « زايدة » الى تبعيتها للسلطنة اللحجية (٣) ، وان كانت قد أبقت هناك قوة بسيطة لتأمين المنطقة من أى عدوان جديد •

على أنه عندما تنازع سلطان الحواشيب مع سلطان لحج فيما بعـد حول منطقة « زايدة » هذه ، فقد توسطت حكومة عدن البريطانية بين الجانبين حتى

(١) Marston, T.E. : Ibid., p. 204.
Marston, R.E. : op. cit., p. 401.

(٢) P.P. F. 126. C.R.T.E.N.A., No. 53, Earl Granville to Sir H. Elliot, December 9, 1873

(٣)

عقدا معاهدة « زايدة » فى سنة ١٨٨١ · ويظهر هذا مدى تغلغل نفـــوذ البريطانيين بين قبائل المنطقة فيما بعد لدرجة أصبحت معها وساطتهم تفض المنازعات بين تلك القبائل بما يحقق المصالح البريطانية فى نهاية الأمر ·

على أن أحداث التوسع العثمانى فى اليمن فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وخاصة فى المنطقة القريبة من عدن لم تكن تلفت أنظار حكومة الهند البريطانية ، ووزارة الخارجية فى لندن ، و « جلادستون » رئيس وزارة الأحرار هناك بدرجة كبيرة · وكان السبب فى ذلك يرجع لانشغال البريطانيين بالقضايا الكبرى المعاصرة مثل مشكلة العلاقات بين الباب العالى وخديو مصر ، والصراع الذى كان دائرا بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية حينذاك · ومما يؤكد ذلك أن معظم المعلومات التى وصلت الى لندن والمتعلقة بأحـــداث التوسع العثمانى فى المنطقة القريبة من عدن انما هى مستقاة فى معظمها من خلال المراسلات التى كانت تصدر حول هذا الموضوع من القنصل البريطانى العام فى مصر وليس من المقيم الســـياسى فى عدن ، بل ان الجزء الأكبر من هـــذه المعلومات انما يتعلق بالتحركات العثمانية ضد أمير عسير (١) ·

وجدير بالذكر أن الباب العالى قد طلب من « سير هنرى اليوت » سفير بريطانيا فى الآستانة فى أول يناير سنة ١٨٧٣ أن تسحب السلطات البريطانية فى عدن القوة التى أبقت عليها فى لحج والتى سبق أن أشرت اليها ـ وكان الروس قد أبلغوا الباب العالى عنها واوهموه بأن قوات بريطـانية تستعد لغزو الممتلكات العثمانية بوجه عام (٢) · ولا شك أن هـــذا الطلب قد أثار حنق البريطانيين فى ذلك الحين ·

والحقيقة أن موقف بريطانيا من أزمة التوسع العثمانى صوب لحج فى عام ١٨٧٣ كان حرجا للغاية نظرا للاختلاف البين بين وجهتى نظر حكومة الهند البريطانية من جهة ووزارة الخارجية البريطانية من جهة أخرى حول هـــذا الموضوع ، اذ كانت بريطانيا تشد ازر الباب العالى لمواجهة التوسع الروسى حينذاك ، كما كانت تسانده أيضا ضد « تآمر » خديو مصر اسماعيل عليـه حينذاك · وعلى النقيض من ذلك فان بريطانيا كانت تعمل فى نفس الوقت ضد الباب العالى الذى أراد أن يبسط نفوذه فى لحج بحيث يسبب أخطارا بالغة على الوجود البريطانى فى عدن · بل ان حكومة الهند البريطانية هددت بخوض حرب ضد العثمانيين اذا استمروا فى عملياتهم التوسعية فى لحج ·

وبذلك أصبحت كل من حكومة الهند البريطانية ووزارة الخارجيـــة البريطانية على طرفى نقيض من هذه القضية · اذ كانت حكومة الهند تتمسك بموقفها حتى ولو أدى الأمر الى محاربة قوات الباب العالى ، بينما كانت وزارة

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 402.

(٢) F.O. 78/2753, Cable Elliot — F.O., 1/1/73.

الخارجية البريطانية تريد التوصل الى حل يبقى على التحالف العثمانى البريطانى فى ذلك الحين • ويبدو أن الخلافات فى وجهتى النظر بين حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية لم تبلغ فى أى وقت من الأوقات وفى أى مكان من الأماكن ما بلغته من تناقض فى هذه الأزمة حينذاك (١) •

وعلى أية حال فقد انتهت تلك الأزمة بوقف عمليات التوسع العثمانية فى جنوب اليمن وانسحاب العثمانيين من لحج ، كماتم اعلان استقلال سلاطين وشيوخ جنوبى اليمن الذين ارتبطوا مع البريطانيين بمعاهدات الصداقة حتى عام ١٨٧٣ (٢) ، وان كان العثمانيون لم يعترفوا بهذا الاستقلال حينذاك •

ومن خلال العرض السابق يمكننا أن نستخلص الملاحظات التالية التى توضح معالم السياسة البريطانية وطبيعة العلاقات البريطانية العثمانية فى المنطقة المحيطة بعدن بعد عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى أعقاب فتح قناة السويس •

أولا : أن حكومة الهند البريطانية عرفت ما تريده تماما وهو عدم التدخل فى شئون القبائل اليمنية المجاورة لعدن ، فى الوقت الذى تحتفظ فيه لنفسها أيضا بحرية التصرف فى المنطقة المحيطة بعدن فى جنوب اليمن •

ثانيا : أن وزارة الخارجية البريطانية كان عليها أن تحدد سياستها على أساس علاقاتها الدولية مع الدولة العثمانية ، وكانت أهم مشكلة أمام الدولة العثمانية حينذاك هى تعويق النفوذ الروسى والوقوف فى وجهه •

ثالثا : ان الموقف فى ذلك الحين كان يتطلب وجود تفاهم عميق بين وزارة الهند البريطانية وبين وزارة الخارجية البريطانية وارتباط وثيق بينهما فى تخطيط وتنسيق سياستهما تبعا لمقتضيات المصالح البريطانية ومتطلباتها •

رابعا : اضطر الباب العالى أن يسحب قواته فورا من لحج نظرا لأن ذلك كان هو الحل الوحيد لكى يحتفظ العثمانيون بمكانتهم فى اليمن الى جانب محافظتهم على علاقتهم ببريطانيا • وكان ينتظر أن يسحب البريطانيون قواتهم أيضا من لحج الى عدن فى نفس الوقت ، خاصة وأن الجانبين قد اتفقا سويا على ذلك • غير أن تأخر انسحاب البريطانيين من لحج بعض الوقت يؤكد أن الأتراك كانوا يعانون من أزمة دبلوماسية حقيقية (٣) •

وعلى أية حال فعندما طلب الباب العالى من السفير العثمانى فى لندن فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٤ أن يسأل وزارة الخارجية البريطانية عن موعد انسحاب القوات البريطانية من لحج ، وطلبت من وزارة الهند البريطانية معلومات عن

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 406.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 408-410.

(٣) Marston, T.E. : Ibid., p. 426.

ذلك (١) ٠ فقد أجابت وزارة الهند على وزارة الخارجية البريطانية فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤ بأن القوات البريطانية قد عادت معظمها الى عدن وأن بعض وحداتها فقط مازالت فى لحج ٠ غير أن وزارة الهند علقت حينذاك على استفسار الباب العالى عن انسحاب البريطانيين من لحج بأنها لا توافق على أن يكون للباب العالى حق الاستفسار عن ذلك طالما أن علاقة الحكومة البريطانية مع القبائل اليمنية أصبحت مستقلة عن الدولة العثمانية التى لا ترى بريطانيا أن يكون لها أى موطىء قدم هناك (٢) ٠

وعلى أية حال فقد قام « البريجاوير جون شنيدر » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بعقد اتفاق استعاد بموجبه سلطان لحج سيطرته على مياه قرية « زايدة » ، ولكنه وافق على أن تروى أراضى الحوشبى بكميات المياه اللازمة لها (٣) ٠ وهكذا عادت القوة البريطانية التى كانت معسكرة فى لحج الى قواعدها فى عدن فى اليوم العشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ ، كما عادت قوات حامية عدن « The Aden Troop » الى قواعدها فى خورمكسر فى سنة ١٨٧٤ (٤) ٠ وقد بدأت بريطانيا منذ ذلك الحين فى تنفيذ مخطط استعمارى جديد يهدف الى فرض الحماية البريطانية على حكام وسلاطين وشيوخ القبائل القاطنة جنوبى اليمن والذين سبق أن عقدوا معها معاهدات الصداقة والولاء التى استنفذت أغراضها بعد وصول العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ ٠ وبيان هذه القبائل على النحو التالى :

١ ـ العبدلى   ٤ ـ الحوشبى   ٧ ـ الصبيحى
٢ ـ الفضلى   ٥ ـ العلوى   ٨ ـ اليافعى
٣ ـ العقربى   ٦ ـ الأميرى   ٩ ـ العولقى (٥)

أما عن مدى تلك الحماية فقد اكتفت بريطانيا بان تكون تلك الحماية متلبورة حول امتناع رؤساء تلك القبائل عن التخاطب مع أية دولة أخرى غير

---

(١) F.O. 78/2753, Cable, Reschid to Musurus 12/11/73, and F.O. F.O., I.O., 12/20/73.

(٢) F.O. 78/2753, I.O. to F.O. 12/23/73. and Cable, Schneider to L.O. 12/20/73.

(٣) Marston, Ţ.E. : op. cit., pp. 424, 428.

(٤) F.O. 78/2754, Schneider to Bombay 12/23/73, encl. in I.O. to F.O. 1/23/74.
«After this the field force returned to Aden on December 20 and the Aden troop retired to its usual base, khor Maksar, just outside the settlement».

(٥) I.O., Pol. 2136/07. Secret and Political Department, Secret Memorandum, British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat), 1st November 1887, p. 2.

بريطانية الا بعد موافقتها ، وذلك نظير حماية البريطانيين لهم من أى عدوان خارجى (١) ٠

ورغم أن الباب العالى قد أصدر أوامره بوقف العمليات الحربية ضد القبائل المحيطة بعدن ، فان مختار باشا والى اليمن العثمانى كان يرى أن لحج تابعة لولاية اليمن ، وظل يرقب الأحداث الدائرة لمحاولة استعادتها من جديد ٠ وعندما عين الوالى العثمانى الجديد أحمد أيوب باشا فى اليمن فقد أوقف كل العمليات العسكرية العثمانية الموجهة ضد لحج ، غير أنه تمسك بأن أراضى الحوشبى تابعة لتعز (٢) ٠ على أن الباب العالى أصدر أوامره حينذاك بعدم التعرض للحواشب (٣) ، وبذلك انتهت تلك الأزمة عند هذا الحد ٠

وقد أراد الباب العالى أن يستبقى لنفسه نوعا من السيادة فى المنطقة المحيطة بعدن عندما اقترح على بريطانيا أن تعترف بحقه فى أن يصدر فرمانات التولية الى حكام القبائل اليمنية هناك ، على نحو ما كان يفعل مع كل حكام مصر وتونس المستقلين عنه ذاتيا ٠ غير أن السفير البريطانى فى الاستانة « اليوت » رفض هذا الاقتراح على أساس أن ذلك يثير مشكلة السيادة ، وأنه من الأفضل ترك تلك القبائل اليمنية مستقلة (٤) ، خاصة وأن سيطرة الترك زالت عنهم منذ جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٦٣٥ (٥) ٠

وأخيرا فقد التقى « اليوت » مع الباب العالى فى الاستانة فى ٤ يناير سنة ١٨٧٤ حيث أبدى السلطان موافقته على انسحاب القوات العثمانية انسحابا كاملا من أراضى القبائل اليمنية القاطنة حول عدن ٠ وأكد السلطان « لاليوت » ان ما حدث انما قد تم دون أن تصدر به أوامر منه أو تعليمات ٠ كما أوضح أن كل ما كان يعنيه حينذاك هو تأمين الطريق المؤدى الى الحجاز ، ولهذا فقد أكد عدم وجود أى شكوى لديه ازاء تصرفات البريطانيين فى لحج فى ذلك الحين (٦) ٠

وعندما توفى السلطان فضل بن محسن العبدلى سلطان لحج فى شهر يوليو سنة ١٨٧٤ فقد خلفه فى حكم السلطنة ابن أخيه فضل بن على محسن العبدلى الذى سبق أن تنازل لعمه عن الحكم فى سنة ١٨٦٣ (٧) ٠ وفى عهد هذا

---

(١) F.O. 78/2753 encl. in Gov. of India (Ft. William) — I.O. 4/12/73, I.O. F.O. 5/11/73.

(٢) جاد طه (دكتور) سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٢٧٣ ٠

(٣) F.O. 78/2753, Cable Schneider — I.O. 10/10/73. encl. in I.O. — F.O., 10/10/73.

(٤) F.O. 78/2753, Elliot — F.O., 11/29/73.

(٥) I.O., Pol. 2136/07, Secret and Political Department, Secret Memorandum, British Protectorate ... etc., 1st November 1887, p. 1.

(٦) F.O. 78/2754, Cable, Elliot to F.O. 1/4/74.

(٧) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٧١ ٠

السلطان الجديد للحج توصلت سلطات عدن البريطانية الى عقد معاهدة معه في اليوم السادس من فبراير سنة ١٨٨٢ وقعها عن الجانب البريطاني « الميجور جنرال فرنسيس لاك Major General Francis Lack » ومساعده « الميجور هنتر F.M. Hunter » (١) وصدق عليها حاكم الهند العام في اليوم السابع من مارس سنة ١٨٨٢ (٢) .

وقد وافق سلطان لحج بمقتضى هذه المساعدة على بيع خمسة وثلاثين ميلا مربعا من الأرض الملاصقة « للشيخ عثمان » بين الحسوة والعماد ، بالاضافة الى ملاحات « الشيخ عثمان » والقناة الممتدة بينها وبين عدن ، وذلك نظير تقاضيه خمسة وعشرين ألف ريال (من نوع ماريا تريزا) عدا ما كان يحصل عليه من راتب شهري معتاد بلغ ٥٤١ ريالا ، وذلك بالاضافة أيضا الى تقاضيه ألفا ومائة ريال شهريا منها ستمائة ريال عن المياه ، والخمسمائة ريال الأخرى ثمنا للملاحات . وبذلك تبلغ جملة ما كان يتقاضاه سلاطين لحج شهريا حينذاك ١٦٤١ ريالا نظير التزامهم بما كانت تقضي به نصوص تلك المعاهدة (٣) .

على أنه لم تكن قد وقعت بين حكومة عدن البريطانية وسلطنة لحج معاهدة حماية على النحو المتبع في معاهدات الحماية التي عقدتها بريطانيا مع سلاطين المنطقة ، غير أن معاهدة بيع أراضي « الشيخ عثمان » التي أشرنا اليها قد أثبتت أن الحماية موجودة فعلا رغم عدم وجود معاهدة خاصة بهذا الغرض . اذ أن البند السابع من تلك المعاهدة ينص بصراحة على أن حدود سلطنة لحج منذ ذلك الحين تعتبر « محمية بالحماية البريطانية » (٤) . وبذلك شكلت سلطنة لحج بموجب هذه الارتباطات التي تمت بين سلاطينها وبين السلطات البريطانية في عدن احدى الدعامات التي ارتكز عليها النفوذ البريطاني في جنوبي اليمن . ولا شك أن ذلك كله ساعد بريطانيا أيما مساعدة في تنفيذ سياستها الاستعمارية في منطقة البحر الأحمر .

وعلى أية حال فان عودة العثمانيين الى اليمن في منتصف القرن التاسع عشر قد نتج عنها قيام البريطانيين في عدن بمضاعفة جهودهم للسيطرة على الأجزاء الباقية المجاورة لها والتي لم يكونوا قد احتلوها منذ وصولهم في سنة ١٨٣٩ وخاصة بعد انهيار المقاومة العربية في تلك المنطقة في سنة ١٨٥٧ .

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ - ٢٤١ .

(٢) عبد الرحمن ابو طالب : الجنوب اليمني المحتل من النواحي التاريخية والطبيعية والسياسية ونصوص الاتفاقات والمعاهدات البريطانية مع امارات الجنوب ، كتاب قدمه للادارة السياسية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة في ٥ أغسطس ١٩٥٩ ولم ينشر بعد ، ص ١٠٩ .

(٣) Aitchison, C.U. : op. cit., Vol. XI, pp. 137-139.

(٤) حمزة على ابراهيم لقمان : المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى الوقوف فى وجه المد العثمـانى الذى شكل خطرا على مصالحهم الاستعمارية فى عدن والبحر الأحمر على السواء ٠ ثم عقد البريطانيون بعد ذلك سلسلة من « معاهدات الحماية » مع سائر السلاطين والمشايخ فى جنوب الجزيرة العربية من حدود الصبيحة ولحج غربا حتى حضرموت شرقا ، ولم يكتفوا بمعاهدات « الصداقة والولاء » التى سبق أن عقدوها معهم والتى استنفدت أغراضها وأصبحت غير كافية لحماية المصالح البريطـانية ازاء « مؤامرات » العثمانيين ومحاولاتهم لتهديد تلك المصالح ٠

وقد وقعت عدة مصادمات عسكرية فى سنة ١٨٧٤ بين قبائل الكثيرى والقعيطى ، وأشيع حينذاك أن الأتراك كان لهم دور فى هذا الصراع ٠ وقد اهتم « البريجادير جنرال شنيدر » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بهـذا الصراع وقام بدراسة الموقف غير أنه لم يجد أثرا للتدخل التركى ٠ بل انه وجد زعيمى الكثيرى والقعيطى يطلبان منه الاتفاق على دخولهما فى حماية بريطانيا ٠ غير أنه تجنب حينذاك الاتفاق معهما على ذلك (١) ، نظرا لأن البريطانيين لم يكونوا قد استقروا بعد فى اتباع سياسة عقد معاهدات فى جنوب اليمن (٢) ٠

ــ موقف السـلطات البريطانية فى عـدن ازاء مشروع العثمانيين بمد خط للبرق بين تعز وعدن فى سنة ١٨٥٧ :

لا شك أن التنافس الذى نشب بين العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن قد نتج عنه ظهور الحاجة الملحة لتحديد الحدود بينهما ٠ ورغم أن الباب العالى كان يعلن سيادته على الجزيرة العربية بأكملها ، غير أنه لم يكن يستطيع أن يعارض وجهة النظر البريطانية فى ضرورة احترام استقلال الحكام العرب فى النواحى التسع المجاورة لعـدن والذين ارتبطوا مع بريطانيا بمعـاهدات صداقة وولاء ٠

على أن ثمة مسألة جديدة أوجبت هى الأخرى ــ من وجهة النظر البريطانية على وجه الخصوص ــ تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن ٠ وكانت هذه المسألة تتمثل فى المشروع العثمانى الخاص بمد خط للبرق بين تعز وعدن فى سنة ١٨٧٥ ٠ وقد بدأ التفكير فى هذا المشروع عندما أرسل وزير الخارجية العثمانية للسفر العثمانى فى لنـدن فى السنة المذكورة برقية أوضح فيها رغبة الحكومة العثمانية فى اقامة خط للبرق بين تعز وعدن ٠ ونظرا لأن هذا الخط سيمر ببعض المناطق التى تقطنها القبائل اليمنية المرتبطة مع السلطات البريطانية فى عدن بمعاهدات صداقة وولاء ومن

---

(١) F.O., 78/2755, Schneider to Bombay 11/13/74.

(٢) I.O., Pol. 2/36/07, Secret and Political Department, Secret Memorandum, British Protectorate over the Arabia Coast from Sheikh Said to Oman, 1st November 1887, p. 2.

بينها لحج ، فانه من المتوقع أن تقوم هذه القبائل بوضع العراقيل أمام تنفيذ هذا المشروع ، مما سيضطر السلطات العثمانية الى استخدام القوة مع هذه القبائل . ولهذا فقد رأى وزير الخارجية العثمانية احاطة رئيس الوزراء البريطاني بالموضوع وذلك لتلافى أى سوء فهم قد ينشأ بين الحكومتين العثمانية والبريطانية فى هذا الصدد .

وكان من الطبيعى أن تستطلع الحكومة البريطانية رأى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ذلك الحين . وقد أجاب « الجنرال شنيدر Schneider » فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٥ على هذا الاستطلاع بقوله بأن شيوخ القبائل الذى سيمر خط البرق فى أراضيهم سوف يطلبون منحهم راتبا سنويا نظير موافقتهم على ذلك . غير أن « شنيدر » أبدى قلقه ازاء هذا المشروع الذى من شأنه أن يثير من جديد مسألة سيادة الباب العالى على المناطق المجاورة لعدن ، خاصة وأن انشاء مثل هذا الخط سيتطلب وجود بعض المسئولين والفنيين ورجال الشرطة العثمانيين فى مواقع مختلفة على امتداده . وهذا أمر لن يقبله سلطان لحج من جهة ، كما أن تعرض هذا الخط لأى تدمير من قبل رجال القبائل أو ظهور أية مشكلات أو خلافات بينهم وبين السلطات العثمانية سيثير من جهة أخرى مسألة من سيتولى معاقبة المذنبين وخاصة فى حالة عدم تقدمهم بالترضية المناسبة ، مما سيحدث اضطرابا فى المنطقة ليس من السهل تهدئته . فضلا عن أنه سيعقد الأمور أمام السلطات البريطانية فى عدن (١) .

وقد استند « اللورد سولسبرى » على ما أبداه « الجنرال شنيدر » فى معارضته لهذا المشروع ، غير أنه لم يرغب فى اظهار معارضته هذه مما جعله يطلب من « السير اليوت » السفير البريطانى فى الاستانة عدم تشجيع هذا المشروع بكافة الصلاحيات المخولة له . على أن « سولسبرى » أجاب فى نفس الوقت بأنه لا يمانع فى اقامة خط البرق المذكور على شريطة أن يتم ذلك بمعرفة شركة بريطانية ، وعلى أن تقوم الحكومة العثمانية فقط بتمويل المشروع . كما اشترط عقد اتفاق رسمى ينص فيه صراحة على اعتراف الحكومة العثمانية بحقوق الحكومة البريطانية بالنسبة للقبائل اليمنية التى سيمر الخط المذكور فى أراضيها .

بل أن « اللورد سولسبرى » تمسك بموقفه هذا عندما أرسل الباب العالى الى عدن رجلا يونانيا يدعى « كوستارى Costari » ليقوم بعمله كويل لمشروع البرق . وكان هذا الوكيل قد أوضح أن القوات العثمانية ستتخذ مواقعها على طول هذا الخط لحمايته . وقد قام « السير اليوت » بابلاغ ثابت باشك وكيل وزير الخارجية العثمانية بموقف الحكومة البريطانية بالنسبة لهذا الموضوع . كما حصل « اليوت » على تأكيدات من مدير ادارة البرق العثمانية

---

(١) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩٨ .

بتعذر اقامة هذا الخط فى ذلك الحين . واستمر « اليوت » - بناء على تعليمات « سولسبرى » - فى متابعة أنباء هذا المشروع فى الاستانة ، حتى اذا ما تأكد من وجود اتجاه فعلى لدى الحكومة العثمانية لاقامة هذا المشروع فقد كان عليه حينذاك ابداء اعتراض بريطانيا عليه الا اذا وافق الباب العالى على أن تتولى شركة بريطانية تنفيذ المشروع وعلى أن تقوم الحكومة العثمانية بتمويله .

على أن اعتراض الحكومة البريطانية على انشاء خط البرق العثمانى بين تعز وعدن الا فى حدود الشروط المذكورة ، كان لا يعنى اعتراضها أيضا على انشاء الكابل البحرى الذى أراد العثمانيون اقامته بين ميناءى مخا وعدن . وقد قام « اليوت » بابلاغ ذلك للباب العالى فى ٢٣ مارس سنة ١٨٧٨ فى الوقت المناسب . ولهذا أحجمت الحكومة العثمانية عن تنفيذ مشروع انشاء خط البرق المذكور بين تعز وعدن حفاظا على علاقتها بين بريطانيا فى ذلك الحين (١) .

- معالم سياســـة البريطانيين لمواجهة خطر التوسع العثمانى فى المنطقة المحيطة بعدن :

يمكننا أن نتبين معالم السياسة التى اتبعها البريطانيون لمواجهة خطر التوسع العثمانى فى المنطقة المحيطة بعدن الذى هدد الوجود البريطانى فيها بعد فتح قناة السويس وذلك من خلال ما أبداه « الميجـــور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى مذكرة سرية رفعها لوزارة الهند البريطانية فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . فقد أوضح ضرورة تدعيم عمليـــات الاتصال بالقبائل اليمنية القاطنة فى المناطق الداخلية المحيطة بعدن نظرا لأنهم يملكون القوة التى تمكنهم من الوقوف الى جانب العثمانيين . ولهذا فقد أوصى « هنتر » حكومته بضرورة عقد معاهدات الحماية مع قبائل العبدلى والفضـــلى والعقربى والحوشبى والعلوى ويافع السفلى وغيرها من القبائل اليمنية المجاورة لعدن ليحول بينها وبين الاتفاق مع العثمانيين بأية صورة من الصور . كما اقترح « هنتر » تفويض المقيم السياسى البريطانى فى عدن لاتباع أفضل سياسة يراها تجاه قبائل قعطبـــة والقبائل الأخرى الواقعـــة شرقى طريق التجارة الموصل بين عدن والمناطق الداخلية وذلك ليحول دون تقدم النفوذ العثمانى فى المنطقة الواقعة شرقى عدن (٢) .

وقد أبدى « البريجادير جون شنيدر » المقيم السياسى البريطانى فى عدن موافقته على توصيات مساعده « هنتر » ومقترحاته ومؤيدا وجهة النظر

---

(١) I.O., B. 8, Confidential Memorandum on the proposed Turkish Telegraph line from Taiz to Aden, April 12, 1882.

(٢) I.O., B. 30, Confidential Memorandum regarding the relations with the tribes in the vicinity of Aden, especially to he reference Amir of Zhali by Major F.M. Hunter. C.S.T. Assistant Political Resident at Aden, September 28, 1875.

القائلة بأن عقد معاهدات الحماية بين بريطانيا والقبائل اليمنية المجاورة لعدن يحول تماما دون انتشار النفوذ والسيادة العثمانية الفعلية على القبائل اليمنية فى تلك المنطقة (١) ٠

بل أن حكومة الهند البريطانية وافقت من جهتها أيضا على توصيات « هنتر » ومقترحاته كما أنها أوصت بمد رقعة مشروع الحماية حتى يضم قبائل العوالق السفلى ودثينة والمهرة والقعيطى ، ولم تكن أهداف حكومة الهند البريطانية قاصرة على ذلك ، بل انها أرادت أيضا أن تمتد حماية البريطانيين على أجزاء من ساحل حضرموت فى الاتجاه الشمالى الشرقى بين أراضى عدن ومسقط ، ولو استلزم ذلك انفاق بعض الأموال لترغيب شيوخ المنطقة للدخول تحت الحماية البريطانية حتى يمكن تلافى تعرضها لأى تدخل أجنبى آخر ٠

على أن البريطانيين أرادوا بعد ذلك أن يتفقوا مع الأتراك العثمانيين على تحديد الحدود بين الأراضى الخاضعة للحماية البريطانية وبين تلك الخاضعة للحكم العثمانى (٢) ، حتى لا تثار بين الجانبين أية مشكلات جديدة تتعلق بمناطق نفوذ كل منهما ٠ اذ أن ما أثار مخاوف بريطانيا ودفعها لعقد معاهدات الحماية مع القبائل اليمنية المجاورة لعدن هو قيام الدولة العثمانية فى سنة ١٨٧٥ بتنفيذ مشروع مد خط البرق العثمانى من تعز ليتجه جنوبا حتى عدن مارا بالمنطقة التى تسكنها تلك القبائل فى جنوب اليمن ٠ وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية متمسكة باستعادة سيادتها الفعلية على شبه الجزيرة العربية بأكملها (٣) ٠

وقد قام الوكيل العثمانى فى عدن باخطار السلطات البريطانية بأن عشائر لحج تحول دون مد الخط البرقى من تعز الى عدن وأن الباب العالى سوف يضطر الى استخدام القوة ضد هذه القبائل ٠ وقد عارضت بريطانيا هذا الاتجاه الخاص باستخدام القوة خشية أن يحقق ذلك كسبا جديدا للنفوذ العثمانى ٠ وأصرت بريطانيا على أنه اذا أراد السلطان العثمانى مد خط برقى الى عدن فيمكن أن يتم ذلك عن طريق تقديم طلب الى الحكومة البريطانية للوصول الى اتفاق معها (٤) ، على ألا يصحب ذلك وجود أية قوات أو سيادة عثمانية فى تلك المناطق (٥) ٠

---

(١) I.O., B. 30., Memorandum by Lieutenant — General J.W. Schneider, C.B., October 1, 1875, p. 1.

(٢) I.O., Secret and Political Department, B. 41. Secret. British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat) E.N., 1st November, 1887, pp. 1, 3.

(٣) I.O., Secret and Political Department, B. 98, Confidential Memorandum on the proposed Turkish Telegraph Line from Taiz to Aden, April 12, 1882, p. 1.

(٤) F.O. 78/2756, Schneider to Bombay 1/2/75, and Schneider to I.O., 1/10/75.

(٥) Marston, T.E. : op. cit., pp. 450, 452.

على أن توتر العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية بعد احتـــــلال البريطانيين لقبرص فى سنة ١٨٧٨ ثم لمصر فى سنة ١٨٨٢ أدى الى خشية البريطانيين من التعرض لأية مفاجآت من قبل العثمـــانيين فى جنوب اليمن وشجعهم على الاسراع فى عقد معاهدات الحماية ، خاصة وأن بريطانيا لاحظت محاولات العثمانيين وجهودهم المستمرة للتدخل فى شئون القبائل اليمنية المجاورة لعدن فى نهاية العقد الثامن من القرن التاسع عشر . ومن الواضح أن بريطانيا لم تكن تقصد بطبيعة الحال من وراء ذلك حماية القبائل اليمنية ذاتها من الأتراك العثمانيين ، بل كان هدفها الأساسى هو حمـــاية المصالح البريطانية فى جنوب اليمن وابعاد أى تدخل من قبل أية قوى أجنبية غيرها فى شئون عدن (١) .

ولقد أشيع فى سنة ١٨٧٥ أن الخديو اسماعيل سيمنح من قبل الباب العالى حق التمثيل الدبلوماسى لدى الدول وتسند اليه ادارة شئون ولاية اليمن العثمانية فى مقابل مليون ليرة تسدد لخزانة الدولة . غير أن صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية أوضح أن اعطاء اليمن للخديو اسماعيل سيكون أول خطوة نحو النهاية الحتمية للخلافة العثمانية . غير أن « اليوت » السفير البريطانى فى الاستانة حينذاك أكد أن اسناد اليمن للخديو اسماعيل يعنى أن الهـدوء سيسود المنطقة نظرا لأن الخديو سيديرها أفضل من الباشوات الترك بحيث تنعدم الشكوى وينتهى التمرد (٢) . ولكن الخديو اسماعيل لم يكن قادرا من الناحية المالية حينذاك على تنفيذ هذا المشروع بدليل أنه باع أسهم مصر فى قناة السويس بعد ذلك بستة شهور ، وان كان قد قيل حينذاك أنه سينفذ هـذا المشروع استكمالا لامبراطوريته الافريقية (٣) .

وعلى أية حال فيمكن أن نتبين من خلال العرض السابق حقيقة الدور الذى قامت به بريطانيا لتطوير سياستها مع القبائل اليمنية المحيطة بعدن من عقد معاهدات الصداقة والولاء الى عقد معاهدات الحماية حتى تحول بذلك دون محاولة أية قوة غيرها بسط نفوذها هناك وتهديد المصالح البريطانية فى المنطقـــة . ولا شك أن المحاولات المتكررة التى قام بها العثمانيون لبسط نفـــوذهم فى المنطقة المحيطة بعدن بعد وصولهم الى اليمن فى ســـنة ١٨٧٢ ، والاتصالات المستمرة التى قاموا بها لاجتذاب القبائل اليمنية هناك مستندين الى تبعيـــة الجزيرة العربية لسيادتهم ، قد اضطرت بريطانيا الى الاسراع فى تنفيذ سياسة

---

(١) Ingrams, H. : The Yemen, p. 58.

(٢) F.O. 78/2756, Elliot to F.O., 6/20/75.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., pp. 453, 454.

عقد معاهدات الحماية مع زعماء تلك القبائل حفاظا على المصالح البريطانية فى عدن والمنطقة المحيطة بها فى جنوب اليمن (١) .

ومن الملاحظ أن معاهدات الحماية التى فرضتها بريطانيا على زعماء القبائل اليمنية فى جنوب اليمن تميزت بتشابهها ، بل انها تكاد تكون نسخة طبق الأصل لبنود محددة . كان أهمها تعهد السلاطين والأمراء اليمنيين فى مقابل تمتعهم بالحماية البريطانية بعدم الاتصال أو الاتفاق أو التعاقد مع أية قوى أو دول أجنبية الا بعد موافقة الحكومة البريطانية . كما أنهم تعهدوا أيضا بعدم التنازل أو بيع أو رهن أو تأجير أية أراض من اراضيهم لأية دولة أجنبية فيما عدا الحكومة البريطانية بطبيعة الحال (٢) . على أنه لم تمض سنة ١٨٩٦ الا وكانت هذه المعاهدات قد تم عقدها بين الحكومة البريطانية وسبعة عشر حاكما يمنيا من الحكام العشرين فى المنطقة المحيطة بعدن بجنوبى اليمن (٣) .

وهكذا انتقلت السياسة البريطانية فى عدن من طور المعاهدات الولائية الى طور المعاهدات الخاصة بالحماية مع القبائل المحيطة بعدن (٤) ، وذلك بمرونة ودهاء تتميز بهما السياسة البريطانية على وجه الخصوص . والدليل على ذلك أن بريطانيا لم تفرض سيطرتها الادارية على تلك القبائل ، بل ان الأمر لم يتعد فى بعض الأحيان منح المشاهرات المالية والتعهد بالحماية دون ما تدخل فعلى فى شئون تلك القبائل . فالأهداف الحقيقية من وراء ذلك لم تكن سوى تأمين عدن نفسها والمحافظة عليها من جهة ، وتأمين الطرق الموصلة اليها من الداخل لضمان وصول المؤن والمواد التموينية اللازمة من جهة ثانية ، وحرصا على انتظام حركة التبادل التجارى بين عدن وبقية أرجاء اليمن من جهة ثالثة . وكانت تلك هى الأهداف الرئيسية لحكومة الهند وللحكومة البريطانية فى لندن ذاتها (٥) . وكانت مسئولية تحقيق تلك الأهداف تقع بطبيعة الحال على عاتق المقيم السياسى البريطانى فى عدن .

وعلى الرغم من أن أبعاد السياسة البريطانية التى اتبعت مع سلطنات ومشيخات المنطقة المجاورة لعدن بجنوبى اليمن كانت تتغير من حين لآخر تبعا

---

(١) I.O., Pol. 2136/07, Secret and Political Department, Secret Memorandum, British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat), 1st November, 1887, p. 3.

(٢) Aitchison, C.U. : Op. cit., Vol. XI, p. 158.

(٣) The Middle East : A Political and Economic Survey, p. 103.

(٤) عبد الرحمن ابو طالب : الجنوب اليمنى المحتل من النواحى التاريخية والطبيعية والسياسية ونصوص الاتفاقات والمعاهدات البريطانية مع امارات الجنوب ؛ كتاب قدمه للادارة السياسية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة فى ٥ اغسطس سنة ١٩٥٩ ولم ينشر بعد ص ١٠٩ – ١١٨ .

(٥) Ingrams, H. : Op. cit., p. 53.

لتغير المقيمين السياسيين البريطانيين المسئولين عن السلطة فى عدن ، فان هذه السياسة التزمت على وجه العموم وفى جميع الأحوال بعدم التدخل المباشر فى شئون القبائل الا بالقدر الذى تتطلبه مقتضيات المحافظة على المصالح البريطانية فى المنطقة (١) · وقد جنب هذا الموقف السياسة البريطانية التعرض لكثير من الأخطاء والأخطار وساعدها كثيرا على تحقيق أهدافها الاستثمارية فى عدن وجنوبى اليمن الى أبعد مدى ·

بل ان العلاقة بين البريطانيين والعثمانيين بمرور الوقت قد تغيرت كثيرا أيضا عما كانت عليه · وقد بدا ذلك بوضوح عندما حدث نزاع قبلى فى حضرموت بين قبائل القعيطى والكثيرى فى سنة ١٨٧٥ ، فان صفوت باشا وزير الخارجية العثمانى قد خشى من تهديد تجارة العثمانيين فى الموانى اليمنية مما جعله يطلب من بريطانيا حماية الملاحة التجارية العثمانية فى المنطقة · ومن الواضح أن ذلك اعتراف صريح بوضع البريطانيين وقوة مركزهم فى هذا الساحل · وقد أبلغ هذا الطلب الى وزارة الهند فى لندن لاستطلاع رأيها (٢) · ولا شك أن ذلك كان يتعارض تماما مع ادعاء السيادة العثمانية فى ذلك الحين (٣) ·

ومما يؤكد حرص بريطانيا على عدم اقحام نفسها فى عمليات عسكرية ضد القوات العثمانية المتمركزة فى صنعاء منذ عام ١٨٧٢ أن المقيم السياسى البريطانى فى عدن « البريجادير جون شنيدر » كان يخطط للقيام بعملية عسكرية ضد النفوذ العثمانى فى أرض الأميرى الواقعة فى الشمال الشرقى لعدن فى سنة ١٨٧٥ · غير أن « لورد دربى » اعترض على ذلك حيث ان هذا العمل كان يعنى اعلان الحرب على الباب العالى بينما كانت بريطانيا تعتمد على المظاهرات السياسية والعسكرية فقط ضد النفوذ العثمانى · وقد قام « دربى » بتحذير « شنيدر » من مغبة القيام بأية عمليات عسكرية (٤) ، بينما حصل « اليوت » ممثل بريطانيا فى الاستانة على وعد بسحب « الضبطية » العثمانية من « الضالع » الواقعة فى أرض الأميرى (٥) ·

وهكذا انتقل النزاع بين البريطانيين والعثمانيين حول عدن من مشكلة تحديد حق السيادة العثمانية الى تحديد الحدود بين منطقى نفوذ كل من الجانبين ، مما أثار الحاجة الى التوصل الى تسوية بينهما (٦) ·

---

(١) Jacob, H. : op. cit., p. 252.

(٢) F.O., 78/2756, Elliot to F.O. 5/15/75.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 454

(٤) F.O. 78/2756, Minute by Derby 6/27/75.

(٥) F.O. 78/2756, Elliot to F.O. 7/14/75.

(٦) Marston, T.E. : op. cit., p. 56.

وبذلك انتهى أول تهديد حقيقى للبريطانيين فى عدن قامت به قوة أجنبية متميزة عن النشاط المحلى والتى تتمثل فى الأتراك العثمانيين ٠

وجدير بالذكر أن بريطانيا تعاملت مع سلطات ومشيخات المنطقة المحيطة بعدن عن طريق سلطنة لحج وذلك منذ احتلال البريطانيين لعدن فى سنة ١٨٣٩ ٠ وقد اتبع هذه السياسة كل المقيمين السياسيين البريطانيين الذين عاصروا الفترة التى سبقت عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ أمثال « هينز » و « كوجلان » و « ميرويذر » و « راسيل » ٠ وعندما عين « الميجور جنرال سير تشالز تريمنهير » مقيما سياسيا فى عدن سنة ١٨٧٠ فانه قد عدل عن اتباع هذه السياسة (١) وأصبحت الادارة البريطانية فى عدن تتعامل مع القبائل اليمنية مباشرة دون وساطة سلطنة لحج ٠

وقد فعلت بريطانيا ذلك بعد أن تبينت عدم جدوى هذه السياسة نتيجة لضعف مركز سلطان لحج نفسه بين قبائل المنطقة منذ ذلك الحين ٠ وبذلك بدأت مرحلة جديدة من مراحل العلاقات البريطانية اليمنية كان يتم التعامل فيها بشكل مباشر بين المقيم السياسى البريطانى وبين سلاطين وشيوخ الامارات المختلفة فى المنطقة المحيطة بعدن (٢) ٠ وعلى أية حال فان السياسة البريطانية تميزت بوجه عام بالمرونة المتناهية وسرعة الحركة والتغيير تبعا لمقتضيات الأمور التى تواجهها ٠ وفى هذا الصدد يشير أمين الريحانى الى قول « لويد جورج » الذى يفسر أهم سمة من سمات السياسة البريطانية بقوله : « ان المبدأ المرن فى السياسة هو أصلح المبادىء لحل المشاكل الخارجية والاستعمارية » (٣) ٠

ويتحدث أمين الريحانى عن مرونة السياسة البريطانية فى عدن وجنوبى اليمن فيقول : « ان أجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرن هو ما يصنع فى دار الاعتماد البريطانى لعدن من الربقات السياسية ٠ هذه ربقة تسر ، وهذه ربقة تحنق ، وتلك تؤلم ولا تضر ، وبينها كلها درجات فى الضغط والارخاء ، فى الربط وفى الحل ، توجبها أحوال اليمن الأسفل والعشائر القاطنة تلك الأنحاء ٠٠٠ ولهذه القاعدة مظاهر شتى أولها المعاهدات الولائية ، فى المشاهرات المالية ، مدافع الترحيب والتوديع لمن يجىء الى عدن من السلاطين أو يسافر منها ، ثم الألقاب والنياشين ، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك ، أو عكس ذلك ، فالتدخل فى السياسة المحلية عند انتخاب أو تعيين أحد الحكام ٠ وأخيرا بل يصح أن يكون الأخير أولا ، المحافظة على استقلال كل سلطان وأمير ، عملا برغبتهم وبمصلحة بريطانيا ٠ نعم ، ما من أمير أو سلطان ، أو شيخ قبيلة الا يبغى الاستقلال التام ، ولا بأس اذا قيد بمشاهرات وبهدية

---

(١) I.O., L.A., Tremenheere to Bombay 6/2/71

(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 394, 395.

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٧ ٠

كل عام . هذه لعمرى بلية العرب الكبرى التى توافق مصـــلحة الانكليز الكبرى . وكأنى بهم يقولون للأمير العربى : أنت تبغى الاســـتقلال . أنت مستقل ، نحن نعترف بذلك وندفع لك المال لتحافظ على استقلالك . نحن لا نبغى الا ما تبتغيه ، وهذا عهد الولاء والحماية . ولكن فى هذا العهد الربقة التى تخنق ، فيه البند المشهور : لا يحق للسلطان أو الأمير أن يتعاهد وأحـد زملائه ، أو أن يبيع أو يؤجر أو يهب شيئا من بلاده الى أحـــد أمراء العرب أو الأجانب أو يمنح امتيازا دون أن يستشير ويستأذن الحاكم (البريطانى) فى عدن » (١) .

وهكذا استطاعت بريطانيا بواسطة معاهدات الحماية أن تجعل القبائل اليمنية المجاورة لعدن تدور فى فلكها وتعترف بحمايتها وتلتزم بعدم السماح لأية قوى أجنبية أخرى بالتدخل فى شئون المنطقة الا اذا ارتضت السياســة البريطانية ذلك . على أننا اذا تساءلنا عن مدى شرعية هذه المعاهدات فاننا نجد أنها ليست فقط غير عادلة ، بل انها كانت أيضا مناقضة ومخالفـــة للعرف والتقاليد الدولية المقبولة (٢) وذلك نظرا للاعتبارات التالية :

أولا : أن هذه المعاهدات لم تكن معقودة بين طرفين متكافئين .

ثانيا : أن بريطانيا استغلت الصعوبات والمشكلات القائمة بين اليمنيين والأتراك لفرض هذه المعاهدات .

ثالثا : ان زعماء القبائل لم يكونوا حكاما مطلقى السلطة ولكنهم كانوا حكاما محليين من قبل امام اليمن . ولم يكن الامام يستشار أو تؤخذ موافقته على هذه المعاهدات .

رابعا : ان استمرار هذه المعاهدة كان يتعارض مع المبـــادىء الأساسية للتعاقد العادى بغض النظر عن القواعد المعروفة للاتفاقات الدولية .

خامسا : لم تكن هذه المعاهدات تبرم فى جو من التلاطف أو الود ولكنها كانت تتم بممارسة الضغط على زعماء القبائل .

سادسا : على الرغم من أن بريطانيا كانت تعترف بأن شـــيوخ القبائل الموقعين على هذه المعاهدات كانوا حكاما ذوى سلطات كاملة ، الا أنهـا كانت تنكر عليهم حقهم فى الاتصال أو اقامة علاقات مع أية دولة كبرى ، كما أنها حرمت عليهم ممارسة حقهم فى التصرف أو التنازل عن ممتلكاتهم لأية دولة أخرى .

---

(١) أمين الريحانى : المصدر الســابق ، ج ١ ، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩ .

(٢) Fathalla and Khatib : British Penetration and Imperialism in Yemen, pp. 8-9.

سابعا : لم تكن هناك حاجة لبسط الحمــاية البريطانية على زعماء تلك القبائل نظرا لأنه لم يكن هناك أى خطر متوقع ضد هذه القبائل الا ما يمكن أن يحدث من قبل البريطانيين أنفسهم ٠

ولهذا فاننا نتفق مع رأى أمين الريحانى الذى أكد بأن البريطانيين وحدهم هم الذين كانوا يســـتفيدون من نظام الحماية لأنهم بدفعهم بعض المشاهرات البسيطة للأمراء والشيوخ استطاعوا المحافظة على وجودهم فى عدن وجنوبى اليمن ٠ فلولا نظام الحماية لكانوا قد احتاجوا الى صرف المبالغ الطائلة لتوفير القوات اللازمة التى يمكنها أن تحافظ على وجودهم هنـــاك وتدرأ عنهم خطر هجوم القبائل اليمنية على قواتهم من الداخل ٠ ويشير أمين الريحانى الى أن البريطانيين : « ٠٠٠ هم تجار لا يبارون ، كما أنهم ساسة محنـــكون ٠ فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو ٠ أنها ، اذا اعتبرنا مصلحة بريطانيا أولا ثم العالم الذى تهمه محطة المواصلات البرقيـــة والتجارية ، لصفقة غانمة ، أما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيعترينا الأســف والغم لأنهم الخاسرون فى كل حال ، الخاسرون وان تضاعفت الأموال » (١) ٠

ومن المؤكد أن نظام الحماية هذا لم يكن مجديا لليمنيين على الاطلاق لأنه لم يوفر لقبائل المنطقة الحماية من الغزو الخارجى أو من اشتعال نيران الحرب داخليا فيما بينهم ٠ ولا أدل على ذلك مما أوضحه « اللورد بلهافن Lord Belhaven الذى عمل مساعدا للمقيم السياسى البريطانى فى عدن (٢) عندما أكد أن نظام الحماية وما استتبعه من اهداء البنادق والأسلحة المختلفة لشيوخ القبائل اليمنية قد عمق الخلافات القبلية بين أبناء الوطن الواحد وزاد من حدة الحرب الأهلية وتفاقمها ، وأشعل لهيب القتال بين القبائل (٣) ٠

أما بالنسبة لالتزام البريطانيين أمام شيوخ القبائل اليمنية المجاورة لعدن بحمايتهم من أى غزو خارجى قد يتعرضون له ، فالحقيقة هى أن البريطانيين لم يريدوا كما أنهم لم يستطيعوا أن يحموا منطقة جنوبى اليمن وخاصة سلطنة لحج من الغزو العثمانى الذى تعرضت له فيما بعد أثناء الحرب العالمية الأولى ٠ ولهذا فان أمين يعلق على ذلك بقوله أن هذه الحماية البريطانية التى تعهدت بها بريطانيا للقبائل اليمنية نادرا ما كانت تتحقق ، بل انها تأخرت كثيرا واختفت تماما عندما احتاج اليمنيون فى الوقت الذى اقتحم العثمانيون فيه منطقة لحج فى سنة ١٩١٥ (٤) ٠

واذا كنا قد استعرضنا فيما سبق معالم سياسة البريطانيين فى عدن

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٠ — ٤١١ ٠

(٢) Lord Belhaven : The Uneven Road, p. 41.

(٣) Lord Belhaven : op. cit., p. 76.

(٤) Ameen Rihani : Around the Coast of Arabia, p. 337.

ازاء النشاط العثمانى فى المنطقة المجاورة لها بشمالى اليمن ، فجدير بنا فى نفس الوقت أن نشير بايجاز الى موقف الأتراك العثمـــانيين من البريطانيين القابعين فى جنوب اليمن وصلة ذلك بثورة اليمنيين فى ســـنة ١٨٩٢ ضد النفوذ العثمانى ٠ فلقد كان الاعتماد السائد لدى العثمانيين فى ذلك الحين أن الدسائس البريطانية هى التى حركت الثورة ضدهم فى اليمن على الرغم من أنهم لم يدركوا الفوائد التى قد تجنيها بريطانيا من وراء ذلك ٠ غير أن الأتراك اهتموا بتوثيق علاقتهم بحكام النواحى اليمنيـــة الواقعة بين عدن والحدود العثمانية عند قعطبة ، ولحج ، والضالع ، وأراضى الحوشبى ، فكانت حكومة اليمن العثمانية تقوم من جانبها باعطاء السلاطين والأمراء والمشايخ فى تلك الجهات اعانات مالية لتضمن وجود علاقات طيبة بينها وبين هؤلاء على نحـــو ما يفعـله البريطـانيون (١) ٠ اذ ان بريطـــانيا كانت تهدف الى تأمين قوافل التجارة الصادرة من عدن الى بقية أجزاء اليمن من عدوان القبائل اليمنية ، لهذا كانت تدفع مبلغا كبيرا من المال شهريا للحكام المحليين ، كما أن بريطانيا كانت تحرص على ايجاد منطقة موالية لها أو على الأقل مهادنة لتتوسط المنطقة الواقعة بين حـــدودها فى عدن فى الجنوب وحـــدود ولاية اليمن العثمانية (٢) فى الشمال ٠

على أن الاحتلال العثمانى لليمن ـ من ناحية أخرى ـ كان مفيدا للمصالح البريطانية ، اذ أن الادارة اليمنية قبل مجىء الترك لم تكن لها المقدرة على كبح جماح القبائل مما كان لا يسمح بمرور القوافل التجارية بين عدن وداخل اليمن وعودتها سالمة ٠ وكان ذلك يرجع الى ضعف الأئمة الزيديين والشيوخ المحليين وتنافسهم فيما بينهم وعدم وجود ادارة موحدة قوية فى اليمن ٠ولكن الأمور تغيرت منذ وصول الأتراك الى هناك فى سنة ١٨٧٢ ، فحيثما امتد نفوذهم وسلطانهم كان يترتب على ذلك سلامة القوافل وتأمينها ٠ على أن طمع الأتراك ورغبتهم فى فرض ضرائب مرتفعة على التصدير والاستيراد فى الحديدة وفى موانى اليمن الخاضعة لنفوذهم ، قد نتج عنه اتجاه الجزء الأكبر من التجارة اليمنية الى عدن التى كانت ميناء حرا فى ذلك الحين ٠ ومن هنا تتضح الفائدة التى عادت على البريطانيين فى عدن نتيجة لسيطرة الترك على اليمن منذ سنة ١٨٧٢ (٣) ٠ على أن هذه الفائدة سوف تتأثر كثيرا بعد جلاء العثمانيين عقب هزيمة دولتهم فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، اذ ان اليمن سيتعرض للفوضى والاضطراب مما أثر كثيرا فى مدى تجارة البن فى عدن ومختلف الصادرات بصفة عامة ، وكذلك

---

(١) فاروق عثمان أباظة : المصدر السابق ، ص ١٣٣ ٠

(٢) Harris, W.B. : A Journey through the Tomon, and some general remarks upon that country, p. 115.

(٣) فاروق عثمان أباظة : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ٠

بالنسبة للبضائع المستوردة ومن أهمها التبغ الوارد من بلدان الخليج العربى وحضرموت الى جانب البضائع الأوربية وخاصة البضائع البريطانية ٠

وقد أشار الرحالة البريطانى « هاريس Harris » فى كتابه الصادر فى سنة ١٨٩٣ الى أن عددا من الأتراك قابلهم أثناء جولته فى اليمن أكدوا له أن الحكومة البريطانية فى عدن كانت تمد الثوار اليمنيين بالأسلحة والمساعدات المختلفة أثناء ثورتهم على الحكم العثمانى فى بلادهم فى سنة ١٨٩٢ ليتخلصوا بذلك من النفوذ العثمانى فى المنطقة المجاورة لقاعدتهم الهامة فى عدن ٠ غير أن « هاريس » أوضح لهم بأن تلك الأســـلحة كانت تهرب الى اليمن بمعرفة الفرنسيين فى ميناء « أوبوك » الواقع على الساحل الافريقى المواجه لعدن (١) ٠ وكان الفرنسيون يقصدون من وراء ذلك مناوأة العثمانيين من جهة واثارة الفتنة والشقاق بينهم وبين البريطانيين فى عدن من جهة أخرى ، وذلك سعيا وراء تحقيق تفوق للنفوذ الفرنسى فى مضمار التنافس الدولى للسيطرة على البحر الأحمر ٠

وهكذا نتج عن فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ، الى جانب الاعتبارات الأخرى التى تتعلق بالدولة العثمانية من جهة ، ولظروف اليمن الداخلية من جهة أخرى ، عودة الأتراك العثمانيين الى الأراضى اليمنية والسيطرة على صنعاء فى سنة ١٨٧٢ ٠ وقد أدى وجود الترك على مقربة من عدن الى قيام البريطانيين هناك بتعديل سياستهم مع القبائل اليمنية المحيطة بعدن بحيث تحولت من عقد معاهدات « الصداقة والولاء » الى عقد « معاهدات الحماية » منتهزين بذلك فرصة الخوف الذى اعترى سلاطين المنطقة من سيطرة الترك على مقدراتهم ٠ على أن هذه السياسة البريطانية كانت تهدف الى المحافظة على انفراد بريطانيا بالنفوذ المطلق فى عدن وفى المنطقة المحيطة بها وابعاد أى نفوذ أجنبى آخر يهدد مصالحها هناك ٠ وبذلك يمكنها أن تستفيد من عدن كقاعدة لتنفيذ سياستها فى منطقة البحر الأحمر بوجه عام ٠

رابعا ـ سياسة البريطانيين فى عدن ازاء النشاط المصرى فى البحر الأحمر وخليج عدن بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩ ـ ١٨٨٢) :

سبق أن أشرنا الى الدور الذى قامت به بريطانيا لتصفية النفوذ المصرى فى عهد محمد على عندما أوشك على أن يوحد ضفتى البحر الأحمر تحت حكم واحد خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠ وكانت بريطانيا قد تنبهت الى خطر نشوء دولة مصرية قوية فى الشرق الأوسط تهيمن على طريق المواصلات الدولية بوجه عام ، وتهدد طرق المواصلات البريطانية الى الهند وأهمها طريق

---

(١) Harris, W.B. : op cit., p. 16.

البحر الأحمر بوجه خاص ٠ وقد بدا واضحا أن مصر كانت تتجه الى تحقيق ذلك خاصة بعد أن سيطرت على الجزيرة العربية وكادت تبسط نفوذها على مياه البحر الأحمر والخليج العربي ٠

وقد سارعت بريطانيا الى احتلال ميناء عدن الهام الذى يتحكم فى طريق البحر الأحمر من الجنوب فى مطلع عام ١٨٣٩ ، كما نجحت بعد ذلك فى تكتيل الدول الكبرى للوقوف فى وجه مصر ، واتخذت كل ما يمكنها من وسائل حربية واقتصادية وغيرها حتى أعادت القوات المصرية الى ما وراء حدودها فى سنة ١٨٤٠ ٠ وكانت بريطانيا واثقة من أن عودة سيادة الباب العالى الى منطقة البحر الأحمر تعد أكبر ضمان لحرية تصرفها ومرورها فيها دون أن تلقى أية معارضة على الاطلاق ٠ وبذلك عادت موانى الحجاز واليمن الى سيادة الدولة العثمانية ، كما عادت اليها أيضا تلك الملحقات التى كانت تخضع لها اداريا كميناءى سواكن ومصوع على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ٠

على أن مصر قد رأت فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٩ أى قبيل فتح قناة السويس ، ان من الواجب عليها دعم حقوق السيادة العثمانية المصرية فى منطقة البحر الأحمر وذلك لمواجهة النشاط البريطانى والفرنسى الذى بدأ فى الظهور هناك ، وكانت مصر تهدف من وراء تلك الخطوة أيضا الى تمهيد السبيل لامتداد الدولة المصرية حتى تصل الى حدودها الطبيعية ، أى من ساحل البحر المتوسط شمالا الى خط الاستواء ومنابع النيل جنوبا ، ومن ساحل البحر شرقا الى المحيط الهندى ومنه الى وسط القارة الافريقية حتى البحيرات الاستوائية غربا (١) ٠ وقد عرفت هذه الخطة بسياسة مصر الافريقية ، وهى السياسة التى دأبت الحكومة المصرية على انتهاجها منذ أوائل عهد اسماعيل على وجه الخصوص (٢) ٠

ولهذا بدأت الحكومة المصرية تتبع سياسة ايجابية فى منطقة البحر الأحمر حيث كانت الدولة العثمانية تهيمن على معظم سواحله منذ خروج المصريين منه فى عام ١٨٤٠ (٣) ٠ وقد بذلت مصر كل جهودها لدى الباب العالى لكى يتنازل لها عن ادارة قائمقاميتى سواكن ومصوع اللتين كانتا من ملحقات ولايتى الحجاز واليمن فى ذلك الحين (٤) ، وذلك باعتبارهما المخرجين الطبيعيين للأقاليم السودانية التابعة للحكومة المصرية ٠ ونتيجة لهذه الجهود المصرية فقد أصدر

---

(١) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome 3, 2ème partie, pp. 178-179.

(٢) محمد صبرى (دكتور) : مصر فى افريقية الشرقية ، هرر وزيلع وبربره ، ص ١ — ١٧ ٠

(٣) Sabry, M. : L'Empire Egyptien sous Ismail, p. 389.

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ٠

الباب العالى فرمانا بمنح باشا مصر قائمقاميتى سواكن ومصوع وملحقاتهما وذلك فى شهر مايو سنة ١٨٦٥ (ذى الحجة سنة ١٢٨١ هـ) (١) • كما أعقب ذلك صدور فرمان الوراثة الصلبية فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الذى نص على منح اسماعيل « حكومة وراثية فى مصر وفى جميع الملحقات والأراضى التابعة لها وفى قائمقاميتى سواكن ومصوع » (٢) • وكانت ملحقات سواكن ومصوع تمتد على الساحل الافريقى للبحر الأحمر مبتدئة من « رأس علبة » الى « رهيطة » جنوبا على مقربة من مضيق باب المندب عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر (٣) •

ولا شك أن حملة بريطانيا التاديبية على الحبشة فى سنة ١٨٦٧ كانت من أهم العوامل التى دفعت الحكومة المصرية الى اتباع سياسة نشيطة فى الساحل الغربى للبحر الأحمر وساحل الصومال المواجه لعدن ، وهى السياسة التى أكدت حقوق مصر فى هذه الأصقاع من القارة الأفريقية • اذ قامت الحكومة المصرية فى شهر يوليو سنة ١٨٦٧ بارسال حكمدار السودان جعفر مظهر باشا للقيام بجولة يتفقد فيها الأوضاع القائمة فى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر • وبعد مروره بسواكن ومصوع اتجه الى باب المندب وزار فى طريقه أهم الموانى الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر مثل « حنفيله » و « عيد » و « بيلول » و « رهيطه » وخصص لشيوخها راتبا شهريا •

كما قام جعفر باشا بزيارة ميناء عدن ، ثم ابحر منها متجها الى ساحل الصومال حيث قضى شهر أغسطس سنة ١٨٦٧ فى ميناء بربرة • (٤) وقد قدم جعفر باشا عقب عودته الى مصر تقريرا أوضح فيه حقوق مصر التى لا تنازعها فيها واحدة من الدول على كل الساحل الأفريقى للبحر الأحمر وخليج عدن حتى رأس جورد فوى ، فضلا عن جميع الجزر القريبة من سواكن ومصوع ، ما عدا زيلع التى كانت حينذاك تابعة للدولة العثمانية ، وكان يحكمها بطريق الالتزام أميرها الشيخ أبو بكر شحيم ، وقد أشار جعفر باشا فى تقريره الى الدور الذى قام به فى تأمين الأهالى وتمكين تبعيتهم للحكومة المصرية (٥) •

ولما كانت مصر فى ذلك الوقت قد اتجهت الى توحيد كل البلاد الواقعة

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ١٨٦٣ — ١٨٧٩ ، ص ٤٢ — ٤٣ •

(٢) Hlolland, T.E. : The European Concert in the Eastern Question, pp. 114, 115.

(٣) Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, p. 244.

(٤) Douin, G. : op. cit., tome 3,2 eme partie, p. 171.

(٥) محمد صبرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥ — ١٦ •

فى شمال شرق أفريقية فى كتلة واحدة لها شخصيتها الدولية المتميزة ، ويتحد أهلها فى الحقوق والواجبات والمصير ، فانها قد عمدت الى التوغل فى أعالى النيل وهضبة البحيرات الاستوائية الى جانب ما كانت تبذله من جهد لبسط سيطرتها على سواحل البحر الأحمر والسواحل الأفريقية لخليج عدن . بل ان مصر كانت قد صممت على مواصلة السير جنوبا على طول هذه السواحل فى المحيط الهندى هادفة الى اعطاء هضبة البحيرات مخرجها الطبيعى الى الجنوب من بلاد الصومال . كما حاولت مصر اقامة سبل الاتصال بين هذه السواحل وداخل القارة بشكل يسمح لها بتوحيد هذه المنطقة والنهوض بها .

غير أن اعتماد الحكومة الخديوية على بعض الضباط البريطانيين فى قيادة حملاتها التى عهدت اليها باستكشاف هذه المناطق واقامة نقط عسكرية فيها والقضاء على تجارة الرقيق ، فقد كان ذلك من العوامل الهامة التى ساعدت البريطانيين على احباط جهود مصر فى هذه الجهات . اذ ان هؤلاء لم يعملوا على بسط النفوذ المصرى هناك ، بل انهم عملوا على أبعاد المصريين عن هذه المناطق وغرس الكراهية للادارة المصرية لدى سكان البلاد الأصليين حتى يتسنى تمهيد السبيل لبريطانيا للسيطرة على هذه الجهات . (١)

وكانت بريطانيا فى ذلك الحين تتابع النشاط المصرى على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن وعلى الجانب الشرقى لأفريقيا بقلق شديد وخاصة بعد فتح قناة السويس ، وكانت ترقب عن كثب من قاعدتها الحيوية الهامة فى عدن . ولهذا فقد صممت على تصفية هذا النفوذ المتزايد للمصريين حتى لا يشكل خطرا على المصالح البريطانية الحيوية فى هذه المناطق ، وفى طريق مواصلاتها الى الهند عبر البحر الأحمر . وقد أحس البريطانيون ـ كما يقول مارستن ـ بأن التهديد الحقيقى للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن حينذاك كان صادرا بالدرجة الأولى عن مصر . اذ ان البريطانيين منذ احتلالهم لعدن فى سنة ١٨٣٩ وحتى فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ لم يكونوا قد واجهوا بعد منافسا حقيقيا ومباشرا لهم فى منطقة البحر الأحمر . ذلك لأن المصالح الفرنسية كانت فى معظمها وحتى فتح قناة السويس غير رسمية فى مظهرها ، فضلا عن أنها لم تكن تستند الى قوة كبيرة فى ذلك الحين . (٢)

وقد أثار قلق البريطانيين زيادة تردد السفن الأجنبية على ميناء عدن فى أعقاب فتح قناة السويس ، وأثيرت تكهنات كثيرة حول نوايا الدول المختلفة وأهدافها الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر نتيجة لوصول بعض السفن

---

(١) على ابراهيم عبده (دكتور) : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ، ١٨٨٠ ـ ١٩٠٦ ص ٦٥ .

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 388.

الحربية الى ميناء عدن من بينها سفن فرنسية ونمساوية هولندية وبروسية وأسبانية ، فضلا عن السفن المصرية . ولهذا فقد أصدر « الميجور جنرال أدوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن تعليماته الى قبطان السفينة البريطانية « السند The Sind » لتراقب السفن الأجنبية العابرة فى خليج عدن وعند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر للتعرف على أهدافها وذلك فى مطلع عام ١٨٧٠ (١) . وقد اتخذ البريطانيون موقفا معاديا ازاء النشاط المصرى فى منطقة البحر الأحمر واعتبروه لا يقل خطورة عن النشاط الفرنسى المنافس لبريطانيا فى تلك المنطقة على النحو الذى سنوضحه فيما يلى :

النشاط المصرى على الساحل الغربى للبحر الأحمر عقب فتح قناة السويس وموقف البريطانيين فى عدن ازاءه (١٨٦٩ — ١٨٨٢) :

بلغ النشاط المصرى ذروته على الساحل الغربى للبحر الأحمر أثناء قيام المصريين بتنفيذ سياستهم الأفريقية فى أعقاب فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ . وقد أدى هذا النشاط الى اصطدام المصريين بالأحباش واشتعال نيران الحرب بينهما فى ذلك الحين . وكانت العلاقات بين مصر والحبشة متوترة منذ عهد محمد على ، حتى توالى على حكم الحبشة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نجاشيان طموحان أولهما « تيودور » (١٨٥٥ — ١٨٦٨) وثانيهما « يوحنا الرابع » (١٨٦٨ — ١٨٨٩) ، وقد اشتهرا بعدائهما لمصر ورغبتهما فى طرد المسلمين من الساحل الغربى للبحر الأحمر . وقد شجع الملك « يوحنا » الرءوس الأحباش الموالين له للهجوم على الحدود المصرية والاعتداء على السكان ونهب قراهم . وعندما كتب اليه الخديو اسماعيل يطلب منه اعادة الأموال والأمتعة المنهوبة وانزال العقاب الرادع بالمعتدين ، ولم يكترث « يوحنا » بالرد عليه ، فقد اضطرت الحكومة المصرية الى حشد أورطتين من الجنود على الحدود الفاصلة بين أملاك مصر والحبشة .

ونظرا لأن البريطانيين كانوا يرقبون الأحداث الدائرة فى منطقة البحر الأحمر من قاعدتهم فى عدن فقد انتقلت انباء هذه التحركات المصرية الى الأوساط الانجليزية ونوقشت فى مجلس العموم البريطانى ونشرتها الصحافة البريطانية مما أحدث دويا كبيرا لدى الرأى العام الانجليزى حينذاك . ويذكر استاذى الدكتور محمد محمود السروجى أن « المستر بيرد زلى » القنصل الأمريكى فى مصر حينذاك أرسل خطابا الى وزير خارجيته فى نهاية شهر أغسطس سنة ١٨٧٢ علل فيه سبب قيام تلك الضجة بأن انجلترا ترى فى التحركات المصرية على الحدود الحبشية خطرا يهدد سلامة الحبشة وأمنها فى ذلك الحين (٢) .

---

(١) I.O., L.A., Russell to Bombay 1/12/70.

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٤ — ٤٥ .

وكانت الحكومة المصرية — وهى فى سبيلها لتنفيذ سياستها الأفريقية — قد أدركت أهمية ربط ميناء مصوع على البحر الأحمر بالنيل فى تنشيط التجارة واقرار الأوضاع فى تلك البلاد ٠ غير أن الخط الموصل بين مصوع والنيل كان لابد له أن يمر باقليم بوغوص (أو سنهيت) الذى ادعت الحبشة ملكيتها له ، مما جعل مصر تتجه الى السيطرة عليه ٠

وقد ثارت الصحافة الأوربية بوجه عام والبريطانية على وجه الخصوص لهذا النبأ وصورت الأمر على أن مصر تعتزم السيطرة على الحبشة ٠ على أن مصر أعلنت ملكيتها لاقليم بوغوص منذ عهد محمد على مما جعلها تدافع عن حقها لدى الباب العالى وتطالبه بابلاغ ذلك لمندوبى الدول الأوربية ٠ وقد أعلن « يوحنا » أن اقليم بوغوص من ممتلكات الحبشة ، وكذلك بعض الموانى من بينها ميناء « زولا » الذى وضعت مصر يدها عليه ، كما أعلن تمسكه بهذا الميناء وحرصه على استرداده ٠ على أن مصر أوضحت رفضها لما أعلنه « يوحنا » واستشهدت بما سبق أن طلبته انجلترا من الحكومة العثمانية بالسماح لها بانزال جنودها بميناء « زولا » فى الحرب الانجليزية الحبشية ، مؤكدة أن الحكومة الانجليزية ما كانت تطلب هـذا الطلب لو لم تكن الدولة العثمانية تسيطر على تلك البلاد ٠

وفى النهاية رأت مصر ضرورة مواجهة تحدى « يوحنا » بالمثل فانذرته باقتحام جنودها لأراضى الحماسين المتصلة ببلاده اذا لم يحفظ حقـوق الدولة ويصون حقوق الأهالى ٠ ولهذا دعا الخديو اسماعيل « منزنجو باشا Munzinger » مدير عموم شرق السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر — وكان يشغل منصب قنصل دولتى انجلترا وفرنسا بمصوع قبل التحاقه بخدمة الحكومة المصرية فى شهر فبراير سنة ١٨٧٣ — للتشـاور معه فيما يجب اتخاذه من اجراءات ازاء مسلك الملك « يوحنا » ؛ وعما اذا كان من الممكن تفادى استخدام القوة ٠

غير أن بعض المحيطين بالملك « يوحنا » صـورا له تحرك بعض الجنـود المصريين لحماية حدودهم المتاخمة للحبشة على أنه تحرش يقصـد به القضاء على دولته ٠ وكان على رأس هؤلاء الضابط البريطانى « كركمان Kirkman » الذى سبق أن اشترك فى الحملة الانجليزية على الحبشة ودخل فى خدمة الملك « يوحنا » بعد انتهاء تلك الحرب ، بحيث أصبح مستشارا له وسفيرا من قبله لدى الدول الاوربية لشرح شكواه من التحركات المصرية على حدود بلاده ٠ وقد صرح « كركمان » لقنصل انجلترا بمصر « ستانتون » أثناء مروره بالاسكندرية فى طريقه الى لندن بأن الملك « يوحنا » يعتبر احتلال مصر لاقليم بوغوص غزوا للحبشة ، وبأنه مقتنع بأن الدول الأوربية سوف تسـانده فى صد هـذا العدوان ، (١) وكان يقصد بذلك بريطانيا على وجه الخصوص ٠

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسـع عشر ، ص ٤٧ — ٥٠ ٠

على أن الفرنسيين كان لهم دور هام فى تحريض « يوحنا » على محاربة المصريين حينذاك ، اذ أخذ القساوسة الفرنسيين الكاثوليك باقليم بوغوص يحرضون « يوحنا » على العدوان وعلى رأسهم القس « دفلو » الذى وعده بمساعدةفرنسا له اذا ما سمح لهم بمزاولة عملهم التبشيرى واقامة الكنائس داخل الأراضى الحبشية • بل ان نائب القنصل الفرنسى فى مصرع « المسيو سارزاك Sarzac » كان من المحرضين أيضا على العدوان ، فقد سعى لدى «يوحنا» لكى يقنعه بضرورة الاستعداد للحرب ، مبينا أن الحكومة البريطانية لن تسمح لمصر بمهاجمته •

أما عن موقف البريطانيين من النزاع المصرى الحبشى فى ذلك الحين ، فقد بدا واضحا عندما أثار تعزيز مصر لقواتها الحربية على حدود الحبشة مخاوف الحكومة البريطانية ، مما جعلها ترسل مذكرة الى مصر تطلب تفسيرا لتلك التحركات لمعرفة أهدافها • وقد أجابت الحكومة المصرية على هذا التساؤل بالأدلة والبراهين مؤكدة أن ما تهدف اليه هو تدعيم الحاميات المصرية لمواجهة أى عدوان• على أن الحكومة البريطانية كانت تميل حينذاك الى مساندة الأحباش لاعتبارات دينية وذلك نظرا لأنها تتبع سياسة خاصة فى العطف على الشعوب المسيحية • كما أنها أرادت أن تقدم يد العون « ليوحنا » الذى سبق أن ساعدها فى حربها ضد « تيودر » أثناء حملتها على الحبشة • هذا فضلا عن رغبة بريطانيا فى أبعاد النفوذ المصرى عن قاعدتها فى عدن والعمل على تصفيته فى منطقة البحر الأحمر •

على أن مصر واصلت تنفيذ سياستها الأفريقية عندما استغلت فرصة انشغال الملك « يوحنا » فى قتال مع قبائل « الجالا » فى سنة ١٨٧٤ ووجهت حملة يقودها « منزنجر » تمكنت من احتلال اقليم بوغوص تنفيذا لمشروع ربط ميناء مصوع بخط حديدى مع « كلا » على النيل • كما اشترى « منزنجر » مقاطعة « آيليت Ailet » الواقعة بين الحماسين ومصوع ، مما أثار ثائرة « يوحنا » ودفعه الى مهاجمة « المصريين » •

ويلاحظ أنه على الرغم من تقبل مصر الدخول فى مفاوضات مع « يوحنا » لفض النزاع بالطرق الودية ، حتى أنها أرسلت الأميرالاى يوسف مسرور لهذا الغرض ، فان الضابط البريطانى « كركمان » عمل على احباط وصول الطرفين الى اتفاق سلمى على أمل أن تناصر الدول الأوربية « يوحنا » اذا ما طلب اليها ذلك • وحتى عندما مال « يوحنا » الى عقد صلح مع المصريين فانه تراجع عن ذلك نتيجة للأنباء التى بعث بها « كركمان » من أوربا بتوقع تأييد الدول الأوربية له فى نزاعهمع مصر مما أدى الى فشل المفاوضات وشن الغارات على الحدود المصرية من جديد • وهكذا لعب البريطانيون دورا خطيرا فى افساد العلاقات بين المصريين والأحباش حينذاك •

على أن امتلاك المصريين لميناءى زيلع وبربرة فضلا عن احتلالهم لاقليم بوغوص

قد أدى الى شعور الأحباش بأن المصريين قد أحاطوا احاطة تكاد تكون تامة بالحبشة مما أدى الى قيام الحرب المصرية الحبشية · كما أدى ذلك أيضا الى اثارة اهتمام البريطانيين الى خطورة التوسع المصرى على المصالح البريطانية فى البحر الأحمر وخليج عدن ، بل وعلى الساحل الشرقى لأفريقيا · وقد بدأ ذلك من خلال ما كتبه الضابط البريطانى « وود Wood » الى « السير هنرى اليوت » سفير انجلترا بالآستانة فى اليوم السادس من أغسطس سنة ١٨٧٥ وجاء فيه : « ان التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربره يجعلان ساحل البحر الأحمر الغربى كله فى قبضة مصر » · (١) وهذا يؤكد قلق البريطانيين ازاء النشاط المصرى المتزايد للسيطرة على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ·

بل ان استاذى الدكتور محمد محمود السروجى يؤكد أهمية سيطرة مصر على ميناء زيلع حينذاك عندما يوضح أن هذا الحادث قد أثار انتباه القنصل الأمريكى فى مصر مما دفعه الى ارسال تقرير الى وزارة الخارجية الأمريكية حول هذا الموضوع فى ١٧ يوليو سنة ١٨٧٥ أشار فيه الى أهمية زيلع التى تعادل أهمية عدن بقوله : « تعتبر زيلع آخر موطىء لقدم الدولة العثمانية فى أفريقيا ، وأن امتلاك مصر لهذا الميناء له أهمية كبرى بالنسبة لها من الناحيتين السياسية والتجارية ، اذ سيصبح ساحل أفريقيا المطل على البحر الأحمر كله تحت السيطرة المصرية · وزيلع تقع تجاه عدن تقريبا وتعادلها فى الأهمية وتعتبر الميناء الوحيد فى هذه المنطقة من الساحل ، وتقوم بتبادل السلع والمتاجر مع الموانى العربية ، كما أنها تعتبر مخرجا للأقاليم الواسعة فى الداخل » · (٢)

ولا شك أن البريطانيين ــ كما سبق أن أوضحت ــ كانوا خلف الفشل الذى منيت به الحملات التى وجهتها مصر الى الحبشة فى عهد الخديو اسماعيل والتى لا أجد ضرورة لعرض تفاصيلها واكتفى بالاشارة هنا الى نتائجها الخطيرة · على أن أبرز هذه النتائج ذلك العبء الكبير الذى وقع على كاهل الميزانية المصرية فى وقت لم تكن حالة البلاد الاقتصادية تسمح بتحمله · وكان السبب فيه يرجع الى تهور الضباط الأجانب الذين وكل اليهم الخديو اسماعيل رعاية مصالح مصر على حدودها الجنوبية ، ومن بينهم بعض الضباط البريطانيين · وقد أدت الأزمة المالية الى قيام الخديو اسماعيل ببيع حصة مصر من أسهم قناة السويس الى الحكومة البريطانية بثمن بخس فى ١٨٧٥ · كما فتح ذلك للبريطانيين باب التدخل فى شئون مصر الداخلية والخارجية على السواء تحت شعار المحافظة على مصالحهم المشروعة · وبذلك أصبح لبريطانيا شبه وصاية على شئون مصر منذ

---

(١) محمد صبرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٩ ·

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واليوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ٣٧ · وقد استند الى الوثائق الامريكية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة :
Amer. Doc. Vol. 10, p. 145 Desp. No. 337, Hamelton Fish to R. Bordely, 17th July 1875.

ذلك الحين ، وســـاعدها على ذلك الارتباك المالى الذى كانت تعانى منه الخزانة المصرية ، فضلا عن ضعف مركز الخديو اسماعيل أمام الدائنين · وقد أدى هذا الموقف الضعيف الى تشجيع بريطانيا على التدخل لوضع حد للتوسع المصرى على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن وعلى الساحل الشرقى لأفريقيا حينذاك ·

بل ان فشل الحملات المصرية على الحبشة كان من أهم الأسباب غير المباشرة التى أدت الى اشعال نيران الثورتين العرابية فى مصر والمهدية فى السودان · اذ نتج عن هذا الفشل فى مصر شعور بالمرارة والسخط رغم محاولة اسماعيل اخفاء الهزيمة بشتى الوسائل المختلفة · كما كشفت هذه الحرب جهل العنصر الجركسى فى الجيش المصرى ، وفى اثبات ضعفه وتخاذله الى الحد الذى أفقده ما كان له من مكانة أيام محمد على وخلفه عباس ، مما شـــجع على قيام الثورة العرابية للتخلص من استبداد هذا العنصر الذى أثبتت الحرب الحبشية فشله التام ·

كما أدت سياسة العنف والقسوة فى القضـــاء على تجارة الرقيق التى أتبعتها مصر بناء على تحريض القادة الأوروبيين فى الجيش المصرى الى اغضاب تجار الرقيق وأتباعهم من ذوى السلطان والجاه فى السودان مما جعلهم يؤلبون الأهالى على الحكومة · وكان من الطبيعى أن يقوى عزيمتهم فشل الحملة الحبشية وضياع هيبة مصر العسكرية ، وقلة عدد القوات المصرية · وقد مهدت كل هذه العوامل مجتمعة السبيل أمام ظهور المهدى واستفحال خطره فى السودان فيما بعد مما كان له أبلغ الأثر على تصفية النفوذ المصرى هناك ·

بل ان توالى عمليات تخفيض عدد قوات الجيش المصرى نتيجة لتدخل الدول الأوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا فى شئون مصر ، اضطر الحكومة الخديوية الى محاولة ايجاد حل لمشكلة الحدود بينها وبين الحبشة بالطرق الودية · وهذا ما جعل الخديو اسماعيل يستغل فرصـــة الطلب الذى تقدم به « يوحنا » للدخول فى مفاوضات للوصول الى اتفاق بين الجانبين · وأخيرا تمكن الطرفان المصرى والحبشى من الوصول الى اتفاق « يضمن تنظيم التجارة بين البلدين ، واتصـــال البريد بينهما » · ولكن مما يقلل من شان هذا الاتفاق أنه لم يدون فى وثيقة رسمية تلزم الطرفين المتعاقدين على احترامه ، بل أنه تم فقط بصفة شفوية · وبمقتضى هـــذا الاتفاق أخـــذت القوات المصرية فى الانســـحاب التدريجى من الأراضى الحبشية ·

وقد انتهز الخديو اسماعيل فرصة نشوب الثورة فى الصرب ضد الدولة العثمانية ، وطلب الباب العالى معونة مصر الحربية ، فاستدعى قواته من الأراضى الحبشية · وبذلك انسحبت القوات المصرية الى مصوع فى شهر أغسطس ســـنة ١٨٧٦ ، ثم عادت الى مصر بعد وقت قصير ، حيث فرضت عليها رقابة شديدة

حتى لا يبوح رجالها بشيء من أخبار هزيمتها ، بعد أن مكثت فى الحبشة قرابة عشرة شهور امتدت من ديسمبر ١٨٧٥ حتى أغسطس ١٨٧٦ ٠

ومما يؤكد دور البريطانيين فى مساندة الأحباش ضد المصريين حينذاك ذلك الخطاب الشخصى الذى بعث به « يوحنا » بعد جلاء المصريين عن الحبشة فى سنة ١٨٧٦ الى الملكة « فيكتوريا » يعرب لها فيه عن شكره على ما أبدته نحوه من عطف وما حبته من عناية ، أثناء صراعه مع القوات الخديوية ٠ كما أبدى لها تخوفه من أن يعيد اسماعيل الكرة مرة ثانية للانتقام منه ٠ ولهـــذا فقد عبر « يوحنا » عن أمله فى أن تعمل جلالتها على فصل ممتلكاته عن الممتلكات المصرية ٠ ويرجع أنه كان يقصد بذلك ضمان بريطانيا لسلامة الأراضى الحبشية وتاييدها له فيما يدعى ملكيته من المنطقة المتنازع عليها ٠ (١)

وطوال الفترة الباقية من عهد الخديو اسماعيل حتى منتصف عام ١٨٧٩ ، ازداد تدخل الدول الأوربية فى شئون مصر ، وخاصة بريطانيا وفرنسا ، اللتان ازداد ضغطهما على الباب العالى حتى عزل الخديو اســـماعيل وولى مكانه ابنه توفيق ٠ ولهذا جاء توفيق الى الحكم بناء على تدخل بريطانيا وفرنســـا وتأييد ألمانيا لهما فى موقفهما حينذاك ، على أن توفيق لم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يضطلع بأمور الحكم فى مثل هذه الظروف الدولية التى تكالبت فيها بريطانيا وفرنسا على النفوذ والسلطة فى مصر والشرق الأدنى ، فضلا عن ظروف مصر السيئة التى شملت فيها الفوضى الادارة والجيش وكل مرافق البلاد ٠ حتى أنه قد بدا لتوفيق أن مصيره معلق أولا وقبل كل شيء بهوى الدول الأوربية الكبرى، مما جعله يسير وفق سياسة هذه الدول ويعمل على رضائها ٠ (٢) وهكذا أخذ توفيق يتلمس طريقه وسط التيارات المختلفة من وطنية وعثمانية وبريطانية وفرنسية فى ذلك الحين ٠

وجدير بالذكر أن ضعف الخديو توفيق وتخاذله قد امتد أثره الى ممتلكات مصر فى القارة الأفريقية والى علاقاتها بجيرانها فى منطقة البحر الأحمر وخصوصا علاقاتها بالحبشة التى كان لبريطانيا الرأى الأول فيها حينذاك ٠ ويبدو ذلك بوضوح عندما عاود « يوحنا » مهاجمته للحدود المصرية وأصر على ضرورة ضم ميناء مصوع واقليم بوغوص الى الحبشة ٠ وعلى الرغم من قيام الحكومتين البريطانية والفرنسية بتوجيه النصح « ليوحنا » بعدم التمسك بمصوع نظير تاييدهما له فى موقفه من اقليم بوغوص ، فقد اشتط « يوحنا » فى مطالبه ، وعزز موقفه بشن هجمات متكررة على الحدود المصرية مما حال دون الوصـــول الى اتفاق مع الخديو ٠

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ١٧٢ — ١٨٠ ٠

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ص ٨ ٠

وهنا اقترح « غوردون » على الحكومة المصرية كحل جزئى لهذا النزاع أن تمنح ايطاليا قطعة أرض بالقرب من مصوع ، حتى تواجه الحبشـــة بذلك عدوا جديدا تجد فيه ما يشغلها عن مناوأة مصر ، غير أن هذا الاقتراح كان يتفق مع سياسة الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت ، تلك السياسة القائمة على الاعتراف ببعض المصالح لايطاليا فى منطقة البحر الأحمر حتى لا يمتد اليها نفوذ فرنسا المنافس القوى حينذاك للمصالح البريطانية على النحـو الذى سنوضحه فيما بعد •

وقد انتهت حكمدارية « غوردون » للسودان دون أن يصل الى اتفـاق مع الحبشة بشأن الحدود • وقد حرصت مصر على أن تزود محمد رءوف باشا الذى خلف « غوردون » على حكمدارية السودان فى شهر مارس سنة ١٨٨٠ بتعليمات صريحة بما يجب أن تكون عليه العلاقة مع الحبشة • وكانت سياسة مصر تهدف الى المحافظة على حدودها الجنوبية مع الحبشة وذلك بالعمل على تقويتها ورد أى عدوان يقع عليها • ولم يكن ذلك يعنى تشجيع العدوان على الحبشة أو التطلع للاستيلاء على أراضيها فى ذلك الحين • خاصة وأن الأوضاع المالية والسياسية لم تكن تسمح لمصر بالقيام بمغامرات حربية جديدة فى بلاد الحبشة ، ولكنها فى نفس الوقت لم تكن تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين أمام اعتداءات الأحبـاش المتكررة ، مما جعلها تتصرف بحذر تام وفى حدود ما كانت تسمح به ظروفها الصعبة حينذاك •

على أنه قد بدا بوضوح أثناء الحرب المصرية الحبشية موقف البريطانيين المتعاطف مع الأحباش ضد المصريين • وكان هـــدف البريطانيين من وراء ذلك تصفية النفوذ المصرى فى منطقة البحر الأحمر والعمل على ابعاده عن قاعدتهم فى عدن • ولم يكتف البريطانيين بمساعدة « يوحنا » والوقوف الى جانبه ضد المصريين فى ذلك الحين ماديا ومعنويا ، بل أنهم حاولوا عن طريق الاقتراح المغرض الذى اقترحه الضابط البريطانى « غوردون » على الحكومة المصرية التى عينته حكمدارا للسودان بأن تمنح ايطاليا قطعة ارض بالقرب من مصوع كى تواجه الحبشة بذلك عدوا جديدا تجد فيه ما يشغلها عن مناوأة مصر ، بينما كان هدفهم الأصلى هو أن يتيحوا بذلك الفرصة لصنائعهم الايطاليين باحتلال مناطق جديدة على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، ليحولوا دون سيطرة منافسيهم الفرنسيين عليها ، تمهيدا لدخولها تحت السيطرة البريطانية فى الوقت المناسب •

النشاط المصرى فى خليج عدن وعلى سواحل الصومال وموقف البريطانيين فى عدن ازاءه (١٨٦٩ - ١٨٨٢) :

سبق أن أشرت الى أن مصر لم تكتف بالسيطرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر بأكمله وعلى ميناء زيلع بعد فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ، بل أنها تطلعت الى السيطرة على كل الساحل الأفريقى المطل على خليج عدن وعلى سواحل الصومال الواقعة على المحيط الهندى · وكانت مصر تهدف من وراء ذلك الى اعطاء هضبة البحيرات مخرجها الطبيعى الى الجنوب من بلاد الصومال ، واقامة سبل الاتصال بين هذه السواحل وداخل القارة الأفريقية بشكل يسمح لها بتوحيد البلاد الواقعة شمال شرق أفريقية فى كتلة واحدة لها شخصيتها الدولية المتميزة ، ويسهل اتصالها بالخارج عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى من ناحية الشرق ، كما يسهل اتصالها بأوربا عن طريق البحر المتوسط من ناحية الشمال ·

فبعد عام واحد من فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ أصدر الخديو اسماعيل أوامره الى محمد جمالى بك بقيادة الأسطول المصرى فى البحر الأحمر والتوجه الى شواطىء بلهار وبربره · وقد أدى ظهور الأسطول المصرى فى مياه الصومال الى انزعاج السلطات البريطانية فى عدن نظرا لأن الانجليز هناك كانوا يحصلون على تموينهم من اللحوم والمسلى والمواد الغذائية بوجه عام من بربره على الساحل الصومالى المواجه · وكانت الحركة والحياة فى بربره تنشط فقط فى الفترة الممتدة من شهر أكتوبر حتى نهاية شهر مارس من كل عام ، وبعد هذه الفترة تقفر بربره تماما من السكان الذين يرحلون الى الهضاب · ولهذا فان عدن كانت تعانى ضائقة شديدة كل عام فى الفترة من أوائل شهر ابريل حتى نهاية شهر سبتمبر حيث ترتفع الأسعار وتقل الأقوات ·

وجدير بالذكر أن الأحوال فى بربرة قد تغيرت تماما عندما امتدت اليها يد الادارة المصرية فيما بعد ، حيث جلب المصريون معهم الى بربرة العمران والتحضر والاستقرار · وقد أدى هذا بالتالى أجل الخدمات للبريطانيين فى عدن ، وان كانوا لم ينظروا بعين الارتياح للوجود المصرى فى هذه الجهات نظرا لأنهم كانوا يطمعون فى وضع أيديهم عليها (١) ، حفاظا على المصالح البريطانية فى منطقة البحر الاحمر ·

ولهذا فقد اقترح « الميجور جنرال ادوارد راسيل Major General Edward L. Russell » المقيم السياسى البريطانى فى عدن (١٨٦٧ - ١٨٧٠) على حكومة الهند البريطانية فى شهر يونيو سنة ١٨٦٩ (٢) ارسال أحد الوكلاء الانجليز

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ؛ ص ٢٠٤ ·

(٢) F.O. 78/3186, I.O. to F.O. 1/5/70 encl. Russell to Bombay 12/6/69 and 12/24/69 also in I.O., L.A. 1870.

أو الصوماليين الى بربرة (١) أثناء انعقادسوقها لمحاربة الدعاية المصرية حينذاك بل ان « راسيل » بادر بالفعل وقبل أن تصله تعليمات حكومة الهند بايفاد أحد الصوماليين ويدعى محمد في شهر ديسمبر سنة ١٨٦٩ على ظهر السفينة البريطانية « السند » لمحاربة دعايات المصريين في بربرة وبلهار . وقد أوضح « راسيل » لحكومته أن تموين عدن بالاغذية وخاصة اللحوم انما يعتمد بالدرجة الأولى على بربرة . غير أن اقتراحات « راسيل » هذه لم تلق أى ترحيب لدى حكومة الهند البريطانية من ناحية ، أو وزارة الخارجية البريطانية من ناحية أخرى في ذلك الحين ، نظرا لانهما لم تكونا قد اهتمتا بعد بالنتائج التى سيحدثها فتح قناة السويس على طريق البحر الاحمر ، كما انهما لم تقدرا بعد مدى خطورة سيطرة المصريين على هذا الطريق في حالة استيلائهم على سواحل الصومال .

وعندما ظهرت السفينة المصرية « الخرطوم » تقل محمد جمالى بك وهى متجهة الى بلهارة فقد تبعتها السفينة البريطانية « السند » الى هذا الميناء . على أن محمد محمود الذى أرسله البريطانيون من عدن أخذ يذيع بين الاهالى أن محمد جمال ليس مفوضا من قبل السلطان العثمانى ، وانه موفد من قبل اسماعيل باشا خديو مصر ، ولهذا فانه لا يحق عليهم طاعته . كما ذكر لهم بأن الانجليز على مقربة منهم في عدن وأنهم مستعدون لحمايتهم منه اذا ما طلبوا منهم ذلك

وقد قام « الميجور جنرال ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بالكتابة الى محمد جمالى فى شهر ابريل ١٨٧٠ يسأله عن سبب مجيئه الى تلك المنطقة ، وعما اذا لم يكن الدافع له فكرة الفتح والاستيلاء على املاك جديدة . (٢) على أن هذا التساؤل فى حد ذاته انما يدل على تشكك السلطات البريطانية فى عدن بالنسبة لحقوق مصر على أقاليم الصومال فى ذلك الحين . على أن محمد جمالى راى حينذاك أن يحارب مؤامرات البريطانيين ودسائسهم فى بلهار . ولهذا فقد أمر بانزال الجنود المصريين الى المدينة فى استعراض عظيم كان له وقع حسن على الاهالى الذين راحوا يتوافدون على القائد المصرى معلنين خضوعهم للحكومة المصرية . وقد أمضى محمد جمالى عشرة أيام فى بلهار توجه بعدها مع القوات المصرية الى بربرة (٣) .

وقد قدم قبطان السفينة البريطانية « السند » تقريرا لحكومة الهند البريطانية أوضح فيه أن بعض القوات المصرية يقودها محمد جمالى قد وصلت الى بربرة وأنها مسلحة بمدفعين كبيرين . وأوضح هذا التقرير أيضا أن محمد جمالى قد أبلغ القبائل فى بربرة انه جاء الى هناك لاقرار الأمور وفض المنازعات

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 391
(٢) Sabry, M. : L'Empire Egyptien sous Ismail, p. 392.
(٣) Douin, G. : op. cit., Tome 3, 2eme partie, p. 236.

القبلية فى تلك المنطقة ، كما انه أقام عرضا عسكريا كان له أعمق الأثر لدى الأهالى ، وهو ما سبق أن أشرت اليه ٠

ولما كان « الميجور جنرال ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن يخشى من أن المصريين سيكونون قادرين على اخضاع بربره وبلهار لحكومتهم، فقد طلب من حكومة الهند البريطانية أن ترسل له سفينة حربية الى عدن تكون تحت تصرفه لمواجهة هذا الموقف ٠ وفى الوقت نفسه أخذ «راسيل» يبحث فى « سجلات عدن The Aden Records » عمن تكون له حقوق السيادة على الساحل الصومالى المواجهة لعدن حينذاك (١) مما يؤكد أيضا تشكك السلطات البريطانية فى عدن بالنسبة لحقوق مصر على أقاليم الصومال ٠ بعد أن كشفت عن ذلك رسالة « راسيل » التى بعث بها الى جمالى بك يسأله عن سبب مجيئه الى الساحل الصومالى ٠

وبناء على هذه الرسالة بادر شريف باشا وزير الخارجية فى أول يونيو سنة ١٨٧٠ بارسال مذكرة الى « الكولونيل ستانتون » قنصل بريطانيا العام فى مصر ، أكد فيها السيادة المصرية على كل الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، وقال « ان الأراضى المذكورة ليست مستقلة ، بل أنها وكما كانت دائما أراضى عثمانية ، وهى ضمن البلاد التى تنازل الباب العالى للحكومة المصرية بمقتضى فرمان سلطانى نص فيه على تنازله عن قائمقاميتى مصوع وسواكن وملحقاتهما ٠ كما أن مصر لاتزال تدفع جزية سنوية مقابل ذلك ، فلا يسع الحكومة المصرية أن تترك الحقوق الثابتة لها على هذه البلاد » ٠ (٢) ٠

على أن « الميجور جنرال ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن قد طلب من حكومة الهند البريطانية ومن حكومة لندن اتخاذ الاجراءات العملية لمنع المصريين من مد نفوذهم الى ما وراء البحر الأحمر ٠ كما أنه طلب اليهما اتباع سياسة تقوم على جعل التدخل السياسى يتبع التجار البريطانيين اينما ذهبوا ، ليمهد لتجارتهم سبيل الاستقرار :

«Where British treders go, the political interference of the British government is to followù.

غير أن حكومتا الهند ولندن رفضتا حينذاك انتهاج هذه السياسة الخطيرة (٣) ٠ ومن المرجح أن يكون ذلك راجعا للأسباب التى سبق أن أوضحتها من قبل عندما رفضت حكومة الهند فى شهر يونيو سنة ١٨٦٩ ارسال أحد الوكلاء الانجليز أو الصوماليين الى بربرة ٠

---

(1) F.O. 78/3186, I.O. to F.O. 8/5/70 encl. Russell to Bombay. 2/25/70, also in I.O., L.A., 1870.

(٢) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسيادة على السودان ، ص ٤٩ ٠

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 390.

وجدير بالذكر أن « محمد محمود » الذى أرسله «راسيل» على ظهر السفينة « السند » الى ساحل الصومال فى شهر ديسمبر سنة ١٨٦٩ ليراقب تحركات المصريين فى بربرة وبلهار قد هاجمته احدى القبائل الصومالية فى ١٤ مارس سنة ١٨٧٠ وانتهى الأمر بمقتله · وفى نهاية هذا الشهر وصلت الى عدن السفينة البريطـــانية « تيــزر Teazer » واتجهت مباشرة الى ميناء بربرة الذى وصلته فى اليوم الرابع من ابريل سنة ١٨٧٠ حيث وجدت السفينة البريطانية «السند» والسفينة المصرية « الخرطوم » راسيتين فى الميناء · وقد لاحظ « الكابتن بلوفيلد Captain Blowfield » قائد السفينة « تيزر » أن العلم العثمانى كان يرفرف على ميناء بربرة وأن «محمد جمالى» كان يحث القبائل على التسليم للمصريين · كما لاحظ أيضا أن المصريين لم يحتلوا بربرة بعد العرض العسكرى الذى قاموا به هناك ، كما لم يعقدوا أى اتفاق بينهم وبين الصوماليين · غير أنه وجد من الأدلة ما يؤكد أن محمد محمود الذى أوفده « الميجور جنرال ادوارد راسيل » من عدن كان قد تعرض لهجوم احدى القبائل الصومالية بناء على تحريض من قبل المصريين وقد توقع أن المصريين سوف يرحلون عن الميناء بعد أن يضمنوا تبعيته لحكومتهم ، وبعد أن تتم تصفية وكالة البريطانيين هناك · (١)

وقد ذكر « الكابتن بلوفيلد » أن محمد جمالى قد أكد له أن المنطقة تعتبر جزءا من الممتلكات العثمانية ، وأنه ليست لديه أية صلاحيات لبيع أى جزء منها ، وأن واجبه يقتصر على حماية ورعاية المصالح المصرية هناك · وقد أكد « بلوفيلد » أن «محمد جمالى» ضاق ذرعا بالنزاع المستمر بين القبائل الصومالية وعبر له عن سعادته اذا ما رحل عن هذه البلاد ، (٢) غير أن الوثائق المصرية لم تشر الى ذلك ·

وقد كتب « الميجور جنرال ادوارد راسيل » الى محمد جمالى بك يسأله عما يقصده من وراء تحركاته فى منطقة البحر الأحمر بوجه عام ، وعلى الســـاحل الصومالى بوجه خاص · وعندما اجابه محمد جمالى بأن هذه المناطق تابعة لسيادة الباب العالى ، فقد طلب اليه « راســـيل » ان يتحفظ فى تصرفاته حتى تقرر الحكومات ما تراه فى هذا الشأن · (٣)

وقد بحثت وزارة الخارجية البريطانية موضوع السيادة على الســـاحل الصومالى حينذاك ووجدت أن السيادة العثمانية لم تستقر هناك ، على عكس ما حدث مع البريطانيين فى المنطقة المحيطة بعدن حيث عقدوا معاهدات مباشرة

---

(١) F.O. 78/3186, I.O. to F.O. 8/5/70 encl., Russel to Bombay 3/18/70.

(٢) F.O. 78/3186, I.O. to F.O. 8/5/70 encl. Russell to Bombay 4/8/70, also in I.O., L.A., 1870.

(٢) F.O. 78/3186, I.O. to F.O. 8/5/70 encl. Russell to Bombay 4/21/70.

مع شيوخ القبائل (١) ٠ وقد رأى « الكولونيل وليـــــام ميرويدر Colonel William Merewether » الذى كان يشغل منصبا هاما فى وزارة الهند البريطانية حينذاك أهمية بربرة بالنسبة لعدن ، وخاصة من الناحية التجارية التى كانت تنمو بصفة مستمرة رغم عدم استقرار الأمور هناك ٠ ولهذا فقد قام بارسال وكيل سياسى بريطانى الى ساحل الصومال ودعمه بسفينة حربية تتحرك من عدن لمساندته (٢) ٠

وعندما علم البريطانيون فى عدن فى شهر أغسطس ١٨٧٠ بتعيين أحمد ممتاز باشا محافظا لسواحل البحر الأحمر باسم « مدير عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر » من السويس وحتى رأس جورد فوى ، وأنه يقوم بجولة بحرية (٣) يتفقد أثناءها موانى تلك المنطقة بما فيها ميناءى بلهار وبربرة (٤) ، فقد طلب الميجور جنرال ادوارد راسيل» المقيم السياسى البريطانى فى عدن من حكومته من جديد الاسراع فى تعيين وكيل بريطانى فى بربرة لمواجهة النشاط المصرى المتزايد هناك ٠ ولكى يدعم « راسيل » مطلبه هذا فقد أرســل لحكومته تقريرا أوضح فيه نشاط الحركة التجارية بين عدن وبربرة من جهة وبين عدن وبلهار من جهة أخرى فى ذلك الحين ٠ (٥) وفيما يلى بيان حجم التجارة المتبادلة بين عدن وكل من بلهار وبربرة فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٧ و ١٨٧٠ على وجه الخصوص :

السنة	الواردات الى عدن من بلهار	الصادرات من عدن الى بلهار
١٨٦٨/٦٧	٢٥٢٨٣٦ روبية	٣٨٩٤٩٤ روبية
١٨٦٩/٦٨	٤٥٧٠٦٧ روبية	٣٢٠٥٣٧ روبية
١٨٧٠/٦٩	٣٠٦٤٠٦ روبية	٣٣٢٣٣٥ روبية

السنة	الواردات الى عدن من بربرة	الصادرات من عدن الى بربرة
١٨٦٨/٦٧	٣٨٦٣٨٧ روبية	٢٥٧٧٤٠ روبية
١٨٦٩/٦٨	٢٩٢٢٧٢ روبية	٢٣٨٤٠٥ روبية
١٨٧٠/٦٩	٢٠٨٦٢٧ روبية	٨٢٨١٨ روبية

ويوضح هذا البيان أن حجم التجارة المتبادلة بين عدن من جهة وكل من بلهار وبربرة من جهة أخرى كان كبيرا خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٧ و

---

(١) F.O. 78/3186, Memo on Soverignty by Hertslet, 7/18/70
(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 390
(٣) Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan 1863-1879, p. 249.
(٤) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر
(٥) I.O., L.A., Russell to Bombay 8/25/70.

١٨٧٠ (١) ، كما أن الصراع والتنافس الذى كان دائرا بين القبائل الصومالية فى بربرة قد جعل بلهار مركزا تجاريا أكثر أهمية فى ذلك الحين رغم افتقار مينائها من ناحية تقديم التسهيلات المختلفة ٠

على أن اهتمام المقيم السياسى البريطانى فى عدن بتعيين وكيل بريطانى فى بربرة فى أعقاب تعيين أحمد ممتاز باشا مديرا لعموم شرقى السودان ومحافظا لسواحل البحر الأحمر ، انما يرجع للنشاط الزائد الذى بذله ممتاز باشا هناك (٢)٠ وعندما عين الخديو اسماعيل «فرنرمنزنجر Werner Munzinger السويسرى الجنسية » مديرا لعموم شرقى السودان ومحافظا لسواحل البحر الأحمر » فى شهر فبراير سنة ١٨٧٣ (٣) فان العمل الرئيسى الذى كلف به هو قمع تجارة الرقيق فى تلك الجهات ، مما كان له أكبر الأثر فى تهدئة مخاوف البريطانيين فى عدن ، الذين كانوا يخشون من توسع المصريين على الساحل الأفريقى المواجه ٠ على أن « منزنجر باشا » كان قد عمل بعض الوقت محافظا لمصوع وسواكن وملحقاتها منذ مطلع شهر ابريل سنة ١٨٧٢ (٤) ٠ وكان قد أبدى النصح للحكومة الخديوية مطالبا بترتيب نقط عسكرية فى الجهات الساحلية حتى باب المندب التى تعتبر تابعة للحكومة العثمانية ، وذلك لتخليصها من حيل الدول الأجنبية التى ابتدأت أيديها تمتد الى هذه الجهات وخاصة ايطاليا ٠ ويؤكد ذلك أن مخاوف الانجليز فى عدن حتى لو هدأت مؤقتا فانها لم تكن لتنتهى تماما ٠

وعندما تمكنت الحكومة الخديوية من ضم ميناء زيلع الى مصر فى ١٨ يوليو سنة ١٨٧٥ (٥) ، فان الخديو اسماعيل كان يخشى من قيام البريطانيين فى عدن بعرقلة جهود المصريين على الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠ ولهذا فقد أصدر أمرا الى رؤوف باشا محافظ زيلع وملحقاتها فى نهاية شهر أغسطس سنة ١٨٧٥ (٢٣ جمادى الثانية سنة ١٢٩٢ هـ) جاء فيه :

« حيث أن لمحافظة عدن بعض الأخذ والعطاء مع جهات زيلع ، وحيث أن الجناب العالى يرغب فى تسهيل أمور الدولة الانجليزية ــ فلا تقصروا فى تسهيل أمور محافظة عدن فى تلك الجهة ــ وساعدوها دائما » ٠

وبمناسبة تردد انجليز محافظة عدن على جهات زيلع على نحو ما مر بيانه اذا رءوا ذلك العدد من الجند ، وشاهدوا الاستعدادات القائمة هناك

---

(١) Marston, T.E. : op. cit., p. 391

(٢) Douin, G : op. cit., tome 3, 2éme partie, p. 250.

(٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ص ١٣٨ ٠

(٤) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : نفس المصدر ، ص ١٢٩ ٠

(٥) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : نفس المصدر ، ص ٢٣٥ ٠

وسألوكم لماذا هذه الاستعدادات والى أين أنتم ذاهبون فان الجناب الخديوى يأمر بأن تقولوا لهم :

« اننا نقصد كشف منابع نهر ستيت وسنسير من هنا لتمهيد الطريق وتنظيم خرائطها ومعنا ضباط أركان حرب ومهندسون — وسيأتى من (غندوكرو) حضرة غوردون باشا مأمور خط الاستواء وقد عهد الى (أى الى رؤوف باشا) بمحافظات جهات زيلع — والقيام من هنا لايجاد منبع النهر المذكور ، وستأتى من بعدى بعثة علمية أيضا » .

« وبعد الاستيلاء على هرر اذا سألوكم (أى الانجليز) لماذا استوليتم عليها ؟ فان جنابه العالى يأمر أيضا أن تقولوا لهم : لأن الأهالى قدموا عريضة التمسوا فيها أن يتبعوا الحكومة فاستولت الحكومة عليها — وجعلتها مركزا لأعمال الكشف عن منبع النهر الآنف الذكر — وقد كفلنا الراحة والأمن للأهلين وهم ممتنون للغاية » .

كما أن جنابه العالى يأمر بأن تتركوا التعليمات اللازمة فى هذا الصدد الى رضوان باشا حتى اذا ما سرتم الى داخلية البلاد وسألوه مثل هذه الأسئلة أجاب على نحو ما تقدم » (١) .

ومن الواضح أن تلك الأوامر التى أصدرتها الحكومة الخديوية انما تظهر مدى حرصها على عدم الاصطدام بالبريطانيين فى عدن ، وتسهيل تزويدهم بالمواد الغذائية اللازمة لهم والتى كانوا يحصلون عليها من الساحل الصومالى ، حتى لا يقوموا بعرقلة جهود المصريين ، خاصة وانهم كانوا يرقبون الأحداث عن كثب من قاعدتهم فى عدن حينذاك ويتتبعون بكل حرص تحركات المصريين هناك .

وعند ما استنجد أهالى سلطنة هرر بالخديو اسماعيل لتخليصهم من استبداد سلطانهم محمد بن عبد الشكور وظلمه ، وسألوه أن يضم بلادهم الى الخديوية المصرية وأن يرسل من قبله واليا يحل محل «سلطانهم الطاغية»(٢) ، فقد انتهز اسماعيل هذه الفرصة وأرسل فى شهر سبتمبر سنة ١٨٧٥ محمد رءوف باشا على رأس حملة لفتح هذه السلطنة . وقد زحف رءوف باشا من زيلع غربا ، واستطاع أن يتغلب على قبائل الجالا وأن يصل الى سلطنة هرر بعد أقل من شهر . وفى اليوم الحادى عشر من أكتوبر سنة ١٨٧٥ دخل رءوف باشا

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ، ص ٢٣٩ .

(٢) Budge W. : History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. 2 p. 522.

هرر العاصمة ظافرا (١) ، ورفع الراية المصرية عليها (٢) • وبينما كان محمد رءوف باشا منهمكا فى اخضاع اقليم هرر للحكم المصرى ، فان الحكومة الخديوية كانت تعمل من ناحية أخرى لبسط حقوق السيادة المصرية على طول الساحل الافريقى الشرقى من رأس جوردفوى حتى مصب نهر جوبا (٣) •

على أن الخديو اسماعيل كان قد أوفد «السير صامويل بيكر Sir Samuel Baker» فى سنة ١٨٦٩ على رأس حملة الى أعالى النيل لاخضاع الأقاليم الواقعة جنوب « غندوكرو » لسلطان الحكومة المصرية ، ويقضى على تجارة الرقيق ويستبدل بها تجارة مشروعة ، ويعمل على فتح الملاحة فى النهر من « غندوكرو » الى البحيرات الاستوائية • وقد استغرقت مهمة « بيكر » الفترة الممتدة بين عامى ١٨٦٩ و ١٨٧٣ ولكنها لم تحقق أغراضها • ويرجع السبب فى ذلك الى أن « بيكر » اعتبر مهمته عسكرية فحسب ، فدخل فى حروب مع الأهالى الذين نفروا من المصريين ، مما جعل الخديو فى النهاية يستغنى عن خدماته • وقد بعث « ستانتون » قنصل بريطانيا العام فى مصر تقريرا لحكومته عن تكليف « بيكر » بتلك المهمة فى شهر ابريل سنة ١٨٦٩ (٤) • وكان اعتماد الخديو اسماعيل على بعض الضباط الأوروبيين بوجه عام والبريطانيين على وجه الخصوص فى تنفيذ سياسته الافريقية ، من العوامل التى أدت فى النهاية الى فشل هذه السياسة ــ كما سبق أن أوضحت •• اذ كانت تصرفات هؤلاء تنطوى على تنفيذ سياسة دولهم الاستعمارية على حساب المصالح المصرية • كما نفر الأهالى من هؤلاء القادة الذين اختلفوا فى دينهم وتصرفاتهم عما كان يتوقعه هؤلاء من القيادات المصرية المسلمة فى ذلك الحين •

ومما يؤكد تواطؤ « بيكر » مع الأهداف الاستعمارية البريطانية حينذاك ما كتبه عضو فى الوزارة البريطانية الى « بيكر » عقب عودته الى لندن فى أواخر عام ١٨٧٣ ، اذ جاء فيه أنه « مهما كان من أمر تجارة الرقيق فان حملتك لا بد أن تكون قد أدت الى بسط النفوذ البريطانى فى مصر» • ثم يتساءل هذا العضو قائلا : «كم سننتظر من الوقت حتى يكون لنا سفن تجارية تحمل العلم الانجليزى فى البحيرات ، ويكون لها خط مواصلات منتظم يصل البحيرات بالقاهرة ؟ اننى لا أعرف فى الوقت الحالى فى العالم شيئا يعدل فى عظمته التقدم المطرد السريع

---

(١) F.O. 78/3189, I.O. to F.O. 2/24/67 encl. Aden to I.O. 1/14/76, and 1/20/76.

(٢) محمد المعتصم سيد (دكتور) : الفتح المصرى لهرر ، رسالة دكتوراه قدمت لكلية الاداب بجامعة الاسكندرية ، وتناولت دراسة هذا الموضوع باستفاضة •

(٣) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : انتشار النفوذ البريطانى فى شرق افريقيا ووسطها ، ص ١١٤ •

(٤) F.O. 78/2092, Stanton to F.O., 4/2/69.

الذى يصحب تغلغلنا فى قلب افريقية ، ومن الثابت الذى لا ريب فيه أن الطريق يمر معظمه فى الأراضى المصرية » (١) ٠

بل ان « بيكر » نفسه كتب بعد ذلك بأربعة أعوام فى سنة ١٨٧٨ يقول :

« لا يسعنى الا أن انظر مغتبطا الى التغييرات التى حدثت فى مصر ، والى اضطراد ازدياد النفوذ الانجليزى فيها منذ سنة ١٨٦٩ ، اذ وظف الخديو لأول مرة انجليزيا ومنحه السلطات المطلقة للقضاء على تجارة النخاسة فى افريقية الوسطى ، وكان ذلك الاجراء بمثابة الحجر الأول فى أساس الاصطلاحات التى تمت بعد ذلك ٠ فما كادت مهمتى تنتهى فى سنة ١٨٧٣ حتى عين غوردون خلفا لى فسار على النهج وقد ساعدت محاربة تجارة الرقيق على فتح الباب للتدخل الانجليزى ، فأصبح ملكولم باشا فى خدمة الحكومة المصرية للقضاء على هذه التجارة فى البحر الأحمر ، وأصبح ماكيلوب أيضا باشا ، وبذلك أسبغت سلطات واسعة على أربعة من كبار الانجليز ٠ والواقع أن بلدا مهاجما — كانجلترا فى كل عصورها — ليس فى مقدوره أن يقف كما يشاء فى زمان أو مكان يرتضيه ٠ نحن مدفوعون الى الأمام ومضطرون بقوة الظروف الى مد حدودنا ، ولو لم يتفق ذلك مع رغباتنا » (٢) ٠

وكان الخديو اسماعيل قد استخدم فى مطلع عام ١٨٧٤ الضابط البريطانى « تشارلز جورج غوردون Charles George Gordon » (٣) وأصدر اليه تعليمات بوجوب القضاء على تجارة الرقيق وفتح النهر جنوبى غندوكرو للملاحة والوصول الى البحيرات الاستوائية ، وادخال التجارة المشروعة فى هذه المناطق (٤) ٠ ومنذ أن وصل « غوردون » فى شهر ابريل سنة ١٨٧٤ الى مقر مأموريته فى غندوكرو ، فانه طفق يعمل على تنفيذ تعليمات الخديو ، ولكنه مالبث أن ادرك أن صعوبة المواصلات وبطئها بين مأموريته والخرطوم تشكل عقبة كأداء فى سبيل تحقيق هذه التعليمات على الوجه الأكمل (٥) ٠

وقد أعلن فى الاسكندرية حينذاك أن « غوردون » قد ضم المنطقة المحيطة ببحيرتى « البرت » و « فيكتوريا » ونهر « سومرست Somerset »

---

(١) على ابراهيم عبده (دكتور) : المصدر السابق ؛ ص ٧٠ — ٧٢ ٠

(٢) محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، ص ٥٦ ، ٥٧ ٠

(٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ، ص ١٣ ٠

(٤) Shukry, M.F. : Equatoria under Egyptian Rule, pp. 138, 140.

(٥) Langer W. : The Diplomacy of Imperialism, pp. 102, 103.

فى وسط أفريقيا (١) . وكان ذلك أكثر ما يمكن أن تقوم به حملة استكشافية فى تلك المناطق (٢) .

وقد رأى « غوردون » أن طريق المحيط الهندى يعتبر أقصر وأسرع من طريق النيل للوصـــول الى منابع النهر . فكتب الى الخـديو اسـماعيل فى ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ موضحا العقبات التى صادفتها ادارته فى « اللادو » التى اتخذها عاصمة له ، بسبب صعوبة المواصلات بينها وبين الخرطوم . وذكر أن السدود التى تغطى بحر الجبل تجعل الملاحة فى النهر مستحيلة تقريبا ، والمح الى أن هذه العقبات المشابهة تتسبب فى انعزال مديرية خط الاستواء تماما عن الشمال . واقترح فتح طريق من خليج مصبه الى اقليم البحيرات .

وذكر « غوردون » أيضا فى رسالته للخديو اسماعيل بأن احتلال خليج ميسه « سوف يضع أقطار افريقية الوسطى الغنية تحت أقدام مصر . » (٣) . وقد رأى « غوردون » أن تنفيذ هذا المشروع من جانب مصر لن يلقى أية معارضة أو مقاومة من قبل الحكومة البريطانية ، بل على العكس لا بد أن تتوقع الحكومة المصرية « مساعدة مادية » فى تنفيذه من جانب الاسطول البريطانى . كما اعتبر « غوردون » تنفيذ هذا المشروع « الوسيلة الوحيدة لفتح أقطار افريقية الوسطى للتجارة المشروعة والقضاء على الرق والنخاسة فيها » (٤) .

وقد استجاب الخـديو اسـماعيل لاقتراح « غوردون » ، على اعتبار أن حقـــوق السيادة المصرية لا تقف عنـــد رأس جوردفوى أو رأس حافون فى الجنوب ، بل تشمل كل ساحل الصومال الشرقى حتى مصب نهر الجب . كما رأى الخديو أن لحكومته الحق فى تأسيس ما تراه من محطات لتأييد سـلطانها على هذا الساحل ، ولمكافحة تجارةالرقيق فى الداخل (٥) . ولهذا أرسل الخديو حملة بحـرية من السويس ، بقيادة الضـابط الاسكتلندى « ماكيلوب باشـا Mckillop » الذى كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية كرئيس لمصلحة المنارات . وقد اشترك فى هذه الحملة « شاييه لونج Chaillé-Long » الأمريكى ، ورضوان باشـا حاكم بربرة ، ومحمد جمالى باشـا ، وعبد الرازق نظمى ، وحسن واصف ، وحسين فهمى ، والسيد عاكف ، وفرحات منيب من

---

(١) F.O. 78/2502, Stanton to F.O. 6/6/76.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 491

(٣) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : انتشار النفوذ البريطانى فى شرق افريقيا ووسطها ، ص ١١٥ .

(٤) Shukry, M.F. : op. cit., pp. 211-213.

(٥) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والســودان ، تاريخ وحدة وادى النيـل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ص ١٤١ .

الضباط المصريين (١) • وكان « شاييه لونج » متغيبا فى أوربا باجازة مرضية عنـد اقلاع السـفينتين « محمد على » و « لطيف » بقيـادة « ماكيلوب » فى أغسطس سنة ١٨٧٥ من السويس (٢) • وعند عودة « شاييه لونج » الى مصر فقد صـــدرت اليه الأوامر باللحاق بالحملة المصرية مع السفينتين « طنطا » و « دسوق » ، وتسليم « ماكيلوب » تعليمات الخديو لتنفيذها •

وبعد وصول « ماكيلوب » الى بربره اتجهت السفن المصرية صوب رأس حافون فوصلته فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٧٥ • وقد اجتمع « ماكيلوب » برؤساء القبائل ودعاهم للدخول فى طاعة الخديو ، وأعطاهم بيرقين وضعا فى الرأس الشرقية البحرية من رأس حافون • وقبل شيخ حافون المدعو عثمان محمود نظير تقاضيه عشرين ريالا نمساويا (ماريا تريزا) وأحد القفاطين أن « يتنازل كتابه عن لقبه وكل حقوقه فى البلاد المحيطة برأس حافون ومن ضمنها براوة » (٣) • ثم قامت الحملة باحتلال « قسمايو » بعد أن طردت الحامية التى كانت بها من قبل « السيد برغش » والتى كانت تبلغ حوالى مائة جندى زنجبارى (٤) • وباحتلال قسمايو ، التى أطلق عليها « بورت اسماعيل » حققت الحملة المهمة التى أرسلت من أجلها الى ساحل الصومال (٥) •

بل ان الخـديو اسماعيل أرســل بعد ذلك الســفينة المصرية « المحلة » يقودها « فردريكو Fredrico » الايطالى فى شهر نوفمبر سنة ١٨٧٥ مع تعزيزات من الجنود الى قسمايو • كما قام « فردريكو » بابلاغ « ماكيلوب » تعليمات الخديو بالتجول فى الساحل الافريقى من فرموزا الى بربره لدراسة موانى وخلجان هذا الجزء من الساحل ، وابلاغ الحكومة المصرية عن اصلحها لرسو السفن ، ومعرفة الأماكن التى يمكن اقامة فنارات فيها لارشاد السفن المختلفة (٦) •

وهنا يبدو موقف البريطانيين واضحا فى عدم ترحيبهم بالنشاط المصرى المتزايد على الساحل الصومالى المواجه لعدن جنوبى مضيق باب المندب وحرصهم على وضع حد نهائى له • فقد حدث فى ٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥ أن أبرق حسن على بك الوكيل المصرى فى عدن الى الخديو اسماعيل يبلغه بوصــول ســفينة بخارية من زنجبار تحمل رسائل وبرقيات من « ماكيلوب » ، كما تحمل برقيات

---

(١) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ — ٣٢٧ •

(٢) Budge, W. : op. cit., Vol. 2, pp. 233, 234.

(٣) Chaillé— Long : op. cit., Vol. 1, p. 177.

(٤) Copland, R. : Exploitation of East Africa, pp. 276-280.

(٥) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : انتشار النفوذ البريطانى فى شرق افريقيـا ووسطها ، ص ١١٨ •

(٦) Shukry, M.F. : op. cit., pp. 449, 450.

أخرى من سلطان زنجبار والقنصل البريطانى العام هناك لارسالها الى لندن عن طريق عدن • وأبلغ الوكيل المصرى الخديو أيضا بأن السفن المصرية دخلت مياه زنجبار الاقليمية ورست عند مصب نهر الجب (١) • ومما لا شك فيه أن الخديو اسماعيل قد فهم من برقية وكيله فى عدن ان السلطات البريطانية فى زنجبار لم ترحب بقدوم الحملة المصرية الى ساحل الصومال ، وانها بادرت بالكتابة الى لندن عن طريق عدن لتحريض وزارة الخارجية البريطانية لمواجهة المشروع المصرى والتصدى لاحباطه •

ومن ناحية أخرى فان « ستانتون » القنصل البريطانى فى مصر قد سارع الى ابلاغ « لورد دربى » وزير الخارجية البريطانية فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ بتوقعاته واستنتاجاته عن تحركات المصريين فى خليج عدن جنوبى البحر الأحمر وعلى سواحل الصومال • فقد ذكر لوزير خارجيته أن الخديو قد أحاطه علما فى محادثة جرت مؤخرا بينهما انه ينوى ارسال جماعتين (أو حملتين) كشفيتين من هرر ، على أن تتجه احداهما جنوب الحبشة صوب منابع النيل الأزرق ، ثم تسير فى هذا النهر حتى فازوغلى ، وتتجه الجماعة الثانية الى منابع نهر الجب ، وتتبع مجرى هذا النهر حتى المحيط الهندى • وأضاف « ستانتون » قائلا « واننى أستنتج من الاتجاه الذى تنوى هذه الجماعة الثانية أن تتبعه — ومن حقيقة أن صاحب السمو قد أرسل من قبل ماكيلوب باشا فى رحلة بحرية الى فرموزا ومصب نهر الجب — أن الخديو يقصد اذا أمكن الاستيلاء على كل البلاد من ساحل الصومال الى الجب ، جاعلا هذا النهر حدود أراضيه فى هذا الاتجاه » (٢) •

على أن « جون كيرك John Kirk » قنصل بريطانيا العام فى زنجبار قد سارع هو الآخر بارسال خطاب الى « دربى » وزير الخارجية البريطانية فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ أيضا ، أوضح فيه نشاط الحملة المصرية منذ مغادرتها خليج عدن حتى وصولها الى ميناء قسمايو • وذكر « كيرك » فى خطابه انه منع السيد « برغش » على الاحتجاج على الاحتلال المصرى لأراضيه بالقوة • وحذر « كيرك » « لورد دربى » من السماح ببقاء الاحتلال المصرى لأى جزء من ساحل الصومال ، مدعيا أن ذلك سيؤدى الى انتشار حالة من الفوضى والاضطراب فى هذه المنطقة من شرق افريقية ، وسيقضى على المحاولات البريطانية الرامية الى تنشيط التجارة ومكافحة الرق والنخاسة فيها • ودعا « كيرك » وزارة الخارجية البريطانية الى اتخاذ خطوات فعالة لحماية المصالح البريطانية الهندية فى هذه البلاد (٣) •

---

(١) Shukry, M.F. : Ibid., 87.

(٢) F.O. 195/1063 ; 78/3188, Confidential. Stanton to Derby, 11 November 1875.

(٣) F.O. 84/14/17 ; kirk to Derby, 11 November 1875.

على أن جهود « كيرك » لاجلاء المصريين عن الساحل الصومالى لم تقف عند هذا الحد ، بل انه حاول أيضا أن يستعين بالسلطات البريطانية فى الهند لشد أزره فى مطالبته وزارة الخارجية البريطانية بالتدخل لابعاد المصريين عن ساحل الصومال • فكتب مذكرة فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ الى حكومة الهند يقول ان التجار الهنود الذين يشتغلون بالتجارة فى القسم الشمالى من ممتلكات زنجبار سلموه عند مغادرته ساحل الصومال مذكرة أشاروا فيها الى أن الاحتلال المصرى لبراوة وقسمايو قد هدد مصالحهم تهديدا خطيرا ، وأن خسائرهم ستتضاعف فى الحقيقة اذا سمح للمصريين بالقيام بالمزيد من عمليات الاستيلاء غير الشرعية على ممتلكات سلطان زنجبار فى بلاد الصومال (١) •

بل أن « كيرك » ذكر أيضا لحكومة الهند انه « على الرغم من ان براوة وقسمايو ليستا على درجة كبيرة نسبيا من الأهمية التجارية فى الوقت الحاضر ، الا أن خسارة الرعايا البريطانيين ستكون جسيمة اذا وصلت الأماكن التى تقع بين المنطقة التى يحتلها المصريون الآن على نهر الجب وبين الجهات التى ضموها مؤخرا اليهم فى الصومال الشمالى • لأنه من الواضح أن أول نتيجة من نتائج الحكم المصرى لهذه الأقاليم ستكون تدمير الحركة التجارية القائمة وبالتالى اتباع نظام الاحتكارات فى حمى الراية المصرية ، ذلك النظام الذى سيحرم رعايانا فى آخره من الاشتغال بالتجارة • «كما سيصيب نفوذنا ومصالحنا (أى النفوذ والمصالح البريطانية) فى كل ساحل افريقية بضربة قاتلة » • (٢)

واذا كان « جون كيرك » القنصل البريطانى فى زنجبار قد قام بكل هذه الجهود لابعاد المصريين عن الساحل الصومالى حفاظا على المصالح البريطانية فى المحيط الهندى وخليج عدن والبحر الأحمر على السواء ، فان الصحافة البريطانية قد ساهمت أيضا فى اثارة الرأى العام على الاحتلال المصرى لساحل الصومال • اذ نشرت صحيفة « البول مول جازيت Pall Mall Gazette » فى عددها الصادر فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٥ برقية سلطان زنجبار الى وزارة الخارجية البريطانية ، التى يحتج فيها بشدة على « اعتداء » المصريين على ممتلكاته • كما نشرت أيضا صحيفة « التيمز Times » البريطانية مقالا للمستشرق « بادجر » فى أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ طالب فيه الدول الأوربية وفى مقدمتها بريطانيا بالتدخل لوقف امتداد النفوذ المصرى فى هذه الأرجاء من الساحل الشرقى لافريقية •

وهنا لم تلبث وزارة الخارجية البريطانية أن استجابت لمطالب « جون

---

(١) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : انتشار النفوذ البريطانى فى شرق افريقية ووسطها ، ص ١٢٤ •

(٢) F.O. 84/14/17. Kirk to Aitchison, 10 December 1875.

كيرك » وللرأى العام البريطانى حينذاك . فارسلت فى اليوم الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ الى قنصلها العام فى القاهرة تعليمات بالاحتجاج على ارسال حملة « ماكيلوب » الى ساحل الصومال ، ومطالبة الخديو بسحب هذه الحملة فى أسرع وقت ممكن (١) . وبعد ذلك بيومين أبرق « دربى » على أثر تسلمه برقية من « ستانتون » فى نفس اليوم (٢) الى « كيرك » يقول « لقد تلقيت تأكيدات من الخديو عن طريق الجنرال ستانتون بأن القوات المصرية ستنسحب فى الحال كما ترغب حكومة صاحبة الجلالة الملكة » (٣) .

وتنفيذا لهذه التأكيدات ، فقد قام الخديو اسماعيل بارسال تعليمات مفصلة الى عبد الرازق بك رئيس أركان حرب مأمورية نهر الجب فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، بسحب الحملة المصرية من ساحل الصومال الجنوبى، لابلاغها الى ماكيلوب باشا حتى يمكن اعادة « الوابورات والعساكر » الى السويس (٤) .

وقد حدث فى نفس اليوم الذى أرسل فيه الخديو تعليماته بسحب الحملة المصرية من نهر الجب أن كتب « جون كيرك » من زنجبار الى « لورد دربى » وزير الخارجية البريطانية ، مدعيا أن نشاط المصريين ومؤامراتهم ما زالت مستمرة على طول الساحل الصومالى ، وانهم كانوا يقرنون جميع أعمالهم باسم سلطان تركيا ، مما جعلهم يرفعون رايته على الأراضى التى استولوا عليها فى ساحل الصومال . وأوضح « كيرك » انه قد عمل على تأمين مصالح تجار مدينة لامو ، بأن أرسل اليهم ضابطا بحريا مع فصيلة من مشاه الاسطول ، ليكون نائبا للقنصل البريطانى ، وليبلغ قومندان الأسطول عن أى خطر تتعرض له لامور من قبل المصريين حينذاك (٥) .

بل ان « جون كيرك » زعم فى رسالة بعث بها الى «دربى» فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٥ أن الاضطرابات التى نتجت عن وجود المصريين بالساحل الصومالى فى ازدياد مستمر . وقد استشهد فى ذلك بخطاب كتبه القس « بريس Price » المشرف على ارسالية الكنيسة الانجليزية فى ممبسة مؤكدا بأن الخطر المصرى يهدد ممبسة ومركز الارسالية الانجليزية ، نتيجة لتجاوب الأهالى المسلمين مع المصريين الذين يمثلون سلطان تركيا . وكان الأهالى يتطلعون الى اليوم الذى يتفوق

---

(١) F.O. 78/7188 ; 195/1063, telegram, Stanton to Derby, 5 December 1875.

(٢) F.O. 78/7188, 195/1063, Telegram, Stanton to Derby, 5 December 1875.

(٣) F.O. 78/3188, Telegram, Derby to Kirk, 5 Dec. 1875.

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، المعية : دفتر ١٠ (عربى) رقم ٦٧ ص ٣٢ ف ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ (١٤ ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، أمر من الخديو الى عبد الرازق بك)

(٥) F.O. 84/1417. Kirk to Derby, 14 December 1875.

فيه النفوذ الاسلامى فى شرق افريقية والهند من جديد (١) ٠

وهكذا تصدت السياسة البريطانية التى بدت فى تصرفات المقيم السياسى البريطانى فى عدن من جهة وفى تصرفات « جون كيرك » القنصل البريطانى فى زنجبار من جهة أخرى لمواجهة النشاط المصرى على الساحل الصومالى المطل على خليج عدن والمحيط الهندى والعمل على تصفيته فى أسرع فرصة ممكنة ٠ ورغم تظاهر « كيرك » بأنه يدافع عن مصالح سلطان زنجبار ، فقد فضحت مراسلاته مع وزارة الخارجية البريطانية حقيقة أغراضه وأظهرت انه كان يتخذ من هـذا الادعاء ستارا يختفى وراءه من أجل تأمين مصالح بلاده التجارية والسياسية فى شرق افريقية ، حتى يحين الوقت الذى تنفذ فيه أطماع بريطانيا الاستعمارية فى هذه المناطق ٠

وحتى عند ما تحقـق « جـون كيرك » من أن القوات المصرية قد جلت عن قسمايو والجب ، فقد لفت نظر برغش الى ضرورة اتخاذ بعض الخطوات لتأسيس ادارة حكومية فى الجهات التى أخلاها المصريون لتأكيد سلطته فيها ٠ كما قام بزيارة ساحل الصومال على ظهر احدى السفن الحربية البريطانية ، وحمـل رسائل من برغش الى ولاته بهذا السـاحل ، تحضـهم على وضع أنفسهم تحت تصرفه باعتباره القنصل البريطانى العام حينذاك (٢) ٠

على أن الحكومة الخديوية رأت قبـل عودة حملة الجب الى السويس أن تحـاول تحقيـق مشروع « غوردون » بالأسـاليب الدبلوماسية ٠ فقـد كتب « ستانتون » قنصل بريطانيا العـام فى مصر الى « دربى » وزير الخـارجية البريطانية فى ٩ يناير سنة ١٨٧٦ يقول أن الخديو قد أبلغه أثناء مقابلة جرت بينهما مؤخرا بأن « من الأمور الجوهـرية بالنسبة له اذا أريد أن يمضى فى تنفيذ برنامجه الخاص بمحاربة تجارة الرقيق داخـل أراضيه أن يحصـل على ميناء على ساحل المحيط الهندى » ٠ وعبر الخديو عن ثقته فى أن « حـكومة صاحبة الجلالة الملكة سوف تساعده على الحصول على هذا الميناء ، خاصة وأنه قد أنفق ما يربو عن مليون من الجنيهات الاسترلينية فى محاولة فتح الأقاليم الاستوائية فى افريقيا الوسطى ، وبدون الحصول على منفذ بحرى على الساحل فان انفاق هذا المبلغ سيكون عديم المنفعة ٠ كما ذكر « ستانتون » ان الخديو أبلغه أيضا بأن فتح طريق من اقليم البحيرات الى ساحل افريقية الشرقى سيثبت فائدته الكبرى للتجارة بوجه عام ، وللتجارة البريطانية بوجه خاص ، غـير أن ذلك يعتبر مسـتحيلا بدون امتلاك ميناء وتأسيس سـلطة أو حـكومة على الساحل (٣) ٠

---

(١) F.O. 84/1417. Kirk to Derby, 25 December 1875, enclosure, W.S. Price to Kirk, 18 December 1875.

(٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : انتشار النفوذ البريطانى فى شرق افريقيـة ووسطها ، ص ١٢٩ ٠

(٣) F.O. 78/3189, 195/1103, Stanton to Derby, 9 January 1876.

وقد مالت وزارة الخارجية البريطانية فى أول الأمر الى الاستجابة لطلب الخديو اسماعيل نظرا لأنها كانت تبدى حينذاك اهتماما كبيرا بالحصول على مساعدة الحكومة المصرية فى مسألتين هامتين ، أولهما اعاقة المشروعات الاستعمارية لفرنسا وايطاليا فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن ، وثانيهما حاجتها الى مساعدته فى القضاء على تجارة الرقيق فى السودانيين الشرقى والأوسط وفى الأقاليم المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن (١)

غير أن « جون كيرك » كتب الى « دربى » فى اليوم الخامس من ابريل سنة ١٨٧٦ معترضا على مطلب الخديو بحجة أن سلطان زنجبار لن يوافق على شراء مصر لميناء قسمايو لأن ذلك سيؤدى لخسارته ماديا ، كما رأى « أن تأييد الخديو فى هذا الاتجاه سينزل ضررا بمصالحنا المحلية ومصالح رعايانا أيضا » (٢) . وقد عقب « وايلد Wylde » رئيس ادارة تجارة الرقيق بوزارة الخارجية البريطانية على ذلك بقوله « ان كيرك قد أبدى رأيا حازما عارض فيه بشدة هذا الطلب ، ومن ثم لا يسع وزارة الخارجية البريطانية الا رفضه » (٣) .

ولما كانت الحكومة البريطانية قد أرسلت الى القاهرة فى شهر نوفمبر سنة ١٨٧٥ مسودة معاهدة أرادت أن تبرمها مع الخديو بعد مفاوضات شاقة حاولت الحكومة المصرية خلالها أن يشمل الاعتراف بالسيادة المصرية كل بلاد الصومال حتى نهر الجب جنوبا دون جدوى ، فان هذه المعاهدة قد تأخر عقدها نتيجة لارسال حملة « ماكيلوب » الى المحيط الهندى (٤) . وعند ما عرضت الحكومة البريطانية مرة أخرى على حكومة القاهرة فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ شروط المعاهدة المذكورة فقد اعترض الخديو من جديد على تحديد حقوق السيادة المصرية على ساحل افريقيا الشرقى عند رأس جوردفوى ، وذكر أن حقوق السيادة المصرية تمتد حتى نهر الجب جنوبا ، كما طالب بامتلاك ميناء على ساحل المحيط الهندى (٥) .

غير أن « فيفيان » الذى خلف « ستانتون » قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر كتب الى وزارة الخارجية البريطانية ، بعد أن رفض الخديو مرة أخرى عقد هذه المعاهدة فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، محذرا اياها من تشجيع «امتداد الحكم المصرى فى افريقية » (٦) . واقترح « لورد سولسبرى Lord Salisbury »

---

(١) F.O. 84/1370, Elliot to granville, 8 July 1873.

(٢) F.O. 84/1453, Confid. Kirk to Derby, 5 April, 1876.

(٣) F.O. 78/3189, Minute by Wylde on Cookson to Derby, 8 August, 1876.

(٤) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : انتشار النفوذ البريطانى فى شرق أفريقيا ووسطها ، ص ١٢٢ .

(٥) F.O. 78/3189, 195/1104, Cookson to Darby, 8 August, 1876.

(٦) F.O. 84/1450. Vivian to Derby, 8 December 1876.

الذى كان قد تولى حينئذ وزارة الهند أن ترد وزارة الخارجية البريطانية على طلب الخديو بتوجيه انذار اليه · فاما أن يقبل المعاهدة المعروضة عليه فى الحال ، أو تحتفظ الحكومة البريطانية لنفسها بحرية العمل فى ساحل الصومال (١) ·

على أن هذا الانذار البريطانى قد أحدث النتيجة المرغوبة ، اذا استسلم الخديو اسماعيل لرغبة الحكومة البريطانية وبذلك أبرمت فى اليوم السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٧ معاهدة بين مصر وبريطانيا « بشأن اعتراف حكومة صاحبة الجلالة الملكة (فيكتوريا) بحقوق صاحب السمو (الخديو اسماعيل) الشرعية تحت سيادة الباب العالى على الساحل الصومالى حتى رأس حافون » (٢) · وهكذا أثمرت جهود « جون كيرك » القنصل البريطانى فى زنجبار متعاونا مع المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ابعاد المصريين عن الساحل الصومالى الجنوبى ، ليصبح الطريق ممهدا أمام البريطانيين لتنفيذ مشروعاتهم الاستعمارية هناك انطلاقا من قاعدتهم البريطانية فى عدن ·

واذا نظرنا الى نصوص تلك المعاهدة البريطانية المصرية (٣) يمكننا أن نتبين ما يلى :

١ — أن الهدف الرئيسى من عقد هذه المعاهدة هو المحافظة على المصالح البريطانية وضمان تفوق النفوذ البريطانى فى منطقة البحر الأحمر والسواحل المطلة على خليج وسواحل الصومال ، خاصة بعد أن وجدت بريطانيا نفسها تواجه منافسة استعمارية من قبل فرنسا التى اتخذت أوبوك قاعدة لها منذ عام ١٨٦٢ ، وايطاليا التى سيطرت على عصب منذ عام ١٨٧٠ · ومن هنا فضلت الحكومة البريطانية الاعتراف بالسيادة المصرية فى ظل التبعية العثمانية (٤) ، وذلك فى نظير الحصول على امتيازات واسعة تحقق لها ما تبغيه من سيطرة ونفوذ ، فضلا عن ابعادها للمنافسة الفرنسية والايطالية حينذاك ·

٢ — أرادت الحكومة البريطانية باعترافها بسيادة مصر على الساحل الصومالى

---

(١) F.O. 78/3189. Malet to F.O., 27 January 1877, Vivian to Derby, 21 February 1877.

(٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : انتشار النفوذ البريطانى فى شرق افريقية ووسطها ، ص ١٢٤ ·

(٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر ووسطها ، ص ١٣٥ ·
F.O. 78/3189, F.O. to Vivian 7/4/77 text in Hertslet, Sir Edward. Treaties and conventions, Etc., (Commercial Treaties), London, Butterworths, 1893, Vol. 18, pp. 356, 361.

(٤) Marston, T.E. : op. cit., p. 494.

المواجه لعـدن حتى رأس حافون أن تضـع حدا لامتداد النفوذ المصرى جنوبى البحر الأحمر وخليج عدن ، بما يحرم مصر من مد حدودها على كل الســاحل الصومالى حتى ميناء قسمايو جنوب مصب نهر جوبا ، وهـو ما كانت مصر تتطلع الى تحقيقه (١) ٠

٣ – اشترطت بريطانيا فى تلك المعاهدة أن يتعهد الخديو اسماعيل عن نفسه وعن خلفائه من بعده بعدم منح أية دولة من الدول أية مساحة من الأرض الداخلة فى حوزة مصر ٠ ومن ناحية أخرى اشترطت بريطانيا أيضا بأن اعترافها بسيادة مصر حتى رأس حافون مرهون بتعهد السلطان العثمانى فى الوقت نفسه بعدم منحه أية قطعة من أرض مصر أو ملحقاتها لأية دولة أجنبية – غير بريطانيا بطبيعة الحال ٠ ومن الواضح أن البريطانيين كانوا يهدفون من وراء ذلك الى ابعاد أى نفوذ أجنبى آخر غير نفوذهم عن مصر وممتلكاتها حتى يمهدوا السبيل لاستيلائهم عليها ، خاصة وأن اعترافهم بسيادتها على تلك المناطق كان بمثابة ابعاد لأطماع الفرنسيين والايطاليين حتى تتهيأ الفرصة لتحقيق الأهداف البريطانية ٠

٤ – اكتسبت الحكومة البريطانية من وراء عقد هذه المعاهدة امتيازات واسعة ضمنت لها مركزا ممتازا فى مصر وجميع ممتلكاتها على ساحل البحـر الأحمر وخليج عدن ، ومنحتها حق تعيين مأمورى قنصليات فى جميع سواحل الصـومال ، فضلا عن تمتعهم بمركز ممتاز فى تلك الجهات ٠ كمـا الزمت المعاهدة الخـديو اسماعيل بمنع تجـارة الرقيق من مصر وملحقاتها ، مع قيام السفن الانجليزية بمعاونة مصر فى هذا الشأن على أن تمنح صفة الضبط حتى على السفن التجارية المصرية ٠

٥ – حـددت المعاهدة الرسـوم الجمركية على السلع الواردة الى موانى زيلع وتاجوره وسائر موانى البحر الأحمر بما قيمته ٥٪ فقط ، فيما عدا بلهار وبربرة فقـد أصبحتا من الموانى الحرة (٢) ٠ ولا شك أن تحديد هذه الرسوم الجمركية الضئيلة واعفاء ميناءى بلهار وبربره كلية منها قد أضر بمصر وذلك باعتراف الجنرال غوردون نفسـه وقد ترتب على ذلك أن خسرت الحكومة المصرية الرسوم التى كانت تؤخذ على ما كان يصدر من هذين الميناءين من أغنام وأبقار يقدر عددها سنويا بما يزيد عن ٧٠ ألف رأس كان يصدر معظمها الى الحامية البريطانية فى عدن ٠ هذا فضلا عما كانت تدفعه مصر من جزية سنوية للباب العالى فى نظير احتفاظها بهذين الميناءين ، الى جانب ما أنفقته فعلا فى انشاء منارة وحوض للسفن وبعض المنشآت الأخرى ٠

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر والحبشة ، ص ١٦٠ ٠

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 494.

٦ — لم تستفد مصر شيئا من عقد هذه المعاهدة ، اذ انها من الناحية العملية لم تمنحها شيئا أكثر مما كان فى حوزتها . كما كان اعتراف انجلترا بالسيادة المصرية على الساحل الصومالى حتى رأس حافون لا يزيد عن التسليم بالأمر الواقع . بل ان انجلترا رفضت بشدة أن تعترف بحق مصر فى السيادة على أراضيها كاملة حتى مصب نهر جوبا ، وذلك نظرا لأنها كانت تتطلع لتحقيق أطماعها الخاصة فى تلك الجهات . ومن ناحية أخرى فان عقد هذه المعاهدة قد نتج عنه ازدياد نفوذ بريطانيا فى ممتلكات مصر المجاورة للحبشة ، مما أدى الى تشجيع الأحباش على عدم تسوية مشكلة الحدود بينهم وبين مصر حينذاك ، بحيث ظلت هذه المسألة مثار مفاوضات بين الطرفين حتى احتلت بريطانيا مصر ، وقامت بتسوية مشكلة الحدود بين البلدين فى صالح الأحباش بطبيعة الحال ، مما أضر كثيرا بالمصالح المصرية حينذاك (١) .

وجدير بالذكر أن وزارة الهند البريطانية كانت قد تلقت من وزارة الخارجية البريطانية فى اليوم الثانى من ابريل سنة ١٨٧٧ مذكرة مستوفاة عن الساحل الصومالى واقترحت فيها أن يكون خط عرض ١٠ درجة شمالا آخر حد للمتلكات المصرية فى بلاد الصومال المواجهة لعدن (٢) . وقد وافقت وزارة الهند البريطانية حينذاك على فحوى هذه المذكرة وعلى مشروع المعاهدة البريطانية المصرية قبل عقدها فى ٧ سبتمبر ١٨٧٧ بعدة شهور (٣) . ولا شك أن ذلك يؤكد أن وزارة الخارجية البريطانية كانت تحرص على تنسيق أعمالها مع وزارة الهند البريطانية التى كانت تضع فى اعتبارها وجهة نظر المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، حيث كان يرقب الأمور الجارية على الساحل الصومالى المواجه ويتابع عن كثب النشاط المصرى هناك حتى لا يشكل خطرا على المصالح البريطانية فى البحر الأحمر وخليج عدن بوجه عام .

وقد أخذت الحوادث تكشف شيئا فشيئا عن نوايا البريطانيين على وجه الخصوص ومحاولاتهم المستمرة للتدخل السافر فى سواحل البحر الأحمر ، وحيلهم التى بدت خفية وأخذت تبرز وتنفضح بلا حياء ولا اعتبار لحقوق أو مجاملات . فقد حدث أثناء قيام رضا باشا محافظ سواحل البحر الأحمر برحلته للمرور على البلاد التابعة للمحافظة أن دعاه المقيم السياسى البريطانى فى عدن لزيارته فى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٠ وتحدث معه حديثا طويلا . وكان هذا الحديث فى مظهره وديا ، ولكنه فى الحقيقة يخفى وراءه نيات مبيتة ظهرت فى الخطاب الذى أرسله المقيم البريطانى بعد عودة رضا باشا ، كما بدت واضحة

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر والحبشة ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) F.O. 78/3189, Admiralty to F.O. 4/2/77.

(٣) F.O. 78/3/89, I.O. to F.O., 4/10/77, and 6/21/77.

فى حديثه وأسئلته (١) • وأهم ما لوحظ فى هذه الأسئلة قوله ان البلاد التابعة لمصر بعيدة عنها مما يصعب عليها حكمها أو اصلاح أحوالها • وكان رد رضـا باشا أن الهند واستراليا تبعدان عن انجلترا أكثر من تلك الأقاليم عن مصر • بل ان المقيم السياسى البريطانى فى عدن تعرض أيضـا لأمر تجـارة الرقيق ، ولموضوع العوائد التى تؤخذ على السفن التى تمر بميناء بربره ، كما أخذ يبين عدم صلاحية الطقس فى هذه البلاد للموظفين المصريين ، مما يسفر عن أغراضه ونواياه المعادية للوجود المصرى فى تلك المناطق •

وحتى بعد أن عاد رضا باشا لمقر عمله ، فقـد أرسـل اليه نفس المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٠ خطابا ضمنه عدة ادعاءات بناها على الحديث الشفوى الذى دار بينهما أثناء زيارته لعدن ، ولم يكن قد مضى على ذلك الحديث أكثر من أسبوع واحد • وقد أجاب رضا باشـا على المقيم السياسى البريطانى فى عدن موضحا وجهة نظر حكومته فيمـا يتعلق بثلاث مطالب طلبها المقيم البريطانى فى خطابه (٢) • فأما أولها فهـو خاص بعوائد ورسوم الجمرك فى بربره ، وقد أفهمه رضا باشا بأن ما دار بينهما من حديث بهذا الشأن كان صريحـا • اذ انه لا يوجد بها رسـم جمارك ولا مأمور للجمرك ، وأما مســألة العوائد فقد كانت قيد البحث بين قنصـل بريطانيا والحكومة الخديوية ولم تكن قد ظهرت نتائج ذلك بعد • كما أوضح رضا باشا أن كافة صادرات بربره تعود بالنفع الكبير على عدن وكانت الحكومة المصرية قد أنفقت مبالغ طائلة على الاصلاحات التى أجرتها فى تلك الأقاليم ولهذا فانه من العدالة أن تحصل مصر على بعض الايرادات التى تعوضها عما تنفقه من أجل دعم هذه الاصلاحات •

أما المطلب الثانى فقد ذكر المقيم السياسى البريطانى فى عدن لرضا باشا بأن المعاهدة المعقودة بين الحكومة الخديوية وبريطانيا تستوجب تدخله فى شئون بربره اذا ما اشتكى أحد التجار البريطانيين من زيادة العوائد • وقد أجاب رضـا باشـا بأن على حاكم عدن أن ينتظر نتائج البحث الجـارى بين قنصـل بريطانيا والحكومة المصرية فى هذا الصدد •

وكان المطلب الثالث للمقيم السياسى البريطانى فى عدن متعلقا بالقواعد الخاصة بمعاملة الصوماليين فى شرق بربره وبلهار قبل احالتهما للادارة المصرية تبعا لما ورد فى نص المعاهدة المشار اليها فى المطلب السابق • وقد أجاب عنه

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسـة مصر فى البحر الاحمر ، وقد نشر بالكتاب ترجمة للمحادثات التى دارت بين المقيم السياسى البريطانى فى عدن ورضا باشا محافظ عموم سواحل البحر الاحمر ، ص ١٧٣ — ١٧٨ •

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : محفظة سائرة نمرة ٦٦ فى ١٧ محرم سنة ١٢٩٨ هـ ص ١٩٧ •

رضا باشا بأنه لا يعلم عن تلك المعاهدة شيئا وانه عرض الأمر على الحكومة الخديوية ومازال ينتظر ردها ٠ ثم ختم رضا باشا خطابه معبرا عن رغبته فى أن تستمر العلاقات بينهما طيبة لا تشوبها شائبة (١) ، مما يؤكد حرص مصر على عدم اثارة أية مشكلات بينها وبين بريطانيا فى ذلك الحين ٠

ـ خامسا : سياسة البريطانيين فى عدن ازاء النشاط الفرنسى فى البحر الأحمر وخليج عدن بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩ ـ ١٨٨٢) :

ازداد اهتمام البريطانيين بالبحر الأحمر فى أعقاب فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ نتيجة لاستمرار الفرنسيين فى تنفيذ مشروعاتهم الاستعمارية على سواحله ، خاصة وأن مشروع القناة ذاته كان مشروعا فرنسيا على النحو الذى اوضحته فى بداية هذا الفصل ٠ وكانت فرنسا قد سعت منذ وصول حملتها الى مصر فى سنة ١٧٩٨ الى قطع الطريق بين بريطانيا والهند لتقضى بذلك على المصالح البريطانية فى الشرق بوجه عام ٠ كما أن فرنسا ارادت أن تكون لها محطة بحرية فى منتصف هذا الطريق الذى أصبح أقصر طريق للملاحة يصل غرب اوربا ببلاد الشرق بعد فتح قناة السويس ، وكانت فرنسا ترغب فى أن تكون هذه المحطة قاعدة بحرية قائمة بذاتها ومستقلة عن القاعدة البريطانية فى عدن حتى لا تقع تحت سيطرة بريطانيا أو تتعرض لتحكمها اذا تأزمت الأمور بين الدولتين واحتدم النزاع بينهما ٠

وقد سبق أن أوضحت أن فرنسا قد اشترت ميناء «اوبوك» فى سنة ١٨٦٢ وهو الميناء الذى يقع على الساحل الافريقى المواجه لعدن والذى يشرف على مضيق باب المندب عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ٠ وكانت فرنسا تهدف باستيلائها « النظرى » على هذا الميناء الى الاحتفاظ بامكانية أخذ قرار فى المستقبل بخصوص المنطقة المجاورة لعدن وبريم التى كان البريطانيون يسيطرون عليها فى ذلك الحين على أن الفرنسيين لم يستفيدوا استعماريا من منطقة «أوبوك» الا عند تأزم المسألة المصرية بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ وتدخل السياسة البريطانية فى الشئون المصرية ، واجبارها لحكومة القاهرة على اتخاذ قرار بشأن «ملحقاتها» فى سواحل البحر الأحمر حينذاك ٠ وسوف تتخذ فرنسا فى ذلك الوقت من « اوبوك » مركزا وقاعدة استعمارية لها عند المدخل الجنوبى للبحر الاحمر ، لكى تتوسع منها فى بلاد الصومال ، وتكون نواة لمستعمرة ساحل الصومال الفرنسى، بحيث تشكل بذلك منافسا خطيرا للمصالح البريطانية فى عدن والبحر الاحمر ، كما قام الفرنسيون بدور آخر فى منطقة « الشيخ سعيد » الواقعة غربى عدن

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر، وقد نشر نص الرد المرسل من رضا باشا محافظ سواحل البحر الاحمر الى « والى عدن » اى الى المقيم السياسى البريطانى هناك ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ٠

والتى تطل على مضيق باب المندب من ناحية الشرق ، وقد بدأ هذا الدور فى مطلع سنة ١٨٦٩ وهى نفس السنة التى فتحت فيها قناة السويس ٠

ومما يوضح دور الفرنسيين فى البحر الاحمر وعلى مقربة من عدن حينذاك قيام الفرنسيين « ماس M.M. Mass » و « بويلكس Poües » بشراء بندر الشيخ سعيد « فى شهر يناير سنة ١٨٦٩ من الشيخ على ثابت الحكمى مقابل مبلغ اربعين ألف ريال ٠ وكان غرض الفرنسيين من وراء السيطرة على هذا الموقع اقامة وكالة فرنسية فى تلك المنطقة ترعى المصالح الفرنسية فى البحر الأحمر ، على غرار ما فعله البريطانيون فى عدن ٠

ومنذ بدأ الفرنسيون ينفذون هذا المشروع فقد قام « الميجور جنرال ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بابلاغ حكومة بومباى ، موضحا أن « بند الشيخ سعيد » جزء من ممتلكات قبائل الصبيحى اليمنية ٠ (١) كما ابلغ « راسيل » حكومة بومباى ايضا بأن انشاء ميناء فرنسى فى منطقة « الشيخ سعيد » المواجهه لجزيرة بريم ، انما يهدد بشدة تجارة البن اليمنى الذى كان يصدر حينذاك عن طريق ميناء عدن (٢) ويعود عى البريطانيين هنـــاك بفوائد كثيرة ٠

وقد أشارت الوثائق المصرية الى أن قنصل بريطانيا العام فى مصر قام فى شهر مايو سنة ١٨٧٠ باخطار الخديو بأن شركة فرنسية تدعى « بازان بارولان » ارسلت باخرة الى حدود اليمن عند جزيرة بريم واشترت ثلاثة آلاف هكتار من الأراضى اليمنية الواقعة فى مواجهة تلك — الجزيرة ويقصد بها منطقة « الشيخ سعيد » — واستولت عليها ٠ ورغم أن هذه المنطقة لم تكن تابعة للحكومة المصرية فانه رأى من واجبه احاطة الصدر الأعظم علما بذلك ٠ (٣) ولا شك أن ذلك يوضح محاولة البريطانيين اثارة خديو مصر واشراكه فى العمل للحيلولة دون سيطرة الفرنسيين على منطقة « الشيخ سعيد » المجاورة لعدن ٠

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أوضح حاكم جزيرة بريم البريطانى فى الوقت نفسه أن « بنـدر الشيخ سـعيد » انما هو منطقة تابعة للحـكومة العثمانية ٠ (٤) كما أن مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن أوضح بعد

---

(١) I.O., L.A., Russell to Bombay, 10/15/68 and 10/23/68.

(٢) I.O., L.A., Russell to Bombay 6/24/40 and 6/30/70.

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : سجل ٢٤ ترجمة الوثيقة رقم ٥٧ ٠ فى ٢٣ صفر سنة ١٢٨٧ هـ ٠ ص ١١٤ ٠

(٤) عبد الرحمن أبو طالب : الجنوب اليمنى المحتل من النواحى التاريخية والطبيعية والسياسية ونصوص الاتفاقات والمعاهدات البريطانيـة مع امارات الجنـوب ٠ كتاب قدمه للادارة السياسية بالامانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة فى ٥ اغسطس ١٩٥٩ ولم ينشر بعد ٠ ص ١٨٥ — ١٨٦ ٠

ذلك أن الأتراك العثمانيين رفضوا الموافقة على بيع هذا الموقع للفرنسيين ، وانهم ابلغوا الحكومة الفرنسية بأن تحويل هذه الأراضي الى ملكيتهم لم يتم بالطريقة المشروعة مما جعلهم يقدمون احتجاجا رسميا على ذلك . على أن الشيخ على ثابت الذى تصرف فى هذا الموقع ببيعه للفرنسيين ابدى دهشـــته من مطلب الأتراك العثمانيين ، مؤكدا أن الموقع المذكور لم يسبق أن حكمه أى حاكم عثمانى ، وأنه يحكمه كما سبق أن حكمه اسلافه من قبل ، وأن العثمانيين ليس لهم الحق فى هذا الموقع وليس لهم أى سيادة عليه .

غير أن الحكومة البريطانية رأت أخيرا من جانبها أن تستطلع رأى البـاب العالى بالنسبة لهذه المسألة عن طريق « بارون Barron » سفيرها فى الآستانة فى ذلك الحين . بل ان « اللورد كلارندون Lord Clarendon» عندما أرسل تعليماته فى هذا الصدد الى السفير « بارون » أشار الى أن السلطان العثمانى هو صاحب السلطة الشرعية فى بندر « الشيخ سعيد » على الرغم من أن بعض اجزاء هذا الاقليم تقع خارج مضـــيق باب المندب من الجنوب . كما أكد ايضا « اللورد كلارندون » فى تعليماته هذه الى « بارون » بأن الحكومة البريطانية لن توافق على اقامة مستعمرة اجنبية فى تلك المنطقة المجاورة تماما لعـدن ، (١) الأمر الذى يشكل تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية هناك .

وفى الوقت نفسه كلفت حكومة الهنـد البريطانية أحـد خبرائها ويدعى « كولومب Colombe » ليقوم بمسح جغرافى للساحلين الآسيوى والافريقى للبحر الأحمر فى المنطقة المحيطة بجزيرة بريم على وجه الخصوص . (٢) وقد أوضح « كولومب » فى تقريره انه لا يوجد هناك ما يدعو بريطانيا للقلق بشأن ميناء « الشيخ سعيد » ، مؤكدا أن الميناء الصالح للملاحة فى المنطقة هو ميناء عصب الذى يقع على الساحل الافريقى للبحر الاحمر ويبعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا شمالى جزيرة بريم . وبنـــاء على ذلك فقد اقترح « الميجور جنرال ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن على حكومة الهند البريطانية احتلال البريطانيين لميناء عصب فى ذلك الحين . (٣)

بل ان تقريرا آخر قد ورد الى « الميجور ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن من « الملازم دالماهوى Lieutenant Dalmahay » المسئول عن جزيرة بريم ، أوضح فيه حالة ميناء « الشيخ سـعيد » فذكر أنه مجرد مرسى لاستقبال الماشية والأغنام التى ترد من الساحل الصومالى المواجه ، ولا يوجد بها

(١) I.O., B. 8., Memorandum on the Turkish Claim to sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea ... etc., p. 566.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., pp. 378, 379.

(٣) I.O., L.A., Russell to Bombay 11/10/68, enclosing survey of Assab Bay.

مورد للمياه سوى بئر واحدة مياهها ملحية قليلا · اما من الناحية الاستراتيجية فان قيمة ميناء « الشيخ سعيد » ضئيلة ، اذ لا يمكن منها التحكم فى القناة الطبيعية التى تصل جزيرة بريم بالساحل الآسيوى للبحر الأحمر · (١)

وقد بعث « الميجور جنرال ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن « الكابتن دي كنتزو Captain de kntzow » لعمل مسح جغرافى لمنطقة عصب على الساحل الافريقى للبحر الاحمر · وقد جاء تقرير « كنتزو » مناقضا لتقرير سلفه « كولومب » اذ ورد فيه : ان ميناء عصب — فى اعتقاده — فيما عدا كونه ميناء آمنا ، فانه غير مناسب لاحتياجات أية حكومة أجنبية ، كما انه مكان لايحتمل أن تقوم باحتلاله أية دولة ، وان امتلاكه بمعرفة أية دولة أجنبية سيكون وضعا اسميا فقط ، ولا يمكن العمل بجدية تامة انطلاقا من هذا الميناء ضد المصالح البريطانية كتعويق المرور أو الحد من حرية الملاحة فى البحر الأحمر (٢) · ولهذا احجم البريطانيون عن تنفيذ فكرة احتلالهم لميناء عصب فى ذلك الحين ·

على أن ما كانت تخشاه السلطات البريطانية فى عدن حينذاك هو أن ظهور ميناء فرنسى فى تلك المنطقة القريبة من عدن سيلحق اضرارا بالغة بتجارة البريطانيين مع المنطقة المحيطة بها ، خاصة بعد أن اصبحت عدن تحتكر النشاط التجارى هناك ، وبعد تدهور ميناء مخا على وجه الخصوص · غير أن الدوائر السياسية البريطانية اخذت بوجهة النظر القائلة بأن ميناء « الشيخ سعيد » لا يمكن له ان يرقى — نظرا لاعتبارات جغرافية — لمستوى يصبح فيه منافسا لميناء عدن بأى حال من الأحوال · (٣)

وتجدر الاشارة أيضا فى هذا المقام الى موقف الدولة العثمانية نفسها من حادثة بيع « الشيخ سعيد » حينذاك للفرنسيين · فقد أكد وزير الخارجية العثمانى للسفير البريطانى «بارون» بأن الباب العالى لا يقر هذا البيع ، فضلا عن أن الحكومة الفرنسية لم تعترف من جانبها ايضا بهذه الصفقة ، هذا بالاضافة الى أن الشيخ على ثابت هو الآخر لم يكن يملك حق التصرف فى هذه المنطقة · بل ان الوزير العثمانى قد أكد أيضا أن الباب العالى كان يعد العدة لارسال بعض قطع الأسطول العثمانى لمنع وقوع مثل هذه الحوادث فى المناطق التابعة للدولة · ولهذا فان الفرنسيين لم يستطيعوا أن يحصلوا على فرمان من الباب العالى ببيع « بندر الشيخ سعيد » ليصبح ملكا لهم حينذاك (٤) ·

---

(١) I.O., L.A., Colombe to Russell 11/8/68.

(٢) I.O., L.A., Russell to Bombay 1/15/69 encl. de kntzow to Russell. 1/11/69.

(٣) Marston, T.E. : op. cit., p. 381.

(٤) I.O., L.A., Goodfellow to Bombay, 5/28/69, 10/16/69.

وعلى الرغم من كل هذه التأكيدات من قبل الحكومة العثمانية فى ذلك الحين، فقد قامت الشركة الفرنسية نفسها باعلان شرائها لمنطقة «الشيخ سعيد» نهائيا من حكامها المحليين . غير أنها تبينت فيما بعد أن الميناء ضحل وغير صـــالح لاستقبال السفن مما ترتب عليه فشل هذا المشروع وصرف النظر عنه بعد ذلك . على أن الباب العالى استمر فى انكاره لأحقية أية قوى أخرى غيره لمناقشة موضوع ملكية منطقة « الشيخ سعيد » المتنازع عليها ، واقترح اعادة الأموال التى دفعت ثمنا لها . ولكنه فى الوقت نفسه قد سمح باستخدامها كمحطة للتجارة الفرنسية فى الجزء الجنوبى من البحر الأحمر مع بقاء تبيعتها — الاسمية بطبيعة الحال — للسيادة العثمانية .

وعلى أية حال فقد غادر الفرنسيون منطقة « الشيخ سعيد » نهائيا فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ ، مما جعل الباب العالى يصدر تعليماته الى حاكم الحديدة العثمانى ليؤكد للقنصل الفرنسى فى عدن تبعية « الشـــيخ سعيد » للســـيادة العثمانية ، ويبلغه أيضـــا بأن العثمانيين سوف يحتلون هذه المنطقة فى وقت قريب . (١) وقد تم ذلك بالفعل عندما ارسل الباب العالى فى العام التالى مباشرة قوة عثمانية لهذا الغرض قوامها ٤٠٠ مقاتل تحركوا من الحديدة بقيادة سليمان بك . على ان العثمانيين قد حولوا ميناء « الشيخ سعيد » بعد ذلك بوقت قصير الى « محجر صحى » عندما انتشر وباء الكوليرا على الساحل الشرقى لافريقيا وخاصة فى منطقة زنجبار (٢) ، حيث كان يستوقف الحجاج الآتين من هناك للأغراض الصحية فى موسم الحج .

وهكذا لم يتحقق للفرنسيين فى أعقاب فتح قناة السويس املهم فى اتخاذ ميناء « الشيخ سعيد » نقطة ارتكاز منافسة للوجود البريطانى فى ميناء عـــدن الهام ، ومركز انطلاق لتحقيق المصالح الفرنسية فى منطقة البحر الأحمر على نحو ما فعلته بريطانيا بسيطرتها على عدن . ويرجع السبب فى ذلك الى الجهود التى بذلها البريطانيون وهم يرقبون الأحداث فى منطقة البحر الأحمر عن كثب من قاعدتهم البريطانية فى عـــدن للحيلولة دون نجاح الفرنســـيين فى تحقيق غاياتهم . هذا فضلا عن أن منطقة «الشيخ سعيد» لم تكن ترقى من ناحية ميزاتها الطبيعية لمستوى صلاحية ميناء عدن بأى حال من الأحوال. بل ان تطلع الفرنسيين للسيطرة على « الشيخ سعيد » قد أثار مسألة حقوق السيادة العثمانية على تلك الميناء ، وهى ما تذرع به البريطانيون وساندوه ليواجهوا المنافسة الفرنســـية ويحبطوا تطلعاتها فى منطقة البحر الأحمر فى ذلك الحين وخاصة بعد فتح قناة السويس . وقد أدى ذلك الى زيادة تركيز الفرنسيين لجهودهم على الســـاحل

---

(١) I.O., B. 8, Memorandum on the Turkish claim to sovereignty over Eastern shores of the Red Sea ... etc., pp. 57, 58.

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 392.

الغربى للبحر الأحمر واتخاذهم من « اوبوك » نقطة انطلاق لتحقيق تطلعاتهم الاستعمارية ومنافسة النفوذ البريطانى فى منطقة البحر الأحمر المتمركز فى عدن حينذاك على النحو الذى سنوضحه فيما بعد ٠

ـ سادسا : سياسة البريطانيين فى عدن ازاء النشاط الايطالى فى البحر الأحمر وخليج عدن بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩ ـ ١٨٨٢) :

حرصت بريطانيا فى العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر وخاصة بعد فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ على معارضة النشاط الايطالى فى البحر الأحمر والوقوف فى وجهه وخاصة فى المناطق القريبة من القاعدة البريطانية فى عدن ٠ وكان البحر الأحمر ـ كما سبق أن أوضحت ـ يعتبر الشريان البحرى الهام فى خطوط المواصلات العالمية بوجه عام ، والبريطانية على وجه الخصوص ، بحيث اصبح « وتر بريطانيا الحساس » على حد تعبير « اللورد سولسبرى Lord Salisbery » وزير الخارجية البريطانية فى عام ١٨٧٩ (١) ، أى بعد فتح قناة السويس بعشر سنوات ٠

وكانت ايطاليا قد بدأت اتصالاتها بالبحر الأحمر وسواحله عن طريق رجال التبشير ، والمستكشفين الجغرافيين الذين حاولوا حتى قبيل قيام الوحدة الايطالية اغراء بلادهم ، وخاصة « مملكة بيدمونت » على الدخول فى علاقات تجارية وسياسية مع البلاد المطلة على هذا البحر ٠ وقد اصبحت انظار الايطاليين مسلطة عليه منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهو الوقت الذى شهد فيه الايطاليون بداية الزحف الاستعمارى على افريقيا الذى أدى الى تقسيم هذه القارة بين الدول الاوربية ٠ وكان فتح قناة السويس من أهم العوامل التى ادت الى اثارة اهتمام الايطاليين لتنفيذ سياستهم الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر (٢) ٠

وقد اتجهت ايطاليا الى تنفيذ سياستها الاستعمارية فى البحر الأحمر باختيار نقطة اتخذتها قاعدة لها ، تتوسع منها فى المناطق القريبة من الساحل الافريقى لهذا البحر ، مثلها فى ذلك مثل ما فعلته بريطانيا على جانبه الشرقى فى عدن ، وما فعلته فرنسا على جانبه الغربى « فى « اوبوك » ٠ وكانت هذه النقطة التى اختارها الايطاليون هى ميناء عصب (٣) الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر على مقربة من مدخله الجنوبى ٠

---

(١) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ١١١ ٠

(٢) Marston, T.E. : op. cit., p. 393.

(٣) Johnston, H. : History of the colonization of Africa by alien races, p. 244.

وجدير بالذكر أن مسألة عصب كانت فى بداية امرها عبارة عن عمل فردى بحت ، كما اعتبرها القائمون بها خطوة أولى فى سبيل وضع هذه المنطقة تحت السيادة الايطالية ٠ وكانت شركة « روباتينو Rubattino » الايطالية قد اعتبرت المشايخ المحليين الذين باعوا لها هذه المنطقة فى شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ مستقلين ، وسعت الى اعطاء حقوق ملكيتها للدولة الايطالية التى اهتمت بعد ذلك بهذا المشروع ، وخاصة انه كان يتفق مع تطلعاتها الاستعمارية (١) ٠

ومما يؤكد ذلك أن « السنيور فيسكونتى فينوستا » وزير الخارجية الايطالية كان قد ابلغ « باجت Paget » القنصل البريطانى فى فلورنسا بأن الحكومة الايطالية ليست مسئولة عن مسألة عصب الذى اتخذ امتلاكها صورة اتفاق خاص ٠ وكان « باجت » قد بعث تقريرا لحكومته فى شهر مارس سنة ١٨٧٠ اوضح فيه أن الصحف المحلية فى ايطاليا ذكرت أن سفينة حربية ايطالية قد ارسلت الى البحر الأحمر بغرض تأسيس مستعمرة ايطالية هناك ٠ كما أشار « باجت » فى تقريره الى أنه قد علم بأن خطا بحريا للبواخر الايطالية سيبدأ من جنوه الى الشرق الأقصى عبر طريق البحر الاحمر مما يتطلب ايجاد محطة على جانب هذا الطريق لتزويد البواخر الايطالية بكميات الفحم اللازمة لها (٢) ٠

وفى الوقت نفسه أرسل « ستانتون Stanton » قنصل بريطانيا العام فى الاسكندرية تقريرا لحكومته اوضح فيه أن مجموعة صغيرة من الايطاليين قد وصلوا الى مصوع على الساحل الغربى البحر الاحمر من أجل « اغراض علمية مزعومة » (٣) ٠ كما نشرت مجلة Journal Maritime et Commercial فى عددها الصادر فى ١٢ مايو سنة ١٨٧٠ أن بعثة « روباتينو » التى انطلقت من جنوه قامت باحتلال احدى الجزر فى خليج عصب فى شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وأن بعثة عملية أخرى قد وصلت الى هناك تحت اشراف «الأستاذ سابينو Proffessor Sapito » مما جعل « ستانتون » يستفسر من الحكومة المصرية عن مدى صحة ذلك ٠ وقد أجابت الحكومة المصرية على تساؤل القنصل البريطانى بأن بيع هذه الجزيرة الواقعة فى خليج عصب لم يتم بمعرفة الحكومة ، وأن القنصل الايطالى العام فى مصر ايضا لا يعلم شيئا عن ذلك ٠ وأكدت الحكومة المصرية « لستانتون » أنها لم تسمح بأى تنازل عن ممتلكاتها لأية قوة على الاطلاق (٤) ٠ كما أنها أرسلت بعض القوات المصرية الى عصب وانزلت العلم الايطالى الذى كان مرفوعا هناك بمعرفة البعثة الايطالية التى كانت قد رحلت عن عصب (٥) ٠ وقد عقب على ذلك

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الاحمر ، ص ١٧١ ٠

(٢) F.O. 78/3186 and 78/2138, Paget to F.O., 3/2/70.

(٣) F.O. 78/2138, Stanton to F.O. 4/13/70

(٤) F.O. 78/2139, Stanton to F.O. 5/25/70.

(٥) Marston, T.E. : op. cit., p. 393.

« الميجور جنرال ادوارد راسيل » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بقوله « ان الاترك والمصريين فى غاية الحرص والغيرة على الأراضى الواقعة فى منطقة البحر الاحمر حتى لا تستحوز عليها اية قوىاجنبية ، وان تصرفاتهم فى مسألتى الشيخ سعيد وعصب لتؤكد ذلك »· (١) ·

على أن وزير الخارجية الايطالية رغم اعلانه بأن حكومته ليست مسئولة عن مسألة عصب ، فانه قد أصدر تعليماته الى « دى مارتينو De Martino قنصل ايطاليا العام فى مصر فى ١٦ ابريل سنة ١٨٧٠ لابلاغ أوامر الحكومة الايطالية الى قبطان السفينة الحربية الايطالية المسماة « فيديتا Vedetta » ومعناها «الحارس» التى كانت موجودة بالمياه المصرية حينذاك بالتوجه الى خليج عصب لحماية عملية تأسيس المستعمرة الايطالية الجديدة هناك (٢) · غير أن هذه السفينة بعد وصولها الى عصب فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٠ لم تجد أحدا من الايطاليين هناك بعد أن غادر « سابيتو » هذا الميناء على ظهر السفينة « افريقيا » ولهذا فان السفينة « فيديتا » خرجت بعد ذلك بيومين الى عرض البحر دون ان تفعل شيئا على الاطلاق ·

وهكذا اثار هذا النشاط ايضا احتجاجات الحكومة المصرية حينذاك · وقد كانت الحكومة لايطالية تأمل بعد افتتاح قناة السويس ان تتمكن من تأسيس محطة تجارية على ساحل خليج عصب تساعد على تنشيط وتدعيم التجارة الايطالية بين الشرق والغرب عبر البحر الاحمر وقناة السويس · وكانت ايطاليا تعتقد أن حكومة القاهرة سوف تنظر بعين الاستحسان لتأسيس هذه المحطة التجارية ، وأن بريطانيا لن تعارض فى ذلك ، غير أن آمالها ما لبثت أن باءت بالفشل ·

على أن احتجاجات الحكومة المصرية على الحكومة الايطالية لم تجد فى زحزحة الطليان عن انتهاج هذه السياسة الاستعمارية المكشوفة · وكان خطاب وزير خارجيتهم الى القنصل الايطالى فى مصر بمثابة الاعتراف الصريح بعدم وجود أية حقوق للحكومة المصرية أو الدولة العثمانية فى السيادة على منطقة عصب · وقد فضلت الحكومة المصرية استخدام كافة الأساليب الدبلوماسية لاقناع الحكومة الايطالية بضرورة حمل شركة « روباتينو » على التخلى عما اغتصبته من الاملاك التابعة للدولة العثمانية ، غير أن هذه المحاولات التى بذلتها الحكومة المصرية لم تلق اى استجابة من قبل ايطاليا ·

على أن الأمور بقيت على حالها عند هذا الحد لمدة عشر سنوات فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٧١ و ١٨٨٠ اصيب اثناءها النشاط الايطالى فى الساحل

---

(١) I.O., L.A., Russell to Bombay 7/22/70.

(٢) Douin, G. : Op. cit., tome 2, 2ème partie, p. 244.

الغربى للبحر الاحمر بشىء من الفتور • ويرجع ذلك الى عدة اسباب اهمها أن مشكلات ايطاليا الداخلية التى نشأت كنتيجة طبيعية لوحدة ولايات جزيرة ايطاليا فى مملكة واحدة ، وما تطلبه من جهود لحلها ، كانت موضع اهتمام الحكومات الايطالية المتتالية ، الأمر الذى صرفها مؤقتا عن متابعة نشاطها الاستعمارى فى منطقة البحر الاحمر وفى اصقاع افريقيا الشرقية • (١)

ولكن السبب الذى لا يمكن اغفاله فى هذا المجال هو حرص الحكومة البريطانية طوال السبعينات من القرن التاسع عشر على معارضة النشاط الايطالى فى البحر الاحمر حتى لا يشكل خطرا جديدا على مصالحها الحيوية التى اصبحت من الاهمية بمكان وخاصة بعد فتح قناة السويس • وقد ازداد حرص البريطانيين على معارضة النشاط الايطالى خصوصا فى المناطق القريبة من قاعدتهم الحيوية فى عدن وعند مضيق باب المندب حيث المدخل الجنوبى للبحر الاحمر وذلك حفاظا على مصالحهم هناك •

- موقف البريطانيين فى عدن ازاء تطلع ايطاليا للسيطرة على جزيرة سقطرى :

حاول الايطاليون فى مطلع العقد الثامن من القرن التاسع عشر ان يسيطروا على جزيرة سقطرى ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز عند مدخل خليج عدن وفى مواجهة رأس جوردفوى على الساحل الشرقى لافريقيا • وقد حدث ذلك بالتحديد فى شهر يونيو سنة ١٨٧١ وهو الوقت الذى وصل فيه الى مصر « الجنرال دى فيكى » مبعوث الحكومة الايطالية للتفاوض مع الحكومة الخديوية فى مسألة السيادة على الساحل الغربى للبحر الاحمر • اذ ارسلت حكومة روما السفينة الحربية الايطالية « فيتور بيزانى Vitor Pisani » الى البحر الاحمر لمحاولة الاستيلاء على جزيرة سقطرى وضمها الى الأملاك الايطالية فى شرق افريقيا • وقد بنت الحكومة الايطالية آمالا عريضة على نجاح هذه السفينة فى الاستيلاء على سقطرى ، حيث انها ارادت استخدام هذه الجزيرة لتكون قاعدة لبسط النفوذ الايطالى فى سواحل افريقيا الشرقية •

غير أن السلطات البريطانية فى عدن سرعان ما كشفت النقاب عن المهمة التى جاءت من اجلها هذه السفينة الحربية الايطالية الى مياه خليج عدن • وقد أعلن المقيم السياسى البريطانى فى عدن حينذاك وهو « الجنرال تشارلز تريمنهير ان احتلال ايطاليا لجزيرة سقطرى أمر لا يمكن الموافقةعليه اطلاقا ، (٢) نظرا

(١) Ward, Barbara : Italian Foreign Policy., p. 3.

(٢) Douin G. : op. cit., tome 3, 2éme partie, pp. 254, 255.

للموقع الهام الذى يتميز به هذه الجزيرة عند مدخل خليج عدن نفسه وعلى الطريق البحرى المؤدى الى الهند ٠

وجدير بالذكر — كما سبق أن أوضحت — ان البريطانيين قد تمكنوا من عقد معاهدة مع سلطان المهرة حاكم سقطرى اصبحت الجزيرة بموجبها تحت الحماية البريطانية (١) ٠

وازاء هذه المعارضة من قبل البريطانى لم تستطع ايطاليا أن تحقق ماكانت تطمع الى تحقيقه بارسالها للسفينة الحربية الايطالية « فيتور بيزانى » الى مياه خليج عدن ، وذلك نتيجة لحرص البريطانيين على عدم اتاحة الفرصة لغيرهم من القوى الأوربية الاخرى لمنافستهم فى الطريق البحرى الى الهند ، خاصة وانهم كانوا يرقبون الحوادث عن كثب عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر حينذاك من قاعدتهم فى عدن ٠

— تطور سياسة البريطانيين ازاء النشاط الايطالى فى البحر الاحمر من المعارضة الى المصانعة :

استغلت ايطاليا فى أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر ذلك الضعف الذى لحق بالخديوية المصرية نتيجة لتدعيم الوصاية الدولية وتزايد التدخل الاجنبى المالى والسياسى فى شئونها والذى سوف يترتب عليه بعد ذلك احتلال بريطانيا لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، واندلاع ثورة المهدى فى السودان ، مما جعل ايطاليا تستأنف من جديد نشاطها الاستعمارى فى الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠ وبدأ بعد ذلك ٠ السنيور مانشينى » وزير الخارجية الايطالية يتطلع الى تنفيذ مشروعه الاستعمارى الكبير الذى كان يهدف الى « ألتقاط مفاتيح البحر المتوسط فى البحر الاحمر » ، وهو المشروع الذى اعتمد « مانشينى » فى تنفيذه على مساعدة بريطانيا وتأييدها عندما غيرت سياستها تجاه ايطاليا نتيجة للمنافسة الفرنسية التى واجهتها فى البحر الأحمر ٠

وقد اتضحت معالم السياسة الايطالية الاستعمارية التى رمت الى التوسع وبسط النفوذ الايطالى على الساحل الافريقى للبحر الأحمر معتمدة على مساعدة بريطانيا وتأييدها منذ مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر ٠ وقد اتخذت تلك السياسة الايطالية فى بادىء الأمر طابعا تجاريا ، فعزز « السنيور مانشينى » أولا مركز ايطاليا فى عصب والمناطق المجاورة لها ٠ حتى اذا تم للطليان ذلك لم تلبث السياسة الايطالية ان اتخذت طابعا توسعيا مسلحا ، فانتهز « السنيور مانشينى » فرصة حوادث ثورة المهدى فى السودان الشرقى ليمد نفوذ ايطاليا

(١) Aitchison,, C.U. : op. cit., vol. XI., p. 118.

شمالا الى مصوع · وقد استطاع الطليان الاستيلاء على هذه الجزيرة بمساعدة الحكومة البريطانية وتأييدها نتيجة لانزعاجها من النشاط الفرنسى المنافس لها فى افريقيا من جهة ، ولرغبتها فى الحصول على معاونة ايطاليا لها ضد الدراويش فى السودان الشرقى من جهة اخرى · (١) وبذلك وافقت بريطانيا على احتلال ايطاليا لمصوع بالرغم مما كان لمصر من حقوق فى السيادة عليها · وكانت الباشوية المصرية قد حرصت طوال السنوات الماضية على تدعيم هذه السيادة على الساحل الشرقى لافريقيا من البحر الاحمر وحتى المحيط الهندى عند مصب نهر جوبا جنوبا . باعتبار بلاد الصومال من ملحقات سواكن ومصوع التى كانت تمتلكها الحكومة المصرية فى ذلك الحين ·

وفيما يتعلق بالدور الذى قامت به ايطاليا لتعزيز مركزها فى عصب والمناطق المجاورة لها ، فقد بدأ بالاستجابة لمطلب شركة « روباتينو » التى طلبت من الحكومة الايطالية أن تتبنى النشاط الايطالى على الساحل الغربى للبحر الأحمر · ولهذا قامت هذه الحكومة بارسال احد ضباطها البحريين لدراسة خليج عصب والجزر القريبة منه وتقرير صلاحيتها وتوفير ما يلزم لاتمام هذا المشروع · وقد أكد هذا الضابط اهمية موقع عصب بالنسبة للملاحة عبر البحر الأحمر وبالنسبة للتجارة مع داخل القارة الافريقية · كما ذكر أن موقع عصب بالقرب من بوغاز باب المندب وعدن وتاجورة وزيلع وبربره يجعلها تتمتع بمركز متفوق · بل ان هذا الموقع الذى تتميز به عصب ممكن أن يصبح متفوقا كثيرا عن هذه المناطق الأخرى اذا ما عملت الحكومة الايطالية على اعداد عصب اعدادا جيدا يتناسب مع الدور الذى ترغب فى أن تعهد اليها القيام به ·

كما اقترح هذا الضابط الايطالى ايضا ترك سفينتين من السفن الحربية الايطالية المزودة بالمدفعية فى خليج عصب ، بحيث تكون محطة بحرية ، وعلى أن يتم تعيين حاكم لعصب يمنح سلطات واختصاصات قنصلية على كل الساحل الافريقى للبحر الأحمر · كما أوصى هذا الضابط الايطالى بارسال احدى بطاريات المدافع الى عصب مع حامية من مشاة الأسطول علاوة على بحارة القطعتين الحربيتين، مع بناء الثكنات وبعض المساكن للموظفين هناك · بل انه اوصى ايضا بانشاء مرشح للمياه فى عصب ، وتشجيع هجرة الايطاليين اليها ، واستيطانهم فيها ، وتسهيل امر نقلهم على سفن الدولة بدون أى مقابل ·

وهكذا اتجهت الحكومة الايطالية لتنفيذ هذه التوصيات التى كان من شأنها تدعيم مستعمراتها فى عصب · وقد تضافرت مجهودات الضابط الايطالى صاحب هذه التوصيات مع الجهود التى بذلتها شركة « روباتينو » ووافقت الحكومة

---

(١) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ١١٣ ·

الايطالية على اتمام عقود الشراء مع المشايخ المحليين ، وعلى رصد مبلغ ١٠٤ ملايين ليرة لمشروعات الأشغال العامة فى عصب تشارك فيها أكثر من وزارة • وقد عاد « سابيتو » مندوب شركة « روباتينو » الى الساحل الافريقى للبحر الأحمر مكلفا باتمام توقيع العقود ، والحصول على الأراضى اللازمة لانشاء أولى المستعمرات الايطالية هناك •

بل ان الايطاليين أعدوا عقودا جديدة لكى يضعوا عليها بصمات المشايخ المحليين ، ذكروا فيها ، « انهم يتنازلون عن كل ملكيتهم وسيادتهم على هذه الأراضى ، وأن من حق سابيتو أن يرفع عليها العلم الايطالى بعد ذلك » • وكانت هذه هى أول عقود تذكر لفظى « السيادة » و « العلم » ، وتدل بوضوح على أن الحكومة الايطالية كانت تستعد وترتب مستنداتها للاستناد الى شكليات القانون الدولى ، قبل استنادها الى روحه وجوهره • واخذ الايطاليون يدفعون ثمن البصمات التى يجمعونها على تلك العقود من غير الملاك الشرعيين • كما ادعت الحكومة الايطالية بأن شراء شركة « روباتينو » لهذه الأراضى من المشايخ والرؤساء والسلاطين الذين كانوا دائما مستقلين ، قد حول حقوق السيادة الى الحكومة الايطالية نفسها نتيجة لهذا الشراء • غير أن مصر عارضت هذه النظريات التى لا تستند الى الواقع ، وأصرت على ضرورة احترام حقوقها فى البحر الأحمر •

وعلى الرغم من أن حالة مصر الداخلية فى العقد الثامن من القرن التاسع عشر كانت تنذر بقرب هبوب العاصفة ، قبيل قيام الثورة العربية ، فان الحكومة المصرية واصلت سياستها فى التمسك بأراضيها ، وحاولت أن تنظم المسألة عن طريق التفاوض مع الشركة الايطالية دون تدخل حكومة روما فى هذا الأمر • غير أن الحكومة الايطالية كانت قد صممت فى الوقت نفسه على تنفيذ سياستها الاستعمارية على الساحل الافريقى للبحر الاحمر • ولم تكن الحكومة البريطانية تفكر فى تأييد مصر بالقوة ضد ايطاليا ، خصوصا وانها كانت قد بدأت تفكر هى نفسها فى التدخل فى الشئون المصرية ، وبطريقة تفوق فى نطاقها ونتائجها ما يمكن ان تحققه الجهود الايطالية أو ترمى الى تحقيقه •

على أن الحكومة البريطانية كانت تفطن تماما لأغراض حكومة روما الحقيقية التى كانت تخفيها وراء ستار تحقيق اغراضها التجارية ، خاصة بعد ارسال « سابيتو » الى عصب فى اواخر عام ١٨٧٩ لشراء ما يستطيع شراءه من اراضى هذا الاقليم • وقد ساد الاعتقاد حينذاك لدى الدوائر البريطانية بأن حكومة « كايرولى » الايطالية انما تتخذ من هذا التوسع التجارى ستارا تخفى به اغراضها السياسية فى الساحل الغربى للبحر الاحمر • ولهذا اصبحت بريطانيا تنظر بعين القلق الى توغل النفوذ الايطالى فى تلك المنطقة • (١)

---

(١) Castonnet des Fosses : L'Abysinie et les Italiens, p. 183.

وكانت الحكومة البريطانية قد احفظها من ايطاليا فى العام السابق ١٨٧٨ عدم تعاونها معها فى تاليف حلف البحر المتوسط للوقوف فى وجه الأطماع الروسية فى منطقة الشرق الأدنى · ولهذا فقد كتب « لورد سولسبرى » وزير الخارجية البريطانية فى شهر يناير سنة ١٨٧٩ يقول : لو كان هذا التوسع تجاريا بحتا لنظرت اليه بعين العطف · ولكننا نريد أن نتأكد أنه توسع خلو من كل غرض سياسى لأن البحر الأحمر بمثابة الوتر الحساس لنا » · (١)

بل ان معارضة بريطانيا للتوسع الايطالى حينذاك بدت بوضوح عندما رفضت الحكومة البريطانية بكل شدة اقتراحا تقدم به « غوردون » فى سنة ١٨٧٩ لضم ميناء « زولا » الواقع فى خليج « انسلى » جنوب مصوع الى الايطاليين · على أن ذلك الموقف من قبل الحكومة البريطانية قد جعل الايطاليين يبذلون قصارى جهدهم لتبديد مخاوف بريطانيا من التوسع الايطالى على الساحل الغربى للبحر الاحمر فى ذلك الحين ، حتى تمكنوا من تحقيق ذلك فى نهاية الأمر بعد أن اقتضت مصالح البريطانيين فى البحر الأحمر التعاطف مع الأهداف الايطالية ·

وعلى اية حال فقد استطاع « سابيتو » بعد وصوله الى عصب أن يعقد عدة اتفاقات مع زعماء ومشايخ هذه الجهات · واصبحت ايطاليا بموجب هذه الاتفاقات تمتلك منطقتى عصب ورهيطة · وقد عقدت أولى هذه الاتفاقات الجديدة فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٩ مع الشيخ برهان محمد سلطان رهيطة ، حصلت بمقتضاه شركة « روباتينو » الايطالية ولقاء مبلغ ألفى ريال تقريبا على جزر « أم البقر » و « رأس الرمل » ومجموعة الجزر المسماة « دارماكيا Darmakia » · كما عقدت أيضا عدة اتفاقات بعد ذلك بين « سابيتو » والشيخ برهان بن محمد وشيوخ الدناكل حتى اصبح طول المنطقة التى تم التنازل عنها لشركة « روباتينو » ٣٦ ميلا على ساحل خليج عصب ، ويتراوح عرضها بين ميلين وستة اميال · (٢)

على أن الحكومة الايطالية لم تكن قد وضعت يدها بعد رسميا على هذه المناطق فى الساحل الغربى للبحر الأحمر ، عندما وقعت فى سنة ١٨٨١ الاضطرابات الداخلية فى مصر نتيجة لاشتداد الشعور الوطنى ضد تسلط « الوصاية الدولية » · غير أن ايطاليا سارعت بتعيين « فوميسير مدنى Commissario Clivi » أو مقيم فى عصب هو « السنيور برانكى Branchi » (٣) لرعاية المصالح الايطالية فى هذه الجهات ، ولتنفيذ السياسة التوسعية التى شرعت الحكومة الايطالية فى انتاجها فى هذا الجزء من شرق افريقيا · على ان تلك السياسة

---

(١) محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر، ص١٦٤ ·

(٢) Douin, G. : Op. cit., tome 3, 2ème partie, pp. 249, 250.

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠١ ·

التوسعية الايطالية قد أخذت طريقها للتنفيذ عندما توفر لها التأييد الكامل من قبل الحكومة البريطانية فى ذلك الحين ٠

اذ أن وزارة الخارجية البريطانية بدأت منذ شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ تتحول عن معارضة اعتداءات الطليان على حقوق السيادة الخاصة بالخديوية المصرية على الساحل الغربى للبحر الاحمر ، وهى المعارضة التى كانت تتمسك بها قبيل هذا التاريخ ، ويرجع السبب فى هذا التحول من قبل بريطانيا الى أن وزارة الخارجية البريطانية لم تلبث أن أصبحت تزعجها غاية الازعاج محاولات الفرنسيين وجهودهم المستمرة والمتزايدة حينذاك لتقويض النفوذ البريطانى فى مصر من جهة ، ومسعاهم الدائم للوصول الى قلب افريقيا وبسط نفوذهم فى حوض النيل الأعلى من جهة أخرى ، فضلا عن الجهود التى بذلوها للسيطرة على بعض المواقع الحيوية فى البحر الأحمر على نحو ما حدث فى « أوبوك » على ساحله الغربى وفى « الشيخ سعيد » على ساحله الشرقى ٠

ولهذا رأت بريطانيا منذ ذلك الحين انه من الافضل لها مصانعة ايطاليا فى سياستها التوسعية فى الساحل الغربى للبحر الأحمر ، على أن تكون هذه المصانعة على حساب الأراضى المصرية ٠ (١) وبذلك استخدمت بريطانيا الايطاليين لكى يكونوا حراسا مؤقتين لتلك المناطق ، حتى تتمكن ـ عندما تحين لها الفرصة المناسبة ـ من استعادتها من حراسها المؤقتين لتبسط النفوذ البريطانى عليها ، وبذلك تحافظ على مصالحها فى عدن والبحر الأحمر على السواء ٠

وفى ظل هذه المصانعة البريطانية لايطاليا تمكن الايطاليون من تحويل عصب فى شهر يونيو سنة ١٨٨٢ الى مستعمرة ايطالية ٠ كما انهم احتلوا بعد ذلك بيلول فى شهر يناير سنة ١٨٨٥ ، واعقبوا ذلك باحتلال مصوع فى شهر ديسمبر من نفس السنة ، بعد أن طردوا الحامية المصرية منها واستولوا على املاك الحكومة المصرية بها ٠ بل ان الايطاليين ـ استنادا الى هذه المصانعة البريطانية أيضا ـ تمكنوا من وضع أيديهم على ميناء « زولا » ، وبذلك اصبح الايطاليون يسيطرون على الساحل الافريقى للبحر الاحمر من جنوب سواكن وحتى ميناء اوبوك الذى يشرف على مضيق باب المندب ٠ وفى اليوم الرابع من اغسطس سنة ١٨٨٩ دخل « الجنرال بالديسيرا » مدينة أسمرة ٠ ثم صدر بعد ذلك مرسوم ينظم الممتلكات الايطالية التى نهبتها ايطاليا من املاك مصر على الساحل الغربى للبحر الاحمر فى شهر مارس سنة ١٨٩٠ وسميت هذه الممتلكات بمستعمرة « أريتريا » (٢) ٠

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الاحمر (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ص ١٧٧ ٠

(٢) كانت تسمى هذه المنطقة قديما أيام الرومان باسم اريتريا نسبة الى التسمية اليونانية (سينوس أريتريوس) أى البحر الاحمر ٠

وجدير بالذكر آن الحكومة الخديوية استمرت فى موقفها المعارض للتغلغل الايطالى فى السواحل الافريقية للبحر الاحمر وفى الاحتجاج عليه ، وهو ما أكدته فى كتابها للباب العالى فى شهر مارس سنة ١٨٨٢ (١٥ صفر سنة ١٢٩٩ هـ)٠ فقد اوضحت حينذاك رفضـــها لاقتراح الحكومة الانجليزية بتركهـا للايطاليين فى عصب مع أخذ تعهد بعد استخدامها لأغراض حربية ، نظرا لأن قبول مصر لهذا الاقتراح يعتبر مبدأ خطيرا يتضمن الاعتراف بحق المشـــايخ فى بيع املاكها على الساحل الافريقى للبحر الاحمر ٠ كما اوضحت الحكومة الخديوية فى هذه الرسالة ايضا ان تدخل الحكومة الايطالية فى هذه المسألة من شأنه أن ينقلها من مشـكلة حدود بين مصر وشركة « روباتينو » بحيث تصبح مسألة سياسية بين الحكومتين المصرية والايطالية (١) ٠

بل ان الحكومة الخديوية بعثت الى الباب العالى برسالة أخرى فى الشـــهر المذكور اوضــــحت فيها ان الحكومة الايطالية ابلغتها عن طريق قنصلها العام فى مصر بأنها مستعدة وقادرة ، على الدفاع عن حقوقها الشرعية مادامت مصر تعارض فى عقد معاهدة تعترف فيها بحق تملك ايطاليا لعصب ٠ وأبدت الحكومة الخديوية للباب العالى استنكارها لهذا الموقف نظرا لما تعبر عنه « هذه اللهجة من المجافاة والمنافاة لما بين السلطة السنية والحكومة الايطالية من روابط الود والصـــــداقة القديمة ، وان دلت هذه اللهجة على شىء فانما تدل على أن الحكومة الايطالية مصممة وعاقدة العزم على ألا تعترف للدولة العلية بحقوقها على منطقة عصب ايا كانت هذه الحقوق ولا ترى نفسها ملتزمة بمراعاتها » ٠ وقد رأت الحكومة الخديوية من واجبها أن تحذر الدولة العثمانية من خطورة التسليم لأية دولة فى أى منطقة على جانبى البحر الأحمر بأى حال من الأحوال (٢) ٠

ومما يلاحظ ويستغرب له حقا أن مصر اجبرت حينذاك على أن تستمر فى دفع الزيادة المقررة من الرسوم عن مصوع وزيلع للدولة العثمانية رغم أن هذه الجهات قد خرجت من حوزتها الى المستعمرين الايطاليين ٠ أما بالنسبة لسواكن فقد كانت بريطانيا قد احتلتها واخذت تدعم نفوذها فيها منذ سنة ١٨٨٤ ٠ وبذلك حرمت مصر من ثمرات جهودها فى هذه الجهات من الســـاحل الافريقى للبحـــر

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة : سجل رقم ٢٩ صادر رقم ٢٤٣ مسلسل (أصلى٧) ف (١٥ صفر ١٢٩٩ ـ مارس ١٨٨٢) ، وقد نشر نص الوثيقة فى كتاب ، شـوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ٠

(٢) داد الوثائق القومية بالقاهرة : سجل رقم ٢٩ صادر رقم ٢٥٧ بند الباب العالى مسلسل ١٣٩ أصلى (غاية جمادى الاولى ١٢٧٩ هـ ٠) فى سنة ١٨٨٢ م ، وقد نشر نص الوثيقة فى كتاب :

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ٠

الأحمر ، بعد أن حرصت بريطانيا على بسط نفوذها فى هذا الساحل عن طريق جهودها المباشرة أو بواسطة مصانعتها للمستعمرين الايطاليين ٠

وعلى أية حال فان موقف السياسة البريطانية بوجه عام والمنطلقة من عدن بوجه خاص ازاء النشاط الايطالى فى البحر الاحمر بعد فتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ ، على النحو الذى استعرضناه ، قد تطور من المعارضة لهذا النشاط فى بداية الأمر حتى لا يشكل خطرا على المصالح البريطانية ، الى المصانعة فيما بعد حتى يستفاد منه لمواجهة الأطماع الفرنسية وللحد من تضخمها بعد أن شكلت خطرا أكبر على المصالح البريطانية من الجهود الايطالية المحدودة والتى كان يمكن لبريطانيا أن تضع حدا لها فى الوقت المناسب ٠ وقد تمكنت ايطاليا منذ افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ وحتى خضوع مصر للاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ من السيطرة على ميناء عصب الهام على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ليكون القاعدة والنواة والمركز الذى ستتوسع منه ايطاليا فى هذا الساحل ٠

وسوف يؤدى موقف بريطانيا المهادن للنشاط الايطالى الاستعمارى على الساحل الافريقى للبحر الاحمر الى تمكين ايطاليا من تحقيق سياستها الاستعمارية على هذا الساحل انطلاقا من عصب فى العقدين التاسع والعاشر من القرن التاسع عشر ٠ على أن احتلال البريطانيين لمصر فى سنة ١٨٨٢ وتقييدهم لتصرفاتها فى مسألة السودان حتى أجبروها على اخلائه ، فقد أدى ذلك الى انسحاب المصريين الى الشمال من خط العرض الثانى والعشرين شمالا ، مما مهد الطريق امام التوسع الايطالى الاستعمارى على الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠ وفى الوقت نفسه أدى ذلك الى تحقيق تفوق ملحوظ للبريطانيين فى منطقة البحر الاحمر ، انطلاقا من قاعدتهم البريطانية فى عدن من ناحية الجنوب ، ومن وجودهم فى مصر والسودان من ناحية الشمال ٠

الفصل
السادس

موقف البريطانيين في عدن أثناء التنافس الدولي في البحر الأحمر ١٨٨٢ - ١٩١٤

حرصت السلطات البريطانية فى عدن على الاستفادة من الوضع الذى نتج عن احتلال القوات البريطانية لمصر فى سنة ١٨٨٢ وما أعقب ذلك من تدخل بريطانى فى شئون السودان والممتلكات المصرية الواقعة فى منطقة البحر الأحمر بوجه عام ٠ وكان البريطانيون يهدفون الى تحقيق اطماعهم فى القارة الافريقية بالسطيرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر وعلى وادى النيل ، بالاضافة الى ساحل الصومال المواجه لعدن ، وعلى بعض أجزاء من الساحل الشرقى لافريقيا ٠ غير أنهم اصطدموا بتنافس شديد من قبل الدول الأوربية ذات الأطماع الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر وفى القارة الافريقية من جهة ، كما اصطدموا بالدولتين صاحبتى السيادة فيهما وهما الدولة العثمانية ومصر من جهة أخرى ، فضلا عن مواجهتهم لأهالى البلاد الأصليين الذين أرادوا أن يحافظوا على حريتهم فى أراضيهم من جهة ثالثة ٠

وقد تعاونت السلطات البريطانية فى كل من القاهرة وعدن على وجه الخصوص فى تناسق تام لتحقيق الاهداف البريطانية فى منطقة البحر الأحمر فى ذلك الحين ٠ وبدت نتائج هذا التعاون فى نجاح الخطط البريطانية ، بحيث أصبح البحر الاحمر قبيل الحرب العالمية الأولى أشبه ببحيرة بريطانية ٠

وسوف نتتبع معالم سياسة البريطانين ازاء مصر حتى احتلالهم لها فى سنة ١٨٨٢ واتجاههم للسيطرة على ممتلكاتها فى البحر الاحمر ، مع ابراز تطور علاقة البريطانيين بفرنسا على وجه الخصوص باعتبارها الدولة المنافسة الأولى للمصالح البريطانية فى البحر الأحمر حينذاك ، وتوضيح موقف الدول الأوربية الأخرى المعنية بالأمر وفى مقدمتها ايطاليا التى حاولت أن تحقق مصالحها الخاصة فى المنطقة مستندة الى عدم معارضة البريطانيين لها فى هذا المجال وذلك نظرا

لحرصهم على عدم انفراد منافسيهم الفرنسيين بالتوســـــع على حساب الممتلكات المصرية · هذا الى جانب اظهار موقف مصر والباب العالى ـ صاحبى السيادة على المنطقة ازاء الاطماع البريطانية والأوربية الاخرى فى ذلك الحين · وأخيرا سوف نتناول دراسة موقف البريطانيين فى عدن ازاء النشاط العثمانى على الســـاحل الشرقى للبحر الأحمر بوجه عام ، وفى بلاد اليمن على مقربة من عدن بوجه خاص حتى تكتمل ملامح الصورة التى توضح معالم وأبعاد التنافس الدولى فى البحر الأحمر وموقف البريطانيين فى عدن ازاءه ·

أولا ـ موقف البريطانيين فى عدن ازاء المنافسة الفرنسية حول مصر وممتلكاتها فى البحر الأحمر وخليج عدن (١٨٨٢ ـ ١٩١٤) :

من المعروف أن تدخل الدول الاوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا فى شـــئون مصر قد تزايد بوضوح أثناء العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، وقد نتج عنه انشاء نوع من « الوصاية الدولية » على مصر · وظهر أثر هذه الوصاية الدولية بصورة جدية عندما تدخلت الدول الأوربية لانهاء الخلاف الذى نشب بين الخديو اسماعيل والسلطان العثمانى واستمر حوالى أربعة أعوام، حتى سوى باستصدار الفرمان الشامل فى ٨ و ٩ يونيه سنة ١٨٧٣ · ومع أن هذه التسوية قد دعمت جانب الخديوية فى علاقاتهـــا مع الدولة العثمانية ، فقد أقرت هـــذه التسوية بقاء « الوصاية الدولية » على حالها (١) · وتحول النضـــال بعد تسوية النزاع العثمانى المصرى فى سنة ١٨٧٣ من نضال بين الخديوية والباب العالى للتحرر من التدخل العثمانى فى شئون الخديوية الداخلية ، الى نضال بين الخديوية والوصاية الدولية لوضع حد للتدخل الأجنبى المالى والسياسى فى ذلك الحين (٢) ·

على أن التدخل الأوربى فى شئون مصر قد أدى فى نهاية الامر الى عـــزل الخديو اسماعيل فى شهر يونيه ١٨٧٩ (٣) ، ومن ثم بلغت « الوصاية الدولية » أوج قوتها · وتولى الخديو توفيق عرش مصر بعد عزل اسماعيل ، غير أن شخصية توفيق وطريقته فى الحكم لم تساعداه على التغلب على المشاكل التى واجهته فى بداية عهده · فلم يكن بطبيعته يميل الى النظم الدستورية أو الحكم النيابى ممـــا صادف هوى لدى الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا فى ذلك الحين · غير أنه لم يحز قبول الرأى العام المصرى بصفة عامة ، ورجال الجيش المصريين بصفة

---

(١) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ·

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ص ١٦٤ ·

(٣) Moypenny and Buchle : Life of Disraeli, pp. 115, 117.

خاصة . وقد أدى هذا الى قيام ثورة مصر القومية بزعامة عرابى متأثرة بنمو حركة الجامعة الاسلامية والوعى الوطنى وازدياد كراهية تغلغل النفوذ الاوربى فى مصر حينذاك (١) . ولم تستطع حكومة رياض باشا أن تعمل على تهدئة حالة التذمر فى الجيش . وأدى اسراف هذه الحكومة فى الاعتماد على طبقة الضباط الأتراك والجراكسة والتنكيل بالضباط الوطنيين الاحرار الى تفاقم الحالة والى اشتعال الثورة ، ثم الى احتلال بريطانيا لمصر بحجة اقرار الأمور فيها .

ـ احتلال البريطانيين لمصر وزوال التفاهم بينهم وبين فرنسا :

ظهرت بوضوح بوادر تفكير البريطانيين فى احتلال مصر فى خطابات الملكة « فيكتوريا » وخطابات « لورد جرانفيل » المودعة حاليا فى دار الوثائق الحكومية البريطانية فى لندن . بل ان مستقبل مصر السياسى ومصيرها كان قد تقرر فى نفس السنة التى فرض فيها الفرنسيون على تونس بعد احتلالها معاهدة « باردو » أو معاهدة « قصر السعيد » فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ ، (٢) مما أحدث تطورا خطيرا فى ميزان القوى الدولية فى البحر المتوسط . فقد اعتبرت بريطانيا أن احتلال البريطانيين لتونس قد أخل بالتوازن الأوربى فى البحر المتوسط ومنح فرنسا نفوذا متفوقا على النفوذ البريطانى ، وأن هذا التوازن لن يعود الى حالته الطبيعية بالاحتلال البريطانى لمصر . وقد حتم ذلك على بريطانيا ضرورة استغلال الاوضاع غير المستقرة فى مصر لتحقيق غايتها .

وكانت انجلترا على يقين من أن معظم الدول الأوربية الكبرى لن تعارضها فى احتلال مصر معارضة خطيرة ، (٣) فيما عدا فرنسا التى لم تكن تنظر بعين الرضا الى نمو النفوذ البريطانى فى وادى النيل والى امتداده الى منطقة البحر الأحمر ، كما كانت تحرص فى الوقت نفسه على ألا يكون للباب العالى سلطان حقيقى هناك . وقد نجحت فرنسا فى أن يكون لها مركز مساو لبريطانيا فى مصر منذ أواخر عام ١٨٧٥ ، واتفقت مع بريطانيا على اقتسام النفوذ والوزارات هناك فيما بينهما . بل ان اهتمام الفرنسيين بمصر وبمنطقة البحر الأحمر قد ازداد بمجىء الجمهوريين الى الحكم فى فرنسا فى سنة ١٨٧٧ . واعترفت بريطانيا بمصالح فرنسا الماليه والثقافية فى مصر حينذاك ، كما اعترفت فرنسا بأهمية مصر فى سلسلة مواصلات الامبراطورية البريطانية وأهمها طريق البحر الأحمر بطبيعة الحال . واتفقت الدولتان معا على منع أية دولة ثالثة من الاشتراك معهما

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر واثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ١٩١ .

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الإحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ، ص ٣٥ .

(٣) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : نفس المصدر ، ص ١٧٢ .

فى السيطرة على الحكومة المصرية حتى لا تسمحان بتدخل منافس جديد · وكانت الدولتان تبغيان المحافظة على سلطة الخديو وتأييدها باعتبارها دعامة الاستقرار فى وادى النيل وبقاءها لمصالح الدولتين السياسية والمالية · وقد حرصت وزارات «وادنجتون» و « فريسنة Freycinet » و « جميتا Gambetta الفرنسـية على أن تعمل متفقة مع وزارتى « ديزرايلى » البريطـانية المحافظة و « جلادستون » الحرة لتحقيق تلك الغاية ·

وجدير بالذكر أنه على الرغم من أن مؤتمر الآسـتانة الذى عقدته الدول الكبرى فى ٢٣ يونيه سـنة ١٨٨٢ لم يسـلم لأية دولة من الدول بأن تتدخل بمفردها لاخماد الثورة العرابية فى مصر ، فان انجلترا قامت منفردة بهذا العمل اعتقادا منها بأن الدول الأوربية لن تقوم ضدها بأى عمل ايجابى ، وكانت الحكومة البريطانية تعـلم أن فرنسا لن تعترض على ذلك لأنها دعيت الى التدخل ، ولكن حكومتها رفضت التدخل نتيجة لمعارضـة البرلمان · وعلى النقيض من ذلك كان موقف ايطاليا مشوبا بالمرارة وخيبة الأمل نتيجة لانفراد انجلترا وحدها باحتلال مصر دون أن يكون لها نصيب فى ذلك بحكم موقعها الجغرافى كدولة كبرى من دول البحر المتوسط · (١) فضلا عن تطلعاتها لاتخاذ موطىء قدم لها فى منطقة البحر الأحمر فى ذلك الحين ·

وقد نتج عن احتلال البريطانيين لمصر ــ وسيطرتهم على قنـاة السـويس ودخولهم القاهرة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ــ زوال التفاهم الفرنسى البريطانى الذى عاش من سـنة ١٨٥٥ حتى ذلك الحين · واعتقد الفرنسـيون أن احتلال بريطانيا لمصر قد جعـل التوازن الدولى فى البحرين المتوسـط والأحمر أمرا مستحيلا · اذ أصبح اشراف البريطانيين تاما على الطرق المائية والبرية الموصلة الى الهند والشرق وخاصة طريق البحر الأحمر · واعتبرت فرنسـا أن الاحتلال البريطانى لمصر قد شكل ضربة قاتلة لنفوذها السياسى والحضارى والأدبى ، مما جعلها غيرراضية عن الوضع الجديد فى وادى النيل · (٢) ولهذا فان الفرنسيين انتهزوا كل فرصة لتذكير البريطانيين بوعودهم ومطالبتهم بالجلاء عن مصر ، كما تناولت الصحافة الفرنسية هذا الموضـوع بلهجة متهكمة لاذعة وبأسـلوب ثائر ساخط · بل ان فرنسا حاولت اثارة الدول الكبرى الأوربية على بريطانيـا ، وايدت الباب العالى فى شكواه الدائمة واحتجاجاته العديدة · ولا شك أن الاحتلال البريطانى لمصر قد أخل بالتوازن الدولى فى منطقة البحر الأحمر نظرا لسيطرة بريطانيا على مدخلها الشمالى المتمثل فى مصر وقناة السويس ، بينما كانت تفرض سيطرتها قبل ذلك بأربعين عاما تقريبا على مدخلها الجنوبى منذ الاحتلال البريطانى لعدن فى سنة ١٨٣٩ ·

---

(١) Safwat, M.M. : Tunis And the Great Powers, 1878-1881, p. 395.

(٢) Hanstaux : Histoire de la Nation Egyptienne, Tom 1, p. 5.

— ابقاء البريطانيين للسيادة المصرية على سواحل السودان لمواجهة التوسع الفرنسي :

بعد أن وقعت مصر في قبضة البريطانيين في سنة ١٨٨٢ فان سلطات الاحتلال لم تبد اهتماما كبيرا بشئون السودان ، حيث كانت ثورة المهدى قد استفحلت في السنوات القليلة التي تلت اشتعالها في شهر مايو سنة ١٨٨١ كما لو كانت على موعد واحد مع الثورة العرابية في مصر (١) • وكانت وجهة نظر الحكومة البريطانية في الشهور الأولى التي أعقبت الاحتلال تتلخص في عدم رغبتها في التورط في أية أعمال حربية في السودان • ولم يكن لدى الحكومة البريطانية ما يمنع من تخلي مصر عن بعض أجزاء من السودان على أن تركز اهتمامها في المحافظة على الخرطوم • بل ان بعض المسئولين البريطانيين من أمثال « جلادستون » رئيس الوزارة البريطانية و « جرانفيل » وزير خارجيته و « السير ايفيلين بيرنج » (٢) المعتمد البريطاني في مصر كانوا يرون في الممتلكات المصرية في السودان عبئا ماليا واداريا كبيرا في ذلك الحين •

على أن الحكومة البريطانية لم تشأ أن تطبق في ذلك الحين سياسة الاخلاء على سواحل البحر الأحمر حتى لا تتيح الفرصة أمام الدول الأوربية المنافسة وخاصة فرنسا من السيطرة على هذه المناطق وتهديد قاعدتها البريطانية في عدن وخط مواصلاتها البحرى الرئيسي الى الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر ولهذا رأت أن تحافظ على سلطة الحكومة المصرية في سواحل السودان وخاصة في سواكن والموانى المجاورة الأخرى في البحر الأحمر ، فارسلت وحدات بحرية جديدة لتعزيز القوات الموجودة هناك • وكانت بريطانيا ترى حينذاك ضرورة الاحتفاظ بسواكن بأى ثمن لأنه لا يمكن أن تحتل أية دولة أوربية سواكن بدون الرغبة في توسيع نفوذها في الداخل أملا في الوصول الى مناطق أغنى من ذلك • واذا حققت غرضها واستولت على شاطىء النيل فعلى مصر السلام ، ولن ترضى مصر بمثل هذا الهجوم على كيانها » (٣) •

بل ان الحكومة البريطانية كانت قد عزمت على انتهاج سياسة خاصة بالنسبة لسواحل البحر الأحمر وخليج عدن تختلف عن سياستها في وادى النيل • فبينما كانت تعمل على تصفية النفوذ المصرى في وادى النيل (٤) ، فانها كانت تحرص على سلامة طريقها الى الهند عبر البحر الأحمر عن طريق المحافظة — مؤقتا — على سلطة الحكومة المصرية في السواحل المطلة على هذا

---

(١) على ابراهيم عبده (دكتور) : المنافسة الدولية في أعالى النيل ١٨٨٠ — ١٩٠٦ •

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٥٥ •

(٣) Langer, W.L. : The Diplomacy of Imperialism, 1890-1892, pp. 104, 197.

(٤) F.O. 141/178, Tel. No. 99, Chypher. Granville to Baring. 20th Nov. 1882.

الطريق (١) بعد أن أصبحت هى المتحكمة فى هذه السلطة منذ احتلالها لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، • ولهذا فانه على الرغم من أن السلطات البريطانية عارضت فى بقاء القوات المصرية فى الخرطوم الا للمدة اللازمة لسحب الحاميات من المواقع البعيدة ، فان هذه السلطات قد وافقت على خطة الحكومة المصرية للاحتفاظ بسواكن ، واستخدامها قاعدة حربية للعمليات المقبلة فى السودان (٢) وهكذا ظهرت أهمية سواحل البحر الأحمر السودانية بالنسبة لكل من حكومة القاهرة والسلطات البريطانية على السواء • وكانت بريطانيا تضع فى اعتبارها فى المقام الأول تأمين طريقها الى الهند عبر البحر الأحمر عن طريق تحكمها فى السواحل المطلة على هذا البحر من جهة ، كما كانت تهدف من سيطرتها على هذه السواحل الحيلولة دون تغلغل أية قوى أوربية منافسة فى وادى النيل من جهة أخرى ، هذا فضــلا عن حرصها على تمركز أية قوى منافسة فى تلك السواحل حتى لا تشكل تهديدا للوجود البريطانى فى عدن التى تتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر •

معاهدة عدوة بين مصر والحبشة وبريطانيا فى سنة ١٨٨٤ :

لم تكن الأمور مستقرة فى شرق السودان فى أعقاب احتلال البريطانيين لمصر فى سنة ١٨٨٢ نتيجة لموقف الحبشة العدائى ازاء المصريين هناك • وكانت خطورة الموقف الناتجة عن اطباق قوات المهدى ورجــال القبائل على حاميــات كسلا ، وأميديب ، وسنهيت حتى قطعت عنها كل اتصال بالخرطوم • ولما كانت آثار الحروب بين مصر والحبشة فى عصر اسماعيل لا تزال باقية ، كما كانت الحدود المصرية الحبشية غير ثابتة بشكل نهائى وبخاصــة عند اقليم بوغوص ، الأمر الذى تسبب فى قيام مصادمات بين سلطات الحدود من الجانبين من وقت لآخر فقد وجدت الحكومة البريطانية أن أفضل السبل لانقاذ القوات المصرية فى شرق السودان هو الاتفاق مع « يوحنا » امبراطور الحبشة على تقديم العون العسكرى والتسهيلات اللازمة لانسحاب تلك القوات عن طريق الحبشة • على أن يكون ذلك فى مقابل الاعتراف له بكل المطالب الاقليمية التى كانت مثار نزاع بينه وبين خديو مصر • وهذا يعنى أن بريطانيا قد ضغطت على حكومة مصر لقبول التنازل عن بعض ممتلكاتها للحبشة نظير مســاعدتها للقوات المصرية بشرق السودان على الانسحاب • وكما نجحت بريطانيــا فى ارغــام مصر على قبول الجلاء عن السودان ، نجحت أيضا فى اقطاع أجزاء من ممتلكاتها فى السودان الشرقى ومنحها للحبشة ، وذلك بموجب معاهدة عدوة •

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : سواحل البحر الاحمر ، ص ١٤ ، ١٧ •

(٢) F.O. 141/178, Tel. No. 181. Confidential. Chypher, Baring to Granville 26th. Novem. 1883.

ففي اليوم الثالث من يونية سنة ١٨٩٤ تمكنت الأطراف الثلاثة المعنية بالأمر وهي مصر والحبشة وبريطانيا من عقدة معاهدة عدوة (١) • وقد وقعها عن الجانب البريطاني «الأميرال السير وليم ناثان هيويت Sir William Nathan Hewett قائد الأسطول البريطاني في الشرق الأوسط ، وعن الجانب المصرى « مازون بك» محافظ مصوع ، وعن الجانب الحبشي الامبراطور « يوحنا » نفسه • (٢) كما صدقت على تلك المعاهدة ملكة بريطانيا في اليوم الرابع من يولية سنة ١٨٨٤، بينما صدق عليها خديوى مصر في اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر من نفس السنة • (٣)

ولا شك أن تنازل مصر عن بعض ممتلكاتها للحبشة وهي بوغوص وكسلا وأميديب وسنهيت بموجب هذه المعاهدة تعد خسارة أرغمت بريطانيا مصر على قبولها ، وان كانت هذه الخسارة لا تقارن بخسارتها في الجلاء عن السودان بأكمله بأية حال • (٤) وهكذا خرجت الحاميات المصرية التى كانت مهددة في السودان الشرقي تاركة المناطق التى كانت تحتلها هناك ، ووصلت الى مصوع ومنها الى مصر • وبذلك أصبح المهدى وخليفته عبد الله التعايشي منذ عام ١٨٨٥ السيدين اللذين لا ينازعهما أحد في السودان بأكمله ، ما عدا المنطقة الاستوائية حيث كان هناك أمين باشا محتفظا بمركزه وحاكما باسم مصر حتى سنة ١٨٨٩ (٥) •

وبعد أن وافقت الحكومة المصرية على اخلاء السودان استجابة لنصيحة انجلترا ، فقد استقر رأى الحكومة البريطانية على ارسال « غوردون » الى الخرطوم (٦) لتصفية الممتلكات المصرية وتأمين سلامة الأجانب (٧) وتقديم تقرير عن الطريقة الممكنة لاجلاء قوات مصر من هناك • وكذلك عن الوسائل التى يمكن اتباعها لحماية موانى البحر الأحمر وادارتها ادارة حسنة (٨) • غير أن

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : سواحل البحر الاحمر ص ٥٦ — ٦٢ .

(٢) F.O. 93/2-2, Treaty between Great Britain, Egypt, Abyssinia, 3 June 1884.

(٣) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقيا وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ١٦٤ .

(٤) محمد محمود السروجى (دكتور) : العلاقات بين مصر وأثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٠٣ .

(٥) على ابراهيم عبده (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٩٤ — ٩٥ .

(٦) جلال يحيى (دكتور) : الثورة المهدية واصول السياسة البريطانية فى السودان، ص ١٢٦ — ١٣٠ .

(٧) Allen, B., M. : Gordon and the Sudan, p. 229.

(٨) Shibeika, M., British Policy in the Sudan 1882 — 1902, pp. 156-157.

« غوردون » لم يوفق فى انجاز هذه المهمة نظرا لاتباعه سياسة القوة والبطش أثناء حكمداريته للسودان مما أثار روح العداء للادارة المصرية حينذاك · كما « لم يكن ارسال غوردون وهو أجنبى أوربى مسيحى ليوقف خطر المهديين فى أكبر أوقات انتصارهم ، وفى أعظم درجات حماستهم الدينية التى أخذت تكتسح كل شىء فى طريقها ، لم يكن ارساله خطة حكيمة ، ولذا لم يكن غريبا أن يفشل غوردون فى محاولته » (١) ·

ولهذا فقد باءت بالفشل جميع الخطط التى وضعها « غوردن » لانقاذ الموقف فى السودان ، (٢) كما أخفقت أيضا كل المحاولات التى أرسلت لنجدته ، وترتب على ذلك سيطرة المهديين على معظم أجزاء السودان وانقطاع المواصلات بينها وبين مصر حينذاك · بل ان خطورة المهديين قد زادت باستيلائهم على أم درمان فى شهر يناير سنة ١٨٨٥ ، وتهديدهم للخرطوم تهديدا مباشرا كما شجع سقوط أم درمان على مواصلة حصارهم للخرطوم والتشديد عليها قبل أن تتمكن الحكومة المصرية من نجدتها · وتم لانصار المهدى الاستيلاء على العاصمة فى نفس الشهر وقتل « غوردن » والتنكيل به ·

ومنذ ذلك الوقت أصبح المهدى سيدا للسودان الى أن مات بعد سقوط الخرطوم مباشرة (٣) وترك لخليفته عبد الله التعايشى تركة مثقلة بالأعباء · اذ أن الدولة الجديدة قامت على أكتاف الدراويش ممن لا خبرة لهم بالسياسة أو شئون الحكم · هذا فضلا عن أن موت المهدى المفاجىء دون أن يتمكن من تثبيت دعائم الحكم على أسس وطيدة من النظام ، جعل من الدولة الكبيرة بناء لا أساس له ولا يستطيع الصمود أمام العواصف التى اجتاحته من كل جانب (٤) · وقد ارادت بريطانيا أن يصبح السودان « بغير صاحب Res Nullius » حتى يمكنها فيما بعد أن تقوم باحتلاله (٥) وهو ما نجحت بالفعل فى تحقيقه ·

بل ان بريطانيا لم تنظر بعين الارتياح الى أية محاولة من قبل بعض الدول الأوربية أو غيرها للتسلل فى شرق أفريقية والتقدم صوب منطقة أعالى النيل ، وخصوصا على حساب الممتلكات المصرية السابقة فى السودان · على أن احتلال بريطانيا لمصر قد منحها نوعا من الوصاية عليها وعلى ممتلكاتها ، وهذا ما سوف يجعلها تضع يدها فيما بعد على السودان باسم مصر واحتسابها من الناحية

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .

(٢) على ابراهيم عبده (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٨٩ — ٩١ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة : يوجد تقرير مطول عن ثورة المهدى يتضمن مجموعة من البرقيات المتعلقة بانباء الثورة ، محفظة السودان رقم ٢ ملف رقم ٢/٢ وثيقة ٢/٢/٤٠٢، ص ٢٢٥ — ٢٧ .

(٤) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٥) Velay, Etienne : Les Rivalites Franco — Anglaise en Egypte 1870 — 1904, pp. 164, 165.

الرسمية • وكانت بريطانيا تحلم حينذاك بخلق امبراطوريتها الأفريقية التى تمتد من سواحل البحر المتوسط شمالا الى مدينة الكاب جنوبا وتشطر القارة الأفريقية الى شطرين ، بحيث تصبح منطقة أعالى النيل مركز الدائرة لهذه الامبراطورية وحلقة الاتصال فى سكة حديد القاهرة — الكاب •

على أن سياسة بريطانيا ازاء منطقة البحر الأحمر وازاء القارة الأفريقية تأثرت كثيرا بالموقف الدولى بصفة عامة ، وبموقف فرنسا بصفة خاصة • اذ كانت فرنسا هى الدولة الوحيدة التى عارضت الاحتلال البريطانى لمصر معارضة جدية • ووقفت له بالمرصاد منذ بدايته • وكانت انجلترا تخشى أن تؤدى معارضة فرنسا لبقاء احتلالها لمصر الى اقدامها على مهاجمة منطقة أعالى النيل لارغام انجلترا على الدخول فى مفاوضات معها لحل المسألة المصرية • ولهذا فقد حرصت بريطانيا على منع فرنسا من الوصول الى هذه المنطقة بأى حال من الأحوال • كما انها حرصت على أن تحول بين ايطاليا والحبشة والمانيا وبين الوصول الى منطقة أعالى النيل ، نظرا لما بدا من تلك الدول من رغبة أكيدة فى السيطرة عليها فى ذلك الحين (١) •

وهكذا أدى احتلال البريطانيين لمصر فى سنة ١٨٨٢ الى تمكنهم من السيطرة على قناة السويس مما جعلهم يتحكمون تماما فى المدخل الشمالى للبحر الأحمر بعد أن تمكنوا من السيطرة على مدخله الجنوبى منذ احتلالهم لعدن سنة ١٨٣٩ • كما نتج عن احتلالهم لمصر اجبارهم لها على الانسحاب من السودان بعد أن أجبروها أيضا على عقد معاهدة عدوة مع الحبشة فى اليوم الثالث من يونية سنة ١٨٨٤ التى اضطرت مصر الى التنازل بموجبها عن بعض ممتلكاتها فى السودان الشرقى وتمنحها للحبشة وأخيرا أرادت بريطانيا أن يصبح السودان بغير صاحب حتى يمكنها فيما بعد القيام باحتلاله وهو ما نجحت بالفعل فى تحقيقه • ولهذا بذلت بريطانيا كل طاقتها للحيلولة دون اقدام أى من الدول الأوربية المنافسة لها وخاصة فرنسا على مهاجمة منطقة أعالى النيل عن طريق السيطرة على السواحل الغربية للبحر الأحمر وذلك حفاظا على مصالحها الحيوية بتأمين مواصلاتها الى الهند والشرق الأقصى عبر البحر المذكور من جهة ، وتحقيق تطلعاتها الاستعمارية فى القارة الأفريقية من جهة أخرى على أن هذا الموقف من قبل الحكومة البريطانية قد أدى بطبيعة الحال الى زيادة حدة التنافس الدولى فى منطقة البحر الأحمر حيث تكالبت الدول الأوربية وخاصة فرنسا ثم ايطاليا والمانيا للسيطرة على مواقع لها هناك للانطلاق منها لتحقيق أهدافها الاستعمارية •

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ •

انطلاق البريطانيين من عدن للسيطرة على أملاك مصر في الصومال :

راودت البريطانيين بعد احتلالهم لمصر فكرة اجبـــار المصريين على اخلاء سواحل الصومال المطلة على مضيق باب المندب وخليج عدن وخاصة قرب نهاية عام ١٨٨٣ ٠ وقد تدعمت هذه الفكرة لدى البريطانيين بعد نجاحهم فى اجبار مصر على التنازل للحبشة عن بعض ممتلكاتها على السواحل الغربية للبحر الأحمر في السودان الشرقى وذلك بناء على ما نصت عليه معاهدة عدوة فى اليوم الثالث من يونية سنة ١٨٨٤ ٠ وكان البريطانيون يهدفون من وراء ذلك الى استمرار تنفيذ مخططهم للســيطرة على منطقة البحر الأحمر مما جعلهم يفكرون فى أن يحلوا محل المصريين فى سيطرتهم على هذه الســـواحل المواجهة لعدن التى سينطلقون منها لتحقيق تلك الغاية ٠ وهو نفس الهدف الذى كانوا يمهدون السبيل لتحقيقه فى نفس الوقت على سواحل السودان الشرقى بتصفية النفوذ المصرى هناك واحلال نفوذهم محله ٠ وكانت السلطات البريطانية فى عدن قد أكدت أن تدخل البريطانيين فى سواحل الصومال المطلة على مضيق باب المندب وخليج عدن يعتبر أمرا ضروريا لضمان سلامة عدن نفسها ، وضمان استمرار وصول المراد الغذائية المختلفة اليها من تلك السواحل ٠

ولم يقتصر الأمر حينذاك عند تحقيق تلك الغاية ، بل ان ذلك كان يعنى بالنسبة للبريطانيين تامين مستقبل طريق الهند عبر البحر الأحمر ٠ وكان أول من دعا لفكرة اخلاء المصريين لسواحل الصومال المواجهة لعدن والتى تطـل على خليج عدن ذاته هو « الميجـــور هينتر Major F. Hunter » وهو أحـــد ضباط فرقة أركان بومباى Bambay Staff Corps وكان يشغل منصب مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، ونائب القنصل فى سواحل بلاد الصومال حينذاك ٠ (١) اذ ادعى هذا الضابط البريطانى أن تدخل البريطانيين لبسط نفوذهم على هذا الساحل الجنوبى لخليج عدن هو أمر ضرورى ٠ فقد سبق له أن زار بلاد الصومال وهرر وتعرف على أحوالها ٠ وعقب عودته من هناك ادعى أن « منليك الثانى » ملك شوا كان يستعد مع قبائل الجالا للاستيلاء على هرر ، وأن قبائل الصومال كانت تهدد باخراج الحاميات المصرية من زيلع وبربرة فى ذلك الحين وقد ضمن ادعاءه هذا برقية بعث بها الى « السير ايفلين بيرنج » المعتمد البريطانى فى القاهرة حينذاك (٢) ٠ وكانت هذه البرقية تهدف الى تحقيق غرضين ، أولهما اظهار أن ســلطة مصر على هرر وفى موانى خليج عدن قد أصبحت مهددة من جانب الأهالى والرؤساء المحليين مما جعلها لا تســتطيع البقاء دون أن يؤيدها وجود البريطانيين هناك ٠ أما الغرض الثانى فهو توجيه البريطانيين الى التدخل

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٦٤ ٠

(٢) FO.. 141/192, No. 5, Baring to Granville, 1st January 1884.

للمحافظة على عدن نفسها ، وهى القاعدة البحرية الهامة ومفتاح البحر الأحمر ومحطة التموين الضرورية للمواصلات البحرية الامبراطورية مع الهند واستراليا وشرق افريقيا وتحتاج فى تموينها الى سواحل الصومال المواجهة لها (١) ٠

وقد رحب « السير ايفلين بيرنج » كثيرا باستقبال برقية « الميجور هنتر » التى تتضمن ادعاءاته هذه ، نظرا لأنها كانت تخدم الأهداف التى كان يسعى اليها ، فسارع بتحويلها الى حكومة لندن دون ادخال أية تعديلات عليهــا ودون أن يرفق بها رأى السلطات المصرية (٢) ٠ وكان «السير ايفلين بيرنج» يرى فى البرقية المذكورة تدعيما لآرائه التى كانت تنادى بان الحــكومة الخديوية لا تستطيع الاحتفاظ بسلطتها على ممتلكاتها الافريقية ، ولأنهــا كانت تخدم فكرة اجبار هذه الحكومة على اصدار أمرها باخلاء السودان وسحب جميع الجنود والموظفين والتابعين لها من هناك ٠

وقد لقيت برقية « الميجور هنتر » عند وصولها الى لندن كل اهتمام من قبل « اللورد جرانفيل » ووزارة الهند البريطانية على السواء ٠ وقــد بـدا حرصهما على عدم ضياع موارد زيلع وبربرة التى أكد على أهميتها « اللورد كمبرلى وزير الهند حينذاك ٠ ولهذا سرعان ما صدرت الأوامر « للأميرال السير وليم هيويت » فى سواكن بارسال احدى القطع البحرية لتبقى على مقربة من الساحل هناك ٠ وقد توجهت فورا من سواكن السفينة البريطانية « سفنكس Sphenx حيث وصلت الى خليج عــدن ومرت بميناءى زيلع وبربرة ٠ وقد بعث قائد السفينة تقريرا الى حكومته فى ٧ يناير ســنة ١٨٨٤ آكد فيه « أن كل شىء هادىء فى بربرة ٠٠ وفى زيلع وفى الأقاليم المجاورة ولا يوجد هناك ما يدل على اضطرابات (٣) وقد أكد هذا التقرير كذب تقارير « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن الذى ادعى فيه تعرض السلطات المصرية فى الصومال للتهديد ٠

ورغم ما أكدته الوثائق البريطانية من كذب ادعاءات «الميجور هنتر» وعدم صحة تقاريره ، فان بريطانيا لم تعدل عن تنفيذ سياستها فى تصفية النفوذ المصرى فى منطقة البحر الأحمر وعلى سواحل الصومال المطلة على خليج عدن حينذاك ، مما يؤكد أنها كانت تنفذ ســياسة مرسومة وأنها اتخذت من تقارير « هنتر » الكاذبة مبررا لتنفيذ هذه السياسة ٠

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : الثورة المصرية ، ص ١١٤ — ١١٥ ٠

(٢) F.O. 141/193, No. 3[illegible], Baring to Granville, 29th March, 1884.

(٣) S.P., Vol. LXXXIX, Egypt, No. 14, 1885. Correspondence respecting respecting ports in the Red Sea and the Gulf of Aden and the province of Harrer, No. 9, pp. 1,3.

ولهذا فان « السير ايفلين بيرنج » لم يعر التقرير الأخير أى اهتمام ، خاصة أنه يؤكد أن الحالة هادئة وطبيعية على سواحل الصومال المطلة على خليج عدن وأن الادارة المصرية مستقرة هناك ، مما لا يتطلب اتخاذ أى قرار بل انه واصل سياسته السابقة التى بناها على تقارير « هنتر » الكاذبة والتى ادعى فيها خطورة الحالة فى المنطقة • وساعده على ذلك نوبار باشا الذى قبل أن يؤلف وزارته التى ستعمل على تنفيذ النصيحة الاجبارية البريطانية باخلاء السودان •

وقد أبلغ القنصل العام فى القاهرة حكومة لندن أن الحكومة الخديوية تطلب ارسال أحد الضباط الانجليز الى هرر « لدراسة امكانية توفير بعض حامياتها » • بل انه عاد بعد ذلك ببضعة أيام وطالب باعطاء هذا الاقليم استقلاله وارجاعه الى الأسرة الحاكمة القديمة التى كانت قد تولت أموره قبل الفتح المصرى • غير أنه اعترف فى نفس الوقت بأن الحكومة المصرية كانت عازمة على الاحتفاظ بالموانى على أقل تقدير • ولهذا رأى امكانية اخلاء هرر بسرعة اذا ما كلف « الميجور هنتر » وهو الذى كان لا يزال موجودا فى هذا الاقليم بالبقاء هناك وتنفيذ هذا الاخلاء • (١)

وكان من الطبيعى أن توافق حكومة لندن على تنفيذ هذه الخطة دون أى مناقشة لها • ولكن « هنتر » كان يهدف الى جعل « السير ايفلين بيرنج يوصى بتعيينه حاكما عاما على هرر على أن يكون مستقلا عن مصر تمام الاستقلال • غير أن هذا الترتيب سيتعارض مع المشروعات والخطط التى تطلبتها المصالح البريطانية حينذاك والتى اقتضت أن يقوم بمهمته فى ذلك الاقليم بوصفه مكلفا من قبل الحكومة المصرية • ولهذا فقد حرص « هنتر » على أن يحرك دائما شبح التهديد الجاثم على بربرة عقب حوادث السودان الأخيرة • وذلك لكى يمنع السلطات البريطانية فى القاهرة أو الوزارة فى لندن من تعديل قراراتها • بل انه نادى حينذاك بضرورة وضع ميناء بربرة « مؤقتا تحت ادارة المقيم السياسى البريطانى فى عدن » وقد ناقض نفسه عندما ذكر أخيرا أنه لا يعتقد أن الصوماليين أوالجالا أو القبائل الأخرى ستقوم بثورة فى الحال • (٢)

ولا شك أن هذا التصريح قد ساعد « السير ايفلين بيرنج » على أن يعترف بدوره بأن الحكومة الخديوية لا تشعر بأنها مجبرة أو مضطرة الى اخلاء هذه المناطق ، خصوصا وأن نوبار باشا كان يرغب فى أن يتمهل فى المسألة ويتركها معلقة الى أن تنتهى مهمة « الجنرال غوردن » فى الخرطوم • ورغم اعتراف القنصل

---

(١) F.O., 141 — 193 ; No. 369. Baring to Granville, 29th March, 1884.

(٢) F.O. 141 — 193. No. 435., Baring to Granville, Enclosure. Hunter's Memorandum, 17th April, 1884.

العام البريطانى بخطورة مهمة « هنتر » فى هرر ، فانه احتفظ بمبدأ اخلاء هذا الاقليم مدعيا ضرورة ذلك للمالية المصرية · ولا شك أن هذا الادعاء يتعارض مع الحقيقة ، اذ بالرغم من أن ميزانية زيلع وبربرة كانتا مدينتين نظرا لأنهما كانتا تمونان عدن ، فان ميزانية هرر كانت دائنة بشكل واضح مما يغطى عجز ميزانية الميناءين ويرسل بالفائض للخزانة العامة فى القاهرة · ولكن القنصل العـــام الانجليزى لم يكلف نفسه بطبيعة الحال عناء بحث هذه الميزانية ليتبين منها أن اخلاء تلك الاقاليم سيكون خسارة واضحة على الميزانية المصرية · غير أنه أدعى علاوة على ذلك بأن ادارة هذا الاقليم تعتبر خسارة لمصر سواء فى الرجال والأموال · ومن الملاحظ أن حكومة لندن قد تبنت هى الأخرى هذه الحجة الكاذبة لتمهد بذلك السبيل لسيطرتها على هذه المناطق ·

وكانت بريطانيا تنوى فى ذلك الحين عـدم الدخول مع الباب العـــالى فى مفاوضات تخص مصر نفسها الا بعد ان تستقر أوضاع السودان · غير أن ذلك لم يجعل بريطانيا تحجم عن دعوة السلطان ــ ذرا للرماد فى الأعين ــ الى أن « يباشر سلطته على موانى الساحل المصرى فى البحر الأحمر · وأن يحتلها بجنوده » (١) وذلك بوصفه صاحب السيادة على مصر · على أن بريطانيا قد طلبت من الباب العالى سرا أن يطبق فى هذه الأراضى التى ستوضع تحت ادارته المباشرة نصـــوص الاتفاقات القائمة بينها وبين الدولة العثمانية فيما يخص حرية التجـــارة والملاحة ونسبة الضرائب ورسوم الجمارك والغاء تجارة الرقيق ، وذلك فى سواحل البحر الأحمر الواقعة الى الشمال من بوغاز باب المندب ·

كما حاولت بريطانيا استغلال الدولة العثمانية فى ارسال قواتها الى سواحل البحر الأحمر لتطويق الثوار السودانيين من قواعد تحتلها القوات البريطانية · وكانت هذه مسألة هامة ومعقدة بالنسبة للباب العالى وتتطلب بحثا من جميع النواحى ، خاصة أن القوات البريطانية كانت موجودة بالفعل فى كل من مصر وسواكن ومصوع · بل ان الدولة العثمانية رفضت فى الوقت نفســه البدء فى مناقشة تسوية المسألة المصرية الا بعد أن تستقر الاحوال ويظهر بوضوح الاتجاه الذى سيسود الملحقات المصرية · ولهذا فقد رأى الباب العالى أن ارسال قواته الى سواحل البحر الاحمر حينذاك سيكون الهدف منه اسـتخدامها فى الوصول الى تسوية خاصة بجزء صغير من المسألة المصرية ، دون أن يمس صلب الموضـــوع وأساسه · خاصة أن بريطانيا كانت قد أجبرت الحكومة الخـــديوية على اصدار امرها باخلاء السودان دون أن تستشير الباب العالى فى هذا الأمر ·

ومعنى ذلك ان بريطانيا كانت تعمل على تطبيق ما يحلو لها فى الامبراطورية المصرية وترفض التحدث بشأنه وشأن مركزها فى مصر بالنسبة للدولة العثمانية

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٦٦ ·

ثم تدعو السلطان صاحب السيادة الى احتلال موانى البحر الأحمر وتجعل ذلك مشروطا بشروط على السلطان أن يقبلها قبل استلامه لهذه الاراضى • وقد رأت الدولة العثمانية أن هذا التصرف من جانب البريطانيين يتعارض مع حقوق سيادتها ، اذ أن بريطانيا تتخذ القرارات التى تراها ، وتسمح للباب العالى بتنفيذ جزء منها بشروط معينة • وكانت بريطانيا قد قررت سحب القوات المصرية من زيلع وبربره وهرر ، دون أن تستشير الباب العالى ، ودون أن تفصح عن نياتها المقبلة ، وخططها المبيتة تجاه هذه الاراضى • بل ان قرار اخلاء تلك الاراضى كان يتعارض مع شروط الاتفاقية المصرية الانجليزية المعقودة فى سنة ١٨٧٧ ، والتى اعترفت بريطانيا فيها بحقوق مصر وبالسيادة العثمانية على كل هذه الاراضى • ثم جاءت بريطانيا مدعية فى سنة ١٨٨٤ غير ما أقرته فى سنة ١٨٧٧ ، وهو أنها اعترفت بالسلطة المصرية وليس بالسيادة العثمانية على الاراضى الممتدة من بوغاز باب المندب حتى رأس حافون • ولا شك أن هذا الادعاء الغريب تكذبه نصوص المعاهدة ويفضح نية البريطانيين بخصوص السيادة على الاجزاء التى لا يرغبون فى الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها •

بل ان الاتفاقية المصرية البريطانية فى سنة ١٨٧٧ تشتمل على مادة تتعهد فيها مصر بألا تتنازل عن أى جزء من الساحل لأية دولة أجنبية • ولا شك أن وضع مثل هذه المادة فى صلب المعاهدة يحد من حقوق السيادة العثمانية بطريقة تعنتية • وكان ذلك هو السبب الذى دفع الباب العالى الى طلب ابعاد هذه المادة قبل أن يصدق على المعاهدة • وعلى أية حال فيمكن القول بأن بريطانيا أرادت التخلص من معاهدة سنة ١٨٧٧ التى اعترفت فيها بسلطة مصر الفعلية تحت السيادة العثمانية على كل بلاد الصومال حتى رأس حافون • حتى يخلو لها الجو لبسط السيطرة البريطانية على كل هذه المناطق ، متحدية بذلك حقوق السيادة المصرية والعثمانية على السواء • (١)

على أن السياسة البريطانية كانت تهدف حينذاك الى تقسيم السواحل الممتدة بين باب المندب ورأس حافون ، وهى تمثل الجزء الاخير من الساحل المصرى المواجه لعدن الى قسمين ، وتعامل كل قسم منهما معاملة خاصة • فالقسم الأول يمتد من بوغاز المندب حتى زيلع وهو الذى يحيط باراضى « اوبوك الفرنسية » وكان مهددا بأن يكون موضع التوسع الفرنسى المقبل فى تلك المنطقة • أما القسم الثانى فيمتد فى الجهة الشرقية من زيلع حتى رأس حافون ، وأهم موانيه هى بربره الواقعة أمام عدن ، وتتميز أهميتها الحيوية بالنسبة لتموين هذه القاعدة الاستراتيجية البريطانية الهامة بما تحتاج اليه لاستهلاكها المحلى ولاستهلاك السفن التى ترسو فيها • وقد اعترفت وزارة الخارجية البريطانية بأن الباب

(١) Marston, T.E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, p. 494.

العالى قد قام بمباشرة حقوق سيادته على الاراضى الممتدة من بوغاز باب المندب حتى زيلع . واعترفت أيضا بأن « حقوق السلطان على هذا الجزء لم تكن موضوع أى مناقشة رغم أن حكومة صاحبة الجلالة لم تعترف بها أبدا كما ذكر ذلك « اللورد جرانفيل » الى « اللورد دافرين » فى ٢٩ مايو سنة ١٨٨٤ (١) . ومن الملاحظ أن هذا الاعتراف المتأخر بسيادة الباب العالى على الأراضى الممتدة من بوغاز باب المندب حتى زيلع كان يقصد منه أن تواجه السلطنة العثمانية التوسع الفرنسى المرتقب فى ذلك الحين بدلا من بريطانيا .

أما فيما يخص الجزء الثانى من هذه السواحل فان بريطانيا ادعت أنها قد رفضت مرات عديدة الاعتراف « بادعاءات السلطان الخاصة بالسيادة على قبائل الصومال الموجودة بين زيلع ورأس حافون » . ولهذا فان وزارة الخارجية البريطانية قد اقترحت على الباب العالى أن يقوم ، فى حالة ما اذا كان اخلاء المصريين سيدعوه للحركة ، الى العمل على المحافظة على سلطة الدولة العثمانية على تاجورة وزيلع (٢) . وذكر له بأنها مستعدة للاعتراف بملكيته لهذا الاقليم اذا تعهد بعدم التنازل عن أى جزء منه لأية دولة أجنبية . أى أن بريطانيا فرضت نفسها وشروطها على الباب العالى بشكل يحد من حقوق سيادته ، ويسمح لها بحرية التصرف اذا ما رفض الباب العالى هذه الشروط . ولا شك أن تدخل بريطانيا فريد فى نوعه وهو ما سبق أن رفضه الباب العالى فى معاهدة سنة ١٨٧٧ . فالشروط التى كانت بريطانيا ترغب فى فرضها حينذاك هى الغاء تجارة الرقيق والتعهد بعدم جباية أية ضرائب أو رسوم جمركية فى تاجورة وزيلع أكثر مما حددته المعاهدة الانجليزية المصرية فى سنة ١٨٧٧ . هذا مع تعهد الباب العالى بعدم التنازل عن أى جزء من أجزاء تلك الأراضى والسواحل لأية دولة أجنبية .

بل ان وزارة الخارجية البريطانية سمحت لنفسها أيضا فى المذكرة السابقة بان تبلغ الباب العالى نياتها بخصوص ذلك الجزء الثانى الممتد الى الشرق من زيلع حتى رأس حافون ، اذ أرادت بريطانيا أن تحتفظ بهذا الجزء لنفسها . ولهذا أوضحت أنها ترغب فى عمل التسويات اللازمة للمحافظة على النظام وحماية المصالح البريطانية ، خاصة فى بربرة التى كانت عدن تعتمد عليها فى التموين . وقد وصفت وزارة الخارجية البريطانية سحب حاميات الخديو بأنها تخلى Abandon الحكومة المصرية عن سواحل الصومال . وذكرت أن هذا الانسحاب « سينهى اتفاقية عام ١٨٧٧ بين انجلترا ومصر » ، وهى الاتفاقية التى اعترفت فيها بريطانيا بالسلطة المصرية على تلك السواحل وأضافت الى ذلك أيضا أن هذه الاتفاقية « لم تطبق نتيجة لرفض السلطان قبول الشرط الذى فرضته المادة

(١) F.O., C. 4417 ,No. 25. Garanville to Dufferin, 29th, May, 1884.

(٢) F.O., C. 4417., No. 25. Op. Cit., 29th, May, 1884.

الخامسة » (١) • وعلى أية حال فان بريطانيا أرادت بسياستها هذه اطلاق يدها فى التصرف فى السواحل الأفريقية المواجهة لعدن ، سواء ما كان منها مطلا على البحر الأحمر أو واقعا جنوبى مضيق باب المندب ويطل على خليج عدن •

وقد أرسلت الحكومة البريطانية تعليماتها الى « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ١٨ يونية سنة ١٨٨٤ تطلب منه العمل على تسهيل الترتيبات الخاصة بانسحاب الادارة المصرية من ساحل الصومال ، وأن يعمل على مواجهة كل امكانية للاخلال بالنظام المحلى أو الاحتلال الأجنبى ، وذلك بتنفيذ الاتفاقات مع مشايخ القبائل المحلية (٢) وكان ميدان نشاط « الميجور هنتر » قاصرا على الساحل الأفريقى المطل على خليج عدن والممتد من شرق زيلع حتى رأس حافون • أما بقية المنطقة الساحلية الممتدة من زيلع الى باب المندب جنوبى البحر الأحمر فكان على «هنتر» ألا يتدخل فيها وذلك لحين ابلاغه بتعليمات أخرى • اذ كانت الحكومة البريطانية ترى أنها قد تضطر الى قبول مجهودات الباب العالى لاعادة سلطته عليها تحت شروط خاصة • بينما قررت بريطانيا منع أى تدخل من قبل الباب العالى فى المنطقة الأولى الواقعة بين زيلع ورأس حافون حتى تنفرد هى بالسيطرة عليها •

وكان المطلوب من « الميجور هنتر » أن يبدأ مفاوضاته المباشرة مع القبائل المحلية على وجه السرعة فى المنطقة الممتدة بين زيلع ورأس حافون وذلك للحصول قبل انسحاب المصريين من هناك — على تعهدات تماثل تلك التى تعهد بها سلطان سقطرى فى شهر يناير سنة ١٨٧٦ • وقد سبق أن أوضحت أن المعاهدة مع سلطان المهرة الذى كان يحكم سقطرى قد قيدت السلطان وورثته وخلفاءه بتعهد يقضى بعدم التنازل أو البيع أو التسليم لأى دولة أجنبية أخرى عن أى جزء من جزيرة سقطرى وملحقاتها • (٣) ولكن بينما كان سلطان سقطرى حرا ومستقلا فى وقت توقيعه على هذه المعاهدة ، (٤) فان مشايخ ساحل الصومال لم يكونوا يتمتعون بحقوق السيادة على هذا الساحل • ولهذا فانه كان من المحال من الناحية القانونية تسوية هذا الموضوع قبل انسحاب المصريين وموافقة الباب العالى باعتباره صاحب السيادة الشرعية على مصر وملحقاتها • ومن هنا فان بريطانيا نفذت معاهدة سقطرى فى يوم توقيعها ، ولكنها رأت عدم تنفيذ التعهدات التى سيوقع عليها مشايخ الصومال المحليين الا فى اليوم الذى ستنتهى

(١) Marston, T.E. Op. cit., pp. 494, 495.

(٢) جلال يحيى (دكتور) : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٦٩ .

(٣) I.O., Pol. 2136/07, Secret and Pol'tical Department, Secret Memorandum, British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat), 1st November, 1887, p. 3.

(٤) Aitchison, C.U. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Ne ghbouring Cnuotrise, Vol. XI, p. 118.

فيه الادارة الفعلية للسلطات المصرية على ساحل الصومال (١) • غير أن ذلك كان تلاعبا واضحا بالقانون الدولى من قبل الحكومة البريطانية • اذ أن اخلاء الحاميات والادارة المصرية لهذه السواحل لم يكن الا عملا اداريا لا يؤثر على حقوق السيادة العثمانية عليها طالما أن الباب العالى لم يقل كلمته بعد • وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تعرف ضعف حججها وتعارض تصرفاتها مع المبادىء القانونية ، فأنها كانت تحاول اعطاء شكل قانونى لهذه العملية ، تمهيدا لتسهيل اعتراف الدول الاستعمارية الأخرى بهذه التعهدات التى التزم بها المشايخ المحليون تجاه بريطانيا •

ـ اهتمام البريطانيين بميناء بربرة :

اهتم البريطانيون بصفة خاصة بميناء بربرة نظرا لأهميته الحيوية بالنسبة لقاعدتهم فى عدن • وقد خولت الحكومة البريطانية « للميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن حق استخدام قوة مسلحة تبقى على تمام الأهبة والاستعداد فى عدن ، غير أنها أمرته بعدم استخدامها دون الحصول على تصريح من حكومة الهند ، الا فى حالة الضرورة القصوى • على أن « هنتر » كان يعتقد أن عمل « الترتيبات الخاصة » مع المشايخ المحليين سيجعله يستغنى عن كل تدخل عسكرى من هذا النوع •

وقد وصلت هذه التعليمات الى « هنتر » وهو على ساحل بلاد الصومال • وقد سارع بابلاغ حكومته برقيا أن الأهالى سيقبلون توقيع كل اتفاقية مقترحة لأنهم كانوا يرحبون باقامة ادارة بريطانية فى بربرة • ولكنه طلب فى الوقت نفسه موافقة الحكومة البريطانية على تعيين « حرس شخصى » له يتألف من أربعين جنديا • وأوصى « اللورد كمبرلى » حكومة الهند بالاسراع فى ارسال الحرس الشخصى المطلوب فى أقرب وقت ممكن (٢) • ومن الواضح أن طلب « هنتر » بسرعة أرسال حرس شخصى له هو حرصه على استخدام هذا الحرس كمظهر للقوة على التوصل الى عقد الاتفاقات المطلوبة مع شيوخ القبائل •

وبعد أن قام « هنتر » بزيارة زيلع وبربرة ليمهد السبيل أمام بسط النفوذ البريطانى على سواحل الصومال ، فانه قد عاد بعد ذلك الى عدن لاتمام بعض الترتيبات • وفى اليوم الرابع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٤ أبحر « هنتر » ثانية الى بربرة على متن سفينة هندية جاءت خصيصا من بومباى، على حين سبقته الى بربرة سفينتان حربيتان بريطانيتان قبل ذلك بيومين وانتظرتا وصوله هناك •

(١) F.O.M., C. 4417, No. 69, Mr. Grnat au Secrétaire du Gouvernement de Bombay. Le 18 Juin, 1884, Annexe III, M. Walpole à Sir J. Pauncefote Le 11 Septembre 1884.

(٢) F.O.M., M. Bretrand, Vice-Consul de France à Aden à M. Jules Ferry. Aden, Le 15 Juillet, 1884.

بل ان السلطات البريطانية فى عدن كانت قد أرسلت قبل ذلك أيضـــا قافلة تتكون من مائة رجــل يقودون خمسين بغلا الى بربرة ، وكان هؤلاء الرجال من الأعراب والصوماليين قد استخدمتهم سلطات عدن ، وكانوا على استعداد لحمل السلاح اذا لزم الأمر كمتطوعين فى الجيش البريطانى ٠

وقد قام « هنتر » بعد ذلك بدعوة كل مشـــايخ القبائل المحيطة ببربرة للتفاهم معهم قبل الاحتلال النهائى ٠ وقد أشاع «برتران» نائب القنصل الفرنسى فى عـــدن حينذاك أن البريطانيين قد وزعوا جنيهات اســـترلينية على هؤلاء المشايخ (١) ٠ وكانت السلطات البريطانية فى عدن قد اختارت الحاكم الجديد لبربرة وهو « والش Walsh » المساعد الثالث للمقيم السياسى البريطانى فى عدن ، على أن ترافقه قوة قوامها خمسون رجلا من رجال الشرطة الذين سيتم اختيارهم من بين قوات الأمن هناك ، على أن يكون ذلك بصفة مؤقتة لحين وصول قوات هندية بريطانية الى سواحل الصومال لتعمل كحاميات مقيمة فى زيلع وبربرة ٠

ـ اتفاق البريطانيين مع بعض مشايخ قبيلة « حبر أول » فى بربرة :

نجح « هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى التوصل الى جمع توقيعات بعض مشايخ قبيلة « حبر أول » الصومالية على الاتفاقية التى أعدها فى عدن قبيل حضوره ٠ وتنص هذه الاتفاقية على تعهد هؤلاء المشايخ بالمحافظة على استقلالهم وعلى النظام العام فى بلادهم نظرا لقرب انســـحاب الحاميات الخديوية من هناك ٠ كما تعهدوا بعدم التنازل عن أية قطعة من أراضيهم لأية دولة أخرى عدا بريطانيا ، مع ضمان حرية التجارة لكل السفن التى تحمل العلم البريطانى ، وحماية الرعايا البريطانيين فى بلادهم ٠ بل انهم أعلنوا أيضا الغاء تجارة الرقيق مع الاعتراف بحق السفن البريطانية فى مصادرة الرقيق سواء فى البحر أو على البر واستخدام القوة اذا لزم الأمر ٠ وقد قبل شـــيوخ قبيلة «حبر أول» أن يعاملوا الممثلين والمندوبين الذين ستعينهم الحكومة البريطانية بكل اعتبار ، كما سمحوا لهم بالاحتفاظ « بحرس شخصى » ٠ وقد قبل الجانبان الاحتفاظ بهذه الاتفاقية بشكلها المؤقت الى أن تصدق عليها وزارة الهند ووزارة الخارجية البريطانية فى لندن ، ولا تكون سارية المفعول الا بعد انسحاب القوات المصرية نهائيا من بربرة (٢) ٠

ولم يفت « هنتر » أن يعد الترتيبات اللازمة لحماية فنار بربرة وخزان المياه فيها نظرا لأهميتهما بطبيعة الحال فى مساعدة السفن البريطانية للرسو ٠

(١) F.O.M., 1022, M. Bertrand. Vice-Consul de France à Aden à Jules Ferry. Aden, le 15 Juillet 1884.

(٢) Aitchison, C.U. : Op. cit,. Vol. XI, p. 115.

فى الميناء والتزود بالمياه • وكان الأمر يقتضى منه ارسال مندوب بريطانى الى بربرة ترافقه قوة من شرطة عدن فى نفس وقت انسحاب المصريين من هناك • وكان هذا المندوب خاضعا خضوعا مباشرا لعدن ، وقد قام باختيار رجال قوة الشرطة من بين حامية عدن ، وكان يتم استبدالهم بغيرهم بين آونة وأخرى من هناك •

ولم يكتف «هنتر» بعقد تلك الاتفاقية مع قبائل «حبر أول» بل انه عزم على عقد اتفاقيات مماثلة مع القبائل الأخرى التى تسكن بلاد الصومال ، وكتب لوزارة الهند البريطانية فى لندن يقول ان البريطانيين بموجب هذه الاتفاقية قد ضمنوا بربرة وأصبحت سياستهم معروفة مما سيجعل بقية الصوماليين على استعداد للتفاوض مع بريطانيا • غير أن ذلك الجزء من الساحل الصومالى الممتد الى الشرق من بربرة والذى يطل على خليج عدن لم تكن به أى ميناء بمعنى الكلمة• ولهذا فان هذه الاتفاقيات التى عقدها « هنتر » ستقتصر على عدم التعرض للسفن الغارقة وعلى الغاء تجارة الرقيق ، هذا فضلا عن عدم التنازل عن أى جزء من تلك الأراضى لغير الحكومة البريطانية أو اجراء أية محادثات الا مع المندوبين البريطانيين •

وعلى أية حال قد إتصل « الميجور هنتر » برقيا بحكومة لندن وأبدى استعداده للبدء فى مفاوضات مماثلة لتلك التى أجراها بخصوص بربرة وذلك لتسهيل عملية انسحاب المصريين من هرر • ولهذا فان وزارة الخارجية البريطانية اقترحت على الحكومة الخديوية أن يقوم « الميجور هنتر بمساعدة السلطات المصرية فى هذه العملية » • كما طلبت أيضا من الباب العالى فى الوقت نفسه « أن يتخذ الاجراءات اللازمة ، نظرا لانسحاب القوات المصرية ، وذلك للمحافظة على سلطته فى تاجورة وزيلع طبقا لمذكرة ٢٩ مايو سنة ١٨٨٤ » • غير أن الصدر الأعظم ووزير خارجية الباب العالى رفضا الاجابة قبل عرض الأمر على مجلس الوزراء وبحثه فيه • وهنا شعرت الحكومة البريطانية أن الباب العالى يرتب مناورة لربط مصير بربرة بمصير كل من زيلع وتاجورة ، ولذلك صممت على ألا تترك له أى أمل لتحقيق تلك الغاية • بل ان « اللورد ادموند فيتزموريس » قد أعلن فى مجلس العموم البريطانى فى ذلك الحين أن بريطانيا لن تعترف بسيادة الدولة العثمانية على بربرة • وعندما طلب السفير العثمانى فى لندن توضيحا من وزارة الخارجية البريطانية بهذا الشأن لم يقم « اللورد جرانفيل » الا باعادة ترديد نفس الادعاء المذكور •

ـ سيطرة البريطانيين على بربرة بعد اجلاء المصريين عنها :

وصلت الى السلطات البريطانية فى عدن أنباء تدل على مقاومة السلطات المصرية فى بربرة لقوات « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى

عدن • اذ كان « هنتر » قد وصل الى بربرة فى اليوم الرابع من أغسطس سنة ١٨٨٤ وبصحبته « والش » وخمسين من رجال الشرطة المختارين من حامية عدن • وفى اليوم التالى مباشرة عاد « هنتر » الى عدن بعد أن « رفض باشا بربرة رسميا أن يسلم سلطاته دون صدور أمر بذلك ، ليس من القاهرة فحسب ولكن من الآستانة أيضا • أما والش الذى كان قد عين نائبا سياسيا فى بربرة فانه بقى على السفينة الحربية وودلارك Woodlark الراسية فى الميناء » • (١)

وهنا رأى البريطانيون ضرورة استخدام القوة أمام مقاومة المصريين والأهالى فى بربرة لسياستهم • ولهذا قام « هنتر » بعد عودته من رحلته الفاشلة بجمع « سريتين من المشاة الهنود ، وبطارية مدافع ميدان محمولة على ظهر الجمال ، ومائة من الخيالة ، مع قافلة كبيرة من الذخائر والمهمات » • وقد عسكرت هذه القوات البريطانية فى ميناء عدن مستعدة لركوب السفن بمجرد صدور الأوامر بذلك • (٢) وقد أشار الممثل القنصلى الفرنسى فى عدن الى ان بقاء هذه القوات مدة أسبوع فى عدن بعد تجهيزها يدل على أنها كانت تنتظر أوامر من لندن ، كما يدل على خشية البريطانيين من أن يلقوا مقاومة شديدة فى بربرة •

وفى تلك الأثناء أبلغ الباب العالى حكومة لندن استعداده لارسال قوات عثمانية الى زيلع والى تاجورة والى سواكن فى وقت واحد ، كما طلب من بريطانيا تقديم تفسيرات سريعة عن الاجراءات التى اتخذتها فى بربرة وعلى طول سواحل بلاد الصومال المطلة على خليج عدن• غير أن بريطانيا لم ترد على مذكرة الباب العالى فى هذه المرة الا بارسال حملتها المستعدة من عدن الى ساحل الصومال • وقد أصدر « اللورد جرانفيل » بعد ذلك تصريحا أدعى فيه ان حكومته كانت مستعدة — فى حالة ما اذا وافق الباب العالى على اتخاذ الاجراءات اللازمة أمام انسحاب المصريين وذلك للمحافظة على سلطته فى تاجورة وزيلع أن تعترف بسيادة السلطان على هذا الجزء من الساحل الصومالى الممتد الى زيلع • أما فيما يخص الساحل الواقع الى شرق زيلع ، فقد أشار « اللورد جرانفيل » الى أن بريطانيا تحتفظ بحريتها فى عمل الترتيبات التى تراها نافعة للمحافظة على النظام وضمان المصالح البريطانية فى هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لقاعدتها الهامة فى عدن • ونظرا لأن الباب العالى لم يقم حتى ذلك الحين باتخاذ أى اجراء عملى لاحتلال تاجورة وزيلع ، فقد أبدى « اللورد جرانفيل » قلقه من أن بريطانيا ستجد نفسها مضطرة الى المحافظة على النظام فى هذا الجزء من الساحل حماية لمصالحها فى عدن والبحر الأحمر على السواء •

وقد أصدرت وزارة الخارجية البريطانية فى اليوم التالى مباشرة من تاريخ

---

(١) F.O.M., 1022, M. Bertrand Vice-Counsul de France à Aden à M. Jules Ferry, Aden, Le 13 Juillet, 1884.

(٢) F.O.M. 1022, M. Bertrand à M. Jules Ferry, Aden, Le 12 Aout, 1884.

صدور هذا التصريح – أمرا الى « هنتر » باجلاء الحامية المصرية من بربرة بمجرد انتهائه من عمل الترتيبات اللازمة ٠ (١) وقامت بريطانيا بابلاغ الحكومة الخديوية بأنها « لا تقبل أى تأخير فى تنفيذ العملية ، وأنه على السلطات المصرية نفسها أن تكلف الميجر هنتر بمهمة اجلاء حامية بربرة » ٠ (٢) وهكذا يبدو صلف السياسة البريطانية وموقفها المتعنت ازاء النفوذ المصرى فى خليج عدن ٠

وهنا قام الباب العالى باعلان رفضه للادعاءات البريطانية وأصر على أن بربرة تعتبر جزءا من الاقاليم الصومالية التى بقيت ملكيتها ثابتة للحكومة العثمانية ٠ وقد استند قاسم باشا وزير خارجية الباب العالى الى حجج قانونية ثابتة ، وذكر أن الاتفاق الذى عقدته الحكومة البريطانية فى اليوم السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٧ مع الخديو اسماعيل يعترف رسميا بحقوق سيادة الباب العالى على بلاد الصومال التى تعتبر بربرة جزءا منها ٠ بل انه أشار أيضا الى أن الباب العالى – ردا على مكاتبات السفارة البريطانية بهذا الخصوص – قد أعلن فى مذكرة فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٩ أنه قد أرسل برقية للخديو يوجهه فيها الى أن يرسل الى تلك الأماكن السلطات الضرورية اللازمة للمحافظة على حقوق الامبراطورية وأن يمنع كل سلطة أجنبية من الاقامة هناك مهما كانت دوافعها ٠ (٣)

غير أن وزارة الخارجية البريطانية أعادت القول بأن المادة الخامسة من الاتفاقية المصرية الانجليزية فى ١٨٧٧ قد ذكرت أن هذه المعاهدة لن تنفذ الا عندما يؤكد السلطان للحكومة البريطانية « أنه لن يتنازل عن أى جزء من أراضى ساحل الصومال لأى دولة أجنبية » ، وأن السلطان لم ينفذ هذا الشرط رغم طلبات بريطانيا المتعددة فى هذا الشأن ولذلك فان « اللورد جرانفيل » رفض الاعتراف « بصلاحية أى مطالب تستند الى نصوص اتفاقية بقيت دون تنفيذ » ٠

وهكذا قرر البريطانيون اجبار الحامية المصرية على اخلاء بربرة ، وقام « السير ايفلين بيرنج » بترتيب ابحار الحامية من هناك لتعود الى مصر فى اليوم الخامس من سبتمبر سنة ١٨٨٤ على ظهر الباخرة « مصر » التابعة لشركة بواخر البوستة الخديوية ٠ وفى اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٨٨٤ عاد « الميجور هنتر » من بربرة الى عدن مرة أخرى وأرسل من هناك الحامية البريطانية الى ميناء بربرة (٤) ٠ وبعد أن تحققت خطة البريطانيين قام « البريجادير جنرال

---

(١) F.O.M., C. 4417, Mos. 59, 60, Sir J. Pauncefote à Mr. Walpole, le 23 Août 1884, et Lord Kimberly au Major Hunter, le 25 Août 1884. Annexe à Mr. Walpole à Sir Pauncefote, le 25 Août 1884.

(٢) F.O., 141/191, No. 392, Lord Granville to Eagerton, 25th August 1884.

(٣) F.O.M., C. 4417, No. 79, Lord Granville to Mosorus Pasha, 3rd October 1884.

(٤) F.O.M., C. 4417, No. 83, Major Hunter au Généraw de Brigade Blaire, le 15 Sept. 1884. Annexe II à Mr. Godley à Sir J. Pauncefote, le 10 Octobre 1884.

جيمس بلير J. Blaire » المقيم السياسى البريطانى فى عدن (١٨٧٨ — ١٨٨٦) بارسال برقية الى « اللورد كمبرلى Lord Kimberley » وزير الهند فى لندن يطمئنه فيها بأن « كل شىء هادىء ، وقد تم ترتيب كل شىء » (١) . وبذلك نجح البريطانيون فى تحقيق أهدافهم على الســـاحل الافريقى المواجه لقاعـــدتهم البريطانية فى عدن ، تلك القاعدة التى انطلقوا منها وبسطوا نفوذهم على ميناء بربرة الهام ، تمهيدا للسيطرة على معظم أرجاء هذا الساحل .

— اجبار البريطانيين لمصر على اخلاء زيلع وهرر :

لم تقف اطماع البريطانيين عند حد السيطرة على بربرة ، بل انهم كانوا يصرون على ضرورة السيطرة أيضا على زيلع وهرر بعد اجلاء المصريين عنهما . وعلى الرغم من البرقية التى أرسلها « الميجور هنتر » فى الثلاثين من يوليو سنة ١٨٨٤ الى نوبار باشا مدعيا تعرض الحامية المصرية فى هرر والصومال بوجه عام لتهديد قبائل « العيسى صومال » ، فان نوبار باشا لم يكن يجد ضرورة ملحة لاخلاء تلك المنطقة أو اخلاء ميناء زيلع ، وان كان من الواضـــح أنه لن يعارض فى ذلك طويلا خاصة بعد قبوله نصيحة بريطانيا باخلاء الســــودان بأكمله . ولم تكتف بريطانيا باصرارها على اجراء عملية الاخلاء فحسب ، بل ان « ايجرتون » القائم بأعمال القنصلية البريطانية بالقاهرة فى غياب ســـير « ايفيلين بيرنج » قد أشار بأنه يمكن لوزارة الخارجية البريطانية ان تقوم ببعض الضغط فى سبيل اعطاء « هنتر » مساعد المقيم السياسى فى عدن ، كما حدث مع « غوردون » فى السودان ، « سلطات من الحكومة المصرية للاشراف على اخلاء هرر وساحل الصومال ، وأيضا لاتخاذ كافة الاجراءات اللازمـة لمنع الفوضى والقتل فى البلاد عند رحيل القوات المصرية » (٢) .

وقد سارعت وزارة الخارجية البريطانية وأعلنت ان أى تاخير جديد فى المسالة سيكون موضع دهشتها ، وعبرت عن رغبتها فى أن يقوم نوبار باشا « بارسال الاوامر العامة فى الحال للسلطات المصرية فى هذه الموانى وذلك لتأييد أعمال الميجور هنتر فى كل ما يتعلق باخلاء هرر وفى كل مسالة أخرى » (٣) . وقد اضطر نوبار باشا الى الرضوخ وسارع بارسال الاوامر المطلوبة منه تبعا للتوصيات البريطانية .

وعلى أية حال فقد صدرت الأوامر من نوبار باشا بوضع « اللواء على باشا »

---

(١) F.O.M., C. 4417, No. 82. Le général Blaire à Lord Kimberley, le 5 Octobre 1884. Annexe à Mr. Godley à Sir J. Pauncefote, le 10 Octobre 1884.

(٢) F.O. 141/194, No. 788, Mr. Eagerton to Lord Granville, 9th August, 1884.

(٣) F.O. 141/191, No. 377, Lord Granville to Mr. Eagerton, 11th August, 1884.

حاكم هرر تحت امرة « الميجور هنتر » الذى كلفه الخديو بالاشراف على كل ما يتعلق بزيلع وهرر · وكانت القوات البريطانية التى أبحرت من عدن الى زيلع تؤيد سلطات « الميجور هنتر » فضلا عن تعليمات الحكومة الخديوية · كما كلف رضوان باشا الحاكم العام السابق لهرر من قبل حكومة الخديو بتنفيذ عملية اخلاء هرر ووضع كذلك تحت امرة « الميجور هنتر » بل ان الحكومة البريطانية صرحت « لهنتر » بوقف صرف مرتب كل موظف مصرى لا يحترم الأوامر أو يعمل على خلق المصاعب أمامه · بل انها أعملت نفس السلطة « للميجور هيث Major Heath » قائد الحملة البريطانية التى أبحرت من عدن ونزلت فى زيلع فى ذلك الحين (١) ·

وقد كان « الميجور هنتر » من أنصار فكرة عقد معاهدات تشبه تلك التى حصل عليها من رجال قبيلة « حبر أول » بجوار بربرة مع حاكم هرر الجديد ومع القبائل القريبة من هذه المدينة · وكان يسعى بذلك الى وضع هذه المناطق تحت الحماية البريطانية قبل أن تتم عملية جلاء المصريين عنها · غير أن « السير ايفلين بيرنج » عارض فى عقد مثل هذه المعاهدات ، ولم يؤيد عقدها الا مع الرؤساء والشيوخ القريبين من الساحل (٢) ·

وقد درست وزارة الخارجية البريطانية هذا الموضوع ، وأيدت رأى « بيرنج » فمنعت « هنتر » من اقامة حمايات على القبائل القاطنة فى الداخل ، ولكنها سمحت فى الوقت نفسه بعمل الترتيبات والاتفاقيات التى يرى أنها ضرورية ولازمة لنجاحه فى المهمة المكلف بها · وقد قام « هنتر » بتكليف رضوان باشا بكل الأعمال والعمليات العسكرية والادارية ، ولكنه احتفظ بالمسائل السياسية فى أيدى البريطانيين وهو الملازم « بايتون Peyton » الذى عينته بريطانيا نائبا لقنصلها فى زيلع وأصبح ممثلا رسميا « للميجور هنتر » ·

وقد قام « الميجور هنتر » بتكليف الملازم « بايتون » بابلاغ « عبد الله الشكور » أنه سيعين أميرا على مدينة هرر وأنه سيحصل على الأسلحة والذخائر اللازمة لاحتفاظه بسلطته ، وأن عليه أن يبدأ فى اعداد حرس أهلى قوامه مائة رجل يكون عليهم أمر حراسة أبواب المدينة · غير أن « هنتر » حذر « بايتون » من استلام هذه القوة لعملها قبل وصول « هنتر » شخصيا الى هرر ولم يكن هذا التحذير لمجرد الاحتياط مادام بايتون » موجودا فى المدينة ، ولكنه كان يهدف الى اعطاء شكل رسمى لتولى الأمير السلطنة من أيدى مساعد المقيم

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ١٢٢ — ١٢٤ ·

(٢) F.O. 141/195, No. 897., Baring to Granville 21th September 1884.

السياسى البريطانى فى عدن على وجه الخصوص (١) ، ممـــــا يؤكد حرص البريطانيين فى عدن على تأكيد مكانتهم فى نظر أهالى المنطقة ٠

وكان « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عــــدن والمكلف بالسيطرة على الساحل الصومالى قد انتابه القلق نتيجة لتدخل وتوسع الفرنسيين فى هذا الساحل فى الوقت الذى كان مشغولا فيه باجلاء المصريين واحلال البريطانيين مكانهم فى زيلع وهرر ٠ غير أن حكومة لندن نظرت للمسألة نظرة عملية ، اذ رأت أن التوسع الفرنسى حول « أوبوك » سيبطل امكانية أى معارضة قد تقوم بها حكومة باريس ضد اســــتيلاء البريطانيين على زيلع وهرر ٠ كما رأت حكومة لندن ــ من ناحية أخرى ــ انها اذا ما أرضت طموح الايطاليين ورغبتهم فى التوسع الاقليمى حــــــول عصب فان حقوق السيادة العثمانية فى خليج عدن وحتى فى شمال مضيق باب المندب ستصبح اسمية وغير ذات قيمة أمام انكار ثلاث دول عظمى لها فى وقت واحد وهى بريطانيا وفرنسا وايطاليا ٠

ولهذا أرادت بريطانيا أن تستفيد من توسع الفرنسيين حول «أوبوك» وتوسع الايطاليين حول عصب ، حتى لا تظهر وحدها بمظهر المعتدى على حقوق السلطان العثمانى فى ذلك الحين ٠ كما رأت بريطانيا أنه يمكنها فى حالة اثارة مسألة الحقوق الدولية والاقليمية ــ للامبراطورية العثمانية فى هــــذه المناطق أن تستند الى حياد كل من فرنسا وايطاليا ، وان لم تحظ بتأييدهما ٠ ومن هنا فان « اللورد جرانفيل » أعلن أن فى استطاعة القبائل الساكنة بالقرب من عصب أن تستفيد من توسع ايطاليا ومن امتداد « نفوذها الحضارى » فى تلك المنطقة بعد تنفيذ سحب الادارة المصرية من شرق السودان ومن السواحل الافريقية للبحر الأحمر ٠ وكان على « الميجور هنتر » حينذاك أن يبتعد تماما أثناء مفاوضاته مع الشيوخ المحليين عن كل ما قد يؤدى الى خلق المصاعب أمام السلطة الايطالية من عصب صوب الداخل (٢) ٠

وقد قرر « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن البدء فى اعـــداد الترتيبات اللازمة لاجـــلاء الحاميات المصرية عن زيلع وسجالو فى منتصف شهر أكتوبر سنة ١٨٨٤ ٠ وتقرر ابحار هذه الحاميات صوب السويس فى اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور ٠ ونظرا لتأخر « بايتون » فى هرر ، فقد أمر « الميجور هنتر » بتعيين الملازم « كنجسميل Kingsmill » نائبا قنصليا لانجلترا فى زيلع وعهد اليه بتولى أمر الادارة المدنية هناك ٠

---

(١) F.O. 141/195., No. 959, Baring to Granville, 18 October 1884., Enclosure, Major Hunter to Peyton 8 October 1884.

(٢) F.O. 141/191. No. 424, Lord Granville to Baring 8th October, 1884.

ومن ناحية أخرى فقد قرر « الجنرال جيمس بلير James Blaire » المقيم السياسى البريطانى فى عدن (١٨٧٨ ـ ١٨٨٦) ارسال حامية من المشاة والمدفعية البريطانية لاحتلال ميناء زيلع ٠ وصدرت التعليمات بضرورة تعاون قائد هذه القوة مع الملازم « كنجسميل » فى جميع الميـــادين ٠ وأخيرا فان « الميجور هنتر » أمر بعدم سحب العلم المصرى من زيلع حتى صدور أوامر أخرى ، وذلك خوفا من رفع علم أية دولة أوربية أخرى على هذا الميناء الهام ٠

وفى الوقت نفسه استمر توسع الفرنســيين فى البلاد المطلة على خليج عدن ٠ وبعد رفع العلم الفرنسى على « سجالو » انتظر الفرنسيون جلاء القوات المصرية عن تاجورة ، ذلك الميناء الذى يفوق « سجالو » و « رأس على » فى الأهمية ٠ ولا شك أن ذلك هو ما جعل القائد الفرنسى فى بلاد الصــومال يزور تاجورة ويلتقى بالأهالى ويقترح عليهم وضعهم تحت الحماية الفرنسية واعطائهم العلم الفرنسى ٠ وقد علم « هنتر » بذلك ، كما أبلغه القنصل الفرنسى فى عدن بأن حكومة باريس ضمت « قبة الخراب » مما أدى الى زيادة حــدة التنافس بين فرنسا وبريطانيا فى ذلك الحين ٠

وقد خشى الخديو توفيق من نتيجة ذلك التنافس البريطانى الفرنسى فى بلاد الصومال التابعة لمصر ، ولم يكن ذلك رغبة منه فى الاحتفاظ بها أو منعا للأجانب من الاستيلاء عليها ، ولكن من النتائج الدولية التى قد تترتب على هــذا التنافس ومن وصــول المسألة الى علم الباب العــالى اذ كان موقف الخديو توفيق دقيقا بالنسبة للباب العالى وكان على عدم ثقة فيه أو محبة له ٠ وقد شعر الخديو بخطئه فى عدم ابلاغه أمر اخلاء زيلع الى الباب العالى مما يؤكد تبعيته له ٠ ويعتبر كدعوة موجهة اليه لارسال قوات عثمانية الى ذلك الميناء الهام (١) ٠ وقد تحدث نوبار باشا فى هذه المسألة مع « اللورد نورثبروك » ولكن المندوب السامى البريطانى أجاب بأن الحكومة البريطانية كانت ستنظر الى هذا التصرف « بعين غير ودية » (٢) ٠

على أن هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية لم يكن يهدف الى احتلال زيلع رغم أنف الباب العالى أو بغية منعه من احتلال هذا الميناء ٠ ولكن هــذا الموقف كان يهدف الى تقليل أهمية الصلة القائمة بين الخديو والسلطان العثمانى ومنع التقرب بينهما من ناحية ، والى ارغام الباب العالى ـ من ناحية أخرى ـ على قبول الشروط التى فرضتها بريطانيا عليه لاعادة ترك زيلع له دون أن تمر المسألة بطريق القاهرة ٠ وبذلك تسوى المسألة بين لندن والاستانة رأسا وبطريقة تسمح للحكومة البريطانية بتقليل الخطر العثمانى فى شرق افريقية وتثبيت اقدامهــا هى فى تلك المنـــاطق ، بل استخدام ذلك النفوذ العثمانى البسيط فى عرقلة التوسع الفرنسى فى بلاد الصومال ، الأمر الذى كان يهم

---

(١) F.O. 141/195., No. 1000, Baring to Granville 3rd November 1884.

(٢) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى بلاد الصومال ، ص ١٤١ ـ ١٤٥ ٠

البريطانيين بالدرجة الأولى حينذاك ، وبخاصة ان الحكومة البريطانية كانت قد أعلنت رغبتها فى استمرار احتلالها لزيلع حتى يقوم الباب العـــالى باتخاذ الوسائل اللازمة لاستلامها منها ٠ على أن بريطانيا لم تكن لتقبل تسليمه زيلع بطبيعة الحال الا اذا وافق على شروطها ٠ ولهذا فان البريطانيين سارعوا فى الوقت نفســه وأعلنوا وضع كل ساحل الصـومال التابع لمصر بالاضافة الى اقليم هرر تحت ادارة وزارة الهنـــــد البريطانية ، كما هو الحال مع القاعدة البريطانية فى عدن فى ذلك الحين ٠

على أن الخديو توفيق ونوبار باشا وجدا وسيلة أخرى للتظاهر بعـــدم التفريط فى حقوق الدولة العثمانية ٠ فاعلنا قلقهما من النشاط الفرنسى فى تاجورة ، واستندا الى بقاء العلم العثمانى مرفوعا على زيلع رغم وجود القوات البريطانية (١) ٠ وقد حاولا استغلال تبليغهما للباب العـــالى بأمر النشاط الفرنسى فى تاجورة ورفع العلم الفرنسى عليها لكى يظهرا بمظهر غير المفرط فى أقاليم الدولة ٠ غير أن هذا الاعتذار المؤسف كان يساعد بريطانيا على تبرير سياستها ٠

وعلى أية حال فقد أمر « الميجور هنتر » القوات المصرية فى زيلع بالجلاء عنها فى اليوم الرابع من نوفمبر سنة ١٨٨٤ ٠ كما اتفقت السلطات البريطانية مع شركة بواخر البوستة الخديوية على أن تتعاون سفنها « المحلة » و « دمنهور » و « الزقازيق » فى عملية اجلاء القوات والســـلطات المصرية عن هرر ، تلك العملية التى كان كل من « الميجور هيث » و « الملازم بايتون » يبذلان جهدهما فى سبيل اتمامها ٠ وقد أقلعت أولى الفصائل فى يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ واطمأن « السير ايفلين بيرنج » الى نجاح خطته ، وهنأ « الميجور هنتر » على مجهوداته التى بذلها من أجل تدعيم وتأمين القاعدة البريطانية فى عدن بوجه خاص ، بل من أجل الحفاظ على مصالح الامبراطورية البريطانية فى منطقـــة البحر الأحمر بوجه عام ٠

على أننا لا يمكننا تفسير خطة البريطانيين وسياستهم لاجلاء المصريين عن سواحل الصومال المطلة على خليج عدن والمواجهة للقاعدة البريطانية فى عدن نفسها الا فى ضوء المعاهدات المختلفة التى أعدها « الميجور هنتر » للاتفاق مع شيوخ قبائل الصومال ٠ وكان القنصل الفرنسى فى عدن حينذاك يعتقد أن البريطانيين « لم يحصلوا على هذه المعاهدات الا بالمال ، وأنهم اعتمدوا على المال أيضا لضمان تنفيذها ، وهو ما يعادل اقامة حماية بالفعل على طول هــذه السواحل ٠ كما كان يعتقد أيضا « أن تاجورة لا تدخل فى نطاق مشروعات التوسع (البريطانية) » وأن البريطانيين تركوا هذا الميدان للفرنســـيين

---

(١) F.O. 141/195. No. 1043, Baring to Granville, 8th Nov., 1884.

حينذاك . وقد عبر القنصل الفرنسي في عدن عن ذلك في تعليقه على احتلال بريطانيا لكل من بربرة وزيلع ومدى امكانيـــــة وقوع تصادم بين الدولتين الاستعماريتين في بلاد الصومال المواجهة لعدن نتيجة لاحتدام التنافس فيمـا بينهما (١) .

ـ ظهور الحاجة لعقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا لتحديد منطقتي نفوذهمـــا على ســـــواحل الصـــــومال :

بدت الحاجة ملحة لدى السلطات البريطانية لتحـــــديد منطقتي نفوذ كلا الجانبين على الساحل الصومالي المواجه لعدن نتيجة لاحتدام التنافس بينهما في ذلك الحين (٢) . اذ أن احتلال الفرنسيين لتاجورة في ٢٦ نوفمبر سـنة ١٨٨٤ حدث في الوقت الذي عين فيه « هنري » نائبا قنصـــليا لفرنسا في هرر (٣) . وكان هنري من مساعدي « لاجارد » قنصل فرنسا في « أوبوك » ولكنه خضع في الوقت نفسه « لبارير » الوزير المفوض والقنصل العام الفرنسي في القاهرة . وهكذا ظهر أن تعيينه في منصبه الجديد هو تأكيد رسمي من حكومة فرنسا بأن هرر تعتبر دائما جزء لا ينفصل عن الأراضي أو الملحقات المصرية على الرغم من اجلاء البريطانيين للقوات المصرية عنها .

وهنا خشي « الميجور هنتر » بطبيعة الحال من تدخل هذا المندوب الفرنسي في هرر ، وأوصى حكومته بالوصول الى اتفاق رسمي مع فرنسا من جهة ، وايطاليا من جهة أخرى بخصوص شئون هذا الاقليم ، ولعمل اشراف دولي على حركة دخول الأسلحة النارية والذخائر اليه . ولم يكن « هنتر » يسعى الا الى تقليل خطر تزويد الفرنسيين للأهالي بالأسلحة مما قد يهدد الوجود البريطاني في بربرة وزيلع وهرر . ولم يقترح « هنتر » اشراك ايطاليا في هذا التعهد الا لكي يضمن لفرنسا أن ايطاليا لن تحتكر بيع السلاح في شرق افريقية بعد امتناع كل من البريطانيين والفرنسيين عن هذه التجارة .

وقد عزز « بيرنج » موقف « هنتر » وكان مستعدا لدفع الثمن لفرنسا ، فاقترح « أن أحسن ضـــــمان لطلب عدم تدخل فرنسا في هرر هو الامتناع (من قبل بريطانيا) عن التدخل في تاجورة » . وقد وافقت وزارة الخارجية البريطانية على ذلك وصرحت لقنصلها العام في القاهرة ببحث هذا الموضوع مع « بارير » . وأكد القنصل العام الفرنسي « لبيرنج » أن الهدف الوحيـــــد لتعيين « هنري » نائبا قنصليا لفرنسا في هرر لم يكن الا لتسهيل تجـارة

(١) F.O. 141/200. Tél. No. 717 Baring to Granville, 17th November, 1884.

(٢) جلال يحيى (دكتور) : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٨٤ .

(٣) F.O. 141/195. No. 1067., Baring to Granville, 24 November, 1884.

القوافل بين هرر و « أوبوك » · وتعهد بأن يأمر « هنرى » بالامتناع عن التدخل فى شئون هرر (١) ·

وهكذا تمكنت بريطانيا من مد نفوذها الى الساحل الصومالى المواجـــه لعدن ، وذلك حماية لوجودها فى عدن نفسها ، وضمانا لأمن وسلامة طريقها البحرى الى الهند عبر البحر الأحمر · وقد فعلت بريطانيا ذلك فى الوقت الذى كانت فرنسا تقوم فيه ببسط نفوذها على بعض أجزاء هذا الساحل انطلاقا من قاعدتها فى أوبوك · وقد بدا التنافس واضحا بين البريطانيين والفرنسيين فى منطقة البحر الأحمر خاصة فى الوقت الذى احتلت فيه بريطانيـــا ميناءى بربرة وزيلع كما أجلت المصريين عن هرر ووضعت امكانات الساحل الصومالى فى خدمة قاعدتها البريطانية فى عدن · وكانت فرنسا تحاول أن تقطع الطريق على بريطانيا لتحقيق أهدافها هناك على نحو ما بدا فى العرض السابق وخاصة فى سيطرة الفرنسيين على تاجورة ومحاولتهم للتغلغل فى هرر · على أن هذا الموقف قد أجبر بريطانيا فيما بعد على أن تسوى مشاكلها مع فرنسا فى بلاد الصومال المطلة على المدخل الجنـــوبى للبحر الأحمر وخليج عدن ، وتشرك الفرنسيين فى تقسيم ممتلكات مصر هناك بعد أن أجبرتها بريطانيا على اخلائها حماية لمصالحها الاستعمارية فى منطقة البحر الأحمر وفى ميناء عدن الهام ·

ـ ظهور المنافسة الألمانية للبريطانيين فى خليج عدن :

حدث فى الوقت نفســه الذى احتلت فرنســا فيه ميناء تاجورة أى فى اليوم السادس والعشرين من فبراير سنة ١٨٨٤ أن قام القنصل العام الألمانى فى القاهرة بالاستفسار من نوبار باشا عن « حقوق الباب العالى على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن » · وقد أظهر هذا الاستفسار قلق الدول الأوربية على مصير الأراضى المصرية فى البحر الأحمر وخليج عدن ، ومصير سيادة الدولة العثمانية وسلامة أراضيها بعد أن ضـــمنتها معاهدات لندن فى عام ١٨٤٠ وباريس فى عام ١٨٥٦ ، وبرلين فى عام ١٨٧٨ · كما أظهر هذا الاستفسار من قبل القنصل الألمانى العام فى القاهرة اهتمام ألمانيا ببلاد الصومال وبنشاط كل من انجلترا وفرنسا فى تلك الأقاليم ·

وكانت ألمانيا قد نزلت حديثا وفجأة الى الميدان الاستعمارى وفرضـــت نفسها على انجلترا فى غرب افريقية · كما أنها كانت قد بدأت نشاطها فى شرق افريقية فى أملاك سلطان زنجبار وهددت المشروعات البريطانية الخاصة بالمحافظة على مصالح بريطـــانيا فى سواحل المحيط الهنـدى · على حين كانت بريطانيا تهدف الى تمهيد السبيل للتوغل فى داخل القارة الافريقية صــوب أعالى النيل ، وذلك عن طريق سيطرتها على الساحل الغربى للبحر الأحمر

---

(١) F.O., 141/195. No. 1099., Baring to Granville 5th December, 1884.

وسواحل الصومال المطلة على خليج عدن ، فضلا عن بسط نفوذها على الساحل الشرقي الافريقيا في ذلك الحين ٠

وقد شعرت السلطات البريطانية أن الاستفسار الألماني عن حقوق الباب العالي على سواحل البحر الأحمر وخليج عدن انما يعني استعداد ألمانيا لمنافسة بريطانيا وفرنسا في تلك الأقاليم ، بشكل يسمح لها بالحصول على جزء من الساحل تعمل منه على تهديد عدن عند اللزوم ، وبخاصة في حالة قيام حرب دولية ٠ وكانت الأوساط السياسية الألمانية قد بدأت في التحدث عن ضرورة التقرب الى فرنسا ، كما بدأت تنتقد شراهة الامبراطورية البريطانية في مجال الاستعمار ٠ ولا شك أن هذا الاهتمام من قبل السلطات الألمانية انما يحمل في طياته تأهبها لمعارضة السياسة البريطانية في مصر ومساومة بريطانيا عليها للحصول على تعويضات من الأسلاب الافريقية الأخرى حينذاك (١) ٠

وهنا اضطر البريطانيون الى اتباع سياسة الحذر في بلاد الصومال المواجهة لعدن وذلك نظرا لأن وقوع أى من زيلع أو بربرة في أيدى الألمان كان يعني القضاء على أهمية عدن في حالة قيام أى اشتباك مسلح بين بريطانيا وألمانيا ٠ وكانت المراسلات المتعلقة بالساحل الصومالي المواجه لعدن بين حكومتي لندن والآستانة تثبت اعتراف الحكومة البريطانية حتى ذلك الوقت بحقوق الباب العالي وسيادة الدولة العثمانية عليه ٠ وقد اتفق « السير ايفلين بيرنج » قنصل بريطانيا العام في القاهرة مع وزارة الخارجية في لندن على ضرورة الاحتفاظ باحدى الفصائل المصرية وعددها ثلاثون جنديا في ميناء زيلع ٠ وقررت وزارة الخارجية البريطانية أن موقف بريطانيا الدبلوماسي لن يزداد الا قوة اذا ما هوجمت هذه الفصيلة ٠ ثم أبرق « بيرنج » الى « هنتر » بألا يتدخل في تقرير مصير زيلع في ذلك الوقت ، خصوصا وأن القنصل العام الألماني كان قد قدم استفسارا جديدا عن زيلع ، وأشار فيه الى أن سلطة أبو بكر باشا المحافظ (المصري) لم تعد الا اسمية في هذه المنطقة ٠ واضطر « بيرنج » الى أن يصدر أمرا جديدا الى « هنتر » بعد يومين ينص فيه على ضرورة احتفاظ المحافظ المصري بمنصبه في ذلك الوقت وبأى ثمن ٠

ومما لا شك فيه أن احتفاظ بريطانيا بالمحافظ المصري في زيلع لم يكن يقصد ابقاء هذه المدينة تابعة لمصر أو استعدادا لتسليمها للدولة العثمانية ، بل ان بريطانيا لم تفعل ذلك الا ابعادا للخطر الفرنسي من جهة ، ثم خوفا من استيلاء ألمانيا على هذا الميناء من جهة أخرى ، الأمر الذي يهدد سلامة القاعدة البريطانية في عدن حينذاك ٠ وهكذا بدأت المنافسة الألمانية تظهر على مسرح الأحداث في منطقة البحر الأحمر وعلى مقربة من عدن وتؤثر على سياسة البريطانيين هناك ٠

---

(١) F.O.M. 104, Lagarde au Ministre de F.O.M., 19 Juillet 1885.

– ســــيطرة البريطانيين على جزر « موسى » و « أباض » على الســاحل الصومالى :

ظل قلق البريطانيين مستمرا من النتائج التى كانت ستترتب على سحب القوات المصرية من « قبة الخراب » ومن التهديد الفرنسى على وجه الخصــــوص لمجموعتى جزر « موسى » و « أباض » وتقع هاتان المجموعتان من الجزر على مقربة من الساحل الصومالى المواجه لعدن وتتحكمان بالفعل فى مدخل « قبة الخراب » ذلك الخليج الطبيعى الذى تشرف عليه قلعة « ســـجالو » . وكان احتلال الفرنسيين لهذه القلعة – يسمح لهم باحتلال هاتين الجزيرتين ، وبتحويل قبة الخراب » الى ميناء تصعب مهاجمته ، غير أن استيلاء بريطانيا على هــذه الجزر كان يقلل من القيمة الحربية لهذه القلعة فى أيدى الفرنسيين ، ويبعد امكانية تحويل « قبة الخراب » الى ميناء وقاعدة بحرية مهددة لعــدن فى حالة نشوب حرب بين بريطانيا وفرنسا . ولذلك فان « اللورد كمبرلى » طلب من نائب الملك فى الهند تأكيد حقوق بريطانيا على هذه الجزر ، مســـتندا فى ذلك الى المعـــاهدات التى عقدها « الكابتن مورســـبى » مع حكامها المحليين فى عام ١٨٤٠ .

وقد وصلت التعليمات الخاصة بهذه العملية الى عدن ، فى وقت ساعد فيه احتلال الفرنسيين لتاجورة على سرعة تنفيـــــذها . اذ قام « البريجادير جنرال جيمس بلير » المقيم السياسى البريطانى فى عدن (١٨٧٨ – ١٨٨٦) بتكليف الملازم « كنجسميل » نائب القنصل البريطانى فى زيلع بتأكيد تسلط البريطانيين على جزر « موسى » و « أباض » . وقد قام « كنجسميل » فى ٣٠ نوفمبر ســنة ١٨٨٤ بنصب ثلاث ساريات على جزر موسى ، وأحضر خمســة من زيلع لحراستها وزودهم بالأعلام البريطانية وبكمية من المياه وذلك نظرا لأن تلك الجزر كانت خالية تماما من السكان ولا تتوفر بها سبل المعيشة المستقرة . ثم نصب سارية علم جديدة على جزيرة « أباض » فى اليوم الثالث من ديسمبر سنة ١٨٨٤ وأبقى رجلين هناك لحراستها . وقد قام « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى أعقاب ذلك مباشرة بابلاغ « بيرنج » فى القاهرة بأن العملية قد تمت بنجاح وأن « الحقوق البريطانية قد تأكدت بشــكل نهـــائى على جزر موسى وأباض » . وبذلك ضمنت بريطـــانيا عدم استخدام هذه الجزيرة بواسطة أية قوة منافسة لتهديد المصالح البريطانية عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وفى قاعدتها الحيوية فى عدن .

— معاهدات الحماية البريطانية مع القبائل الصومالية :

أدى احتلال فرنسالتاجورة وتوسعها على سواحل الصومال المطلة على خليج عدن عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر الى دفع بريطانيا نحو « تعميم فكرة الحصول على معاهدات بالحماية على الساحل ، وتوسيع نفوذها فى الصومال واثبات أقدمية حقوقها » فى هذه المناطق أمام الدول الأخرى وبخاصة الدول المنافسة لها هناك • ولهذا فان « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن لم يكد يطلب التصريح له بعقد معاهدة مع قبيلة « القضا بورسى صومال » فى « خوركالنجالات » تشبه بقية المعاهدات التى عقدها مع القبائل الواقعة الى شرق زيلع ، حتى أعطاه « اللورد جرانفيل » هذا التصريح فى اليوم نفسه ، وتم عقد المعاهدة نهائيا بعد ثلاثة أيام أى فى اليوم الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٨٨٨ (١) •

بل لقد حدث أيضا قرب نهـــاية شهر ديسمبر سنة ١٨٨٤ أن عقد « الميجور هنتر » معاهدة ثانية مع قبيلة « حبر تلجعلة » طبقـــا للمواصفات والشروط التى طلبتها حكومة بومباى فى ١٨ يونية سنة ١٨٨٤ • وقد اشتملت هذه المعاهدة الجديدة التى اختصت بالساحل الصومالى المواجه لعدن بين بربرة وحايس على فقرة تطابق ما جاء فى المعاهدة السابقة • وقد تعهد فيها الشيوخ المحليون بالا يتنازلوا أو يبيعوا أو يسلموا أى جزء من أراضيهم أو الأراضى الخاضعة لهم لأية دولة أجنبية غير بريطانيا •

ولم يكتف « هنتر » بذلك بل انه عقد معاهدة ثالثة مع قبيلة « العيسى صومال » فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٤ بمجرد استلامه تصريح حكومة لندن بالبدء فيها • وكانت أراضى هذه القبيلة تمتـــد من زيلع حتى هرر وتجاور الأراضى التى ضمها الفرنسيون أخيرا • كما عقد « هنتر » معاهدة رابعة فى اليوم الثالث عشر من يناير سنة ١٨٨٥ تخص آخر جزء من ساحل الصومال وهو الذى تسكنه قبيلة « حبر جرها جيس Habr Gerhajis » ويقع بين أراضى قبيلة « تلجعلة » فى الغرب ، وأراضى قبيلة « وارسنجلى » فى الشرق (٢) •

وهكذا تتضح لنا أبعاد المنافسة البريطانية الفرنسية فى منطقة البحر الأحمر وخليج عـــدن حول أملاك مصر وموقف العثمانيين والألمان ازاء هـــذا التنافس • وقد حرصت بريطانيا على بسط سيطرتها على زيلع وبربرة حتى تضمن تموين قاعدتها الحيوية فى عدن•على حين عملت فرنسا على بسط نفوذها على الساحل الغربى للبحر الأحمر وخليج عدن (٣) وانشاء قاعدة بحرية لا تكون

---

(١) Aitchison, C.U. : op. cit., Vol. XI., p. 115.

(٢) Aitchison, C.U. : op. cit., XI, pp. 115, 116.

(٣) على ابراهيم عبده (دكتور) : مصر وافريقية فى العصر الحديث ، ص ١١٧ — ١١٨ •

خاضعة لتأثير البريطانيين في عدن من جهة ، كما تتيح الفرصـــة للفرنسيين ليسيطروا على تجارة اقليمى هرر وشوا من جهة أخرى .

غير أن بريطانيا لم تنظر الى مسألة انشاء قاعدة بحرية فرنسية فى بلاد الصومال نظرها الى عمل تسعى به فرنسا الى تحررها من الاعتماد على عدن فى وقت اشتبكت فيه فى حروب اســتعمارية فى الشرق الأقصى ، بل الى خطة تسعى الى تقليل أهمية عدن والتسبب فى الاضرار بها فى حالة قيام حرب بين الدولتين . كما ازداد قلق بريطانيا فى ذلك الحين ازاء منـــاورات المستشار الألمانى « بزمرك » التى ظهرت بوضوح فى تقربه من فرنسا من جهة ، وفرضه لألمانيا على بريطانيا كمنافس خطير فى ميدان التوسع الاستعمارى من جهـــة أخرى . وسوف يؤدى هذا الموقف الى دفع البريطانيين نحو محاولة الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع ألمانيا لتجنب خطرها ، على الرغم مما يفرضه ذلك عليهم من تضحيات (١) .

وقد ظل النشاط الفرنسى على السواحل الافريقية المطلة على خليج عدن عند المدخل الجنوبى للبحر فى تزايد مستمر . اذ صـــدقت فرنسا فى اليوم الخامس من ديسمبر سنة ١٨٨٤ على المرسوم الخاص بمعاهدة الحماية التى عقدها « لاجارد » فى ٢١ سبتمبر من السنة المذكورة مع سلطان تاجورة . ونظرا لأن قائد مســـتعمرة « أوبوك » كان يخشى حينـــذاك دسائس البريطانيين وتوسعهم ، فقد فضل أن يحتل بسرعة كل المناطق التى أشارت اليها هـــذه المعاهدة . وقد أيدته الحكومة الفرنسية فى ذلك بطبيعة الحال .

ولا شك أن مستقبل مستعمرة أوبوك الفرنسية فى بلاد الصومال المطلة على خليج عدن كان يتوقف الى حد بعيد على التسهيلات التى يقدمها الفرنسيون للتجارة داخل القارة الافريقية . أما اذا قام البريطانيون بتنفيذ مشروعاتهم فى بلاد الصومال من ناحية ، ونجح الايطاليون فى تدعيم علاقاتهم مع ســـلطان « العوصا » من ناحية أخرى ، فان المستعمرة الفرنسية كانت ستجد نفســـها مكتومة الأنفاس بين الأراضى التى تسيطر عليها قوات تنافس فرنسا فى تلك المنطقة .

ولهذا فان « لاجارد » انتهز فرصة وجود وفورات لميزانية عام ١٨٨٤ مقدارها عشرة آلاف فرنك ، لمحاولة البدء فى التوغل صوب الداخل . وقد وقد وقع على معاهدة فى اليوم الخامس من يناير سنة ١٨٨٥ مع بعض الشيوخ المحليين تفتح أمام فرنســـا المنطقة الواقعة بين ســـلطنة « العوصا » وبلاد الصومال . وقد سمح هذا الشريط الضيق من الأرض للفرنسيين أن يصلوا الى أبواب « شوا » دون أن يطلبوا تصريحا بالمرور من أحد . وكان « لاجارد »

(١) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى شرق افريقية ، ص ١٧٥ ــ ١٨٤ .

قد قرر هذا الأمر بنفســــه ، وادعى أمام حكومة باريس أن الفرصة كانت سانحة وأنها قد لا تتجدد مرة أخرى • وقد طلب « لاجارد » بعد ذلك زيادة ميزانيته السنوية الى مائة وخمسين ألف فرنك ، كما أنه وضع الحكومة الفرنسية أمام الأمر الواقع ، فى الوقت الذى كانت مشغولة فيه بالمنافسة البريطانية على الساحل ولم تفكر فى طرق القوافل صوب الداخل • وقد اضطرت الحكومة الفرنسية الى الموافقة على المعاهدة المذكورة بطبيعة الحال ، ولكنها حرمت على « لاجارد » أن يقوم بأى توسع جديد دون أن يحصــــل على موافقة صريحــــة منها (١) •

ولا شك أن نشاط الفرنسيين فى البحر الأحمر وخليج عدن من جهة ، الى جانب نشاط الايطاليين هناك واحتلالهم لمصوع فى اليوم الخامس من فبراير سنة ١٨٨٥ من جهة أخرى ، قد تســـبب فى اسراع البريطانيين الى تنظيم أملاكهم الجديدة فى بلاد الصومال • اذ قرر كل من « اللورد كمبرلى » وزير الهند و « اللورد جرانفيل » وزير الخارجية البريطانية فى اليوم السادس من فبراير سنة ١٨٨٥ أن يعهد بادارة ساحل بلاد الصومال ، الممتد من رأس حافون شرقا حتى زيلع غربا والمطل على خليج عدن الى سلطان حكومة بومباى (٢) ، التى سيكون عليها تصريف كل أموره التى لا تتعلق بمصر مباشرة • بل ان هذا الاشراف وتلك الادارة من قبل سلطات حكومة بومباى قد امتدت حتى زيلع نفسها واشتملت عليها ، مع الاحتفاظ بامكانية تغيير وضعية هذه المدينة الأخيرة فى حالة ما اذا قبل الباب العالى الاقتراح البريطانى والشروط البريطانية المتعلقة باستلام البريطانيين لهذا الميناء •

وكانت زيلع هى الحد الأقصى للأراضى والسواحل فى بلاد الصومال المطلة على خليج عدن والتى وضعت تحت اشراف وادارة حكومة بومباى • وقد احتفظت وزارة الخارجية البريطانية بكل المسائل المتعلقة بالمنطقة التى وضعتها فرنسا تحت اشرافها وبالمسائل المتعلقة بهرر فى ذلك الحين (٣) • وقد أظهر ذلك الموقف رغبة الحكومة البريطانية فى عدم الاعتراف بتوســـع فرنسا فى هذه الأقاليم ، أو استعدادها لاستخدام هذا التوسع للمساومة على اعتراف فرنسا بسلطة البريطانيين على الساحل الممتد شرقا حتى رأس حافون •

أما من ناحية فرنسا فعلى الرغم من أن المندوبين الفرنسيين بوجه عام ونائب القنصل الفرنسى فى زيلع وهرر بوجه خاص قد أظهروا نياتهم تجاه هرر فى ذلك الحين من جهة ، وازاء زيلع عن طريق الاتفاق مع حاكمها أبو بكر

---

(١) F.O.M. 1024, Le Ministre d'A.E. au Ministre de F.O.M., 21 Février 1885.

(٢) F.O. 141-210, No. 44., Granville to Baring, 6th February 1885.

(٣) F.O. 141/210., No. 44., Granville to Baring, 6th February 1885.

باشا من جهة أخرى ، وذلك بالاستفادة من جلاء المصريين لاعلان الحماية الفرنسية عليهما ، فان الحكومة الفرنسية رأت أن ذلك يتطلب مجهودات ونفقات لا تتناسب مع المصاعب الدبلوماسية المتوقعة حينذاك أو مع مسئولية المحافظة على الأمن فى تلك المناطق المضطربة . ولذلك فان وزير الخارجية الفرنسية اعتقد أنه من الحكمة القناعة بالاحتفاظ بود الأهالى وافساد خطط ودسائس الدول المنافسة للنفوذ الفرنسى هناك ما أمكن ذلك (١) ، خاصة بعد أن قامت بريطانيا بنشاطها الكبير على سواحل الصومال المطلة على خليج عدن من أجل حماية مصالحها فى منطقة البحر الأحمر وفى قاعدتها الحيوية فى عدن فى ذلك الحين . على أن الموقف من قبل الدولتين البريطانية والفرنسية المتنافستين قد أدى الى ظهور الرغبة لدى الجانبين للمحافظة على الوضع الراهن على السواحل الصومالية المطلة على خليج عدن ، مما أدى بالتالى الى عقد اتفاقية بينهما لتنظيم علاقة كل منهما بالأخرى .

ـ الاتفاقية البريطانية الفرنسية بشأن سواحل الصومال المطلة على خليج عدن فى شهر فبراير ١٨٨٨ :

رأينا فيما سبق أن فرنسا بعد احتلالها لتاجورة حاولت أن تتدخل فى شئون هرر . غير أن « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن و « السير ايفلين بيرنج » ممثل بريطانيا فى مصر وجدا حينذاك أن أحسن ضمان لطلب عدم تدخل فرنسا فى هرر هو امتناع بريطانيا عن التدخل فى تاجورة . ولهذا فقد قبل الوزير المفوض والقنصل الفرنسى العام فى القاهرة اصدار أمره الى نائب قنصله فى بلاد الصومال بالامتناع عن التدخل فى شئون هرر بأى شكل من الأشكال . وقد جعل هذا حكومة لندن تنظر الى التوسع الفرنسى حول « أوبوك » نظرة واقعية ورأت أن هذا التوسع كان من شأنه أن يبطل امكانية أية معارضة من قبل الحكومة الفرنسية ضد استيلاء البريطانيين على زيلع وبربرة .

وفى الوقت نفسه رأت الحكومة البريطانية أن ايطاليا اذا ما أرضت طموحها ورغبتها فى التوسع الاقليمى حول عصب ، فان حقوق السيادة العثمانية فى خليج عدن وحتى فى شمال مضيق باب المندب ستصبح اسمية وغير ذات قيمة أمام انكار ثلاث دول عظمى لها فى الوقت نفسه . ومعنى ذلك أن بريطانيا أرادت أن تستفيد من توسع الفرنسيين حول « أوبوك » وتوسع الايطاليين حول عصب حتى لا تظهر وحدها بمظهر المعتدى على حقوق السلطان العثمانى . وكان يمكن لبريطانيا فى حالة اثارة مسألة الحقوق الدولية والاقليمية

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، ص ١٦٣ .

للامبراطورية العثمانية فى هذه المناطق أن تستند الى حياد كل من الحكومتين الفرنسية والايطالية ان لم تحظ بتأييدهما لها فى موقفها (١) ٠

غير أن ثمة تنافس واضح حول اكتساب مناطق نفوذ على الســــواحل الافريقية المطلة على خليج عدن ومضيق باب المندب ، قد ظهر بين ممثلى السلطات البريطانية فى عدن والفرنسية فى بلاد الصومال ٠ اذ عمل البريطانيون على احتلال جزر « موسى » و « أباض » القريبة من الساحل الصومالى والتى تتحكم فى مدخل « قبة الحراب » التى استولى الفرنسيون عليها وعزموا على اتخاذها قاعدة بحرية لهم ٠ وادعى البريطانيون انهم يســـتندون الى معاهدات كان « الكابتن مورسبى » قد عقدها فى عام ١٨٤٠ فى هذه الأرجاء (٢) ٠ كما استمر التنافس بين الجانبين البريطانى والفرنسى بخصوص « امبادو » الواقعة بين رأس جيبوتى وزيلع ٠ ثم قام الفرنسيون بعقد معاهدة مع أبى بكر ابراهيم محافظ زيلع وذلك بصفته أميرا على هذه المدينة قبل مجىء المصريين ٠ ووافق فيها على وضع بلاده تحت الحماية الفرنسية ، وقد ادعى الفرنسيون أن هــذه المعاهدة قد عقدت فى عام ١٨٥٩ ٠ غير أن ضعف السندين التاريخى والقانونى لهذه المعاهدة ، وعزم بريطانيا على منع توسع فرنسا ولو بالقوة فى منطقـــة زيلع ، قد ادى ذلك الى اضطرار الحكومة الفرنسية الى التراجع عن موقفها فى هذه المسألة ٠

وعلى الرغم من اتفاق الحكومتين البريطانية والفرنسية فى عام ١٨٨٥ على الاحتفاظ بالوضع القائم فى أملاكها المطلة على خليج عدن ، فقد استمر الجانبان يزاولان نشاطهما الاســـتعمارى هناك ٠ اذ حاول الفرنسيون الاستيلاء على « امبادو » الواقعة بين رأس جيبوتى وزيلع ، وعلى « دنجاريتا » الواقعة بين زيلع وبلهار ، ابعادا للبريطانيين صوب الشرق ، ورغبة فى السيطرة على رأس الطريق الموصل الى هرر وشوا ، ولاستخدامها ان لزم الأمر فى المقايضة مع انجلترا فى المفاوضات التى تدور بين الجانبين ٠ هذا ، بينما حاول البريطانيون ضمان السيطرة على كل الاقليم اللازم لتموين قاعدتهم الحيوية فى عدن ، وعدم ترك مجال حيوى للفرنسيين بشكل يساعدهم فى يوم من الأيام ، على التفوق فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن والتأثير على مواصلاتهم الى الهند ٠ ومن هنا أظهر الجانبان البريطانى والفرنسى رغبتهما واستعدادهما لتســـوية تلك المسألة ٠

وقد بدأت المفاوضات بين الجانبين البريطانى والفرنسى فى لنـــدن بين « اللورد سالسبرى » و « وادنجتون » وقد شرح الأخير استعداد حكومته للتنازل

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : العلاقات المصرية الصومالية ، ص ١٩٨ ٠

(٢) Hertslet, Sir Edward : The map of Africa by treaty, London 1894, Vol. I. p. 275., Vol. II., pp. 832-833.

عن « حقوقها » على الأقاليم والقبائل الواقعة الى شرق زيلع على شرط أن تعترف بريطانيا بالحماية الفرنسية على الأقاليم والأراضي الواقعة الى الغرب من هـذه المدينة . كما اقترح خطا مستقيما يمتد على الخريطة من زيلع الى هرر كأساس لحدود « المحميتين » البريطانية والفرنسية .

غير أن السلطات البريطانية فى الهند ، وهى المشرفة على شئون عدن ، وبالتالى على شئون الصومال ، رفضت هذا الخط واقترحت خطا آخر يبدأ من جيبوتى الى هرر ووافقت فرنسا على ذلك (١) . وأعلنت بريطانيا حمايتها على بلاد الصومال المواجهة لعدن فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٧ . وتم تبادل الخطابات بين « وادنجتون » و « سالسبرى » فى ٢ و ٩ فبراير سـنة ١٨٨٨ بشأن مصالحهما فى بلاد الصومال ، بعد أن قبلت بريطانيا ترك رأس جيبوتى نفسها لفرنسا . ووافقت الدولتان على عدم تدخلهما فى شئون هرر ، رغم اصرارهما على عدم التنازل على « حقهما فى منع أى دولة أخرى من الحصول على أى حقوق فى هرر أو فرضها عليها » (٢) .

وبذلك أنهت اتفاقية فبراير سنة ١٨٨٨ بين بريطانيا وفرنسا صفحة من صفحات التنافس الدولى فى منطقة البحر الأحمر وفى سواحل الصومال المطلة على خليج عدن . غير أن العلاقات بين فرنسا من جهة وايطاليا من جهة أخرى ازدادت توترا يوما بعد يوم نتيجة لعدم وجود حدود مرسومة بين منطقتى نفوذ هاتين الدولتين فى تلك المناطق ، ونتيجة لتضارب مصالح كل منهما مع مصالح الأخرى . والحقيقة أن الحدود الشمالية والغربية لساحل الصـومال « الفرنسى » لم تكن قد رسمت وحددت بعد سواء مع الايطاليين فى عصب ، أو مع الأحباش فى الداخل . غير أن فرنسا سارت بخطوات واسعة نحو الاهتمام بساحل الصومال والوصول عن طريقه الى منتجات داخل القارة الافريقيـة وموارد جنوب الحبشة . وقد عملت فرنسا على نقل قاعدتها من « أوبوك » الى « جيبوتى » واستعدت بذلك لتحقيق تطلعاتها الاستعمارية جنوبى البحر الأحمر وعلى سواحل خليج عدن . وكانت بريطانيا ترقب التحركات الفرنسية عن كثب من قاعدتها البريطانية فى عدن ، ومن المناطق التى سيطرت عليها على سواحل الصومال .

على أن التنافس الدولى فى بلاد الصومال الواقعة جنوبى البحر الأحمر والمطلة على خليج عدن قد اتجه صوب الغرب فى داخل القارة الافريقية ، تجاه اقليم هرر الذى أخلته مصر فى الوقت نفسه الذى أخلت فيه سواحل الصومال . وكان ذلك نذيرا ببدء صفحة جديدة من صفحات التنافس الدولى فى الساحل

(١) A.E., Angl. Vol. 822, No. 12. Conf., Wadington Salisbury, 22 March, 1887.

(٢) A.E., Angl. Vol. 827, Tel. No. 7, Floran à 9 Janv. 1888.

الافريقى المواجه لعدن ، وبخاصة حول هرر ، حيث كان لكل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا والروسيا والحبشة دور خاص ، وان كانت هذه الأدوار جميعها مقيدة بالأسس التى سارت عليها كل دولة من تلك الدول تبعا لمصالحها ونزعاتها الاستعمارية فى ذلك الحين ٠

ثانيا ــ موقف البريطانيين فى عدن ازاء النشاط الايطالى فى البحر الأحمر وخليج عدن (١٨٨٢ ــ ١٩١٤) :

حرص البريطانيون بعد احتلالهم لمصر فى سنة ١٨٨٢ على تغيير التوازن الدولى فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن ، وعلى تقوية بعض العناصر على حساب العناصر الأخرى تبعا لمتطلبات المصالح البريطانية فى ذلك الحين ٠ وقد جاءت ايطاليا فى الوقت نفسه تنشد القوة والعظمة ٠ وقد عارضت بريطانيا ــ كما سبق أن أوضحت فى الفصل السابق ــ الجهود الايطالية الرامية الى بناء تلك الامبراطورية الايطالية وبخاصة فى منطقة البحر الأحمر فى بداية الأمر ٠ غير أنها عدلت عن سياستها وبدأت تعمل على استرضاء ايطاليا ــ التى ساءها الاحتلال البريطانى لمصر دون أن يكون لها نصيب فى الغنيمة وذلك حتى لا تنضم الى عدوتها فرنسا التى شكلت أكبر منافس للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر فى ذلك الحين ٠

ولما كانت الحكومة الايطالية قد أخذت تبدى اهتماما كبيرا بميناء عصب بعد أن اشترته من الشركة الايطالية فى سنة ١٨٨٢ ، وأرادت أن تتخذ منه نقطة ارتكاز لعملياتها التوسعية على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، فقد وجدت بريطانيا من الحكومة تشجيع ايطاليا على هذا العمل وفتح مجال لتوسعها فى تلك المناطق بالقدر الذى تحدده لها تبعا لمتطلبات المصالح البريطانية حتى تضمن وقوفها الى جانبها ، كما تتمكن فى الوقت نفسه من الحيلولة دون وقوع هذه المناطق فى يد عدوتها فرنسا التى كانت تعتبر المنافس الأول للبريطانيين هناك (١) ٠ وقد خشيت بريطانيا فى الوقت نفسه أن تتحالف فرنسا مع الحبشة ، ولا سيما مع مملكة « شوا » ، وأن تستند الى هذا التحالف لتتخذ ــ بالاتفاق مع الأحباش ــ من دعاواها القديمة بحقوقها فى خليج « زولا » تكأة للقيام بحركة توسعية من مستعمرة « أوبوك » صوب حوض النيل الأعلى على وجه الخصوص ولذلك فقد استقبلت بريطانيا هذه المشروعات الايطالية الاستعمارية على الساحل الغربى للبحر الأحمر وفيما حول عصب بحماس ملحوظ ٠

وكان قلق البريطانيين ازاء النشاط الفرنسى غربى البحر الأحمر يرجع الى أن فرنسا كانت أول دولة أوربية ارتبطت بمملكة « شوا » بمعاهدة صداقة

(١) Langer, W.L. : An Encyclopedia of World History, p. 745.

وتجارة فى عام ١٨٤٣ ، حين أبرم الرحالة الفرنسى « روشيه دى هيريكورت Rochet d'Hericourt » معاهدة فى ذلك التاريخ مع النجاشى « ساهيلاسلاسى » راس « شوا » وجد « منليك الثانى » (١) • وفى عهد هذا الأخير قامت فرنسا بمحاولة لتجديد تلك المعاهدة عندما عرض الرحالة الفرنسى « أرنو Arnoux » فى أواخر عام ١٨٧٢ على « منليك » تصريف المنتجات الحبشية فى أسـواق مرسيليا ، وتأسيس مستعمرة فرنسية فى « شـوا » للمساهمة فى انتشار الصناعة والحضارة الفرنسية هناك ، وذلك نظير أن تتعهد الحكومة الفرنسية من جانبها بمساعدة « منليك » بـكل الوسائل الأدبية والمادية لانعـاش أثيوبيا (٢) • وكان من الطبيعى أن يؤدى تزايد النفوذ الفرنسى فى « شـوا » غربى البحر الأحمر الى انزعاج البريطانيين بوجه عام والسلطات البريطانية فى عدن على وجه الخصوص مما جعل بريطانيا تعمد الى تشـجيع مشروعات ايطاليا التوسعية على الساحل الغربى للبحر الأحمر فيما حول عصب ، وذلك للحيلولة دون توسع فرنسا شمالا من مستعمرتها « أوبوك » ولمنع اتصال فرنسا مباشرة بالسودان عبر هذا الساحل (٣) •

– مشروع « مانشينى » لتدعيم النفوذ الايطالى على الساحل الغربى للبحر الأحمر وموقف البريطانيين فى عدن ازاءه :

نتج عن الموقف السياسى فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن والساحل الشرقى لافريقيا فى مطلع العقد التاسع من القرن التاسع عشر • بداية ظهور مشروع « مانشينى » الاستعمارى فى أفق السياسة الايطالية • وكانت أولى حلقات هذا المشروع ترمى الى تدعيم النفوذ الايطالى فى الساحل الغربى للبحر الأحمر عن طريق توسع ايطاليا من عصب جنوبا الى مصوع شمالا • ومثلما وجد الطليان فى الاضطرابات التى حدثت فى مصر واخضعت حكومة القاهرة لسيطرة البريطانيين فرصة مواتية لتاسيس مستعمرتهم فى عصب نهائيا ، فقد مهدت حوادث الثورة المهدية فى السودان الشرقى على وجه الخصوص لامكان تنفيذ أولى حلقات « مشروع مانشينى » للتوسع الايطالى على الساحل الغربى البحر الأحمر حينذاك (٤) •

ونظرا لأن خليج عصب كان قليل الأهمية فى ذلك الحين ، وكان من الصعب

---

(١) Rovier, T. : L'Ethiopie et l'Expansion Européenne en Afrique Orientale, p. 40.

(٢) Douin, G. : Histoire du Règne du Khédive Ismail, tome 3, 2ème partie, pp. 362, 363.

(٣) Burns, E. : Abyssinia and Italy, p. 36.

(٤) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسـع الايطالى فى شرق افريقيـة وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصومال ، ص ١٥٦ – ١٥٨ •

على قوارب الأهالى الرسو فيه ، فقد رأت الحكومة الايطالية وهى تتابع جهودها لتدعيم مركزها فى عصب ضرورة اعداد هذا الميناء حتى تتمكن السفن والبواخر الكبيرة من استخدامه ٠ وانتظرت الحكومة الايطالية عودة البرلمان الى الانعقاد وطلبت منه الموافقة على اعتماد مائة وخمسين ألف فرنك لبناء منارة وسقالة فى ميناء عصب ٠ كما حرصت الحكومة الايطالية على تشجيع التجـــارة واقامة المستودعات والمتاجر وتنشيط التصدير والاستيراد فى عصب وذلك حتى تحول دون تسرب التجار بتجارتهم الى عدن والتزود بكل ما يلزمهم منها ٠ بل ان الحكومة الايطالية أعدت مشروعا بقانون لتعلية مبلغ ٦٢٥ ألف فرنك من ميزانية الأشغال العمومية غير المنظورة على ثلاث سنوات ماليـــة ما بين عامى ١٨٨٤ و ١٨٨٧ للعناية بميناء عصب ووافق عليه مجلس النواب الايطالى دون تردد فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٤ ٠

وعندما استمر نشاط الفرنسيين حول « أوبوك » فى تزايد مستمر ، حتى أن « الميجور هنتر » مساعد المقيم الســـياسى البريطانى فى عدن أبرق لحكومته فى اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ بأن الفرنسيين قد ضموا اليهم « قبة الخراب » ، بدا حينذاك أن الوقت قد حان لكى تقوم ايطاليا بدورها وتعمل على توسيع الحدود الاقليمية لمستعمرة عصب الصغيرة أو تحصل على مستعمرات جديدة على الساحل الغربى للبحر الأحمر على مقربة من عصب ٠ وأحدث فكرة دخول ايطاليا فى علاقات تجارية مع الحبشة واستغلال ثروات هذا الاقليم تداعب خيال الايطاليين فى ذلك الحين ٠ ومن هنا اتجهت ايطاليا صوب لندن حتى تتقدم بطلباتها وتقوم بشرح أمانيها ، وذلك أملا فى تحقيق طموحها على حساب الأقاليم المصرية فى شرق السودان وعلى الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠

وفى نفس اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ أرســـل « مانشينى » وزير خارجية ايطاليا مذكرة الى « الكونت نيجرا » سفيره فى لندن لكى يسلمها الى وزارة الخارجية البريطانية ، يلخص لها فيهـــا الموقف السياسى فى البحر الأحمر حينذاك ٠ وكانت الحوادث التى وقعت فى وادى النيل قد لفتت انتباه الحكومة الايطـالية الى النتائج الممكنة بل المتوقعة لها ، والى امكانية تأثير ذلك على ممتلكاتها فى عصب ٠ وقد بدا واضحا أن اخلاء مصر للسودان سيمتد الى بقية ممتلكات مصر فى البحر الأحمر ، خاصة وأن الباب العالى قد أعطى ردودا سلبية على دعوة بريطانيا له بارسال حاميات الى نقط معينة من السواحل الغربية لهذا البحر (١) ٠

ونظرا لأن الحكومة البريطانية لم تكن ترغب حينذاك فى زيادة مسئولياتها

(١) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسودان ، ص ٤١٢ ٠

وتوسيع مساحة الأراضى التى تحتلها عسكريا فى منطقة البحر الأحمر ، فقد أدى ذلك الى اثارة خوف ايطاليا من أن تتمكن احدى الدول الأوربية الأخرى من النزول بين مصوع وعصب ، وكان ذلك من شأنه أن يؤدى بطبيعة الحال الى محاصرة المستعمرة الايطاليه الصغيرة من جميع الجهات · وبخاصة ان مستعمرة « أوبوك » الفرنسية كانت تحدها من الجنوب ، ولهذا فان الحكومة الايطالية أوضحت لبريطانيا أن احتلال دولة أخرى لأى موقع فى البحر الأحمر لن يكون منسجما مع المصالح البريطانية نفسها فى ذلك الحين · كما ذكرت الحكومة الايطالية بأنها واثقة من أن بريطانيا لا تحقد على توسع ايطاليا حول مستعمرة عصب ، بل انها تفضل الوجود الايطالى فى منطقة البحر الأحمر على أى وجود لدولة أخرى هناك · وقد أكد « مانشينى » فى مذكرته أن ايطاليا ترغب فى التصرف « فى توافق تام مع الحكومة البريطانية فى كل ما يتعلق بالمسألة المصرية » · ولذلك فانه أراد أن يتأكد من اتفاقه التام مع بريطانيا مما جعله يمتنع عن اتخاذ أى قرار نهائى قبل معرفة وجهة نظر « اللورد جرانفيل » حول هذا الموضوع ·

وقد أوضح « اللورد جرانفيل » للسفير الايطالى « الكونت نيجرا » عندما التقى به فى اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٤ أنه قد تشاور مع بعض زملائه حول هذا الموضوع ، وأنه يستطيع أن يؤكد أن بريطانيا لا تعارض أبدا فى توسع ايطاليا فى هذا الجزء من الساحل الغربى للبحر الأحمر أى حول مستعمرتها فى عصب · بل ان بريطانيا على العكس من ذلك يسرها تنفيذ هذا المشروع ، وان كان قد أوضح فى نهاية حديثه أن حكومة صاحبة الجلالة لا تستطيع أن تتصرف فى شىء لا تمتلكه وأنها تقترح الاتفاق مع الباب العالى حول هذا الموضوع (١) ·

ويتضح من ذلك أنه لم يكن فى استطاعة الحكومة البريطانية أو حتى الحكومة المصرية أن تتحمل مسئولية التصرف فى أراضى خاضعة لسيادة الدولة العثمانية · غير أن البريطانيين وعدوا بعدم خلق أية مشاكل أو مصاعب أمام الاتفاقية التى قد تصل اليها ايطاليا مع الدولة العثمانية · ولم يخف « اللورد جرانفيل » عن السفير الايطالى أمر استمرار مفاوضاته التى كانت جارية حينذاك مع الباب العالى بشأن زيلع ، كما أوضح له أن الحكومة العثمانية لم تكن قد تقدمت بأى رد قاطع ونهائى على طلب ارسال جنود عثمانيين لاحتلالها ، مما جعله يقترح الانتظار بعض الوقت لبحث الموضوع · وعلى هذا الأساس قام « الكونت نيجرا » سفير ايطاليا فى لندن بتقديم النصح لحكومته بأنه يعتقد فى عدم امكانية القيام بأى عمل بالنسبة لموضوع التوسع حول عصب حينذاك ،

---

(١) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقيا ، ص ١٦٧

وأن الحكمة تملى على الايطاليين تعزيز محطتهم البحرية فى عصب حتى تكون على استعداد اذا لزم الأمر لمواجهة أية احتمالات (١) ٠

ولما كانت الحكومة البريطانية قد قررت اخلاء السودان وأرغمت المصريين على الانسحاب منه ، فقد كان معنى عدم اعتراضها على مشروعات الطليان ، أن هؤلاء كان فى وسعهم احتلال ثغر مصوع الواقع شمالى عصب وأية موانى أخرى يريدونها هناك ،وذلك اذا استطاعوا تسوية هذه المسألة مع الباب العالى صاحب السيادة القانونية على هذه الأقاليم والذى يسترد ممارسة حقه هذا مباشرة على أثر تخطى الخديوية عنها ٠ على أنه لم يكن متوقعا أن تتمكن الدولة العثمانية من ممارسة حقوق سيادتها هذه على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، نظرا لعجز العثمانيين عن ارسال الامدادات العسكرية الى هناك على الرغم من تحذيرات البريطانيين التى وجهوها اليهم (٢) ذرا للرماد فى العيون ٠ على أن حرص البريطانيين على عدم تسلط المهديين على هذا الساحل من جهة والحيلولة دون وقوعه فى يد الأحباش من جهة ثانية (٣) ، فضلا عن رغبتهم فى ابعاد الفرنسيين عن اتخاذ أى موطىء قدم لهم هناك خاصة بعد أن أصبحوا المنافس الأول لهم فى حوض النيل الأعلى من جهة ثالثة فقد ادى ذلك كله الى عدم اعتراض بريطانيا على التوسع الايطالى على الساحل الغربى للبحر الأحمر بل تشجيعه أيضا طالما حدث من قبل دولة « متحابة » لا تشكل بطبيعة الحال — خطرا على المصالح البريطانية فى البحر الأحمر حينذاك ٠

وكان البريطانيون لا يرغبون فى حدوث أى صدام مباشر بينهم وبين فرنسا فى منطقة البحر الأحمر فى ذلك الحين مما جعلهم يتخذون هذا الموقف المشجع لايطاليا للتوسع حول عصب ٠ على أن الحكومة الايطالية أرادت أن تتأكد مما اذا كانت بريطانيا ستعارض الأعمال التى سعى بها الفرنسيون الى الكسب من وراء انسحاب الحاميات المصرية من السواحل الغربية للبحر الأحمر وبخاصة بالنسبة لاستيلائهم على تاجورة والساحل الواقع الى الجنوب من بوغاز باب المندب ٠ وكانت المنافسة التى قامت بين فرنسا وايطاليا ، نتيجة لاحتلال الفرنسيين لتونس وخروج الايطاليين من هذه المغامرة صفر اليدين ، قد انعكست فى هذه اللهفة على معرفة موقف بريطانيا ازاء النشاط الفرنسى فى البحر الأحمر حينذاك ٠ وكان من الطبيعى أن تخشى ايطاليا من قيام فرنسا بسبقها مرة جديدة على سواحل البحر الأحمر ٠ ولهذا أرادت أن تتأكد من عدم وجود أى تأييد بريطانى أو موقف مشجع تجاه نشاط الفرنسيين هناك ٠

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٨٤ وقد استند الى الخطاب المرسل من « الكونت نيجرا » الى « مانشينى » فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٤ والمودع بمحفوظات وزارة افريقيا الايطالية (المستعمرات سابقا) ٠

(٢) محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسودان ، ص ٤١٢ ٠

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ — ٤٨٨ ٠

وكان موقف بريطانيا تجاه التوسع الفرنسى فى غاية الأهمية للحكومة الايطالية وذلك نظرا لأن تشجيع بريطانيا لفرنسا فى عام ١٨٧٨ كان من أكبر الدوافع التى أدت بايطاليا الى الخروج خالية الوفاض من المغامرة التونسية (١) .

على أن « اللورد جرانفيل » رفض من جانبه اعطاء رد محدد ، واكتفى بقوله انه لم يكن قد بحث المسألة بشكل كاف وبدرجة تسمح له بتقدير مضار استيلاء الفرنسيين على تاجورة ، وان كان قد ألمح الى أن قرب هذا الاقليم من « أوبوك » يقلل من أهمية هذه العملية . وقد أوضح هذا الموقف أن بريطانيا لا ترغب فى الاصطدام بفرنسا من أجل ميناء تاجورة ، ويرجع أن بريطانيا رأت أن وجود الفرنسيين فى هذا الميناء يعتبر مؤيدا لوجود البريطانيين فى زيلع وبربرة (٢) . الأمر الذى تطلبته احتياجات عدن الملحة لهذين الميناءين على النحو الذى سبق أن أوضحته .

ومن ناحية أخرى فقد أرادت ايطاليا أن تتعرف على وجهة نظر الحكومة المصرية ازاء رغبتها فى التوسع على الساحل الغربى للبحر الأحمر انطلاقا من عصب . وقام « دى مارتينو » القنصل العام الايطالى فى القاهرة بابلاغ نوبار باشا برغبة « مانشينى » فى معرفة وجهة نظر حكومة مصر ازاء تعضيد الحكومة البريطانية « لاحتلال الايطاليين لبيلول » الواقعة شمالى عصب . غير أن نوبار باشا لم يعارض المشاريع الايطالية واكتفى بذكر حقوق السيادة العثمانية على تلك المنطقة . ومن هنا وجدت الحكومة الايطالية حكومة الخديو لا تستطيع أن تغنيها عن لندن مادام نوبار يثير مسألة عدم اختصاصه ومادام نشاط فرنسا مستمرا حول « أوبوك » (٣) .

على أن حقيقة موقف البريطانيين ازاء النشاط الايطالى فى البحر الأحمر قد بدت واضحة فى المقابلة التى تمت بين « اللورد جرانفيل » و « الكونت نيجرا » فى اليوم السابع عشر من ديسمبر سنة ١٨٨٤ . اذ أكد رغبة الحكومة البريطانية فى أن تحتفظ بكل وسيلة بعلاقاتها الودية مع ايطاليا ، وبخاصة أن الحكومة المصرية لم تكن قادرة على الاحتفاظ بكل الساحل الافريقى للبحر الأحمر تحت سيطرتها مما يجعل الأمر طبيعيا أن تئول هذه السواحل للدولة العثمانية . وأوضح « جرانفيل » أيضا أن بريطانيا لم تتوقف عن ابلاغ الباب العالى بضرورة استيلائه على تلك السواحل ، وأنه كان من دواعى سروره شخصيا تفهم « مانشينى » لعدم أحقية البريطانيين فى أن يمنحوا الغير مالم يمتلكوه . وأشار « جرانفيل » الى أنه اذا رغبت الحكومة الايطالية فى احتلال بعض الموانى فى تلك السواحل فتلك مسألة بينها وبين الباب العالى ، وأكد

---

(١) Safwât, M.M. : Tunis and the Great Powers, p. 395.

(٢) جلال يحيى (دكتور) : سواحل البحر الاحمر ، ص ٨٩ .

(٣) على ابراهيم عبده (دكتور) : مصر وافريقية فى العصر الحديث ، ص ١١٧ — ١١٨ .

ان الحكومة البريطانية ليس لديها أى اعتراض على احتلال الايطاليين لبعض المواقع على الساحل مثل بيلول ومصوع وما بينهما ، على شريطة ألا يكون متعارضا مع نصوص الالتزامات الناتجة عن معاهدة عدوة مع الحبشة والمتعلقة بميناء مصوع (١) ٠

وبذلك تأكدت ايطاليا من موقف البريطانيين ازاء مشروعاتها التوسعية على الساحل الغربى للبحر الأحمر وساعدها ذلك على رسم خطتها هناك ٠ وزاد من قيمة هذا الضمان تلك الاحتياطات التى اتخذها البريطانيون تجاه الدولة العثمانية واحتمال قيامها بنشاط مضاد فى منطقة البحر الأحمر ، وذلك قبل أن يعلنوا عدم معارضتهم للتوسع الايطالى فى تلك السواحل حينذاك ٠

وبعد أن اطمأنت الحكومة الايطالية الى موافقة بريطانيا على مشروعاتها التوسعية على الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠ بدأت تسعى لخلق المبررات التى تسمح لها باحتلال مصوع ٠ فانتهزت ايطاليا فرصة مقتل الرحالة الايطالى « جوستافو بيانكى Gustavo Bianchi » الذى لقى حتفه فى شهر أكتوبر سنة ١٨٨٤ أثناء مروره من بلاد «الدناكل» من أجل تحقيق بعض الأغراض الايطالية ٠ اذ كان قد كلف من قبل « جمعية ميلانو الكشفية Societa d'Esplorazioni di Milano » بالبحث عن طريق تجارى عبر بلاد « الدناكل » يربط أقاليم الحبشة الداخلية بموانى ساحل البحر الأحمر الغربى ، ولا سيما ثغر عصب ٠ وكانت تلك المهمة هى التى فشلت فى تحقيقها بعثة « جيوليتى » فى عام ١٨٨١ أى قبل ذلك بثلاث سنوات ٠

وقد أثارت بعثة « جوستافو بيانكى » الايطالية قلق الأحباش واستياءهم ، وبخاصة العاهل الحبشى « يوحنا الرابع » الذى ساءه كثيرا اتصال الايطاليين بمنافسه « منليك الثانى » ملك « شـــوا » الذى كان يتطلع الى أن يكون امبراطورا للحبشة كلها ٠ وعلى الرغم من ذلك فقد استقبل « يوحنا الرابع » أعضاء البعثة استقبالا طيبا حتى لا يحدث صدام بينه وبين ايطاليا ٠ على أن هذه البعثة تعرضت أثناء قيامها بمهمتها لهجوم من قبل قبيلة من « الدناكل » بتحريض من سلطان « أوسة » الذى كان يخشى هو الآخر من تغلغل النفوذ الايطالى فى بلاده ، وبذلك قضى على أعضاء البعثة جميعا فى مطلع شهر أكتوبر سنة ١٨٨٤ (٢) ٠

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : سواحل البحر الاحمر ص ١٠١ ٠ وقد استند الى الخطاب المرسل من نيجرا « الى مانشينى » فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٤ A.I. 2/I—I. Fol. 52.
محمد فؤاد شكرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٣ ٠

(٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية ، ص ١٩٩ وقد استند الى الوثائق الايطالية ٠

لفت هذا الحادث انتباه الحكومة الايطالية ودفعها الى ضرورة تدعيم نفوذها على الساحل الغربى للبحر الأحمر وعلى ألا تكتفى باتباع سياسة التوسـع التجارى الذى كانت قد دأبت عليه حتى ذلك الحين ، بل كان عليها أن تتبع سياسة التوسع العسكرى المسلح انطلاقا من عصب · وبناء على ذلك اتفق كل من « السنيور ريكوتى Ricotti » وزير الحربية وزميله « السنيور برين Brin » وزير البحرية الايطاليـة على ارسـال حمـلة الى البحر الأحمر لانزال بعض القوات الايطالية فى عصب للبدء فى تنفيـذ تلك السياسـة الجديدة ·

ـ احتلال الايطاليين لميناء بيلول :

قام « السنيور مانشينى » وزير الخارجية الايطالية بابلاغ « بستالوزا Pastalozza » المقيم الايطالى فى عصـب فى اليـوم الثـالث عشر من يناير ١٨٨٥ بقرار الحكومة الايطالية بارسال حامية الى عصب لتدعيم النفـوذ الايطالى هناك · وقد أقلعت هذه الحامية بالفعل من ميناء نابولى فى اليـوم السابع عشر من يناير سنة ١٨٨٥ على متن السفينة الحربيـة « جوتاردو Gottardo » وكان يتـولى قيـادة الحامية « الكولونيل سـاليتا Saletta » ولما كانت الحكومة الايطالية قد قررت السيطرة على ميناء « بيلول » الواقع شمالى عصب بعد انسحاب الحامية المصرية منها ، فقد قامت فرقة بحرية ايطاليـة باحتلال هذا الثغر فى اليوم الخامس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ (١) ·

وفى نفس اليوم قام « السنيور مانشـينى » بابلاغ « الكونت كورتى Corti » سـفير ايطـاليا فى الآسـتانة بتبريرات حكومته لاحتلال « بيلول » موضحا « أن مذبحة بعثة بيانكى التى وقعت بعد ثلاثة أعوام من نكبة جيوليتى ، هى التى اضطرتنا لتدعيم نفوذنا وسلطتنا على الساحل الغربى للبحر الأحمر بارسال حامية الى بيلول يـكون فى استطاعتها بطريقة مباشرة كبح جماح الدناكل ، وذلك لأن التغاضى عن الفوضى الضاربة أطنابها فى بيلول معناه من ناحية خلق مصدر دائم للتهديدات والأخطار لمستعمرتنا فى عصب ، ومن ناحية أخرى ايجاد مبرر قوى لتدخل دولة ثالثة (يقصد فرنسا) ومن ثم فقد عزمنا على انزال فرقة صغيرة من رجال البحرية الايطالية فى بيلول لحفظ النظـام والهدوء هناك » (٢) · وفى اليوم التالى مباشرة قام « مانشينى » أيضا بابلاغ ممثلى ايطاليا فى برلين ولندن وباريس وبطرسبرج وفينـا بمبررات ايطاليا لاحتلال « بيلول » على نحو ما فعل سفيره بالآستانة ·

---

(١) Berkeley, G. : The Campaign of Adwa and the rise of Menelik, p. XXI.

(٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية ، ص ١٧١ ·

- احتلال الايطاليين لمصوع :

كانت الخطوة التالية بعد احتلال الايطاليين لميناء « بيلول » أن يعمدوا الى احتلال جزيرة مصوع • وتعبر البرقية التى أرسلها « السنيور مانشينى » وزير الخارجية الايطالية الى « الكونت كورتى » سفيره فى الآستانة فى اليوم الثلاثين من شهر يناير سنة ١٨٨٥ عن اصرار الحكومة الايطالية على تحقيق تلك الغاية فقد ذكر فى تلك البرقية « أن حوادث البحر الأحمر اضطرته الى النظر بعين الاعتبار الى حالة مصوع ، وأنه يعرف من مصدر غير مباشر موثوق به أن خديو مصر أحاط الباب العالى علما منذ بضعة أسابيع بضرورة اخلاء مصوع مثلما أخلى من قبل الأماكن الأخرى الواقعة فى أقصى الجنوب • فاذا حدث وأخلت مصر مصوع ، فان هذه الجزيرة سوف تعمها الفوضى ، وتتعرض حينئذ اما لغزو الأحباش أو لاحتلال فرنسا • وعلى ذلك فان الحكومة الايطالية مستعدة لاحتلالها، وسوف تطلب من الحكومة الخديوية أن تفصح عما تنوى أى تتخـــذه بشأن مصوع ، فاذا كانت قد عزمت على اخلائها فعلا ، فان الحكومة الايطالية تتخذ على الفور الاستعدادات اللازمة لارسال قوات كافية لاحتلال تلك الجزيرة ، والحكومة الايطالية تعرف أن احتلالها لمصوع لن يقابل بأية معارضـــة من أحد » (١) • وكان « مانشينى » قد اطمأن الى موقف البريطانيين - كما سبق أن أوضحت - ازاء تلك الخطوة مما جعله يضعها موضع التنفيذ على وجـــه السرعة •

وبناء على ذلك فقد أرسل « السنيور ريكوتى » وزير الحربية الايطالى برقية الى « الكولونيل ساليتا » الذى كانت سفينته الحربيـــة « جوتاردو » راسية فى ميناء سواكن لاصلاح عطب فى غلايتها وذلك فى نهاية شهر يناير سنة ١٨٨٥ ، يأمره فى تلك البرقية بانزال قواته فى مصوع واحتلالها قبل التوجه الى عصب • وقد انضمت الى تلك السفينة سفينة أخرى من ســـفن الأسطول الايطـــالى فى البحر الأحمر وهى السفينة « أمريجـــو فسبوتشى Amerigo Vespucci » التى كان يقودها الأميرال « كايمى Cai-mi » قائد القوات البحرية الايطالية فى البحر الأحمر • وقد وصلت السفينتان الى ثغر مصوع صباح اليوم الخامس من فبراير سنة ١٨٨٥ • وقد لقى الطليان معارضة من جانب الضابط المصرى عزت بك وكيل محافظ مصوع وقائد القوات المصرية بها الذى احتج احتجاجا شديدا ضد نزول أية قوات أجنبية فى منطقة تخضع لسيادة الباب العالى • فعمد الأميرال « كايمى » الى تسليمه نسخة بالعربية من منشور أعده القائد الايطالى لاعلانه على سكان مصوع ، ادعى فيه أن الحكومة الايطالية بالاتفاق مع الحكومتين البريطانية والمصرية ، فضلا عن الحكومة الحبشية

(١) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقيا ، ص ١٧١ •

أيضا ، قد أمرته باحتلال قلعة مصوع (١) . وكان ذلك تمويها وتضليلا من قبل الايطاليين لم ينطل على عزت بك قائد الحامية المصرية فى مصوع الذى وجد نفسه مرغما بسبب قلة عدد القوات التى لديه ، على السماح للقوات الايطالية على الفور باحتلال المراكز الاستراتيجية بالجزيرة ، ورفع العلم الايطالى الى جانب الراية المصرية (٢) .

وقد احتجت الحكومة المصرية على احتلال الطليان لمصوع وتعديهم على حقوق السيادة المصرية وذلك فى مذكرة أرسلها نوبار باشا الى « دى مارتينو » القنصل الايطالى العام فى مصر فى اليوم التاسع من فبراير سنة ١٨٨٥ . كما أبلغت مصر فى نفس اليوم الباب العالى الذى اعتبر نزول الطليان فى مصوع تعديا على حقوق السيادة العثمانية على تلك الجزيرة وانتهاكا للفرمانات السلطانية التى تنازلت فيها الحكومة العثمانية عن حقوقها على مصوع للخديوية المصرية . وقد احتج الباب العالى على حكومة روما وذهب فى احتجاجه الى حد التهديد باستخدام القوة المسلحة لطرد الطليان من مصوع .

غير أن هذا الحماس من قبل الباب العالى ضد ايطاليا لم يلبث أن خمد بمجرد تدخل الحكومة البريطانية التى نصحت الباب العالى بسحب هذا التهديد . والاكتفاء بأن يصدر من جانب الحكومة الايطالية تصريح تعلن فيه أن نزول قواتها فى مصوع لا يعتبر تعديا على حقوق السيادة العثمانية ، التى تعترف بها الحكومة الايطالية للباب العالى على تلك الجزيرة (٣) . ولا شك أن هذا التصريح كان اجراء شكليا « تضمن اعترافا صوريا » بحقوق السيادة المصرية التى اعتبرت أنها قد انتقلت الى الباب العالى حينذاك . وقد حاول الطليان أن يحافظوا فى هذا التصريح على « المظهر القانونى » على أقل تقدير فى تلك المرحلة من مراحل نشاطهم لتأسيس مستعمرتهم فى عصب ومصوع على الساحل الغربى للبحر الأحمر .

وقد تأكد ذلك بالفعل عندما بادر الايطاليون بسحب هذا الاعتراف بعد أن أعلنت الحكومة الايطالية فى ٢٥ يولية ١٨٨٨ تأسيس السيادة الايطالية على مصوع وبذلك مضى الايطاليون قدما فى تنفيذ مشروعاتهم الاستعمارية على الساحل الغربى للبحر الأحمر (٤) وقد ادعت الحكومة الايطالية أن اخلاء السودان وسحب القوات المصرية منه ، انما هو بمثابة تخلى مصر عن حقوق سيادتها فى هذه البقاع ، فتغدو مصوع « ملكا مباحا Res Nullius » يحق لايطاليا احتلالها وفرض سيادتها عليها . ولم ينل من هذا الرأى فى نظر الحكومة

---

(١) Hertslet, E. : Op. cit., Vol. 2, Doc. No. 114, p. 450.

(٢) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية ، ص ١٧٥ .

(٣) Berkeley, G. : Op. cit., p. XXII.

(٤) Sanguinetti, J. : Pénétration européenne en Ethiopie, p. 65.

الايطالية أن المصريين كانوا « يحكمون » مصوع فعلا عند وقوع الاحتلال الايطالى ، وذلك لأن الايطاليين اعتبروا أن مصر كانت ستخلى مصوع .

ولما كان هذا التبرير ، فضلا عن نظرية « الملك المباح » بعيدين كل البعد عن الصواب ، فان الحكومة الايطالية فى الحقيقة لم يكن يسندها فى موقفها هذا سوى مساندة الحكومة البريطانية لها نظرا لاتفاق المصالح البريطانية مع أهواء ايطاليا فى ذلك الحين . وهذا ما أكده الأستاذ « فوشيل » عندما قال « ان الطليان قد استقروا فى مصوع ، غير أن الوسائل والحجج التى استندوا اليها لتبرير احتلالهم لا يمكن اقرارها (١) . وان كان ذلك يظهر حقيقة الدور الذى لعبه البريطانيون فى منطقة البحر الأحمر حينذاك عندما أرادوا أن يمكنوا للايطاليين فى عصب ومصوع لكى يضربوا بهم توسع الفرنسيين هناك حتى لا يشكلوا خطرا على المصالح البريطانية فى عدن وفى الطريق الى الهند عبر البحر الأحمر ، بل فى شرق افريقيا ووادى النيل (٢) .

– النشاط الايطالى فى منطقة البحر الأحمر عقب احتلال مصوع وموقف البريطانيين ازاءه :

أدى استيلاء الايطاليين على مصوع الى منع مرور الأسلحة الى « يوحنا » امبراطور الحبشة عن طريق هذا الميناء ، على حين سمحت ايطاليا بمرور الأسلحة الى عدوه « منليك » ملك « شوا » ومن الواضح أن بريطانيا قد تواطأت مع الايطاليين حتى تمكنوا من السيطرة على مصوع ومنعوا وصول الأسلحة الى « يوحنا » عن طريق الميناء المذكور . ومعنى ذلك أن بريطانيا نقضت بتواطئها هذا ما عقدته بالأمس ، حفاظا على مصالحها الخاصة قبل أى شىء آخر . اذ كانت مصالحها بالأمس تقتضى تعاونها مع « يوحنا » لتسهيل انسحاب القوات المصرية فى شرق السودان والعمل على تخليصها من الحصار الذى فرضه أتباع المهدى عليها . أما اليوم فقد كان على بريطانيا أن تميز فى هذه الظروف بين حليفين ، فاما الحبشة واما ايطاليا . ولما كانت مطامع ايطاليا لا يمكن أن تتحقق الا على حساب الحليف الآخر وهو الحبشة ، فان البريطانيين لم يجدوا أمامهم بدا من التضحية بالامبراطور يوحنا فى ذلك الحين (٣) .

وفى الوقت نفسه كانت بريطانيا قد تحالفت مع ايطاليا بموجب اتفاق تم عقده فى سنة ١٨٨٧ ونص على أن تقوم كلتا الدولتين بتأييد الأخرى اذا قامت حرب بين احداهما وبين فرنسا ، وعرض مشروع هذا التحالف على المستشار الألمانى « بزمرك » الذى وافق عليه نظير تأييد بريطانيا للسياسة

(١) Fauchille, p. Traité de Droit International Public, Tome 1er, deuxieme partie, p. 696.

(٢) Woolf, L. : Empire and commerce in Africa, p. 160.

(٣) على ابراهيم عبده (دكتور) : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ، ص ١١٢ .

الألمانية . وكان شك « بزمرك » المريب فى سياسة فرنسا الخارجية هو الذى حمله على أن يمضى فى سياسته القائمة على صداقة بريطانيا وتأييد سياستها فى مصر حينذاك ، حتى أنه صرح لحكومة « ســـولسبرى » بقوله . « نحن لا نستطيع أن نعتمد على الفرنسيين كحلفاء لنا حتى فى وقت الدفاع ، فالعداء بيننا وبينهم قديم وسيظل باقيا ، وليس أمامنا سوى الانضـــمام الى جانب انجلترا » (١) .

وكان من الطبيعى أن تتجه ألمانيا شطر بريطانيا وأن تهتم بقدر المستطاع بالمحافظة على صداقتها بتأييدها . فأوربا قد انقسمت الى معسكرين ، المعسكر الألمانى والمعسكر الفرنسى الروسى . فكان هدف ألمانيا الطبيعى ضم بريطانيا الى المعسكر الألمانى . ووجدت ألمانيا فى التحالف الثلاثى بينها وبين النمسا وايطاليا خير وسيلة لارضاء الحكومة البريطانية فى ذلك الحين . ولهذا أيدت ايطاليا سياسة البريطانيين فى مصر ولم تثر متاعب لهم هناك طوال الفترة الباقية من القرن التاسع عشر ، وهو الوقت الذى كانت فيه ايطاليا فى حاجة ماسة الى تأييد الحكومة البريطانية وموافقتها على المشاريع الايطالية الاســـتعمارية على الساحل الغربى للبحر الأحمر وفى شرق افريقيا . بل ان بريطانيا استطاعت أن تكون مطمئنة تمام الاطمئنان الى أن الأسطول الايطالى لن ينضم الى جانب فرنســـا فى النزاع العنيف الذى قام بين الدولتين فيما بعد بخصـــوص السودان (٢) .

- توسع الايطاليين فى الأراضى الحبشية وتاسيس مستعمرة اريتريا :

بدأت ايطاليا بعد ذلك فى التوسع تجاه الحبشة انطلاقا من مصوع ، فاحتلت مناطق كثيرة فى الداخل أحيانا بواسطة قوات مسلحة وأحيانا أخرى بما أسمته بعثات علمية وتجارية . فقد أعلن الايطاليون ضم ميناء « زولا » الى ممتلكاتهم فى سنة ١٨٨٨ ، وأعلنت الحكومة الايطالية فى شهر مارس سنة ١٨٩٠ تسمية هذه الأقاليم باسم مستعمرة أريتريا (٣) . وقد بلغت مساحة تلك المستعمرة ٥٠ ألف كيلومتر مربع تقريبا وبلغ عدد سكانها ٤٥٢ ألف نسمة وكانوا يتألفون من الدناكل والأحبـــاش والعرب . وقد تم للايطاليين اقامة مستعمرة أريتريا بناء على تشجيع الحكومة البريطانية ووفقا للسياســـة التى فرضتها مصلحة بريطانيا الخاصة حينذاك .

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ، ص ١٤٨ .
(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الاحتلال الانجليزى لمصر ، ص ١٦٨ .
(٣) السيد محمد رجب حراز (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

بل ان بريطانيا وافقت كذلك على احتلال ايطاليا لاقليم كسلا ، وتوجيه نشاطها العلمي والتجارى الى هرر • وكانت الحبشة قد احتلت هرر بعد اخلائها من القوات المصرية مباشرة ، وتوطد نفوذ ايطاليا فى هـــذه المناطق باتفاقها مع بريطانيا فى عامى ١٨٩١ و ١٨٩٤ واعتراف الحكومة البريطانية بادخال الحبشة جميعها فى دائرة النفوذ الايطالى • وبحيث لا تتجاوز ايطاليا هذا النطاق الى منطقة أعالى النيل بأى حال من الأحوال •

– استمرار جهود البريطانيين لمحاصرة النفوذ الفرنسى فى منطقة البحر الأحمر وفى القـــارة الأفريقية :

حرصت بريطانيا على وقف تسرب النفوذ الفرنسى فى منطقة البحر الأحمر وبذلت جهودها للحيلولة دون امتداد هذا النفوذ الى منطقة أعالى النيل عن طريق شرق افريقيا ، بعد أن امتد نفوذ فرنسا على الســـاحل الغربى للبحر الأحمر من ميناء « أوبوك » الى منطقة تقرب من زيلع • وبعد أن ضمت فرنسا ميناء جيبوتى اليها فى سنة ١٨٨٨ ، أعلنت الحكومة الفرنسية فى شهر مايو سنة ١٨٩٦ توحيد جميع تلك المناطق التى تشمل أوبوك وتاجورة والساحل الصومالى فى ادارة واحدة أطلقت عليها اسم الصومال الفرنسى •

وكانت بريطانيا تخشى اعتداء فرنسا عليها فى ذلك الحين اما بمهاجمة السواحل البريطانيـــة أو السواحل المصرية • كمـــا كانت تخشى من تفوق الأسطول الفرنسى فى البحرين المتوســـط والأحمر بما يؤثر على تجارتهـــا ومصالحها ،اذ كان ١٦٪ من واردات بريطانيا و ٢١٪ من صادراتها تمر فى قناة السويس مما يظهر أهمية هذا الطريق المـــائى عبر البحرين المذكورين بالنسبة للبريطانيين نظرا لأنه يعتبر أقصر طريق بين بريطانيا والهند واستراليا وبلدان الشرق الأقصى وبخاصة بعد الحرب الصينية اليابانية (١٨٩٤ – ١٨٩٥) التى وجهت انتباه العالم الى أهمية الصـــين • وكان يهم بريطانيا الابقاء على تفوقها البحرى وبخاصة فى البحرين المذكورين وتأجيل انهيار الدولة الى أن يحين الوقت لحل هذه المشكلة حلا سلميا (١) •

واذا كان البريطانيون قد تمكنوا من اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع فرنسا من الوصول الى منطقة أعالى النيل عن طريق شرق أفريقيا ، فانهم لم يستطيعوا اقامة هذا السياج فى غرب السودان رغم ما بذلوه من محاولات (٢) • ولما كانت ممتلكات ألمانيا وبلجيكا تجاور الحدود السودانية من ناحية الغرب ، فقد لجأت بريطانيا الى الدخول فى مفاوضات مع ألمانيا أولا ، القصد منها اغلاق هذه المناطق فى وجه فرنسا ، وذلك عن طريق مد حدود الممتلكات الألمانية فى الكمرون بحيث

---

(١) Marder : British Naval Policy, p. 334.

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ •

تمتد شرقا حتى حدود الكونغو وشمالا حتى بحيرة تشاد ، وبذلك تفصل منطقة أعالى النيل عن الممتلكات الفرنسية فى غرب افريقيا ، وتم لها ذلك بمقتضى المعاهدة التى عقدت بين الطرفين البريطانى والألمانى فى شهر نوفمبر سنة ١٨٩٣ .

ولكن هذا السياج الذى أقامه البريطانيون فى وجه التقدم الفرنسى تجاه منطقة أعالى النيل من ناحية الغرب قد تصدع نتيجة للاتفاق الذى تم بين ألمانيا وفرنسا فى شهر مارس سنة ١٨٩٤ والذى تنازلت فيه ألمانيا لفرنسا عن هذا الامتياز الذى منحته اياها بريطانيا ، بحيث أصبح من حق فرنسا أن تمد حدود ممتلكاتها فى افريقية الغربية حتى بحيرة تشاد شمالا ، وأن تتوسع الى أى مدى تريده من ناحية الشرق . وقد هال البريطانيين بطبيعة الحال تصدع هذه الجبهة التى أنشئوها بالاتفاق مع ألمانيا وأرادوا أن يصلحوا ما أفسده الاتفاق الفرنسى الألمانى . ولذا يممت الحكومة البريطانية وجهها شطر بلجيكا وعقدت مع ملكها « ليوبولد » اتفاقا فى مايو سنة ١٨٩٤ ينص على منح بريطانيا شريطا ضيقا يمتد من بحيرة تنجانيقا الى بحيرة « ألبرت ادوارد » فى مقابل تأجير منطقة بحر الغزال الى ملك بلجيكا ، وذلك للحيلولة دون تقدم فرنسا فى أعالى النيل وتهديد مركز البريطانيين فى مصر حينذاك ، فثارت ألمانيا وفرنسا لهذا الاتفاق واحتجتا لدى الحكومة البريطانية وأعلنتا بطلانه . وبهذا فشلت بريطانيا فى عرقلة التقدم الفرنسى تجاه غرب السودان فى ذلك الحين (١) .

ـ موقف الأحباش ازاء الجهود البريطانية المتعاطفة مع الطليان :

واذا تساءلنا عن موقف الحبشة حينذاك بعد أن عرفنا كيف استغلت فرصة اعتزام مصر اخلاء السودان وضغط الحكومة البريطانية عليها فى أن تعقد اتفاقا ثلاثيا بينها وبين مصر وبريطانيا استولت بمقتضاه على مناطق كسلا وأميديب وسنهيت وبوغوص . كما منحت تسهيلات كثيرة فى مرور بضائعها ألا وهو الوصول الى نهر النيل نفسه . وقد شجعها على ذلك عجز حكومة التعايشى عن حماية حدود السودان المترامية ونجاح بعض الدول الأوربية فى اقتطاع أجزاء منه .

على أن الحكومة البريطانية خيبت آمال الحبشة فى ذلك الحين ، اذ أن معاهدة عدوة المعقودة فى اليوم الثالث من يونيو سنة ١٨٨٤ لم تحقق شيئا . فمصوع كانت قد وقعت فى يد ايطاليا التى استطاعت تكوين مستعمرة اريتريا واحتلال كسلا . فضلا عن دس أنفها فى اقليم هرر . كما استطاعت ايطاليا أيضا عقد معاهدة « أوتشيالى Uccialli » مع النجاشى « منليك الثانى » ملك شوا فى

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : نفس المصدر ، ص ٢١٠ .

اليوم الثانى من شهر مايو سنة ١٨٨٩ (١) . وقد منحت تلك المعاهدة لايطاليا الحق فى بسط حمايتها على الحبشة وجعلها منطقة نفوذ ايطاليا (٢) . غير أن ايطاليا لم تتقيد بالمناطق الحبشية التى نصت عليهـــا المعاهدة ، بل تجاوزتها واحتلت عدوة فى ٢٦ يناير سنة ١٨٩٠ . وقد أساء هـذا العمل الى النجاشى « منليك الثانى » أيما اساءة ، وكان قد أعلن امبراطورا للحبشة فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٩ أى بعد شهور معدودة من عقد معاهدة أوتشيالى (٣) .

على أن توتر العلاقات بين ايطاليا و « منليك الثانى » كان باعثا لاغتباط كل من الحكومتين الفرنسية والروسية ، فانتهزت هاتان الحكومتان هذه الفرصة وراحتا تعملان لتوسيع هوة الخلاف بين ايطاليا ومنليك ، فقد كانت فرنســـا وروســـيا تعاديان ايطاليا لتمسك هذه بعضـــويتها فى التحالف الثلاثى الموجه ضـــدهما والذى صار يجدد من حين لآخـــر ، منـذ أن أبرم فى سنة ١٨٨٢ . كمـــا أن الطليان بتأسيسهم مستعمرة اريتريا قد حالوا دون زحف الفرنسيين من مســتعمرتهم فى أوبوك صــوب افريقيا الوســطى وأعالى النيل ، ومنعوهم من منافسة بريطانيا فى السيطرة على هذه الأرجاء ، هذا فضلا عن أن السماح للطليان بالاستئثار بالنفوذ فى أثيوبيا كان من شأنه أن يمنع روسيا القيصرية من تحقيق أطماعها فى شرق افريقيا حينما كانت هذه ترغب فى تأسيس مستعمرة روسية فى الحبشة ، على غرار المستعمرات التى أنشأتها الدول الأوروبية فى البحر الأحمر وعلى الساحل الشرقى للقارة الافريقية .

ولا شك أن النشاط الفرنسى الروسى فى أثيوبيـــا قد أدى الى تصـدع العلاقات بين ايطاليا والحبشة مما جعل (منليك الثانى) يقدم فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٣ على الغاء معاهدة « أوتشـــيالى » وبدأ الطليان منـذ ذلك الوقت يتعرضون للمتاعب فى منطقـة البحر الأحمر ولم يكن قد مضى على تأسيسهم لمستعمرتهم فى اريتريا سوى ثلاث سنوات . وبناء على ذلك فانه يمكن القول بأن النشـــاط الفرنسى الروسى فى أثيوبيا كان من العوامل المبـــاشرة التى منعت الطليان من فرض حمايتهم على أثيوبيا (٤) ، على الرغم من مساندة البريطانيين لهم فى ذلك الحين .

وفى الوقت نفسه كان المهديون يزحفون على السودان الشرقى ويستهدفون اخضاع أثيوبيا ، تمهيدا لطرد الطليان من مستعمرتهم فى اريتريا ، ومحاولة الحصول على منافذ بحرية لدولتهم على البحر الأحمر . وقد حتم ذلك على الطليان أن يحافظوا على أملاكهم فى اريتريا من جهة ، ويؤمنوا مصالحهم فى أثيوبيا من

---

(١) محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية ، ص ٢٤٧ .
(٢) Hertslet, E. : The Map of Africa by Treaty, Vol. 2, p. 454.
(٣) على ابراهيم عبده (دكتور) : المنافسة الدولية فى اعالى النيل ، ص ١١٤ .
(٤) محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق أفريقيا ، ص ٥٥٨ .

جهة أخرى ، خاصة أنهم كانوا يعلقون آمالا كبيرة على امتلاكها أو بسط نفوذهم عليها بفضل معاهدة « أوتشيالى » • وكان الطليان قد رأوا فى انتكاس أحوال السودان الداخلية فى عهد عبد الله التعايشى فرصة مواتية للعمل من أجل نشر نفوذهم فى السودان الشرقى حتى كسلا ، من أجل تنفيذ المرحلة التالية لمشروع « مانشينى » الاستعمارى فى منطقة البحر الأحمر وشرقى افريقيا •

وقد أطلقت بريطانيا يد الايطاليين فى احتلال كسلا بصورة مؤقتة ــ وبخاصة عندما اقتضت ضرورات الحرب مع المهديين ذلك بمقتضى «بروتوكول» أبرم فى ١٥ ابريل سنة ١٨٩١ بعد أن سقطت وزارة « فرنشسكو كريسبى » من الحكم وحلت محلها وزارة « دى رودينى » التى لم تكن تميل الى التوغل فى القارة الافريقية • ولكن عودة « كريسبى » الى الحكم مرة ثانية فى أواخر سنة ١٨٩٣ جعلته ينتهز هذه الفرصة ويستولى على كسلا فى شهر يوليو سنة ١٨٩٤ وتمكن بدلك من توسيع حدود مستعمرة اريتريا غربا حتى نهر العطبرة فى السودان الشرقى •

غير أن امتداد النفوذ الايطالى فى السودان الشرقى حتى كسلا قد شغل الايطاليين عن مراقبة تطور الموقف فى أثيوبيا • مما أتاح الفرصة للامبراطور « منليك » لبذل كل جهوده لتوحيد ممالك الامبراطورية الأثيوبية • وقد اتحدت كلمة أهالى « تيجرى » فى الشمال وأهالى « شوا » فى الجنوب على محاربة الطليان والعمل على طردهم من بلادهم ، غير أن الايطاليين اعتمدوا على كسب تأييد بريطانيا لهم فى تلك المرحلة ــ وكما سبق أن ذكرت ــ بسبب ما كان هنالك من تنافس حاد فى منطقة البحر الأحمر بين البريطانيين والفرنسيين (١) • ودخل الطليان فى حرب عرفت باسم الحرب الايطالية التيجرية (١٨٩٤ ــ ١٨٩٥) نمكنوا فى نهايتها من ضم مملكة تيجرى الى مستعمرة اريتريا الايطالية • غير أن ذلك أثار حربا ضارية بين الطليان وكل الممالك الامبراطورية الحبشية مجتمعة عرفت باسم الحرب الايطالية الحبشية (١٨٩٥ ــ ١٨٩٦) • ونجح الامبراطور « منليك الثانى » فى توحيد تلك الممالك لمحاربة الطليان مستعينا بالروس والفرنسيين فى تسليح جيشه وتدريب قواته ، حتى انتصر على الطليان فى موقعة عدوة فى أول مارس سنة ١٨٩٦ (٢) • وبذلك فقدت ايطاليا نفوذها فى شرقى افريقيا ، ووقف توسعها فى الأراضى الحبشية ، كما سقطت وزارة « كريسبى » التى تبنت سياسة التوسع الاستعمارى فى اليوم العاشر من مارس من السنة المذكورة • بل ان المهديين بدءوا فى محاصرة كسلا فى ذلك الحين مما أدى الى اقناع الحكومة البريطانية باسترجاع قسم من السودان فى بداية الأمر ، وارسال حملة الى دنقلة تمكنت من استرجاعها فى شهر يونية سنة ١٨٩٦ •

---

(١) محمد رجب حراز (دكتور) : نفس المصدر ، ص ٥٥٩ •

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢١٢ •

وقد كرر المهديون هجومهم على كسلا مما أدى الى تحرج مركز الطليان بها وجعلهم يفكرون فى اعادتها الى الحكومة المصرية حتى يخففوا من أعبائهم · وقد تنازل الطليان رسميا عن كسلا للحكومة المصرية فى شهر ديسمبر سنة ١٨٩٧ ، وان كان هذا التنازل قد قوبل بامتعاض شديد من قبل « الحزب » الاستعمارى الايطالى ، خاصـــة بعد أن تم استرجاع السودان والقضاء على الدولة المهدية · اذ كان هذا « الحزب » يعتقد أن انتصار أم درمان فى اليوم الثانى من سبتمبر سنة ١٨٩٨ قد قضى على كل الأخطار التى هددت الطليان فى الماضى من ناحية المهديين ، كما أن انتهاء الحرب بين ايطاليا والأحباش منذ عقد الصلح بين الجانبين فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ قد أطلق أيدى الطليان فى شئون مستعمرتهم فى اريتريا · ومن هنا اعتقد هـــذا « الحزب » أنه كان بوســع الايطاليين أن يظلوا مسيطرين على كسلا تمهيـــدا لتحقيق أهدافهم الاستعمارية فى شرق افريقيـــا والسيطرة على البحر الأحمر ·

وجدير بالذكر أن هزيمة ايطاليا أمام الأحباش فى موقعة عدوة فى شهر مارس سنة ١٨٩٦ وما نتج عنها من ابرام معاهدة « أديس أبابا » مع « منليك » فى اليوم السادس والعشرين من أكتوبر من السنة نفسها ، ثم التنازل بمقتضاها عن كسلا واخلائها فى شهر ديسمبر سنة ١٨٩٧ · ولم ينته ذلك كله بكارثة لايطاليا كما ترددحينذاك لدى دوائر الرأى العام الايطالى ، بل على العكس من ذلك استطاع الطليان أن يتحولوا الى مهمة أكثر أثرا فى تاريخ استعمارهم فى شرق افريقية ، وهى التوفر على دعم الأسس التى قامت عليها مستعمرتهم فى اريتريا من جهة ، ومد نفوذهم فى مستعمرتهم الأخرى جنوبى منطقة البحر الأحمر والتى عرفت باسم الصومال الايطالى على الساحل الشرقى لافريقيا المطل على المحيط الهندى من جهة أخرى ، وكانوا قد بدءوا ينشرون نفوذهم هنـــاك بعد استيلائهم على مصوع فى ســـــنة ١٨٨٥ · وقد أبرم الايطاليون فيما بعد عدة معاهدات مع بريطانيا وأثيوبيا ومصر وحكومة السودان استقرت بموجبها حدود مستعمرة اريتريا الايطالية ، واستغرق عقد تلك المعاهدات الفترة الممتدة بين عامى ١٨٨٧ و ١٩٠٨ (١) ·

وقد حرص البريطانيون على تدعيم موقف ايطاليا فى تلك المعاهدات حتى يتدعم بذلك مركزها فى اريتريا ، وذلك فى الوقت نفســه الذى شجعوا فيه الطليان للسيطرة على ساحل « بنادر » فى سنة ١٨٨٩ الذى يعتبر الشطر الجنوبى من الصومال بعد أن تنازل سلطان زنجبار صاحب السيادة الشرعية عن هـــذا الاقليم الى « شركة افريقيا الشرقية البريطانية » · وتنازلت هذه الشركة بدورها عن ساحل « بنادر » الى الحكومة الايطالية · وكان هدف البريطانيين من وراء ذلك

---

(١) محمد رجب حراز (دكتور) : التوسع الايطالى فى شرق افريقية ص ٥٦١ ·

الاحاطة من ناحية الجنوب بمستعمرة الفرنسيين فى « أوبوك » فى الوقت الذى يحيطون بهم من الشمال بمستعمرة اريتريا • وبذلك ظل الفرنسيون محصورين بالوجود الايطالى المحالف لبريطانيا على الساحل الغربى للبحر الأحمر من الشمال والجنوب ، حتى لا يشكل وجودهم فى « أوبوك » تهديدا للمصالح البريطانية فى هذا الطريق الملاحى الحيوى وفى ميناء عدن الهام •

ثالثا – موقف البريطانيين فى عدن ازاء النشاط العثمانى المنافس على الساحل الشرقى للبحر الأحمر (١٨٨٢ – ١٩١٤) :

أوضحنا فيما سبق أن التنافس كان شديدا بين العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن • وقد تمثل هذا التنافس فى رغبة كل من الجانبين فى توسيع منطقة نفوذه ، كما تمثل فى محاولة العثمانيين مد خط للبرق بين تعز وعدن ، ووضع قوات عثمانية لحمايته على مدى امتداده ، ووقوف البريطانيين فى وجه هذا المشروع • وقد نتج عن هذا التنافس – الذى كاد أن يحدث صداما بين الجانبين – رغبة ملحة من جانب البريطانيين على وجه الخصوص لتحديد الحدود بين منطقتى النفوذ العثمانى والبريطانى فى جنوب اليمن • ولهذا فقد صدرت التعليمات من حكومة الهند البريطانية الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى شهر مارس سنة ١٨٧٧ بأن يبذل جهوده للوصول الى تسوية واتفاق مع والى اليمن العثمانى لتحديد الحدود بين منطقة نفوذ العثمانيين فى اليمن والنواحى التسع المحيطة بعدن والمرتبط حكامها مع السلطات البريطانية هناك بمعاهدات صداقة وولاء •

–جهود البريطانيين لتحديد منطقتى النفوذ العثمانى والبريطانى فى جنوب اليمن :

على الرغم من وصول هذه التعليمات الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فان موضوع تحديد الحدود لم يأخذ سبيله للتنفيذ الا فى مطلع عام ١٨٨٠ • فقد وجه المقيم السياسى فى عدن نائبه « الكولونيل هنتر » وبرفقته فرقة من قوات عدن يقودها « الليفتنانت كولونيل استيفنس Stevens » لمسح المنطقة المحيطة بعدن وتحديد الحدود التى تفصل أراضى الأميرى والتى تضم أمارة دثينة عن منطقة نفوذ العثمانيين الواقعة الى الشمال من تلك الأراضى • (١) وهو وضع « هنتر » تقريرا عن مهمته فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٠ جاء فيه أن الأمير على بن مقبل أمير دثينة عندما استعاد ممتلكاته بعد انسحاب العثمانيين من بلاده تبين أنه فقد خمس قرى نتيجة لخضوع رؤسائها سواء طواعية أو بالقوة للسلطات

---

(١) I.O., Aden Delimination, the history of the question and the present, situation as regards the territories of the Amir of Dthali, Memorandum by P.J. Maitland Brigadier-General Resident at Aden, 28th July 1902.

تقع امارة دثينة عدن بمسافة ٩٥ ميلا تقريبا •

العثمانية فى اليمن (١) · كما أوضح « هنتر » على خريطة مرفقة بالتقرير خط الحدود الذى يفصل أراضى الأمير عن المناطق الواقعة شمالا والتى كان يسيطر عليها الأتراك فى ذلك الحين · ولهـــذا لم يتمكن « هنتر » من عقد اتفاق مع العثمانيين لتحديد الحدود قبل اعادة القرى المذكورة للأمير على بن مقبل · وقد عقب « الجنرال لوك Lech » على تقرير « الكولونيل هنتر » بقوله انه ينبغى مواجهة تغلغل الأتراك فى المنطقة حتى يمكن تفادى الفشل الذى منى به « هنتر » بعدم وصوله الى اتفاق مع الأتراك بشأن تحديد الحدود ·

على أن الأتراك كانوا متمسكين بمطلبهم القديم فى أحقية السلطان العثمانى بالسيادة على الجزيرة العربية بأكملها · ولهذا فقد رفضوا التفاوض مع لجنـة بريطانية أخرى تشكلت لتحديد حدود اقليم دثينة ، كما أنهم احتجوا على شراء الحكومة البريطانية لبعض الأراضى من سلطان لحج (٢) · وقد أدى هذا الموقف من قبل العثمانيين الى قيام « اللورد جرانفيل » وزير الخارجية البريطانية بابلاغ حكومة الباب العالى فى اليوم العاشر من يناير سنة ١٨٨٣ بأن حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ليس لديها أية رغبة فى الانسحاب من أراض تتمسك بهـا باصرار ، كما أنها تندد بالمشكلات التى يثيرها العثمانيون بتدخلهم فى شـئون حكام لحج ودثينة المرتبطين مع بريطانيا بمعاهدات صداقة وولاء · وأخيرا أكد « لورد جرانفيل » أهمية تحديد الحدود باعتبار ذلك أمرا لازما لمنع استمرار المناقشات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية حول هذا الموضوع حتى لا يؤدى اختلاف وجهات النظر والاصرار عليها الى نشوب خلاف حاد بين الجانبين (٣) ·

وقد عبر « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن عن قلقه ازاء التدخل العثمانى فى شئون القبائل اليمنية المجاورة لعدن باقتراحه عقد معاهدات الحماية مع هذه القبائل ، بالاضافة الى معاونة على بن مقبل أمير دثينة ومنحه راتبا شهريا (٤) · غير أن المقيم السياسى البريطانى فى عدن أوضح حينذاك أن الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة لمعاونة على بن مقبل بعد أن ثبت ضعفه وتخلى عنه معظم شيوخ القبائل ، ولهذا رأى أنه ينبغى على البريطانيين فى عدن تلافى أى صدام مع الأتراك دفاعا عن مصالح على بن مقبل (٥) ·

---

(١) I.O., B. 136, Confidential, Note by Sir William Lee-Warner on the Aden Demarcation, 18th June 1902, p. 1.

(٢) I.O., Aden Delimitation, op. cit. 28th July 1902, p. 3.

(٣) I.O., B. 136, Confidential, Note by Sir William Lee-Warner on the Aden Demarcation, 18th 1902. pp. 1.2. I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July 1902, pp. 4,5.

(٤) I.O., B. 30. Confidential, Memorandum regarding the relation with the Tribes in the vicinity of Aden, especially to interference to the Amir of Zhali, by Major F.M. Hunter, G.S.I. Assistant Political Resident at Aden, September 28th, 1885.

(٥) I.O., B. 30, Memorandum by Lieutenant General J.W. Schneider, C.B., October 1st., 1885.

وبنــاء على ذلك فقد وافقت حكومة الهنــد البريطانية على عقد معاهدات الحماية مع القبائل العربية التي تقطن النواحي التسع الممتدة في جنوب اليمن من « الشيخ سعيد » غربا حتى حدود عمان شرقا ، مما يحول دون حدوث أي تدخل أجنبي في شئون تلك المنطقة ويؤمن القاعدة البريطانية في عدن من أية مخاطر • وبعقد هذه المعاهدات (١) رأى البريطانيون أن ذلك سيضطر العثمانيين الى الموافقة على تحديد خط مستقر للحدود بين منطقتي النفوذ البريطاني والعثماني في جنوب اليمن (٢) •

وقد اقترح « اللورد دوفرين Dufferin » في شـــهر اغســطس سنة ١٨٨٩ أن على الحكومة البريطانية أن تتخذ من جانبها الخطوات اللازمة لتحـديد الحدود بين منطقتي النفوذ العثماني والبريطاني في جنـوب اليمن دون انتظار موافقة العثمانيين على ذلك ، بل ان عليها أيضا اجبارهم على احترام هذه الحدود • على أنه قد اقترح في الوقت نفسه اعطاء العثمانيين بعض الامتيازات في أراضي الأميري اذا كان ذلك يجعلهم يوافقون على عقد اتفاق حول تحديد الحدود (٣) •

ورغم قيام السلطات البريطانية في عدن بعقد معاهدات الحماية مع القبائل المجاورة حتى ساحل حضرموت ، فانها قد أرجأت عقد معاهدة مع قبائل الأميري حتى لا يحدث أي صدام مع السلطات العثمانية في اليمن في ذلك الحين • اذ كانت بعض القوات العثمانية تسيطر على المرتفعات الواقعة في أراضي الأميري مما يؤكد مدى تغلغل النفوذ العثماني في تلك المنطقة • ولعل ذلك هو ما دعا « الجنرال هوج Hogg » أن يقرر في اليوم السابع من أكتوبر سنة ١٨٨٩ (٤) بأنه من غير المستحسن حينذاك عقد معاهدة للحماية مع قبائل الأميري في هذه الظروف نظرا لأن ذلك قد يؤدي الى تعقيدات لا داعي لها • غير أن ذلك أدى بالفعل الى ازدياد نشاط البريطانيين لانهاء عملية تخطيط الحدود بين منطقتي النفوذ العثماني والبريطاني في جنوب اليمن حفاظا على تأمين قاعدتهم البريطانية في عدن من أي تهديد •

---

(١) عبد الرحمن أبو طالب : الجنوب اليمني المحتل من النواحي التاريخية والطبيعيــة والسياسية ونصوص الاتفاقات والمعاهدات البريطانية مع العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة في ٥ اغسطس ١٩٥٩ ولم ينشر بعد • ص ١٠٩ — ١١٨ •

(٢) I.O. B. 41, Secret Dep., British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat), E.N., 1st November, 1887, p. 1.

(٣) جاد طه (دكتور) : سياسة بريطانيا على جنوب اليمن ، ص ٣٠٣ •

(٤) I.O., B. 136, Confidential, Note by Sir William Lee-Warner on the Aden Demarcation, 18th June 1902, pp. 1,2.

– بعثة « الكابتن وهب » لتحديد الحدود في عامي ١٨٩١ – ١٨٩٢ :

وجهت السلطات البريطانية في عدن في سنة ١٨٩١ « الكابتن وهب R.A. Wahab » على رأس بعثة لمسح المنطقة المحيطة بعدن والتي تقطنها القبائل المرتبطة مع البريطانيين بمعاهدات صداقة وولاء أو بمعاهدات حماية ، وذلك حتى يمكن تحديد الحدود الفعلية لأراضي هذه القبائل . غير أن سلطات عدن طلبت من « الكابتن وهب » عدم دخول المناطق التي يحتلها العثمانيون حتى لا تثار مشكلات جديدة بين الجانبين . على أن ذلك كان يعني عدم امكانية اجراء المسح المطلوب لمنطقة دثينة وللقرى التي يحتلها العثمانيون في أراضي الأميري . ومن هنا فان اعداد أي خريطة للحدود في مثل هذه الظروف لن يحقق أي نفع للأهداف السياسية حيث يوجد تداخل واضح بين منطقتي نفوذ العثمانيين والبريطانيين في جنوب اليمن (١) . فعلى الرغم من أن علي بن مقبل أمير دثينة كان مواليا للبريطانيين في ذلك الحين ، فان الأتراك العثمانيين كانوا يحتلون عدة قرى تابعة لادارته وأصبحت موالية لهم (٢) . ولهذا فانه كان من المتعذر تحديد خط فعلي للحدود قبل أن تستقر الأوضاع القائمة في المنطقة في ذلك الحين .

ويبدو ذلك بوضوح في تقرير « الكابتن وهب » الذي نشر في عام ١٨٩٣ ، والذي أرفق به خريطة لم يوضح بها سوى مواقع بعض القرى التي سيطر عليها الاتراك في سنة ١٨٨٠ ، مما يظهر أنهم قد نجحوا في التوغل في جنوب الجزيرة العربية « دون أن يثيروا الانتباه » وذلك على حد تعبير المقيم السياسي البريطاني في عدن في ذلك الحين (٣) . وحتى بعد اعادة الأمير علي بن مقبل لامارة دثينة بعد انسحاب العثمانيين منها بناء على الحاح البريطانيين على الباب العالي في ذلك الحين ، فان الأمر قد اتخذ شكل الاغارات على المنطقة بين آونة وأخرى لعدة سنوات .

وعقب وفاة علي بن مقبل أمير دثينة في شهر سبتمبر سنة ١٨٨٦ واختيار ابن عمه شايف بن سيف خلفا له ، فان سلطات عدن لم تثق في الأمير الجديد ، وان كان هذا الأمير قد استطاع أن يوحد شيوخ المنطقة بطريقة لم يتمكن سلفه من تحقيقها (٤) . وعلى الرغم من قيام البريطانيين بعقد معاهدات الحماية مع قبائل الحوشبي والعلوي ويافع السفلى ، فان الموقف في دثينة ظل مجمدا وبخاصة أن قبضة العثمانيين على اليمن تعرضت لاهتزاز في عامي ١٨٩٢ و ١٩٠٠ وذلك نتيجة لثورات اليمنيين ضدهم من جهة ، ولمهادنة الأمير شايف بن سيف

---

(١) I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July 1902, p. 6.

(٢) I.O., B. 136, Confidential, Note by Sir William Lee-Warner of the Aden Demarcation, 18th June 1902, pp. 1, 2.

(٣) I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July, 1902., p. 6.

(٤) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

للاتراك العثمانيين من جهة أخرى ، اذ كان هذا الأمير يحمى كل من يلتجىء منهم الى بلاده ، الأمر الذى جعل السلطات العثمانية فى اليمن تتفادى اثارة أية مشكلات من شأنها مضايقته وذلك عرفانا بجميله ٠ (١)

وجدير بالذكر أن العثمانيين فى اليمن قد ساد لديهم اعتقاد فى ذلك الحين بأن الدسائس والمؤامرات التى تدبرها السلطات البريطانية فى عدن هى التى حركت ثورة اليمنيين ضدهم ، ولم يدركوا أن بريطانيا قد استفادت كثيرا من وجودهم هناك ، ولهذا فان الاتراك العثمانيين فى اليمن اهتموا بتوثيق علاقاتهم بالامارات الواقعة الى الجنوب فى قعطبة ولحج والضالع وأراضى الحواشب حتى أن السلطات العثمانية فى صنعاء قامت من جانبها بمنح سلاطين وأمراء ومشايخ تلك المناطق اعانات مالية لانشاء علاقات ودية معهم على نحو ما فعل البريطانيون مع القبائل المحيطة بعدن ٠ على أن هدف السلطات البريطانية فى عدن من وراء ذلك كان ينحصر فى تأمين قوافل التجارة المتجهة من عدن الى بقية أجزاء اليمن من عـدوان القبائل اليمنية عليها ، ولايجاد منطقة موالية للبريطانيين أو على الأقل مهادنة لهم تتوسط المنطقة الواقعة بين منطقة النفوذ البريطانى فى جنوب اليمن وولاية اليمن العثمانية ، بما يحول دون تغلغل العثمانيين فى تلك المنطقة وتهديد المصالح البريطانية فى عدن ٠

ومن ناحية أخرى فان وجود العثمانيين فى اليمن كان مفيدا للمصـــالح البريطانية فى عدن من الناحية التجارية ٠ اذ أن الادارة اليمنية فى صنعاء قبل مجىء العثمانيين لم تكن تقوى على كبح جماح القبائل اليمنية مما كان يؤدى الى عرقلة مرور القوافل التجارية بين عدن والمناطق الداخلية وبالعكس ٠ ويرجع ذلك الى ضعف الامامة الزيدية ، وتنافس الأئمة بينهم ، وعدم وجود سلطة مركزية قوية فى اليمن حينذاك ٠ غير أن الأحوال قد تغيرت بعودة العثمانيين الى اليمن وتمكنهم من بسط نفوذهم على مناطق كثيرة فيه ، مما أدى الى تأمين طرق القوافل وهو ما أفادت منه كثيرا المصالح البريطـــانية فى عدن ٠ بل ان طمع الاتراك العثمانيين ورغبتهم فى فرض ضرائب باهظة فى ميناء الحديدة والموانى اليمنية الأخرى المطلة على البحر الأحمر لتغطية تكاليف وجودهم فى اليمن ٠ قد أدى الى اتجاه الجزء الأكبر من التجارة اليمنية الى عدن التى كانت حينذاك ميناء حرا ، مما أضاف مكاسب جديدة للمصالح البريطانية فى عدن بطبيعة الحال ٠ (٢)

واذا كان العثمانيون قد واجهوا أثناء وجودهم فى اليمن العديد من الثورات والقلاقل نتيجة لاستبدادهم وظلمهم ، (٣) فقد جعل ذلك الباب العالى يكثر من

---

(١) I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July 1902, pp. 6,7.

(٢) Harris, W. : A journey through the Yemen, pp. 115, 117.

(٣) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 16.

تغيير الولاة محاولا معالجة الموقف بأية وسيلة حتى تستقر الأمور على يد واحد منهم يحسن السيطرة على زمام الموقف • ولهذا فانه عزل الوالى أحمد فيضى باشا فى سنة ١٨٩٧ وأحل محله الوالى حسين حلمى باشا • وقد استبشر اليمنيون خيرا بوصول الوالى الأخير الذى وعدهم باقامة العدل وأصر على عزل من أساءوا التصرف من الموظفين الأتراك ، وقام بالفعل باصلاحات كثيرة • (١) غير أن هذا الوالى لم يلبث أن عزل وحل محله عبد الله باشا الذى لم يتمكن من حماية حدود اليمن من عدوان البريطانيين الذين توسعوا فى الجنوب وسيطروا على الضالع فى سنة ١٩٠٢ • ونظرا لأن الوالى عبد الله باشا لم يستنكر عدوان البريطانيين على المنطقة ، فقد أغضب ذلك الباب العالى الذى أمر بعزله وعين خلفا له توفيق باشا واليا جديدا على اليمن • (٢)

وفى مطلع القرن العشرين تجدد النشاط العثمانى فى دثينة ووصلت الى السلطات البريطانية فى عدن شكوى من الأمير شايف بن سيف أمير دثينة تعبر عن قلقه ازاء التدخل الخطير من جانب العثمانيين فى قعطبة • ولاشك أن ذلك كان يعنى تجدد المشكلات القديمة فى المنطقة المحيطة بعدن نتيجة لتنافس العثمانيين والبريطانيين للسيطرة عليها •

ـ بعثة « الميجور ديفيز » لتحديد الحدود فى سنة ١٨٩٢ :

وهنا اقترح « الميجور جنرال متلند P.J. Maitland» المقيم السياسى البريطانى فى عدن (١٩٠١ ـ ١٩٠٥) أن يقوم « الميجور ديفيز Major Davies » بزيارة قعطبة وهضبة دثينة لاستطلاع الموقف هناك • كما اقترح حاكم الهند العام اقتناص هذه الفرصة ومفاوضة العثمانيين فى أمر تحديد الحدود بين منطقة نفوذهم ومنطقة النفوذ البريطانى فى جنوب اليمن على نحو ما ورد بالخريطة التى وضعتها بعثة المسح البريطانية فى عامى ١٨٩١ و ١٨٩٢ (٣) •

وبناء على ذلك فقد قام « الميجور ديفيز » بزيارة دثينة وقدم تقريرا تناول فيه تعديل خط الحدود السابق الذى وضعه « الكابتن وهب » فى سنة ١٨٩٢ على أساس الوضع القائم ، حيث ظلت أربع قرى فى أراضى الأميرى واقعة فى نطاق نفوذ العثمانيين ووجدت باحداهما وهى « قرية جليلة » قوة عثمانية صغيرة • على أن العثمانيين كانوا قد استولوا على تل منعزل يسمى « جبل شهيد » يقع على

---

(١) عبد الواسع بن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ص ١٩٠ •

(٢) حسين بن احمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، ص ٨٣ ـ ٨٤ •

(٣) I.O., B. 136., Confidential 1902, Note by Sir William Lee-Warner on the Aden Demarcation 18th June 1902, pp. 2,3.

بعد نحو نصف ميل جنوب شرقى « قرية جليلة » ووضعوا حامية عثمانية هناك ٠ غير أن هذا التل كانت له أهمية خاصـــة نتيجة لسيطرته على طريق القوافل ، مما جعل البريطانيين يعارضون فى بقاء احتلال العثمانيين لهذا الموقع ٠ وقد أشار « ديفيز » فى تقريره الى خطورة استيلاء العثمانيين على « جبل شهيد » ودعا الى سرعة تحديد الحدود لمواجهة تطلعات العثمانيين لمزيد من أعمال التوسع فى المنطقة القريبة من عدن ٠

وقد أبدى العثمانيون رغبتهم فى تحديد الحدود بين منطقة نفوذهم ومنطقة النفوذ البريطانى جنوب اليمن حتى يمنحوا المناطق التى وقعت فى أيديهم الصفة العثمانية بحيث لا تناوئهم فيها السلطات البريطانية فى عدن التى كانت تتبع تحركاتهم ٠ وقد لقى هذا الطلب قبولا لدى حاكم الهند العام الذى أراد أن ينتهز هذه الفرصة غير المتوقعة ويصل الى تحديد للحدود يتفق مع المصالح البريطانية بطبيعة الحال ٠ ولهذا عينت بعثة بريطانية لتحديد الحدود برياسة « الكولونيل وهب » الذى قدم تقريره من قبل فى عامى ١٨٩١ و ١٨٩٢ ٠ كما عين ضمن أعضاء البعثة « الليفتنانت كولونيل أبود Abud » وهو ضابط بريطانى اكتسب خبرة كبيرة ومعلومات دقيقة عن القبائل المجاورة لعدن أثناء توليه لمنصبه كمساعد للمقيم السياسى البريطانى فى عدن ٠ كما شكل العثمانيون من جانبهم بعثة لمفاوضة البريطانيين فى مسألة الحدود (١) ٠ وقد رافقت البعثة البريطانية قوة قوامها مائة وخمسون جنديا وفرقة من المشاة من الوطنيين وبعض المهندسين العسكريين فضلا عن فرقة أخرى من حامية عدن (٢) ٠

وهكذا تم لقاء البعثتين البريطانية والعثمانية فى قرية دثينة فى نهـاية شهر فبراير سنة ١٩٠٢ ، وفى بداية هذا اللقاء طالب العثمانيون بالاعتراف بسيادة الباب العالى على الجزيرة العربية بأكملها ٠ غير أن الممثلين البريطانيين لم يوافقوا على هذا الطلب ٠ ثم عبر العثمانيون عن رفضهم الاعتراف بأحقية أمير دثينة فى أية أراض طالما لم يصدر بذلك فرمان عثمانى (٣) ٠ كما لم يعر الممثلون الأتراك أى اهتمام لاحتجاجات الممثلين البريطانيين بأن هذه الادعاءات العثمانية سبق أن رفضتها الحكومة البريطانية منذ عهـد بعيد ٠ وهنـا اقترح الممثلون العثمانيون تحديد خط للحدود يضم معظم المنطقة المحيطة بدثينة لتكون تابعة لهم بينما لم يترك لأمير دثينة سوى قرية دثينة نفســها الواقعة على الهضبة والأودية الضيقة المحيطة بها ، فضلا عن بلاد العلوى وأراضى القعيطى ٠

وعلى الرغم من أن الأتراك العثمانيين هم الذين طالبوا بتحديد الحدود بين

---

(١) I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July 1902, p. 7.

(٢) I.O., B. 140, Confidential, Aden Boundary, C.G.C., January 20th, 1903.

(٣) I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July, 1902, p. 7.

منطقتى النفوذ العثمانى والبريطانى فى جنوب اليمن فانهم حرصوا من جانبهم على أن يعوقوا البعثـــة البريطانية من القيـــام بمهمتها وذلك عن طريق التحرش بأعضائها بمختلف الأساليب (١) . كما أن العثمانيين حاولوا أن يضيفوا الى منطقة نفوذهم مواقع كثيرة أخرى حتى يفرضوا الأمر الواقع على البريطـانيين هناك . بل انهم حشدوا أيضا قوات عثمانية فى هذه المواقع الجديدة ليفرضوا الأمـر بالقوة اذا لم يقبـل البريطانيون الاعتراف بتبعيتها للادارة العثمانية . هذا بالاضافة الى أن العثمانيين قد حاولوا أن يحرضوا القبائل اليمنية على مهاجمة معسكر البعثة البريطانية دون جدوى ، نظرا لأن رجال القبائل طالبوا العثمانيين بأن يتقدموهم فى الهجوم على المعسكر (٢) . غير أن العثمانيين لم يجرءوا على احداث صدام مباشر بينهم وبين القوات البريطانية مما أدى الى فشل مخططهم ، وبخاصة أن البريطانيين طالبوا حكومتهم فى اليوم الثانى عشر من ابريل سنة ١٩٠٢ بتدعيم القوات المرافقة للبعثة لضمان نجاحها فى أداء مهمتها (٣) .

على أن البعثة البريطانية تمكنت رغم كل هذه المعوقات من جمع المعلومات المتعلقة بتحديد الحدود . وقد أثبتوا أن ممتلكات أمير دثينة التى كان يسيطر عليها وقت وصولهم الى الامارة تمتد الى الغرب والشمال الغربى خلف جبـل جحاف ، أى انها تمتد خلف الحدود التى أوردها « الكولونيل وهب » فى تقريره المقدم فى عامى ١٨٩١ و ١٨٩٢ وكان أمير دثينة يجمع الضرائب فى تلك المنطقة منذ عشر سنوات قبل وصول البعثة فى سنة ١٩٠٢ حتى اعتدى الأتراك عليها فى مطلع تلك السنة وعزلوا أمير دثينة عن حكم كل القرى التى كانت تابعة له على الهضبة تمهيدا لوضعها ضمن نفوذهم عند تحديد خط للحدود .

على أن الأتراك العثمانيين قد فشلوا فى تقديم أية براهين تؤيد حقهم فى أى جزء من أراضى الأميرى كما لم تتوفر لديهم أية خرائط عن المنطقة . ولهـذا فانهم قد اعتمدوا فقط على ادعاءاتهم فى أحقية الباب العالى بالسيادة على الجزيرة العربية بأكملها ، وهى الادعاءات التى سبق أن رفضتها الحكومة البريطانية عدة مرات . هذا فى الوقت الذى توفرت فيه لدى أمير دثينة المستندات الدالة على ملكيته لمنطقته وحكم أسلافه لتلك الأراضى ، فضلا عن تحصيله لضرائبها طيلة عشر سنوات سابقة لوصول البعثة البريطانية فى سنة ١٩٠٢ . غير أن العثمانيين حاولوا أن يتمسكوا بتلك المنطقة نظرا لأن هضبة دثينة كانت لها أهميتها بالنسبة للمخططات البريطانية المعادية للعثمانيين ، ولهذا اشتد التنافس بين العثمانيين والبريطانيين للسيطرة عليها .

---

(١) I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July 1902, p. 8.

(٢) I.O., B. 140, Confidential, Aden Boundary C.G.C., 20th January 1903, pp. 2,3.

(٣) جاد طه (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

ومما يظهر أهمية هضبة دثينة بالنسبة للمصالح البريطانية ذلك التصريح الذى أدلى به « الميجور جنرال متلند » المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى عام ١٩٠٢ اذ أوضح أن دثينة تعتبر منطقة هامة للغاية بالنسبة لعدن ، اذ يمكن اقامة مستشفى بريطانية على هضبتها التى تبعد عن عدن تسعين ميلا . كما أبدى امكانية اقامة خط حديدى صغير يربط عدن بدثينة ويتكلف نفقات قليلة . كما يمكن أن تستخدم تلك الهضبة كمنطقة استشفاء وترويح نظرا لبرودتها فى شهور الصيف وهى تستوعب حوالى ثلاثمائة جندى مما سيؤدى الى رفع كفاءة رجال الحامية وتحسين أحوالهم الصحية (١) .

على أن سيطرة البريطـــانيين على منطقة دثينة كانت تعنى من الناحية السياسية انتصار بريطانيا ورجحان كفتها على كفة العثمانيين فى اليمن حينذاك . اذ كان الشيوخ وزعماء القبائل اليمنية يرقبون باهتمام بالغ الصراع الدائر بين العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن حتى يمكنهم أن يحددوا موقفهم ويتجهوا للكفة الراجحة .

ويستطرد المقيم السياسى البريطانى فى عدن قائلا ان البريطانيين لا يملكون فى عدن قوات ضخمة مثلما كان عليه الحال فى الهند ، ونظرا لأن القبائل تتأثر بما تراه أمامها ، كما تحس بمن يشعرها بقوته ، فان البريطانيين كانوا يجتذبون القبائل المحيطة بعدن بدفع المشاهرات لزعمائها من جهة ، وبابداء استعدادهم لحمايتهم من تدخـــل العثمانيين فى بلادهم من جهـــة أخرى . فاذا ما فشـــل البريطانيون فى حماية أراضى الأميرى على مرأى من رجال القبائل ومسمعهم فان ذلك كان من شأنه أن يقضى نهائيا على نفوذ البريطانيين ومكانتهم فى المنطقة ، ويجعل القبائل تغير ولاءها ازاءهم مما يؤدى الى اتاحة الفرصة للنفوذ العثمانى للتغلغل هناك .

ويسترسل المقيم السياسى البريطانى موضحا — فى التصريح الذى أدلى به فى عام ١٩٠٢ — أن ثمة صعوبات عملية تواجه مسألة تحديد الحدود . فبالنسبة لادارة دثينة نجد أن الأمير شايف بن سيف قد تصرف بمنتهى الاعتدال على الرغم من أنه كان حانقا حينذاك لوجود الأتراك العثمانيين فى بلاده . فاذا ما علم هذا الأمير أن هدف بريطانيا الرئيسى من مســاعدته هو الاستيلاء على ممتلكاته فى النهاية ، فانه سوف يلقى بنفسه فى أحضان العثمانيين كلية مما كان من شأنه أن يؤدى الى تعويق تحديد الحدود بحيث ينتهى الأمر الى نتيجة مؤسفة (٢) .

وهكذا يوضح هذا التصريح مدى تلاعب السلطات البريطانية فى عدن بمقدرات القبائل اليمنية فى جنوب اليمن . فبريطانيا من ناحية تقف فى وجه

---

(١) I.O., Aden Delimitation, Op. cit., 28th July 1902, pp. 8,9.

(٢) I.O., Aden Delimitation, op. cit., 28th July 1902, pp. 9,10.

التدخل العثماني في المنطقة بدعوى انها تدافع عن القبائل اليمنية ، ثم انها تتجه من ناحية أخرى الى تحديد الحدود بين منطقتي النفوذ البريطاني والعثماني في جنــوب اليمن بدعوى أنها تسعى الى اقرار الأمور هنــاك • على أن السـياسة البريطانية كانت تهدف في حقيقة الأمر الى السيطرة على منطقة دثينة ذات الأهمية البالغة للمخططات البريطانية في عدن • وعلى ذلك فان مسالة الحماية التي قدمتها بريطانيا لأمير دثينة لم تكن سوى محافظة منها على المنطقة التي تريد أن تحتفظ بها لنفسها في نهاية الأمر • ولم يكن أمير دثينة بالنسبة لبريطانيا سوى وسيلة وأداة لتحقيق سياستها وأطماعها •

وجدير بالذكر أن الحدود الفاصلة بين منطقتي نفوذ البريطانيين والعثمانيين في جنوب اليمن كانت تقطنها قبائل يمنية تدين بالولاء المزدوج لكلا الجانبين(١)، وتقع أراضيها على جانبي خط الحدود • وقد اقترحت وزارة الهند البريطانية في ٢٧ يونيو سنة ١٩٠٢ على وزارة الخارجية البريطانية توجيه بعثة لتحديد خط الحدود على أن يضم لمنطقة نفوذ البريطانيين في جنوب اليمن كل الأراضي الممتدة بين سلسلة جبل جحاف والتلال الواقعة على الجانب الآخر منها • وقد وافقت وزارة الخارجية البريطانية على ذلك وطلبت من أعضاء البعثة البريطانيين دعوة زملائهم الأتراك للتفاوض في أمر تحديد الحدود •

وقد اقترح « الكابتن وهب » على حاكم الهند العام في ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٢ عقد اتفاقات للحماية مع قبائل العولقي العليا واليافعي العليا • غير أن وزارة الهند طلبت تأجيل عقد اتفاقات الحماية حتى تتمكن البعثة البريطانية لتحديد الحدود من معرفة مواقع القبائل المعنية بالتحديد •

وقد قام « السير نيكولاس أوكونور Nicholas O conor » السفير البريطاني في الآستانة بتقديم مذكرة الى وزير الخارجية العثماني طالب فيها باعتبار المنطقة التي تقطنها قبــائل اليافعي ضمن النــواحي التسع المرتبط حكامها ببريطانيا بمعاهدات حماية وهي تضم يافع العليا ويافع السفلي • بل انه أوضح أيضــا أن الانذار الذي وجهه « لورد جرانفيل » في سنة ١٨٧٢ الى الحكومة العثمانية كان يشير الى المنطقة المجاورة لعدن والتي تضم قبائل اليافعي • وأخيرا فان خطاب وزارة الخارجية البريطانية الصادر في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٢ الى الحكومة العثمانية أشار أيضا الى موافقة حكومة جلالة الملكة على وجهة نظر وزارة الهند بأن المنطقة التي تقطنها قبائل اليافعي بتقسيمها تدخل حدود النواحي التسع المحمية من قبل الحكومة البريطانية (٢) •

---

(١) Bury, W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 195

(٢) I.O., B. 140., Confidential, Aden Boundary by C.G.C., 20th January 1903, pp. 1,2.

غير أن المبعوثين العثمانيين رفضوا الاعتراف بأن أراضى اليافعى تدخل ضمن النواحى التسع المعنية ، مما جعل المبعوثين البريطانيين غير قادرين على اتخاذ أية خطوة لتنفيذ التعليمات الصادرة اليهم ٠ على أن « الكولونيل وهب » اقترح منح سلطان اليافعى اعانة مالية حتى تتاح للبعثة فرصة الدخول فى أراضيه لتحديد الحدود ٠ وبالتشاور مع المقيم السياسى البريطانى فى عدن وافق على منح زعماء قبائل اليافعى عشرة آلاف ريال وذلك فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٠٢ على أن تعتبر بلاده ضمن النواحى التسع وذلك للحيلولة دون سيطرة العثمانيين عليها ٠

وقد أوضح « الميجور جنرال متلند P.J. Maitland » المقيم السياسى البريطانى فى عدن أن شيوخ قبائل اليافعى فيما عدا واحد منهم قد وافقوا على الحضور الى دثينة للاتفاق مع البريطانيين حول عقد معاهدة حماية ٠ وقد طالب المقيم حكومة الهند البريطانية منحه صلاحيات اعطائهم مشاهرات مالية ينص عليها فى معاهدة الحماية ٠ وكان « السير نيكولاس أوكونور » سفير بريطانيا فى الآستانة قد أكد فى برقية بعث بها لحكومته فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٢ أهمية ارضاء قبائل اليافعى حتى ينضموا الى جانب البريطانيين ويرفضوا اغراءات العثمانيين فى ذلك الحين ٠ على أنه أشار فى برقيته الى أهمية التحفظ أيضا بقدر الامكان فى ارضاء اليوافع الا وفقا لما تحتمه الضرورة القصوى (١) ٠

وقد تعرضت البعثة البريطانية لموقف دقيق فى اليوم السادس من شهر يناير سنة ١٩٠٣ ، اذ تعذر عليها الاتصال بعدن من ناحية الجنوب ٠ كما تعذر عليها التقدم ناحية الشمال الشرقى نظرا لاحتلال العثمانيين لقرية جليلة ، وفرض حصار بقواتهم من تلك الناحية ٠ وقد أبرق وزير الدولة البريطانى لشئون الهند الى حاكم الهند العام فى اليوم التاسع من الشهر المذكور يبلغه بأن السفير البريطانى فى الآستانة قد طالب الباب العالى بالحاح بارسال تعليمات سرية مشددة الى مبعوثيه فى اليمن لمقابلة البعثة البريطانية فورا للتشاور من أجل تحديد الحدود ٠ وأنه فى حالة عدم ارسال هذه التعليمات أو عدم اذعان المبعوثين الأتراك لها فان البعثة البريطانية ستباشر بنفسها وضع خط للحدود ٠ وسوف تقابل أية محاولة لتخطى هذه الحدود فيمابعد بكل شدة من قبل القوات البريطانية فى عدن ، خاصة اذا حاولت القوات العثمانية العودة الى احتلال المواقع التى انسحبت منها قبل تحديد الحدود ، أو تحريض القبائل اليمنية للسيطرة على مواقع جديدة فى أراضى الأميرى المتنازع عليها ، أو فى حالة التآمر ضد السلطات البريطانية فى عدن ٠

وقد تساءل وزير الدولة البريطانى لشئون الهند عن مدى الاستعدادات

---

(١) I.O., B. 140, Confidential, Aden Boundary by C.G.C., 20th January 1903, pp. 2, 3.

والامكانات الحربية المتوفرة فى عدن من جهة ، والموجودة حينذاك فى دثينة من جهة أخرى • وقد أجاب على هذا التساؤل «الميجور جنرال متلند» المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ١١ يناير سنة ١٩٠٣ ــ موضحا أن القوات الموجودة فى دثينة غير كافة لطرد العثمانيين على وجه السرعة من أراضى الأميرى • هــذا بالاضافة الى أن القوات البريطانية فى عدن ليست لديها الاستعدادات الكافية لارسال امدادات اضافية الى دثينة • ولهذا فقد طالب المقيم السياسى بتعزيز القوات الموجودة فى عدن بارسال لواء كامل يضم مشاة بريطانيين وبطاريات مدفعية جبلية من الهنـد فى أسرع وقت ممكن • وقد أشار المقيم السـياسى البريطـــانى فى عدن الى أنه اذا تطلب الأمر اقتحام البعثة البريطانية لأراضى اليافعى دون موافقة القبائل ، فان ذلك يستلزم فى هذه الحالة ارسال قوة أخرى بالاضافة الى اللواء المطلوب (١) •

وقد حرصت السلطات البريطانية فى عدن على مراقبة تحركات العثمانيين فى جنوب اليمن • ولهذا فان المقيم السياسى البريطانى هناك أبلغ حاكم الهند العام فى ١٤ يناير سنة ١٩٠٣ بأن الأتراك العثمانيين قد قاموا بتعزيز قواتهم فى موقع جليلة ، كما عززوا حاميات قعطبة • وأضافوا الى القوة الأولى خمسمائة مقاتل وستة مدافع ، على حين أضافوا للقوة الثانية ٣٤٠ مقاتلا ومدفعين بحيث تفوقت القوات العثمانية المعسـكرة قرب دثينـة وأصبحت أقوى من القــوات البريطانية المواجهة لها • بل ان « الكولونيل وهب » قد لفت أنظار حكومته الى زيادة القوات العثمانية فى جليلة فى أراضى لم تكن تابعة للعثمانيين • وهـذا ما جعله يقترح زيادة الحرس المرافق للبعثة ، وبخاصة أن الأتراك قد وضعوا فى جبل جحاف ستمائة مقاتل من العرب الموالين لهم وذلك بعد انسحاب قواتهم النظامية العثمانية من هناك •

وعلى الرغم من مقابلة « السير أوكونور » السفير البريطانى فى الآستانة للسلطان العثمانى والتشاور معه فى مسألة تحديد الحدود فى جنوب اليمن ، وما أكده السلطان من ارساله التعليمات للسلطات العثمانية فى صنعاء بتسريح القوات غير النظامية وبعدم النيل من حقوق أمير دثينة التى مارسها قبل سـنة ١٩٠١ ، وابلاغ المبعوثين العثمانيين بأن يعترفوا بأن أراضى اليافعى ضمن النواحى التسع المعنية ، فان هذه التعليمات لم تأخذ طريقها للتنفيذ • واستمرت مسألة الحدود بين منطقتى النفوذ العثمانى والبريطانى فى جنوب اليمن معلقة بين الجانبين، حتى أن نائب ملك بريطانيا فى الهند وحاكم الهند العام قد أبلغ وزير الدولة لشئون الهند برقيا فى ٢٠ يناير سنة ١٩٠٣ بتأكيداته بأن الأتراك غير جادين

---

(١) I.O., B. 140., Confidential, Aden Boundary by C.G.C., 20th January, 1903, p. 4.

فى التوصل الى وضع خط للحدود وأنهم يسوفون فى ذلك أيما تسويف (١) .

ولا شك أن الأتراك العثمانيين كانوا يرغبون فى مماطلة البريطانيين فى أمر تحديد الحدود بين منطقتى النفوذ البريطانى والعثمانى فى جنوب اليمن ، محاولين اجتذاب القبائل الى جانبهم بشتى الوسائل والأساليب الممكنة حتى ولو استعملوا نفس الوسائل والأساليب التى كان يتبعها البريطانيون فى ذلك الحين . وقد كان الأتراك يستندون الى أن الجزيرة العربية بأكملها تعتبر — من وجهة نظرهم — تابعة للسيادة العثمانية منذ مطلع القرن السادس عشر الأمر الذى يسمح لهم ببسط نفوذهم الفعلى عليها استنادا لتلك الدعوى . غير أن ما واجهه الأتراك من ثورات عارمة من قبل أهالى البلاد فى أنحاء الجزيرة وبخاصة فى بلاد اليمن (٢) لم يمكنهم من منافسة البريطانيين هناك الذين كانوا يتشبثون بقاعدتهم الهامة فى عدن حفاظا على مصالحهم فى منطقة البحر الأحمر بأكملها .

— موقف البريطانيين فى عدن ازاء الأوضاع القائمة فى الجزيرة العربية فى مطلع القرن العشرين :

ويجدر بنا الآن أن نلقى نظرة سريعة على الأوضاع القائمة فى الجزيرة العربية وخاصة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى مطلع القرن العشرين وموقف البريطانيين فى عدن ازاءها حتى نتبين التطورات التى أدت الى توصل البريطانيين الى عقد اتفاقية مع العثمانيين لتحديد الحدود بين منطقتى نفوذ الجانبين فى جنوب اليمن . ويهمنا كثيرا أن نشير الى أن الجزيرة العربية تتميز بأنها وحدة جغرافية واقتصادية واحدة يسودها النظام القبلى كأساس للحياة الاجتماعية . على أن هذا الوضع الاجتماعى الذى يختلف عما هو عليه الحال فى العراق والشام ومصر (٣) قد أدى بالتالى الى وجود تشكيلات سياسية فى الجزيرة العربية قوامها المشيخة أو الامارة أو السلطنة التى تعتمد على النفوذ الأسرى الاقطاعى المظهر ، أو الامامة التى تقوم على الفكر الدينى المذهبى وتفرض سلطاتها على منطقة يسكنها الأتباع والمريدون الى جانب غيرهم كما كان الحال بالنسبة للامامة الزيدية فى اليمن (٤) .

والى جانب الأوضاع الخاصة بالجزيرة العربية والتى أدت الى التفتيت السياسى لسكانها ، فان الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن كان من العوامل

---

(١) I.O., B. 140, Confidential, Aden Boundary by C.G.C., 20th January 1903, p. 4,5.

(٢) فاروق عثمان اباظة : الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ١٣٤ — ١٤٦ .

(٣) Brémond, E. : Yémen et Saoudia, p. 75.

(٤) السيد مصطفى سالم (دكتور) : تكوين اليمن الحديث ، اليمن والامام يحيى ١٩٠٤ — ١٩٤٨ ص ٤١ .

المؤكدة لهذا التفتيت . ذلك لأن بريطانيا أدركت الأهمية الكامنة فى استراتيجية الجزيرة العربية لتأمين طرق مواصلاتها الى الهند عندما احتلت عدن فى سنة ١٨٣٩ وبدأت تتوسع لبسط نفوذها فى السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية . كما زادت رغبة البريطانيين فى ذلك بوجه خاص بعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية فى سنة ١٨٦٩ التى أصبحت «الشريان الامبراطورى» لمستعمراتها فى بلاد الشرق (١) . وقد أدى التدخل البريطانى فى الجزيرة العربية الى تفتيت وحدتها السياسية الى جانب ما أصيبت به من عوامل التفتيت الداخلية . وكان ذلك مؤديا بالتالى بطبيعة الحال الى تغيير أفكار ومواقف أهالى الجزيرة العربية عن باقى أجزاء العالم العربى والعثمانى .

ولهذا فقد ظهر الاختلاف أساسا فى نوع الأفكار « القومية » وأساليب العمل الايجابى لتحقيق المطالب القومية ، وذلك بين عرب الجزيرة العربية عن بقية العالم العربى العثمانى . ومن التجاوز حقيقة أن توصف أفكار أهل الجزيرة العربية بأنها أفكار « قومية » فى مطلع القرن العشرين . اذ انهم لم ينادوا بتطبيق صورة جديدة للحكم فى بلادهم حينذاك ، أو بمطالب معينة مثل « اللامركزية » بالصورة التى عرضها حزب اللامركزية العثمانى الذى اتخذ القاهرة مقرا له ، أو بتحويل الامبراطورية العثمانية الى امبراطورية ثنائية كما نادت بها الجمعية القحطانية . ذلك لأن الأوضاع الخاصة لأهالى الجزيرة العربية جعلت أفكارهم تتبلور فى ذلك الحين حول مطلب واحد تمسكوا به ازاء الاتحاد بين الأتراك . وهو أن يتركوا دون تدخل من قبل الحكومة المركزية فى شئونهم — هذا مع رضائهم واعترافهم بالسيادة العثمانية . وكان ذلك استجابة منهم لعقائدهم الدينية المتحكمة ، ونظريتهم المقدسة للخلافة الاسلامية التى كان السلطان عبد الحميد قد أحيا شأنها معتمدا على أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده اللذين كانا من دعاتها .

ومن ناحية أخرى تميزت وسائل أهالى الجزيرة العربية فى تحقيق مطالبهم عن غيرهم من سكان البلاد العربية الشمالية كالعراق والشام ومصر (٢) ، فبينما كان أسلوب القوميين العرب يتمثل أساسا فى تكوين الجمعيات ، والأحزاب السياسية ، وعقد المؤتمرات ، والالتجاء الى التشكيلات السياسية والاعتماد على المنشورات فى نشر دعوتهم ، اذا لم يتمكنوا من الاعتماد على الصحف والمجلات ، فان عرب الجزيرة عبروا عن عدم رضائهم عن حكم الاتحاديين وموقفهم من العرب بالثورات المستمرة ضد الحاميات العثمانية الموجودة فى أراضيهم ، أى أن الأساليب السليمة فى التعبير عن المطالب القومية كانت مجهولة

---

(١) جمال حمدان (دكتور) : دراسات فى العالم العربى ، ص ٢٧ .
(٢) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٧٦ .

لديهم . ولهـذا كانوا يلجئون الى طريقتهم الخاصة التى الفوها فى منـازعاتهم الشخصية وهى القتال والكر والفر والالتجاء الى الجبال والفلوات أو الهجوم المباغت الى غير ذلك من أساليب القتال الشائعة بين رجال القبائل العربية فى جزيرتهم . وقد كانت حياة الجزيرة ببساطتها الاولية توحى اليهم بنوع من التفكير وأسلوب العمل الذى سنرى أمثلة كثيرة لتطبيقاته عند عرضنا للأحداث التى شهدتها مناطق الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى الحجاز وعسير واليمن فى مطلع القرن العشرين ، وقبيل الحرب العالمية الأولى وفى أثنائها ، وذلك عندما احتدم الصراع الذى دار بين أهالى الجزيرة والأتراك العثمانيين من جهة ، وبين الأتراك العثمانيين والبريطانيين من جهة أخرى (١) .

وتجدر الاشارة الى أن الأتراك الاتحاديين الذين أداروا دفة الحكم فى الدولة العثمانية منذ عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ كانوا قد بدءوا علاقاتهم بالجزيرة العربية بالقيام بعملين لهما أهميتهما فيما يتعلق بسياسة البريطانيين فى البحر الأحمر حينذاك . أولهما : افتتاح سكة حديد الحجاز رسميا فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٨ وكان الخط قد بلغ « المدينة » . وثانيهما : تعيين الشريف حسين بن على أميرا على مكة (٢) . وترجع أهمية هذين العملين الى النتائج العملية التى ترتبت عليهما فوصول خط سكة حديد الحجاز الى « المدينة » ، معناه تأكيد سيادة ونفوذ الدولة العثمانية فى الحجاز وفى اليمن على السواء ، لأنه ضمن لها وسيلة فعالة لنقل الجنود والمعدات فى أسرع وقت وأسلم طريق . وهذا ما حدث بالفعل ، اذ أصبح الحجاز مركزا تنطلق منه الوسائل التنفيذية لاخضاع المتمردين فى جهات الجزيرة المختلفة وبخاصة فى بلاد اليمن . كما أن تعيين الشريف حسين كان له أهميته وخطورته كذلك ، اذ أن الاتحاديين الأتراك عينوه بالرغم من ارادة السلطان عبد الحميد وكانوا يطمعون كثيرا فى أن يكون أداة طيعة فى أيديهم . واذا كان الشريف حسين سيساعدهم حربيا ضد محمد الادريسى الذى ظهر فى عسير فى سنة ١٩٠٧ ، وسيساعدهم بنصائحه واتصالاته بالامام يحيى الذى تولى الامامة فى سنة ١٩٠٤ سعيا وراء الصلح بينه وبين السلطان ، فان الخلاف سرعان مادب بين الاتحاديين الأتراك وبين الحسين نتيجة لشخصيته التى كانت تتصف بالطموح والعناد . اذ عمل الحسين منذ وصوله الى مكة على جذب القبائل حوله بعد أن كانوا قد أهملوا أثناء حكم الاشراف الذين سبقوه . لهذا خشى الاتحاديون من شخصية الحسين الذى يريد أن يثبت وجوده فى بقعة هامة داخل امبراطوريتهم فرفضوا وساطته بعد ذلك بينهم وبين الادريسى والامام يحيى (٣) وكان الاخيران قد تحالفا معا لمواجهة الحكم العثمانى فى اليمن والعمل على تصفيته .

---

(١) فاروق عثمان أباظة : المصدر السابق ، ص ١٧٨

(٢) أحمد طربين (دكتور) : الوحدة العربية بين ١٩١٦ — ١٩٤٥ ، ص ١٧ .

(٣) Hogarth, D.G. : Arabia, pp. 114, 119.

وقد أدى وجود زعامات محلية فى الجزيرة العربية الى تحديد الخطـوط العامة لخريطتها وقد استطاع هؤلاء الزعماء ان يستمدوا كيانهم وسلطتهم من ظروف اجتماعية وتاريخية خاصة بمناطقهم · فكان هناك الشريف حسين فى مكة ، وعبد العزيز آل سعود فى الرياض ، والادريسى فى صبيا فى عسير ، والامام يحيى فوق الجبال الشمالية فى اليمن ، وآل الرشيد فى حائل فى شمال الجزيرة العربية ، وآل الصباح فى الكويت· والى جانب هؤلاء كانت هناك مشيخات وامارات وسلطنات على الساحل الشرقى والجنوبى للجزيرة العربية والتى عقدت بريطانيا مع ما كان منها محيطا بعدن بصفة خاصة – وهى النواحى التسع – معاهدات الحماية التى سبق أن أشرت اليها ·

على أن العثمانيين والبريطانيين كانوا يمثلون القوتين الفعالتين فى تاريخ الجزيرة العربية والساحل الشرقى للبحر الأحمر على وجه الخصوص فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين واستمر ذلك حتى خروج العثمانيين من الجزيرة العربية عقب نهاية الحرب العالمية الأولى· وكان نفوذ العثمانيين يختلف قوة وضعفا من مكان الى آخر فى هذه البقاع ، تبعا لصلتهم بالزعماء المحليين وتبعا لقوة الحامية العثمانية التى تمثلهم فى المنطقة · فبينما كان الشريف حسين فى الحجاز – والدولة ترقب تصرفاته بحذر ، وكانت لها حامية عثمانية دائمة فى « المدينة » – كان الأمراء من آل الرشيد فى حائل يعترفون بسيادة العثمانيين عليهم ، وكثيرا ما كانوا يستنجدون بالأتراك ضد عدوهم عبد العزيز آل سعود (١) ·

أما عبد العزيز آل سعود فقد كان فى خصام مع الترك لأنهم كانوا يساعدون آل الرشيد ضده فى القصيم ، لذلك قويت علاقته مع الكويت التى كانت تخضع خضوعا غير مباشر للحماية البريطانية اذ كان الشيخ مبارك الصباح يعتمد على مساندة بريطانيا له وخاصة منذ سنة ١٩٠٣ · وقد تعاون الصباح مع ابن سعود على مهاجمة عشائر المنتفق فى العراق ، وكان الأتراك كثيرا ما يعتمدون عليهم ضد ابن سعود · كما هاجم الأميران – الصباح وابن سعود – جبل شمر أيضا ، خاصة أن الأمير سعود بن الرشيد الذى تولى الامارة فى سنة ١٩٠٨ كان طفلا صغيرا وتولى الوصاية عليه أبناء عمومته · وكان للعثمانيين السيادة العسكرية فى الاحساء ، وان كانت هذه السيادة لم تدم طويلا · ففى ربيع سنة ١٩١٣ انقض عبد العزيز آل سعود على « الاحساء » وأخذ « الهفوف » ثم بعد فترة قصيرة استولى على « القطيف » ، وأخرج الترك – سواء العسكريين أو المدنيين – من هذه المنطقة ، بعد أن مكثوا بها أكثر من أربعين عاما · وهنا بدأ ابن سعود محاولاته للاتصال بالبريطانيين والاستعانة بهم ، وكان لأمير الكويت دور فى التقريب بين الطرفين ·

---

(١) احمد طربين (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٧ – ١٨ ·

أما فى جنوب غرب الجزيرة العربية وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر من ناحية الجنوب فقد كان الامام يحيى والادريسى فى اليمن وعسير يناوئان الحكم العثمانى هناك • واستمر الصراع دائرا بينهما من جهة ، وبين الدولة العثمانية من جهة أخرى حتى اضطر العثمانيون (١) الى عقد صلح « دعان » (٢) مع الامام يحيى فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١١ ، فى الوقت الذى واجهت فيه الدولة هجمات الايطاليين على طرابلس الغرب وبلغت فيه ثورة اليمنيين على الحكم أوج قوتها(٣) • وبعقد الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية انفصمت عرى التحالف بين الامام والادريسى الذى ظل على عدائه للأتراك وواصل ثورته ضدهم (٤) قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى •

أما بالنسبة لنفوذ العثمانيين فى الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية فقد كاد يكون معدوما ، اذ كان البريطانيون هم أصحاب النفوذ الفعلى المباشر فى هذه الجهات عن طريق الاحتلال والسيطرة الفعلية ، أو عن طريق المعاهدات والاتفاقيات مع الشيوخ والرؤساء المحليين (٥) ، التى بلغت فى معظم الأحيان فرض الحماية البريطانية على بلادهم بعد التلويح لهم بخطر العثمانيين منذ عودتهم الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ ، كما سبق أن أوضحت • وقد أصبحت هذه الدعوى حجة فى أيدى البريطانيين عند تحديدهم للحدود بين منطقتى النفوذ البريطانى والعثمانى فى جنوب اليمن وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر حماية لقاعدتهم الهامة فى عدن فى ذلك الحين •

ـ نشاط الايطاليين على الساحل الشرقى للبحر الأحمر :

وجدير بالذكر أن ايطاليا بعد أن استولت على طرابلس الغرب فى شهر أكتوبر سنة ١٩١١ قامت بمحاصرة سواحل اليمن الواقعة على البحر الأحمر والمواجهة لمستعمرتها الايطالية فى اريتريا • وقد ترتب على ذلك كساد التجارة فى ميناء الحديدة ، بل ان الايطاليين قصفوا هذا الميناء بمدافعهم حتى يشغلوا الدولة عن توجيه حملة عثمانية لاسترداد طرابلس الغرب • وقد قام عزت باشا والى اليمن العثمانى الذى كان مقيما فى صنعاء فى ذلك الوقت بابلاغ الباب العالى برقيا بأنباء ضرب الايطاليين لميناء الحديدة اليمنى ، وقد فر سكانه العزل فى

---

(١) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ، ١٩٠٨ — ١٩١٤ ص ٢٣٩ •

(٢) « دعان » هى قرية صغيرة تقع فوق قمة جبل شمال غرب مدينة عمران •

السيد محمد رجب حراز (دكتور) : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ١٨٤٠ — ١٩٠٩ ، ص ٩٤ ، ٩٥ •

(٣) فاروق عثمان أباظة : المصدر السابق ، ص ٢٨١ — ٢٨٣ •

(٤) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ •

(٥) Hogarth, D.G. : op. cit., pp. 123 — 124.

أرجاء تهامة حرصا على حياتهم • وقد رأى الامام يحيى بعد أن عقد الصلح مع الدولة العثمانية وأصبح حليفها الجديد أن يبرهن على ولائه لها وعن استعداده لمساندتها ضد أعدائها الايطاليين ، فبعث برسالة الى الباب العالى يعبر فيها عن استعداده لارسال « مائة ألف من العرب كاملة العدة والعدد » (١) للاشتراك مع اخوانهم العثمانيين فى طرد الايطاليين من طرابلس الغرب • وقد أرسل الباب العالى خطابا الى الامام يحيى يشكره على ما أبداه من استعداد لمساعدة الدولة ومساندتها ضد أعدائها الايطاليين •

على أن هذا الموقف الايجابى المظهر من قبل الامام يحيى كان مشكوكا فيه ، اذ كانت سلطة الامام الفعلية لا تمتد الا على بعض القبائل الزيدية التى يشك فى تحمسها للحرب خارج اليمن ويشك كذلك فى مقدرة الامام على توجيهها هـذه الوجهة • هذا فضلا عن أن بعض قطع الأسطول الايطالى كانت تحاصر الشواطىء اليمنية وحطمت فعلا بعض قطع الأسطول العثمانى الهزيلة التى كانت تخفر هذه السـواحل ، مما كان يحول دون خروج أية قوات من اليمن لتحرير طرابلس الغرب ، هذا الى جانب عدم توافر الامكانات لدى الدولة العثمانية لنقل قوات يمنية بحرا الى هناك ، بل ان الدولة العثمانية نفسها كانت تعتمد على بعض قطع الأساطيل الأجنبية لنقل جنودها الى اليمن • ويؤكد ذلك الرأى كاتب انجليزى شهد بنفسه حصار الحديدة والأحداث التى تبعت ذلك ، وأوضحها فى مقال نشر فى جريدة « التيمز » عقب عودته الى انجلترا ونقلته عن « التيمز » جريدة «المنار» (٢) القاهرية وجاء فيه : « ولا يستطيع الواقف على حقيقة أحوال اليمن، أن يقابل الأنباء التى وردت من الآستانة عن استعداد الامام لتقديم مائة ألف مقاتل ليحاربوا الايطاليين فى طرابلس الغرب الا بالابتسام ، وذلك لأن سلطة الامام اسمية أكثر مما هى فعلية ، ولأن الحكومة العثمانية تعجز عن نقل هؤلاء المتطوعين الى ساحة الحرب » •

واذا كان الادريسى قد تعاون مع الامام يحيى فى الفترة الممتدة بين عامى ١٩٠٧ و ١٩١١ عندما وحدت الغاية المشتركة بينهما وهى مقاومة الحكم العثمانى فى اليمن ، فقد افترق الحليفان عندما عقد الامام يحيى الصلح مع الدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ ، وهى نفس السنة التى حدثت فيها معركة الحفائر التى هزم فيها الأتراك هزيمة ساحقة فى جيزان أمام القوات الادريسية (٣) •

على أن الادريسى لم يخدع أو يغتر بانتصاره على أعدائه بل كان يعلم حقيقة

---

(١) عبد الواسع يحيى الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٢٣ •

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، ج ٢ ، ١٨ فبراير سنة ١٩١٢ ، ص ١٠٦ •

(٣) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المخلاف السليمانى او الجنوب العربى فى التاريخ ج ٢ ، ص ١٤١ •

قوتهم التى كان يمكن أن تصل اليها الامدادات من أرجاء الدولة العثمانية • واذا كان الادريسى قد رأى صديقه بالأمس الامام يحيى يحالف الأتراك ويستعين بهم في محاربته ، فانه رأى - والموقف أصبح أشد خطورة أمام تضامن أعدائه - أن يوطد صلته بالايطاليين أعداء الدولة العثمانية ، بل بالبريطانيين في عدن فيما بعد محالفا اياهم من أجل تحقيق غايته ، وهى محاربة الأتراك واجلائهم عن اليمن، على ألا يمس ذلك استقلال بلاده في المستقبل (١) • وهكذا كان الادريسى أول من انضم الى الأحلاف من أمراء العرب ، وأول من حمل في البلاد العربية على دولة الترك حليفة الألمان في الحرب العالمية الأولى •

أما الدولة العثمانية فقد حاولت في سنة ١٩١٢ أن تطوق الادريسى من الجنوب ومن الشمال وذلك بأن تأتى من الشـمال بقوة من الحجاز تحت قيادة فيصل بن الحسين شريف مكة ، وتطبق عليه من الجنوب قوتان عثمانيتان تخرج احداهما من صنعاء والثانية من اللحية • غير أن هذه العمليات الحربية المشتركة ضد الادريسى منيت بالفشل الذريع ، وان كانت قد أدت الى تعاونه مع الطليان ضد أعدائه العثمانيين وضد حليفهم الامام يحيى في اليمن • وكانت القوات العثمانية قد رابطت على طول ساحل عسير الممتد من اللحية الى زهران وذلك لتأمين الحديدة من اغارات القوات الادريسـية التى كانت ايطاليا تساعدها من البحر • كما كان الترك يهدفون من وجود هذه القوات الى منع أى اتصال محتمل بين الادريسى في عسير وبين قبيلة الزرانيق في تهامة ، تلك القبيلة التى تميزت بقوتها وشدة بأسها وتمردها على الأتراك (٢) ، وقد أرادوا بذلك ألا يزيدوا من متاعبهم ومشاكلهم في المنطقة • أما ما دفع فيصل بن الحسين الى الاشتراك في الصراع الدائر بين الأدارسة والأتراك في اليمن ، فقد كان نتيجة لوقوعه تحت اغراء الأتراك ، بعد أن وعدوه بأنهم سيولونه حكم امارة عسير اذا تمكن من القضاء على الادريسى • غير أن فيصـل رغم محاولته استنفار القبائل ضـد الادريسى ومحاربته ، قد منيت قواته بالفشل وعاد الى الحجاز في أوائل سنة ١٩١٣ بخفى حنين (٣) •

وجدير بالذكر أن ايطاليا بعـد احتلالها لطرابلس الغرب في سنة ١٩١١ خشيت من سريان نار الحرب ضدها الى باقى العالم العربى تلبية لدعوة الخلافة العثمانية • لهذا أسرعت ايطاليا الى فتح جبهة حربية أخرى في اليمن وعسير لاشغال الدولة العثمـانية واضـعاف مقاومتها بتشـتيت مجهوداتها الحربية • واقتضى ذلك أن تحاصر بعض قطع الأسطول الايطالى الموانى اليمنية ماعدا تلك

---

(١) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٤٢ •
(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٢٧٣ •
(٣) Bury, G.W. : op. cit., pp. 35-36.

التى فى قبضة الادريسى وضربتها من البحر فخربت الحديدة ـ كما سبق أن ذكرت ـ وفر أهلها فى أرجاء تهامة ، كما ضربت مدينة الشيخ سعيد المقابلة لبريم وقدفتها بالقنابل غير أنها لم تحدث بها خسائر جسيمة (١) ، هذا فضلا عن اغراقها لبعض قطع البحرية العثمانية الخاصة بخفر السواحل ، بل ان ايطاليا فى نفس الوقت قصفت بمدافع أسطولها ميناء بيروت وذلك بحجة وجود سفينتين حربيتين عثمانيتين صغيرتين فى الميناء ، وأغرقتهما فعلا ، مما جعل الدول الأوربية كلها تحتج على مهاجمة ميناء بيروت نظرا لأهميتها التجارية الدولية ٠ (٢)

على أن هدف ايطاليا من محاربة الأتراك فى اليمن ومساندة الادريسى ضدهم لم يكن يقصد منه فقط فتح جبهة حربية جديدة تشغل العثمانيين عن استرداد طرابلس الغرب ، بل ان ايطاليا كانت تهدف أيضا الى بسط نفوذها على البلاد اليمنية المواجهة لمستعمرتها فى اريتريا على الساحل الغربى للبحر الأحمر ٠ ويرجع ذلك الى أن الادريسى بعد أن نشر الأمن فى عسير ونظم موانيها وشجع تجارتها ، فقد راجت هذه التجارة وانتظمت بين موانى اليمن وبين عصب ومصوع الميناءين اللذين سيطرت عليهما ايطاليا على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر المواجه لعسير ٠ ولهذا لم يكن غريبا حينذاك أن تتطلع ايطاليا فى لهفة الى الوثوب على الشواطىء اليمنية المواجهة لمستعمرتها فى ارتيريا ٠ وقد ذكر « جاكوب » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن أن كاتبا المانيا قد عبر عن هذه الرغبات الايطالية فى سنة ١٩١٣ بقوله : « منذ قرن مضى استطاع الانجليز أن يجعلوا أنفسهم سادة فى عدن ٠٠ والآن ترمى ايطاليا نظراتها المتطلعة الى شاطىء الجزيرة العربية الأخضر » ٠ (٣) ولهذا فان رغبة ايطاليا فى احتلال سواحل اليمن كانت رغبة قديمة رأت أن الظروف قد سنحت لتحقيقها بظهور الأدريسى فى عسير فحاولت التقرب اليه للاستفادة من موانيه ومن منتجات بلاده ٠ وكانت ايطاليا بسياستها هذه تحافظ على تجارتها من الضياع اذا ماوقعت موانى عسير فى أيدى الأتراك ٠ غير أن هدف ايطاليا الحربى كان أهم بكثير من هدفها التجارى اذ كانت تخشى من استيلاء تركيا على هذه الموانى وتستخدمها فى اثارة المتاعب ضدها فى مستعمراتها الافريقية فى اريتريا ٠ وهكذا حرصت ايطاليا على توطيد علاقتها بالادريسى ومساندته ضد الأتراك لهذه الأسباب جميعها (٤) ٠

وقد أوضح أمين الريحانى معالم السياسة التى اتبعها الادريسى فى الاستعانة بالطليان ثم بالانجليز بقوله : « كان السيد محمد (الادريسى) حصيفا ذكيا ذا حنكة ودهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من زعامات وشقاقات ،

---

(١) Jacob, H.F. : Kings of Arabia, p. 126.

(٢) اللواء : العدد ٣٨٣٢ فى ٥ مارس ١٩١٢ ، ص ٤

(٣) Jacob, H.F. : op. cit., p. 127.

(٤) فاروق عثمان أباظة المصدر السابق ، ص ٣١٣ ٠

بالزرانيق مثلا على الأتراك ، وبالشوافع على الزيديين ، وبالعشائر على الاشراف ، وبالانكليز على الجميع • وكان له عون كبير فى ارثه الروحى ضاعف نفوذه الشخصى وزاد ذكاءه الفطرى لمعانا » (١) •

على أنه مما لا شك فيه أن اصرار الدولة العثمانية على عدم الاعتراف للادريسى بوضعه الخاص فى اليمن على النحو الذى اعترفت به للامام يحيى فى صلح دعان سنة ١٩١١ ، هو الذى دفع الادريسى الى توطيد علاقته بايطاليا ومواصلته السير فى تلقى المساعدات منها لمحاربة العثمانيين • وقد يكون الادريسى قد تردد كثيرا قبل أن يتمادى فى تلقى المساعدات الايطالية ، غير أنه ازاء مماطلة الترك فى الاتفاق معه وازاء غدرهم به واعتدائهم على قواته ، فانه آثر — مدفوعا بحرصه على الدفاع عن نفسه — أن يتعاون مع ايطاليا ضد أعدائه العثمانيين فى اليمن بل ضد حليفهم الامام يحيى بعد أن عقد الصلح معهم • وقد تمثلت المساعدات الايطالية للادريسى فى امداده بالأسلحة الصغيرة (البنادق) ، وبأنواع من الذخيرة الحربية ، وبكميات من الذهب (٢) • كما أدت تحركات الأسطول الايطالى أمام سواحل اليمن وقصفه لبعض الموانى اليمنية بمدافعه ، الى حصول الادريسى على كميات من الأسلحة والذخائر العثمانية التى تركتها قوات الدولة خلفها أثناء هروبها من المناطق الساحلية التى تعرضت لقذائف الايطاليين •

وعلى أية حال فقد كان الادريسى فى وضع ملائم جعله لا يخشى مواجهة ما ترسله الدولة العثمانية من جيوش لمحاربته • وقد استمر الصراع بين الأدارسة والترك حتى قيام الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ وحتى أعلن شريف مكة ثورته على العثمانيين فى صيف عام ١٩١٦ • وقد نشط الادريسى حينذاك فى محاربة الأتراك ، وحدث تقارب بينه وبين الشريف حسين فى الحجاز (٣) مما مهد السبيل أيضا الى اتصال الادريسى بالبريطانيين فى عدن على نحو ما سنوضحه فى الفصل التالى •

— اتفاقية تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ بريطانيا والدولة العثمانية فى جنوب اليمن فى سنة ١٩١٤ :

حرصت السلطات البريطانية فى عدن على وضع حد للتغلغل العثمانى المنافس للبريطانيين فى جنوب اليمن وذلك عن طريق تحديد خط للحدود التى تفصل بين منطقتى النفوذ البريطانى والعثمانى هناك (٤) • وقد بدت مخاوف

---

(١) امين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤ •

(٢) Jacob, H.F. : op. cit., p. 125.

(٣) Correp., d'Orient, 25th July 1916, p. 179.

(٤) I.O., B. 140, Confidential, Aden Boundary by C.G.C., 20th January 1903., pp. 5,6.

حكومة الهند البريطانية من التزايد المستمر لهذا التغلغل العثمانى الذى كان يتطلب بالضرورة زيادة حجم القوات البريطانية فى عدن مما يحملها أعباء مالية كبيرة • اذ أن المقيم السياسى البريطانى فى عدن حينذاك وهو « الجنرال دى براث De Brath » اضطر الى ارسال كتيبة من الجنود البريطانيين وفرقة من المشاة للهنود لتعسكر فى امارة دثينة فى مواجهة القوات العثمانية المحتشدة هناك •

وقد أبدى المقيم السياسى البريطانى فى عدن لحكومة الهنـد أهمية تدعيم حامية عدن لمواجهة « مؤامرات الأتراك » التى تهدف الى بسط سيطرتهم على جنوب اليمن وتهديد القاعدة البريطانية فى عدن عن طريق تنفيذ ما سماه « بالبرنامج الاسلامى Pan Islamic Programme » وكان العثمانيون قد حاولوا أن يستقطبوا القبائل اليمنية المسلمة الى جانبهم بدعوى الجهاد فى سبيل الله لاجلاء البريطانيين عن الجزيرة العربية على نحو ما حدث على يدى الشريف اسماعيل أحد أشراف مكة الذى حاول أن يستعيد عدن من أيدى البريطانيين فى سنة ١٨٤٦ دون أن يوفق فى ذلك • ولا شـك أن تدعيم حامية عدن — من وجهـة نظر المقيم السـياسى البريطانى — من شأنه أن يظهر قوة البريطانيين الهائلة بأسلحتهم الحديثة على مقربة من هذه القبائل مما يثير الرهبة فى قلوبهم فينصاعوا طائعين الى مهادنة السلطات البريطانية والتحالف معها ، وعدم التأثر بتحريض العثمانيين لهم ورفض اغراءاتهم المستمرة للانضواء تحت لوائهم (١) •

ومن الملاحظ أن النفوذ العثمانى كان يمتد فى الجزيرة العربية حينذاك على مساحات أوسع من النفوذ البريطانى المنافس • اذ كان البريطانيون يختارون النقط الاستراتيجية التى يهمهم الاستيلاء عليها دون أن يهتموا كثيرا بضيق الرقعـة المحتلة أو اتساعها • وهـذا الفارق المساحى الذى يعتمد على أساس تاريخى مع ما كان يتوافر من نفوذ معنوى للخليفة العثمانى فى الجزيرة العربية بل فى غالبية العالم الاسلامى ، كان يتمثل فى القوات العسكرية الموجودة فى أماكن متفرقة من الجزيرة • بينما نجد النفوذ البريطانى يتركز فى الوقت نفسه فى نقط معينة ذات أهمية خاصة من النـواحى الاستراتيجية والاقتصـادية والسياسية كما كان الحال فى عدن التى احتلها البريطانيون احتلالا كاملا من جهة ، وكما هو الحال فى المناطق المحيطة بها والتى تربطها ببريطانيا معاهدات الحماية التى يصاحبها دفع الرواتب للسلاطين والأمراء والشيوخ لضمان استمرار ولائهم للنفوذ البريطانى هناك من جهة أخرى •

وعلى أية حال ، فان حكومة الهنـد البريطانية وافقت على ما أبداه المقيم السياسى البريطانى فى عدن من ناحية تعزيز القوات البريطانية هناك حفاظا على

(١) I.O., B. 158, Confidential 1906., Aden Policy Notes by Sir Lee-Warner and Sir Hugh Barnes on Government's Letter No. 119 dated August 9, 1906 (Pol. No. 1455/06).. H.S. Barnes, 5th September 1906, pp. 1,2.

مكانة بريطانية ونفوذها ازاء المنافسة العثمانية فى الجزيرة العربية . كما وافقت حكومة الهند أيضا على ابقاء حامية بريطانية فى امارة دثينة التى تتميز عن عدن بمناخها الصحى حتى يمكن تدريب القوات البريطانية هناك ، فضلا عن تأمين الطرق المؤدية الى عدن من الداخل لضمان وصول المؤن والتجارة اليها ، وضمان سيطرة البريطانيين على تجارة الأسلحة فى تلك المناطق .

على أن هذه الاجراءات لم تكن مقبولة تماما لدى الساسة البريطانيين اذ أنها بدت لهم غير مقنعة حينذاك على نحو ما بدا فى التقرير الصادر عن السلطات البريطانية فى عدن عن عامى ١٩٠٤ و ١٩٠٥ (١) . فقد اعتبر التقرير ان المنافسة بين العثمانيين والبريطانيين غير مجدية ، ذلك لأن البريطانيين طالما كانوا فى حالة سلام مع العثمانيين فلن تكون هناك حاجة للاحتفاظ بحامية بريطانية فى دثينة ، على حين لو كان الجانبان فى حالة حرب فان الف مقاتل بريطانى لن يؤمنوا الحصول على المؤن من مناطق تسيطر عليها القوات العثمانية .

أما فيما يتعلق بتجارة الأسلحة ، فقد أشار التقرير الى أنه من الواضح أن وجود حامية بريطانية فى هضبة دثينة لا يمكن أن تحقق سيطرة البريطانيين على التجارة وتأمينها على امتداد خط الحدود الطويل بين منطقتى نفوذ الجانبين البريطانى والعثمانى . وقد ثبت للبريطانيين من خلال تجاربهم السابقة فى المنطقة عدم امكانية السيطرة على تجارة الأسلحة دون عقد اتفاق دولى ، وأن تأمين الخليج « الفارسى » والبحر الأحمر على السواء لا يمكن أن يتحقق بدون عقد مثل هذا الاتفاق .

وأخيرا انتهى هذا التقرير بأن أشار الى أنه « اذا كان الحد الثابت لحميتنا (فى عدن) بالاتفاق مع الأتراك قد تطلب نبذ السياسة الهادئة التى اتبعت من قبل والتى قامت على ترك الحرية لرجال القبائل لاختيار حكامهم وحل شئونهم دون تدخل من قبلنا فى الوقت الذى منحناهم فيه حمايتنا ، فانه من الواضح أن هذه الحماية كان الهدف منها مواجهة الأتراك فقط وليس أكثر من ذلك . ومما لا شك فيه أن مصاعبنا ستزداد بوضع قواتنا على مسافة تبعد مائة ميل عن الساحل وفى داخل الحدود التركية ، لأن ذلك سيظهرنا بمظهر المهددين للمدن الاسلامية المقدسة وهو أمر من شأنه خلق عداوة بالغة بيننا وبين طليعة الحركة الاسلامية فى جزيرة العرب » (٢) .

واذا كان العثمانيون قد اتخذوا من اليمن كله بل من الجزيرة العربية بأكملها عمقا استراتيجيا لهم أثناء مواجهتهم للبريطانيين فى جنوب اليمن ، فانهم

---

(١) I.O., B 158, Confidential, Aden Policy, H.S. Barnes, 5th September 1906.

(٢) I.O., B. 158, Confidential, Aden Policy, H.S. Barnes, 5th September 1906.

واجهوا ثورات عارمة أدت الى تارجح النفوذ العثمانى هناك ، مما نتج عنه انحسار المد العثمانى الذى كان متغلغلا فى امارات جنوبى اليمن • اذ ان الأحداث التى وقعت فى اليمن ذاته كانت لها انعكاساتها وتأثيراتهـا العميقة على المنافسـة العثمانية البريطانية هنـاك ، كما أدت الى قبول الدولة العثمانية مبدأ تحديد الحدود بطريقة فعلية بين منطقتى النفوذ العثمانى والبريطانى فى جنوب اليمن • وفى هذا القبول اعتراف بالنفوذ البريطانى فى تلك المنطقة وهو ما كانت ترفضه من قبل دولة الخلافة العثمانية •

على أنه أثناء الفترة التى امتدت منذ عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ حتى مطلع سنة ١٩٠٢ كانت الحدود تتذبذب من آن لآخر بين منطقتى نفـوذ العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن • غير انه فى الفترة الممتدة من ينـاير سـنة ١٩٠٢ حتى مايو سـنة ١٩٠٤ تم تحديد خط الحدود بواسطة اللجنة « الانجلو — تركية » التى سبق أن أشرت اليها • ثم اتفق نهائيا على ارساء تلك الحدود فى الاتفاقية البريطانية العثمانية التى عقـدت فى شهر مارس سنة ١٩١٤ •

وهكذا كانت الجزيرة العربية فى مطلع الحرب العـالمية الأولى فى بعض أجزائها مقسمة بين قوتين غير عربيتين ، هما بريطانيا والدولة العثمانية • غير أن هذا التقسيم النظرى تجاهل الحقيقة الواقعة وهى أن الجزء الأعظم فى مجالى النفوذ البريطانى والعثمانى فى الجزيرة العربية كان فى يد الحكام العرب والقبائل العربية • ففى جنوب اليمن كان نفوذ السلطات البريطانية لا يمتد أبعـد من عشرة أميال من مدينة عدن نفسها • أى أنه كانت توجد منطقة تبلغ مساحتها ٤٢٠٠ ميل مربع تقريبا — خارج منطقة مساحتها ٨٠ ميلا مربعا هى مساحة عدن المحتلة نفسها — مقسمة بين عدد من الزعامات القبلية المحلية ، وان ارتبطت هذه الزعامات مع بريطانيا بمعاهدات حماية مقابل مساعدات معينة • ولم يختلف الوضع كثيرا بالنسبة للعثمانيين ، فلم يكن لهم نفوذ فعلى فى كل ممتلكاتهم ، بل انحصر نفوذهم فى المناطق التى كان لهم فيها حاميات مقيمة ، وان اعترفت بريطانيا بمجال نفوذهم فى تلك الممتلكات العثمانية •

وعلى الرغم من أن اتفاقية الحدود البريطانية العثمانية التى وقعت فى لندن فى سنة ١٩١٤ قد أقرت تسوية مشاكل الحدود بين بريطانيا والدولة العثمانية فى الجزيرة العربية ، فان العثمانيين كانوا يتمسكون بالسـيادة النظرية على

الجزيرة العربية بأكملها ، وان كانوا يعترفون من الناحية العملية بخضوع تسع قبائل متاخمة لعدن « للحماية البريطانية » ، حتى عرفت المناطق التى تسكنها تلك القبائل فى المعاملات الدبلوماسية «بالمحميات التسع» وقد ظل هذا التعريف متداولا لمدة طويلة رغم أن مجموع القبائل التى أصبحت لها علاقات تعاهدية مع الحكومة البريطانية فى جنوب اليمن قد زاد بمرور الوقت كثيرا عن القبائل التسع الأصلية (١) · وقد ارتضى الجانبان العثمانى والبريطانى حدودا معينة تنظمها معاهدة متفق عليهـا ، وان أغفل فيهـا جانب اليمنيين أصحاب البلاد الذين لم يعترفوا بتلك الاتفاقية باعتبارها عقدت بين مغتصبين للأراضى اليمنية ·

وترجع أسباب الاتفـاق بين الدولة العثمانية وبريطـانيا على الحدود بين منطقتى نفوذهما الى أن الدولة العثمـانية كانت قد تعرضـت فى الفترة التى أعقبت عقد الصلح بينها وبين الامام يحيى فى سـنة ١٩١١ لأزمات عصـيبة متتالية ، كان أولها الحرب الطرابلسـية التى رجحت فى نهايتها كفة ايطـاليا وانحسر النفوذ العثمانى دون رجعة عن طرابلس الغرب ، وكان ثانيهما الحـرب البلقانية فى سـنة ١٩١٢ التى انتهت بخروج الولايات البلقانية من ممتلكات الدولة بعد أن تكبد الترك خسائر فادحة · أما ثالث هذه الأزمات فقد تبلور فى اقتناع الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا بضرورة اتباع سياسة جديدة لحـل « المسألة الشرقية » ، وذلك بالاتفاق على تحديد مناطق نفوذ كل منها فى البلاد العثمانية استعدادا واحتسـابا لليوم الذى يصـبح فيه اقتسـام الامبراطورية العثمانية المنهارة أمرا محتوما ، حتى لا يتعرض الجميع فجأة لكارثة خطيرة اذا نشبت المنافسة بينهم · وكانت كل دولة من الدول الأوربية الكبيرة تطمع فى امتلاك بعض الأقطار من الممالك العثمانية ، وهذه المطامع كانت تتعارض وتتصادم فى معظم تلك الأقطار ، وكانت كل دولة تتمسك بموقفها تمسكا شديدا ، فلا تتنازل عن شىء من مطامعها ترضية لمنافساتها · ومع ذلك لم تكن هذه الدول تجد لزاما عليهـا التعجيل بحل الأمور ، بل كانت تكتفى بالعمل على توسـيع نفوذها ، انتظارا لحلول الفرص المواتية لتحقيق مطامعها بكاملها ، وكانت بريطانيا من أولى الدول التى تؤمن بذلك وتحرص على تمامية الدولة العثمانية ·

فلما أنهكت الحـروب الطرابلسية والبلقـانية قوى الدولة العثمانية رأى ساسة أوربا ومن بينهم الساسة البريطانيون وجوب التعجيل بالاتفاق على تقسيم ممتلكات الدولة بعد أن اعتقدوا أن عمرها لن يطول كثيرا·كما أن خروج الولايات الأوربية من حوزة السلطنة العثمانية غير تركيبها الداخلى تغييرا جذريا جعل من المستحيل عليها أن تبقى على حالتها السابقة طويلا ، فقد زادت النسبة بين العرب وبين مجموع سكان السلطنة زيادة كبيرة ، كما أن نسـبة الأرض الى المجموع

(١) Reilly, Sir Bernard : Aden and Yemen, P. 16.

أيضـا زادت زيادة محســوسة ، فكان لابد أن ينتج عن ذلك صعوبات وازمات جديدة قد تؤدى احداها الى انهيار السلطنة بصورة فجائية تثير حربا كبرى بين الدول الأوربية التى تنتظر سقوط « الرجل المريض » لتنقض على أملاكه · بل أن رجال الحكومة العثمانية أيضا أدركوا وجوب تسوية المسائل المعلقة بين دولتهم وبين الدول الأوربية حتى يصونوا بلادهم من خطر الاضمحلال · وكان حقى باشا الذى تولى مناصب وزارة الخارجية فالصدارة العظمى – على رأس القائلين بذلك والداعين الى اتباع « سياسة التسوية » للوصول الى اتفاق مع الدول الأوربية ، وبخاصة مع بريطانيا (١) ·

ولهذه الأسباب بدأت سلسلة من المفاوضات بين الحكومة العثمانية وكل من روسيا ، وفرنسا وبريطانيا والمانيا من جهة ، وبين كل واحدة من الدول المذكورة والدول الأخرى من جهـة ثانية · كما تقدمت ايطـاليا بعد ذلك ببعض المطالب ودخلت فى المفاوضات التى جرت فى جو ملائم للتسوية وانتهت بالتوقيع على عدة اتفاقيات · وقد كانت هذه الاتفاقيات جميعها سرية فلم تذع حين عقدها ، بل ان الأتراك أنفسهم لم يذيعوها الا فى سنة ١٩٥١ (٢) · وقد تولى حقى باشا المفاوضات مع البريطانيين فى لندن ومثل بلاده هناك · وقد نجمت عن هـذه المفاوضات مجموعة من الاتفاقيات مع عدة بيانات تم التوقيع عليها فى تواريخ مختلفة فى عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ ، ويهمنا منها بشكل مباشر الاتفاقية المتعلقة بالساحل الشرقى للبحر الأحمر وهى اتفاقية المحميات وحضرموت ، التى عقدت بين الحكومتين العثمانية والبريطانية لتحـديد الحـدود بين المنطقة التى يدعى البريطانيون حمايتها وحدود الممتلكات العثمانية التى اغتصبها الترك فى اليمن· وقد وقع على هذه الاتفــاقية كل من ابراهيم حقى باشا عن الدولة العثمانية و«السير ادوارد جراى»عن بريطانيا فى اليوم التاسع من مارس سنة ١٩١٤ (٣)· وهى تتضمن البنود التالية :

أولا – وافق الطرفان على تثبيت البروتوكولات التى وقعها المبعوثون البريطانيون والعثمانيون فى أعوام ١٩٠٣ و ١٩٠٤ و ١٩٠٥ ·

ثانيا – وافق الطرفان على أنه اثباتا لما تعهدا به فى القسم الأول من البروتوكول المؤرخ فى ٢٠ ابريل سنة ١٩٠٥ ، يصرح امبراطور العثمانيين بأنه لن يتنازل بأى وجه من الوجوه عن الأرض التى تبلغ مساحتها نحو ٥٥٠ ميلا

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٠١ – ٢٠٢ ·

(٢) خصص « يوسف حكمت بابور » أحد مجلدات كتابه عن « تاريخ الانقلاب التركى » لبحث هذه المفاوضات والاتفاقيات ؛ مستندا الى محفوظات وزارة الخارجية التركية وقد نشر هـذا المجلد فى السنة المذكورة ، بين مطبوعات « لجنة التـاريخ التركى » ويقع فى ٥١٢ صـفحة من القطع الكبير ·

(٣) سيتون وليمز ، م.ف. : بريطانيا والدول العربيـة ، عرض للعـلاقات الانجليزية العربية (١٩٢٠ – ١٩٤٨) ص ١٩٩ – ٢٠٠ ·

مربعا انكليزيا والملاصقة لجبل نعمان ــ حصن مراد ــ والواقعة ضمن حدود مقاطعة صبيحة القديمة ٠

ثالثا ــ وافق الطرفان على أن تكون حدود الأراضى العثمانية تتبع خطا مستقيما يبدأ من « آكمة الشوب » متجها للشمال الشرقى نحو صحراء الربع الخالى بانحراف ٤٥ درجة ٠ وهذا الخط يلتقى فى الربع الخالى على الخط الموازى لدرجة ٢٠ من الخط المستقيم المتجه مباشرة نحو الجنوب المبتدىء من نقطة واقعة على الشاطىء الجنوبى من خليج « عجير » فاصلا الأراضى العثمانية من سنجق نجـــد وأرض قطر وفقا للمادة الثـانية من الاتفاقية الانكليزية العثمانية والخاصة بالخليج « الفارسى » والمنـاطق المجاورة له المؤرخة فى ٢٩ يوليو ١٩١٣ ٠

رابعا ــ تخلت الدولة العثمانية عن كل ما كان لهـا من حقوق ومطـــالب فى حضرموت (١) ٠

وبعد التوقيع على هذه الاتفاقية فى التاريخ المذكور تم التصديق عليها فى لندن فى اليوم الثالث من يونية سنة ١٩١٤ (٢) ٠ ويلاحظ أن الدولة العثمانية اعترفت بحماية بريطانيا على جنوب الجزيرة العربية وتخلت عن المطالب المتعلقة بحضرموت ، كما وافقت على تحديد الحـــدود بين ولاية اليمن وبين « المحميات البريطانية » (٣) ٠

وجدير بالذكر أن اليمنيين لا يعترفون بهذه الاتفاقية التى استغل فيهـا البريطـانيون كعادتهم ضعف الدولة العثمانية عقب الحـربين التى خاضتهما مع ايطاليا فى سنة ١٩١١ ومع دول البلقان فى سنة ١٩١٢ فحملوها بأساليبهم على توقيع هذه الاتفاقية التى تنازلت فيها عن حقوق الشعب اليمنى التى اغتصبتها أثناء فترة الحكم العثمانى فى اليمن (٤) ٠ بل ان الأتراك أنفسهم شعروا بما فى هذه المفاوضات والاتفاقيات من مساس بحقوق السيادة العثمانية غير أنهم حاولوا أن يعالجوا الأمر بصورة غريبة عندما كتب الصدر الأعظم سعيد حليم باشا فى احدى رسائله الرسمية : «ان المفاوضات التى تجرى بين الدول الأوربية حول الأمور التى تتعلق ببلادنا تخل بحقوق سيادتنا اخلالا كليا ، ولذلك يجب علينا ألا نبتلع نتـــائج تلك المفاوضات ، بل يجب علينا أن نتجاهلها تماما » غير

---

(١) Aitchison, C.U. : op. cit., Vol. XI., p. 42.

(٢) امين سعيد : اليمن ، تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى انظر النص المترجم للاتفاقية ص ١٥٤ ــ ١٥٩ ٠

(٣) British Documents on the Origins of the war 1898-1914. Edited by G.B. Gooch, D., Litt, F.B.A. and Harold Temperly, litt. D.F.B.A, Vol. X, Part II., No. 211, pp. 340-341.

(٤) فاروق عثمان أباظة : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ ٠

أن تجاهل رجال السلطنة العثمانية لهذه المفاوضات لم يكن ليغير شيئا من حقائق الأمور لأن مفاوضات الدول الأوربية فيما بينها كانت توجه المفاوضات التى تجرى بين الدولة العثمانية وبين كل واحدة من تلك الدول • وقد ذكر « يوسف حكمت بابور » فى مؤلفه المشار اليه ان تجاهل العثمانيين للمفاوضات المذكورة يشبه « عمل النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال وتتوهم بأنها خفيت عن الأبصار » • وقد وضعت هـذه الاتفاقيـات « أسس اقتسـام آسيا العثمانية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية » ورسمت خطوط اقتسامها بصورة فعلية ، مما جعل الأستاذ ساطع الحصرى يقول : « ان أسس اقتسام البلاد العربية ـ التابعة للدولة العثمانية ـ كانت قد تقررت قبل الحـرب العالمية الأولى ، تحت علم الحـكومة العثمانية نفسها » (١) •

وجدير بالذكر أنه فى أعقاب جلاء العثمانيين عن اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى كتب الامام يحيى الى السلطات البريطانية فى عدن بأنه لم يعترف باحتـلال العثمانيين لليمن ، وأنه بالتالى لا يعترف ولن يلتزم بالمعاهدات التى عقـدوها مع بريطـانيا • وقد أكد الامام أن كل هـــذه الأقاليم التى اغتصبها العثمانيون والبريطانيون فى اليمن هى ملك لأسلافه الذين كانوا يحكمونها قبل مجىء الأجانب اليها وأنه الوريث الشرعى لكل تلك المناطق • وقد اعتبر الامام الاحتلال العثمانى والبريطانى لبعض مناطق اليمن فى القرن التاسع عشر اغتصابا غير شرعى لهذه المناطق ، وأن الحدود تم تخططيها بين جانبين مغتصبين لا يملكان الصـلاحية القانونية ، وان احتلاله لبعض مناطق النفوذ البريطانى فى جنـوب اليمن انما هو استرجاع لأملاكه السليبة •

غير أن بريطانيا كانت لها وجهـة نظر مخالفة لوجهة النظر اليمنية التى أبداها الامام يحيى ، كما أنها قدمت حججا مقابل الحجج التى أوضحها ، اذ رأت بريطانيا أن أملاك الأئمة الزيديين قبل القرن السابع عشر كانت محصورة فى المنطقة المحيطة « بصعدة » فى مرتفعات اليمن الشمالية • كما أنها رأت أن نفوذ الأئمة وسلطتهم لم تكن فعالة على الاطلاق عندما كان ميدان اليمن كله خاليا أمامهم منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر وطوال القرن الثامن عشر • هذا فضلا عن أن السلطة التى أسسها الأئمة كانت عوامل الانهيار قد اعترتها قبـل ظهور بريطانيا على مسرح الأحداث اليمنية بشكل واضح منذ احتلالها لعدن فى سنة ١٨٣٩ ، وقبل عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٤٩ بناء على استنجاد بعض الزعماء اليمنيين الذين كانوا يأملون فى استقرار الأمور على أيدى العثمانيين بعد أن عمت الفوضى أرجاء البـــلاد نتيجة تنافس الأئمة وتصـارعهم طمعا فى الاستئثار بالامامة • وأخيرا كان البريطانيون يحتجون بأن المذهب الزيدى الذى

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٠٣ ـ ٢٢٧ .
Jacob, H.E. : op. cit., p. 242.

يقبل أتباعه حكم الأئمة الزيديين ليس سائدا فى كل أرجاء اليمن ، وأن ثمة مذاهب أخرى عديدة يؤمن بها جزء كبير من الشعب اليمنى ، ولا يرتضون الخضوع لحكم الأئمة الزيديين ولا يقبلون ذلك الا كرها · ولعل رأى « السير برنارد رايلى » المقيم السياسى البريطانى فى عدن (فى الفترة الممتدة بين عامى ١٩٣١ الى ١٩٤٠) يكمل وجهة نظر بريطانيا فى هذا الموضوع ، فهو يعتبر أن الامام يحيى بصفته وريثا للامبراطورية العثمانية فى اليمن عليه أن يلتزم بالاتفاق العثمانى البريطانى بخصوص تحديد حدود « المحميات » ، وذلك طبقا للقانون · ولهذا يعتبر الامام من وجهة النظر البريطانية فى موقف المعتدى عندما هاجم «الضالع» فى سنة ١٩٢٠ ، و « البيضا » فى سنة ١٩٢٣ و « العوذلى العليا » فى سنة ١٩٢٤ · و « العوذلى السفلى » فى سنة ١٩٢٦ بعد أن تم جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨ ·

وقد حاولت بريطانيا دائما أن تتخذ من المعاهدة التى عقدت بينها وبين الدولة العثمانية بشأن تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ كل منهما فى جنوب اليمن فى سنة ١٩١٤ سندا تتمسك به لابقاء تلك الحدود المتفق عليها على ما هى عليه لأنها كانت تحرص كل الحرص على جعل المنطقة الخلفية لعدن خالية من كل نفوذ أجنبى يهدد حاميتها فى عدن نفسها ، التى كانت تعتبر مركزا للتموين ولتأمين طريقها البحرى الهام الى الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر · وقد بلغ الأمر ببريطانيا أن اعتبرت أى نفوذ عربى يمتد من داخل اليمن صوب عدن نفوذا أجنبيا يستحق المقاومة وخاصة بعد المحاولات العربية لاخراج البريطانيين من عدن فى الفترة التى أعقبت سيطرتهم عليها فى سنة ١٨٣٩ ، وبعد التجربة المريرة التى مرت بها بريطانيا فى سنة ١٩١٥ ، عندما هاجم العثمانيون النواحى الخاضعة لحمايتهم فى جنوب اليمن وسيطروا على لحج وطرقوا أبواب عدن نفسها فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا مشغولة فى الميادين الأخرى العديدة أثناء الحرب العالمية الأولى على النحو الذى سنوضحه فى الفصل التالى ·



الفصل السابع

السياسة البريطانية فى عدن والبحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨

لا شك ان قيام الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ واستمرارها حتى سنه ١٩١٨ قد أحدث تأثيرات عميقة على الأوضاع القائمة فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن . كما أحدثت تلك الحرب تأثيرات عميقة أيضا على السياسة التى اتبعتها بريطانيا هناك سواء بالنسبة للدول الأوربية الصديقة أو المنافسة من جهة ، وبالنسبة لمصر والدولة العثمانية من جهة أخرى ، وأيضا بالنسبة للقوى المحلية التى كانت تتطلع للسيطرة على أراضيها ونيل استقلالها من جهة ثالثة . وقد لعبت بريطانيا دورا خطيرا للسيطرة على منطقة البحر الأحمر بحيث تمكنت من جعله أشبه ببحيرة بريطانية مما ساعدها كثيرا على تحقيق النصر فى نهاية تلك الحرب بعد أن استقطبت بعض زعماء المنطقة وجذبتهم للوقوف الى جانبها .

وكانت بريطانيا — كما سبق أن أشرت — قد سيطرت على عدن فى سنة ١٨٣٩ ، واشترت أسهم مصر فى قناة السويس فى سنة ١٨٧٥ ، ثم احتلت مصر والقناة كلية فى سنة ١٨٨٢ ، وعقدت معاهدة عدوة مع الأحباش والمصريين فى سنة ١٨٨٤ ، هذا فضلا عن سيطرتها على ميناءى زيلع وبربرة بعد أن أجلت المصريين عنهما فى نفس السنة وعن هرر فى السنة التالية ، واخيرا وطدت نفوذها فى السودان بعقد اتفاقية الحكم الثنائى مع مصر فى سنة ١٨٩٩ (١) . ولم يكن هذا هو كل ما حققته السياسة البريطانية فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن قبيل الحرب العالمية الأولى ، بل ان بريطانيا كانت قد تعاطفت مع أصدقائها الطليان حتى سيطروا على الساحل الغربى للبحر الأحمر الممتد بين عصب ومصوع

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، ملف سودان رقم ٣٠٣ . كما أصدرت رياسة مجلس الوزراء المصرى فى سنة ١٩٥٣ الكتاب الأخضر عن السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ الى ١٣ فبراير ١٩٥٣ ، ص ٥ — ٩ .

والذى كان تابعا لمصر وعرف بمستعمرة اريتريا فى سنة ١٨٩٠ • وكانت بريطانيا تهدف من وراء ذلك إلى الحيلولة دون امتداد النفوذ الفرنسى المنافس لها والمتمركز فى أوبوك وتاجوره ليسطر على هذا الساحل ، على حين لم يكن الطليان حينذاك يشكلون خطرا على المصالح البريطانية هناك •

وكان محور السياسة البريطانية يتمثل فى الحفاظ على الطريق البحرى الى الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر ، هذا الى جانب تأمين ميناء عدن المتحكم فى ذلك الطريق وضمان تموينه بالمواد الغذائية من الساحل الافريقى المواجه ، فضلا عن تحقيق الأطماع البريطانية فى القارة الافريقية •

وقد توترت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا نتيجة لحادثة فاشودة فى سنة ١٨٩٨ (١) ، ولكنها تحسنت بعقد الاتفاق الودى بين الجانبين فى سنة ١٩٠٤ (٢) • وبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل العلاقات البريطانية الفرنسية انعكست بطبيعة الحال على منطقة البحر الأحمر • وكان من عوامل توثيق تلك العلاقات بين الجانبين وتدعيمها ظهور المنافسة الألمانية ، وبخاصة بعد أن تحالف العثمانيون مع الألمان فى مطلع الحرب العالمية الأولى •

وهكذا أصبحت منطقة البحر الأحمر ساحة للصراع بين دول الوسط (ألمانيا والنمسا والمجر) المتحالفة مع الدولة العثمانية من جهة ، وقوى الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) من جهة أخرى ، أثناء الحرب العالمية الأولى • وأعقب نهاية تلك الحرب انسحاب القوات العثمانية نهائيا من المنطقة فى نهاية سنة ١٩١٨ ، بعد أن ظلت تابعة للسيادة العثمانية قرابة أربعة قرون من الزمان • ونجحت السياسة البريطانية فى تحقيق أهدافها هناك بعد أن استقطبت الى جانبها معظم العناصر المعادية للعثمانيين حلفاء الألمان • وكانت عدن برج مراقبة ومركز تموين وقاعدة انطلاق للبريطانيين فى منطقة البحر الأحمر وخليج عدن وعلى أهم طريق للمواصلات بين بريطانيا وبلاد الشرق طوال سنى تلك الحرب • وقد زاد ذلك من تأكيد أهمية عدن الاستراتيجية البالغة للمصالح البريطانية فى ذلك الحين ، مما أدى بالتالى الى زيادة تشبث البريطانيين بالبقاء فيها والحفاظ عليها •

وسوف أتناول فيما يلى عرض جوانب هذه الموضوعات مبتدئا بتوضيح معالم السياسة البريطانية فى منطقة البحر الأحمر فى مطلع الحرب العالمية الأولى حتى يمكن تفهم طبيعة الدور الذى لعبه البريطانيون فى تلك المنطقة انطلاقا من قاعدتهم الهامة فى عدن حتى نهاية تلك الحرب •

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه، ص ١٥٦ — ١٥٧ •

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) وجلال يحيى (دكتور) : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ؛ ص ٦٧ — ٧١ •

أولا : سياسة البريطانيين فى عدن والبحر الأحمر فى مطلع الحرب العالمية الأولى :

لم تكد تمضى عدة شهور على عقد اتفاقية تحديد الحدود بين منطقتى النفوذ البريطانى والعثمانى فى جنوب اليمن حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى فى اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٩١٤ (١) . وكان التغلغل الألمانى فى شئون الدولة العثمانية قد بلغ أوجه عندما عقدت الحكومة العثمانية مع ألمانيا معاهدة دفاعية سرية فى اليوم الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، وهو نفس اليوم الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على روسيا . وقد تعهدت الدولة العثمانية فى هذه المعاهدة بمساعدة الألمان ضد الروس ، كما تظاهرت بالحيدة فترة من الزمن ، حتى بدا لها أن استعداداتها الحربية قد اكتملت بدرجة كافية أرسلت أسطولها فضرب فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩١٤ الموانى الروسية على البحر الأسود . وقد ردت روسيا على هذا الاعتداء العثمانى باشهار الحرب على الدولة العثمانية ، وهكذا أقحم العثمانيون أنفسهم فى الحرب العالمية الأولى .

وكان البريطانيون فى عدن ومصر قد ارتابوا من الاستعدادات الحربية التى أجراها العثمانيون فى منطقة البحر الأحمر وخاصة على سواحل الجزيرة العربية فى مطلع سنة ١٩١٤ وذلك بعد التقارب الذى تم بينهم وبين الألمان ، مما جعل الحكومة البريطانية تحس حينذاك بخطورة التغلغل الألمانى فى شئون الدولة العثمانية على مصالحها ومواصلاتها الى الهند عبر البحر الأحمر على وجه الخصوص. ولما كانت المصالح البريطانية قد تضاربت مع المصالح العثمانية فى منطقة البحر الأحمر مما أثار الخلاف والنزاع بين الجانبين ، فان ميدان الحرب كان سيصل حتما الى هناك خاصة وأنه كان واضحا منذ البداية انحياز الدولة العثمانية الى جانب ألمانيا ضد الحلفاء .

وعندما أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على الامبراطورية العثمانية فى اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٩١٤ اثر هجوم الأسطول العثمانى على الموانى الروسية، فان الدولة العثمانية أعلنت بدورها الحرب على الدولتين فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٤ (٢) ، وأشهرت انضمامها الى ألمانيا ، فأصبح العداء صريحا بينها وبين الحلفاء . فكانت الامبراطوريات الألمانية والنمساوية والعثمانية فى جانب وروسيا وفرنسا وبريطانيا ومستعمراتها واليابان والبلجيك وصربيا والجبل الأسود فى الجانب الآخر (٣) . ومنذ بداية هذه الحرب حرص الجانبان المتصارعان على اتخاذ الخطوات الحربية والدبلوماسية لكسب المعركة ، فكانت منطقة البحر الأحمر أحد ميادينها ، وان انحصر الصراع فيها بالدرجة الأولى بين العثمانيين والبريطانيين نظرا لما كان لكلا الجانبين هناك من قوات ونفوذ ومصالح عديدة .

---

(١) Ingrams, H. : The Yemen, Imams, Rulers and Revolution, p. 62.

(٢) Brémond, E. : Yemen et Saoudia, p. 78.

(٣) محمد انيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ — ١٩١٤) ص ٢٧٣ .

على أن كسب المعركة فى الشرق الأوسط بوجه عام وفى منطقة البحر الأحمر على وجه الخصوص أصبح هدف الجانبين المتصارعين فى الحرب العالمية الأولى • اذ أن موقف العرب ازدادت أهميته فى ترجيح كفة الحلفاء على أعدائهم ، وأصبح أمرا ذا أهمية مباشرة للحلفاء عامة وللمصالح البريطانية بصفة خاصة • وكانت الدولة العثمانية فى مركز تستطيع معه أن تهدد مصالح بريطانيا فى نقطتين هامتين بفضل استيلائها على الشام والعراق ، فكانت قريبة من قناة السويس التى تمثل المدخل الشمالى للبحر الأحمر من جانب ، وعلى رأس الخليج العربى من جانب آخر — حيث تقع آبار النفط الهامة التابعة للشركة البريطانية الفارسية • وكانت بريطانيا تدرك الخطر الذى يهددها فى الجزيرة العربية نفسها ، اذ كان الترك يستطيعون اتخاذ مراكز عديدة على طول سواحل البحر الأحمر لبث الألغام التى تدمر البواخر البريطانية ، كما كان يمكنهم أن يبعثوا برسلهم من هناك الى مصر والسودان وداخل افريقيا لامداد أهالى البلاد بالسلاح واثارة مشاعرهم ضد الحلفاء •

هذا فضلا عن وجود حامية عثمانية فى اليمن كانت مؤلفة من فرقتين ، وكان يخشى تهديدها للبريطانيين فى عدن • وثمة أمر خطير كان البريطانيون يهتمون به ويتوجسون من نتائجه لتعلقه بالدعاية السياسية ضدهم وهو « الخليفة السلطان اذا أعلن الجهاد ، ونال تأييد شريف مكة له ، تمكن من تحويل الحجاز الى مركز لبث الدعاية المهيجة ، لا لتثير البلاد العربية فحسب ، بل لتحرك كذلك الأقوام الكثيرة الاسلامية وغير العربية التى تعيش تحت حكم الحلفاء أو على أطراف المناطق التابعة لهم » • (١)

ومن هنا كانت منطقة البحر الأحمر والجزيرة العربية على وجه الخصوص مسرحا للمنافسة فى المجالين الحربى والدبلوماسى على السواء أثناء الحرب العالمية الأولى وخاصة بين العثمانيين والبريطانيين ، مما جعل كلا الجانبين يستميتان فى محاولات كسب ود الأمراء والزعماء المحليين على اختلاف درجات قوتهم وأهميتهم• وكان يزيد من عنف هذه المنافسة اعتماد الترك على ما لخلافتهم من نفوذ معنوى فى الجزيرة ، وحاميات عثمانية موزعة فى أرجائها ، واستناد بريطانيا الى مناطق نفوذها ومستعمراتها الواقعة على بعض سواحل الجزيرة وخاصة فى عدن ، الى جانب سلسلة المعاهدات والاتفاقات التى عقدتها مع شيوخ القبائل اليمنية المحيطة بها فى جنوبى اليمن •

على أن النفوذ العثمانى فى الجزيرة العربية كان يمتد على مساحات أوسع وأبعد مدى من النفوذ البريطانى ، فقد كانت بريطانيا تختار النقط والمواقع الاستراتيجية التى يهمها الاستيلاء عليها دون أن تهتم كثيرا بضيق الرقعة المحتلة أو اتساعها ، وهذا ما فعلته عند سيطرتها على عدن • وقد كان هذا الفارق

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب • (ترجمة حيدر الركابى) ص ١٤٨ — ١٤٩ •

المساحى يعتمد على أساس تاريخى ، فضلا عما كان يصاحبه من نفوذ معنوى للخليفة العثمانى فى الجزيرة العربية (١) • ولهذا كانت الجزيرة خاضعة للنفوذ العثمانى اساسا ، على حين كان النفوذ البريطانى لا يمثل الا منافسا زاحفا يحتل نقطا معينة لحماية خطوط مواصلات الامبراطورية البريطانية •

غير أن النفوذ الفعلى للعثمانيين فى الجزيرة العربية كان ضعيفا بوجه عام • ولم يكن يبدو واضحا الا حيث وجدت القوات العثمانية • وكانت الحامية العثمانية الموجودة حينذاك فى الجزيرة العربية مؤلفة من أربع فرق وموزعة بين الحجاز وعسير واليمن ، أى على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر • وكانت سلطة الحسين شريف مكة على القبائل فى الحجاز كافية لتشكيل قوة كبيرة من بينهـا يمكنها الاشتراك فى الهجوم على البريطانيين فى مصر اذا أراد الحسين ذلك • بل كان باستطاعته أيضا أن يجند من البدو ما لا يقل عن الأربعين ألفا ببنادقهم ، على حين كان يستحيل على الترك أن يتوصلوا الى اثارة البـدو بدون مساعدته • وكانت الحامية العثمانية فى الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين ، ولكن تمرد القبائل هناك كان قد وصل حدا لم يتجرأ معه الترك على التوغل فى داخل البلاد بل ظلوا محصـنين فى قلاعهم ومراكزهم البعيدة • وقد فرض هذا الوضـع على الأتراك ضرورة الحصول على مؤازرة الحسين اذا أرادوا أن يتوصلوا الى تجنيـد العشائر العربية • وكان تأييد الحسين للترك سيمكنهم من توجيه حامياتهم المحصـورة كيفما شاءوا ، كما سيساعدهم على تشكيل قوة كبيرة من رجال العشائر يمدون بهـا القوى التى تتألف منها الحملة الموجهة الى قنـاة السويس حينذاك لمحاربة البريطانيين فى مصر والسيطرة على القناة (٢) •

أما بالنسبة لنفوذ الادريسى فى عسير فلم يكن له قيمة عسكرية فى مطلع الحرب العالمية الأولى الا فى نطاق حدوده المحلية • فقد كان باستطاعته أن يعطل خطوط المواصلات التركية بين الحجاز واليمن ، وأن يهدد مؤخرة الترك اذا هاجموا عدن • على أن فائدة الادريسى الكبرى للحلفاء انحصرت فى سيطرته على المنطقة الساحلية مما جعله يتمكن من الحيلولة دون استخدام الترك سواحل عسير الطويلة كقاعدة بحرية معادية لأساطيل الحلفاء فى جنوبى البحر الأحمر (٣) •

---

(١) السيد مصطفى سـالم (دكتـور) : تكوين اليمن الحديث ، اليمن والامام يحيى ١٩٠٤ — ١٩٤٨ ، ص ١٩٠ •

(٢) I.O., Secret, B. 222., Correspondence with the grand Sherif of Mecca, from 24th September 1914 to 10th March 1916, No. 4, Communication from Mr. Cheetham to Sherif Abdulla, p. 2.

(٣) I.O., Secret, From Brigadier General C.H.M. Price, C.B., D.S.O., Political Resident, Aden to the Secretary to Government, Political Department, Bombay, No. C 80, Aden Residency, 27th January 1916, pp. 1, 2.
Enclosure, Report of a visit to the Idrisi Saiyid Muhamed Bin Ahmed at Jezan, By H.F. Jacob, Lieutenant Colonel,
First Assistant Resident, Aden Residency. 17th January 1916, pp. 34.

وكان موقف الامام يحيى فى مرتفعات اليمن بالنسبة لطرفى النزاع فى الحرب العالمية الأولى يعد من أخطر المسائل التى أثارت اهتمام البريطانيين فى عدن • ذلك لأنه بدا واضحا أن الصلات الظاهرية للحامية العثمانية فى اليمن — التى كانت تتألف من فرقتين كاملتين — مع الأهالى اليمنيين كانت ودية خاصة فى الفترة التى أعقبت الصلح بين الامام والدولة فى سنة ١٩١١ مما كان يخالف تماما طبيعة العلاقة التى كانت بين حكام الحجاز العثمانيين وأهله والتى كانت تكتنفها البغضاء والكراهية • ولما كان هجوم الأتراك على عدن أمر محتمل الوقوع، فان الأمل فى نجاح هذا الهجوم سيقوى ويتحقق اذا وقف الامام من الترك موقفا مؤيدا (١) أو اشترك معهم أتباعه فى هذا الهجوم •

أما فى الجهات المتاخمة للخليج العربى فان موقف ابن الرشيد فى شمر ، وابن سعود فى نجد ، كان يتوقف بالدرجة الأولى على النزاع القائم بينهما ، وكان من المسلم به أن ابن الرشيد سيقف فى صف الترك حالما تعلن الحرب • ولهذا عندما انضمت الدولة العثمانية الى جانب ألمانيا فى الحرب ، أسرعت بريطانيا تفاوض أمراء العرب للوقوف الى جانبها أو لتضمن على الأقل حيادهم وعدم انحيازهم للدولة العثمانية وحلفائها • واستمرت المفاوضات فى سنة ١٩١٥ بين بريطانيا وكل من الادريسى والشريف حسين ، وعبد العزيز آل سعود • وكان هدف بريطانيا من هذه المفاوضات مع الأمراء العرب هو محاربة الترك فى الجزيرة العربية نفسها (٢) ، وصدهم عن تأليف كتلة عربية يقفون بها فى وجه النفوذ البريطانى أو يقطعون على بريطانيا الطريق الى الهند عبر البحر الأحمر والخليج العربى على السواء •

ولقد كان محمد الادريسى أول من لبى دعوة البريطانيين فحالفهم فى ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥ ، وتلاه فى ذلك ابن سعود فعقد معهم معاهدة بعد ستة أشهر تقريبا أى فى ديسمبر سنة ١٩١٥ • وكان الشريف حسين ثالث الأمراء العرب الذين تحالفوا مع البريطانيين فى مطلع الحرب العالمية الأولى فحالفهم فى يناير سنة ١٩١٦ وأعلن الثورة العربية ضد الحكم العثمانى (٣) • وقد اختلفت هذه الاتفاقيات بعضها عن البعض الآخر ، وان اتحدت معاهدة البريطانيين مع الادريسى وابن سعود فى الغرض الذى طمحت اليه بريطانيا ، اذ لم يكن فى وسع الأميرين العربيين القيام بدور أكبر من طاقتهما العسكرية والروحية ضد الأتراك العثمانيين • ولهذا كانت القيمة الفعلية لهاتين الاتفاقيتين مبنية بالدرجة الأولى على نتائجهما السلبية ، اذ قضيا نهائيا على أى أمل فى التحالف بين هذين الأميرين والدولة العثمانية • ولا يعنى هذا التقليل من أهمية العمليات الحربية التى قام

---

(١) أحمد فضل العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص ١١١ •
(٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٩١ •
(٣) امين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ط ٢ ، ص ٢٢٩ •

بها الادريسى ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن وخاصة فى منطقتى عسير وتهامه . ولكننا نهدف الى القول بأن تحالف البريطـانيين مع الشريف حسين كان أكثر فعالية وأكبر أهمية بالنسبة لبريطانيا لما كان يتمتع به الحسين من مركز كبير ومكانة دينية مرموقة بين أمراء العرب فى ذلك الحين ؛ جعلته يعتقد فى نفســه وجعلت كثيرين من العرب يعتبرونه زعيما للنضــال العربى ضـــد الاستبداد العثمانى .

واذا كان البريطانيون قد بذلوا جهودهم لجذب الأمراء العرب على الساحل الشرقى للبحر الأحمر للوقوف الى جانبهم أو لضمان حيادهم على الأقل فى مطلع الحرب العالمية الأولى ، فان الأتراك العثمانيين قاموا بدورهم بالمجهودات الضرورية للحصول على تعهد العرب بمساندتهم ضد بريطانيا وحلفائها فى الحرب المذكورة. ولهذا بعث الترك برسلهم فى أرجاء الجزيرة يحملون الهدايا والعبارات المعسولة الى أمــراء العرب وزعمائهم (١) . وكان طبيعيــا أن اثمرت مفاوضاتهم فورا مع ابن الرشيد الذى كان تواقا الى محالفة الترك ، وان لم يؤد ذلك الى نتيجة ذات فائدة كبيرة سوى تأييدهم له ضد ابن سعود الذى كان يخشى بأسه . ولم ينتفع الترك كثيرا من الامام يحيى الذى فضل البقاء على الحياد فى هذا الصراع الدائر بين القوتين الكبيرتين . وكما يئس الترك من الادريسى قبل نشوب الحرب ، بل أصبح عدوهم اللدود بعد تحالفه مع البريطانيين فى ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥(٢) ، فانهم يئسوا كذلك من الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت الذى كان هو الآخر مرتبطا مع بريطانيا بمعاهدة فى سنة ١٨٩٩ ، وعقد معها معاهدة ثنائية عنــدما قامت الحرب ، تقضى بقيـــام التحالف الفعلى بين الطرفين وذلك فى ٣ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

ولم يفز رســل الترك أيضا الذين زاروا ابن سعود بأى وعــد قاطع منه للوقوف الى جانبهم وكانت حجته فى ذلك ادعاءه الخوف من هجوم بريطانيا على سواحله فى الخليج العربى . بل ان ابن سعود كان يتفاوض فى ذلك الحين مع حكومة الهند البريطانية ، وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة بينهما فى ابريل سنة ١٩١٥ . وكان الترك يأملون حتى بداية الحرب العالمية الأولى فى انضمام الشريف حسين الى جانبهم (٣) وكانوا يعرفون أهمية مركزه بين الأمراء العرب

---

(١) Hurewitz, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I., p. 219.

(٢) I.O., Secret, The Aden Protectorate, Letter from General Officer Commanding W.C. Walton, Aden, to the secretary of the government of India, Foreign Department, dated 13th May 1915. Enclosure No. 1 The Boundary of the Aden protectorate, Note by Colonel R.A. Wauhope R.E., C.B., C.M.G., pp. 5, 6

(٣) I.O., Secret, B. 232, From W.C. Walton, Brigadier-General, General Officer Commanding and Political Resident, Aden, to the Government of India, in the foreign depart- ment, Simla, Headquarters, Aden, 29th May 1916., pp. 1,3.

فى ذلك الحين ، غير أن علاقة الحسين بالترك كانت تتحدد دائما برغبته الشخصية فى الاستقلال ، وانتهت اتصالاته السرية مع البريطانيين فى القاهرة الى اعلانه الثورة ضد الترك فى يناير سنة ١٩١٦ .

كان هذا هو موقف البريطانيين فى عدن وسياستهم ازاء أمراء العرب الستة فى الجزيرة العربية وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى مطلع الحرب العالمية الأولى . وقد رأينا ابن الرشيد وقد انحاز الى تركيا ، وابن الصباح وقد انحاز الى بريطانيا ، على حين وقف الامام يحيى على الحياد وان وضح تقربه للترك وتضامنه معهم ، هذا فى الوقت الذى كان الشريف حسين وابن السعود والادريسى يقبلون على محالفة بريطانيا وينتظرون أن تحقق لهم وعودها المغرية ثمن ثورتهم وخروجهم على الدولة العثمانية (١) .

وسوف نتتبع فيما يلى بشىء من التفصيل موقف البريطانيين فى عدن ازاء الحكام المحليين على الساحل الشرقى للبحر الأحمر . وقد حاول البريطانيون أن يجتذبوهم الى جانبهم فى مطلع الحرب العالمية الأولى ليواجهوا النشاط العثمانى المنافس والمحالف للألمان فى ذلك الحين .

ـ موقف البريطانيين فى عدن ازاء نشاط العثمانيين على الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى مطلع الحرب العالمية الأولى :

قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أشهر كان الأتراك العثمانيون قد بدءوا يستعدون لخوض غمار هذه الحرب منذ شهر فبراير سنة ١٩١٤ على وجه التحديد وقبل أن تعلن دولتهم انضمامها لدول وسط أوربا . ونشطت عمليات الاستعداد لدى الحامية العثمانية المرابطة فى اليمن على مقربة من عدن فى ذلك الوقت ضمن خطة الاستعدادات العامة فى الدولة . فاشترى الترك هناك كميات من الأسلحة والذخيرة من ميناء « جيبوتى » على الساحل الغربى للبحر الأحمر والذى كانت تحتله فرنسا فى ذلك الحين . وتمكن وكيل الترك فى عدن من نقل هذه الكميات الى الحديدة على احدى السفن المحلية ، فضمت الى كميات الأسلحة والعتاد التى اكتظت بها اليمن فى ذلك الوقت نتيجة للحروب الكثيرة التى خاضها الترك لتدعيم حكمهم هناك (٢) .

وقد قدرت قوة الجيش العثمانى فى اليمن فى شهر ابريل سنة ١٩١٤ بحوالى خمسة آلاف جندى وذلك بعد أن نقلت قوات كبيرة منها الى ميادين الحروب الأخرى التى خاضتها الدولة العثمانية فى أوربا وآسيا الصغرى خاصة بعد عقد « صلح دعان » مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١ . أما عن توزيع القوة

---

(١) جورج انطونيوس : المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٢) Jacob, H.F. : Kings of Arabia, p. 154.

العثمانية المرابطة فى اليمن فقد كان يتغير من وقت لآخر حسبما تقتضيه طبيعة الأحوال السياسية وتصورات الأحداث المحلية • وبصفة عامة كان يعسكر فى صنعاء العاصمة جزء كبير من القوة العسكرية العثمانية ، على حين كانت القوات العثمانية المرابطة فى الحديدة تقل عن سابقتها تبعا لوقوع الحديدة فى المرتبة الثانية من ناحية أهمية مركزها الحربى • وكانت تخرج من الحديدة فرق عثمانية منتظمة للمحافظة على « اللحية » وعلى المراكز الواقعة بين « اللحية » و « زهران » التى تمتد على طول الحدود العسيرية • أما فى «مناخه» التى كانت تمتاز بمناعتها الطبيعية فقد كان يعسكر فيها طابور عثمانى موزع بين القــلاع والمراكز التى عرفت بحصانتها ، والتى كانت تخرج منها السرايا – الى كل منطقة « حراز » و « حجيلة » لضبط الأمن واخماد حــركات التمرد ومرافقة محصلى الضرائب وتدعيم الادارة العثمانية هناك • هذا بينما وضعت باقى الفرق العثمانية فى المدن اليمنية الرئيسية سواء كانت فى تهامة أو فى وسط الهضبة • وفضلا عن ذلك فقد كان هناك مركز تركى قوى فى « الشيخ سعيد » فى الطرف الجنوبى الغربى للجزيرة العربية ، كما كان هناك خط دفاع يمتد من « مخا » عبر « تعز » و « ماوية » ويصل الى « قعطبة » ، وكان الترك يعسكرون فيه وتعبره دورياتهم بصفة دائمة فى طرق ممهدة تربط هذه المراكز بعضها ببعض (١) •

ولقد زادت هذه القوة العثمانية المرابطة فى اليمن عنــدما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى مما جعل « الكولونيل هارولد جاكوب Harold Jacob المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن يذكر على لسان أحد الضباط الأتراك أنه كان يعسكر باليمن خمسة وثلاثون طابورا عثمانيا يقدرون بحوالى أربعة عشر ألفــا من الرجال كان أغلبهم من الســوريين المجنــدين فى جيش الدولة (٢) • وقد ازدادت الاستعدادات الحربية تدريجيا عقب اعلان الحرب فوفد كثير من الضباط الأتراك الى الحديدة ومعهم كافة المعدات الحربية اللازمة • كما قام بعض الضــباط من أركان حــرب القوات العثمانية فى اليمن يرافقهم بعض مشايخ البلاد بالطواف على الحدود الممتدة والمتاخمة لمنطقة نفوذ بريطانيا فى جنوب اليمن لاستطلاع حقيقة الموقف هناك ومعرفة كل جديد ، بل ان الأتراك أرسلوا رسلهم الى داخل لحج لمعرفة آخر الأنباء ، كما قاموا بنقل عدد من المدافع من صنعاء الى تعز لتدعيم قواتهم فى الجنوب • هذا فضلا عن أن الترك حصلوا على تعهد من بعض المشايخ اليمنيين وهم أحمد نعمان ومحمد ناصر والسيد أحمد باشا بحماية الحدود الجنوبية لليمن من أى عدوان بريطانى ، ولم يطلبوا من الدولة من أجل ذلك الا امدادهم بالأسلحة والذخيرة • ويبدو واضحا أن تعهد هؤلاء المشايخ

---

(١) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, pp. 178-179.

(٢) Jacob, H.F. : op. cit., p. 168.

اليمنيين كان مرجعه الى عدم رغبتهم فى أن ترسل اليهم الدولة جنودا من الترك يعيثون فسادا فى بلادهم ويحيلونها ميدانا للحرب والدمار ٠

ولم يكتف الترك بهذه الاستعدادات الحربية فى اليمن وبهذه التعهدات من بعض المشـايخ اليمنيين لحماية حدودهم وذلك لمواجهة الموقف فى مطلع الحـرب العالمية الأولى بل قاموا بمحاولات سلمية لجذب سلطان لحج الى جانبهم بشتى الوسائل والدعايات الممكنة ٠ وأوعز الوالى العثمانى محمود نديم بك الى الامام يحيى أن يسعى لاستمالة سلطان لحج الى دولة الخلافة ، وأن يكفل لأهالى لحج وفاء الترك بالوعود والتعهدات التى سيقطعونها لسلطانهم على بن أحمد العبدلى ٠ وكان السلطان على هذا قد بعث كتابا الى الامام يحيى من قبل يخبره فيه بأن الدولة العثمانية خاطرت بكيانها عندما قبلت الدخول فى هذه الحرب ، كما أشار الى « أن معظم أهل الاسلام يكرهون ذلك ، لأن مصالح المسلمين والاسلام مرتبطة بمصالح بريطانيا العظمى وحلفائها وعلى الأقل فليس للمسلمين فى هذه الحرب ناقة ولا جمل » (١) ٠ وواضح من خطاب السلطان على انحيازه لجانب البريطانيين نتيجة للمعاهدات المعقودة بينه وبينهم ، وعدم رضائه عن دخول الدولة فى حرب ضدهم لاقتناعه بعدم جدواها للاسلام والمسلمين ٠ وعلى أية حال فقد قام الامام يحيى بمراسلة السلطان على بناء على مطلب الوالى محمود نديم بك واسترضاء لخاطره وحمل مندوبه السيد محمد على الشريف كتابا الى سلطان لحج ، كما كلفه بأن « يكتشف الأحوال فى هذه الجهة » (٢) ٠ وكانت هذه هى المحاولة الأولى التى قام بها الترك لاجتذاب سلطان لحج الى جانبهم واستعانوا فيها بصديقهم الامام يحيى الذى انحصرت سياسته حينـذاك فى التأنى والتمسك بالحياد المشرب بالعطف والميل الى حكومة محمود نديم بك والى اليمن دون أن يعرض نفسه لعداء بريطـانيا وحلفائها ٠ وكان الامام يحيى بسياسته هـذه ينتظر الفرص المناسبة للاستفادة من هذه الحرب بمقتضى تغير الأحوال وبقدر ما تسمح به الظروف ٠ على حين كان البريطانيون يرقبون الموقف عن كثب من قاعدتهم فى عدن تمهيدا للقيام بدورهم فى استقطاب الحكام العرب المحليين فى شرقى البحر الأحمر للوقوف الى جانبهم ضد الترك الذين تحالفوا مع الألمان ٠

- موقف البريطانيين فى عدن ازاء لحج فى مطلع الحرب العالمية الأولى :

كان السلطان على بن أحمـد بن على سـلطان لحج لا يرى لأهالى اليمن أى مصلحة فى الاشتراك فى « الحرب الكبرى » الأولى التى تمثلت فى الصراع الذى نشب بين البريطانيين والأتراك الموجودين فى اليمن منذ بداية تلك الحرب ٠ وكان اتجاهه هذا نابعا من اقتناعه الشخصى بعدم جدوى هذه الحرب لشعب اليمن من

---

(١) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ٠

(٢) احمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٠٨

جهة ، ومن اطمئنانه للبريطانيين فى عدن من جهة أخرى ، خاصة وأنه كان قد ارتبط معهم بمعاهدات واتفاقيات تعهدوا له فيها بحمايته من أى عدوان تتعرض له بلاده . كما كان « الميجور جنرال شو Shaw » المقيم السياسى البريطانى فى عدن قد أبلغ السلطان على فى سنة ١٩١٤ (ذى القعدة سنة ١٣٣٢ هـ) بانه « من سوء الحظ أصبحت دولة بريطانيا العظمى فى حالة حرب مع دولة تركيا » ، كما أصدرت السلطات البريطانية فى عدن منشورا وعدت فيه العرب بالمحافظة على حرمة البلاد المقدسة وحريتها وذلك محاولة منها لاكتسابهم الى جانبها . ويتضح مما ذكره العبدلى أن دعاية بريطانيا انطلت على سلطان لحج وأوقع نبأ نشوب الحرب الاستياء فى نفسه اذ يقول : « واستاء السلطان على بن أحمد ابن على لهذا النبأ ، وتعجب من مسلك الأتراك ، كما سره وعد بريطانيا العظمى باحترام حرية الحرمين الشريفين والمحافظة على كرامة البلاد المقدسة ، وأن ذلك مما يزيد ويؤكد اخلاصه للدولة البريطانية العظمى » (١) .

ولهذا فاتح سلطان لحج مشايخ اليمن المتصلين بالترك فى أمر تجنب هذه الحرب وتخابر بصفة خاصة مع محمد ناصر باشا قائمقام « القماعرة » وتمت بعد ذلك مقابلة بين مندوب سلطان لحج وهو السيد على بن محمد الجفرى ، وبين الحاج على الكمرانى مندوب محمد ناصر باشا وذلك فى بلدة المسيمير فى أوائل سنة ١٩١٥ (محرم سنة ١٣٣٣ هـ) . وقد أوضح الجفرى مندوب سلطان لحج نتيجة هذا اللقاء بقوله : « وبعد أن تخابرت مع الحاج على الكمرانى اتفقنا جميعا على أن ضرر نزول الأتراك لمحاربة عدن سيكون ضررا عائدا على أهل بر اليمن بسبب الحصر البحرى الذى تضربه بريطانيا العظمى على سواحل اليمن . والأولى أن يسعى مشايخ اليمن فى تسكين حركات الأتراك ويقنع السلطان حكومة عدن الا تحصر سواحل اليمن ، وتعتبر ولاية اليمن أرضا عربية محايدة . وختمنا المقابلة باستصواب هذا التدبير ووجوب نزول الباشا محمد ناصر الى لحج لمقابلة السلطان على واتمام هذه المكرمة . وبعد مدة جاء الحاج على الى لحج ومعه مندوب الباشا محمد ناصر وأشاروا على سلطان لحج أن تظهر حكومة عدن نفسها بمظهر القوة لكى يتمكنوا من اقناع الأتراك » (٢) . ومعنى ذلك أنه قد وجد اتجاه لدى بعض اليمنيين لتجنب الدخول فى حرب ضد بريطانيا وتفضيل حيدة اليمن حتى لا تتعرض سواحله للحصار البريطانى البحرى بكل ما يسببه من مشاكل اقتصادية . غير أن ضغط الأتراك على هؤلاء الشيوخ اليمنيين لمشاركتهم فى محاربة البريطانيين فى جنوب اليمن كان يؤدى بالكثيرين منهم الى السير فى ركب الترك حيثما يذهبون ، ويرجح أن يكون ذلك هو ما دفع الحاج على الكمرانى والسيد على الجفرى أن يشيرا على سلطان لحج بأن تظهر السلطات البريطانية فى

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .
(٢) أحمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

عدن نفسها بمظهر القوة ، حتى يمكنها اقناع الترك عن طريق ارهابهم بقوة البريطانيين أن يخلدوا الى السكينة ، فيبقى اليمن محايدا ازاء طرفى النزاع فى تلك الحرب الكبرى ٠

غير أن الأتراك عاودوا محاولتهم لاجتذاب سلطان لحج الى جانبهم لمهاجمة البريطانيين فى عدن ، وذلك بأن ارسلوا اليه عددا من المشايخ اليمنيين أمثال محمد ناصر باشا والقاضى عبد الرحمن ، والشيخ أحمد نعمان ، والشيخ قايد صالح الطيرى باشا ، فوصلوا الى « جول مدرم » الواقعة فى أرض « الحواشب » وطلبوا مقابلة سلطان لحج أو مندوبه فقابلهم الصنو محسن فضل نيابة عن السلطان على بن أحمد ، وكان هدفهم : « استمالة سلطان لحج بالوعد والوعيد وتشويقه الى أن يشترك معهم فى الحرب ضد حكومة بريطانيا العظمى وحلفائها » ٠ بل ان الوالى العثمانى حمل هؤلاء الشيوخ اليمنيين رسالة من قبله الى سلطان لحج حاول فيها اجتذابه الى جانب الترك وذلك بمخاطبته بعبارات الود والاخاء ودعوته « لنصرة الدين الحنيف » وذلك بالتفاوض مع وفد المشايخ اليمنيين « بما يرضى الله ورسوله واعزاز دين الاسلام واتحاد الكلمة » (١) ٠

والى جانب محاولات الأتراك لاثارة الحمية الدينية لدى سلطان لحج ليقف الى جانب الدولة العثمانية فى حربها ضد البريطانيين فى جنوب اليمن ، فان بعض أعضاء الوفد وعدوا الصنو محسن بتسليم عدن لسلطان لحج بعد فتحها وطرد الحامية البريطانية منها ٠ كما لوح البعض الآخر بقوة الترك بصفة عامة وحلفائهم الألمان عندما أدركوا أن الحامية العثمانية فى اليمن لا تقوى على مهاجمة البريطانيين فى عدن التى تميزت بحصانتها ٠ ولم ينطل هذا الوعد والوعيد على سلطان لحج مما جعل الصنو محسن يقول ان أعضاء الوفد « حاولوا أن يجربوا مغالطات لا أعلم هل كانوا يعتقدونها حقا أم كانوا يموهون بها على البسطاء فقالوا : ان الاسطول الألمانى سيهاجم عدن من البحر يوم يهاجمها الأتراك من البر ٠ وقالوا ان أسرابا من الطيارات تصل يومئذ من برلين الى عدن وتجعلها رمادا ، وأن فيالق عديدة شاهانية زاحفة برا الى اليمن ، وأن مدافع حصن الشيخ سعيد العظيمة سترسل مقذوفاتها الجهنمية فتحرق حصون عدن » ٠ ولذلك كانت روح المبالغة والدعاية واضحة فى كل ما عرضوه ٠ بل ان الصنو محسن تبين أثناء التقائه بأعضاء الوفد أفرادا أن مشايخ اليمن الشافعيين حينذاك لم يقبلوا طوعا على الاشتراك مع الترك فى حربهم ضد بريطانيا فى جنوب اليمن ، ولكن الترك دفعوهم الى ذلك بعد أن وصلتهم الأوامر مشددة من أنور باشا لاشغال البريطانيين فى عدن واجبارهم على توجيه جزء كبير من قواتهم اليها ، وخاصة من الامدادات التى ظنوا أن حكومة الهند البريطانية سترسلها الى السويس لصد حملة احمد جمال باشا عن مصر ٠

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ٠

كما أخبر بعض أعضاء الوفد الصنو محسن بأن على سعيد باشا هو الذى أشار بمهاجمة لحج والاستيلاء عليها لأنه خشى أن يتعطل الفيلق العثمانى الموجود باليمن فى فترة الحرب التى لا يعرف مداها مما قد يؤدى الى عدم كفاية حاصلات اليمن المحصورة لحاجة جنوده فيتعرضون بذلك للمجاعة (١) ٠

وهكذا كان هدف الترك فى اليمن فى مطلع الحرب العالمية الأولى أن يجتذبوا الى جانبهم سلطان لحج ليحولوه عن تحالفه مع بريطانيا ٠ كما كان الترك يهدفون الى أن يكونوا عن طريق تضـــامنه معهم – الى جانب غيره من شـــيوخ القبائل اليمنية – جبهة عثمانية تحارب البريطانيين فى عدن وتناوئهم وتشغلهم عن توجيه قواتهم ضد تركيا وحلفائها فى الميادين الحربية الأخرى ٠ وكان الترك يتوقعون أن تقوم قوات حكومة الهند البريطانية بصـــد حملة الترك على الســـويس على نحو ما حدث عندما احتل بونابرت مصر فى سنة ١٧٩٨ وتحركت قوات حكومة الهنـــد البريطانية لمواجهته والتصـــدى له من ناحية الجنـــوب – كما سبق أن أوضحت فى الفصل الأول ٠ كما أراد الترك أن يضمنوا استحواذهم على خيرات لحج مما يجنبهم المجاعة اذا ما ضعف انتاج ما تحت أيديهم من أراضى اليمن عن سد حاجات الحامية العثمانية أثناء تعرض اليمن للحصار فى فترة الحرب التى قد يطول أمدها ٠ وقد استعملوا مع سلطان لحج مختلف الأساليب من وعد ووعيد واغراء وتهديد ودعايات واشاعات أظهروها فى رسائلهم وحملوها رسلهم ، غير أنها لم تجد نفعا مع السلطان على بن أحمد الذى منعه من الاتفاق معهم ثقته فى البريطانيين ، وارتباطه معهم بعهود ، واطمئنانه لقوتهم ومقدرتهم على حمايته ، هذا فضلا عن معرفته بأطماع الترك ورغبتهم فى السيطرة على بلاده ، واستنزاف خيراتها ، والتحكم فى مقدراتها ٠ وقد أدى عدم الاتفاق بين الترك وسلطان لحج بالاضافة الى ما فرضته استراتيجية الحرب العثمانية فيما بعد ، الى هجوم الترك على لحج وفرض سيطرتهم عليها فى مطلع سنة ١٩١٥ (١٣٣٣ هـ) (٢) ، على النحو الذى سنوضحه عند عرضنا للعمليات الحربية فى منطقة البحر الأحمر وحول ميناء عدن الهام أثناء الحرب العالمية الأولى ٠

– موقف البريطانيين فى عدن ازاء الامام يحيى فى جبال اليمن فى مطلع الحرب العالمية الأولى :

الى جانب الاستعدادات الحربية التى قام بهـا العثمانيون لتعزيز حاميتهم باليمن فى مطلع الحرب العالمية الأولى ؛ وحصولهم على تعهد بعض المشـــايخ

(١) احمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢١١ ٠

(٢) فاروق عثمان اباظة : الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ – ١٩١٨ ، رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٦ ، ص ٣٦٢ ٠

اليمنيين بحماية الحدود الجنوبية من أى عدوان بريطانى نظير تزويدهم بالاسلحة والذخائر اللازمة ، وفضلا عن المحاولات المتعددة التى قاموا بها لاجتذاب سلطان لحج للوقوف الى جانبهم دون جدوى ، فان الأتراك العثمانيين كانوا من قبل كل هذه الخطوات ، وأثناء القيام بها ، قد أمنــوا جانب الامام يحيى وأرضوه بكل ما أراد ليبقى على العلاقات الطيبة التى تولدت بينهم وبينه عقب اتفاق الصلح ، وحتى لا يتنكر لهم وينقلب عليهم فى وقت تكاثر فيه أعداؤهم ، وكانوا أحوج ما يكونون الى استقرار الأمور داخل اليمن . ولهذا « فازوا بأن يركنوا اليه فى ضبط جانب من بلاد اليمن واحتمال جملة من المهام ، بصفته مفوض من طرف الخليفة ، وهى خدمة ثمينة مكنتهم من أن يتفرغوا لمحاربة أعدائهم ، وتمكنوا أن يقترضوا منه ما احتاجوا اليه من الحب والنقد » (١) .

على أن الامام يحيى لم يستغل فرصــة دخول الدولة العثمانية فى معترك الحرب العالمية الأولى ليضرب ضربته للتخلص من الحكم العثمانى فى اليمن ، كما أنه فى الوقت نفسه لم يناصب منافسيها البريطانيين العداء ، بل تميز موقفه من الجانبين المتصارعين بالتزام الحياد ، دون أن يقوم بعمل ايجابى واضح لمساعدة احــدى القوتين على الأخرى ، وانما تصرف بكل حذر ودقة تبعــا لما أملته عليه مصالحه الخاصة . فقد كان يهمه بالدرجة الأولى المحافظة على كيانه حتى يستفيد بأكبر قدر من الفائدة التى كان يتوقع أن تتمخض عنها نتائج هذه الحرب الكبرى، التى ورطت فيهــا الدولة العثمانية نفســها باعتراف كبار ساستها ومن بينهم طلعت باشا ، فقد عبر عن ذلك فى مذكراته التى نشرت بعد مقتله وجاء فيها :

« لما صدقنا على تلك المعاهدة (معاهدة التحالف بين الدولة العثمانية والمانيا فى أول أغسطس سنة ١٩١٤) لم يكن منتظرا قط وقوع الحرب ، ولكن عندما وقعت تلك الحوادث الهائلة علمنا أن المانيا لم تطلب الاتفاق معنا الا لأنها ظنت أن الساعة قد دنت ، وأنها نظرت الى المستقبل بعين تخترق حجب الغيب . ولم تمض بضعة شهور حتى رأينا بوق الحرب ينفخ فى دول أوربا فيهيب . وللحال شعرنا بحرج موقفنا ، لأنه بمقتضى المحالفة التى عقدناها قبل وقوع الحرب كان يجب علينا أن ننضم الى أحد الفريقين المتحاربين فكان يزورنا فى كل يوم سفيرا المانيا والنمسا ليسألانا : متى تخوضون غمار الحرب معنا ، فتبرهنون بذلك على اخلاصكم وتقومون بوعدكم ولو شئنا لكان فى امكاننا أن نجيب أن حكومة ايطاليا أحد أعضاء المحالفة الثلاثية لم تشهر الحرب على أعدائكم ، والمانيا أيضا لم تحترم امضاءها فى المعاهدة التى تقضى ببقاء البلجيك على الحيــاد ، ولكن كنا نتحاشى جوابا مثل هذا لأنه بمثابة رفض بات لمعاهدتنا الجديدة » (٢) .

فالامام يحيى كان يربطه بالدولة العثمانية صلح دعان المنعقد فى ســـنة

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ — ٢١٢ .
(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

١٩١١ ، الذى كان يقضى بأن يدفع الترك مرتبا شهريا له ولبعض كبار رجال قبائله • ولقد حافظ الترك على دفع هذه المرتبات حتى قيام الحرب العالمية الأولى الى أدت الى عجز الدولة العثمانية عن الوفاء بالتزاماتها المالية قبل الامام ورجاله، عما كان يعنى اخلال الترك بشروط الهدنة ، ويمنح الفرصة للامام — اذا أراد — للتنصل من اتفاق الصلح • غير أن الامام يحيى لم ينقلب على الترك ولم يعلن من جديد ثورته عليهم ، رغم أن فرصة دخولهم الحرب كانت سترجح كفته ، لانشغال قوات الدولة فى ميادين القتال الأخرى ، ولتعذر وصـول الامدادات الى الحامية العثمانية فى اليمن فى زمن الحـرب ولما قد تتعرض له من هجمات الأساطيـل المعادية • ولم يحاول الامام يحيى أن يساعد البريطانيين ضد الترك ، كمـا لم يحاول أن يساند الترك ضد بريطانيا ، بل اقتصرت المفاوضات التى حدثت بينه وبين سلطان لحج والتى كانت تعتبر مفاوضات مع البريطانيين أنفسهم بطريق غير رسمى لأنهـا تمت بواسطة حليفهم سلطان لحج وفى داخـل بلاده وليس فى عدن (١) ، اقتصرت هذه المفاوضات فقط على جس نبض البريطانيين ومعرفة نواياهم حتى يساعده ذلك فى تقرير موقفه من القوى المتصـارعة بما يحقق له مصالحه الخاصة •

وعندما حاول العثمانيون تعويض الامام يحيى عن عدم وفائهم له ولأتباعه بالمرتبات الشهرية حرصا منهم على ارضائه حتى ينحاز الى جانبهم ، وذلك بأن اقترحوا عليه أن يخلوا له صنعاء وضواحيها ، وأن ينقلوا مركزهم الى تعز فى الجنوب ، فان الامام يحيى رفض هذا العرض الذى قدمه له الترك رغم اغرائه • ويرجع سبب ذلك الى أن الامام كان يرى أن انتقاله الى صنعاء تاركا « شهارة » مركزه المذهبى الحصـين حيث كان يتجمع من حوله أتبـاعه الزيديون بقبائلهم العاتية ، كان سيؤدى الى اضعاف مركزه نتيجة لابتعاده عن منطقة تجمع القبائل التابعة له والتى كانت تدعم نفوذه ، كما كان يمكن أن يؤدى ذلك الى خروج تلك القبائل عن طاعته ، ويفقده ولاءها وتأييدها • بل ان الامام كان يخشى الى مدى بعيد هذا الانتقال الذى عرضه الترك لأنه كان يرى أنهم يدفعون « المشاهرات » الى هذه القبائل مباشرة ، ولم يكن ذلك يتم عن طريقه مما أدى الى تعلق هـذه القبائل بالترك ، وفى الوقت نفسه كان ذلك «يبعدهم عن سيدهم الأصلى» (٢) • هذا فضلا عن أن الامام لم يكن ليشرفه أن يحصل على صنعاء كمنحة من الترك وتعويضا مما لا يليق بمكانته وبنضال أجداده الأئمة ضد الحكم العثمانى • غير أنه كان يخشى بالدرجة الأولى أن يؤدى انتقاله الى صنعاء الى وقوعه تحت ضغط الترك وتأثيرهم وتدخلهم فى كل شئونه وفرض سيطرتهم وارادتهم عليه ، فى الوقت الذى يكون فيه بعيدا عن المراكز الحصينة للامامة الزيدية فى جبال اليمن

---

(١) امين الريحانى : ملوك العرب ، ط ٣ ، ج ١ ، ص ١٤٦ •

(٢) Jacob, H.F. : op. cit., pp. 158-159.

الشمالية • على أن رفض الامام يحيى الانتقال من « شهارة » الى صنعاء لم يكن يعنى عداءه للأتراك ، اذ ظل الامام على مهادنته لهم ، كما بقى على موقفه الحيادى من القوى المتصارعة أثناء الحرب العالمية الأولى (١) •

ولقد كان صلح « دعان » المنعقد بين الامام يحيى والدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ من الأسباب الواضحة التى جعلت الامام يلتزم بموقفه المتهادن من الترك أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما كان هذا الصلح ذريعة استند اليهـا الامام فى رفضه لمطلب البريطانيين فى عدن الانضمام اليهم عندما عرضـوا عليه ذلك عن طريق سلطان لحج • ولهذا قال العبدلى وهو يوضح مفهوم سلطان لحج عن موقف الامام يحيى « كان الأتراك قد أمنوا جانب الامام يحيى وارضـوه بما أراد ؛ فلذلك لم تظهر من سيادته رغبـة فى أن يجتنب اليمن مصـائب حرب لمصلحة المانيا ، ولأنه كان يومئذ مقيدا بميثاق ائتلاف العشر سنوات الذى عقده مع أحمد عزت باشا » (٢) •

على أن هذا الصلح لم يكن ليفرض على الامام هذا الموقف المتهادن ، كما لم يكن ليشكل أمامه عائقا كبيرا لو أراد أن ينقلب على الترك منتهزا فرصة دخولهم الحرب الكبرى • بل ان الامام اتخذ هذا الموقف (٣) حفاظا على مصالحه الشخصية التى رأى أنها ستتحقق الى أبعـد مدى ممكن بالتزام سياسـة المهادنة والحياد • ولقد رأى الامام يحيى فى ذلك الوقت أن منافسه الادريسى أشد خطرا عليه من الترك وأولى بالمخاصمة والعداء ، اذ كان الامام قد أمن جانب الترك ولو أثناء سنى الصلح الذى عقده معهم ، بل انه كان يعلم أن دولة الترك فى محنة بعد أن تكاثر عليها أعداؤها ، وأنها مشغولة بالحرب التى تورطت فيها ، وأن حكمها فى اليمن سينتهى اذا ما منيت بالهزيمة •

أما الادريسى فقد كانت قوته تزداد يوما بعـد يوم ، ورقعـة نفوذه تمتد تدريجيا على حساب منطقة نفوذ الامام ، كما أن كثيرا من القبائل اليمنية بعضها من الزيدية انضمت الى الادريسى ورأت فيه زعيما وقائدا لمواصلة نضالها التاريخى ضد الترك بعد أن تحول عنه الامام باتفاقه مع الدولة ، كما أن الادريسى تحالف مع بريطانيا ضد الترك فأخذت تمده بالأسلحة والذخائر والمساعدات المالية ، كما كان أسطولها من البحر قادرا على حماية تحركاته الحربية ضد الترك فى تهامه ، مما كان سببا فى تدعيم قوته وتقوية شوكته • وهـذا كله أبرز للامام خطورة الادريسى التى فاقت خطورة الترك فى ذلك الوقت بالنسبة له ، مما جعله يتمسك بسياسة المهادنة معهم ، حتى يتفرغوا لدرء خطر الأدارسة فى شـمال اليمن ،

---

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .
(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ .
(٣) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ٢٧٧ .

ومحاربة البريطانيين فى جنوبه . بل ان الامام تغاضى عن وفاء الترك له ولأتباعه بما تعهدوا به من التزامات مالية ، كما لم يضن عليهم ببعض المساعدات المستترة التى لم تخرجه عن حياده ، وذلك تقديرا منه لصعوبة العبء الذى كانوا يحتملونه أثنـاء الحرب الكبرى . وقد رأى الامام أن مصلحته الشخصيـة تقتضى تمسكه بالحياد مع الانتظار والاستعداد وترقب مجىء الفرصة المناسبة التى يتمكن فيها من التخلص من أعدائه : الادريسى ، والترك ، والبريطانيين ، واحدا بعد الآخر .

وعندما قام البريطانيون بضرب الشيخ سعيد بالقنابل من البحر فى نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وذلك ردا على الاستعدادات الحربية التى قام بها العثمانيون هناك والتى شملت تحصين المنطقـة وتدعيمها بالجنود والعتـاد ، وكانت بريطانيا قد اعتبرت هذه الاستعدادات تهديدا مباشرا لمركزها الهام الحيوى فى جزيرة بريم من الناحية الحربية ، فان هذا الحادث قد أزعج الامام ، غير أن بريطانيا أسرعت بالاعتذار له مؤكدة أن هذا اجراء فرضته الضرورة العسكرية دون أن تهدف من ورائه أية أغراض توسعية .

وعلى الرغم من أن الامام يحيى أجاب على البريطانيين فى عدن بتأكده من عدم رغبتهم فى التدخل فى شـئون العرب ، وعبر لهم عن أسـفه لما حدث فى « الشيخ سعيد » ، مؤكدا أن هذا الحادث قد أثار مشاعر العرب فى كل مكان ، فان الامام كان يتظاهر بتأكده هذا بحسن نية البريطانيين حتى يتجنب عداءهم . أما ما أبداه من أسف وما أوضحه من غضب المشاعر العربية لوقوع هذا الحادث، فان ذلك كان محاولة منه لاقناع بريطانيا بالعدول عما يخشاه من قيامها بعمليات توسعية فى الأراضى اليمنية تضر بمصالحه ؛ وذلك حتى لا تثير ضدها الرأى العام العربى الذى كانت تحتاج الى مساندته ضد تركيا أثناء الحرب .

ولكى يتعرف الامام يحيى على حقيقة نوايا بريطانيا وأهدافها فانه أرسل مندوبا من قبله الى لحج فى يناير سنة ١٩١٥ ، تمكن من مقابلة السلطان على بحضور « هارولد جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن . وقد عبر المندوب عن اعتذار الامام عن الاشتراك فى أي أعمال عدوانية ضد الترك نظرا لارتباطه معهم بموجب إتفاقية الصلح فى « دعان » فى سنة ١٩١١ لمدة عشر سنوات (١) .

ومن الواضح أن اتصالات الامام يحيى هذه بالبريطانيين فى عدن عن طريق سلطان لحج ومفاوضاته معهم كان الهدف منها استطلاع نوايا البريطانيين ، ومعرفة خطتهم الحربية التى يزمعون القيام بها ضد الترك فى اليمن ، نظرا لما كان سيترتب على ذلك من آثار خطيرة تتصل بمركزه ونفوذه ومصالحه هنـاك . ولا شك أن الامام كان يخشى أن تؤدى الحـرب بين الدولة العثمانية وبريطـانيا الى دخول

(١) Jacob, H.F. : op. cit., p. 159.

البريطانيين الأراضى اليمنية المجاورة للنواحى التسع ، دون أن يتمكن الترك من صدهم على الحدود المشتركة ، مما يؤدى الى سيطرة البريطانيين على الأراضى التابعة لنفوذه . وكان أشد ما يخشاه الامام أن يصبح حاكما تحت رعاية بريطانيا ، كما هو الحال فى النواحى التسع التى تشكل جزءا من اليمن الكبرى ، والتى كان يعتبرها الامام ملكا لأجداده . ولهذا فان الموقف كان يتطلب من الامام يحيى مزيدا من الحكمة واليقظة جعلته يتجنب الاصطدام بالقوات العثمانية الجاثمة فوق أراضيه حتى لا ينكمش نفوذه فيضعف عن منافسه الادريسى ، كما جعلته يتصرف بحذر تام مع البريطانيين حتى لا يلقى باقى اليمن مصير النواحى التسع فى جنوبه (١) .

وقد أرسل الامام يحيى فى أواخر سنة ١٩١٥ رسالة الى «الكولونيل جاكوب» ـ المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن ـ التزم فيها بعدم عدائه لبريطانيا ، وأكد فى الوقت نفسه اخلاصه للدولة العثمانية (٢) . ولقد نجح الامام يحيى فى التزامه بالحياد ازاء القوى المتصارعة فى اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى ، وان كان كثيرون من المؤرخين وبخاصة الأوربيين يذكرون أن الامام يحيى انحاز الى جانب تركيا فى الحرب المذكورة (٣) . وأننا نميل الى رأى العبدلى فى هذا الصدد ونراه معبرا عن حقيقة موقف الامام يحيى فى ذلك الوقت اذ يقول : « أما سياسة الحضرة الامامية آنئذ فكانت التأنى والتظاهر بالحياد المشرب بالعطف، والميل الى حكومة محمود بك نديم والى اليمن ، دون أن يتعرض لعداء بريطانيا العظمى وحلفائها ، وانتظار الفرص المناسبة للاستفادة من هذه الحرب بمقتضى تغير الاحوال ومساعدة الظروف » (٤) .

ـ موقف البريطانيين فى عدن ازاء محمد الادريسى فى شمال اليمن فى مطلع الحرب العالمية الأولى :

أوضحنا فيما سبق موقف البريطانيين فى عدن ازاء السياسة التى اتبعها العثمانيون فى اليمن مع سلطان لحج أولا ، ثم مع الامام يحيى ثانيا ، ويهمنا الآن أن نعرف موقف البريطانيين فى عدن ازاء السياسة التى اتبعها العثمانيون مع الأدارسة فى عسير والمخلاف السليمانى بشمالى اليمن فى مطلع الحرب المذكورة ، خاصة وأن زعيمهم محمد الادريسى اتفق مع البريطانيين الذين أمدوه بالمال والسلاح لمحاربة العثمانيين وتصفية نفوذهم فى اليمن ، كما دعمت بريطانيا

(١) Helfritz, H., : The Yemen, A Seceret January, p. 124.
(٢) Brémond, E., : op. cit., p. 81.
(٣) Lenczowski, G. : The Middle East in World Affairs, p. 455.
(٤) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

تحركات الادريسى الحربية فى تهامة بواسطة بعض قطع الاسطول البريطانى فى البحر الأحمر .

وقد سبق أن أوضحنا أن الاتراك تمكنوا من التفريق بين قطبى المقاومة اليمنية المتمثلين فى الامام يحيى من جهة ، ومحمد الادريسى من جهة أخرى . بعد أن عقدوا مع الامام يحيى صلح « دعان » فى سنة ١٩١١ واعترفوا بوضعه الخاص بين أتبـاعه الزيديين . وحدث ذلك فى الوقت الذى لم يصلوا فيه مع الادريسى الى اتفاق مماثل . مما جعل الادريسى ينفرد بحمل لواء النضال ضدهم وضد حليفهم الامام يحيى صديقه بالأمس الذى نكص على عقبيه واشترك معهم فى محاربته . ولقد دفع ذلك الادريسى الى التحالف مع ايطاليا أثناء حربها ضد الترك فى طرابلس الغرب بأسلحة الايطاليين وأموالهم (١) ، حتى شغلهم فعلا عن استرداد طرابلس الغرب .

وقد وقف الامام يحيى الى جانب الترك فى محاربتهم للادريسى ، وكان يسر الامام أن يتمكنوا من القضاء عليه قبل خروجهم من اليمن ، حتى لا يعكر صفو الجو فى المستقبل أو ينافسه فى وراثة الحكم العثمانى فى البلاد .

وعندما أحس الادريسى أن ايطاليا استنفدت أغراض تحالفها معه بعـد سيطرتها على طرابلس الغرب ، فانه أسرع الى تلبية نداء بريطانيا فى مطلع الحرب العالمية الأولى وتحالف معها لتكون عوضا له عن ايطاليا ، ولتشاركه وتؤازره فى نضاله ضد الترك العدو المشترك لكليهما . فكان الادريسى بذلك أول من انضم الى الحلفاء من أمراء العرب ، وأول من حمل السلاح فى البلاد العربية ضد الدولة العثمانية بعد تحالفها مع ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى (٢) .

ولا شك أن موقف الادريسى من الأجانب والأحلاف اختلف اختلافا بينا عن موقف الامام يحيى تبعا للأوضاع الخاصة بكل منهما . فمركز الامام يحيى الدينى كان يمنعه أمام أتباعه من الانضمام للقوى غير الاسلامية ومحالفتها ضد العثمانيين المسلمين ، كما كان اتفاق الصلح المنعقد بين الامام والأتراك فى سنة ١٩١١ يقيد الامام من الناحية المظهرية عن محالفة أعداء الدولة على حين اختلف الأمر بالنسبة للادريسى الذى لم يقلل من مكانته بين أتباعه تحالفه السابق مع ايطاليا ونضاله المستمر ضد الأتراك المسلمين . هذا فضلا عن أن تركز نفوذ الادريسى بصـفة أساسية بالقرب من الساحل كان يسهل اتصاله الى مدى بعيد بالقوى المسيطرة

---

(١) I.O., Secrety, From Brigadier-General C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident, Aden, to the Secretary to government, Political Department, Bombay, No C. 95. Aden Residency, 29th January 1916., p. 1., Enclosure No. 1. From Brigadier. General C.H.U. Price, C.B., D.S.O, Political Resident and general Officer Commanding, Aden to the Chief of the general staff Army Head-quarters, Delhi, India, No 4657/55/G.O. 29th January 1916, pp. 1,2.

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

على البحر الأحمر كايطاليا وبريطانيا — بينما أدى تركز نفوذ الامام يحيى على الهضبة التى تبعد عن البحر حوالى ١٥٠ ميلا الى الداخل الى صعوبة اتصاله بالقوى المذكورة ٠ كما كانت الفرق العثمانية تحيط الامام بسياج منيع يحول بينه وبين هذا الاتصال ، الى جانب وقوعه تحت تأثير الدعاية العثمانية الألمانية التى نشطت فى أرجاء العالم العربى أثناء الحرب وفى بلاد اليمن خاصة لوقوعها بالقرب من مناطق النفوذ البريطانى المتفرعة من عدن ٠ على أن السبب الأساسى الذى حدد موقف كل من الامام يحيى والادريسى بالنسبة للأجانب والأحلاف كان ينبع مما تقتضيه مصالحها الشخصية وأهدافهما الذاتية فهى وحدها التى فرضت على الامام التمسك بالحياد ، على حين فرضت على الادريسى التحالف مع بريطانيا فى مطلع الحرب العالمية الأولى ٠

وكان من الطبيعى أن رحب الادريسى بالتفاوض مع البريطانيين عن طريق المقيم السياسى البريطانى فى عدن وسارع الى التحالف معهم لمحاربة الأتراك العثمانيين فى اليمن ، وقد انتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة بين الادريسى والبريطانيين (١) فى ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥ ٠ واذا كان الادريسى قد ضمن بعقد هذه المعاهدة حصوله على المساعدات البريطانية من أسلحة وأموال الى جانب مساندة الأسطول البريطانى لتحركات القوات الادريسية فى تهامة ، فان البريطانيين كانوا يعتبرون تحالفهم مع الادريسى بمثابة اجراء وقائى ضد أية محاولات معادية قد يقوم بها الامام يحيى صديق الترك ضد القوات البريطانية فى عدن (٢) ، وذلك بعد أن ضمن البريطانيون انضمام الادريسى الى جانبهم وقيامه باغارات مستمرة على القوات التركية فى اليمن تشغلها عن منازلة الحلفاء فى الميادين الحربية الأخرى وتستنزف قدرا كبيرا من امكانات الدولة العثمانية ٠ وسوف نستعرض ملخصا لبنود هذه المعاهدة الادريسية البريطانية (٣) التى حددت الأسس التى قام عليها تحالف الادريسى مع بريطانيا ، وموقف كل منهما بالنسبة للأتراك العدو المشترك بينهما ، وبالنسبة للامام يحيى صديق الترك الذى حاول أن يلتزم بالحياد ازاء القوى المتصارعة فى اليمن فى فترة الحرب تبعا لما كانت تقتضيه مصالحه الشخصية ، فقد تضمنت هذه المعاهدة ما يلى :

أولا — أن الأهداف الرئيسية لهذه المعاهدة هى شن الحرب ضد الأتراك وتعزيز ميثاق الصداقة بين السيد الادريسى ورجال قبائله وبريطانيا ٠

ثانيا — يوافق السيد الادريسى أن يشن الهجوم ويحاول طرد الأتراك من قواعدهم

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ٢٧٧ .

(٢) Hurewitz, J.C. : op. cit., vol. 2, p. 12.

(٣) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المخلاف السليمانى او الجنوب العربى فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ١١٤ — ١١٥ .

فى اليمن ، وأن يضايق القوات التركية هناك بأقصى قوته ومن ثم يوسع رقعة امارته على حساب الأتراك ٠

ثالثا ــ ان هدف السيد الادريسى الأول هو محـاربة الأتراك فحسب ، ولا يثير الخصومة والعداء مع الامام يحيى الذى لم يمد يده فعلا للأتراك ٠

رابعا ــ تلتزم الحكومة البريطانية بحماية امارة السيد الادريسى ضد أى هجوم بحرى يشـــنه أى عدو لضمان الاستقلال بامارته ، وتتعهد بريطانيا بأن تتخـذ جميع الوسائل الدبلوماسية للنظر فى المشاكل التى تنشـأ بين السيد الادريسى والامام يحيى وبين أى منافس ٠

خامسا ــ ليست لدى حكومة بريطانيا أى رغبـة فى توسيع حدودها فى غرب الجزيرة العربية ولكنها لا ترغب الا أن ترى مختلف حكام العرب يعيشون معا فى سلام ، كل فى نطـاق امارته وكلهم يحتفظون بصـداقة الحكومة البريطانية ٠

سادسا : ان الحكومة البريطـانية كدليل على تقـدير العمل الذى سيقوم به السيد الادريسى أمدته بالمال والمعاهدات الحربية ، وستستمر فى تقـديم العون له فى الحرب طيلة مدة اشتراكها بقدر النشـاط الذى يقوم به السيد الادريسى ٠

سابعا ــ انه فى الوقت الذى تفرض فيه بريطانيا الحصار على الملاحة فى جميع الموانى التابعة للأتراك فى البحر الأحمر منذ عدة أشـهر فقد أعطت السيد الادريسى الحرية الكاملة فى الملاحة والتعامل التجارى بين موانئه وعدن وأن بريطانيا اذ تقـدم هذا الامتياز رمزا للصداقة القائمة بينهما تتعهد بأن هذا الامتياز سيستمر ولن يتعرض للتوقف ٠

ثامنا ــ تعلن هذه الاتفاقية حتى يصادق عليها من الحكومة الهندية وتصبح سارية المفعول ٠

وقد وقع على هذه المعاهدة الادريسية البريطانية السيد مصطفى بن السيد عبد العلى عن الجانب الادريسى ، كما وقعها عن الجانب البريطانى « الميجور جنرال شـو B.G.L. Shaw » المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، وذلك فى يوم الجمعة ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥ (١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣ هـ) ، ثم صادق عليها فيما بعد « هاردنج » حاكم الهند العام فى ذلك الوقت (١) ٠

وتوضح هذه المعاهدة معالم السياسة التى اتبعتها بريطانيا فى منطقة البحر الأحمر فى مطلع الحرب العالمية الأولى لمحاربة النفوذ العثمانى المنافس لها وخاصة فى اليمن من جهة ، ولاشغال الترك بحرب محلية هناك تستنفد منهم جهدا كان

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ط ٢ ، ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ ٠

يمكن أن يوجه الى ميادين الحرب الأخرى ضد الحلفاء — من جهة أخرى • ولهذا اتفقت بريطانيا مع الادريسى على محاربة الترك عدوهما المشترك ، واشغالهم داخل المنطقة اليمنية ، واستنفاد قوتهم هناك ، ومنعهم من استخدام موانى اليمن ضد المصالح البريطانية • وقد تعهدت بريطانيا للادريسى بامداده بكل ما يحتاج اليه من أموال ومؤن طوال فترة الحرب ، كما تعهدت بالمحافظة على أراضيه وحماية استقلاله من أى عدوان يهدد بلاده •

وفى الوقت الذى اختنقت فيه موانى اليمن بالحصار البحرى البريطانى أثناء الحرب ، فان بريطانيا تعهدت للادريسى فى تلك المعاهدة بفتح موانيه مع عدن مما أدى الى تمتع المنطقة التابعة لنفوذه برواج تجارى • ولا يعنى هذا أن بريطانيا تركت للادريسى مطلق الحرية فى تصريف هذه المساعدات التى قدمتها له فى أية وجهة يراها أو تبعا لما تقتضيه مصالحه الشخصية ، بل انها قيدت تصرفاته وحددت مجال نشاطه ضد الأتراك فحسب دون أن يثير الخصومة والعداء مع الامام يحيى طالما كان موقف الأخير محايدا لا يتحيز الى جانب الترك • وحتى اذا نشب نزاع بين الادريسى والامام ، فان بريطانيا احتفظت لنفسها باتخاذ جميع الوسائل الدبلوماسية للتوفيق بينهما ، وذلك لأن بريطانيا كان يهمها فى ذلك الوقت أن تستقر أحوال الجزيرة العربية بما يحفظ لها مناطق نفوذها ، وأن ترتبط مع حكامها العرب بروابط الصداقة حتى لا يتحولون عنها الى مساعدة أعدائها الترك •

وقد ذكر « جاكوب » أن بريطانيا أمدت الادريسى بموجب هذه المعاهدة بكميات من الأسلحة الخفيفة والذخائر كما سلمته أربعة مدافع للحصار وثلاثين مدفع « هاون » • على أن الأدارسة كانوا يفضلون استعمال المدافع التى قدمتها لهم ايطاليا فى سنة ١٩١١ (١) ، ويرجع ذلك الى اكتسابهم مهارة فائقة فى استعمالها نتيجة تدريبهم السابق عليها • وعلى أية حال استطاع الأدارسة المسلحين بأحدث أنواع الأسلحة الايطالية والبريطانية أن يهاجموا « اللحية » فى مايو سنة ١٩١٥ • وكان على رأس قوات الأدارسة القائد مصطفى بن عبد المتعال الادريسى الذى قسم الجيش الى قسمين • القسم الأول بقيادة أحمد الحازمى وتوجه الى « اللحية » بمحازاة الساحل • أما القسم الثانى فقد كان يقوده الحسن بن أحمد ابن مسمار وتوجه الى « دير حسين » • وقد هاجم القسم الأول من جيش الأدارسة ميناء « اللحية » (٢) ، غير أنهم لم يتمكنوا بسبب عدم انتظام صفوفهم وترتيب تحركاتهم من التغلغل الى مراكزها الدفاعية الأصلية (٣) • وهنا بدأ تعاون بريطانيا مع الادريسى فى تلك الحرب عندما قام الأسطول البريطانى بضرب

(١) Jacob. H.F. : op. cit., p. 176.

(٢) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٩ •

(٣) Hagarth, D.G. : Arabia, p. 127.

« اللحية » من البحر فى يونيو سنة ١٩١٥ (١) • وكان ذلك تأكيدا من بريطانيا لمعاهدتها مع الادريسى التى لم يكن مدادها قد جف بعد ، وتشجيعا له على مواصلة النضال ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر بوجه عـام •

ثانيا : موقف البريطانيين فى عدن ازاء العمليات الحربية فى منطقة البحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى :

عند بداية قيام الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ كانت معظم أرجاء شبه الجزيرة العربية باستثناء عدن وامارات الخليج العربى خاضعة للسيادة العثمانية على درجات متفاوتة • فكانت السيادة العثمانية فى وسط شبه الجزيرة العربية سيادة اسمية فقط ، فنجد والحسا على وجه التحديد كأنتا مستقلتين من الناحية الفعلية ، على حين كان ولاء الحجاز للحكومة العثمانية مشكوكا فيه بسبب السياسة الاستقلالية التى كان يتبعها فى ذلك الوقت الشريف الحسين بن على ؛ وذلك على الرغم من وجود بعض الحاميات العثمانية التى كانت تعسكر فى المواقع المهمة هناك وخاصة على امتداد خط سكة حديد « سوريا ـ المدينة » •

أما فى أقصى الجنـــوب فى ولاية اليمن العثمانية فكانت الحامية العثمانية المعسكرة هنــاك تدين بالولاء للعثمانيين وتمثل أداة طيعــة فى أيديهم لتنفيــذ سياستهم (٢) • وهذا ما جعل البريطانيين يسارعون بالاتفاق مع الادريسى فى عسير بشمالى اليمن فى ابريل سنة ١٩١٥ ويوجهون أسطولهم لمساندة تحركاته ضد الترك فى المنطقة الساحلية • وكان البريطانيون يهدفون من وراء ذلك الى شغل الأتراك بذلك الميدان عن الميادين الأخرى للحرب الكبرى ، وفى الوقت نفسه يضـــمنون عدم تعرض الطريق البحرى الى الهند والشرق الأقصى ، وقاعدتهم الهامة فى عدن ، لهجوم القوات العثمانية المعسكرة فى ولاية اليمن •

بل ان بريطانيا كانت تخشى كذلك أن يسيطر الترك على جزيرة بريم التى كانت مركزا استراتيجيا هاما عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، كما كانت محطة حيوية لشبكة البرق والمواصلات البريطانية (٣) • على أن بريطانيا كانت تحرص على عدم توسيع نطاق العمليــات الحربية على السواحل الشرقية للبحر

---

(١) I.O., Secret, From Brigad:er-General C.H.U. Price, C.B., D. S.O., Political Resident, Aden to the Secretary to Government, Political Department, Bombay, No. C. 95. Aden Residency, 29th January 1916 ; p. 1. Enclosure No. 1. from Br:gadier-general C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident and general Off:cer Commanding, Aden, to the Ch:ef of the general staff Army Headquarters, Delhi, India, No. 4657/55/G.O., Headquarters Aden, 29th January 1916. pp. 1,2.

(٢) Lenczowski, G. : Op. cit., p. 57.

(٣) L enczowski, G. : Ibid., p. 60.

الأحمر وبخاصة على السواحل اليمنية القريبة من عدن وذلك حتى لا تجهد نفسها أكثر مما ينبغى فتشغل بذلك عن الميادين الهامة الأخرى ذات الأثر الحاسم فى تقرير مصير الحرب الكبرى فى ذلك الحين ·

– موقف البريطانيين فى عدن ازاء العمليات الحربية فى شـــمال اليمن أثنـاء الحرب العالمية الأولى :

نجحت السياسة البريطانية فى تحريك الادريسى فى شمال اليمن لمهاجمة ميناء اللحية ، وقد تمكن من الاستيلاء عليها بمساعدة الأسطول البريطانى من ناحية البحر ، واتخذها القائد مصطفى الادريسى مركزا للقيادة العامة للادارسة فى شمال اليمن · وكان طبيعيا أن يثير هذا الهجوم الادريسى البريطانى حقـد الأتراك ، مما جعل القائد العثمانى الذى كان يسيطر على المنطقة ويدعى غالب بك أن يقوم بعدة تحركات لتجميع جنوده فى « الواعظات » وأن يغرى بالأموال قبائل وادى « مور » و « الواعظات » للانضمام الى قواته · وقد هاجم غالب بك المعسكر الادريسى فى « دير حسين » واستولى على جميع ما به من ذخائر ومؤن وأسلحة بعد معركة عنيفة هزم فيها الجيش الادريسى (١) · غير أن الأتراك لم يتمكنوا من استعادة ميناء « اللحية » من قبضة الأدارسة ، خاصة وأن الأسطول البريطانى الذى ضرب الميناء وساعد الأدارسة فى الاستيلاء عليه كان يقف بالمرصاد لصد أى هجوم تركى ·

وتجدر الاشارة الى أن الادريسى قد تظاهر بالغضب نتيجة لضرب البريطانيين لميناء « اللحية » بمدافع أسطولهم ، وقد كتب اليهم معبرا عن أسفه على ما ألم بشعبه من متاعب نتيجة لضرب هذه المدينة العربية (٢) · ولا شك أن الادريسى كان يكره الترك ويدرك قيمة المساعدات البريطانية لترجيح كفته عليهم ، غير أنه ساءه كثيرا أن ضرب البريطانيين لميناء « اللحية » لم يلحق الضرر بالترك فحسب، بل سبب أضرارا بالغة لأهالى المدينة فى نفس الوقت · على أنه يرجح أن الادريسى أراد بتعبيره عن أسفه لضرب البريطانيين لميناء اللحية بمدافع أسطولهم البحرى أن يعفى نفسه من مسئولية هذا العمل الذى مهد له السبيل فيما بعد للسيطرة على الميناء على الرغم من ذلك ·

وقد بقيت بعض قطع الأسطول البريطانى فى ميناء « اللحية » على استعداد لتقديم أية مساعدات ممكنة للجيش الادريسى· وعندما وقعت معركة «دير حسين» التى هزم فيها جانب من الجيش الادريسى وانقض الترك على معسكر الأدارســة واستولوا على ما به من مؤن وعتاد ، فان الجانب الآخر من الجيش الادريسى فى

---

(١) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ·

(٢) Jacob, H.F. : op. cit., p. 164.

« العطن » لم يتمكن من الاشتراك فى المعركة نظرا لوجود مراكز قوية للمدفعية التركية على طول الطريق الممتد بين « العطن » و « دير حسين » وخاصـة فى « جبل الملح » ٠ وقد بقى هذا الجانب من الجيش الادريسى محتفظا بمراكزه فى « العطن » حتى باغته الترك بهجوم مفاجىء فانسحبت فلول الأدارسة الى داخل مدينة « اللحية » واتصل قائدهم بالقائد العام مصطفى الادريسى لدراسة الموقف وتقرير المقاومة أو الانسحاب ٠ وقد قرر القائد العام للأدارسة الانسحاب عن طريق الساحل الى « ميدى » بعد أن اتضح له عدم جدوى المقاومة ، فأسرع الترك بالاستيلاء على معسكر « العطن » الذى كان يحتله الأدارسة واستولوا على ما به من عتاد ومؤن اشتد بها ساعد الجيش العثمانى ٠ وقد تخوف الترك من مهاجمة « اللحية » خشـية أن يكون جيش الأدارسـة المنسحب قد تحصن فى قلاعها واستحكاماتها ، خاصة أن الأسطول البريطانى كان يحمى تحركات الأدارسة من البحر ، غير أن جواسيس الترك أعلموهم بأن المدينة خالية مما شجعهم أخيرا على التقدم اليها واحتلالها ٠ وقد تم ذلك فى الوقت الذى التجأ فيه القـائد الادريسى ومن بقى معه من الأدارسة الى الأسطول البريطـانى الذى نقلهم الى « ميدى » بعد أن ضرب بمدافعه مدينة « اللحية » من جديد (١) ، مما اضطر الترك الى اخلائها والانسـحاب بعيـدا عن مرمى المدافع فالتجأوا الى مدينة « الزهرة » و « جبل الملح » و « الواعظات » ٠ على أن الأدارسة رغم انسحابهم من مدينة « اللحية » فانهم احتفظوا بمراكزهم فى الميدان الجنوبى الشرقى لعسير والمخلاف السليمانى فى جبهتى « البترى » وبلاد « بنى نشر » (٢) ٠

وعندما رأى الادريسى أن العبء قد ثقـل على عاتق رجال قبـائل المخلاف السليمانى الذين يمثلون الدعامة الأساسية لقواته ، فانه أراد أن يدخر شيئا من قواهم لما قد يسفر عنه المستقبل ٠ وكان لدى الادريسى من الأموال ما يمكنه من تجنيد حشود المرتزقة من قبائل « يام » و « حاشد » و « بكيل » وعين لهم قائدين من رجال المخلاف أولهما منصور بن حمود أبو مسمار ، والثانى أحمـد عبد الله بن بكرى المروانى ٠ كما استعان الادريسى بجنود مرتزقة من الصومال شكل منهم حرسه الخاص ، غير أنهم لم يتآلفوا مع الأهالى فاضطر الى توزيعهم على المراكز التابعة لسـيادته ٠ وعلى أية حال فقد هاجمت قوات الادريسى المراكز

---

(١) I.O., Secret, From Brigadier-general C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident, Aden, to the secretary to government, Political Department, Bombay., No. C. 95. Aden Residency, 29th January 1916, p. 1.
— Enclosure 1, From Brigadier-general C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident and general Officer Commanding, Aden, to the Chief of the general Staff, Army Headquarters, Delhi, India. No. 4657/55/G.O., Aden, 29th January 1916. pp. 1,2.
— Enclosure 2, Extract from a Report by Major C.R. Bradshaw., General staff, Aden, Regarding the Idrissi, pp. 3-5.

(٢) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١١ ٠

التركيــة فى « وادى مور » غير ان قواته منيت بالهزيمة ، مما شـــجع قبائل « وادى مور » و « عبسى » على الانضمام للأتراك ، فضلا عن قبائل « الواعظات » التى لم تتحول عن ولائها للترك تبعا لمصانعة زعيمها « هادى هيج » معهم (١) ٠

على ان الأعمال الحربية التى تلت ذلك فى شمال اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى بين الأدارسة والأتراك لم تتعد بعض التحركات المحـدودة للمحافظة على المراكز التى كان يحتلها كلا الجانبين ٠ هذا على الرغم من أن الترك كان لديهم عدد ضخم من الجنود فى هذه الجهة تبعا لتوزيع القوات العثمانية فى اليمن على النحو الذى سبق أن أشرت اليه ٠ وقد ظلت بريطانيا أثناء فترة الحرب تساند الادريسى وتمده بالمساعدات التى حددتها المعاهدة المعقودة بينهما فى ٣٠ ابريل سـنة ١٩١٥ ٠ كما عادت بريطانيا فعقدت مع الادريسى معاهدة ثانية فى ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ ، اعترفت فيها باستيلاء الادريسى على جزر « فرسان » من الترك وبأنها أصبحت جزءا من ممتلكاته ٠ ونظرا لأن بريطانيا كانت تعتبر الادريسى حليفا لها ولم تعتبره أميرا خاضعا لحمايتها فانها أكدت فى هذه المعاهدة الأخيرة « استقلاله فى جميع تلك الممتلكات » (٢) ٠

على أن النشاط الحربى بين الأدارسة والترك فى شمال اليمن قد ضعف فى السنتين الأخيرتين من سنى الحرب العالمية الأولى ونظرا لخوف كل جانب منهما من الجانب الآخر ٠ فالترك كانوا يقدرون تحالف الادريسى مع بريطانيا التى يهدد أسطولها المراكز العثمانية الواقعة على سواحل اليمن ، مما جعلهم يقنعون فقط بالدفاع عن هذه المراكز ضد اغارات الأدارسة أو الهروب بعيدا عن مرمى مدافع الاسطول البريطانى ٠ أما الادريسى فرغم ما كان يحسه من قوة بتحالفه مع بريطانيا وبأن ذلك كان يمكنه من مضايقة الترك خاصة فى المناطق الساحلية التى يمكن أن تدعم تحركاته فيها مدافع الأسطول البريطانى ، فان الادريسى فى قرارة نفسه كان يخشى انتقام الترك اذا ما تخلت عنه بريطانيا ٠ وكان الادريسى يعلم بطبيعة الحال أن بريطانيا كانت دائما حليفة للأتراك قبل انضمامهم لألمانيا التى كانت هزيمتها تبدو فى الأفق ، فكان يخشى أن يصفو الجو من جديد بين بريطانيا والأتراك فتبقى عليهم فى اليمن ، فينتقمون منه أشد انتقام ٠ وقد أثار ارتياب الادريسى فى نوايا البريطانيين تراخيهم فى مساندة سلطان لحج الذى هجم الترك على بلاده فى جنوب اليمن ، ولهـذا رأى أن أخلاصنــه للبريطانيين واطمئنانه اليهم لن يكون الا اذا تمكنوا من طرد أعدائه العثمانيين من اليمن حتى لا يشكلون هناك خطرا يهدد مستقبله ٠ ويفسر لنا ذلك خوف الادريسى مع رفع علمه على جزر « فرسان » بعد استيلائه عليهـا من يد الترك حتى لا يزيد من

---

(١) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١١٢ ٠

(٢) Hurewitz, J.C. : Op. cit., Vol. 2, p. 12.

ثائرتهم عليه ، فيتعرض لانتقامهم فى المستقبل ، كما خشى فى نفس الوقت ان يرفع عليها العلم البريطانى حتى لا يتهم بأنه باعها للبريطانيين فيثير بذلك على نفسه سخط اليمنيين ولعنتهم (١) ٠

وقد استفاد الادريسى من تحالفه مع البريطانيين أثناء الحرب العالمية الأولى ، وحتى بعد خروج الترك من اليمن فى أعقاب تلك الحرب ٠ واذا كنا قد استعرضنا المعونات الحربية التى قدمها البريطانيون للادريسى أثناء الحرب ، فان الادريسى قد استفاد من هذا التحالف أيما استفادة فى المجال الاقتصادى أيضا عندما حافظت بريطانيا على جعل موانيه مفتوحة للتجارة ، بينما فرض أسطولها حصارا بحريا خانقا على بقية الموانى اليمنية ٠ وقد احتكر الادريسى بذلك تجارة المنطقة وتصرف فى أسعار السلع كما شاء ، وجنب بلاده الضيق والاختناق الاقتصادى الذى عانى منه اليمنيون وحتى سكان المدن الساحلية اليمنية الاخرى أثناء الحرب ٠ وقد لجأ بعض مشايخ القبائل القاطنة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر الى عرض خدماتهم على البريطانيين ، ليخلصوا أنفسهم مما حل بهم من فاقة أثناء الحصار ٠ ومن بين هؤلاء شيخ ميناء « خوخه » ـ ذلك الميناء الذى عرف بأهميته التجارية وبالخدمات التى كان يقدمها للسفن التجارية العابرة ـ وقد عرض هذا الشيخ خدماته على البريطانيين فى عدن بعد أن شكا اليهم عدم اهتمامهم بمساعدة قبيلته ٠ وحتى قبيلة الزرانيق القاطنة على الساحل اليمنى والمعروفة بشدة البأس ، تقربت هى الأخرى للبريطانيين فى عدن لتحصل على مساعداتهم وعرضت عليهم موانيها لاستغلالها بعد أن عانت الأمرين من الحصار ٠ غير ان بريطانيا كانت ترفض هذه العروض التى رأت فى قبولها توسيعا غير مرغوب فيه لالتزاماتها فى فترة الحرب العصيبة ٠ وسيؤدى تخلى البريطانيين عن مساعدة قبيلة الزرانيق الى التجائها الى الفرنسيين فى « جيبوتى » الواقعة على الساحل الافريقى المواجه لليمن ، غير أن الفرنسيين أحجموا عن مساعدة الزرانيق وأحالوهم الى عدن (٢) دون جدوى ٠

على أن العثمانيين والامام يحيى تعرضوا كذلك لوطأة الحصار الذى فرضته بريطانيا على سواحل اليمن المطلة على البحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى ٠ وقد حاولوا الحصول على احتياجاتهم اللازمة بمختلف الوسائل الممكنة ومن مصادر متعددة ٠ وكان من بين أهداف الحملة التى وجهها الترك الى لحج هو توفير الامكانات الاقتصادية اللازمة للاتراك المحصورين فى اليمن ، حتى يتجنبوا الضائقة الاقتصادية التى كانوا يتوقعون حدوثها اذا طالت فترة الحرب ولازمها هذا الحصار العنيف ٠ وقد أكد العبدلى هذا الرأى بقوله : « ان على سعيد باشا هو الذى أشار بمهاجمة لحج والاستيلاء عليها لأنه خشى أن يتعطل الفيلق فى اليمن ،

---

(١) Jacob, H.F. : op. cit., pp. 176, 177.

(٢) Hurewitz, J.C. : Op. cit., Vol. 2, p. 12.

ولا تكفيه حاصلات اليمن المحصـــورة فيموت جوعا ، فرأى أن يستولى على لحج المشهورة بكثرة حبوبها وأرزاقها فى اليمن لضم حاصلاتها الى حاصلات اليمن لسد حاجة الفيلق وعائلات الضباط » . كما أشار العبدلى الى أن المكاتبات التى تبودلت بين على سعيد باشا والقومندان أحمد توفيق ومحمود نديم تبين بوضوح بل وتؤكد « أن الأتراك مع ما نهبوه وسلبوه واقترضوه واستولوا عليه بأى وجه كان من حاصلات لحج وأملاك السلطنة العبدلية ورعاياها ومن غيرها من بلدان اليمن والنواحى التسع ، كانوا فى ضائقة شديدة فى اليمن كما يفهم ذلك من النزاع الذى قام بينهم بخصـــوص توزيع الحاصـلات بين الفرق العســكرية والملكية » (١) ، على النحو الذى سنوضحه عند دراستنا لموقف البريطانيين فى عدن ازاء التحركات العســكرية العثمانية فى جنـــوب اليمن أثنـــاء الحـرب العالمية الأولى .

وقد عبـر الواسـعى – وهو مؤرخ يمنى زيدى المذهب – عن الضـــائقة الاقتصــــادية التى اجتاحت اليمن نتيجة لحصار الأسطول البريطانى لســواحله بقوله : « ثم فى شهر شوال (أوائل سنة ١٩١٤ ، ١٣٣٢ هـ) انقطعت البواخر البحرية وعظم الحرب ، ودخلت سنة ١٣٣٣ هـ « نوفمبر ١٩١٤) واشتدت الحرب العظمى وامتنعت القطارات والبواخر البحرية وأصاب الناس ضرر شديد بسبب ذلك ومكثت الحرب خمس سنين الى نهاية سنة سبع وثلاثين هجرية (١٣٣٧ هـ ، ١٩١٨ م) . واليمن فى الزراعة والثمار هذه المدة قد تحسنت حالها ولم ينقطع عنها الا الغاز والسكر .. وأما المأكولات فموجودة ، واليمن استغنى بنفسه مع وجود وفرة الفواكه والثمار ، ويوجد نوع من السكر فى اليمن الأسفل » (٢) . ومن الملاحظ أن الواسعى لا يعبر فقط عن الضائقة الاقتصادية التى نتجت عن الحصار البريطانى الذى عانى منه اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى . بل انه يوضح كذلك أن أهالى اليمن اتجهوا الى العنـــاية بزراعة أراضيهم حتى يهيئوا لبلادهم اكتفاء ذاتيا يقيهم كارثة المجاعة اذا ما استمر الحصار البحرى لسواحلهم سنين عديدة . وكانت الأرض اليمنية جديرة بالوفاء باحتياجات اليمنيين لثرائها الطبيعى وكثرة خيراتها فأنتجت لهم ما سد حاجتهم وهيأ لهم فعلا الاكتفاء الذاتى الذى جنب بلادهم ويلات المجاعة أثناء الحصار البحرى البريطانى للسواحل اليمنية (٣) فى الوقت الذى هاجمت فيه ايطـاليا طرابلس الغرب ، وأثنـــاء الحصـار البحرى البريطـــانى لتلك السواحل (٤) المطلة على البحر الأحمر عقب قيـــام الحــرب العالمية الأولى .

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٢) عبد الواسع بن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن المســمى فرجة الهمــوم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط ٢ ، ص ٣٢٩ – ٣٣٠ .

(٣) محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن ، ص ٢٢ .

(٤) Bury, G.W. : op. cit., p. 116.

— موقف البريطانيين فى عدن ازاء العمليات الحربية فى جنـــوب اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى :

أوضحنا فيما سبق أن البريطانيين قاموا فى مطلع الحرب العالمية الأولى بمحاصرة السواحل اليمنية وسواحل الحجاز المطلة على البحر الأحمر بأسطولهم المنيع وذلك لكى يقطعوا المواصلات بين اليمن والحجاز وباقى أجزاء الامبراطورية العثمانية . حتى تضيع الفرصة على القوات العثمانية الموجودة هناك للمساهمة فى العمليات الحربية المضادة لقوى الحلفاء أثناء الحرب · وقد زاد من ضيق الحصـار على العثمانيين فى اليمن والحجاز حينذاك ذلك التحالف الذى تم بين ابن سعود وبريطانيا فى سنة ١٩١٥ (١) ، ثم اشتعال الثورة العربية ضدهم بزعامة الشريف الحسين بن على فى الحجاز · وقد أدى ذلك الى قطع الطريق الصحراوى الطويل عبر الحجاز ونجد والذى كان وسيلة الاتصال الوحيدة بعد انقطاع الطريق البحرى عبر البحر الأحمر بواسـطة السفن البريطـانية التى حاصرت السواحل ، فكادت الدائرة بذلك تكون مقفلة حول العثمانيين المحصورين فى اليمن والحجاز فى ذلك الحين· وكان الترك يعرفون تماما امكانات البحرية البريطانية، مما جعلهم يوقنون بأن معركة الساحل سوف يكسبها البريطانيون لا محالة · فالأسطول البريطانى كان يسـيطر تماما على البحر الأحمر ، كما أنه كان يسـاند تحركات الادريسى وعملياته الحربية ضد الترك فى شمال اليمن · ولهذا اتجه الأتراك العثمانيون بكامل استعداداتهم لمهـاجمة لحج ومحاولة غزو عدن ومناوأة البريطانيين من ناحية البر ·

ولا شك أن تحول الترك الى الجبهة الجنوبية فى اليمن كان خطة عسكرية صائبة أبعدت قواتهم عن مرمى قذائف الأسطول البريطانى فى المناطق البحرية فى الساحل الشمالى المواجه لعسير ، كما جعلتهم يتوجهون الى ضرب البريطانيين فى المناطق البرية البعيدة عن الساحل حيث تضعف نسبيا جيوشهم واستعداداتهم عن النيل من القوات العثمانية وهزيمتها ·

وجدير بالذكر أن موارد اليمن حينذاك كانت قد أنهكتها الثورات والحروب الطويلة فأصبحت تلك الموارد محدودة لا تكاد تفى باحتياجات العثمانيين الذين مكثوا فيها طويلا ، كما ينتظر أن تطول اقامتهم نتيجة للحصار المحكم المضروب حول الولاية فى البر والبحر بواسطة بريطانيا وأعوانها · وكان الترك يتوقعون أن اعتمادهم الكلى على الموارد اليمنية المحلية سيثير بالضرورة أهالى اليمن الذين لم ينمح من ذاكرتهم تاريخ نضالهم السابق وصراعهم الدامى ضد الحكم العثمانى فى بلادهم · ولم يكن الترك كذلك يطمئنون تمام الاطمئنان الى موقف الامام يحيى الذى بدا فى مظهره محايدا بل ومساندا لهم فى محنتهم فى بعض الأحيان ، لأنهم

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ٢٧٧ ·

كانوا يرونه مترقبا لسقوطهم حتى ينقض عليهم ويرث البلاد بعدهم اذا أتيحت له الفرصة ، وان كان يطمئنهم بعض الشيء اتفاق الصلح المعقود بينهم وبينه في سنة ١٩١١ ، والمحاولات التي اشترك فيها معهم لاجتذاب سلطان لحج ولابعاده عن التحالف مع البريطانيين في عـدن ٠ وهكذا كانت هـذه العوامل مجتمعة تحث العثمانيين في اليمن على التحرك والبحث عن مخرج لهم من الضائقة التي واجهوها في مطلع الحرب العالمية الأولى في تلك الولاية المحصورة ٠

ولهـذا قرر العثمانيون في اليمن أن المخرج الوحيد لهم هنـاك من تلك الضـائقة التي يعانون منها هو الاتجاه جنـوبا ومهاجمة بعض النواحي التسع المحيطة بعدن ، بل ومهاجمة عدن نفسها ٠ وفي نفس الوقت كانت خطة الدولة العثمانية وحلفائها تهدف الى طرد البريطانيين من عدن واحتلالها ، بالاضافة الى احتلال جزيرة بريم ، وكلتاهما تشرفان على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ٠ وكان هذا الهجوم جزءا من الخطة العامة التي رسمتها الدوله العثمانية وحلفاؤها لمهاجمة البريطانيين في مصر والاستيلاء على قناة السويس ، وحرمان بريطانيا من الشريان الحيـوي في خطوط مواصلاتها الامبراطورية الى الهنـد والشرق عبر البحر الأحمر (١) ٠ وقد أكد العبدلي ذلك عندما ذكر أن العثمانيين في اليمن « وصلتهم أوامر مشددة من أنور أن يقلقوا راحة الانكليز في عدن ويجبروهم على ارسال عسكر اليهـا ، وأن يشغلوهم في اليمن بقـدر الامكان وكأنهم أرادوا بذلك أن يشغلوا في عدن جانبا من المدد الذي يظنون أن الهند سترسله الى السويس لكبح جماح حملة أحمد جمال باشا على مصر » (٢) ٠ كما أكد أمين الريحاني أن هدف الترك من مهاجمة عدن هو اشغال البريطانيين عن الميادين الأخرى للحرب الكبرى الأولى بقوله : « فعول علي سعيد باشا الجركسي قائد القوات العثمانية في اليمن على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير اشغال الانجليز هناك » (٣) ٠ واذا كان هذا هو الهدف العسكري من وراء مهاجمة العثمانيين لعدن والنواحي التسع ، فقد كانوا يرمون أيضـا من وراء ذلك الى ايجاد حل لضائقتهم الاقتصـادية المتوقعة خاصة اذا طالت فترة الحرب (٤) ، على النحو الذي سبق أن أوضحناه ٠

وهكذا تحددت الجبهة التي سوف يزحف تجاهها رجال الحامية العثمانية في اليمن ، سواء كان الغرض من ذلك محاولة الاستيلاء على عدن والنواحي التسع ، وهو هدف صعب لم يتحقق لنهايته نتيجة لمناعة عدن وقوة تحصينها ، أم كان الغرض الاسـتيلاء على بعض تلك النـواحي ، واشغال البريطانيين حول عدن ، والاستعانة بمحاصيل المنطقـة لسـد حاجة الحامية العثمانية ، وهو الأمر الذي

---

(١) Lenczowski, G. : op. cit., p. 61.
(٢) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢١٠ – ٢١١ ٠
(٣) أمين الريحاني : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٤٠١ ٠
(٤) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢١١ ٠

تحقق فعلا . وقد كانت هذه الجبهة أفضل للترك وأجدى لهم من الجبهة الشمالية في عسير التي أوضحنا العمليات الحربية التي حدثت فيها أثناء الحرب العالمية الأولى ضد الأدارسة لابعادهم عن محالفة البريطانيين ، ووضع حد لتوسعهم المدعم بمدافع الأسطول البريطاني على حساب الممتلكات العثمانية . ذلك لأن جبهة عدن على أية حال كانت مجابهة مباشرة من العثمانيين لأعدائهم البريطانيين في جنوب اليمن ، وكان سيترتب على نجاح الترك فيها أو فشلهم أثارا ذات فعالية أبعد مدى في خطة الحرب الكبرى من القضاء على الادريسي أو وضع حد لتعاونه مع بريطانيا لاشغال الترك في شمال اليمن . هذا على الرغم من أن « لينوفسكي » يقلل من قيمة العمليات الحربية التي دارت في اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى لعدم تناسقها مع العمليات الحربية الرئيسية للخطط العسكرية التي وضعتها تركيا وحلفاؤها بقوله : « ان التحركات التركية في اليمن لم تكن متناسقة مع العمليات الحربية الرئيسية للخطط العسكرية التي وضعتها الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، ولذلك كانت غير ذات تأثير على سير الحرب بصفة عامة » (١) .

وعلى أية حال فقد قررت القيادة العثمانية في اليمن الزحف على عدن والنواحي التسع ، وكان البريطانيون يرون أن تلك النواحي وخاصة لحج بمثابة خط دفاعي أول عن عدن نفسها . ولهذا عندما علمت بريطانيا بخطة الترك أرادت أن تقوم ببعض العمليات الحربية التي قد ترهبهم وتوقف زحفهم على عدن. وتنفيذا لتلك الخطة الدفاعية فقد أوقف البريطانيون ثلاثة طوابير من جنودهم في البحر الأحمر كانوا متجهين من الهند الى السويس ، وضربوا في ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٤ منطقة « الشيخ سعيد » الواقعة غربي عدن وتطل على مضيق باب المندب ليدمروا الآبار والحصون والمستودعات العثمانية فيها . ولكنهم لم يستطيعوا — نتيجة لشدة الانواء — أن يقتحموا المنطقة وان كانوا قد نزلوا الى البر على مقربة منها في حمى مدافع البواخر الحربية البريطانية ، فتقهقر الترك الى داخل البلاد ، ثم دمر البريطانيون قلعة « تربة » وغيرها من الحصون في تلك المنطقة ، وغنموا بعض المدافع ، وظنوا أنهم أوقفوا بذلك القوات التركية ومنعوها من مجرد التفكير في الزحف على عدن .

غير أن الترك أوقفوا زحفهم لمدة سبعة أشهر فقط ، ثم أعادوا الكرة على منطقة « الشيخ سعيد » فاحتلوها ، وتوجهت قواتهم من « ماوية » الى « لحج » تمهيدا للهجوم على عدن (٢) . وجدير بالذكر أن اعتداء البريطانيين على « الشيخ سعيد » قد أغضب الامام يحيى الذي كان يعتبر تلك المنطقة جزءا من أملاك

(1) Lenczowski, G. : op. cit., p. 60.

(٢) أمين الريحاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

أجداده التي ورثها بحـــكم امامته . وقد احتج الامام يحيى على هـذا العدوان البريطاني مما جعل «الكولونيل جاكوب» المساعد الأول للمقيم السياسي البريطاني في عدن يكتب اليه قائلا : « ان الضرورة الحربية هي التي حملت البريطانيين على ضرب الشيخ سعيد دون أن يكون لهم قصد خفي أو سياسي ، وأن جلاءهم عن الناحية في أقرب فرصة سوف يؤكد ذلك » (١) .

وعنـدما وصلت القوات العثمانية الى « الضـالع » في فبراير سنة ١٩١٥ (١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٣ هـ) فقد كتب الأمير نصر الى السلطان على سلطان لحج يصف له حملة الترك وتحركاتهم بقوله « ان الحركة قوية جدا وجيوشا تركية وامامية ويمنية . لها قدر (كذا) وأن الدولة أخذت مصر والحور (يقصد قناة السـويس) وأقفلت باب المندب (كذا) وحصنته بالعســاكر . والآن جهزت عساكرها من طريق اليمن وواصلين الى « قعطبة » و « ماوية » و « الراهدة » وطريقهم « الدريجة » و « الراهدة » من حدودنا . والآن الثورة والحركة قوية بالمرة ظاهرا وباطنا ومتوجهين عدن ، ونحن قد رفعنا للانكليز بالحقائق وأيضـا سمعنا أنكم عاونتم الدولة البريطانية بخمسين ألفا . ورؤساء الترك سمعوا بذلك واغتاظوا للمعاونة منكم للانكليز وسمعنا من بعضهم أن عند وصولهم قريب لحج بأنهم يطلبون منكم تسليم المعاونة بالمثنى . الآن حببنا اعلامكم بذلك وعندما يصلوا قريب لحج لازم علينا قوام العهد ، ونتداخل بينكم بموجب المخوة ، وتصلح جميع الأمور ، وندخل أوجاهنا لكم ولهم » (٢) .

ونلاحظ أن ما ذكره الأمير نصر عن اشتراك جنود الامام يحيى في الحملة العثمانية على لحج يجانب الحقيقة ، لأن الامام لم يقبل أن يزج بنفسه في الصراع القائم بين الترك والبريطانيين ، احتفاظا منه بقوته للانتفاع بها في تدعيم كيانه بعد تصفية هـذا الصراع الذي لا مصلحة له فيه . وقد أكد القـائد العثماني سـعيد باشـا موقف الامام هذا بقوله ان الامام كان يعارض رأيه في الزحف على عدن (٣) ، وأنه قد كتب للامام يطلب منه المساعدة فلم يلب الامام مطلبه (٤) . غير أنه يمكن القول أن بعض رجال القبائل اليمنية من أتباع الامام قد اشتركوا مع العثمانيين في الهجوم على لحج بصفتهم الشخصية ومن أجل مصالح خاصة ، وليس بصفتهم ممثلين للامام يحيى الذي رفض أن يقحم نفسه في تلك الحرب . وحسب الترك ما استفادوه من الامام يحيى فقد قال العبدلي «انهم فازوا بأن يركنوا اليه في ضبط جانب من بلاد اليمن واحتمال جملة من المهام ، بصفة مفوض من طرف الخليفة ، وهي خدمة ثمينة مكنتهم من أن يتفرغوا لمحاربة أعدائهم

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 159.

(٢) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٣) أمين الريحاني : المصدر السابق ، ص ٣٦٧ .

(٤) Jacob, H.F. : op. cit., p. 164.

وتمكنوا من أن يقترضوا منه ما احتاجوا اليه من الحب والنقد » (١) ٠ أما الحرب الدعائية والنفسية التى شنها الترك وصاحبت حملتهم الزاحفة تجاه عدن ، عندما أطلقوا الاشاعات بأنهم قد استولوا على قناة السويس ، بل وعلى مصر كلها واقفلوا باب المندب ، ليوهموا أهالى النواحى بأن عدن هى المحصورة ، فقد لاقت هذه الحملة بعض النجاح مما جعل العبدلى يقول ان الترك « كانوا يجدون فى خراف قحطان الضالة كثيرا ممن يصدق ذلك » (٢) ٠ وكان الترك يقصدون بحملتهم الدعائية هذه التظاهر بأنهم يهدفون الى مهاجمة عدن فقط٠ وحاول الترك أن يؤكدوا ذلك عندما بعث القائد العثمانى على سعيد باشا الى سلطان لحج يستأذنه بالمرور عبر سلطنته المستقلة ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه ، فأبى السلطان على « لأنه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها » (٣) ٠ على أن العبدلى يؤكد أن السلطان على أدرك أن الترك ماكانوا يقصدون الا الاستيلاء على لحج فقط ، وأنه أكد ذلك لأصدقائه الذين كانوا يكاتبونه ويدعونه لاطاعة الترك والذين كانوا يتوسطون لتحسين علاقاته مع حكومة ولاية اليمن العثمانية ٠ ثم يضيف العبدلى قوله ان نية الترك قد تحققت بعد ذلك عندما أقر القائمقام رءوف بك عند بعض رجال « حكومة عدن » أنه لم يكن فى عزمهم مهاجمة عدن الا اذا حصلوا على امدادات كبيرة ، وانما كانت خطتهم الاستيلاء على لحج والسيطرة على مقدراتها ٠ ويختتم العبدلى رأيه هذا بقوله « فلذلك كانت مقاومة السلطان والتجاؤه الى عدن ضربة الى على سعيد باشا ، وسببا لبقاء أكثر عرب المحمية على موالاة حكومة عدن » (٤) ٠

وتجدر الاشارة الى أن أمين الريحانى ـ ذلك الأديب الصحفى الرحالة العربى الأصل الأمريكى الجنسية والذى قام بزيارة اليمن والبلاد العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وكتب عن ملوك العرب الذين قابلهم آنذاك ـ قد ذكر أن ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية فى الغرب من أخبار تلك الزاوية العربية القصية والتحركات العسكرية التى دارت فيها فى ذلك الوقت لم يكن فيه كلمة عن نكبة لحج وعما حل بالأسرة المالكة وبسلطانها « حليف بريطانيا العظمى » ، وانما تضمن فقط الاشارة الى أن السلطة البريطانية فى عدن احتاطت للأمر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، وأنها أمرت بنقل الحامية البريطانية من عدن الى « الشيخ عثمان » ثم بالتقدم الى لحج ٠ وذكر الريحانى أن التقارير الرسمية جاء فيها « ان شدة الحر وقلة الماء وفرار الهجانة المأجورين أخرت الجنود فى الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » ٠ ثم أشار الريحانى الى أن طليعة

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ ٠

(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ ٠

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق : ج ١ ، ص ٣٦٧ ٠

(٤) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٣ ٠

الجيش البريطـــانى وصلت الى غايتها ونازلت الأتراك خارج لحج قبل أن تصـــل الجنـــود اليها ، فدارت الدائرة على البريطـــانيين فتقهقروا عن لحج مهزومين ، فدمرها الأتراك فى ٥ يوليو سنة ١٩١٥ ونهبوها (١) ، ثم زحفوا على « الشيخ عثمان » فاحتلوها فى اليوم التالى (٢) ٠ واختتم الريحانى توضيحه لما وصل الى الدوائر الحـــربية فى الغرب بالطرق الرســـمية عن تلك الحرب بقوله ان النجـــدة البريطانية التى وصلت بعد ذلك الى عدن أخرجت الترك من « الشيخ عثمان » فى ٢٠ يولية سنة ١٩١٥ ، فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها وظلت شرذمات منهم فى « أم العمد » و « الوهط » ، فحاول البريطـــانيون مرارا أن يخرجوهم منها فلم يتمكنوا من ذلك الا بعد أن قامت بنجدتهم عشائر العرب التى استنجدوا بها ٠ ولكن البريطانيين لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ أن يخرجوا الأتراك من لحج ، فظلوا فيها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (٣) ٠

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية فى الغرب عن اخبـــار الصراع الذى دار بين الترك والبريطانيين فى جنوب اليمن أثناء الحرب العـــالمية الأولى ٠ ومن الملاحظ أن اغفـــال ذكر الكارثة التى حـــدثت لسلطان لحج حليف بريطانيا على يد الأتراك كان محاولة من البريطانيين لاخفاء جريمتهم ، اذ تركوا سلطان لحج يقع وبلاده فريسة فى يد الأتراك رغم تعهدهم بحمايته من أى عدوان أجنبى تتعرض له بلاده ٠ ولا شك أن اذاعة أخبار تلك الكارثة كان من شأنه أن يشكك حلفاء بريطـــانيا فى تعهداتها اليهم فيفقدون الثقة فيهـــا ويتخلون عن مساعدتها فيضعف جانبها فى الحرب الكبرى فى ذلك الوقت ، الأمر الذى كانت تتجنب حدوثه بشتى الوسائل الممكنة ٠ على أن تفاصيل هجوم الترك على لحج سنستعرضها فيما يلى بعد التثبت من مصادر متعددة ٠

فى السنة الثانية من سنى الحرب العالمية الأولى أى فى صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية فى اليمن خمسة وثلاثون طابورا ، أى نحو خمسة عشر الف جندى ، معظمهم من السوريين ، وكان يعسكر قسم منهم فى « ماوية » فى جنوب اليمن تحت قيادة أمير اللواء على سعيد باشا الجركسى الذى أضاف الى قواته قوة من العربان اليمنيين ٠ وقد عرف عن سعيد باشا أنه كان كريم الأخلاق جوادا مما جذب اليه عدة آلاف من رجال قبائل «الحواشب» و «اليوافع» و «الصبيحة» وقد خرجت جيوش سعيد باشا من « ماوية » زاحفة تجاه لحج حيث كان السلطان على يعد العدة لمواجهة الترك وصدهم عن بلاده ٠ وقد استعان سلطان لحج ببعض العشائر المجاورة وحشد قواته التى بلغت نحو ألفى مقاتل فى « الدكيم » الواقعة على مسافة عشرة أميال من لحج ٠ غير أن تكاليف الاحتفاظ بهذا العدد الى جانبه

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٦ ٠

(٢) Scott, H. : In the High Yemen, p. 230.

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٧ ٠

كانت باهظة لا تتحملها ميزانيته الصغيرة (١) . وكانت السلطات البريطانية فى عدن قد أرسلت الى « الدكيم » فرقة من الخيالة كانت تعسكر فى عدن Aden Troop تحت قيادة « السردار ملك دارخان الهنـدى » ثم سحبتهم الى لحج وأبقوا بعض الأشخاص للمخابرة معهم « بالهليو » (٢) .

وقد تخلى عن مساندة سلطان لحج ضـد الأتراك عدد من الأمراء اليمنيين المجاورين لبلاده ، لخوفهم من قوة الترك ولعدم ثقتهم فى مساعدة البريطـانيين وحمايتهم ، ومن بين هؤلاء السلطان على مانع الحوشبى . وقد اكتشف العبادل حكام لحج خطابا واردا من الأمير على بن صالح الحوشبى الى السلطان المذكور وفى طيه رسـالة من على سعيد باشا قائد الحملة التركية يدعو فيهـا سلطان الحواشب للرجوع الى المسيمير والاتصال بالترك لاتمام الاتفاق الذى بداوه مع الأمير على ابن صالح بشأن اعطاء الحواشب منطقة « زايده » التابعة للعبادل حكام لحج . وقد أكد ذلك عدم اخلاص السلطان الحوشبى لجاره سلطان لحج ، وكان السلطان الحوشبى هذا قد عاد الى بلاده بعد أن حصل على أسلحة قليلة من سلطات عدن البريطانية غير أنه كان يائسـا من حماية البريطانيين مما جعله يعقد العـزم على الاذعان للترك والاتفاق معهم ، وقد صرح بذلك لمقبل عبد الله القطيبى ومحمد ابن الأمير حسين اللذين أرسلا من « الدكيم » لمعرفة اتجاهه . كما أكد لهمـا الحوشبى « أنه ما لم تصل جنود بريطانيا العظمى وعساكر لحج لصـد الأتراك عن بلاده فانه عثمانى مصالح للأتراك » .

وقد أرسل سلطان الحواشب فى « المسيمير » خطـابا لقوات العبادلة فى « الدكيم » بعد أن أحرق أطرافه انذارا بالخطر ليحثهم على ارسال المدد فى أسرع وقت « والا فانه لا يلام بعد ذلك » ، كما كتب مثل هذا الخطاب الى سلطات عدن البريطانية وسلطان لحج العبدلى . ثم عاد سلطان الحواشب فأرسل كتبا أخرى الى « الدكيم » تكذب خبر وصول الترك الى حدوده وتحذر العبادل من ارسال أى مدد اليه لأن الأمر لا يستلزم ذلك ويبدو أن الحوشبى فعل هذا ليتجنب غضب الترك وليظهر اخلاصه لهم وعدم تعاونه مع العبادل حلفاء البريطانيين بعـد أن فقد الأمل فى حمايتهم له وصد الترك عن بلاده . وقد ارسل العبادل اربعة من الخيالة الى « الدريجة » لاستطلاع الموقف فرأوا جميع قرى الحواشب قد أخليت وفر سكانها بمواشيهم وأثاثهم وارزاقهم الى شوامخ الجبال خوفا من الترك الذين تمكنوا من مد أسلاك البرق الى «الدريجة» وكادت تصل الى هناك طلائع قواتهم . وقد أبلغ الكشافون رجال العبادل فى « الدكيم » بأن الترك قد اجتازوا الحدود لكى يستعدوا لمواجهتهم .

---

(١) Jacob, H .F. : op. cit., p. 165.

(٢) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

وهكذا اصطدم الترك بالعبادل حلفاء البريطانيين فى « الدكيم » وسرعان ما دارت الدائرة على اللحجيين لأن الترك فاقوهم عددا وعدة · وفى تعبير موجز ذكره العبدلى يصف ما حدث فى تلك المعركة بقوله : « وحقيقة كان حالنا وحالهم كمن يناطح بالقـــارورة الجبل » (١) · وترجع أسباب هزيمة اللحجيين الى قلة عددهم وعتادهم الحربى بالنسبة لما كان لدى الترك من رجال وعتاد ، كمـــا أن اللحجيين لم يكونوا على شىء من النظام فى تحركاتهم العسكرية ، على عكس ما كان لدى الترك من نظام ودراية بالخطط الحربية · هذا فضلا عن تأخر وصول النجدة البريطانية اليهم الا بعد وقوع الهزيمة فعلا · وقد ذكر أمين الريحانى ـ كما سبق أن أوضحت ـ أن التقارير الرسمية البريطانية وردت فيها أسباب ثلاثة لتأخر وصول تلك النجدة هى شدة القيظ ، وتعذر الحصول على الماء ، وفرار الجنـــود البريطانيين الهجانة على وجه الخصوص · غير أن الريحانى أضاف أنه سمع فى عدن أن الجنود الهنود عصوا يومئذ ضباطهم البريطانيين لأنهم كرهوا أن يحاربوا اخوانهم المسلمين · على أن المصادر المختلفة تجمع على أن البريطانيين أبطأوا فى نجدة اللحجيين ، ثم انهزموا بعد ذلك أمام القوات العثمانية ·

وقد أسرع سلطان لحج بابلاغ نبأ هزيمة جنوده فى « الدكيم » للسلطات البريطانية فى عدن ، وأوضح لهم أن قصره سيصبح فى اليوم التالى تحت وابل قذائف المدافع التركية · وقد أرسلت سلطات عدن البريطانية فرقة من جنودها توجهت الى لحج بعد أن قضت ليلتها فى « الشيخ عثمان » · وقد هاجم الترك مدينة « الحوطة » حيث تجمع اللحجيون وأطلقوا عليها المدافع ، واحتدم القتال بين الجانبين · وكان قد وصـــــل الى المدينة جانب من الجنود الهنود البريطانيين لمساعدة سلطان لحج غير أنهم وصلوا بعد فوات الوقت ولم يتمكنوا من احضـــار مدافعهم وعتادهم · وقد ذكر العبـــدلى أن عدد الذين دافعوا عن « الحوطة » من اللحجيين والبريطانيين لا يزيد عن سبعمائة مقاتل ولكنهم قاتلوا قتال الأبطال ، وأن الترك أنفسهم قد شهدوا لهم بذلك (٢) ·

وعندما دخل الأتراك الجانب الغربى من مدينة « الحوطة » كان السلطان على وأسرته لا يزالون فى القصر المقـــام فى الجانب الشرقى من المدينة يدافعون عن أنفســـهم ، فاضطروا أن يخرجوا منه عنـــدما بدأت الحجارة تتساقط عليهم من الجدران التى كانت تخترقها القنابل ، ثم بادروا بالفرار قبل الفجر متجهين الى بلدة « الشيخ عثمان » احدى ضـــواحى عدن · وفى ذلك الوقت كان الجنـــود البريطانيون قد خرجوا من تلك البلدة لنجدة اللحجيين ، فالتقوا بالسلطان على وأسرته تحت جنح الظلام ، فظنوهم من كشافة العدو ، فأطلقوا عليهم النيران ،

---

(١) احمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ·

(٢) امين الريحانى : المصدر السابق ص ٣٦٧ ·

فقتلوا عددا منهم وأصيب السلطان على بسبب رصاصات وقتل فرسه . وقد أعيد السلطان مجروحا الى القصر (١) وبقى فيه الى بعد شروق الشمس ، حيث أخرجه من بقى من جنوده فى القصر محمولا على الأكتاف ، وكان الترك يطلقون عليهم نيران بنادقهم من أطراف المدينة فأصابوا بعض الذين يحملونه بجروح خفيفة . غير أن هؤلاء ساروا بسلطانهم على تلك الحالة حتى وصلوا بالقرب من «الرباط» ، حيث كانت هناك سيارة نقلت السلطان على الى عدن ، فتوفى هناك متأثرا بجراحه (٢) . وقد عبر « هارولد جاكوب » عن موقف البريطانيين ازاء هذه الكارثة التى حلت بسلطان لحج بقوله : « اننا فى اهمالنا مسئولون عن وفاة السلطان على المبتسرة » (٣) .

وهكذا سيطر العثمانيون على لحج التى فر منها الى عدن كل من سلم من أسرة العبادلة الحاكمة وكثيرون من الأهالى . وقد دمر الترك قصور السلاطين ونكلوا بأهل المدينة . وقد عبر العبدلى عن ذلك بقوله : « وأصبحت المدينة خرابا وأهلها فقراء ففشت المجاعة فى البلاد وضجت العباد ؛ واضطر العاهل على سعيد (قائد الترك فى لحج) أن يبيع الى العبادل جانبا مما غنم منهم من الحبوب ، وكانت الخلائق من الأهالى تتزاحم لشراء ما يسد الرمق بأغلى الأثمان حتى فتح الله لهم الطريق الى سوق عدن » (٤) .

وتجدر الاشارة الى أن القوات العثمانية النظامية هى التى هاجمت لحج وقدر عددها بنحو الفين وثلاثمائة جندى معظمهم من الترك والسوريين ، كانت مقسمة الى ثلاثة آلايات مسلحة بالمدافع سريعة الطلقات ومدافع الجبال ومدافع « الهاون » وغيرها ، كما كان يصاحبها طابور كامل للاستحكامات وفرقة صغيرة من السوارى . وقد رافق هذه القوات العثمانية أثناء هجومها على لحج ما يقرب من ستة آلاف مقاتل من رجال القبائل اليمنية جمعت بين المرتزقة والطامعين فى الغنائم ممن استطاع الترك اجتذابهم الى جانبهم ، أو من وقفوا الى جانب الترك اضطرارا بعد أن فقدوا الأمل فى حماية البريطانيين لبلادهم على نحو ما فعل سلطان الحواشب . وقد نظم الترك هذه القبائل اليمنية التى شاركتهم فى الهجوم على لحج فى سبع فرق اختصت كل منها بمهام محددة .

وعندما دخلت هذه الفرق المكونة من رجال القبائل اليمنية الى لحج مع القوات العثمانية فقد امتلأت بهم بيوت المدينة واستنفدوا المؤن والأرزاق مما كاد أن يؤدى الى احداث مجاعة لدى القوات العثمانية نفسها . وقد رفع « مأمور

---

(١) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٧ .
(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .
(٣) Jacob, H.F. : op. cit., p. 167.
(٤) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

الأنبار » تقريرا بذلك للقائد العام الذى أصدر أمرا لرؤساء القبائل اليمنية بالرجوع الى بلادهم لكى يحتفلوا مع ذويهم بعيد الفطر ، بينما كان الهدف الأساسى هو الحد من استهلاك المؤن والمحاصيل حتى تفى بحاجة القوات العثمانية المعسكرة فى لحج حينذاك ٠ وقد عاد كثيرون من رجال القبائل اليمنية الى بلادهم وقد حملوا من الغنائم والمحاسن والذخائر والمفارش والأثاث والملابس والكتب شيئا عظيما » (١) ٠

وقد أوضح العبدلى صورة لأعمال النهب والسلب والتخريب التى اجتاحت لحج عقب هجوم الترك عليها يرافقهم رجال القبائل اليمنية بقوله : « وقد رئى كثير من أجلاف اليمن يلبسون أقمصة نساء لحج المذهبة ، فيتبخترون بها فى الأسواق ٠ وخسرت البلاد اللحجية فوق الخسارة المادية خسارة أدبية عظيمة لما ضاع فى هذه الحرب بأيدى الناهبين من الكتب النفيسة النادرة الوجود(٢) ، فلم يتركوا من مدخرات هذه المدينة ونفائسها شيئا حتى مفارش المساجد وقناديلها ، وخربوا أكثر جدران بيوت الحوطة بحثا عن الكنوز بين جدرانها ، وارتكبوا من الفظائع ما يتعالى عنه أهل الايمان » ٠ غير أن العبدلى لا يسترسل فى تحيزه ضد الأتراك وأعوانهم من رجال القبائل اليمنية الذين هاجموا بلاده ، بل انه كان منصفا فى حكمه عندما نجده يعود فيذكر « أنه والحق يقال لم يخطر على بال أحد من هؤلاء المجاهدين أن يسبى ولدا من أولاد اللحجيين لأجل بيعه ، أو بنتا ليتمتع بها باعتبارها ملك يمينه كما كان يفعل المجاهدون البقارة من أصحاب المهدى والخليفة التعايشى بأهل السودان ولله الحمد » (٣) ٠

وعندما اضطرت الحامية البريطانية تحت ضغط القوات العثمانية الزاحفة الى اخلاء بلدة « الشيخ عثمان » فقد عاد اليها مباشرة بعض اليمنيين من أهلها ومن غيرهم ونهبوا ما فيها وقتلوا بعض التجار ٠ كما ذهب بعضهم وأخطر الترك الذين

---

(١) احمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٢٠ .

(٢) أبلغنى بعض المعمرين فى لحج ـ أثناء زيارتى لها فى شهر مايو سنة ١٩٧٤ بغرض تسجيل المخطوطات ضمن المشروع الذى يشرف عليه المركز اليمنى للابحاث الثقافية فى عدن ويختص بتجميع أصول التراث القومى لليمن ـ ان معظم المخطوطات النادرة التى كانت تزخر بها المكتبات الخاصة ومكتبة السلطنة اللحجية فى مدينة الحوطة ومنطقة لحج قد بددت أثناء الغزو العثمانى للمنطقة فى صيف سنة ١٩١٥ وما صاحبه من عمليات السلب والنهب التى قام بها الجنود العثمانيون ورجال القبائل اليمنية التى اشتركت معهم . ومن ناحية أخرى فقد عثرت على عدد هائل من السجلات العثمانية العائدة للفترة الممتدة بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٨ والخاصة بتدوين ملكيات الأراضى والعقارات والمحاصيل الزراعية والضرائب المقررة عليها بالادارة الزراعية ـ التى كانت تابعة للسلطنة اللحجية قبيل الاستقلال فى الثلاثين من نوفمبر ١٩٦٧ وللمحافظة الثانية بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حاليا ـ وكان الترك قد أعدوا هذه السجلات حرصا منهم على الاستفادة الكاملة من إمكانات منطقة لحج الزراعية لصالح قواتهم التى كانت محصورة داخل اليمن أثناء الحرب العالمية الاولى .

(٣) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

أرسلوا عددا من جنودهم تمكنوا من احتلال تلك البلدة . ووضعوا حدا لأعمال النهب والسلب وأقروا الأمور هناك . غير أن البريطانيين تمكنوا ثانية من احتلال « الشيخ عثمان » في ٢١ ابريل سنة ١٩١٥ بعد أن وصلت اليهم نجدة عسكرية بريطانية من مصر للمشاركة في الدفاع عن عدن والمحافظة على مركزها الهام(١). وكانت السلطات البريطانية في عدن قد استنجدت في ذلك الوقت بالفرنسيين في جيبوتي ، فأمدوها بحوالى ٨٠٠ جندى من مدغشقر ، كما أرسل « الجنرال مكسويل » القائد البريطاني العام في القاهرة فرقة هندية للمشاركة في الدفاع عن عدن (٢) . وهذا يوضح الأهمية البالغة لعدن بالنسبة للبريطانيين وحلفائهم أثناء الحرب العالمية الأولى .

وبعــد أن استرجع البريطانيون مدينة « الشيخ عثمان » فان العمليــات الحربية في جنوب اليمن بينهم وبين العثمانيين لم تتعد المناوشات بين الجانبين ، وكان يعقبها الانســحاب الى المراكز الأصلية . وعلى الرغم من قلة أهميــة تلك العمليات الحربية في حد ذاتها ، الا أن كلا الجانبين البريطاني والعثماني حرصا على ابقاء قوات لا بأس بها هناك لتقف كل منها في وجه الأخرى لصد أى هجوم أو اعتداء . وكان يمكن للجانبين أن يستفيدا بقواتهم هذه في الميادين الاخرى العديدة للحرب العالمية الاولى . بل ان العثمانيين كانت لديهم جبهة أخرى مفتوحة في شمال اليمن يحاربون فيها الأدارسة في عسير ، وكان الأسطول البريطاني في ذلك الوقت يساند تحركات الأدارسة ضد الترك وخاصة في المناطق الساحلية . وقد استمرت هذه الأوضاع على ما هي عليه دون تغيير ، ليس أمام « الشيخ عثمان » فحسب بل في جنوب اليمن بأكمله ، حتى أعلنت الهدنة العامة في سنة ١٩١٨ .

أما بالنسبة لأسرة العبادلة التي كانت تحكم لحج فقد عرفنا أن من سلم منها قد فر الى عدن وكان معهم كثيرون من أهالي لحج ، ويقول أحمد فضل العبدلي أن عددهم بلغ « نحو أربعة آلاف نفس أو يزيدون ، وهم أعيان البلاد وساداتها وحاشية الســلطان وأقاربه ومن رؤساء القبــائل ، فتفرقوا في البلاد بين عدن والمعلا ، وبير أحمــد ، والشــيخ عثمان ، والعماد ، وأبين ، وصهيب ، وتركوا أراضيهم وبيــوتهم وأموالهم ومواشــيهم ، واســتولى الأتراك على جميع ذلك ، وبحثوا عن الديون والرهون التي للمهاجرين عند الناس ، وطالبوا بها المراهنين والمدينين ، ونال أذى عظيم خلقا كثيرا لتهمتهم بأن لديهم أموالا أمانة أو ديونا لأحد المهاجرين » (٣) .

---

(١) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢٢١ .
(٢) Jacob, H.F. : op. cit., p. 169.
(٣) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

ثم يستطرد العبدلى قائلا : « وارتكب الأتراك كثيرا من أمثال هذه الجرائم فلم يتركوا من أموال المهاجرين من العبادل قطميرا بل مدوا أيديهم الى أموال الأهالى الذين بقوا تحت رحمتهم ، فكانوا يأمرون أحيانا بالقبض على بعض الاعيان وسجنه لمجرد تهمة فارغة توسلا للحصول على المال ثم يطلقونه ، فيعلنون فى جريدة صنعاء أن التاجر فلان تبرع بمبلغ كذا وكذا ألف ريال لمجاريح الجيش أو لبناء مستشفى أو غير ذلك ، كما فعلوا بسعيد على عون من أعيان نوبة عياض وبغيره أيضا ، والله يعلم أنهم انما أخذوا تلك الأموال قهرا لا تبرعا . ولما بلغهم أن الفقهاء ينكرون عليهم نهب أموال المسلمين استصدروا فتوى من شيخ الاسلام بالاستانة صرح لهم فيها باباحة أموال المهاجرين لأنهم فروا من بلاد المسلمين الى بلاد النصارى ، وبعبارة أخرى من منطقة الخوف الى منطقة الأمن . فقد تعجب الفقهاء فى اليمن من جرأة هذا الرجل على الدين ، وجاهر بعضهم بفساد هذه الفتوى اذ لم نسمع من قبل أن مفتيا يفتى باستحلال أموال المسلمين ودمائهم » (١) .

وبعد أن توفى السلطان على بن أحمد بن على بعد نقله الى عدن متأثرا بجراحه فقد خلفه ابن عمه السلطان عبد الكريم فضل بن على . وقد كان من أول أعمال السلطان الجديد أنه احتج احتجاجا شديدا على الحكومة البريطانية لأنها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين أجداده ، فلم تجد حكومة لندن مفرا من قبول هذا الاحتجاج ، وعزلت المقيم السياسى البريطانى فى عدن وقائد الحامية البريطانية فيها . وقد أقام السلطان عبد الكريم والأسرة المالكة اللحجية فى عدن مدة الحرب كلها وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه حكومة عدن لكل منهم ، بينما كانت أملاكهم وقصورهم وبلادهم فى حوزة الترك يتمتعون بها وبخيراتها (٢) .

وقد ذكر العبدلى أن الشيخ فضل بن عبد الله العقربى حاكم « بير أحمد » أراد أن يؤمن ناحيته من عدوان الترك ، وقد اتفق مع القائد العثمانى على سعيد باشا أن يتعهد له بالامامة مقابل رفع « الراية العثمانية » على حصن « بير أحمد » . وقد خفقت راية العثمانيين على دار الشيخ فضل أياما حتى رأتها الخيالة الهندية البريطانية فأنزلتها على الفور ، وجاءوا بالشيخ فضل الى عدن حيث احتج عليه حاكمها لموالاته للترك . غير أن البريطانيين أطلقوا سراح الشيخ فضل بعد ذلك لمقابلة السلطان عبد الكريم وكان منفعلا مدهوشا حائرا حيث التقى بالعبدلى وسأله الرأى فى هذه المحنة . وقد أوضح العبدلى أنه أجاب على الشيخ فضل بقوله : « هذه أيام محنتنا ، والصبر حكمة ، فللصبر عاقبة محمودة الأثر . جاء هؤلاء الأتراك من أعالى جبال اليمن متيقنين بعجزهم عن أن يمسوا عدن الحصينة بسوء فلا يقصدون غير أذيتنا فى بلادنا » (٣) . والعبدلى يشير فى

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .
(٣) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

قوله هذا الى أن الترك كانوا يقصــدون من زحفهم فى جنـوب اليمن احتلال لحج فقط ، وليس مهاجمة عدن التى كانوا يعلمون بقوة حصـانتها ، وبعدم مقـدرة قواتهم على اقتحامها ٠

على أن الشيخ فضل هذا عندما عاد الى « بير أحمد » فانه لم يسلم من عدوان الترك الذين أرسلوا اليه بلوكين من جنودهم وعددا من أعوانهم قادوه الى سجن لحج ، وأساءوا معاملته فى بادىء الأمر ثم أحسنوا المعاملة ، وقد بقى لديهم أسيرا حتى نهاية الحرب ٠ أما « بير أحمد » فقد ظلت مأوى لجواسيس الأتراك وطلائعهم فى فترة الحرب وذلك لقربها من المراكز البريطانية ٠ وقد دعا المقيم السياسى البريطانى فى عدن أهالى « بير أحمد » الى الاقامة فى عدن ، و « الشيخ عثمان » ، و « المعلا » ، بعد أن هدمت « بير أحمد » بناء على أوامره (١) وكان المقيم السياسى البريطانى فى عدن يهدف الى اجتذاب أهالى المنطقة الى جانب البريطانيين بعد أن تخلص من « بير أحمد » التى كانت وكرا لجواسيس الترك ومخابراتهم ٠

ويمكننا القول بان الفترة التى أعقبت سيطرة الأتراك العثمانيين على لحج واستيلائهم على مدينة الحوطة عقب معركة « الدكيم » فى اليوم الخامس من يوليو سنة ١٩١٥ لم تحدث فيها عمليات حربية حاسمة سوى بعض المعـــارك المحلية والغزوات الصغيرة ٠ فالترك لم يحاولوا من جانبهم مهاجمة « الشيخ عثمان » الا فى بداية زحفهم ثم خلدوا الى السكينة بعد أن صدهم البريطانيون عنها ، كما لم يحاولوا الهجوم على عدن لعلمهم بحصانتها ومنعتها ، ولأن البريطانيين كان يمكنهم الحصــول على الامدادات اللازمة عن طريق الأسطول البريطــانى المحاصر لسواحل اليمن فى ذلك الحين ٠

أما بالنسبة لموقف البريطانيين فى عدن حنيذاك فانهم لم يروا فى اخراج الترك من لحج فائدة حاسمة لهم فى الحرب العظمى ، وهذا ما أكده « البريجادير جنرال وليم والتون » Brigadier General William Walton قائد الجيش البريطانى فى عدن فى المنشور الذى أصدره فى مايو سنة ١٩١٦ ووزعه على جميع القبائل القاطنة جنــوبى اليمن لتهـدئة رجالها وترضيتهم ولتوضيح أسـباب تقـاعس البريطانيين عن مساعدتهم لصد الزحف التركى عن بلادهم ٠ فقد جاء فى هـذا المنشور الذى أورد العبدلى بعض مقتطفاته : « أنه ليس لضعفنا امتنعنا عن حرب الأتراك الذين فى لحج ، ولكن مملكة الدولة الانكليزية واسعة جدا ويلزمنا معاملة الميادين التى فيها العدو واحدا بعد الآخر بالتعاقب بحسب الخطط التى رسمتها الدولة ، فنحن قد استولينا على أرض الكمرون ، وعلى الجزائر الكائنة فى البحر الأوقيانوسى ، وعلى أفريقيا الجنوبية والغربية ، والآن نحارب الجرمن (الألمان) فى افريقيا الشرقية ، وعندما ينجز عملنا هناك ، وسينتهى فى مدة أشهر قليلة ،

---

(١) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ٠

بعد ذلك سيأتي الوقت الذى نفكر فيه بمصير الأتراك في أرض العرب ، وعلى كل حال فلا تكون الموقعة الفاصلة في أرض العرب بل هى في فرنسا » (١) .

كما أورد العبدلي تعليقا نشرته جريدة « الديلي تيمز » البريطانية في يومى ٢٥ ، ٢٦ يولية سنة ١٩١٧ تحت عنوان « أرض حماية لم تحم » وتقصد بها « النواحي التسع في جنوب اليمن » ، وقد شرحت الجريدة جواب «اللورد كرزون» على سؤال وجهه اليه « اللورد لمنجتن » في مجلس العموم البريطاني بشأن عدن على النحو التالي :

« ذكرت الرأى العام أن بندر عدن البحرى المهم الكائن على الطريق الرئيسية البحرية الى الهند واستراليا محصور بالأتراك من الجهة البرية من سنتين . قالت فلا يمكن أن يقال ان رواية حركاتنا العسكرية بقرب عدن أكسبت الجيش البريطاني شهرة أو مجدا ، بل بالعكس فانا دحرنا الى حصوننا حيث نقيم الآن ، تاركين جيشا ضعيفا يطوف في الأرض كيف شاء بين القبائل المشمولة بحماية عدن لأسباب عجزنا عن حمايتهم . فعلى سعيد باشا والى الأتراك في اليمن انحدر من الجبال في شهر يونية سنة ١٩١٥ وقاتل في لحج أقرب نقط الحماية لعدن جزءا من حامية عدن القليلة على مسافة خمسة وعشرين ميلا من حصن عدن ، فاندفعت قواتنا الى الوراء واستولى الأتراك على « الشيخ عثمان » الواقعة على مسافة سبعة أميال من حصن عدن . وفي تلك الأثناء قتل سلطان لحج الغيور على مصلحة الدولة البريطانية وتخرب جانب من عاصمته الصغيرة ، وبعد مدة قصيرة طردنا الأتراك من «الشيخ عثمان» الى مسافة في البر حيث جمعوا قواهم وتمسكوا بلحج واستداموا يحومون حول البندر » .

« ذكر اللورد كرزون في المجلس أن الأتراك قاموا في الستة أسابيع الماضية بغزوتين عقيمتين وأنهم لا يستطيعون أن يهددوا عدن تهديدا خطيرا وهى الآن آمنة مطمئنة ، وهذه هى الحقيقة » .

وقال ان غالبية القبائل الذين هم تحت الحماية لا يزالون مخلصين لجانب الدولة البريطانية ، فهذه المسألة هى موقع الاستفسار » .

« لماذا لا ينبغى لهم الأخلاص ؟ لأننا بموجب المعاهدات تعهدنا لهم بالحماية ولكنهم تركوا منذ سنتين تحت ضغط الأتراك ، نحن نحجم أن نشير بأى مظاهرة ثانية من جهة الشرق في هذا الوقت الضيق ، ولكن الحالة الحاضرة بعدن مخزية ومعيبة ، فالأتراك يسحبون لحانا حيث يشاءون ، وأصوات مدافعهم تسمع الى سطوح مراكب البريد ، في حال كون مخابرات على سعيد باشا مع دولته مقطوعة، ولا تصله ذخائر جديدة بسبب الثورة الحجازية ، فهلا يمكننا تمزيق جيشه

(١) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

والوفاء بمعاهداتنا مع القبائل . فلولا معارضة اللورد مورلى فى مد سكة حديدية ضيقة الى مسافة ستين ميلا فى بر عدن لأمكن منع العدو عن احتلال أرض الحماية » .

ويوضح هذا التعليق الذى نشرته « الديلى تيمز » أن قسما من الرأى العام البريطانى كان يشعر بالخزى والعار لتخلى قواته فى عدن عن حماية القبائل اليمنية فى النواحى التسع من عدوان الترك رغم المعاهدات التى تعهدت فيها بريطانيا بحمايتهم . كما يبدو من هذا التعليق أن ثمة دعوة قد وجدت فى ذلك الوقت لدى البريطانيين لاخراج قوات سعيد باشا من النواحى « المحمية » وخاصة من « لحج » وتمزيق جيشه والوفاء بمعاهداتنا مع القبائل « على حد التعبير الذى ورد بالتعليق المذكور . غير أن الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت لم تستجب لهذه الدعوة لعدم اقتناعها بجدوى بذل الجهود فى اخراج العثمانيين من تلك النواحى بالنسبة لترجيح كفتها فى الحرب الكبرى ، بل ان بريطانيا كانت تجد ميادين أخرى عديدة فى تلك الحرب كفيلة بتحقيق أهدافها بهزيمة الامبراطورية العثمانية نفسها وليس بهزيمة احدى حامياتها المعزولة فى أقصى الجنوب اليمنى على الساحل الشرقى للبحر الأحمر .

على أن تلك القوة العثمانية التى كان يقودها على سعيد باشا والتى نجحت فى السيطرة على لحج وكادت تطرق أبواب عدن ، كانت السياسة العثمانية تهدف من ورائها الى جانب اشغال البريطانيين فى جنوب اليمن عن الميادين الأخرى للحرب الكبرى ، الى ما هو أبعد من ذلك اذا تم النصر لألمانيا وحلفائها ، وذلك بأن تمتد يد الأتراك الى الصومال ومنطقة شرق افريقيا القريبة من الساحل اليمنى . غير أن على سعيد باشا كان مقتنعا بعدم كفاءة القوة العثمانية التى يقودها ، وعدم مقدرتها حتى على اقتحام عدن الحصينة . وكانت الأنباء ترد تباعا الى على سعيد باشا بهزيمة العثمانيين فى ميادين العراق والشام الى جانب اخفاق ألمانيا وحلفائها ، مما جعله يؤمن بسوء خاتمة دولته . وقد قال على سعيد باشا يوما لبعض أصدقائه بعد أن مضى عامان منذ بداية الحرب « انقطع الآن رجائى بنصر ألمانيا ، فقد وجدت بريطانيا المدة الكافية لأن تحشد جنودها فى ميادين فرنسا » (١) . وكان على سعيد باشا يرى الأمراض والحميات تفتك بجنوده فتكا ذريعا حتى أفنت منهم عددا عظيما وضاقت بهم المقابر اللحجية ، مما اضطر الترك الى تشييد مقابر جديدة لقتلاهم فى أنحاء البلاد ، وقد دفعته هذه الكوارث الى عدم التفكير فى مهاجمة عدن والقيام بمغامرة خاسرة فى ذلك الحين . هذا فى نفس الوقت الذى لم يجد فيه البريطانيون فى عدن امكانات كافية لديهم أو ضرورة ملحة تحتم عليهم بذل الجهود لاجلاء الأتراك عن لحج نظرا لاقتناعهم بأن

---

(١) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

ذلك العمل لن يحقق فائدة حاسمة لهم فى الحرب الكبرى حينذاك ، الأمر الذى كان يفوق من وجهة نظرهم وفاءهم بتعهداتهم بحماية النواحى التسع المجاورة لعدن ضد أى عدوان تتعرض له ٠

ـ موقف حكام النواحى اليمنية المجـــاورة لعدن بين البريطانيين والدولة العثمانية :

أشرنا فيما سبق الى المحاولات التى قامت بها الدولة العثمانية فى مطلع الحرب العالمية الأولى بعد انضمامها لدول وسـط أوربا لاجتذاب الأمراء العرب ليقفوا الى جانبها ضد بريطانيا وحلفائها ٠ وقد عرضنا تلك المحاولات التى تمت مع سلطان لحج على بن أحمد العبدلى ، وكانت قد تكررت أيضا مع بقيـة سلاطين ومشايخ النواحى المجاورة لعدن ، الذين كانوا مرتبطين مع بريطانيا بمعاهدات تحالف ، كما كانت تدفع لهم مرتبـــات شهرية ، وتبدى لهم مظاهر التبجيل والاحترام عندما كانوا يقومون بزيارة المقيم السياسى البريطانى فى عدن ٠ وفى نفس الوقت حاول البريطانيون فى عدن من جانبهم أن يجتذبوا اليهم سلاطين النواحى ومشايخها مؤكدين لهم خطأ دخول الدولة العثمانية تلك الحرب ضدهم ، كما حاولوا أن يقنعوهم بعدم وجود أية أغراض عدائية لدى بريطانيا ضد العرب٠ وقد أصدر البريطانيون منشورا دعائيا بهذا المعنى ــ سبق الاشارة اليه ــ ليؤكدوا احترامهم للأماكن الاسلامية المقدسة ٠ وكان لسلطان لحج دور كبير فى اقنـاع سلاطين النواحى ومشايخها بحسن نية بريطانيا خاصـــة وأنه كان يتمتع هو وأسرته بينهم بمكانة رفيعة وهيبة واحترام ٠ بل كان لصداقة سلطان لحج مع الامام يحيى أبلغ الأثر فى تحديد موقف الامام المهادن لبريطانيا ٠

وكان موقف بعض أهالى عدن من البريطانيين قد اتصف بالتأييد والمساعدة مما كان له أكبر الأثر فى نشر دعاياتهم فى النواحى المجاورة ، وتأييد كثير من مشايخها وسلاطينها للسياسة البريطانية ٠ وقد ذكر « جاكوب » أنه ليس أدل على ذلك من مهاجمة السيد عبد الله عيدروس قاضى عدن وشيخها الأكبر للدولة العثمانية عندما ذكر هذا السيد أن الدولة أقحمت نفسها فى حرب ضد بريطانيا التى وصفها بقوله « الصديق الحميم للمسلمين ، الصديق الذى طالما قدم المعونة للباب العالى » ٠ كما قال « جاكوب » ان السيد عبد الله عيدروس هذا قد أكد أن حكومة عدن البريطانية « أحسن وأعدل حكومة عملت من أجل الاسلام ٠ وأنهم (أى أهالى عدن اليمنيون) أصدقاؤها منذ احتلالها (أى احتلال بريطانيا) لعدن فى سنة ١٨٣٩ » (١) ٠

ومن الواضح أن التحيز للبريطانيين بارز للغاية فى رواية « جاكوب » هذه مما يجعلنا نميل الى القول بأن بعض أهالى عدن فقط هم الذين أيدو هذا الاتجاه

(1) Jacob, H.F. : op. cit., pp. 161-162.

ضد دولة الخلافة العثمانية ، وهؤلاء البعض ممن اتفقت مصالحهم الشخصية مع أهواء بريطـــانيا • ويؤكد ذلك أن بعض سلاطين النواحي الجنــوبية في اليمن ومشايخها سرعان ما غيروا موقفهم هذا من بريطانيا بعد أن دخلوا تحت طائلة الترك الذين جثمت قواتهم العثمانية فوق أراضيهم • بينما كان موقف البريطانيين متميعا سلبيا ، ولم يقدم لأهالى البلاد المساعدات اللازمة فى الوقت المناسب لصد هذا العدوان رغم اتفاقيات الحماية المعقودة بينهم•ولا شك أن بريطانيا قد فوجئت بالهجوم العثمانى على لحج بعد أن تعهدت لسلاطين النواحى بالحماية ، بينما لم تكن قواتها فى عدن تكفى للقيام بالتزاماتها ازاء تلك التعهدات • ولا أدل على عجز قوات بريطانيا عن الوفاء بالتزاماتها من ذلك الفشــل الذى واجهته فى « الشيخ عثمان » عندما تراجعت أمام القوات العثمانية ، ولم تتمكن من استرجاع « الشيخ عثمان » الا بعد أن وصلت اليها النجدة من خارج عدن •

وقد حاول البريطـانيون أن يبرروا عجزهم عنـدما ذكر قائدهم بأنهم لم يكونوا مهتمين بميدان « الجنوب العربى » لقلة تأثيره فى ترجيح كفتهم فى الحرب الكبرى ، وأنهم شغلوا بالميـادين الحربية الأخرى ذات الآثار الحاسمة فى تلك الحـرب • وقد رأى البريطانيون أن الميـــادين الصــغيرة يمكن أن يعالج أمرها فيما بعد ، ولا يجب أن تبذل فيها جهود لن تعود عليهم بفوائد كبيرة فى ذلك الوقت • وكان البريطانيون مطمئنين لعدم خطورة مثل هذه الميـادين الصغيرة لأنهم كانوا يسيطرون على البحار ، وخاصة البحر الأحمر وخليج عدن والخليج العربى ، كما كانوا واثقين من حصانة عدن وعدم مقدرة القوات العثمانية المهاجمة على اقتحامها • هذا فضلا عن أنهم رأوا العثمانيين فى اليمن وقد أصبحوا محصورين بين قوات بريطانيا وأسطولها من ناحيتى الجنوب والغرب وبين حلفائها فى الحجاز ونجد من ناحيتى الشمال والشرق • بل ان البريطانيين كانت لديهم الرغبة فى الاجهاز على قوة الترك المناوئة لهم فى جنوب اليمن ، غير أن انشغالهم فى ذلك الوقت أدى الى ارجاء تصفيتهم للنفوذ التركى فى المنطقة ، حتى يطمئنو أولا الى احراز النصر فى الميادين الحاسمة للحرب الكبرى ، مما يجعل هذه التصفية نتيجة حتمية لانتصار الحلفاء على تركيا ومن تحالفوا معها •

غير أن سلاطين النواحى الجنوبية المجاورة لعدن ومشايخها لم يكونوا جميعهم على علم كامل وفهم عميق لأبعاد الســياسة البريطانية ، وقد فوجئــوا بالترك يستولون على بلادهم ويسيطرون على مقدراتهم ، بينما رأوا بريطانيا تقف موقفا سلبيا متخاذلا متناسية تعهداتها لهم بالحماية والمساعدة • فكان طبيعيا أن يترتب على ذلك كما قال العبدلى أن « اضطر بعض أمراء المحميات مثــل الأمير نصر ، والأمير على بن مانع الحوشبى (١) إلى منافقة الأتراك والتحالف معهم وذلك عندما

(1) I.O., B. 216. Secret From Major General George Younghusband, K.C.I.F., C.B., Political Resident Aden, to the Secretary to Government of

خذلتهم بريطانيا ، وبقى الباقى على ولائه ، وخاصة أمير لحج » (١) . ولعل كل من بقى على ولائه للبريطانيين كان قد تمكن من الفرار من قبضة الترك أو كان بعيدا عن الوقوع تحت سيطرتهم ، أو لعله كان قد لجأ الى البريطانيين فى عدن يغرونه بالمشاهدات المالية وبالألقاب السامية ومظاهر الاحترام والتكريم ، وبمنحه الأمل فى استرداد بلاده بعد طرد الترك عندما تحين الفرص المناسبة ، الأمر الذى حدث فعلا مع سلطان لحج وأقاربه من أمراء العبادلة الذين لجأوا الى حلفائهم البريطانيين فى عدن .

ويبرر العبدلى موقف الأمير نصر وأمير الحواشب بقوله : « الذين قبلوا يد الأتراك كالأمير نصر وعلى مانع الحوشبى فانما أخذوا بالمثل ... يد لا تقدر تعصرها بوسها ... وقد كان الأمير نصر وعلى مانع الحوشبى يومئذ فى حالة لا يحسدان عليها ، وما عاونا الأتراك عن طيب خاطر وانما .. اذا عكرت العيش عصرت .. وبلا شك فقد نال الأمير نصر من الأتراك مشاق كبيرة ، ولكنه عندما يئس من مساعدة دولة بريطانيا ، وعرف أنه ترك للأعداء ، ألزمه الضعف بأن ينافق الأتراك ، الذين أظهروا أنفسهم فى بداية الأمر من خيار المسلمين ، وتحايلوا بالترغيب والترهيب على كثير من الناس حتى قضوا منهم وطرا . فلما طلب السلطان على مانع من على سعيد باشا (قائد القوات العثمانية) الوفاء بالوعد بخصوص أرض زايده أجابه بأنه قد تحقق لديه ثبوت ملكها للعبادلة وليس فى وسعه أن يملكها الحواشب ، فقنع السلطان على مانع من الغنيمة بالاياب » (٢) .

ومن الملاحظ أن العبدلى بعد أن برر موقف الأميرين اللذين انحازا الى جانب الترك عندما يئسا من حماية البريطانيين وقد تركوهما فريسة فى يد الأعداء ، فانه حاول أن يؤكد أن الترك ليسوا أفضل من البريطانيين وليسوا أوفى منهم فى الالتزام بالعهود ، عندما أوضح كيف تهرب على سعيد باشا من تعهده لسلطان الحواشب بتمليكه أرض « زايده » ، بحجة ملكيتها أصلا للعبادل الذين غنم الترك جميع أملاكهم بحق الفتح ، خاصة بعد أن لاذوا بالفرار ولجأوا الى حلفائهم البريطانيين فى عدن .

ولم يقتصر الأمر على هذين الأميرين بل ان السلطان الفضلى أذعن كذلك للترك وعاد الى لحج بعد أن رفض البريطانيون امداده بالسلاح ، كما فعلت ذلك أيضا عشيرة يافع . بل ان أمير الضالع هاجم البريطانيين بجرأة عندما رفضوا مساعدته لاسترداد بلاده ، وأعلن انضمامه للترك وأصدر منشورا فى ديسمبر سنة ١٩١٥ أوضح فيه أن « الحكومة (العثمانية) الاسلامية هى حكومته ، وأن

Bombay, Political Department, No. C. 694., Aden Residency to the 23ed September 1915, Enclosure No. 2. Memorandum on the Political policy of our Hineterland, By H.F. Jacob, Lieutenant-Colonel, First Assistant Resident, Aden, 9 September 1915, p. 5.

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق .

(٢) أحمد فضل العبدلى : نفس المصدر : ٢٣١ .

السلطان (العثمانى) هو خليفته وانه سيطيع من (كانت) طاعته من طاعة الله ورسوله » . وقد حاول على سعيد باشا أن يكافىء سلطان الحواشب على مانع بأن نصبه سلطانا على لحج ، ولكن الأخير آثر الرجوع الى عاصمته « المسيمير » دون أن يشترك مع الترك بدور معين . بينما أعلن زميله الأمير نصر أن مبدأه هو مسايرة الاتجاه السائد متمثلا بالمثل القائل « أينما دارت الزجاجة درنا معها » وكان ذلك نتيجة لاحساسه بوطأة الحكم التركى (١) ، وبعدم مقدرته على مواجهته والتصدى لمقاومته ، فلم يجد وسيلة أخرى سوى الاذعان والاستسلام .

ومن ناحية أخرى فان بعض السلاطين والشيوخ فى النواحى الجنوبية لليمن التى لم تخضع لسيطرة العثمانيين ، ظلوا على ولائهم للبريطانيين ، أمثال السلطان العوذلى الذى أبدى اعجابه بالمنشور الذى أصدرته حكومة عدن مظهرة احترامها للامام ، وقد أكد هذا السلطان أن البريطانيين هم أفضل الأصدقاء بالنسبة للعرب . ومن الواضح أن دعاية البريطانيين وأموالهم قد لعبت دورها فى اصدار مثل هذا التصريح . بل ان قاضى « بيحان » صرح فى المساجد والأسواق العامة بأن العرب جميعا يدينون لبريطانيا وأن الواجب عليهم تقديم المساعدات الممكنة للبريطانيين . كما بقيت قبائل كثيرة موالية لسلطان لحج المقيم فى عدن لدى حلفائه البريطانيين على الرغم من الدعايات التى كان يبثها الترك ، وتحايلهم بالترغيب والترهيب ، ومحاولاتهم الافادة من الرابطة الدينية لجذب القبائل اليمنية الى جانبهم . ومن بين هذه القبائل « يافع الموسطة » و « الضبى » و « العوالق » وقد ارسل شيوخها كتبا عديدة الى السلطان عبد الكريم فى عدن تعرض عليه كل امكاناتها للمساعدة فى طرد الترك من لحج ونواحيها . غير أن السلطان عبد الكريم لم يستطع القيام بأية محاولات لاجلاء الترك عن بلاده ، لأن حليفته بريطانيا كانت تحجم عن ذلك لانشغالها بالميادين ذات النتائج الحاسمة فى الحرب الكبرى على النحو الذى سبق أن أوضحناه .

وتجدر الاشارة الى أن الادريسى فى عسير ضايقه كثيرا انتصار الترك فى لحج لأنه كان يخشى أن يؤدى ذلك الى انتصارهم ورفع معنوياتهم فى الجبهة الشمالية فى اليمن حيث يقوم بدوره فى محاربتهم . وقد وصف موقف بريطانيا السلبى ازاء تحركات الترك ونجاحهم فى لحج بأنه تراخيا من جانب البريطانيين وليس ضعفا منهم ، فقد كان يعلم أن لديهم من القوة فى عدن ما يمكنهم من صد الترك ووقف تحركاتهم . بل ان شيخا «يافعيا» وجه النصح للبريطانيين بضرورة التحرك لاجبار الترك على الخروج من لحج حتى لا تفقد بريطانيا ثقة العرب فيها . هذا فضلا عن أن المبعوث المكى الذى قام بزيارة عدن فى نوفمبر سنة ١٩١٦ عبر عن ضيقه وأسفه لعدم قيام بريطانيا بالدفاع عن لحج ضد عدوان الترك ، والتمس

---

(١) Jacob, H.F. : op. cit., p. 170.

من البريطانيين أن يقوموا بعمل فعال لانقاذ لحج مما يجتذب اليهم قلوب العرب وتأييدهم ويشكل مواجهة ايجابية لمزاعم الدعاية التركية الألمانية (١) ، ولا شك أن هذا المبعوث كان يهدف بذلك الى خدمة الثورة العربية التى تزعمها الشريف حسين ضد الترك فى الحجاز ٠ وكانت هزيمة البريطانيين وسلبيتهم فى الدفاع عن المنـــاطق العربية التى تعهدوا بحمايتها كفيلة بأن تضعف ثقة العرب فى بريطـــانيا التى اعتمد الحسين على مساندتها له فى ثورته ٠ ولهذا كان الحسين بطبيعة الحال يخشى أن يؤدى فقدان الثقة فى بريطانيا الى عدم تأييد العرب لثورته ضد الدولة العثمانية . والى فقدان الأمل فى كسب أنصار جدد (٢) ، فى الوقت الذى كانت حملات الدعاية التركية الألمانية قد استغلت الموقف لصالحها ضـــد الحسين وبريطانيا أيما استغلال ٠

ـ تكريم البريطانيين لحلفائهم العبادلة حكام لحج اللاجئين اليهم فى عدن :

أشرنا فيما سبق الى أن السلطان عبد الكريم سلطان لحج قد خلف ابن عمه الراحل السلطان على بن أحمد الذى توفى متأثرا بجراحه بعد أن التجأ الى حلفائه البريطانيين فى عدن عقب اقتحام الترك لبلاده ٠ وقد أقام السلطان الجديد والأسرة الحاكمة اللحجية فى عدن مدة الحرب كلها ، وكانت السلطات البريطانية تدفع لكل منهم مرتبا كافيا لتغطية تكاليف معيشتهم(٣) ٠ وقد حرصت بريطانيا على ارضاء سلطان لحج واشعاره بالتكريم أثنـاء وجوده فى عدن ، وذلك لتحافظ على ولاء العبادلة واتباعهم فى نواحى اليمن الجنـــوبية المجاورة لعدن وحتى تحصـــل على مساندتهم دائما لها ضد النفوذ العثمانى المتحالف مع أعدائهم الألمان ٠

وقد أقام البريطانيون فى عـــدن فى سنة ١٩١٧ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٣٥ هـ) حفلا كبيرا دعى اليه عدد من العسكريين والمدنيين وقناصل الدول وأعيان عدن لتكريم السلطان عبد الكريم واهدائه « حسام الشرف » من « اللورد ويلنجتون » حاكم بومباى ٠ والقى « الجنرال ستيوارت General Stewart » المقيم الســـياسى البريطانى فى عدن كلمة أشاد فيها بالخـدمات الجليلة التى قدمتها للبريطانيين أسرة العبادلة خلال السبعين سنة الماضية وخص بالذكر السلطان فضل بن على ، والسلطان أحمد فضل ، والسلطان على بن أحمد بن على ، ثم السلطان عبد الكريم بن فضل بن على نفسه ٠ وقال عن السلطان عبد الكريم : « أن اعماله الشاقة فى مراسلاته مع أهل البر قد حفظت جدا مصالح كلا الطرفين

---

(١) Jacob, H.F. : op. cit., pp. 171-172.

(٢) I.O. B. 222, Secret Correspondence with the grand Sherif of Mecca. No. 5., Communication, unsigned and undated, handwriting of Sherif Abdulla, p. 2, No. 6, Shortened note taken by Messenger of a discourse by the Sherif of Mecca, which took place in privacy at night on the roof of his palace p. 3.

(٣) امين الريحانى : المصدر الســـابق ؛ ج ١ ، ص ٣٦٨ ٠

(يقصد العبادلة والبريطانيين) وقد أعاننا فى تشكيل شرذمة (يقصد مجموعات) من رجاله الذين هم الآن يشاركون فى العمل ضد العدو (يقصد الترك وحلفائهم الألمان) • وقبل أن يقدم « ستيوارت » الى السلطان عبد الكريم السيف المهدى اليه قال : « انى أنا وأسلافى وكل من انتلف مع عائلتكم الكريمة بهـذا المقام مرتاحون جدا لاقرار الامتيازات الممنوحة لجنابكم ، ونسأل الله أن يرينا عاجلا رجوعكم الى ممتلكاتكم (يقصد سلطنة لحج) التى سيكون غيابكم عنها مؤقتا » (١)•

وقد رأيت أن أورد فيما يلى نص الخطاب الذى ألقاه السلطان عبد الكريم سلطان لحج ــ ونشره العبدلى ــ ردا على « الجنرال ستيوارت » فى هذا الحفل الذى أقامه البريطانيون فى عدن لتكريمه ، نظرا لما فيه من توضيح لطبيعة العلاقات القائمة بينهما فى ذلك الحين • فقد قال السلطان عبد الكريم :

« أيها الجنرال ستيوارت ، والجنرال دولتن ، والكولونيل جيكب ، والضباط والأعيان الحاضرون • انى لا أدرى كيف أشكر سيادة والى بمبى اللورد ويلنجدن شكرا كافيا على اهدائه حسام الشرف الى ، بل على اظهار تحننه نحوى • وانى كذلك أظهر ثنائى لكم يا حضرة الجنرال ستيوارت على ذكركم بالاطناب الخـــدم الصادرة من أسلافى فى الماضى والعمل الحقير الذى صدر منى أثناء اقامتى الوقتية ها هنا (يقصد فى عدن) • فانى حقيقة مغمور بالاحسان الذى بذلتموه وأسلافكم وصديقى الكولونيل جيكب ، فالجميع قد قام بالممكن لتطييب خواطرنا فى ملجئنا وانى لم أتوقع مثل هذه الهدية الكريمة من الدولة (بريطانيا) مع أنه خطر ببالى أن أعمل القليل الذى فى استطاعتى عمله لمساعدة الدولة ، وأنه ليسوءنى جدا حالة كونى فى الحالة التى أنا فيها مبعد عن وطنى وعن قبائلى لست قادرا على القيــام بما هو فوق ذلك ، ولكنى أشعر بتســلية عظيمة لأن الدولة وجنابكم استحسنتم وفائى وان ذلك ارث ورثته عن عائلتى ، وانى أرجو بمعاونة الله الكريم أن أتمكن من اقامة البراهين الدائمة على الاخلاص الذاتى وانى لا أشك فى أن هذه الحرب الهائلة ستنتهى بالظفر لجلالة الملك الامبراطور (ملك انجلترا) وحلفائه الأبطال وأن الدول ذات المقاصد السيئة (يقصــــد الدولة العثمانية وحلفائها) ستنال العقاب الذى تستحقه ، وأشكر جميع الحاضرين لتشريفهم هذا المحفل » (٢) •

بل ان السلطان عبد الكريم سافر من عدن الى مصر فى سنة ١٩١٨ (جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ هـ) • فى الوقت الذى كانت فيه الحماية البريطانية مفروضة عليها وذلك بدعوة من « نائب ملك بريطانيا العظمى » الذى حضر الى مصر خصيصا من قبل ملك بريطانيا ليقلد رجال دولته وأصدقائها الأوسمة والنياشين • وقد

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ •

(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ •

رافق سلطان لحج أخوه الصنو محسن فضـل بن علي ، وابن عمه أحمـد منصر محسن ، والشيخ محمد فضل العزيبي ، والأمير صالح بن سعد بن سالم ، كما رافقهم « الميجور برنارد رايلي Bernard Reilly » ـ الذي أصبح مقيما سياسيا في عدن فيما بعد باعتباره نائبا عن السلطات البريطانية في عدن . وقد أقام السلطان عبد الكريم في مصر أياما محوطا بكل اكبار واكرام ، ودعي لمقابلة نائب ملك بريطانيا في دار النيابة البريطانية ، كما دعي مرة أخرى للاحتفال بتقليده نيشان امبراطورية الهند من الدرجة الثانية « K.C.I.E. » مع لقب « سير Sir » .

وقد أقيمت مأدبة تكريما للسلطان عبد الكريم في دار النيابة البريطانية بالقاهرة حضرها عظماء مصر وسلطانها أحمد فؤاد بن اسماعيل ، ورجال دولته ، ونائب ملك بريطانيا حينذاك و « الميجور جنرال استيوارت » المقيم السـياسي البريطاني في عدن و « الميجور رايلي » . كما قابل السلطان عبد الكريم السلطان أحمد فؤاد سلطان مصر في قصر عابدين حيث أكرم وفادته . وقد ذكر العبدلي انه أثناء تلك المقابلات أوضح السلطان عبد الكريم للمعتمد البريطاني وجوب ضم القسم الشافعي من اليمن الى القسم الزيدي تحت سيادة الامام يحيى ، وان بعض أولي الرأي من العرب والبريطانيين كانوا يميلون في ذلك الوقت الى عدم ضم القسم الشافعي من اليمن الى حكم امام صنعاء ، ويفضلون مساعدة الشوافع على الاستقلال التام عن السلطة الزيدية . وأضاف العبدلي قائلا ان السلطان عبد الكريم وأخوه الصنو محسن كانا من ألد خصوم هذه الفكرة احتفاظا بوحدة اليمن تحت سلطة واحدة ، هي سلطة امام صنعاء ، وانه لولا ما قاما به من الجهود الجدية لكان للشوافع دولة مستقلة داخل اليمن منفصلة عن حكم الامام يحيى بعـد جلاء العثمانيين عن البلاد في سنة ١٩١٨ (١) . ولعل هذا يوضح موقف سلاطين لحج من قضية الوحدة اليمنية ، تلك القضية التي ستثار عقب جلاء الترك عن اليمن في نهاية الحرب العالمية الأولى .

ـ موقف البريطانيين في عدن ازاء النشاط الايطالي في البحر الأحمر أثنـاء الحرب العـالمية الأولى :

يفيدنا كثيرا في هذا الصدد أن نستعرض فحوى الخطاب الذي أرسله « الميجور جنرال السير جورج يونجهازبند Major General Sir G.J. Younghusband » المقيم السـياسي البريطاني في عدن الى سكرتير حكومة الهنـد البريطانية في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٥ حول « السياسة البريطانية في اليمن » ، وفحوى المذكرتين المرفقتين بالخطاب واللتين كتبهما « الكولونيل جاكوب H.F. Jacob » المساعد الأول للمقيم السياسي البريطاني في عدن ، الأولى مؤرخة في ٨ سبتمبر

(١) أحمد فضل العبدلي : نفس المصدر ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ .

سنة ١٩١٥ وتدور حول قيام الايطاليين فى مقديشيو بتجنيد عساكر من شبه الجزيرة العربية ، أما المذكرة الثانية فهى مؤرخة فى ٩ سبتمبر سنة ١٩١٥ وتدور حول خطة البريطانيين السياسية فى المنطقة المحيطة بعدن (١) ·

فقد أوضح « يونجها سبند » فى خطابه ان مذكرتى « الكولونيل جاكوب » تتناولان عرض المسألة الايطالية فى نطاق تأثيرها على شبه الجزيرة العربية وعلى الأوضاع القائمة فى جنوبها وغربها عقب قيام الحرب الكبرى (الأولى) وخاصة فى سنة ١٩١٥ · وقال انه قد بدا له انه يوجد لدى بعض الجهات المختصة فى بريطانيا ريبة وشك ازاء النشاط الايطالى فى البحر الأحمر يكاد ينقلب الى غيرة من انتشار هذا النفوذ هناك · وقد اعتقدت بعض هذه الجهات ان النفوذ الايطالى يضعف النفوذ البريطانى ويلاحقه ، غير انه شخصيا لا يوافق على وجهة النظر هذه ، نظرا لأن ايطاليا تعرف مدى ضعفها فى منطقة البحر الأحمر بالمقارنة بقوة بريطانيا فى تلك المنطقة ، ولهذا فان الايطاليين يعملون يدا بيد مع البريطانيين لأنهم بدون المساعدات البريطانية سوف لا يكون لهم حول ولا قوة ·

وقال « يونجها سبند » ان السياسة البريطانية شجعت وساعدت ايطاليا فى منطقة البحر الأحمر باعتبارها دولة ضعيفة ، بينما تعتبر مثل تلك المساعدة وذلك التشجيع عملا يتصف بالحمق اذا ما تقدم لفرنسا أو لروسيا باعتبارهما قوتان عملاقتان · ولهذا يؤكد « يونجها سبند » ثقته فى الايطاليين ويناشدهم مشاركة البريطانيين فى تحمل عبء تسوية المشكلات المعقدة التى تنتظر وضع الحلول المناسبة لها على سواحل الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر ·

وأوضح « يونجها سبند » انه قد التقى بالضـــابط الايطالى « الكولونيل بودريرو Colonel Bodrero » وانه قد اهتم كثيرا بأن يتعرف منه على رأيه فى المقدرة القتالية للعرب الذين جندهم الايطاليون من محمية عدن والبلاد المجاورة ، وابدى اعجابه بهذا الضابط الايطالى الذى اســـتطاع ان يدرب هؤلاء الرجال بحيث اصبحوا جنودا اكفاء · واكد ان الضابط البريطانى يستطيع أن يحقق

---

(١) I.O., B. 216, Secret, British policy in the Yemen, Memoranda by Major-general Sir G.J. Younghusband, K.C.I.F., C.B., Political Resident, Aden. and Lieutenant — Colonel H.F. Jacob, First Assistant Resident, Aden. Received at India Office as enclosures in Aden Residency covering letter No. C. 695, Dated 23rd September 1915.

From Major General Sir George Younghusban, K.C.I.F., C.B., Political Resident, Aden, to the Secretary to Government of Bombay, Political Department, No. C. 694, Aden Residency 10th — 23rd September 1915. p. 1.

Enclosure No. 1, Memorandum on the employment by Italians at Mogadiscio of Askaris from Arabia, by H.F. Jacob, Lieutenant-Colonel, First Assistant Resident, Aden, 8th September 1915.

— Enclosure No. 2. Memorandum on the political policy of our Hinterland, By H.F. Jacob, Lieutenant-Colonel, First Assistant Resident, Aden, 9th September 1915.

نتيجة افضل بكثير فى هذا المجال لان « عبقريته » تتجلى فى ذلك · كما رأى ان الوقت حينذاك (فى سنة ١٩١٥) هو انسب وقت لمحاولة تنفيذ تلك التجربة ·

وقال « يونجها سبند » فى خطابه لحكومة بومباى انه يمكن البدء فى اختيار مائتين من رجال القبائل العربية المقاتلة ، على ان يركبوا الجمال ويدربوا للعمل كشافين مقاتلين · وتوقع إن يكون لهذه التجربة تأثير سياسى ممتاز · كما قال ايضا ان « الكولونيل بودريرو » قد اكد له ان هذا الفيلق ستكون له مقدرة قتالية لا شك فيها · واقترح « يونجها سبند » على حكومة بومباى تكليف الميجور جنرال اوتلى Major W.J. Ottly من طلائع فرقة السيخ الثالثة والعشرين البريطانية لتشكيل هذا الفيلق وتدريبه باعتباره من انسب الضباط الذين يمكنهم القيام بهذا العمل بكفاءة فائقة ·

وقد أرفق « الميجور جنرال السيرجورج يونجها سبند » المقيم السياسى البريطانى فى عدن بخطابه الى سكرتير حكومة الهند البريطانية مذكرتى « الكولونيل جاكوب » مساعدة الاول لتأكيد توصياته الى حكومته ·

وقد أشار « الكولونيل جاكوب » المساعد الاول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى مذكرته المؤرخة فى ٨ مارس سنة ١٩١٥ والتى دارت حول قيام الايطاليين فى مقديشيو بتجنيد عساكر من شبه الجزيرة العربية ، بانه قابل « الكولونيل بودرير Colonel Bodrero » فى اليوم الرابع من سبتمبر سنة ١٩١٥ وهو ضابط ايطالى يعمل فى مكتب المستعمرات الايطالى ويقوم بتدريب الجنود العرب الذين سمح له البريطانيون بتجنيدهم ، وكان يختارهم من محمية عدن ، فضلا عن المنطقة التى يحتلها الترك فى اليمن ·

وكان الايطاليون يجندون رجال القبائل الذين يختارونهم من المنطقة التى يحتلها الترك فى اليمن منذ وقت بعيد وان كانت تلك العملية قد توقفت مؤقتا اثناء الحرب الايطالية التركية · ورغم ان الايطاليين كلفوا هؤلاء الرجال بالعمل فى مستعمرة اريتريا وفى الصومال الايطالى غير انهم ارسلوهم ايضا الى طرابلس الغرب حيث قاتلوا بكفاءة ضد الاتراك والسنوسيين · وقد اكد « بودريرو » « لجاكوب » ان المقاتلين العرب الذين قام بتجنيدهم يفوقون فى كفاءتهم القتالية زملاءهم الاحباش الذين اختارهم من اسمرة وجندهم ردحا من الزمن · وقد قام الايطاليون بتجنيد ٦٠٠٠ ستة آلاف مقاتل عربى على نحو ما أوضحه «بودريرو» الذى ابدى دهشته وتعجبه من عدم قيام البريطانيين بتجنيد مقاتلين محليين من عدن حينذاك ·

وكان الايطاليون فى مقديشيو كما يقول « جاكوب » يمنحون كل مجند من هؤلاء ١٢ روبية لا غير يشترون منها ملابسهم ولا يحصلون على وجبات غذائية الا اذا توغلوا فى داخل البلاد حيث كانوا يعملون فى ازالة الغابات لشق الطرق·

وكان يسمح لهم بالعودة الى أوطانهم بعد عامين من الخدمة العسكرية · اما من يؤثرون منهم البقاء هناك فكان يسمح لهم بالاشـــتغال بالتجارة على انهم كانوا معرضين للاستدعاء للالتحاق بالقوات الاحتياطية الايطالية على ان يمنح كل منهم فى تلك الحالة ثلاث روبيات (١) وكان المجندون العرب يتزوجون من نســاء القبائل الصومالية نظرا لانه كان محتما عليهم ان يتركوا زوجاتهم فى الجزيرة العربية ·

وكان « الكولونيل بودريرو » ـ كما يقول جاكوب ـ يهتم برجاله اهتماما شخصيا ويختلط بهم دون قيود ، لانه كان يدرك اهمية الاتصالات الشخصية فى تنمية ولائهم حتى انه كان يفصل من يستبد من ضباطه فى معاملتهم حتى لا يتعرض نظام اشرافه « الابوى » للانهيار · كما انه كان يتبع نظاما معتدلا فى التأديب ولهذا فان الجلد كان محرما على حد قوله « فنحن لا نستعمله كما تفعلون أنتم (يقصد البريطانيين) » ·

وقد استفسر « جاكوب » من الكثيرين من المجندين العرب عن كيفية معاملة الطليان لهم فوجدهم راضين عن طريقة المعاملة لديهم · فالضابط الايطالى كان اكثر اتصالا برجاله من الضباط البريطانيين · وقال « جاكوب » ايضا انه رأى ضابطا ايطاليا فى الحبشة يبادل جنديا من الجالا الاحباش قبعته عندما تبين ان غطاء رأس الجندى لا يقيه من حرارة الشمس المحرقة ·

وبلغ تقدير هؤلاء المجندين « لبودريرو » الذى اكتسب شعبية هائلة أن دعى له المصلون فى احد مساجد مقديشيو بالتوفيق والحماية عندما غادر البلاد ليتقلد منصبه كقائد لاحدى الفرق الايطالية التى كانت تقاتل فى جبال الألب ضد القوات النمساوية · وقد حاول « بودريرو » ان يعلم رجاله المجندين من العرب اللغة الايطالية بما يعمق ولاءهم لايطاليا ، كما انه لم يكن يضيع اى وقت فى الاستعراضات العسكرية الرسمية · وكان تدريبهم على الاسلحة الصغيرة يتم فى حرص بالغ ، كما كان معظمهم مسلحين بالبنادق ·

وقال « جاكوب » فى مذكرته انه قد اورد تلك المقتطفات من حديثه مع الضابط الايطالى « بودريرو » ليؤكد ما اوضحته التقارير السابقة عن الطريقة الماكرة التى كانت تتبعها ايطاليا فى نشر نفوذها فى شبه الجزيرة العربية وعلى الساحل الشرقى للبحر الاحمر بوجه خاص · وكان اسلوبهم يقوم على « طلينة Italization » العـــديد من العـــرب تدريجيـــا فى تلك المنـــاطق · ولا يخفى انهم قاموا منذ أعوام قليلة خلت بالتعامل مباشرة مع سلطان الشحر والمكلا فى جنــوب الجزيرة العربية لكى ينشئوا جهازا للبرق « Marconi System » فى

---

(١) لم تشر الوثيقة الى ان هذا المبلغ كان يصرف يوميا أم شهريا ويرجح انه كان يصرف يوميا ·

المكلا · وقد أكد أحد قضاة تلك المدينة « لجاكوب » ان الطليان كانوا يفتشون المراكب الشراعية التى تحمل اعلاما عربية بحجة انها سفن عثمانية ــ اثناء حرب طرابلس الغرب ــ كأنه لا توجد سيادة عربية معترف بها هناك ·

وأوضح « جاكوب » فى مذكرته انه كان يعلم بان علاقة الايطاليين بالادريسى قد قطعت بعد عقدهم معاهدة الصلح مع الاتراك · ولهذا فان الادريسى اراد أن يحصل عن طريق البريطانيين على الاسلحة والذخائر الايطالية التى اعتاد رجاله استعمالها بكفاءة فائقة · ورأى « جاكوب » ان الايطاليين كانوا يهدفون الى بسط نفوذهم على سواحل اليمن المطلة على البحر الأحمر والمواجهة لمستعمرتهم اريتريا على الساحل الافريقى للبحر المذكور · ولهذا فقد اقترح على حكومته تدعيم النفوذ المادى والمعنوى للبريطانيين فى عدن ومنطقة البحر الاحمر حتى يمكن مواجهــة الأطماع الايطالية · وقال « جاكوب » ان فكرة استقلال شبه الجزيرة العربية يمكن آن تسبب متاعب كثيرة للبريطانيين فى عدن وللمصــالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر بوجه عام · فعلى الرغم من أن الحكم العثمانى للجزيرة قد ساءت أساليبه وأشاع الارهاب والرعب بين سكان الجزيرة ، فان انسحاب العثمانيين من هناك دون وجود ادارة حازمة مســتقرة سوف يؤدى الى زيادة سفك الدماء واشــاعة السلب والنهب بما يضر كثــيرا بالمصالح البريطانية فى عدن والبحر الأحمر حينذاك (١) ·

أما المذكرة الثانية التى كتبها « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن والتى أرسلت الى حكومة بومباى رفق كتاب المقيم السياسى « الميجور جنرال السير جورج يونجها سبند » فى ٢٣ سبتمبر ســـنة ١٩١٥ ، فقد تناولت تلك المذكرة عرضا للخطة السياسية للبريطانيين فى عدن والخاصة بالمناطق المحيطة بها فى جنوب اليمن أثناء الحرب الكبرى الأولى ، وهى مؤرخة فى ٩ سبتمبر سنة ١٩١٥ (٢) ·

اذ قال « جاكوب » فى تلك المذكرة انه فى حالة انسحاب الأتراك العثمانيين من اليمن فان الوجه الســـــياسى للمنطقة المحيطة بعدن سوف يتغير حتما تغيرا جذريا · اذ ان امام صنعاء سوف ينقل مركز قيادته الى الجنوب وتنشأ بذلك

---

(١) I.O., B. 216. Secret, From Major General Sir George Younghusband, K.C.I.F., C.B., Political Resident Aden, To the Secretary to Government of Bombay, Political Department No. C. 694, Aden Residency 10th—23rd September 1915. Enclosure No. 1. Memorandum on the employment by Italians at Mogadiscio of Askaris from Arabia by H.F. Jacob, Lieutenant Resident, Aden, 8th September 1915, pp. 2, 4.

(٢) I.O., B. 216, Secret, From Major General Sir George Younghusband, K.C.I.F. C.B., Political Resident, Aden, to the Secretary to Government of Bombay, Political Department, No. C. 694., Aden Residency 10th — 23rd September 1915, Enclosure No. 2. Memorandum on the Political Policy of our Hinterland, by H.F. Jacob, Lieutenant-Colonel, First Assistant Resident, Aden, 9th September 1915, pp. 4-7.

مصادمات بينه وبين نفوذ البريطانيين فى عدن وما حولها • وكان الامام يحيى يستفيد من قبل من وجود الترك فى اليمن ليرهب بهم القبائل القوية التى ستهاجم قواته اذا أصبح وحيدا فى ذلك الميدان ، بل انه كان يحصل من تلك القبائل الضرائب المختلفة مستندا الى وجود الترك كقوة رادعة هناك •

على أن الامام يحيى – كما يؤكد جاكوب – قد استاء كثيرا من سيطرة الترك على الحج التى كان يعتبرها حكرا له • وكان الامام قد عقد معاهدة سرية دفاعية هجومية مع السلطان أحمد فضل العبدلى • وفى نفس الوقت استاء الامام كثيرا من قصف البريطانيين لميناء « الشيخ سعيد » ، التى قال انها جزء من ممتلكاته القديمة ، وانه كان يطمع فى أن يستعيد حكمه وسيطرته على هذا الجزء الواقع فى أقصى جنوب غرب الجزيرة العربية •

وقد توقع «جاكوب» انه عند جلاء الترك عن اليمن فان الامام يحيى سيحاول أن يسيطر على المناطق التى كانوا يحتلونها هناك مما سيؤدى الى اصطدامه بالبريطـــانيين فى عدن • وسوف يحاول الامام أن يستقطب الى جانبه رؤساء القبائل المحيطة بعدن على وجه الخصوص • وسوف ينحاز هؤلاء الى جانب الامام يحيى اذا رأوا البريطانيين ملتزمين الصمت • وأكد « جاكوب » انه سيكون من العسير على البريطانيين أن يتملصوا من المعاهدات التى عقدوها مع تلك القبائل والتى كانت تقوم على محورين أولهما امتناع تلك القبائل عن التنازل عن أراضيها لأية قوة أجنبية ، وثانيهما السماح للبريطانيين بحرية الدخول فى أراضى تلك القبائل • وتوقع « جاكوب » ان القبائل سوف تلتزم بالمحور الأول لانها بذلك كانت تتلقى أموالا من البريطانيين نصت عليها تلك المعاهدات ، بينما يعتبر المحور الثانى مثيرا للسخرية • فقد كان العرب مسموحا لهم بدخول عدن والاقامة فيها مع تلقى الهدايا والهبات ، بينما كان دخول البريطانيين الى تلك المنـــاطق مثيرا للشكوك فى اعتزامهم ضمها الى منطقة نفوذهم والحاقها بعدن ، ولهذا كانوا يقابلون بالرفض والمعارضة • وقال « جاكوب » ان البريطانيين عليهم أن يتيحوا الفرصة لتلك القبائل ليتعرفوا على البريطانيين عن قرب ، ويوطدوا علاقتهم بهم •

ثم تحدث « الكولونيل جاكوب » فى مذكرته موضحا موقف البريطانيين فى عدن ازاء الادريسى فى عسير أثناء فترة الحرب الكبرى (الأولى) وعلاقة الادريسى بالامام يحيى تلك العلاقة التى تحولت من التحالف ، قبل اتفاق الصلح بين الامام يحيى والأتراك فى سنة ١٩١١ ، الى العداء السافر بعد عقد هذا الاتفاق أى بعد الحرب الايطالية العثمانية فى طرابلس الغرب • وأشار «جاكوب» الى أن التحالف بين الامام الزيدى والادريسى الشافعى السنى انما يؤكد ان المصلحة المشـتركة كانت تتغلب على الاختلافات المذهبية فى أحيان كثيرة ، وقال ان هـــذه الظاهرة يمكن للبريطانيين أن يستفيدوا منها عندما يوفقون بين المصالح المتصارعة لكل من الامام يحيى من جهة والادريسى من جهة أخرى بعد خروج الأتراك العثمانيين من

المنطقة المحيطة بعدن ومن الجزيرة العربية بوجه عام ٠ كما قال « جاكوب » أيضاً ان البريطانيين أوضحوا فى معاهداتهم التى عقدوها مع الادريسى انهم لا يرغبون فى ضم أراض جديدة الى منطقة نفوذهم فى جنوب غرب الجزيرة العربية ٠ ولكنه أوضح ان انتهاك الأتراك لحرمة الأراضى الخاضعة للحماية البريطانية وخاصة منطقة لحج القريبة من عدن يفرض على البريطانيين ضرورة اجراء بعض التعديلات فى سياستهم وبالتالى فى اتفاقياتهم السابقة ٠

وأشار « جاكوب » الى موقف ابن ناصر مقبل حاكم ماوية الذى كان يكره الأتراك والامام يحيى ، فى الوقت الذى لم يشعره البريطانيون بنواياهم فى اجتذابه الى جانبهم مما اضطره الى الانحياز الى جانب الأتراك على الرغم من انه لم يبد للبريطانيين أى مظهر من مظاهر العداء ، مما لا يجعلهم يتوقعون اثارة أى صدام معه فى حالة جلاء الأتراك عن اليمن ٠ وأوضح « جاكوب » ان منطقة ماوية منطقة خصبة وغنية شأنها فى ذلك شأن الحجرية التى كان يسودها نفوذ ابن ناصر مقبل ، بل ان نفوذه كان يمتد أيضا الى مرفأ « الشيخ سعيد » ٠ وكان الامام يحيى يتطلع الى بسط نفوذه على كل هذه المناطق ٠

وقال « جاكوب » فى مذكرته ان ممثل الادريسى قد استفسر من المقيم السياسى البريطانى فى عدن عن الأسباب التى تحول دون استيلاء البريطانيين على منطقة « الشيخ سعيد » ، وميناءى مخا والحديدة مما « سوف يقوى كفاحنا المشترك » على حد تعبيره ، خاصة وان الادريسى نفسه لن يعترض على ذلك نظرا لان تلك المناطق والموانى كانت فى حوزة الأتراك من جهة ، كما كان الامام يعتبر نفسه الوريث الشرعى لليمن بأكمله من جهة أخرى ٠

أما فيما يتعلق بالقبائل اليمنية الأخرى المجاورة لعدن والتى كانت تتقاضى مشاهرات من البريطانيين فى عدن فقد انضم بعضها أيضا الى جانب الترك وخاصة سلطان الحواشب الذى اقتحم الترك بلاده ولم يجد بدا من الانضمام اليهم ، بل انه ساعدهم أيضا فى هجومهم على لحج والسيطرة على أملاك جاره ومنافسه السلطان العبدلى ٠ ولهذا رأى «جاكوب» أن توضع أملاك الحوشبى بعد استعادتها تحت حكم السلطان العبدلى الذى بذل رجاله كل جهودهم لوقف زحف الأتراك على بلادهم والذين استقروا فى عدن بعد أن ضاعت ثرواتهم ٠

وتحدث « جاكوب » عن أهمية انشاء خط للسكك الحديدية فى المنطقة المحيطة بعدن فى جنوب اليمن وخاصة ما بين عدن ولحج ، من ناحية تسهيل توصيل المواد الغذائية الى عدن وربطها بالمناطق الداخلية ، فضلا عن ان أى مشروع لتزويد عدن بالمياه من تلك المناطق لن يتحقق له النجاح الا بانشاء هذا الخط الحديدى ٠ بل ان أهمية هذا الخط لها خطورتها من الناحية الاستراتيجية اذ لو كانت لدى البريطانيين فى عدن طرق ممهدة الى لحج أو خط حديدى لتفادى

البريطانيون الانهيار الذى حدث للحج بسيطرة الأتراك عليها فى سنة ١٩١٥ ٠
كما ان مشروع اقامة مستشفى أو مصحة للبريطانيين فى المناطق المرتفعة فى الداخل كان يمكن نجاحها اذا ما أنشىء خط للسكك الحديدية بين عدن وتلك المناطق ٠

وقد قدم « جاكوب » فى مذكرته عدة اقتراحات لتدعيم نفوذ البريطانيين فى عدن والمنطقة المحيطة بها ، فقد طلب زيادة المشاهرات التى تدفع لشيوخ القبائل لضمان استمرار ولائهم للبريطانيين هناك ٠ كما اقترح أيضا تجنيد رجال القبائل اليمنية لخدمة السلطات البريطانية فى عدن ٠ وقد استفسر « جاكوب » من بعض الذين جندهم الايطاليون عن سبب ذهابهم للعمل بعيدا فى مقديشيو ، فأجابوه لأن البريطانيين لم يطلبوا منهم ذلك وهم فى حاجة للحصول على أقواتهم٠ ولهذا اقترح « جاكوب » اختيار مائتين الى ثلاثمائة رجل على سبيل التجربة ، وقال ان رجال القبائل يتميزون بأنهم محاربون مهرة وان استخدامهم كمقاتلين يسرهم كثيرا ويرضيهم أيضا ، وأبدى ثقته فى ان هؤلاء سينضمون جماعات تحت اللواء البريطانى ٠

كما أبدى « جاكوب » أيضا فى مذكرته اقتراحا سبق أن قدمه من قبل فى سنة ١٩٠٦ غير أنه لم يلق اهتماما حينذاك ٠ وهو انشاء مدرسة لأبناء السلاطين والأمراء وشيوخ القبائل المحيطة بعدن على أن تنشر بينهم المثل البريطانية بذكاء بحيث يدينون بالولاء لبريطانيا منذ نعومة أظافرهم ٠ وقال « جاكوب » انه طالما ألقيت البذرة فانها ستنمو ٠ وأضاف الى ذلك قوله ان شبه الجزيرة العربية لن تبقى مستقلة وان ثمة قوة أوربية لابد وأن تسيطر عليها ، ولهذا فقد أوضح ان هذه القوة ينبغى أن تكون قوة البريطانيين التى أعجب الكثيرون من حكام المنطقة بسياستهم وأساليب ادارتهم المتمثلة فى عدن بطبيعة الحال ٠

كما أوصى « جاكوب » فى مذكرته بضرورة ايفاد بعثات طبية بريطانية الى عدن والمنطقة المحيطة بها والتى تحدث آثارا طيبة فى اجتذاب سكان المنطقة الى جانب البريطانيين ٠ وذكر « جاكوب » ان ارسال البعثات الطبية كان له أطيب الأثر فى بلاد الهند وانه يمكن تنفيذ ذلك فى المنطقة المحيطة بعدن ٠ وقال أيضا ان « الدكتور هاربور Dr. Harpur » أحد أعضاء « جمعية التبشير الكنسية Church Missionary Society » قد افتتح عيادة طبية فى الضالع شمالى عدن ، غير ان سلطات عدن استدعته من هناك حرصا عليه من عدوان الأتراك وكان أمير الضالع يعارض فى رحيله ٠ كما أشار « جاكوب » أيضا الى ان بعض الأطباء البريطانيين قد عملوا أيضا فى عدن و « الشيخ عثمان » وغيرها أمثال « الدكتور يونج Dr. Young » و « الدكتور ماك راى Dr. Mac Rae » اللذين كانت أعمالهما الانسانية ذات تأثير بالغ فى نشر « الرنين » البريطانى فى المنطقة ٠

وأخيرا أوضح « جاكوب » فى مذكرته ان لدى البريطانيين فى عدن مجال هام للغاية للعمل على نشر النفوذ البريطـانى فى البحر الأحمر وخليج عدن · وتساءل عن سبب عدم قيام البريطانيين بزيارة سواحل حضرموت خاصـة وان تلك المنطقة كانت مطمحا للباب العالى وللامام يحيى فى الآونة الأخيرة حينذاك (فى سبتمبر ١٩١٥) · كمـا ان نشاطهما قد ظهرت بوادره هنـاك · وأكد « جاكوب » ان عقل العربى يستقر فى بصره ، ولهذا فهو لا يستطيع أن يدرك وجود دولة ليست حاضرة أمام بصره ، مما يحتم على البريطانيين ضرورة تأكيد وجودهم فى تلك المنطقة ، خاصة وانه قد أشار الى احتمال توافر امكانات هائلة على ساحل حضرموت فى التعدين والنفط فضلا عن أهميته التجارية التى يجب أن تدفع البريطانيين الى العمل · وقال « جاكوب » ان المقيم السياسى البريطانى فى عدن متنبه لهـذه الأمور وانه حاول زيارة حضرموت غير ان زيارته أرجئت للضرورة أثناء الحرب القائمة حينذاك ويقصد بها الحرب العالمية الأولى بطبيعة الحـال ·

ومن هنا يتضح لنا ان البريطانيين فى عدن كانوا يتتبعون باهتمام بالغ نشاط القوى المعادية والصديقة فى منطقة البحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما يتضح ذلك من خطابات ومذكرات وتقارير المقيم السياسى البريطانى فى عدن ومساعديه وكبار الضباط والمسئولين فى مختلف المجالات هناك·وكانت السلطات البريطانية فى عدن ترفع توصياتها الى حكومة الهند البريطانية وتبدى اقتراحاتها المتعلقة برعاية المصالح البريطانية فى عدن ومنطقة البحر الأحمر بوجه عام · وبناء على المعلومات التى تضـمها تلك الخطابات والمذكرات والتقارير المختلفة ، كان البريطانيون يرسـمون سياستهم واستراتيجيتهم لمواجهـة كافة الاحتمالات المتوقعة ، بالاضافة الى الخطوات الايجابية التى يخطونها على طريق تحقيق مصالحهم فى عدن ومنطقة البحر الأحمر على السواء ·

ـ استراتيجية البريطـانيين فى عدن ومنطقة البحر الأحمر فى مطلع الحـرب العالمية الأولى :

حددت السلطات البريطانية فى عدن فى مطلع الحرب العالمية الأولى معالم الاستراتيجية التى وضعت على أساسها الخطة العامة لتحركات البوارج والزوارق البحرية البريطانية لتقوم بمهامها فى حراسة السفن البريطانية وسفن الحلفاء أثناء مرورها عبر البحر الأحمر من جهة ، وفرض حصار بحرى محكم حول الموانى التابعة للأتراك العثمانيين فى البحر المذكور من جهة أخرى ، هذا فضلا عن رعاية المصالح البريطانية ومصالح حلفاء بريطـانيا مع القوى المحلية التى استقطبها البريطانيون الى جانبهم فى منطقة البحر الأحمر على نحو ما حدث مع الادريسى

فى عسير فى مطلع تلك الحرب ، ومع الشريف حسين فى الحجاز عقب قيامه بثورته ضد الترك فى سنة ١٩١٦ ٠

وتوضح المذكرة التى رفعها « البريجادير جنرال برايس C.H.U. Price » المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى حكومة الهند البريطانية فى اليوم السابع والعشرين من يناير سنة ١٩١٦ معالم الاستراتيجية البريطانية فى عدن ومنطقة البحر الأحمر والخطوط العريضة لهذه الخطة وذلك على النحو التالى :

أولا ـ فرض حصار بحرى حول الموانى التابعة للسلطات العثمانية فى البحر الأحمر ومنع وصول أية امدادات وتموينات اليها أو خروجها منها ٠

ثانيا ـ العمل على تسهيل مرور السفن البريطانية وسفن الحلفاء عبر البحر الأحمر وحمايتها من أية أخطار ٠

ثالثا ـ ضمان حماية السفن التابعة للادريسى حليف البريطانيين والمحافظة على فتح موانيه ـ وخاصة ميناء ميدى ـ لاستقبال الامدادات والمؤن والتجارة، وتسيير سفنه بين تلك الموانى وحمايتها من أية أخطار ٠

رابعا ـ تأمين الملاحة البحرية للسفن الفرنسية فى البحر الأحمر وخاصة بين ميناءى جيبوتى وأوبوك وبين ميناء عدن ٠

خامسا ـ تأمين الملاحة البحرية للسفن الايطالية فى البحر الأحمر وخاصة بين ميناءى عصب ومصوع وبين ميناء عدن ٠

كما أشار « البريجادير برايس » فى مذكرته الى حكومة الهند البريطانية الى انه قد تم بالفعل تنفيذ هذه الخطة البحرية البريطانية ، بحيث أغلقت جميع الموانى العربية المطلة على الجزء الجنوبى من البحر الأحمر والتى كانت خاضعة للسلطات العثمانية ، مع مراعاة عدة اعتبارات تتعلق بمصالح البريطانيين وحلفائهم أهمها :

أولا ـ يسمح بنقل المسافرين والبضائع فيما بين ميناء عدن وجزيرتى بريم وكمران وبين ميناء ميدى التابع للادريسى فى عسير وبالعكس بواسطة بواخر « كواسجى ودنشو Cowasjec and Dinshaw » وليس بأية وسيلة أخرى ٠

ثانيا ـ يسمح بنقل المسافرين والبضائع بين موانى جيبوتى وعصب ومصوع فى غربى البحر الأحمر وبين ميناءى ميدى وعدن فى شرق البحر المذكور بواسطة السفن الشراعية الفرنسية والايطالية ٠

ثالثا ـ يسمح بالتبادل التجارى بين موانى الادريسى الواقعة بين « خور البيرق » و « حابل بواسطة السفن الشراعية التابعة للأدارسة وليس بأية وسيلة أخرى ٠ على أن يزود قادة تلك السفن وملاحوها من العاملين بالموانى التابعة

للادريسى بتراخيص وشهادات واعلام تسهل مهمتهم ، وعلى أن يتم أسر أية سفينة بطاقمها وركابها وحمولتها اذا لم تلتزم بتلك القواعد ٠

رابعا ـ يسمح لكل الموانى الواقعة بين « خور البيرق » و « حابل » الواقعة شرقى البحر الأحمر والتابعة للادريسى باستقبال المتاجر المحمولة بواسطة السفن الشراعية والتى تأتى من منطقة حراسة الجزء الشمالى من البحر الأحمر بما فيها ميناء جدة ، على أن تزود تلك السفن بتراخيص وشهادات واعلام من السلطات البريطانية فى عدن حتى لا تتعرض للأسر (١) ٠

وهكذا اقتضت استراتيجية البريطانيين فى عدن والبحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى فرض حصار بحرى محكم حول الموانى التابعة للعثمانيين والحيلولة دون وصول أية امدادات أو تموينات اليهم ٠ كما اقتضت هذه الاستراتيجية أيضا حماية السفن البريطانية وسفن الحلفاء الفرنسيين والايطاليين، فضلا عن السفن التابعة للادريسى التى حرص البريطانيون على ضمان استمرار تسييرها وسلامتها حتى تظل موانيه مفتوحة لاستقبال الامدادات والتموينات كما يستمر نشاطها التجارى على ماهو عليه بكل ما يحدثه ذلك من انتعاش مادى وسياسى له آثاره فى تعزيز مكانة حلفاء البريطانيين فى المنطقة ٠ وقد حرص البريطانيون كل الحرص على ربط الموانى التابعة للحلفاء على جانبى البحر الأحمر بميناء عدن الهام الذى يعتبر مركز تنفيذ هذه الاستراتيجية ومحورها الرئيسى ٠

ـ تطور العلاقات بين البريطانيين فى عدن والادريسى فى عسير أثناء الحرب العالمية الأولى :

يمكن تتبع تطور العلاقات بين البريطانيين فى عدن والادريسى فى عسير أثناء الحرب العالمية الأولى من خلال الخطاب المرسل من «البريجادير جنرال برايس» المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة بومباى فى ٢٧ يناير سنة١٩١٦ والذى يشير فيه الى زيارة الكولونيل جاكوب لمحمد الادريسى فى عسير ٠ وقد تمت هذه الزيارة فى اليوم السادس من الشهر المذكور ورافق « جاكوب » فيها عدد من ضباط عدن ، ورحب الادريسى بهم جميعا ترحيبا حارا وتبادل الآراء معهم مما جعل « برايس » على ثقة من نتائج تلك الزيارة التى وصفها حينذاك بانها « مثمرة » (٢) ٠

(١) I.O., No. 83, Policy of His Majesty's Ships in the Southern Red Sea Patrol, Memorandum by C.H.U. Price, Brigadier-General, Political Resident, Aden Residency, 27th January 1916, p. 1.

(٢) I.O., Secret, From Brigadier General C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident, Aden to the Secretary to Government, Political Department, Bombay, Uo. C. 80, Aden Residency, 27th January 1916, pp. 1, 2. Enclosure, Report of a Visit to the Idrissi Saiyid Muhammed Bin Ali Bin Muhammad Bin Ahmed at Jezan, By H.F. Jacob, Lieutenant Colonel, First Assistant Resident, Aden Residency, 17th January 1916, pp. 3.7.

وقال « برايس » أن الجانبين البريطـانى والادريسى قد بحثا مسألة نقل وتبادل التجارة بين موانى الادريسى وموانى الحجاز والتى تم تحت ستارها وصول بعض البضـــائع الى موانى الأتراك خلال العامين الأولين من سنى الحرب الكبرى (الأولى) مما شكل صعوبات جمة أمام السفن البريطانية التى كانت تقوم بأعمال الحراســـة وحماية سفن الحلفـاء فى البحر الأحمر · غير أن الادريسى أوضح « لجاكوب » أن وقف تبادل التجارة بين موانيه فى عسير وموانى الترك فى الحجاز كان يؤثر تأثيرا ضارا على مصالح شعبه نظرا لأن ذلك يحرمهم من مصدر للغلال تكون أسعارها فيه أرخص من الأسعار الموجودة فى أية مصادر أخرى · ولهـذا اقترح « برايس » على حكومة بومباى اغفال هذا الموضوع حتى لا يتعرض مركز الادريسى ازاء شعبه للحرج ويؤثر ذلك بالتالى على موقفه المعادى ازاء الأتراك حينذاك ·

كما أوضح « برايس » فى خطابه الى حكومة بومباى أن كميات الكيروسين التى كانت تصـــدر من عدن قد أنقصت أثناء الحرب مما جعل الادريسى يطلب بالحاح استمرار امداده بكميات الكيروسين المعتادة · واقترح « برايس » الموافقة على تلبية مطلبه لضمان استمرار ولائه للبريطانيين ·

وذكر « برايس » فى خطابه ان العرب يلقون اللوم على الأتراك نتيجـة للقيود المفروضة عليهم ، وان ذلك يتفق تماما مع المصالح البريطانية حيث أن ذلك يستثير الوقيعة بين الأهالى وبين الأتراك ، بينما يبعد الأهالى عن البريطانيين كل مسئولية ·

وقد اقترح « جاكوب » فى تقريره منح الادريسى وسام الفروسية البريطانى وذلك لضمان ولائه لبريطانيا ، غير أن « برايس » المقيم السياسى البريطانى فى عدن أشار الى أن ذلك الأمر سابق لأوانه · وقد أبدى الادريسى «لجاكوب» تقديره للقائد البريطانى « كراوفورد Commander Craufurd » على التعاون الذى أبداه لتوطيدعلاقته مع البريطانيين

وقد أبدى « برايس » فى ختام خطابه تقديره البالغ « للكولونيل جاكوب » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن نظرا لمقدرته الفائقة وبراعته النادرة فى تنفيذ مهمته لتوطيد العلاقات بين البريطانيين فى عدن والادريسى فى عسير ، خاصة وأن « جاكوب » كانت له خبرة ودراية بشئون المنطقة ، فضلا عن اتقانه للغة العربية مما ساعده كثيرا فى ادارة حوار مفيد أدى الى نجاح مهمته ·

أما عن التقرير الذى وضـعه « جاكوب » والخاص بزيارته للادريسى فى يناير سنة ١٩١٦ ـ والذى أرسله « البريجادير جنرال برايس » المقيم السياسى البريطانى فى عدن رفق خطابه فى اليوم السابع والعشرين من الشهر المذكور ـ فقد أوضـــح فيه « جاكوب » ان الادريسى حـرص على عـدم اظهار علاقته مع

البريطانيين والايطاليين لشعبه حتى لا يتأثر مركزه الدينى لدى اتباعه نتيجة لاتصاله وتحالفه مع غير المسلمين (١) .

وقد ناقش « جاكوب » مع الادريسى موضوع انتقال التجارة والمؤن من الموانى الادريسية الى موانى الحجاز التابعة للأتراك . وقد أكد الادريسى «لجاكوب» عدم وصول أية مؤن من مرافئه الى موانى الترك فى الحجاز وان كان قد اعترف بامكانية تهريب أية بضائع الى هناك ، ولهذا طلب الادريسى تشديد الحراسة من قبل السفن البريطانية لوقف عمليات التهريب المحتملة . وبالنسبة لاحتمال استخدام جزر فرسان كمخبأ للسفن التركية المعادية ، فقد أجاب الادريسى بأن هذا مستبعد لأن هذه الجزر لا ترسو بها سوى قوارب صيد اللؤلؤ التابعة له حينذاك .

على أن « جاكوب » قد أبدى فى تقريره اعتقاده الشخصى بأن وقف التجارة مع جدة اجراء غير سياسى لأن جدة ميناء عربى واسلامى بارز وأن محاصرته من شأنها اثارة مشاعر العرب والمسلمين ضد بريطانيا فى وقت تحتاج فيه الى كسب ودهم . كما أن حصار جدة من شأنه أن يحرم موانى الأدارسة من تجارتها المفتوحة على الهند والسودان وغيرهما ، فضلا عن أن ذلك يؤدى الى ارتفاع الأسعار مما يثير سخط الجميع على البريطانيين وهو أمر تحرص السياسة البريطانية على تلافيه .

وقد أكد الادريسى « لجاكوب » حرصه على عدم ارسال أية مؤن أو ذخائر الى الأتراك عبر بلاده ، وأنه تقع على زوارق الحراسة البريطانية فى البحر الأحمر مسئولية مراقبة السواحل للحيلولة دون وصول أية تموينات اليهم . كما وافق الادريسى على أن يحمل رجاله من العاملين فى السفن تراخيص وشهادات واعلام حتى تميزهم سفن وزوارق المراقبة البريطانية عن غيرهم .

وقال « جاكوب » فى تقريره انه قد تأثر غاية التأثر بمشاعر العداء التى يكنها الادريسى للأتراك وبعدم تصديقه لوعودهم . وقال الادريسى ان الرأى العام فى عسير كان متعاطفا معهم بوصفهم مسلمين غير أن تلك النظرة قد تغيرت بعد انضمام الترك لألمانيا « التى كانت تحارب من أجل التوسع » . وأوضح «جاكوب» أن الادريسى كان واثقا من أن الحلفاء سينتصرون فى المدى الطويل ، ولكنه كان يخشى أن يعقد صلحا يترك الأتراك مسيطرين على الممتلكات التى كانوا يحتلونها فى شبه الجزيرة العربية حينذاك .

---

(1) I.O., Secret, From Brigadier General C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident, Aden to the Secretary to Government, Political Department, Bombay, No C. 80., Aden Residency, 27th January 1916., pp. 1,2.
Enclosure, Report of a Visit to the Idrissi Saiyid Muhammad Bin Ahmed at Jezan, By H.F., Jacob, Lieutenant Colonel, First Assistant Resident, Aden Residency, 17th January 1916, pp. 3-7.

وقد استفسر « جاكوب » من الادريسى عما يفعله مع الأتراك على الحدود المباشرة بين عسير والحجاز · فاجاب الادريسى بانه يحتجز قوات العدو التى لولاه لوجهت الى لحج · غير أنه أبدى حاجته الماسة للمؤن والذخائر وأعطى عينات منها الى « الميجور برادشو » الذى رافق «جاكوب» فى تلك الزيارة · وأشار «جاكوب» الى ان المراكز التركية المواجهة للادريسى وخاصـــة فى « اللحية » كانت قوية التحصين مما يستلزم مساعدته وتدعيم قوته حتى لا يصبح هدفا لحركة انقضاض قوية من قبـل الأتراك الذين كان يسـاعدهم الامام يحيى بالمؤن والرجال على نحو ما أكده الادريسى ·

وقال « جاكوب » ان الادريسى أوضح له إن الكثيرين من الجنود العثمانيين يهربون من الخدمة ويلجأون اليه بعد أن يتسكعوا حول جيزان وميدى · وقد قدم الادريسى « لجاكوب » اثنين من هؤلاء أحدهما تركى والآخر عربى لترحيلهما الى عدن · كما عرض الادريسى على « جاكوب » صندوقا مملوءا بالديناميت وأكد له أنه نقل الى جيزان لتدمير داره هناك بتحريض من الأتراك ·

وأشار « جاكوب » فى تقريره أيضا الى أن الادريسى نشط الى حد بعيد فى استمالة رجال القبـائل حتى انه استقبل فى جيزان مائتى منـدوب عن قبائل عسير · كما انه حاول أن يتقرب الى القبائل اليمنية القوية من أمثال حاشـد وبكيل ، وانه كان فى امكانه اجتذاب هذه القبائل للانضمام الى جانب البريطانيين ضد الأتراك اذا منحوا مبالغ مالية هى فى حقيقة الأمر رشوة محضة ·

أما بالنسبة لموقف الادريسى ازاء الامام يحيى فى ذلك الحين فقد أوضح « جاكوب » انه قد تحول من التحالف ـ قبل اتفاق الامام مع الترك فى سنة ١٩١١ ـ الى العداء السافر بعد عقد هذا الاتفاق · ولهذا حاول الادريسى اجتذاب اتباع المذهب الاسماعيلى فى نجران الى جانبه باعتبارهم معادين مذهبيا للامام يحيى زعيم الزيديين · وأشار « جاكوب » الى أن جهود الادريسى حينذاك منصبة على العمل الدبلوماسى ، وانه ما لم يحصل على الأسلحة والذخائر اللازمة فانه لن يتمكن من القيام بعمل جرىء حاسم ضد الأتراك ·

واستفسر « جاكوب » من الادريسى عن رأيه فى الشريف حسين فى الحجاز فأجابه الادريسى بانه كان يتطلع الى معرفة اتجاهاته ازاء البريطـانيين غير أن الادريسى كان يبجل الشريف حسين ولكنه لم يكن يعرف ما يكنه ازاء الترك · بل انه كان يعتقد ان الشريف كان ضعيفا لا يستطيع أن يعادى الأتراك مما كان يجبره على اعلان صداقته لهم ·

وتحـدث « جاكوب » فى تقريره عن شخصـية الادريسى ومشاعره ازاء البريطانيين فقال انه كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، داكن البشرة ، لطيف المعشر ومهذب للغـاية · وكان حديثه عن الحكومة البريطـانية يتسم بالاكبار

والتقدير لمشاعرها ازاء المسلمين • وقال جاكوب أيضا انه قد بهره ذكاء الادريسى الحاد الذى تأثر بنشأته وتعليمه فى الأزهر كما لمس انه مرح وتقى وورع وأنه كان يقضى معظم وقته فى ممارسة الشعائر الدينية كأفضل ما يليق بمركزه كزعيم للطريقة الأحمدية • وأضاف « جاكوب » قائلا ان الادريسى كان لا يتنقل كثيرا فى وضح النهار ولكنه كان يمارس معظم أعماله ليلا •

واختتم « جاكوب » تقريره عن زيارته للادريسى بقوله انه سوف يوجز هذا التقرير المطول بالتأكيد على أهمية مساعدة الادريسى بشتى الوسائل الممكنة من أسلحة تمكنه من مواجهة الأتراك ، ومن أموال تساعده على تأليب القبائل عليهم، واعتقد « جاكوب » ان ذلك هو استثمار سليم • كما اقترح أن تمنح الحكومة البريطانية الادريسى وسام الفروسية أو تخلع عليه لقبا دينيا مناسبا ، حتى يكون هذا التقدير حافزا له على التفانى فى خدمة المصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر وعلى مقربة من عدن فى تلك الفترة الهامة أثناء الحرب (العالمية الأولى) •

ومما يزيد من توضيح تطور علاقة البريطانيين فى عدن بالادريسى فى عسير أثناء الحرب العالمية الأولى أيضا ذلك الخطاب الذى أرسله « البريجادير جنرال برايس C.H.U. Price » المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة الهند ـ القسم السياسى فى بومباى ـ فى اليوم التاسع والعشرين من يناير سنة ١٩١٦ أى فى أعقاب سقوط لحج فى أيدى القوات العثمانية • وقد أرفق «برايس» بخطابه صورة من خطاب آخر له كقائد عام للقوات البريطانية فى عدن الى رئيس هيئة الأركان العامة للقوات البريطانية فى الهند والمؤرخ فى ٢٠ يناير سنة ١٩١٦ والمتضمن تقريرا عسكريا قدمه « الميجور برادشو » ضابط الأركان العامة فى عدن الذى رافق « الكولونيل جاكوب » مساعد المقيم السياسى هناك فى زيارته الأخيرة للادريسى فى عسير والتى سبق أن عرضت نتائجها من خلال عرض تقرير « جاكوب » نفسه • فقد أشار « برايس » الى أن « برادشو » قد ذكر فى تقريره أن الادريسى قد أوضح للبريطانيين فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ كافة الترتيبات التى أعدها للاستيلاء على ميناء « اللحية » من القوات التركية المسيطرة عليه ، وان البريطانيين قدموا له المعونة البحرية لتحقيق هذا الهدف • غير ان الأتراك كانوا قد عززوا قواتهم هناك بقوات عربية وتركية مسلحة بالبنادق والذخائر تمكنت من السيطرة على المواقع الطبيعية ذات الأهمية الاستراتيجية فى الدفاع عن المدينة ، مما اضطر قواته الى التراجع عنها • وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كان يعمل فيه على كسب تأييد قبائل اليمن القوية لنفوذه السياسى وذلك بفضل المساعدات التى تلقاها من البريطانيين بموجب المعاهدة التى عقدها معهم فى ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥ ووفقا للسياسة التى اتبعها البريطانيون معه حينذاك •

وقد أكد « الميجور برادشو » ان الادريسى يعاون البريطانيين معاونة ملموسة فى اعاقة الترك عن الاتصال بالقبائل العربية وضمها الى جانبهم ، كما

قام بشغل الترك عن توجيه قوات أخرى الى لحج لتعزيز حاميتهم هناك . وقد وردت أنباء الى البريطانيين فى عدن تفيد بان كتيبتين عثمانيتين قد سحبتا مؤخرا من منطقة الحدود المواجهة لقوات الأدارسة فى شمال اليمن واتجهتا صوب لحج وقال « الميجور برادشو » ان الادريسى طلب بالحاح امداده بكميات من الذخيرة التى يمكنه استخدامها بواسطة البنادق الايطالية ، وكانت ايطاليا قد أبدت له عدم استطاعتها تزويده بالذخائر المطلوبة وهى من طراز « وترلى Weterli » ، ولهذا فانه لا يعلم من أين يأتى بمثل هذه الذخيرة اذا لم توفرها له ايطاليا والتى بدونها سيكون عدد هائل من أتباعه غير مسلحين وغير مؤثرين بالتالى فى المعارك الحربية التى كان عليه أن يخوضها ضد القوات العثمانية .

وقد تساءل « الميجور برادشو » عما اذا كان فى مقدور حكومة الهند البريطانية توفير كميات الذخيرة التى طلبها الادريسى بنوعياتها المختلفة . كما أوضح أن سلطات عدن زودت الادريسى بمليون طلقة من طراز « ليجرا Le Gra » منذ نشوب الحرب . غير انها تلقت رسالة منه يطلب فيها امداده بمليون طلقة أخرى بالاضافة الى ألف بندقية من نفس الطراز حتى يتمكن من تسليح قواته .

وقال « الميجور برادشو » فى تقريره الذى رفعه الى حكومة الهند البريطانية « البريجادير جنرال برايس » القائد العام للقوات البريطانية فى عدن ان الادريسى اتصل بالفرنسيين فى جيبوتى وطلب منهم تزويده بالبنادق والذخيرة اللازمة له ، غير انهم أبدوا عدم استطاعتهم مساعدته فى ذلك الحين . ولهذا فقد طلب « برايس » من وزير الدولة لحكومة الهند البريطانية القيام بالاتصالات اللازمة مع الحكومة الفرنسية لاجابة مطالب الادريسى . وعبر « برايس » عن رأيه فى ضرورة قيام بريطانيا بتزويد الادريسى بالأسلحة والذخائر اللازمة له وذلك نظرا لأن الدور المناط به القيام بتنفيذه ضد الترك حينذاك كان يستلزم تقديم تلك المساعدات اليه . وقد أحضر «الميجور برادشو» الى عدن عينات من قذائف المدافع التى طلبها الادريسى ، ولهذا فقد طلب « البريجادير جنرال برايس » افادته برقيا عن الجهة التى ينبغى أن يبعث اليها بتلك العينات من القذائف للاتفاق على كيفية استيرادها لتزويد قوات الادريسى بها .

وقد ذكر « البريجادير جنرال برايس » أن « الميجور برادشو » قد أوضح فى تقريره بيانا بامكانات الادريسى وأسلحته ، وجاء فى هذا البيان ان الادريسى كانت لديه حينذاك ثلاثة آلاف بندقية تركية من طراز « موزر Mauser » مع كمية ضئيلة جدا من ذخيرتها . ولهذا رأى « برايس » انه اذا كان قد أمكن الحصول على كمية من الذخيرة الحربية سبق الاستيلاء عليها فى جبهة العراق ، فانه يناشد حكومة الهند البريطانية أن ترسل كمية منها الى عدن للاحتفاظ بها والافادة منها وقت الحاجة لتدعيم حلفاء بريطانيا فى الجزيرة العربية ومنطقة البحر الأحمر بوجه عام أثناء الحرب الكبرى (الأولى) .

وجدير بالذكر ان « البريجادير جنرال برايس » المقيم السياسى البريطانى فى عدن قام من جانبه بارسال صورة من خطابه ـ المتضمن ذلك التقرير الهام الذى قدمه « الميجور برادشــو » ضابط الأركان العــامة فى عدن عقب زيارته للادريسى ـ الى كل من وزير الدولة لشئون الهنــد ، وسكرتير القسم الخارجى بدلهى ، بل المندوب السامى البريطانى بالقاهرة أيضا (١) • ولا شك ان ذلك يؤكد توفر عنصر التنسيق العسكرى بين مناطق نفوذ بريطانيا فى منطقة البحر الاحمر والهند والشرق بوجه عام ، وكانت عدن تمثل مركزا هاما من مراكز هذا التنسيق بطبيعة الحال •

أما بالنســـبة لتقرير « الميجور برادشو » ضابط الأركان العامة للقوات البريطانية فى عدن ، فقد أوضح فيه تفصيلات أخرى حول طبيعة الظروف المحيطة بالعلاقات البريطانية الادريسية فى تلك الفترة من الحرب الكبرى الاولى فى سنة ١٩١٦ بما يلقى كثيرا من الضوء على سياسة البريطانيين على الساحل الشرقى للبحر الاحمر بعد هجوم الترك وسيطرتهم على لحج •

فقد قال « براد شو » فى تقريره انه أثناء وجوده فى جيزان اجتمع مع الادريسى وتبين أن العمليات الحربية التى قام بها ضد الترك فى شمالى اليمن كانت تفتقد التنسيق السليم الى حد كبير • وقد بدا « لبرادشو » ان قــوات الادريسى لم تتعرض لمطاردة الاتراك والقبائل العربية المحالفة لهم عند تراجعها وتقهقرها من « جنده » و « وعيدات » فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ • كما بدا له ايضا أن الادريسى لم تكن لديه فكرة واضحة عن امكانات الترك وعدد لواءاتهم ووحداتهم العسكرية وانما كان يعتقد ان قوات الاتراك كانت تفوق قواته فى الرجال والعتاد وان له حينذاك حوالى ثلاثة آلاف مقاتل موزعين فى جهات مختلفة بالاراضى اليمنية • وقد تبين « برادشو » ان الاتراك لم يكن لديهم قائدا قويا فى اليمن وان « راغب بك قائدهم فى عسير كان ضعيفا ولا يخشى منه ابدا ، كما ان معظم الترك كانوا يعسكرون فى صنعاء وعلى مقربة منها بينما كان يشكل السوريون ٥٠٪ من اللواء العثمانى الموجود فى اليمن حينذاك •

كما تبين « برادشو » ايضا ان الجنود العرب فى الجيش العثمانى ساخطين على الترك نظرا لانهم لم يكونوا يتقاضون مرتباتهم بانتظام ، بينما كان يحصل الأتراك على كل شىء قبل أن يحصل العرب على حقوقهم مما جعل الجنود العرب يتوقون الى التخلص من نير الاتراك وظلمهم •

---

(١) I.O., Secret, From Brigadier — General C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident, Aden, to the Secretary to Government, Political Department, Bombay., No. C. 95. Aden Residency, 29th January 1916., p. 1.

— Enclosure No. 1, From Brigadier — General C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident and General Officer Commanding, Adent to the Chief of the General Staff, Army Headquarters, Delhi, India, No. 4657/55/G.O., Headquarters, Aden 29th January 1916, pp. 1-2.

وقد أكد « برادشو » ان الامام يحيى والقائد التركى فى « أبها » كانا يتراسلان بين الفينة والأخرى عن طريق رجال موثوق بهم ، مما يؤكد وجـــود تعاون بين الامام والاتراك ضد الادريسى حينذاك · وأوضح « برادشـــو » ان الانطباع العام لديه حينذاك يوحى (أى فى مطلع عام ١٩١٦) بأنه لا توجـــد أية تحركات على خطوط المواجهة مع الاتراك فى عسير ، ولكنه واثق تماما من عداء الادريسى للترك من جهة ، كما كان الادريسى يناصب الامام يحيى العـداء بعد ان عقد الاخير صلحا مع الاتراك فى سنة ١٩١١ من جهة أخرى · ولهذا فقد رأى « برادشو » ان عداء الادريسى للترك والامام يحيى يمكن ان يحقق فائدة للبريطانيين اذا ما احسنوا ·

وقال « برادشو » انه من خلال المعلومات التى تجمعت لديه يمكنه أن يؤكد وجود سبعة لواءات تركية محصورة فى مثلث تحده صنعاء شرقا ، والحـديدة غربا ، واللحية شـــمالا ، وهى مسلحة بعدد من المدافع والبنادق وكميـات من الذخيرة · وقد توقع « برادشو » أنه اذا ظل الادريسى على عدائه للترك وللامام يحيى ، فسوف تظل هذه اللواءات معسكرة فى شمالى اليمن ، وقد تتفرغ للاتجاه ناحية الجنوب الى لحج اذا عقد صلح بين هذه الأطراف ، مما يمكن أن يشكل خطرا على البريطانيين فى عدن فى ذلك الحين ·

وتوقع « برادشو » أن الادريسى لم يكن يعتزم حينذاك ــ أى فى مطلع عام ١٩١٦ القيام بأية عمليات أكثر من استعداده النسبى لمواجهة المفاجآت وما يمكن أن يسفر عنه الصراع الدائر بين القوى الكبرى فى الحرب · ويعزى ذلك الموقف السلبى نسبيا لسببين ، أولهما ان الادريسى لم يكن واثقا ممن سترجح كفته فى نهاية الحرب وهو لا يريد أن يورط نفسه قبل أن يتضح الموقف · وثانيهما أن الادريسى فى حقيقة الأمر لم يكن فى مركز يسمح له بالهجوم على الأتراك ويضمن الانتصار عليهم فى نفس الوقت · فهو على الرغم من توفر عدد كبير من البنادق لديه بالاضافة الى عدد من المدافع يساوى ما لدى الأتراك بل قد يفوق ما لديهم فى الجبهة الجنـــوبية المواجهة لعدن ، غـير أن ما كان لديه من قذائف للمدافع والبنادق الايطالية كان محدودا فضلا عن يأسه من امكانية حصوله على مزيد من تلك الأنواع من الذخيرة · وكان بحوزة الادريسى خمسة مدافع ايطالية اغتنمها من الأتراك ، كما كان لديه ما بين مائة ومائة وخمسين قذيفة لكل مدفع · وقد لمح الادريسى « لبرادشـــو » بأنه لا يمكنه أن يفعل شيئا بتلك الكمية من الأسلحة والذخيرة ، وانها تفى بالكاد لمواجهـة الأتراك حتى لا يخضـعوا لنفوذهم رجال القبائل الموالين له حينذاك ·

وقد أكد الادريسى « لبرادشو » أن الأتراك قد أخضعوا اليمن بمدافعهم ، وانهم كانوا أقل من العرب فى عدد حملة البنادق · غير أن « برادشو » لم يتوقع من الادريسى أن يقوم بأى عمل آخر مضاد للأتراك ما لم تكفل له بريطانيا تزويده

بالذخائر اللازمة للمدافع والبنادق ، على ان الادريسى كان يمكنه تعبئة ٣٢٠٠ مقاتل ، وان كانت الذخيرة الموجودة لديه كما يقول « برادشو » لا تكفى لتجهيزهم كاملا « خاصة وأن الاعراب كانوا على استعداد لتبديد الذخيرة باطلاق النار من قبيل تعبيرهم عن الفرح والسرور » ·

وقال « برادشو » فى تقريره ان الادريسى قد قرر ان لديه حوالى ألفين الى ثلاثة آلاف بندقية من طراز « موزر Mauser » كان قد استحوز عليها من القوات العثمانية· هذا بالاضافة الى أربعة آلاف بندقية من طراز «ليجرا Le Gras وقد توفرت لديه كمية من الذخيرة الخاصة بالطراز الأخير من البنادق · غير ان حيازة الادريسى لهذا الخليط غير المتجانس من البنادق المختلفة يظهر قلة تبصره بشئون الحرب · ولهذا فقد أوضح « برادشو » ان البريطانيين طالما كانوا عاجزين عن امداد الادريسى وتزويده بذخائر « ويترلى Wetcrli » الايطالية وبعدد كبير من البنادق التى « يمكننا تزويده بها » فان مركزه لابد أن يظل غير سليم ·

وأوضح « برادشو » ان قوات الادريسى فى مطلع عام ١٩١٦ كانت موزعة على جبهتين ، فثلث القوات والمدافع كانت مركزة على الحدود الشمالية ، بينما الثلثان الباقيان يعسكران على الحدود الجنوبية · ويرجح « برادشو » ان الادريسى اذا توفرت لديه ذخيرة المدافع التى يحتاج اليها فانه سيحاول أن يستعيد ما فقده من أراض في اتجاه أبها وقنفده · كما أوضح « برادشو » أيضا ان الادريسى كان على الرغم من عدم تمكنه حينذاك من القيام بأية أعمال حربية ضد الترك تتفق ومصالح البريطانيين ، فان مكانته العسكرية كحليف لبريطانيا ظلت على درجة كبيرة من الأهمية نظرا لعدائه للترك من جهة وللامام يحيى من جهة أخرى ·

على أن « برادشو » قد أكد فى نهاية تقريره — الذى أرسله « البريجادير جنرال برايس » المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة الهنـد والى رئيس هيئة الأركان العامة فى دلهى فى ٢٩ يناير سنة ١٩١٦ — الى انه لم يكن من الممكن حينذاك الاعتماد على الادريسى فى القيام بعمليات حربية تفرض على الأتراك المعسكرين فى لحج أن ينسحبوا عائدين الى الشـمال على مقربة من صنعاء عاصمة اليمن العثمانية · ولا شك ان السبب فى ذلك كان يرجع الى ان التهديد الذى كان يشكله الادريسى بالنسبة لهم غير كاف لتحقيق تلك الغاية ، مما يوضح أهمية قيام البريطانيين بتدعيمه عسكريا فى ذلك الحين ، وهو ما أوصى به « برادشو » وأكد عليه فى تقريره ، كما أكد هذه التوصية «البريجادير برايس» فى خطابه — الذى أرفق به التقرير المذكور — وأرسل الى هيئة الأركان البريطانية العامة فى دلهى (١) ·

(١) I.O., Secret, From Brigadier — General C.H.U. Price, C.B., D.S.O., Political Resident, Aden, to the Secretary to Government, Political Department, Bombay., No. C. 95. Aden Residency, 29th January 1916., p. 1. — Enclosure 2. Extract from a Report by Major C.R. Bradshaw, General Staff, Aden, Regarding the Idrissi, pp. 3-5.

ومن الواضح ان السـياسة البريطانية كانت تهـدف من وراء مساندة الادريسى ضد الترك فى شمال اليمن فى ذلك الحين الى اجبار الأتراك على سحب بعض قواتهم من لحج المواجهة لعدن حتى يتسنى للبريطانيين طردهم من هناك حفاظا على قاعدتهم الحيوية فى عدن التى كانوا يتحكمون بسيطرتهم عليها فى أهم طريق لمواصلاتهم الامبراطورية عبر البحر الأحمر ٠

ـ موقف البريطانيين فى عدن فى أعقاب سيطرة الترك على لحج :

يمكن التعرف على موقف البريطانيين فى عدن عقب سيطرة الترك على لحج من خلال الخطاب الذى أرسله « البريجادير جنرال وليم والتون William C. Walton » المقيم السياسى البريطانى بالنيابة فى عدن الى سكرتير حكومة الهند البريطانية فى ١٤ مارس سنة ١٩١٦ ٠ وقد طلب « والتون » من حكومة الهند البريطانية تعديل موقفها السلبى ازاء القبائل المحيطة بعـدن والقيـام ببعض الأعمال الاصلاحية فى عدن والمنطقة المحيطة بها حتى لا تقوم أية قوى أخرى منافسة بنيل قصب السبق فى هذا الميدان بما يؤثر بالتالى على مركز البريطانيين فى منطقة البحر الأحمر ٠

وقد أرفق « والتون » بخطابه لسكرتير حكومة الهند فى بومباى تقريرا مقدما من « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن والمؤرخ فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ وذلك لتدعيم وجهة نظره (١) ٠ وقد جاء بهذا التقرير أن هيبة البريطانيين ومركزهم فى عدن والمناطق المحيطة بها فى جنوب اليمن قد تدهورتا الى حد كبير منذ سيطر العثمانيون على لحج فى اليوم الرابع من يوليو سنة ١٩١٥ ٠

ورغم ان اليمنيين لا يحبون الأتراك الذين اتسم حكمهم بالصرامة والقسوة، كما انهم يتلقون معونات من قبل البريطانيين ويفضلون معاملتهم نسبيا عن معاملة الأتراك ، فانهم لم يكونوا على استعداد لأن يفرضـوا على أنفسهم تلقى أية امتيازات ومعونات يقدمها لهم الترك أيضا ٠ ولهذا فقد رأى « جاكوب » ان الأمر يستلزم القيام بعمل ايجابى لربط هذه القبائل بمصالح محددة مع البريطانيين فى عدن أثناء الحرب الكبرى ٠

وقد أورد « جاكوب » مثالا على ذلك عندما ذكر ان سلطان الحواشب الذى اخترق الأتراك بلاده ليسيطروا على لحج قد تحول عن محالفة البريطانيين وأصبح

---

(١) I.O., 1182/16, No. C. 273, Secret, From Brigadier-General William C. Walton, Acting Political Resident, Aden, to the Secretary to Government, Political Department, Bombay, 14th March 1916, p. 1.
— Enclosure, Present political situation in our Hinterland and beyond the Border, By H.F. Jacob, Lieut-Colonel, First Assistant Resident, Aden, 10th March 1916, p. 2.

تابعا حينذاك للأتراك • وهذا نفس ما حدث مع قبائل الصبيحى والعديد من القبائل الأخرى • بل ان الامير نصر أمير الضالع انضم كذلك الى جانب الأتراك وأصبح يتقاضى مرتبا منهم • كما ان بعض قرى الشعيرى وتل جحاف أصبحت تابعة للأتراك ، واضطر شيخ العلوى أن يذهب الى الترك فى لحج تحت ضغطهم عليه أيضا • بل ان كبير مشايخ ردفان محمد صالح القطيبى رغم اعلانه تبعيته للبريطانيين فى عدن فانه خشى من اغارة الأتراك على بلاده بعد أن رأى مصير المناطق المجاورة له مثل قرى الشعيرى والضالع ، ولهذا أرسل ابن شقيقه الى لحج للاتفاق مع الأتراك • كما ان سلطان الفضلى هو الآخر استجاب لاغراء الترك وخشى من سطوتهم بعد أن رأى ما حدث لجاره العبدلى فى لحج ، مما جعله ينضم اليهم ، واحتج البريطانيون على ذلك دون جدوى •

ويشير « جاكوب » فى تقريره الى ان المثل العربى القائل « ان عقل العربى فى بصره » أى ان ما يراه بعينيه هو الذى يقتنع به ويترك أعمق الأثر فى نفسه• ومن هنا يطالب « جاكوب » حكومة الهند البريطانية باتخاذ اجراءات حاسمة تكون لها آثار ملموسة وواضحة لاجتذاب القبائل المحيطة بعدن • كما أشار « جاكوب » الى ان قبائل يافع العليا لا يتقاضى زعماؤها مشاهرات من البريطانيين• ولهذا فقد كانوا مستائين لابعادهم عن الدائرة التى تضم أصدقاء بريطانيا الذين يتلقون مساعدات مالية مما جعلهم عرضة للميل ناحية الأتراك والانحياز الى جانبهم • أما بالنسبة لشريف بيحان فى شمالى اليمن فقد أوضح « جاكوب » انه كان يخشى من مؤامرات الامام يحيى فى صنعاء ضده ، خاصة انه كان على خلاف دائم مع المنافسين له من السادة الزيديين •

وأشار « جاكوب » فى تقريره الى ان الترك سيطروا على لحج ليؤكدوا لرجال القبائل اليمنية ان مصلحتهم فى الدفاع عن الاسلام تقتضى انضواءهم تحت قيادة الباب العالى لمحاربة بريطانيا ومحاصرة قواتها فى عدن • وكانت المنشورات المتتالية لأذهان العرب على انهم يجبرون اخوانهم فى الدين على محاربة دولة الخلافة ، وكان الترك يستشهدون فى هذا الصدد « بآيات من القرآن » •

كما قال « جاكوب » ان وجود « المستعمرات » العثمانية على مقربة من المناطق المحيطة بعدن كان له أسوأ الاثر على الحامية البريطانية المعسكرة فى عدن نفسها • واضاف « جاكوب » الى ذلك قوله ان الأتراك قد عجزوا عن كسب ولاء الكثيرين من قادة العرب البارزين الى صفهم مثل سلطان العوالق وسلطان العوضى • وقد رفضت يافع عروض الترك ، حتى اعتبرت ان فكرة « الجهاد » التى نادوا بها — كما يقول « جاكوب » — مدعاة للسخرية ، وأن كان البعض قد اعتقد أن موقف البريطانيين من ناحية اخرى اصبح اضعف مما كانوا يظنون • وعلى الرغم من ذلك فان وقوف بعض هؤلاء القادة العرب الى جانب الترك لم يعتبر

من وجهة النظر البريطانية ردة وانتكاسا ، لأنهم فعلوا ذلك تحت ضغط قوة الأتراك القاهرة حينذاك ٠

على أن البريطانيين فى عــدن ــ كما ذكر «جاكــوب » فى تقريره ــ عندما تبينوا استلام السلطان الفضلى لبعض الأموال من الأتراك نظير قيامه بتسهيل تدفق المؤن على لحج فان السلطات البريطانية فىعدن اضطرت ان تحرمه من المشاهرة وأن تفرض حصارا بحريا حول ميناء شقره الذى كان مدخلا لتجارة عدن الى مناطق الجزيرة العربية الشمالية والشرقية ، وأدى هذا الحصار الى اضعاف علاقات الصداقة البريطانية مع القبائل اليمنية ٠

وأضاف « جاكوب » الى ذلك قوله ان البريطانيين لكى يخففوا من شــعور العداء ازاءهم من قبل العرب اليمنيين فقد سمحوا بدخول بعض البضــائع الى ميناء شقره لتفى ببعض احتياجات القبائل ولوازمها ، وان كان حجم هذه البضائع تم تحديده حتى لا يتسرب الى الأتراك فى لحج ٠

ثم انتقل « جاكوب » بعد ذلك الى الحديث ــ فى تقريره ــ عن الادريسى فى المخلاف السليمانى وعسير بشمالى اليمن ٠ وقد قال عنه ان نشاطه أثناء الحرب الكبرى وحتى كتابة هذا التقرير ــ فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ ــ لم يكن ظاهرا بوضوح بسبب عدم توفر الذخيرة اللازمة للبنادق التى كان يستعملها جنوده ٠ غير ان هناك سببا أكبر وراء ذلك الموقف ، وهو أن الادريسى كان يترقب حركة البريطانيين العسكرية سواء فى اليمن أو فى الميادين الأخرى حتى يحقق مصالحه الشخصية من خلال القيام بالتحرك المناسب (١) ٠

وقال « جاكوب » فى تقريره أن الادريسى أبلغه فى جيزان بأنه واثق من نجاح البريطانيين فى الميادين الخارجية الأخرى ، ولكنه قد أبدى تخوفه من أن تترك الحامية العثمانية فى اليمن فى نهاية الحرب فتشكل بذلك شوكة مؤلمة فى ظهره كما تعوق تحركاته التوسعية لتدعيم سلطاته فى شمال اليمن ٠

أما بالنسبة لشريف مكة فقد أوضح « جاكوب » فى تقريره لحكومة الهند البريطانية فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ ، بأنه لايمكن اكتسابه الى جانب البريطانيين عن طريق زيادة حجم المؤن المرسلة الى ميناء جدة فقط ، بل انه ينبغى أيضا أن ينشط البريطانيون من جانبهم وفق برنامج محدد حتى يقف الى جانبهم ضــد الترك ٠ وأكد « جاكوب » أن الادريسى لا يثق فى شريف مكة ٠ كما أكد أيضا أنه يصعب عقد اتفاق بين الادريسى والامام يحيى وأنه من المستحيل حينذاك التوفيق بينهما لأسباب عديدة معروفة ٠ بل ان « جاكوب » قد أكد فى نفس الوقت أنه يصعب تكوين اتحاد عربى مضاد للأتراك فى ذلك الحين وذلك نظرا لأن

(١) I.O., 1182/16, No. C. 273. Ibid. and Enclosure, pp. 2,3.

« لكل رئيس عربى لعبته » • ولهذا أبدى « جاكوب » رأيه فى امكانية قيام هؤلاء الزعماء العرب كل على حدة بالثورة ضد الترك اذا أمكن مع وضع برنامج مقبول لكل منهم ، مؤكدا أن التوصل الى تحقيق ذلك يعتبر أمرا حيويا بالغ الأهميـة لتعزيز موقف البريطانيين فى منطقة البحر الأحمر أثناء الحرب الكبرى •

وفيما يتعلق بامام صنعاء فقد أوضـــح « جاكوب » أنه لن ينحاز انحيازا واضحا الى جانب الأتراك ، وان كان يقوم بتزويد قواتهم ببعض المؤن والأغذية• وأكد « جاكوب » تطلعات الامام يحيى للسيطرة على جميع أجزاء اليمن ، ولهـذا فقد ظل على اتصال دائم مع قبائل يافع والبيضا وبيحان ومأرب وغيرها ، كما كان على صلة بجميع القبائل اليمنية التى أصبحت تحت الحماية البريطانية ، وخاصة مع سلطان لحج الراحل « السير أحمد بن فضـــل العبدلى » الذى عقد اتفاقية صداقة معه هذا على الرغم من أن تلك القبائل كانت شافعية المذهب ولم تكن متحمسة لمصـــادقة الامام الزيدى بطبيعـة الحال ، وان كانت كل أراضيها بالاضافة الى عدن نفسها تابعة لامام صنعاء قبيل ظهور حركات الانفصال فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى •

وقال « جاكوب » أن الامام يحيى والادريسى كانا صديقين قبل عقد صلح « دعان » بين الامام والأتراك العثمانيين فى سنة ١٩١١ ، وقد حاول البريطانيون التوفيق بين الجانبين فى مطلع عام ١٩١٤ تمهيدا لتكوين كتلة عربية داخل جزيرة العرب تكون محالفة لهم • غير أن الامام يحيى كان غاضبا من انحياز الادريسى الى الطليان ضد العثمانيين المسلمين وفى نفس الوقت لم يغتفر الادريسى للامام يحيى صداقته للترك ــ عدوهما المشترك فى الماضى ــ دون أن يستشيره فى ذلك • بل أن الامام يحيى تسلم من الأتراك أموالا ومعونات مكنته من اخماد تمرد قبيلتى حاشد وبكيل القويتين عليه ، مما أدى الى اتساع الهوة بينه وبين الادريسى •

وأكد « جاكوب » أن الامام يحيى كان يميل الى جانب البريطانيين وان كان ذلك قد أدى الى اثارة غضب الترك واستيائهم • وكان الامام يحيى يقدر ما أبداه البريطانيون من استعداد « لتلقينه صناعة البارود » ، غير أن السياسة التى التزموا بها والتى حرصت على تفادى أى تدخل فى شئون المنطقة التى كان يحكمها الأئمة هى التى حالت دون ذلك ، وخاصة فى تلك المرحلة الحاسمة من الحرب الكبرى • وأكد « جاكوب » أن الامام يحيى قد ضايقه كثيرا ضرب البريطانيين « للشيخ سعيد » بقنابلهم ، وهو نفس العمل الذى قام به البريطانيون فى ميناء اللحية مما أغضب الادريسى حينذاك •

وأوضح « جاكوب » طبيعة العلاقة القائمة بين الامام يحيى والادريسى قبيل قيام الحرب العالمية الأولى مباشرة عندما ذكر أنه تناقش مع أحد السادة اليمنيين فى سنة ١٩١٢ حول هذا الموضوع ، وقد أجابه هذا السيد بأن أى تقارب بين

الجانبين يعتبر فى حكم المستحيل نظرا لان كلا منهما « يرغب فى أن يكون على راس البيت » (١) أى أن تكون له السيادة على اليمن بأكمله · وأضاف هـذا السـيد مؤكدا أن اليمن طالما ظلت فريسـة للصراعات الدائرة بين الزيديين والشوافع وغيرهم فانها ستسقط فى النهاية فى أيدى البريطانيين · وعندما أكد « جاكوب » لهذا السيد أنه يستبعد قيام البريطانيين بأى توسع فى داخل اليمن انطلاقا من عدن ، فقد أجابه هذا السيد بقوله « اذا وضعت قطعة من الخبز فى فمك فانك لن تملك الا أن تأكلها » وكان يقصد بذلك ان اليمن كانت ستصبح لقمة سائغة للبريطانيين طالما ظلت منقسمة على نفسها ·

ثم أشار « جاكوب » فى تقريره الى أن الشيخ « ابن ناصر مقبل Ibn Nasir Mukbil » حاكم ماوية قد وقع اتفاقا مع البريطانيين فى بداية الحرب فى سنة ١٩١٤ ، ولهذا فانه تجنب الاشتراك مع الترك فى غزو لحج · وعندما كان الأتراك يضغطون عليه للاشتراك معهم فانه كان يدعى المرض ويتذرع بأسباب أخرى · وأكد « جاكوب » أن ابن ناصر شيخ ماوية كان يكره الترك كما كان يكره فى نفس الوقت الامام يحيى امام صنعاء ، لعلمه أن كلا منهما كان يرغب فى السيطرة على بلاده ·

وأخـيرا فقد أبدى « جاكوب » ــ فى تقريره المؤرخ فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ والذى أرسل لحكومة الهند البريطانية مرفقا بكتاب « البريجادير جنرال وليم والتون » المقيم السياسى البريطانى بالنيابة فى عدن والمؤرخ فى ١٤ مارس فى نفس السنة ــ تأكيده بان قيام البريطانيين فى عدن بضرب الاتراك المعسكرين امام « الشيخ عثمان » كان من شأنه أن يعرض سيطرة العثمانيين على اليمن بأكمله وعلى الحجاز أيضا لأشد الأخطار ، وأنه يمكن بعد ذلك لكل من الادريسى وشريف مكة أن ينحازا الى جانب بريطانيا ويحاربا الترك فى بلادهما · وستكون أهداف الادريسى من الاشتراك فى تلك الحرب مركزة فى طرد الأتراك من بلاده من جهة وحماية أطرافها من أطماع الامام يحيى من جهة أخرى · بينما ستكون أهداف شريف مكة منحصرة فى تخليص الحجاز من نفوذ الترك من ناحية ، وتأكيد مكانته الروحية من ناحية أخرى ·

واختتم « جاكوب » تقريره مؤكدا أن خلافة العثمانيين ومكانتهم يمكن النيل منها على مقربة من الأماكن المقدسة الاسـلامية حيث يستمد الترك مكانتهم فى العالم الاسلامى باشرافهم وحمايتهم لتلك المقدسات ، وهو يعنى بذلك قيـام البريطانيين بتشجيع الشريف حسين على الثورة ضد الأتراك فى الحجاز ·

على انه يمكننا التعرف على معالم الأوضاع القائمة فى عدن وما حولها أثناء العامين الأولين من سنى الحرب العالمية الأولى من خلال الخطاب السرى المرسل من.

(١) I.O. 1182/16, No. C. 273, op. cit., and enclosure, pp. 3, 4.

« البريجادير جنرال والتون W.C. Walton » القائد العام للقوات البريطانية فى عدن الى سكرتير حكومة الهند البريطانية فى ١٣ مايو سنة ١٩١٦ — والمبلغة صـورته الى رئيس الأركان العـامة البريطانى فى الهند من جهة والى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة من جهة أخرى فهو يوضح هذه المعالم وقد أرفق « والتـون » بخطابه هـذا مذكرتين أولاهما أعـدها « الكولونيـل ووهوب R.A. Wauhope» ضابط المخابرات السياسى والعسـكرى فى عـدن وتدور حول تحديد حدود محمية عدن البريطانية ، بينما أعد المذكرة الثانية «الكولونيل جاكوب H. Jacob » المسـاعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عـدن وتدور حول الأوضاع السياسية القائمة فى اليمن بوجه عام وفى عدن بوجه خاص فى مطلع الحرب العالمية الأولى (١) ·

وقد قدم « والتون » فى خطابه عدة اقتراحات لتدعيم مركز البريطانيين فى عدن والمنطقة المحيطة بها على النحو التالى :

أولا — تدعيم حامية عدن البريطانية والاحتفاظ بقوة كافية فى قرية « الشيخ عثمان » الواقعة شمالى عدن ·

ثانيا — الزحف على لحج والسيطرة على المراكز المتحكمة فى ممر « تيبان » لتأمين الطريق الحربى المتجه شمالا من عدن ·

ثالثا — احتلال مدينة « الضالع » واسـتعادة خط الحـدود القديمة لمحمية عدن البريطانية ·

رابعا — احتلال « تعز » وفرض الحماية البريطانية على كل الركن الجنوبى الغربى لليمن ، مع وضع خط جديد للحدود التى يمكن الدفاع عنها استراتيجيا وسياسيا (٢) ·

ومع التوصية بالأخذ بأى من هذه الاقتراحات أو بها كلها فقد أكد «والتون» أهمية احتلال البريطانيين لمنطقة « الشيخ سعيد » الواقعة عند الطرف الجنوبى الغربى لليمن المواجه لجزيرة بريم المتحكمة فى مضيق باب المندب حيث المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ·

---

(١) I.O., Secret, the Aden Protectorate, Letter from General Officer Commanding W.C. Walton, Aden, to the Secretary to the Government of India, Foreign Department, dated 13th May 1916. pp. 1-4.
Enclosure No. 1, The Bountiary of the Aden Protectorate, Note by Colonel R.A. Wauhope R.E., C.B., C.M.G., Political and Military Intelligenece Officer, Aden, pp. 5-7.
Enclosure 2., A Political Policy in our Hinterland. Note by Lieutenant Colonel H.F. Jacob. First Assistant Resident, Aden Residency 10th May 1916., pp. 8-11

(٢) I.O., Secret, The Aden Protectorate, Letter from general Officer Commanding W.C. Walton, Aden, to the Secretary to the government of India, Foreign Department, dated 13th May 1916., p. 1.

كما أشار « والتون » الى أنه من المستحيل عمليا النظر الى عدن على أنها مركزا منفصلا عن الداخل ، وان كان ذلك من شأنه أن يوقع البريطانيين فى تعقيدات خطيرة مع القوى المنافسة لهم حينذاك • وفى نفس الوقت أكد « والتون » أن قرية « الشيخ عثمان » لا تشكل موقعا دفاعيا طبيعيا ، ولا تعطى مجالا فسيحا لاجراء أية عمليات عسكرية ذات أهمية • بينما تتيح لحج لأية قوات متمركزة فيها فرصة أفضل ومدى أبعد للعمليات الدفاعية عن عدن من ناحية الشمال ، هذا فى الوقت الذى تشكل فيه لحج مصدر خطورة كبيرة اذا تجمعت فيها قوى معادية تجهز نفسها للانقضاض على عدن • ويزداد الأمر خطورة اذا تحالف امام صنعاء مع الأتراك بهدف مهاجمة البريطانيين فى عدن وانتزاعها من أيديهم •

وذكر « والتون » فى خطابه لسكرتير حكومة الهند البريطانية أن الأتراك يعتمدون فى حياتهم فى اليمن على الأراضى اليمنية وانتاجها الزراعى مما يفرض عليهم ضرورة المحافظة على سيطرتهم على لحج وماوية وتعز والضالع وكلها تعتبر فى نفس الوقت مراكز تجارية هامة الى جانب كونها مراكز زراعية •

كما أشار « والتون » الى أن « نوبة دكيم » التى تبعد ميلين ونصف الميل جنوبى « طنان » تعتبر منطقة غير صحية للغاية فى لحج كما تنتشر فيها الملاريا • بينما تعتبر قرية « العند » أفضل من « نوبة دكيم » من الناحية الصحية ، كما تتوفر فيها المياه العذبة ، مما جعل الترك يقيمون مستشفى عثمانى هناك ، كما توجد بها أرض مكشوفة تصلح لاقامة معسكر مناسب • ولمنطقة « العند » مزايا عديدة فهى تمثل الجزء الخصيب من لحج حيث يمكن الحصول منها على الخضروات المختلفة ، كما يمكن لمن يسيطر عليها أن يمنع أية قوات تهدف الى احتلال عدن من تحقيق أغراضها •واعتبر « والتون » أن السيطرة على « العند » هو أقل ما ينبغى على البريطانيين القيام به فى المنطقة حينذاك ، كما أنه يمثل بداية تحقيق مرحلة تقدم يمكن تدعيمها والاستفادة منها بمد خط للسكة الحديد من عدن نحو الداخل ، وتدريب القوات البريطانية فى المناطق المرتفعة نسبيا •

وقال « والتون » فى خطابه لسكرتير حكومة الهند البريطانية « اذا كان علينا أن نذهب الى أبعد من لحج فانه يصبح من الضرورى علينا النظر فى احتلال منطقة الشيخ سعيد الواقعة غربى عدن والتى تطل على مضيق باب المندب » (١)•
وكان يمر « بالشيخ سعيد » خط البرق التركى المتجه من صنعاء الى بريم •
ولا تتوافر « بالشيخ سعيد » ميناء طبيعية كما لا يوجد بها مركز تجارى طبيعى •
أما بالنسبة لمياه الشرب فانها تتوافر فى الشيخ سعيد وان كانت تميل الى الملوحة • وتحصل الحامية العثمانية الموجودة بالمنطقة على حاجتها من مياه الشرب من هناك وتنقل اليها على ظهور الدواب • ولا يحتمل بحكم طبيعة الأرض وجود

---

(1) I.O., The Aden Protectorate, op. cit., 13th May 1916., p. 2.

مجار للمياه الجوفية ، ولهذا فان احتلال هـــذه المنطقة يستلزم انشاء مكثفات للمياه هناك ٠

وأبرز « والتون » خطورة منطقة « الشيخ سعيد » الناتجة عن تحكمها فى مضيق باب المندب ، وهى بذلك اذا تعرضت لسيطرة أية قوى منافسة وحصنتها تحصينا قويا فلن يستطيع البريطانيون أن يحتفظوا بجزيرة بريم التى تعتبر « الشيخ سعيد » منطقة دفاع طبيعى عنها ٠ وسيكون من الصعب القيام بهجوم على « الشيخ سعيد » من جانب أكبر نظرا لندرة المياه فى الصحراء الواقعة الى الشمال الشرقى منها وفى الجهة الغربية من عدن ٠ وعندما تصـل سكة حديد الحجاز الى ينبع على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، فانها سوف تلتف حول قناة السويس ٠ ومن هنا ستزيد أهمية « الشيخ سعيد » مما يحتم على البريطانيين الا يسمحوا لأية قوة أجنبية باحتلالها ، ولهذا قال « والتون » ان الحكمة تقتضى أن نتأكد من ذلك قبل خروج الترك من هذه الحرب (العالمية الأولى) والا دخلنا فى جدل ومتاعب لا مبرر لها ٠

ويضيف « والتون » الى ما تقـدم قوله ان البريطـانيين اذا سيطروا على تعز فانه لن تكون هناك حاجة لديهم لوضع حامية بريطانية فى « الشيخ سعيد » التى تعتبر بقعة غير ملائمة اطلاقا لوضـع قوات بهـا ٠ ولـكن اذ لم يستول البريطانيون على تعز فانه سيكون من الضرورى عليهم أن يحتلوا « الشيخ سعيد » ويضعوا حامية بريطانية فيها ٠

أما بالنسبة لفكرة تقدم البريطانيين للسيطرة على الضالع فان ذلك يرجع لرغبتهم فى اقامة مصحة لهم هناك ، كما أنها تمكنهم من أن يكونوا على اتصال وثيق بالقبائل اليمنية المحيطة بعدن ٠ على أن «والتون» اعتبر أن اقتراح السيطرة على تعز هو أكثر الاقتراحات جاذبية وأن ذلك يسـتلزم قوة بريطـانية قوامها فرقتان لتنفيـذه ، بالاضافة الى قوة دائمة قوامها فرقة واحـدة تستقر بعد استتباب الأمور ٠

ورأى « والتون » أنه سـيكون من الضرورى مد خط للسـكك الحديدية فيما بين عدن وتعز ، وأنه يكون من الأفضل استمرار الخط الحديدى ليصل الى « رأس الكثيب » الواقعة شمالى الحديدة تماما ٠ وستتم حراسة هذا الخط من التعرض لأى هجـوم معاد من جهة الشـمال عن طريق اقامة قلعة جبلية يتم بواسطتها السيطرة على المرور ٠ غير أن « والتون » أشار الى أن مثل هذا المشروع قد يثير بعض المتاعب مع الامام يحيى فى مرتفعات اليمن ، وان كان سيلقى كل الرضا من قبل الادريسى صديق البريطانيين فى عسير ٠ وتكهن «والتون» باحتمال قيام الحكومة البريطانية بتقديم منطقة الساحل اليمنى الشمالى الممتد من اللحية شمالا وحتى « رأس الكثيب » جنوبا الى الادريسى فى عسير ، وأنه يمكن بهذه الطريقة ، بالاضافة الى تدعيم قوة سلطان المكلا ، أن يتمكن البريطانيون من اقامة

حاجز قوى أمام القوى المنافسة يحول دون سيطرة أى منها على شواطىء جنوب شبه الجزيرة العربية . ولم يفت « والتون » أن يشير الى أن الطقس البديع فى تعز سيوفر كل مزايا المصح الذى يحتاج اليه البريطانيون المقيمون فى عدن وأن أية قوة يحتفظ بها هناك ستكون فى مركز حسن استراتيجيا لاستخدامها فى ايران والهند وشرق افريقيا ومنطقة البحر الأحمر . كما ذكر « والتون » أن تجارة اليمن ستروج وتزدهر فى ظل حكومة مستقرة وستجد منفذين لها أولهما فى رأس الكثيب من ناحية الشمال والثانى فى عدن من ناحية الجنوب ، كما أن الدفاع عن الحدود الجديدة لتلك المنطقة سيكون سهلا الى حد كبير (١) .

أما فيما يتعلق بالادارة المدنية لذلك المثلث الواقع بين هذه الحدود فى جنوب غرب الجزيرة العربية فقد اعتقد « والتون » بأنه سيدار بنفس الطريقة التى كان يحكم بها السودان حينذاك . وأبدى « والتون » موافقته على رأى « الكولونيل ووهوب » فى أن القوات الهندية غير صالحة للعمل فى شبه الجزيرة العربية وعلى الأخص الهنود المسلمين الذين « يقعون تحت التأثير المغناطيسى نتيجة لوجودهم فى الأرض التى تضم مكة » ولهذا فضل « والتون » استخدام الجنود السودانيين . بل انه فضل كثيرا تشكيل قوة مسلحة عربية محلية تحت قيادة ضباط بريطانيين . وتوقع « والتون » أن هؤلاء العرب لن يقبلوا بصدر رحب — فى بداية الأمر — على الأخذ بالنظام الصارم ، ولكنه يؤكد توافر مقاتلين أكفاء من العرب المحليين سيقبلون على الانخراط فى سلك الجندية البريطانية .

وقد أشار « والتون » أيضا الى أن « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن رأى — شأنه فى ذلك شأن « الكولونيل ووهوب » — توسيع مجال النفوذ البريطانى حتى يصل الى تعز . (٢) على أن « والتون » توقع أن الاقتراح الذى عرضه لتحقيق تلك الغاية سيكون عرضة لا عتراضات كثيرة من قبل السلطات البريطانية العليا ، ذلك لأن الوسائل التى اقترحها لتحقيق تلك الغاية ثبت اخفاقها فى الماضى ، كما أن الالتزامات السياسية ازاء القبائل اليمنية لم يتم الوفاء بها ، هذا فضلا عن صعوبة مد خط للسكك الحديدية فى مناطق غير خاضعة للنفوذ البريطانى .

ولهذا فقد رأى « والتون » أنه اذا قرر البريطانيون التقدم من عدن لتحقيق تلك الغاية فى المنطقة المحيطة بها فى جنوب اليمن ، فان الأمر يستلزم وجود قوة بريطانية مناسبة لضمان الوفاء بكل الالتزامات ولحراسة المصالح البريطانية هناك بالاضافة الى تحديد مكان مناسب لاقامة تلك القوة التى لن تلائمها عدن بالمرة ، وتعتبر هذه الأمور عناصر جوهرية فى أى اقتراح عملى .

(١) I.O., Secret, The Aden Protectorate, W.C. Walton, Aden to the Secretary to the Government of India, 13th May 1916, pp. 2, 3.

(٢) I.O., op. cit., p. 3.

ثم تحدث « والتون » عن فكرة انشاء كلية لأبناء السلاطين ورؤساء القبائل « A Chief's sons College » وأوضح أن عدن لا تصلح أن تكون مقرا لمثل هذه الكلية ، اذ لابد من توفر بيئة صحية وجو أكثر اعتدالا . غير أن أحدا لن يقترح أن تكون هذه الكلية خارج حدود المنطقة التى تسيطر عليها بريطانيا فى جنوب اليمن . (١)

وقال « والتون » فى ختام خطابه لسكرتير حكومة الهند البريطانية فى ١٣ مايو سنة ١٩١٦ أنه على الرغم من أنه كان يبدو للعرب أن أى تقدم للبريطانيين من عدن الى تعز يرجع الى الرغبة فى التوسع ، فان ذلك الأمر فى حقيقته كان مفروضا على البريطانيين لحفظ كيانهم ووجودهم فى عدن ، مما جعل « والتون » يرى أن أعظم الخطر فى القيام بتلك المحاولة بدون توافر القوة الكافية لضمان نجاحها . كما اشار « والتون » أيضا الى أنه كان يدرك تماما أن دور البريطانيين فى عدن أثناء الحرب (العالمية الأولى) كان يتوقف نجاحه أو فشله على ميادين الحرب الأخرى ، غير أن ذلك الدور كان يستلزم التخلص من الجمود والركود فى النطاق المحلى ، ومن هنا رأى « والتون » أهمية عرض مقترحاته التى استعرضناها على حكومة الهند فى ذلك الحين . (٢)

أما عن التقرير الذى كتبه « الكولونيل هارولد جاكوب » « H.F. Jacob » المساعد الاول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى اليوم العاشر من مايو سنة ١٩٥٦ وأرفقه « البريجادير وليم والتون » بخطابه المرسل الى سكرتير حكومة بومباى فى ١٣ مايو سنة ١٩١٦ فقد تحدث فيه « جاكوب » عن سياسة البريطانيين فى المنطقة المحيطة بعدن موضحا أن الامام يحيى قد استاء أيضا من احتلال الترك لعاصمة العبادلة فى لحج ، وقد بعث برسالة الى صديقه السلطان العبدلى فى شهر ابريل سنة ١٩١٥ عبر فيها عن عدم ثقته فى الحكومة التركية بصنعاء واتهمها باثارة الاضطرابات فى اليمن ، هذا على الرغم من الاتفاق الذى عقده معهم فى سنة ١٩١١ .

ثم عبر « جاكوب » عن توقعاته عما سيسفر عنه الموقف فى اليمن بعد جلاء الاتراك عنه موضحا أن « الترك فى اليمن مثل سدادة زجاجة البيرة .

---

(١) I.O., Secret, The Aden Protectorate, W.C. Walton, Aden, to the Secretary to the Government of India, 13th May 1916, p. 4.

انشأ البريطانيون كلية لأبناء السلاطين ورؤساء القبائل تقع فوق جبل حديد فى نهاية خور مكسر من جهة رأس عدن ، وكان غرضهم من انشائها تربية أبناء السلاطين وتنشئتهم على الولاء البريطانيا . وقد شاهدت مبنى هذه الكلية أثناء تواجدى فى عدن .

(٢) I.O., Secret, The Aden Protectorate, W.C. Walton, Aden, to the Secretary to the Government of India, 13th May 1916, p. 4.

فعندما تنزع السدادة سترتفع رغوة البيرة أى أن ثمة فوران سيحدث فى اليمن نتيجة للصراع الذى سينشب حول الاراضى التى كان العثمانيون يحتلونها ، خاصة وأن خطوط الحدود التى تم التوصل اليها مع الترك لم يتم الاتفاق بشأنها مع العرب الذين لم يعترفوا بها · ولهذا أوصى « جاكوب » بالحرص على ابقاء الامام يحيى مسيطرا على منطقة نفوذه فى شمالى المرتفعات اليمنية حتى يرحل الترك عن البلاد ·

على أن « جاكوب » لم يوص حكومته باحتلال المناطق المحيطة بعدن عن طريق القوة ، ولكنه أبدى تفضيله لتعيين وكيل بريطانى فى تلك المناطق يباشر حقوقا سياسية يتم التوصل اليها عن طريق الاتفاقات والأساليب الدبلوماسية · واقترح « جاكوب » مد خط حديدى يصل ما بين عدن جنوبا وتعز شمالا · كما اقترح انشاء مدرسة لابناء السلاطين ورؤساء القبائل · هذا فضلا عن أنه رأى أنه اذا انضمت تعز الى منطقة نفوذ بريطانيا فى جنوب اليمن فينبغى أن يكون هناك حاكما معاديا للزيود حتى لا تخضع تلك المنطقة بالتالى للامام يحيى الذى يمكن أن يسبب بعض المتاعب للبريطانيين فى عدن اذا تضخمت قوته وطالب بحقوقه الشرعية على المنطقة بأكملها ·

وأكد « جاكوب » أن البريطانيين اذا لم يقوموا بطرد الترك من لحج فان القبائل اليمنية ستتردد كثيرا قبل القيام بأية أعمال عدوانية ضد الترك لطردهم من بلادهم · ولهذا فقد طالب « جاكوب » بتعديل بعض المعاهدات مع السلاطين والامراء المجاورين لعدن بالدرجة التى تدعم موقفهم فى مواجهة الأتراك والتصدى لهم لاخراجهم من البـــــلاد · واقتـــرح « جاكوب » أيضــا تعيين وكيل بريطانى فى المكلا للاســـتفادة من امكانات حضرموت على أن تقوم بريطانيا بتدعيم قوة القعيطى واستقطابه الى جانبها · بل ان « جاكوب » طالب حكومته بضرورة تدعيم القوات البريطانية الموجودة فى اليمن حتى تقوم بدورها بكفاءة عالية فى عدن والمنطقة المحيطة بها التى ستصبح مطمعا للدول الاوربية المنافسة لبريطانيا ·

ورغم معارضة « جاكوب » فى تقريره لســـياسة ضم مناطق جديدة فى جنوب اليمن لتكون تحت الاشراف المباشر للبريطانيين فى عدن نظرا لأن تلك السياسة تثير استياء العرب وحكامهم ، فانه قد استثنى من ذلك ميناء الحديدة الذى أوصى حكومته بالسيطرة عليه ليكون أداة للمساومة مع امام صنعاء لتأمين الوجود البريطانى فى عدن بعد جلاء العثمانيين عن اليمن ·

وفى نفس الوقت توقع « جاكوب » أن تطلعات الادريسى للتوسع جنوبا على حساب حدود وممتلكات الامام يحيى سيؤدى الى حدوث صدام حاد بينهما ،

بحيث تصبح مهمة البريطانيين حينذاك التحكيم بين الزعيمين وهو أمر لن يتوفر الا اذا أعاد البريطانيون للامام يحيى الأراضى الواقعة ضمن الحدود التى سبق الاتفاق عليها مع الأتراك فى جنوب اليمن ٠ وهو أمر كان يصعب على البريطانيين تحقيقه حماية وتأمينا لقاعدتهم الحيوية فى عدن ٠

أما عن التقرير المرفق بخطاب « البريجادير جنرال وليم والتون ٠ القائد العام البريطانى بعدن الى سكرتير حكومة الهند البريطانية فى ١٣ مايو سنة ١٩١٦ تحت عنوان « حدود محمية عدن » فقد أشار فيه كاتبه « الكولونيل ووهوب Colonel R.A. Wauhope » ضابط المخابرات السياسى والعسكرى فى عدن أن الأتراك العثمانيين عندما عادوا الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ توغلوا فى الأراضى اليمنية المتاخمة لعدن ٠ وقد تقدموا من قعطبه واحتلوا جزءا من أراضى الأميرى ثم قاموا بخلع امير الضالع ٠ وعلى الرغم من احتجاجات السلطات البريطانية فى لندن وعدن فان الأتراك العثمانيين اندفعوا حتى وصلوا الى لحج ، غير أنهم خرجوا منها بعد أن واجهوا ضغطا سياسيا شديدا ٠

وقد اعترف الباب العالى بوجود بعض القبائل اليمنية ضمن النفوذ البريطانى فى عدن ، غير أن العثمانيين استمروا فى بذل جهودهم التوسعية والعدوانية ضد القبائل اليمنية المجاورة لعدن حتى اضطرت السلطات البريطانية هناك الى طرد القوة العثمانية التى سيطرت على « الدارجة » فى بلاد الحوشبى فى سنة ١٩٠١ ٠ وقد تشكلت لجنة لتحديد الحدود بمعرفة الحكومتين البريطانية والعثمانية اتفقت على أن يكون الخط الممتد من « الشيخ سعيد » فى الطرف الجنوبى الغربى من اليمن الى نقطة فى الشمال الشرقى بالقرب من قعطبه على أن يسير الخط من ورائها متجها صوب الصحراء ، بحيث يمنع دخول الأتراك الى بيحان ووادى حضرموت ٠ (١)

وأوضح « الكولونيل ووهوب » فى تقريره أن الحدود التى وضعتها اللجنة واتفق البريطانيون مع الأتراك بشأنها قد تم اكتسابها فى وقت لم يكن فيه أى حق معترف به لتركيا (يقصد الدولة العثمانية) أو للامام يحيى فى الأراضى المجاورة لعدن ٠ وقد تكهن « ووهوب » بأن امام صنعاء قد يطالب بحقوق لم يطالب بها أسلافه منذ ثمانين عاما ٠ بل انه أشار أيضا الى أنه من المهم جدا ملاحظة أن الحكام الفعليين للمناطق المحيطة بعدن وجدوا من الضرورى قيام البريطانيين بمساعدة القبائل المسيطرة على مداخل عدن ٠ بل انه كان من

---

(1) I.O., Secret, The Aden Protectorate, Letter from General Officer Commanding W.C. Walton, Aden, to the secretary to the government of India, Foreign Department, dated 13th May 1916.
Enclosure No. 1, The Boundary of the Aden Protectorate, Note by Colonel R.A. Wauhope R.E., C.B., C.M.G., p. 5.

المستحيل حينذاك النظر الى عدن كمركز منعزل دون توجيه أى أهتمام الى المناطق الداخلية التى كانت تتم عن طريقها الاتصالات التجارية ٠

وقد أكد « الكولونيل ووهوب » أن تلك الحدود التى وضعتها لجنة الحدود المذكورة لا يمكن أن تعتبر مرضية للجانب البريطانى ، لأنها تتجاهل الاعتبارات العسكرية تجاهلا تاما ، فهى تحرم البريطانيين من السيطرة على المرتفعات التى تسيطر على الحدود ، كما تحرمهم أيضا من امتلاك الأراضى الخصبة المرتفعة ، فى الوقت الذى تترك لهم فيه سفوح التلال القاحلة والأراضى الصحراوية ٠

وقد رأى « الكولونيل ووهوب » أن استيلاء البريطانيين على « ماوية » بالأراضى المرتفعة شمالا كان من شأنه أن يغير الموقف كلية لصالحهم ٠ اذ يمكنهم ذلك من اقامة مراكز أمامية حصينة فى جو صحى بحيث يمكن تغطية كل المنافذ المؤدية الى عدن من الناحية الشمالية الشرقية ٠ ورأى « ووهوب » أيضا أنه لم يكن يوجد أى مكان فى المنطقة الوسطى للبلاد وعلى مقربة من هذا الخط يمكن أن تعسكر فيه القوات البريطانية دون أن يهلك القسم الأكبر منها بالمرض ٠ بل انه قال أيضـــا ان وجود أى حامية فى الضـــالع لن يكون لها تاثير على مركز البريطانيين بل سيتم عزلها اذا زحف الترك من وادى تيبان فى لحج ٠ ونظرا لأن الترك قد زحفوا الى أبعد مدى ممكن لهم فى جنـــوب اليمن حتى لحج فى ذلك الحين (فى سنة ١٩١٦) فان الأمر يستلزم اعادة النظر فى ظل الظروف الجديدة التى نتجت عن اشتعال نيران الحرب (العالمية الأولى) ٠ (١)

وقال « الكولونيل ووهوب » فى تقريره ان الأتراك اذا كانوا سيبقون فى اليمن بعد انتهاء الحرب ــ يقصد الحرب العالمية الأولى ــ فقد رأى وجوب الاحتفاظ بمنطقة حاجزة « Buffer Zone » بينهم وبين البريطـانيين فى جنـوب اليمن ٠ ولكنه أشار الى أن الأمر يستلزم فى تلك الحالة وضع خط جديد للحدود يرضى عنه البريطانيون ويضمن بسط نفوذهم على المرتفعات المحيطة بعدن يكفل لهم السيطرة على المنافذ والممرات الموصلة بين عدن وبين تلك المرتفعات ٠

أما اذا خرج الأتراك من اليمن فقد رأى « الكولونيل ووهوب » أن مشكلة أكبر سوف تثور ، ذلك لأن الحكومة البريطانية لم تكن تفكر فى احتـلال جميع مناطق اليمن بما يورطها فى تحمل مسئولية حماية تلك المناطق ٠ ولهـذا فقد تكهن « ووهوب » بأن الجزء الاكبر من تلك المناطق سيظل مستقلا أو تحت حكم العرب ٠ ورأى أمكانية ممارسة الرقابة على موانى تلك السواحل وذلك للعمل على تنمية صادراتها ٠ وقال «ووهوب» فى تقريره ان وصفا موجزا لطبيعة المنطقة الواقعة جنوبى اليمن يمكن أن يوضح الى أى مدى يعتبر تعديل الحدود أمرا مرغوبا

---

(1) I.O., Secret, Ibid., p. 6

فيه بالنسبة للبريطانيين بحيث تتم ممارسة الرقابة المذكورة بأقل قدر من النفقات ٠

وأشار « الكولونيل ووهوب » الى أنه يمكن أن يؤخذ فى الاعتبار قيام البريطانيين باحتلال الحديدة أو أحد الموانى اليمنية المطلة على البحر الأحمر فالحقيقة أن الحديدة تعتبر المنفذ الطبيعى لمناطق زراعة البن اليمنى فى حراز وريمة كما أنها منفذا طبيعيا لمدن تهامة الأخرى ٠ كما أشار الى أن هناك دول أوربية أخرى تظهر اهتمامها بميناء الحديدة ٠ بل ان الترك فكروا فى مشروع أقامة خط للسكك الحديدية يربط الحديدة بصنعاء وعلى أية حال فقد ذكر « ووهوب » ان على البريطانيين ألا يتجاهلوا مسئولياتهم فى تلك المناطق حماية لوجودهم فى عدن والبحر الأحمر على السواء ٠

واخيرا أشار « ووهوب » الى أن تنفيذ تلك السياسة يحتاج الى قوة فعالة نتمكن من أن تمسك بزمام المبادرة عقب جلاء الترك عن اليمن مباشرة ، حتى لا تعم الفوضى البلاد وينتهز أمام صنعاء الفرصة فيقوم باحتلال ماوية وتعز ٠ ولهذا أوصى « ووهوب » حكومته بعمل الترتيبات الضرورية من الناحيتين السياسية والعسكرية لضمان تنفيذ تلك السياسة فى اللحظة المناسبة ٠ كما أوصى « ووهوب » حكومته بضرورة تشكيل حامية دائمة خاصة تابعة لعدن وذلك بعد توافر الأماكن الصحية التى تتميز بجوها المعتدل لتعسكر فيها قوات الحامية ٠ وذكر « ووهوب » أنه لا يحبذ استخدام القوات الهندية فى الجزيرة العربية ٠ بل انه يفضل تجنيد العرب المحليين الذى توقع تعاونهم واخلاصهم طالما كانوا مقتنعين بأن المحمية أصبحت حقيقة دائمة وباقية ٠

ـ موقف البريطانيين فى عدن ازاء ثورة الشريف حسين ضد الأتراك العثمانيين فى الحجاز :

تبينا من العرض السابق معالم سياسة البريطانيين وموقفهم ازاء العمليات الحربية فى منطقة البحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى ٠ وانحصرت هذه العمليات فى الصراع الذى دار بين العثمانيين حلفاء الالمان من جهة ، وبين البريطانيين وحلفائهم والعناصر العربية التى استقطبوها الى جانبهم من جهة أخرى ٠ وقد تمثلت تلك العناصر العربية فى اليمن فى سلطان لحج فى الجنوب والادريسى فى عسير والمخلاف السليمانى فى الشمال ، بينما تمثلت فى الحجاز

فى الشريف حسين أمير مكة الذى أعلن ثورته على الترك فى سنة ١٩١٦ • (١)

ويمكن التعرف على الاوضاع القائمة فى عدن والمنطقة المحيطة بها من الناحيتين السياسية والعسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى خاصة بالنسبة للاحتمالات التى توقع البريطانيون حدوثها فى حالة قيام الشريف حسين بثورته على الاتراك ، مع توضيح موقف كل من الامام يحيى فى صنعاء من جهة ومحمد الادريسى فى عسير من جهة أخرى ، وذلك من خلال الخطاب السرى الذى وجهه « البريجادير جنرال والتون Brigadier General W.C. Walton » القائد العام والمقيم السياسى البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة الهند البريطانية فى ٢٩ مايو سنة ١٩١٦ •

فقد ذكر « والتون » أن الشريف حسين أمير مكة قد أخذ على عاتقه ترتيب قيام ثورة عربية عامة ضد الاتراك فى الحجاز وسوريا ، وأنه يرتب قيام كل من الادريسى فى عسير والمخلاف السليمانى من جهة ، والامام يحيى فى مرتفعات اليمن من جهة أخرى بالثورة على الترك فى وقت واحد •

وحدد « والتون » الهدف من خطابه هذا لحكومة الهند البريطانية بأنه ينحصر فى مناقشة الآثار المحتملة لمثل هذه الاضطرابات على الوضع الخاص للبريطانيين فى عدن والمناطق الداخلية المحيطة بها فى جنوب اليمن ومنطقة البحر الأحمر بوجه عام ، مع الاشارة بصفة خاصة لرد الفعل المتوقع لدى الأتراك العثمانيين فى اليمن والحجاز فى ذلك الحين •

على أن الموقف كان سيتحدد تبعا لمدى النجاح الذى سوف تحققه جهود الشريف حسين بطبيعة الحال • وهناك احتمالات ثلاثة ، أولها أن الشريف حسين قد يخفق فى الحصول على تأييد من شعبه أو من القبائل العربية الأخرى اذا ما ثار على العثمانيين المسلمين • وثانيهما أن الشريف حسين قد يحصل على تأييد الادريسى دون الامام يحيى • بينما ثالث هذه الاحتمالات هو أن يحصل الشريف حسين على تأييد كل من الادريسى والامام معا فى ثورته ضد الاتراك •

ورأى « والتون » أن صداقة الامام الذى تتمركز قوته فى داخل اليمن وليس على الساحل تعتبر أضعف أثرا بوجه عام بالنسبة لمساندة البريطانيين من الأثر الذى تحدثه صداقة الادريسى الذى تتمركز قوته على الساحل والذى تتأثر مصالحه مباشرة بقوة البحرية البريطانية فى البحر الأحمر • على أنه بالنسبة للمنطقة الداخلية المحيطة بعدن فان ضرورة حصول البريطانيين على حدود استراتيجية وسياسية سليمة كانت تحتم اجراء اتصال مباشر مع الامام يحيى لاجتذابه الى جانبهم •

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ص ٢٧٤ •

كما رأى « والتون » فى حالة الاحتمال الأول ـ الذى افترض اخفـاق الشريف حسين فى الحصول على تأييد شعبه أو القبائل العربية الأخرى ـ أن الموقف فى المنطقة المحيطة بعدن وخاصة بين البريطانيين فى الجنوب والعثمانيين فى الشمال لن يتغير لصالح البريطانيين ، بل أنه قد يتغير لصالح الأتراك الذين قد يتلقون تأييدا أكثر من العرب بصفة عامة ، ومن الامام يحيى بصفة خاصـة اذا ما أخفق الشريف حسين فى القيام بثورته .

أما فى حالة الاحتمال الثانى الذى افترض نجاح الشريف فى الثورة ضد الترك ، وكان التسـاؤل حـول انضمام الادريسى اليه من عدمه ، فقد رأى « والتون » ان الادريسى فى تلك الحالة لن يلاقى صعوبة كبيرة دون أدنى شك فى كسب بعض القبائل المحاربة الى جانبه ضد الترك ، حتى تلك القبائل التى كانت مؤيدة للامام والتى سـيهمها أن تنضـم الى الكفـة الراجحة ، وقال والتون ان الادريسى بفضل ما يزوده البريطانيون به من أسلحة سيكون فى وضع أفضل وأقدر على محاربة الأتراك بطبيعة الحال ، وأنه اذا حقق الادريسى نجاحا فى معركته مع الأتراك فمن المحتمل أن يسحب الترك قواتهم المرابطة أمام عدن .

وقال « والتـون » فى خطـابه الى حـكومة الهنـد البريطانية ان السؤال المطروح حينذاك كان يتعلق بماهية الدور الذى يمكن أن تقـوم به القـوات البريطانية فى عدن وقطع الاسـطول البريطانى فى البحر الأحمر ، وهو أمر يستوجب الدراسة والاعداد فى وقت مبكر .

وتساءل « والتون » عما اذا كان البريطانيون فى عدن سيقفون بلاحراك بينما يسحب الأتراك قواتهم المعسكرة فى لحج لتعزيز تلك القوات التى تحارب ضد الادريسى ، أم أن البريطانيين سيهاجمون القوة التركية المرابطة أمام عدن بمجرد أن يقل عددها وتصبح قوة ضعيفة . فاذا اختار البريطانيون الوضـع الأخير فيجدر بهم ـ كما ذكر « والتون » ـ أن يستكملوا استعداداتهم اللازمة لشن هذا الهجوم على الأتراك المتمركزين فى لحج ، كما ينبغى أن تكون هناك خطة مدروسة بعناية فائقة ومجهزة ومجربة باتقان بالغ .

وقال « والتون » أنه يتوقع أن يبدأ الشريف حسين فى تنفيذ خطته فى شهر يونيه سنة ١٩١٦ وأنه لن يكون هناك متسع من الوقت يمكن اضاعته ، مما يستوجب على البريطانيين سرعة الاستعداد . وسيكون هجوم البريطانيين على لحج مبعثه الوفاء بالتزامهم الأدبى ازاء الادريسى والحيلولة دون قيام القوات التركية بسحقه وتحطيمه من جهة ، بالاضافة الى قيام البريطانيين بالتقدم الى خطوط الحدود المتفق عليها مع الأتراك من قبل من جهة أخرى ، خاصة أن الأمر كان يستلزم قيام البريطانيين بأنفسهم بفرض الانسحاب على الأتراك من لحج

حتى يحتفظوا بمكانتهم بين القبائل الخاضعة للحماية البريطانية ، وأضـــاف « والتون » الى ذلك قوله أنه اذا لم يقم البريطانيون بذلك فسيكون للامام يحيى الحق فى السيطرة على كل المناطق اليمنية التى سيـــجلوا عنها الترك بمحض ارادتهم ، وسيكون قيام البريطانيين باجبار الامام على اخلائها عملية عسكرية صعبة للغاية فضلا عن كونها غير مستساغة أيضا من الناحية السياسية ، بل انه لا يمكن تحقيق ذلك الا اذا وضعت الحرب الكبرى أوزارها حتى لا تثـــار حينذاك دعوة الى « الجهاد » تعرض المصالح البريطانية لأشد الأخطار ســواء فى عدن أو فى العالم العربى والاسلامى بوجه عام ٠

وأوضح « والتون » أن القوات البريطانية فى عدن عليها أن تتخذ موقفـا دفاعيا أشد وأقوى مراسا ، وأن تكون مستعدة لضرب الأتراك وقطع الرجعة عليهم حتى لا يسيطروا على الممرات الواقعة شمالى لحج ٠ على أنه كان من المعروف تماما فى ظل الظروف القائمة حينذاك أنه يحتم على القوات البريطانية فى عدن الأحجام عن أية مخاطرة يترتب عليها الوقوع فى شرك الأتراك بدرجة تستدعى ضرورة ارسال تعزيزات لتخليص القوات البريطانية من مثل هذا المأزق ٠

على أن « والتون » أشار فى تقريره الى أن فرصة نجاح الأتراك فى تحريض العرب على الثورة ضـد البريطانيين ضئيلة للغاية ، وان العرب ينتظرون على النقيض من ذلك ــ أن يحين الوقت الذى يمكنهم أن يبـــدأوا فيه ثورتهم وهم مطمئنين الى نجاحها ٠ غير أن « والتون » رأى فى نفس الوقت ألا يستبعد أن يترتب على الانتصارات الكثيرة التى كان يحققها الترك والألمان أن يضطر العرب الى اعـــادة النظر فى موقفهم واتجاههم ٠ ولهذا فانهم يترقبون باهتمام بالغ انتصارات البريطانيين فى ميادين القتال ، تلك الانتصارات التى ستؤدى الى ترك القوات التركية فى الحجاز واليمن فى العراء ٠

وأكد « والتون » أن مصير شبه الجزيرة العربية ومنطقة البحر الأحمر سيتقرر فى ميادين القتال الرئيسية فى أوربا وفى آسيا الصغرى ٠ غير أنه من العســـير أن يعتقد البريطانيون أن المواقف المحلية غير مؤثرة فى الموقف العام للبريطانيين والحلفاء فى الحرب الكبرى ٠ مما يحتم على المواقف المحلية الا تتصف بالركود والجمود ٠ وقال « والتون » أن الملاكم الذى يحبس نفسه فى خط هجوم واحد لن يتمكن من الانتصار على خصم قادر على أن يستفيد من أية نقطة ضعف فى تكوين منافسه ، وان القوة التركية المرابطة فى لحج المواجهة لعدن تنطوى على نقطة ضعف من هذا النوع ، وتبدو أنها تغرى بضربها والقضاء عليها ممـا يحقق للبريطانيين عدم قيام أى اتحاد عربى محالف للاتراك هناك من جهه ، كما يتيح الفرصة للبريطانيين ايضا لاختيار أفضل الحدود للمناطق المحيطة بعدن والتى كان يحكمها السلاطين المرتبطون معهم بمعاهدات حماية ، هذا فضلا عن أن ذلك العمل سيكون مشجعا على قيام اتحاد عربى ضـــد الترك وهو ما كانت تتبناه

الســـياسة البريطانية فى ذلك الحين • على ان « والتون » قد أكد أيضـــا ان البريطانيين اذا لم يتخذوا موقفا ايجابيا فى تلك المسألة فانهم سيفوتون على أنفسهم فرصة ضمان الاحتفاظ بسيطرتهم على زمام المبـــادرة فى المجـــالين السياسى والعسكرى فى منطقة البحر الأحمر بما يضمن مصالحهم الحيوية هناك فى ذلك الحين •

واختتم « والتون » خطابه السرى الى سكرتير حكومة الهند البريطانية بشأن الاوضاع القائمة فى عدن والمنطقة المحيطة بها اثناء الحرب العالمية الأولى والمؤرخ فى ٢٩ مايو سنة ١٩١٦ بأنه يرى ـ بعد كل الاعتبارات التى اشـــار اليها فى خطابه ـ أن على البريطانيين فى عدن أن يوجهوا قواتهم للانقضاض على الترك فى لحج دون أن يتيحوا لهم فرصة الفرار فى اتجاه الشمال حتى لا ينضموا الى بقية قواتهم المعسكرة فى وسط اليمن وشمالها والتى كانت تتصدى للادريسى هناك • ولضمان نجاح القوات البريطانية فى تحقيق أهدافها فقد ألح « والتون » فى طلب تعزيزها ببطاريتى ميدان حديثتين ولواءى مشاه مسلحين مع عدد كبير من الفرسان بقدر ما يمكن استعارته من القوات البريطانية فى الصومال لفترة محدودة قد لا تتجاوز أسبوعين فى تقديره • على أن « والتون » كان يدرك تماما ان القرار النهائى فى هـــذا الموضوع سوف يتخذ بطبيعة الحال على أســـاس المتطلبات الاستراتيجية للامبراطورية البريطانية فى ذلك الحين •

ومن ناحية أخرى فقد قام البريطانيون بتشجيع الشريف حسين ودعمه ليعلن ثورته على الترك وذلك باعتباره يشكل القوة العربية العســـكرية المنظمة التى كان يمكنها القيام بدور فعال ضد الدولة العثمانية بعد أن تحالفت مع الالمان • وكانت علاقة الشريف حسين بالترك قد بدأت تتدهور قبل نشوب الحرب الكبرى الأولى مما جعله يبحث عمن يدعم مركزه اذا هو ناصبهم العداء • وقد أحجم البريطانيون عن ذلك فى بداية الأمر حتى اقحم الترك انفسهم بالتحالف مع الالمان مما جعل البريطانيين يتجهون الى مســـاندة الحسين لاعلان ثورته عليهم • (١)

وكانت السياسة البريطانية تهدف من اشعال نيران الثورة العربية ضد الأتراك فى الحجاز فى ذلك الحين الى اجبار تركيا على حجز جزء من قواتها العسكرية فى البلاد العربية بعيدا عن جبهات القتال الرئيسية ولا سيما الجبهة الروسية • كما كانت بريطانيا تقدر أهمية اشتعال نيران الثورة ضد الترك فى الجزيرة العربية بالذات لأنها تستطيع أن تعزل بين القوات العثمانية الرئيسية فى الشام الجيوب العسكرية فى جنوب الجزيرة كاليمن وعسير• هذا فضلا عن أن البريطانيين

---

(١) I.O., B. 222, Secret, Correspondence with the grand sherif of Mecca, No. 9. From the High Comm.ssioner, Cairo to the Sherif Hosayn, 3th August 1915., p. 5.

كانوا يحرصون على افساد الخطط الالمانية التى كانت تهدف الى استخدام تحالف المانيا مع الدولة العثمانية لايجاد جسر يوصل بين المستعمرات الألمانية فى شرق افريقية وبين ألمانيا عن طريق اليمن وموانى العثمانيين على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، بالاضافة الى تهديد البريطانيين فى قاعدتهم الحيوية فى عدن . وكانت الثورة ضد العثمانيين فى وسط الجزيرة العربية وخاصة فى الحجاز تفسد على الألمان مخططاتهم هذه . بل ان بريطانيا كانت تهدف كذلك الى خلق خلافة عربية فى مكة على أمل تحويل مسلمى الهند اليها بدلا من الخلافة العثمانية التى تحالفت مع أعدائها الالمان فى ذلك الحين . (١)

وقد تم الاتفاق بين البريطانيين والشريف حسين بعد مراسلات وبرقيات ولقاءات بين مبعوثى الجانبين انتهت بتلك الرسالة التى بعث بها السير هنرى مكماهون الى الشريف حسين فى اليوم العاشر من مارس سنة ١٩١٦ . (٢) وقد اوضحت فيها بريطانيا بالتزامها بالاعتراف باستقلال البلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية مع استبعاد محمية عدن ، ومرسين واسكندرونه وجنوب العراق (البصرة ـ بغداد) وعلى أن تكون المنطقة الواقعة غرب (دمشق ـ حمص ـ حلب) لفرنسا ، على أن يكون من حقه المطالبة بالمنطقة الأخيرة بعد انتهاء الحرب . ولاشك أن استبعاد البريطانيين لمحمية عدن على هذا النحو ليؤكد حرص البريطانيين المتزايد على وجودهم هناك وعلى عدم تعريض ذلك الميناء الهام وتلك القاعدة الحيوية لأية مساومات .

على أنه كانت قد بدأت منذ شهر مارس سنة ١٩١٥ مفاوضات أخرى بين بريطانيا وفرنسا وروسيا مالبثت ان دخلت مرحلة جديدة منذ ديسمبر من العام نفسه ، وأدت الى ابرام اتفاق (سايكس ـ بيكو) فى شهر مايو سنة ١٩١٦ . ويشترك هذا الاتفاق واتفاق بريطانيا مع الشريف حسين فى أن مبعثهما كان واحدا وهو الموقف العسكرى الناشىء من تعذر القيام بعمل حاسم فى جبهة القتال الغربية فى أواخر عام ١٩١٤ أى بعد شهور قليلة من بداية الحرب العالمية الأولى . ورغم احتفاظ بريطانيا بنفوذها فى الخليج العربى لمنع وقوع البترول فى عبدان فى أيدى الأتراك ، كما استطاعت أن تصد هجوم الأتراك على قناة السويس فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ ، فان حاجتها كانت شديدة لفتح جبهة ثانية ضد الأتراك وذلك بناء على طلب روسيا التى كانت تعانى من الضغط فى القوقاز .

وكان من الضرورى على الحلفاء المتمثلين فى بريطانيا وفرنسا وروسيا أن

---

(١) محمد انيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٢) I.O., B. 222, Secret, Correspondence with the grand Sherif of Mecca, 22. Communication from Sir A.H. McMahon to the grand Sherif, 10th March 1916., pp. 15, 16.

يتفقوا على تقســيم الدولة العثمانية فيما بينهم وهم على وشك اجراء عمليات عسكرية ضدها ٠ فكانت تلك هى أصول اتفاقية (سايكس بيكو) التى عقدت فى شهر مايو سنة ١٩١٦ (١) والتى تعتبر اتفاقية تقسيم صريحة روعى فيها توزيع أملاك العثمانيين على دول الحلفاء التى كان معروفا من مدة طويلة أن لها مصــالح استعمارية أو أنها تطمع فى امتلاك جهات معينة منها ٠ كما روعى فيها أيضــا مبدأ توازن القوى فى حوض البحر المتوسط عموما والجزء الشرقى منه على وجه الخصوص ٠ على أنه لم يكن يدور بخلد العرب أن التفاهم على قيام الدولة العربية المنتظرة سوف يؤدى ، عند تطبيق العهود التى قطعتها بريطانيا على نفسها الى حرمان العرب من حرياتهم واســتقلالهم بالصورة التى نص عليها هذا الاتفاق ٠ ولهذا استنكر العرب كما استنكر الشريف حسين هذا الاتفاق عندما نشره الروس البلاشفه فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ ٠

وكان الشريف حسين قد أعلن ثورته على الدولة العثمانية فى اليوم العاشر من يونيو سنة ١٩١٦ ، وأطلق بنفسه فى ذلك اليوم الرصاصة الأولى على قلعة الأتراك فى مكه ايذانا باعلان الثورة ٠ وعزز الشريف حسين حركته بمنشــور أذاعة على الشعب العربى اتهم فيه الاتحاديين بالخروج على الشريعة الاسلامية ٠ واستطاعت القوات العربية الثائرة أن تستولى فى أقــل من ثلاثة شــهور على جميع مدن الحجاز الكبرى باستثناء المدينة المنورة التى بقيت تحاصرها حتى أواخر الحرب ٠ ولم يلبث أن بويع الحســين فى ديسمبر ســنة ١٩١٦ ملكا على العرب ٠ ثم تقدم جيش الثورة العربية وعلى رأسه فيصل بن حسين فى أراضى الحجاز فنسف سكة حديد الحجاز واحتل ينبع ثم زحف شمالا واحتل العقبة فى ٦ مايو سنة ١٩١٧ ٠ واتخذ الجيش العربى من العقبة نقطة ارتكاز ثم أخذ يتقدم شــمالا ليحارب الأتراك فى منطقة شرقى الأردن ، وبذلك قــدم للحلفاء أكبر مساعدة ٠ (٢)

وفى ذلك الوقت كان « اللورد اللنبى » قد تولى قيادة القوات البريطانية العامة واستطاع بمعاونة عرب فلسطين وبفضل المساعدات التى قدمها المصريون أن يحتل القدس فى ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ ٠ وكان احتلال جيش الثورة العربى للمنطقة الواقعة شرقى عمان قد حمى ميمنة القوات البريطانية فى فلسطين من هجمات الاتراك عليها فى منطقة بئر سبع والخليل ، كمــا حمى أيضــا خطوط مواصلاتها الطويلة ٠ ثم تقدمت القوات العربية تجاه دمشق فاحتلتها فى أول أكتوبر سنة ١٩١٨ بعد أن أخلاها الأتراك ورفعت رايتها فوق أسوارها والمبانى الحكومية فيها وذلك قبل أن تدخلها قوات « اللنبى » البريطانية ٠ وواصلت قوات الثورة العربية زحفها شمالا فاحتلت حمص وحماه وحلب ولم يمض شهر واحد

(١) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٨٣ – ٢٨٤ ٠

(٢) محمد أنيس (دكتور) : نفس المصدر ، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ ٠

حتى حررت سوريا كلها من النفوذ العثمانى الذى دام بهـــا زهاء أربعة قرون متعاقبة •

وفى ذلك الوقت بدأ الخلاف يدب بين العرب وحلفائهم البريطانيين خاصة عندما أطلقت بريطانيا تصريحا فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ تعهدت فيه لزعماء الحركة الصهيونية العالمية بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وجاء هذا الاعلان فى صورة خطاب الى « لورد روتشيلد » المليونير اليهودى المعروف • وكان التصريح قد عرض قبل اعلانه على الرئيس الأمريكى « ويلسون » وحظى بموافقته ، كما أيدته الحكومة الفرنسية فى ١٤ فبراير سنة ١٩١٨ تأييدا علنيا ، ثم تلتها الحكومة الايطالية فايدته بتاريخ ٩ مايو سنة ١٩١٨ • ومهما كانت الأسباب التى أدت الى اصدار هذا التصريح (١) فانه قد أغضب العرب وشكل صدمة كبيرة لهم ، اذ فهم الحسين من قبل واعترف البريطانيون بأن فلسطين تدخل فى اطار الدولة العربية المزمع انشاؤها • بينما كانت حجة البريطانيين أن الاتفاق الذى تم بالنسبة لمنطقة غرب دمشق أو حمص وحماه ينسحب على فلســـطين كما ينســحب على بيروت • بل ان العرب صدموا مرة أخرى حين انعقد مؤتمر سان ريمو فى أبريل سنة ١٩٢٠ وقرر وضع القطاع العربى الشـــمالى الممتد من البحر المتوسط الى فارس تحت الانتداب • وبذلك أعطيت بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين وشرقى الأردن بينما أعطيت فرنسا الانتداب فى سوريا ولبنان حينذاك • وبهذا لم تكن التغيرات التى طرأت على خريطة المشرق العربى ومنطقة البحر الأحمر بعد الحرب العالمية الأولى محققة للآمال التى كان يحلم بها الشريف حسين ، فى الوقت الذى كانت محققة تمام التحقيق للأهداف التى سعت اليها السياسة البريطانية فى ذلك الحين •

ـ تطور علاقة البريطانيين فى عـــدن بالأتراك فى لحج فى الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى :

فى الوقت الذى كانت فيه الأسرة المالكة اللحجية وعلى رأســها السلطان عبد الكريم العبدلى تقيم فى عدن لاجئة لدى حلفائها البريطانيين ، فان الأتراك كانوا يتمتعون فى لحج بأملاك العبادلة وقصورهم وبخيرات البلاد ومحاصيلها التى جعلتهم فى غنى عن تلقى مواد التموين من مركز القيادة العثمانية فى داخـــل اليمن • بل لقد كان من الفريد فعلا أن يصبح الترك بعد استقرارهم فى لحج على شىء من اليسر وجانب من الأمن والاطمئنان ، وأن تنشأ بينهم وبين البريطانيين فى جنوب اليمن علاقات طيبة يستغرب قيـــام مثلها فى أيام الحرب بين جانبين

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : وعد بلفور والعوامل التى ساعدت على اصداره ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية المجلد ١٦ لسنة ١٩٦٢ •

متحاربين . (١)

وأسباب ذلك ترجع أساسا الى بعد الفريقين عن ساحة الحرب الكبرى وعن مركز حكومتيهما ، فى الوقت الذى كان الجنود والضباط من الجانبين يسمعون فيه عن ويلات الحرب وأهوالها بينما كانوا هم بمنأى عن تلك الويلات والأهوال مسافات بعيدة . وعندما اطمأن البريطانيون على مركزهم فى عدن و « الشيخ عثمان » فانهم تركوا لحج للاتراك . كما ان الترك عندما أمنوا على لحج ونواحيها من محاولات بريطانيا لاستردادها فانهم تركوا عدن للبريطانيين دون احداث آيه مناوشات . وبهذا قنع كل فريق بما ملكت يده بصفة مؤقتة حتى تنجلى النتائج النهائية للحرب الكبرى . وقد كللت هذه القناعة بحرص كل جانب منهما على اظهار المودة والتعاون للجانب الآخر . على أن ذلك يرجع الى تجمد الموقف نسبيا فى جنوب اليمن وخاصة فى السنتين الأخيرتين من سنى الحرب العالمية الأولى أى فى عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨ مما دفع البريطانيين والاتراك فى المنطقة الى الانصراف للعمل من أجل مطالب الحياة اليومية والحصول على مستلزماتها .

ففى لحج تعاون الاهالى مع الجنود الترك فى فلاحة الأرض فازدهرت بالاخضرار والثمار تلك البقعة الخصبة وخاصة وادى « دبن » فعاد اليسر الى لحج بعد نكبتها فى بداية الغزو التركى . (٢) كما أن القائد العثمانى على سعيد باشا الذى كان قد أمر بمنع دخول القوافل اليمنية الى عدن فى بداية الفتح المذكور عاد فسمح بمرور القوافل بعد أن اكتفى بفرض ضرائب انتقال ذكر عنها العبدلى انها كانت « ضرائب فادحة على البضائع الخارجة من لحج » . (٣) وفى نفس الوقت كان البريطانيون يحرصون على أرسال البضائع المختلفة من عدن الى بعض القبائل المجاورة للمحافظة على ولائها لهم وعدم التحول عنهم الى جانب الترك ، وان كان « جاكوب قد عبر عن دوافع بريطانيا فى تسيير قوافل البضائع من عدن الى القبائل المجاورة بقوله انها كانت « من أجل مصالح أصدقائنا الذين يعتمدون على عدن فى الحصول على احتياجاتهم حتى لا يصابوا بكارثة » (٤) ؛ على أن جانبا كبيرا من تلك البضائع الواردة من عدن كان يصل الى يد الاتراك المعسكرين فى لحج ويفى بنسبة كبيرة من احتياجاتهم الضرورية : (٥)

ولما كانت عدن الواقعة فى فوهة بركان لا يرى فيها ولا من حولها ما توفر فى لحج من مزارع خضراء ، فقد رأى البريطانيون كذلك — وأحوالهم فى عدن

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .
(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .
(٣) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣١ .
(٤) Jacob H.F. : op. cit., p. 169.
(٥) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

متشابهة مع أحوال الترك فى لحج من ناحية العزلة عن مركزى حكومتيهما أثناء فترة الحرب ــ أنه لا مانع لديهم من تبادل الحاجات الضرورية مع الترك طالما ان كلا الجانبين فى حاجة الى ما لدى الآخر من امكانات • وهكذا نشأت علاقات طيبة وفريدة بين البريطانيين والاتراك فى جنوب اليمن يستغرب قيام مثلها بين عدوين متقاتلين ، فنقلت كميات من البقول من الانتاج الزراعى فى لحج الى عدن التى أرسلت بدورها الى الترك الارز والسكر والخمور • ولا شك ان الريحانى قد بالغ فى تصوير وتقدير هذا التعاون الفريد عندما ذكر أنه : « بينما كانت رحى الحرب تطحن الانسانية فى شمال فرنسية وتملأ الارض هولا وقبورا ، كان الترك والانكليز فى هــــذه الزاوية المبــاركة من اليمن الســـعيد يتبادلان المعـــروف والاحسان • وكان للقائد الجركسى سعيد باشا الفضل الأكبر فى ذلك بشهادة الانكليز انفســــــهم • أما العـــرب فلا يزالون يذكرونه حتى اليوم بالفخر والاعجاب » (١) • على أننا نرجح ان غرض الجانبين البريطانى والتركى من هذا التعاون الى جانب توفير الاحتياجات اللازمة للجنود التى تخفف عليهم وطـــأة الحرب (٢) وملل الترقب والانتظار ، هو الحصول على معلومات عسكرية مفيدة تتعلق بالامكانات الحربية للجانبين من حيث اعداد الجنود وأسلحتهم وتحركاتهم وخططهم حتى لا يأخذ أحد الجانبين الآخر على غرة اذا وردت اليه أوامر مفاجئة من حكومته بالهجوم • وكان رجال القوافل يقومون بمهمة التجسس والمخابرات خير قيام نتيجة لانتقالهم الدائم وأسفارهم المستمرة بين منطقى نفوذ البريطانيين والأتراك فى جنوب اليمن وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى ذلك الحين •

وعلى أية حال فان هذه العلاقات الطيبة والفريدة التى نشأت بين القوات البريطانية فى عدن وقوات الترك فى لحج والتى استفاد منها الجانبان اقتصاديا وعسكريا وكانت قد فرضتها طبيعة المنطقة وانعزالها عن الميادين الأخرى للحرب العالمية الأولى ، كمــــا هيأتها حالة الجمود التى اعترت الموقف هنـــاك فى العامين الأخيرين من سنى الحرب ، فضــــلا عن حرص كلا الجانبين على اســـــتقصاء كافة المعلومات المتعلقة بامكانات وتحركات الجانب الآخر استعدادا لمواجهة أية تطورات جديدة فان ذلك التعاون ــ كما يقول أمين الريحانى وان كان تعبيره هــــذه المرة مبالغ فيه أيضا الى حد كبير ــ كان أشبه بصلح عقد بين الحلفاء والدول الوسطى أو بالأخرى بين ممثليهم فى عدن وفى لحج قبل انتهــاء الحرب الكبرى (الأولى) بعامين كاملين • (٣)

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ •

(٢) Jacob, H.F. : op. cit., pp. 169, 170.

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ص ٣٦٩ •

ثالثا : سياسة البريطانيين في عدن والبحر الأحمر في نهاية الحرب العالمية الأولى :

استمرت الأوضاع القائمة في عدن والمنطقة المحيطة بها في جنوب اليمن على ما هي عليه في العامين الأخيرين من أعوام الحرب العالمية الأولى دون حدوث تغيرات جوهرية ظاهرة ٠ اذ كانت العلاقات بين البريطانيين والأتراك على نحو ما أشرت اليه من قبل من وجود نوع من التعاون الفريد بين الجانبين ٠ بينما كان الامام يحيى مقيما في جبال « شهارة » في وسط اليمن ومتمسكا بالحياد بين القوى المتصارعة حينذاك وان بدا تقربه النسبي الى جانب الأتراك الذين كانوا يعسكرون على مقربة منه في وسط اليمن وكانت تربطه بهم اتفاقية « دعان » التي عقدها معهم في سنة ١٩١١ ٠ هذا في الوقت الذي كان فيه الادريسي في عسير والمخلاف السليماني بشمالي اليمن يتلقى المعونة والمساعدة من البريطانيين الذين كان أسطولهم يحاصر السواحل اليمنية ويدعم تحركات الأدارسة ضد الأتراك العثمانيين هناك٠

وفي نفس الوقت كان الشريف حسين قد حقق انتصاراته على الترك في الحجاز وشرقي الأردن وفتح دمشق في اليوم الأول من أكتوبر سنة ١٩١٨ وتحررت سوريا نهائيا من النفوذ العثماني ، وبذلك قدم الحسين لبريطانيا والحلفاء أكبر مساعدة ٠

أما بالنسبة لسلطان لحج عبد الكريم العبدلي فقد كان هو ومعظم أفراد أسرته يقيمون في ضيافة المقيم السياسي البريطاني في عدن الذي كان يحاول بدوره اجتذاب قبائل النواحي الجنوبية في اليمن لمناوأة الأتراك المعسكرين على مقربة منه في لحج ٠ وكان والي اليمن العثماني محمود نديم بك مقيما في صنعاء عاصمة الولاية بينما كان علي سعيد باشا قائد الجيوش العثمانية المحتلة لمنطقة لحج يقيم في مدينة الحوطة ٠ وكان الأتراك يسيطرون على البلاد اليمنية الواقعة من لحج حتى صنعاء في الداخل ومن اللحية حتى مخا على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ٠ بينما كان اليمنيون من شوافع وزيديين « قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم يومئذ المال » (١) ٠

ولم تطرأ على الأوضاع القائمة في الأراضي اليمنية حول عدن في ذلك الوقت تغيرات ظاهرة الا في أعقاب اعلان هدنة « موندروس Mondrus » في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ بعد أن خرجت الامبراطورية العثمانية من الحرب العالمية الأولى مندحرة واضطر الترك الى توقيع تلك الهدنة مع الحلفاء ٠ وقد أملى الحلفاء المنتصرون شروطهم على الترك مثل فتح الدردنيل والبسفور ، ونزع سلاح الجيش التركي وتسليم البوارج الحربية التركية ، واستعمال بواخر الحلفاء

---

(١) أمين الريحاني : المصدر السابق ، ص ٣٦٩ ٠

للموانى التركية ، واستسلام الحاميات التركية فى الحجاز وعسير واليمن وسوريا والعراق ، واستسلام الموانى التركية فى شمال افريقيا (١) .

وقد ذكر العبدلى انه قد شاع فى عدن — حيث كان يقيم مع بقية أفراد أسرة العبادلة حكام لحج — ظهر يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨ أن الهدنة قد عقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا وحلفائها وأن تلك الاشاعة تحققت فى مساء ذلك اليوم ، ثم أوضح العبدلى أنه فى صباح اليوم التالى أرسل السلطان عبد الكريم سلطان لحج المقيم فى عدن كتابا الى المقيم السياسى البريطانى هناك « الميجور جنرال استيوارت G.M. Stewart » (١٩١٦ — ١٩٢٠) جاء فيه : « أننى فى قلق عظيم منذ البارحة لعدم اشعارى بكيفية قبول الهدنة مع بقاء بلادنا تحت يد الأعداء » . اذ كان من الطبيعى أن يخشى سلطان لحج أن ينتهى النزاع بين الدولة العثمانية وبين بريطانيا وحلفائها دون أن يسترد بلاده التى سلبت منه نتيجة لتحالفه مع البريطانيين وحلفائهم ومعاداته للدولة العثمانية. وكان يخشى أن تتخلى عنه بريطانيا أو تتأخر عن مساعدته لاستعادة بلاده كما تركت سلفه من قبل يقع فريسة لهجوم الترك وعدوانهم .

غير أن المقيم السياسى البريطانى فى عدن حرص على تدارك الأمر حتى لا يفقد سلطان لحج نهائيا ثقته فى بريطانيا ، فأرسل اليه خطابا شخصيا نشره العبدلى وجاء فيه : « ان الذى بلغنى رسميا هو أن الهدنة عقدت أمس بين تركيا وبريطانيا وحلفائها ولم أتلق أدنى تفصيل ، انما مما لا ريب فيه أن معنى الهدنة هو أن تركيا قبلت جميع شروط دولتنا . وفى تلغرافات اليوم العمومية أن تركيا سلمت بلا قيد ولا شرط . وانى على يقين من أن جنابكم ستكونون قابضين على زمام مملكتكم فى أقرب وقت » (٢) .

كما أن « الميجور جنرال ستيوارت » المقيم السياسى البريطانى فى عدن أرسل خبر الهدنة رسميا الى على سعيد باشا قائد القوات العثمانية المعسكرة فى لحج مع أحد أفراد أسرة العبادل حكام لحج وهو عبد الله بن على بن أحمد البان . وقد قبض الاتراك على هذا الرسول واحتجزوه يوما ثم سمحوا له بالوصول الى على سعيد باشا واخباره بنبأ الهدنة بصفة رسمية .

وقد تولى أيضا « الكولونيل هوم » حاكم بريم البريطانى ابلاغ حقى بك قومندان باب المندب ما ترجمته من الاصل التركى المنشور بكتاب العبدلى :

« ان الهدنة عقدت بين الدولة العثمانية ودولة الانكليز وحلفائها ، وقد اعلنت الكيفية الى جميع الجهات بتوقيف المحاربة . ونظرا لأحكام هذا التلغراف

---

(١) فاضل حسين (دكتور) : محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية ص ٩
(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

فان الصلح سيكون فى أقرب وقت حسب ظنى وتخمينى ، فبالطبع أن وقوعها انما لأجل اجراء المذاكرات الصلحية خاصة ، وانى أعرض هذا التلغراف مع ابرازى الود الصميم لكم واننى بكل سرور سأقبل كل من يرغب الوصـــول من ضباطكم الى ميون بالصورة الودية وسيعاملون أحسن معاملة » (١) ٠

وقد رفع قومندان باب المندب هذا الاخطار الوارد من حاكم جزيرة بريم البريطانى فى حينه الى على سعيد باشا قومنـــدان لحج ليحاط به علما وليقرر التصرف اللازم تبعا لما يراه ٠ وهكذا انتشر نبأ الهدنة فى اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى ٠ وقد بادر القائد العثمانى على سعيد باشا بسرعة الرد على خطاب « الكولونيل هوم » حاكم بريم معبرا عن سروره واغتباطه بوصول تلك الأنباء المتعلقة بعقد الهدنة ٠ ويتضح من خطاب على سعيد باشا انه ارتضى الاذعان للأمر الواقع بعد أن قبلت الدولة العثمانية الشروط التى فرضها عليها الحلفاء لوقف القتال فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، وبعد الضربات القاسية التى واجهت القوات العثمانية فى سوريا والعراق وبعد انتصارات الحلفاء المتتالية فى جميع الميادين ٠ ومن الواضح أن على سعيد باشا كان موقنا من سوء خاتمة ألمانيا وحلفائها وبأن الهزيمة بالتالى ستلحق بدولته وستؤدى الى انحسار نفوذها عن ممتلكاتها العربية ٠ وكانت الأخبار تصل اليه تباعا عن طريق البريطانيين فى عدن ، مما جعله يستجيب على الفور للأمر الواقع بمجرد اخطاره بعقد الهدنة ٠ كما أن على سعيد باشا لم تكن له أغراض شخصية توحى اليه بالبقاء فى اليمن سوى خدمة دولته والقيام بواجبه العسكرى ، وقد رأى انه استكمالا للقيام بواجبه أن يعاون دولته بالاذعان لأوامرها وتنفيذ تعهداتها وذلك باتخاذ الخطوات اللازمة نحو الانسحاب من اليمن والجلاء عنها تبعا لشروط الهدنة ٠ ولا شك أن على سعيد باشا كان يدرك أن احتفظاه بلحج والتصدى لمقاومة جيوش الحلفاء التى انتصرت فى جميع الميادين الكبرى سينتهى حتما باكراهه على التسليم أو اخراجه من لحج مشيعا بفضيحة الهزيمة ، ولهذا لم يتردد فى قبول أمر الجلاء عن لحج ، والتسليم لأقرب حاكم بريطانى تبعا للأوامر التى وصلت اليه من أحمد عزت باشا ، التى أكد فيها غاية التأكيد أن الهـــلاك محقق للقوات العثمانية اذا تباطأت فى التسليم للحلفاء (٢) ٠

وهكذا توجه على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج تجاه عدن حيث قابل المقيم السياسى البريطانى هناك وتحقق من وقوع الهدنة وهزيمة دولته ، فسلم نفسه وقواته التى بلغت ألف جندى تقريبا الى البريطانيين الذين استقبلوه فى عدن استقبالا طيبا كان مبعثه تلك العلاقات الودية التى قامت

(١) أحمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٤٢ ٠
(٢) أحمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٤٢ ٠

تدريجيا بين الجانبين التركى والبريطانى فى جنوب اليمن أثناء العامين الأخيرين من سنى الحرب والتى سبق أن أشرت اليها مما جعل أمين الريحانى يقول : « ولما أعلنت الهدنة دخل على سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيهـــا استقبالا جميــلا . دخل المدينة لا كالهزوم بل كالفــــاتح المنصور » (١) .

وقد أشار « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى كتابه الى كيفية اســتقبال على سعيد باشا فى عدن ، وامتـــدح شـــخصيته على الرغم من العداء العســـكرى بينهما بقوله : « وقد دخل على سعيد باشا عدن دخـــول المنتصر ، فقد قابلته الجماهير هاتفة له ، وذلك لانه حارب بيدين نظيفتين . وكان جنديا ممتازا ، وكذلك اداريا من الدرجة الأولى ، وقد أكســـبته شخصيته عنـــد زحفه الى الجنوب (تجـــاه عدن) كثيرا من الأصدقاء » (٢)

وقبل أن ينسحب على سعيد باشا من لحج رأى أن عملية الانسحاب هذه سوف تحمله تكاليف كثيرة مما جعله يفكر فى الحصول على مساعدات مالية ، فأرسل برقية تعبر عن غرضـــه هذا الى قائمقام الحجرية اليمنى عبد الوهاب بك فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١٨ . (٣) ويلاحظ أن على سعيد باشا فى تلك البرقية حاول أن يؤكد نبأ هزيمة الدولة العثمانية أمام قوى الحلفاء ، ويرجع أسبابها الى قيام الثورة العربية ضد العثمانيين فى الحجــاز وفلســـطين وســـــوريا والعراق . (٤) غير أن هذا — كما هو معروف — لم يكن السبب الوحيد رغم أهميته فى هزيمة الترك ، بل ان هناك أسبابا عديدة أدت فى النهاية الى تلك الهزيمة . ولكن سعيد باشا أشار الى ذلك الســـبب بالذات ليبرز اخـــلاص اليمنيين وخاصة الشوافع للدولة العثمانية ومساندتهم لها فى الوقت الذى تخلى فيه عنها عرب الحجاز وفلسطين وسوريا والعراق . وكان يهدف بذلك الى اظهار تقدير الترك لعرب اليمن حتى يستدر عطفهم ويحصل على مزيد من مساعداتهم . كما أشار سعيد باشا الى أن والى اليمن العثمانى محمود نديم بك وقائد القوات العثمانية فى العاصمة أحمد توفيق بك أوقفا أرسال المعونات الى الجنود المعسكرين فى لحج ، وأستأثروا لأنفسهم بما حصلوه واقترضوه من الشعب اليمنى . مما جعله فى حاجة ماسة الى الحصول على معاونة أهالى

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .
(٢) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ — ٢٤٥ .
(٣) Jacob, H.F. : op. cit., p. 182.
(٤) Lenczowski, G. : op. cit., p. 59. ذكر « لينوفسكى » انه تبعا لتقدير بريطانيا كانت الثورة العربية بزعامة الشريف حسين فى الحجاز مســـئولة عن شـــغل ٦٥ جندى من العثمانيين فى محاولة اخمادها .

« الحجرية » ، تلك المعونة التى حددها بخمسة أو ستة آلاف ريال وسأرسل لكم حالا سندا مخصوصا بذلك « حتى ينقذ ضباطه وعساكره » ٠

وجدير بالذكر أن العثمانيين حصلوا على مساعدات كثيرة ومتنوعة من الشعب اليمنى عامة ، ومن الشوافع اليمنيين على وجه الخصوص ، أثناء الحصار البحرى البريطانى الذى تعرضت له اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى ٠ وقد خففت هذه المعونات كثيرا من وطأة الحصار ، كما ساعدت العثمانيين أثناء هجومهم على لحج حتى تم انسحابهم منها فى نهاية الحرب العالمية الأولى ٠ ويرجح أن على سعيد باشا قد اضطر الى طلب المعونة المالية من قائمقام الحجرية اليمنى عبد الوهاب نعمان بك ليستعين بها فى تمويل عمليات انسحاب قواته من لحج الى عدن ، دون أن ينتظر المساعدة من والى اليمن العثمانى محمود نديم بك أو من قائد الفيلق العثمانى فى صنعاء أحمد توفيق ، لأنهما عارضا التسليم للبريطانيين ، وأشاعا فى عاصمة الولاية أن نبأ الهدنة تزوير وخدعة بريطانية لاثارة الفتنة والحاق الهزيمة بالعثمانيين ٠ بل انهما عاتبا كذلك على سعيد باشا لمقابلته المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، كما رماه بعض أشياعهما فى اليمن بالخيانة والميل للأعداء ٠

وتعبر البرقية التى أرسلها أحمد توفيق باشا قومندان الفيلق العثمانى فى صنعاء الى على سعيد باشا فى لحج عن وجهة نظر الأول ازاء موضوع الهدنة والتسليم (١) ٠ اذ حاول أحمد توفيق فى تلك البرقية أن يجعل على سعيد يعتقد أن نبأ الهدنة المبلغ اليه من قبل البريطانيين كان نبأ مصطنعا لكى يشجعوا الثورة والتمرد على العثمانيين فى اليمن حتى يمكنهم ذلك من استعادة لحج ٠ كما أشار أحمد توفيق أيضا الى أنه كان يجب على سعيد باشا أن يكذب نبأ الهدنة الذى تلقاه من البريطانيين طالما أن الأوامر لم تكن قد وصلت اليه بعد من عاصمة دولته مما يؤكد صدق هذا النبأ أم كذبه ٠ بل أن أحمد توفيق وجه لوما شديدا لعلى سعيد باشا لذهابه الى عدن ومعه أركان حربه وياوره وزعمه صحة الأقوال التى سمعها من القائد البريطانى مما لا يتفق مع المبادىء العسكرية ومع تعليمات القيادة العثمانية ٠ كما أوضح أحمد توفيق باشا انه هو والوالى العثمانى محمود نديم بك والامام يحيى كانوا موجودين فى صنعاء ، وانهم مسئولون عن الشعب اليمنى ويعملون من أجل الحفاظ على حقوقه ٠ ثم يحذر أحمد توفيق زميله على سعيد باشا من مغبة التصرف فى حقوق الشعب اليمنى دون انتظار لأوامر العاصمة العثمانية بقوله : « فانتم وحدكم المسئولون ماديا ومعنويا عن العواقب الوخيمة التى قد تنتج اذا فعلتم شيئا من ذات أنفسكم بدون أن نأمركم ، وبناء على الأمر الصريح القطعى الذى سيصل من حكومتنا (العثمانية) بالشفرة » ٠ ثم يوضح أحمد توفيق باشا فى ختام

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ — ٢٤٧ ٠

برقيته أن الأموال التى اقترضها من اليمنيين صرفت جميعها فى توفير احتياجات الجنود والموظفين العثمانيين ، وأنه اذا كانت قوات على سعيد باشا تفتقر الى المأكل والملبس والضروريات فان ذلك يرجع الى سُوء التصرف فى موارد لحج الزراعية والجمركية وأموال لواء تعز ، وأنهى أحمد توفيق باشا برقيته بأن طلب من على سعيد باشا اطاعة أوامره ٠

ولكى يؤكد أحمد توفيق قومندان الفيلق العثمانى لعلى سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج تآزر الامام يحيى مع العثمانيين وعدم موافقته على التسليم للبريطانيين فقد أبرق اليه بصورة من كتاب زعم انه قد وصله من الامام يحيى (١) ٠ ويتضـــح من هذا الكتاب رفض الامام لفـكرة التســليم للبريطانيين رفضا قاطعا لأسباب من بينها عدم وصول أوامر صريحة تقضى بذلك من عاصمة السلطنة العثمانية ، وعدم ورود أى اخطار للامام بالهدنة من المقيم السياسى البريطانى فى عدن على النحو الذى ذكره على سعيد باشا ، ولأن الدولة العثمانية كانت ملتزمة ببعض الالتزامات ومدينة بمبالغ طائلة للامام يحيى ويجب أن تفى بتلك الالتزامات والديون قبل أن يرحل عن البلاد جندى واحد من جنودها ٠ وقد أخطر الامام يحيى بذلك والى اليمن محمود نديم بك، كما أخطر كذلك قومندان الفيلق أحمد توفيق ، هذا الى جانب اخطار المقيم السياسى البريطانى فى عدن لحسم الأمر لدى الجهات المعنية ٠ وكان أحمـد توفيق يعزز وجهة نظره فى عدم التسليم للبريطانيين مستندا الى كتاب الامام يحيى لاقناع على سعيد باشا بذلك ليحول بينه وبين التسليم ٠

ولاشك أن سياسة القائد العثمانى فى صنعاء أحمد توفيق باشا التى اتجهت الى عـدم التسليم للبريطانيين كانت تتفق مع مصـلحة الامام يحيى بطبيعة الحال ، خصاصة أن الامام كان يعتبر نفسه الحاكم الشرعى للبلاد ، وان الترك اذا استسلموا فيجب أن يكون استسلامهم له دون غيره لانه صاحب فضل على الدولة العثمانية كما قام بمساعدتها فى محنتها أثناء الحرب اذ أمدها بالمال والرجال رغم اعلانه الحياد ازاء القوى المتنازعة فى ذلك الحين ٠ ولهذا أرسل الامام يحيى برقية الى على سعيد باشا قائد العثمانيين فى لحج يحثه على عدم التسليم للبريطانيين « الكافرين » لأن ذلك على حد تعبيره « يحمل على غير خدمة الدين والوطن » (٢) ٠

ولم تقتصر محاولات التأثير على القائد العثمانى سعيد باشا وتوجيهه الى عدم التسليم للبريطانيين على تحذير أحمـــد توفيق باشـــا بعدم مطابقة ذلك لتعليمات الدولة العثمانية من جهة ، أو لبرقية الامام يحيى التى أشار فيها

(١) أحمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ٠

(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ٠

الى تنافى ذلك مع خـدمة الدين والوطن وعدم الوفاء بالتزامات الدولة ازاء عهودها وديونها للامامة من جهة أخرى ، بل انه فضلا عن ذلك أبدى بعض الموظفين وتجار لواء تعز لعلى سعيد باشا « استياءهم من تغيير الأحوال وتبديل الحكم العثمانى فى اليمن وتخوفهم من سوء المصير » وذلك فى برقية أرسلوها اليه (١) عبروا فيها عن تقديرهم لجهاده فى المحافظة على منطقة لحج التى كانت عرضة للوقوع فى قبضة البريطانيين ٠

وعلى أية حال فقد كان ذلك ما ذهب اليه كل من والى اليمن العثمانى محمود نديم بك ، وقائد العثمانيين فى صنعاء أحمد توفيق باشا ، والامام يحيى وبعض موظفى وتجار لواء تعز من ارتيابهم فى صحة الأنباء الخاصة باعلان هدنة « موندروس » فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ ، واعتبارهم انها خدعة بريطانية يحاول بها البريطانيون فى عدن بث روح الهزيمة والانكسار بين العثمانيين واليمنيين على السواء ٠ غير ان ناصر عنبرى مدير « الشيخ سعيد » كان له رأى آخر بجانب الحقيقة أيضا وان اتخذ اتجاها جديدا ، فقد زعم صحة خبر الهـدنة وأن الدولة العثمانية تمكنت من خديعة بريطانيا وحلفائها وسحقت أساطيلهم على النحو الذى أوضحه فى البرقية التى بعث بها الى على سعيد باشا (٢) ٠

وعلى الرغم من كل ذلك فقد أعلن على سعيد باشا انتهاء الحرب بينه وبين البريطانيين وأن مهمته فى اليمن قد انتهت وأصر على التسليم للبريطانيين فى عدن على الرغم من عدم وصول أوامر صريحة اليه من دولته تقضى بذلك ، بل انه استند فقط الى الاخطار الذى ورد من المقيم السياسى البريطانى فى عدن والذى أفاده فيه بأنباء عقد الهدنة ٠ وقد رأى على سعيد باشا أن يسلم ما تحت يده من الأراضى اليمنية الى البريطانيين اذا لم يسارع من يهمه أمر تلك البلاد فى التوجه اليه واستلامها منه ٠ وكان على سعيد باشا يعرف ان الامام يحيى باعتباره حاكم اليمن الشرعى حينذاك والوريث الطبيعى للحكم العثمانى هناك يجب أن تسلم اليه تلك الأراضى التى يحتلها الترك بعد انسحابهم منها فى أعقاب الهدنة ٠ غير ان على سعيد باشا لم يتح الفرصة من جانبه للامام الذى تخلف عن مشاركته فى مهاجمة لحج وتمسـك بموقفه الحيـادى ازاء القوى المتصارعة ٠ وقد رأى الامام يحيى حينذاك انه لا يستطيع أن يلبى نداء على سعيد باشا فيرسل قواته لاستلام لحج وغيرها قبل أن يسلمها على سعيد باشا للبريطانيين ، لأن أوضاع الامام فى اليمن لم تكن قد استقرت بعد بالقدر الذى يمكنه من القيام بتلك المحاولة كما أن الامام لم يرغب فى اثارة البريطانيين فى عدن ضده فى الوقت الذى أوشكت فيه بلاده أن تحصل على استقلالها ٠ بل انه فضل أن تسير الأمور فى سلام حتى يعد للأمر عدته ، وخاصـة أن

---

(١) أحمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٥٠ ٠

(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥١ ٠

الادريسى كان يقف له بالمرصاد فى عسير ويحاول السيطرة على تهامه وكان لديه من القوة ما يمكنه من ذلك ٠

واذا كان الوالى العثمانى محمود نديم بك قد ارتضى تماما بموقف الامام يحيى الحيادى ازاء القوى المتصارعة أثناء الحرب الأمر الذى طمأنه على عدم قيام الزيديين بأية أعمال عدائية ضـد الترك خاصة فى الوقت الذى زحفت فيه قواتهم على لحج ، فان على سعيد باشا كرجل عسكرى يهمه النصر فى معركته قبل كل شىء كان يريد من الامام أن يشترك بنفسه أو يدفع بعض أنصاره على أقل تقدير لمساندة الترك فى زحفهم تجاه عدن ، الأمر الذى لم يرتضيه الامام يحيى وامتنع عن تنفيذه ٠ وقد أزكى ذلك الامتناع روح الخلاف بين الامام وعلى سعيد باشا فاندفع الأخير مستسلما للبريطانيين عقب الهدنة دون أن يحرص على تسليم ما تحت يده من الأراضى اليمنية للامام يحيى ، مكتف بالاشارة الى استعداده لتسليمها لمن يهمه الأمر اذا أسرع بالحضور اليه للاستلام ، وذلك فى الخطابين (١) اللذين أرسلهما لكل من القائدين العثمانيين أحمد توفيق وحسين باشا المتقاعد فى صنعاء عاصمة ولاية اليمن العثمانية ٠ وكان قد أشيع هناك أن على سعيد باشا قد خان وطنه وسلم البلاد اليمنية التى تحت يده للأعداء الذين اشتروه بالرشوة والمال ٠ ولكن على سعيد باشا حاول فى هذين الخطابين أن يرد عن نفسه تلك الاتهامات لأصحابها ، كما رماهم بالجبن والتكاسل ، بينما أشاد بكفاح القوات العثمانية وشدة تحملها من أجل حماية « اليمن المقدس » ٠ وجدير بالذكر ان المعارضين لحكم الامامة من اليمنيين يرون فى الخطابين المذكورين أنهما وثيقتان هامتان تدينان الامام يحيى بالتقاعس عن تلبية نداء على سعيد باشا باستلام الأراضى التى كان يحتلها فى جنوب اليمن وضم تلك البقاع الى اليمن الأم ، تمهيدا لتحرير اليمن بأكمله من الاستعمار البريطانى ٠

وعلى أية حال فقد اختلف موقف القوات العثمانية المعسكرة فى شمال اليمن عن موقف القوات المعسكرة فى جنوبه فى لحج والتى استسلمت للبريطانيين فى عدن فى أعقاب الهدنة التى أعلنت فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ ٠ اذ أن والى اليمن العثمانى محمود نديم بك والقومندان أحمد توفيق قائد الفيلق العثمانى فى صنعاء كانت علاقتهما بالامام يحيى طيبة على عكس ما كان عليه الحال مع على سعيد باشا ٠ ولهذا حاولا أن يتيحا للامام يحيى فرصة دخول صنعاء وتسليمه مقاليد الحكم فيها ٠ وأن يقيم فى قصر «غمدان» ويمتلك كل ما فيه من معدات ٠ بل ان قائد الفيلق العثمانى أمر بتسليم الامام كل الأسلحة والمدافع والممتلكات الحربية وفاء له بالديون التى اقترضتها

---

(١) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ ٠

منه الدولة أثناء سنى الحرب الكبرى (١) . كما حاول الوالى العثمانى أن يتوسط بنفوذه لخدمة أغراض الامام ، وأن يبرز شخصيته بمركزه الجديد بما له من مظاهر السيادة والسلطة كوارث شرعى للحكم العثمانى فى اليمن ، فبادر بارسال برقية عن طريق على سعيد باشا الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ ردا على كتاب الأخير فى ٥ نوفمبر سنة ١٩١٨ (٢) الذى أطلعه فيه على أنباء الهدنة .

ونتبين من تلك البرقية حرص الوالى العثمانى محمود نديم بك على ابراز أهمية الامام يحيى وشخصيته التاريخية باعتباره الوريث الطبيعى للحكم العثمانى فى اليمن وحاكم البلاد الشرعى بعد جلائهم عنها (٣) . كما أكد محمود نديم « أن أمر البلاد فى يد حضرة الامام » ، وأن الامام أخطره بعدم خروج أحد من العثمانيين الا بناء على أوامره ، ولهذا فالموقف كان يستلزم وصول مبعوث من قبل الدولة العثمانية يحمل تعليمات بالشفرة المتفق عليها الى الامام يحيى وذلك بعد أن أصبحت « حقوق ايفاء شروط الهدنة اليوم هذا فى يد حضرة الامام » . وقد اوضح محمود نديم للمقيم السياسى البريطانى فى عدن أنه على الرغم من تصديقه لأنباء الهدنة فانه مضطر لانتظار تعليمات الباب العالى قبل أن يتحرك من مواقعه ، خاصة أن « المادة ١٦ من شروط الهدنة ، وفى المادة ٥ المصرح بها وفى عموم شروط الهدنة لا يوجد ايضاح ولا حتى اشارة بأن تترك الحكومة الملكية أمور الادارة » . هذا فضلا عن أن تأمين البلاد يستلزم ابقاء بعض الجنود العثمانيين تبعا لما تقتضيه المادة رقم ٥ من شروط الهدنة ولكن على أن يكون ذلك مشروطا بموافقة الامام يحيى ، وسوف يقوم هؤلاء الجنود العثمانيون بواجبهم بتأمين البلاد الى جانب القوات التابعة للامام . وأخيرا طلب والى اليمن العثمانى من المقيم السياسى البريطانى فى عدن ضمان حقه فى المخابرة الرسمية مع حكومته العثمانية فى الآستانة للقيام بمهام منصبه فى الولاية .

ويبدو واضحا أن موقف والى اليمن العثمانى محمود نديم بك فى صنعاء من الامام يحيى قد اختلف اختلافا بينا عن موقف على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج الذى لم يبد أية رغبة أو محاولة لتأكيد حق الامام يحيى فى وراثة الحكم العثمانى فى اليمن أو مساعدته فى هذا السبيل . على أن محمود نديم بك لم يكتف فقط بتأكيد حق الامام فى وراثة حكم العثمانيين فى اليمن

---

(١) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ .

(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٣) فاروق عثمان أباظة : الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ — ١٩١٨ ، رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام ١٩٦٦ ، ص ٤١٥ . وقد نشرت بملاحق الرسالة البرقيات المتبادلة بين القادة العثمانيين فى اليمن المقيم السياسى البريطانى فى عدن .

للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فحسب ، بل انه حاول كذلك أن يجمع حول الامام شيوخ القبائل التى كانت تفكر فى التحول عنه الى جانب البريطانيين وأعوانهم فى جنوب اليمن ، وكانت بعض تلك القبائل على صلة وثيقة بعلى سعيد باشا مثل قبيلة « القماعرة » . وقد أرسل محمود نديم بك برقية الى محمد ناصر شيخ هذه القبيلة ، كما التمس من الامام يحيى أن يرسل هو الآخر برقية أخرى اليه لاجتذابه الى جانب الامام ، تبعا للخطة التى كانت يهدف بها محمود نديم تدعيم مركز الامام يحيى كوريث شرعى للحكم العثمانى فى اليمن .

أما بالنسبة لموقف البريطانيين فى عدن ازاء محاولات والى اليمن العثمانى ابراز شخصية الامام يحيى كوريث شرعى للحكم العثمانى فى اليمن ، حتى يصبح « أمر البلاد فى يد حضرة الامام » ، فان المقيم السياسى البريطانى فى عدن قد عبر عن موقف بريطانيا بعدم قبوله توسط محمود نديم للاتصال بالامام يحيى ، لان الأخير لم يكن طرفا فى الحرب كما انه اعتبر محايدا لا دخل له فى تقرير الموقف . بل ان المقيم السياسى البريطانى فى عدن رأى أن قبول الدولة العثمانية لشروط الهدنة أمر حتمى فرضته قوانين الحرب التى تدعمها فقط القوة العسكرية ، ولهذا فانه لم يجد ضرورة لاستصدار أوامر أخرى بشأن توقف الادارة المدنية لولاية اليمن العثمانية ، باعتبارها تابعة بطبيعة الحال للادارة العسكرية وخاصة فى وقت الحرب . وأما بالنسبة للمسائل المالية المعلقة ومشاكل الحدود فان المقيم السياسى البريطانى فى عدن أوضح أن الحكومة البريطانية ستوجد حلولا لها فى المستقبل . وقد عبر المقيم السياسى البريطانى فى عدن عن وجهة نظر بريطانيا هذه فى الخطاب الذى أرسله الى والى اليمن العثمانى محمود نديم بك (١) ردا على كتابه الذى سبق الاشارة اليه .

وجدير بالذكر أن ذلك الاختلاف الملحوظ بين وجهة نظر البريطانيين التى أوضحها المقيم السياسى البريطانى فى عدن من جهة ، وبين وجهة النظر العثمانية التى أوضحها محمود نديم بك والى اليمن العثمانى من جهة أخرى بالنسبة لموقف الامام يحيى فى أعقاب هدنة « موندروس » فى سنة ١٩١٨ باعتباره الوريث الشرعى للحكم العثمانى فى اليمن ، فان ذلك الاختلاف كان سببا مباشرا فى المشاكل التى أثيرت بعد ذلك بين الامام يحيى والبريطانيين حول تحديد الحدود بين منطقة نفوذه ومنطقة النفوذ البريطانى فى جنوب اليمن . بل ان البريطانيين قد احتلوا بعد ذلك ميناء الحديدة المنفذ الطبيعى لأقاليم اليمن الوسطى وللعاصمة صنعاء لتكون فى يدهم ورقة رابحة يساومون بها الامام يحيى ثم يسلمونها الى منافسه الادريسى على الرغم من العلاقات

---

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

الودية التى أشار المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى وجودها بين الامام وبريطانيا ۰ وكانت بريطانيا تهدف من مساعدة الادريسى فى أعقاب الحرب الكبرى وبعد جلاء العثمانيين عن اليمن الى الابقاء عليه حليفا لها ومنافسا للامام حتى لا يقوى الأخير بالدرجة التى تشكل خطرا على المصالح البريطانية فى عدن وجنوبى اليمن ۰

وعلى أية حال فان البريطانيين قد رأوا أن نشاط العثمانيين الحربى فى منطقة البحر الأحمر وخاصة فى تهامة اليمن - على الرغم من ضآلته - فضلا عن سيطرتهم على لحج الواقعة شمالى عدن أن ذلك يعد جزءا من نشاط دول الائتلاف المعادية للحلفاء ۰ ولهذا فأثناء قيام القائد البريطانى « الجنرال اللنبى» بزحفه المعروف على العثمانيين فى فلسطين ، فقد أصبحت مهمة الأسطول البريطانى فى البحر الأحمر أن يقوم بمحاصرة السواحل التى يسيطر عليها الأتراك وضرب الموانى التابعة لهم على ساحل جزيرة العرب كجزء من الخطة الحربية للهجوم العام لحملة «اللنبى» المذكورة ۰ وهكذا قام الأسطول البريطانى بضرب الموانى اليمنية التى يسيطر عليها الترك كالحديدة ومخا والصليف واللحية ۰ كما أمدت بريطانيا حليفها الادريسى فى شمال اليمن بمزيد من المؤن والعتاد الحربى وطالبته بسرعة الهجوم برا على الأتراك العثمانيين هناك ۰

وفى تلك الأثناء انهارت خطوط دول الائتلاف فى جميع الميادين أمام قوى الحلفاء المنتصرة فانهزمت بذلك الدولة العثمانية وخسرت معركتها وآمالها فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى سنة ۱۹۱۸ ۰ وقد دخلت جيوش بريطانيا وفرنسا الى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وصدرت أوامر سلطان العثمانيين الجديد محمد رشاد بواسطة الوزارة العثمانية الجديدة لجميع القوات التركية فى البلاد العربية بالاستسلام والرحيل بواسطة بواخر النقل البريطانية ۰ وقد استلم الادريسى ميناء « اللحية » وبلدة « الصليف » وغيرها من البلاد التى كان يسيطر عليها الترك فى شمال اليمن ۰ كما خلى الميدان للجيش الادريسى بانسحاب الأتراك فى جهة بلاد « قيس » و « الحميسين » و « حجور » فانطلق الأدارسة فى توسعهم الى قرب « حجة » حيث اصطدموا بمقاومة قوات الامام يحيى وجها لوجه ، وأخيرا استطاعت القوات الادريسية أن تدعم مراكزها فى تلك الجهات بالقوة (۱) ۰

أما فى وسط اليمن فان الامام يحيى توجه إلى « الروضة » احدى ضواحى صنعاء حيث رحب به عدد من مشايخ القبائل اليمنية ۰ ونظرا لأن العلاقات كانت طيبة بين الامام يحيى والوالى العثمانى محمود نديم بك على عكس ما كان عليه الحال بين الامام والقائد العثمانى فى لحج على سعيد باشا ، ولهذا فلم يكن

---

(۱) محمد بن أحمد العقيلى : المصدر السابق ، ج ۲ ، ص ۱۱۲ - ۱۱۳

مستغربا أن يوجه محمود نديم بك دعوة الى الامام يحيى لدخول صنعاء ويبدى استعداده لتسليمه مقاليد الحكم باعتبـــاره وريثا شرعيا للحكم العثمـــانى فى اليمن • وهكذا دخل الامام يحيى صنعاء فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ بنـــاء على دعوة الوالى العثمانى الذى أمر بتسليمه « قصر غمدان » وما فيه من معدات • كما أمر القائد العثمانى أحمد توفيق بتسليم الأسلحة والمدافع وكل ممتلكاتهم الحربية للامام مقابل ما كان له من ديون عليهم على النحو الذى أعلن فى ذلك الوقت (١) •

وبالنسبة للأتراك العثمانيين فى جنوب اليمن فان البرقيات والمكاتبات التى تبودلت بين قائدهم فى لحج على سعيد باشا وبين الوالى العثمانى محمود نديم بك والامام يحيى من جهة ، والمقيم السياسى البريطانى فى عدن من جهة أخرى – والتى سبق أن أشرت اليها – قد انتهت جميعها بوصول أوامر العاصمة العثمانية باخراج « القوة العسكرية والادارة الملكية العثمانية » من اليمن ، تبعا لشروط هدنة « موندروس » المنعقدة فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ • ولهذا اتجه على سعيد باشا الى عدن حيث سلم سيفه وعساكره للمقيم السياسى البريطانى فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ (٢) ، بعد أن باعوا جميع الحبوب المخزونة فى المخازن من مزروعات لحج وباع الضباط العثمانيون أسلحتهم وأمتعتهم بأبخس الأثمان حتى بلغت قيمة النيف خمسة قروش مصرية ، واستلم «الجنرال بتى» لحجا ، وعسكر جنوده البريطانيون فى « أم القفع » •

على أنه فى نفس الوقت تقريبـــا الذى ســـلم فيه على سعيد باشا قواته للمقيم السياسى البريطـــانى فى عدن كانت الحديدة هدفا لقنابل الأســـطول البريطانى ، لأن العثمانيين هناك حاولوا المقاومة نتيجة لتردد الوالى العثمانى محمود نديم بك فى الاقتناع بالتسليم لبريطانيا ، ثم احتلت القوات البريطانية مدينة الحديدة بعد ضربها مباشرة (٣) • وقد أوضح الواسعى صـــــورة لحادثة ضرب الأسطول البريطانى للحديدة بالقنابل واحتلالها بقوله : « وفى هـــذه السنة (١٩١٨ م – ١٣٣٧ هـ) هجم الانجليز على الحديدة باحد عشر أســـطولا على حين غفلة بعد طلوع الفجر من غير اعلان ولا استعداد ، وضربها بالمدافع وخربها ، وذهبت أموال كثيرة وفر أهلها الى التهايم فى حالة يؤسف لها ولم يأخذوا معهم شيئا وكل أحد نجا بنفسه ، والمدافع تطلق قنابلها ، ثم احتـــل الانكليز الحديدة وتراجع الناس ، وصار أكثر الناس يســـكنون الخرائب وفى البيوت القش وبعضهم صلح منزله بما يقدر عليه » (٤) • ويقول أمين الريحانى

---

(١) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ •
(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ص ٢٦٠ •
(٣) Rihani, A. : Arabian Peak and Desert, Travels in Yemen
(٤) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٣٢ •

ن الحديدة ضربت مرتين من البحر ، المرة الأولى فى سنة ١٩١٢ أثنــاء الحرب التركية الايطالية ، والمرة الثانية فى سنة ١٩١٨ فى الحرب العظمى الأولى عندما حمل « الجنرال اللنبى » على الترك فى فلسطين . فكان ضرب الحديدة جزءا من الهجوم العام ٠ كما ذكر الريحانى أن قنصل بريطانيا فى الحديدة كان يومئذ على ظهر البـــارجة التى كانت تصدر منها الأوامـــر باطلاق المدافع ٠ وكانت دار القنصلية بأمر القنصل نفسه الهدف الأول لقنابل الأسطول لان فيها حسب ادعائه أوراقا سرية ، غـــير أن الريحـــانى يذكر أن الاشـــاعات لا تثبت ذلك الادعاء ، اذ قيل أن القنصل أمر بتدمير بيته لان فيه أثاثا شاء حرقه طمعا فى الحصـــــول على التعويض ٠ وقد دفعت له الحكومة البريطــــانية اضعاف قيمته تعويضا (١) ، غير أنها لم تفعل ذلك مع اليمنيين أصحاب الحديدة الذين لاذوا بالتهائم « لا يلوون على شىء ولم يأخـــذوا معهم ما يقوم بحاجاتهم ، اذ كانوا يكتفون بالنجاة من الموت المحتوم » (٢) ٠ على أن البريطانيين كانوا يرمون من وراء ضربهم للحديدة واحتلالها وضـــع أقدامهم فى اليمن لمواجهة الامام يحيى ومساومته عليها ، بعـــد أن بدا أنه يريد أن يقوم بدوره كاملا كوريث شرعى للحكم العثمانى ٠ وكانت بريطانيا تعلم أن الحديدة بالنسبة للامام ذات أهمية بالغة لانها المنفذ الطبيعى لصنعاء ووسط اليمن ٠ وقد انتهز البريطانيون فرصة تردد الترك فى الاستسلام ليضعوا يدهم عليها حتى لا يتهموا فيما بعد بأنهم بدأوا بالعدوان ٠ بل ان البريطانيين ادعوا ان قواتهم دخلت الحديدة للمحافظة على الأمن والنظام ، وأنهم سيعيدونها للامام بعد استقرار الموقف ، وذلك تبعا لما ورد بكتاب « والى عدن » المرسل للامام يحيى ردا على احتجاجه على ضرب المدينة وتخريبها (٣) ٠ غير ان البريطـــانيين كانوا يهـــدفون من سيطرتهم على الحديدة الوقوف فى وجه توسع الامام يحيى حتى لا يشكل خطرا على مصالحهم فى اليمن ٠ بل أن العقيلى يذكر ان البريطانيين كانوا يهدفون أيضا الى اتخاذ الحديدة نقطة البــدء فى الانطلاق لتأسيس « مســتعمرة جديدة تتصـــــل برا بمستعمرتهم فى عدن » ٠ وتمهيدا لبلوغ تلك الغـــاية فانهم ضربوا نطاقا من الاسلاك الشائكة حول المدينة وأخذوا فى استمالة شيوخ القبائل المجاورة (٤) ، على نحو ما حدث مع شيوخ النواحى المجاورة لعدن ٠

وجدير بالذكر أن البريطانيين اضـــطروا فيما بعد الى تسليم الحـــديدة للادريسى فى ٣١ يناير سنة ١٩٢١ بعد أن فشلت محاولاتهم وخاصــة بعثة

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٤ ٠

(٢) حسين بن احمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، ص ٩٢ ٠

(٣) Rihani, A. : op. cit., p. 229.

(٤) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٣ ٠

« جاكوب » التى أرسلوها عن طريق الحديدة وحالت قبيلة القمعرى دون وصولها الى صنعاء — للاتفاق مع الامام يحيى الذى أمر قواته بالزحف على النواحى التسع المجاورة لعدن ليضطر البريطانيين أو يساومهم الى اخلاء الحديدة (١) . كما أن القبائل اليمنية هاجمت البريطانيين فى الحـــديدة مما ترتب عليه تغيير ثلاثة قناصل لم يوفق واحد منهم فى تهدئة الحالة فضلا عن التمكين لسياسة بريطانيا خلال السنة التى احتلوا فيها المدينة (٢) . وقد قام البريطانيون باستفتاء أهل الحديدة فى الانضمام الى الحكومة التى يرغبونها بعـــد جلاء الأتراك ، فتمسك معظمهم اما بعودة الحكم العثمانى أو الانضمام الى «الحكومة العربية المصرية»(٣). وأخيرا أوعز المعتمد البريطانى فى الحـديدة للجيش الادريسى فدخل المدينة ، وباشر ادارتها وتم جلاء البريطانيين عنها .

وعلى أية حال فقد سلم البريطانيون الحديدة للادريسى على كره من أهلها « الذين كانوا لا يرغبون فى حكم امام صنعاء ولا امام صبيا (الادريسى) » (٤) ، ويرجع ذلك الى أنهم كانوا يشتغلون بالتجارة ويفضلون العمل فى هدوء بعيدا عن ضوضاء السياسة وخطر الصراع بين الزعماء المنافسين الذين سببوا الخراب والدمار لمدينتهم دون أن يقدموا اليهم أية تعويضات ، بل يجمعون منهم ما يكفى لشئون الادارة ، ويفرضون عليهم ضرائب باهظة ، جعلت كثيرين منهم يفضلون الهجرة الى عدن ، على الرغم من أن الادارة الادريسية قاومت الهجرة وقبضت على بعض كبار التجار المهاجرين وأسرهم فى ميناء « ميدى » (٥) .

ولا شك أن تسليم البريطـانيين مدينة الحديدة للادريسى كان تدخلا من بريطانيا فى توزيع الأراضى والحدود بين الحكام المحليين المتنافسين ، مما أثار الامام يحيى ضد بريطانيا وسياستها وجعله يتجه الى مهاجمتها فى النـواحى التسع المحيطة بعدن فى جنوبى اليمن باعتبارها جزءا من أملاك أجداده ينبغى له أن يسترده . وكان يهدف من ذلك بطبيعة الحال الى اتخاذ تلك النواحى « رهينة مقابل ميناءى اللحية والحـــديدة » (٦) التى سيطر عليهـا الادريسى بمساعدة بريطانيا . وقد أكد « جاكوب » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن ذلك عندما قال : « ان الحديدة لم تكن ملكا خاصا لنا حتى نمنحها للغير ، كمـا ان الادريسى لم يغتنمها من الترك أثناء الحرب ، وكان أول واجب علينا بعد عقد الهدنة مع تركيا أن نبعد الادريسى عن منطقة أصبحت بالاكتساب للامام وحده ،

---

(١) Survey of International Affairs, 1925, Vol. I. p. 321.

(٢) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ؛ ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٤) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٦٩ .

(٥) Jacob, H.F. : op. cit., p. 249.

(٦) Survey of International Affairs, 1928 ; p. 311.

اذ أن الحديدة هي الميناء الطبيعي لصنعاء » (١) .

وتجدر الاشارة الى أن حكم الأدارسة قد اعتراه الضعف والانهيار بعد وفاة محمد الادريسى فى ٢٠ يناير مارس سنة ١٩٢٣ . ولم يستطع ابنه الأمير على تسيير دفة الأمور لصغر سنه (٢) ، مما جعل امارة الأدارسة تمر خلال السنوات التى مضت بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٠ فى أدوار اضطراب داخلى ، فصارت مثارا لأطماع جيرانها وخاصة الامام يحيى الذى تمكن من طرد الأدارسة من الأراضى اليمنية التى كانت تحت يد الترك قبل جلائهم وأن يحصرهم فى عسير فقط . وقد حدد الواسعى انتصارات الامام يحيى على الأدارسة بقوله : « واستلم (الامام يحيى) باجل ثم الحديدة من دون حرب ، واستلم الموانى التى على ساحل البحر الأحمر «ابن عباس» و «الصليف» و «اللحية» و «ميدى» ، ثم مدن «الضحى» و «الزهرة» و «المغيرة» و «الزيدية» و «المراوغة» وغيرها ، وعين الامام لهذه عمالا وحكاما ومعلمين » (٣) . بل ان الامام يحيى احتل بعض أراضى عسير وواصل الزحف شمالا ، مما حمل الأدارسة على خلع الأمير على ، ووضعوا عمه السيد حسن الادريسى مكانه . وكان ابن سعود قد احتل الحجاز فعقد معه معاهدة تحالف عام ١٩٢٦ ، بواسطة السيد أحمد الشريف السنوسى الكبير ، الذى سارع من ليبيا لينقذ امارة نسيبه حسن الادريسى وظل الأمر كذلك الى أن ضغطت المطامع على هذا الأمير ، فاضطر فى النهاية أن يطلب ضم بلاده الى ملك حليفه ابن سعود ، فطويت بذلك صفحة الأدارسة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر .

وعلى أية حال ، فقد سلم القائد العثمانى فى لحج على سعيد باشا نفسه ورجاله للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ ، وأصبح الجنود العثمانيون بطبيعة الحال أسرى حرب لدى البريطانيين فى عدن ، ومكثوا فيها أياما حتى لحق بهم زملاؤهم فى بقية أجزاء اليمن ممن تجمعوا فى المناطق الساحلية . وخاصة فى ميناءى « اللحية » و « الحديدة » وحملتهم اليها البواخر البريطانية (٤) . وقد رحلت بعد ذلك القوات العثمانية المستسلمة من عدن الى جزيرة مالطة بواسطة البواخر البريطانية ، التى أوصلتهم فيما بعد الى بلادهم فى الأناضول .

وهكذا تمكنت السياسة البريطانية من تحقيق أهدافها فى منطقة البحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى انطلاقا من القاعدة البريطانية الهامة فى عدن

---

(١) Jacob, H.F. : op. cit., p. 241.

(٢) Survey of International Affairs, 1925, p. 322.

(٣) عبد الواسع الواسعى : المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

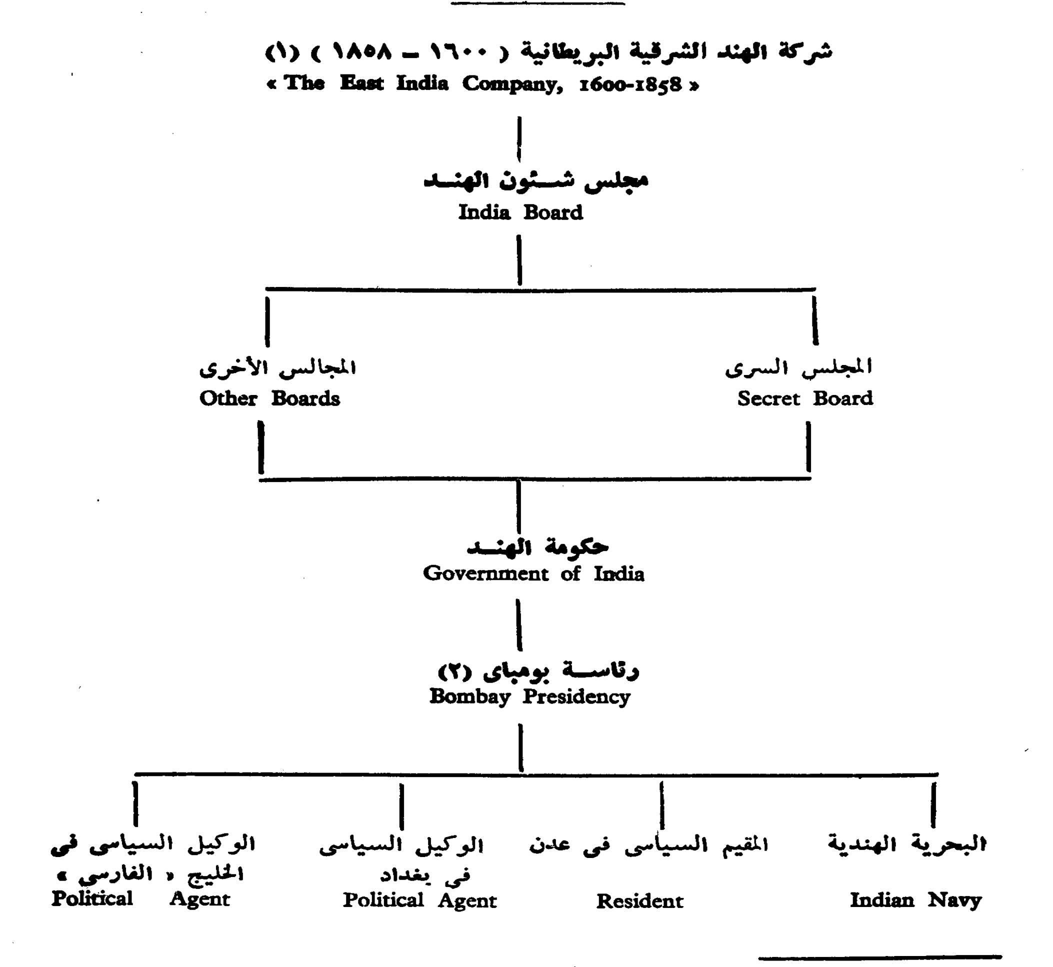
(٤) محمد بن احمد عيسى العقيلى : المصدر السابق ج ٢ ، ص ١١٢ .

التى تم فيها استسلام القوات العثمانية للمقيم السياسى البريطانى هناك ايذانا بانحسار النفوذ العثمانى عن آخر معقل له فى بلاد اليمن بل فى منطقة البحر الأحمر بوجه عام • وقد تأكد هذا الوضع وصودق عليه دوليا فى اليوم الرابع والعشرين من يوليو سنة ١٩٢٣ أثناء الدورة الثانية لمؤتمر الصلح الذى عقد بمدينة لوزان لتسوية المسائل التى لم تكن قد سويت بين الترك والحلفاء • وقد نصت المادة السادسة عشرة من معاهدة « لوزان » التى أصبحت سارية المفعول اعتبارا من اليوم السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ (١) على « تنازل تركيا عن جميع حقوقها فى الاراضى الواقعة خارج الحدود التى عينتها المعاهدة » ، وكانت منطقة البحر الأحمر وميناء عدن الهام خارج نطاق تلك الحدود •

ومما لا شك فيه أن المميزات الخطيرة التى انتفع بها البريطانيون نتيجة لوجودهم فى عدن ، التى كانت مركز تموين ، وبرج مراقبة ، وقاعدة انطلاق ، قد زادت من تأكيد أهميتها البالغة للمصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر فى شتى المجالات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ، على نحو ما بدا بوضوح أثناء الحرب العالمية الأولى • وكان طبيعيا أن يؤدى ذلك بالتالى الى زيادة تشبث البريطانيين بوجودهم فى عدن ، وبالبقاء فيها والحفاظ عليها أطول مدة ممكنة ، حتى كانت بالفعل هى أول نقطة سيطروا عليها واستقروا فيها فى منطقة البحر الأحمر ، كما كانت هى آخر نقطة اضطروا للتخلى عنها فى المنطقة المذكورة — على نحو ما حدث فيما بعد فى سنة ١٩٦٧ •

(١) فاضل حسين (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥ — ١٩ •

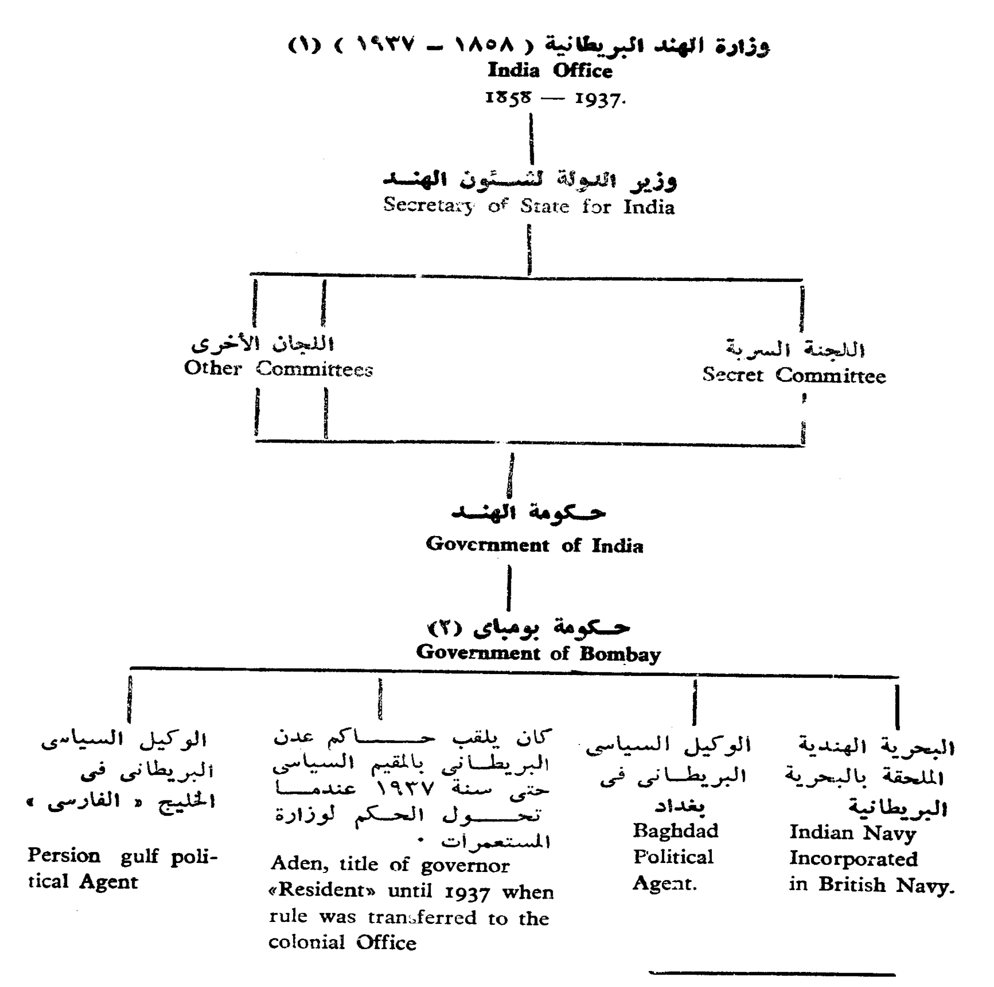
ملحق رقم (١)



(١) Marston, T.E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area 1800 — 1878, p. XII.

(٢) كانت لرئاسة بومباى (١٦٠٠ – ١٨٥٨) صلاحيات رعاية المصـالح البريطانية فى عدن وجنوبى البحر الاحمر •

ملحق رقم (٢)



(١) كان الغرض من انشـاء وزارة الهند البريطانية فى سنة ١٨٥٨ هو وضع الأجهزة التى تضخمت مسئوليتها فى ظل ادارة شركة الهند الشرقية البريطانيـة تحت الاشراف المبـاشر للحكومة البريطانية فى لندن ·

(٢) كانت لحكومة بومباى صلاحيات رعاية المصالح البريطانية فى عدن وجنوبى البحر الأحمر فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٥٨ — ١٩٣٧ ·

ملحق رقم « ٣ »

المقيمون السياسيون في عدن ١٨٣٩ – ١٩١٨

British Political Residents in Aden 1839 - 1918

١ – الكابتن ستافورد بيتزويرث هينز ١٨٣٩ – ١٨٥٤ .
— Captain Stafford B. Haines, 1839 — 1854.

٢ – الكولونيل جيمس أوترام ، يونيو – سبتمبر ١٨٥٤ .
— Colonel James Outram, June — September 1854.

٣ – البريجادير وليم كوجلان ١٨٥٤ – ١٨٦٣ .
— Brigadier William M. Coghlan, 1854 — 1863.

٤ – الكولونيل وليم ميرويذر ١٨٦٣ – ١٨٦٧ .
— Colonel William Merewether, 1863 — 1867.

٥ – الميجور جنرال ادوارد راسيل ١٨٦٧ – ١٨٧٠ .
Major General Edward L. Russell, 1867 — 1870.

٦ – الميجور جنرال سير تشارلز تريمنهير ١٨٧٠ – ١٨٧٢ .
— Major general Sir Charles W. Tremenheere, 1870 — 1872.

٧ – البريجادير جنرال جون شنيدر ١٨٧٢ – ١٨٧٨ .
— Brigadier general John W. Schneider, 1872 — 1878.

٨ – البريجادير جنرال جيمس بلير ١٨٧٨ – ١٨٨٦ .
— Brigadier general James Blaire, 1878 — 1886.

٩ – البريجادير جنرال هوج ١٨٨٦ – ١٨٩١ .
— Brigadier general A.G.F. Houge, 1886 — 1891.

١٠ – البريجادير جنرال جون جوب ١٨٩١ – ١٨٩٥ .
— Brigadier general John Job, 1891 — 1895.

١١ – الميجور جنرال كينجهام ١٨٩٦ – ١٨٩٩ .
Major general S.A. Kingham, 1896 — 1899.

١٢ ـ البريجادير جنرال كريج ١٩٠٠ ـ ١٩٠١ ٠
Brigadier general O.M. Kreag, 1900 — 1901.

١٣ ـ البريجادير جنرال بنتون ١٩٠١ ٠
Brigadier general H.A. Benton, 1901.

١٤ ـ الميجور جنرال ميتلند ١٩٠١ ـ ١٩٠٥ ٠
Major general P.J. Maitland, 1901 — 1905.

١٥ ـ الميجور جنرال ميسن ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ ٠
Major general H.M. Maison, 1905 — 1906.

١٦ ـ الميجور جنرال دى براث ١٩٠٦ ـ ١٩١٠ ٠
Major general I. De Brath, 1906 — 1910.

١٧ ـ الميجور جنرال سير جيمس بيل ١٩١٠ ـ ١٩١٤ ٠
— Major general Sir James Beel, 1910 — 1914.

١٨ ـ الميجور جنرال شو ١٩١٥ ٠
Major general D.G.L. Shaw, 1915.

١٩ ـ الميجور جنرال سير جورج يانجهاسبند ١٩١٥ ٠
Major general Sir George Younghusband, 1915.

٢٠ ـ البريجادير جنرال برايس ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ٠
Brigadier general C.H.U. Price, 1915 — 1916.

٢١ ـ الميجور جنرال استيوارت ١٩١٦ ـ ١٩٢٠ (١) ٠
Major general G.M. Stewart, 1916 — 1920.

---

(١) كان لكل مقيم سياسى بريطانى فى عدن مساعد واحد أو أكثر تبعا لتضخم المسئوليات ٠ وفى حالة غياب المقيم السياسى البريطانى خارج عدن فقد كان يقوم بعمله هناك أقدم مساعديه ٠ فاذا ما تغيب المقيم ومساعدوه فقد كان يقوم بعمله فى تلك الحالة قائد الحامية البريطانية فى عدن

مصادر البحث

أولا : مصادر باللغة العربية

(١) المخطوطات

ـ ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود بن علي ، المتوفى فى سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩/٨ م) : « الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية » مخطوطة مصورة على ميكروفيلم محفوظة بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة تحت رقم ٣٥٦ • وهي مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة راغب باشا باستانبول تحت رقم ٩٧٩ ، ٤٧٨ ق ، وتتكون من جزءين فى ثلاثة مجلدات ، وتتناول بتفصيلات مطولة تاريخ اليمن منذ القدم حتى عهد السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥) •

ـ ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني الزبيدي الشافعي (٨٦٦ ـ ٩٤٤ هـ) و (١٤٦١ ـ ١٥٣٧ م) :

« الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد » •

مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح ، وهي مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ م ، وتتناول تاريخ اليمن فى الفترة الممتدة بين عامي ٩٠١ ـ ٩٢٣ هـ (١٤٩٥ ـ ١٥١٧ م) •

« قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون » •

مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٢٤ تاريخ وتتناول تاريخ اليمن حتى نهاية الدولة الطاهرية فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) •

ـ بومخرمه ، أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن علي بن أبي مخرمة (٨٧٠ـ٩٤٧هـ) (١٤٦٥ ـ ١٥٤٠ م) •

« قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر »

مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٦٧ تاريخ، وهى مصورة عن نسخة بنى جامع بالآستانة وتشمل تراجم الأعيان والمشاهير منذ بداية الهجرة النبوية حتى عام ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م)

وتتكون من ثلاثة أجزاء ولا يوجد منها حاليا سوى الجزء الثالث فقط ، وكلها مرتبة على طريقة الحوليات •

– عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى • المتوفى فى سنة ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) :

« روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح » •

مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح ، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ تاريخ م ، وتقع المخطوطة فى ثلاثة أجزاء ، الجزء الثالث منها أكمله ابن المؤلف عن لسانه ، وتتناول المخطوطة تاريخ اليمن منذ مطلع القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) •

– قطب الدين النهروانى ، محمد بن أحمد الحنفى المكى : مفتى مكة فى عصره والمتوفى فى سنة ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م) •

« البرق اليمانى فى الفتح العثمانى »

مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٤١٤ تاريخ ، وتتناول تاريخ اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى حتى نهاية حملة سنان باشا الوزير على اليمن أى حوالى سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٤ م) • وتوجد نسخة أخرى من هذه المخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ٤٢٧٠ ج ، ف ٣٠١ •

– الموزعى ، شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد – نائب الشريعة فى مدينة تعز • لم يعرف تاريخ وفاته ويرجح أنه كتب مخطوطته فى عهد السلطان عثمان الثانى (١٦١٨ – ١٦٢٢ م) •

« الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان »

مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب تحث رقم ٢٣٧٩ ، وهى منقولة من نسخة الميكروفيلم المحفوظ بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، الميكروفيلم مصور من نسخة مكتبة على أميرى باستانبول •

ـ يحيى بن الحسين بن الامام القاسم بن محمد : المتوفى فى سنة ١١٠٠ هـ (١٦٨٩ م) :

« أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن »

مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقـــاهرة تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ ، وتتناول عرض الأحداث منـــذ الهجرة النبوية حتى عام ١٠٥٦ هـ (٦/١٦٣٧ م) ٠

وجدير بالذكر أن هذه المجموعة من المخطوطات سبق أن اعتمدت عليها فى دراستى للماجستير عن « الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ ـ ١٩١٨ » ووجدت امكانية الاستفادة من بعض جوانبهما فى توضيح طبيعة الأوضاع القـائمة فى منطقة البحر الأحمر عند بداية وصول أول تيارات المد الاستعمارى الأوربى الى هناك فى مطلع العصر الحديث وموقف القوى اليمنية العربية والى جانبها القوى الاسلامية الممثلة فى المماليك والأتراك العثمانيين فى مواجهته ٠

(٢) الوثائق

تتميز الوثائق العربية المتعلقة بموضوع البحث باختلاف أنواعها وتعـدد موضوعاتها فضلا عن وجودها فى أماكن متعددة على النحو التالى :

(أ) محفوظات دار الوثائق القومية بالقاهرة :

وتضم وثائق وسجلات عابدين التى يهمنا منها فى هذا البحث :

- دفاتر ومحافظة عابدين ٠
- دفاتر ومحافظة المعية ٠
- محافظ بحر برا ٠
- محافظ الحجاز ٠
- محافظ السودان ٠
- ملف قناة السويس ٠

وتشتمل هذه الدفاتر والمحافظ والملفات على الأوامر الصادرة للموظفين المكلفين بتنفيذ سياسة الحـكومة المصرية فى منطقة البحر الأحمر أثنـاء القرن التـاسع عشر ، كما تضم الخطابات والبرقيـات العادية والشـفرة المتبادلة بين الحكومة المركزية فى مصر والمحافظين وغيرهم من موظفيها هناك ٠ بل انها تضم أيضا ما دونه الكتبة فى هذه الجهات فى دفاتر الصادر والوارد ويشير من قريب أو بعيد الى العلاقات بين ممثلى الحكومة المصرية وبين البريطانيين فيما قبل وبعد

احتلالهم لعدن فى سنة ١٨٣٩ · هذا فضلا عن المكاتبات المتبادلة بين الحكومة المصرية وممثلها فى الآستانة (القبو كتخدا) أو بينها وبين رجال الباب العالى . أو بين هؤلاء وممثل بريطانيا فى الآستانة ، وبينهم وبين ممثلهم فى العاصمة البريطـــانية ويتعلق بالسياسة البريطـــانية فى عدن ومنطقة البحر الأحمر على السواء ·

ويمكن تقسيم وثائق عابدين المتعلقة بمنطقة البحر الأحمر من الناحيـة الموضوعية الى المجموعات التالية :

- الوثائق المتعلقة بسواكن ومصوع ·
- الوثائق المتعلقة ببربرة وزيلع وهرر ·
- الوثائق المتعلقة بالحبشة والصومال وزنجبار ·
- الوثائق المتعلقة بالحجاز وموانيه ·
- الوثائق المتعلقة باليمن وبخاصة منطقتى عسير وتهامة ·
- الوثائق المتعلقة بقناة السويس ·

وقد أشرت فى هوامش المتن الى أرقام وتواريخ الوثائق التى اســتندت اليها مباشرة (فى حالة وجود أرقام أو تواريخ) مع الاشارة الى نوعية مصدرها بطبيعة الحال

وجدير بالذكر أن مجموعات من هذه الوثائق سبق الاستناد اليها فى أبحاث عديدة باللغة العربية واللغات الأجنبية ، كما نشرت مجموعات منها فى كتب اختصت بنشر نصوصها والتعريف بها وأخص بالذكر كتابى :

- شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمـر ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩ ، مطبــوعات الجمعية المصرية للدراســات التاريخية ، القــاهرة ١٩٥٩ ·· ويتضمن الكتاب مختارات من وثائق عابدين التى استند اليها المؤلف فى رسالته للدكتوراه عن « سياسة مصر فى البحر الأحمر ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩ » التى قدمها لجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٩ ·

- عبد العزيز محمد الشـــناوى (دكتور) وجلال يحيى (دكتور) : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩ · وضم هــذا الكتاب بصفة خاصــة الوثائق المتعلقة بقنــاة السويس وبالتنافس الدولى فى منطقة البحر الأحمر أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين ·

(ب) محفوظات رئاسة الجمهورية بالقاهرة :

وتضم مجموعات من الوثائق المتعلقة بسياسة مصر فى منطقة البحر الأحمر وخاصة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وهى تلقى ضوءا على طبيعة العلاقات المصرية البريطانية فى المنطقة المذكورة فى ذلك الحين . ومن أهم الوثائق الموجودة بهـــا وثيقة اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ بين الحكومة المصرية وبريطانيا بشأن ادارة السودان .

(ج) محفوظات وزارة الخارجية بالقاهرة :

وتضم مجموعات من الوثائق المتعلقة بالســـياسة المصرية وموقفها ازاء السياسة البريطانية فى منطقة البحر الأحمر وازاء التنافس الدولى هناك . ومن أهم الوثائق الموجودة بها والمرتبطة بموضوع البحث تلك الوثائق المتعلقة بموقف الحكومة المصرية ازاء اتفاقيتى ٢٤ مارس و ١٥ ابريل سنة ١٨٩١ بين بريطانيا وايطاليا اللتان حددتا منطقة نفوذ ايطاليا على الساحل الغربى للبحر الأحمر فى ذلك الحين .

(د) محفوظات وزارات الخارجية العربية :

وتضم مجموعات من الوثائق المتعلقة بسياسة الدول العربية ــ وخاصــة تلك الواقعة فى حوض البحر الأحمر ــ مع جاراتها ومع القوى الأجنبية وخاصة مع السلطات البريطانية وممثليها فى منطقة البحر الأحمر فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد صدرت عن وزارات الخارجية العربية بيانات رسمية لها أهميتها البالغة فى توضيح مواقفها ازاء القضـــايا المختلفة فى المنطقة المذكورة وأخص منها بالذكر

- الكتاب الأخضر السعودى الذى أصـــدرته وزارة الخارجية السعودية تحت عنوان « بيـــان عن العـــلاقات بين المملكة الســعودية والامام يحيى حميد الدين » ــ مطبعة أم القرى بمكة فى سنة ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٤م.
- الكتاب الذى قدمه عبد الرحمن أبو طالب ــ ممثل المملكة المتوكلية اليمنية « الجمهورية العربية اليمنية حاليا » ــ الى الادارة السياسية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة فى ٥ أغسطس سنة ١٩٥٩ تحت عنــوان « الجنــوب اليمنى المحتل من النواحى التاريخية والطبيعيــة والســياسية ونصوص الاتفاقات والمعــاهدات البريطانية مع امارات الجنوب » . ويضم هذا الكتاب نصوص الاتفاقات والمعاهدات بأنواعها المختلفة من معاهدات الصــــداقة والولاء ، الى معاهدات الحماية ، الى معاهدات الاستشارة ، التى عقدتها السلطات البريطانية فى عدن مع

سلطنات وامارات الشطر الجنوبى من اليمن ، مع توضيح موقف الحكم الامامى السابق فى الشطر الشمالى من اليمن ازاءها بوجه خاص وازاء الوجود البريطانى السابق فى عدن بوجه عام . والكتاب محفوظ حاليا بدار الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة حيث اطلعت عليه ـ ولم ينشر بعد .

(٣) البحوث والمؤلفات

ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ـ جزآن ـ القاهرة ، ١٣١٩ هـ .

ابراهيم شحاتة (د .) : الادارة المهدية بالسودان ، رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة القاهرة ولم تنشر بعد .

ابن اياس ، محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الزهور ، الجزء الرابع والخامس ، تحقيق ونشر الدكتور محمد مصطفى ، القاهرة ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٠ .

أبونتى ، سلفاتور : مملكة الامام يحيى (ترجمة طه فوزى عن الايطالية) مطبعة السعادة ـ القاهرة ، ١٩٤٧ .

أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين ، الطبعة الأولى ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ـ القاهرة ، ١٩٣٤ .

احمد طربين (دكتور) : الوحدة العربية بين (١٩١٦ ـ ١٩٤٥) الطبعة الأولى ـ مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ، ١٩٥٩ .

أحمد فخرى (دكتور) :

- اليمن ماضيها وحاضرها ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ، ١٩٥٧ .
- دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، مصر والعراق ـ سوريا ـ اليمن ـ ايران ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ .
- اليمن (من كتاب المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية) جامعة الدول العربية ، ١٩٥٩ .

أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) :

ـ مشكلة قناة السويس (١٨٥٤ ـ ١٩٥٨) ـ معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، ١٩٦٧ ·

ـ علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) دار المعارف ـ القاهرة ، ١٩٦٧ ·

ـ ـ تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ ·

أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ، أسبابها ومقدماتها وتطورها ونتائجها ـ (جزآن) ـ مطبعة الشعب ـ بغداد ، ١٩٣١ ·

أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) ومحمد بديع (دكتور) : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، القاهرة الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ١٩٥٨ ·

اسعد داغر : ثورة العرب ـ القاهرة ، ١٩١٦ ·

اسماعيل سرهنك (باشا) : حقائق الأخبار عن دول البحار جزءان (والثالث غير كامل) القاهرة ، ١٣١٢ ـ ١٣١٦ هـ ·

اشتن ، · ت · س : الانقلاب الصناعى فى انجلترا (١٧٦٠ ـ ١٨٣٠) ترجمة أحمد محمد عبد الخالق وراجعه دكتور خيرى عيسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـ القاهرة ، ١٩٥٦ ·

امين الريحانى : ملوك العرب ، جزآن ، المطبعة العلمية ـ بيروت ، ١٩٢٤ ·

ـ تاريخ نجد الحديث وملحقاته ـ الطبعة الثانية ـ دار الريحانى للطبع والنشر ـ بيروت ، ١٩٥٤ ·

امين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم · القاهرة ـ مطبعة الحلبى ـ ١٩٣٣ ·

ـ الدولة العربية المتحدة ـ ثلاث مجلدات ـ يعرض الجزء الأول لتاريخ الاستعمار البريطانى فى جزيرة العرب ·

ـ اليمن ، تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٩ ·

أنطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، (ترجمة حيدر الركابى) مطبعة الترقى ـ دمشق ، ١٩٤٦ ·

انور الرفاعی وبسام كرد علی : جزیرة العرب جغرافیا ـ دمشق ، ١٩٤٩ ٠
انیس صایغ : الهاشمیون وقضیة فلسطین ـ بیروت ، ١٩٦٦ ٠

بانیكار ، ك ٠ م : آسیا والسیطرة الغربیة ، (تعریب عبد العزیز توفیق جاوید ومراجعة أحمد خاكی) ـ دار المعارف بالقاهرة ٠

بومخرمه ، أبو محمد عبد الله الطیب بن أحمد : تاریخ ثغر عدن ، جزآن ـ لیدن ، ١٩٣٦ ٠

بیربی ، جان جاك : جزیرة العرب ، (ترجمة نجده هاجر وسعید الغز) ـ الطبعة الأولی ـ من منشورات المكتب التجاری للطباعة والتوزیع والنشر ـ بیروت ، ١٩٦٠ ٠

بیرین ، جاكلین : اكتشاف جزیرة العرب ، خمسة قرون من المغامرة والعلم ، (ترجمة قدری قلعجی) بیروت ، دار الكاتب العربی ، ١٩٦٣ ٠

بیشون ، جان : بواعث الحرب العالمیة الأولی فی الشرق الأدنی وموجز لتاریخ حلول أوربا فی هذا الشرق (تعریب محمد عزة دروزة) بیروت ، ١٩٤٦٠

تاریخ الحرب العظمی : نشرته فی ستة مجلدات ادارة المقتطف والمقطم ٠

توفیق علی برو : العرب والترك فی العهد الدستوری العثمانی (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) ، رسالة من مطبوعات معهد الدرسات العربیة العالیة ، الطبعة الأولی ، القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

جاد طه (دكتور) : ـ سیاسة بریطانیا فی جنوب الیمن ، دار الفكر العربی ، القاهرة ، ١٩٦٩ ٠

ـ تجارة الأسلحة فی غرب آسیا (فارس ـ أفغانستان ـ الخلیج العربی) ١٩١٠ ـ ١٩١٣ ، المجلة التاریخیة المصریة ، المجلد السابع عشر ، ١٩٧٠٠

الجرافی ، عبد الله بن عبد الكریم : المقتطف من تاریخ الیمن ، مطبعة الحلبی ـ القاهرة ، ١٩٥١ ٠

جری (وزیر خارجیة بریطانیا ١٨٩٢/١٩١٦) : مذكرات لورد جری وتبعة الحرب العالمیة الكبری (تعریب علی أحمد شكری) ٠

جلال یحیی (دكتور) : ـ الثورة المهدیة وأصول السیاسة البریطانیة فی السودان ، المكتبة التاریخیة مكتبة النهضة المصریة ، ١٩٥٩ ٠

ـ التنافس الدولی فی شرق افریقیة ، دار المعرفة بالقاهرة ، مارس ١٩٥٩ ٠

— التنافس الدولى فى بلاد الصومال ، دار المعرفة بالقاهرة ، مايو ١٩٥٩ ·

— سواحل البحر الأحمر ، لجنة الدراسات الافريقية ، القاهرة ، مارس ١٩٦٠ ·

— العلاقات المصرية الصومالية ، المكتبة الافريقية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ·

جمال « باشا » : مذكرات جمال « باشا » — تعريب على أحمد شكرى — القاهرة ١٩٢٣ ·

جمال حمدان (دكتور) : دراسات فى العالم العربى ، مطبعة النهضة ، القاهرة ١٩٥٨ ·

جمال زكريا قاسم (دكتور) : — الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠ — ١٩١٤) ، مطبعة جامعة عين شمس — القاهرة ، ١٩٦٦ ·

— المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى على امارات الخليج العربى، المجلة التاريخية المصرية — المجلد السادس عشر ، ١٩٦٩ ·

جميل عبيد (دكتور) : المديرية الاستوائية — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (المكتبة العربية) — القاهرة ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٧ م ·

جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية ، نقله الى اللغة العربية ملخصا يوسف كمال ، القاهرة ١٩٢٧ ·

حافظ وهبه : — جزيرة العرب فى القرن العشرين ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والنشر — القاهرة ١٩٤٦ ·

— خمسون عاما فى جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٠ ·

حسن صبحى (دكتور) : — التنافس الاستعمارى الاوربى فى المغرب (١٨٨٤ — ١٩٠٤) ، دار المعارف — بالقاهرة ١٩٦٥ ·

— العالم العربى من الغفوة والجمود الى اليقظة والوحدة — دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت — لبنان ، ١٩٦٧ ·

— أحداث مميزة لتاريخ أوربا من فتح القسطنطينية حتى قبيل الثورة الفرنسية ، دار مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٧ ·

حسن ابراهيم حسن (دكتور) : اليمن البلاد السعيدة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ·

حسين بن على الويسى : اليمن الكبرى ، القاهرة ، النهضة العربية — ١٩٦٢ ·

حسين فوزى النجار (دكتور) : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٥٣ ٠

حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، مطبعة حجازى القاهرة ١٩٣٨ ٠

حسين لبيب : تاريخ المسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٢١ ٠

حمزة على ابراهيم لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، دار مصر للطباعة ـ القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

خير الله خير الله : معضلة الشرق ، الأقطار العربية المحررة (ترجمة عارف النكدى) بيروت ، ١٩١٩ ٠

دات ، ر ٠ بالم : أزمة بريطانيا الاستعمارية (تقديم وترجمة عادل أحمد ثابت) الدار المصرية للكتب بالقاهرة ، يونية ١٩٥٦ ٠

ديل ، شارل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٨ ٠

رفيق العظم : الجامعة العثمانية والعصبية التركية ، (من مجموعة آثار توفيق « بك » العظم نشرها عثمان العظم) ـ القاهرة ، ١٣٤٤ هـ ٠

زباره ، محمد بن محمد بن يحيى : اتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين ومن قام باليمن الميمون من قرناء الكتاب المبين وأبناء سيد الأنبياء والمرسلين ، طبعة صنعاء ، ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ ٠

ساطع الحصرى : ـ يوم ميسلون ـ صفحة من تاريخ العرب الحديث ـ بيروت ـ مطبعة الكشاف ، ١٩٤٧ ٠

ـ محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ـ مطبعة الرسالة ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ، ١٩٥١ ٠

ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ـ دار العلم للملايين ، بيروت ، يوليو ١٩٦٠ ٠

سعد زغلول عبد ربه (دكتور) : الاستعمار البريطانى فى كينيا (١٨٥٦ ـ ١٩٢٢) ، رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٥ ، ولم تنشر بعد ٠

سعد كامل الوكيل (دكتور) وسليم انطون مرقص (دكتور) : الكشف العلمى للمحيط الهندى فى سنة ١٩٦٢ ، محاضرة عامة ألقيت بجامعة الاسكندرية ، ونشرتها الجامعة فى سنة ١٩٦٣ ٠

سلطان ناجي : ببليوجرافيا مختارة وتفسيرية عن اليمن ، أصـــدرتها جامعة الكويت فى أغسطس ١٩٧٣ ٠

سماركو ، أنجلو : الحقيقة فى مسألة قناة السويس (ترجمة طه فوزى) ــ القاهرة ، ١٩٤٠ ٠

السيد محمد رجب حراز (دكتور) : ــ التوسع الايطـــالى فى شرق افريقية وتأسيس مستعمرتى اريتريا والصـــومال . مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

ــ انتشار النفوذ البريطانى فى شرق افريقيا ووسطها ، رسالة دكتوراه قدمت لكلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٦٣ ولم تنشر بعد ٠

ــ الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ ــ ١٩٠٩ ، معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ١٩٧٠ ٠

السيد مصطفى سالم (دكتور) : ــ تكوين اليمن الحديث . اليمن والامام يحيى (١٩٠٤ ــ ١٩٤٨) معهد البحوث والدراسات العربية ــ القـــاهرة ــ ١٩٦٣ ٠

ــ الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ــ١٦٣٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ــ القاهرة ، ١٩٦٩ ٠

ــ المؤرخـــون اليمنيون فى العهـــد العثمانى الاول ١٥٣٨ ــ ١٦٣٥ ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧١ ٠

سيديو ، ل ٠ أ : خلاصة تاريخ العرب (تعريب محمد أحمد عبد الرازق) ــ القاهرة ــ المطبعة البهية ، ١٣٠٩ هـ ٠

سيد نوفل (دكتور) : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنـــوب الجزيرة العربية ، محاضرات ألقيت بمعهد الدراسات العربية العالية ــ القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

شرف عبد المحسن البركاتى : الرحلة اليمانية للشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٩١٢ (١٣٣٠ هـ) ٠

الشهر ستانى ، أبو الفتح بن أبى القاسم عبد الكريم بن أبى بكر (٤٦٧ ــ ٥٤٨ هـ) : الملل والنحل ــ الجزء الأول ــ القاهرة ، ١٩٠٩ ٠

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : ــ سياسة مصر فى البحر الأحمر فى الفترة من ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩ ، رسالة دكتوراه قدمت لكلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٩ ، ولم تنشر بعد ٠

ـ الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ـ١٨٧٩) مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ٠

صلاح البكرى : ـ فى جنوب الجزيرة العربية ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الحلبى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ٠

ـ تاريخ حضرموت السياسى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ ٠

صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية (جزء ثان) ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، ١٩٥٧ ٠

صلاح العقاد (دكتور) : ـ الاستعمار فى الخليج « الفارسى » ، مطبعة الانجلو ـ القاهرة ، ١٩٥٦ ٠

ـ التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٦٥ ٠

ـ جزيرة العرب فى العصر الحديث ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ، ١٩٦٩ ٠

ـ معالم التغيير فى دول الخليج العربى ، معهد البحوث والدراسات العربية ـ بالقاهرة ، ١٩٧٢ ٠

صلاح العقاد (دكتور) و جمال زكريا قاسم (دكتور) : زنجبار ، القاهرة ، ١٩٥٩ ٠

عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الرابع ، بغداد شركة التجارة والطباعة المحدودة ، ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٤٩ م ٠

عباس محمود العقاد : الصهيونية العالمية ـ القاهرة ، ١٩٦٨ ٠

عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ ـ ١٨٤٠ ـ معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ـ ١٩٦٩ ٠

عبد الرازق أحمد السنهورى (دكتور) : قضية وادى النيل ، مصر والسودان، ١٩٤٩ ٠

عبد الرحمن أبو طالب : الجنوب اليمنى المحتل من النواحى التاريخية والطبيعية والسياسية ونصوص الاتفاقات والمعاهدات البريطانية مع امارات الجنوب ٠ كتاب قدم للادارة السياسية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة فى ٥ أغسطس ١٩٥٩ ولم ينشر بعد

عبد الرحمن الرافعى : ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، عصر محمد علي ، القاهرة ، ١٩٣٠ ٠

ـ عصر اسماعيل ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٣٢ ·
ـ الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر ، القاهرة ، ١٩٣٧ ·
ـ مصطفى كامل ، القاهرة ، ١٩٣٩ ·
ـ مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، القاهرة ، ١٩٤٢ ·
ـ ثورة ١٩١٩ ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٤٦ ·

عبد العزيز الشناوى (دكتور) : السخرة فى حفر قناة السويس فى عهد سعيد باشا ، رسالة للماجستير قدمت بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ·

عبد العزيز الشناوى (دكتور) و جلال يحيى (دكتور) : وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، دار المعارف ، بالقاهرة ، ١٩٦٩ ·

عبد الفتاح ابراهيم : على طريق الهند ، الرسالة الأولى من رسائل الأهالى بغداد عام ١٩٣٥ ·

العبدلى ، أحمد فضل بن على محسن : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، المطبعة السلفية ـ القاهرة ، ١٣٥١ هـ ·

عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، مجلدان ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ يعرض لتاريخ الدعوة الوهابية وانتشارها وعلاقة السعوديين بمختلف امارات الخليج العربى ·

عدنان (دكتور) : اليمن وحضارة العرب ، مع دراسة جغرافية كاملة ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، ١٦٩٤ ·

العرشى ، حسين بن أحمد : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، مخطوطة نشرها وحققها الأب انستاس الكرملى ، مطبعة البرتيرى ـ القاهرة ، ١٩٣٩ ·

عز الدين فودة (دكتور) : الصراع الدولى حول فلسطين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى صدور وعد بلفور ، مجله معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، العدد الأول مارس ١٩٦٩ ·

العقيل ، محمد بن أحمد عيسى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، جزآن ، الجزء الأول طبع بمطابع الرياض ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) الجزء الثانى طبع بمطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة ، ١٩٦١ (١٣٨٠هـ)·

على ابراهيم عبده (دكتور) : المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٨٨٠ ـ ١٩٠٦) ـ مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٨ ·

عمـــارة اليمنى ، نجم الدين عمـارة الحكمى اليمنى : تاريخ اليمن ، تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود ، القاهرة ، دار الثناء للطباعة بالقاهرة ، ١٩٥٧ ٠

عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاســـتواء من فتحها الى ضياعها ١٨٦٩ ــ ١٨٨٩ ، (ثلاثة أجزاء) الاسكندرية ، ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٧ م ٠

عمر عبد العزيز (دكتور) : الحركة القومية العربية حتى قيام الحرب العـالمية الأولى ، محاضرة من سلسلة المحاضرات العـــامة التى نظمتهـا جامعة الاسكندرية فى العام الجامعى ٦٩/١٩٧٠ ٠

العيدروس ، عبد القادر بن عبد الله : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، بغداد ، المكتبة العربية ، ١٩٣٤ ٠

فاروق عثمان أباظة : الحكم العثمانى فى اليمن (١٨٧٢ ــ ١٩١٨) رسـالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٦ ، تحت الطبع حاليا بالهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ٠

فاضل حسين (دكتور) : محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية ــ ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية ــ القاهرة ، ١٩٥٨ ٠

فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضاء ٠ خمسة أجزاء ٠

قحطان محمد الشعبى : الاستعمار البريطـانى ومعركتنا العربيـة فى جنـوب اليمن ، عدن والامارات ، دار النصر للطباعة والنشر والاعلان ، القاهرة ٠

قطب الدين النهروانى ، محمد بن أحمد المكى : الاعلام بأعلام بلد الله الحرام ، القاهرة ، المطبعة العامرة العثمانية ، ١٠٣٣ هـ (١٨٨١ م) ٠

لجنة الجغرافية لمعـارف عدن : جغرافية عدن وبلاد العرب ، مطبعـــة النيل ٠ القاهرة ، ١٩٣٢ ٠

لوتسكى ، فلاديمير بوريسوفيتش : تاريخ الأقطـار العربية الحديث ، معهـــد الاستشراق بأكاديمية العـلوم فى الاتحاد السوفيتى ، دار التقــدم ، موسكو ، ١٩٧١ ٠

محمد أبو زهرة : الامام زيد ، حيـــاته وعصره ، آراؤه وفقهه ، القـــاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ٠

محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن ــ (تقديم الكتاب بقلم الأستاذ أحمد محمد نعمان رئيس وزراء اليمن الأسبق) ٠

محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤) ، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ·

محمد أنيس (دكتور) : تاريخ القضية الفلسطينية ، محاضرة ألقيت بمقر الجمعية الجغرافية المصرية فى ٢٨ فبراير ١٩٦١ ، ضمن سلسلة المحاضرات العامة التى نظمتها جامعة القاهرة فى العام الجامعى ١٩٦٠/١٩٦١·

محمد حافظ غانم (دكتور) : محاضرات عن النظام القانونى للبحار ، القاهرة ١٩٦٠ ·

محمد حسن : قلب اليمن ، مطبعة المعارف ـ بغداد ، ١٩٤٧ ·

محمد رشيد رضا : الوهابيون والحجاز ، طائفة من مقالات نشرت فى مجلة المنار وجريدة الأهرام ، القاهرة ، ١٣٤٤ هـ ·

محمد رفعت : ـ التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ، ١٩٤٩ ·

ـ سباق بين مصر وبريطانيا على عدن فى عام ١٨٣٨ ، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، العدد الأول ، مارس ١٩٦٩ ·

محمد سعيد العطار : التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ، بيروت ـ دار الطليعة ، ١٩٦٥ ، (والكتاب أصلا رسالة دكتوراه من السوربون) ·

محمد شفيق غربال : ـ السياسة البريطانية والوطن المصرى السودانى · (وحدة وادى النيل ـ أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ) ، القاهرة ، ١٩٤٧ ·

ـ تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية (الجزء الأول) ١٩٥٢ ·

محمد صبرى (دكتور) : ـ مصر فى افريقية الشرقية · هرر وزيلع وبربرة ، ١٩٣٩ ·

ـ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، ١٩٤٨ ·

محمد عبد العال أحمد : دولة بنى أيوب فى اليمن ، (٥٦٩ هـ ـ ٦٢٦ هـ) · (١١٧٣ م ـ ١٢٢٩ م) رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة لاسكندرية فى سنة ١٩٦٨ ولم تنشر بعد ·

محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن عام ١٥٣٨ ، رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٤ ، ولم تنشر بعد ·

محمد عبد الله ماضى (دكتور) : دولة اليمن الزيدية ، نشأتها ، تطورها ، علاقاتها — مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، القاهرة — مايو ١٩٥٠ ·

محمد عمر صقيل (دكتور) : تطور تصميم السفن وأشكالها عبر التاريخ ، محاضرة نشرتها جامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٥٦ ·

محمد عوض محمد (دكتور) : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، الطبعة الثالثة ، منقحة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٧ ·

محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ، ١٨٩٦ ·

محمد فؤاد شكرى (دكتور) : — مصر والسيادة على السودان — الوضع التاريخى للمسألة ، القاهرة ، ١٩٤٦ ·

— الحكم المصرى فى السودان ١٨٨٢ — ١٨٨٥ ، القاهرة ، ١٩٤٧ ·

— مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، دار المعرفة بالقاهرة ، ١٩٥٧ ·

محمد كمال عبد الحميد : الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٨ ·

محمد محمد أحمد سطيحة (دكتور) : المراكز العمرانية على ساحل البحر الأحمر فى اقليم مصر والعوامل الجغرافية التى أثرت فيها ·

رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦١، ولم تنشر بعد ·

محمد محمود السروجى (دكتور) : — سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير (١٨٦٤ — ١٨٦٦) — مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية — المجلد التاسع — ديسمبر ١٩٥٥ ·

— العلاقات بين مصر وأثيوبيا فى القرن التاسع عشر ، مطبعة المصرى بالاسكندرية ، ١٩٦١ ·

— وعد بلفور والعوامل التى ساعدت على اصداره ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد السادس عشر — ١٩٦٢ ·

— مصر والمسألة الشرقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، مطبعة المصرى — الاسكندرية ، ١٩٦٦ ·

— تاريخ أوربا الدبلوماسى من السبعينات للقرن التاسع عشر الى الحرب العالمية الأولى · مطبعة المصرى بالاسكندرية ، ١٩٦٦ ·

محمد محمود السروجي (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث . مطبعة المصرى — بالاسكندرية ، ١٩٦٧ ٠

محمد مختار : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق . ١٣١١ هـ (١٨٩٤/٣ م) ٠

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : — الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ٠ دار الفكر العربى بالقاهرة ، ١٩٥٢ ٠

— انجلترا وقناة السويس (١٨٥٤ — ١٩٥٦) ٠ المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ١٩٥٦ ٠

— مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ٠

— « أصول حملة فاشودة — تأليف رينوفان » مقال فى المجلة التاريخية المصرية — عدد مايو ١٩٥٠ ٠

محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ١٨٩٠ — ١٩١٤ . القاهرة ١٩٦١ ٠ ويعتمد هذا الكتاب على دراسة وثائقية من دور المحفوظات البريطانية ٠

محمود كامل : — تاريخ العلاقات الدولية للعربية السعودية من أول القرن التاسع عشر ٠ مقال مستخرج من مجلة الاقتصاد والتجارة ، العدد الثانى السنة السادسة ، يوليو — ديسمبر ١٩٥٨ ٠

— اليمن شماله وجنوبه ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ٠

الملبارى ، زين الدين المعبرى : (كان موجودا فى العقد الاخير من القرن العاشر الهجرى ١٥٨٣ — ١٥٩٤ م) ٠

تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ، نشر المخطوطة وحققها دافيد لويز البرتغالى تحت عنوان « تاريخ البرتغاليين فى ملبار » مع ترجمة للنص العربى الى البرتغالية ودراسة طويلة فى مقدمة الكتاب ، الجمعية الجغرافية فى لشبونة ، ١٨٩٨ ٠

نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة من مصر الى صنعاء ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى — ١٩٣٨ ٠

نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ثلاثة أجزاء ، ١٩٠٣ ٠

الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب . مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٣ ٠

هولنجز وورث ، ل ٠ و : زنجبار (١٨٩٠ ــ ١٩١٣) ترجمة وتعليق الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، المكتبة التاريخية ، دار المعارف بمصر ٠

هولفرتز ، هانز ، اليمن من الباب الخلفى (ترجمة خيرى حماد) ــ بيروت ، ١٩٦١ ٠

الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : ــ البدر المزيل للحزن فى فضائل اليمن ومحاسن صنعاء ــ القاهرة ــ مطبعة التضامن الأخوى ، ١٣٤٥ هـ ٠

ــ تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ــ القاهرة ــ المطبعة السلفية ــ ١٣٤٦ هـ ، وقد استندت الى الطبعة الثانية ، مطبعة حجازى ، القاهرة ، ١٩٤٧ ٠

وليمز ، سيتون (م٠ ف٠) : بريطانيا والدول العربية ، عرض للعلاقات الانجليزية العربية ١٩٢٠ ــ ١٩٤٨ (ترجمة وتعليق الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى) مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ٠

ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى البغدادى : معجم البلدان ، المجلد الرابع ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٥٧ ــ (١٣٧٦ هـ) ٠

ولمير ، ثيوفيل : تاريخ حرب الانكليز والحبشة سنة ١٨٦٨ ، (ترجمه عن الألمانية خليل شماس) بيروت ، ١٨٧١ ٠

المصطلحات الفنية البحرية (باللغتين العربية والانجليزية) :
«Difinition and Terms of Shipping Business»

كتاب أصدرته الادارة العامة للتدريب المهنى بالمؤسسة المصرية العامة للنقل البحرى التابعة لوزارة النقل البحرى المصرية ــ مايو ١٩٦٤ ٠

الدوريات

(٤)

(أ) المجلات العلمية :

ــ المجلة التاريخية المصرية الصادرة عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة :

ــ المجلد السادس عشر ــ سنة ١٩٦٩ ٠
ــ المجلد السابع عشر ــ سنة ١٩٧٠ ٠
ــ المجلد الثامن عشر ــ سنة ١٩٧١ ٠

– مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية :

– المجلد التاسع – سنة ١٩٥٩ ٠

– المجلد السادس عشر – سنة ١٩٦٢ ٠

– مجلة معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة :

العدد الأول (ذو الحجة ١٣٨٨ هـ) مارس ١٩٦٩ م ٠

(ب) الجرائد الرسمية :

– الوقائع المصرية ، من سنة ١٨٦٥

(ج) المجلات العامة :

– مجلة المقتطف : الصادرة فى القاهرة ، وأصحابها فارس نمر ، ويعقوب صروف ، ومكاريوس شاهين ٠

المجلد ٣٤ – ج ١ ، ٢ ، ٣	سنة ١٩٠٩ ٠
المجلد ٣٥ – ج ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦	سنة ١٩٠٩ ٠
المجلد ٣٦ – ج ٢ ، ٣	سنة ١٩١٠ ٠
المجلد ٣٧ – ج ، ١ ، ٥	سنة ١٩١٠ ٠
المجلد ٤٢ – ج ٦	سنة ١٩١٣ ٠
المجلد ٤٤ – ج ٥	سنة ١٩١٤ ٠

– مجلة المنار : الصادرة فى القاهرة ، صاحبها الشيخ رشيد رضا ٠

المجلد ١٢ – ج ١٢	سنة ١٩١٠ ٠
المجلد ١٥ – ج ٢	سنة ١٩١٢ ٠
المجلد ١٦ – ج ١	سنة ١٩١٣ ٠
المجلد ١٦ – ج ٤	سنة ١٩١٣ ٠

– مجلة الهلال : صاحب امتيازها ومحررها اميل زيدان :

المجلد ١٩ – ج ٦	سنة ١٩١١ ٠
المجلد ٢١ – ج ٢ ، ٥ ، ٦	سنة ١٩١٢ ٠
المجلد ٢١ – ج ١٠	سنة ١٩١٣ ٠
المجلد ٢٢ – ج ٥ ، ٧	سنة ١٩١٤ ٠

(د) الجرائد العامة :

— جريدة الأهرام : الصادرة فى القاهرة ، وصاحب امتيازها جبرائيل بشارة تقلا الأعداد الصادرة فى أعوام ١٩٠٩ — ١٩١٠ — ١٩١١ — ١٩١٢ — ١٩١٣ — ١٩١٤ — ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ·
— جريدة المؤيد : الصادرة فى القاهرة ، وصاحبها الشيخ على يوسف · جميع الأعداد الصادرة من منتصف عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٤ ·
— جريدة اللواء : الصادرة فى القاهرة ، وتمتلكها شركة مساهمة من على فهمى كامل وشركاه — ومدير السياسة المسئول منصور مصطفى رفعت·جميع الأعداد الصادرة من منتصف عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩١٠، ومن أول يناير عام ١٩١١ حتى نهاية يونيو ١٩١١ ، ومن أول يناير ١٩١٢ حتى ٣٠ يونيو ١٩١٢ ·
— جريدة المقطم : الصادرة فى القاهرة جميع الاعداد الصادرة فى السنوات ١٨٩٩ — ١٩٠٢ — ١٩٠٣ — ١٩١٣ — ١٩١٥ ·

(٥) المعارف العامة

— دائرة المعارف الاسلامية ·
— الموسوعة العربية الميسرة — مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ·

(ثانيا) مصادر باللغات الأجنبية

(١) الوثائق Documents

(أ) وثائق لم يسبق نشرها (١) :

(أولا) سجلات وزارة الخارجية البريطانية المحفوظة بدار المحفوظات العامة بلندن :
Great Britain Public Record Office

— Abyssinia, F.O. 1/1.
F.O. 1/29., 1808 — 1879.

(١) أخذت صورة لهذه الوثائق بالميكروفيلم ، وتوجد مجموعات منها بمكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس ، وبدار الكتب المصرية ؛ وبدار الوثائق القومية بالقاهرة ؛ وقد أودعت صورة من المجموعات الجديدة منها بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ·

— Turkey, F.O. 781.,
Reports of the consul and later cosul General in Egypt From 1825 — 1878.

— Turkey, F.O. 78/1333.
The Island of Perim 1856 — 1857.

— Turkey, F.O. 78/1785.
The Lighthouses in the Red Sea, 1859 — 1863 ; also refers to the Island of Perim.

— Turkey, F.O. 78/1488.
Jeddah Massacre, Commissioners Captain Pullen and Mr. Walne, 1850 — 1859.

— Turkey, F.O. 78/2753.
F.O. 78/2756.
Yemen, Sovereignty Question 1873 — 1877.

— Turkey, F.O. 78/3185.
F.O. 78/3189.
Egypt, Claims to Sovereignty in the Red Sea, Africa and Arabia, 1827 — 1877.

— Turkey, F.O. 78/5108
Turkish Jurisdiction along the Arabian Coast of the Persian Gulf, Parts, 1,2,3.

— Turkey, F.O 78/5174.
Memorandum Respecting Koweit.

— Slave Trade, F.O. 84/ Various Volums.

تعتبر هذه الوثائق فى غاية الأهمية بالنسبة لموضوع البحث ، نظرا لأنها توضح معالم السياسة البريطانية فى منطقة البحر الأحمر والخليج العربى وبحر العرب بوجه عام ، وفى المنطقة المحيطة بعدن والجزر اليمنية القريبة منها بوجه خاص . كما أنها توضح أيضا موقف البريطانيين ازاء مسألة السيادة العثمانية على تلك المناطق من جهة ، وازاء مسألة تجارة الرقيق هناك من جهة أخرى ، هذا فضلا عن الضوء الذى تلقيه على طبيعة المصالح البريطانية وأبعادها فى تلك المناطق أثناء القرن التاسع عشر .

وتضاف الى المجموعات السابقة من الوثائق البريطانية مجموعات الوثائق غير المنشورة والمنقولة عن سجلات وزارة الخارجية البريطانية والمحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة :

— British Foreign Office Correspondence, Public Record Office, London. Dossiers Nos. 24 (1862 — 63), 25 (1864), 26 (1865), 27 (1866 — 1869), 28 (1867 — 1870), 29 (1875 — 1879), 30 (1876), 31 (1877), 32 (1878), 33 (1879), 34 (1882).

كما تضاف الى تلك المجموعات من الوثائق البريطانية مجموعة الوثائق الفرنسية غير المنشورة أيضا والمنقولة عن وزارة الخارجية الفرنسية والمحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة :

— Ministère des Affaires Etrangères, Paris.
Dossiers Nos. 52 (1873 — 1875), 53 (1876), 54 (1875 — 1876), 55 (1877), 56 (1878), 57 (1879), 58 (1879), 59 (1880).

وتشتمل هذه الوثائق على المراسلات والتقارير المتبادلة بين قناصل بريطانيا وفرنسا الجنرالات فى مصر وبين حكومتيهما فى لندن وباريس من جهة ، وبين هؤلاء وسفراء الدول الأوربية من جهة ثانية ، وبينهم وبين ممثلى الحكومة المصرية من جهة ثالثة • وتتعلق هذه الوثائق بسياسة الدولتين الكبيرتين ازاء مصر من ناحية ، وازاء الممتلكات المصرية فى منطقة البحر الأحمر من ناحية أخرى ، الأمر الذى يتصل صلة وثيقة بموضوع البحث •

(ثانيا) سجلات وزارة الهند البريطانية بلندن :

II. India Office Library and Records :

(a) Bombay Government :

— Egypt, No. 7 Contains dispatshes from Red Sea area, 1820 — 1827.

— Bombay Political and Secret Consultations, 1820 — 1837.

— Bombay Secret Consultations, 1837 — 1857.

— Bombay Secret Letters and Enclosures, 1857 — 1859.

— Bombay Secret Enclosures, 1859 — 1869.

— Letters from Aden and Muscat, 1804-1806.

— Letters from Aden, 1866 — 1872.

ترجع الأهمية البالغة لهذه الوثائق بالنسبة لموضوع البحث الى غزارة ما تحتويه من معلومات عن منطقة البحر الأحمر قبيل وبعد احتلال البريطانيين لعدن فى سنة ١٨٣٩ • وهى توضح الدور الذى لعبته السياسية البريطانية فى تلك المنطقة انطلاقا من عدن بعد سيطرة البريطانيين عليها وتدعيم مركزهم فيها وفى المنطقة المحيطة بها فى جنوبى اليمن •

(b) India Board :

— Indian Papers, F. 23.,
Correspondence Relating to Aden, 1836 — 1839.

تتعلق هذه الوثائق بالجهود البريطانية التى سبقت احتلال البريطانيين لعدن فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ ، وبعملية الاحتلال نفسها فى اليوم المذكور ، كما توضح معالم سياسة البريطانيين فى عدن والمنطقة المحيطة بها فى الأشهر الأولى التى أعقبت الاحتلال ٠

(c) Political and Secret Department :

— Secret Letters from Bombay,
Nos. 7, 18, 28, 31, 39, 45, 84, 146, 1845 — 1858.

تمثل هذه الوثائق المراسلات المتبادلة بين « هينز » (١٨٣٩ — ١٨٥٤) و « أوترام » (١٨٥٤) و « كوجلان » (١٨٥٤ — ١٨٦٣) المقيمين السياسيين البريطانيين الثلاثة الأول فى عدن من جهة ، وبين حكومة بومباى البريطانية من جهة أخرى ٠ وهى توضح جهود البريطانيين لتدعيم وجودهم فى عدن وفى المنطقة المحيطة بها فى جنوب اليمن فى أعقاب الاحتلال ٠

— Secret Letters from India,
N. 16. Shehr and Mukalla. A.W.M.
2nd February 1881.

توضح هذه الوثائق الجهود البريطـانية لبسط النفوذ البريطـانى على ميناءى الشحر والمكلا على ساحل حضرموت بالشطر الجنوبى من اليمن فى سنة ١٨٨١ للحيلولة دون امتداد نفوذ العثمانيين الموجودين بالشطر الشمالى من اليمن حينذاك الى هذين الميناءين ، بما يهدد طريق الاتصال بين عدن وبومباى من جهـة ، وبما يعرض الوجـود البريطـانى فى عدن للخطر اذا ما حاصره العثمانيون من ناحيتى الشمال والشرق من جهة أخرى ٠

— Pol. 2136/07, Secret and Political Department, Secret Memorandum, British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat) 1st. November 1887.

توضح هذه المذكرة السرية التى أعدها القسم السياسى السرى بوزارة الهند البريطانية فى أول نوفمبر سنة ١٨٨٧ طبيعة علاقة السلطات البريطانية فى عدن « بالمحمية البريطانية على طول ساحل شبه الجزيرة العربية من الشيخ سعيد غربا حتى عمان شرقا » ، ويقصد بها سلطنات وامارات ومشيخات الشطر الجنوبى من اليمن التى عقدت السلطات البريطانية فى عدن مع حكامها معاهدات للحماية ٠

— Secret, From Brigadier General C.H.U. Price, C.B., B.S.O., Political Resident, Aden, to the Secretary to Government, Political Department, Bombay, No. C. 80, Aden Residency, 27th January 1916.

تشير هذه الوثيقة المتمثلة فى الخطاب السرى المرسل من « البريجادير جنرال برايس » المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة بومباى (القسم السياسى) فى ٢٧ يناير سنة ١٩١٦ الى زيارة « الكولونيل جاكوب » الى السيد محمد الادريسى فى عسير ، ويوضح تطور علاقة السلطات البريطانية فى عدن بالادريسى الذى استقطبته الى جانبها ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن قبيل وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ٠ وقد أرفق « برايس » بخطابه التقريرين السريين التاليين :

— Enclosure 1. Report of a visit to the Idrisi Saiyid Muhammad Bin Ali Bin Muhammad Bin Ahmed at Jezan, by H.F. Jacob, Lieutenant-Colonel, First Assistant Resident, Aden, 17th January 1916.

التقرير الأول أعده « الكولونيل هارولد جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ١٧ يناير سنة ١٩١٦ ويدور حول زيارته للسيد محمد بن على بن محمد بن أحمد الادريسى فى جيزان فى عسير بشمالى اليمن ٠

— Enclosure 2. Confidential, Brigadier General A.W. Momey, General Headquarters, Indian Expeditionary Force «D», to India Office., No. I.G. 1983., Dasra, 22nd January 1916.

التقرير الثانى أعده « البريجادير جنرال مونى » بالقيادة العامة للقوات الهندية البريطانية ووجهة الى وزارة الهند فى ٢٢ يناير سنة ١٩١٦ ٠ ويوضح هذا التقرير موقف السلطات البريطانية فى عدن ازاء حكام الجزيرة العربية فى مطلع الحرب العالمية الأولى ٠

— No. C. 83, Policy for His Majesty's ship in the Southern Red Sea Patrol, Memorandum by C.H.U. Price, Brigadier — General, Political Resident, Aden Residency, 27th January 1916.

تمثل هذه الوثيقة مذكرة كتبها « البريجادير جنرال برايس » المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ١٧ يناير سنة ١٩١٦ وتدور حول استراتيجية البريطانيين البحرية لحراسة الجزء الجنوبى من البحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى ٠

— Secret, From Brigadier-General C.H.U. Price, C. P., D.S.O., Political Resident, Aden, to the Secretary to government, Political Department, Bombay, No. C. 95., Aden Residency, 29th January 1916.

تمثل هذه الوثيقة رسالة موجهة من «البريجادير جنرال برايس» المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة بومباى (القسم السياسى) فى ٢٩ يناير سنة ١٩١٦ · وقد أرفق برسالته هذه صورة من خطاب القائد العام بعدن الى رئيس هيئة الأركان العامة بدلهى متضمنا تقرير « الميجور برادشو » ضابط الأركان العامة فى عدن «الذى رافق « الكولونيل جاكوب » فى زيارته للادريسى فى عسير ، ويشير التقرير الى طبيعة علاقة السلطان البريطانى فى عدن بالأدارسة فى عسير فى مطلع الحرب العالمية الأولى ·

— 1182/16, No. C. 273., Secret, From Brigadier General William C. Walton, Acting Political Resident, Aden, to the Secretary to government Political Department, Bombay, 14th March 1916.

تمثل هذه الوثيقة خطابا مرسلا من « البريجادير جنرال وليام ولتون » المقيم السياسى البريطانى بالنيابة فى عدن الى سكرتير حكومة بومباى (القسم السياسى) فى ١٤ مارس سنة ١٩١٦ · وقد ارفق بالخطاب مذكرة عن الموقف السياسى «الراهن حينذاك فى المنطقة الداخلية المتاخمة لعدن ، أعدها « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ ·

— Secret, The Aden Protectorate, Letter from general Officer Commanding W.C. Walton, Aden to the Secretary to the government of India, Foreign Department, dated 13th May 1916.

تمثل هذه الوثيقة خطابا سريا صادرا عن « البريجادير جنرال وليم والتون » القائد العام البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة الهند (القسم الخارجى) فى ١٣ مايو سنة ١٩١٦ بشأن تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ البريطانيين والعثمانيين · وقد أرفق بالخطاب المذكرتين التاليتين :

— Enclosure No. 1, The Boundary of the Aden protectorate, Note by Colonel R.A. Wauhepe R.E., C.B. C.M.G

المذكرة الأولى أعدها « الكولونيل ووهرب » ضابط المخابرات السياسى والعسكرى بعدن وتدور حول « حدود محمية عدن » ولم يذكر تاريخ تقديم المذكرة ·

— Enclosure No. 2, A political Policy in our Hinterland, Note by Lieutenan Colonel H.F. Jacob, First Assistant Resident, Aden, 10th May 1916.

والمذكرة الثانية أعدها « الكولونيل جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى البريطانى فى عدن وتدور حول الأوضاع السياسية فى اليمن وموقف السلطات البريطانية فى عدن ازاءها ، وهى مؤرخة فى ١٠ مايو ١٩١٦ ·

— Secret, No. 31, Note by the Aga Khan and M.A. Ali Baig on the Situation in Egypt., Port Said, 12th January 1915.

تمثل هـــذه الوثيقة تقريرا سريا فريدا موقعـا عليه من « الأغا خان » و « م ٠ أ ٠ على بيج » عن الموقف العام فى مصر بالنسبة للمصالح البريطانية فى ١٢ يناير سنة ١٩١٥ أى فى أعقاب اعلان الحماية البريطانية على مصر وذلك من ناحيـة المسائل التالية : موقف الشعب المصرى ازاء البريطـانيين ـ حالة المصريين المسـلمين والأقبـاط اليونانيين والجنسـيات الأخرى ـ أوضـاع الأرستقراطية ـ التطلعات السـياسية للمثقفين المصريين ـ طبيعة الموقف فى مصر بعد اعلان الحماية عليها ـ موقف السلطان الجديد حسـين كامل ـ موقف الوزراء ومستشاريهم ـ موقف الوطنيين ازاء البريطانيين فى مطلع الحرب العالمية (الأولى) ـ الصحافة المصرية ـ مركز الخلافة ـ فتوى الجهاد ـ تأثير سياسة كتشنر ـ القوات الهندية فى مصر ٠ ويوضح هذا التقرير الفريد الدور الذى كانت تلعبه السياسة البريطانية فى منطقة البحر الأحمر أثناء الحرب العالمية الأولى وتسخيرها للكثيرين للتجسس وجمع المعلومات التى يمكن أن تقوم عليها سياسة البريطانيين واستراتيجيتهم أثناء الحرب المذكورة ٠

(d) Political and Secret Library :

— B. 8, Confidential, Memorandum on the Turkish Claim to sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea and the whole of Arabia, and the Egyptian claim to the whole of the western shores of the same sea, including the African oeust from Suez to Cape Guardafui. Printed for the use of the Foreign Office. Hertzlet. 10th March 1874.

تمثل هذه الوثيقة مذكرة هامة توضح طبيعة التنافس الدولى فى منطقة البحر الأحمر بساحليه الآسيوى والافريقى وخاصة عقب عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ ٠ حيث ستواجه السلطات البريطانية فى عدن ـ وهى تنطلق لبسط النفوذ البريطـانى فى منطقة البحر الأحمر ـ حقوق السـيادة العثمانية على سواحل الجزيرة العربية من جهة ، وحقوق السيادة المصرية على السواحل الافريقية المطلة على البحر الأحمر من جهة أخرى ٠

— Memorandum, Turkish Claim of sovereignty in Yemen, sovereignty over Mocha, sovereignty over Aden, pp. 15-22.

تمثل هـذه الوثيقة مذكرة بدون رقم وبدون تاريخ وهى توضح موقف البريطـانيين ازاء « الادعاءات التركية بالسـيادة على اليمن وعلى ميناءى مخا وعدن » ويرجح أنهـا تعود الى الفترة التى أعقبت عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ ٠

— B. 13, Confindential. Zhalai — Turkish Agression. J.W. Schneider, Political Resident at Aden 27th July 1876.

تمثل هذه الوثيقة مذكرة سرية أعدها « البريجادير جنرال جون شنيدر » المقيم السياسى البريطانى فى عدن ويدور موضوعها حول اعتداءات الترك على منطقة الضالع الواقعة شمالى عدن وذلك فى أعقاب عودتهم الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ .

— B. 30, Confidential, Memorandum regarding the relations with the tribles in the vicinity of Aden, especcially in reference to the Amir of Zhali by Major F.M. Hunter C.S.I. Assistant political resident at Aden 28th Sept. 1885.

تمثل هذه الوثيقة مذكرة سرية أعدها « الميجور هنتر » مساعد المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٥ ويدور موضوعها حول علاقة السلطات البريطانية هناك بالقبائل التى تقطن المنطقة المحيطة بها فى جنوبى اليمن .

— B. 41, Secret. British Protectorate over the Arabian Coast from Sheikh Said to Oman (Muscat) E.N.I. November 1887.

تمثل هذه الوثيقة مذكرة سرية مؤرخة فى أول نوفمبر سنة ١٨٨٧ توضح طبيعة علاقة السلطات البريطانية فى عدن بالمنطقة المحيطة بها فى جنوب اليمن من « الشيخ سعيد » غربا الى عمان شرقا التى تقطنها القبائل المرتبطة مع البريطانيين فى عدن بمعاهدات الحماية .

— B. 48, Memorandum about Zeyla, by Sir Hertzlet. 5th March 1874.

تمثل هذه الوثيقة مذكرة مؤرخة فى ٥ مارس ١٨٧٤ ويدور موضوعها حول الساحل الصومالى المواجه لعدن بوجه عام وحول ميناء زيلع بوجه خاص مما يوضح تطلعات بريطانيا للسيطرة عليه .

— B. 98, Confidential, Memorandum on the proposed Turkish Telegraph Line from Taiz to Aden, 12th April 1882.

تتعلق هذه الوثيقة بمشروع الترك الخاص بمد خط للبرق بين تعز وعدن فى سنة ١٨٨٢ ، ونظرا لأن هذا الخط كان سيمر عبر أراضى القبائل المرتبطة مع البريطانيين بمعاهدات صداقة وولاء ثم تحولت الى معاهدات حماية ، فقد عارض البريطانيين فى انشائه أثناء مفاوضتهم مع الترك لتحديد خط للحدود بين منطقتى نفوذ الجانبين فى جنوب اليمن حتى لا يشكل وجود الترك هناك تهديدا للبريطانيين ولمصالحهم فى عدن .

— B. 136, Confidential, Note by Sir Lee Warner on the Aden Demarcation, 18th June 1902.

تتناول هذه المذكرة موضوع تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ البريطانيين والترك فى الشطر الجنوبى من اليمن والجهود التى بدأتها السلطات البريطانية فى عدن فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر لتحديد خط يتفق ومتطلبات المصالح البريطانية ٠

— B. 137. Confidential, From W. Lee — Warner to Brigadier General P.J. Maithland, Resident at Aden, 20th July 1902.

ومرفق بهــذا الخطاب المذكرة التالية التى أعدها « البريجادير جنرال ميتلند » فى ٢٨ يولية ١٩٠٢ والتى يدور موضوعها أيضا حول تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ البريطانيين والأتراك فى جنوب اليمن ٠

— Aden Delimitation. The history of the question, and the present situation as regards the territories of the Amir of Dthali. P.J. Maitland, Brigadier General, Resident of Aden 28th July 1902.

— B. 140. Confidential. Aden Boundary by C.G.C., 20th January 1903.

وتتعلق هذه الوثيقة السرية أيضــا بموضوع تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن وخاصة فيما يتعلق بمنطقة يافع العليا وبالترتيبات الخاصة بتامين رجال البعثات البريطانية التى اشـــتركت فى المفاوضات مع الأتراك هناك ٠

— B. 158. Confidential. Aden Policy. Notes by Sir Lee — Warner and Sir Hugh Barners, 5th Sept. 1906.

— B. 209. Confidential, 2147, Abstract of Correspondence and Memorandum respecting the Yemen, January 1873. pp. 1-13.

تشتمل هذه المذكرة على وجهة النظر البريطانية فى موضوع احتلال عدن وموقف البريطانيين ازاء الوجود المصرى فى اليمن قبيل وبعد الاحتلال البريطانى لعدن حتى عام ١٨٤٠ ٠

— B. 211, The Sherif of Mecca (Communicated by Sir Rignald Wingate, G.C.V.C., and C.) by G.S. Symes, Captain Private Secretary, Erkweit, 19th July 1915.

تمثل هذه الوثيقة الخطاب المرسل فى ١٩ يوليو سنة ١٩١٥ من « الكابتن سيمز » الســكرتير الخاص فى اركويت (بالسودان) ومرفق به تقرير أعده ســير ريجنالد وينجت ٠ ويتعلق هذا التقرير بشريف مكة الحســين بن على من نواحى التعريف بأصوله وأسرته وشخصيته وآرائه السياسية وعلاقته بالأتراك من جهة ، وبالقبائل العربية وبابن الرشيد والادريسى والامام يحيى فى اليمن

من جهة أخرى ، وذلك ضمن خطة البريطانيين لاستقطاب زعماء منطقة البحر الأحمر الى جانبهم قبيل وفى مطلع الحرب العالمية الأولى ٠

— B. 213. Secret, Notes and private telegrem from the Victory regarding the future of Eastern Turkey in Asia and Arabia, 15th March 1915.

تتعلق هذه الوثيقة بالتسويات التى كان البريطانيون يعتزمون القيام بتنفيذها فى الممتلكات العثمانية الشرقية فى القارة الآسيوية بوجه عام وفى الجزيرة العربية بوجه خاص فى نهاية الحرب العالمية الأولى بما يوضح معالم سياستهم فى منطقة البحر الأحمر أثناء سنى الحرب ٠

— B. 215. Confidential, Sherif of Mecca, Despatch from A.H. McMahon to his Majesty's High Commissioner for Egypt to Sir E. Gray, The Residency, Ramleh, 26th August 1915.

تمثل هذه الوثيقة نص الخطاب السرى الموجه من « مكماهون » المندوب السامى البريطانى فى مصر الى « سير ادوارد جراى » فى ١٦ أغسطس سنة ١٩١٥ والذى أرفق به ترجمة للرسائل التى وردت اليه من شريف مكة ، وتقرير مبعوث الشريف ، واجابات المندوب السامى على الشريف حسين حينذاك ٠ وهذه الوثيقة ومرفقاتها توضح طبيعة الاتصالات التى تمت بين البريطانيين والحسين ضمن اتصالاتهم لاجتذابه — وكبار زعماء منطقة البحر الأحمر الى جانبهم لضرب الترك فى الحجاز على نحو ما فعلوه مع محمد الادريسى فى عسير بشمالى اليمن ٠

— B. 216. Secret., British Policy in the Yemen, Memorandum by Major General Sir G.J. Younghusband, K.C.I.E., C.B. Political Resident, Aden, and Lieutenant-Colonel H.F. Jacob, First Assistant Resident, Aden. Received at India Office as enclosure in Aden Residency Govering letter No. C. — 695 dated 23rd September 1915., pp. 1-7.

— Enclosure No. 1. Memorandum on the employment by Italians at Mogadiscio of Askaris from Arabia.

— Enclosure No. 2., Memorandum on the Political Policy of our Hinterland.

تمثل هذه الوثيقة نص المذكرة السرية المرسلة من « الميجور جنرال يونجها سبند » المقيم السياسى البريطانى فى عدن الى حكومة بومباى فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٥ وقد أرفق بها تقريرين أعدهما « هارولد جاكوب » المساعد الأول للمقيم السياسى هناك ، أولهما دار حول موضوع قيام الايطاليين فى مقديشيو بتجنيد عساكر من أبناء الجزيرة العربية ودعوته لحكومته لاتباع

ذلك . أما التقرير الثانى فيوضح خطة البريطانيين السياسية التى اتبعوها فى الأراضى اليمنية المتاخمة لعدن حتى سنة ١٩١٥ .

— **B. 222., Secret, Correspondence with grand Sherif of Mecca from 24th September 1914 to 10th March 1916, 16th pages.**

تمثل هذه الوثائق مجموعة من الرسائل السرية الهامة المتبادلة بين ممثلى الحكومة البريطانية والشريف حسين شريف مكة فى الفترة الممتدة من سبتمبر ١٩١٤ الى مارس ١٩١٦ ، وتدور حول الدور الذى قام به البريطانيون للاعداد لقيام الشريف حسين بالثورة ضد الأتراك وذلك ضمن الخطة البريطانية الخاصة باستقطاب زعماء منطقة البحر الأحمر وتحريضهم لضرب الترك هناك وفى المشرق العربى بوجه عام .

— **B. 232. Secret., From WM. C. Walton, Brigadier General, General Officer Commanding and political Resident, Aden, to the Secretary to the Government of India in the Foreign Department Simla, Headquarters, Aden, 29th May 1916.**

تمثل هذه الوثيقة رسالة سرية من « البريجادير جنرال والتون » القائد العام والمقيم السياسى البريطانى فى عدن الى سكرتير حكومة الهند فى ٢٩ مايو سنة ١٩١٦ . ويدور موضوعها حول توضيح طبيعة الموقف فى عدن والمنطقة المحيطة بها من النا حيتين السياسية والعسكرية فى العامين الأولين من الحرب العالمية الأولى ، كما يوضح الاحتمالات المتوقعة فى حالة قيام الشريف حسين بثورته ضد الترك وموقف الامام يحيى فى جبال وسط اليمن والادريسى فى عسير حتى تتخذ السلطات البريطانية فى عدن الاحتياطات اللازمة لحماية المصالح البريطانية فى منطقة البحر الأحمر فى ذلك الحين .

(ثالثا) سجلات البرلمان البريطانى :

— **Parliamentary Papers :**
F. 126. Correspondence Respecting Turkish proceedings in the Neighbourhood of Aden. Presented to both Houses of Parliament of Her Majesty's 1872-1974.

تضم هذه المجموعة من الوثائق فحوى المراسلات المتبادلة بين الحكومتين البريطانية والعثمانية ، وبين سفيرى الدولتين وحكومتيهما ، فضلا عن المراسلات المتبادلة بين الحكومة العثمانية ووالى اليمن العثمانى من جهة ، والمراسلات المتبادلة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند وحكومة بومباى والمقيم السياسى البريطانى فى عدن من جهة أخرى . بل انها ضمت كذلك المراسلات المتبادلة بين والى اليمن العثمانى وحكام امارات جنوب اليمن ، وبين هؤلاء والمقيم السياسى

البريطانى فى عدن . ومن خلال هذه الوثائق يمكن تتبع بداية ظهور النزاع العثمانى البريطانى فى جنوب اليمن والاتصالات التى جرت لتلافى وقوع أى صدام بين الجانبين وخاصة عند عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ .

(ب) وثائق منشورة :

— Great Britain Foreign Office :

«Handbooks prepared under the direction of Great Britain Foreign Office — Historical Section».
. The Persian Gulf, No. 67.
. Turkey in Asia, No. 58 London, 1920.

— Diplomatic Blue Books 1814 — 1914, oondon, 1938.

— British Admiralty :
. The Persian Gulf Pilot.
. A Handbook of Arabia. London, 1916.

— Hansard's Parliamentary Debates, Houses of Commons and Lords, 1830 — 1920.

— Correspondence Respecting Abyssinia, (1846 — 1868). Presented to the House of Commons.

— Aitchison, C.U. :
A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, 12, vol. Calcutta 1892.

Vol. X. — Containing treaties etc. Relating to Persia and the Persian Gulf.

Vol. XI — Containing treaties etc. Relating to Turkish Arabia, Maskat, Aden, and Adjacent coast and Zanzibar.

— Goech and Temperley :
British Documents on the Origins of the War, 1898 — 1914. London, Printed and purchased by Her Majesty's Stationary Office, 1938, Vol. IV — X.
Vol. IV — The Anglo Russian Re-Approachment.
Vol. X — Part II. The last years of peace.

— Hertslet, Sir Edward :
The Map of Africa by Treaty, 3 vols., London, 1909.

— Hertslet Commercial Treaties, 30 vols., London, 1923 — 1924.

— Holland, T.E. :
The European Concert in the Eastern Question. (A collection of treaties and other public acts). Oxford.

— Temperley, H.W. and Penson, L.M. :
Foundations of British Foreign Policy from Pitt 1792 to Salisbury 1902, Cambridge 1938.

— Hurowitz, J.C. :
Diplomacy in the Near and Middle East, two vols. New York, 1956.

— United Nations : The trust territory of Somali and under Italian Administration, 1952.

— United Nations : Four Powers Commission of investigation for the former Italian Colonies, Vol. I. Report on Fritria.

— Shukry, M.F. :

Equatoria under Egyptian rule. The unpublished correspondence of Col. (afterwards Major-General). C.G. Gordon with Ismail Khedive of Egypt and Sudan, years 1874-1876, with Introd. and Notes. Cairo 1953.

— Stanton, E.A. :

Secret letters from the Khedive in connection with an occupation of the East Coast of Africa. Journal of the Royal African Society, vol. 34, London, 1935.

— Ministère des Affaires Etrangères :

Documents Diplomatiques Français, 1871 — 1914. Commission de publication des documents relatifs aux origines de la guerre de 1914, Paris 1938.

1ère Série 1871 — 1901, Tome VII.

2ème Série 1901 — 1911. Tome VI, IX

Documents Diplomatiques Français :

(1871 — 1914), Première Série
(1871 — 1900), Tome II (Paris 1930).

— Guillain, M. :
Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique Orientale.
Paris, 1856.

— Ortrey, Van :
Conventions internationales définissant les limites actuelles des possions, protectorats et sphères d'influence en Afrique.
Paris 1898.

وثائق ايطالية

— Assab et les limites de la souveraineté turque-égyptienne dans la Mer Rouge. (Mémoire du gouvernement italien, Mars 1882), Rome.

وثائق المانية

— German Diplomatic Documents 1871 — 1914. Four vols., Selected and translated by E.T.S. Dugdale, London, 1923-1931.

وثائق اسبانية

— A Red Book on Gibraltar issued by the Spanish Government. (It contents of a long series of documents, preceded by a report). Madrid, 1965.

المؤلفات TEXTS

Alvarez, Father Francisco : Narrative of the Portugueuse Embassy to Abyssinia during the years 1520-1527, translated and edited by Lord Stanley of Alderly, London, Haklpyt Society, 1881.

Allen, B.M. Gordon and the Sudan, London 1931.

Rihani, Ameen :
— Arabian Peak and Desert, Travels in Al Yemen, London, Constable and Co. Ltd. 1930.
— Around the Coast of Arabia.
— Ibn Sa'ud of Arabia.

Andrew, W.P. The Euphrates Valley Railway, Letters addressed to Her Majesty's Secretaries of State for Foreign Affairs and for India, London, 1870.

Anglovant, G. and Vigneras, Sylvain, Djebouti, Mer Rouge et Abyssinie, Paris, Librairie Africaine et Coloniale, 1902.

Ashton, T.S. : The Industrial Revolution, Geoffrey Cumberlege, Oxford University Press.

Barker, Lieutenant W. :

— « Narrative of a journey to Shoa » in Forrest, George W., ed., Selections from the Travels and Journals preserved in the Bombay secretariat, Bombay, Government Central Press, 1906.

— «Report on the probable geographical position of Harrar», J.R.G.S. Vol. XII, 1842.

— «On Eastern Africa» J.R.G.S., Vol. XVIII, 1848.

Baren, S.W. A Social and Religious History of the Jews, Columbia University Press, 1937.

Barton, T. and Hume, W.F. : Topography and Geology of the Eastern Desert of Egypt, Cairo 1902.

Beck, Charles T. : « On the Countries South of Abyssinia », J.R.G.S., Vol. XIII, 1843.

— The French and English in the Red Sea, London, 1862.

— A Statement of facts relative to the transactions between the writer and the late British Political Mission to the Court of Shoa in Abyssinia, London, Madden, 1846, Second ed.

— The British Captives in Abyssinia, London Longmans, 1867, second ed. (the first ed. is a brief pamphlet).

Beke, (Mrs.) Emily (Alston), Summary of the Late Dr. Beke's published works and of his inadequately required public services, Tunbridge Wells, Baldwin, 1876.

Berkeley, George : The Campaign of Adowa and the Rise of Menelik, London, 1935.

Bindoff, S.T. : Tudor England, 1964.

Blanc, Henry, A Narrative of Captivity in Abyssinia, London, Smith, 1868.

Bronton, E.P. : Naval History of Great Britain.

Brémond, E. : Yémen et Saoudia. Charles Lavauzelle et Cie, Paris, 1ère éd., 1937.

Brockelmann, C. : History of the Islamic Peoples.

Browne, Edward G., Literary History of Persia, Cambridge, University Press, 1928, Vol. I., To 1000 A.D.

Bruce, James, Travels to discover the sources of the Nile, 1768 — 73, Dublin, Sleater, 1790, 6 vols.

Budge, E.A. Wallis, History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, London, Methuen and Co., 1928, 2 vols.

Burckhardt, John Lewis,

— Travels in Arabia, London, Colburn, 1829 2 vols.

— Travels in Nubia, London, Colburn, 1819, 2 vols.

— Notes on the Bedouins and Wahabys, London, Colburn and Bentley, 1831, 2 vols.

Burns, Emile : Abyssinia and Italy, London, 1935.

Burton, Richard F.,

— First Footsteps in East Africa, London, Longmans, 1856.

— Narrative of a Trip to Harar, J.R.G.S. Vol. XXV, 1855.

Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, Macmillan and Co., London, 1915. (It includes chapters on natural history and agricultural products).

Cambridge History of India (Dodwell, H.H., ed.), Vol. V, British India 1497-1858, Cambridge University Press, 1929.

Chaillé-Long :

— My life in four Continents, London, Hutchison 1912.

— L'Egypte et ses provinces perdues. Paris 1892.

— Les Trois Prophètes : Le Mahdi, Gordon, Arabi, Paris, 1886.

CharlesRoux, François, Les Origines de l'Expédition d'Egypte, Paris, Plon-Nourrit et Cie., 1910.

— L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte au 18ème siècle.

Castounet des Fosses : L'Abyssinie et les Italiens.

Combes, Edward, and Tamisier, M. : Un Voyage en Abyssinie, Paris, Dessert, 4 vol., 1838.

Coupland, Sir Reginald :

— The British Anti-Slavery Movement, Thernton Dutterworth, London, 1933.

— East Africa and its Invaders, Oxford, Clarendon Press, 1938.

— The Exploitation of East Africa 1856-1890, London, Faber and Faber, 1939.

Crabités, P. : Americans in the Egyptian Army.

Crichton, A. : History of Arabia, Ancient and Modern, Edinburgh 1834.

Cromer : Report on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Sudan in 1904, April 1905.

Cruttenden, Lieutenant C.J. :

— «A memoir on the Western or Eddor Trible of the Somali Coast». J.R.G.S. Vol. XIX, 1849.

— «Note on the Myjertheyn Somalis», J.A.S.B., Vol. XIII, Part I, 1844.

Dames, M. Longworth : The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the sixteenth Century, Journal of the Royal Asiatic Society, Part 1, January 1921, London.

D'Abbadie, Arnauld : Douze ans dans la Haute Ethiopie (Abyssinie), Paris, 1868.

De la Rocque, Jean, A Voyage to Arabia the Happy, London, Strahan, 1726.

Deschamps, Hubert : Côte des Somalis, Paris 1948.

Dodwell, Henry H., The Founder of Modern Egypt, Cambridge, University Press, 1931.

Douin, G. :

— Histoire du règne du Khédive Ismail, tome III, L'Empire Africain. Le Caire 1941.

— Histoire du Soudan Egyptien.

Military Science Dye, W. Mc. E. : Moslem Egypt and Christian Abyssinia, or
Duarto Barbosa : A description of the coasts of East Africa and Malabar
in the beginning of the sixteen century, translated by Henry E.J. Stanley.
Dufton, Henry, Narrative of a Journey through Abyssinia, London, Chap-
man and Hall, 1867, second ed.

under the Khedive in his provinces beyond the Borders as experienced by the American Staff. New York, Attain and Prout, 1880.

Exupère de Prats de Mo :

— Aden et le Golfe d'Aden, Letters, Tours, Maine, 1871.

— « Voyages à Aden et sur la Côte Orientale d'Afrique », Revue du Monde Catholique, August 10, 25, September 10, 1868, Vol. VII.

Fauchille, Paul : Traité de Droit International Public.

Fathalla & Khatib : British Penetration and Imperialism in Yemen, New York, 1958.

Ferret, Pierre Victoire, Galinier, Joseph-Germaine, Voyage en Abyssinie, Paris, Paulin, 1847, 2 vols.

Fisher, H.A.L. : History of Europe, London, 1945.

Forrest, George W., Selections from the Travels and Journals preserved in the Bombay Secretariat, Bombay, Government Central Press, 1906.

Fortescue, J.W. : A History of the British Army, Vol. V. (1807 — 1809).

Foster, Captain R., « Short Topographical and General Description of Aden », Transactions of the Bombay Geographical Society, 1830-1839, Vol. II.

Foster, D., Landscope with Arabs, Clifton Book, 1969.

Fumagalli, G. : Bibliographia Ethiopica, Florance, Hoepli, 1893.

Gay, Jean : Bibliographie des ouvrages relatifs à l'Arabie, San Remo, J. Gay et Fils, 1875.

George, Hereford B. : A Historical Geography of the British Empire, Seventh edition, 1924, Methuen and Co. Ltd., London.

Ghorbal, S. : The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali.

Gobat, Samuel, Journal of three years residence in Abyssinia, New York, Dodd, 1850.

Goldsmith, Colonel Sir Fredrick J., Telegraph and Travel, London, Macmillan, 1874.

Graham, Captain A.B. :

— «A Report on the produce of Shoa» J.A.S.B. Vol. XIII, Part I. 1844.

— «Report on the manners etc., of the people of Shoa», J.A.S.B., Vol. XII, Part 2., 1843.

Graham, Gerald S. : Great Britain in the Indian Ocean, A study of Maritime Enterprise 1810 — 1850, Oxford, at the Clarendon Press 1967.

Grossland, C. : Some Coral Formations, P.M.B.S , Chardaga, No. I.

Haji Khalifeh : The History of the Maritime Wars of the Turks, translated by James Mitchell, A.J. Valpy.

Hall, John James, Life and Correspondence of Henry Salt, London, Bentley, 1834, 2 vols.

Hallberg, Ch. : The Suez Canal, New York 1931.

Hammer, J. : Histoire de l'Empire Ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours, Tomes 5, 6, 9, 17, Paris, Bellizard, Balthes, Dufour et Lowell, 1836.

Haines, Captain Stafford B. :

— « Memoires on the South and East Coast of Arabia », J.R.G.S. Vol. XI, 1845.

— « Memoir to accompany a chart of the entrance to the Red Sea », J.R.G.S., Vol. IX, 1839.

— « An Account of an excursion in Hadramaut by Adolphe Baron von Werde», J.R.G.S., vol. XIV, 1844.

Hanotoux, Gabriel et Martineau, Alfred :

— Histoire des Colonies Françaises et de l'Expansion de la France dans le Monde, Paris 1931.

— Histoire de la Nation Egyptienne.

Hantze, Margot : Pre Fascist Italy.

Harris, W.B. : A Journey through the Yemen, and some general remarks upon that country, London, 1893.

Harris, Major W. : Cornwallis, The Highlands of Ethiopia, London, Longmans, 1844, 2 vols.

Head, Captain C.F., Eastern and Egyptian Scenery, Ruins, and C., London, Smith Elder and Co., 1833. This contains an excellent economic analysis of the Red Sea route entitled «Steam Navigation from England to India».

Heikanbothan, T. : Aden, Constable, 1958.

Henry, George A., March to Magadala, London, Sinsley, 1868.

Hill, R.L., A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the earliest times to 1937.

Hogarth, David George : Arabia, Clarendon Press, Oxford, 1922, First Ed.

Holland, Major Treven, J. and Hozier, Captain Henry H., Record of the expedition to Abyssinia, London, W. Clowes and Sons, 1870, 3 vols.

Holland, T.E. : The European Concert in the Eastern Question., Oxford 1885.

Hollingsworth, L.W. : Zanzibar under the Foreign Office, 1890-1913, London, 1953.

Hoskins, Halford L. :

— British Routes to India, London, Longmans Green, 1928.

— «The Growth of British Interest in the Route to India.», Tufts Coll., Mass., U.S.A. Journal of the Indian History, II.

— «Background of the British Position in Arabia». The Middle East Journal, Vol. I, No. 2, April 1947.

Hotten, John Camden : Abyssinia and its people of life in the land of Prester John, London John Camden Hotten, 1868..

Hozier, Captain Henry M. : The British Expedition to Abyssinia, London, Macmillan, 1869.

Hunter, Major F.M. :

— An account of the British settlement at Aden, London, Trubner and Co., 1877.

Hunter, F.M. and Sealey, C.W.H. :

— An account of the Arab Tribes in the Vicinity of Aden, Bombay, Government Central Press, 1886.

Husney, Hussein : Le Canal de Suez et la Politique Egyptienne, Montpellier, 1923.

The Hydrographic Department, Admiralty, «Red Sea and Gulf of Aden Pilot», London, 1955.

Ingrams, Harold :

— The Yemen, Imans, Rulers and Revolutions, London, Camelot Press, 1963.

— Arabia and the Isles, London 1966 edition.

Irwin, Eyles : A series of adventures in the course of a voyage up the Red Sea. London, Dodsley, 1780.

Jackson : European Powers and South East Africa, Chap. VIII. Zanzibar, Muscat and the Powers.

Jacob, Lieutenant Colonel Harold F. : Kings of Arabia, London, Mills and Boon, 1923.

Jacob, S. : History of the Ottaman Empire.

Johnston, Charles :

— Travels in Southern Abyssinia, London, Madden, 1844. 2 vols.

— The View from Steamer-point.

Johnston, Sir Harry :

— History of the Colonization of Africa by alien races, Cambridge 1899.

— Britain across the Seas, 1911.

Jones and Monroe : History of Abyssinia, Oxford 1939.

Kindrew, W.G. : The Climates of the Continents, Oxford 1947.

Kammerer, Albert : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Le Caire, l'Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, pour la Société Royale de Géographie d'Egypte, 1929-1935. (Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Egypte, Tomes XV-XVI).

King, Lieutenant J.S., A Descriptive and Historical Account of the British

outpost of Perim, Bombay, Government Central Press, 1877. Selections from the Records of the Bombay Government, New series, CXLIX.

Kirk, G.E. : A Short History of the Middle East, from the Rise of Islam to Modern Times. Sixth Revised Edition, Frederick A. Praeger, Pubblishers, New York, 1960.

Kirk, Surgeon R. : «Report on the route from Tajura to Ankobar, J.R.G.S., Vol. XII, 1842.

Krapf, J. Lewis : Travels, Researches and Missionary Labourers, London, Trubner, 1960.

Langer, W. : The Diplomacy of Imperialism, 1890 — 1902, New York, 1951.

Lefebvre, Charlemagne Théophile : Voyage en Abyssinie 1839-1843, Paris, Bertrand, 6 vols and atlas.

Leijean, Guillaume : Théodore II, Le Nouvel Empereur d'Abyssinie, Paris, Amyot, N.D., 1865.

Lenczowski, George : The Middle East in World Affairs, Third Edition, Cornell University Press, Ithoca, New York. 1962.

Little, Tom : South Arabia — Arena of Conflict, London Pall Mall, 1968.
Longrig, S.H. :

— Four Centuries of Modern Iraq. Oxford, 1925,

— A Short History of Eritria. Oxford, 1945.

Loring, General W.W., A Confederate Soldier in Egypt. New York, Dodd, Mead, 1884.

Low, Charles R., History of the Indian Navy 1613 — 1863, London, Bentley, 1877, 2 vols. Prepared, with official sanction, from the Records of the Indian Navy preserved in the India Office in London.

Macolmson, J.P. : «An Account of Aden», Journal of the Royal Asiatic Society, 1846, Vol. VIII.

Morder : British Naval Policy.

Markham, Clements R. : History of the Abyssinian Expedition, London, Macmillan, 1869.

Marston, Thomas E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, 1800 — 1878. The Shoe String Press, Inc. Hamden, Connectincut, U.S.A.

Martineau, Alfred : La Côte des Somalis, Paris, Plon, 1931.

Martineau, John, Life and Correspondence of Sir Bartle Frere, London, Murray, 1895, 2 vols.

Mengin, Félix : Histoire de l'Egypte, 1828-1838. Paris, Firmin Didot, 1839. (Contains Jomard, M., « Arabie », A description of Mehemet Ali's Campaigns in Arabia).

Miles, Samuel B. : «Report on a Portion of the African Coast». (Somali), Transactions of the Bombay Geographical Society 1873-4, Vol. XIX reprinted in J.R.G.S. Vol XLII.

— «Journal of a Trip with Munzinger», Transactions of the Bombay Geographical Society 1873-4, Vol. XIX reprinted in J.R.G.S., Vol. XLI.

Mookerji, Radhakumuda, India Shipping, Bombay, etc., Longmans Green, 1912.

Mordicai Epstein : Early History of the Levant Company.

Moypenny and Buchle : Life of Disraeli.

Munizinger, Werner : Narrative of a journey through the A far Country, « Journal of the Royal Geogr. Society, Vol. 39, 1869 ».

Niebuhr, Karsten : Description de l Arabie, trans. Minrier, Ferdinand-Luis, Amsterdam and Utrecht, S.J. Bualde, 1774.

The Origin «Beschriebung Von Arabien, Copenhagen 1772.

Nouvelles Annales des Voyages, 1838, Vol. LXXVIII, Review of un voyage en Abyssinie by Combes and Tamisier, pp. 293 ff.

Officer in the Queen's Army, « anonymous », A Historical and Statistical Sketch of Aden in Arabia Felix, Madras, Twigg, 1848.

Oliver, Samuel Passifield, Madagascar, London, Macmillan, 1886, 2 vols.

Parkyns, Mansfield, Life in Abyssinia, London, Murray, 1853, 2 vols.

Pavic, Th. M., « La Mer Rouge et le Golfe Persique », Revue de deux Mondes, 1844.

Philips, C.H. : The East India Company (1784-1834).

Panikkar, K.M. : Asia and Western Dominance, A survey of Vasco da Gama Epock of Asian History, 1489 — 1945, London, George Allen and Unwin Ltd., 1955.

Playfair, Captain Rebort Lambert :

— A memoir on the ancient reservoirs lately discovered and now in the course of restoration at Aden, Aden, Jail Press, 1857.

— A History of Arabia Felix or Yemen, «from the Commencement of the Christian Era to the present time, including an account of the British settlemeat of Aden», Bombay, Government Central Press, 1859, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series Number XLIX.

— An Account of Aden, reprinted in the History of Arabia, Felix, Aden, Jail Press, 1859.

Niebuhr, Karsten : Description de l'Arabie, trans. Minrier, Ferdinand-Luis, Amsterdam and Utrecht, S. J., Bualde, 1774.

The Origin «Beschriebung Von Arabien, Copenhagen 1772.

Nouvelles Annales des Voyages, 1838, Vol. LXXVIII, review of un voyage en Abyssinie by Combes and Tamisier, pp. 293 ff.

Officer in the Queen's Army, «enanymous, A Historical and Statistical Sketch of Aden in Arabia Felix, Madras, Twigg, 1848.

Oliver, Samuel Passfield, Madagascar, London, Macmillan, 1886, 2 vols.

Parkyns, Mansfield, Life in Abyssinia, London, Murray, 1853, 2 vols.

Pavic, Th. M., «La Mer Rouge et le Golfe Persique», Revue de deux Mondes, 1844.

Philips, C.H. : The East India Company (1784 — 1834).

Panikkar, K.M. : Asia and Western Dominance, A survey of Vasco da Gama Epock of Asian History, 1489 — 1945, London, George Allen and Uuwid Ltd., 1955.

Playfair, Captain Rebort Lambert :

— A memoir on the ancient reservoirs lately discovered and now in the course of restoration at Aden, Aden, Jail Press, 1857.

— A History of Arabia Felix or Yemen, «from the Commencement of the Christian Era to the present time, including an account of the Britsh settlement of Aden», Bombay, Government Central press, 1859, Selections from the Records of the Bombay Government New Series Number XLIX.

— An Account of Aden, reprinted in the History of Arabia Felix, Aden, Jail Press, 1859.

Plowden, Walter Chichele (Plowden, Trevor C., editor), Travels in Abyssinia, and the Galla Country, London, Longmans, 1868.

Poilet, J.B. : Les Missions Catholiques Françaises aux XIXème siècle, Paris, Librairie Armand Colin, N.D., Vol. II, Abyssinie, Inde, Indo-Chine, N. D., C. 1900.

Prestage, Edgar : The Portuguese Pioneers, London, A. and C. Black Ltd., 1933.

Rabbath, Edmond · Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans l'évolution du Droit International, Société Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962. 1962.

Rambaud, Alfred : La France Coloniale, Paris, Armand Colin, 1895, seventh ed.

Rassam, Hormudz, Narrative of the British Mission to Theodore King of Abyssinia, London, Murray, 1869, 2 vols.

Ravier, Theodore : L'Ethiopie et l'expansion européenne en Afrique Orientale.

Rawlinson, H.G. : British Beginnings in Western India, 1579 — 1657.

Reilly, Sir Bernard : Aden and the Yemen. Her Majesty's Stationary Office, London 1960.

Rihani, Ameen :

— Arabian Peak and Desert, Travels in Al Yemen, London, Constable and Co. Ltd. 1930.

— Ibn Seoud of Arabia.

Robinson, Arthur E. : « Egyptian-Abyssinian War 1874 — 6 », Journal of the African Society, 1927, Vol. XXVI.

Rochet d'Heriocourt, Charles E.,

— Voyage sur la Côte Orientale de la Mer Rouge, dans le Pays d'Aden et le Royaume de Shoa, Paris, Bertrand, 1841.

— Second Voyage sur les Deux Rives de la Mer Rouge... Et le Royaume de Shoa, Paris, Bertrand, 1846.

Ross, E. Denison : The Portuguese in India and Arabia between 1507 — 1517, 1517 — 1538. Journal of the Royal Asiatic Society, London.

Rostovtzeff, Mekhail I., Caravan Cities, Oxford, Clarendon Press, 1932.

Ruppel, Eduard, Riese In Abyssinien, Frankfurt-an-Main, Scherber, 1838. 2 vols.

Russell, Stanislas : Une Mission en Abyssinie et dans la Mer Rouge, Plon, Paris, 1884.

Sabry, Mohammed :

— L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la Question d'Orient, 1811-1849, Paris, Guenther, 1930.

— L'Empire Egyptien sous Ismail 1863-1879, Paris, Guenther, 1933.

Safwat, M.M., Tunis and the Great Powers, Alexandria, 1943.

Salt, Henry : Voyage to Abyssinia and travels into the interior of that country. Rivington, London 1814.

Sammarco, Angelo, Histoire de l'Egypte Moderne, Tome III, « Règne du Khédive Ismail », Le Caire, Société Royale de Géographie d'Egypte, 1937.

Sanoeau, Elaine, Land of Prester John, New York, Knopf, 1944.

Sanger, Richard H. : The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr., New York, 1954, First Pub.

Sanguinetti, Joseph : Pénétration européenne en Ethiopie, 1885-1906. Montpellier, 1907.

Schoff, Wilfred H., Periplms of the Erythraean sea. New York, Longmans Green, 1912.

Scott, Hugh, (Dr.) :

— The Yemen in 1937-38. Journal of the Royal Central Asian Society, Vol. 27, 1940.

— In the High Yemen, Murray, 1942.

Seifeddean I.N. : England's Opposition to the Suez Canal Project.

Serjeant, R.B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, Hadrami Chronicles with Yemeni and European Accounts of Dutch Pirates off Mocha in 17th Century, Oxford, Clarendon Press, 1963.

Shepherd, A.F., Campaign in Abyssinia, Bombay, 1868.

Shibeika, M. : British Policy in the Sudan 1882-1902, London 1952.

Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan 1863 — 1879. Cairo 1938.

Simoin, M.L. : La Presqu'île d'Aden et la politique anglaise dans les Mers Arabiques, Paris, J. Claye 1867.

Stephens, H. Morse : Portugal, Lonaon, T. Fisher Unwin, 3 Edition, 1891.

Stern, Henry A., «Journal of a trip to Sana,» Jewish Intelligence, 1857, vol. XXIII, in Missionary intelligence section, April, May, and August, 1857.

— Wanderings among the Falashas in Abyssinia London, Wirth-kerim, 1862.

— Abyssinian Captives, Recent Intelligence, London, Privately prin-ted, N.D. 1866.

— Captive Missionary, London, Cassell, 1869.

Stripling, G.W.F. : The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574, Univer-sity of Illinois Press. Urbana, U.S.A.

Touval, Saadia : Somali Nationalism, Ph. D. Thesis, Harward, 1963.

Thremenheere, Major General C.W., Report on the Various Arab Tribes in the Neighbourhood of Aden, Calcutta, Foreign Department Press, 1872, Written by Captain W.F. Preideaux and incorporated in toto in Hunter and Sealey, Account of the Arab Tribes, Vide supra.

Valentia, Lord (Later Mountnorris, Lord), Voyages and Travels to India, Ceylon, the Red Sea, Abyssinia and Egypt in the years 1802-1803-1804-1805-1806, London, Miller, 1809, 3 vols.

Velay, Etienne : Les Rivalités Franco-Anglaises en Egypte 1876-1904.

Vincent, William (trans. and ed.),

— Periplus of the Erythraean Sea, London, Cadell and Davies, 1800, 2 vols.

— Commerce and Navigation of the Ancient in the Indian Ocean (translation of periplus Maris Erythraei), London, Cadell and Da-vies, 1807, 2 vols.

Von Heuglim, Martin Theodore, Reise Nach Abessinien, Jena, Castenoble, 1868.

Walda Maryam, Alaqa (trans. Mondon-Vidalhet, C.), Chronique De Theodore II, Paris, 1904, (The Complete work from 1853 — 1868).

Walda Maryam, Alaqa, (trans. Weld-Blundell, H.), «History of King Theodore, «Journal of the African Society, Vol. VI., 1907 (Contains only latter part of the Chronicle from 1863 — 1868).

Ward, Barbara : Italian Foreign Policy. (Oxford pamphlets on World Affairs. No. 48). 1942.

Waterfield, Gordon : Sultans of Aden, John Murray, London 1968.

Wellested, Lieutenant J.R.

— Travels to the City of the Caliphs, Etc., London, Colburn, 1840, 2 vols.

— Travels in Arabia, London, Murray, 1837, 2 vols.

Wilkins, Lieutenant H. St. C. : «Extracts from a Report on attempts made to supply Aden with water,» Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, Vol. V, 1857.

Wilson, Arnold T. :

— The Persian Gulf, an Historical sketch from the earliest times to the beginning of Twentieth Century, London, George Allen and Unwin Ltd., Second Impression, 1945.

— The Süez Canal, London, 1939.

Wilson, J.H. : Facts connected with the Origin and Progress of Steam Communication between India and England, London 1850.

Woodward, E.L. : History of England.

Woodward, E.L., and Butler, Rohan eds.
: Documents on British Foreign Policy, 1919 — 39. 1st. ser vol. IV. 1919. London, H.M. Stationery Office, 1952.

Woolfe, Leonard : Empire and Commerce in Africa, New York 1920.

PERIODICALS الدوريات

— Allen's Indian Mail, 1843 — 1860.
— Asiatic Journal, Vol. XXVIII, April, 1839.
— Blackwoods Magazine, Vol. LIII, April, 1843.

— Bulletin du Comité de l'Afrique Française, Paris, 1908.
— Correspondance d'Orient, Revue Economique, Politique, Littéraire, Vol. I., 1911. 15/2/1911, 25/7/1916.
— The Illustrated London News, 1839.
— Journal of Indian History, II.
— Journal of the Royal Asiatic Society, Part I, January 1921.
— Journal of the Royal Geographical Society.
— Journal of the Royal Central Asian Society.
— The Middle East, A political and Economic Survey, 1958.
— The Middle East Journal, Vol. I, No. 2.
— The Pall Mall Gazette, London, 1864-1868.
— Revue du Monde Musulman, Mission du Moroc, Paris. Vol. IV, No. 1, Vol. IX, No. 9, vol. XXV, No. 12, 1906-1913.
— Survey of International Affairs : Royal Institute of International Affairs. Vol. I, 1925-1928.
— The Times, London, 1864 — 1868.

ENCYCLOPAEDIAS المعارف العامة

— The Encyclopaedia Britanica, 1960.
— The Encyclopaedia Americana, 1962.
— The Encyclopaedia of Islam.

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٣٥٩٣
ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٣٥٩ - ×